دراسات في تاريخ الجزيرة العربية
الكتاب الخامس

الجزيرة العربية

من قيام الدولة العباسية
حتى نهاية القرن الرابع الهجري

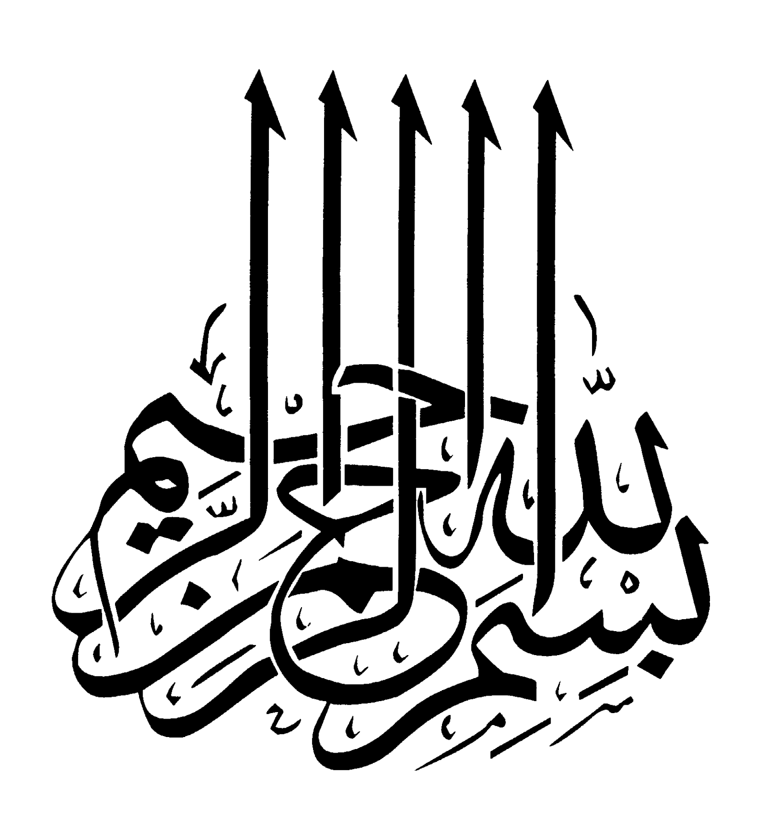
الجزء الأول

هيئة التحرير

أ.د. عبد العزيز بن صالح الهلابي

أ.د. احمد بن عمر الزيلعي   أ.د. محمد بن فارس الجميل

أ.د مشلح بن كميخ المريخي   أ.د. خالد بن عبد الكريم البكر


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كلية الآداب قسم التاريخ

الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري/كلية الآداب قسم التاريخ - الرياض، ١٤٢٦هـ

٢ مج

ردمك : ٤ - ٩٢٦ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٢ - ٩٣٠ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (ج١)

١- الجزيرة العربية - تاريخ- العصر العباسي أ- العنـوان

ديوي ٩٥٣,٧٣٩١ ١٤٢٦/٦٠٤٣

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٦٠٤٣

ردمك : ٤ - ٩٢٦ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٢ - ٩٣٠ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (ج١)

النشر العلمي والمطابع ١٤٢٧هـ

دراسات في تاريخ الجزيرة العربية

الكتاب الخامس

الجزيرة العربية

من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري

(الجزء الأول)

المحتويات

(الجزء الأول)

(الجزء الثاني)

دراسات تاريخ في الجزيرة العربية

هـــذا عـــنوان لسلســـلة من الدراسات في تاريخ الجزيرة العربية، تحتوي على الأبحاث التي قدمت في الندوات العالمية الخمس. كانت الندوة الأولى نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب، بجامعة الملك سعود (الرياض آنذاك) في جمادى الأولى ١٣٩٧هـــ (أبــريل/ نيسان ١٩٧٧م)، وموضوعها: "مصادر تاريخ الجزيرة العربية" ويحوي أبحاثها الكتاب الأول في جزأين.

أما الندوة العالمية الثانية فكان قد اشترك في الإعداد لها وعقدها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بالكلية ذاتها، في جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (أبريل/نيسان ١٩٧٩م) وموضوعها:

"الجزيرة العربية قبل الإسلام" ويضم أبحاثها الكتاب الثاني.

أمــا الــندوة العالمــية الثالثة التي نظمها القسمان فعقدت في الفترة ١٥-٢١ محرم ١٤٠٤هـ (٢١-٢٧ أكــتوبر/تشرين الأول ١٩٨٣م)، وموضوعها: "الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين"، ويضم أبحاثها الكتاب الثالث بجزئين.

وأمــا الندوة العالمية الرابعة التي نظمها القسمان وعقدت في الفترة ٧-٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ (١٣-١٥ فــبراير/ شــباط ٢٠٠٠م) وموضوعها: "الجزيرة العربية في العصر الأموي"، فإن أبحاثها يضمها الكتاب الرابع بجزء واحد.

وأما الندوة العالمية الخامسة التي نظمها القسمان فقد عقدت في الفترة ٢١- ٢٣ محرم ١٤٢٤هـ (٢٤- ٢٦ مــارس/ آذار ٢٠٠٣م) وموضوعها: "الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، ويضم أبحاثها هذا الكتاب وهو الكتاب الخامس من حيث التسلسل.

والقســـمان يعدان الآن لعقد الندوة العالمية السادسة لتاريخ الجزيرة العربية وموضوعها: "الجزيرة العربية من بداية القرن الخامس حتى نهاية القرن السابع الهجري"، وسوف تنشر أبحاثها في الكتاب السادس إن شاء الله.

لجان النـدوة

أولاً: اللجنة التحضيرية

١ – أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	رئيساً
٢ – د. عويضة بن متيرك الجهني	رئيس قسم التاريخ	نائباً للرئيس
٣ – د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	نائباً للرئيس
٤ – د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	مقرراً للجنة
٥ – أ. د. عبدالله بن محمد السيف	قسم التاريخ	عضواً
٦ – أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٧ – أ. د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضواً
٨ – أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضواً
٩ – د. عبدالله بن إبراهيم العسكر	قسم التاريخ	عضواً
١٠ – د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضواً
١١ – د. عبدالله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضواً
١٢ – د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس	قسم التاريخ	عضواً
١٣ – د. عبدالله بن إبراهيم العمير	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٤ – د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	عضواً
١٥ – د. خالد بن عبدالكريم البكر	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٦ – د. طلال بن محمد الشعبان	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٧ – د. عبدالله بن عبدالرحمن الدوسري	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

ثانياً: اللجنة العلمية

١ – أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	رئيساً
٢ – أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٣ – أ. د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضواً

٤- د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٥- د. عبدالله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضواً
٦- د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضواً

ثالثاً: أمانة الندوة

١- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	أميناً
٢- أ. نايف بن عبيد ثنيان الحربي	قسم التاريخ	عضواً

رابعاً: اللجنة المالية

١- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	مقرراً
٢- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

خامساً: لجنة البرنامج

١- أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	رئيساً
٢- أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضواً
٣- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	عضواً
٤- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

سادساً: لجنة العلاقات

١- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	رئيساً
٢- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٣- أ. بندر البصيص	الإدارة العامة للإعلام والعلاقات الجامعية	عضواً
٤- أ. نايف بن عبيد ثنيان الحربي	قسم التاريخ	عضواً
٥- أ. عادل بن هزاع القحطاني	قسم التاريخ	عضواً

مقدمو الأبحاث عند انعقاد الندوة

(أسماء مقدمي الأبحاث وعناوينهم عند انعقاد الندوة)

البابطين، د. إلهام أحمد

قسم التاريخ -مركز الدراسات الجامعية للبنات- جامعة الملك سعود -الرياض

بطانية، أ. د. محمد ضيف الله

قسم التاريخ -جامعة اليرموك- إربد- المملكة الأردنية الهاشمية

البكر، د. خالد بن عبدالكريم

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

بوتشيش، أ. د. إبراهيم القادري

قسم التاريخ -جامعة مولاي إسماعيل- مكناس -المغرب

البيطار، أ. د. أمينة محمد علي

قسم التاريخ -مركز الدراسات الجامعية للبنات- جامعة الملك سعود -الرياض

جارالله، د. عبدالرحمن حسن

قسم التاريخ -جامعة صنعاء- الجمهورية العربية اليمنية

أبوجبلة، د. عامر جاد الله

قسم الآثار والسياحة -جامعة مؤته- الكرك -المملكة الأردنية الهاشمية

الجميل، أ. د. محمد بن فارس

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

الحارثي، أ. د. ناصر بن علي

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية -جامعة أم القرى- مكة المكرمة

الحارثي، د. عبدالله بن ناصر

قسم التاريخ -جامعة السلطان قابوس- سلطنة عُمان

الحداد، د. عبدالله عبدالسلام

قسم التاريخ -جامعة صنعاء- الجمهورية العربية اليمنية

مقدموا الأبحاث عند انعقاد الندوة

أباحسين، د. علي

مركز الوثائق التاريخية –البحرين

الروزي، د. عبدالغفور بن إسماعيل

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الروسان، د. محمود

قسم التاريخ –جامعة اليرموك– إربد– المملكة الأردنية الهاشمية

الزيدان، د. عبدالله بن علي

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الزيلعي، أ. د. أحمد بن عمر

قسم الآثار والمتاحف –جامعة الملك سعود– الرياض

السروري، أ. د. محمد عبده

قسم التاريخ –جامعة تعز– الجمهورية العربية اليمنية

السري، د. أحمد بن علي حيدر

قسم التاريخ والآثار –جامعة الإمارات العربية المتحدة– العين –الإمارات العربية المتحدة

السنيدي، د. عبدالرحمن

قسم التاريخ –جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– الرياض

السويلم، د. ابتسام عبدالمحسن

قسم التاريخ –مركز الدراسات الجامعية للبنات– جامعة الملك سعود –الرياض

سيف، د. علي سعيد

قسم التاريخ –جامعة صنعاء– الجمهورية العربية اليمنية

الشجاع، أ. د. عبدالرحمن

قسم التاريخ –جامعة صنعاء– الجمهورية العربية اليمنية

الطايش، د. علي

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الطراونة، أ. د. خلف فارس

قسم الآثار والسياحة –جامعة مؤته– الكرك –المملكة الأردنية الهاشمية

العامودي، د. محمود

قسم التاريخ –الجامعة الإسلامية– غزة

مقدموا الأبحاث عند انعقاد الندوة

العسكر، د. عبدالله بن إبراهيم

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

علي، د. أحمد رجب محمد

قسم التاريخ والآثار -جامعة الإمارات العربية المتحدة- العين -الإمارات العربية المتحدة

القحطاني، د. سعيد بن عبدالله

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

المحمودي، د. أحمد

قسم التاريخ – جامعة مولاي إسماعيل- مكناس –المغرب

موسى، أ. د. عز الدين عمر موسى

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

الهلابي، أ. د. عبدالعزيز بن صالح

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود- الرياض

ولد داداه، أ. د. محمد ولد مولود

نواكشوط –الجمهورية الإسلامية الموريتانية

يوسف، د. فرج الله أحمد

دار القوافل للنشر والتوزيع- الرياض

تمهيد

تتشرف الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بإصدار"الكتاب الخامس" من سلسلة تاريخ الجزيرة العربية وهو يضم معظم أبحاث الندوة العالمية الخامسة وموضوعها:

"الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية وحتى نهاية القرن الرابع الهجري"

وعقدت في الفترة ٢١ -٢٣ محرم ١٤٢٤هـ (٤٢ - ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٣م) وقد اشترك في تنظيمها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض.

وتتقدم الندوة بالشكر والتقدير للباحثين الكرام من خارج المملكة العربية السعودية ومن داخلها الذين أسهموا ببحوث قيمة في هذه الندوة التي يضمها هذا السفر، كما تشكر المشاركين في الندوة من غير الباحثين لإسهامهم الفعال في الحوار والمناقشة مما ساهم في إثراء البحوث وتدارك ما في بعضها من نقص أو قصور.

والتزاما منا في قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بمواصلة كتابة تاريخ الجزيرة العربية من خلال حلقات هذه الندوة وبمشاركة زملائنا أساتذة التاريخ والآثار في كل الجامعات والمؤسسات العلمية فسوف يكون موضوع الندوة السادسة:

"الجزيرة العربية من بداية القرن الخامس وحتى نهاية القرن السابع الهجري"

(١١١٠ - ١٣٠٠م)

وقد أعدت محاورها وأرسلت الدعوات للباحثين والمختصين للمشاركة، وسوف تعقد في الفترة من ٥ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٥ مارس ٢٠٠٦م، وحتى ٩ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٩ مارس ٢٠٠٦م.

والندوة رئيسا وأعضاء مدينون بالشكر والتقدير لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الفيصل لوضع إمكانات الجامعة سواء المادية أو الخدمات والمرافق تحت تصرفنا واهتمامه بها ومتابعة تنظيمها والتأكد من جودة مطبوعاتها وتوج ذلك برعايته لافتتاحها، كما يشكرون سعادة وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي (مدير جامعة القصيم حاليا) الأستاذ الدكتور خالد بن عبدالرحمن الحمودي لمؤازرتنا في كل ما كان يقع تحت اختصاصه فساهم في إنجاحها، ويخصون كذلك عميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور رشود بن محمد الخريف الذي ساهم في

تذليل العقبات التي اعترضتها، ومتابعة أعمالها والحرص على إنجاحها.

وواجب الشكر حق علينا للأخوة الكرام في العلاقات العامة وعلى رأسهم الزميل الدكتور علي بن دبكل العتري لما بذلوه من جهود كبيرة على كل المستويات، وللعاملين بالنشر والمطابع بالجامعة لما قاموا به من عمل متقن ودقيق نقدره لهم في المجلدات السابقة، ونحن على يقين أنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم في طباعة وإخراج هذا الكتاب بمستوى يليق بسمعة جامعة الملك سعود.

وختاما أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه، وأن يوفقنا للصواب في القول والعمل، إنه سميع مجيب.

رئيس الندوة

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

المقدمة

تنوعـــت موضوعات "الكتاب الخامس" فشملت جوانب هامة من تاريخ الجزيرة العربية في الحقبة الزمنية التي تبدأ مع بداية الدولة العباسية وتنتهي مع نهاية القرن الرابع الهجري وليس للنهاية أي معنى موضوعي سوى أن العصر العباسي مدتـــه الزمنية طويلة واقتضت الضرورة شطره إلى شطرين، حتى نكمل الشطر الثاني من هذا العصر في أبحاث الندوة السادسة لتاريخ الجزيرة العربية. وبدأ الكتاب بالأحوال العامة في الجزيرة العربية قبل قيام الدولة العباسية ليكون بمثابة تمهـــيد وانـــتقال بين عصرين. وتناولت أبحاث أخرى بعض حركات التمرد (الثورات)، وبعض الحركات التي حملت مضـــمونا عقديا في نواحي متفرقة من الجزيرة العربية وناقشت أسبابها المحلية والأسباب الناجمة عن سياسات الحكومة المركـــزية في بغداد، ووسائل إخمادها والنتائج التي تمخضت عنها. أما الأبحاث التي تناولت الجوانب الاقتصادية فهي اثنان وهذا يكشف أن تغطية هذا الجانب المهم ومثله الدراسات المجتمعية لا زالت بحاجة كبيرة إلى المزيد من البحوث والدراســـات. أمـــا الأبحـــاث الـــتي عنيت بالموضوعات الحضارية خاصة الحركة والتواصل العلمي بين أقاليم الدولة الإســـلامية فهـــي معقولـــة من حيث حجمها وممتازة من حيث معالجتها. ومن حسن حظ هذه الندوة أنها بمقارنتها بســـابقتها حظيت ببحوث آثارية متنوعة وغنية فمنها المكتشفات الأثرية وعمارة المساجد والكتابات والمسكوكات. كمـــا تميزت أبحاث هذه الندوة بتغطيتها لمعظم أقاليم الجزيرة العربية بدأ من الحجاز ثم وسط الجزيرة فشرقها فجنوبها الغـــربي ونقصد تهامة ثم اليمن، وقد حظيت اليمن بنصيب طيب نتيجة لمساهمة كريمة من عدد من الباحثين اليمنيين. وكذلك خدمت العلاقات العلمية بين الجزيرة العربية وكل من المغرب والأندلس خدمة طيبة.

أمـــا عملنا في هيئة التحرير فتمثل في حرصنا على أن تكون الأبحاث في نسق واحد من حيث التوثيق وطريقة الإحالات على المصادر والمراجع ووضعها في أواخر البحوث. كما التزمنا أن تقتصر تعديلاتنا التحريرية على الشكل والصـــياغة ولا تمـــس المضمون بحال من الأحوال مثل تصويب أسماء الأشخاص والأمكنة وما إلى ذلك، فإن كان لنا ملاحظة على المضمون أبديناها على الباحث إن شاء أخذ بها أو صرف النظر عنها.

أما ترتيب الأبحاث فقد خضع لاعتبارات ثلاثة هي التسلسل الزمني والتقارب الموضوعي والتقارب المكاني، و لم يدخل في الاعتبار مكانة الباحثين ورتبهم العلمية.

نتقدم بالشكر الجزيل للزملاء الباحثين على تعاونهم معنا ونعتذر لهم وللقراء جميعا إن شاب عملنا بعض القصور علما أننا بذلنا جهدنا على أن يخرج هذا السفر بأفضل صورة ممكنة.

ختاما نشكر كل من ساهم في عقد الندوة وشارك فيها باحثا ومشاركا ومنظما ونخص بالشكر والتقدير النشر العـــلمي ومطـــابع الجامعـــة على تعاونهم وحرصهم على إتقان طباعة هذا الكتاب وعلى رأسهم المشرف على النشر العلمي والمطابع أ. د. علي بن محمد الدربي.

والله الموفق؛؛؛

هيئة التحرير

الأربعاء ٢٧ صفر ١٤٢٦هـ

٦ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م

البحـــوث

الأحوال العامة في الجزيرة العربية عند قيام الدولة العباسية

عبدالعزيز بن صالح الهلابي

قسم التاريخ / كلية الآداب

جامعة الملك سعود / الرياض

عرفت الجزيرة العربية الانضواء تحت حكومة مركزية لأول مرة في التاريخ عند ما أقام النبي ﷺ دولته بعد الهجرة في المدينة والتي ظلت عاصمة للدولة الإسلامية حتى مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان في آخر سنة ٣٦هـ. وفي التقسيم الإداري للدولة الإسلامية في ظل الحكم الأموي لم تعامل الجزيرة العربية بصفتها إقليما واحدا يحكمها وال واحد بإدارة إقليمية مركزية بل تم تقسيمها إداريا وفقا لطبيعتها الجغرافية إلى ولايات بعضها يرتبط مباشرة بالحكومة المركزية بدمشق وهي الحجاز واليمن. أما وسط الجزيرة العربية المتمثل بولاية اليمامة فترتبط إما بوالي الحجاز أو والي البصرة، وأما إقليما البحرين وعمان فكانا تابعين لولاية البصرة.

وبسبب فقر الجزيرة العربية الاقتصادي لم تولها الحكومة الأموية المركزية -باستثناء الحجاز- إلا القليل جدًا من الاهتمام، إضافة إلى تعسف ولاة الأمويين وسوء سيرتهم مع السكان وهذا يفسر حركات التمرد والانفصال التي قامت في وسط وآخر العهد الأموي في كل من اليمامة والبحرين وعمان واليمن ووجدت في إيديولوجية الخوارج تعبيرا عن سخطها من جانب وتطلعاتها من جانب آخر.

وما يهمنا في هذا المقام هو الأوضاع السياسية والإدارية في الجزيرة العربية قبل قيام الدولة العباسية، ويمكن وصف هذه الفترة أنها كانت استمرارا لأوضاعها في العهد الأموي كله. وتقتضي طبيعة الموضوع تقسيمه إلى وحداته الإدارية والجغرافية:

أولاً: الحجاز

نظرا لأهمية الحجاز الخاصة عند خلفاء بني أمية وعند المسلمين عامة لمكانته الدينية، فبعد القضاء على حركة ابن الزبير سنة ٧٣هـ يئس أهل الحجاز من استعادة الدور المفقود وقبلوا الواقع واستكانوا، وأخلدوا إلى الهدوء والدعة، واشغلوا أنفسهم بنشاطات غير سياسية مثل الاشتغال بالتجارة والزراعة أو الانكباب على التحصيل العلمي أو العناية بالشعر والأدب وجوانب من الترفيه خاصة الغناء.

كانت سياسة خلفاء بني أمية في اختيار ولاة الحجاز في الأحوال العادية تخضع لاعتبارات أهمها القرابة والولاء وتأتي الكفاءة ومراعاة المصالح العامة بعد ذلك. وانسجاما مع هذه السياسة فقد ولى الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك (١٠٥- ١٢٥هـ) الحجاز خاله ابراهيم بن هشام المخزومي سنة ١٠٦هـ[١] وبقي واليا حتى عزله سنة ١١٤هـ وولى بدلا منه أحد أقربائه من جهة الأم أيضا هو خالد بن عبدالملك بن الحارث بن أبي العاص المخزومي الملقب بابن مطيرة[٢]، ثم أعقبه سنة ١١٨هـ بخاله الثاني محمد بن هشام المخزمي.[٣]

وبعد وفاة هشام تولى الخلافة ولي عهده و ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ) وعهد بولاية الحجاز إلى خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي.[٤]

وبعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ استولى على السلطة زعيم الثواراابن عمه يزيد بن الوليد بن عبدالملك وأعلن نفسه خليفة في شهر رجب من نفس السنة وولى على الحجاز عبدالعزيز بن عبدالله ابن عمرو بن عثمان بن عفان ثم عزله وولى عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز بن مروان وقام الأخير بإمرة موسم الحج في هذه السنة.[٥] توفي الخليفة يزيد بن الوليد في شهر ذي الحجة من هذه السنة، وتولى الخلافة الأموية من بعده أخوه إبراهيم لكن لم تستقر له الأمور إذ كثر منازعوه وأهمهم مروان بن محمد و لم يكن لإبراهيم من خيار أمام قوة مروان إلا أن أعلن خلع نفسه ومبايعة مروان في سنة ١٢٧هـ.[٦]

وتصف بعض المصادر[٧] عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز خلال إمرته لموسم حج سنة ١٢٧هـ بـ "عامل مروان على المدينة ومكة والطائف" مما يدل على أن مروان أبقاه على ولايته. واستمر عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز واليا على الحجاز لسنة ١٢٨هـ بدليل إمرته لموسم الحج في هذه السنة.[٨]

وفي موسم حج سنة ١٢٩هـ يبرز ذكر عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك فجأة على أنه والي الحجاز لمروان بن محمد وذلك عند ما حج أبو حمزة الخارجي ومعه جيش في حدود ألف رجل قدم به من اليمن وكادت أن تحصل مواجهة عسكرية بينهما أثناء موسم الحج لولا سعي بعض الوسطاء لتجنيب الحجاج الحرب[٩]، وليس لدينا ما يفيد متى ولاه الخليفة مروان بن محمد على الحجاز.

ويظهر أن الخليفة مروان أبقى عبدالعزيز بن عمر نائبا لعبدالواحد أو قصر سلطة عبدالعزيز على إمرة المدينة فقط ويكون خاضعا لعبدالواحد. بسط أبو حمزة نفوذه على مكة بعد هروب الوالي عبدالواحد بن سليمان عنها، وعندما خرج أبو حمزة منها متوجها نحو المدينة ولى على مكة إبرهة بن الصباح الحميري[١٠] وترك معه فرقة من جيشه لإحكام قبضته عليها.

وبسبب فشل عبدالواحد في مواجهة الخوارج بقيادة أبي حمزة عزله الخليفة مروان بن محمد واختلفت المصادر في توقيت عزله فبعضها يجعله بعد فشله في مواجهة أبي حمزة الخارجي وهربه من مكة مباشرة[١١]، بينما الآخر يجعله

بسبب هزيمة الجيش الذي تم تسييره من أهل المدينة لمحاربة الخوارج في قديد في صفر سنة ١٣٠هـ.[١٢] وتتفق جميع هذه المصادر على أن الخليفة مروان بن محمد أعاد تولية عبدالعزيز بن عمر على كل الحجاز بعد عزل عبدالواحد.

تشير بعض المصادر[١٣] إلى أن أبا جراب محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي أمية الأصغر ولي مكة في أيام بني مروان دون تحديد تاريخ ولايته لمكة، ومن المحتمل أنها كانت في فترة الاضطراب السياسي في عهد يزيد بن الواليد وبداية عهد مروان بن محمد في الفترة التي كان فيها عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز واليا على الحجاز كله وأنه عهد إلى أبي جراب بإمرة مكة أو أن أهل مكة ولوه عليهم إبان فترة الاضطراب خاصة أنه وصف بأنه من أفضل رجال قريش بمكة، وقد قتله والي الحجاز للسفاح داود بن علي العباسي مع من قتل من بني أمية بمكة مطلع سنة ١٣٣هـ.

لقد شكل الخوارج بقيادة أبي حمزة تهديدا خطيرا للحكم الأموي في اليمن والحجاز ففشل ولاة الأمويين في التصدي لهم، و لم تجد المقاومة الرسمية والشعبية التي قام بها أهل المدينة شيئا. ويقول أحد رواة أهل المدينة وهو هارون ابن موسى الفروي (ت ٢٥٢هـ) عن أبي حمزة زعيم الخوارج الإباضية، سمعت جدي يقول: "كان قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال الناس حين سمعوا كلامه".[١٤]

من الملاحظات الجديرة بالرصد انضمام أفراد كانوا يدينون بمذهب الخوارج من قريش وأهل المدينة إلى جانب أبي حمزة، ففي معركة قديد كان أبو بكر بن محمد بن عبدالله القرشي ثم أحد بني عدي بن كعب يقود إحدي فرق جيشهم الثلاث.[١٥] وإن كان هذا مستغربا في الحجاز فحدوثه في فترة الاضطراب السياسي ليس كذلك في العراق حيث خضع لسلطتهم عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز بن مروان، وكذلك ولى الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي على الكوفة (سنة ١٢٩هـ) المثنى بن عمران من عائذة قريش من بني مخزوم.[١٦] وانضم إلى أبي حمزة الخارجي في المدينة من أهلها عبدالعزيز القارئ المعروف ببشكست النحوي، وكان يكتم مذهب الخوارج، فلما قتل الخوارج قتل معهم.[١٧] ويمكن فهم العبارة الأخيرة أنه بعد هزيمة الخوارج بوادي القرى وقام أهل المدينة بقتل من بالمدينة منهم فقتلوا معهم عبدالعزيز القاري. وأغفلت المصادر ذكره بصفته من رواد الدراسات النحوية لعله بسبب موقفه السياسي والمذهبي، وأنا أرجح أنه أخذ النحو عن عبدالرحمن بن هرمز المدني (ت ١١٧هـ) الذي وصف بأنه من أول من وضع العربية وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش.[١٨] وقال فيه أحد شعراء المدينة:

لقد كان بشكست عبدالعزيـز	مـن أهـل القـراءة والمسـجـدِ
فبعـدا لبشكست عبدالعزيـز	وأما القـرانُ فـلا يبعـدِ[١٩]

بعث أبو حمزة جيشا من المدينة بقيادة بلج بن عقبة الأزدي فسار شمالا حتى عسكر في وادي القرى[٢٠]. وقد تكون مهمة ذلك الجيش الاستطلاع وتقييم الموقف والسيطرة على مناطق خيبر ووادي القرى الغنية بالمحاصيل والثمار الزراعية، على أن إحدى الروايات تذكر أن أبا حمزة خطب أهل المدينة مودعا فقال: "يا أهل المدينة، إنا خارجون إلى

مروان، فإن نظفر نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنة محمد ﷺ، ونقسم فيئكم بينكم، وإن تكن الأخرى فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون."[٢١]

أصبح لزاما على الخليفة مروان بن محمد التخلي عن السياسة التي درج عليها خلفاء بني أمية عندما تكون الأحوال مستقرة وهي إسناد ولاية الحجاز إلى أقاربهم من جهة الأب أو من جهة الأم، خاصة بعد الفشل الذريع لولاة مروان من الأمويين في مواجهة أبي حمزة وقواته من الخوارج، وأصبح الموقف يستدعي اختيار وال يتميز بالمهارة العسكرية والشجاعة لاستعادة الحجاز واليمن من أبي حمزة والخوارج فاختار قائدا عسكريا من أكفأ قواده هو عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي، من بني سعد بن بكر من هوازن، وسيره على رأس جيش عدده أربعة آلاف انتخبهم مروان من أفضل عسكره وأعطى لكل جندي حوافز تشجيعية، إضافة إلى عطائه المقرر في الديوان، هي مائة دينار وفرس عربية وبغل لثقله. وكانت تعليمات مروان لقائده إن تغلب على أبي حمزة فعليه مواصلة زحفه لليمن حتى يلتقي زعيم الخوارج في اليمن عبدالله بن يحي ويقاتله.[٢٢]

التقى جيش مروان بقيادة عبدالملك بن محمد بن عطية وجيش أبي حمزة بقياد بلج بن عقبة الأزدي بوادي القرى في معركة انتصر فيها القائد الأموي وقتل بلجا وعامة جيشه وأخذ يطارد فلول المنهزمين الذين يقدر عددهم بألف مقاتل، وثار أهل المدينة بمن عندهم من أصحاب أبي حمزة فقتلوا من قدروا عليه منهم كرها لهم وثأرا لقتلاهم بمعركة قديد، وانسحب من نجا من فلول الخوارج إلى مكة.[٢٣] وكانت سيطرة الخوارج على المدينة حوالي أربعة أشهر.[٢٤]

دخل عبدالملك بن محمد بن عطية المدينة وأعاد سلطة الأمويين عليها وأقام بها شهرا وأناب ابن أخيه عليها الوليد بن عروة بن محمد بن عطية عليها ثم زحف بجيشه نحو مكة لمطاردة أبي حمزة وجيشه هناك، ودخل معه في معركة شرسة في الأبطح بمكة استمرت أكثر من نصف يوم قتل فيها أبو حمزة وعدد من قواده ومعظم جيشه.[٢٥] ولم تحدد المصادر تاريخ المعركة التي وقعت بمكة ونقدر أنها كانت في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٠هـ.

رتب عبدالملك بن محمد بن عطية الأوضاع بمكة وأناب عليها رجلا من جيشه من أهل الشام اسمه رومي بن ماعز الكلابي[٢٦]، ثم عزله بعد مدة قصيرة وأناب ابنه محمد بن عبدالملك بن عطية على الحجاز وموسم الحج لسنة ١٣٠هـ.[٢٧] توجه عبدالملك بجيشه إلى اليمن قاصدا زعيم الخوارج الإباضية عبدالله بن يحي الكندي، الملقب بطالب الحق، إنفاذا لأوامر الخليفة مروان بن محمد.[٢٨]

قتل عبدالملك في اليمن وهو عائد في طريقه إلى مكة ليتولى إمارة موسم حج سنة ١٣٠هـ وأسندت ولاية الحجاز إلى ابن أخيه ونائبه على المدينة الوليد بن عروة بن محمد بن عطية في سنة ١٣١هـ[٢٩]، واختفى اسم ابنه محمد من مسرح الأحداث فإما أنه كلف بمهام عسكرية في اليمن أو أنه فشل في أداء ما أسند إليه من مسؤوليات مما أدى إلى إقصائه.

وخرج الوليد بن عروة إلى اليمن بعد مقتل عمه فولى مروان الحجاز أخاه يوسف بن عروة بن محمد بن عطية وقدم المدينة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ وظل واليا عليها حتى دخل الحجاز تحت سلطة العباسيين حيث قتل مروان بن محمد في شهر ذي الحجة من هذه السنة، وأول ولاة العباسيين في الحجاز كان،عم الخليفة السفاح، داود بن علي بن عبدالله بن عباس الذي وصل الحجاز في شهر ذي الحجة وأقام الحج للناس.[٣٠]

أما حدود ولاية الحجاز فتصفها بعض الروايات وصفا غير دقيق إذ جاءت في سياق شكوى إلى الخليفة هشام ابن عبدالملك ضد واليه على الحجاز إبراهيم بن هشام المخزومي "إنك أطعمت إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون في الشام إلى منابت القرض في اليمن فلم يغنه كثير ما في يده عن قليل ما بأيدينا".[٣١] وجاءت في رواية أخرى[٣٢]: "فإنك وليته ما بين المدينة واليمن...". وتمتد شمالا وشرقا لتشمل قبائل طيء في منطقة الجبلين وقبيلة أسد التي تمتد مواطنها إلى القصيم وذلك بدليل إرسال ولاة الحجاز عمالا لجباية الصدقة من هذه القبائل.[٣٣] وكان عمال والي المدينة يجبون الصدقة من قبيلة كلاب بن عامر[٣٤]، وموطنها يمتد من شرقي المدينة إلى الجنوب الغربي لمنطقة القصيم (ضرية) وتشاركها في سكنى هذه المناطق قبائل أخرى.

أما سلطات الوالي فينص عليها في الغالب بأنها تشمل المدينة ومكة والطائف، وفي حالات قليلة جدا يعين على مكة وال مستقل يرتبط بالخليفة مباشرة ونادرا ما تكون مدة ولايته طويلة.

وتشمل سلطات الوالي تعيين القضاة ويختارونهم من أهل الفضل والمروءة والهيئة والعلم[٣٥]، من ذلك أن إبراهيم ابن هشام المخزومي والي الخليفة هشام بن عبدالملك على الحجاز استقضى محمد بن صفوان الجمحي ثم عزله واستقضى الصلت الكندي.[٣٦] وولى والي الحجاز خالد بن عبدالملك المخزومي على قضاء المدينة محمد بن صفوان بن عبيدالله.[٣٧] وعند ما ولى الخليفة الوليد بن يزيد خاله يوسف بن محمد الثقفي على الحجاز استقضى يوسف على المدينة سعد بن إبراهيم ثم عزله وولى القضاء يحي بن سعيد الأنصاري.[٣٨]

ومما يلاحظ على قضاة مكة والمدينة أنهم كانوا ينتسبون في الغالب إلى قريش مع استثناءات قليلة بتعيين قضاة من الأنصار أو من العرب في المدينة. ومنصب القاضي يلي منصب الوالي من حيث الأهمية، وكثيرا ما ينيب الولاة قضاتهم في إدارة الولاية عند اضطرارهم للسفر. وعند ما يعزل الخليفة الوالي و لم يستقر رأيه على تعيين بديل له يكلف القاضي بعمل الوالي حتى يصدر قرار بتعيين وال جديد، من ذلك أنه عندما عزل الخليفة سليمان بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسري عن ولاية مكة عهد بولايتها إلى قاضي مكة داود بن طلحة الحضرمي.[٣٩] وعند ما عزل الخليفة هشام بن عبدالملك واليه على الحجاز خالد بن عبدالملك بن الحارث المخزومي أرسل تكليفا إلى قاضي المدينة أبي بكر ابن حزم الأنصاري للقيام بأمر الولاية واستمر ذلك ستة أيام حتى قدم خاله محمد بن هشام المخزمي من مكة واليا على المدينة.[٤٠]

وكانت هناك تجارب في القضاء جديرة بالتنويه وهي وجود ما يشبه هيئة محلفين، فقد كان بين عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر ورجل من أهل المدينة خصومة ورفع عبدالرحمن شكواه إلى الخليفة هشام بن عبدالملك مدعيا أن والي الحجاز خالد بن عبدالملك بن الحارث مال عليه، فكتب الخليفة هشام إلى الوالي خالد: " أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاحضر رجالا من أهل الفضل والستر والصدق والعفاف ممن يخيرهم [يجيزهم/ يخبرهم؟] عبدالرحمن ابن القاسم، ثم اجمع بينه وبين خصمه، ثم مرهم أن يجزموا [؟] القضاء على أحدهما ...". (٤١) وهذه التجربة حسب ما تبين لنا كانت حالة معزولة فلم تقر قاعدة ثابتة للتقاضي أو على الأقل لم يتكرر تطبيقها من حين لآخر، ولو حدث ذلك لشاع تطبيقها في النظام القضائي الإسلامي.

كان المركز الرئيس للولاية في العهد الأموي المدينة ويعين الوالي في الغالب نائبا له في مكة وقد يكون التعيين مباشرة من الخليفة. ويولي الوالي عمالا على الطائف والبلدان الأخرى مثل ينبع وخيبر ووادي القرى ومعدن بني سليم (مهد الذهب حاليا) ومع أن معلوماتنا قليلة في هذا الشأن إلا أن هذا أمر تقتضيه الضرورة وغلك أدلة قليلة عليه، منها: أن الحجاج بن يوسف كان من أول ما أسند إليه من الأعمال ولاية تبالة فلما رآها عاد زاهدا في ولايتها فقيل في المثل: أهون من تبالة على الحجاج. (٤٢) ومنها أن راشدا أبا علي مولى بني فقعس (من بني أسد) كان عاملا على الربذة إبان ولاية عمر بن عبدالعزيز على المدينة وقد استغل منصبه فتعدى على أحد الشعراء بالضرب دون وجه حق فاشتكى الأخير إلى الوالي عمر فأقصه منه. (٤٣)

ومنها أن أبا حمزة الخارجي قدم من البصرة قبل أن يقود حركة الخوارج من اليمن إلى مكة والمدينة ومر في طريقه بمعدن بني سليم، وكثير[كبير] بن عبدالله بن زمعة عامل على المعدن فسمع بعض كلامه الذي يحرض فيه على الثورة [الخلاف] ضد السلطة الأموية [مروان بن محمد] فقبض عليه العامل وجلده سبعين سوطا ثم أفرج عنه وتركه يواصل سفره إلى مكة. فلما قدم إلى المدينة بعد انتصاره على أهلها في معركة قديد سنة ١٣٠هـ اختفى عامل المعدن كثير[كبير] خشية من انتقام أبي حمزة. (٤٤) وتشير المصادر إلى تعيين عمال على الطرق المهمة الموصلة بين المدن خاصة الموصلة إلى مكة، فقد كان معبد بن خالد بن ربيعة من قبيلة عدوان يسمى "معبد الطريق" لأن بني مروان ولوه الطريق يمنع الميرة أن تأتي ابن الزبير. (٤٥) والظاهر أن المقصود الطريق بين الطائف ومكة. ولا نعرف أن كانت هذه الوظيفة مؤقتة اقتضتها ظروف حصار ابن الزبير أم أنها كانت دائمة لحفظ الأمن والنظام للمسافرين ولسكان القرى والقبائل المقيمة على جوانب الطريق.

وأشارت بعض المصادر(٤٦) إلى أن أمية بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان كان عامل الخليفة مروان بن محمد على الأعراض والأعشار والصدقات بالمدينة. ولا نظن أنها وظيفة مستحدثة بل كانت قائمة.

وفي مطلع العهد العباسي كانوا ولاة الحجاز يجعلون ما بين مكة والمدينة من البلدان والقرى والأمواه وحدة

إدارية واحدة يولون عليها عاملا. [٤٧] ولا بد أن هذا العامل يولي رجالا آخرين على البلدان التابعة له حسب حجمها وأهميتها. وأغلب الظن أن مثل هذا التنظيم ليس مستحدثا في العهد العباسي بل كان استمرارا لما كان موجودا في العهد الأموي بدليل أن معدن بني سليم على صغرها كان عليها عامل في العهد الأموي. ومن البلدان الواقعة على الطريق قديد التي وقعت فيها معركة الخوارج مع أهل المدينة وكانت في هذا الزمن قرية تسكنها قبيلة خزاعة. [٤٨] أما العلا التي توجه إليها أبو حمزة بعد معركة قديد فلا بد أنها كان بلدة كبيرة ومهمة لأنها بعيدة نسبيا عن المدينة وتقع في منطقة زراعية وعلى طريق تبوك - الشام مما يعني أنها من البلدان التي يولى عليها ولاة وقد عسكر فيها عبدالملك بن عطية السعدي قائد جيش مروان بن محمد لمحاربة أبي حمزة وأصحابه. [٤٩]

أما بالنسبة للقبائل في البادية فأغلب الظن أنه ترك لها إدارة نفسها وفق التقاليد القبلية في اختيار زعاماتها وتكون مسؤولة عن تصرفات أفرادها تجاه الآخرين خاصة انضباطهم الأمني وعلاقاتها بالقبائل الأخرى ويحتكمون في نزاعاتهم وخصوماتهم إلى الولاية وقضاتها في المسائل التي لا يحلونها قبليا. أما الولاية فترسل السعاة سنويًا إلى القبائل لجمع الصدقات وقد يقوم مثل هؤلاء السعاة بإرشاد أهل البادية إلى أمور دينهم والفصل في بعض نزاعاتهم إذا حكموهم فيها. ولدينا معلومات ليست كثيرة عن السعاة وهي تفيد في معرفة مدى امتداد سلطات الولاية الجغرافية ومعايير اختيار السعاة وتصرفهم بأموال الصدقات.

ومن الملاحظ على ولاة الحجاز في عهد هشام السابق لمدة الاضطراب السياسي (١٠٥- ١٢٥هـ) أنهم يتصفون بسلوك استبدادي مستندين في ذلك إلى علاقة قرابتهم بالخليفة والتي هي السبب في اختيارهم ولاة من حيث الأصل. من ذلك أن الوالي إبراهيم بن هشام المخزومي كان يتعدى على ممتلكات الناس حتى وجهاء قريش فقد شكاه عبدالله بن عروة بن الزبير على هشام قائلا :

"يا أمير المؤمنين، أعدني على خالك إبراهيم بن هشام فإنك وليته ما بين المدينة واليمن فلم يمنعه كثير ما في يده عن قليل ما في أيدينا، فأنشدك الله أن تصل رحما بقطيعة أخرى." [٥٠]

وهناك أمثلة على إساءته لاستخدام السلطة وتحيزه فعند ما أمره الخليفة هشام أن يفرض عطاء للناس في المدينة فتقدم إليه حفيد للصحابي عبدالله بن جحش الأسدي وهو ابن عمة النبي ﷺ وقاد سرية نخلة (رجب سنة ٢هـ) واسشهد في غزوة أحد سنة ٣هـ طالبا تسجيله في ديوان العطاء فلم يستجب له، وفي المقابل تقدم إليه حفيد لأبي تجراة، وأصله من قبيلة كندة حالفوا في الجاهلية عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وذكر للوالي حلفهم لعمه عمارة الذي كان من معارضي الإسلام، فأجابه : لتعلمن أن مودة أبي فائد قد نفعتك اليوم، ففرض له ولأهل بيته. [٥١]

ولما تولى الخلافة الوليد بن يزيد، وكان ناقما على عمه هشام بن عبدالملك لسوء معاملته إياه، فاستغل سوء سيرة إبراهيم وأخيه محمد ابني هشام المخزوميين أثناء ولايتيهما على الحجاز لتصفية حسابه مع أقارب عمه هشام

فكلف واليه على الحجاز وهو خاله يوسف محمد بن يوسف الثفقي أن يقيمهما للناس في المدينة ليقتصوا منهما ما لهم عندهما من حقوق ومظالم، وأمره أن يبعث بهما إلى واليه على العراق يوسف بن عمر الثقفي ليحاسبهما ويأخذ حقوق الناس منهما فعذبهما حتى قتلهما سنة ١٢٥هـ.(٥٢)

ومن استغلال ولاة الحجاز للسلطة الممنوحة لهم تعيين والي هشام على الحجاز خالد بن عبدالملك بن الحارث المخزومي خاله غضي بن عياش بن الزبرقان بن بدر من بني تميم على شرط المدينة.(٥٣)

ثانياً: اليمن

كانت اليمن في العهدين النبوي والراشدي تقسم إلى ثلاث وحدات إدارية كل وحدة تسمى مخلافا هي صنعاء ومخاليفها والجند ومخاليفها وحضرموت ومخاليفها ويعين على كل منها وال واحد يكون اتصاله بالسلطة المركزية مباشرة. وفي آخر العهد الراشدي في فترة الاضطراب السياسي عين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب على اليمن جميعها واليا واحدا، وسار الأمويون طيلة فترة عهدهم على إسناد اليمن كلها إلى وال واحد.

وبما أن البحث غير معني بالحقبة المبكرة من العهد الأموي فنذكر ولاتها منذ تمكن عبدالملك ابن مروان من القضاء على حركة ابن الزبير في الحجاز (سنة ٧٣هـ) على يد قائده الحجاج بن يوسف الثقفي فولاه على الحجاز وولى أخاه محمد بن يوسف على اليمن، وقد استمر الثقفيون من هذه الأسرة ولاة على اليمن. وليس من باب الاستطراد الإشارة إلى أن والي علي بن أبي طالب ابن عمه عبيدالله بن العباس عند ما فر من اليمن تجنبا لمقابلة الجيش الذي أرسله معاوية أناب على اليمن عمرو بن أراكة الثقفي، كما أن معاوية بن أبي سفيان ولى على اليمن بعد أن استتبت أوضاع الخلافة له فيها عثمان بن عثمان أو ابن عفان الثقفي.(٥٤)

استمرت أسرة محمد بن يوسف الثقفي ولاة على اليمن حتى قبيل سقوط الحكم الأموي مع تقطعات قليلة، فمحمد بن يوسف استمرت ولايته حتى وفاته سنة ٩١هـ(٥٥)، وولى الخليفة الوليد بن عبدالملك على اليمن بعده، بتوصية من الحجاج، قريبه أيوب بن يحي الثقفي.(٥٦) ولما تولى الخلافة الأموية سليمان بن عبدالملك سنة ٩٦هـ بعد موت الوليد وفي إطار سياسته في عزل ولاة والده وولاة أخيه الوليد عزل أيوب بن يحي عن اليمن وولى عليها عروة ابن محمد السعدي. ولا نعرف شيئا ذا بال عن ماضي عروة هذا وهل كان يتولى مسؤولية في اليمن إما واليا على مدينة أو مخلاف أو قيادة كتيبة مرابطة إبان ولاية محمد بن يوسف أو أيوب بن يحي سيما أنه ينتمي لقبيلة سعد بن بكر والتي موطنها قريب من الطائف ولحسن سيرته في عمله ولخبرته ومعرفته باليمن اختاره الخليفة سليمان واليا على اليمن كلها أم أنه كان مقيما بدمشق أو الحجاز. ويمكن أن يفهم من قوله في خطبته عند بداية ولايته: "يا أهل اليمن، هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق"(٥٧)، أنه كان حديث القدوم إلى اليمن إلا إذا كان الخليفة استدعاه للعاصمة قبل توليته لمقابلته والتأكد من صلاحيته للمنصب. ولدينا نص آخر هو: "ولي عروة اليمن عشرين سنة

وخرج حين خرج ومعه سيف ومصحف.(٥٨) والمؤكد أنه تولى على اليمن في وقت ما في سنة ٩٦هـ وعزل في وقت ما سنة ١٠٣هـ، ولا يمكن أن تكون ولايته عشرين سنة إلا إذا كان تولى قبل سنة ٩٦هـ ولاية ناحية في اليمن لمدة تصل إلى ثلاث عشرة سنة وبذلك يكون مجموع خدمته في اليمن عشرين سنة. ووصف بأنه من صالح العمال، وكان يحاسب عماله حسابا دقيقا ويأخذ الحق منهم.(٥٩) وعهد إليه الخليفة عمر بن عبدالعزيز بتنفيذ سياسته الإصلاحية وفي إحدى المرات تبرم عمر من عدم حسمه في تطبيق الإصلاحات فكتب إليه: "إني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم، فتكتب إلى تراجعني ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أخذات الموت، حتى لو كتبت إليك أن ترد على رجل مظلمة شاة لكتبت إلي: أردها عفراء أم سوداء، فاردد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني. والسلام."(٦٠)

وكان أحد مبعوثيه إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز من قبيلة ناصرة واسمه إبراهيم بن يزيد النصري.(٦١) ويقود ذلك إلى الاستنتاج أن ولاة اليمن من أهل الطائف كانوا يستعينون بقبائل الطائف والقبائل المجاورة لها ثقيف وبني سعد وناصرة وربما بني عدوان وثمالة وغيرها.

وطبيعي أن تكون سياسة الولاة الثقفيين الذين تولوا اليمن بسبب الحجاج من مدرسته في الحكم فهو أستاذهم وقدوتهم وبفضله علا شأنهم فساروا على نهجه. من ذلك الظلم في جباية الصدقات وفرض ضرائب غير شرعية، فعبدالله بن طاوس الذي يقيم معه أبيه في الجند يقول: "كان على أبي ضريبة يؤديها على أرضه كل عام أخرجت شيئا أو لم تخرج فكلم الوالي أو كلم له يلقيها عنه، فقال: نعم، ويضعها على غيره، فأبى أبي فكان يؤديها." (٦٢) ولما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة (٩٩-١٠١هـ) وقام بإصلاحاته ورفع المظالم عن الناس رفع إليه واليه على اليمن عروة بن محمد السعدي تقريرا عن الممارسات غير الشرعية السائدة في اليمن، فكان جوابه عليه: "أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن من كان من قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف، إن افتقروا لم ينقصوا، وإن استغنوا زيد عليهم، وتؤامرني في ذلك، ولعمري إن هذا لهو الجور حق الجور، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق..."(٦٣)، وورد جواب عمر إما بصيغة أخرى أو هو جواب آخر وبنفس المضمون تقريبا: "أما بعد، فإنك كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة في أعناقهم كالجزية يؤدونها إن أخصبوا أو أجدبوا، أو حيوا أو ماتوا ..." (٦٤) وأمره عمر بإلغا تلك الضريبة والإكتفاء بالعشر ضريبة الأراضي الشرعية، وقال: "لأن يأتيني من اليمن حفنة كتم أحب إلي من أن تقر هذه الوظيفة." (٦٥)

على أن هذه السياسية الإصلاحية سرعان ما تم الانقلاب عليها من قبل الخليفة التالي يزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ) فكتب إلى نفس الوالي عروة بن محمد السعدي: "إن ابن عبدالعزيز كان مغرورا منك ومن أشباهك، فأعد على أهل اليمن الضريبة التي كان عمر أسقطها ولو صاروا حرضا"(٦٦)، أي حتى لو اشرفوا على الهلاك.

ويبدو أن الوالي على اليمن عروة بن محمد السعدي لم ينسجم مع سياسات الخليفة يزيد فعزله سنة ١٠٣هـ واستبدله برجل من أهل الشام هو مسعود بن عوف [أو غوث] الكلبي.(٦٧) ولا تذكر المصادر شيئا عن سيرة مسعود في ولايته وإن كان المتوقع أنها تنسجم مع سياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك الذي أخذ في إلغاء الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبدالعزيز. استمر مسعود واليا على اليمن حتى مطلع خلافة هشام بن عبدالملك وفي أول سنة ١٠٦هـ ثار الإباضية بقيادة عباد الرعيني المعافري ومعه ثلاثمائة رجل وفشل مسعود في القضاء عليهم(٦٨)، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الخليفة هشاما يعزله عن اليمن. وولى هشام سنة ١٠٧هـ على جميع مخاليف اليمن يوسف بن عمر الثقفي. وقد ورد اسم يوسف ضمن أسرة آل أبي عقيل الثقفيين (أسرة الحجاج) الذين عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك، عند اعتلائه سدة الخلافة سنة ٩٦هـ، إلى واليه على العراق يزيد بن المهلب بتعذيبهم في العراق.(٦٩) على أن المصادر لم تذكر له أي دور تحت إمرة الحجاج. وبتولية يوسف عاد الثقفيون إلى حكم اليمن بعد انقطاع دام عشر سنوات. وكان من أول مهامه القضاء على تمرد الإباضية بقيادة عباد الرعيني المعافري ونجح في ذلك.(٧٠) وتذكر بعض المصادر(٧١) حركة تمرد أخرى للإباضية كان يقودها زحاف بن عباد الحميري الإباضي. وهنا نحن أمام احتمالين أولهما: إما أن تكون هذه الحركة نفس الحركة الأولى مع تحريف باسم قائدها، وثانيهما: أن يكون زحاف ابنا لعباد قائد الحركة السابقة (مع اختلاف النسبة: الرعيني المعافري/ الحميري) وقام بحركة جديدة وقد عهد يوسف بقيادة الجيش لقتال المتمردين إلى أبي العاج السلمي ونجح في القضاء عليها. واستمر يوسف في منصبه حتى نقله الخليفة هشام واليا على العراق سنة ١٢٠هـ خلفا للوالي خالد بن عبدالله القسري.(٧٢)

ولا نعرف عن سياسة يوسف في اليمن شيئا بسبب تجاهل المؤرخين لما كان يحدث باليمن، لكنه لما أصبح واليا على العراق انكشفت سياسته على حقيقتها لأن الرواة دونوا سيرته وهي سيرة غير مشرفة تتصف بالجبروت والعسف والظلم ولهذا السبب اختاره على ما يبدو هشام كأنه أراد أن يولي على العراق حجاجا جديدا. فكان كل من هشام ومن بعده الوليد بن يزيد يحيلون إليه من يريدون أن يترلوا به أقسى أنواع العذاب أو التصفية الجسدية تحت التعذيب من خصومهم أو من يحل عليه غضبهم من رجال دولتهم كالوالي الشهير خالد بن عبدالله القسري.

ويبدو أن والي اليمن كان لديه حامية من جنود الشام كما كان الحال مع ولاة بني أمية في العراق بدليل الإشارة إلى أسماء مثل الكلبي والسلمي، ومن المحتمل أنهم كانوا يستعينون برجال من أهل الطائف من ثقيف وغيرها لتوليتهم الولايات والوظائف الأخرى مثل الإمارة على البلدان والسعاية على الصدقات إضافة إلى حراسة الوالي وحفظ الأمن بصفة عامة. ولا بد أنهم كذلك وظفوا من كانوا يثقون بولائهم من أهل اليمن.(٧٣)

وعندما نقل يوسف إلى العراق عين ابنه الصلت بن يوسف مكانه واليا على اليمن واستمر في ولايته خمس سنوات حتى وفاة الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ.(٧٤) ولا نعرف عن سياسة الصلت في حكمه لليمن شيئا إلا أن المتوقع أن تكون نفس سياسة والده إن لم تكن أسوأ لحداثة سنه وقلة تجربته.

ولما تولى الخلافة الوليد بن يزيد (١٢٥هـ) عين خاله مروان بن محمد بن يوسف الثقفي واليا على اليمن.[٧٥]، على أن ولايته لم تطل بسبب قتل الوليد بن يزيد (سنة ١٢٦هـ) .

ثم حصل انقطاع آخر يسير في ولاية الثقفيين لليمن، ففي إطار نهج الخليفة الجديد يزيد بن الوليد في تصفية رجال ابن عمه المقتول ولى على اليمن الضحاك بن زمل السكسكي[٧٦]، وهو من يمانية الشام الذين ساندوا الخليفة يزيد في الثورة على ابن عمه واعتمد عليهم في حكمه.[٧٧]

وبعد موت يزيد واضطراب أحوال الخلافة الأموية في الشام انتهز زعيم الإباضية في اليمن عبدالله بن يحي الكندي الفرصة وأعلن الثورة في حضرموت ثم تقدم نحو صنعاء وألحق الهزيمة بالوالي الضحاك بن زمل.[٧٨]

لم يكن أمام الخليفة الجديد مروان بن محمد من خيار بعد تدهور نفوذ الأمويين في اليمن سوى أن يعيد تعيين أحد الثقفيين على اليمن لخبرتهم بها وبقبائلها فعين القاسم بن عمر الثقفي ومعه ابن أخيه والوالي السابق الصلت بن يوسف بن عمر وغيره من أفراد الأسرة، وبقي الضحاك بن زمل السكسكي نائبا له، لكن نفوذ الإباضية بقيادة عبدالله ابن يحي الكندي أخذ يزداد قوة وانتشارا فسيطر على دار الإمارة بحضرموت وأسر عاملها إبراهيم بن جبلة الكندي ثم أطلقه فأتى صنعاء. كثر جمع عبدالله وتسمى بطالب الحق، ثم كتب إلى من بصنعاء من الإباضية إني قادم عليكم واستخلف على حضرموت عبدالله بن معبد(سعيد؟) الحضرمي وزحف نحو صنعاء في ألفين من رجاله وذلك في سنة ١٢٩هـ. قاد الوالي القاسم بن يوسف جيشا وصف بأن عدده كبير وعدته ظاهرة وسلاحه شاك ومع ذلك وقابل الإباضية بقرية لحج وكانت النتيجة لصالح الإباضية، وتقدموا نحو صنعاء فوجه القاسم جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل من أهل الشام واليمن وأسند قيادته إلى يزيد بن الفيض الثقفي فكانت بينهم مناوشة ثم تحاجزوا، ثم دخل معهم الصلت بن يوسف في معركة قتل فيها، ثم قاتلهم بعده يزيد بن الفيض ثم انهزم هو وجيشه، فلحق بالقاسم وأخبره بالهزيمة وبمقتل الصلت بن يوسف. وبنتيجة هذه المعركة أسدل الستار على الثقفيين ولاة اليمن قبل أن يسدل الستار على الحكم الأموي بالمشرق بقليل.

أما الإباضية فقد أصبحت السلطة لهم واتخذوا من صنعاء مقرا لهم ولكنهم كانوا في تلك المرحلة الزمنية أصحاب رسالة أكثر منهم طلاب حكم وهذه الرسالة تقتضي القضاء على الاستبداد والظلم الذي يمثله حكم بني أموية من وجهة نظرهم ونشر العدل والعمل الصالح في بلدان المسلمين وتجسيدا لهذه الرسالة أرسل طالب الحق عبدالله ابن يحي الكندي أبا حمزة المختار بن عوف السلمي (نسبة إلى سليمة من الأزد) إلى مكة في موسم الحج سنة ١٣٠هـ ومعه بلج بن عقبة الأزدي وابرهة بن الصباح الحميري في جيش يصل تعداد الألف رجل وأمر المختار أن يقيم بعد موسم الحج في مكة ويرسل جيشا مع بلج إلى الشام.[٧٩]

بعد فشل الولاة الثقفيين في اليمن والولاة الأمويين في الحجاز في مواجهة الخوارج الإباضية وسيطرة الأخيرين

على اليمن والحجاز اختار الخليفة مروان بن محمد قائدا على قدر عال جدا من الكفاية والأهم من هذا أنه ذو علاقة وثيقة باليمن هو عبدالملك محمد بن عطية السعدي فهو أخو عروة بن محمد بن عطية السعدي والذي امتدت ولايته عليها بين سنتي ٩٦- ١٠٣هـ، والذي ربما لم تشهد اليمن واليا في العهد الأموي مثل عدله وصلاحه. ولا نستبعد أن عبدالملك بن محمد كان في اليمن مع أخيه عروة، وهو أمر طبيعي فالولاة يستعينون بأقاربهم وربما عهد إليه بمسؤوليات فيها كأن يكون عاملا على أحد المخاليف أو المدن، وأراد مروان من تعيينه إضافة إلى كفاءته العسكرية ومعرفته باليمن وقبائلها استمالة بعض أهل اليمن لمحبتهم لبيت السعدي.

المهم أنه بعد نجاح عبدالملك بإلحاق الهزائم المتوالية في الإباضية بالحجاز وطردهم منها كلية تابع مطاردتهم في اليمن. استولى على صنعاء وولى عليها قريبه عبدالرحمن بن يزيد بن عطية السعدي وفرق عماله على المخاليف وفرغ نفسه لمحاربة الثوار من الإباضية وألحق بهم الهزائم بالجَند وفي عدن، وتوجه إلى معقلهم الرئيسي في حضرموت. وتذكر بعض المصادر[٨٠] أنه ألحق بهم في حضرموت هزائم متوالية،إلا أن توصله معهم في النهاية إلى تسوية من بنودها: أن يعيد إليهم ما غنمه منهم في الحرب، وأن يستعمل على حضرموت رجلا منهم يختارونه من بينهم، وكتبوا بذلك كتابا بينهم، تجعل الباحث يشكك في أن انتصاراته كانت فعلا حاسمة. وقد بررت المصادر[٨١] توصله إلى التسوية مع الإباضية في حضرموت بأن الخليفة مروان كتب إليه في شهر شوال سنة ١٣١هـ يأمره أن يستخلف رجلا على اليمن ويحضر الموسم فيقيم الحج للناس، وهو أمر مستغرب من خليفة حاسم حازم كيس لقائد في وسط معارك قتالية يحقق انتصارات متوالية -حسب زعم المصادر- وتنفيذ الأمر من قبل القائد أكثر استغرابا. مع أنها تذكر أن عبدالملك كتب إلى ابن أخيه والي المدينة الوليد بن عروة بن محمد: أن يوافي مكة من المدينة فإن أبطأ قدومه يقيم أمر الموسم ويصلي بالناس ...[٨٢] فلماذا إذن يهدر انتصاراته ويتنازل لخصومه؟

وأناب عبدُالملك عبدَالرحمن بن يزيد بن عطية السعدي على اليمن وأقدم على عمل طائش إذ خرج قاصدا مكة ومعه عدد صغير جدا من الرجال قيل إنه ١٢ وقيل إنه ٤٠ مع أنه يدرك أن لأهل اليمن ترات كثيرة في رقبته من جراء حروبه معهم وقتله لكثير من رجالهم في هذه الحروب سواء كانوا يعتنقون مذهب الإباضية أو مجرد ثائرين على السلطة كعادة قبائل اليمن في تلك الأزمنة، فأصبح صيدا سهلا في أيديهم فلما صار بأرض مراد اتبعه قوم من قبيلتي همدان ومراد ممن لهم ثارات في رقبته فقبضوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى حضرموت.[٨٣]

أرسل نائبه على اليمن عبدالرحمن بن يزيد بن عطية جيشا بقيادة شعيب البارقي للانتقام من القبائل التي قتلته فارتكب أعمالا -إذا هي صحيحة- في منتهى الوحشية فقتل الرجال والصبيان وبقر بطون النساء وأخذ الأموال وأخرب القرى.[٨٤]

وبعث الخليفة مروان بن محمد الوليد بن عروة بن محمد،ابن والي اليمن السابق (٩٦- ١٠٣هـ)، واليا على

اليمن وارتكب أعمالا لا تقل فضاعة عن أعمال البارقي السابقة إن لم تكن هي نفس الأعمال نسبت لكل منهما. وقام بمحاربة زعماء الإباضية في حضرموت وقتلهم، وبقي واليا على اليمن حتى قضى العباسيون على الخلافة الأموية.[٨٥]

وهنا لا بد من التوقف عند ظاهرة امتداد حركة الخوارج إلى اليمن في مطلع القرن الثاني الهجري مع أن الحركة في نشأتها بعد قبول التحكيم لحسم النزاع بين علي وأهل العراق ومعاوية أهل الشام في معركة صفين سنة ٣٧هـ لم يكن من بين أعضائها أحد من أهل اليمن بل أن القبائل اليمانية وقبائل غرب الجزيرة العربية لم تجتذبهم أفكارها وشعاراتها وإنما اجتذبت أفرادها بشكل رئيس من قبيلة تميم وقبيلة ربيعة خاصة حديثي العهد منهم بحياة الاستقرار والتحضر ولذا كانوا يوصفون من قبل خصومهم بأنهم "أعراب بكر وتميم". أما أهل اليمن في العراق فكانوا عماد شيعة علي بن أبي طالب أو ضمن التيار العام غير المنتمي لأي من هاتين الحركتين. وكانت اليمن إبان النزاع بين علي ومعاوية تميل إلى التعاطف مع علي وقضيته.

إذا ما أسباب تحول المزاج الشعبي لأهل اليمن؟ لا نملك تفسيرا لهذا التحول سوى أن سياسة الأمويين تجاه اليمن كانت تقوم بشكل رئيس على تحصيل أكبر قدر من الضرائب وتركوا حكمها لولاة اتصفوا بالقسوة والجور في حكمهم لليمن. من هنا تكونت أرضية خصبة لامتداد الفكر الخارجي الذي يقوم على أن بني أمية جائرون ويجب مقاومتهم بالسلاح فكان هذا الفكر يلبي معاناة أهل اليمن إضافة إلى أن "أمير المؤمنين" في الفكر الخارجي يمكن اختياره ممن تتوفر فيه الشروط لشغل هذا المنصب بصرف النظر عن نسبه. والملاحظ أن معقل هذه الحركة في اليمن كان في حضرموت وينتمي إليها معظم أتباعها، أما باقي القبائل والمناطق فهي كعادتها متذبذبة الولاء، فلعل بعض من انتموا إلى هذه الحركة لم يكن فهمهم لمبادئها عميقا أو جديا بل كانوا يوظفونها لمصلحتهم عندما يحتاجونها أو كانوا يخضعون لها اضطرارا عندما تمثل قوة تقتضي المصلحة مسايرتها. على أية حال إنها ظاهرة جديرة بدراسة معمقة أكثر من إبداء ملاحظات عابرة.

ثالثًا: اليمامة وبلاد الجبلين:

لم يكن وسط الجزيرة وحدة إدارية واحدة وإن كانت ولاية اليمامة تشكل أكبر أجزائه ويولى عليها الولاة وكانت تتبع والي المدينة في الحقبة السفيانية من العهد الأموي (٤٠ – ٦٤هـ) ثم انتقلت إلى التبعية لوالي العراق في الحقبة المروانية في وقت ما بعد سنة ٧٥هـ.

وقاعدة اليمامة "حجر" وهي سرة اليمامة ومنزل السلطان والجماعة.[٨٦] على أن امتداد سلطات والي اليمامة جغرافيا ليس واضحا وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تحديدها إداريا وجغرافيا.[٨٧] وهناك الكثير من المناطق المهمشة في وسط الجزيرة وشمالها مما لا تعين المصادر في تحديد تبعيتها الإدارية ولا كيف كانت تدار، وهل للدولة وجود فعلي

فيها أم لا، مثل وجود عمال وقضاة ومؤسسات إدارة أم أنها تركت تسير وفق نظامها القبلي السابق من حيث الزعامة وحل الخصومات، وإن عجزوا عن حل خصوماتهم رفعوا ظلاماتهم إما لوالي اليمامة أو لوالي المدينة وقضاتها. كل ما هناك هو بعض الإشارات اليسيرة إلى السعاية على الصدقات، وإن كانت الصدقة تشكل الركن الخامس من أركان الإسلام إلا أنها في ذات الوقت يفترض أنها تمثل التبعية الإدارية فكل ولاية تجبي الصدقة من المناطق التابعة لها، ومع ذلك فأقوى الظن أن الصدقات تتم جبايتها على أساس القبيلة لا على أساس المكان، فبعض القبائل تكون تابعة لوالي المدينة وأخرى لوالي اليمامة وقد تكون متداخلة في السكنى، وكثيرا ما يشار إلى بعض الأماكن أنه يسكنها أخلاط من الناس. يقول صاحب كتاب "بلاد العرب": "... أن جميع قيس [عيلان بن مضر بن نزار] جبايتها إلى اليمامة، ما خلا بني كلاب، فإن جبايتهم إلى المدبنة. فأما عقيل والعجلان وقشير ونمير ونهم وباهلة وكل قيس فإلى اليمامة. وأما جميع بني سعد وضبة والرباب والحزن،حزن بني يربوع، وغير بني يربوع فإن جبايتهم إلى ليمامة".[٨٨] والأصفهاني من رجال القرن الثالث الهجري ووفاته في مطلع القرن الرابع،[٨٩] ولا نعرف على وجه التحديد إن كان يتحدث عن عصره أو العصور التي سبقته لكنه في كل الأحوال لا نتوقع حدوث تغييرات جذرية فيما يتعلق بجباية الصدقات ما بين القرن الأول والثالث وربما حدثت بعض التعديلات. وقد اقتصرنا في الاقتباس السابق عن الأصفهاني على ما نطمئن إلى أنه ينطبق زمنا حتى نهاية العهد الأموي وتركنا تحديداته الواسعة التي ذكر أن جابي اليمامة يجبي بجوف المربد وبرمال اليمن قريبا من صنعاء والبحرين وجبلي طيئ فهو إما أن يكون أخطأ أو أنه ينطبق قوله على فترة زمنية غير الفترة التي ندرسها لأنه شمل بتحديده الجزيرة العربية باستثناء الحجاز والشمال الغربي للجزيرة العربية، وهذا التحديد ينطبق تقريبا على امتداد نفوذ نجدة بن عامر الحنفي الذي اتخذ من حجر اليمامة قاعدة له. ونملك من الأدلة القوية ما يؤيد استبعادنا لتحديداته الواسعة، منها ما ذكر الأصفهاني نفسه[٩٠]: "والقصيم ... فيه مياه كثيرة وقرى ... وأهل القصيم يسكنون في خيام الخوص، وهي منازل بني عبس وغيرهم، وفيه نخل كثيرة. وهو من عمل المدينة ... وبالقصيم ماء لبني أسد..". ومنها ما ذكره غيره فالحكم بن المطلب المخزومي عهد إليه والي المدينة في وقت ما بين سنتي ١٠٧-١٢٠هـ بسعاية المدينة والحجاز وبعض نجد وكانت بلدة فيد بالجبلين من المراكز التي يترل فيها لأداء مهماته.[٩١]

ورمز السلطة الآخر هو "العريف"[٩٢]، فالولاة يعينون عرفاء على القبائل ومهمتهم تتداخل مع مهمة السعاة بشكل رئيس، ولعل الفرق بينهما أن العريف يكون مستقرا في مكان عرافته وله أعوان مكلفون رسميا بتنفيذ تعليماته وأوامره، وسلطاته واسعة نسبيا، بينما فِرق السعاة تزور المناطق موسميا في وقت محدد من السنة، فبالنسبة للبادية يكون في الغالب في نهاية فصل الربيع وقت نتاج المواشي، وفي جباية المحاصيل والثمار من المزارع والبساتين في المدن والقرى يكون قبل حصاد المحاصيل وجني الثمار. وقد اتصف العرفاء عامة بالعسف والظلم والتعدي على أموال الرعية باسم السلطة سواء كان ذلك باسم جباية الصدقة أو باتخاذ أدنى ذريعة للعقاب عن طريق مصادرة الممتلكات سواء بعض المواشي أو كلها.[٩٣]

لقد كان وسط الجزيرة مثل اليمن مهملا من قبل الحكومة المركزية في دمشق سيما أنها أضعف اقتصاديا من اليمن وليس فيها ما يجذب اهتمام الخلفاء، ومن هنا جاء تسلط الولاة وظلمهم للرعية. وإذا أخذ في الاعتبار طبيعة السكان وعدم قبولهم بالضيم وحساسيتهم من التسلط مما أدى إلى نفورهم من حكم الأمويين المركزي وتطلعهم إلى التخلص منه كل ذلك قاد إلى أن أصبح وسط الجزيرة وشرقها بيئة حاضنة لحركات الخوارج بما تقوم عليه من عدم اعتراف بحكومة الأمويين وعدها غير شرعية والثورة عليها واجبة. وقد أحسن الجاسر[٩٤] في تحليله لسرعة انقياد أهل اليمامة للانضواء تحت لواء الزعيم الخارجي نجدة بن عامر الحنفي، الذي امتدت حركته بين سنتي ٦٣هـ/ ٦٨٢م-٧٢هـ/٦٩١م)، فيقول: "... أحس سكان هذه البلاد من آثار انصراف هذه الدولة عنهم ... ما دفعهم إلى التطلع إلى حالة أحسن مما هم عليها، وهذا حملهم على سرعة الانقياد بسهولة ويسر لهذا الحاكم الجديد، الذي قد يكون له من معرفته بأحوالهم، وإدراكه جوانب مما يتذمرون منه، مما كان خير عون له في استجابتهم وانضوائهم تحت حكمه، قبل أن تثبت دعائم هذا الحكم، أو تتضح معالمه، بل لا يزال أشبه بـــ (مشيخة قبلية) من (المشيخات) التي طالما خضع لها أولئك القوم لنفوذها منذ أقدم عصورهم، ولا يزالون يخضعون، إذ لم يتمتعوا بحكم خير منه يتلاءم مع ظروف حياتهم التي لم تتغير بعد عما كانت عليه مما ألفوه واعتادوه في تلك العصور على تعاقبها.

وكان استيلاء نجدة على تلك البلاد سهلا ولكن الأمر انفرط من يده بسرعة مذهلة حين تفرق عنه أصحابه."

ومما يلاحظ على سكان وسط الجزيرة حاضرة وبادية أنهم ينتمون بصفة رئيسة إلى قبائل، ففي وسط اليمامة خاصة قبيلة بني حنيفة وقيس بن ثعلبة وسدوس بن شيبان ويشكر وهي إجمالا قبائل مستقرة في قرى على امتداد الوادي وتشتغل بالزراعة بشكل رئيس، وقبائل عامر بن صعصعة وهؤلاء يسكنون جنوبي اليمامة وغربيها، ولوفرة المياه في الجنوب فكان بعض هذه القبائل يشتغل بالزراعة، أما التي تسكن في الغرب فحياتهم تقوم على الرعي بشكل رئيس. أما بطون قبيلة بني تميم فيسكنون شرقي اليمامة ويتصلون بتميم في البحرين وشمالي اليمامة ويمتدون شمالا غربيا في شرق القصيم وشمالا شرقيا حتى كاظمة (الكويت). وتسكن قبيلة طي في الجبلين وتمتد بعض بطونها شمالا فيما وراء النفود وتجاور قبيلة كلب وتجاورها قبيلة أسد من الغرب والجنوب الغربي كما تتجاور في بعض الأماكن وخاصة من ناحية الشرق والجنوب الشرقي مع بطون مع بعض قبائل غطفان مثل فزار ة وعبس.

وولاة اليمامة في العهد المرواني هم:

١ - يزيد بن هبيرة المحاربي[٩٥]، وهو أحد قواد عبدالملك بن مروان أرسله مع سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبدالرحمن الحكمي في جيش قوامه ستة آلاف جندي إلى العراق بناء على طلب الحجاج لمحاربة الخوارج، فشارك في محاربتهم.[٩٦] ولاه عبدالملك بن مروان اليمامة، وكان ممدحا من قبل الشعراء فقال فيه جرير:

وأرى الإمام إذا تبيّن ناكثـــــا   أو ناكثون رماهـــمُ بيزيـــد[٩٧]

مما يمكن الاستنتاج منه أن يزيد تولى محاربة بعض الأفراد أو القبائل المتمردة على السلطة سواء كانوا يدينون بمذهب الخوارج أو لم يكونوا. وقوم إبراهيم هذا بنوجسر حلفاء لبني عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.(٩٨)

٢ - إبراهيم بن عربي الليثي الكناني ولاه عبدالملك اليمامة وكان مرتبطا بالخليفة مباشرة بدليل أن الحجاج كتب إلى عبدالملك: "إن قطريا [بن الفجاءة الخارجي] قد شغل من قبلي من المقاتلة فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلى إبراهيم بن عربي في أمر هذا الخارجي." فكتب إلى إبراهيم وهو باليمامة: "أن ســـر إلى البحرين، فإن ظفرت بالمحاربي فلا تقتله وأحسن إليه، واحفظ له بلاءه عند أمير المؤمنين مروان، فإنه لجأ إليه يوم الجمل، ثم تحول إلى بني هميم." فخرج إبراهيم إلى البحرين في ألفين فهزم الخوارج وتفرقوا، ورجع إبراهيم إلى اليمامة.(٩٩)

ونملك نصا يتضمن أن والي اليمامة إبراهيم بن عربي يرتبط بعامل الخليفة عبدالملك على بادية قيس، فالشاعر والخطيب التميمي البعيث واسمه خداش بن بسر بن أبي خالد كان الوالي إبراهيم بن عربي أضرّ به في إبل له، فخرج إلى عبدالملك وتظلم لديه مما صنع به ابن عربي، فكتب عبدالملك إلى حصين بن خليد العبسي، وكان على بادية قيس، يأمره أن يأخذ إبراهيم بإنصافه ففعل.(١٠٠)

والمرجح أنه في وقت لاحق تم ربط والي اليمامة بالحجاج والي العراق بدليل أن الشاعرة ليلى الأخيلية ذهبت إلى الحجاج في العراق تشكو قائلة : "أضر بنا العريف في الصدقة، وقد خربت بلادنا، وانكسرت قلوبنا، فأخذ خيار المال. قال: ... اكتبوا إلى صاحب اليمامة بعزل العريف الذي شكته."(١٠١)

وظل إبراهيم بن عربي على ولاية اليمامة طيلة عهد عبدالملك وابنه الوليد من بعده(١٠٢)، ثم عزله سليمان بن عبدالملك عندما تولى الخلافة سنة ٩٦هـــ في إطار سياسته في عزل ولاة والده وأخيه الوليد. ويذكر خليفة ابن خياط(١٠٣) أن يزيد بن عبدالملك عندما تولى الخلافة أعاد ابن عربي مرة ثانية واليا على اليمامة. وهو أمر فيه نظر.

٣ - نوح بن هبيرة. ذكر خليفة بن خياط(١٠٤) أن سليمان بن عبدالملك ولى على اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي ثم نوح بن هبيرة. لكن البلاذري(١٠٥) ينص أن عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق ليزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـــ) هو الذي ولى على اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي، وأن سفيان وأهل اليمامة ألحقوا هزيمة بمسعود ابن أبي زينب الخارجي الذي قدم من البحرين إلى اليمامة. وتابع ابن الأثير(١٠٦) البلاذري في روايته كلها ويضع قدوم مسعود بن أبي زينب إلى اليمامة وهزيمته في أحداث سنة ١٠٥هـــ. وما يقوي رواية البلاذري أن عمر ابن هبيرة الفزاري تربطه بعض الوشائج مع العقيلي إذ كان عمر مقدما في جيش لغزو الروم يقوده عمرو بن معاوية العقيلي والد سفيان.(١٠٧) وابن خياط نفسه(١٠٨) يذكر في أحداث سنة ١٠٥هـــ: "وفي ولاية ابن هبيرة خرج مسعود ابن أبي زينب فغلب على البحرين واليمامة فقتله سفيان بن عمرو العقيلي."

أما نوح بن هبيرة فيبدو لأول وهلة أنه أخ ليزيد بن هبيرة المحاربي والي اليمامة الذي تم ذكره آنفا لكني أظن أنه

ابنه، لأن يزيد يكنى أبا داود فيقول الشاعر عبدالله بن الحجاج الثعلبي:

رأيـــتُ أبا داود في محــدثاتهـــا زعيما على قيسٍ لقد أبرح الدهرُ(١٠٩)

ولا يستبعد أنه سمى أبناءه بأسماء الأنبياء ومنهم نوح هذا.

٤ - زرارة بن عبدالرحمن، ذكر خليفة بن خياط(١١٠) أنه وال لعمر بن عبدالعزيز. ولم أجد معلومات عن زرارة هذا في المصادر التي تيسر لي الإطلاع عليها. والمرجح أن المقصود زرارة بن مصعب بن عبدالرحمن بن عوف، والكتب التي ترجمت لزرارة بن مصعب بوصفه من رجال الحديث.(١١١) ووالده مصعب بن عبدالرحمن تولى الشرطة في المدينة والقضاء في العهد السفياني ومشهود له في الكفاءة في عمله، ثم انضم إلى ابن الزبير في حركته في مكة وكان من أكفأ أنصاره وأبرزهم في ميدان القتال وقتل معه.(١١٢)

٥ - ونقل الجاسر(١١٣) عن أبي زرعة: أن عمرو بن عبدالله الأنصاري كان عامل عمر بن عبدالعزيز على اليمامة، على أن ابن حجر(١١٤) قال في ترجمته لعمرو بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري: "استعمل عمر بن عبدالعزيز عمرو بن عبدالله بن أبي طلحة ... وكان عاملا على عمان."

(البلاذري: أنساب ٣٥١/٨ وأما الغمر بن يزيد فهو صاحب سيح الغمر باليمامة، وولي اليمامة، وكانت له ضياع بالسواد فقبضها بنو هاشم)

٦ - سفيان بن عمرو العقيلي. أشرنا آنفا أن عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق ليزيد بن عبدالملك ولى سفيان بن عمرو العقيلي على اليمامة.

٧ - المهاجر بن عبد الله الكلابي ولاها إياه هشام بن عبدالملك.(١١٥) وقياسا على التولية السابقة فلا يستبعد أن يكون والي العراق لهشام خالد بن عبدالله القسري هو الذي ولى المهاجر على اليمامة، على أن الذي يجب الإشارة إليه أن قبيلة بني كلاب بن عامر بن صعصعة لها حضور قوي في الشام خاصة في الجزيرة.

٨ - قام علي بن المهاجر الكلابي بشؤون ولاية اليمامة بعد وفاة أبيه فأقره والي العراق يوسف بن عمر الثقفي واليا عليها.(١١٦) وظل واليا عليها حتى قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ، وبعد مقتل الوليد ثارأهل اليمامة على الوالي علي بن المهاجر وأخرجوه منها، ولم يستعد الأمويون السلطة على اليمامة إلا بعد أن ولى آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري العراق سنة ١٢٨هـ(١١٧) وأسند هذا الوالي ولاية اليمامة إلى ابنه المثنى ويبدو أنه لم يجد مقاومة تذكر في استعادة السلطة للأمويين[ابن ألثير ٣٠١/٥ فوردها وهم سلم، فلم يكن حرب]، وظل المثنى واليا على اليمامة، واستقرت الأحوال بها.(١١٨)

ويلاحظ أن أطول ولاة اليمامة حكما إبراهيم بن عربي الذي حكم اليمامة في عهدي عبدالملك وابنه الوليد.

وقد ألف الجاسر كتابا بعنوان: "إبراهيم بن عربي –موطد الحكم الأموي في نجد" خصص معظم أبحاث الكتاب لدراسة أوضاع اليمامة إبان ولايته وطبيعة حكمه. وخلص الجاسر [١١٩] إلى أن إبراهيم بن عربي "سار في تصريف أمور البلاد، وحكمها بالأساليب التي كان يحكم بها الحجاج ولايته الواسعة، والتي يقطنها أقوام مختلفون في كل أمورهم عن سكان الجزيرة العربية من العرب، وعما ألفوه من حياة تحرر وانطلاق ... ومن سمات ذلك الحكم أنه كان يأخذ البريء بجريرة غيره..."

ويليه المهاجر بن عبدالله الكلابي وابنه علي اللذين حكما اليمامة في عهدي هشام والوليد بن يزيد (١٠٥-١٢٦هـ). ويلاحظ كذلك أن معظم الولاة كانوا من قبائل قيس عيلان والتي ذكرنا أن بطونا منها تسكن في جنوبي وغربي اليمامة وهم (يزيد بن هبيرة –محارب بن خصفة، نوح بن يزيد بن هبيرة، سفيان بن عمرو العقيلي – عقيل، المهاجر بن عبدالله الكلابي- كلاب بن عامر بن صعصعة، علي بن المهاجر الكلابي، المثنى بن يزيد بن عمر الفزاري- فزارة) وأن بطون قبيلة ربيعة وهم حنيفة وسدوس وقيس بن ثعلبة وغيرهم الذين يسكنون في وسط اليمامة في مجتمع حضري مستقر وحجر قاعدة اليمامة لهم وكذلك الخضرمة البلدة الزراعية المهمة والواقعة على الطريق التجاري وغيرهما من البلدات تم استبعادهم كلية من السلطة وليس هناك ما يشير إلى الاستعانة بهم حتى بالوظائف الثانوية. كما تم استبعاد بطون قبيلة تميم كذلك، التي تأتي بالمقام الثاني بعد حنيفة وبطون ربيعة في سكناها لليمامة، وإن كانت حياة بطون هذه القبيلة أكثرهم بادية.

ولعل تفسير هذه السياسة أن هاتين القبيلتين هما الأقوى في وسط الجزيرة العربية خاصة حنيفة، وهما اللتان تمدان فرق الخوارج بالقادة والأتباع.

أما سياسات الولاة والعمال بصفة عامة فكانت تقوم على الاستبداد والعسف والتعصب لقبيلة على أخرى خاصة التعصب للقبائل القيسية على بني حنيفة. وقد أخفقت المدونات التاريخية في رصد شيء من الممارسات الظالمة لممثلي الدولة سواء كانوا ولاة أو عرفاء أو سعاة إلا أنه لحسن الحظ أن بعض الشعراء أصبحوا ضمير المظلومين ومشاعرهم فرصدوا جانبا من مظالمهم وأناتهم في قصائد صادقة مؤثرة أوصلوها إلى الخلفاء فاستجابوا لقليل من شكاواهم وذهب أكثرها أدراج الرياح. من ذلك الشاعر الراعي النميري (ت ٩٦هـ) الذي وفد على الخليفة عبدالملك بن مروان شاكيا ظلم العمال والسعاة وألقى أمامه قصيدة تستلين قلب الحجر لو كان للحجر قلب، منها:

أوليَّ أمـــــر الله إن عشيرتـــــي	أمسَى سَوامُهُمُ عزيـــنَ فُلُــولا
قطعوا اليمامةَ يُطرَدُونَ كأنهـــمْ	قـــومٌ أصابـــوا ظالمين قَتيــــلا
يَحدونَ حُدباً مائــلاً أشرافُهـــا	في كل منزلة يَدَعْـــنَ رَعِيــــلا
شَهْرَيْ ربيعٍ ما تذوقُ لبونُهـــمْ	إلا حُموضا وَخْمــة وذويـــلا

حتى إذا جُمعتْ تُخيّرَ طِرقُهـا ... وثَنى الرعاءُ شَكيرَها المَنْخُـولا

وأتَوْا نساءهم بنِيـبٍ لم يـدَعْ ... سوءُ المحابسِ تحتَهـنّ فَصيـلا

أوليّ أمـر الله إنــا معشـرٌ ... حُنفاءَ نَسجُدُ بكـرة وأصيـلا

عـربٌ نـرَى لِله في أموالنـا ... حقَ الزكـاةِ مُنَـزلاً تنزيـلا

قومٌ على الإسلام لَمّا يَمنعـوا ... ماعونَهم ويُضَيعـوا التهليـلا

فادفـعْ مظالمَ عَيّلـتْ أبناءنـا ... عنا وأنقِـذْ شِلْوَنـا المأكـولا[١٢٠]

...

وأعاد الشاعر الراعي الكرة مرة أخرى، وكرر الشكوى في عام آخر، ووصف ما يعانيه قومه من الجور والظلم ما إن يرفع عنهم أهلكهم، ومن قوله في ذلك:

أزرَى بأموالنـا قـومٌ أمرتَهـمْ ... بالعدل فينا فما أبقَوْا وما قَصَدُوا

نُعْطِي الزكاةَ فما يَرْضَى خطيبُهُمُ ... حتى تُضاعفْ أضعافـا لها عَـددُ

...

أما بلاد الشاعر وقومه بني نمير فهي الشُريف[١٢١] وتقع غرب حجر (الرياض) حاليا بحوالي ٣٣٠ كيلا، ومن بلدان الشريف العامرة في هذا العهد: الدوادمي والشعراء وما حولهما من الهجر والقرى.[١٢٢]

ولا يقتصر ظلم الولاة على قبيلة دون أخرى فقبيلة باهلة تضج بالشكوى مثل قبيلة نمير فشاعرها عمرو بن أحمر الباهلي يجأر بالشكوى من شدة ما يلاقيه قومه من عمال الزكاة لا باصطفاء خيار أموالهم فحسب بل بجلدهم بالسياط الأصبحية ليرغموهم على الخضوع والخنوع ليأخذوا نجائب إبلهم فيقول مخاطبا يحي بن أبي الحكم بن العاص والي المدينة لعبدالملك بن مروان سنة ٧٥هـ:

يا يحيَ يا ابنَ إمـامِ النـاسِ أهلَكَنـا ... ضربُ الجلودِ وعُشْرُ المـال والخسـرُ

...

إني أعـوذ بمـا عـاذ النبيُ بـه ... وبالخليفـةِ أنْ لا تقبـل العـذُرُ

من مترفيكمْ وأصحابٍ لنـا معهـمْ ... لا يعـدلـون ولا نأبَى فننتصـرُ

...

هل في الثماني مِنَ التسعـين مظلمـةٌ ... وربـهـا لكتاب اللـه مستطـرُ

يكسونهم أصبحيـاتٍ محـدرحـةً إنّ الشيوخَ إذا ما أُوجِعُـوا ضَجِـرُوا

حتى يَطيبـوا لهـم نفسـا علانيـةً عن القِلاصِ التي من دونِهـا مَكَـرُوا

لسنا بأجسـادِ عـادٍ في طبائعنـا لا نـأْلَمُ الشـر حتى يألَمَ الحَجَـرُ

ولا نصارَى علينا جزيـةٌ نُسُـكٌ ولا يهـود طغامـا دينُهـم هَـدَرُ

إنْ نحـنُ إلا أنـاسٌ أهـلُ سائمـةٍ ما إنْ لنا دونَها حـرثٌ ولا غُـرَرُ

ملّـوا البـلادُ وملّتهـمْ وأحرقهـمْ ظلمُ السعـاةِ وباد المـاءُ والشجـرُ

إنْ لا تداركهُـمْ تصبـحْ منازلُهـمْ قفرا تَبيـضُ على أرجائهـا الحُمُـرُ

أدركْ نسـاءً وشِيبـاً لاقـرارَ لهم إنْ لم يكنْ لك فيما قد لَقُـوا غِيَـرُ

إنّ العيابَ التي يُخفُـونَ مشرجـةً فيهـا البيـانُ ويُـلْوَى دونَك الخَبَرُ

فابعثْ إليهم فحاسبْهُـمْ مُحاسبـةً لا تخـفَ عينٌ على عـينٍ ولا أثَـرُ (١٢٣)

.....

وتسكن هذه القبيلة فيما يسمى قديما "عِرض باهلة" وما يسمى حديثا "عِرض شمام أو عِرض القويعية". وكانت تتجاور في السكنى مع قبيلة نمير. أما مدينة القويعية الحالية فتقع غرب مدينة الرياض وتبعد عنها حوالي ١٧٥ كيلا.(١٢٤)

ولعل قول الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي السابق: "ملوا البلاد وملتهم وأحرقهم ظلم السعاة" هو الذي دفع بادية بني مجاشع التميمية لترك بلادها والهجرة إلى الشام بحثا عن حياة أفضل وأكثر عدلا في موطنها الجديد، ويتذكرهم الشاعر الفرزدق فيقول:

ألا ليتَ شعري مـا أرادتْ مجاشـعٌ إلى الشـام أم مـاذا أراد أميرُهـا

وقال أيضا في الحنين إليهم:

إن أبـكِ قومي يا نـوارُ فإنّـني أرى مسجدَيْهم بعدهم كالبلاقـعِ (١٢٥)

وكان الذين يمارسون السلطة والظلم عمال وافدون من خارج اليمامة ويستعينون بأعوان محليين وهو ما عناه الشاعر عمرو بن أحمربقوله السابق: "من مترفيكم وأصحاب لنا معهم". وكان ولاة اليمامة مثل ولاة العراق واليمن يسعينون بالمحافظة على الأمن والنظام وتثبيت سلطة الأمويين بكتيبة أو كتائب من الشام فهذا الإمام عبدالرحمن

الأوزاعي الشامي (ت ١٥٧هـ) خدم في شبابه عسكريا في اليمامة حيث يذكر "أن مكتبه باليمامة" أي في ديوان الجند[١٢٦]، وأخذ الحديث عن بعض محدثيها[١٢٧]، وقد ذكر بعض ما شاهده من مساوىء ولاتها فقال: "كنت باليمامة وعليها رجل وال يمتحن الناس من أصحاب رسول الله ﷺ: إنه منافق وما هو بمؤمن، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسيء منافقا وما يسميه مؤمنا فأطاعوه على ذلك وجعلوه له ..."[١٢٨]

وعندما خشي والي اليمامة المهاجر بن عبدالله الكلابي أن يتعرض الشاعر جرير لأذى جسدي من خصومه بني ربيعة وضع عليه حراسة خاصة مكونة من خمسين رجلا من جند الشام وأمرهم أن يلزموا باب دار جرير وأن يكونوا معه في ركوبه.[١٢٩] ويذكر أنه كان مع والي اليمامة علي بن المهاجر الكلابي ستمائة جندي من أهل الشام.[١٣٠]

وعندما تدهورت أوضاع الخلافة بعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٦هـ)، ثم قتل بعده والي العراق يوسف بن عمر الثقفي الذي ولى عليا على اليمامة رأى زعماء بني حنيفة أن الوالي فقد شرعيته لعدم وجود سلطة يمثلها، فعرض زعيمهم المهير بن سلمي الحنفي على الوالي ثلاث خيارات وقال له: إن الوليد قتل، وإن لك عليّ حقا، وكان أبوك لي مكرما، وقد قتل صاحبك، فاختر خصلة من ثلاث: إن شئت أن تقيم فينا وتكون كأحدنا فافعل، وإن شئت أن تتحول عنا إلى دار [بني] عمك فتنزلها أنت ومن معك إلى أن يرد أمر الخليفة المولّى، فتعمل بما يأمر به فافعل، وإن شئت فخذ من المال المجتمع والحق بدار قومك. لكن علي بن المهاجر رفض جميع هذا الخيارات ورد على زعيم بني حنيفة بصفاقة قائلا: أنت تعزلني يا ابن اللخناء! تفاقم الوضع فالتف أهل اليمامة حول المهير وتعبأ أعوان الوالي وهم ٦٠٠ جندي من أهل الشام ومثلهم من بني عامر قوم الوالي وأتباعه. وفي محاولة أخيرة لحل الإشكال سلميا عرض المهير على جيش الوالي وأتباعه الخيارات التي سبق أن عرضها على الوالي لكنهم رفضوها إتباعا له، ونشبت الحرب بينهم بالقاع في سوق حجر وأسفرت عن هزيمة ساحقة للوالي وأتباعه وتمكن من النجاة بنفسه والهرب إلى المدينة. واستطاع أحد زعماء اليمامة وهو عبدالله بن النعمان القيسي أحد بني قيس بن ثعلبة في نفر من قومه من السيطرة على بيت مال اليمامة وحملوه معهم.[١٣١]

أقام المهير حكومة محلية مستقلة فرض فيها سلطة بني حنيفة على اليمامة للمرة الثانية بعد حكومة نجدة بن عامر الحنفي، واستعمل على شرطه عبدالحكم بن حكام العبيدي، ويظهر أنه جعل عبدالله بن النعمان القيسي نائبا له. إن ملامح هذه الحكومة وإن لم تكن واضحة تماما تدل على أنها كانت إئتلافية و لم تكن على أساس أسري بدليل أن المهير من قبيلة بني حنيفة ونائبه عبدالله بن النعمان من قبيلة قيس بن ثعلبة، وكلا القبيلتين من ربيعة، أما صاحب الشرطة عبدالحكم فلم يتضح لنا لأي بطون ربيعة كان ينتسب. لم يلبث المهير أن مات فاستخلف عبدالله بن النعمان على حكم اليمامة وارد عبدالله أن يبسط سلطته على قبائل كعب بن عامر بن صعصعة في جنوبي اليمامة فاستعمل على الفلج (الأفلاج) المندلث (المندلف) بن إدريس الحنفي وهي بلاد قبيلة بني جعدة بن كعب وأمره أن يأخذ

صدقات بني كعب (عقيل وقشير وجعدة والحريش) جميعا، لكن قبائل بني كعب بن عامر لم تكن مستعدة للقبول بحكم بني حنيفة فجمعت جموعها وحاربت المندلث وقتل هو وأكثر أصحابه.(١٣٢) أعد حاكم اليمامة عبدالله بن النعمان جيشا من حنيفة وغيرها من سكان وسط اليمامة قوامه ألف مقاتل وسار بهم نحو الفلج لإخضاع أهلها والثأر للوالي المعين المندلث بن إدريس ودخل معهم في معركة بالفلج (الأفلاج) وألحق بهم الهزيمة.(١٣٣)

استمرت الجولات بينهم في حرب عبثية أرهقتهم جميعا حتى ولى الخليفة مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري على العراق وعين الأخير ابنه المثنى واليا على اليمامة فوردها وقد أخلدوا جميعا إلى السلم، على أن الوالي القيسي الجديد يزيد بن عمر تعصب ضد بني حنيفة، فقد تشاهد بنوعامر ضد بني حنيفة فانحاز إليهم وضرب عدة من بني حنيفة. أما قاضيه طلحة بن إياس العدوي فكان أعقل منه وأكثر عدلا فكان الوالي يحيل إليه الشكاوى من العامريين ضد بني حنيفة فلم يقبل شهادة عامري فهدأت البلاد وسكنت (١٣٤)، ومع هذا السكون سكن الحكم الأموي سكونا أبديا. أما والي اليمامة المثنى بن يزيد فقاوم مثل والده في العراق الحكم الجديد فوجه إليه عبيدالله بن عبدالله بن المدان الحارثي والي المدينة من قبل أبي العباس إبراهيم بن حسان السلمي الذي يدعى أبا حماد الأبرص، وهو باليمامة سنة ١٣٣هـ فقتله وقتل أصحابه. (١٣٥)

أما **بلاد الجبلين** (منطقة حائل) فكانت تتبع إداريا لوالي المدينة، ويظهر أن هذه التبعية لا تتجاوز كثيرا دفع الصدقات أما باقي شؤونها فقد تركت تديرها بنفسها، وظل النظام القبلي هو السائد. وإن سلمت بلاد الجبلين من الولاة الجائرين فإنها لم تسلم من السعاة الذين يأخذون منهم الصدقات ويضعونها في غير مواضعها التي شرعها الله. ومن كان هذا فعله لا يتوقع منه إنصافا للناس في توفير كرائم أموالهم إن أمن العقوبة. ومثلما أن خلفاء بني أمية كانوا يختارون ولاة الحجاز في معظم الأحوال على أساس القرابة فمن الطبيعي إذا أن يختارهؤلاء الولاة السعاة على الصدقات على أساس القرابة والمحاباة لا على أساس الكفاءة والتقوى. فالخليفة هشام بن عبدالملك ولى خاله إبراهيم ابن هشام بن إسماعيل المخزومي على الحجاز(١٣٦)، ووالي الحجاز إبراهيم بن هشام ولى قريبه الحكم بن المطلب المخزومي على صدقات قبيلة طيء وكان يتخذ من بلدة فيد مقرا له، وعندما مر به بفيد أحد وجوه قريش من أهل المدينة، وعلم الحكم أن هذا الرجل في طريقه إلى العراق ليستعين بوالي العراق خالد بن عبدالله القسري لقضاء بعض ديونه فما كان منه إلا أن ذهب إليه واستضافه وأكرمه، ثم قال: ها هنا مال من مال الصدقات وأنت غارم، فأنت أحق به، فأعطاه ذلك المال وهو ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠×١٢= ٣٦٠٠٠ درهم)، وإنما كان دينه قريبا من ثلاثة آلاف دينار ... وهذه خمسمائة دينار أخرى ...(١٣٧)

وكانوا يتصرفون بأموال الصدقات كأنهم كسبوه بعرق جبينهم، ولن نتوسع في ذكر الأمثلة حتى لا نستطرد كثيرا فالحكم بن المطلب نفسه لم يرفع شيئا من أموال الصدقات للوالي في إحدى السنوات فقال له الوالي: أين الإبل والغنم؟ قال بتعالٍ: أكلنا لحومها بالخبز، وأطعمناها. قال: فأين الدنانير والدراهم ؟ فقال: اعتقدنا بها الصنائع في رقاب

الرجال، وقضينا الحقوق. فحبسه..."[١٣٨]

ومما يلاحظ على مقدار تحصيل الصدقة النقدية التي جمعها الحكم بن المطلب أنه إذا كان مال الغارمين ٣٠٠٠ دينار، وهو الثمن، فيكون مقدار جميع ما تم تحصيله من النقد ٣٠٠٠×٨= ٢٤٠٠٠ دينار (= ٢٤٠٠٠×١٢= ٢٨٨٠٠٠ درهم). وهذا كان في وقت ما بين سنتي ١٠٦-١١٣هـ، وأن رياح بن عثمان بن حيان المري والي المدينة لأبي جعفر المنصور كلف أبا بكر بن عبدالله بن محمد بن أبي سبرة بجمع صدقات أسد وطيء في سنة ١٤٤هـ فأحضر أبو بكر إلى المدينة ٢٤٠٠٠ دينار.[١٣٩] والفاصل الزمني بين ما جمعه الحكم من أموال الصدقة وبين ما جمعه أبو بكر في حدود ٣٠ سنة، فهل كان تساوي الرقم المحصل مجرد صدفة أم أنه جرى تثبيت مقدار الصدقة سواء أخصبوا أم أجدبوا، وهي سياسة جرى عليها والي اليمن محمد بن يوسف الثقفي فكان يثبت الحد الأدنى في كل الأحوال ويرفعه في أحوال الخصب. على أية حال يفترض أن الرقم ٢٤٠٠٠ دينار يشكل ٢,٥٪ من إجمالي ثروة المنطقة، ومن ثم فيكون الإجمالي =٩٦٠٠٠٠ دينار ×١٢ درهم= ١١٥٢٠٠٠٠درهم.

و لم تشر المصادر إلى الصدقات من الإبل والغنم وهل أنه تم بيعها ووضعت أثمانها من ضمن هذا المبلغ، أم تم بيع الغنم وحدها لصعوبة نقلها، هذا ما لا نستطيع الحسم فيه بالقول في الوقت الراهن.

ومن صور الممارسات الظالمة في الصدقات ما وقع لقبيلة كلب التي تسكن شمال منطقة الجبلين ويساكنها بعض بطون طيء وبطون فزارة وتسكن في الشمال الشرقي لجزيرة العرب (عرعر وسكاكا ودومة الجندل وما حواليها)، فعندما مدح الشاعر رماح بن ميادة الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك (سنة ١٢٥هـ) فأمر له بمائة ناقة من صدقات كلب، فأرادوا أن يعطوها إياها من رذال المال أو يبتاعوا له من غير إبلهم فعاد إلى الوليد شاكيا:

ألَمْ يَبلغْكَ أنّ رعـــاةَ كلـــبٍ	أرادوا في عطيتـــك ارتـــدادا
وقالـــوا: أنهـــا صهـــبٌ وزرقٌ	وقد أعطيتَهـــا صُفـــرا جِعـــادا

قال: انطلق فخذه صفرا جعادا.[١٤٠]

والقاعدة الشرعية تقضي أن تصرف الصدقة على مستحقيها في المنطقة التي تجبى منها، فإن فاض منها فائض أرسل إلى بيت المركزي أو حولها ولي الأمر لمستحقيها في منطقة أو مناطق أخرى، وأن تؤخذ من أواسط الأموال لا من كرائمها، لكن سعاة الصدقات لم يعملوا بشيء من هذا مما أدى إلى سخط الناس وتطلعهم إلى التغيير. ومن هذا التطلع إلى التغيير أن قبيلة طيء مثل قبيلة بني حنيفة عند ما قتل الخليفة الوليد بن يزيد ووقعت الفتنة منعوا أداء الصدقة لولاة الحجاز و لم يؤدها من قبيلة طيء إلا بنو جرم وبنو نبهان أو أكثرهم، وكان أحد الطائيين قتل رجلا من بني بدر ابن فزارة فطلبت قبيلة فزارة القَوَد من القاتل فرفض زعيم بني معن الطائيين مَعْدان بن عبيد أن يقيدهم من القاتل ولكن يدفع لهم الدية فنشب النزاع بين القبيلتين. تقدم شيوخ قبيلة بني فزارة بالشكوى إلى أمية بن عبدالله بن عمرو

ابن عثمان بن عفان وكان عامل الأعشار والصدقات بالمدينة، وإليه صدقات الجبلين، ولاه إياها والي الحجاز عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك ، فكتب أمية إلى الخليفة مروان بن محمد يخبره بمنع طيء الصدقة، وبمنعهم من دفع قاتل الرجل الفزاري إلى موالي القتيل، وأنهم على خلاف ومعصية. فكتب مروان إلى الزعيم الطائي معدان بن عبيد: "أن مَكِّن البدريين [= بني بدر بن فزارة] من صاحبهم، وأدوا الصدقة إلى أمية وسعاته، وإلا وجهت إليك من حملك إليّ ' فإن امتنعت عليه أتاني برأسك، ثم والله لأبيلنَ الخيل في عرصاتكم.

وصل الرسول الذي يحمل الرسالة ولما قرأها معدان قال له: أديتَ إليّ فأدّ عني. قل لابن زربى: أنت تبيل الخيل في عرصاتنا وبينا وبينك رمل عالج، وخلف ظهري الجبلين، وحولي عديد طيء، اجهد جهدك، واحشد حشدك، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت. وكتب إليه:

ألا مَـــنْ مبلـــغٍ مـــروانَ عـــــني   على مـــا كـــان من بُعْـــــدِ المزارِ
ألمْ تَرَ للخلافةِ كيـــف ضاعـــتْ   لأنْ صـــارتْ لأبنـــاءِ الســــــراري

فأدى رسوله الرسالة، فكتب الخليفة مروان بن محمد إلى عبدالواحد بن سليمان عامله على المدينة وإلى أمية بن عبدالله عامله على الأعراض والأعشار والصدقات بها، وعلى صدقات طيء بالجبلين: أن يسيرا بأهل المدينة وأهل البوادي من قيس وغيرها إلى معدان بن عبيد حتى يأخذا صدقات قومه، ويدفعا إلى البدريين قاتل صاحبهم، ويوطئا الخيل بلاده حتى يحملاه إليه أو يقاتل فيقتل في المعركة.

فسارا ونزلا بالناس فيدا، وبعث أمية إلى معدان بن عبيد بن عدي يطالبه بأداء الصدقة، ويعد هذا بمثابة إنذار نهائي قبل إنشاب القتال. فكان جوابه إليه وإلى عبدالواحد: إني غير دافع إليكما شيئا مما تطلبان، فأما الصدقة فإني أحبسها حتى يستقيم أمر الناس، وأما وضع يدي في أيديكما فذلك ما لا يكون أو أؤسر أو أقتل.

فشلت كل الحلول السلمية واستعد الطرفان للقتال، أما جيش الأمويين فمكون من جند أهل المدينة، وألف جندي من أهل الشام أرسلهم مروان مددا لهم، وقبيلة فزراة ومن ناصرها من قبائل قيس الأخرى، وأما معدان فمعه ستة آلاف مقاتل من قومه بني معن الطائيين، وانسحب يحي بن الكروس بن زيد المعقلي الطائي بستة آلاف أخرى من بني جديلة وغيرهم من طيء لأنه كره القتال. وأخذ الصراع وجها قبليا قيس ضد طيء:

دَعَـــوْا بترارٍ فاعْـــتَزَيْنا بِطَـــيِّءٍ   هنالك زَلَـــتْ في نـــزارٍ نِعَالُهـــــا

نشبت الحرب فدارت الدائرة على جيش الأمويين وحلفائهم من فزارة والقيسيين ووقع قائد الجيش أمية بن عبدالله في الأسر لكن معدان خلى سبيله. وكانت القبائل تسمي هذا الحرب "يوم المُنتهَب" على غرار الحروب القبلية قبل الإسلام (أيام العرب).

تفاقم الوضع في كل مكان من أنحاء الدولة الأموية خاصة في العراق بسبب تزايد حروب الخوارج وبدأت

طلائع جيش العباسيين تظهرفي العراق فقال الخليفة مروان بن محمد: ما شغلنا بأعراب طيء ؟ ووَجَه كل القوات المتوفرة لديه نحو العراق. أما طيء فلم تدفع الصدقة حتى استخلف أبو العباس.[١٤١]

رابعًا: البحرين

يشكل هذا الإقليم مع عمان شرقي جزيرة العرب، وتمتد حدوده من الدهناء غربا حتى جزائر البحرين (أوال قديما/ مملكة البحرين في الوقت الحاضر) شرقا، ومن عمان جنوبا إلى مشارف البصرة شمالا.[١٤٢]

ويتميز إقليم البحرين بتنوع سكاني، فسكانه من القبائل الرئيسية عبدالقيس وهذه القبيلة تشتغل بالزراعة بشكل رئيس وبالرعي والنشاط البحري والتجاري بدرجة ثانية، وبطون من قبيلة بكر بن وائل وبعض بطون قبيلة ربيعة، وهذه في المجمل قبائل أعرابية تشتغل بالرعي وتتحد مع قبيلة عبدالقيس في الانتماء إلى قبيلة ربيعة. وبطون من قبيلة تميم وهم في المجمل أيضا قبائل أعرابية وإن كان لبعضهم قرى، وساهم رجال منهم في حكم وإدارة البحرين مثل المنذر بن ساوى من بني دارم حيث كان واليا للفرس على هجر عند ظهور الإسلام.[١٤٣] وهناك وجود لقبيلة الأزد وهم امتداد لقبيلة الأزد التي تشكل أكبر القبائل في عمان. أما فروع القبائل الأخرى فهي من الصغر بحيث لا تشكل أهمية كبيرة في الميزان السكاني. وبسبب وجود موانئ تجارية مهمة ولمجاورتها لبلاد فارس وخضوعها لحكمها في فترات زمنية ولغناها الاقتصادي النسبي فقد كانت تلك عوامل جذب لوجود عدد كبير من الأقليات معظمها تعود في أصولها إلى بلاد فارس وإلى الهند كما كان هناك وجود لبعض اليهود.

أما موقفها من الإسلام فكان متفاوتا عبدالقيس قبلته، وبكر بن وائل قبلته مكرهة، وتميم موقفها غير واضح، لعل مواقفها من خلافة أبي بكر تسلط بعض الضوء على طبيعة اعتناقها للإسلام، فعبدالقيس ثبتت على إسلامها، وبكر بن وائل ارتدوا عن الإسلام وحاربوا المسلمين . أما تميم فلم ترتد لكنها لم تكن متحمسة في أول الدعوة ولعل ذلك يدخل فيه حسابات وتوازنات قبلية أكثر من موضوع الإيمان.

شاركت قبائل البحرين في الفتوحات الإسلامية واستقرت في البصرة وهي الامتداد الطبيعي للبحرين. وكان نصيبها من الدولة الأموية، مثلها مثل اليمن ومعظم أنحاء الجزيرة، الإهمال، ومن ثم فلا عجب أن أصبحت منطقة حاضنة لحركات الخوارج، وشكل أهلها من عبدالقيس وبكر بن وائل في العراق معظم أفراد هذه الحركات. ولأنها لم تكن منطقة فعاليات حكومية فقد أهملها المؤرخون مثلما أهملتها الدولة، ولا يلتفتون إليها إلا عندما يرسل والي البصرة أو والي العراق جيشا لمطارد الثائرين في البحرين من الخوارج.

إن مما يستدعي التأمل انخراط وتزعم أعداد كبيرة من عبدالقيس في حركات الخوارج، وكذلك التعاطف الذي أبداه السكان مع هذه الحركات خاصة إذا أخذ في الاعتبار انقياد عبدالقيس للإسلام وثباتهم على إسلامهم وكونهم مجتمعا حضريا زراعيا، وهم في هذا يتشابهون مع حاضرة بني حنيفة في قراها الزراعية في اليمامة. ليس هناك من

تفسير لهذا في الذهن سوى إهمال الدولة لهذه المناطق وتهميش أهلها تهميشا كليا يضاف إلى ذلك ظلم الولاة والسعاة في أخذ الصدقات وفرض الغرامات.

تتبع البحرين إداريا والي البصرة، وهناك بعض الإشارات لتبعيتها لليمامة في بعض الأحيان منها ما قال خليفة بن خياط (١٤٤) في ذكره لولاة يزيد بن عبدالملك "البحران واليمامة: رد عليها إبراهيم بن عربي." وفي شرح النقائض(١٤٥): أن المهاجر بن عبدالله الكلابي كان يتولى اليمامة والبحرين لهشام. وارتباط البحرين باليمامة أو اليمامة بالبحرين أمر غير عملي لسعتهما وتباعدهما عن بعض وصعوبة إدارتهما خصوصا أن كليهما يتبعان لوالي البصرة وقد تتبع اليمامة والي العراق. فإن تبعت البحرين اليمامة إداريا فلعل ذلك كان لفترة قصيرة ولظروف مؤقتة.

أما ولاة البحرين بعد القضاء على حركة ابن الزبير فيظهر أن ممثلي نجدة بن عامر الحنفي من الخوارج كانوا يسيطرون عليها وليس فيها ولاة للأمويين ثم انشق أبو فديك عبدالله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة بن عكابة عن نجدة فبعث والي الخليفة عبدالملك على البصرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد جيشا بقيادة أخيه أمية بن عبدالله لقتال أبي فديك سنة ٧٣هـ فألحق به أبو فديك هزيمة ونجا أمية بنفسه.(١٤٦)

أصبح أبو فديك "وتدا بين عيني أمير المؤمنين" كما قال عبدالملك نفس(١٤٧)، و لذا فقد اختار قائدا كفؤا لقتاله، بعد ما تأكد له فشل والي البصرة في إنجاز المهمة، هو عمر بن عبيدالله بن معمر وأعطاه سلطات مطلقة تتجاوز واليي الكوفة والبصرة من حيث المسؤولية، ومن حيث اختيار الجند من الكوفة والبصرة، ومن حيث أخذ احتياجاته من المال من دواوينهما، فجهز عمر جيشا كبيرا تعداده ٢١ ألفا سار بهم إلى البحرين وعسكر بجواثا. أما أبو فديك فقد نزل بالمشقر في جمع كثير من الأعراب كانوا ضووا إليه بعد هزيمة أمية بن عبدالله، ولما رأوا ضخامة جيش الأمويين بقيادة عمر بن عبيدالله رهبوه، فأذن أبو فديك لمن يريد من أتباعه الانسحاب من ميدان القتال، فانسحب معظمهم و لم يبق معه إلا ألف رجل منهم، وتقاتلا عدة أيام وقتل أبو فديك وحصر من بقي من أصحابه بحصن المشقر، ثم نزلوا على حكم القائد عمر، لكن عمر تصرف تصرفا بغيضا يدل على أن العقلية القبلية وقيمها مترسخة أكثر من ترسخ مفاهيم الإسلام وقيمه، حيث قام بقتل من استسلم من الخوارج من الموالي واستحيا العرب.

وقال بعض الشعراء:

كانت لنا هجرٌ أراضًا نعيشُ بهـا فأرسل النارَ في حافاتِهـا عمـرُ (١٤٨)

ولى الخليفة عبدالملك على البحرين عبدالملك بن أسيد بن الأخنس بن شريق الثقفي(١٤٩) و لم تشر المصادر إلى اشتراك عبدالملك بن أسيد في حملة عمر بن عبيدالله، وقد يكون وقت تعيينه عندما عزل الخليفة عبدالملك بن مروان خالد بن عبدالله عن ولاية البصرة وضمها لأخيه بشر بن مروان والي الكوفة في سنة٧٤هـ.(١٥٠)

نقل الخليفة عبدُالملك الحجاجَ بن يوسف الثقفي من ولاية الحجاز إلى ولاية العراق سنة ٧٥هـ، ورغم أن والي

البحرين ثقفي إلا أنه عزله في وقت لا نعرفه على وجه التحديد ثم عين بدلا منه سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي فمات فاستخلف ابنه موسى بن سنان بن سلمة. [١٥١] وقد وصف سنان هذا بأنه بصري، ومن رواة الحديث، وولاه والي العراق لمعاوية زياد بن أبيه غزو الهند سنة ٥٠هـ. ومما يثير التساؤل رواية عمر بن شبة بأن مصعب بن الزبير استخلفه على البصرة لما خرج لقتال عبدالملك بن مروان سنة ٧٢هـ[١٥٢]، ثم يستعين به الحجاج ويوليه على البحرين. أما وفاته فكانت في آخر أيام الحجاج.[١٥٣] وإذا هذه المعلومات دقيقة فلا بد أن سنانا كان ذا شخصية استثنائية حيث استعان به كل من زياد ومصعب بن الزبير والحجاج، يضاف إلى ذلك أنه ظل واليا للحجاج على البحرين حتى وفاته في وقت متأخر من ولاية الحجاج، والحجاج توفي في سنة ٩٦هـ، لكن المصادر ذكرت عددا من الولاة الذين ولاهم الحجاج على البحرين، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأحد أمرين إما أن هناك خطأ في المعلومات وهو الأرجح، أو أن تكون ولايته على ناحية من البحرين مثل الخط أو هجر أو بادية البحرين وليس كلها. وولى الحجاج بعد موسى بن سلمة بن المحبق سعيد بن حسان الأسيّدي (التميمي)، ثم ولاها زياد بن الربيع الحارثي ثم عزله سنة ٧٩هـ، وولى محمد بن صعصعة الكلابي.[١٥٤] خرج على الوالي محمد رجل من بني محارب بن عبدالقيس. ويبدو أن محمدا عجز عن مقاومته فكلف الخليفة عبدالملك، بناء على توصية الحجاج، والي اليمامة إبراهيم بن عربي، فسار الأخير ومعه ألفا رجل وهزم الخوارج. ثم قام خارجي آخر من نُكْرة بن لُكَيز بن عبدالقيس اسمه الريان النكري سنة ٧٩هـ[١٥٥] وثورته كانت في الخَطّ، والظاهر أنها موطن نُكرة بن عبدالقيس، في قرية يقال لها "طاب" على فراسخ من سوق الخط. وقدم ميمون الخارجي من عُمان في أصحابه فنزلوا دارين، ثم انتقل ميمون إلى الزارة واتحد مع قوات الريان. فندب الوالي محمد الناس فأبطأت عنه عبدالقيس، ربما تعاطفا مع الريان أو كرها بالحكم الأموي أو الأثنين معا، وأتاه قوم من أهل الخط. ونلاحظ هنا أن النسبة هذه المرة إلى المكان(أهل الخط) لا إلى القبيلة، ولا يستبعد في هذه الحال أنهم كانوا من مواطني المنطقة من تجارها وحرفييها ممن لا ينتسب إلى قبيلة. عهد الوالي بقيادة القوات التي تجمعت لمحاربة الخوارج إلى عبدالملك بن عبدالله بن أبي رجاء العوذي الأزدي من أهل البصرة، فهزمهم الخوارج وقتلوا قائدهم عبدالملك ورجعت فلول المنهزمين، ولم يكن مع الوالي جند غيرهم، وخذله العبديون أهل البلاد، فطلب النجدة من الحجاج لكن الوالي محمد خاف الخوارج ولم ينتظر قدوم النجدة ففر هاربا إلى الحجاج، في الوقت الذي أرسل فيه الحجاج نجدة من جند أهل الشام والكوفة بقيادة يزيد بن أبي كبشة السّكسَكي. وصل يزيد البحرين سنة ٨٠ هـ ومعه اثنا عشر ألف رجل، وتقابل بميدان الزارة بالريان النكري ومعه ألف وخمسمائة مقاتل، وألحق يزيد بالريان وأصحابه هزيمة ساحقة. أما محمد بن صعصعة فقدم على الحجاج فهم بقتله لكنه حبسه ومات في حبسه.[١٥٦]

وولى الحجاج قطن بن زياد بن الربيع الحارثي سنة ٨٠هـ على البحرين، وكان والده واليا على البحرين قبل محمد بن صعصعة الكلابي، فثار عليه خارجي جديد هو داود بن عامر بن الحارث فقضى عليه وعلى حركته.[١٥٧]

وخرج داود بن محرز أحد بني عبدالقيس ومعه جماعة فأنزلوا الريان وأصحابه ودفنوهم وأعانهم أهل البحرين

على إنزالهم ودفنهم. وأقام داود بالقطيف فلقيه أبو الفضل، خليفة أبي البهاء صاحب الشرطة، فهزم داود أبا الفضل، فخرج إليهم عبدالرحمن بن النعمان العوذي من الأزد فقاتلهم في سوق القطيف في موقف الإبل فعُقِر بعبدالرحمن فحماه ابن عمه عنبسة بن عبدالرحمن، وتحاجزوا فلما أصبحوا اجتمع الناس وكثروا فقُتل الخوارج.

وغضب الحجاج على أهل البحرين وأخذ عم عبدالله بن سوار العبدي ويقال له عميرة بن حصين وقال: لعن الله عبدالقيس قبيلتك، فإنما أنتم لص أو خارجي أو نصراني. وأخذ يزيد بن الفضل فحبسه في قصر المسيرين.[١٥٨]

وولى الحجاج في وقت ما من ولايته ثولاء بن نعيم بن مسعود النهشلي التميمي جزيرة ابن كاوان بالبحرين. ويبدو أنه ارتكب من العمل ما أغضب عليه الحجاج فعزله وحبسه في الديماس حتى مات. ويقال بل بعث إليه فقتله.[١٥٩]

ومما يلاحظ أن معظم الخوارج من عبدالقيس وكذلك التعاطف من عامة عبدالقيس أما تميم وبكر بن وائل وخاصة تميم فحضورهم في هذه الأحداث قليل سواء في معارضة الدولة أو في مناصرتها. كما يلاحظ تركز حركات الخوارج في منطقة الخَطّ ، أي في منطقة الساحل في دارين والقطيف والزارة ثم تمتد جنوبا على الساحل. أما بلدة عينين (الجُبَيل) وهي شمالية وعمقها في البادية وادي الستار حيث تردها القبائل للامتيار والمتاجرة فلم نلحظ فيها نشاطا معاديا للدولة.

استمر قطن بن زياد الحارثي واليا على البحرين حتى مات الوليد بن عبدالملك والحجاج سنة ٩٦هـ[١٦٠]، وبذا تكون ولاية قطن على لبحرين حوالي ١٦ سنة ويسودها غموض تام فهل السبب في ذلك أنها عاشت فترة هدوء واستقرار و لم يحدث فيها ما ينغص السلطات في العراق (الحجاج) والشام (عبدالملك ثم الوليد) حتى يسجل لنا المؤرخون هذه المنغصات أو الأحداث. ولا نتوقع من وال يرضى عنه الحجاج ويبقيه لهذه الفترة الطويلة إلا أن يكون من نفس مدرسته ويمارس أساليبه في الحكم ذاتها.

أما في عهد سليمان بن عبدالملك فلا نعرف من تولى البحرين رغم أن خليفة بن خياط[١٦١] ذكر أن يزيد بن المهلب ولاها الأشعث بن عبدالله بن الجارود، فأخرجه منها مسعود بن أبي زينب العبدي من بني محارب وغلب عليها، وذلك سنة ٩٦هـ. ولعل الأمر التبس على خليفة لأن الخليفة سليمان بن عبدالملك ولى في بداية خلافته سنة ٩٦هـ يزيد بن المهلب على العراق، ومن سلطات والي العراق تعيين والي البحرين بحكم تبعيتها لوالي العراق، لكن يزيد لم يلبث أن نقله الخليفة سليمان، بناء على رغبته، واليا على خرسان ومسئولا عن فعاليات الفتوح في الجبهة الشرقية. وخليفة نفسه في ذكره لعمال يزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ)، الذي ولى عمر بن هبيرة واليا على العراق بعد أخيه مسلمة بن عبدالملك، قال[١٦٢]: "وفي ولاية ابن هبيرة خرج مسعود بن أبي زينب فغلب على البحرين واليمامة فقتله سفيان بن عمرو العقيلي." وحل هذا الإشكال يكون على النحو التالي: أن يزيد بن المهلب لم يول

الأشعث بن عبدالله بن الجارود عند ما كان واليا لسليمان بن عبدالملك على العراق في أول سنة من خلافته سنة ٩٦هـ، لكنه ولاه عندما ثار على الخليفة يزيد بن عبدالملك سنة ١٠١هـ واتخذ من البصرة مقرا له، وأراد يزيد بن المهلب من توليته للأشعث، وهو من عبدالقيس، كسب جانب عبدالقيس في البحرين والبصرة معا. والبلاذري[١٦٣] يتفق مع خليفة في نصه الثاني وهو أن هذه الأحداث تمت في أيام يزيد بن عبدالملك، وكذلك ابن الأثير[١٦٤] إلا أنه يذكرها في أحداث سنة ١٠٥هـ وهي آخر سنة من عهد يزيد بن عبدالملك، وهذا تاريخ متأخر لأنه تم القضاء على ثورة يزيد بن المهلب وقتل في سنة ١٠٢هـ، مما يدل على أن ثورة مسعود بن أبي زينب حدثت قبل سنة ١٠٥هـ.

وذكرت بعض المصادر [١٦٥] أن مسعود بن أبي زينب غلب على البحرين وناحية اليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي. وهذا أمر مستبعد إلا أن يكون غلب على ناحية من البحرين وليس البحرين كلها.

ولا نعرف عن إقامة الأشعث بالبحرين شيئا وموقف أهل البحرين من ولايته، أما توقيت إخراج الزعيم الخارجي مسعود له من البحرين فصحيح، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا عند الحديث عن ولاة اليمامة.

أما في عهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ) وفي ولاية عدي بن أرطأة الفزاري على البصرة فكان العامل على البحرين الصلت بن حريث بن جابر الحنفي. [١٦٦] ويظهر أن الصلت دخل في معركة مع بعض الخوارج في البحرين وقبض على بعض زعمائهم وأرسلهم إلى عدي في البصرة. ويستنتج أن حكمه للبحرين لم يكن منسجما مع سياسة عمر بن عبدالعزيز في إدارة الولايات والبلدان فعزله عدي. ووالده حريث بن جابر الحنفي كان واليا على البحرين عندما كان عبيدالله بن زياد واليا على البصرة [١٦٧] إما في آخر عهد معاوية أو في عهد ابنه يزيد. وبحكم أننا لا نعرف من كان الوالي على البحرين في عهد سليمان بن عبدالملك فلا أستبعد أن تولية الصلت بن حريث بن جابر على البحرين كانت في عهد سليمان بدليل أن خليفة بن خياط هو المصدر الوحيد الذي اطلعنا عليه وذكر حريثا، لكنه لم يذكر تاريخ ومناسبة توليته وذكر عزله بهذه الصيغة: "البحران: صلت بن حريث بعث إلى عدي منها بخوارج ثم عزله عدي ...".

وقد ولى عديٌّ واليا جديدا على البحرين اسمه عبدالكريم بن المغيرة وقال خليفة [١٦٨]: "أظنه باهليا". وليس لدينا أية معلومات عن عبدالكريم هذا في الوقت الراهن.

أما في عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ) فقد ولى على العراق خالد بن عبدالله القسري من سنة ١٠٥-١٢٠هـ وولى خالدُ على البحرين على التوالي: زيادَ بن جرير بن عبدالله البجلي، وهزانَ بن سعيد، ويحي بن إسماعيل، ويحي بن زياد بن الحارث الحارثي. وعندما عزل الخليفة هشام بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسري عن ولاية العراق سنة ١٢٠هـ وولاها يوسف بن عمر الثقفي من سنة ١٢٠- ١٢٥هـ فقد ولى يوسف على البحرين على التوالي: عبدالله بن شريك النميري، ومحمد بن حسان بن سعد الأسيّدي (التميمي). وغلب عليها المسيب بن

فضالة نحوا من ثلاث سنوات.[١٦٩] و لم يذكر إن كان المسيب ينتمي إلى الخوارج أم أنه مجرد متغلب من أجل السلطة فقط، ولا نظن أن البحرين كلها خضعت لسلطته وإنما قسم منها فقط بدليل أن محمد بن حسان الأسيّدي كان عاملا على البحرين حتى قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ[١٧٠] مما يدل أنه استمر عاملا عليها منذ أن ولاه عليها يوسف بن عمر الثقفي في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك.

وقام زعيم جديد هو بشر بن سلام العبدي وقَتل المسيب بن فضالة، وظل يسيطر على البحرين إلى أن أسند مروان بن محمد ولاية العراق إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في آواخر سنة ١٢٨هـ فأقر يزيدُ بشرَ بن سلام عاملا على البحرين حتى مات بشر، ثم ولى ابنه سيار بن بشر مكانه، فمات سيار فخلفه على ولاية البحرين أخوه سلم بن بشر لم يزل عاملا عليها حتى قتل مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ.[١٧١] ويمكن الاستنتاج أن بشر بن سلام لم يكن خارجيا لأن الخوارج في العراق والجزيرة الفراتية كانوا أشد خصوم مروان، وتحالف معهم بعض أفراد الأسرة الأموية الذين انشقوا على مروان ووحدوا صفوفهم في الحرب ضده قبل ظهور طلائع الأمويين في العراق، ولو كان بشر خارجيا لما أقره يزيد بن عمر بن هبيرة عاملا على البحرين.

خامسًا: عُمان

المقصود هنا عُمان التاريخية التي تشمل عمان الحديثة ودولة الإمارات العربية المتحدة. وسكانها في القديم بصفة رئيسة قبيلة الأزد، ويشاركها في السكنى عدد من القبائل الأخرى الصغيرة التي تشكل فروعا لقبائل كبيرة خارج عمان. يضاف إلى هؤلاء وأولئك أقليات من العناصر الفارسية التي تعتنق المجوسية وربما بعض اليهود.[١٧٢] ويظهر أن جميع العناصر السكانية تعايشت بانسجام نسبي بدليل أن مصادرنا الأدبية والتاريخية لا تسجل حروبا قبلية في عمان مثيلة لأيام العرب التي حدثت في مناطق الجزيرة العربية الأخرى. على أن تاريخ عمان يلفه قدر كبير من الغموض ولعل أحد أسباب ذلك أنها لم تنجب شعراء فحولا قبل الإسلام مثل أصحاب المعلقات وغيرهم ولا في صدر الإسلام مثل جرير والفرزدق والراعي النميري والصلتان العبدي بحيث تعين أشعارهم وشروحها وسيرهم على تدوين بعض أخبار عمان. ومع أن عددا من صفوة علماء الأمة المبكرين يعودون في أصولهم إلى عمان مثل جابر بن زيد الأزدي ت ١٠٣هـ[١٧٣]، والخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ت ١٧٠هـ[١٧٤]، وأبو سعيد السكري الحسن بن الحسين بن عبدالرحمن بن العلاء بن أبي صفرة الأزدي ت ٢٩٠هـ[١٧٥]، وأبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت ٣٢١هـ[١٧٦] وغيرهم، لكنهم للأسف لم يسهموا، فيما ألفوا من كتب ورووا من روايات، بشيء يستحق الذكر إلى تاريخ عمان. وإذا كانت الجزيرة العربية بصفة عامة عانت من إهمال الدولة في العهد الأموي وعدم اهتمام المؤرخين بتدوين أخبارها فإن نصيب عمان من هذا الإهمال وعدم الاهتمام أكبر من الأقاليم الأخرى.

قبل الإسلام، وعند ظهور الإسلام كانت صُحار ودَبا أهم مدينتين وميناءين في عمان، وصُحار كانت أهم من

دبا ومقرا لحكام عمان من آل الجَلَنْدَى. ويمكن الاستنتاج أنه عند ظهور الإسلام كان هناك كيانان سياسيان الأول حكامه أسرة آل الجلندى الأزديين ومقر حكمهم في صحار في الجنوب، والآخر في دبا في الشمال وتحكمه أسرة حاكمة من الأزد كذلك، بدليل أن الواقدي ذكر من ضمن الوفود التي وفدت على الرسول ﷺ: "قدم وفد دبا من الأزد مقرين بإسلامهم".[١٧٧] ويبدو أن نفس الرواية تقريبا وردت عند ابن سعد[١٧٨] "وكان أبو صُفْرة من أزد دبا، ودبا بين عمان والبحرين، وكانوا أسلموا وقدم وفدهم على رسول ﷺ". ووُصِف لقيطُ بن مالك الأزدي بذي التاج[١٧٩]، ووصفه بذي التاج يفهم منه أنه كان ملكا على الأزد في دبا، فهو زعيمهم وقائدهم، وقتل عندما قاد حركة الردة في دبا.[١٨٠] وهذه الإشارات يفهم منها أن أزد دبا مستقلون عن سلطة آل الجلندى بصحار وغيرها، رغم أن ابن حبيب[١٨١] يذكر أن ملوك الفرس قبل الإسلام كانت تستعمل الجلندى بن المستكبر على عمان وكان يعشر التجار الواردين إلى سوقي صحار ودبا الموسميين أيام قيامهما.

أقر أهل عمان بالإسلام وترسخ فيها، وشاركوا غيرهم من المسلمين في نشره عبر الفتوحات، كما شاركوا في بناء الأمة. وكان مجالهم في الفتوحات، مع أهل البحرين، بلاد فارس، ثم استقروا في مهاجرهم الجديدة وأهمها البصرة، ومن أهم الأسر العمانية التي شاركت في القيادة والفتح في صدر الإسلام آل المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي.

أما بالنسبة لحكم عمان في العهد الراشدي فكان الخلفاء يعينون عليه ولاة يرتبطون بهم مباشرة، وفي فترة قصيرة جمع مع البحرين في ولاية واحدة.[١٨٢] أما في العهد الأموي فربط ولاتها، مثل البحرين، تعيينا وعزلا ومراجعة وإرسال الأموال بوالي البصرة .

وقد ظلت أسرة آل الجلندى في عمان تمارس نوعا من السلطة ليس واضحا تماما حجمها وطبيعتها، لكن عندما تضعف السلطة المركزية أو تنهار تقوى سلطتهم، واستمر هذا الوضع في العصر العباسي المبكر.

وسوف نتجاوز العهد السفياني إلى العهد المرواني، فبعد تولية الخليفة عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف على العراق أخذ يولي على عمان ولاة من قبله لكن آل الجلندى لم يستكينوا، وأخذوا يصارعون ولاة الحجاج وجيوشه على السلطة على عمان، فمن أول ولاته على عمان موسى بن سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي بعد سنة ٧٥هـــ وكان أبوه على ولاية البحرين من قبل الحجاج ولا نعرف إن كان الحجاج جمع البحرين وعمان لسنان فولى ابنه البحرين أم أن الحجاج ولى الأب البحرين والابن وعمان، وقد أشرنا سابقا أن سنان بن سلمة استخلف ابنه موسى على البحرين. وأيا كانت طبيعة تولية موسى بن سنان على عمان فإن سعيدا وسليمان بن عباد آل الجلندى رفضوا قبوله واليا عليها وحاربوه وغلبوه وأخرجوه من عمان، فبعث الحجاج طفيل بن حصين البهراني فتغلب عليهما.[١٨٣] ولا يمكن أن يتم له ذلك دون أن يكون اصطحب معه جيشا قويا استطاع به تثبيت مركزه. وبعد نجاحه في أداء مهمته كتب إليه الحجاج أن يستخلف على عمان ويعود إلى العراق فاستخلف حاجب بن شيبة فمات بعمان،

فواتت الفرصة سليمان بن عباد فاستعاد السلطة. ثم وجه الحجاج مجاعة بن سعر بن يزيد من بني تميم، وولاه مكران كذلك.[١٨٤] والظاهر أنه نقله إلى ولاية مكران وولى ابنه القاسم بن مجاعة بن سعر على عمان أو تولاها نيابة عن والده. ومن الواضح أن القاسم كان مستبدا سيء السيرة في أهل عمان بدليل أنهم عندما ثاروا عليه لم يكتفوا بقتله بل صلبوه، لكن الحجاج كان أشد منهم قسوة وعنفا إذ عهد إلى والده مجاعة باستعادة الحكم في عمان وتأديب أهلها وهذا لا يتم إلا بجيش قوي، و لم يكتف مجاعة باستعادة السيطرة على عمان بل إنه انتقم من أهلها لمقتل ابنه وغيره من أفراد أسرته وقبيلته بمذبحة عظيمة، ويصف مشاعره بعدها:

حمدتُ اللهَ حينَ شفيتُ نفــسِي فهذا حــين ساغ لهــا الشــرابُ

ثم صرفه الحجاج عنها إلى مكران.[١٨٥]

ويعطي مصدر عماني متأخر[١٨٦] رواية مفصلة ومختلفة لقصة مجيء ومقتل الوالي القاسم، والحماس الوطني فيها واضح، والمقام لا يسمح باقتباسها كاملة ولكن ملخصها: كان سليمان وسعيد ابنا عباد بن عبد بن الجلندا هما القيمان في عمان، وكان الحجاج يغزوهما بجيوش عظيمة وهما يفضان جموعه ويبددان عسكره في مواطن كثيرة إلى أن أخرج إليهما القاسم بن شعوة المزني في جيش كبير فخرج القاسم حتى انتهى إلى عمان في سفن كثيرة فأرسى سفنه في مرفأ من مرافيء عمان يقال لها "حطاط". فسار إليه سليمان بن عباد بالأزد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الهزيمة على أصحاب الحجاج، وقتل القاسم وكثير من أصحابه، واستولى سليمان على سوادهم، ولما بلغ الحجاج هزيمتهم استدعى أخا القاسم مجاعة بن شعوة وجمع جيشا قوامه أربعين ألف رجل، سير عشرين ألف منهم عن طريق البحر، ولما بلغوا عمان التقى بهم سليمان بجيش عدده سبعة آلاف وخمسمائة رجل وبعد قتال شديد ألحق بهم الهزيمة، وهو لا يعلم بجيش البحر الذي مع مجاعة واستطاع مجاعة إلحاق الهزيمة بسليمان وجيشه فلجأ سليمان وأفراد أسرته إلى الجبل الأكبر وهو جبل ريام، لكنه استطاع أن يعيد تجميع قواته من جديد وأن يحرق سفن الجيش الأموي بقيادة مجاعة، فانهزم مجاعة بسفنه إلى جلفار وكتب إلى الحجاج يطلب المدد، فأرسل له مددا عن طريق البر بقيادة عبدالرحمن بن سليمان في خمسة آلاف من جند الشام، ولما علم سليمان وسعيد باجتماع الجيشين جمعا ذراريهما وأموالهما ومن خرج معهما من قومهما ولحقا ببلد من بلدان الزنج حتى ماتا هناك، ودخل مجاعة وعبدالرحمن إلى عمان ففعلا فيها غير الجميل ونهباها.

وولى الحجاج بعد مجاعة على عمان محمد بن صعصعة، والظاهر أنه الكلابي الذي سبق وتولى البحرين للحجاج سنة ٧٩هـــ، ولا نعرف إن كان الحجاج جعله عاملا على البحرين وعمان معا أم أن الحجاج نقل عمله من ولاية البحرين إلى ولاية عمان، المهم أن سليمان بن عباد آل الجلندى تغلب عليه وقتله. فبعث الحجاج واحدا من أكفأ القواد وهو سورة بن الحر الدارمي التميمي، وكان له باع في قتال الخوارج فهزم ابن عباد وقتله. ويظهر أنه وجهه بعد

نجاحه في هذا المهمة إلى خراسان فشارك في فتوحها ثم أصبح واليا عليها وقتل سنة ١١٢هـ[١٨٧]، ثم ولاها الحجاج سعيد بن حسان الأسيّدي التميمي.[١٨٨] ويظهر أن كل هؤلاء الولاة كانوا في ولاية الحجاج إبان خلافة عبدالملك بن مروان في السنوات ٧٥-٨٦هـ. وأشارت بعض المصادر[١٨٩] إلى أن الحجاج كتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل للمشاركة في فتوح المنطقة، ولا نعرف إن كان بديل بن طهفة واليا على عمان أو على أحد نواحيها أم قائد الجيش لإخضاع آل الجلندى وأهل عمان.

ثم ولى الحجاج الخيار بن أبي سبرة المجاشعي التميمي[١٩٠]، وكان من فرسان المهلب ثم مع ابنه يزيد بن المهلب ثم ساءت علاقته بآل المهلب في الوقت الذي عمل فيه الحجاج على نكبتهم في عهد الوليد بن عبدالملك (سنة ٨٦هـ)[١٩١]، فلعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الحجاج يوليه على عمان، ومات الحجاج سنة ٩٥هـ والخيار على عمان.

وعندما تولى الخلافة سليمان بن عبدالملك ولى على العراق يزيد بن المهلب فاستعمل الأخير أخاه زياد بن المهلب سنة ٩٦هـ على عمان ن فلما وصل الوالي الجديد صفى حسابات أسرته مع الوالي الخيار بن أبي سبرة المجاشعي، إضافة إلى أنه كان سيء السيرة مع أهل عمان من الأزد متعصبا عليهم.[١٩٢]

ويذكر ابن خياط[١٩٣] (ص٣١٩) عن ولاة عمان في خلافة سليمان بن عبدالملك: ولاها صالحُ بن عبدالرحمن عبدَالرحمن بن قيس الليثي، ثم ولاها يزيد بن المهلب أخاه زياد بن المهلب. بينما يرد عند البلاذري[١٩٤] ٢٣٢/٨ أن والي البصرة لعمر بن عبدالعزيز عدي بن أرطأة الفزاري ولى عبدالرحمن بن قيس هذا بعد عزل سعيد بن مسعود الآتي ذكره الآن. وقد أعاد الخليفة سليمان بن عبدالملك تولية صالح بن عبدالرحمن مولى بني تميم على الخراج ويرتبط بالخليفة سليمان مباشرة، ويزيد بن المهلب واليا على العراق دون خراجها.[١٩٥] (الطبري ٥٠٦/٦، ٥٢٤) ومن العسير الحسم إن كان عبدالرحمن بن قيس الليثي ولي على عمان مرتين، واحدة في عهد سليمان بن عبدالملك، وأخرى في عهد عمر بن عبدالعزيز. ولعل تفسير ذلك أن عبدالرحمن بن قيس كان يقيم في عمان بصفته قاضيا أو نائبا للوالي أو واليا على أحدى نواحي عمان وعندما شغر منصب الوالي في الحالتين كلف ليقوم بمهام الوالي بصفة مؤقتة حتى يعين وال جديد.

وعَهْدُ عمر بن عبدالعزيز وسياساته الإصلاحية تكشف لنا قليلا عن بعض الأمور السيئة التي كانت متبعة، منها ظلم ولاة الأمصار للناس فعدي بن أرطأة الفزاري والي عمر بن عبدالعزيز على البصرة ولى على عمان سعيد بن مسعود بن الحكم من بني عمرو بن تميم، وسعيد نهج على نهج من قبله من الولاة من بني تميم وغيرهم فقد أراد ناقة عند رجل من أهل عمان فأبى عليه، فضربه الوالي مائة سوط فجاء العماني إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز بالشام شاكيا، فكتب الخليفة عمر إلى والي البصرة: "... فإذا أتاك كتابي فابعث إليه من يعزله، وابعث به إليّ مشدودا

موثقا"، ولما أُحضِر سعيد بن مسعود إليه أُعطى العماني سوطا وقال له: قم فاجلده كما جلدك، ففعل.(١٩٦)

ثم اختار عمر بنفسه والي عمان وهو عمرو بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري فأحسن السيرة في الناس.(١٩٧) وكتب عمرو بن عبدالله إلى الخليفة عمر يعلمه أن من كان قبله من ولاة عمان كانوا يستعينون بالجند، وأنه اختار أن يستعين بأهل عمان وولى ثلاثين منهم على الصدقات، ويسأله أن يقفل من قبله من الجند، فكتب إليه عمر يأمره بإعادة الجند.(١٩٨) والمرجح أن الولاة كانوا ينتخبون الجند الذين يستعينون بهم لحكم عمان من قبائلهم وممن يدينون لهم بالولاء الشديد حتى ينفذوا تعليماتهم بدقة إن لم يتجاوزوها.

ومنها أنهم كانوا يحملون صدقات أموال أهل عمان إلى والي البصرة فصحح هذا الوضع عمر ابن عبدالعزيز فكتب إلى واليه عدي بن أرطأة: "أما بعد فإني قد كتبت إلى عمرو بن عبدالله: أن يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها، ومن سقط إليهم من أهل البادية، ومن أضافته إليهم الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل. فكتب إلي: أنه سال عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل إليك ثمنه. فاردد إلى عمرو ما كان حمل إليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرته بها ويصرفه فيها إن شاء الله. والسلام."(١٩٩)

أما في عهد يزيد بن عبدالملك فقد استمر عدي بن أرطأة الفزاري واليا على البصرة حتى قتله يزيد بن المهلب (سنة ١٠١هـ). ومن المحتمل أن عبدالله بن عمرو بن أبي طلحة الأنصاري استمر واليا على عمان لأنه كان حسن السيرة، مع أن هناك من المصادر ما يجعل تولية يزيد بن المهلب لأخيه زياد على عمان سنة ١٠١هـ عندما ثار في البصرة على يزيد بن عبدالملك وليس سنة ٩٦هـ عندما ولاه سليمان بن عبدالملك على العراق.(٢٠٠) على أية حال فإن صحت الرواية الأخيرة فإن ثورة يزيد بن المهلب تم القضاء عليها سنة ١٠٢هـ بقيادة مسلمة بن عبدالملك وأخذوا يطاردون آل المهلب حيثما وجدوهم. أما مسلمة فولى على عمان أحد القادة الشاميين الذين كان له دور بارز في القضاء على حركة ابن المهلب وهو عبدالرحمن بن سليم الكلبي.(٢٠١)

ولا نعرف من كان واليا على عمان إبان ولاية خالد بن عبدالله القسري (١٠٥-١٢٠هـ) في عهد هشام بن عبدالملك، ولكن تذكر المصادر أن يوسف بن عمر الثقفي الذي تولى العراق بعد خالد بن عبدالله القسري لهشام أعاد تولية التميميين عليها فولى غُضَيّا بن القاسم بن مجاعة على عمان(٢٠٢)، والذي سبق أن صلب أهل عمان أباه. ويظهر أن مثل هذه التولية كانت نكاية بأهل عمان وقصد الإضرار بهم. ثم ولاها يوسف في عهد الوليد بن يزيد الفيضَ بن محمد بن كردم بن بيهس.(٢٠٣) وقتل يوسف بعد قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ. ولا نعرف من كان الولاة على عمان في فترة الاضطراب بما فيها عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولعل آل الجلندى الذي كانوا دائما يتحينون الفرصة المواتية للإمساك بالسلطة في عمان استعادوا سلطتهم على عمان. وهناك إشارة واحدة يفهم منها عدم وجود ممثلين للسلطة في عمان وهي أن يزيد بن عمر بن هبيرة والي مروان بن محمد على العراق عهد إلى القائد

عامر بن ضبارة في سنة ١٢٩هـ بمطاردة خصوم مروان ومنهم شيبان بن عبدالعزيز أبو الدلف اليشكري أحد زعماء الخوارج وعبر شيبان إلى جزيرة بني كاوان بين البحرين وعمان، فأقام بها حتى قدم عليه المُسَبِح بن الحواري من قبل أبي العباس فتقاتلا فانهزم المسبح وجيشه، فانتقل شيبان إلى عمان فكره الجلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأزدي وأهل عمان قدومه عليهم وحاربوه وقتلوه هو وأصحابه سنة ١٣٤هـ.[٢٠٤]

رغم أن عمان أصبحت لاحقا معقلا رئيسا للفكر الإباضي المنسوب إلى عبدالله بن إباض التميمي، من رجال القرن الأول الهجري، أحد قعدة الخوارج في البصرة أي أحد الفقهاء المنظرين، وهم ينتمون إلى أصل الفكر الخارجي لكنهم يتميزون عن الفرق الخارجية الأخرى بأنهم لا يرون الخروج على باقي الأمة وقتالهم، وإذا فهم أصحاب مبدأ مسالم معتدل في معتقدهم وفقههم ويرون التعايش مع باقي المسلمين.[٢٠٥] أما تاريخ وكيفية دخول المذهب إلى عمان فغير معروف على وجه التحقيق وإن كان المعتقد أن ذلك تم في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري.

ورغم قلة المعلومات عن تاريخ عمان في القرن الأول الهجري إلا أن ما استعرضناه آنفا من مقاومة أهل عمان بقيادة آل الجلندى للحكم المركزي للسلطة الأموية وتبعيتها للعراق لا ينعكس فيه أي توظيف لمسألة اختلاف المذهب من الطرفين مما يقود إلى الاستنتاج أن المذهب لم يترسخ بعد في عمان وأن الدوافع -كما تبدو- كانت المحافظة على الهوية والاستقلال من جانب أهل عمان والمحافظة على السلطة من قبل آل الجلندى. وكون علاقة السلطة المركزية الأموية بعمان وأهلها علاقة خصومة وصراع وليست علاقة وئام وانسجام، إذ أن السلطة ممثلة بالحجاج بن يوسف ومن تلاه من ولاة، باستثناء عهد عمر بن عبدالعزيز، يعمدون إلى اختيار ولاة قساة مستبدين معظمهم من قبيلة بني تميم و لم يولوا أزديا واحدا ممن ينتمي نسبا لأهل البلاد باستثناء زياد بن المهلب، الذي ولاه أخوه يزيد بن المهلب على عمان، وكانت سياستهم تقوم على التنكيل بالناس وإثقالهم بالضرائب والمغارم التي تتجاوز المقرر شرعا. كل هذا مهد وساعد على انتشار المذهب الإباضي في أجزاء من عمان لاعتداله وتسامحه من جهة، ولكونه يلبي رغبة العمانيين في المحافظة على هويتهم واستقلالهم من جهة أخرى. ووفقا للأزكوي[٢٠٦] فإنه تم الجمع بين السلطة السياسية وإمامة المذهب الدينية لأول مرة بعد تولي العباسيين السلطة مباشرة: "... فداهن جناح بن عبادة الإباضية حتى صارت ولاية عمان لهم، فعند ذلك عقدوا الإمامة للجلندا بن مسعود، فكان سببا لقوة المذهب وكان عادلا."

لقد قام هذا البحث في مجمله على السرد والوصف أكثر من التحليل، بل إن هذا السرد قام على تصيد نتف من المعلومات مشتتة في المصادر، ومن ثم فلا يمكن الادعاء بأننا قدمنا رواية متماسكة للأحداث التاريخية لأقاليم الجزيرة العربية في فترة الدراسة، بل هناك فجوات كثيرة لم نستطع ملأها، وإن كنا حاولنا في حالات ليست كثيرة ملء مثل هذه الفجوات عن طريق الفروضات التي قد تصيب وقد تخطيء.

وفي **الختام** يمكن الخروج ببعض الاستخلاصات، منها:

أن الجزيرة العربية في العهد الأموي كانت مقسمة سياسيا وإداريا إلى أقاليم و لم تعرف الوحدة السياسية، وأن إقليم الحجاز كان مرتبطا بالحكومة المركزية في دمشق. أما اليمن فأحيانا قليلة يربط بوالي الحجاز لكنه في الغالب كان يرتبط بالحكومة المركزية بدمشق. أما اليمامة فكانت ترتبط إما بوالي المدينة أو بوالي البصرة وفي حالة نادرة ولفترة قصيرة ارتبطت بالحكومة المركزية بدمشق. أما البحرين وعمان فكانتا مرتبطتين دائما بوالي البصرة.

أما من حيث اهتمام الدولة بهذه الأقاليم فكان متفاوتا، فمن الطبيعي أن الأمويين أولوا الحجاز اهتماما خاصا لمكانتها الدينية ومكانة أهلها من أبناء المهاجرين والأنصار ولكون الأمويين في الأصل من أهلها. وكانت سياسة الأمويين في تعيين ولاة الحجاز تقضي، في الغالب وفي الظروف الطبيعية، بتولية أقاربهم، وكان الولاة كثيرا ما يسيئون استغلال هذه القرابة، فهم أيضا يحابون أقاربهم في توليتهم الأعمال التي تعود بالنفع مثل السعاية على الصدقات، لكن نظرا لتقدير الخلفاء الأمويين لرجالات الحجاز بصفة عامة عندما يفدون إليهم في الشام أو عندما يأتون هم لأداء فريضة الحج ومنحهم إياهم العطايا الجزيلة فقد حفظوا نوعا من علاقة الود والاحترام معهم، إضافة إلى أن أهل الحجاز تعلموا درسا قاسيا من نتائج تمرد أهل المدينة ومعركة الحرة وحركة ابن الزبير، ومن ثم فقد ظل الحجاز سامعا مطيعا للسلطة بل أكثر من ذلك فقد رفضوا عرض أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي زعيم الخوارج الإباضية في أن يخلي أهل المدينة بينه وبين الأمويين في الشام فحاربوه وألحق بهم هزيمة قاسية بقديد سنة ١٣٠هـ.

أما باقي الأقاليم فيجمعها إهمال الدولة وتولية ولاة قساة مستبدين أثقلوا هذه البلاد بالضرائب غير الشرعية، فاليمن تعاقب عليها بعد القضاء على حركة ابن الزبير ولاة من أسرة الحجاج وساروا فيهم بسيرته، وتولى أفراد من أسرة السعديين واحد منهم كان محمود السيرة، أما بقيتهم فكان توليتهم في ظل حرب أهلية تولوا فيها قيادة جيوش الأمويين ضد المتمردين من أهل اليمن. وقد تجلبب هؤلاء المتمردون من أهل اليمن بجلباب المذهب الإباضي الخارجي وقد يكون ذلك عن اعتقاد واقتناع، أو استخدموه لأنه يشرع لهم الثورة والاستقلال بحيث لا يكون استقلالهم عصيانا وشقا لعصا الطاعة لإمام المسلمين.

أما وسط الجزيرة العربية (اليمامة) والبحرين وعمان فظروفها متشابهة تماما مع اليمن، ولذلك كانت هذه الأقاليم قبل اليمن أرضا حاضنة لحركات الخوارج بكل طُيوفها، وكانت سياسة الأمويين أو سياسة ولاة العراق تقوم على تعيين ولاة من غير أهل البلاد فمثلا اليمامة لم يكن من بين ولاتها واحد ينتمي إلى بني حنيفة أو حي من بطون قبيلة ربيعة الأخرى من سكان اليمامة، وكذلك يقال عن البحرين فلم يعين ولاة من عبدالقيس ولا بكر بن وائل ولا من تميم أهل البلاد، وعمان لم يول عليها وال واحد من الأزد سوى ما أشرنا إلى تعيين زياد بن المهلب، وكان معظم ولاتها من التميميين أهل البصرة، ومعروف أن أكبر تجمعين سكانيين في البصرة هما قبيلتا الأزد، أزد عمان، وتميم، تميم البحرين، وكان بينهما من التنافس ما يكون عادة بين التكتلات السكانية خاصة تلك التي تعيش في المدينة بعقلية القبيلة. وكان أهل هذه الأقاليم يتحينون ضعف ممثلي السلطة المركزية حتى يثوروا عليهم ليتخلصوا منهم تحت أي شعار وبأية ذريعة.

التعليقات

(١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة، دار المعارف)، ٧: ٢٩.

(٢) ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، *جمهرة نسب قريش وأخبارها*، ج١ تحقيق: محمود شاكر، ج٢ تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٨هـ)، ٢: ٦١٣ ؛ الطبري ٧: ١١١.

(٣) الطبري ٧: ١١١.

(٤) ابن خياط، خليفة (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق: أكرم ضياء العمري. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢ (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ٣٦٦؛ البلاذري، أحمد بن يحي (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، *كتاب جمل من أنساب الأشراف*، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، ط١ (دمشق، دار الفكر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ٩: ١٥٣؛ الطبري ٧: ٢٢٦.

(٥) ابن خياط، ٣٧٠ ،٣٦٢؛ الطبري، ٧: ٢٩٩ ؛ البلاذري، *أنساب*، ٩: ١٩٦.

(٦) ابن خياط، ٣٦٩، ٣٧٤؛ الطبري، ٧: ٣١٢.

(٧) الطبري ٧: ٣٢٩؛ ابن الأثير، عزالدين علي بن أبي الحسن (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ*، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، د. ت.)، ٥: ٣٤٠.

(٨) ابن خياط، ٣٨٢ ،٣٨٤.

(٩) ابن خياط، ٣٨٥؛ الطبري ٧: ٣٧٥.

(١٠) ابن خياط، ٣٩١؛ واسمه عند البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٩٩ إبرهة بن شرحبيل بن الصباح.

(١١) ابن خياط، ٣٩١.

(١٢) الطبري ٧: ٣٧٦، ٣٩٣.

(١٣) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٨٤.

(١٤) الطبري، ٧: ٣٩٧.

(١٥) الطبري، ٧: ٣٩٥ ،٣٩٨؛ ابن بكار، ٢: ٨٣٧.

(١٦) الطبري، ٧: ٣٤٩.

(١٧) الأصبهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، *كتاب الأغاني*، ط٥ (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ١٣٩/٢٣؛ ابن الأثير، ٣٩١.

(١٨) الزبيدي، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م)، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٢٦.

(١٩) الأصبهاني، ٢٣: ١٤٦.

(٢٠) الطبري، ٧: ٣٩٨.

(٢١) الطبري، ٧: ٣٩٩.

(٢٢) الطبري، ٧: ٣٩٨.

(٢٣) ابن خياط، ٣٩٣؛ الطبري، ٧: ٣٩٩.

(٢٤) الطبري، ٧: ٣٩٨.

(٢٥) ابن خياط، ٣٩٤.

(٢٦) ابن خياط، ٤٠٧ ؛ الطبري، ٧: ٣٩٩.

(٢٧) ابن خياط، ٣٩٥ ؛ الطبري، ٧: ٤٠٢.

(٢٨) ابن خياط، ٣٩٤.

(٢٩) ابن خياط، ٣٩٥، ٣٩٨ ؛ الطبري، ٧: ٤١١، ٤١١.

(٣٠) ابن خياط، ٤٠٧؛ الطبري، ٧: ٤٥٨.

(٣١) ابن بكار، ١: ٣٠١؛ البلاذري، *أنساب*، ٩: ٤٤٤.

(٣٢) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٤١٥.

(٣٣) ابن بكار ٢: ٩٤٩، ٩٥٠، ٧٥٦؛ الطبري ٧: ٦٠٩؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٢م)، *تهذيب التهذيب*، تحقيق: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد ط١ (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ٤: ٤٨٩.

(٣٤) البلاذري، *أنساب*، ١١: ١٧.

(٣٥) ابن سعد، محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى* (بيروت، دار صادر، د. ت.)، ٥: ١٥٨؛ ابن بكار ٢: ٦٢٨ ؛ البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٩. وأظنها "الهيبة" وليست "الهيئة" كما رسمت في بعض المصادر، ومما يقوي ظني قول الخليفة أبي جعفر المنصور لقاضيه على البصرة أولا ثم على المدينة بعد ذلك عمر بن عثمان ... بن معمر: "إنك متواضع، وينبغي للقاضي أن يكون مهيبا." أنظر البلاذري، *أنساب*، ١٠: ١٥٣.

(٣٦) الطبري، ٧: ٢٩.

(٣٧) ابن بكار، ٢: ٨٨٢.

(٣٨) ابن سعد، *القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم*، تحقيق: زياد منصور، ط٢ (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، ٣٣٦؛ الطبري، ٧: ٢٢٦.

(٣٩) البلاذري، أنساب، ٩: ٧٧.

(٤٠) الطبري، ٧: ١١١.

(٤١) البلاذري، أنساب، ٨: ٤٢٤.

(٤٢) البلاذري، أنساب، ١٣: ٣٥٣.

(٤٣) البلاذري، *أنساب*، ١١: ٢٠٣.

(٤٤) الطبري، ٧: ١٢٨.

(٤٥) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٧.

(٤٦) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٤٣،٢٤٥. وانظر ياقوت بن عبدالله الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، *معجم البلدان* (بيروت، دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ١: ٢٢٠ أعراض المدينة هي قراها التي في أوديتها. وأعراضها بطون سوادها حيث الزرع والنخل.

(٤٧) الطبري، ٧: ٥٩٧.

(٤٨) الطبري، ٧: ٣٩٣.

(٤٩) الطبري، ٧: ٣٩٨. وذكر ياقوت ٤: ١٤٤ أن النبي ﷺ مر بها في طريقه إلى تبوك وصلى بها وبُني فيما بعد مكان مصلاه مسجدا.

(٥٠) البلاذري، أنساب، ٨: ٤١٥.

(٥١) ابن بكار، ٢: ٥١٥.

(٥٢) البلاذري، أنساب، ٩: ١٥٣؛ الطبري، ٧: ٢٢٦.

(٥٣) البلاذري، أنساب، ١٢: ٣٦٠.

(٥٤) الجعدي، عمر بن علي (ت بعد ٥٨٦هـ/١١٩٠م)، *طبقات فقهاء اليمن*، تحقيق: فؤاد سيد، (بيروت: دار القلم، د. ت.)، ٥٠؛ الرازي، أحمد بن عبدالله (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٨م)، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق: حسين عبدالله العمري، ط٣ (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ١٨٩، ٦١٩.

(٥٥) ابن عبدالمجيد، عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني، (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، *بهجة الزمن في تاريخ اليمن*، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، ط١ (صنعاء: دار الحكمة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ٢٤؛ الديار بكري، حسين بن محمد، (ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م)، *تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس* (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، د. ت)، ٢: ٣١٣.

(٥٦) الطبري ٦: ٢٧٩ "الحكم بن أيوب بن أبي عقيل الثقفي وهو زوج ابنة الحجاج وعامله على البصرة". ولا نعرف إن كان أيوب سبطا للحجاج أو ابنا للحكم من امرأة أخرى غير ابنة الحجاج. قارن: تاريخ اليمن من كتر الأخبار ص٢٦ "فولى الحجاج [سنة ٩٦هـ] على اليمن ابن عمه أيوب بن يحي الثقفي، وذلك أيام الوليد بن عبدالملك، فلم يزل عليها ولاية الوليد."

(٥٧) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٩٥.

(٥٨) الفسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)، *كتاب المعرفة والتاريخ*، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢: ٣٠ ؛ ابن حجر، تهذيب، ٣: ٩٦.

(٥٩) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٩٥.

(٦٠) الفسوي، ١: ٥٩٣.

(٦١) الفسوي، ٢: ٣٧٠.

(٦٢) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٣٧٠.

(٦٣) ابن عبدالحكم، عبدالله (ت ٢١٤هـ/٨٢٩م)، *سيرة عمر بن عبدالعزيز*، (بيروت: دار الفكر الحديث، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٦١.

(٦٤) ابن عبدالحكم، ١٠٨؛ وقارن اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، *تاريخ اليعقوبي*، (بيروت: دار بيروت للنشر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢: ٣٠٦ ؛ والبلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٤.

(٦٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٣٥.

(٦٦) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٩٦؛ الحمزي، إدريس بن علي، *تاريخ اليمن من كتر الأخيار في معرفة السير والأخبار*، تحقيق: عبدالمحسن المدعج ط١ (الكويت: مؤسسة الشراع، ١٩٩٢م)، ٣٢.

(٦٧) البلاذري، أنساب، ٩: ١١.

(٦٨) البعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٩٤؛ الطبري، ٦: ٥٠٦؛ الجعدي، *طبقات*، ٢: ٣٦٠.

(٦٩) الطبري، ٧: ٤٠.

(٧٠) البلاذري، *أنساب*، ٩: ١١.

(٧١) الطبري، ٧: ١٤٧؛ ابن عبدالمجيد، ١٧.

(٧٢) البلاذري، *أنساب*، ٩: ١١.

(٧٣) الطبري، ٧: ١٥٠.

(٧٤) ابن عبدالمجيد، ١٧؛ الحمزي، ٣٣.

(٧٥) ابن خياط، ٣٦٦؛ وقارن الحمزي، ٣٣؛ وابن عبدالمجيد، ٢٧ الضحاك بن واصل السكسكي.

(٧٦) ابن الأثير، ٥: ٢٨٥، ٢٨٧.

(٧٧) ابن خياط، ٤٠.

(٧٨) البلاذري، أنساب، ٩: ٢٨٥- ٢٨٩.

(٧٩) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٥.

(٨٠) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٦.

(٨١) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٧.

(٨٢) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٦.

(٨٣) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٦.

(٨٤) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٧.

(٨٥) الأصبهاني، الحسن بن عبدالله (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، *بلاد العرب*، تحقيق: حمد الجاسر وصالح العلي، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ٣٢٦.

(٨٦) الجاسر، حمد، *ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد*، ط١ (الرياض: د. ن، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ٣؛ الوشمي، صالح بن سليمان، *ولاية اليمامة*، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ)، ١٢٩؛ الدباسي، عبدالرحمن بن إبراهيم، *الشعر في حاضرة اليمامة حتى نهاية العصر الأموي* (الرياض، د. ن، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٥- ٩.

(٨٧) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٢٦؛ وانظر الوشمي، ١٢٩.

(٨٨) انظر مقدمة الجاسر لكتاب بلاد العرب، ٤٨.

(٨٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٤٠.

(٩٠) البلاذري، *أنساب*، ١٠: ٢٢٧.

(٩١) الجاسر، *ابن عربي*، ٢٣.

(٩٢) أنظر بعض الأمثلة التي أوردها الجاسر، *ابن عربي*، ٢٢-٢٥.

(٩٣) الجاسر، *ابن عربي*، ٩٢.

(٩٤) ابن خياط، ٢٨٨؛ ونسبه البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩٠ على هذا النحو: ومن محارب بن خصفة: يزيد بن هبيرة بن أُقيش بن

جذيمة بن كلتـــة بن خفاف بن معاوية بن مر بن بكر. وكان شريفا قد ولي الولايات. وهو أبو داود.

(٩٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٦،٢٩.

(٩٦) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩١.

(٩٧) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩١.

(٩٨) البلاذري، أنساب، ٨: ٤٧.

(٩٩) البلاذري، أنساب، ٢: ١١٥.

(١٠٠) البلاذري، أنساب، ١١: ٢٣٣؛ الجاسر، *ابن عربي*، ص٢٣.

(١٠١) ابن خياط، ٣١١ ؛ الجاسر، *ابن عربي*، ١١١.

(١٠٢) ابن خياط، ٣٣٣ ؛ الجاسر، *ابن عربي*، ١١١.

(١٠٣) ابن خياط، ٣١٩،

(١٠٤) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٠٠، ٣٥٤.

(١٠٥) ابن الأثير، ٥: ١١٩.

(١٠٦) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٦٥.

(١٠٧) ابن خياط، ٣٣٦.

(١٠٨) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩١.

(١٠٩) ابن خياط، ٣٢٣.

(١١٠) الفسوي ١: ٣٦٨؛ ابن حجر، *تهذيب*، ١: ٦٢٨؛ وقارن الجاسر، ابن عربي، ١١٢، لعله زرارة بن مصعب بن عبدالرحمن فهو من رواة الحديث الثقاة.

(١١١) ابن سعد، ٥: ١٧٥-١٦٠.

(١١٢) الجاسر، *ابن عربي*، ص١١٢ ونقل المعلومة عن تاريخ أبي زرعة ١: ٦٥٢.

(١١٣) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٢٨٤.

(١١٤) *شـــرح نقـــائض جريـــر والفـــرزدق*، غـــير منسوب لمؤلف، تحقيق: محمد حمور ووليد خالص، ط١ (أبوظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٨م)، ٢: ٦٩٩ ؛ ابن خياط، ٣٥٩، ٣٦٧؛ الجاسر، *ابن عربي*، ١١٣.

(١١٥) ابن خياط، ٣٥٩ ؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٨.

(١١٦) ابن خياط، ٣٨٢ ؛ ابن الأثير، ٥: ٣٠١.

(١١٧) ابن الأثير، ٥: ٣٠١.

(١١٨) الجاسر، *ابن عربي*، ١٤٨.

(١١٩) الراعي النميري، عبيد بن حصين (توفي تقريبا سنة ٩٠هـ/٧٠٩م)، *ديوان الراعي النميري*، تحقيق: راينهرت فايبرت، فايسبادن، فرانـــتس شتاينر (١٤٠١هـ/١٩٨٠م)، ٢٢٨؛ القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب توفي في أوائل القرن الرابع الهجري/ ق ١٠م، *جمهـــرة أشـــعار العـــرب*، تحقـــيق: محمـــد عـــلي الهـــاشمي (الـــرياض، جامعـــة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٣: ٩٣٨-٩٤٤ ؛ الجاسر، *ابن عربي*، ٢٧.

(١٢٠) *ديوان الراعي النميري*، ٦٤؛ الجاسر، *ابن عربي*، ٢٨.

(١٢١) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٣٦١.

(١٢٢) ابن جنيدل، سعد، *المعجم الجغرافي – عالية نجد* (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د. ت)، ٣: ٧٤٨.

(١٢٣) القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، ٢: ٨٤٨؛ الجاسر، *ابن عربي*، ص٢٩.

(١٢٤) ابن جنيدل، *عالية نجد*، ٣: ٩٣١.

(١٢٥) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ١١٨.

(١٢٦) ابن سعد ٧: ٤٨٨.

(١٢٧) ابن سعد ٥: ٥٥٤، ٥٥٦.

(١٢٨) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، *البداية والنهاية* (بيروت، دار المعارف، ١٩٨١م/١٤٠١م)، ٩: ٣٠٨.

(١٢٩) القالي، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، *كتاب ذيل الأمالي والنوادر* (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٥٦.

(١٣٠) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٢٤٧.

(١٣١) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٠٧ ؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٢٢٦؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٨.

(١٣٢) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٠٨ ؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٢٤٩؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٩.

(١٣٣) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٠٩؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٩.

(١٣٤) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢١٤؛ ابن الأثير، ٥: ٣٠١.

(١٣٥) الطبري، ٧: ٤٥٩؛ وقارن البلاذري، *أنساب*، ١٣: ١٥٤ ... وقتله حماد المروزي بالبادية.

(١٣٦) البلاذري، *أنساب*، ٦: ٢٤١.

(١٣٧) ابن بكار، ٢: ٧٥٧؛ وقارن رواية البلاذري، *أنساب*، ١٠: ٢٧٧، "قال: ههنا مال من مال الصدقة وأنت غارم فأنت أحق به، وأعطاه أربعة آلاف، وكان دينه قريبا من ثلاثة آلاف".

(١٣٨) ابن بكار، ٢: ٧٦٠؛ البلاذري، *أنساب*، ١٠: ٢٢٧؛ وانظر أيضًا ابن بكار، ٢: ٦٧٧، كان عكرمة بن عبدالرحمن المخزومي ساعيا على صدقات سعد والرباب فوفد عليه الشاعر كثير بن عبدالرحمن [كثير عزة] فأعطاه عكرمة عشرة آلاف درهم.

(١٣٩) ابن بكار ٢: ٩٤٩؛ وقارن ابن حجر، *تهذيب*، ٤: ٤٨٩، فجباهم عشرين ألفا.

(١٤٠) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ١٢٤.

(١٤١) البلاذري، *أنساب*، ٦: ٢٥٤، ٩: ٣٤٣-٣٤٩؛ وانظر قصيدة أدهم بن أبي الزعراء الطائي التي قالها بهذه المناسبة وقصة هذه الحرب (يوم المنتهب) عند التبريزي، يحي بن علي (ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م)، *شرح ديوان الحماسة لأبي تمام* (بيروت، دار القلم، د. ت)، ١: ٢٤٢. وفي ياقوت ٥: ٢٠٧ المنتهب: قرية في طرف سلمىَ أحد جبلي طيء، وهي لسنبس.

(١٤٢) الجاسر، *المعجم الجغرافي – المنطقة الشرقية (البحرين قديما)* ط١ (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ١: ٧.

(١٤٣) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٥٥.

(١٤٤) ابن خياط، ٣٣٣.

(١٤٥) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٢: ٦٩٩.

(١٤٦) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٤٥٠ ؛ الطبري، ٦: ١٧٤.

(١٤٧) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٤٥٢.

(١٤٨) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٤٥٠-٤٦٠؛ ورواية الطبري، ٦: ١٩٣ تختلف في بعض تفاصيلها عن رواية البلاذري، من ذلك: "... حصروهم في المشقر فنزلوا على الحكم، فقتل عمر بن عبيدالله منهم -فيما ذكر- نحوا من ستة آلاف وأسر ثمانمائة". ويظهر أن في هذه الرواية مبالغة، ورواية البلاذري أولى بالقبول.

(١٤٩) ابن خياط، ٢٩٧؛ وعند البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٤٣٧ نص غير مستقيم هو: "وكان المغيرة بن الأخنس عامل مروان بن الحكم على البحرين".

(١٥٠) ابن خياط، ٢٩٣.

(١٥١) ابن خياط، ص٢٩٧؛ وذكر ابن سعد، ٧: ٢١٢ أن له أخا اسمه موسى بن سلمة. فهل هو الذي خلف سنانا، أم أن سنانا له ابن اسمه موسى فخلفه ؟.

(١٥٢) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٨٦.

(١٥٣) ابن حجر، *تهذيب*، ٢: ١١٨.

(١٥٤) ابن خياط، ٢٩٧،٣١٠.

(١٥٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٤٩ وعنده: سنة سبع [؟] وسبعين.

(١٥٦) ابن خياط، ٢٧٨-٢٧٩؛ البلاذري، *أنساب*، ٨: ٤٨-٥٠.

(١٥٧) ابن خياط، ٢٧٩،٢٩٧،٣١٠؛ البلاذري، *أنساب*، ٨: ٥١.

(١٥٨) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٥١-٥٢.

(١٥٩) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ١٢٥ ونصه: "فولاه الحجاج جزيرة ابن كاوان والبحرين". ونعتقد أنه حصل تحريف بالنص لأنه ليس من المنطق أن يبدأ بجزيرة ابن كاوان وتضاف إليها البحرين. ومن ناحية ثانية لم يذكر أحد غيره من المؤرخين فيما اطلعنا عليه أنه تولى البحرين. ولعل الصواب ما أثبتناه. وانظر ياقوت ٢: ١٣٩ "جزيرة بني كاوان، وهي جزيرة لافت، جزيرة عظيمة بين عمان والبحرين، كانت عامرة آهلة بالسكان سنة ٣٣٣هـ وأصابها الخراب." وقد استعلمت عنها في الوقت الحاضر فأُخبرتُ أن جزءا منها يسمى الآن القَشَم، والجزء الآخر لا يزال يحمل اسم لافت.

(١٦٠) ابن خياط، ٣١٠.

(١٦١) ابن خياط، ٣١٨.

(١٦٢) ابن خياط، ٣٣٦.

(١٦٣) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٥٤.

(١٦٤) ابن الأثير، ٥: ١١٨-١١٩.

(١٦٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٥٥ ؛ ابن الأثير، ٥: ١١٩.

(١٦٦) ابن خياط، ص٣٢٢.

(١٦٧) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٨٦.

(١٦٨) ابن خياط، ٣٢٢.

(١٦٩) ابن خياط، ٣٥٩.

(١٧٠) ابن خياط، ٣٦٦.

(١٧١) ابن خياط، ٣٦٦.

(١٧٢) البلاذري، *فتوح البلدان*، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ١٠٤/١، أهل الذمة، و ١٠٥ المجوس.

(١٧٣) ابن سعد، ٧: ١٧٩.

(١٧٤) الزبيدي، ٤٧.

(١٧٥) لزبيدي، ص١٨٣؛ ابن حزم، أحمد بن علي ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، *مهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ٩٨٣م)، ٣٦٨.

(١٧٦) الزبيدي، ١٨٣.

(١٧٧) ياقوت، ٢: ٤٣٥.

(١٧٨) بن سعد، ٧: ١٠١.

(١٧٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ١٣١؛ البلاذري، *فتوح*، ١: ١٠٤؛ ياقوت، ٢: ٤٣٦.

(١٨٠) المصادر السابقة. وبعض مؤرخي عمان المحدثين ينفون حدوث ردة في عمان، وإنما حدث التباس من قبل حذيفة بن محصن الغلفاني المسئول عن جمع الصدقات في دَبا بأن أهلها منعوا دفع الصدقة فحاربهم. انظر السيابي، حمود بن سالم، *عمان عبر التاريخ*، ط٥ (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ١: ١٣٦.

(١٨١) ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، *المحبر*، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر (بيروت: دار الآفاق)، ٢٦٥.

(١٨٢) ابن خياط، ٣٤؛ وعند البلاذري، *فتوح*، ١: ١١٢، فقد ولى عمر بن الخطاب سنة ١٥هـ عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان. وكان عثمان يستعين بأخويه الحكم والمغيرة في تسيير شئون البلاد.

(١٨٣) ابن خياط، ٢٩٧.

(١٨٤) ابن خياط، ٢٩٧؛ البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٠٩.

(١٨٥) ابن خياط، ٢٩٧؛ البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٠٩.

(١٨٦) الأزكوي، سرحان بن سعيد، *أخبار أهل عمان من أول إسلامهم إلى اختلاف كلمتهم*، وهو الباب الثالث والثلاثون من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق: هـ. كلاين، ط١ (دار الفضيلة، ٢٠٠٣م)، ١١٠-١١١. ولم يصل المحقق إلى معرفة مؤلف الكتاب فنسبه لمصنف مجهول.

(١٨٧) ابن خياط، ٢٩٧؛ الطبري، ٦: ٢٢٦، ٧: ١١،٨٠.

(١٨٨) ابن خياط، ٢٩٧.

(١٨٩) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٨، ١٢: ١٠٦، فتوح، ٢: ٦١٢.

(١٩٠) ابن خياط، ٣١٠، والاسم عنده: عبدالجبار بن سبرة؛ وقارن ابن حبيب، *المحبر*، ص٤٨٤، "وصلب أهل عمان القاسم بن سعر السعدي فوجه إليهم الحجاج أخاه مجاعة بن سعر، فجاء فوجد أخاه مصلوبا، فأراد أصحابه إنزاله فأبى، وعاث فيهم ثم أنزله."

(١٩١) الطبري، ٦: ٢٩٤.

(١٩٢) ابـــن خـــياط، ٣١٩؛ الطبري، ٦: ٥٠٦؛ وينقل البلاذري، *أنساب*، ١٢: ١٠٦ رواية أبي عبيدة ومضمونها: أن تولية يزيد بن المهلب لأخيه زياد وقتل زياد والي عمان الخيار بأنها كانت لما ثار يزيد بن المهلب في البصرة سنة ١٠١هـــ. ويقول ابن حبيب، *المحـــبر*، ص ٤٨٢، وصلب زياد بن المهلب الخيار بن سبرة المجاشعي بعمان، وكان الحجاج ولاه فأضَرّ بالأزد، فلما خالف يزيد ولى أخاه زيادا عمان فصلب بها الخيار.

(١٩٣) ابن خياط، ص٣١٩.

(١٩٤) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٣٢.

(١٩٥) الطبري، ٦: ٥٢٤، ٥٠٦.

(١٩٦) الـــبلاذري، *أنساب*، ٨: ١٣٢، ١٣: ٤٣؛ وانظر ابن الكلبي، هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـــ/٨١٩م)، *جمهرة النسب*، تحقيق: ناجي حسن، ط١ (بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـــ/ ١٩٨٦م)، ٢٦٣؛ ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٢١٢.

(١٩٧) البلاذري، *أنساب*، ٨: ١٣٢؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٢٨٤.

(١٩٨) البلاذري، *أنساب*، ٨: ١٣١.

(١٩٩) البلاذري، *أنساب*، ٨: ١٤٩، فتوح، ١: ١٠٦.

(٢٠٠) ابن حبيب، ٤٨٢.

(٢٠١) الـــبلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٨ عبدالرحمن بن سليم الكندي ؛ أما ابن خياط، ٣١٠ فيجعله من ولاة الوليد بن عبدالملك على عمان.

(٢٠٢) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٠٩.

(٢٠٣) ابن خياط، ٣٦٧.

(٢٠٤) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٧٥؛ ابن خياط، ٣٧٨؛ اليعقوبي، ٢: ٢٣٩؛ الطبري، ٧: ٣٤٩،٣٥١؛ ابن الأثير، ٥: ٣٥٣.

(٢٠٥) أنظر خليفات، عوض، *نشأة الحركة الإباضية*، عَمّان (الأردن: مطابع الشعب، ١٩٨٢م)، ٧٨.

(٢٠٦) الأزكوي، ١٥.

ثورة السودان في المدينة المنورة
١٤٥هـ / ٧٦٢م

ابتسام بنت عبدالمحسن السويلم

قبل البحث في تفاصيل ثورة السودان لابد من التعرف على ما ذكرته المصادر حول السودان والعبيد. ويبدو مما ذكرته هذه المصادر أن هناك فرقاً بين هاتين التسميتين، تعود إلى طبيعة الاختلاف بينهما. فالعبيد هم من كانوا تحت العبودية لأسيادهم، وقد يكون منهم الأسود والأبيض، فهناك العبيد البربر، والصقالبة، والأتراك، والفرس[١]، وقد اشتغل بعضهم بالزراعة وسموا عبيد الحوائط[٢].

أما السودان فلعل تسميتهم تعود إلى لونهم الأسود، وهم على ثلاثة أصناف،فهناك الحبش والنوبة، والزنج[٣]. أما وضعهم الاجتماعي، فهم إما أن يكونوا من الأحرار أو من العبيد. ويغلب أن من قاموا بالثورة التي سميت باسمهم في المدينة المنورة من السودان الأحرار، ذلك لأنهم كانوا يشكلون جماعة لها رؤساؤها وتنظيمها، ولهم طريقتهم الخاصة في التجمع، تعارفوا عليها. ولو كانوا تحت الرق لما استطاعوا أن ينضووا تحت تنظيم معين، وأن يكون لهم رؤساء، ويستدعون من قبل رؤسائهم حين الحاجة، فيأتمرون بأمرهم، ويُقْدِمون إليهم بالسرعة اللازمة. وهم على الرغم من وضعهم المتحرر، فإنهم كانوا يدينون بالولاء لأهالي المدينة المنورة من قرشيين وأنصار، ممن أطلق عليهم اسم رؤساء المدينة[٤].

هذا وقد عمل بعض السودان في المدينة بالسقاية، فأطلق على الذين كانوا يقومون بهذا العمل لقب سودان أهل المياه[٥].

وقد يكون هؤلاء أحراراً، ويعملون لحسابهم في الساقية. أو أن أسيادهم أذنوا لهم بالعمل بالساقية أو بغيرها من الأعمال مقابل أن يدفعوا لأسيادهم جزءاً من الدخل يسمى ضريبة. وقد يعمل بعضهم ليحصل على التحرر، فيدفع من أجل التحرير لسيده مبلغاً إما جزئياً، أو كلياً، حسب الاتفاق بينهما[٦].

هذا ويجب القول بأن السودان والعبيد بقوا بعد هذه الثورة في المدينة ومكة، وفي المناطق المحيطة بهما، وكان الخارجون على السلطة العباسية يستعينون بهم، فقد استعان الحسين بن علي[٧] صاحب فخ بعبيد الحوائط في مكة، ونادى بتحريرهم[٨].

كمـــا اجـــتمع سودان البادية والأعراب إلى داود بن عيسى أمير مكة (عام ١٩٩ هــ/ ٨١٥م) أثناء ثورة أبي الســـرايا ضد سيادة العباسيين[٩]، كما نهض سودان المدينة بقتل عدد من الأعراب الذين حاولوا الفرار من سجن بغا الكبير[١٠] في المدينة المنورة بعد أن تتبعوهم[١١]. وذلك حين ثاروا على الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧- ٢٣٢هــ/ ٨٤٢- ٨٤٦م).

وأخــيراً يجب القول بأن السودان كانوا كثرة في المدينة وفي المناطق حولها، وكذلك في مكة. ومن المرجح أن هؤلاء السودان كانوا ممن أحضرهم أهالي الحجاز للعمل في الزراعة أو في الساقية، أو في الخدمة عموماً. أو أنهم قدموا إليها من المناطق الإفريقية التي خضعت لحكم المسلمين، وأسلم أهاليها، فقدموا للحج وبقوا في الحجاز.

تعد ثورة السودان التي نشبت في المدينة المنورة سنة (١٤٥هــ/ ٧٦٢م) إحدى الثورات الاجتماعية التي نشبت في العالم الإسلامي، لا بل هي من أوائل هذه الثورات، ولهذه الثورة أسباب متعددة على رأسها :

١ - قضـــاء الخلـــيفة أبي جعفـــر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هــ/ ٧٥٣- ٧٧٥م) على ثورة محمد بن عبدالله الحسني المعـــروف بالنفس الزكية[١٢]. ويمكن أن نعد هذا السبب من الأسباب غير المباشرة[١٣]، ذلك لأن القضاء على هذه الثورة وما تبعه من تنكيل وعقوبات ومصادرات لأموال وأملاك كل من شارك في هذه الثورة ن أدى إلى تكتل السودان وقيامهم بالثورة.

إضـــافة إلى أن المنصـــور أقفل على أهل المدينة، ومنع وصول الإمدادات والمؤونات إليهم، فلم يدع شيئاً يحمل إليهم من ناحية البحر، ومنع ميرة الشام من الوصول إليهم، حتى كان عهد المهدي فأمر بالبحر، ففتح لهم وأذن بقدوم المؤن إليهم[١٤]، وكان لذلك تأثير اجتماعي واقتصادي. إضافة إلى الأثر النفسي، وخاصة وأن المنصور أصبح ينظر إلى أهالي المدينة على أنهم أعداء له[١٥].

٢ - سوء معاملة والي المدينة من قبل أبي جعفر المنصور-عبدالله بن الربيع الحارثي[١٦] لأهاليها، الذي ترك لجنـــده العنان في النهـــب والســـلب والقتل[١٧] مما أدى إلى انتشار الفوضى[١٨]، وكان عبدالله قد تسلم ولاية المدينة في (٢٥ شوال سنة ١٤٥هــ/ ١٧ يناير ٧٦٣م) إثر القضاء على ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم[١٩].

٣ - وجود فئة من السكان وهم فئة السودان والعبيد، تلك الفئة التي لم تنل حقوقها كاملة، وكانوا مستعدين للثورة ضد الخليفة وولاته، والانضمام إلى كل ثائر ضد الخلافة أو ناقم عليه.

وقـــد بدأ تذمر هؤلاء السودان يظهر على الساحة منذ أن أخذ جند الوالي يعاملون تجار المدينة معاملة سيئة، ويرفضـــون دفـــع أثمـــان ما يشترونه منهم[٢٠]. وقد يكون سبب موقفهم من التجار أن هؤلاء الجند كانوا يتاجرون لأنفسهم وينازعون التجار في أعمالهم، وقد كان لهذا التصرف أثره في نفوس التجار الذين لم يتمكنوا من الوقوف في وجـــه جند الوالي أصحاب القوة العسكرية، ولذلك فإنهم لجأوا للشكوى منهم إلى الوالي عبدالله بن الربيع، فاجتمع

الرؤســاء إلــيه فكلموه، ووضحوا ما يحصل لهم من جنده فلم ينكر، و لم يغير شيئاً[٢١]. ولا تفسير لموقف الوالي هذا مــنهم، إلا أن يكــون جند الوالي يتاجرون لحسابه، أو أنهم يشاركونه في متاجراتهم، أو لأنه أراد كسر أنفة أهالي المديــنة بترك جنده يزعجونهم معاقبة لهم، لأنهم كانوا قد انضموا وأيدوا محمد النفس الزكية في الثــورة على الخلافة العباســية، أو أنه أراد نصرة جنده لأنهم حماته وحماة الخلافة، وأنه لا قوة له بدونهم، خاصة والخلافة كانت قد قضت حديثاً على ثورة محمد النفس الزكية.

والمهم في الأمر أن مناصرة الوالي لجنده أدت إلى شعورهم بقوتهم، وتأييد الوالي لهم، وأن أهالي المدينة لا ناصر لهــم من هؤلاء الجند، مما دفع بهم إلى التمادي في غيهم[٢٢]، فتجاوزا ما كانوا قد فعلوه، وأخذوا بنهب أموال الناس، فهاجموا أحد الصيارفة في المدينة، وحاولوا أخذ كيس نقوده، فتكتل الأهالي، وهبوا لنجدة الصيرفي وعملوا على نصرته لأنه كان مظلوماً، واستعادوا كيس النقود منهم[٢٣]، و لم يكتف الأهالي بأخذ حقهم من المعتدي، بل اجتمع رؤساء أهــل المديــنة لرفع الأمر إلى الوالي وتقديم اعتراضهم له على سوء تصرف جنده، ولكن جوابه لم يكن في هذه المرة أفضل مما سبق، فلم ينكر عمل جنده، و لم يغيره، و لم يناصر أهالي المدينة[٢٤].

وحدث حادث ثالث لا يختلف في كثير أو قليل عن الحادثين السابقين، الذي يؤكد فساد السلطة، أو رغبتها في انــتقام جندها من أهالي المدينة، ويتلخص هذا الحادث الذي أدى إلى ثورة عارمة -وإن كانت قد حدثت في يوم واحــد- في أن جــندياً من جنود الوالي قدم إلى أحد الجزارين لشراء اللحم منه في (يوم الجمعة ٢٣ ذي الحجة سنة ١٤٥ هـــ/ ١٥ مارس ٧٦٣م)[٢٥] فأعطاه الجزار كل ما طلبه من اللحم، فأخذه دون أن يدفع ثمنه، ولما طالبه الجزار بدفع ثمن اللحم، أبى أن يسدد ما عليه ويدفع الثمن، لا بل استخدم القوة، وأشهر سيفه في وجه الجزار، فلم يكن من الجــزار إلا أن أخرج شفرته، وضرب الجندي بها في خاصرته، فأصابه وأجهز زملاؤه من الجزارين على الجندي حتى قــتل[٢٦]. كان هذا العمل الشرارة التي أدت إلى نشوب ثورة ذهب ضحيتها عدد من أهالي المدينة وسودانهم، إضافة إلى عدد من جند الوالي[٢٧].

أدرك الجزار بأن الوالي سوف ينتقم منه، وأحسَّ الجزارون والباعة وغيرهم بضعفهم أمام الوالي وجنده، ولذلك فــإنهم قرروا استباق انتقام الوالي بالثورة على الجند وحاميهم. كما أن السودان الذين كانوا يقطنون المدينة المنورة بقسميها العالية والسافلة[٢٨] رأوا المشاركة في هذه الثورة، وكانت مشاركتهم بدافع ذاتي دون أن يطلب منهم ذلك، فقــد كان السودان في العالية، وبعض من كان بالسافلة في أعمالهم، فلما سمعوا نفخ بوق لهم، أصغوا للصوت، فلما تيقــنوا مــن الصوت تركوا ما في أيديهم، واتجهوا باتجاهه، حتى وصلوا إلى المكان الذي ينفخ فيه البوق[٢٩]. وكان خــروجهم لحمايــة المظلومين أمثالهم من ظلم الوالي وجنده، ولعلهم فكروا أنهم في مشاركتهم في هذه الثورة سوف يــنالون جــزءاً من حقوقهم، أو حقوقهم كاملة. وكان لهؤلاء السودان رؤساء عرفوا بأسمائهم وهم وثيق، ويعقل، وزمعة[٣٠]. و لم تذكر المصادر التاريخية أسماءهم كاملة.

ومما لا شك فيه أن هؤلاء السودان كانوا منظمين، ولهم رؤساء، وكانوا يتنادون بصوت البوق، ولم تذكر المصادر من السلاح الذي استخدمه هؤلاء إلا استخدامهم لعمد السوق، يهاجمون بها الجند فيقتلونهم[٣١]، وقد تمكنوا بأسلحتهم البسيطة، وبمساعدة الجزارين من قتال جند الوالي، وهم جند الخلافة المسلحين بكل أنواع الأسلحة، لأنه يتوجب عليهم حماية المدينة المنورة من كل من يعتدي عليها، وظل الفريقان يقتتلون حتى أمسى النهار، وتمكنوا من هزيمة جند الوالي وقتلوا عدداً كبيراً منهم[٣٢].

لم يتوقف السودان عند هذا الحد بل أرادوا قتال الوالي وإخراجه من المدينة، فتقدموا إلى دار الإمارة للقبض على الوالي ففر منهم، ولخوفه وللانتقام من الثائرين، بدأ يقتل كل من يجده في طريقه ممن ليس له علاقة بالثورة ظناً منه أنه منهم[٣٣]، أو لإرهاب أهل المدينة، وتبعه السودان حتى صار إلى البقيع، فلحقوا به، فنثر لهم دراهم شغلهم بها[٣٤]، ومضى على وجهه حتى أتى بطن نخل[٣٥]، فنزل به[٣٦]. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على قوة هؤلاء السودان ومقدرتهم العسكرية، وكثرة عددهم. فقد هابهم الجند، وأخذوا يقولون عنهم "ما هؤلاء السودان إلا سحرة أو شياطين"[٣٧].

أصبحت المدينة المنورة دون وال يدير أمورها، مما أفسح المجال للسودان إلى كسر باب السجن وإخراج أبي بكر بن أبي سبرة منه، ومن معه من المساجين[٣٨]، كما استغلوا ذلك للقيام بنهب مستودعات الطعام[٣٩] التابعة للخلافة وفيها السويق والدقيق والزيت والقسب[٤٠] فانتهبوه وأخذوا ببيع هذه المواد، فباعوا حمل الدقيق بدرهمين، وراوية الزيت بأربعة دراهم[٤١]، وبذلك أصبح السودان يملكون الأموال، بعد أن كانوا يعيشون في فقر مدقع، ويصورهم الطبري بقوله: "كان الفارس –يقصد الفرد من جند الخلافة– ليلقى الأسود وما عليه إلا خرقتان على عورته، ودراعة"[٤٢].

لم تنته الثورة إلا بعد أن عمل زعماء المدينة ورؤساؤها على احتوائها فقد خرج أبو بكر من أبي سبرة من السجن، وقد ذاق مراراته، وأدرك قسوة الولاة ومعاقبتهم، وكان الحديد ما زال في يديه فأتي المسجد وأرسل إلى محمد ابن عمران[٤٣]، ومحمد بن عبدالعزيز[٤٤]وغيرهما فاجتمعوا عنده، فقال لهم: "أنشدكم الله وهذه البلية التي وقعت!! فوالله لئن ثبتت علينا عند أمير المؤمنين بعد الفَعْلَة الأولى يقصد مناصرة ثورة محمد النفس الزكية -أنه لهلاك البلد وأهله، والعبيد في السوق بأجمعهم، فاذهبوا فكلموهم في الرجعة والفيئة إلى رأيكم فإنهم لا نظام لهم، ولم يقوموا بدعوة، وإنما هم قوم أخرجتهم الحمية"[٤٥].

ويتضح من هذا النص الذي قاله أبو بكر بن أبي سيرة عدة نقاط:

أولها: أنه عَدَّ خروج السودان على الخلافة بلية على أهل المدينة، وذلك لأن الخليفة أبا جعفر لن يغفر لهم وقوفهم على الحياد من ثورة مواليهم السودان، وسيرى في خروجهم على الخلافة امتداداً لثورة محمد النفس الزكية، وأن أهاليها مؤيدون لهذه الثورة.

ثانيها: أن هؤلاء السودان خرجوا وليس لهم من هذه الثورة أي هدف معلن، ولا نظام فهم لم يدعوا إلى فئة معينة أو إلى شـــخص معين، وبالتالي فإن مآل الثورة إلى الفشل، كما سيحدث حيث ستقوم ثورة الزنج في البصرة في خلافة الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـــ/ ٨٧٠- ٨٩٢م) تلك الثورة التي أعلن قائدها نفسه خليفة، وإن كان آراؤه متضاربة[٤٦].

ثالـــثها: إن هـــؤلاء السودان خرجوا حمية ودفاعاً عن مواليهم في تجارتهم وأعمالهم، وأنهم أرادوا أن ينتقموا لأنفسهم وسادتهم لا لشيء آخر فخروجهم كان حمية، ويتضح ذلك مما أجاب به وثيق قائد السودان الحسين بن مصعب حين جاء إليه مع جماعة وكانوا قد عسكروا في السوق، سائلاً إياهم أن يتفرقوا لأنهم جميعاً مع أهالي المدينة لا يتمكـــنون من تحقيق ما يصبون إليه، فقال له وثيق :"إن الأمر قد وقع بما ترون، وهو غير مبقٍ لنـــا ولا لكم، فدعونا نَشْفِكم ونشتفِ أنفسنا"[٤٧].

وهكذا تحرك هؤلاء الزعماء للوقوف في وجه هذه الثورة، فقام محمد بن عمران، ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما بالذهاب إلى السودان ومناشدتهم بالتوقف عن الثورة[٤٨] وإعادة ما كانوا قد نهبوه من مخازن الخلافة دون أن يبقوا منه شـــيئاً، وقـــد فعلوا ذلك، وسلموا ما استطاعوا إعادته إلى الحكم بن عبد الله بن المغيرة بن موهب، فكان ما أعادوه يساوي ألف دينار[٤٩].

وكـــان لســـادة المدينة تأثير كبير على السودان الذين أعلنوا أنهم في طاعتهم ورضخوا لندائهم، فوافقوا على التوقف عن القتال، وأوضحوا سبب قيامهم بالثورة قائلين: "والله ما قمنا إلاَّ أنفة بما عمل بكم، فأمرنا إليكم"[٥٠].

وهكذا رضخ السودان لمطالب أسيادهم، وقدموا إلى المسجد، فتوقفت الثورة التي كانت احتجاجاً على سوء أعمال الولاة، وعدم نصرتهم للمظلوم، وكان من نتائجها :

١ - عدم تمكن أهالي المدينة من القيام بأداء صلاة الجمعة، في اليوم الذي قامت به، وذلك سبب الفوضى التي سادت المديـــنة المنورة، ولفرار والي المدينة منها إلى بطن نخلة، كما أنهم لم يجدوا إماماً يؤمهم في أوقات الصلوات في ذلك اليوم، حتى كانت صلاة العشاء، فلم يجب أحد إلى الصلاة بالناس، خوفاً من أن يظن به، أنه يترأس ثورة السودان، وخوفاً من الخليفة المنصور وشدته، حتى قام الأصبغ بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان لإمامة الناس في الصـــلاة، فـــلما وقـــف واستوت الصفوف أقبل عليهم بوجهه ونادى بأعلى صوته موضحاً انه ليس من الخارجين على الخليفة، فقال ذاكراً اسمه ثم تابع قوله :"أصلي بالناس على طاعة أمير المؤمنين" وكرر ذلك مرتين أو ثلاثـــاً لئلا يظن به سوء، وذلك خشية من انتقام المنصور، ثم تقدم فصلى بالناس[٥١]، وقد قام بإمامة الناس بالصلاة بعد أن أذن المؤذن محمد بن عمار للصلاة، وأخذ ينادي كبار القرشيين لإمامة الناس في الصلاة واحداً واحداً فلم يجبه أحد حتى قام الأصبغ بإمامتهم[٥٢].

٢ - استسلام السودان الثائرين لرؤسائهم، وإذعانهم لهم، وتسليمهم إلى والي المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي، الذي تمكن من العودة إليها بعد أن ركب إليه نفر من قريش، وناشدوه العودة من بطن نخلة، ولم يزالوا به حتى عاد إليها(٥٣). ولما عاد قام بمعاقبة الثوار السودان، ونفذ برؤسائهم عقوبة السرقة، فقطع يد "وثيق" و"يعقل" وغيرهما، ولم تذكر المصادر قطع يد قائدهم الثالث "زمعة" صراحة(٥٤)، وهذا الوالي الذي طبق الشرع على قادة السودان لم يطبقه على جنده الذين سرقوا ونهبوا.

٣ - عودة الهدوء ثانية إلى المدينة المنورة.

٤ - كثرة السودان وقوتهم في المدينة.

٥ - التلاحم بينهم وبين أسيادهم إن كانوا ما زالوا تحت الرق، أو بينهم وبين أهالي المدينة بصفة عامة من قرشيين وأنصار من ناحية ثانية، وكانوا يعدونهم مواليهم(٥٥).

ويمكن أن نستنتج الكثير من أحداث ومجريات هذه الثورة ومن ذلك:

١ - ضعف القوة العسكرية الموجودة في المدينة، علماً بأن الخلافة العباسية كانت مهددة من قبل العلويين الطامعين في الوصول إلى كرسي الخلافة(٥٦)، فلم يكن مع الوالي إلا قوة لا تكفي لحمايته يتضح ذلك من أن فئة مستضعفة بدون سلاح قوي، تمكنت من السيطرة على المدينة وأخرجت الوالي منها.

٢ - كثرة السودان في المدينة المنورة وقد يكون هؤلاء موالي لزعماء المدينة -كما اتضح مما ذكرته المصادر- كما أن أكثرهم من القادمين من أفريقيا للحج، ومن ثم استقروا في المدينة أو أنهم من أسرى الحروب أو غير ذلك.

٣ - كان هؤلاء السودان متكاتفين متضامنين يكفي نفخ بوق لجمعهم والقيام بالثورة ضد الخلافة دون أن يسألوا عن سبب الثورة، كما أنهم كانوا مستعدين لتقديم المساعدة لكل ثائر، ولكل من يطلب منهم ذلك.

٤ - سوء سياسة بعض الولاة وعدم اهتمامهم بسكان المدينة وخاصة الطبقات الدنيا، مثل السودان(٥٧).

٥ - ترك الجند يعيثون في الأرض فساداً وقيامهم بظلم الأهالي(٥٨)، على حين كان يتوجب عليهم أن يعملوا على إقامة الحق ونشر العدل.

٦ - قيام جند الخلافة بأعمال تجارية منافسين فيها أهالي البلاد(٥٩).

٧ - تطبيق الشريعة الإسلامية على الضعفاء من السكان على حين لم تطبق على جند الخلافة.

٨ - انصياع الموالي السودان لرؤسائهم، ولكن هؤلاء الرؤساء لم يتمكنوا من حمايتهم، فعلى الرغم من أن ثورتهم نشبت انتقاماً من والي المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي وجنده الذين عاثوا فساداً ومناصرة لأهالي المدينة، فقد

توقفـوا عـن القتال بناء على أوامر من أسيادهم، ولكن أسيادهم سلموهم للوالي ليرى رأيه فيهم، لئلا يشك المنصور في إخلاصهم للخلافة العباسية، و لم يقوموا بحمايتهم ونزلت بهم عقوبة الوالي.

٩ - كان السودان من الشعب وانتقموا للشعب من الوالي، وناصروا أصحاب الحق الذين وقع عليهم الظلم، وكانت آراؤهـم ديموقراطية ومما يدل على ذلك المحاورة التي حدثت بين محمد بن عمران ورئيسهم وثيق وخليفته يعقل الجـزار، فقـد قـال محمد بن عمران لوثيق:"إلى من تعهد يا وثيق؟ -يقصد بالخلافة- قال إلى أربعة من بني هاشم، وأربعة من قريش، وأربعة من الأنصار،وأربعة من الموالي، ثم الأمر شورى بينهم"[٦٠]، وهذا يدل على أن وثيقاً كان لا يرى بأساً في توليه الموالي أمور الخلافة.

١٠ - وقـد يكـون ما فعله الوالي من إطلاق يد جنده على أهل المدينة انتقاماً منهم لمناصرتهم لثورة محمد النفس الزكـية عـلى الخليفة المنصور، فقد انتقم الخليفة بنفسه منهم، فقبض على أموال بني الحسن كلها وأموال بني جعفـر[٦١]، وبقيـت أموالهم بيد الخلافة حتى عصر المهدي (١٨٥-١٦٩هـ/ ٧٧٥- ٧٨٥هـ) الذي ردها إليهم بعد أن طالبو بها[٦٢].

١١ - وجـود فئات فقيرة في المدينة ناقمة على الولاة والخلفاء واكبر دليل على فقر هؤلاء أنهم حيث خرجوا لم يكن أحدهم يرتدي إلا خرقتين تستران عورته، ودراعة[٦٣].

١٢ - خوف رجالات المدينة من قوة المنصور وشدته وانتقامه منهم، وخاصة وأن هذه الثورة تبعت ثورة محمد النفس الزكـية وغضب المنصور من أهل المدينة والخوف من المنصور هو الذي دفع بأبي بكر بن أبي سيرة إلى الخروج من الحبس مقيداً بحديده[٦٤].

وأخـيراً يمكـن القـول، بأن هذه الثورة تعد باكورة للثورات الشعبية والاجتماعية التي ستتعرض لها الخلافة العباسية، وهي مقدمة لثورة الزنج الذين ثاروا على العباسيين بسبب تدني أوضاعهم الاقتصادية، وكان على الخلافة العباسـية أن تتنـبه إلى ضرورة الاهتمام بالفئات الفقيرة، وألا تبقى إمداداتها المالية ومساعداتها التي ترسل إلى المدينة حكراً على بني هاشم، وقريش عامة والأنصار وغيرهم من أشراف المدينة، وكان الثائرون على الخلافة العباسية يجدون عوناً لهم في العبيد والسودان، فلما فارق الحسين بن علي صاحب فخ المدينة إلى مكة نادى أيما عبد أتانا هو حر وذلك ليستعين بهم في قتاله للعباسيين[٦٥].

التعليقات

(١) مـالك، أبـو عبدالله مالك بن أنس (١٧٩هـ)، *المدونة* (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ)، ٣: ١٥٤؛ أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ)، *حليـة الأوليـاء وطبقات الأصفياء* (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)

٧: ٢٣؛ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسين المكي (ت ٨٣٢هـ)، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: محمد الطيب، ط٢ (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، ٣: ٢١٤.

(٢) الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠هـ)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، تحرير ونشر أ. كوريللي وآخرين (نابلس: معهد الدراسات الشرقية، ١٩٧٠/ ١٩٧١م)، ٢: ١٤٣.

(٣) أبو نعيم، المصدر السابق، ٧: ٢٣؛ الفاسي، *العقد الثمين*، ٣: ٢١٤.

(٤) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م)، ٧: ٦١٠ – ٦١٢.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق، ٢: ١٤٣.

(٦) مالك، *المدونة*، ٧: ٩٧، ٢٠٠.

(٧) هو الحسين بن علي بن الحسن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أبو طالب رأى من الخليفة العباسي الهادي ما أغضبه فخرج عليه، وبايعه الناس على الكتاب والسنة، وجرت بين الطرفين سنة ١٦٩هـ معركة فخ قرب مكة، فانهزم وقتل. أنظر عنه الأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٥٦هـ)، مقاتل الطالبيين (القاهرة: ١٩٤٩م)، ٢٨٨- ٣٠٨.

(٨) الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٥٩؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، حوادث ووفيات (١٦١-١٧٠هـ) تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٨هـ)، ٣٦.

(٩) الفاسي، *شفاء الغرام*، ٢: ٢٨٧؛ الطبري، *تاريخ الرسل*، ٨: ٥٣٢؛ الطبري، محمد بن علي بن فضل المكي (ت ١١٧٣هـ)، *تاريخ مكة، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن*، تحقيق: محسن محمد حسن سليم، ط١ (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، (د.ت)، ١: ٧٧. وثورة أبي السرايا قام بها السري بن منصور من ولد هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود بن عامر ابن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان قائد جيوش محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم، الذي يقال له ابن طباطبا. تولى السلطة بعد وفاة "محمد بن إبراهيم" واستولى على الكوفة والمدائن. وجه أبو السرايا حسين بن حسن الأفطس إلى مكة عام ١٩٩هـ وكان عليها داود بن عيسى ففر إلى العراق، ودخل حسين بن حسن مكة وضم له المدينة المنورة، الطبري، ٨: ٥٣٢.

(١٠) بغا الكبير وهو غير بغا الشرابي قائد من قادة العباسيين تركي الأصل كان له دور كبير في الخلافة العباسية في عصر سيطرة قاده الأتراك. توفى سنة ٢٤٨هـ وصلى عليه المستعين وبنو هاشم والقاده في سامراء. أنظر عنه الطبري: المصدر السابق، ٩: ٢٨٣؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد ومصطفى عبدالقادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م) ١٢: ٨، ١١، ٧٣.

(١١) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٢.

(١٢) محمد بن عبدالله النفس الزكية، هو محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب. انظر عنه الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٥٢- ٦٠٩.

(١٣) اجتمع مع محمد بن عبدالله خلق عظيم، ومما لا شك فيه أن من بين أنصاره السودان في المدينة. انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٢هـ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م)، ٢: ٣٧٦.

(١٤) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٧٨، ٦٠٣. وهذه رواية عيسى بن عبدالله العلوي على حين أن رواية محمد بن جعفر التي أوردها

الطـــبري، المصدر السابق، ٧: ٦٠٣ -٦٠٤. أن أبا جعفر بعد أن استولى على أموالهم واحتج بعضهم، طلب من واليه أن يرد عليهم أموالهم صلة لأرحامهم، وحفظاً لقرابتهم.

(١٥) استمر أمر ملاحقة المنصور للمشاركين في ثورة محمد النفس الزكية حتى ولاية جعفر بن سليمان الذي تولى بعد ما يزيد عن سنة ونصف من القضاء على ثورة محمد. انظر الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٩٤-٦٠٩.

(١٦) الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١- ١٦٠هـ)، ٣٢ - ٣٣

(١٧) انظر فيما بعد.

(١٨) عـــبدالله بـــن الربيع الحارثي والي الخليفة المنصور سنة (١٤٥هـ) ولاه على الحجاز بعد القضاء على ثورة محمد النفس الزكية، نـــازع بعض جنده التجار فيما يشترون فشكوا إليه جنده فلم يكترث بالشكوى فنشبت ثورة السودان. ابن الجوزي، المصدر السابق، ٨٤، ٦٨.

(١٩) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ): *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥م)، ٥: ٥٥٦؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٧٣هـ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق: محمد جابر عبدالعادل الحيني (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م)، ٢٢ : ٨٨.

(٢٠) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٢١) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٨؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١-١٦٠هـ)، ٣٢- ٣٣.

(٢٢) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٢٣) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٨ -٨٩.

(٢٤) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٢٥) الطبري، المصدر السابق، ٦١٠.

(٢٦) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩ ؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١-١٦٠هـ) ٣٢- ٣٣.

(٢٧) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦.

(٢٨) العالية والسافلة: العالية تأنيث العالي اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة المنورة من قراها وعمائرها إلى تهامة. وأما ما كان دون ذلـــك مـــن جهة تهامة فهي السافلة، وعالية الحجاز أعلاها بلداً، وأشرفها موضعاً وهي بلاد واسعة. انظر الفيروزأبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، *المغانم المطابة في معالم طابة*، قسم المواضع، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، ط١ (دار اليمامة، ١٣٨٩هـ)، ٢٤٢- ٢٤٥.

(٢٩) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٣٠) الطـــبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠. وقد ذكر اسم رئيسهم الثالث باسم "رمقة" وذلك نقلاً عن الحارث بن إسحاق، كما ذكر أسماءهم في ٧: ٦١١ نقلاً عن عيسى "وثيق وحديا وعقود وأبو قيس". وانظر ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦ ؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٣١) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١- ١٦٠ هـ)، ٣٢ -٣٣.

(٣٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦.

(٣٣) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٣٤) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠- ٦١١.

(٣٥) بطن نخل، جمع نخلة، قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة، بينهما الطرف على الطريق، وهي بعد أبرق العزّاف للقاصد إلى المدينة، على ليلتين عنها. انظر الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٥٧.

(٣٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦.

(٣٧) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٣٨) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، *جمل من أنساب الأشراف*، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ٤: ١٣٠- ١٣١؛ الطبري، نفسه، ٧: ٦١١، وأبوبكر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي سبرة بن رهم أحد بني عامر بن لؤي، أحد الفقهاء بالمدينة المنورة، كان من جباة أموال الخلافة وكان قد جبا أموال طيئ وأسد، ولما أحضرها كان محمد النفس الزكية قد استولى على المدينة المنورة، فدفع الأموال إليه، فحبسه كثير بن حصين الذي كان قد استخلف فيها من قبل عيسى بن موسى فبقى والياً عليها شهراً، ثم قدم عبدالله بن الربيع الحارثي، والياً عليها من قبل المنصور. انظر البلاذري، المصدر السابق، ٤: ١٣٠- ١٣١؛ الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦٠٩- ٦١١.

(٣٩) وجد السودان أحمالاً من الطعام في دار مروان ودار يزيد، كانت قد حملت في البحر للجند، فنهبوها و لم يدعوا منها شيئاً. انظر الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٤٠) كذا جاءت عند الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١؛ وهي عند كل من ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ والنويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩ "القصب".

(٤١) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٤٢) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٤٣) محمد بن عمران بن إبراهيم بن طلحه بن عبد الله أبو سليمان القرشي التيمي المدني، أحد الأشراف، ولي قضاء المدينة وكان مهيباً، جليلاً، قوياً، قليل الرواية، يروي عن جماعة من التابعين توفي ستة (١٥٤هـ) وهو على قضاء المدينة، ولما بلغ موته المنصور قال، اليوم استوت قريش، انظر عنه السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت٩٠٢)، *التحفه اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، عني بنشره أسعد طرابزوني الحسيني (١٩٨٠م)، ٣: ٦٨٧- ٦٨٨.

(٤٤) محمد بن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالرحمن بن عوف الزهري القرشي، ولي قضاء المدينة، وكان محدثاً وفقيهاً، وقد ضعفه بعضهم ومدحه بعضهم الأخر، السخاوي، المصدر السابق، ٣: ٦٤٧- ٦٤٨.

(٤٥) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦- ٥٥٧.

(٤٦) ثورة الزنج هي الثورة التي قام بها على بن محمد بن أحمد الذي أدعى النسب العلوي، وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكتسحون السباخ في جنوب العراق، وقد نشبت هذه الثورة سنة (٢٥٥هـ) واستمرت ما يزيد عن أربعة عشر عاماً، وذهب ضحيتها ما يزيد عن مليوني شخص من الطرفين و لم تنته هذه الثورة إلا سنة (٢٦٩هـ) انظر عن ذلك الطبري، المصدر السابق، ٩: ٣٨٢- ٣٥٦.

(٤٧) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٣١٢.

(٤٨) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦- ٥٥٧؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٤٩) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٣.

(٥٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٧؛ النويري، المصر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٥١) الطبري، المصدر السابق، ٧: ؛ ابن الأثير، المنصور المصدر السابق، ٥: ٥٥٧.

(٥٢) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٣.

(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٤.

(٥٤) النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٥٥) السويلم، ابتسام عبدالمحسن، الحياة *الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري*، رسالة ماجستير قدمت لجامعة الملك سعود، ونوقشت سنة ١٩٨٤م، ١٢٤.

(٥٦) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٧٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٩٠، ٥٩٥؛ المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: طبعة مطبعة السعادة، ١٩٦٤م)، ٣: ٣٠٦- ٣٠٧؛ ابن طباطبا، محمد بن علي (ت ٧٠٩هـ)، *الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية*(بيروت: دار بيروت، ١٩٦٦م)، ١٤٧- ١٤٨؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) *المقفي في تاريخ مصر والواردين إليها*، نسخة مصورة عن مجلدة باريس، ق ٩١ ظهر، وجه، ٩٨ ظهر.

(٥٧) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠، ٦١١.

(٥٨) انظر فيما سبق أعلاه.

(٥٩) انظر فيما سبق أعلاه.

(٦٠) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٢.

(٦١) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٣- ٥٥٤، ومن مشهوري بني هاشم الذين انضموا لثورة محمد النفس الزكية، موسى بن عبدالله، وحسين وعلي أبناء زيد بن علي بن الحسن، وحمزة بن عبدالله بن محمد بن الحسين، وعلي وزيد أبناء الحسن بن زيد ابن علي، والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبدالله بن جعفر، والقاسم بن إسحاق وغيرهم كثير وانظر أسماء من انضم إليه من القرشيين وغيرهم، الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦٠٥.

(٦٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٣- ٥٥٤.

(٦٣) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٦٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦- ٥٥٧.

(٦٥) السخاوي، التحفة، ١: ٥١١، وانظر ترجمة الحسين بن علي في السخاوي، ١: ٥٠٩- ٥١٢ ترجمة رقم ٩٩٢.

أضواء على حركة الطالبي محمد بن جعفر وخلفياتها عند نهاية القرن الثاني الهجري

أحمد بن علي حيدر السري
رئيس قسم التاريخ والآثار – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الإمارات العربية المتحدة

تمهيد

ترتبط حركة محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١] في الحجاز عند نهاية القرن الثاني الهجري بالأحداث الدامية التي جرت بين الأمين والمأمون، والتي أفسحت المجال لكثير من الطامحين في أنحاء الخلافة. كما ترتبط بطموحات الطالبيين أو العلويين التي انتعشت بتبني حركة أبي السرايا لها.

ولفهم طبيعة التطورات التي جرت في الحجاز عند نهاية القرن الثاني الهجري نرى من الضروري التذكير بطبيعة الخطر الذي كانت حركات الطالبيين أو الحركات العلوية تمثله على الخلافة العباسية. وقد كان الخطر عظيماً على الدوام بغض النظر عن الوزن العسكري ومكان الظهور، وآية ذلك أن كل حركة من الحركات المتوالية كانت تشير بأصابع الاتهام إلى العباسيين كمغتصبين لـ "حق الطالبيين"، وهو الحق الذي يرى الطالبيون أن بني العباس أدعوه لأنفسهم ووصلوا باسمه إلى الخلافة[٢]. وقد أخذ الطالبيون كما كان شأنهم في العهد الأموي يشكلون محاور استقطاب لقبائل وجماعات يجمعها هدف الخروج أو الإطاحة بالخلافة العباسية، حيث أخذ بعض المسلمين يرون في آل أبي طالب واجهات دينية وسياسية يمكن تحت ظلالها تحقيق هذا الطموح أو ذاك فترسخت لذلك ومنذ العهد الأموي "ثقافة الحق في الخلافة" عند الأمويين والطالبيين والعباسيين على السواء. و لم تسلم "ثقافة الحق في الخلافة" هذه مع ذلك من الاستغلال من طامحين سياسيين لا يقرون بالحق في السلطة لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ولكنهم يترلون عند مزاج عام ترسخ عبر الصراعات المختلفة، ودفع إلى تعلق فئات من المسلمين بآمال يرونها ستتحقق لو أن العلوي فلان أو فلان قام بالأمر. ومن يتأمل في كتاب مقاتل الطالبيين يقف على الكثير من تداخل الدوافع بين الطالبيين وطالبيهم والموقف من الخلافة العباسية.

ولسنا بحاجة للتشديد على أن دراسة حركة واحدة من حركات الطالبيين لا ينبغي أن تنفصل ذهنيا ولا تاريخيا

عـــن الحركات التي سبقتها منذ مبايعة الحسن للخليفة معاوية عام٤٠ هجرية، العام الذي عرف بعام الجماعة، مروراً بمقتلة الحسين في كربلاء وبحركة زيد بن علي وابنه يحيى إلى حركة عبد الله بن معاوية وهي آخر محاولات الطالبيين في العهد الأموي.

حرب الأمين والمأمون والحركات العلوية

بـــإعلان الخلافة العباسية انكسرت العلاقة بين البيتين الهاشميين، العلوي والعباسي، وانتقلت من المحاجاة حول الأحقية في السلطة كما وردت في الرسائل المتبادلة بين محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور إلى مواجهات مسلحة. وقـــد تتابعـــت المحاولات العلوية للثورة على الخلافة العباسية، بدءاً بمحمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم مروراً بحركة أخويــه إدريس ويحيى ثم حركة الحسين بن علي صاحب فخ، ثم حركة يحيى بن عبد الله زمن الرشيد. أما الحركات العلويـــة الـــتي ظهرت عند نهاية القرن الثاني الهجري ومنها حركة محمد بن جعفر الصادق فقد ظهرت في ظروف لا تشبه الظروف التي حدثت فيها الحركات الأولى، فالحركات الأولى قامت في ظل رسوخ الخلافة العباسية وتنامي قوتها العســكرية والاقتصادية وهو ما مكنها من القضاء على مختلف المعارضات، لكن حركة محمد بن جعفر تأتي بعد أن أضـعف العباســيون أنفسهم ركائز سلطتهم فكريا وعسكريا، عبر الاستهتار بوصايا الرشيد في مسألة التتابع على الخلافـــة بين الأخوين الأمين والمأمون وعبر الحرب الضروس بينهما فيما بعد، كما أن الكعبة المشرفة وما شهدت من أيمـــان مغلظة لم تستطع بهيبتها وقدسيتها وقف طموحات الأخوين في الطغيان على بعضهما. وقد تميزت حركة محمد بـــن جعفر عن سابقاتها العلوية بإعلانها الخلافة مباشرة حيث بويع محمد بن جعفر خليفة ولقب بأمير المؤمنين، وذكر أن الحجاز وتهامة بايعته، وهو أول طالبي يبايع له بالخلافة بعد الحسن بن علي[٣] مع ما يعني ذلك من إسقاط الشرعية كلية عن الخلافة العباسية.

لقـــد كانت حرب الأمين والمأمون صراعاً مكشوفاً من أجل السلطة بين أخوين في الظاهر، وكانت بين تيارين وجماعـــتين في الواقع، هما حزب المأمون الفارسي، وحزب الأمين العربي. وأيا كانت مبررات هذا الفريق أو ذاك، فلا بد من القول أن الحرص على السلطة المطلقة واستخدام القوة للحصول عليها قد طغيا على المبررات الأخرى. وكانت هـــذه الحرب بمبرراتها العملية منعطفا خطيرا في تاريخ الخلافة العباسية التي كانت قد رسخت شرعيتها منذ ظهورها وحتى عصر الرشيد على أساس النسب، والاصطفاء الإلهي (إنما أنا ظل الله في أرضه) والنجاح في الإطاحة بالأمويين، لكـــن هـــذه الشرعية تنهار الآن في الحرب بين الأمين والمأمون، وتفتح الباب واسعاً أمام الطامحين وأهل القوة لمحاولة الإطاحة بالخلافة العباسية أو اقتطاع جزء من أجزائها المترامية للسيادة فيه، خاصة وقد حدث ما يمكن تسميته "بفراغ في الســـلطة" بعد مقتل الأمين عام ١٩٨هـــ، وبقاء الخليفة المأمون في مرو بعيدا عن بغداد مركز الخلافة وحاضرتها، لاسيما وأن المأمون بمقتل أخيه الأمين لم يصر تلقائيا خليفة شرعيا لكل المسلمين، بل خلع في بغداد عام ٢٠٢هـــ، إثر مبايعـــته لعلـــوي هو علي الرضا بن موسى الكاظم عام ٢٠١هـــ، ليكون ولي عهده، ولم تحصل للمأمون بيعة عامة

بخلافـــته إلا عام ٢٠٤هـــ[٤]، وهو العام الذي وصل فيه من مرو إلى بغداد. وعليه يمكن اعتبار السنوات الست بين (١٩٨-٢٠٤) هـــي ســـنوات خلو من سلطة مركزية مجمع عليها. ولا عجب أن يـــرى كل طامح أو خارج على السلطة العباسية نفسه في تلك الظروف أو بعدها مقلداً للسادة الكبار في تقاتلهم الدموي على السلطة.

كـــان الطامحون في المرصاد لانتهاز أوضاع ما بعد الحرب بين الأمين والمأمون، فالجيوش منهكة والمأمون استقر بعـــيدا في مرو وترك بغداد وكل العراق للحسن بن سهل حديث العهد بالمجوسية وغير المقبول من عامة المسلمين في العـــراق والجزيـــرة بسبب ما روي من حجب أخيه الفضل بن سهل المأمون عن الناس في مرو واستبد بالخلافة دونه بصـــفته الوزيـــر. لذلك "هاجت الفتن في الأمصار"[٥]، أو بتعبير المقدسي "تشوشت الدنيا"[٦]، وكان الطالبيون هم الذيـــن أفـــادوا من هذه الأوضاع أو كما وصف ابن الأثير "وانتشر الطالبيون في البلاد"[٧] وظهرت حركات علوية كثيرة في السنتين الأخيرتين من القرن الثاني الهجري منها حركة محمد بن جعفر الصادق، ولابد من الإشارة هنا إلى أن كل تلك الحركات انبثقت أو انتعشت في ظل الحركة الأم غير العلوية وهي التي قادها السَرِيُّ بن منصور المعروف بأبي السرايا .

حركة أبي السرايا وصلتها بحركة محمد بن جعفر

لابـــد أن تمنح حركة أبي السرايا قدراً غير يسير من التركيز والاهتمام ليس لأنها الحركة الأم التي تولدت عنها حـــركة محمـــد بـــن جعفر ، بل لأن زعيم هذه الحركة الواسعة والخطيرة على الخلافة العباسية قد قادها واحد من المغمورين لا صلة له ببيوتات الحكم عباسية كانت أم طالبية. فقد بدأ أبو السرايا حياته مؤجرا للحمير ثم قاتلا لأحد الـــناس في الجزيرة الفراتية، ثم فارا من وجه القصاص إلى الشام ثم قاطع طريق ثم كبرت حركته وتنامت دون هدف ســـوى قطـــع الطريق ونهب أموال البلدات والمدن المهاجمة[٨]، ولم يتمكن أحد من القضاء عليه لما أبداه من شجاعة وحنكة عسكرية، ثم يقرر أحد قواد العباسيين العسكريين، يزيد بن مزيد الشيباني، ضمه إلى قواته لمقاتلة بابك الخرمي في أرمينية، ويصبح مقربا عند آل مزيد، وقد تزامن سطوع نجم أبي السرايا مع الخلافات السياسية بين الأمين والمأمون وهـــي الـــتي تحولت بعدئذ إلى حرب ضروس بين الأخوين دامت خمس سنوات. وسط هذه الأجواء يجد أبو السرايا لجيشـــه موضعا في جيش المأمون، فقد راسله هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون فانتقل إلى معسكره بألفي فارس وصار يخاطب "بالأمير".

وقد أبلى أبو السرايا في حرب الأخوين وانتصرت قوات المأمون، لكن هرثمة لم يواصل التعامل معه بما يستحق مـــن تقديـــر فنقصه عطاءه الذي وعد مما دفع أبا السرايا إلى الانسلاخ ثانية باتباعه عن جيش المأمون وعاد إلى قطع الطـــريق ونهـــب الأموال في عين التمر ودقوقا، ثم دخل الكوفة وهناك وجد الطالبي محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا، فبايعه بالإمامة. وكان ابن طباطبا أول من

خرج بالكوفة داعيا لنفسه كما يذكر الطبري وصاحب العيون والحدائق[٩]، وأعانه أول الأمر واحد من رجال القبائل الطامحين هو نصر بن شبث العقيلي كما يذكر الأصفهاني[١٠].

والأمر لا يحتاج إلى فطنة استثنائية لمعرفة الدوافع التي حركت أبا السرايا لمبايعة الطالبي ابن طباطبا على الرضى من آل محمد في هذه اللحظة التاريخية، فأبو السرايا يعرف الجدل السياسي القائم بين البيتين، ويعرف ما أحدثته حرب الأخوين من شروخ في المزاج العام للمسلمين، ودوافعهم في الوقوف مع المعارضة العلوية، لكنه يدرك أيضا وهو الأهم أنه لا يستطيع الثبات في وجه القوات العباسية كقاطع طريق وناهب أموال، فرأى أن يرفع واجهة دينية علوية يقاتل تحت لوائها، لها الإسم وله كل الأمر، وهكذا تمكن أبو السرايا من تحويل حركته من حركة نهب وقطع طريق إلى حركة تطمح إلى الإطاحة بخلافة بني العباس وإقامة خلافة علوية وسمى نفسه "داعية آل محمد"[١١]. أما ابن طباطبا فهو كغيره من الطالبيين لا يستطيع تشكيل أي خطر حقيقي على بني العباس ما لم تدعمه قوات تؤمن بطموحاته في الخلافة، ولذلك نستطيع القول أن أبا السرايا وابن طباطبا قد وجدا في بعضهما الضالة المنشودة للآخر، فلا أبو السرايا يؤمن يقينا بحق العلويين، وإلا لكان فعل ذلك في بدء أمره، ولا ابن طباطبا يؤمن بصفاء نية أبي السرايا في رفع راية العلويين في وجه العباسيين، وإلا لما انتظر حتى يعرض أبو السرايا الأمر عليه. أي أن الانتفاع المتبادل كل من صاحبه كان واضحاً منذ البداية سواء أعلن عن ذلك أم لا. ولا نعتقد أن رأي الأصفهاني في مقاتل الطالبيين له سند من الواقع حين يقرر عن أبي السرايا –رغم اعترافه بسوء سيرته وأنه "عاث في نواحي السواد"– أنه "كان علوي الرأي ذا مذهب في التشيع"[١٢]. وقد برزت المواجهة بين الاثنين، حسب رواية الطبري، بعد تمكن أبو السرايا من هزيمة جيش للعباسيين قوامه عشرة آلاف مقاتل فأحب ابن طباطبا بصفته الأصل الديني للحركة أن يمارس صلاحياته بشأن توزيع الغنائم وهو ما لم يكن موافقا لرأي أبي السرايا، وقد أتاح الموت المفاجئ لابن طباطبا في اليوم التالي مجالا للشائعات التي ذهبت إلى أن أبا السرايا سم ابن طباطبا وجاء بغلام صغير كواجهة جديدة طيعة له[١٣]. لقد كان واضحا منذ البداية أن أبا السرايا إنما اتخذ واجهة دينية لإنقاذ سمعة حركته و لم يكن راغبا في أن يشاركه أحد فيما حقق من سلطان، ولذلك تبدو رواية التخلص من ابن طباطبا بالسم واستخدام غلام من الطالبيين كواجهة جديدة لحركته أكثر انسجاما مع الأحداث من رواية الأصفهاني التي، رغم الإقرار بالخلاف حول الخطط الحربية، تجعل موت ابن طباطبا وانتقال البيعة إلى الغلام الحدث محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قضاء وقدرا، كما تصور أبا السرايا معتذرا عما لامه عليه ابن طباطبا ملتزما بعدم العودة لمثل ما فعل. وتختم الرواية بجعل البيعة للغلام الطالبي يتم في سياق طبيعي حيث جرت الخيرة بين آل أبي طالب حول الرضا منهم وأبو السرايا سامع مطيع لما يقررون[١٤].

وقد تمكن أبو السرايا من هزيمة الجيوش العباسية التي أرسلت إليه مما شجع طالبيين آخرين للخروج في البصرة والحجاز واليمن، مع وجود خلاف في المصادر حول علاقة هذه الحركات بحركة أبي السرايا، وهل هي امتداد لحركته

ومرتبطة بها أم أنها حركات مستقلة. ومع ذلك فالنتيجة في الحالين واحدة وهي اتساع حركات الطالبيين جغرافيا تحت مظلة حركة أبي السرايا التي لنا الآن أن نتصور خطرها على الخلافة العباسية، إذ امتدت إلى البصرة والأحواز وفارس والحجاز واليمن وأرسل من قبله ولاة إلى تلك الجهات كما ضرب الدراهم بالكوفة.

وفيما يخص حركة الطالبيين في الحجاز (مكة والمدينة) وهي الحركة التي ستظهر محمد بن جعفر الصادق أميرا للمؤمنين فقد أرسل أبو السرايا إلى مكة الطالبي حسين بن حسين الأفطس، وإلى المدينة محمد بن سليمان نائبان له، وكان والي مكة والمدينة للعباسيين في هذا الوقت العباسي داود بن موسى، وهو الذي ثبته المأمون في الولاية بعد سماع اعتراضه على نزع الأمين للعهود المعلقة في الكعبة استعدادا لحرب أخيه المأمون.

وتظهر روايات الطبري رد الفعل الحاصل في مكة والمدينة من تطور حركة أبي السرايا. أما محمد بن سليمان فقد دخل المدينة دون قتال، أما حسين الأفطس والذي وجهه أبو السرايا إلى مكة وأمره بإقامة الحج للناس لذلك العام، مع ما تحمل إمرة الحج من دلالات على السطوة والنفوذ الروحي وتغييب السلطة العباسية في أكثر المواقع أهمية من الناحية الدينية عند المسلمين، فقد وجد هناك والي مكة والمدينة العباسي داود بن موسى وقد كان بإمكانه قتال حسين الأفطس خاصة مع وجود مسرور الخادم الحاجب المشهور للخليفة هارون الرشيد وبرفقته مائتي فارس، وهو الذي عرض قتال حسين الأفطس ومنعه من دخول مكة، لكن الوالي العباسي رفض فكرة القتال واعتذر عن ذلك كما تفيد رواية الطبري بأنه لا يستحل القتال في الحرم "والله لو دخلوا من هذا الفج لأخرجن من هذا الفج الآخر"[١٥]. ويعرب مسرور الخادم من استيائه ويقول لداود " تسلم ملكك وسلطانك إلى عدوك ومن لا يأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حرمك ولا مالك، قال له داود: أي ملك لي! والله لقد أقمت معهم حتى شيخت فما ولوني ولاية حتى كبرت سني، وفني عمري، فولوني الحجاز وما فيه القوت؛ إنما هذا الملك لك وأشباهك؛ فقاتل إن شئت أو دع"[١٦] وما كان بإمكان مسرور الخادم أن يقاتل بلا واجهة دينية بعد أن رفض الوالي الثبات في مكة أو ترك بعض ولده ليقاتل مسرور باسمه كما طلب، فخرج هو الآخر بقواته. وترك الحرم بلا إمام للصلاة ولا خطبة، حتى تبرع لإقامة الصلاة رجل مغمور لن يؤاخذ على موقفه من القادمين. لقد فضل والي العباسيين الانسحاب من مكة هو وولده بعد أن حمل أمتعته وأثقاله ودبر خطة للخروج إلى المشاش[١٧] يأمن فيها هو ومتاعه. وأعتقد أن هذه المحاورة لا تحتاج إلى تعليق إضافي ففيها ما يكفي من الإشارة إلى خور العزم بل وفقدان الفائدة من الدفاع عن ملك ليس له من نعيمه شيئ فقد كبرت سنه، وولي على بلد لا قوت فيه، وهو قول يدل أيضا ليس فقط على تهشم الجبهة العباسية خاصة مع بقاء المأمون في مرو بخراسان، ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل، بل على القناعة بحصول فراغ في السلطة في كل العراق والجزيرة مما يجعل القتال باسم سلطان غير موجود غير ذي قيمة، خاصة وأننا أمام وال من العباسيين له موقف مبدئي من ترتيبات الخليفة هارون الرشيد بين أولاده في التتابع على الخلافة، فقد كان شاهدا على العهد الذي ألزم به الرشيد ولديه الأمين والمأمون تجاه بعضهما وعلق في الكعبة ضمانا لاحترامه. ولما علم داود بن موسى بأن

الأمــين يــريد نزع العهد من الكعبة وخلع أخيه المأمون اعترض على ذلك بدوافع دينية وهي احترام العهود والأيمان المغلظــة التي أخذت على الأخوين في الكعبة، ثم بايع للمأمون بعد خلع الأمين سنة ١٩٦هــ[١٨]. وقد كافأ المأمون فــيما بعــد داود بن موسى بتثبيته واليا على مكة والمدينة. ولا نشك أن هذا الوالي العباسي قد نظر ثانية إلى الأمور بواقعية شديدة، ورأى أن حركة أبي السرايا وما أحدثته من سلب ونهب هو ومن شايعه أو شايعهم من العلويين دليل عــلى الفوضى الحاصلة في الخلافة العباسية وعلى غياب سلطة الخلافة وهيبتها فآثر أن ينسحب على أن يقاتل باسم خلافــة لا سلطة لها إلا في مرو بخراسان حيث الخليفة. وكل هذا يدل أيضا على أن حركات الطالبيين وسواهم والتي حصــلت إثــر الحرب بين الأمين والمأمون، أي في العامين الأخيرين من القرن الثاني الهجري قد قامت مستغلة فراغ الســلطة الحاصل، بقصد الحصول على أي نصيب من تركة سلطة رُئيت متهاوية في تلك الظروف. وقد سهل هرب العباسي داود بن موسى الطريق على حسين الأفطس –خاصة بعد أن أخبره بعض الطالبيين وأعوانهم- أن مكة لم يعد بهــا ســلطان فدخلها في أول أيام المحرم. وقد بدأ حسين الأفطس أعماله بتغيير "كسوة الظلمة من بني العباس"[١٩]، "لــيطهر مــن كسوتهم"[٢٠] وألبسها كسوة من قز رقيق (حرير رقيق) أرسلها أبو السرايا، "مكتوب عليها: أمر بها الأصــفر بــن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد"[٢١] وفي هذا دليل على تغير صاحب الأمر والنهي في بلاد الحرمين الشــريفين، فهذا تصرف من يرى نفسه صاحب الأمر وإن لم تعلن خلافة بعد. وقد كانت كسوة الكعبة بما فيها من رمــزية عملا سياسيا مقبولا، أما باقي ما نسب إلى حسين الأفطس من أعمال فهي من المنكرات الواضحة، إذ تروي المصادر أنه تتبع ودائع بني العباس وأتباعهم، كما انه وتحت حجة البحث عن أموال بني العباس سطا على أموال ناس لا صلة لهم ببني العباس، وقام بتعذيبهم لدرجة أن الدار التي كانوا يعذبون فيها سميت "دار العذاب"[٢٢] كما روي أنه ســطا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المســجد الحرام[٢٣] وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المتروعة على قدر المترلة لكل شخص[٢٤]. وقد أدى كل ذلــك إلى هــرب أكثر الناس فهدمت دورهم. [٢٥] كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهرا لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد وصف أيضا بالجمال وهو ابن لقاضي مكة من قبل علي بن محمد بن جعفر، وسنعود لمناقشة هذا الأمر.

وقائع حركة محمد بن جعفر

ترتبط وقائع حركة محمد بن جعفر بالمصير الذي لقيه أبو السرايا وحركته، فقد هزم أبو السرايا وقتل، وعلى إثر ذلــك بويــع ابن جعفر في مكة بالخلافة وإمرة المؤمنين، ولذلك فإن وقائع حركته ترتبط بتصفية جيوب العلويين في الحجــاز واليمن. إذ بعد القضاء على هذه الحركة توجه قادة الجيوش العباسية وهم عيسى بن يزيد الجلودي، وورقاء ابن جميل وحمدوية بن علي بن عيسى بن ماهان وهارون بن المسيب إلى مكة والمدينة لحرب الطالبيين هناك. لكن أول المواجهات العسكرية بين أمير المؤمنين في الحجاز والقوات العباسية وقعت عندما قدمت قوات إسحاق بن موسى من

اليمن، وهو الوالي المطرود بقواته من قبل الطالبي الخارج هناك إبراهيم بن موسى الكاظم. وقد استعد محمد بن جعفر مـــع أتباعه من العلويين وجيشهم من الأعراب بالمال، وبحفر خندق في أعالي مكة، لكن الحرب ما لبثت أن توقفت بعد أيام من بدئها وفضل إسحاق بن موسى الانسحاب باتجاه العراق، ومن الواضح أنه انسحب من المعركة لأنه رأى أن الكفة ليست لصالحه. لكن إسحاق بن موسى المنسحب هذا يقنع بعد قليل بالعودة مع القوات القادمة من العراق بقـــيادة ورقاء بن جميل وعيسى الجلودي، ولا يخفي الطبري نفوره من حركة محمد بن جعفر بالجملة فيورد روايات عـــنها تحط من شأنها ويذكر أن أعوان محمد بن جعفر كانوا من غوغاء الناس ومن السود العاملين على جلب المياه ثم الأعراب المرتزقة، وأن هذه القوات قد تعبأت ببئر ميمون بأعلى مكة حيث وقعت المواجهات الأولى غير الحاسمة، لكن الهزيمة حاقت في اليوم التالي بمحمد بن جعفر وأصحابه، ثم طلب من بعض الأعيان في مكة وفيهم قاضيها التوسط عند قواد بني العباس العسكريين كي يمنحوه أمانا للخروج من مكة، فوافق إسحاق بن عيسى وورقاء بن جميل على ذلك في جمـــادى الآخـــرة من عام ٢٠٠ للهجرة. وقد تفرق الطالبيون وأعوانهم بعدئذ، لدرجة أن محمد بن جعفر وهو في طـــريق الهرب إلى الجُحْفَة[٢٦] لم يستطع مقاومة رجل من موالي بني العباس جمع موالي العباسيين وعبيدهم وطارده في الطـــريق للانتقام من نهب داره بمكة فأدركه بين جدة وعسفان فانتهب جميع ما معه.. وجرده حتى تركه في سراويل، وهم بقتله لكن أخذته به شفقة فترك له قميصا وعمامة ورداء ودريهمات يتسبب بها[٢٧].

ومـــع ذلـــك فقد حاول ابن جعفر ثانية جمع الأنصار استعداداً لجولة ثانية بينه وبين العباسيين فذهب إلى بلاد جهينة لحشد من يقدر عليه ومؤملا أن يجد في القادمين إلى موسم الحج أعوانا لأمره، لكن والي المدينة العباسي هارون ابـــن المسيب الذي تمكن من استعادة المدينة من الطالبي محمد بن سليمان، تصدى له وأخرج له جيشاً تمكن من هزيمة محمد بن جعفر، كما فقئت عينه في هذه المعركة بنشابة أصابته، ولما يأس من نصرة أهل الموسم طلب الأمان ثانية من الجلودي ومن رجاء ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون، فأعطي الأمان الذي طلب وضمن ابن عم الفضل بن سهل عـــلى المأمون بالوفاء. ومن الواضح أن الأمان الجديد قد أعطي له شرط أن يقوم بخلع نفسه، وقد جرى هذا الاتفاق في العشرين من ذي الحجة من عام ٢٠٠هـــ.

ويـــبدو أنه كان مهما جداً إخراج لحظة الخلع على نحو يتفق وأهمية ما سيقوله محمد بن جعفر، كما لا يستبعد أن يكون قد تم الاتفاق على الأفكار التي ستدخل في خطبة الخلع لإقناع الناس بها. ومن بين الإجراءات الشكلية التي تقدمـــت خطبة الخلع، إلباس محمد بن جعفر "قباء أسود" لما في ذلك من إشارة إلى طرح البياض (لون المعارضة ضد العباسيين) والظهور باللون الأسود وهو لون العباسيين الرمزي، كما أن القائد الحربي عيسى الجلودي صعد إلى رأس المنـــبر، بينما أجلس ابن جعفر دونه بدرجه ولم يعط سيفا ليتقلده. وهذه الشكليات ذات أبعاد رمزية في غاية الأهمية، فهو قبل أن يقول شيئا وافق على أن يعلوه قائد العباسيين، وهو ما يعني أن النسب العلوي في خضم الصراع السياسي لا وزن له عـــند الخلافـــة العباسية وأتباعها، بل هكذا يجب أن يستقر في أذهان العامة وعليهم أن يدركوا لمن المقام الأعلى والكلمة الفصل.

أما خطبة الخلع فلا بد من إيرادها لأهمية ما ورد فيها :

"أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، فإنه كان لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين في رقبتي بيعة بالسمع والطاعة، طائعاً غير مكره، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه: محمد المخلوع وعبد الله أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منا ومن غيرنا. وكان نمي إلي خبر؛ أن عبد الله عبد الله أمير المؤمنين كان توفي؛ فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين، واستحللت قبول ذلك لما كان على من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله عبد الله الإمام المأمون، فبايعتموني -أو من فعل منكم- ألا وقد بلغني وصح عندي انه حي سوي. ألا وإني استغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة، وقد خلعت نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها؛ كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، وقد صرت كرجل من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم، وقد أخرجت نفسي من ذلك، وقد رد الله الحق إلى الخليفة المأمون عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين؛ والصلاة على محمد خاتم النبيين والسلام عليكم أيها المسلمون."[٢٨].

ويظهر جليا في هذه الخطبة أنه قد أعد لها بإحكام ففيها أولا إقرار من محمد بن جعفر بأن للمأمون في عنقه بيعة وانه كان شاهدًا على ما أقره الرشيد بين ولديه، ثم إنه استحل أن يبايع له لسببين الأول إنها كانت فتنة غشيت عامة الأرض منه ومن غيره ثم لأنه كما قال سمع بأن المأمون قد مات، أما وقد صح عنده أن المأمون حي يرزق فإنه يحل من بايعه من بيعته ويخلع نفسه ويقبل بالعودة إلى صفوف المسلمين ليكون كأحدهم، كما أن جعل شائعة وفاة المأمون عذرا لقبول ابن جعفر بالخلافة، واستخدام مصطلح "المخلوع" الذي شاع ضمن الدعاية المأمونية ضد أخيه الأمين فيه تأكيد على شرعية خلافة المأمون. وبهذه الخطبة تنتهي خلافة قصيرة لعلوي في الحجاز، دامت ثمانية أشهر، من ربيع الآخر حتى ذي الحجة من عام ٢٠٠ للهجرة.

ومع ذلك فهناك تباين في المصادر حول أمور كثيرة ارتبطت بهذه الحركة تكشف المواقف المختلفة للفرقاء على هيئة روايات غير متجانسة حول هذا الأمر أو ذاك، وقد وجدنا من المفيد أن نفرد كل مسألة على حدة لمناقشتها وهذه القضايا هي:

- نهاية محمد بن جعفر
- البيعة لمحمد بن جعفر، أعن رضا منه وقعت أم بالإكراه
- المنكرات المنسوبة لأركان حركته، ابنه علي وحسين الأفطس

نهاية محمد بن جعفر

تختلف المصادر في تسجيل المصير الذي آل إليه أمر ابن جعفر بعد هذه الخطبة، فاليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) يذكر أن القائد العسكري عيسى الجلودي خرج به بنفسه إلى المأمون وهو بمرو، فلما صار بجرجان توفي محمد بن جعفر، ثم

تسلم كتاب المأمون يأمره بالرجوع إلى الحجاز[٢٩]. وهذه الرواية التي تجعل ابن جعفر يموت قبل وصوله إلى المأمون، علـى خـلاف مع جميع الروايات التي تجعل موت ابن جعفر عام ٢٠٣هـ[٣٠] في جرجان بينما كان ضمن موكب عـودة المأمون إلى بغداد. ويذكر الطبري أن القائد العسكري عيسى بن يزيد الجلودي خرج به إلى العراق وسلمه إلى الحسن ابن سهل الذي بعث به إلى المأمون بمرو[٣١]، ومثله يذكر ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في المنتظم[٣٢]، وكذلك النجم عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ) صاحب إتحاف الورى[٣٣]. ويذكر المعاصر ابن خياط (ت ٢٤٠هـ) أن المعتصم المكنى أبو إسحاق قد حج في هذه السنة فظهر على محمد بن جعفر وابن الأفطس بمكة وبعث بهما إلى المأمون[٣٤]، أي أن هذه الرواية تلغي القيادات العباسية المشتركة مباشرة في الحرب ضد ابن جعفر وتجعل أبا إسحاق (المعتصم) الذي حج في تلك السنة المتصدر للأحداث، ولا تختلف هذه الرواية عن سابقاتها إلا في كونها تجعل اسم أبي إسحاق يتصدر الأحـداث، ولعل المعتصم قد أرسله مع الجلودي إلى المأمون عبر العراق، وهو ما تشير إليه أيضا رواية اليعقوبي الأقدم زمـنا بعـد روايات المعاصر ابن خياط، فيذكر أن الجلودي قدم إلى مكة ولم يحارب محمد بن جعفر بل استأمن منه فأخذه الجلودي وخرج به بنفسه إلى المأمون[٣٥]، أما المتأخرون جدا أمثال ابن خلدون في العبر (ت ٨٠٨هـ) وابن عـلي الفاسي (ت ٨٣٢هـ) في شفاء الغرام، وكذلك الفاسي (ت ٨٨٥هـ) في الزهور المقتطفة فلا يذكرون شيئا عن الرفقة التي تولت إيصال محمد بن جعفر إلى المأمون بل يذكرون انه لحق بالمأمون فعفى عنه[٣٦]، أو سار إلى العراق حتى بلغ المأمون بمرو[٣٧]، أو خلع نفسه وسار إلى الحسن بن سهل وإلى المأمون بمرو[٣٨]. ويبدو أن السبب في ذلك هو كثرة القواد العسكريين الذين تواجدوا في الحجاز عند نهاية عام ٢٠٠ للهجرة ثم حجُ المعتصم في هذه السنة، وبصفته أخـو الخلـيفة فإن ما يقوم به هذا القائد أو ذاك من أمر يجري عند مؤرخ باسم أخي الخليفة وعند آخر باسم القائم بالمهمـة مباشرة، وأيا كان أمر الإيفاد وإلى أين ومن أرسله ورافقه فالثابت أن محمد بن جعفر قد توجه بعد ذلك إلى المـأمون بخراسان عبر العراق، وأن ورود اسم الجلودي كباعـث أو مرافق إنما يتفق وما ذكره الأصفهاني عن مهمة الجلـودي وأنه كان المتولي لإشخاص آل أبي طالب إلى المأمون[٣٩]. كما أن رواية اليعقوبي السالفة التي يفهم منها أن محمـد بن جعفر توفي في الطريق بجرجان قبل أن يبلغ المأمون لا تستقيم مع باقي الروايات ولا مع تاريخ وفاته المثبت عام ٢٠٣هـ.

واللافـت في هذا كله هو التأكيد على قربه من المأمون بما يحمل ذلك من دلالات فيها الإقرار بشرعية الخلافة وحاجة المأمون الملحة لهذا الإقرار في تلك الظروف التي أعقبت مقتل الأمين. كما أن تقريب محمد بن جعفر من قبل المـأمون بعد الإطاحة بالحركات العلوية التي خرجت من عباءة أبي السرايا يقع في الفترة التي أخذ فيها المأمون يفكر بعلاقـة جديدة مع العلويين انتهت بتعيين علي الرضا بن موسى الكاظم ولي عهد للمأمون. ويبدو أن صفات الفضل والـزهد والعلم التي خلعت على محمد بن جعفر لم تكن، في حال توفرها فعلا، لتقنع الخليفة المأمون ليختاره هو وليا لعهـده مـن بين العلويين بدلا عن علي بن موسى الكاظم الذي يبدو انه كان حقا الأوفر حظا من العلم والتفقه بل

والنفوذ في أوساط العلويين كما أنه كان الإمام التاسع عند الشيعة، وأحد الذين تدخلوا لإقناع محمد بن جعفر بوقف القتال ورفض[٤٠]. ولذلك أصر المأمون عليه كي يقبل بولاية العهد. ويبدو أن معظم الروايات كما تظهر عند الطبري مثلا قد تأثرت بهذا التقريب لمحمد بن جعفر فصورت علاقة محمد بن جعفر بحركات الطالبيين على نحو يتسق وهذا التقريب كما سنناقش بعد قليل، بل إن الخطيب البغدادي في خبر وفاة ابن جعفر يورد رواية فيها أن المأمون لم يشهد الجنازة فقط بل "دخل بين العمودين فلم يزل بينهما حتى وُضِعَ، وتقدم فصلى عليه، ثم حمله حتى بلغ به القبر، ثم دخل قبره فلم يزل فيه حتى بني عليه، ثم خرج فقام على القبر وهو يدق فقال له عبد الله بن الحسن: -ودعا له- يا أمير المؤمنين إنك قد تعبت، فلو ركبت فقال له المأمون: إن هذه رحم قطعت من مائتي سنة. قال الحسن قال جدي: وروي في هذا الحديث انه قال: هذا حق ضيع من مائتي سنة"[٤١]. أما الأصفهاني في مقاتل الطالبيين فإنه يذكر القرب الذي ناله محمد بن جعفر عند المأمون وكيف أنه كان شاهدا على بيعة المأمون لعلي الرضا بولاية العهد ثم شاهدا على صحة جثته قبل دفنه كي يدفع المأمون عن نفسه تهمة قتله[٤٢]. وتكرر رواية الأصفهاني ما ورد عن الخطيب البغدادي فتجعل المأمون في لحظة دفن محمد بن جعفر عند وفاته بجرجان عام ٢٠٣هـ، يدلي بشهادة حول حقوق العلويين "دخل المأمون بين عمودي السرير فحمله حتى وضعه في لحده وقال: هذه رحم مجفوة منذ مائتي سنة"[٤٣]. وهذه الشهادة فيها كما نرى إدانة للخلفاء الراشدين ولبني أمية وبني العباس حتى زمنه، وبدلا من التحديد بمائتي سنه كما يظهر في رواية الخطيب البغدادي والأصفهاني يذكر الفاسي نزول المأمون إلى لحد محمد بن جعفر لكنه فيما يبدو لم يصدق التحديد الزمني بمائتي سنة وإن صدق المقولة عامة فأورد عن المأمون أنه قال "هذه رحم قطعت من سنين". والغريب أن يذكر هذا عن المأمون مرتبطاً بموت طالبي مغمور نسبيا ولا يذكر مرتبطا بموت علي الرضا الأشهر والمعين ولياً للعهد، وارتباط قول كهذا باسم علي الرضا أوفق للأحداث، والظاهر أن المأمون يُقَوَّلُ هنا أشياء لا نعتقد أنه قالها، لأن الرحم المقطوع كان سياسيا في الأصل، وهو ما أشارت إليه الرواية الثانية عند الخطيب البغدادي "هذا حق ضيع من مائتي سنة" وظل سياسيا مقطوعا بعد ذلك أيضا، وعندما تكون علاقة الرحم محكومة بأمور السياسة، يسقط الرحم جملة، كما علّمت التجربة الخليفة الأمين الذي نسب إليه قول بليغ بعد أسره وتساءل إن كان أخوه المأمون سيقتله، فأجابه المحاور كلا إن الرحم ستعطفه عليك، فأجاب الأمين بحكمة دهر لا تبلى "الملك عقيم لا رحم له"[٤٤]. وحتى لو صح القول عن المأمون على نحو ما روي، فإنه قول لا يعتد به ويشهد فقط على دهاء المأمون السياسي، لأن أثر هذا القول كان قد محي أصلا بالتخلص من علي الرضا قبل عام من وفاة ابن جعفر.

ونخلص من كل هذا إلى أن ابن جعفر أقام بخراسان مدة عامين إلى جانب المأمون وشهد البيعة لعلي الرضا ثم دفنه في طوس عام ٢٠٢هـ ووافته منيته بجرجان عام ٢٠٣ للهجرة، بينما ظل مصير ابنه علي وابن الأفطس مجهولا.

البيعة لمحمد بن جعفر

المسالة الخلافية المراد جلاؤها هنا هي هل أجبر محمد بن جعفر على البيعة كي يكون خليفة أم أنه كان طامحًا

مثله مثل غيره من العلويين الذين خرجوا عند نهاية القرن الثاني الهجري؟

تذكر أغلب المصادر أن بيعة محمد بن جعفر بالخلافة مرتبطة بالمصير الذي لقيته حركة أبي السرايا، إذ لم تستطع الصمود في النهاية أمام الجيوش العباسية التي أعدها الحسن بن سهل والي العراق وقادها الخبير بتفكير أبي السرايا واستراتيجياته العسكرية هرثمة بن أعين.

وتذكر مصادر مثل الطبري(٤٥) وابن الأثير(٤٦) وصاحب العيون والحدائق(٤٧) وابن الجوزي(٤٨) والذهبي(٤٩) وابن خلدون(٥٠)، أنه بعد أن أيقن كل من حسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر بموت أبي السرايا وتلاشي قواته، وفقد السند المعنوي والعسكري، نظرا في أمر حركتهما في مكة وما قد أحدثاه من سلب ونهب وأعمال سيئة وأيقنا بالهلاك أمام القوات العباسية التي ستزحف على مكة عاجلا أو آجلا، توصلا إلى فكرة البحث عن واجهة دينية يختبئان خلفها لأن كليهما رغم النسب العلوي لم يعد يصلح للدعوة لسوء سيرتهما(٥١). وقد وجدا في شخص الطالبي محمد بن جعفر الصادق أفضل واجهة لرفعها والقتال باسمها، خاصة وانه كما تصور تلك المصادر، قد اشتهر بحسن السيرة وبالعلم والفضل "وكان محبباً للناس، مفارقا لما عليه كثير من أهل بيته"(٥٢) أي "تاركا للخروج"(٥٣) كما كان معلما وراوية للحديث عن أبيه والناس تكتب عنه. وبينما تصور معظم المصادر محمد بن جعفر رافضاً للمبايعة ومكرها على قبولها وأن أهالي مكة والمجاورين إنما حشروا لمبايعته حشرا طوعا وكرها. (٥٤) يعطي الأصفهاني في مقاتل الطالبيين سببا آخر لخروج محمد بن جعفر في مكة، وهو إنه إنما خرج غيرة على فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد أن علم بكتاب فيه سب لفاطمة بنت الرسول ﷺ، فلما قدم جماعة بذلك الكتاب وقرءوه عليه لم "يرد عليهم جواباً حتى دخل بيته، فخرج عليهم وقد لبس الدرع، وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه"(٥٥)، وليس ثمة ذكر عند الأصفهاني لما ذكر من إكراه حسين الأفطس وعلي بن محمد لمحمد بن جعفر بالبيعة له بعد وفاة أبي السرايا، أي أن رواية الأصفهاني تجعل خروج محمد بن جعفر طواعية وهو ما نريد أن نقرره بغض النظر عن السبب المباشر المشكوك في صحته. كما لابد من ذكر رواية المقدسي (ت ٣٥٥هـ) التي تذكر أن عليا ولد محمد بن جعفر قد خرج في البصرة(٥٦)، بينما تجعله المصادر المذكورة يخرج في مكة مع ابن الأفطس. ويذكر اليعقوبي أن محمد بن جعفر العلوي تغلب بمكة وأخرج واليها الهاشمي(٥٧)ولا يذكر شيئا عن الإكراه المذكور في المصادر الأخرى. أما المصدر المعاصر لمحمد بن جعفر، وهو معاصر له أيضا في الزمان والمكان، مع ما يحظى به من ثقة في رواياته لاتباعه أساليب الإسناد المتبعة في علم الحديث(٥٨) فهو خليفة بن خياط في تاريخه والذي يخالف كافة المصادر التي أتت من بعده ويقرر أن محمد بن جعفر سنة تسع وتسعين ومائة وثب بالبصرة وليس بمكة(٥٩). صحيح أنه يذكر أيضا بعد ذلك أن ابن جعفر وثب بمكة لكنه يقرر أولا أن مبدأ خروجه كان في البصرة. وبالنظر إلى الثقة الكبيرة في روايات ابن خياط بالإضافة إلى معاصرته لابن جعفر في الزمان والمكان فلا بد من منح روايته مصداقية استثنائية. وباعتماد هذه الرواية، تسقط الرواية الأخرى والمبثوثة في معظم المصادر حول الإكراه المزعوم لمحمد بن جعفر بالبيعة.

ولإعادة بناء تسلسل زمني مقنع للأحداث نرى أن رواية المقدسي التي تقرر خروج علي بن محمد بن جعفر في البصرة تسمح بفهم أن عليا هذا كان قائد أبيه العسكري في البصرة كونه الأوفر شبابا والأكثر حماسا، وقد لاح لهما أن يتركا البصرة لقريبهما زيد بن موسى بن جعفر الملقب بزيد النار لكثرة ما أحرق من بيوت العباسيين كما روي. ولعلهما تركا البصرة خوفا من طغيان أبي السرايا على حركتهما بينما يفضلان الاستقلال، وفي خروجه الأول في البصرة لم يذكر ابن خياط أن محمد بن جعفر ادعى خلافة أو إمرة للمؤمنين والظاهر أنه أراد مثل غيره من العلويين وسواهم الفوز بنصيب من الدنيا مسنودا بنسبه العلوي وهو ما الح إليه في خطبة التنازل السالفة وأنها كانت فتنة غشيت عامة الأرض منه ومن غيره. ويبدو أن الأقدار دارت لصالحهما حين قدما مكة وفيها العلوي ابن الأفطس نائبا عن أبي السرايا، ولنا أن نتصور في غمرة الفوضى الحاصلة وغياب السلطة أن تحالفا بين ابن الأفطس وعلي بن جعفر قد قام على أساس أن تكون مكة لهما بما يقتضي ذلك من الاستئثار بأموال العباسيين وغيرهم في مكة، كما نستطيع أن نتصور وبحكم الولاء الرابط بين أبي السرايا وابن الأفطس أن يتراجع اسم محمد بن جعفر كي لا يعد منافساً لصاحب النفوذ الفعلي أبي السرايا أمام نائبه ابن الأفطس. أما بعد هزيمة أبي السرايا ومقتله فالطريق مفتوح ثانية أمام محمد بن جعفر ليكون على رأس حركة انقلابية على الخلافة العباسية ويقبل المبايعة له بالخلافة ويتلقب بإمرة المؤمنين. كما أن خطبة الخلع التي مرت بنا لم تتضمن أية إشارة إلى الإكراه ليكون عذرا له، بل قدمت إشاعة موت المأمون كعذر لقبول البيعة بالخلافة. أما المصادر التي تصوره أكره على ذلك فتذكر أنه ظل شهرا أو شهورا ليس له من الأمر شيء سوى الإسم، ولا يتفق هذا وواقع الحال، فأول المواجهات العسكرية وقعت بعد شهرين من مبايعته بالخلافة في جمادى الآخر بينما بويع في الثالث من ربيع الآخر، ولنا أن نتصور أن هذه الفترة الفاصلة هي فترة استعداد وجمع أعوان وحفر خندق وخلافه. وعليه، وبتذكر أنه خرج أصلا في البصرة نخلص إلى أنه شمر عن ساعد الجد فورا وأعد العدة لمواجهة القوات العباسية كما مر بنا في وقائع الحركة والتي تظهر أنه لم يكن زاهدا في الخلافة بل نشطا جدا وحريصا جدا في الحفاظ عليها(٦٠)، وأنه لم يسلم إلا بعد هزيمته وإدراكه لعجزه أمام القوات العباسية وعزوف الناس عن الانضمام لحركته.

و يصبح من الضروري البحث عن سبب لذلك التصوير الرابط بين علم وزهد ابن جعفر ووصفه بأنه تارك للخروج من جهة ثم ما زعم من إكراهه على قبول بيعة بإمرة المؤمنين من جهة ثانية ومحاولة تبرئته من أعمال السلب والنهب والمنكرات المخلة بالشرف ونسبتها لولده علي ولابن الأفطس من جهة ثالثة. وأعتقد أن الإجابة تكمن في النهاية التي أفضت إليها حركته والمقام الذي وجده بعدئذ عند المأمون. ففي خطبة التنازل التي مرت بنا يعتذر ابن جعفر عما بدر منه ويؤكد حق المأمون في الخلافة، كما أنه بعد ذلك حظى بتقريب المأمون له، ولا يصح بالتالي أن يصور علوي يقربه المأمون بأنه سعى للخلافة وأسقط شرعية خلافة المأمون، كما لا يصح أن تنسب له منكرات وأفاعيل وإلا لطال المأمون منها نصيب ولظهر موافقا على ما يروى من منكرات لأشخاص يؤمون بلاطه، ومن جهة

أخرى فلا شك أن الدعاية المأمونية كانت في أمس الحاجة إلى من يؤكد شرعية خلافة المأمون بعد مقتل أخيه الأمين وخاصة من علويين بسير تقية وسمعة زكية، وقد لعب محمد بن جعفر دورا في ذلك عبر خطبته في مكة والتي لا شك أنها لاقت ذيوعا ليعرف القاصي والداني رأي هذا العلوي الذي كان بويع خليفة، بخلافة المأمون. لكل ذلك نرى أن الـــرواية المبـــثوثة في معظم المصادر التي تصور إكراه محمد بن جعفر على البيعة لا تستقيم مع وقائع الحركة، ولكنها تســـتقيم مـــع سياسات المأمون في تثبيت خلافته، خاصة وأن كتابة التاريخ قد تأثرت بانتصارات المأمون وتم تزوير العهـــود الـــتي علقت في الكعبة بين الأمين والمأمون، كما يرجح ذلك بأدلة مقنعة مـــؤرخ معاصر[٦١]. وعليه يمكن القول أن رواية باقي الأحداث التاريخية المتصلة بزمن المأمون ستتأثر هي الأخرى بحاجة المأمون إلى تبرئة ساحته من دم أخيه ومن فكرة التغلب على الخلافة بالقوة .

المنكرات المنسوبة لأركان حركة ابن جعفر، ابنه علي وحسين الأفطس

هـــنا نـــريد مناقشة أعمال السلب والنهب والمنكرات التي نسبتها معظم المصادر[٦٢] لحسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر. ولا بأس من إعادة ما ذكرنا سابقا من أعمال قبيحة ومنكرات واضحة، وأنهما تتبعا ودائع بني العباس وأتـــباعهم، وســـطيا على أموال الناس بحجة البحث عن ودائع بني العباس وانهما قاما بتعذيبهم وأنشئا دارا خاصة سميـــت "دار العـــذاب"[٦٣]، كما سطيا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المسجد الحرام وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المتروعة على قدر المترلة لكل شخص. وقد أدى كل ذلك إلى هرب أكثر الناس فهدمت دورهم. كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهرا لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد من قبل علي بن محمد بن جعفر وصف أيضا بالجمال وهو ابن لقاضي مكة.

فما الموقف من كل هذه الأعمال وما علاقة محمد بن جعفر بها؟. من بين المصادر والمراجع التي بين أيدينا يعلق فقط صاحب كتاب تاريخ أمراء مكة على أخبار الاغتصاب بالذات بعبارة واحدة دون مناقشة تقول "وقد تكون هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته وقد نقلناها كما وردت"[٦٤].

ولنـــبدأ بالأخـــبار الخاصة بأعمال السلب والنهب. ذكرنا بأن الفراغ الذي حصل في السلطة عند نهاية القرن الـــثاني الهجـــري وبقـــاء الخليفة المأمون في مرو قد شجع كثيرين أفرادا وجماعات ومنهم الطالبيون على التغلب على الأمصـــار واعـــتماد أعمال السلب والنهب طريقا قصيرا للثراء وأن الأخبار التفصيلية المتعلقة بهذه الأعمال في بغداد وغيرها من المدن، بالإضافة إلى حركة أبي السرايا وما ارتبط بها من أعمال سلب ونهب تجعل من الصعب عدم تصديق الـــروايات المتعلقة بما جرى من أعمال سلب ونهب في مكة، لقد كانت روحا طاغية في كل العراق والجزيرة العربية، لدرجـــة أن حـــركات مناهضة لحركات السلب والنهب تشكلت فيما بعد تحت مسمى المطوعة، أو الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر[٦٥]، كما أن حركة مثل حركة العيارين والشطار قد لعبت دورا آخر أساسيا في نشر روح الفوضى والسلب رغم أنها كانت تعبيرا عن الفاقة والجوع في وجه الرغد والوفرة[٦٦]، ووجدت في فراغ السلطة القائم لها متنفسا. وقد خرجت أعمال السلب والنهب عن حدود الاعتداء على أموال الخلافة وممثليها إلى سلب أموال الناس العادين الذين اضطروا للهرب من مكة، وأيا كانت مبالغات المصادر في تصوير أعمال السلب والنهب فإن تلك المبالغات لا تنفي الوقائع مع ذلك.

والسؤال المطروح هنا هو هل شارك محمد بن جعفر شخصيا في أعمال السلب والنهب أو ناله من غنائمها نصيب؟

ونشير في البدء إلى أن المصادر التي تتحدث عن إكراه محمد بن جعفر على البيعة تظهره ورعا زاهدا وأن لا صلة له بأعمال السلب والنهب، لكن رواية عند الخطيب البغدادي تقلب هذه الصورة فتظهر ابن جعفر مشاركًا في أخذ الأموال، وإن كانت الرواية مرتبطة بأموال أحد ولاة بني العباس وليس سائر الناس. ويسند الخطيب البغدادي إلى حفيد لإسحاق بن موسى والي العباسي في اليمن والذي خرج منه بعد ظهور العلوي إبراهيم بن موسى هناك، ومر بنا في الحديث عن وقائع الحركة ومواجهته العسكرية مع ابن جعفر، يذكر الخطيب البغدادي نقلا عن حفيد إسحاق أن جده خلف عياله وثقله في مكة حين ولاه المأمون على اليمن وأن محمد بن جعفر قد أخذ كل ذلك[٦٧]. كما ينفرد الخطيب البغدادي بذكر أن قسما من ديباج الكعبة الذي نزعه ابن الأفطس قد وصل إلى محمد بن جعفر ومما يشير إلى عظم هذا القسم أن صاحب الرواية عند الخطيب البغدادي يذكر أنه ذهب لمبايعة محمد بن جعفر بالخلافة فأمر له "بشقة ديباج... وطرح من تلك الكسوة على الدواب دوابه ودواب أصحابه"[٦٨]. وهذا يعني أن محمد بن جعفر كان شريكا لولده وابن الأفطس فيما أخذوه من أموال بني العباس وأموال الكعبة، وإلا فمن أين لهم تلك الأموال التي ذكر أنهم جندوا بها الأعراب وفرضوا لهم وحفروا بها خندقا حول الكعبة وأداروا جولتين حربيتين كبيرتين على الأقل[٦٩]. وهناك قصة ظريفة تصور محمد بن جعفر لا علاقة له بابن الأفطس وابنه وبما نهباه، وأنه استلف من حجبة الكعبة ٥٠٠٠ دينار ليستعين بها على أمره[٧٠]، ولسنا نعلم كيف سَلِمَتْ هذه الأموال من السلب وقد تجاوز السلب والنهب أموال بني العباس وخزائن الكعبة إلى أموال الناس العادين واضطروهم للهرب من مكة، وأضنها قصة موضوعة لتدعم زهد محمد بن جعفر في الدنيا وفي الخلافة، خاصة وقد دبجت القصة بأن حَجَبَة الكعبة قد أخذوا عليه سندا بذلك وأشهدوا عليه الشهود، وأن المأمون قضاها عنه بعد أن فشلت حركته وطولب بها. ومما يدل على ضعف هذه الرواية هي أن أجواء مكة في هذه الفترة عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تكن تسمح بجريان الأمور على النحو الذي تصوره الرواية، وما دام ابن جعفر قد بويع خليفة وله الأمر والنهي، تبقى قصة الاستلاف وتشديد الحجبة بضرورة كتابة سند بذلك وإشهاد الشهود ثم قضاء الدين من قبل المأمون ضمن الروايات التي أرادت تصوير ورع ابن جعفر وتبرئته من الأعمال الشائنة للأسباب التي ذكرناها في مناقشاتنا حول أمر البيعة، زد على ذلك أن رواية الاستلاف هذه لا ترد إلا

عند مصدر واحد متأخر وهو إتحاف الورى بأخبار أم القرى لعمر بن فهد المتوفى ٨٨٥ للهجرة.

أما الروايات المتعلقة باغتصاب المرأة والغلام الأمرد. فلا بد من التنبيه على أن ابن خياط واليعقوبي لا يذكران هاتين الواقعتين ولا الوقائع الأخرى ذات الصلة في العراق، وليس هذا بالضرورة دليلا على عدم حدوثها، بل له علاقة بمنهج الكتابة المقتصر على خيط الأحداث الرئيس عند اليعقوبي وابن خياط،. أما باقي المصادر كالطبري وابن الأثير وصاحب العيون والحدائق وابن الجوزي وابن خلدون فيوردون خبرا واحدا عن الخطف لكل من المرأة والغلام. لكنه يختلف في التفاصيل قليلا في هذا المصدر أو ذاك. يذكر الطبري "فوثب حسين بن حسن (الأفطس) على امرأة من قريش من بني فهر –وزوجها رجل من بني مخزوم، وكان لها جمال بارع– فأرسل إليها لتأتيه فامتنعت عليه، فأخاف زوجها وأمر بطلبها فتوارت منه، فأرسل ليلا جماعة من أصحابه فكسروا باب الدار، واغتصبوها نفسها، وذهبوا بها إلى حسين، فلبثت عنده إلى قرب خروجه من مكة فهربت منه، ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة. ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام من قريش، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد، وكان جميلا بارعا في الجمال – فاقتحم عليه بنفسه نهارا جهارا في داره.. حتى حمله على فرسه في السرج"[٧١].

وهذه الرواية تكرر بعدئذ في المصادر المتأخرة عن الطبري، والتي لا نرى ضرورة للإشارة إليها باستثناء ما كتبه صاحب العيون والحدائق وابن خلدون، اللذين جعلا هاتين الحادثتين الفرديتين حالة عامة، فكتب صاحب العيون والحدائق "حتى صار أصحابه (ابن الأفطس) إلى أخذ الحُرَم وأخذ أبناء الناس وهَتْك في أولادهم"[٧٢]، وكتب ابن خلدون "وأفحشوا في الزنا واللواط واغتصاب النساء والصبيان"[٧٣].

والظاهر أن صاحب العيون والحدائق وابن خلدون قد اتخذا من تلك الحادثة المروية دليلا على شيوع فعل جماعي، وفي هذا كما نرى مبالغة وسوء تصوير غير مسنود من الواقع ولا من الروايات الأخر، واعتقد أننا فقط أمام رواية لحالتي اختطاف واغتصاب لامرأة وغلام. فهل هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته كما يذكر صاحب تاريخ أمراء مكة أم أننا فعلا أمام وقائع حدثت مخلة بالشرف ومحرمة شرعا وهي مما يأباه الذوق العربي المؤسس على معاني الحلال والحرام وعلى النخوة العربية المعلية لشأن العرض وكرامة النساء. يبدو أننا في هذه الفترة التاريخية الحرجة، فترة خلو الخلافة الإسلامية من سلطة فاعلة في العراق والجزيرة، وسيادة روح التغلب بالقوة، وخلو الحركات من شعارات سياسية، مضطرون للاعتراف بفساد الأخلاق الذي ساد وانتشر في جهات كثيرة من العراق[٧٤] وبلاد الحجاز. ومن السهل قطعا أن نقول أن هذه روايات موضوعة للتشهير، لكنا مع ذلك نحتاج إلى حجج لدعم القول بالتشهير، وأخرى لنفي قرائن قد تدعم تأكيد الخبر. ومنها أنه ما دمنا لا نستطيع إنكار الاعتداء على أموال الناس بل وعلى أموال الكعبة المشرفة، فإن هذا الأمر يقنع بأن الذي لا يستحي من الله جل وعلى ويسقط هيبة الكعبة وقدسيتها علنا، لا يستحي من الناس وبإمكانه ارتكاب أية فاحشة أو منكر معتدا بقوته. وما دام ابن الأفطس سيد الموقف فله أن يفعل ما يشاء. ومما يرشح الفعل للتصديق هو تحديد هوية المرأة وزوجها، لكن الذي

يضعف هذه الرواية القول بأن الجماعة التي أرسلت لإحضارها قد قامت باغتصابها أولا ثم حملتها لابن الأفطس، وهو تصـــوير غير معقول ولا متصور من أتباع ينفذون رغبة سيدهم في أكثر الأمور مساسا بالكرامة، حتى وهم يعتدون عـــلى كـــرامة غيرهـــم بحكـــم التغلب الحاصل. وقبل أن نقرر شيئا نهائيا بشأن هذه الرواية نلتفت إلى رواية الغلام المخطـــوف وهو جرم لا يقل فحشا عن الأول، والغريب أن يروى أن أهل مكة قد ثاروا وتجمهروا أمام دار الإمارة حيـــث الخلـــيفة المبايع محمد بن جعفر. وتصور الرواية أن الحشد كان كبيراً والهياج حاداً والتهديد بالخلع أو بالقتل عاليا لدرجة أن أمير المؤمنين المبايع يطلب الأمان كي يخرج لابنه وينتزع منه الغلام، وقد منحوه أمانا كي يذهب إلى ولده لانتزاع الغلام منه بعد أن رفض ابن الأفطس التدخل في الأمر مشيرا إلى عجزه عن ذلك وخوفه من حرب بينه وبـــين عـــلي بن محمد بن جعفر[٧٥]، وهي مناسبة هنا لنؤكد على حالة الفوضى في مكة وأن كل واحد من المتنفذين كان يعمل باستقلالية عن الآخر على الأقل في أمور النهب والمنكرات المذكورة. وقد تمكن محمد بن جعفر، كما تفيد الرواية، من الذهاب إلى ولده وانتزاع الغلام منه وتهدئة خواطر الناس. ورغم أن الغلام ابن لقاضي مكة، إلا أن موقفا للقاضي بهذا الصدد لتخليص ابنه لم يرو، ولعله لم يدرك ذلك لوقوع الخطف والتحرير في نفس اليوم، كما أن علاقة محمد بن جعفر بهذا القاضي لم تتأثر كما يبدو، إذ رأينا أن محمد بن جعفر يرسل إلى جماعة من أهل مكة فيهم القاضي كـــي يـــتدخل لـــدى إســـحاق بن موسى للحصول على أمان كي يخرج من مكة بعد هزيمته في الجولة الأولى من الحرب[٧٦]. والغريب في الأمر أن المرأة وهي الأكثر تمثيلا للعرض والشرف والنخوة والتي اختطفت من بيت زوجها وأكرهـــت على معاشرة رجل بالحرام، كما تذكر الرواية، لم تثر غيرة الناس كما حدث مع الغلام، هل لأن خطف الغلام وقع جهارا نهارا، فيما خطفت المرأة فجرا وكان زوجها قد هرب من مكة كما تصور الرواية؟ أم لخوفهم من ســـطوة ابـــن الأفطس ورجاله كما قد عرفوه حتى الآن؟ أم أن الحادثة لم تقع أصلا وأن الأمر كله تعريض وتشهير بخصـــوم بني العباس في هذه الفترة؟ ومع ذلك فإن هذا السؤال الأخير تقل دلالته عندما نعلم أن موضوع النساء كان حاضـــرا في المواجهـــات سواء أكان للدعاية السياسية أم للفعل الدال على قوة المنتصر. يورد الأصفهاني على لسان الجـــيش العباسي المهاجم لأبي السرايا في الكوفة "وأقبل أهل بغداد يصيحون يا أهل الكوفة: زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلن بهم كذا وكذا "[٧٧].

وهـــذا القول وإن قيل أنه داخل في الإرجاف العلوي ضد العباسيين، كما هو الحال في قصة المرأة والغلام وأنها يمكن أن تكون إرجافا ضد العلويين، إلا أن وجود هذه الأخبار يعد رغم ذلك دليلا على حصول هتك للأعراض هنا أوهـــناك. ومما يقوي الاعتقاد بحصول تلك المنكرات في مكة إقرار الأصفهاني بسوء سيرة ابن الأفطس وعلي بن محمد بـــن جعفر، ليس صراحة بالاسم، ولكن ضمن معايير الاختيار التي أعتمدها لكتابه "مقاتل الطالبيين" كمـــا أشار إلى ذلـــك في المقدمة حيث يقول "ومقتصرون في ذكر أخبارهم (الطالبيين) على من كان محمود الطريقة، سديد المذهب، لا مـــن كان بخلاف ذلك، أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث أو فساد"[٧٨]

ولذلك حُرم ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر من سيرة ذاتية مستقلة في كتاب الأصفهاني بين ذلك الحشد الهائل من الأسماء.

ومــع ذلــك فإن أقصى ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا الاستعراض بشأن المرأة والغلام، وأخذا بعين الاعتبار سيادة روح التغلب وانتشار الفوضى وتراجع القيم عند نهاية القرن الثاني الهجري، أنها أمور غير مستبعدة.

خلاصة

والخلاصــة أن حركة محمد بن جعفر العلوي بدأت في البصرة عام ١٩٩هـ ثم انتقلت إلى مكة، وأنها وقعت كنتيجة من نتائج الحرب بين الأمين والمأمون وخلو العراق وكل شبه الجزيرة من سلطة خلافية فاعلة بعد مقتل الخليفة الأمين عام ١٩٨هـ. وكانت هذه الحركة من بين حركات تغلب علوية كثيرة قامت عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تحمــل في طياتها أي بديل سياسي معلن في شعار أو خطبة. وهي الحركات التي وجدت في حركة أبي السرايا غير العلوي مظلة عسكرية لها، كما وجد أبو السرايا في العلويين واجهة دينية يقاتل تحت لوائها. وقد تميزت حركة محمد ابــن جعفر عن باقي حركات التغلب الأخرى بأنها أعلنت خلافة علوية عقب حرب الأمين والمأمون وخلو العراق والجزيــرة مــن ســلطة خلافية مقبولة، وكان ابن جعفر أول طالبي يبايع بالخلافة بعد الحسن بن علي وتلقب بإمرة المؤمــنين، وهــو ما جعل خطر حركته يكون الأقوى. وقد ترافقت الحركات العلوية ومنها حركة محمد ابن جعفر بأعمال سلب ونهب واعتداء على أموال الكعبة كما نسبت إلى بعض شخوصها منكرات أخلاقية فاضحة. وقد كان ابن جعفر طامحا في الخلافة عاملا لها بكل ما استطاع. وقد أمكن دحض الروايات التي تصوره زاهدا في السلطة وأنه إنما أجبر على ذلك، وكان بقدر أو بآخر شريكا لولده ولابن الأفطس في أعمال السلب والنهب المذكورة، وأوضحنا أن ســبب تصــويره زاهدا في الخلافة أو الأعمال المنكرة تكمن في النهاية التي آلت إليها حركته وهي الاستسلام ثم التســليم بخلافة المأمون وفي الحظوة التي وجدها عند المأمون بعدئذ. وقد دامت حركته من ربيع الآخر إلى ذي الحجة سنة ٢٠٠ للهجرة، على أن بيعته كخليفة لم تدم إلا ثمانية أشهر من ربيع الآخر حتى ذي الحجة من نفس العام.

التعليقات

(١) تضــيف له بعض المصادر لقب الديباج أو الديباجة، ويبرر ذلك بحسن وجهه، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م)، ١: ١٣١٧، في مادة دبج "وديباجة الوجه وديباجه: حسن بشرته، أنشد ابن الأعرابي للنجاشي

هم البيض أقواما وديباج أوجه، كرام إذا اغبرت وجوه الأشائم

وبينما لا نجد هذا اللقب عند مؤرخ معاصر لمحمد بن جعفر هو ابن خياط، في تاريخه، ولا عند اليعقوبي في تاريخه ولا الطبري في تاريخه ولا ابن الأثير في الكامل، ولا ابن الجوزي في المنتظم، ولا في العيون والحدائق عند المؤلف المجهول، نجد اللقب عند آخرين أمثال الخطيب البغدادي، وابن الجوزي، وابن خلدون ، وعند ابن علي الفاسي في شفاء الغرام..، وعند الفاسي في إتحاف الورى

بأخـــبار أم القرى وهو الذي يستخدم اللقب بكثافة عوضا عن الاسم. ويبدو أن اللقب لم يكن شائعا ولا متفق عليه، وإلى هذا يشـــير ابـــن حـــزم، أبو محمد علي بن أحمد، *جمهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٨٣م)، ٥٩، حين يذكر" والشيعة تلقبه الديباجة لجمال وجهه" ومع ذلك فانقسام المصادر حول إيراد لقبه من عدمه لا يبدو أنه على أساس مذهبي ، وإلا لســـقط من بعض المصادر التي أوردناها بعاليه، ويبقى أن نقول أن غياب أخبار مفصلة عن حياة محمد بن جعفر الأولى باستثناء أنـــه كان يروي عن أبيه يقنع بأنه كان مغمورا، وأنه إنما عرف على نحو واسع عند نهاية القرن الثاني الهجري بعد قيامه بالحركة التي نحن بصدد إلقاء الضوء عليها، وأن اللقب الذي منحته الشيعة إياه قد حدث كما نرجح بعد حركته بوقت طويل وإلا لأثبته كافة المؤرخين استسهالا للإشارة إليه بلقب بدلا من محمد بن جعفر كما سنرى في متن البحث.

(٢) في الرســـائل المتبادلة بين الطالبي محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور تظهر جليا المرتكزات التي على أساسها أدعى كل فريق الحق لنفسه في خلافة المسلمين، أنظر، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار روائع التراث العربي، د.ت.)، ٧: ٥٦٦- ٥٧٣؛ وقد جاء في رد محمد النفس الزكية لأبي جعفر المنصور، *الطبري* ٧: ٥٦٧، ما يلي، وأن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا" وقد كانت تلك المرتكزات وأهمها القرب من نسب النبي ﷺ عبر ابنـــته فاطمة هي القاسم المشترك، أو قل الوعي المشترك الذي كان يعلن عن نفسه في كل حركة طالبية، كما كان النسب عند بني العباس عبر العم العباس هو الآخر من بين أهم المرتكزات إلى جانب النجاح في الإطاحة بالخلافة الأموية.

(٣) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، *تاريخ بغداد* (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٧٠م)، ٢: ١١٣؛ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، *مقاتل الطالبين*، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠م)، ٥٣٧.

(٤) المقدســـي، مطهـــر بـــن طاهر، *كتاب البدء والتاريخ المنسوب* لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، مصور عن طبعة خاصـــة في (باريس: ١٨٩٩م)، ٥: ١١٢.

(٥) مجهول، *العيون والحدائق*، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم (هولندا: مطبعة بريل، ١٨٦٩م)، ٣٤٦.

(٦) المقدسي، *البدء والتاريخ*، ٥: ١٠٩.

(٧) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م)، ٦: ٣٠٥.

(٨) هذه هي السيرة التقليدية التي نجدها لأبي السرايا في معظم المصادر التاريخية التقليدية، انظر مثالا على ذلك الطبري، *تاريخ الرسل والملـــوك*، ٨: ٥٣٤-٥٣٥؛ لكـــن هذه الصورة لا وجود لها عند الأصفهاني في *مقاتل الطالبين*، والذي لا يذكر شيئا من هذه الأخـــبار المتواترة عن أبي السرايا بل يركز على الفترة التي اتصل بها بابن طباطبا، ويصوره شيعيا محبا لآل البيت، آمرا بالمعروف وناه عن المنكر، الأصفهاني، ٥١٨، ٥٣٦- ٥٤٢- ٥٥٩.

(٩) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٢٨؛ *العيون والحدائق*، ٢٤٦.

(١٠) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥١٩.

(١١) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٥.

(١٢) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٢١.

(١٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٢٩.

(١٤) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٣١.

(١٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٢.

(١٦) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٢.

(١٧) المشـــاش: مـــنطقة متصلة بجبال عرفات، انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٥م)، ٢: ١٥٤.

(١٨) ابـــن عـــلي الفاسي، محمد بن أحمد، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، ط١، حققه ووضع فهارسه د. عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م)، ٢٨٩.

(١٩) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦.

(٢٠) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٢١) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦.

(٢٢) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٧.

(٢٣) عـــن أســـاطين الحرم وأعدادها وما وجد بها من ذهب، أنظر الأزرقي محمد بن عبد الله بن أحمد، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار* (بيروت: دار الأندلس، ١٩٩٦م)، ١: ٨٢- ٨٣.

(٢٤) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١.

(٢٥) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦؛ مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٢٦) كانت قرية على طريق المدينة على بعد ست مراحل من المدينة وعلى ثلاث مراحل من مكة، ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٢ : ١٢٩.

(٢٧) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٩.

(٢٨) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٤٠.

(٢٩) أحمد بن أبي يعقوبي، *تاريخ اليعوبي*، ٢: ٤٤٨.

(٣٠) يستثنى من ذلك الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، *الوافي بالوفيات*، ج٢ (دار فرانس ستاينر للنشر، ١٩٧٤م)، ٢: ٢٩١، الذي يورد تاريخين لوفاته هما سنة ٢٠٤ وسنة ٢٠٣، ثم يذكر أن الأخير هو التاريخ الصحيح.

(٣١) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٤٠.

(٣٢) ابـــن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٢م)، ١٠: ٨٥.

(٣٣) ابـــن فهـــد، الـــنجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن فهد، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: وتقديم فهيم محمد شلتوت، (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٨٣م)، ٢: ٢٦٩.

(٣٤) ابن خياط،خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق: أكرم ضياء العمري، (بيروت: دار القلم ومؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٧٧م)، ٤٧٠.

(٣٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، *تاريخ*، مج٢، ٤٤٨.

(٣٦) الفاســـي، محمـــد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، ، تحقيق: د. مصطفى محمد حسين الذهبي (الرياض: ١٩٩٧م)، ١٧٩.

(٣٧) ابن علي الفاسي، *الزهور*، ٢٨٨.

(٣٨) ابـــن خلدون، عبد الرحمن، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر* (القاهرة: وبيروت: دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٩٩م)، ٥: ٥٢٠.

(٣٩) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٦٢.

(٤٠) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ٥٤١.

(٤١) الخطيب البغدادي، *التاريخ*، ٢: ١١٥، كما أن رواية البغدادي هذه تجعل موت ابن جعفر بخراسان بينما عامة الروايات تؤكده في جرجان.

(٤٢) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٦٤، ٥٦٧.

(٤٣) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٤١.

(٤٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، شرحه وقدم له مفيد قميحة، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ٣: ٥٠٢.

(٤٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٧.

(٤٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١.

(٤٧) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨-٣٤٩.

(٤٨) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١: ٨٢.

(٤٩) الذهـــبي، أحمد بن محمد عثمان، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام*، حوادث، ١٩١-٢٠٠، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م)، ٧٨.

(٥٠) ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، ٥: ٥١٩.

(٥١) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٥٢) ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١.

(٥٣) الذهبي، *حوادث*، ١٩١-٢٠٠، ٧٥.

(٥٤) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١٢.

(٥٥) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٣٩.

(٥٦) المقدسي، *البدء والتاريخ*، ٥: ١٠٩.

(٥٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٤٤٨.

(٥٨) أنظـــر: مقدمـــة التحقيق: لكتاب تاريخ خليفة بن خياط التي كتبها الدكتور أكرم ضياء العمري وبين فيها منهج ابن خياط في الكتابة التاريخية ومستوى الثقة التي تلقاها رواياته، ١٤ وما بعدها.

(٥٩) ابن خياط، *تاريخ*، ٤٦٩.

(٦٠) لاحـــظ المستشـــرق الهولـــندي، ك. سنوك هورخرونيه في كتابه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، أن الكتاب العلويين -و لم يســـمهم- يـــرون أن محمد بن جعفر غير مذنب، لكنه يرى أن هذا الزعم غير صحيح بدليل نشاط ابن جعفر للاستيلاء على المدينة. والمستشرق في ملاحظته هذه خلط بين أمر السلب والنهب والرغبة في الخلافة، فاستدل بالثانية على الأولى، لكنها تبقى ملاحظة مهمة تعزز ما ذهبنا إليه من رغبة أكيدة لمحمد بن جعفر في نيل الخلافة. ك.سنوك هورخرونيه، *تاريخ مكة المكرمة*، نقله

إلى العربية د. علي عودة الشيوخ (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م)، ١: ١٣٠.

(٦١) شاكر مصطفى، *دولة بني العباس* (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٣م)، ١: ٤٠٤-٤١٠، ٤٢٨-٤٣٦.

(٦٢) الطبري ٨: ٥٣٦-٥٣٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١- ٣١٢؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٠: ٨٢؛ مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨؛ ابن خلدون، *تاريخ*، ٥: ٥١٩-٥٢٠؛ ابن فهد، *اتحاف*، ٢٦٥؛ ابن علي الفاسي، *الزهور*، ٢٨٦.

(٦٣) الطبري، ٨: ٥٣٧.

(٦٤) عبدالغني، عارف، *تاريخ أمراء مكة*، ط١ (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٢م)، ٢٨٣.

(٦٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٥١.

(٦٦) عبدالمولى، محمد أحمد ، *العيارون والشطار في التاريخ العباسي* (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م)، ١٦٦.

(٦٧) الخطيب الغدادي، *تاريخ*، ٢: ١١٤.

(٦٨) الخطيب البغدادي، *تاريخ*، ٢: ١١٤.

(٦٩) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٨- ٥٣٩.

(٧٠) عمر بن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٢٦٧.

(٧١) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٧-٥٣٨.

(٧٢) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٧٣) ابن خلدون، *تاريخ*، ٥: ٥٢٠.

(٧٤) انظر مثلا ما كتبه الطبري، ٨: ٥٥١، حول فساق الحربية والشطار ببغداد والكرخ، وكيف انهم أخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرقات، وأنهم تمكنوا من فعل ذلك لأنه لا سلطان يمنعهم من ذلك "لأن السلطان كان يعتز بهم".

(٧٥) الذهبي ، *حوادث*، ١٩١-٢٠٠: ٧٤.

(٧٦) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٩.

(٧٧) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٢٦.

(٧٨) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥.

ثورات أعراب الجزيرة العربية في خلافة الواثق بالله (٢٣٠ – ٢٣٢هـ / ٨٤٥ – ٨٤٧م)

أمينة محمد علي بيطار

جامعة الملك سعود – الرياض

أولاً: المقدمة:

نشبت عدة ثورات من قبل أعراب الجزيرة العربية في خلافة الواثق بالله العباسي[١] (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م)، ويمكن تقسيم هذه الثورات إلى قسمين.

١- ثورات الأعراب في طريق الحج، مثل ثورات بني سليم[٢] وهلال[٣]، وغيرها[٤].

٢- ثورة بني نمير[٥] في اليمامة[٦] وقد تكون أكثر أسباب هذه الثورات واحدة، وقد يختص بعضها بأسبابها الخاصة.

هذا ويمكن القول بأن الجزيرة العربية لم تشهد في العصر العباسي قبل عهد الخليفة الواثق بالله من ثورات الأعراب إلا ثورة اليمامة التي نشبت سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م) في عهد الخليفة المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)[٧]. وقد يكون سببها لفت انتباه الخلافة العباسية إلى أوضاعهم، والعمل على تحسينها. وعلى العموم فقد كانت علاقة قبائل الجزيرة العربية حسنة مع الخلافة العباسية حتى سنة (٢٣٠هـ / ٨٤٥م)، ذلك لأن سياسة العباسيين قبل خلافة الواثق بالله كانت تعمل على استرضاء القبائل التي كانت تنزل على طريق الحجاج، وفي جوار المدينتين المقدستين، مكة والمدينة[٨]، وتعمل في نفس الوقت على مراقبة المتمردين فيها[٩] وغاية ما قامت به هذه القبائل هو انضمامها إلى ثورة محمد النفس الزكية (ت ١٤٥هـ/ ٧٦٢م)[١٠]. ولم يكن لانضمام هذه القبائل إلى النفس الزكية أي أثر لخروجهم في خلافة الواثق بالله.

ثانياً: أسباب ثورات القبائل العربية:

كان لخروج القبائل وثوراتها على الخليفة الواثق بالله أسبابها، وعلى رأس هذه الأسباب:

١- إهمال الخلفاء العباسين منذ خلافة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٤- ٨٣٣م)، لا بل منذ خلافة الأمين (١٩٣ - ١٩٨هـ/ ٨٠٩- ٨١٤م) لإصلاح طريق الحج، والإنعام على القبائل القاطنة على طرفيه لانشغالهما

بمشـــاكل أخرى متعددة[١١]، على حين أن من سبقهما من الخلفاء العباسين، كان طريق الحج وتأمينه من أهم مشـــاغلهم. ففي سنة (١٣٤هـ/ ٧٥١م) بعد قيام الخلافة العباسية بأقل من سنتين، ضرب أبوالعباس المنار من الكوفـــة إلى مكة[١٢] ووضع الأميال، وكان أمير الحج يدفع الأموال للقبائل القاطنة على طرفي الطريق[١٣]. وفي سنة (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) حين حج أبو مسلم الخراساني مع أبي جعفر المنصور، تسابقا إلى الإحسان إلى القبائل، وإصلاح طريق الحج. فقد كان أبومسلم يصلح العقاب[١٤]، ويكسو الأعراب في كل منزل البتوت والملاحف، ويصل كل من يسأله، ويحفر الآبار ويسهل الطرق[١٥].

وفي سنة (١٦١هـ/ ٧٧٨م) أمر الخليفة المهدي ببناء القصور في مكة، على أن تكون أوسع من القصـــور التي كان الخليفة أبو العباس قد بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كـــان بـــناها عـــلى حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل، وجدد الأميال والبرك، وحفر الركايا[١٦] وبنى المصانع للمياه[١٧].

ويجب أن لا ننسى ما قام به الخليفة هارون الرشيد وزوجه زبيده لإصلاح الطريق إلى مكة، وهو الطريق الذي عـــرف باسم طريق زبيدة[١٨] وقد أدى وقوع بلاد العديد من القبائل العربية على طريق الحج، ودعم العباسيين للأمن في هذا الطريق، والقيام بالإصلاحات فيه، ودعم قبائله مادياً إلى ازدهار لا بأس به في حياة هذه القبائل الاقتصادية[١٩] القاطنة على هذا الطريق.

٢ - مـــن أســـباب ثورات القبائل في عهد الخليفة الواثق بالله، قلة الماء في طريق الحج، وعدم قيام أولي الأمر بمعاقبة المكلفـــين بالاهتمام بالطريق، وتوفير المياه اللازمة. فقد كان الماء قليلاً في خلافة الواثق بالله، حتى إنه أراد الحج سـنة (٢٣١هـــــ/ ٨٤٦م)، فـــلما علم بقلة الماء في الطريق، عاد دون أن يحج[٢٠]. ولم يعاقب المهملين لأمر الطريق. وكان الخلفاء العباسيون الذين حكموا قبله يحاسبون المقصرين. فحين خرج الخليفة المهدي للحج سنة (١٦٤هـ/ ٧٨١م)، وعلم بقلة الماء غضب على يقطين بن موسى الذي كان يلي المصانع وعاقبه[٢١].

ولمـــا ضـــاق المـــاء في خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م)[٢٢] هب لحل المشكلة إذ أمر بجمـــع عيون الدوائر[٢٣]، وأحدث لها ماجلين[٢٤] بالمعلاة تصب فيهما يعرفان باسمه، ثم تسكب بالبركة التي عند باب المسجد الحرام[٢٥].

ومـــع مـــا قـــام به هارون الرشيد، فإن الماء بقي غير كاف، وبلغ ذلك زبيدة فأمرت بعمل بركتها في مكة، وأجـــرت لها عيناً من الحرم ، وأتبعت ذلك بإجراء عيون من الحل، وعملت لها بركاً تجتمع فيها السيول، واشترت حـــائط حـــنين، فأجرت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سداً تجتمع فيه السيول[٢٦] ولم يقتصر اهتمامها على مكة، وأمـــاكن المناســـك، بل اهتمت بطريق الحج، وتوفير الماء فيـــه، والإحسان إلى من يقطنه، ذلك الطريق الذي عرف

باسم طريق زبيدة[٢٧] وهذا ما جعل القبائل القاطنة على طريق الحج، تعيش آمنة هادئة، تحصل على بغيتها دون القيام بثورات.

ولعدم محاسبة الخليفة الواثق بالله للمشرفين على طريق الحج سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م)، ولعدم قيامه باصلاحات واسعة، استمر الماء قليلاً في الطريق، وأصاب الحجاج سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) عطش شديد في أربعة منازل إلى الربذة، فبلغت الشربة عدة دنانير، ومات خلق كثير من العطش[٢٨]. فلما جاء علي بن عيسى إليها، ووجد قلة الماء، وأن أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء إلى مكة، ابتاع عدداً من الجمال والحمير، ووقفها على حمل الماء، وأقام لها العلوفة الراتبة، ومنع السخرة وحظرها، وحفر آباراً في مناطق أخرى، فخرجت مياه عذبة تصلح للشرب، فسماها الجراحية، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار، وفتحها ووسعها حتى كثر ماؤها، واتسع الماء في مكة[٢٩].

٣- غلاء الأسعار بسبب عوامل متعددة، على رأسها العوامل الطبيعية التي تعرضت لها المنطقة، ففي سنة (٢٢٨هـ / ٨٤٣م)، ارتفعت الأسعار بطريق مكة، فبلغ رطل الخبز بدرهم، وراوية ماء بأربعين درهماً بسبب قلة الماء[٣٠] حدث هذا على الرغم من أن الأسعار كانت قبل عصر الخليفة الواثق بالله رخيصة، فقد كان ثمن الكبش درهماً، والحمل بثلثي الدرهم، والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمان أرطال بدرهم[٣١] وهذا يعني أن ثمن راوية الماء في هذه السنة تجاوزت ثمن أربعين كبشاً. وهذا شيء لا يمكن للقبائل أن تتحمله.

٤- لم يعد العرب يملكون القرار السياسي في بلادهم، فقد أصبح الأعاجم هم الذين يعينون الولاة، ويتولون الولايات ويسيرون أمورها. فقد عين وزير الخليفة الواثق بالله "محمد بن عبدالملك الزيات"[٣٢] سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م) إسحاق ابن إبراهيم بن أبي خميصه مولى بني قشير من أهل أضاخ[٣٣] على اليمامة والبحرين وطريق مكة[٣٤]، في الوقت الذي عانى فيه الأعراب من الغلاء، وقلة الماء في طريق الحج، وفي هذا أمرين.

أولها: تعيين مولى ليحكم القبائل العربية، ويفرض أحكامه عليها، إضافة إلى تعيينه على طريق الحج الذي تسكنه قبائل عربية لها قوتها ومكانتها.

ثانيها: إن الذي عقد لإسحاق في دار الخلافة وزير الخليفة، و لم يسبق أن عَقد أحد لوال في دار الخلافة إلا الخليفة، وهذا يدل على غياب دور الخليفة، وأن القرار السياسي أصبح في يد وزرائه والأعاجم.

كما أن أمرة الحج التي كانت حكراً على العباسين[٣٥]، ويعينون من قبل الخليفة مباشرة، أصبح ولاتها يعينون بإشارة من الأعاجم أمثال طاهر بن الحسين[٣٦]، أو أشناس[٣٧]، أو أيتاخ[٣٨]، أو غيرهما. فقد حج العباس بن موسى ابن عيسى بالناس سنة (١٩٧هـ/ ٨١٣م) بتوجيه من طاهر بن الحسين[٣٩]، وحج محمد بن داود بالناس سنة

(٢٢٦هـ/ ٨٤١م) بأمر أشناس الذي أصبح والياً على كل المناطق التي يمر فيها أثناء حجه، ودعي له على جميع المنابر التي مر بها من سامراء إلى مكة والمدينة، وبقي الدعاء له عليها حتى عاد إلى سامراء[٤٠] ولما توفي أشناس سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) صيرت مرتبته وأكثر أعماله إلى ايتاخ التركي[٤١] الذي حج وهو والي مكة والمدينة والموسم، ودعي له على المنابر[٤٢].

وهكذا فإن من أسباب ثورات الأعراب استئثار الأعاجم بالدولة العباسية. فقد أخذ الخلفاء بتعيين ولاة من الأعاجم على مكة والمدينه كما جعلوهم أمراء للموسم والحج. فقد عين المعتصم قائده أشناس والياً على الحجاز، وكانت ولايته ولاية عقد دون مباشرة، أو ما يسمى ولاية اسمية فخرية. لم يكن له منها إلا الدعاء على المنابر. وعين بغا الكبير التركي على أحداث الموسم سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)، كما تولى المنصب نفسه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[٤٣]. وعين الواثق سنة (٢٣٣هـ/ ٨٤٨م) واليًا خاصًا على طريق مكة، هو المولى يحيي بن هرثمة[٤٤]. وكان لذلك أثره في نفس العرب الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بنظرة التفوق على الأعاجم، لأنهم مادة الإسلام، وثار العرب لهذا السبب ولأسباب أخرى على الخليفة الواثق بالله، فأرسل والي المدينة لقتالهم المولى حماد بن جرير الطبري صاحب مسلحة المدينة[٤٥]، ولما انهزم حماد وقتل، أرسل الخليفة لقتالهم مولى آخر هو بغا الكبير، ورأت القبائل العربية في ذلك ذلاً، وأنفت من الخضوع للأعاجم. وقد وضح عرب نمير ذلك، وأعلنوا سبب خروجهم على الخلافة العباسية، بأنهم يرفضون رئاسة العبيد والعلوج عليهم، مخاطبين محمد بن يوسف[٤٦] الذي قدم إليهم ليتوسط بينهم وبين بغا قائد جيوش العباسين، ويدعوهم إلى الطاعة قائلين: "يا محمد بن يوسف: قد والله ولدناك، فما رعيت حرمة الرحم، ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم، والله لنرينك العبر"[٤٧].

وقد أججت هذه العوامل مجتمعة القبائل العربية، وأثارت ضغينتها، ونالت من كرامتها، فعمت ثوراتهم الجزيرة العربية، وخاصة القبائل التي كانت تسكن طريق الحج، وذلك لاثبات عدم مقدرة الخلافة العباسية على حماية الحجاج، وعدم تمكنها من المحافظة على الأمن، فأخذوا بمضايقة الحجاج أثناء مرورهم في طريق الحج، وتطاولوا على الناس حول المدينة، وعاثوا في أسواق الحجاز.

وهكذا تعددت الأسباب التي أدت إلى ثورات القبائل العربية في خلافة الواثق بالله، تلك الثورات التي نشبت حول المدينة وفي طريق مكة، ودامت ثلاث سنوات ما بين سنتي (٢٣٠- ٢٣٢هـ/ ٨٤٥- ٨٤٧م)، على الرغم من أن الخلافة العباسية استعانت بأقوى رجالها وقادتها من الأتراك للقضاء عليها.

بدأت الثورات بقيام بني سليم ومعهم بنو هلال[٤٨] بالتطاول على ما حول المدينة المنورة، وأخذوا بنهب أسواق الحجاز وبيوعها[٤٩]، وعاثوا بالأرض فساداً وأخافوا السبيل[٥٠] وقطعوا الطريق، حتى تخلف الناس عن الحج[٥١]. وقد يكون بنو سليم فعلوا ما فعلوا لتوجيه رسالة إلى الخلفاء العباسيين، تشعرهم بتقصيرهم، وأنهم غير قادرين على حماية

الطرق، وخاصة طريق الحج إلا بمساعدتهم، وبالتالي فعليهم تقديم الأموال إليهم، والعمل على إصلاح الطريق، وتأمين الماء.

ومن أجل ذلك نظم بنو سليم أنفسهم، وجعلوا عزيزة بن قطاب السُّلمي على قيادتهم(٥٢)، وسلموا عليه بالخلافة(٥٣) وبدؤا ثورتهم بالاعتداء على ميناء الجار(٥٤) وأوقعوا بجماعة من كنانة(٥٥) وباهلة(٥٦)، وقتلوا بعضهم وذلك في (جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ/ سبتمبر وأكتوبر ٨٢٥م)، ووجد والي المدينة محمد بن صالح بن العباس الهاشمي نفسه مضطراً إلى الوقوف في وجه بني سليم. فأرسل لقتالهم حماد بن جرير الطبري صاحب مسلحة المدينة بمن معه من الجند وبمن انضم إليه من مطوعة المدينة ومواليهم وسودانهم(٥٧).

كما جمع بنو سليم جموعهم، فجاءهم من البادية عونٌ يقدر بستمئة وخمسين رجلاً يرأسهم " أشهب بن دويكل بن يحيى بن حمير العوفي السلمي، وعمه سلمة بن يحيي وتجمع لهم من الخيل مئة وخمسون فرساً، ثم وصل لبني سليم مدد يقدر بخمسمئة من موضع بدوهم(٥٨).

ونشب القتال بين الطرفين في موضع يقال له الرويثة(٥٩) أثبت فيه بنو سليم قوة وجدارة، أدت إلى انهزام سودان المدينة بالناس، وثبت حماد الطبري ومن معه من قريش والأنصار مدة بسيطة، ثم ما لبثوا أن انهزموا أمام بني سليم ومن ساعدهم من القبائل العربية، أمثال فزارة(٦٠) ومرة(٦١)، وغطفان(٦٢)، وأشجع(٦٣)، وثعلبة(٦٤)، وكلاب(٦٥). فقتل حماد وعامة أصحابه، كما قتل ممن ثبت من قريش والأنصار عدد لابأس به. وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب(٦٦). وهكذا كانت الجولة الأولى لصالح بني سليم.

أدى هذا النصر المؤزر، والمكاسب التي حصل عليها بنو سليم إلى أن يزداد تطاولهم، فعملوا على استباحة القرى والمناهل فيما بين مكة والمدينة،حتى لم يكن أحد يتمكن من أن يسلك ذلك الطريق، وتطرقوا إلى من يليهم من قبائل العرب(٦٧). وقد أراد بنو سليم بذلك أن يقطعوا طريق الحج، وأن يثبتوا بأن الخلافة بجندها من أتراك وغيرهم وقادتهم من الأعاجم غير قادرين على العرب، وليس ذلك غريباً فقد سبقهم إلى ذلك نصر بن شبث العقيلي الذي ثار من سنة (١٩٨- ٢١٠هـ/ ٨١٣- ٨٢٥م) على الخلافة العباسية في شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية، دفاعاً عن العرب، لأن الخليفة المأمون فضل عليهم العجم(٦٨).

لم يهتم الواثق بالله بهذه النفسية العربية الأبية، والأنفة من الخضوع للأعاجم، وتابع طريقه في تسليمهم المناصب القيادية في الجزيرة العربية، فولى قائده بغا الكبير أبا موسى التركي قيادة الجيش المؤلف في غالبيته من الأعاجم، وأعطاه صلاحيات واسعة، وأمره بقتل كل من وجده من الأعراب(٦٩) وذلك -حسب رأيه- لحماية طريق الحج الذي يمر بأراضيهم من العراق وما وراءها من بلاد المسلمين إلى مكة والمدينة(٧٠)، ولتأديبهم لما قاموا به من اعتداءات، وحماية الحجاج منهم(٧١).

وصل بغا في (شعبان سنة ٢٣٠هـ/ أبريل - مايو ٨٤٥م) [٧٢] إلى حرة بني سليم[٧٣]، وعلى مقدمته طرد وش التركي[٧٤] وجرت بين الفريقين معركة بشق الحرة من وراء السوارقية[٧٥] قرية بني سليم وفيها حصونهم[٧٦].

وإذا كان بنو سليم قد جمعوا قواهم لقتال حماد الطبري، فإنهم لم يفعلوا مثل ذلك حين هاجمهم بغا، فقد واجه بني عوف من سليم فقط، وفيهم عزيزة بن قطاب، والأشهب، وقد يكون ذلك بسبب استهانتهم بجيوش العباسيين لما حققوه من نصر على جيش المدينة بقيادة حماد، وشعورهم بتفوقهم على أعدائهم، أو أن بقية بطون سليم اكتفوا بما فعلوه، ولم يكونوا راغبين في قتال الجيوش الواصلة من مركز الخلافة العباسية. وقد ساعد ذلك بغا على الانتصار عليهم، فما أن حدثت المواجهة حتى قتل منهم نحواً من خمسين رجلاً، صلبهم على الشجر[٧٧]، وأسر مثلهم، وانهزم الباقون[٧٨].

أدرك بغا قدرة الأعراب على الكر والفر، وأنه لم يهزمهم جميعاً، بل هزم بطناً[٧٩] من بطونهم، وخشي أن يهاجموه ليثأروا لهزيمتهم، وينتقموا منه، فأخذ يفاوضهم ويدعوهم إلى الأمان على حكم الخليفة الواثق بالله، وأقام بالسوارقية ينتظر ردهم، فجاؤوا إليه متفرقين، فاحتبس عنده من رأى أنه موصوف بالشر والفساد، فكانوا زهاء ألف رجل، وخلى سبيل سائرهم[٨٠]. وحقيقة الأمر أن بغا لم يتمكن من أن يأسر المطلوبين الذين كانوا يؤذون الناس، ويطرقون الطرق، لأنهم تمكنوا من الهرب، وأسر من استطاع أسره من غيرهم.

حاول بنو سليم أن يستعطفوا بغا، طالبين منه الإحسان إليهم، وأن يفعل بهم ما أمر به الخليفة الواثق بالله، فأنشدوه قائلين:

يابُغْيَة الخَيْر وسَيْف المُنتبَهْ	وَجانبَ الجَور البَعيد المُشْتبَه
مَنْ كانَ منا جانياً فَلسْتَ بهْ	افْعَل هَداكَ اللهُ ما أُمرْتَ بهْ[٨١]

فأجابهم بغا قائلاً: "أمرت أن أقتلكم"[٨٢]

كما أنهم حاولوا استعطاف الخليفة طالبين منه أن يعفوَ عنهم. فأنشد أحد بني سليم:

أميرُ المؤمنينَ سما إلينا	سُمُوَّ الّلَيْث ثارَ من الغريف
فإنْ يْمنُن فَعَفْوُ الله نَرْجو	وإن يقتل فقاتلُنا شَريف[٨٣]

ولكن ذلك لم يجدهم، ورحل بغا بالأسارى والمستأمنين إلى المدينة في (ذي القعدة سنة ٢٣٠هـ/ يوليو- أغسطس ٨٤٥م)[٨٤]، فحبسهم فيها، وعاد إلى مكة، فقام بشعائر الحج[٨٥].

بعد أن انتصر بغا على بني سليم، فقتل من قتل، وأسر من أسر، توجه إلى ذات عرق، إلى بني هلال، وعرض عليهم مثل ماعرضه على بني سليم، فأقبلوا إليه طائعين، لأنهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على قتاله، فأخذ منهم

ثلاثمئة رجل، ممن اعتقد أهم مردة وعتاة بني هلال، وخلى سبيل الباقي، وحملهم معه إلى المدينة المنورة، حيث سجنهم مع بني سليم[٨٦]. وهكذا أصبح عدد مساجين القبيلتين ألفًا وثلاثمئة سجين.

بعد أن انتقم بغا، وأدب كلاً من بني سليم وهلال، توجه لتأديب كل من بني مرة وفزارة الذين اقموا بالوقوف إلى جانب بني سليم، وترك السجناء في المدينة المنورة، الذين أعطوا البواب المكلف بحراستهم رشوة قدرها ألف دينار ليفتح لهم باب السجن. ففعل وقد أكدوا ذلك بالشعر الذي أنشدوه، فقال قائلهم:

المَوْتُ خيرٌ للفَتى من العار قد أخَذَ البّواب ألْف دينار[٨٧].

وهناك رواية أخرى تذكر بأن السجناء من سليم وهلال نقبوا جدار الدار التي سجنوا بها ووثبوا على الموكلين بهم، فقتلوا منهم رجلاً أو رجلين، وخرجوا من السجن، فأخذوا سلاح الموكلين بحراستهم، ولكن أهالي المدينة تنبهوا إلى ما فعلوه، فاجتمعوا أحراراً وسوداناً وعبيداً لقتالهم، فحاصروهم حول الدار وقتلوهم جميعاً على الرغم من البطولة التي أبدوها[٨٨]. وأظهر زعيمهم عزيزة ابن القطاب بطولة، وأخذ يرتجز الشعر قائلاً:

لابُدَّ من زَحْم وإنْ ضاقَ الباب إنّي أنا عُزَيَزة بن القطّاب

للمَوْتُ خيرُ للفتَى من العذاب هذا وَرَبيّ عَمَلُ الُبواب[٨٩]

وعلى الرغم من حصار أهالي المدينة للسجناء من القبائل، إلا أن بعضهم تمكن من الفرار إلى بعض أزقة المدينة، فلاحقهم سودان المدينة وقتلوهم[٩٠]، وقيل بأن عزيزة بن قطاب كان من بين الناجين بأنفسهم، ولما شاهد قتل أصحابه صار إلى بئر، فدخلها، ولكن أحد رجال المدينة تمكن من الوصول إليه وقتله[٩١].

ومع اختلاف الروايات حول طريقة خروج سجناء كل من بني سليم وهلال من السجن، فالمرجح أنهم أغروا السبواب ورشوه فأخرجهم. إذ لا يمكن للمقيدين أن يخرجوا ويقتلوا البوابين،وشاهد الشعر أكبر دليل على طريقة خروجهم من السجن.

وهكذا فقد شهدت المدينة المنورة مجزرة حقيقية، قتل فيها ما يزيد عن ألف وثلثمئة رجل من العرب في غياب بغا، الذي كان قد توجه لقتال فزارة ومرّة، متهماً إياهم بالتغلب على فدك[٩٢]. وقبل البدء بالقتال أرسل إليهم أحد رجاله يدعوهم إلى الأمان، ويأتيه بأخبارهم، ويتجسس عليهم من جهة أخرى. وقام الرسول بتحذيرهم من سطوة بغا، وزين لهم الهرب، فهربوا ودخلوا في البراري تاركين فدك. واستأمن بعضهم، وهرب الباقون مع أحد رجالهم المعروف بالركاض إلى موضع البلقاء من بلاد الشام، وأسر بغا من استطاع أسره منهم، وعاد بهم إلى المدينة[٩٣].

تمكن بغا بما فعله من تهديد ووعيد وتجسس من تمزيق قبيلتي مرة وفزارة في مناطق شتى، فمنهم من توجه باتجاه الشام، ومنهم من دخل في البراري،هذا إضافة إلى من أسر منهم. وقد ساعد نجاح بغا على سهولة إخضاع قبائل

غطفان، وأشجع، وثعلبة، وغفار[٩٤]، إذ أرسل إليهم رسولاً ليصيروا إليه ففعلوا، وتركهم بعد أن استحلفهم، على أن لايتخلفوا عنه متى دعاهم للحضور إليه فحلفوا له[٩٥]، وبذلك نجوا بأنفسهم من مجرزة مثل التي حلت ببني سليم وهلال، وتفرقوا في البلاد، و لم يعودوا إليه حين طلبهم -بعد ذلك- خشية أن يبطش بهم[٩٦].

خضع أعراب الجزيرة لقوة وسطوة بغا، إما سلماً ، وإما حرباً، وبقي بنو كلاب، فسار بغا إلى مركزهم ضرية[٩٧] لطلبهم، فاجتمع إليه منهم نحو ثلاثة آلاف رجل، فاحتبس منهم حوالي ألف وثلاثمئة، ادعى أنهم من أهل الفساد، وأطلق الباقي، وقدم بمن سجنهم إلى المدينة في شهر رمضان سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م)، حيث أودعهم السجن[٩٨]. وبقي الكلابيون في سجن بغا، دون أن يلتفت أحد إلى شؤونهم حتى نقلوا إلى سامراء[٩٩].

حين حقق بغا الكبير انتصاراته على القبائل العربية القاطنة على طريق الحج، وفي جوار المدينتين المقدستين، توجه إلى اليمامة إلى بني نمير، متهماً إياهم بأنهم عاثوا فساداً في الأرض، وأغاروا على اليمامة وما قرب منها[١٠٠].

هذا وقد قيل بأن الخليفة الواثق بالله لم يكن يعلم بما كان يجري من بني نمير في اليمامة. وأن الذي أعلمه بذلك الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى[١٠١]، الذي حضر إلى الخليفة الواثق بالله، مادحاً له، وحصل على جائزة قدرها ثلاثون ألف درهم، فتباسط مع الخليفة وأعلمه بما كان يفعله بنو نمير[١٠٢].

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على عدم معرفة الخليفة بما يجرى في أرجاء دولته عن طريق موظفية وعيونه من رجال البريد وغيرهم،وأن موظفيه كانوا يخفون عنه الأخبار ليبقوا في مناصبهم، ولو لم يحضر الشاعر عمارة بن عقيل، لما علم بما يجرى في بلاده. وهذا يدل على إهمال الواثق لشؤون الجزيرة العربية، وأن ولاته لم يكونوا أكفاء لحكم المنطقة[١٠٣]. علي حين أن من سبقه من الخلفاء العباسين، أمثال الخليفة المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٥م) كانوا يعلمون بكل ما يجرى في بلادهم الواسعة. فكان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إليهم كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم، وبسعر كل مأكول، وبكل مايقضى به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد إلى بيت المال، فإن وجد خللاً أصلحه بشكل سريع حتى لاتنشب الفتن[١٠٤].

صدّق الخليفة الواثق بالله الخبر الذي نقله إليه الشاعر عمارة، ودون أن يتحرى الأمر عن طريق عيونه، أرسل إلى قائده بغا الذي كان مازال مقيماً في الحجاز[١٠٥]، يطلب منه سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦- ٨٤٧م) المسير لقتال بني نمير، فاتخذ محمد بن يوسف دليلاً له ليرشده إلى الطريق، فلقي جماعة من بني نمير في مكان يقال له الشُّريف[١٠٦]، فقتل منهم ما يزيد عن خمسين رجلاً، وأسر نحواً من أربعين، ثم سار إلى حظيان[١٠٧]، ومنها على قرية لبني تميم تدعى مرات فترل بها[١٠٨].

بدأ بغا الكبير -بعد أن أظهر قوته أمام المجموعة النميرية التي واجهها- بمراسلة بني نمير عارضاً عليهم الأمان، ودعاهم إلى السمع والطاعة، ولكنهم رفضوا ذلك، وقد يكونوا فعلوا ذلك حمية وأنفه،أو أنهم رأوا ما حدث لبقية

الأعــراب حــين نزلوا على حكمه، فامتنعوا عليه وشتموا رسله. ووصل بهم الأمر إلى قتل أحد رسله، وأثخنوا الثاني بالجراح[١٠٩].

أمام هذا التصرف من قبل بني نمير، لم يكن أمام بغا، إلا أن يبدأ بقتالهم، فتوجه في (أول صفر سنة ٢٣٢هـ/ ٢٧ سـبتمبر ٨٤٦م) إلى بطن نخل[١١٠]، ومنها إلى نخيلة، فتحصن بنو نمير بجبال السّوْد[١١١]. ولما أدرك أنه لايستطيع الصعود إليهم، أرسل طالباً منهم القدوم إليه فأبوا ذلك. فلم يكن من بغا إلا أن أرسل السرايا لقتالهم، فأصابوا بعض بني نمير، وأسروا البعض الآخر. وقد جرأه هذا النصر الجزئي على الإقدام لقتال بني نمير بألف رجل، فجمعوا وحشدوا لحـــربه ثلاثـــة آلاف في مكـــان يقال له روضة الأبان، وبطن السر[١١٢]، فتمكن بنو نمير من هزيمة مقدمته، وكشفوا ميسرته، وقتلوا من أصحابه نحواً من مئة وعشرين، وقيل مئة وثلاثين، وعقروا من إبل عسكره نحواً من سبعمئة بعير، ومئة دابة، وانتهبوا الأثقال وبعض الأموال، ثم أدركهم الليل وتوقف القتال[١١٣].

وهكـــذا فإن بغا الذي كان يمثل الخلافة العباسية، ويقاتل بجيوشها المسلحة بأفضل تسليح في عصره، انهزم أمام بـــني نمـــير، وخسر العديد من رجاله وأمواله وكراعه، فلم يعد أمامه إلا دعوتهم إلى الرجوع إلى طاعة الخليفة ثانية، وكـــان رســـوله إليهم، دليله محمد بن يوسف الجعفري، ولكن بني نمير رفضوا وساطته، قائلين له: "... جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم، والله لنرينك العبر"[١١٤].

ولمـــا رفـــض بنو نمير الانصياع إلى الوساطة، اتخذ بغا قراراً بمهاجمتهم، واقترح عليه دليله محمد بن يوسف أن يباغـــتهم في العتمة قبل الصبح، لئلا يكتشفوا قلة من معه فيطمعوا به، ولكن بغا خشي من المغامرة، وحدث ما كان يـــتوقعه محمد بن يوسف، إذا ما أن رأى بنو نمير قلة عدد من مع بغا، حتى عبؤوا أنفسهم ونظموا صفوفهم، فجعلوا رجالـــتهم أمـــامهم، وفرســـانهم مـــن خلفهم، ونعمهم ومواشيهم في المؤخرة، وهاجموا بغا، وحملوا عليه حتى بلغوا معسكره، وهزموه شر هزيمة حتى أيقن بالهلاك[١١٥] وظهر له أن حدس محمد بن يوسف كان صحيحاً.

بهذا النصر الثاني الذي أحرزه بنو نمير على جيش الخلافة العباسية، أشرف بغا وجيوشه على الهلاك، وأدرك أنه مهـــزوم إن لم يستخدم معهم الحيلة والدهاء. فأخذ يستعلم ويتحرى أخبارهم، ويرسل بعض سراياه لمناوشتهم. وعلم عـــن طريق رجاله بمكان تجمعهم، فوجه إليهم ليلاً مئتين من فرسانه لأخذهم على حين غرّة. فما أن شعر فرسان بني نمـــير بهـــذا الهجـــوم المباغـــت، حـــتى فرّوا ناجين بأنفسهم، وبقي الرجالة الذين وقعوا في يد جند بغا، فقتلوا عن آخرهم[١١٦]، وذلك في (١٣ جمادى الآخرة سنة ٢٣٢هـــ/ ٥ فبراير سنة ٨٤٧م) [١١٧].

وقـــد أورد بعض المؤرخين روايات أخرى حول المعركة، ملخصها أن بني نمير أوقعوا بجيش بغا هزيمة ثالثـــة، وفـــر أصـــحابه عنه، وأخذ بنو نمير بنهب المتاع، وتشاغلوا بالنهب وعقر الإبل والدواب، فاستغل بغا الفرصة، وجمع قواتـــه، ومـــن تفرق من جنده ونظمهم وكرّ بهم على بني نمير المشغولين بمكاسبهم المادية، فتمكن من هزيمتهم، وقتل

منهم زهاء ألف وخمسمئة رجل، واستولى على موضع الماء المعـــروف ببطن السر، واستـــراح هو ورجاله ثلاثة أيام بعد ذلك[١١٨]. وأيّ كان الذي حدث، وسواء أكان انتصار بني نمير على بغا في جولتين، أم في ثلاث جـــولات، فإن النصر النهائي كان لجيوش الخلافة العباسية بقيادة بغا، وانهزم بنو نمير.

كانـــت هـــذه المعركة فاصلة، إذ أن الذين نجوا منها من بني نمير، أخذوا يطلبون الأمان، وخاصة حين علموا بوصـــول نجـــدات إلى بغا، قدرها سبعمئة رجل، بقيادة واجن الأشروسني الصغدي، فأعطاهم بغا الأمان وأسرهم، وعمل بعد ذلك على ملاحقة الفارين، فلم يدرك منهم إلا الضعيف، وبعض المواشي والنعم، وقد أشار الشاعر عمارة ابـــن عقيل إلى أن بغا لم يقتل ويأسر من بني نمير إلا الضعاف، وأنه لم يصطدم في قتاله معهم مع كل من بني عامر من نمير أصحاب النخل والشاء، ولا بني عبدالله بن نمير الذين يهاجمون المدن، وهما من أقوى بطون بني نمير، فقال:

تَرَكْتَ الأعَقَفيْـــن وبَطَنَ قَـــوّ وَمَلأْتَ السَّجون مـــنَ القمـــاش[١١٩].

عمل واجن الأشروسني مع رجاله على تتبع بني نمير، والتوغل في بلادهم، وقد وصل إلى تبالة ، ومع ذلك فإنه لم يـــتمكن إلا من قتل عدد قليل منهم، وجاء عدد من ساداقم يطلبون الأمان لأنفسهم ولمن ينتمي إليهم، فقبل بغا ذلك منهم، وأخذ زهاء ثمانمئة رجل منهم أسرى، فأثقلهم بالحديد، وحملهم إلى البصرة في (ذي العقدة سنة ٢٣٢هـــ/ يونية ويولية ٨٤٧م)[١٢٠].

ويذكـــر ابـــن كثير[١٢١] بأن بغا الكبير بعد أن هزم بني نمير قاتل بني تميم[١٢٢]، وكانوا في ثلاثة آلاف، وجرت بين بغا وبينهم حروب كثيرة، ثم كان الظفر له عليهم أخيراً، وذلك في النصف من (جمادى الآخرة سنة ٢٣٢هـــ/ ٧ فبراير ٨٤٧م)، و لم تذكر المصادر عدد من قتل منهم، ولا عدد من أسر.

حاول سجناء بني نمير الشغب وكسر قيودهم أثناء نقلهم إلى سامراء، فعاقبهم بغا بالضرب المبرح، فكان يحضر الواحد منهم يضربه ما بين الأربعمئة إلى الخمسمئة، دون أن يظهر أحدهم التوجع، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا من الضـــعاف. وكان بغا قبل أن ينطلق بالسجناء إلى العراق، قد كتب إلى محمد بن صالح العباسي أمير المدينة بالمسير بمن قبله من أسرى بني كلاب وفزارة ومرّة وثعلبة وغيرهم، فوافاه وبرفقته الأسرى في بغداد، وصاروا جميعاً في (المحرم من سنة ٢٣٣هـــ/ أغسطس ٨٤٧م) إلى سامراء، فوصل منهم حوالي ألفين ومئتي أسير، عدا من قتل منهم ويزيدون على ألفي رجل[١٢٣]، إضافة إلى من فر هارباً ناجياً بنفسه[١٢٤].

وهكذا فقد نجح بغا في القضاء على ثورات الأعراب في خلافة الواثق بالله، إلا أنه لم يستطع القضاء على جذوة غضـــبهم، ولا على أسباب ثوراتهم، ولذلك فإن الثورات تكررت بعد فترة قصيرة وكانت تنشب بين الحين والآخر، مـــن ذلـــك ثـــورة بـــني عقيل سنة (٢٥١هـــ / ٨٦٥م) الذين قطعوا طريق جدة، فحاربهم قادة العباسيـــن[١٢٥]، وتكـــررت الثورات فـــي السنوات (٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١هـــ/ ٨٧٩، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٤م) وغيرها[١٢٦].

الخاتمة:

ومــن المهم أن نذكر هنا أن القوة لا تكفي وحدها في ضبط الأعراب، وتوجيههم الوجهة التي تريدها القيادة السياسية، وأن الجيوش النظامية وحدها لا تستطيع أن تتعقب فلول الأعراب التي تتراجع بسرعة إلى البادية، سرعة لا تــبلغها عادة الجيوش النظامية، ذلك لأن البادية حصن الأعراب الحصين، وأن الجيوش النظامية متى توغلت في البادية، فــإن احتمالات اندحارها واندثارها تزيد على احتمالات الانتصار، فالأعرابي أخبر بالبادية من جيوش الخلافة. ومن الخــير للقــيادة السياسية وجيوشها استرضاء الأعراب، بالاتفاق مع سادات القبائل الأقوياء، وعلى دفع هبات مالية ســنوية ترضــيهم في مقــابل ضبط الحدود، وحماية الطرق والقوافل التجارية والدينية من المخاطر والغارات، وتقديم الخدمــات الضرورية للجيوش كالجمال وغيرها لحمل الجنود والأثقال، وباختصار تقديم كل ما يحتاج إليه الجيش في عبوره للبوادي، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون قبل خلافة الواثق بالله.

ومــن المهم أن نذكر هنا، أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة الأعراب أمام جيوش الخليفة العباسي الواثق بالله، التي تتلخص فيما يلي:

١- عدم تكتل القبائل العربية حين واجهتها الجيوش العباسية، مما جعل بغا قائد هذه الجيوش، يقاتل كل قبيلة على حــدة، فينتصر عليها، ويقتل ويأسر أفرادها، ويشتت شملها، ثم ينتقل إلى قتال القبيلة الثانية، وهكذا حتى قضى عــلى ثوراتهم، لا بل إنّ بعض بطون القبيلة الواحدة كانت تقاتل دون البطون الأخرى، مما أدى إلى انهزامها، ولو قاتلوه يداً واحدة، وثاروا في وجهه ثورة رجل واحد لاستطاعوا الانتصار، ولفرضوا عليه شروطهم.

٢- لم يكــن لهذه القبائل جميعاً أهداف بعيدة من هذه الثورات، و لم يقدموا مطالب واضحة، كما أنهم لم يتمكنوا من استغلال ثوراتهم، علماً بأنه كان لهم من وراء هذه الثورات أهدافهم المشروعة.

٣- استخدام الخليفة وقادته وجنده من الأعاجم، كل ما ملكوه من قوة وسلاح للقضاء على هذا الثورات.

٤- الخــلاف بــين القبائل العربية التي تعيش في أطراف المدن، وبين السكان المستقرين في المدن — الذين عانوا من هجمــات الأعراب على ممتلكاتهم — فعملوا على مساعدة ودعم جيوش الخلافة ضد هؤلاء الأعراب لتأديبهم، وإبعاد شرهم وهجماتهم عن المدن.

٥- شــعور القبائل العربية بأنهم لن يتمكنوا من مقاومة جيوش الخلافة العباسية طويلاً، لأن هذه الجيوش تقاتل عن السلطة الشرعية للخلافة التي تدعمها بكل ما تستطيع، على حين أن القبائل كانوا ثائرين على السلطة الشرعية، ولن يجدوا من يدعمهم في وجهها.

هذا عن أسباب هزيمة القبائل، أما عن الأسباب التي أدت إلى طول مدة القضاء على هذه الثورات التي تجاوزت ثلاث سنوات، فتعود إلى ما يلي: -

١ - تعدد القبائل التي قاتلتها جيوش الخلافة العباسية، إذ شمل القتال معظم القبائل العربية القاطنة في ضواحي المدينتين المقدستين، وعلى طريق الحاج بكامله، إضافة إلى القبائل القاطنة في اليمامة وأطراف نجد.

٢ - تصميم القبائل العربية على الاستمرار بالقتال، لشعورهم بحقوقهم على الخلافة العباسية، وأن هذه الحقـوق قد أهدرت، ولذلك فإنهم قاتلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٣ - وجـود مـناطق تملكها القبائل العربية الثائرة، يصعب على الجيوش النظامية اجتيازها، فقد كانت المناطق التي تسـيطر عليها قبيلة بني سليم حصينه حصانة طبيعية، فهم على حرة من جهة، وفي قلب جبال عالية، يصعب اقـتحامها، فحـرة بـني سليم مسنونة لا تدع للخيل والإبل مجالاً إلى اقتحامها، وكذلك لا يستطيع مشـاة المقاتلين ولوجها، فهي سور طبيعي حصين لمن تحصن بها.

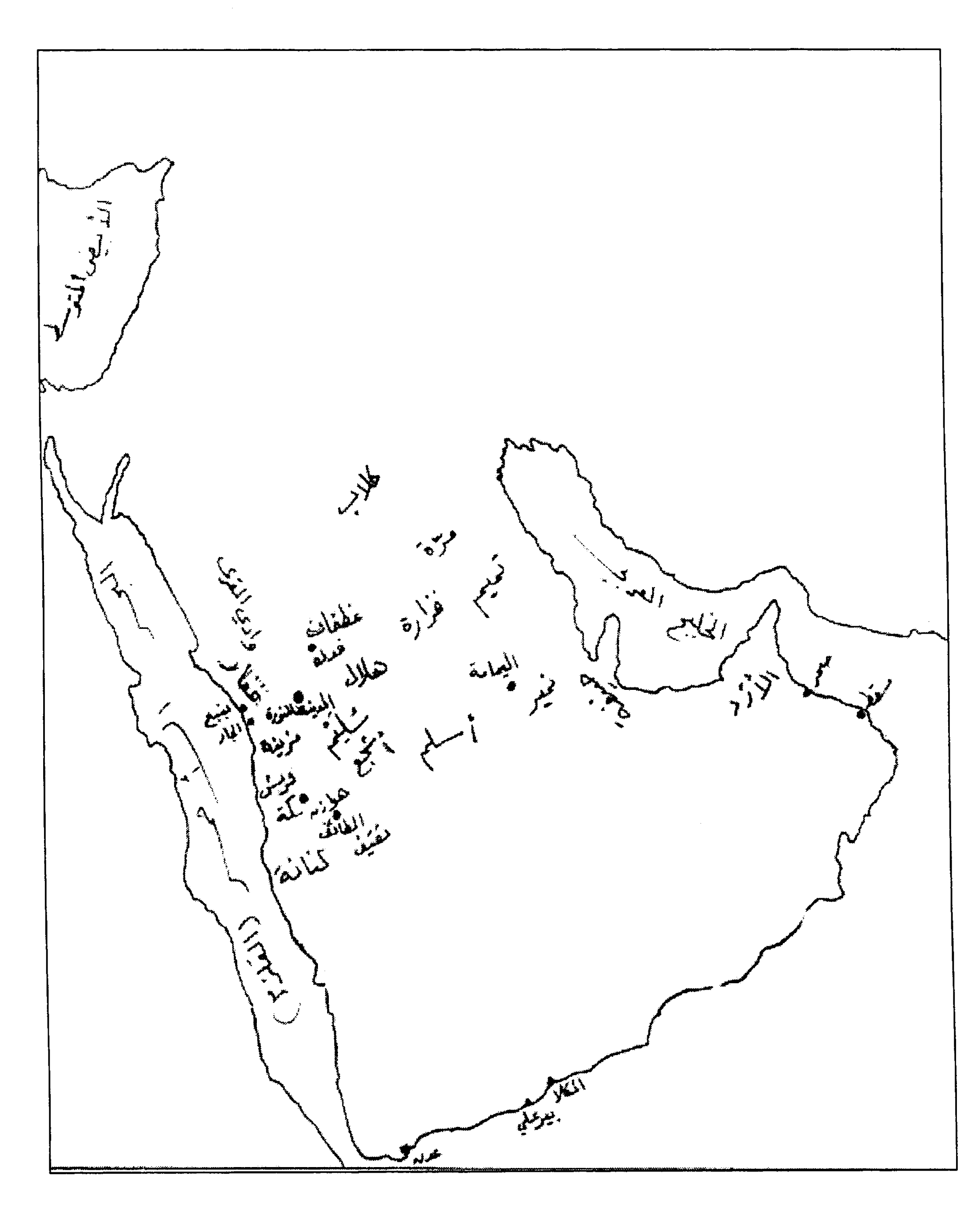
هذا وقد نتج عن هذه الثورات عدة نتائج:

١ - من أولى نتائج ثورات الأعراب، أن الخليفة العباسي الواثق بالله وجيوشه من الأعاجم، تمكنوا من القضـاء على هـذه الـثورات قضاء مؤقتاً، إلا أنهم لم يقضوا على مسبباتها. و لم يحاول الخليفة الواثق التعمق في أسباب هذه الثورات الحقيقية والقضاء عليها.

٢ - نتج عن القضاء على هذه الثورات بالقوة المسلحة، تشتت هذه القبائل، وتركها لأماكن سكناها. فقـد فر بنو مـرة وفزارة إلى البلقاء، وفر قسم منهم إلى البراري، وفر فرسان بني نمير، وتركوا مناطق استقرارهم، وتابعهم واجن الأشروسني إلى تبالة. وكذلك تفرقت قبائل غطفان، وأشجع، وثعلبة، وغفار، فارين ناجين بأنفسهم.

٣ - قـتل نتيجة للقضاء على ثورات الأعراب بالقوة العسكرية عدد كبير من أفراد القبائل العربية، وأسر عدد آخر. ومع ذلك فإن الثورات لم تتوقف إلا فترة وجيزة لعدم القضاء على أسبابها.

و لابد من القول أخيراً بأن الاحتفاظ بود القبائل البدوية، أمر يحتاج إلى حنكة ومهارة ودراية بنوازع نفوسهم الحساسـة، وأنفتهم التي قد تثيرها أمور بسيطة، فتسبب أحقاداً وحروباً تتفانى القبائل فيها. و لم يكن المال وحده، أو القـوة العسـكرية أو الحلـف في ذاته، تكفي للحفاظ على حسن الصلات مع هذه القبائل البدوية. وإنما السياسة الحكيمة، وحسن اختيار الولاة وعدم جعل من يحكمهم أقل منهم مكانة، لأنهم لن يستكينوا له، ولن يطيعوه.



مواقع القبائل التي ثارت في خلافة الواثق بالله

التعليقات

(١) عـــن الواثق بالله. أنظر المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محـيي الدين عبدالحميد، ط١(بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٦م)، ٤: ٦٦- ٨٤؛ الخطيب البغدادي، الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)، *تاريخ بغداد أو مدينة السلام*، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية د. ت)، ١٤: ١٦-٢٠؛ الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، *تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والإعلام*، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، حوادث ووفيات، ٢٣١-٢٤٠هـ)، ٣٧٩- ٣٨٦.

(٢) بنو سُلَيم: من القبائل العدنانية من قيس عيلان، جدهم سليم بن منصور، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار، كانت هذه القبيلة تتمتع بالمنعة والقوة لكثرة عدد أفرادها، وحصانة مواقعها الطبيعية، فمنازلها تقع في شمال مكة المكرمة إلى الجنوب الشرقي من المدينة، عـلى طـول حدود نجد والحجاز. من واحاها الربذة، وفران، ومعدن البرم، وصفينة، وسوارقية وغيرها. انظر عنهم ابن حزم الأندلسـي، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ): *جمهرة أنساب العرب*، (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ٢٦١-٢٦٤؛ عـلي، جواد: *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م)، ٤: ٥١٨-٥٢٠؛ الأنصـاري، عبدالقدوس: *بين التاريخ والآثار*، (جدة: مطابع الروضة، ١٣٩٧هـ) ٤٥- ٤٨؛ *دائرة المعارف الإسلامية*، ترجمة محمد ثابت الفندي ورفاقه (بيروت: دار المعرفة)، مجلد١٢، ١٤٤؛ وانظر الخريطة المرافقة.

(٣) بـنو هلال: من القبائل العدنانية، ينتسبون إلى عامر بن صعصعة بن معاوية. مساكنهم في الحجاز و نجد حول مكة، أقاموا بعد هجرتهم في الشام إلى أن ظعنوا إلى مصر والمغرب. انظر عنهم: ابن حزم: المصدر السابق، ٢٧٣- ٢٧٥، ٨٤٢؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ)، *نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (القاهرة : د. ط، ١٩٥٩م)، ٤٣٧؛ *وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (القاهرة : دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣م)، ١١٧-١١٨؛ كحالـة، عمـر رضا، *معجم القبائل القديمة والحديثة*، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م)، ٢: ١٢٢١؛ وانظر الخريطة المرافقة.

(٤) انظر فيما بعد:

(٥) بنو نمير: من القبائل العدنانية، ينتسبون إلى عامر بن صعصعة بن معاوية. مساكنهم في منطقة نجد واليمامة، وكانت لهم كثرة في الجاهلية والإسلام. من ديارهم وقراهم قرماء (ضرَمَا)، و أضاخ، وملهم. ومن مياههم الشريف، النشناش. دخلوا الجزيرة الفراتية وكـانوا فـيها كالرعايا لبني حمدان. انظر فيما بعد، وانظر الخريطة المرافقة، وابن حزم: المصدر السابق، ٢٧٩، ٢٨١- ٢٨٤؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤٣٣؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ١١٩٥؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤، ٥١١.

(٦) انظر عن هذه الثورة فيما بعد.

(٧) نشـبت ثـورة الأعـراب في اليمامة سنة (١٦٦هـ) في عهد الخليفة المهدي، إذ أفسد العرب في بادية البصرة وما بين اليمامة والبحرين، وقطعوا الطريق، وانتهكوا المحارم. انظر ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ)، *الكامل في ا لتاريخ*، راجعه و صححه محمد يوسف الدقاق، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ٦: ٧٧.

(٨) انظر فيما بعد.

(٩) دائرة المعارف الإسلامية، ١٢: ١٤٥.

(١٠) انضـم إلى محمـد النفس الزكية في ثورته على الخليفة المنصور سنة (١٤٥هـ) عدد من القبائل العربية، منها جهينة، و مزينة، وسـليم، وبكر، وأسلم، وغفار. انظر الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الطبري أو تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م)، ٧: ٥٨١.

(١١) كان للخلاف بين الأمين والمأمون، و من ثم للثورات التي نشبت بعده الأثر الكبير لانشغال الخلفاء.

(١٢) الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت في القرن العاشر)، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج، و طريق مكة المعظمة*، ط١ (الرياض: دار اليمامة، ١٤٠٣هـ)، ٢٠٩. المنار: العلم يجعل للاهتداء في الطريق.

(١٣) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٤٦٥.

(١٤) العقاب، مسيل الماء إلى الحوض. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقب.

(١٥) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٤٨٠؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد ومصطفى عبدالقادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ٨: ٤. والبتوت: الثياب الغليظة.

(١٦) الركايا، الآبار ذات الماء، و مفردها ركية. انظر ابن منظور، *لسان العرب*، مادة ركا.

(١٧) الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٣٦؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق: محمد جابر عبدالعال الحيني (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٤م)، ٢٢: ١١٣.

(١٨) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، *درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة ا لمكرمة*، دراسة تاريخية حضارية أثرية، ط١ (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٤هـ)، ٦٧- ٦٩.

(١٩) الأنصاري، المرجع السابق، ٥٢.

(٢٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٠.

(٢١) الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٥٠؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ٨: ٢٧١؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ١١٥.

(٢٢) ارتفع سعر الماء في خلافة هارون الرشيد، حتى كان ثمن الراوية في موسم الحج عشرين درهما أو أكثر، وفي سائر السنة نصف دينار وثلث دينار (أي ما يساوي سبعة دراهم).

(٢٣) عيون الدوائر، هي عيون معاوية بن أبي سفيان عملت و جمعت في عين واحدة، سميت الرشا. الفاكهي، محمد بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري)، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، دراسة وتحقيق: عبدالملك بن دهيش، ط٢ (بيروت: دار خضر، ١٩٩٤م)، ٣: ١٥٢.

(٢٤) الماجل، خزان الماء.

(٢٥) الفاكهي، المصدر السابق، ٣: ١٥٢.

(٢٦) الفاكهي، المصدر نفسه، ٣: ١٥٢- ١٥٣.

(٢٧) انظر عن طريق الحج، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ)، *كتاب البلدان* (طبع ليدن، ١٨٩١م)، ٣١١؛ الراشد، سعد، *برك المياه على طريق الحج من العراق إلى مكة*، مجلة الأطلال، العدد الثالث (١٣٩٩هـ) ٦٦.

(٢٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٥٠.

(٢٩) علي بن عيسى هو أبو الحسن البغدادي (ت ٣٣٤هـ)، نشأ في بيت علم وأدب، وتربى تربية إسلامية صحيحة، فكان متديناً متعبداً، وله عدد من المؤلفات في التفسير والسياسة والرسائل وغيرها. خدم الخلافة العباسية قرابة سبعين عاما، تولى الوزارة والدواوين والولايات في عهد عدد من الخلفاء العباسيين. انظر. الصابئ، أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ)، *الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء*، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م)، ٣١١؛ الزهراني، ضيف الله يحيى، *الوزير العباسي علي بن عيسى بن داود بن الجراح* (مكة: جامعة أم القرى، ١٩٩٤م)، ١٢-٢١، ٨٦.

(٣٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٤؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٢٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٧٧؛ الفاسي، أبو ا لطيب تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ)، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م)، ٢: ٣٤٤- ٣٤٥؛ ابن كثير، الحافظ أبو ا لفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ)، *البداية والنهاية*، ط٨ (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٩٠م)، ١٠: ٢٩٩.

(٣١) ابن الجوزي، المصدر السابق، ٧: ٣٤٨؛ ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ)، *معجم البلدان*، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٤هـ)، ١: ٤٥٩؛ بيطار، أمينة، *دراسات في تاريخ الخلافة العباسية (١٣٢- ٢٣٢هـ/ ٧٥٠- ٨٤٧م)*، ط٢ (الرياض: دار القلم والكتاب، ١٤٢٠هـ)، ٣٢٣.

(٣٢) هو محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر، المعروف بابن الزيات (ت ٢٣٣هـ)، وزير المعتصم والواثق. كان عالماً باللغة والأدب. نكبه وعذبه الخليفة المتوكل،إلى أن مات ببغداد. انظر ابن خلكا، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* (القاهرة: ١٣١٠هـ)، ٢: ٥٤.

(٣٣) أضاخ بالضم من قرى اليمامة، وهي لبني نمير، من أعمال المدينة، بينها وبين أضاخ ليلة، وهي سوق وبها بناء وجماعة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٣؛ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، *المغانم المطابة في معالم طابة*، قسم المواضيع، تحقيق: حمد الجاسر، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والنشر، ١٣٨٩هـ)، ٢١هامش ٢٢؛ السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ)، *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٥٥م) ٣: ١٠٩٤.

(٣٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م) ٢: ٤٨٠؛ الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٠.

(٣٥) كان أمراء الحج من العباسيين بنسبة (٩٨٪) ومن قريش (٢٪) وذلك في فترة البحث. وقد حصلت على هذه النسبة من حصر أمرا ء الحج و معرفة نسبهم.

(٣٦) طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي بالولاء ذو اليمينين (ت ٢٠٧هـ)، من كبار قادة الخليفة المأمون، أديب وحكيم وشجاع. تولى شرطة بغداد، ثم تولى الموصل والجزيرة والشام ومصر، وخراسان فأسس بذلك الدولة الطاهرية. انظر عنه الطبري، المصدر السابق، ٨: ٥٩٣-٥٩٦؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٠: ١٦٥- ١٦٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٢٦٠.

(٣٧) أشناس، أحد كبار قادة المعتصم (ت ٢٣٠هـ)، تركي الأصل، ولاه الخليفة المعتصم بالله سنة (٢٢٦هـ)، و دعي له على منابر الحرمين وغيرهما من البلاد التي اجتاز بها. ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٤؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢.

(٣٨) ايتاخ، أحد قادة الواثق بالله من الأتراك. تولى المدينة المنورة والموسم حتى سنة (٢٣٤هـ)، أصبح ذا قوة وبأس في الخلافة العباسية، قتل بعد عودته من الحج سنة (٢٣٤هـ). انظر اليعقوبي، تاريخ، ٢: ٤٨١؛ الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠.

(٣٩) الطبري، المصدر السابق، ٨: ٤٣٨ ؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٠: ٢٧-٢٨، ٣٩.

(٤٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١١٤- ١١٥؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٠: ١١٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٧٧؛ ابن كثير، ا لمصدر السابق، ١٠: ٢٩٩؛ الطبري المكي، الجمال محمد بن علي بن فضل (ت ١١٧٣هـ)، *تاريخ مكة، اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن*، تحقيق: محسن محمد حسن سليم (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، د. ت)، ١: ٨٠-٨١.

(٤١) اليعقوبي، تاريخه، ٢: ٤٨١.

(٤٢) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٥٠.

(٤٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٤.

(٤٤) الفاكهي، المصدر السابق، ٣: ١٠٩٤.

(٤٥) انظر عن حماد بن جرير الطبري فيما بعد، وانظر الطبري، ا لمصدر السابق، ٩: ١٢٤- ١٢٩.

(٤٦) انظر عن محمد بن يوسف فيما بعد.

(٤٧) انظر فيما بعد، وانظر الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧.

(٤٨) عن بني هلال، انظر فيما بعد.

(٤٩) دائر المعارف الإسلامية، ١٢: ١٤٥.

(٥٠) ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢؛ ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٨هـ)، *تاريخ ابن خلدون، المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، مجلد٣، ٣٣٢.

(٥١) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٤٨٠؛ الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ١٠: ٨١.

(٥٢) هو عُزَيْزة بن قطاب اللبيدي من بني لبيد بن سُلَيْم. انظر الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠.

(٥٣) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٤٨٠؛ الأنصاري، المرجع السابق، ٥٠.

(٥٤) الجار، ميناء المدينة المندثر، بقرب ماء بدر. الأنصاري، المرجع السابق، ٥٠.

(٥٥) كنانة قبيلة عدنانية، وهم كنانة بن خزيمة بن مدركة، كانت منازلهم في أطراف مكة بين هذيل و أسد بن خزيمة. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ١١، ٧٠، ١٨٠، ٢٠٦، ٤٦٥؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٤٧٨، ٥٣٢.

(٥٦) ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد٣، ٣٣٢؛ وباهلة هو أعصر، وبنو باهلة من ولد سعد بن قيس عيلان، يسمون باسم أمهم باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٢٤٤، ٢٤٥- ٢٤٧، ٢٤٧، ٤٦٨، ٤٨١.

(٥٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١ ؛ ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد ٣، ٣٣٢- ٣٣٣.

(٥٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩- ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٥٩) الرويثة، على ثلاث مراحل من المدينة، أو على ليلة منها. تقع بين العرج والروحاء، وهي منهل من المناهل بين الحرمين. سميت بهذا الاسم لأن تبع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة، نزل بها. وقد أبطأ في مسيره، فسماها الرويثة من راث يريث إذا أبطأ. الفيروز آبادي، المصدر ا لسابق، ١٦٥- ١٦٦.

(٦٠) فزارة، هي فزارة بن ذبيان بن بغيض، بطن عظيم من غطفان من العدنانية. ابن حزم، المصدر السابق، ٢٥١، ٢٥٥- ٢٥٩، ٤٦٠، ٤٨١؛ القلقشندي، *قلائد الجمان*، ١١٣-١١٤؛ *ونهاية الأرب*، ٣٩٢- ٣٩٣؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٩١٩.

(٦١) مرّة: هم بنو مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان، منازلهم قريبة من منازل بني سليم. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٢٥٢؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤١٨.

(٦٢) غطفان، قبيلة كبيرة، يرجع نسبها إلى سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. تقع منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء أجا وسلمى، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية، ابن حزم، المصدر السابق، ٢٤٨- ٢٤٩؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٣٨٨؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٨٨٨- ٨٨٩؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٢٥٢- ٢٥٣.

(٦٣) أشـــجع، قبيلة من غطفان من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان العدنانية. كانت منازلهم في الحجاز بضواحي المدينة، وبالمغرب الأقصى، منهم حي عظيم. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٢٤٩- ٢٥٢؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤٠؛ كحالة، المرجع السابق، ١: ٢٩؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٥١٠.

(٦٤) ثعلـــبة، سمـــي بهذا الاسم عدد كبير من القبائل والبطون، منهم من ينسب إلى القحطانية، والآخرون إلى العدنانية، و المرجح أن ثعلـــبة الذيـــن حاربهم بغا في خلافة الواثق، هم بنو ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. انظر عنهم ابن حزم، المصدر السابق، ٣١٤-٣١٥؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ١٩٣- ١٩٤؛ كحالة، المرجع السابق، ١: ١٤٥.

(٦٥) كلاب، بطن عظيم من عامر بن صعصعة من العدنانية. كانت ديارهم حمى ضرية، وحمى الربذة في جهات المدينة المنورة، وفدك والعـــوالي. ثم انـــتقلوا بعـــد ذلك إلى الشام. و أسسوا الدولة المرداسية. انظر عنهم ابن حزم، المصدر السابق، ٢٨٢- ٢٨٤؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤٠٧؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٤٨٠- ٤٨١؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٩٨٩.

(٦٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩- ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٩٨٩

(٦٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩- ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٦٨) ابـــن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـــ)، *المعارف*، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ١٦٩- ١٧١؛ ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـــ)، *تاريخ بغداد*، ليبزغ (١٩٠٨م)، ٦: ٣٤- ٣٥، ١٤١-١٤٢.

(٦٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٤٨٠.

(٧٠) عن طريق الحج والمناطق التي يمر بها، انظر اليعقوبي، *البلدان*، ٣١١-٣١٢.

(٧١) الأنصاري، المرجع السابق، ٥٠.

(٧٢) الطبري، المصدر ا لسابق، ٩: ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢.

(٧٣) حرة بني سلم، تقع في عالية نجد، قريبة من حرة ليلى قرب المدينة، وفيها عدة معادن. انظر الفيروزآبادي، *المغانم المطابة*، ١١١؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ٢: ٥٤٤، هامش١.

(٧٤) لم أجد في المصادر ترجمة له.

(٧٥) الســـوارقية، تعد مدينة نجدية، وهي لبني سليم، قرية غناء كبيرة فيها الكثير من المزروعات، وفيها مسجد و منبر و سوق. انظر الفيروزآبادي، المصدر السابق، ١٨٩.

(٧٦) الطبري، المصدر ا لسابق، ٩: ١٣٠.

(٧٧) اليعقوبي، المصدر السابق، ٢: ٤٨٠.

(٧٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣

(٧٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠-١٣١ ؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٥١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن خلدون، الصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٨٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠.

(٨١) الطبري، المصدر نفسه، ٩: ١٣٣.

(٨٢) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥.

(٨٣) الطبري، المصدر نفسه، ٩: ١٣٤.

(٨٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١.

(٨٥) اليعقوبي، المصدر السابق، ٢: ٤٨٠؛ ابن كثير، المصدر ا لسابق، ١٠: ٣٠٢.

(٨٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٨٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥.

(٨٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٢-١٣٣؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٦٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٨٩) الطبري، ا لمصدر السابق، ٩: ١٣٢- ١٣٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،حوادث ووفيات (٢٢١-٢٣٠هـ) ٣٥، وينوه عُزَيْزَة بهذا الشعر بمساعدة البواب لهم. وقد ورد الشعر الأول من البيت الثاني عند الطبري، (للموت خير للفتى من العاب). وما ذكره الذهبي أكثر صحة.

(٩٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥.

(٩١) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣.

(٩٢) فدك: قرية على يومين من المدينة، فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم حصونها صلحاً بعد خيبر، فسأله أهل فدك أن يصالحهم على النصف من ثمارهم و أموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فيها عين فوارة ونخيل كثير. انظر الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٣١١-٣١٤.

(٩٣) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥؛ ابن خلدون، ا لمصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٩٤) هي غفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. و غفار بطن ضخم، منهم أبو ذر الغفاري، انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٤: ١٨٦، ٤٦٥.

(٩٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٩٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٥.

(٩٧) ضريّة، صقع واسع بنجد، ينسب إليه حمى ضرية، يليه أمراء المدينة، ويترل به حاج البصرة. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٢٢٨-٢٣٠؛ السمهودي، المصدر السابق، ٣: ١٠٩٢-١٠٩٤.

(٩٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٩٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤- ١٣٥.

(١٠٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١٠١) عمارة بن عقيل بن بلال الكلبي اليربوعي التميمي (ت ٢٣٩هـ)، من أحفاد الشاعر جرير. شاعر مقدم فصيح من أهل اليمامة. له صلات قوية مع الخلفاء العباسيين، وكانوا يجزلون العطاء له. كان عالماً بالنحو، له ديوان شعر ومطبوع. انظر عنه الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ١٢: ٢٨٢؛ ابن المعتز، عبدالله بن محمد (ت ٢٩٦هـ)، *طبقات الشعراء* (القاهرة: ١٩٥٥م) ١٥٠.

(١٠٢) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠.

(١٠٣) الطبري، المصدر السابق، ٨: ٧٠؛ بيطار، المرجع السابق، ٨٧.

(١٠٤) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧.

(١٠٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الجوزي، ا لمصدر السابق، ١١: ١٧٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٧.

(١٠٦) الشّريف، إلى جنب الشرف، كبد نجد، يفصل بين الشريف والشرف التسرير. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٢٠٢.

(١٠٧)حظيان أو حضيان، هو اسم سوق لبني نمير، فيه مزارع حبوب. انظر الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ١٠١، ٢٧٢.

(١٠٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١٠٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠.

(١١٠) بطن نخل، جمع نخلة، قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة، بينهما الطّرَف على الطريق. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٥٧.

(١١١) جبال السّوْد: تقع خلف اليمامة، وأكثر أهله باهلة.

(١١٢) بطن السِّر: على مرحلتين من القرنين، وعلى مرحلة من أضاخ. حدث فيه يوم من أيام العرب، قال جرير فيه:

أ أستقبل الحيُّ بطنَ السر أم عَسَفُوا فالقلب فيهم رهين أينما انصرفوا.

ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٤: ٤٤٩.

(١١٣) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١١٤) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧.

(١١٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١١٦) الطـــبري، المصـــدر السابق، ٩: ١٤٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠-٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١١٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦٣: ٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨.

(١١٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨.

(١١٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨- ١٤٩.

(١٢٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٩- ١٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩١.

(١٢١) ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨.

(١٢٢) بنو تميم، ينتسبون إلى مر بن أدبن طابخة بن إلياس، المشهورة بطونها، منتشرة في شرق الجزيرة العربية و في نجد و في أنحاء مختلفة مـــن جزيرة العرب، لهم أيام عديدة، و بطون تميم عديدة. انظر عنهم، ابن حزم، المصدر السابق، ١٦٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٣٧١، ٤٦٦- ٤٦٧، ٤٨٠؛ جواد علي، المصدر السابق، ٤: ٥٢٦- ٥٢٩.

(١٢٣) ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣- ٣٣٤.

(١٢٤) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٩- ١٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩١.

(١٢٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ٣٤٦.

(١٢٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ٥٥٢- ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١٣؛ ١٠: ٨؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٢: ٢٠٧، ٢٤٤.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

إدارة اليمامة في العصر العباسي

عبدالله بن إبراهيم العسكر

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة الملك سعود

ملخص:

أضحت إدارة اليمامة من آخر أولويات بغداد بسبب السياسة العباسية المركزية المتبعة في إدارة الأقاليم. وأُنيط بوالي مكة الإشراف على اليمامة، ثم أصبحت اليمامة تُدار من المدينة أو البحرين أو من بغداد مباشرة. وهذا يُشير إلى أن العلاقات بين سكان اليمامة والخلفاء العباسيين لم تكن في صورة جيدة. أو أن اليمامة نفسها لم تعد إقليماً ذا أهمية. وكلا الأمرين أُضع لمزيد من الفحص والتحليل.

ومن المثير أن وضع اليمامة في ذلك العصر بقى وضعاً غير مستقر، مع فترات تُعد استثناءً مثل جعل اليمامة ولاية مستقلة، وربطها ببغداد في عصر الخليفة أبو جعفر المنصور. وهذا الإجراء تم لسنوات قصيرة. والأمر لا يتعدى أهمية الوالي المُعين وقربه من الخليفة، لا إلى أهمية اليمامة.

من الملاحظ أن اليمامة في ذلك العصر زادت بُعداً عن الخلافة العباسية، وكثرت فيها الفتن، وأختل الأمن، وزاد تذمر السكان. وافتقرت لبنية اقتصادية قوية. ولعل كل هذه المظاهر جعلتها مكاناً مناسباً ومثالياً، بل وملاذاً أميناً للمعارضة السياسية. وفوق هذا، فقد وجد المعارضون مستوطنين من السهل إثارتهم، وضمهم إلى صفوفهم. وهو ما استغله ثائر علوي هارب من الحجاز، الذي أسس إمارة له عُرفت باسم إمارة الأخيضرين.

ومن السمات البارزة في هذا العصر ارتباط مفهوم الإدارة وتطبيقاتها في اليمامة بالمفهوم القبلي لا الجغرافي. فالقبائل القيسية، وبعض بطون بني تميم تدفع زكاتها لوالي اليمامة بصرف النظر عن مقر سكانها. وهذا ضعف انتماء للمنطقة التي طالما رفعت شعار الإقليمية في وجه القوات الإسلامية في العصور السابقة للعباسيين.

توطئة:

إن دراسة وضع الإدارة في اليمامة، أو في غيرها، في العصر العباسي هو من قبيل دراسة التاريخ السياسي لذلك العصر. فقد أصبحت اليمامة -مثل غيرها من مناطق الجزيرة العربية- بعد انتقال العاصمة الإسلامية من المدينة المنورة، وبعد اتخاذ خلفاء بني أمية دمشق عاصمة لدولتهم الجديدة. أقول: أصبحت اليمامة أقل أهمية في أولويات الإدارة الأموية، ومن ثم العباسية. وأصبح يدير اليمامة والي المدينة، أو البصرة، أو مكة، أو البحرين، ويرجع ذلك إلى قوة الوالي الموجود على رأس الإدارة، ومكانته في كل من تلك المدن، أو لأسباب طارئة رأتها العاصمة.

وبسبب السياسة الحكومية المركزية المتبعة في إدارة أقاليم الدولة كان الولاة والعمال عادة ما يستبدلون بصورة متكررة، بسبب التناقضات السياسية والإدارية القائمة بين الحكومة المركزية والمعارضة في تلك الأقاليم، مما جعل الخليفة العباسي يستبدل عماله وولاته إمّا نتيجة تقصير، وإما لمجرد إرضاء المعارضة، وإما لأن الولاية ذاتها منحة مالية تُعطى للمقربين، أو القادة العسكريين. وإما خوفاً من قيام الوالي بتشييد قاعدة شعبية له، ثم تترع نفسه إلى الاستقلال. وقد يستبدلون نتيجة إخفاقهم في تحقيق رغبات شخصية للخليفة العباسي، مما يسبب غضب السكان، وقد يدفعهم ذلك الإجراء إلى الثورة أو العصيان[١].

وقد ضُمت المنطقة إدارياً إلى البحرين بعد انتهاء حرب ردة بني حنيفة في اليمامة، وشُطب اسم اليمامة من السجلات العائدة إلى فترة الخلفاء الراشدين[٢]. عُرفت اليمامة باسم العروض في فترة الخلفاء الأمويين. أما في فترة الدولة العباسية، فقد فقدت اليمامة مكانتها أكثر من ذي قبل، وأصبح يديرها والي مكة؛ فقد عيّن الخليفة أبوالعباس السفاح قريبه داود بن علي بن عبدالله بن عباس والياً على اليمامة، بعد دمجها مع عُمان والبحرين واليمن. ولكن الوالي لم يباشر من مقر عمله (في أي منها) مطلقاً، وأصبح يقيم إما في مكة إما في بغداد[٣].

في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وجه والي المدينة زياد بن عبيدالله الحارثي من قِبل العباسيين جيشاً إلى اليمامة يقوده إبراهيم بن حسن السلمي، وذلك من أجل انتزاع المنطقة من واليها الأموي المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، واستطاع الجيش القادم من المدينة السيطرة على المنطقة، ولقي الوالي الأموي مصرعه[٤]. ويظهر أن مهمة الجيش العباسي كانت سهلة، وربما يرجع ذلك إلى انضمام عدد من اليماميين إلى طلائع جيش الحكومة الجديدة، على أن المقاومة التي لقيها الجيش العباسي في اليمامة، واستمرت يومين، لا تدل إلاّ على كون الوالي الأموي، المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، من أشد المخلصين لتلك الأسرة[٥].

يبدو أن صفحة من العلاقة الجيدة والثقة المتنامية بين أهل اليمامة وخلفاء بني العباس شكلت في السنوات الأولى من تاريخ اليمامة في العصر العباسي الأول. فقد اشترك رجال من اليمامة في الدعوة العباسية في أطوارها الأولى، فكان من نقباء الدعوة العباسية من اليمامة: شبل بن طهمان الشيباني مولى بني حنيفة[٦]، وداود بن خالد بن إبراهيم بن قعبل

ابـــن شـــيبان من ذهل بن ثعلبة الذي أسند إليه أبوجعفر المنصور ولاية خرسان[٧]. ومن الدعاة: أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحنفي، ومصعب بن قيس الحنفي ونفر من باهله[٨].

وتذكـــر المصادر تولي عدد من اليماميين ولايات عباسية جراء خدماتهم، وما حازوه من ثقة الحكومة العباسية مـــنهم: معـــن بـــن زائـــدة الشيباني الذي تقلّد ولاية اليمن، ثم ولاية سجستان، وسهم الحنفي الذي أصبح والياً في طبرستان[٩].

ويســـتطيع المـــتأمل في الروايات التاريخية أن يلحظ محاولات جادة، حاولت من خلالها الخلافة العباسية إيلاء الـــيمامة اهتماماً، وخصوصاً في مجال الأمن؛ وذلك لكثرة تعديات القبائل المحيطة باليمامة على المستوطنات والأهالي. فقد لبى الخليفة الواثق دعوة أعيان اليمامة لرد تعديات وغارات نفر غير قليل من قبيلة بني نُمير عام ٢٣٢هـــ/٨٤٦م، فسيّر جيشاً بقيادة بُغا الكبير لوضع حدٍ لتجاوزات تلك القبيلة[١٠].

وضع اليمامة الإداري في العصر العباسي:

تتمتع اليمامة بموقع استراتيجي في شبه الجزيرة العربية، وكان يقطنها أو يستغل أراضيها الرعوية كثير من القبائل العربـــية. ويظهر أن ما كان يتبعها من أراضين يشغل مساحات واسعة، وعُمال زكاتها وجباتها يذهبون بعيداً. ويكاد يصـــدق رواية أوردها البكري، وياقوت مفادها أن نجداً كلها من عمل اليمامة[١١]. وهذا كله زاد من اهمية مركزها الإداري، ومركز من يتولى إدارتها من الولاة العباسيين، أو من ينوب عنهم. وهذا ايضاً ما جعل مؤلف مثل الأصفهاني يفرد لإدارة اليمامة حديثاً قصره على (عمل اليمامة)، على حد تعبيره. مما يدل على أهمية هذا الإقليم[١٢]. ولعل سبب ســـعة مساحة اليمامة من حيث الإدارة -وهي تفوق مساحتها أو حدودها الطبيعية- أم جُعلت لها حق جباية زكاة قبيلة قيس عيلان بن مضر، وهي قبيلة كثيرة العدد تنتشر من حدود اليمن من الجنوب حتى حدود البصرة من الشمال، ومن حدود البحرين من الشرق حتى ميقات أهل نجد بقرن المنازل من الغرب.

يقول ياقوت الحموي ما نصه: "ربما ضُمت اليمامة إلى المدينة، وربما أُفْرِدت. هذا كان أيام بني أمية، فلما ولى بـــنو العـــباس صيّروا عُمان والبحرين واليمامة عملاً واحداً"[١٣]. وهذا النص ينطبق على معظم فترة العصر العباسي الأول. ومع دمج تلك الأقاليم في عمل إداري واحد فإنه قلما تمتع باستقلال إداري.

وواقـــع الحـــال أنـــه في بدايـــة العهد العباسي ضمت اليمامة إلى الحجاز من عام ١٣٢هـــ/ ٧٥٠م حتى عام ١٤١هـــــ/ ٧٥٨م[١٤]، ثم فصلها الخليفة أبوجعفر المنصور، وجعلها مستقلة ترتبط مباشرة بالعاصمة بغداد، وأسند ولايـــتها إلى السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس، وبقيت على هذه الحالة حتى عام ١٦١هـــ/ ٧٧٧م[١٥]. وقد رأى بعـــض الباحـــثين في جعل اليمامة ولاية مستقلة دليلاً على أهميتها، لكن الواقع العام يشير إلى عكس ذلك تماماً. فالســـنوات التي أضحت فيها اليمامة ولاية قائمة بذاتها سنوات قليلة في عمر الدولة العباسية. والأمر لا يتعدى كون

مكانة الوالي المُعيّن، وقربه من الخليفة العباسي، هي التي تجعل اليمامة عملاً مستقلاً، أو مضموماً إلى عمل آخر.

وفي عهـــد الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) طرأ تغيير على وضع اليمامة الإداري، فقد أصبحت هي والـــبحرين والبصرة والأهواز وفارس والفرض وعُمان ولاية واحدة، وعُيّن محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس والياً عليها. ولعل رغبة الخليفة الرشيد في إحكام السيطرة على الأمن، واستتبابه، وخصوصاً على طريق التجارة المار بتلك المناطق يفسر إجراءه ذلك[١٦].

وقد كان لإجراءات الرشيد أسباب ذكر بعضها المؤرخون المحدثون مثل الحديثي الذي يرى: أن الدافع الحقيقي وراء توحيد تلك الصقاع إدارياً هو اعطاء الدولة مرونة في الحركة العسكرية بحراً وبراً، ولحماية الخليج والتجارة التي تعبره خصوصاً أن الخلافة العباسية تعتمد على تجارة الخليج. وقد تعرض الخليج لهجمات بحرية لقوم عرفوا (بالميد)[١٧] أخذوا يهددون أمن الخليج، والتجارة التي تمر فيه[١٨]. ويظهر أن سياسة الرشيد نجحت بدليل أن هجمات الميد توقفت بعد عام ١٨١هـ/٧٩٧م[١٩]. لكن ابن الأثير بقول برأي آخر، فعندما تحدث عن أحداث سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م قال ما نصه: "وفيها افسد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين"، وهذا النص يشير صراحة إلى تعديات الأعراب، وتهديدهم طُرُق التجارة في منطقة شرق الجزيرة العربية، وليس الميد وراء إجراءات الرشيد الإدارية[٢٠]. ويربط الوشمي بـــين غلـــبة الأعراب على طرق التجارة في شرق الجزيرة العربية، وبين تخلي الولاة العباسيين عن مسؤولياتهم الأمنية. فأراد الرشيد جمع تلك المسؤوليات في يد والٍ واحد[٢١].

وفي نهايـــة خلافـــة المعتصم عام ٢٢٧هـ/٨٤١م، جُعلت اليمامة والبحرين وطريق نجد -الحجاز عملاً واحداً كان في مُعظم الوقت تحت ولاية البصرة[٢٢].

ملحوظات إدارية عامة:

إن تتـــبع الإشـــارات المتعلقة بإدارة اليمامة في العصر العباسي يوفر للباحث بعض النقاط والمسائل التي قد تُعد وصـــفاً عاماً لما عليه الإدارة في ذلك العصر. وهي مسائل جديرة بالفحص والدراسة، وربطها بمسائل أخرى. وهذه المسائل والنقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - أصـــبحت مدينة حجر قاعدة اليمامة في العصر العباسي. يقول ابن الفقيه في هذا الصدد ما نصه "اليمامة سُرّة نجد ومدينة نجد حجر"، وابن الفقيه من أهل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. ويذهب مذهبه كل من أبي حنـــيفة الدينوري، والأصفهاني الذي يقول: "حجر سُرة اليمامة، وهي منزل السلطان والجماعة، ومنبرها أحد المـــنابر الأولية: مكة، والمدينة، واليمن، ودمشق، واليمامة، والبحرين، والكوفة. وجل أهلها من بنو عبيد، وبها كل القبائل"، ويؤكد ما تقدم أن حجراً حافظت على كونها عاصمة لإقليم اليمامة، بعد نزاع طويل بينها وبين عـــدد مـــن مـــدن اليمامة منذ عصر ما قبل الإسلام، وفي العصر الراشدي، والعصر الأموي. ومع هذا فقدت

(حجـر) بوصـفها عاصـمة لإقليم اليمامة مع قدوم بنو الأخيضر في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ونقلهم العاصمة إلى مدينة الخضرمة الواقعة جنوب إقليم اليمامة.

٢ - اعـتاد الـولاة المُعيّـنون على اليمامة وما حولها، أو يتبعها البقاء في بغداد، ونادراً ما كانوا يباشرون من مقر عمـلهم، واعـتادوا إرسـال ممثلين عنهم إلى تلك النواحي. وهذا الإجراء أصبح علامة من علامات كسب الولايـات، أو فقدها، بل وأضحت الولايات تُنزع من شخص، وتُعطى لآخر. و لم يكن يُسمح للوالي، أو لمن يـنوبه بالبقاء في منصبه مدة طويلة كي لا يستبد بأمور الولاية، فتنزع نفسه إلى الاستقلال. وأضحى منصب الولاية ضرباً من المكافأة، أو المقايضة، أو المحاسبة والمعاقبة[٢٣].

٣ - كـان الوضع الإداري العام في اليمامة يتصف بالضعف، وكان الأمن هشاً، إلا في سنوات تعتبر استثناءً. ولكن قُرب منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، شهدت اليمامة ضعفاً ظاهراً، فاستغل الأخيضريون ذلك الوضع، واستقلوا بجنوب اليمامة المعروفة باسم (منطقة الخضرمة) عام ٢٥٢هـ/٨٤٩م[٢٤].

٤ - ومـع إعـلان قيام إمارة الأخيضريين واستيلاءها على أهم نواحي اليمامة، إلاّ أن سلطة الخلافة العباسية ظلت سـائدة في جزء من اليمامة؛ لأنها بقيت ترد في قوائم ولايات الخلافة العباسية. وهذا استنتاج قد يدحضه رأي مؤداه أم لا عبرة بورود قوائم بأسماء الولاة في تلك الفترة، بسبب أن الخليفة العباسي يمنح ولاية اليمامة لشخص مُعيّن، ويُترك لـه أمر توليه المنصب، أو مباشرة العمل[٢٥].

٥ - ومـن الـروايات المهمة التي تُشير إلى بقاء جزء من اليمامة تحت سلطة العباسيين، بصرف النظر عن كون بقية أجـزاء الـيمامة يقع تحت نفوذ الأخيضريين، ما أورده الطبري في حوادث عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م التي أمر فيها الخليفة المعتز بسجن الحاجب (كنجور البخاري) باليمامة، فحُمل مقيداً من بغداد إليها[٢٦]، وربما اعتُرض على ذلـك بـالقول: إن إمارة الأخيضريين لم تعلن رسمياً، أو لم تستكمل سيطرتها على منابر اليمامة، إلا بعد تلك السنة. وعلى كل فالأمر يبقى عرضة لمزيد من البحث والاستقصاء[٢٧].

٦ - ومن السمات الإدارية في اليمامة، العبء الإداري الكبير الملقى على كاهل الإدارة العباسية في اليمامة، وخاصة ما يتعلق بالأمن بعد زيادة تسلط قرامطة البحرين على طريق التجارة المار باليمامة، وطريق الحج المار بها أيضاً، ونهـبهم الحجاج مراراً. وكانت المسؤولية المباشرة تقع على والي اليمامة والبحرين. ولعل هذه السمة هي وراء كثرة تغيير الولاة، أو تبديل وضع اليمامة الإداري، ونقلها من منطقة إلى أخرى[٢٨].

٧ - تأثـر الوضـع الإداري نتـيجة ضعف سلطة الخلافة العباسية على الولايات. وبدأ تفكك أوصال الخلافة منذ منتصـف القـرن الثالـث الهجري/ التاسع الميلادي، وملأت الفتنة نواحي الدولة، و لم يبق للخلافة إلا اسمها، وأصبحت كثير من النواحي في خلافة المعتضد ٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م مغلوباً عليها، أو مستقلة. ولعل

هذا يُفسر سهولة توسع الأخيضريين في اليمامة، ومتانة سيطرتهم على نواحيها[٢٩].

٨ - تمتع ولاة اليمامة في العصر العباسي بحق جباية زكاة القبائل الكثيرة التي ترتبط باليمامة، وهي قبائل وعشائر تنتشر على رقعة جغرافية واسعة. ثم أن هذا الحق جعل الولاة يتنافسون في حيازة منصب الوالي في اليمامة، لمردوده المالي. وهو في الوقت نفسه أعطى اليمامة مكانة باسقة في تشكيل الولاة العباسيين[٣٠].

٩ - ارتبط المفهوم الإداري وتطبيقات الإدارة بالنسبة إلى اليمامة بالمفهوم القبلي لا الجغرافين فالقبائل القيسية، وبعض بطون بني تميم تدفع زكاتها لوالي اليمامة بصرف النظر عن مقر سكناها، فبنو قيس –مثلاً– يدفعون زكاتهم لوالي اليمامة، مع أنهم يقطنون بـ (ثاج): وهي قرية بالقرب من البحرين. ولعل السبب في هذا يعود إلى التحالفات القبلية كتحالف بني تميم مع كلب، وتحالف بني حنيفة مع عجل. وليس بعيداً أن الانتماء للأرض، أو المهنة، أو المنطقة ضعف كثيراً بعد حروب الردة، فقد كان قبل ذلك واضحاً في الشعارات التي رفعتها بنو حنيفة في وجه القوات الإسلامية[٣١].

١٠- كما يمكن ملاحظة كثرة الخلافات والفتن بين قبائل اليمامة، خصوصاً بين بني حنيفة وجيرانهم. وقد ألمح الهجري في كتابه (التعليقات والنوادر) إلى بعض الوقائع والحروب التي حدثت بيت تلك القبائل، ومثله فعل صاحب (شرح أشعار الهذليين) مثل: "يوم أنف" بين هذيل وبني سُليم و"يوم ملَسْلَسان"، أو "الغيامة" بين بني سُليم وبني عامر، و"يوم مُرامِرات" بين بني سُليم وغطفان[٣٢].

١١- وتميزت اليمامة بكثرة منابرها، والمنبر: إصلاح سياسي إداري يشير إلى أهمية المدينة التي فيها منبر، وإلى كثرة سكانها[٣٣].

وقد ذكر الحربي عدد منابر اليمامة في القرن الثالث الهجري، فقال: إنها سبعة وعشرون منبراً[٣٤]. والجدير بالذكر أن عدد المنابر تناقص تدريجياً بعد زوال السلطة العباسية عن اليمامة، وقيام إمارة الأخيضريين. وهذا عن صح يشير إلى تنامي المجتمع البدوي على حساب المجتمع الحضري[٣٥].

زوال السلطة العباسية عن اليمامة:

ومع بزوغ حركة القرامطة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في شرق الجزيرة العربية أمر الخليفة العباسي المتوكل بضم اليمامة إلى البحرين، وكلف والي البصرة بإدارتها. وكان سبب الإجراء الجديد هو السيطرة على طريق التجارة المار بكل من اليمامة والبحرين والمتجه إلى العراق، وعدم تركه عرضة لتعديات الخوارج، وتهديداتهم للسابلة. مع العلم انه سبق أن أتخذ مثل هذا الإجراء زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م، ولأسباب تشبه الأسباب التي دعت الخليفة المتوكل إلى القيام بمثل هذا العمل[٣٦]. ثم ضُمت اليمامة بعد ذلك إلى مكة، ثم المدينة، واستمر هذا ديدن الوضع الإداري في اليمامة، نستثني من ذلك بعض السنوات التي لا تُشكل علامة بارزة، أو ظاهرة مطردة.

أضــحت اليمامة منطقة مهملة، بعيدة إلى حد معقول عن العاصمة السياسية للدولة، وتفتقر إلى بنية اقتصادية قوية، وربما متخلخلة سكانياً، كل تلك العوامل جعلتها مكاناً مناسباً ومثالياً، وملاذا أمناً للمعارضة السياسية. ناهيك عــن أن المعارضــين وجدوا مستوطنين من السهل إثارتهم وضمهم إلى صفوفهم. يُضاف إلى كل ذلك ما يتصف به ســكان اليمامة من شعور إقليمي قوي، ونزعة إلى الاستقلال من سيطرة العباسيين. وهما نزعة وشعور طالما تمثلا في حــركات التمرد والانفصال التي قادها اليماميون في عصر الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، وسببت لكلا الفريقين مصاعب جمة[٣٧].

تلــك النزعــة والشعور الإقليمي برز إلى الواجهة مرة جديدة مع وصول ثائر علوي هارب من الحجاز، ومع وصـــول أول المناصـــرين لتأسيس إمارة بني الأخيضر في اليمامة،بل أن الوضع السياسي في اليمامة، ووضع المسؤول العباســـي فيها يعد وضعاً غير مستقر، وهو وضع أتصف بالضعف والتشتت، وعدم السيطرة على الأمن لفترة تسبق وصول الهاربين الحسنيين من الحجاز[٣٨].

عانت البحرين وعاني طريق التجارة عبر شرق الجزيرة من الوضع المتردي في اليمامة، وقامت القبائل القاطنة في الــيمامة، أو حولهــا بغــارات متعددة من أجل النهب والسلب، وتعرضت المستوطنات المحلية لأنواع من التعدي، والتخريب، والسرقة، ومثلهم التجار المارين بطريق اليمامة –البحرين– العراق. العراق. يذكر ابن خلدون أن نفراً من قــبائل تلــك المــنطقة انهمك في مهاجمة سالكي تلك الطرق المهمة، وأثار الرعب بين الأهالي ضارباً بعرض الحائط أساسيات الدين ، أو الشعور الديني[٣٩]. هذا وقد لاحظ الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن مستوى التدين لدي أفراد القبائل القاطنة حول اليمامة متدنٍّ حتى أنه ظنهم شعوباً بلا دين.

ولعــا ســائل يسأل عن سبب تدهور أوضاع منطقة اليمامة في العصر العباسي تدهوراً فاق بأضعاف مثيله في العصــور السابقة، مثل هذا السؤال يقود الباحث إلى الاعتقاد أن غياب الأمن، أو ضعفه الشديد في اليمامة بات هو الصــورة الواضــحة الــتي طبعت تاريخ اليمامة خصوصاً في فترة ضعف الخلفاء العباسيين. وقد يبدو للمرء أن فراغاً سياسياً تشكل مع مرور الزمن، وكان لابد لهذا الفراغ من يملؤه.

إن قدوم محمد بن يوسف الأخيضر هارباً من الحجاز عام ٢٥٢هـــ/٨٦٤م، ومن ثّمَّ نجاحه السريع في تأسيس إمــارة علويــة عُرفت فيما بعد بإمارة الأخيضرين، وعاشت حتى عام ٤٥٠هــ/١٠٦٤[٤٠]، ثم تلاشت، وذابت في خضــم القــبائل العربية التي انساحت في اليمامة، وصبغت تاريخها منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر المــيلادي. أقول إن خروج اليمامة من سيطرة العباسيين أضاف عبئاً ثقيلاً على الخلافة العباسية أنضم إلى أعباء كثيرة عانت منها الجزيرة العربية. لكن المشهور أن بني الأخيضر في اليمامة لم يتحالفوا مع قوى المعارضة السياسية في الجزيرة العربــية. لهــذا لم توجــه لهم الحكومة المركزية أية قوة، وبقوا في معزل عن الصراع العباسي في شرق الجزيرة ، أو جنوبها، أو غربها.

اسم الخليفة العباسي الذي عاصر قيام إمارة الأخيضريين هو المعتز محمد بن جعفر المتوكل (٢٥٢- ٢٥٥هـ/ ٨٦٦- ٨٦٨م)، وكان ولاته على اليمامة عند قدوم الأخيضريين هما: كحمد بن أبي العون، ثم سعيد بن صالح المعروف بالحاجب على التوالي[٤١]، ومع هذا استمر ورود اسم اليمامة في قائمة الولايات العباسية، وأسماء ولاتها، أو أسماء من أقطعت له. أما من عام ٢٨٩هـ/٩٧٠م، وهي سنة بداية خلافة المكتفي بالله فقد غاب اسم اليمامة في تلك السجلات.

والطريف أن اليمامة أضحت بعيدة جداً من ذهن المؤرخ المعاصر لقيام الإمارة الأخيضرية، وهو الإمام أبي جعفر الطبري، فأمر لا يقف عند خلو سجلات الحكومة من أسماء ولاة اليمامة، بل يتعداها إلى تجاهل ما يدور في اليمامة من أحداث سياسية، أو عسكرية. وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من البحوث والاستقصاء.

قائمة ولاة اليمامة في العصر العباسي

عهد الخليفة أبي العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٣م):

١ - داود بن علي بن عبدالله بن العباس ١٣٢هـ/٤٧٩م مع الحجاز واليمن[٤٢].

٢ - زياد بن عبيدالله بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي ١٣٣-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٣م مع الحجاز[٤٣].

عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م):

١ - زياد بن عبيدالله بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي ١٣٦-١٤١هـ/٧٥٣-٧٥٨م مع الحجاز[٤٤].

٢ - السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس ١٤١-١٤٣هـ/٧٥٨-٧٦٠م ولاية مستقلة[٤٥].

٣ - قُثَمْ بن العباس بن عبيدالله بن عباس ١٤٣-١٥٨هـ/٧٦٠-٧٧٤م ولاية مستقلة[٤٦].

عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٨هـ/٧٧٤-٨٨٤م):

١ - قُثَمْ بن العباس بن عبيدالله بن عباس ١٥٨-١٥٩هـ/٧٧٤-٧٧٥م ولاية مستقلة[٤٧].

٢ - الفضل بن صالح (ابن خلدون، العبر، ٥: ٤٤٠. ربما مدته ١٥٩-١٦١هـ) [٤٨].

٣ - بشر بم المنذر البجلي ١٦١هـ/٧٧٧م ولاية مستقلة[٤٩].

٤ - جعفر بن سليمان ١٦١-١٦٦هـ/٧٧٧-٧٨٢م مع الحجاز[٥٠].

٥ - عبدالله بن قُثَمْ بن العباس بن عبيدالله بن عباس ١٦٦هـ/٧٨٢م مع مكة والطائف[٥١].

٦ - عبدالله بن مصعب بن الزبير ١٦٧-١٦٩هـ/٧٨٣-٧٨٥م ولاية مستقلة[٥٢].

عهدالخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م):

١ - محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس ١٧٠-١٧٣هـ/٧٨٦-٧٨٩م مع البصرة والبحرين وعُمان والفُرض وكور الأهواز وفارس(٥٣).

٢ - سليمان بن أبي جعفر ١٧٤هـ/٧٩٠م مع البصرة والبحرين(٥٤).

٣ - عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور وفي رواية أخرى أن الوالي هو: عمر الأصغر بن عبدالعزيز بن عبدالله من ولد عمر بن الخطاب(٥٥).

٤ - المعلى بن طريف مولى المهدي (من كبار قواد هارون الرشيد) مع البصرة وفارس والبحرين والأهواز والغوص(٥٦).

٥ - عُمارة بن حمزة (وقيل اسمه: عُمارة بن مالك بن يزيد بن عبدالله من الكتاب البلغاء، مولى لبني هاشم) (٥٧).

٦ - أحمد بن موسى بن عيسى بن موسى(٥٨).

عهد الخليفة الأمين بن هارون الرشيد (١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٨-٨١٣م):

١ - منصور بن المهدي والي البصرة. ويظهر أن نتيجة الاضطرابات السياسية التي صاحبت فترة الأمين لم تلتفت الخلافة لليمامة(٥٩)، ولا يستبعد أن والي اليمامة انحاز للمأمون في صراعه مع أخيه الأمين فأبقاه على عمله فترة الصراع(٦٠).

عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م):

١ - طاهر بن الحسين وأناب عنه: عبدالله بن محمد بن عيينه وضمت إلى البحرين وغوص البحر(٦١).

٢ - الحسن بن سهل(٦٢).

٣ - داود بن ماسجور ٢٠٦هـ/٨٢١م مع البصرة وكور دجلة والبحرين(٦٣).

٤ - محمد بن عبدالحميد المعروف بأبي الرازي قبل ٢١٢هـ/٨٢٧م(٦٤).

٥ - إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ٢١٥هـ/٨٣٠م مع سواد دجلة(٦٥).

عهد الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٣٣-٨٤١م):

١ - إسحاق بن إبراهيم بن مصعب مع سواد دجلة(٦٦).

عهد الخليفة الواثق بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤١-٨٤٦م):

١ - أحمد بن سعيد بن سلم الباهلي مع البحرين وطريق مكة[٦٧].

٢ - إسحاق بن إبراهيم بن أبي خميصة مع البحرين وطريق مكة[٦٨].

عهد الخليفة المتوكل بن الأمين بن هارون الرشيد (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م):

١ - إسحاق بن إبراهيم بن أبي خميصة وفي عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م ضمت اليمامة إلى البحرين وطريق مكة ومُنحت للمنتصر بن المتوكل[٦٩]، فقام المنتصر وولى على اليمامة.

٢ - محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[٧٠].

عهد الخليفة المنتصر بن المتوكل (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م):

١ - محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[٧١].

عهد الخليفة المستعين بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢هـ/ ٨٦٢-٨٦٦م):

١ - محمد بن عبدالله بن طاهر مع أطراف في العراق والحرمين[٧٢].

عهد الخليفة المعتز بن المتوكل (٢٥٢-٢٥٥هـ/ ٨٦٦-٨٦٨م):

١ - محمد بن أبي عون مع البصرة والبحرين[٧٣].

٢ - سعيد بن صالح المعروف بالحاجب مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٧٤].

عهد الخليفة المهتدي بن الواثق (٢٥٥-٢٥٦هـ/ ٨٦٨-٨٦٩م)

١ - سعيد بن صالح مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٧٥].

عهد الخليفة المعتمد على الله بن أبي جعفر (٢٥٦-٢٧٩هـ/ ٨٦٩-٨٩٢م):

١ - يارجوج مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٧٦].

٢ - الحارث بن سيما مع البصرة وفارس والأهواز والبحرين[٧٧].

٣ - موسى بن بُغا ٢٦٠هـ/٨٧٣م مع البصرة وفارس والأهواز والبحرين، وأناب عنه عبدالرحمن بن مفلح[٧٨].

٤ - مسرور البلخي ٢٦١هـ/٨٧٤م مع الأهواز والبصرة وكور دجلة والبحرين، وبقي مسرور في بغداد في ديوان الموفـق أخـي الخليفة المعتمد، وفي عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م اقتصر قطاعه على اليمامة والبحرين وفارس، وبقيت اقطاعاً لـه حتى وفاته عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م في خلافة المعتضد بالله[٧٩].

عهد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠١م):

١ - مسرور البلخي مع البحرين وفارس(٨٠).

٢ - احمد بن محمد بن يحيى الواثقي حتى عام ٢٨٦هـ/٨٩٩م مع البصرة وكور دجلة والبحرين(٨١).

٣ - عباس بن عمر الغنوي ٢٨٧هـ/٩٠٠م مع البحرين ومحاربة القرامطة(٨٢).

عهد الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠١-٩٠٧م):

توقفت السجلات الرسمية عن ذكر اليمامة، وصرفت الحديث إلى قرامطة البحرين، وأشارت إلى امتداد نفوذهم إلى اليمامة، وهو وهم لا يقوم على ساقه(٨٣).

التعليقات

(١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣٤١هـ/ ٩٢٢م)، *تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م)، ٦: ٢٨٩.

(٢) تشير بعض المصادر إلى أن خالد بن الوليد استخلف على اليمامة، بعد انتهاء العمليات العسكرية، سمرة بن عمرو العنبري. انظر: البلاذري، أبوالعباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، *فتوح البلدان*، تحقيق: رضوان محمد رضوان (بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٧٨م)، ٣: ١٨٠؛ ابن حجر، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٨م)، *الإصابة في تمييز الصحابة* (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م)، ٣: ١٨٠؛ بينما يذكر ابن خياط في تاريخه إلى أن أبا بكر عّن سليط بن قيس، ابن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) *تاريخ خليفة بن خياك*، تحقيق: أكرم ضياء العمري (الرياض: دار طيبة، ١٩٨٥م)، ١: ١٢٣.

(٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٩.

(٤) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٨.

(٥) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٩٤؛ أبن حبيب، أبوجعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، *المحبر*، تحقيق: إيلزه ليختن، (بيروت: دار الآفاق الجديدة)،٤٦٥؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، عز الدين أبوالحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ*، تحقيق: عبدالله القاضي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ٥: ٣٤؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي، (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، *المنتظم في الريخ الملوك والأمم*، حيدر آباد الدكن، ٧: ٢٧٦.

(٦) ابن حبيب، *المحبر*، ٤٦٥.

(٧) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٩٤.

(٨) فاروق عمر، *طبيعة الدعوة العباسية* (بيروت: دار الإرشاد، ١٩٧٠م)، ٢٩٦.

(٩) الطبري، تاريخ، ٧: ٥٠٥. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، *كتاب الحيوان*، تحقيق: عبدالسلام هارون (بيروت:دار إحياء التراث العربي، ١٣٥٧هـ)، ٤: ١٣٨.

(١٠) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٤٦؛ مسكوية، أبوعلي أحمد بن محمد بن يعقوب، (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، *تجارب الأمم وتعاقب الهمم*، نشرة أمدروروز (القاهرة: ١٩١٤م)، ٦: ٥٣٢. ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٩٠.

(١١) البكري، أبوعبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣م)، ١: ١٣؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٩٥٦م)، ٥: ٢٦٢.

(١٢) الأصفهاني، الحسن بن عبدالله (ت ٣٥١هـ/ ٩٦٢م)، *بلاد العرب*، تحقيق: حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ)، ٣٢٥-٣٢٧.

(١٣) ياقوت الحموي، معجم، ١: ٣٤٧.

(١٤) يشير بعض الباحثين المعاصرين إلى أن سبب وضع اليمامة تحت إدارة الحجاز يرجع إلى اعتبارات اقتصادية، إذ كانت اليمامة تصدر الحنطة والقمح إليه. نزار الحديثي، "اليمامة في الإدارة العربية"، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثاني والعشرون، (١٩٧٨م)، ٢٨٥.

(١٥) ابن خياط، *تاريخ*، ٤١٤؛ الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١٥-٤٥٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٦١؛ ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩م)، ٥: ٤٤١.

(١٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٦٩؛ وانظر ملاحظات الطبري، *تاريخ*، ٨: ٢٠٤؛ وابن خياط، *تاريخ*، ٤٤٨؛ عن إجراءات الرشيد أنظر: الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، *تاريخ بغداد أو مدينة السلام* (بيروت: دار الكتاب العربي)، ١: ٩٦.

(١٧) الميد: قبائل منتشرة على شطوط نهران من حد اللتات "السند" إلى البحر ووصفوا بالكفر. انظر: ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٩م)، *صورة الأرض*، تحقيق: M.j. de Goeje (ليدن: بريل، ١٨٧٣م)، ٢٧٧-٢٨٠.

(١٨) خليفة بن خياط، *تاريخ*، ٢: ٤٤٦.

(١٩) الحديثي، *اليمامة في الإدارة العربية*، ٢٩١- ٢٩٣.

(٢٠) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٥٦.

(٢١) الوشمي، صالح بن سليمان، *ولاية اليمامة: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري* (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢١هـ)، ١١١.

(٢٢) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٤٠، ١٨٣، ٣٥٤، ٥١٢.

(٢٣) الجاسر، "حول اليمامة وولاياتها"، مجلة العرب، العدد السادس والثمانون، رمضان (١٣٩٠هـ)، ٢٧٩.

(٢٤) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٤٦.

(٢٥) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٣٠.

(٢٦) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٧٢؛ كنجور البخاري حاجب المؤيد، قتل عام ٢٥٩هـ بسامراء، انظر: الطبري، تاريخ، ٩: ٢، ٥.

(٢٧) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٨٣؛ يرى بعض المؤرخين أن الأخيضريين استولوا على اليمامة عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، بينما ينفرد ابن

حوقـــل بالقول عام ٢٣٢هـــ/٨٤٦م، وهو قول مُفرد. ابن حزم، محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـــ/ ١٠٦٣م)، *جمهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م)٤٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٧.

(٢٨) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٨٣.

(٢٩) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٢٤- ٤٧٤؛ ابن خلدون، *العبر*، ٥: ٧١١-٧٢٠.

(٣٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ١٣. ذكر السخاوي أن عبدالله بن محمد بن عجلات المدني ولاه الخليفة المهدي على صدقات اليمامةز وهذا يُبيّن مقدار أهمية زكوات اليمامة وكثرتها وتوسع رقعتها؛ لذلك كان الخليفة وليس الوالي هو الذي يعين صاحب منصـــب جابي الزكاة . انظر: السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت ٢٩٠هـــ) *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة* تحقيق: أسعد طرابزوني الحسيني (القاهرة: دار نشر الثقافة، ١٩٧٩م)، ٢ك ٨٣.

(٣١) أبوعبيدة، *النقائض*، ١: ٢٥، ١٣٠.

(٣٢) حمد الجاسر، ابن عربي: *موطد الحكم الأموي في نجد*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـــ)، ٢٦٣.

(٣٣) يـــربط ابن منظور بين المنبر ومقر الأمير، أو الوالي. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هـــ/ ١٣١١م)، *لسان العرب*، (بيروت: دار صادر)، ٥: ١٨٩.

(٣٤) الحـــربي، إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـــ/٨٩٨م)، *المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: دار الـــيمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـــ)، ٦١٢- ٦١٩؛ انظر تعليق الوشمي على أهمية المنبر معتمداً على بعض المؤرخين القدماء في الوشمي، ولاية اليمامة، ١٣٢.

(٣٥) ربمـــا يعـــود تناقص المنابر في اليمامة في فترة الدولة الأخيضرية إلى كون الأخيضريين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم على كافة مناطق وبلدات اليمامة، مما جعل بعض المناطق الخارجة عن سيطرتهم تعيش فراغاً إدارياً وسياسياً ينعدم في ظله دور المنبر. وربما يعـــود السبب إلى هجرة بعض السكان إلى خارج اليمامة نتيجة المصادمات مع الأخيضريين. انظر عبدالله العسكر، "*هجرة بني حنيفة إلى الأمصار الإسلامية في العصر الأموي*" (مجلة الدارة، العدد الثالث، ربيع الآخر، وجمادى الأول والآخر ١٤١٣هـــ)، ١٥- ٢٣.

(٣٦) ابن خياط، *التاريخ*، ٤٤٨. ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٦٩.

(٣٧) عبدالله العسكر، Al- Yamama in the Early Islamic Era, (London: Ithica Press, 2002)

(٣٨) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٠٨.

(٣٩) ابن خلدون، *ديوان المبتدأ والخبر*، ٣: ٣٣٩.

(٤٠) لا يوجد في المصادر ما يشير إلى معارضة مسلحة واجهت طلائع بني الأخيضر في اليمامة، وحتى الطبري المعاصر لهم لم يذكرهم في حولياته، على أن الأصبهاني ذكر خبراً عن حدوث مصادمات دامية بين الطرفين. الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـــ)، *مقاتل الطالبين*، تحقيق: أحمد صقر (القارة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩م)، ٧٠٥.

(٤١) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٥٤- ٣٧٦.

(٤٢) ابن خياط، *تاريخ*، ٤١٤؛ الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٨.

(٤٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٩.

(٤٤) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١١.

(٤٥) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١٥؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٦م)، ٥: ٣١٥.

(٤٦) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٣٦.

(٤٧) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٢١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٣١؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ٨: ٢٢٩.

(٤٨) انفرد ابن خلدون بهذا الخبر، بينما تشير مُعظم المصادر إلى أن الخليفة المهدي بعد أن عزل قثم بن تاعباس صيّر ولاية اليمامة إلى بشر بن المنذر؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٤: ٥٥١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٣١؛ ابن الجوزين *المنتظم*، ٨: ٢٢٩؛ وفوق هذا يذكر الطبري أن الفضل بن صالح كان في الفترة الزمنية المذكورة والياً على منطقة الجزيرة، وهي عند الطبري ما بين سنة ٢٥٩ -٢٦١هـ.

(٤٩) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٢١-١٢٣.

(٥٠) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٤١.

(٥١) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٦٣؛ الزبيري، أبو عبدالله بن مصعب بن عبدالله المصعب (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، *كتاب نسب قريش*، تحقيق: ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م)، ٣٣.

(٥٢) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٦٦؛ الزبيري، *نسب قريش*، ٢٤٢؛ البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١٠: ١٧٣.

(٥٣) ابن الخياط، *تاريخ*، ٤٤٨؛ الطبري، *تاريخ*، ٨: ٢٣٤-٢٣٨؛ البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٩٦.

(٥٤) ابن خياط، *تاريخ*، ٤٦١.

(٥٥) الزبيري، *كتاب نسب قريش*، ٣٥٨؛ ابن قتيبة، *المعارف*، ١٦٥.

(٥٦) البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٩٦؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٣٢٢.

(٥٧) البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٩٦؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٣٢٢.

(٥٨) الصولي، *كتاب الأوراق*، ٣١٢.

(٥٩) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٤١٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٤٨.

(٦٠) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٤٢٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٥٣؛ ابن كثير، عماد الدين أبوالفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، *البداية والنهاية* (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م)، ١٠: ٢٥٩.

(٦١) المبرد، أبوالعباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، *الكامل*، تحقيق: محمد احمد الدال، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م)، ٢: ٥٤.

(٦٢) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٢٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٧٣.

(٦٣) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٨٠.

(٦٤) الأصبهاني، *كتاب الأغاني*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم وآخرون (القاهرة: دار الكتب، ١٩٢٣-١٩٢٩م)، ١١: ٣٤٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢١٦.

(٦٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٦٢٣.

(٦٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٢٢.

(٦٧) الزبيدي، أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م)، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق: محمد

أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: ١٩٥٤م)، ١٧١- ١٧٣.

(٦٨) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٤٠.

(٦٩) ذكـر الطـبري أن الشاعر مروان بن أبي الجنوب صنع قصيدة في مدح الخليفة المتوكل بن الأمين فكافأه الخليفة بولاية اليمامة والـبحرين. أنظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٨؛ ياقوت، *معجم الأدباء*، ١٠: ٢٩٤. وقد علق أحد الباحثين المعاصرين على هذا الخـبر بقوـله إنها لم تكن سوى ولاية صورية كون الحادثة وقعت سنة ٢٤٧هـ واليمامة والبحرين كانتا ضمن إقطاع كبير للمنتصـر بن الخليفة المتوكل. انظر: الوشمي، ولاية اليمامة، ١١٤. وتفنيد خبر الطبري السابق، أو استنتاج صالح الوشمي نجده عـند الطبري نفسه الذي يشير صراحة إلى أن الخليفة أقطع الشاعر مروان بن أبي حفصة ابن الجنوب قطعة أرض زراعية كانت ضمن وقفية الخليفة المعتصم على ولده. وخبر توليه هذا الشاعر تتكرر عند الطبري مع الخليفة المعتز بن المتوكل. ويمكن أن يفند هـذا الخبر بمثل ما فند به الخبر السابق، فالمعتصم ربما جدد إقطاع والده للشاعر مروان؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٠٦. قال محمد بن مروان بن أبي حفصة قصيدة يمدح فيها الخليفة المعتز، وفيها إشارة واضحة إلى الإقطاع الذي سبق ومنح له نجتزئ منها هذين البيتين (الطبري، تاريخ، ٩: ٣٥١):

فاردُدْ عليَّ بنجد ضَيعة قبضَت   فإن مثلك مثلي يُقطعُ الضيعا

فإن ردَدت إمام العدلِ غَلَّيها   فالله أنفَ حُسّادي به جَدعا

(٧٠) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٧٥- ١٨٣.

(٧١) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٨٣.

(٧٢) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٥٨.

(٧٣) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٥٤.

(٧٤) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٤٧٦.

(٧٥) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٤٧٦- ٥٠١.

(٧٦) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٥١٢.

(٧٧) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٥١٣.

(٧٨) ابن خلدون، *العبر*، ٥: ٧١٥، ٧: ٦٩١؛ الطبري، *تاريخ*، ٩: ٥١٢- ٥١٤. تقصر المصادر التاريخية تولية عبدالرحمن بن مفلح عـلى ولاية الأهواز دون ذكر بقية الولايات؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٥ك ٥٠١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦ك ٢٤٠. ولعل تكرار الخبر أدى إلى اختصاره، أو ربما ولاية الأهواز تُعد آنذاك أكبر ولاية، وما عداها ولايات صغيرة تتبعها.

(٧٩) الطبري، *تاريخ*،٩١٠:٤٩٠، ٥٤١، ٦٠٢، ٦٦٣ ، ١٠: ٣٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٥٣.

(٨٠) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧١- ٧٥.

(٨١) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧١- ٧٨.

(٨٢) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٠٤.

(٨٣) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٣٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ١٤٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

قرامطة البحرين والخلافة العباسية
دراسة أولية للعلاقة السياسية بينهما
في القرنين الثالث والرابع الهجريين (٢٧٨- ٣٣٢هـ)

محمد بن فارس الجميل
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

المقدمة:

نتيجة للفراغ السياسي في جنوب العراق والخلل الاقتصادي والتفاوت الطبقي بين سكانه، أصبح بيئة ملائمة لقيام الاضطرابات والثورات ضد السلطة العباسية، وغالباً ما تتخذ هذه الانتفاضات من الدين عباءة لها، مثل: حركة الزنج وكذلك القرامطة[١]، وغالباً ما يكون ادعاء المهدية والتبشير بالمهدي أحد الوسائل الناجحة في الوصول إلى قلوب الجماهير المتلهفة للعدالة الاجتماعية والمساواة.

ولعل مما ساعد على ارتفاع وتيرة السخط والتذمر، وإعلان التمرد والعصيان في بعض الأحيان هو ضعف تمثيل السلطة المركزية هناك، حيث إن الخلافة نفسها كانت تصارع من أجل بقائها.

ومن نافلة القول التذكير بأن الخلافة العباسية أصبحت لا تملك زمام أمرها منذ أيام المعتصم[٢](ت: ٢٢٧هـ)، الذي جلب أعداداً من العنصر التركي واعتمد عليهم حرساً وجيشاً بدلاً عن العرب، واستشرى بين قادة الأتراك التناحر على المناصب والمصالح الذاتية، وذلك على حساب مصلحة الخلافة أولاً ثم المصلحة العامة للدولة ثانياً. لقد بلغ ذلك التنافس النكد والمرير ذروته بمقتل الخليفة المتوكل سنة (٢٤٧هـ) على يد كبار قادة الأتراك[٣]. وبذلك أصبح أول خليفة عباسي يموت مقتولاً على يد جنده. !!

ومنذ ذلك التاريخ صار الخليفة والخلافة العباسية رهن الوصاية والتسلط الأجنبي، فلم يعد الخليفة يملك حرية التصرف ولا القدرة كذلك على اتخاذ القرارات الحاسمة، ولعل أصدق تصوير لتلك الفترة الحالكة من أيام الدولة العباسية قول الشاعر:

خليفة في قفص	بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقول الببغا

في هــذه الظروف من الفوضى والاضطراب خرجت حركة الزنج في جنوب العراق حيث أصبح في ظل هذه الفوضى البيئة الملائمة لظهور المذاهب والحركات المناوئة للدولة، واستمرت في تحديها السافر للسلطة حتى تم القضاء علـيها في سنة (٢٧٨هـ)، وفي هذه الأثناء أعلنت حركة القرامطة عن ميلادها في جنوب العراق كذلك، ومن غير المشـكوك فـيه أن حركة الزنج هي التي منحت الحركة القرمطية شهادة ميلادها. ذلك أن القرامطة استغلوا انشغال الخلافة في حربها الضروس مع الزنج في الدعوة لأنفسهم في جنوب العراق الذي كان لا يزال يعاني سكانه من البطالة والفقر وأخلق بهذه البيئة أن تصبح مكاناً ملائماً لتفريخ المذاهب والدعوات الهدامة.

ولقـد عانـت الخلافة العباسية والمجتمعات الإسلامية كثيراً من الإرهاب القرمطي المتمثل بمهاجمة المدن العراقية كالبصرة والكوفة وغيرهما وكذلك مهاجمة قوافل الحج وقتل الحجاج وسبيهم وسلب أموالهم.

في ضـوء هـذه الصـورة البالغة القتامة للعلاقة بين قرامطة البحرين والخلافة العباسية يأتي هذا البحث محاولاً التعرف على أوجه القوة والضعف في كلا الجانبين، ويحاول الإجابة بوجه خاص عن سؤال هو:

هل ما لحق بالخلافة العباسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين من ضعف وهوان أمام قرامطة البحرين يعود في أصله إلى قوة القرامطة وانتشار نفوذهم أم أن قوة القرامطة الحقيقية واتساع هيبتهم في المنطقة يعودان في أساسهما إلى ضعف مركز الخليفة العباسي وتدهور مؤسسة الخلافة؟

١ – تمهيد:

لسـنا هـنا بحاجة للحديث عن نشأة حركة القرامطة وفروعها في سواد العراق والشام واليمن، فإن أخبارها مبـثوثة في ثنايا المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة[٤] إضافة إلى الدراسات الحديثة والمعاصرة التي نجحت في إماطة اللثام عن بعض جوانب الغموض التي اتصفت بها حركة القرامطة[٥]. أما ما يهمنا في هذا المقام فهو إلقاء الضوء على قرامطة البحرين وعلاقتهم بالخلافة العباسية وذلك في عهد اثنين من أشهر رجالهم وهما:

أبـو سعيد الجنابي (ت: ٣٠٠هـ) وابنه أبو طاهر الجنابي (ت: ٣٣٢هـ) وموقفهما من الخلفاء العباسيين في الفترة ما بين (٢٧٨- ٣٣٢هـ) وهم: المعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي.

ترتبط بدايات الدعوة القرمطية بالبحرين[٦] بالحركة القرمطية في سواد الكوفة، أيام حمدان بن الأشعث وعبدان، فقـد جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر يدعو بين قبائلها، وكان على رأس هذه القبائل عقيل وكلاب من قبائـل عامر ابن صعصعة[٧] ومن المرجح أن اسم هذا الداعية هو أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي وقد أنفذ سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م، ثم أُلحـق بعـد فـترة بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي[٨]. وقد اتهم يحيى الطمامي داعية القرامطة بالبحرين بالفسـاد والغدر وإظهار الإباحية، فما كان من شريكه في الدعوة أبي سعيد الجنابي إلا أن وثب عليه وقتله، واستولى على الأمر بعده[٩].

ولكن أبا سعيد هو الآخر لم يسلم من التهمة ذاتها التي اتهم بها الطمامي فقد قال عنه القاضي عبدالجبار الهمذاني (ت: ٤١٥هـ) في كتاب تثبيت دلائل النبوة: "فقد غرر بالناس لما ملكهم وأظهر من الإباحية وتعطيل الشرائع ما هو مذكور، وقال: إنه رسول الأمين الإمام حجة الله على خلقه، وهو محمد بن عبد الله بن الحنفية... وهو المهدي، في سنة ثلثمائة للهجرة يخرج ويملك الأرض كلها"[١٠].

إن أبا سعيد الجنابي الذي يبشر هنا بقرب المهدي المنتظر كان حسب رأي القاضي عبدا لجبار؛ "شريراً فاسقاً جاهلاً لا يعرف من كتاب الله شيئاً ولا من سنة نبيه، ولا شيئاً من الأدب، ولا شغل له إلا المعاش، فقد كان يبيع الدقيق والطعام بعين الزاره[١١] من أرض البحرين[١٢]".

ويظهر من إحدى الروايات عند المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) في كتاب اتعاظ الحنفا ...، أن أوائل من تبع دعوة أبي سعيد الجنابي ؛ أنهم قوم ضعفاء ما بين قصاب وحمال وأمثال ذلك. إضافة بالطبع إلى عائلة آل سنبر الذين أصبحوا فيما بعد وزراء لعائلة الجنابي[١٣].

٢ - أبو سعيد الجنابي والخلافة العباسية (٢٨٦ - ٣٠٠هـ):

ذكر الطبري في حوادث سنة (٢٨٦هـ) أن رجلاً من القرامطة يدعى أبا سعيد الجنابي ظهر بالبحرين، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وكثر أصحابه وقوي أمره في منتصف السنة، فقتل من حوله من أهل القرى، ثم صار إلى القطيف فقتل من بها[١٤].

فكان عام (٢٨٦هـ) هو أول ظهور مسلح لأبي سعيد الجنابي، وما من شك في أن ظهوره بهذه الصورة يَعدُ تحدياً سافراً للخلافة العباسية، التي ما إن علمت بهذا الخبر وبنية الجنابي بمهاجمة البصرة حتى سارعت بعمل سور عليها قدرت النفقة عليه بأربعة عشر ألف دينار[١٥].

ولكن قبل أن يأخذ منا العجب مأخذه جراء جرأة الجنابي على حرمة الدولة العباسية واقتطاع جزء من كيانها يجب أن نلتفت بضعة أشهر إلى الوراء لنعلم أنه في المحرم سنة (٢٨٥هـ)، هجم صالح بن مدرك الطائي بجماعة من طيئ على الحاج بالأجفر، فظفر الأعراب بالقافلة وأخذوا ما كان فيها من الأموال والتجارات وأخذوا جماعة من النساء الحرائر والمماليك، وقيل إن الذي أخذوا من الناس بقيمة ألفي ألف دينار[١٦].

وفي سنة (٢٨٦هـ) كذلك وفي رجب أي بعد خروج الجنابي ووقعته بالقطيف بشهر قام جماعة من أعراب بني شيبان بمهاجمة قرى الأنبار وقتلوا من لحقوا من الناس واستاقوا المواشي، وأرسلت العاصمة بغداد زهاء ألف رجل للمسؤول عن أمن الأنبار فهزمهم الأعراب، كما أرسلت قوة أخرى بقيادة العباس الغنوي، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن عاث الأعراب فساداً بعين التمر ونواحي الكوفة[١٧].

أمـا في السـنة التالية وفي شهر ربيع الأول سنة (٢٨٧هـ) فقد اشتد خطر القرامطة بالبحرين فأغاروا على نواحـي هجـر وقرب بعضهم من نواحي البصرة، فأرسلت العاصمة ثماني سفن فيها ثلثمائة رجل، كما أمر المعتضد باختيار جيش لينفذه إلى البصرة[١٨].

وفي شـهر رجـب من السنة نفسها كانت المواجهة العسكرية بين القائد العباسي العباس الغنوي وأبي سعيد الجنابي في السبخة المعروفة "بأفان" بالقرب من القطيف، وكان الجيش العباسي يتألف من سبعة آلاف رجل من الجند ومُطَّوعـة البصـرة والبحرانيين الذين كانوا جلوا عن البحرين، أما الجنابي فكان يقود سبعمائة فارس وراجل . انتهي ذلـك اللقـاء بهزيمة جيش الغنوي وتشريده وأسر قائده وسبعمائة رجل من رجاله، ومما زاد الأمر سوءاً أن البصرة أرسلت لمن أفلت من جيش الغنوي وهم قليل، أربعمائة راحلة عليها الأطعمة والكساء والماء فخرج عليهم بنو أسد، فأخذوا تلك الرواحل بما عليها وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العباس[١٩].

ربمـا يسأل سائل عن الغرض من هذا السرد الممل للأحداث، وما صلته بموضوع العلاقة بين قرامطة البحرين والخلافـة العباسية. ؟ والإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء، ألا وهي إبراز بعض الجوانب المعتمة في دار الخلافة، والمقصود هنا الجانب الأمني وهيبة الدولة . فمتى ضاع الأمن ضاعت هيبة الدولة.

والمـتأمل قلـيلاً في الأحداث التي مرّ ذكرها يلاحظ أن اضطراب الأمن في العراق، وبصورة أخص في جنوبه، كـان سابقاً على الظهور المسلح لأبي سعيد الجنابي في منتصف عام (٢٨٦هـ) إذ إن صالح بن مدرك الطائي وقومه هـاجموا في سنة (٢٨٥هـ) إحدى قوافل الحجاج وأخذوا الأموال والنساء. و لم تحرك الدولـة ساكناً بـل بعثـت بـالفداء لمن في قبضة الأعراب. ونلاحظ كذلك أنه بعد شهر من ظهور الجنابي في البحرين عاث الأعراب فساداً في قـرى الأنبار ونواحي الكوفة وفشلت قوات الخلافة في السيطرة على الأمور؟ ولعل الأدهى من ذلك كله هو خيانة أعـراب بـني ضبة ومُطَّوعة البصرة وهربهم من جيش العباس الغنوي ووقوع العباس وسبعمائة رجل من أصحابه في قبضة أبي سعيد الجنابي الذي كانت قوته تعادل عُشر قوة العباس الغنوي، بل إن مما زاد الطين بلة إجهاز الأعراب على فلول الجيش العباسي المهزوم ونهب المدد الذي أرسل لهم من البصرة ! فماذا عسى المتتبع لهذه الأحداث أن يقول بعد ذلك؟

ألـيس مـرد ذلك التصرف هو ضياع هيبة الدولة، وضياع الأمن نتيجة مباشرة لذلك!! نحن نعلم أن الخلافة خاضـت حرباً لا هوادة فيها طوال خمسة عشر عاماً ضد الزنج في البصرة وما حولها، ولكن هذه الأحداث تأتي بعد مضي ما يقارب ثماني سنوات من القضاء على حركة الزنج، يفترض أن الدولة قد استعادت في خلالها قوتها وحيويتها وقدرتها على مواجهة المستجدات، ولكن ذلك لم يحدث!!

في هذه الأثناء أي في ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ) توفي الخليفة المعتضد وخلفه ابنه علي الذي آثر لقب المكتفي،

وفي عهــد المكتفي عاث قرامطة السواد والشام ومن تبعهم من بعض القبائل العربية فساداً في الأرض، وذلك بزعامة زكرويه بن مهرويه في الفترة ما بين (٢٩٣- ٢٩٤هــ) وكانت وقعاتهم بالحجاج مشهورة في واقصة والعقبة والهبير والثعلبـية والشقوق وقيل إنه بلغ من قتل من الحجاج ورجال السلطة خمسين ألف قتيل !! ولو صح نصف هذا العدد فإن الأمر يكون مفزعاً[٢٠].

وفي الربع الأول من سنة (٢٩٤هــ) سقط زكرويه بن مهرويه قتيلاً[٢١] على يد قوات المكتفي الذي لم يمتد به الأجل لينعم بانتصاره، إذ توفي في أواخر سنة (٢٩٥هــ).

٣ – خلافة المقتدر (٢٩٥– ٣٢٠هــ):

وجيء بجعفر بــن أحمــد الملقب بالمقتدر (ت: ٣٢٠هــ)[٢٢] إلى كرسي الخلافة في شهر ذي القعدة سنة (٢٩٥هــ) وسنه آنذاك لا تتجاوز الثالثة عشرة. ويجدر بنا هنا أن نتعرف على المقتدر عن قرب لتتضح الصورة.

"أفضت الخلافة إليه -كما يقول المسعودي- وهو صغير غر ترف لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك، فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة، وغلب عــلى الأمــر النســاء والخدم وغيرهم، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة، فأداه ذلك إلى سفك دمه واضطربت الأمور بعده وزال الكثير من رسوم الخلافة[٢٣]". ويضيف ابن مسكويه قائلاً: "... وفوض [المقتدر] الأمور إلى أبي الحسن بن الفرات ... وتفرد المقتدر على لذاته متوفراً واحتشم الرجال واطرح الجلساء والمغنيين، وعاشر النساء، فغلب على الدولة الحرم والخدم ..."[٢٤].

والسؤال هنا لماذا اختير من هذه سنه وهذه صفاته لأرفع منصب ديني ودنيوي في الدولة ألا وهو الخلافة؟ لماذا لم يرشــح لهذا الأمر من هو أقدر منه وأسنُ منه من أبناء البيت العباسي؟! الإجابة عن هذا السؤال تظهر جليــة في المشــاورات التي دارت بين ابن الفرات وبين الوزير العباس بن الحسن [وزير المكتفي]، بشأن المفاضلة بين ابن المعتز وبــين المقــتدر، قــال ابن الفرات مخاطباً الوزير العباس: "إن ابن المعتز يخبر نِعَم أصحاب السلطان ويعرف أسرارهم وذخائرهم، وقد خالط الناس وفهم أمورهم فعينه ممتدة إلى ما في أيديهم".

وأشار ابن الفرات على الوزير العباس بن الحسن بجعفر بن المعتضد مرشحاً للخلافة، وعندما أجابه أنه صغير، رد ابــن الفرات قائلاً: "ولِمَ نأتِ برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج لنا، وإن كان جعفر بن المعتضد بالله صغيراً فأنت تدبره ..."[٢٥].

وهكــذا تظهر أهداف رجال الإدارة من وزراء وكتاب، فهم يطمحون إلى أن يكون الخليفة مجرد لعبة بأيديهم يوجهونهــا كــيف يشــاءون ولا أفضل لهم من صبي صغير في الثالثة عشرة من العمر لتحقيق أهدافهم تلك! بل إن "شــغب"، والــدة المقتدر التي أصبحت تعرف بالبلاط فيما بعد بالسيدة، إشارة لجلال قدرها وعظم منزلتها، كانت

تدرك عدم أهلية ابنها المقتدر للخلافة، فبعد فشل الحركة الانقلابية التي قام بها أنصار ابن المعتز سنة (٢٩٦هـ)[٢٦]، أجلست ابنها المقتدر بالله في حجر الوزير ابن الفرات وقالت له: "هذا يا أبا الحسن ولدك وأنت قلدته الخلافة أولاً وثانياً"[٢٧].

إن السيدة شغب تدرك عدم صلاحية ابنها للخلافة، ولكنها تدرك أيضًا أن ذلك أدعى لتفردها بالأمر دونه .

ولا أدل على ضعف المقتدر عن إدارة شئون الدولة واضطراب الأمور عليه أن استوزر في مدة خلافته التي بلغت خمساً وعشرين سنة، اثني عشر وزيراً فيهم من وزر له المرتين والثلاث، وعلق على ذلك المسعودي قائلاً: "ولم يعرف فيما قبله أنه استوزر هذه العدة"[٢٨].

لقد طال بنا الوقوف مع الخليفة المقتدر بالله، لأنه أطول خلفاء هذه الفترة حكماً ومن ثم فإن علاقته بقرامطة البحرين أطول زمناً وكانت متوترة في معظمها، لذلك كان لابد من هذه الوقفة!

ومن أجل التعرف بصورة أكثر وضوحاً على حال الخلافة والخليفة معاً لابد من ذكر بعض الحوادث المتلاحقة في تلك الفترة التي قد تساعد في إلقاء المزيد من الضوء على العلاقة بين الخلافة العباسية وقرامطة البحرين، فمثلاً: في شهر ذي الحجة سنة (٢٩٩هـ)، غضب المقتدر على وزيره علي بن محمد بن الفرات وحُبس ووضعت ممتلكاته تحت الحراسة وكان أُدّعي عليه أنه كتب إلى الأعراب بأن يكبسوا بغداد[٢٩]. ربما لإثارة الاضطراب والفوضى حتى يشعر الخليفة بمدى أهمية وزيره ابن الفرات مثلاً؟ !

وعين المقتدر بدلاً عنه محمد بن عبيدالله بن خاقان، وقيل إن السبب في ولايته كان مشورة أم ولد المعتضد "دستنبويه" [؟] على أن ضمن لها مئة ألف دينار[٣٠]. فهنا الاختيار للمنصب ليس للكفاءة بل لمن يدفع أكثر . ويظهر أن هذا الوزير لم يكن أهلاً لمنصب الوزارة وإدارة الدولة، فقد ذكر أحد المصادر أن أولاده وكتابه كانوا يرتفقون من العمال بما يولونهم به من الولايات ثم يعزلونهم، إذا رأوا مطمعاً، فاجتمع بحلوان في خان بها سبعة عمال، أسند لهم في عشرين يوماً ولاية ماء الكوفة[٣١]. وحسب أحد المصادر كذلك فقد كان يولى العمل الواحد جماعة في أسبوع، حتى قلدّ عمالة بادوريا في أحد عشر شهراً أحد عشر عاملاً[٣٢].

ولما رأى المقتدر ضعف الوزير محمد بن عبيد الله أراد إقالته وتنصيب أحمد بن يحيى المعروف بابن أبي البغل وزيراً مكانه، وما أن علم الوزير بذلك حتى ذهب إلى دار الخلافة وصانع جماعة من الخدم والحرم وضمن لأم ولد المعتضد التي كانت قد عنيت بولايته في أول أمره خمسين ألف دينار، فنقضت أمر ابن أبي البغل ورُدّ والياً على فارس[٣٣]. ولكن هذه الرشوة لأم ولد المعتضد لم تَحُل بين الوزير محمد بن عبدالله والعزل حيث عُزل وفرضت عليه وعلى أبنائه الإقامة الجبرية وعين في الوقت ذاته علي بن عيسى بن الجراح[٣٤] الذي قدم من الحجاز[٣٥].

في هذه السنة أي سنة (٣٠٣هـ) حاول الوزير علي بن عيسى أن يصل إلى علاقة طيبة مع قرامطة البحرين

لعلــه يصــرف خطــرهم عن الحجاج وغيرهم فشغلهم بالمكاتبة والمراسلة والدخول في الطاعة وأطلق لهم التسوق بسيراف[٣٦] فردعهم بذلك وكفهم، فخطأه الناس واتهموه بأنه قرمطي[٣٧].

وفي أوائــل ذي الحجة سنة (٣٠٤هـــ) قبض على الوزير علي بن عيسى، ونهبت منازل إخوته ومن يمت إليه بصلة، وحُبس في دار الخليفة المقتدر، وتقلد في اليوم نفسه الوزارة علي بن محمد بن الفرات[٣٨].

ومما يدل على انفلات الأمور في دار الخلافة واستبداد النساء باتخاذ القرار، وهو ما يعكس بطبيعة الحال ضعف مركز الخليفة، هو ما أقدمت عليه السيدة أم المقتدر، بتكليف قهرمانة لها تدعى " ثمل"[٣٩] أن تجلس للمظالم وتنظر في رقــاع الــناس في كــل جمعة يوماً[٤٠] وكان الأجدر بمن يقوم هذا المقام الخليفة نفسه أو أحد ذوي الجاه من رجال دولته.!!

وبســبب هزيمة القائد العباسي مؤنس سنة (٣٠٦هـــ) أمام يوسف بن أبي الساج أحد الخارجين على الخلافة، كــثر الطعن على الوزير ابن الفرات ونسب كل ما حدث إلى تضييعه للأمور، فقبض عليه في أواخر شهر ربيع الآخر وأودع الســجن، فكانــت وزارته هذه المرة سنة وخمسة أشهر تقريباً وعُين للوزارة بدلاً عنه حامد بن العباس، الذي كان قد ضعف وكبرت سنه[٤١].

ومــن اللافــت للــنظر مــا أشــار إليه ابن الجوزي أنه في السنة التالية أي سنة (٣٠٧هـــ) دخل القرامطة البصرة،ووافق ذلك تقليد ابن الفرات الوزارة للمرة الثالثة[٤٢]. وهذا وهم وقع فيه ابن الجوزي، لأن حوليات التاريخ الإسلامي لم تذكر أن القرامطة دخلوا البصرة في ذلك العام، ومعلوم كذلك أن ولاية ابن الفرات الثالثة للوزارة كانت في سنة ٣١١هـــ التي عرفت بسنة الدمار[٤٣].

ويقــع في الخطــأ نفسه ماد لونغ Madelong عند مناقشته لإشارة ابن الجوزي هذه فيقول مصححاً ... إن الولاية الجديدة لابن الفرات حدثت في العام (٣١٨هـــ/ ٩٢٣م) "بالتأكيد"[٤٤] أما الذي يجب تأكيده هنا فهو أن ابن الفــرات مات مقتولاً في سنة (٣١٢هـــ) الموافق (٩٢٤م) تقريباً وأن عام (٣١٨هـــ) يوافق (٩٣٠م) تقريباً وليس كما جاء عند مادلونغ .

٤ – أبو طاهر الجنابي والخلافة العباسية: (٣١٠ – ٣٣٢هـــ)

لقــد لقــي أبــو سعيد الجنابي مصرعه على يد أحد الخدم في ظروف غامضة، وذلك في سنة (٣٠٠هـــ) أو (٣٠١هـــ) مع جماعة من كبار خواصه[٤٥] وتولى الأمر من بعده ابنه سعيد، وكان أسَنَ إخوته ولكنه كان ضعيفاً، ثم ما لبث أن خلع سعيد سنة (٣٠٥هـــ)، وجاء محله أخوه أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي[٤٦] حيث تولى القيادة في ســنة (٣١٠هـــ) وعمره آنذاك ستة عشر عاماً تقريباً[٤٧] وفي عهده بلغت حركة قرامطة البحرين ذروة عنفوانها وهيبتها وشهدت فيه العلاقة مع الخلافة العباسية أسوأ مراحلها.

فــإذا انتقلـــنا إلى أحـــداث سنة (٣١١هــ) فإننا نشم منها روائح الفضائح والتهم بالخيانة المتبادلة بين وزراء الدولة، ونرى فيها كذلك الأحداث المفجعة في البصرة على يد القرامطة.

قـــال الصولي عن أحداث هذه السنة:دخل أصحاب الجنابي البصرة في ليلة الاثنين بعد ولاية ابن الفرات الثالثة بأربعـــة أيام، وكان خبر ولايته والقبض على علي بن عيسى قد بلغ إليهم ممن يكاتبهم بوقته وأظنه "بطائر" لأن بعض البصـــريين الثقات حدثني قال: "جعل القرامطة يقولون لنا: يوم الاثنين! ويلكم ما أراد سليطينكم من ذلك الشيخ ما فيكم أعقل منه ولا أجود رأياً وإن كان دينكم على دينه ولتعلمن ما تلقون بعده. قالوا: ونحن لا نعلم ما يقولون حتى ورد خـــبر من بغداد ونحن بالجزيرة وهم بشط البصرة حالياً، فأخبرنا بالقبض على علي بن عيسى وحامد بن العباس وولاية ابن الفرات"[٤٨].

وكان أبو طاهر الجنابي قد دخل البصرة فجر يوم الأثنين لخمس بقين من ربيع الآخر سنة (٣١١هــ) في ألف وســـبعمائة رجل وأنه وصل إليها بسلاليم نصبها على سورها وقتل الحراس وقتل سبك المفلحي أمير البصرة وأحرق المربد وبعض الجامع وحاربه أهل البصرة عشرة أيام وهربوا منه وأقام بها سبعة عشر يوماً . وغادرها بعد أن حمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان[٤٩].

وهكـــذا عـــاث قـــرامطة البحرين سبعة عشر يوماً في البصرة إحدى حواضر العراق الرئيسة و لم تحرك الخلافة ساكناً!!

وحـــوادث هذه السنة أي سنة (٣١١هــ) تؤكد أن ابن الفرات قد قلد الوزارة للمرة الثالثة بمسعى من مفلح خـــادم المقتدر، واعتقل علي بن عيسى وسُلم إلى زيدان القهرمانة[٥٠]. وكانت هذه السنة شديدة الوطأة على الناس، سميت سنة الدمار والهلاك ولي فيها علي بن الفرات الوزارة للمـــرة الثالثة ...[٥١].

وادعى ابن الفرات على علي بن عيسى أنه كاتب القرامطة على المسير إلى البصرة ويذكر الهمذاني صاحب هذا الخبر أن علياً نوظر فلم يصح عليه شيء[٥٢].

وجاء عند ابن مسكويه في حديثه عن المناظرة التي وقعت بين ابن الفرات وعلي بن عيسى قوله: "ثم ناظره على مـــا حملـــه إلى القرامطة من الهدايا والسلاح وما ترددت بينه وبينهم من المكاتبات مرة والمقاربات مرة أخرى. فقال أردت اســـتمالتهم وإدخـــالهم في الطاعة وكفهم عن الحاج وأعمال الكوفة والبصرة مدة ولايتي دفعتين وأطلقوا من الأسارى الذين كانوا من المسلمين عدة ..."[٥٣].

وكمـــا هـــو ملاحظ فإنه يتبين من رواية ابن مسكويه أن العلاقة بين الوزير علي بن عيسى وقرامطة البحرين كانـــت شـــبه متصلة وقديمة ربما تعود إلى أواخر أيام أبي سعيد بن بهرام، حيث يذكر أحد المصادر أن علياً كاتب أبا ســـعيد وطلب منه إطلاق أسر من لديه من المسلمين، وأن الكتاب لم يصل إلا بعد وفاة أبي سعيد وأن أولاده أطلقوا

من لديهم من الأسرى وهم "نحو ثلاثين ألفاً[٥٤]" .

أما ابن الجوزي فيؤرخ للاتصال الأول الذي حدث بين الوزير علي بن عيسى، بتوجيه من الخليفة المقتدر وبين أبي سعيد الجنابي بأنه في سنة (٣٠١هـ) وحسب رواية ابن الجوزي فإن ذلك الاتصال لم يسفر عن شيء حاسم في أمر العلاقة بين الطرفين و لم يرد فيه أي ذكر لقضية الأسرى[٥٥].

ويضيف ابن الجوزي أنه في سنة (٣٠٣هـ)، نظر علي بن عيسى بعين رأيه إلى أمر القرامطة فخافهم على الحاج وغيرهم فشغلهم بالمكاتبة والدخول في الطاعة وأطلق لهم التسوق بسيراف، فكفهم بذلك فخطأه الناس ونسبوه إلى موالاتهم ... [٥٦].

وكما هو واضح فإنه ليس في روايات ابن الجوزي التي أُشير إليها هنا ما يفيد في موضوع الأسرى، أو عدد من أفرج عنه منهم.

ولكن يظل عدد من أطلق من الأسرى حسب رواية القاضي عبد الجبار، الذي يجب التعامل مع رواياته بقدر من الحذر -رقماً ظاهر المبالغة- ولا يجوز التسليم به على إطلاقه لاسيما وأن القاضي عبد الجبار لم يذكر ما قدمته الدولة العباسية للقرامطة، مقابل إطلاق هذا العدد الجم من الأسرى .!!

ومادام الحديث لا يزال موصولاً عن اتصالات الوزير علي بن عيسى بقرامطة البحرين، والتهم التي وجهت إليه من قبل بعض أعدائه في الدولة العباسية، فقد جاء في "كتاب العيون" القول إن القرامطة الذين استسلموا في عام (٣١١هـ) قد زعموا أن علياً بن عيسى كاتبهم بالمسير إلى البصرة وأنه وجه إليهم عدة أوقات بهدايا وسلاح"[٥٧].

أمام هذا الاضطراب بخصوص علاقة الوزير علي بن عيسى بقرامطة البحرين واتصاله بهم، جاء عند ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ) ما يمكن أن يساعد على فهم طبيعة تلك العلاقة، ففي عن حديثه عن محاكمة علي بن عيسى أمام الوزير ابن الفرات وبحضرة أحد القضاة، تبين أن الوزير علي بن عيسى قد كاتب قرامطة البحرين فعلاً، وكان سفيره إليهم رجلاً يدعى ابن قليجة، وهو شاهد الإثبات ضد الوزير.

ونتيجة لاتصالات علي بن عيسى بالقرامطة تمكن من فكاك أسر ثلاثة آلاف أسير من المسلمين، كانوا لديهم - وليس ثلاثين ألفاً كما زعم القاضي عبدالجبار- وأقر الوزير كذلك بأن القرامطة كاتبوه يلتمسون منه المساحي والطِّلْقْ، وأنه أجاب مطلبهم، وحجته في ذلك قوله: "أردت بهذا المصلحة، واستعادتهم إلى الطاعة بالرفق وبغير حرب"[٥٨].

وهكذا تظل تهمة الاتصال بالقرامطة تُردد في أكثر من مصدر، ولعل أخطر ما فيها هو إعطاء السلاح للقرامطة!! وهل كان القرامطة بحاجة فعلية إلى السلاح؟ ويظهر أن هجوم القرامطة على البصرة في سنة (٣١١هـ) لم

يكـــن بســـبب دعـــوة علي بن عيسى المزعومة لهم، بل ربما كان تنفيذاً لأمر الفاطميين كما يذهب إلى ذلك أحد الدارسين(٥٩).

وإذا كـــان للباحث أن يأخذ برواية الصولي عن دخول القرامطة للبصرة -وهي بلا شك رواية جديرة بالثقة- فإنـــه ربما كان أحد الأسباب الوجيهة لدى القرامطة لمهاجمة البصرة هو عزل علي بن عيسى عن الوزارة وتقليـــدها لعلي بن الفرات.

وهكـــذا فقـــد وجهت التهمة للوزير علي بن عيسى بالخيانة وممالأة القرامطة، فصودرت بعض أمواله وقضى الوزيـــر ابن الفرات بنفيه إلى اليمن، -على الرغم من تبرئة القاضي له- ووكل به رجلاً من أصحابه وأمره بالاحتيال لقتله في الطريق(٦٠).

ومن المفارقات في هذه القضية أن الذي يوجه الاتهام ويصدر الحكم هو العدو اللدود للمتهم علي بن عيسى أي ابن الفرات، ويلاحظ أن الخليفة مغيبٌ فلا نكاد نسمع له قولاً في هذا ا لشأن الخطير(٦١). سوى أنه أذن لابن الفرات في إبعاد علي بن عيسى إلى مكة(٦٢).

ولدينا رواية أخرى ذات صلة مباشرة بإقالة علي بن عيسى ومهاجمة البصرة، وهي تكشف لنا في الوقت نفسه عـــن مدى النفوذ الذي بلغه القرامطة وشيعتهم في دار الخلافة، يقول القاضي عبدالجبار: "... وكان بنو بسطام وبنو القاســـم بن عبد الله وآل الفرات وأمثالهم يستولون على دولة المقتدر بالله، وكانوا يتشيعون فراسلوا أولاد أبي سعيد [أي الجنابي]، وقالوا لهم: أنتم خرجتم أيام المعتضد والمكتفي فلما صار الأمر إلى هذا الصبي -المقتدر- قعدتم، قوموا فنحن كتابه وأصحابه والدولة لكم ولا يوحشنكم قتل أبي سعيد وما كان منه فإن الناس قد تناسوا ذلك . فقالوا هذا الرجل علي بن عيسى رجل صالح ومادام هو الناظر فما نختار مخالفته، فلما قبض السلطان على علي بن عيسى، أطلق مـــن ببغداد والكوفة من الشيعة الطيور إلى البحرين بذلك، فغزوا البصرة على غفلة وغدروا بهم أقبح غدرة، ثم غزوا الكوفة وسر بهم الشيعة، وقالوا: أبو طاهر بن أبي سعيد ولي الله وحجة الله، والمهدي بالبحرين يخرج عن قرب، وأبو طاهر خليفته وهو الذي يأخذ الأرض له ويكون ملكه بالبحرين ..."(٦٣).

هـــذه الرواية التي ذكرها القاضي عبد الجبار إن كان للباحث أن يقبل بها مع بعض التحفظ فهي في واقع الأمر لائحـــة اتهـــام لبعض الأسر النافذة في بغداد بميولهم الشيعية وموالاتهم لأعداء الدولة من القرامطة وتآمرهم على رأس الدولـــة أي الخليفة، بل إن القاضي عبد الجبار يكرر القول بأن في بغداد والكوفة وسوادها أناساً يراعون أمر المقتدر ويـــنقلون أخـــباره إلى أبي طاهر بن أبي سعيد(٦٤). مفاد هذا الخبر أن جواسيس القرامطة والمتعاطفين معهم من ذوي الميول الشيعية يكثرون وينشطون في العاصمة بغداد وفي الكوفة وريفها ويتصلون بأبي طاهر ويكشفـــون لـــه عـــن أخبار الدولة وأسرارها. وهذا ما يمكن وصفه بلغة اليوم أن الجبهة الداخلية للدولة أصبحت مخترقة وأن طابوراً خامساً

يعمل لصالح العدو في أهم حواضر الخلافة.

وفي خضم هذه الأحداث المتلاحقة، التي تعصف بالخلافة، أتى الخبر في أول شهر المحرم سنة (٣١٢هـ) باعتراض أبي طاهر الجنابي طريق الحاج في "الهبير وهم في طريق عودتهم من الحج [٦٥]" إذ إن الجنابي وأصحابه أوقعوا بهم فقتلوا عامتهم وأسروا خلقاً، وأخذوا ما معهم فماتوا عطشاً وجوعاً، كما قتل كثيراً من وجوه المجتمع البغدادي، وكان جملة أصحاب الجنابي قرابة ألف وستمائة رجل[٦٦].

ويضيف عريب إلى هذا الخبر قوله: وكل من أفلت من أيدي القرامطة . أكلهم الأعراب، وسلبوا ما بقي معهم مما كان تخبأه الناس من أموالهم، ومات أكثر الناس عطشاً وجوعاً[٦٧].

وماذا عن موقف الخليفة أمام هذا التحدي الخطير لسلطانه والعبث بأمن مملكته والاستهانة بحرمة حجاج بيت الله الحرام؟ !

لقد أمر الخليفة بمواجهة هذا الحادث الجلل وطلب من مؤنس الخادم القدوم من الرقة ليخرج إلى القرمطي! ووصل مؤنس أخيراً إلى بغداد في غرة شهر ربيع الأول[٦٨]. أي بعد هذه الحادثة بشهرين، ولكن من الواضح أن مؤنساً لم يفعل شيئاً تجاه هذه الكارثة.

وأمام هذه الفاجعة التي حلت بالحجاج في الهبير على يد أبي طاهر، انقلبت بغداد كما يقول ابن الأثير: واجتمع حُرَم المأخوذين إلى حُرَم المنكوبين الذين نكبهم ابن الفرات، وجعلن ينادين: القرمطي الصغير أبو طاهر قتل المسلمين في طريق مكة، والقرمطي الكبير ابن الفرات قد قتل المسلمين ببغداد". ثم يعلق ابن الأثير على ذلك بالقول: "وكانت صورة فظيعة شنيعة، وكسر العامة منابر الجوامع، وسودوا المحاريب يوم الجمعة لست خلون من صفر سنة (٣١٢هـ)" [٦٩].

ويقدم لنا ابن مسكويه صورة عن الاتهام الذي وجهه نصر الحاجب ضد ابن الفرات أمام الخليفة المقتدر، وفيه تعليل أيضاً لنكبة الحجاج في الهبير، جاء فيه: الساعة تقول: "أي شيء الآن .." بعد أن زعزعت أركان الدولة وعرضتها للزوال، بإبعادك مؤنساً الذي يناضل الأعداء ويدفع عن الدولة، فمن يمنع الآن هذا الرجل [أي أبوطاهر القرمطي] عن السرير، ومن الذي أسلم رجال السلطان وقواده وحرمه إلى القرمطي سواك[٧٠]! وقد ظهر الآن أمر العجمي الذي وجد في دار السلطان، وإنه إنما كان صاحب القرمطي ..."[٧١].

وكان قد وجد في أوائل محرم سنة (٣١٢هـ) رجلاً أعجمياً على سطح دار السر، التي كان المقتدر يكثر الجلوس فيها ومعه محبرة وأقلام وورق وحبل وسويق ومقدحة وسكين، واحضر إلى ابن الفرات فسأله عن حاله فقال لا أخاطب غير الخليفة، فضرب وهو يقول "ندانم" أي لا أعرف بالفارسية، حتى قتل بالعقوبة[٧٢].

والغريب أن هذا الفارسي المشتبه في أمره قد طلب مقابلة الخليفة ليفصح له عن سبب وجوده في الدار،

ولكن ابن الفرات لم يمكنه من ذلك، بل عاقبه حتى تلف فصلب ولف على حبل[٧٣]!!

ووجود هذا الفارسي في دار الخلافة أصبح تهمة خيانة ومؤامرة على حياة الخليفة رمي بها كل من نصر الحاجب وابن الفرات صاحبه في حضرة الخليفة[٧٤].

والحقيقة، أنها ليست المرة الأولى التي يظهر فيها رجل غريب في دار الخلافة فقد حدث في سنة (٢٨٤هـ) أن ظهر شخص غريب في دار المعتضد بالثريا أكثر من مرة مما سبب الخوف والانزعاج في نفس المعتضد، ودعاه إلى إحكام السور وتشديد الحراسة حوله، ولكن لم يظفر بذلك الرجل[٧٥]!

وربما كان إدخال بعض الغرباء في قصور الخلفاء أحد أساليب رجال السياسة في ذلك العصر لابتزاز الخليفة وتخويفه. وليس من المستبعد كذلك أن يكون أولئك الغرباء الذين ظهروا في أكثر من مناسبة في قصور الخلفاء مجندين للقرامطة أو للإسماعيلية !![٧٦].

واستجابة للغليان الشعبي احتجاجاً على تفريط ابن الفرات في حفظ الحجاج الذين أوقع بهم أبو طاهر الجنابي، وكذلك اشتطاطه في مصادرة أموال بعض الناس في بغداد، ونتيجة لضغوط كل من مؤنس وشفيع اللؤلؤي ونصر وشفيع المقتدري على الخليفة بالتخلص من ابن الفرات وولده المحسِّن، فقد وجهت إليه التهمة، ويمكن اختصارها حسب ما وردت عند عريب بأنها: "عظيم ما أحدث في الملك، وأفسد من الأمور وأتلف من الرجال ..."[٧٧] فأصدر الخليفة المقتدر أمره بقتل ابن الفرات وابنه المحسِّن، ورمي برأسيهما في دجلة.

وكان قد تم القبض على ابن الفرات وابنه في أوائل شهر ربيع الآخر سنة (٣١٢هـ)[٧٨] أي بعد ثلاثة أشهر تقريباً من نكبة الحجاج في الهبير.

ثم أُحضر أبو القاسم عبدالله بن محمد الخاقاني فاستوزر مكان ابن الفرات، وكان مؤنس الخادم هو الذي أشار به، وزين أمره وحض المقتدر على استيزاره[٧٩].

وهكذا ينفرد خادم في قصر الخلافة بترشيح الوزير الذي يناط به تصريف أمور المملكة والناس ومعاشهم، وهذا في ظل غياب مجلس استشاري بعيد عن الأهواء يشير على الخليفة بمن هو جدير بتحمل مسؤولية الأمانة !!

وبالعودة إلى علاقة قرامطة البحرين بالخلافة، نجد في بعض المصادر ما يفيد أن أبا طاهر القرمطي قد أطلق من الأسر ألفي رجل ومائتين وعشرين وخمسمائة امرأة، فأطلق منهم أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون الأمير، وأحمد بن بدر عم السيدة -أي أم المقتدر- وغيرهم، وطلب من الخليفة أن يتنازل له عن البصرة والأهواز، ولكن الخليفة رفض الطلب[٨٠].

وبسبب رفض الخليفة لطلب أبي طاهر، فقد قرر الانتقام وذلك عن طريق تعطيل قوافل الحج ونهبها، وكان قد قدم في ذي القعدة من سنة (٣١٢هـ) حجاج خراسان إلى بغداد في طريقهم للحج، وكانوا مستعدين بالخيل

والسـلاح ويصـحبهم خفارة يقدر عددها بستة آلاف إضافة إلى ألف رجل من بني شيبان بقيادة جعفر بن ورقاء الشـيباني أمير الكوفة، وكان الجنابي قد كمن لقوافل الحجاج بالقرب من "زبالة"[٨١] وصارت المناوشة بين الفريقين، وتخلص ابن ورقاء بنفسه، وقُتِل خلق من الجند ممن كان معه وترك الحاج المتسرعة خيلهم وتفرقوا راجعين إلى الكوفة واتبعهم القرمطي حتى الكوفة وقتل خلقاً من الجند وغيرهم وانهزم الباقون إلى بغداد وأقام القرمطي بالكوفة أياماً وأخذ كثيراً من أهلها وأسرهم أصحابه .. ورحل إلى البحرين بعد أيام[٨٢].

وكان كل ما فعله الخليفة أمام هذا التحدى القرمطي لسطانه أن بعث جيشاً إلى الكوفة لإخراج أبا طاهر منها بلغت النفقة عليه كما قيل ألف ألف درهم، ولكن لم يجد نفعاً إذ إن القرمطي قد رحل إلى بلاده[٨٣].

ونتـيجة لهـذه الوقعة فقد بطل الحج من العراق هذا العام[٨٤]. وفي شهر رمضان سنة (٣١٣هـ) قبض على الوزيـر عـبد الله بن محمد الخاقاني ووكل به في مترله، فكانت ولايته ثمانية عشر شهراً[٨٥]، وكان من أسباب عزله اعتلال صحته والأزمة المالية الخانقة التي لم يستطع أن يجد لها حلاً[٨٦].

وقـد أشار إلى ذلك عريب في قوله: "ومما أوهن أمر الوزير وكرّهه إلى الناس غلاء الأسعار في زمانه و لم يكن عنده حيلة يكثّر بها ورود الميرة إلى بغداد"[٨٧]. ومن ثم رُشح الخصيبي للوزارة بدلاً عن الخاقاني، والذي قام بالترشيح هذه المرة لهذا المنصب الخطير بعض نساء القصر!!

فقـد جـاء في روايـة لابن مسكويه أن مؤنساً أشار على المقتدر باستحضار علي بن عيسى وتقليده الوزارة فاستبعد المقتدر ذلك. -لأن علياً كان في المغرب آنذاك- فأشارت السيدة أي والدة المقتدر والخالة. أي أختها ؟- بأبي العباس الخصيبي[٨٨].

أمـا رواية عريب فهي تختلف بعض الشيء، وتؤكد على دور القهرمانة ثمل في ترشيح الخصيبي للوزارة، قال: "... وظهـر مـن أمر الوزير عبد الله بن محمد ما ظهر -أي العجز عن العمل-، وتكلموا في عزله وشاوروا في رجل يصلح للوزارة مكانه، فمالت ثمل -وكانت متمكنة من المقتدر- برأيها وعنايتها إلى أحمد الخصيبي، وكان يكتب لأم المقتدر، وساعدها نصر على ذلك حتى تم له وصح عزم المقتدر عليه"[٨٩].

وهكذا يتبين من مجريات الأحداث أن الخليفة وهو رأس الدولة ليس له دور ملحوظ فيمن يلي أمر الوزارة على الـرغم مـن خطورته، حيث إن الذي يختار ويتخذ القرار هي القهرمانة ثمل أو أم الخليفة وخالته أو بعض القادة من العناصر الأجنبية – مثل مؤنس أو نصر .

يحدث مثل هذا التصرف والبلاد لازالت تعاني من الصدمة التي تركتها الأعمال الوحشية للقرامطة في زبالة وفي نهب الكوفة، قبل بضعة أشهر مضت.!

والآن رب سائل يسأل ما الصفات التي كانت تميز الخصيبي عن سواه حتى يكون المرشح المفضل للوزارة ؟ ! ما مـــن شك في أن أهم صفة كان يتصف بها في نظر من رشحه للوزارة أنه كان كاتباً للسيدة أم المقتدر[٩٠]. أما صفاته الأخـــرى فكان يواصل شرب النبيذ بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها، وإذا كان مخموراً لا فضل فيه للعمل. جعل رد الكتب الواردة وقراءتها والتوقيع عليها إلى نوابه وأهمل الاطلاع عليها، فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم[٩١]. وهابـــه الـــناس لموضعه من الخليفة، ومن السيدة وثمل القهرمانة، لكتابته لها ولأن ضياع السيدة تحت يده[٩٢]. ولكن الأمـــور على كل لم تصفُ للخصيبي، "ولم يكن للناس في هذا العام –أي (٣١٣هـــ)- موسم حج لتغلب القرامطة على البلاد، وقلة المال وضيق الحال، فطولب بالأموال قوم لا حجة عليهم إلا لفضل نعمة كانت عندهم، وألح الوزير على الناس في ذلك حتى طلب امرأة المحسِّن ودولة أم علي بن محمد بن الفرات وابنة موسى بن خلف وغيرهم، وكَثَّر الـــناس في ذلك وأنكروه غاية الإنكار"[٩٣]. وتمنى الخصيبي أنه لم يكن دخل في الوزارة، وجعل أمره يضعف كلما قل مال المصادرين[٩٤]. وجاء عند ابن مسكويه قوله: "وكثرت الأراجيف بالخصيبي وأنه مصروف عن الوزارة لأنه حمار لا يحســـن شيئاً غير المصادرات واللعب وأن الأمور كلها ضائعة والمهمات واقفة ..."[٩٥]وأخيراً في شهر ذي القعدة سنة (٣١٤هـــ) عُزل الخصيبي عن الوزارة، وكان سبب ذلك الضائقة الماليـــة مما سبب توقف أمور الدولة، أو كما يقال: "وتوقفت أمور السلطان لذلك"[٩٦].

ونظراً لاشتداد الأزمة المالية وظهور عجز الخصيبي، قبض عليه يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت مـــن ذي القعدة سنة (٣١٤هـــ)،وعلى ابنه معه وأسبابه، فكانت مدة وزارته أربعة عشر شهراً[٩٧]. واستوزر مكانـــه علي بن عيسى الذي كان بالمغرب متولياً للأشراف، واستخلف له عبيدالله بن محمد الكلواذي إلى حين قدومه[٩٨].

وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إقالة الخصيبي واعتقاله، قدم علي بن عيسى بغداد في الخامس من شهر صفر سنة (٣١٥هـــ)، ومثل بين يدي الخليفة في منتصف صفر تقريباً، فاستعفى منه منصب الوزارة، فلم يعفه[٩٩].

وعلى الفور باشر علي بن عيسى مهام وزارته وظهر حزمه وأمانته، قال عنه الصولي وهو شاهد عيان: "وضبط عـــلي بن عيسى الأمر جهده وطاقته، ونظر ليله ونهاره، وجلس للمظالم كل يوم ثلاثاء . ودعته الضرورة في قلة المال إلى الإخـــلال في بعـــض الإقامات [في طريق مكة وغيرها] لأنه كان لا يأخذ مال أحد ولا يظلم كظلم غيره، ولا يسأل عن مستتر ولا يسمع من صاحب خبر، فأمن أصحاب السلامة في أيامه، وقطع الزيادات والتعلل وتحفظ من أن تجري عليه حيلة"[١٠٠].

وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى بغداد أن أبا طاهر القرمطي خرج من هجر قاصداً العراق، فأمر المقتدر ابن أبي الساج بالخروج لحربه وأمر علي بن عيسى عمال الكوفة بإعداد الميرة لابن أبي الساج[١٠١].

وسار ابن أبي الساج من واسط قاصداً الكوفة في آخر ليلة من رمضان، ولكن أبا طاهر القرمطي سبق ابن أبي

الساج إلى الكوفة، وأخذ ما أُعد ليوسف من الميرة وهو مائة كر[١٠٢] دقيقاً وألف كر شعير[١٠٣]، وكان قد فني ما مع الجنابي من الميرة والعلوفة فقووا بما أخذوه[١٠٤].

ووصـل يوسف بن أبي الساج إلى الكوفة بعد وصول القرمطي بيوم واحد فحال بينه وبينها، فلما وصل إليهم أرسـل يدعوهم إلى طاعة المقتدر، فإن أبوا فموعدهم الحرب؛ فقالوا: لا طاعة علينا إلا لله تعالى والموعد بيننا للحرب بكرة غد[١٠٥].

وهكذا في يوم السبت التاسع من شوال سنة (٣١٥هـ) وقع القتال في ضواحي الكوفة بين الطرفين، فأسر ابن أبي السـاج، واصطلِمَ عسكره كما يقول المسعودي وأُتى على أكثر من (٣٠٠٠٠) ألف فارس وراجل مع من تفرق من أصحابه عنه في الطريق وتأخرهم عنه وصاحب البحرين في نحو من ألفين من المقاتلة أكثرهم رجاله[١٠٦].

وكـان لهذه الوقعة بالجيش العباسي أثرها النفسي الكبير على سكان العاصمة بغداد كما يقرر ابن الأثير، فقد خـاف الخـاص والعـام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حُلوان وهمذان، ودخل المنهزمون بغداد أكثرهم رجالة، حفاة، عراة[١٠٧].

وبغـض النظر عن العدد الصحيح للجيش العباسي في تلك الوقعة إلا أن المقارنة بين الفريقين تبقى كبيرة جداً، وإن كـان لابـد من تفسير مقبول لهذه الهزيمة النكراء، فلا يستبعد أن للروح المعنوية أثر كبير في نفوس المقاتلين وأن الغـرور والغطرسـة والاستهانة بالعدو التي كان يتصف بها يوسف بن أبي الساج وجنوده كما تشير المصادر[١٠٨]، كانت من العوامل الحاسمة في تقرير مصير الحرب. وليس من المستبعد كذلك أنه ربما كان للخيانة في صفوف الجيش العراقي نصيب فيما حدث !

وبعد وقعة الكوفة سار القرامطة نحو عين التمر ومن ثم الأنبار واستولوا عليها، وخرجت قوات عباسية إضافية بقيادة نصر الحاجب فبلغ الجيش العباسي كما تذكر بعض المصادر نيفاً وأربعين ألف مقاتل[١٠٩]! وتقدم القرامطة غير مـبالين بالجيوش العباسية حتى أصبحوا على بعد فرسخين من بغداد حيث وجدوا قنطرة نهر زبارا قد قطعت فتوقف زحفهم نحو بغداد[١١٠].

وأدرك أهل بغداد الفزع والخوف من دخول القرامطة مدينتهم فاكترى كثيراً منهم سفناً، ونقلوا إليها أموالهم، وفيهم من نقل متاعه إلى واسط وإلى حُلوان ليسيروا إلى خراسان[١١١].

وقصـد القرامطة هيت، فلما بلغوها كان عسكر الخلافة قد سبقهم إليها، وكان المؤرخ المسعودي في هيت في ذلك الوقت قادماً من الشام قاصداً بغداد، يقول: فواقع [الجنابي] أهل هيت يوم الأحد لثمان خلون من ذي الحجة [أي سنة ٣١٥هـ] فكان القتال بينه وبين جيش الخلافة على أسوار المدينة فاحترقت له عدة دبابات، وارتحل عنها يوم الاثنين[١١٢]. وبالرغم من ذلك فلم يحج في هذه السنة أحد من العراق وخراسان خوفاً من القرامطة[١١٣].

لذلـــك سكنت نفوس الناس ببغداد واستبشروا بهذا الظفر وتصدق المقتدر بمائة ألف درهم شكراً لله على هذا النصر المؤقت(١١٤).

وفي الحقـــيقة أن النجاح الذي حققه بعض القادة العباسيين مثل: هارون بن غريب الخال وسعيد بن حمدان في صد الهجوم القرمطي على هيت لم يكن يعني نجاح الخلافة في السيطرة على أوضاعها الداخلية والخارجية.

فمن ناحية الجيش العباسي يظهر أنه كان يعاني من قلة الانضباط وعدم صدق الولاء للخلافة وإلا فكيف يمكن لألفـــين وخمس مائة من القرامطة أن يهزموا جيشاً يزيد على الأربعين ألفاً !! (١١٥). وإن كان للمرء أن يصدق ما قيل عن تقدير الخليفة المقتدر للجيش فهو ضعف العدد المشار إليه؛ قالوا: "لما علم المقتدر بعدة عسكره وعسكر القرامطة، قال "لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة"(١١٦).

لذلـــك فلـــيس من المستبعد أن هناك مبالغة كبيرة في حجم جيش الخلافة، وليس من المستبعد كذلك أنه كان يضم بين أفراده أعواناً للقرامطة، وهو احتمال ليس ببعيد كما يرى أحد الباحثين(١١٧).

وربمـــا يقـــوي هـــذا الاحتمال العثور على جاسوس شيرازي في بغداد كان يتجسس لصالح أبي طاهر الجنابي ويكاتبه، فأحضر إلى الوزير علي بن عيسى فأقر أنه من أصحاب أبي طاهر وأنه لم يتبعه إلا لحق رآه معه، وقال مخاطباً الوزيـــر: "لســـنا كالرافضة الحمقى، الذين يدعون إماماً منتظراً وإمامنا فلان بن فلان بن إسماعيل بن جعفر، فأمر به فحبس بعد الضرب، وامتنع عن الطعام ومات بعد ثلاثة أيام(١١٨). هذا جاسوس واحد وربما أن بغداد وجيش الخلافة كانا يعجان بالكثير من الجواسيس القرامطة.

وفي هذه الأثناء كانت التهمة تحوم حول يوسف بن أبي الساج قائد الجيش الذي أسره الجنابي وقتله بالأنبـــار في أثناء العام نفسه، لقد اتهمه كاتبه وأمين سره محمد بن خلف النيرماني(١١٩) بأنه لا يرى عليه طاعة للخليفة العباسي "المقتدر" ولا لبني العباس على الناس طاعة وأن الإمام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان وأن أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الإمام وأنه صح عنده أنه [أي ابن أبي الساج] يتدين بدين القرامطة ... "في حديث طويل(١٢٠). إن كان القبول بهذه الرواية ممكناً فهي تظهر عدم إخلاص ابن أبي الساج للخلافة العباسية ولكنها لا تعني بالضرورة اعتناقه للإسماعيلية أو مذهب القرامطة . إذ إن مثل هذه التهم يروج سوقها في أوقات الاضطرابات وفي المنافسة بين الخصوم.

ومـــن المفارقات أنه في الوقت الذي كان فيه أبو طاهر الجنابي وأتباعه يعيثون فساداً في أنحـــاء مختلفـــة مـــن العـــراق، كانـــت الشـــائعات تتحدث عن السيدة أم الخليفة والمؤامرة التي تعدها لاغتيال أحد أبرز القادة في الجيش العباســـي ألا وهـــو مؤنس المظفر(١٢١)، وقبل ذلك بستة أشهر أي في ربيع الأول من العام نفسه (٣١٥هـــ)، كانت الشـــائعات قـــد سرت كذلك حول مؤامرة الخليفة على حياة مؤنس المظفر، مما حدا بالجيش إلى التخلي عن الخليفة والالـــتفاف حـــول القائد مؤنس والوقوف بجانبه، مما دفع بالخليفة أخيراً إلى نفي التهمة عن نفسه والاعتذار لمؤنس وتطييب خاطره(١٢٢).

والسـؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن لرجال الدولة أن يفرغوا أنفسهم ويتصدون لأعداء الوطن وهم غير آمنيين على أنفسهم من غدر رأس الدولة التي يدافعون عنها؟

وبكلمة أخرى يمكن القول إن جبهة العراق الداخلية كانت في تلك الظروف العصيبة مفككة والولاءات مشكوك فيها، والشائعات والمؤامرات كانت السمة الظاهرة في مجتمع العاصمة العباسية. لذلك فلا عجب أن ينجح أبو طاهر الجنابي في الاستفادة من هذه الظروف واستغلالها لصالحه، إذ شعر أن الدولة مشغولة بنفسها عن أعدائها!

ومما زاد الأمر سوءاً أن خزانة الدولة أصبحت شبه فارغه، ولعل هذا كان أحد الأسباب التي أضعفت من قدرة الدولة على مطاردة قوات القرامطة وصد خطرها عن أنحاء العراق المتفرقة.

ويمكن إدراك إفلاس خزينة الدولة من خلال مخاطبة الوزير علي بن عيسى للخليفة بقوله:"... إنما جمع الخلفاء الأموال ليقمعوا بها الأعداء، و لم تلحق المسلمين مضرة كهذه من هذا الكافر الذي أوقع بالحاج سنة اثنتي عشرة وثلثمائة و لم يبق في بيت الخاصة شيء فاتق الله يا أمير المؤمنين، وخاطب السيدة حتى تطلق ما عندها من مال أدخرته لشديدة، فهذه أمها، وإن لم يكن هناك شيء فالحق خراسان"[١٢٣].

ومن ثم دخل المقتدر على السيدة والدته وأطلعها على جلية الأمر فأعطته خمسمائة ألف دينار[١٢٤]. هذه الصورة تبين إلى أي مدى وصلت حالة الدولة المالية من التدهور، وتظهر في الوقت نفسه مدى استحواذ والدة الخليفة على الثروة لدرجة أن يحتاج الجيش إلى عونها المادي.

وفي أثناء سنة (٣١٦هـ) كان أبو طاهر القرمطي لا يزال يعيث فساداً في أرجاء العراق يشيع فيها الخراب والدمار، فقد أوقع بأهل الرحبة[١٢٥] وقتل منهم مقتلة عظيمة ووجه بسرية إلى ديار ربيعة فأوقعت ببوادي الأعراب واستباحتها، كما زحف إلى الرقة فقاومه أهلها مقاومة عنيفة. ورهبته الأعراب أو كما يقول الهمذاني: "حتى كانوا يتطايرون عند سماع ذكره". وجعل على كل بيت منهم ديناراً بعد أن نهبهم[١٢٦].

أمام فشل الجيش العباسي في مواجهة القرامطة ووضع حد لهجماتهم على المدن العراقية إضافة إلى الضائقة المالية التي تعاني منها الدولة، شعر الوزير علي بن عيسى بالعجز التام عن تسيير أمور الخلافة كما يجب، لذلك قدم استقالته للخليفة الذي قبلها بعد تردد[١٢٧]. ثم ما لبث أن أمر باعتقاله، وكان الوزير يتوقع هذا المصير فقد لبس خفاً وعمامة وطيلساناً واستصحب مصحفاً ومقراضاً[١٢٨] فأخذ إلى دار السلطان، فاعتقل في دار زيدان القهرمانة[١٢٩] وكان ذلك في النصف من شهر ربيع الأول سنة (٣١٦هـ)[١٣٠].

ثم ما لبث أن وجهت إلى الوزير تهمة الخيانة وأنه كان بينه وبين أبي طاهر زعيم قرامطة البحرين اتصالات مشبوهة. فقد أدعى عليه نصر الحاجب؛ أنه وجد رجلاً يعرف بنصر الجوهري أقر أنه صاحب القرمطي وأنه جعله سفيراً بينه وبين علي بن عيسى، وحكى عنه أن علي بن عيسى كان يكاتب القرمطي على يده[١٣١].

ولكن السيدة والدة المقتدر تدخلت هذه المرة لصالح الوزير، وبحثت عن حقيقة التهمة، فاكتشفت بطلانها، ومن ثم أقنعت ابنها الخليفة ببراءته[١٣٢]. وكان الخليفة قد عزم على ضرب علي ابن عيسى على باب العامة[١٣٣].

وكان سبب تلفيق هذه التهمة ضد الوزير كما يقول الهمذاني عداوة بين نصر الحاجب والوزير ولعلاقة الوزير الطيـبة مع مؤنس. وهكذا فالعلاقات الشخصية أحياناً تلعب دورها الحاسم إيجاباً وسلباً في مصير الدولة العباسية في تلك الفترة الحرجة من تاريخها[١٣٤].

أما الذي خلف الوزير علي بن عيسى في الوزارة فهو علي بن مقلة[١٣٥]، اضطراراً حسب رأي الهمذاني، وذلك بمشـورة نصـر الحاجب[١٣٦] !! وكان قد رشح نفسه لهذا المنصب محمد بن خلف النيرماني وبذل في سبيل ذلك أي الوزارة ثلثمائة ألف دينار فلم تقبل منه، لما عرف عنه من الجهل بالكتابة والتهور في الأفعال[١٣٧].

وهكذا فتعيين الوزير الذي يتولى إدارة البلاد يتم بترشيح من أحد أفراد الحاشية المحيطة بالخليفة كالحاجب مثلاً أو في أحـيان أخرى يتوقف الترشيح لذلك المنصب الخطير على مقدار ما يدفعه المرشح من مال لقاء الفوز بالوزارة.! ويظهر من ذلك كله أن الخليفة ليس له رأي فيما يحدث، وليس له مجلس مشورة من ذوي الحجى والرأي يوجهونه لما فيه خير الأمة!!

في هـذه الأثـناء كان أبو طاهر الجنابي لا يزال يوالي حملاته المروعة في أنحاء متفرقة من العراق ويشيع الرعب والفـزع في الكـثير من أرجائه . مما أغرى من بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة فيكتمه خوفاً، إلى الظهور العلني وتحـدى السلطة، فاجتمع منهم بسواد واسط والكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل، عرفوا بالبقلية[١٣٨]، وولوا أمرهم رجـلاً يدعى حُريث بن مسعود، وظهرت منهم طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم شخصاً يدعـى عيسـى بن موسى، وهو ابن أخت عبدان الملقب قرميط، وكانوا يدعون إلى المهدي، -المهدي الفاطمي في تونـس-. وكـان أتباعهم خليطاً من القبائل العربية من بني ذهل وبني رفاعة وعبس وغيرهم[١٣٩]. فسار عيسى بن موسـى إلى الكوفة وجبى خراجها وصرف العمال من السواد، وسار حريث بن مسعود إلى أعمال الموفقي، وبني بها داراً سماها دار الهجرة، فكانوا ينهبون ويسبون ويقتلون[١٤٠] وأخذوا الجزية ممن خالفوهم[١٤١].

وبعـد عدة مصادمات مع جيش الخلافة أُلحقت بهم الهزيمة، وحُمل إلى بغداد مائتا أسير، كما أدخلت أعلامهم بغـداد منكوسـة، مكتوباً عليها: الآية الكريمة: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ (القصص: ٥)

واللافـت للنظر أن هذه الآية الكريمة، قد رفعها الزنج شعاراً لهم في جنوب العراق قبل أكثر من نصف قرن، وقـد لقيـت هوى في نفوس الكثيرين من سكان جنوب العراق إذ إنها تعبر عن تطلعاتهم نحو حياة أفضل ومستقبل واعد.!

ومـن الواضـح كذلك أنها وجدت لها صدى عميقاً في نفوس أتباع الحركة القرمطية في سواد العراق، حيث ترسـخت الدعوة بينهم واستجاب لها الكثير منهم وحسبنا شهادة على كثرتهم في سواد العراق ما ذكره الطبري عن انتفاضـتهم في سـنة (٢٨٧هـ)، فذكر أن غلاماً الطائي -أحد القادة العباسيين- قد قتل منهم "مقتلة عظيمة، ثم تركهم خوفاً على خراب السواد، إذ كانوا فلاحيه وعماله ..."[١٤٢].

وهكذا يظهر من هذه الإشارة أن أغلبية سكان السواد قد اعتنقوا الدعوة القرمطية حتى إن ولاة الأمور خشوا عـلى خـراب جنوب العراق إذا ما مضوا في معاقبة سكانه . وما من شك في أن القبول الواسع الذي لقيته الدعوة القرمطـية في السـواد هو مؤشر على تردي الأوضاع الاجتماعية والمعاشية بين الناس هناك[١٤٣]، مما جعلهم يتعلقون بدعوة تقدم لهم الكثير من الوعود والآمال في التغيير الاجتماعي والاقتصادي إلى مستوى أفضل. ولكن ليس بالضرورة كذلـك القول إن سرعة انتشار الدعوة القرمطية في أرض السواد يعني أن الناس هناك قد اقتنعوا بالمبادئ الدينية التي تقوم عليها ؛ ولكنهم ربما قبلوا بها كمخرج من الأزمة الاجتماعية والمعاشية التي يعانون منها.!

عـلى كـل حال، يظهر أن أبا طاهر الجنابي قد أطال المكث في العراق في هذه السنة أي سنة ٣١٦هـ حيث مكـث في الرحبة وحدها نحواً من سبعة أشهر حسب رواية المسعودي[١٤٤]، و لم يغادرها إلا في أول شعبان من السنة نفسها وفي طريق عودته إلى البحرين هاجم هيت ثانية، وعاود مهاجمة نواحي الكوفة والقادسية[١٤٥]. وبالرغم من هذا كلـه لم نسـمع للجيش العباسي أية مواجهة حاسمة مع قوات أبي طاهر! وربما يعود ذلك إلى انشغال جيش الخلافة بتحركات قرامطة السواد بزعامة مسعود وعيسى[١٤٦] في العام نفسه. ويذكر ابن الجوزي أن أبا طاهر الجنابي عاد إلى بلـده في سـنة (٣١٦هـ) وابتنى بها داراً سماها "دار الهجرة" ودعا إلى المهدي الذي ببلاد المغرب[١٤٧]. بينما نجد المسـعودي وهـو مـؤرخ معاصر لتلك الأحداث يؤرخ لعودة الجنابي إلى البحرين في أواخر المحرم وأول صفر سنة (٣١٧هـ)[١٤٨] وهي رواية جديرة بالثقة .

وهذا يعني أن انسحاب الجنابي من العراق ربما استغرق نحواً من ستة أشهر بدءاً من أول شعبان سنة (٣١٦هـ) وانتهاءً بأول صفر سنة (٣١٧هـ) حسب رواية المسعودي[١٤٩].

وعلى الرغم من القضاء على تحركات قرامطة السواد وكذلك انسحاب أبي طاهر من العراق، إلا أن الأمور في بغـداد أخذت تزداد سوءاً، حيث كانت تسير في غير صالح الخليفة، وربما يعود شطر منها للتنافس المرير على السلطة بين هارون بن غريب الخال -ابن خال المقتدر-، ومؤنس المظفر حيث سرت شائعة في بغداد مفادها أن الخليفة المقتدر قـد بـايع لهارون بإمرة الأمراء، فعظم ذلك على أصحاب مؤنس، وكتبوا إليه بذلك وهو بالرقة، فأسرع العودة إلى بغداد، و لم يسع لمقابلة الخليفة[١٥٠]!

ومـن هنا بدأت تتأزم الأمور بين الخليفة وقائد الجيش، حيث إن مؤنساً نصب له معسكراً في إحدى ضواحي

بغداد والتف الجند حوله، وانقضت السنة سنة (٣١٦هـ) والأمر على هذه الحال[١٥١].

وفي يوم السبت الثالث من محرم من السنة التالية سنة (٣١٧هـ) ومن معسكره بالشماسية أرسل مؤنس خطاباً إلى الخليفة المقتدر يذكر فيه: أن الجيش عاتب منكر للسرف فيما يطلق باسم الخدم والحُرَم من الأموال والضياع، ولدخولهم في الرأي وتدبير المملكة ويطالبون بإخراجهم من الدار ... [١٥٢].

ثم إن المقتدر أجاب مؤنساً بخطاب طويل دافع فيه عن سياسته، وأخيراً صار الاتفاق بين الطرفين على إخراج هارون بن غريب الخال عن بغداد، فوجهه الخليفة من يومه إلى الثغور الشامية والجزرية[١٥٣]. وعلى الرغم من التنازلات التي قدمها الخليفة لقادة الجيش وإخراج ابن خاله هارون بن غريب الخال في مهمة عسكرية، إلا أن الأمور لم تجر على ما يحب الخليفة فقد عاد مؤنس والجيش إلى بغداد في العاشر من محرم (٣١٧هـ)، "يوم عاشوراء"، وقد أعدوا العدة للانقلاب على الخليفة. حيث زحفوا إلى دار السلطان، وهرب منها أعوان الخليفة وأهل ثقته، وأُخرج هو ووالدته وحرمه ليلاً إلى دار مؤنس، وبويع لمحمد بن المعتضد بالخلافة، ولقب بالقاهر بالله[١٥٤]. ونهب الجند الدار ومحوا رسوم الخلافة وهتكوا الحرمة[١٥٥].

وبعد يومين من هذا الانقلاب ما لبث الجند وقادتهم أن انقلبوا على الخليفة الجديد بسبب عدم وفائه لهم بدفع مستحقاتهم المالية "الرزق" نظراً للعجز المالي الذي تعاني منه خزانة الدولة، ثم أُعيد تنصيب المقتدر خليفة مرة أخرى وجددت له البيعة[١٥٦]. ومقابل ذلك فقد تعهد المقتدر على نفسه أمام الجند بقوله: "لكم عليَّ أرزاق أربعة أشهر، وزيادة خمسة دنانير لكل واحد منكم ؛ وما عندي ما يفي بهذا، ولكني أبيع ما بقي من ثيابي وفرشي وأبيع ضياعي وضياع من يجوز عليه أمري " فبايعه الناس بيعة مجددة واجتهد في توفية ما ضمن لهم[١٥٧]. حتى إنه اضطر في سبيل ذلك إلى صرف أواني الذهب والفضة، ثم أعجلوه عن صرفها فكان يزنها لهم مكان الدنانير والدراهم ... ويستمر عريب في حديثه عن الأزمة المالية الخانقة ومحاولة الخليفة المقتدر الوفاء بما شرطه على نفسه للجند، فيقول: "... و لم يف مال المقتدر والآنية التي أحضرها بأرزاق الجند، فأمر بارتجاع ما كان أقطعه الناس من الأموال والمستغلات، وأفرد لها ديواناً... وسُمى ديوان المرتجعة"[١٥٨].

ومن اللافت للنظر هنا أن الخليفة يضطر لبيع أمتعته الشخصية نظراً لعدم وجود المال اللازم في بيت المال لفداء نفسه وتسيير الأمور العامة للدولة، بينما في خلال هذه الأزمة عثر أحد الرجال الموالين للقاهر حين الانقلاب ضد المقتدر على ستمائة ألف دينار للسيدة، والدة المقتدر، مدفونة في تربتها[١٥٩]! هذا مدفن واحد تم العثور فيه على هذا المبلغ، فما بالك ببقية المدافن؟

ومما تجدر ملاحظته بهذا الخصوص أن الانقلاب على الخليفة المقتدر كان بسبب التنافس بين كبار القادة على مراكز القوة في دار الخلافة، إضافة إلى تبرم الجيش من التلاعب بالثروة والأموال العامة للدولة وتدخل الخدم والنساء

في شـــئون الحكم، وصرف القاهر عن الخلافة بعد يومين من تنصيبه نظراً لعجزه عن معالجة أمر أرزاق الجند، لذلك أعاد الجند المقتدر مرة أخرى إلى كرسي الخلافة لا حباً فيه بل ظناً منهم بأنه القادر على معالجة هذه الأزمة سيما وأن الســـيدة والدته "شغب" كانت تحتجن ثروة كبيرة، فربما ظن الجند أن إعادة المقتدر للخلافة سيشجـــع والدتـــه على المشاركة في حل المأزق المالي وصرف أرزاق الجند.

ورب ســـائل يســـأل عـــن محمد بن المعتضد الذي لقب بالقاهر، من أين جاء ؟ أو من أين جيء به لتولي أمر الخلافة؟

في الحقـــيقة أنه كان ببغداد في ذلك الوقت داراً تعرف بدار ابن طاهر، هي مستقر أولاد[١٦٠] الخلفاء، أو على وجـــه الحقـــيقة مستودع أبناء الخلفاء، تقوم عليها حراسة شديدة وإدارة صارمة من قبل كبار قادة الأتراك، فمتى ما أرادوا اســـتبدال خليفة بآخر أرسلوا لإدارة هذه الدار بطلب من يريدونه مرشحاً للخلافة ! وهكذا يتم تعيين خليفة المســـلمين وفق الشروط والضوابط التي تتوافق مع مصالح هؤلاء الأجانب من القادة، أما مصلحـــة الأمـــة فتأتي في المرتبة الأخيرة. !

وقـــد أدرك المقتدر هذا الوضع بعد أن أُعيد للخلافة وأُحضر القاهر بين يديه وصار يتوسل إليه في الإبقاء على حياته حيث خاطبه بقوله: "يا أخي قد علمت أنه لا ذنب لك، وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر ..."[١٦١]. فالمقتدر يعلم أنه لا هو ولا أخوه ولا غيرهما من أبناء البيت لهم الخيرة من أمرهم فيما يتعلق بأمر الخلافة، إذ إنهـــم مجـــرد دمـــى يؤتـــى بهم إليها ويبعدون عنها حسب ما تقتضيه ظروف التنافس بين كبار القادة. ولعل هذا الاستطراد يلقي شيئاً من الضوء على حقيقة القوة التي كان يتمتع بها الخليفة العباسي ومؤسسة الخلافة برمتها في أثناء الصراع مع قرامطة البحرين.

وفي المقـــابل فـــإن قرامطة البحرين تجمعهم قيادة واحدة متمثلة بأبي طاهر سليمان الجنابي، تساعده في الإدارة ورســـم الخطط وتنفيذها جماعة استشارية مؤلفة من ستة وزراء[١٦٢]، وقد تسلم القيادة في ذلك المجتمع بدءاً من سنة (٣١٠هـــ)[١٦٣] وحتى وفاته في سنة (٣٣٢هـــ)، و لم يظهر في تلك الفترة من ينازعه الزعامة من أبناء أسرته.

٥ – الهجوم القرمطي على مكة (٣١٧هـــ):

وفي ظـــل هذا الصراع على مراكز القوة والنفوذ في دار الخلافة والفوضى العارمة في صفوف الجيش العباسي، قرر أبو طاهر استثمار هذا الوضع المزري الذي تمر به بغداد بتوجيه الضربة الموجعة لرمز المرجعية الدينية التي تعتـــز بها الخلافة العباسية كما يعتز بها المسلمون في كافة أصقاع الأرض ألا وهو غزو مكة واستباحة البيت العتيق. !! وقد ترك لنا المسعودي وهو مؤرخ معاصر لذلك الحدث وصفاً دقيقاً لتلك الفاجعة، قال: "ثم سار إلى مكة فدخلها يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة من هذه السنة أي [٣١٧هـــ] في ستمائة فار س وتسعمائة راجل، وأميرها يومئذ محمد

ابـــن إسماعيل المعروف بابن مخلب بعد أن كان من بها من الأولياء وغيرهم من عوام الناس من الحاج وغيرهم صافوه انكشفوا من بين يديه عند قتل نظيف غلام ابن حاج. وكان من شحنة مكة وممن يعـــول عليـــه وأخذ الناس السيف وعـــاذوا بالمسجد والبيت. فاستحر القتل فيهم وعمهم . وقد تنوزع في عدة من قتل من الناس من أهل البلد وغيرهم مـــن ســـائر الأمصار فمكثر ومقلل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفا ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر. وكل ذلك ظن وحســبان إذ كان لا يضبط وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضـــرا ما لا يدركه الإحصاء واقتلع باب البيت الحرام. وكان مصفحا بالذهب وأخذ جميع ما كان من البيت مـــن المحاريب الفضية، والجزع وغيره ومعاليق وما يزين به البيت من مناطق ذهب وأنازيرات ذهب وفضة وقلع الحجر الأسود ومقدار موضعه ما يدخل فيه الـــيد إلى أقل من المرفق. وجرد البيت مما كان عليه من الكسوة. وحمل ذلك على خمسين جملا إلا ما أصابه الدم عند عوذ الناس به فإنه ترك. وذلك يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣١٧هـــ)"[١٦٤].

وعـــلى الرغم من شمولية التقرير الذي قدمه المسعودي عن هذه الكارثة التي حلت ببيت الله العتيق وحجاجه، وعلى الرغم كذلك من معاصرة المسعودي لما حدث إلا أن التقرير جاء خلواً من بعض المعلومات التي يجدها الباحث في بعض المصادر الأخرى، والتي يمكن أن تساعد على فهم ما حدث.

فمن ذلك ما جاء عند القاضي عبد الجبار في وصف طويل لتلك الحادثة يمكن الإشارة إلى شيء منه هنا، قال: "وأبو حفص عمر بن زرقان صهر أبي سعيد واقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس ... ثم قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهـــر الـــباطن يا أهل مكة، حجوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الأحساء من قبل أن نطمـــس وجوهاً فنردهـــا على أدبارهـــا"[١٦٥]. وجاء عند الهمذاني رواية عن الخليفة المقتدر بسنده .. قال: إن أبا طاهر وبين يديه خمسون يضربون الرقاب فقتل من الحجيج نحو عشرة آلاف وهو يقول:

ولو كان هـــذا البيت بيتاً لربنـــا	لصبّ علينا النار من فوقنا صبـــا
وإنا تركنـــا بين زمـــزم والصفـــا	جنائز لا نبغي سوى كسبها ربـــا

ولـــيس مـــن المستبعد أن هذه الأبيات منحولة على أبي طاهر القرمطي حيث كثر الشعر المنسوب إليه في تلك المناسبة[١٦٦].

وجاء في رواية أخرى عند أبي العلاء المعري قوله عن أحد رواته: "كنت بمكة وسيف" الجنابي "قد أخذ الحاج، ورأيـــت رجلاً منهم قد قتل جماعة وهو يقول: يا كلاب، أليس قال لكم "محمد" المكي: "ومن دخله كان آمناً "أي أمنٍ هنا ؟"[١٦٧].

وبعد فلا يزال لدينا طائفة كبيرة من الروايات المتعلقة باستباحة البيت الحرام وقد يكفي ما أشير إليه هنا بقصد التعرف على عقيدة قرامطة البحرين في نظرتهم إلى مقدسات المسلمين. إذ إنهم من واقع هذه الروايات ومن حقيقة ما

أقدمـــوا عليه من استهانة ببلد الله الآمن وانتهاكٍ لحرمة بيته العتيق وما ارتكبوه من مذابح لحجاج بيته، كل ذلك ينبئ عـــن كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله وهم يسخرون من حماية الله لبيته ولا يعترفون بنبوة نبيه ﷺ فهو عندهم "محمد المكي".

وإذا جـــاز لنا السؤال عن سبب هذا كله نجد أحد الباحثين يفسر ذلك بالقول إن الغرض في هجمتهم هذه هو تصـــديع أركـــان الدولة وانتهاك أهم حرمة لديها وإظهار لعجزها عن الدفاع عن المقدسات وحماية الحاج. ولم يكن هدف هذه الهجمة بطلان قدسية الحجر الأسود أو الكعبة بدافع من نزعة مادية لدى القرامطة بل إن الغاية الاقتصادية واســـتطراداً السياســـية ظلـــت أكثر بروزاً بين الغايات(١٦٨). وإذا كان للباحث القبول بمثل هذا الرأي إلا أن عقيدة القرامطة ببطلان قدسية الحجر الأسود أو الكعبة لا يمكن الدفاع عنها.

وجـــاء في رأي آخـــر وهو فيما يبدو أقرب للصواب فيما يتعلق بتلك الحادثة الشنيعة القول "إنها كانت حملة بربـــرية قصدت إلغاء الحج، وذلك تمهيداً لإعلان قيامة عظمى، حيث لم يلبث بعد هذه الحملة حتى ظهر في الأحساء زكريا الطمامي بن أبي زكريا الداعية القرمطي السابق لأبي سعيد ... الذي قدمه [أبو طاهر] لأهل البحرين بقوله: هذا إلهنا وإلهكم وربنا وربكم"(١٦٩).

إن صـــحت هـــذه الحادثة وصح ما نسب إلى أبي طاهر من تأليهه لبشر مثله فهو أمر يدل على تفاهة وطفولية عقـــول القرامطة، إذ إن هذا الحادث هو بالأسطورة أشبه، لأن أبا طاهر نفسه ما لبث أن قتل هذا الإله المزعوم عندما شعر بخطره(١٧٠).

ويلمح الباحث في إحدى الروايات أن العامل الاقتصادي ربما كان أحد الأسباب الرئيسة وراء الهجوم القرمطي عـــلى مكـــة في سنة (٣١٧هـ)، ففي رواية القاضي عبد الجبار التي سبقت الإشارة إليها نجد عمـــر بن زرقان أحد زعمـــاء القـــرامطة يخاطـــب الـــناس في أثـــناء إشرافه على المذبحة في الحرم بقوله: حجوا إلى البحرين وهاجروا إلى الأحســـاء(١٧١). ومن المعلوم بداهة ما الأثر الاقتصادي الذي سيصيب الناس في البحرين والأحساء من جراء انصراف الحجـــيج إليهم. كما أننا نجد عند أبي العلاء المعري في رسالة الغفران ما قد يساعد على إدراك الحافز الاقتصادي من وراء هجوم القرامطة على مكة واستباحة الحرم وانتزاع الحجر الأسود، فقد أشار المعري إلى ذلك عندما قال: "وأخذ حجر الملتزم وظن أنها مغناطيس القلوب ..."(١٧٢).

كمـــا أن ناصـــر خسرو أشار إلى ذلك بوضوح أكثر عندما قال: "وانتزع الحجر الأسود من مكانه ونقله إلى الحسا. وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس إليه من أطراف العالم ..."(١٧٣).

وهكذا يظل السبب المادي في هاتين الروايتين هو أحد البواعث القوية على مهاجمة مكة واستباحة البيت العتيق، حيـــث إن القصـــد من وراء انتزاع الحجر الأسود كما تصرح هذه الروايات هو جلب الناس إلى البحرين بدلاً من

مكة!! ولا شك إن كان هذا التصور حقيقياً فهو تصور على قدر كبير من السذاجة وسطحية التفكير.

وعلى كل فإن الذي يستطيع أن يخرج به الباحث من مشكلة انتزاع الحجر الأسود والذهـــاب به إلى البحرين، هـــو أن هذا الفعل يرمز إلى استخفاف القرامطة بالمقدسات الإسلامية والاستهانة بمشاعر المسلمين، إضافة إلى إشاعة حالـــة من الشك في نفوس الناس في جدوى تعظيم هذه الرموز مما قد يؤدي بالتالي إلى فقدان الخليفة العباسي لأهميته الدينية والسياسية كزعيم لعالم الإسلام، ربما تمهيداً لظهور البديل وهو الإمام المنتظر . !!

ومرة أخرى فإن أخذ القرامطة للحجر الأسود لا يعني بالضرورة اعتقادهم بقدرته المغناطيسية على جذب الناس إلى البحرين من كافة أقطار الأرض، ولكن ربما كان القصد من أخذه هو تجريد مكة من أهميتها الروحية عند المسلمين بسبب انتزاع ذلك الحجر المقدس، ومن ثم يبطل الحج تبعاً لذلك. وهذا بالضرورة سيفقد الخلافة مصدراً اقتصادياً بالغ الأهمية طالما اعتمدت عليه.

أما السؤال الذي قد يبدو أكثر إلحاحاً فهو من الذي كان وراء مهاجمة مكة ؟ هل هم قرامطة البحرين منفردين أم أن وراءهم جهة أخرى؟

لـــيس مـــن الميسور تقديم إجابة مقنعة عن هذه الأسئلة، إذ إن المعلومات التاريخية المتصلة بهذه القضية يشوبها الغموض والتضارب فقد جاء عند ابن الأثير في حوادث سنة (٣٣٩هـــ)، وهي السنة التي أُعيد فيها الحجر الأسود إلى مكة، إشارة غامضة حول أخذه وإعادته مرة أخرى؛ قال ابن الأثير:

في هـــذه الســـنة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة، وقالوا: "أخذناه بأمر وأعدناه بأمر"(١٧٤) والسؤال مرة أخرى أمر مَنْ؟ ليس من إجابة شافية. سوى أن دي خويه في أثناء مناقشته لهذه الحادثة أشار بإصبع الاتهام إلى الخليفة الفـــاطمي حيث قال :"... بدا للإمام الخليفة الفاطمي أن الأمر بإرجاع الحجر سيكسبه، بصفته حامياً للدين، رصيداً شـــعبياً ... وقـــد تمكـــن المنصـــور بإقناعه القرامطة أن يردوا الحجر من كسب قلوب المسلمين وجذبها نحوه ونحو سلالته"(١٧٥).

ولكـــن من المعلوم كذلك أن الإمام الفاطمي في تونس الذي كان معاصراً لتلك الحادثة لما بلغه فعلة القرامطة بمكة أنكرها أشد الإنكار، وقد أشار ثابت بن سنان (ت: ٣٦٥هـــ)، في تاريخ أخبار القرامطة إلى ذلك بقوله: فلما بلـــغ ذلك المهدي أبا محمد عبد الله العلوي الفاطمي بإفريقية كتب إليه ينكر عليه فعله، ... ويلومه ويلعنه ويقول له: "قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة ..."(١٧٦).

ومـــا دامـــت القضية على هذا النحو من الغموض، أليس من الممكن افتراض أن إنكار المهدي لهذه الحادثة هو ضـــرب مـــن التقية حتى يجنب نفسه وشيعته وما يدعو إليه سخط عامة المسلمين، ويحرم بالتالي الخليفة العباسي من استثمار تلك الحادثة الشنعاء لصالحه في صراعه مع دولة الفاطميين الناشئة حديثاً .؟! إنه احتمال قريب.

وقد اختلفت المصادر التاريخية في تقدير ضحايا تلك المذبحة المروعة، فذكر المسعودي كما سبق أن هناك اختلافاً بيناً في تقدير القتلى: "... فمكثر ومقل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفاً ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر. وكل ذلك ظن وحسبان إذ كان لا يضبط وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضراً ما لا يدركه الإحصاء ..."[١٧٧].

وذكر القاضي عبد الجبار أنهم نحو عشرين ألفاً وثمان مئة[١٧٨] وجاء في كتاب الفرق والتواريخ أن من قتل من المسلمين بالمسجد ألفي قتيل، وقتل في سائر المدينة عشرة آلاف[١٧٩]. ويكاد الهمذاني في التكملة يتفق مع هذا التقدير الأخير فهو يذكر أن القتلى كانوا نحو عشرة آلاف. ثم يضيف قائلاً: وأتى أهل مكة على من عندهم من الحاج[١٨٠]. وهذه الجملة الأخيرة تضاعف من الشعور بالمرارة إذا كان حقاً أن أهل مكة وهم المسلمون قد ساعدوا في الإجهاز على البقية من إخوانهم الحجاج!! ثم ماذا عن هيبة الدولة وهيبة القانون؟! ألم يكن في مكة قوة للإشراف على الأمن والنظام؟ ما من شك في أن هذه التقديرات على قدر كبير من المبالغة، ومن الصعوبة الأخذ بها دون تمحيص، ولابد أن جزع أتقياء المسلمين كما يقول دي خويه وارتياعهم جعلهم يرون كل شيء عبر عدسة مكبرة[١٨١].

نقول إن تقديرات عدد القتلى ظاهرة المبالغة إذا أخذ الباحث بعين الاعتبار الحجم التقريبي لقوة القرامطة التي هاجمت مكة، فالمسعودي وهو أحد المصادر القريبة الاطلاع والمعاصر للحادثة يذكر أن تعداد تلك القوة يبلغ ألفاً وخمسمائة رجل ما بين فارس وراجل[١٨٢]. بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن قوة القرامطة كانت سبعمائة رجل لا غير[١٨٣]. لذلك يستحيل على قوة صغيرة كهذه حتى لو كانت ألف وخمسمائة أن تقتل هذا العدد الكبير من الناس. لهذا فأحسب أن جميع الروايات التي عالجت هذه القضية كانت على قدر كبير من المبالغة وتضخيم صورة ما حدث. ثم إذا تركنا مسألة عدد ضحايا المذبحة جانباً، فلنا أن نسأل عن موقف بغداد من تلك الكارثة؟ ما الذي فعلته لردع القرامطة؟ هل قطعت عليهم طريق العودة إلى البحرين؟ أم هل حاصرتهم في عقر دارهم؟ هل انتقمت لهيبة البيت العتيق وقدسيته؟ وهل ثأرت لدماء الحجاج الأبرياء؟

يظهر أن أياً من ذلك لم يحدث، فقد دخلت السنة التالية أي سنة (٣١٨هـ) والخليفة غارق في أكثر من مشكلة، فمن ناحية خرج أعراب بني نمير بن عامر وبني كلاب بن ربيعة فعاثوا بظهر الكوفة واستطالوا على المسلمين وأخافو السبيل حتى لم تجد نفعاً مقاومة محمد بن ورقاء أمير الكوفة لهم فوقع بيدهم أسيراً[١٨٤].

وكذلك اضطرب الجند الرجالة ببغداد وحاصروا دار الخلافة، واستطالوا على المسلمين واستهان قوادهم بالخليفة والوزير، وأخيراً تمكن حرس الخلافة بعد جهد من هزيمتهم وتشتيت شملهم وذلك في أواخر شهر محرم من السنة نفسها[١٨٥].

وفي رجـــب عزل ابن مقلة عن الوزارة وعُين مكانه أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد[١٨٦]، وكان سبب عزل ابن مقلة اتهام الخليفة له بميله نحو مؤنس المظفر الذي كانت العلاقة بينه وبين الخليفة في غاية التأزم[١٨٧].

ومما زاد الأمور سوءاً في آخر هذه السنة اكتشاف مؤامرة ضد الخليفة يقودها جماعة من وجوه القواد والكتاب، وكانوا قد سعوا بالبيعة لأبي أحمد محمد بن المكتفي بالله،وكان قد استجاب له نحو ثلاثة آلاف رجل من الجند حسب زعم الرواية[١٨٨].

وبســـبب الضـــائقة المالية ومطالبة الجند بأرزاقهم، إضافة إلى ما ظهر من سخف الوزير سليمان بن الحسن بن مخلد، كما يقول عريب، أمر الخليفة بالقبض عليه،وولي الوزارة بدلاً منه أبو القاسم عبيد الله الكلواذي[١٨٩] وذلك في شهر رجب من سنة (٣١٩هـ)[١٩٠] .

ويضـــيف ابـــن الأثير أسباباً أخرى لعزل ابن مخلد عن الوزارة، وهي أنه نظراً لتوقف مؤسسات الدولة بسبب الأزمـــة المالـــية: "اتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية به [أي بابن مخلد]، والضمان بالقيام بالوظائف، وأرزاق الجند وغير ذلك"[١٩١].

وقـــبل نهايـــة شعبان من السنة نفسها داهم قرامطة البحرين الكوفة وعسكروا بأحد مصلياتها، وأقاموا بالمدينة خمســـة وعشـــرين يومـــاً، مطمئنين كما يقول عريب، يقضون حوائجهم، وقتلوا بها خلقاً كثيراً من بني نمير خاصة واســـتبقوا بـــني أسد ... [١٩٢] وفي إشارة عريب إلى أن القرامطة قتلوا جماعة وابقوا على أخرى ربما يعني أن بني أسد وهم الذين أُبقي عليهم كان لهم ضلع في دخول القرامطة إلى الكوفة.

ويلاحـــظ أن الدولة لم تحرك ساكناً و لم ترسل نجدة لمدينة الكوفة، وربما هذا يعود إلى انشغال الخلافة بمواجهة شـــغب الجند "الرجّالة" ببغداد، ولو أن القضاء على تلك الحركة لم يستغرق سوى يوم واحد[١٩٣]. وفي الوقت نفسه كانـــت الخلافـــة تواجه أيضاً مشكلة الوزارة، حيث إن الكلواذي أقام في منصبه شهرين فقط متبرماً به نظراً لضيق الأمـــوال وكـــثرة الاعتراضـــات واتصـــال الشغب، وقعود العمال عن حمل المال فاستعفى، فصرف عنها، وكـــان أبو الجمال الحسين بن القاسم بن وهب يسعى دهره كما يقول عريب في طلب الوزارة، ويتقرب إلى مؤنس وحاشيته حتى جاز عندهم وملأ عيونهم، فقلد الوزارة سلخ شهر رمضان[١٩٤].

وهكـــذا بالسعايات والوشايات والتقرب إلى مؤنس وحاشيته من الخدم والقادة الأتراك يحصل من يرشح نفسه للوزارة عليها بصرف النظر عن أهليته لهذا المنصب وبصرف النظر كذلك عن اقتناع الخليفة أو عدمه في هذا الشخص أو ذاك.

٦ – مقتل الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ):

ونظـــراً للتنافس المرير بين رجال حاشية المقتدر والدسائس والمؤامرات التي يحوكها كل فريق ضد الآخر سعياً

للحفاظ على مصالحهم الذاتية، فقد أسهموا في تأزم العلاقة بين الخليفة وقائد جنده، أي مؤنس المظفر، هذه الأزمة نجحت في إشاعة عدم الثقة بينهما وتربص كل منهما بصاحبه قرابة عشرة أشهر، بدءاً من محرم وحتى شوال من العام نفسه، حيث صارت المنازلة الكبرى بين الخليفة وجنده من جهة ومؤنس المظفر وأنصاره من الجهة الأخرى في الشماسية إحدى ضواحي بغداد، حيث ظهرت خيانة بعض قادة جيش الخلافة كما يقول عريب، وانفضوا من حول الخليفة. فاجتمع على الخليفة بعض أنصار مؤنس وذبحوه ذبحاً، وجرد من لباسه وترك في ساحة المعركة، وذلك في الثامن والعشرين من شوال سنة ٣٢٠هـ[١٩٥]. ويعلق ابن الأثير على مقتل المقتدر قائلاً: "وكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال، وانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة ..."[١٩٦].

وفي الحقيقة فإن هيبة الخلافة قد انخرقت قبل أكثر من سبعين عاماً، لما تجاسر القادة الأتراك على قتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ.

٧ – القرامطة والخلافة العباسية بعد المقتدر:

بسبب الفراغ الدستوري الذي نشأ عن مقتل المقتدر، فقد سارع العسكر إلى اتخاذ الإجراء اللازم لملء الفراغ، فأمر مؤنس بإحضار بلال بواب دار ابن طاهر، التي فيها أولاد الخلفاء وسأله عمن فيها منهم، فذكر له جماعة منهم محمد بن أحمد المعتضد، فمال هواهم إليه، فقالوا: هو كهل، ولا أُم له، ونرجو أن تستقيم أمورنا معه[١٩٧].

وكان رأي مؤنس في أول الأمر تنصيب ابن المقتدر أحمد، "لأنه إذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته، وغلمان أبيه ببذل الأموال" ولكن هذا الرأي قوبل بالرفض من قبل أحد المشاركين بقوله: "بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم، وخالة، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا"[١٩٨].

وأخيراً أُجلس القاهر وهو لقب محمد بن أحمد المعتضد في خيمة بإزاء خيمة مؤنس ولم تزل المراسلات بينهما والشروط متخذة على القاهر إلى أن أجاب إلى جميعها إلا نفقة الجند[١٩٩]. ومن ثم تم اختيار رأس الدولة الإسلامية ورمز الخلافة فيها على يد القائد التركي مؤنس ومن شايع من بطانته وفقاً لشروطهم ومصالحهم، ولم نسمع في هذا الاختيار صوتاً لأي أحد من أبناء البيت العباسي أو رجال الشورى من أهل بغداد، بل قضى الأمر وكأنه لا يخص أهل المملكة بقدر ما يخص هذه الشرذمة من قادة الأتراك.

والقاهر الذي جاء به الأتراك إلى كرسي الخلافة، لم يكن له من مؤهلات السياسة والحكم نصيب، يصفه المسعودي قائلاً: إنه شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج محباً لجمع المال على قلته في أيامه، قليل الرغبة في اصطناع الرجال، غير مفكر في عواقب الأمور، سيئ التدبير قبيح السياسة[٢٠٠].

ويظهـــر مـــن سوء سياسته أنه بدلاً من أن يصطنع الرجال ويؤمنهم ويؤملهم ويكسبهم إلى جانبه، وبدلاً من سياســـة صارمة تجاه قرامطة البحرين وحماية جنوب العراق من شرورهم، وتأمين طرق التجارة والحج، بدلاً من ذلك كله، نراه يهتم بصغائر الأمور فيتتبع عورات الناس ويبدأ بأهله وذوي قرابته، فقد سجن وعذّب السيدة والدة المقتدر، أي والـــدة أخـــيه فعلقها من رجلها وتناولها بالضرب في المواضع الغامضة من بدنها، وصـــادر أموالهـــا[٢٠١] وطال بالسجن والعذاب أبناء المقتدر والراضي وإخوته، وغيرهم من أبناء البيت العباسي[٢٠٢].

واختلطت على القاهر الأمور ففي خلافته القصيرة التي لم تدم سوى ثمانية عشر شهراً استوزر ثلاثة وزراء[٢٠٣] وســـاء ظنه بمن حوله من رجال الحاشية وقواد الجيش، فخافوه على أنفسهم فسعوا إلى الحد من سلطانه فاستولى ابن بُلـــيق وحاشـــية مؤنـــس على القاهر، حتى صار لا يجوز له أمر ولا نهي إلا على أهل بيته، وأولاد المقتدر المحبوسون عـــنده[٢٠٤]. فكان الحاجب علي بن بليق يفتش جميع ما يدخل الدار على القاهر ويضيق عليه[٢٠٥]. ثم ما لبث الخليفة القاهـــر أن انـــتقم لنفسه بأن ذبح بليق وابنه والقائد مؤنس المظفر[٢٠٦]. ونتيجة لهذه المذبحة، فقد لقب القاهر نفسه بالمنتقم من أعداء الله[٢٠٧].

ثم مـــا لبثـــت الجنود الساجية[٢٠٨] والحجرية، أن حاصرت دار السلطان بتحريض من الوزير ابن مقلة – الذي كـــان متخفـــياً -فقبضـــوا عـــلى الخليفة القاهر في السادس من جمادى الآخر سنة (٣٢٢هـــ)، فخلع عن الخلافة وسُـــمل[٢٠٩]. وسمـــل العـــيون أســـلوب جديد في التعامل مع الخلفاء حتى لا يكون لهم أمل مستقبلاً في العودة إلى السلطة[٢١٠].

ونتـــيجة لخلع القاهر، فقد جاءت الفرق العسكرية من الساجية والحجرية بخليفة جديد هو أبو العباس محمد بن المقتدر، وأجلسوه على سرير السلطة، وبايع له القواد، ولقب بالراضي بالله[٢١١]. ولا نعلم شيئاً عن مؤهلات الراضي السياســـية والإداريـــة سوى إشارة عابرة نجدها عند المسعودي حيث وصفه بأنه: "شديد التضريب [الإغراء؟] بين أوليائه، لاستبدادهم بالأمور دونه، وقصور يده عن تغيير ذلك ..." [٢١٢].

وجرياً على سياسة علي بن عيسى الوزير من الاتصال بقرامطة البحرين لإقامة علاقة سلمية معهم، حاول محمد ابن ياقوت الحاجب أن يستميل القرامطة إلى جانب الخلافة فأرسل في هذه السنة أي سنة (٣٢٢هـــ) رسولاً إلى أبي طاهـــر القـــرمطي، يدعـــوه إلى طاعة الخليفة وأن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة، ومقابل ذلك اعتراف الخليفة بسلطته على ما تحت يده من البلدان وأن يقلده بعد ذلك ما شاء، ويحسن إليه[٢١٣].

وجـــاء الـــرد من أبي طاهر مشروطاً، حيث أجاب إلى عدم التعرض للحاج فسار الحاج في هذه السنـــة و لم يـــتعرض لهم القرامطة، و لم يجب إلى رد الحجر إلى مكة، وطلب في الوقت نفسه أن يسمح له الخليفة بالاتجار المباشر والحـــر مـــع البصرة، مقابل الخطبة باسم الخليفة في أعمال هجر[٢١٤]. ولكن يظهر أن الخليفة لم يستجب لمطالب أبي طاهر، فتوقفت المفاوضات بين الطرفين. وذلك يعود ربما إلى ضعف الإدارة في بغداد وازدياد الصراع على النفوذ بين

المتـــنفذين فلم تعد للخليفة القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة. إذ إنه في عهد الراضي ازدادت الأمور سوءاً من جميع الـــنواحي ســـواءً من الناحية المالية للدولة أو الناحية الإدارية والسياسية، ولا أدل على تدهور الحالة من كثرة الوزراء الذيـــن اســـتعان بهم في فترة خلافته القصيرة نسبياً[٢١٥]. ولكن لم يجد تبديل الراضي لوزرائه شيئاً، بل ازدادت الحالة المالـــية ســـوءاً، وعندئذ سلم الراضي الأمور لمحمد بن رائق[٢١٦] تسليم المضطر سنة (٣٢٤هـــ)، فقد قلده الإمـــارة وقيادة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وشارك ابن رائق الخليفة في خطبة الجمعة والأعياد[٢١٧].

وبذلك بطل أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال ولا كان له غير اسم الوزارة فقط[٢١٨].

ولا عجـــب، وحال الخليفة على هذا المستوى من التردي والضعف، أن يعاود قرامطة البحرين بقيادة زعيمهم أبي طاهـــر مهاجمة قوافل الحجاج وبعض مدن العراق . ففي أواخر شوال سنة (٣٢٣هـــ) خرج أبو طاهر على رأس قوتـــه التي لم تتجاوز الألفي رجل لاعتراض الحاج في طريق مكة فأوقع بهم بالقادسية وناحية زبالة والعقبة والعذيب، فقـــتل وأســـر، وصـــار له كمـــا يقول المسعودي من صنوف الأموال والأمتعة ما لا يوقف على تحديده ولا يحاط بمبلغه[٢١٩]. ويضيف ابن الأثير أن جماعة من العلويين بالكوفة خرجوا إلى أبي طاهر، فسألوه الكف عن الحجاج فكف عـــنهم، وشـــرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا، ولم يحج بهذه السنة من العراق أحد، وسار أبو طـــاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها[٢٢٠].

وبعـــد سنتين تقريباً من تلك الأحداث أي في سنة (٣٢٥هـــ)، حاول أبو طاهر الوصول إلى اتفاق مع الخلافة العباســـية، يقضي بأن تدفع له الدولة سنوياً مالاً وطعاماً بنحو مائة وعشرين ألف دينار، مقابل أن يقيم ببلده، ولكن ابـــن رائـــق الذي أصبح أميراً للأمراء عرض على أبي طاهر أن يكون هو وأصحابه جنداً في خدمة الخلافة ويدخلوا بالطاعة مقابل ما التمسه من رزق. وبالطبع فإن مثل هذا المطلب لم يرق لأبي طاهر، وتوقفت المفاوضات[٢٢١].

ويظهـــر أن أمر قرامطة البحرين أخذ بالضعف، وقوتهم بالاضمحلال بدءاً من سنة (٣٢٦هـــ)، كما يشير إلى ذلك ابن الأثير، بقوله: في هذه السنة فسد حال القرامطة، وقتل بعضهم بعضاً[٢٢٢]، وهو يشير هنا إلى حادثة قتل أبي طاهر الدجال الأصفهاني، الذي زعم أنه صاحب الأمر المنتظر[٢٢٣]. ولكن دى خويه يشكك في تاريخ مقتل الدجال الأصفهاني، ويظهر أنه محق في شكوكه[٢٢٤].

وما من شك في أن ضعف قرامطة البحرين أصبح أكثر وضوحاً في سنة (٣٢٧هـــ) حيث شهدت تلك السنة اتفاقـــاً بين الخلافة العباسية وبين أبي طاهر نزولاً عند طلب الأخير بأن يقوم بحراسة قوافل الحج مقابل، فديه سنوية، اختلفت المصادر في تقديرها[٢٢٥].

بل يبدو أن العلاقات الحسنة والمنافع المتبادلة بين الخلافة وقرامطة البحرين ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد رافقت

فـــرقة منهم الخليفة الراضي وقائده وأمير الأمراء في وقته ابن رائق في حملتهم على منطقة نصيبين في أثناء تمرد ناصر بن حمدان وتأخره في إرسال المال المتوجب عليه من ضمان البلاد التي بيده[٢٢٦].

وفي الشـــهور الأولى من سنة (٣٢٩هـــ)، أي في ربيع الأول، توفي الخليفة، الراضي، وله اثنتان وثلاثون سنة وأشهر، وكانت خلافته ست سنوات وعشرة أشهر[٢٢٧].

في هذه الأثناء كان أمر الخليفة في تدهور، وطاعته غير نافذة، وسلطته قاصرة، حيث لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق[٢٢٨].

ويســـتطرد ابـــن الأثير في وصفه للأوضاع السياسية العامة إبان أيام الراضي بالقول: " وأما باقي الأطـــراف فكانـــت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي ؛ وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس، والرّي وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاســـم القـــائم بأمـــر الله بن المهدي العلوي... وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني؛ وطبرستان وجرجان في يد الديلم؛ والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي"[٢٢٩].

يظهر من استقراء الأوضاع العامة في هذه المرحلة لدى كل من الخلافة العباسية من جانب وقرامطة البحرين من جانـــب آخر، أنهما أصبحا على درجة متساوية من الضعف تقريباً ولهذا كان لابد من الالتقاء والتفاهم، حيث أصبح كـــل مـــنهما غير قادر على هزيمة الآخر. إضافة إلى ذلك وفاة أبي طاهر القرمطي في سنة (٣٣٢هـــ) أي بعد وفاة الراضي بثلاث سنوات.

لذلـــك فليس من جدوى هنا لمناقشة أمر الخلافة وعلاقة القرامطة بها في ظل الخلفاء الثلاثة الذين جيء بهم إلى كرســـي الســـلطة على التوالي، فقد صور لنا المسعودي الوضع قائلاً: "ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطـــيع ومذاهـــبهم، إذ كـــانوا كالمولى عليهم لا أمر ينفذ لهم، أما من نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلـــبون، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم، وأما بالحضرة، فتفرد بالأمور غيرهم، فصاروا مقهورين خائفين، قد قنعوا باسم الخلافة، ورضوا بالسلامة ..."[٢٣٠].

وممـــا زاد في تدني منزلة الخليفة واضمحلال أمره هو أن أحمد بن بويه قد دخل بغداد في خلافة المستكفي سنة (٣٣٤هـــــ) واستولى على الأمور هناك ولقبه الخليفة بلقب معز الدولة، وطوقه وعقد له اللواء وقلده الإمـــارة[٢٣١]. ومـــنذ ذلك الوقت لم يعد لخلفاء بني العباس حق التصرف في سياسة الدولة وشؤونها ولم يعد لهم ما يعتزون به سوى لقـــب الخليفة. وحتى علاقة قرامطة البحرين بالخلافة العباسية اتخذت منحى آخر، إذ أصبح القرامطة يتعاملون مباشرة مع البويهيين الذين أصبحوا السادة الفعليين في بغداد منذ ذلك الحين.

الخاتمة:

إجمـــالاً يمكـــن القول إن الحركة القرمطية نشأت أول ما نشأت في جنوب العراق ربما في خلال حرب الخلافة العباســية مع الزنج، وما من شك في أن للظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي كانت تسود في ذلك الجزء من العراق دوراً حاسماً في نجاح الحركة وانتشارها في السواد وبادية الشام ومن ثم البحرين.

وكـــان أول ظهور مسلح لقرامطة البحرين ضد السلطة العباسية في سنة (٢٨٦هـــ) بزعامة أبي سعيد الجنابي بـــدءاً بالقطيف وما حولها، أما في السنة التالية فكانت المواجهة العسكرية الحاسمة بين أبي سعيد الجنابي وجيش الدولة العباسية والتي انتهت بهزيمة نكراء لجيش الخلافة وأسر قائده العباس بن عمرو الغنوي.

وهكـــذا اســتمر الجنابي في سياسته المعادية للدولة العباسية والمتمثلة بمهاجمة مناطق نفوذها وتهديد قوافل الحج والتجارة، وتوفي في سنة (٣٠٠هـــ) تقريباً، وآل الأمر لأحد أبنائه الذي كان ضعيفاً كما يقال ومن ثم صارت سيادة القـــرامطة لأبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في سنة (٣١٠هـــ) وكان آنذاك يناهز السادسة عشرة من العمر، بلغت العلاقة في عهده بين الخلافة العباسية وقرامطة البحرين أسوأ فتراتها وذلك بمهاجمة القرامطة لبيت الله الحرام وقتل الكثير من الحجاج ومصادرة كنوز الكعبة واقتلاع الحجر الأسود وذلك في موسم حج (٣١٧هـــ).

والملاحـــظ على الدولة العباسية في هذه الفترة من الخصام النكد بينها وبين القرامطة أنه لم يكن لها سياسة ثابتة وواضحة تجاههم، بل كانت مواقفها منهم مجرد ردود أفعال آنية ولم تكن تسير وفق خطة مدروسة للتفاهم معهم أو القضـــاء علـــيهم . ولا غرابة في مثل هذه السياسة العباسية المائعة إذا ما علمنا أن الخليفة المقتدر الذي كان معاصراً للأحداث، كان قد جيئ به إلى سدة الحكم وهو لم يبلغ بعد الثالثة عشرة من العمر، فلم يكن له كلمة أو دور يذكر في ما يدور حوله وما يحيق بدولته.

فقد استحوذ على السلطة ببغداد، جماعات مختلفة من الرجال والنساء والجواري والخدم كل فريق منهم يريد أن يســـتأثر بالسلطة والنفوذ لصالحه بغض النظر عن المصالح العليا للدولة والمجتمع، فلا غرابة والحال كذلك أن صارت الدســـائس والمؤامرات بين هذه الجماعات هي الأساليب المتبعة في تصفية الحسابات بين المتنافسين والمتصارعين وذلك في غياب نظام سياسي قوي وإدارة رشيدة تستطيع السيطرة على الأوضاع الداخلية والخارجية للدولة.

وفي المقـــابل فقد كانت سياسة القرامطة تجاه الدولة العباسية سياسة واضحة المعالم تمثلت في المطامع الاقتصادية بموانيء جنوب العراق كالبصرة أو سيراف والإشراف كذلك على طرق الحج والتجارة بغرض فرض الضرائب عليها وانـــتهاك قدسية الحرم وهتك حرمة الكعبة واقتلاع الحجر الأسود وكان الهدف من ذلك كله فيما يبدو سلب مكة مكانـــتها المقدســـة في أفـــئدة المسلمين، لأنهم هم أنفسهم -أي القرامطة- لا يؤمنون بقدسيتها إضافة إلى الأهداف السياســـية الأخـــرى التي منها إظهار عجز الخلافة عن حماية المسلمين ومقدساتهم والتأكيد من خلال ذلك على أن

الخليفة العباسي لا يستحق هذه الهالة من التقدير والإجلال، اللتين يتمتع بهما في نفوس اتباعه من المسلمين.

إنه من المشكوك فيه أن هذا الزعيم القرمطي أبا طاهر الذي تواً بلغ سن المراهقة حين تسلم القيادة كان بمقدوره أن يتحمل مسؤولية اتخاذ مثل تلك القرارات الجسورة المتمثلة بمهاجمة بعض المدن العراقية، وقوافل الحج، ومداهمة بيت الله الحرام، ما لم يكن هناك برنامج محدد وسياسة مرسومة من قبل مجلس قرمطي قيادي واستشاري يضع مثل هذا الخطط، أما أبو طاهر نفسه فما هو إلا مجرد منفذ لها.

إن هذا التباين الواضح بين القيادتين السياسيتين لدى كل من العباسيين والقرامطة يظهر بكل جلاء أن انتصارات قرامطة البحرين في الكثير من المواجهات مع الجيوش العباسية ونجاحهم كذلك في تعطيل مواسم الحج في سنوات متتالية إضافة إلى تعطيل طرق التجارة وتهديد نشاط الموانئ البحرية كالبصرة وسيراف لا يعود في أساسه إلى قوة القرامطة العسكرية أو الاقتصادية بل يعود بصورة رئيسة إلى ضعف الخلافة العباسية نفسها المتمثل بتعاقب ثمانية خلفاء على كرسي الخلافة في أقل من نصف قرن من الزمان يقابلهم لدى القرامطة ثلاثة رجال، ناهيك عن كثرة الوزراء الذين تنازعوا منصب الوزارة فيما بينهم في البلاط العباسي وحسبك أن تعلم أن المقتدر استوزر في خلافته أكثر من اثني عشر وزيراً ظلت الشبهات تحوم حول ا لبعض منهم بضعف الأمانة ونهب ثروة الأمة والميل نحو القرامطة وممالأتهم . يضاف إلى ذلك كله ضعف ولاء الجيش للخلافة وتعلقه بقادته من الأتراك، لذلك فقد فشل في تحقيق النصر الحاسم على القرامطة في الكثير من المواجهات العسكرية.

في غالب الظن أن بعض المآخذ على الدولة العباسية التي أمكن حصر بعضها هنا وغفل عنها البعض من المهتمين بأمر علاقة قرامطة البحرين بالخلافة العباسية هي التي جعلتهم ينظرون إلى القرامطة مبهورين كقوة قاهرة وغالبة لأنهم أهملوا النظر في ما كان يدور داخل عاصمة الخلافة نفسها ولو فعلوا ذلك لعرفوا سر تلك القوة القرمطية الزائفة.

التعليقات

(١) القرامطة: القرامطة إحدى الحركات الباطنية، لقب أتباعها بهذا الاسم "نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط،وكان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له في دعوته رجال، فسموا قرامطة وقرمطية"، انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، *فضائح الباطنية*، مراجعة محمد القطب (صيدا وبيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ)، ٢٢.

(٢) هو المعتصم بالله، أبو إسحاق بن هارون الرشيد ولد في سنة ١٨٠هـ، وتولى الخلافة سنة ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون، ودامت خلافته ثماني سنوات، حيث توفي في سنة ٢٢٧هـ؛ انظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد* (بيروت: دار الكتب العلمية، د: ت) ٣: ٣٤٢- ٣٤٧. (ترجمة: ١٤٥١).

(٣) المتوكل على الله: أمير المؤمنين جعفر بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بويع له بالخلافة بعد الواثق سنة ٢٣٢هـ، وقتل في شوال سنة ٢٤٧هـ وكانت خلافته أربع عشرة سنة، انظر: علي بن الحسين المسعودي، *التنبيه والإشراف* (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ٣٢٩- ٣٣٠؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٧: ١٦٥- ١٧٣(ترجمة: ٣٦١٢).

(٤) انظر: على سبيل المثال: سهيل زكار، أخبار القرامطة في الأحساء – الشام – العراق – اليمن (الرياض: دار الكوثر، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، حيث أن الكتاب يضم بين دفتيه فصولاً منتزعة من ثلاثة عشر مصدراً، كلها ناقشت قضية القرامطة؛ أبو حامد الغزالي، *فضائح الباطنية* ؛ عبد الرحمن بن الجوزي، *القرامطة*، تحقيق: محمد الصباغ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م).

(٥) انظر مثلاً: ميكال يان دي خويه، *القرامطة*، ترجمة وتحقيق: حسني زينه، (بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٨م)؛ برناردلويس، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، راجعه وقدم له، خليل أحمد خليل (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٠م)؛ إسماعيل الميرعلي، *القرامطة* (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)؛ حسن بزّون، *القرامطة* بين الدين والثورة (بيروت: الانتشار العربي، ١٩٩٧م) *"الفاطميون وقرامطة البحرين"* و. مادلونغ، ٣٥- ٨٢؛ *الإسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم*، لمجموعة مؤلفين وتحرير" فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير (دمشق: المدى، ١٩٩٩م).

(٦) البحرين: قال الأزهري: "البحرين موضع بين البصرة وعمان". وإنما ثنوا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى هجر، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ: انظر: محمد بن أحمد الأزهري، *تهذيب اللغة*، تحقيق ومراجعة عبد الله درويش ومحمد علي النجار (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت) مادة "بحر".

(٧) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ١٤٧.

(٨) أبو سعيد الجنابي: هو أبو سعيد الحسين بن بهرام، تزعم الحركة القرمطية في البحرين وما جاورها وطالما اعتدى على طرق وقوافل التجارة والحج وتوفي مقتولاً على الأرجح في سنة ٣٠٠ أو ٣٠١هـ في البحرين . انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤- ٣٥٨؛ انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٩٩- ٣٠١.

(٩) زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٩٩.

(١٠) زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٠.

(١١) الزارة: عين بالبحرين معروفة، والخط والزارة والقطيف، قرى بالبحرين وهجر . ياقوت الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر وبيرت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ٣: ١٢٦.

(١٢) زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٩٩.

(١٣) انظرك زكار، *أخبار القرامطة*، ٥٤١- ٥٤٢.

(١٤) انظر: محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د: ت)، ١٠: ٧١.

(١٥) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧١.

(١٦) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٦٧.

(١٧) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧٢، وقارن: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا وآخرين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ١٢: ٣٧٧.

(١٨) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧٥.

(١٩) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٧؛ وقارن: الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧٨؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٢: ٤١١.

(٢٠) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤١- ٣٤٢؛ جاء عند المسعودي أن اسمه ذكروية بن مهرويه أما ابن الأثير فقد أشار إليه في مواضع كثيرة بـ: زكرويه بن مهرويه. انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٧: ٥٤١- ٥٥١.

(٢١) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٢.

(٢٢) المقتدر: هو جعفر بن أحمد المعتضد بويع له بالخلافة في أواخر سنة ٢٩٥هـ وعمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة وقتل على يد جنده في ضواحي بغداد سنة ٣٢٠هـ. انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٢- ٣٥٢؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٧: ٢١٣ - ٢١٩ (ترجمة: ٣٦٩٢).

(٢٣) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٤.

(٢٤) أحمد بن مسكويه، *تجارب الأمم*، ١: ١٣؛ علي بن أبي الكرم بن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٩م)، ٨: ٢٤٣؛ وقارن: إسماعيل بن عمر بن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي (القاهرة: دار هجر، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م)، ١٢: ٦٢.

(٢٥) انظر: محمد بن عبد الملك الهمذاني، *تكملة تاريخ الطبري*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د: ت) ١١: ١٩١؛ وانظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٠.

(٢٦) انظر عن أخبار المحاولة الانقلابية، محمد بن يحيى الصولي، *قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي*، تحقيق: خلف رشيد نعمان، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٩٩م)، ٦٥- ٧٢.

(٢٧) انظر: حمدان عبدالمجيد الكبيسي، *عصر الخليفة المقتدر بالله* (النجف: مطبعة النعمان، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ١٠٤؛ نقلاً عن: هلال الصابئ ، الوزراء، ١٣٣.

(٢٨) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٤- ٣٤٥؛ وانظر: توفيق سلطان اليوزبكي، *الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية* (الموصل: ١٣٩٦هـ)، ٢٧٨- ٢٨١.

(٢٩) عريب بن سعد القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د: ت)، ١١: ٣٩.

(٣٠) عريب، *صلة*، ١١: ٤٠.

(٣١) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٠١.

(٣٢) عريب، *صلة*، ١١: ٤١.

(٣٣) عريب، *صلة*، ١١: ٤٢.

(٣٤) عريب، *صلة*، ١١: ٤٣.

(٣٥) علي بن عيسى بن الجراح: أبو الحسن وزير المقتدر بالله، والقاهر بالله، كان صدوقاً ديناً فاضلاً عفيفاً في ولايته، محموداً في وزارته، كثير البر والمعروف وقراءة القرآن والصلاة والصيام، يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم، كان مولده في سنة ٢٤٥هـ ووفاته سنة ٣٣٤ أو ٣٣٥هـ. انظر: الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١٢: ١٤-١٦؛ محمد بن أحمد الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق شعيب الأرنؤوط وجماعة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ١٥: ٢٩٨- ٣٠١.

(٣٦) سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديماً فرضة الهند، وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام . ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٣: ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣٧) الصولي، *أخبار المقتدر*، ١٨٦ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ٥٧.

(٣٨) الصولي، أخبار *المقتدر*، ١٩٣ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ٥٧.

(٣٩) ثمل: من ربات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية أيام المقتدر، فكانت الساعد الأيمن لأم المقتدر في شؤون الدولة وسياستها،

وجلســت لــلمظالم بالرصافة يوماً في كل أسبوع . وتوفيت سنة ٣١٧هـ. انظر: عمر رضا كحالة، *أعلام النساء* (بيروت: مؤسسة الرسالة، د: ت)، ١: ١٨٥.

(٤٠) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٠٩- ٢١٠؛ عريب، *صلة*، ١١: ٦٧.

(٤١) عريب، *صلة*، ١١: ٦٨- ٦٩؛ وقارن الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢١٣- ٢١٤.

(٤٢) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ١٨٩.

(٤٣) عريب، *صلة*، ١٣: ٩٧.

(٤٤) مادلونغ، "*الفاطميون وقرامطة البحرين*"، ٤٦ .

(٤٥) انظر: الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٤٨؛ المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٧- ٣٥٨؛ زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٠، ٥٤٦.

(٤٦) زكار، أخبار *القرامطة*، ١٥١.

(٤٧) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤؛ أبو طاهر الجنابي: هو سليمان بن أبي سعيد ابن بهرام الجنابي، كان مولده سنة ٢٩٤هـ وتوفي والده وله من العمر ست سنوات، وبقي في العسكر (عسكر القرامطة) حتى تسلم قيادته سنة ٣١٠هـ وقاد حملات عسكرية مدمرة على المدن العراقية وقوافل الحج، وحتى بيت الله العتيق لم يسلم من شره فقد هاجم الحجاج وهم يطوفون بالبيت وقتلهم شر قتلة وسلب البيت، وتوفي سنة ٣٣٢هـ؛ انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣- ٣٥٦؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٣٢٠- ٣٢٥.

(٤٨) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٣١.

(٤٩) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٨؛ وقارن: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٤٤.

(٥٠) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٢٩.

(٥١) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٣١؛ عريب، *صلة*، ١١: ٩٧.

(٥٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٨.

(٥٣) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٠٨.

(٥٤) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠١.

(٥٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ١٤٢- ١٤٣.

(٥٦) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ١٥٥.

(٥٧) انظر: دي خويه، *القرامطة*، ٧٤.

(٥٨) انظـر: يـاقوت بـن عبد الله الحموي، *معجم الأدباء*، تحقيق: د. س . مرجليوث، نسخة مصورة (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ٢: ١٤٤- ١٤٦؛ ومعلوم أن المساحي من أدوات الحراثة وآلات الزراعة، أما الطَّلْق، فهو كما جاء التعريف بـه في أثناء المحاكمة: بأنه طلاء إذا طلي به البدن أو غيره لم تعمل فيه (النار) وربما أن هذا الطلاء هو المقصود بالسلاح الذي أشارت إليه بعض الروايات السابقة.

(٥٩) دي خويه، *القرامطة*، ٧٤.

(٦٠) الصولي، أخبار *المقتدر*، ٢٣٣ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ٩٨؛ وقارن الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٨.

(٦١) انظر: الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٣٣- ٢٣٤.

(٦٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٩- ٢٤٠.

(٦٣) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠١.

(٦٤) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠١.

(٦٥) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٤٩- ٢٥٠؛ وقارن: المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٦؛ الهَبِيرْ: " بفتح أوله،وكسر ثانيه؛ قال أبوعمرو: "الهبيرُ مـــن الأرض أن يكون مطمئناً وما حوله أرفع منه ؛ والهبير رمل زرود في طريق مكة .." انظر ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، ٥: ٣٩٢.

(٦٦) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٥٠؛ المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٦؛ وذكر ابن كثير أن عدد قوة أبي طاهر (٨٠٠) رجل وأن عمره كان (١٧) سنة، وأن هؤلاء الحاج هم العائدون من موسم حج ٣١١هـــ. انظر ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٥: ١١.

(٦٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٦٨) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٥٠ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٦٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٤٧- ١٤٨؛ وقارن: ابن كثير، *البداية*، ١٥: ١١- ١٢.

(٧٠) إشارة إلى نكبة الحجاج في الهبير حيث قتل وأسر فيها عدد من قادة الجيش العباسي ووجهاء بغداد.

(٧١) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٢١- ١٢٢.

(٧٢) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١١٨، الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٠، ويذكر الهمذاني أن هذا الفارسي دخل الدار مع الصناع وبقي أياماً وعطش فخرج لطلب الماء فظفر به، ١١: ٢٤٠.

(٧٣) انظر: ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١١٨.

(٧٤) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤١.

(٧٥) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٦٣- ٦٤ ؛ وانظر خبر الشيخ الذي يتشكل بصور مختلفة في: *مروج الذهب ومعادن الجوهـــر*، لعلي بن الحســين المســعودي (بيروت: دار الأندلس، ١٣٨٥هـــ) ٤: ١٧١- ١٧٢؛ وانظر رواية ابن الجوزي عن هذه الحادثة في: *المنتظم*، ١٢: ٣٧٣.

(٧٦) الإسماعيلـــية: فرقة من فرق الشيعة، تقول إن الإمام بعد جعفر الصادق، ابنه إسماعيل نصاً عليه باتفاق من أولاده، واختلفوا في وفاتـــه حال حياة أبيه أم بعد ذلك. وأشهر فرق الإسماعيلية هم الباطنية التعليمية، انظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، *الملل والنحل*، تحقيق: عبدالعزيز الوكيل (بيروت: دار الفكر، د: ت)، ١٦٧- ١٦٨.

(٧٧) عريب، *الصلة*، ١١: ١٠٥؛ وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٥.

(٧٨) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٧٩) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٨٠) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٦ ؛ وقارن، ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٥٥- ١٥٦؛ ابن كثير، *البداية*، ١٥: ١٢.

(٨١) زُبالَـــة: بضـــم أو ـــله، منزل معروف بطريق مكة من الكوفة،وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية . انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٣: ١٢٩- ١٣٠.

(٨٢) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٠- ٢٦١؛ ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٥- ١٤٦.

(٨٣) انظر: الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٠- ٢٦١.

(٨٤) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦١؛ الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٧؛ وقارن: ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٢٦٣.

(٨٥) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٤؛ عريب، *صلة*، ١١: ١٠٩؛ وقارن ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٢.

(٨٦) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٥٨.

(٨٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٨.

(٨٨) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٢.

(٨٩) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٩؛ وذكر ابن الأُثير في الكامل: رواية أخرى عن سبب تولية الخصيبي للوزارة، ٨: ١٥٨.

(٩٠) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٠٩؛ وقيل كان كاتباً للقهرمانة ثمل!؛ الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٧.

(٩١) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٧؛ وانظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٧ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٦٤.

(٩٢) الصولي، أخبار *المقتدر*، ٢٦٤.

(٩٣) عريب، *صلة*، ١١: ١١٠؛ وقارن الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٦.

(٩٤) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٢.

(٩٥) ابن مسكوية، *تجارب*، ١: ١٤٣.

(٩٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٦٣- ١٦٤.

(٩٧) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٢- ٢٧٣؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٢.

(٩٨) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٢؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٢.

(٩٩) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٤؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٣.

(١٠٠) الصــولي، *أخبار المقتدر* ...، ٢٧٤؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٣؛ وانظر كذلك: محمد بن علي بن طباطبا، *الفخري في الآداب السلطانية* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢٦٧- ٢٦٨.

(١٠١) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢.

(١٠٢) الكُــرُّ: قال الأزهري، والكُرُ اثنا عشر وسقاً كل وسق ستون صاعاً. انظر: محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر، د: ت) مادة "كرر".

(١٠٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢.

(١٠٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧١.

(١٠٥) ابن الأثير: *الكامل*، ٨: ١٧١.

(١٠٦) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٧.

(١٠٧) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧١؛ وقارن الصولي، *أخبار المقتدر*، ص ٢٧٨.

(١٠٨) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢- ٢٥٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، ٨: ١٧١.

(١٠٩) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٤ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٢.

(١١٠) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٤ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٢.

(١١١) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٣.

(١١٢) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٨- ٣٤٩، وانظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١١٣) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٢٦٥.

(١١٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١١٥) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٤- ٢٥٥ ؛ وقارن ابن الأثير، *الكامل*، : ١٧٢- ١٧٣.

(١١٦) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٣.

(١١٧) انظر: دي خويه، *القرامطة*، ٨٧.

(١١٨) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥؛ ومن أجل تفاصيل أكثر انظر: ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٨١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٤.

(١١٩) وردت أكثر من صيغة لإسم كاتب ابن أبي الساج فهو عند الهمذاني: أبو عبدالله بن خلف البرقاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢.

(١٢٠) انظر: ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٦٦- ١٦٨؛ وقارن: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٤- ١٧٥.

(١٢١) الصولي، أخبار المقتدر، ٢٨١؛ وانظر: عريب، *صلة*، ١١: ١١٥.

(١٢٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥١.

(١٢٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١٢٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١٢٥) الرحبة: لعل المقصود بالرحبة هنا، رحبة مالك بن طوق: بينها وبين دمشق ثمانية أيام ... وإلى بغداد مائة فرسخ .. وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات؛ انظر: ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ٣: ٣٤- ٣٥.

(١٢٦) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٣١٦، عريب، *صلة*، ١١: ١١٧.

(١٢٧) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦.

(١٢٨) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦.

(١٢٩) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦.

(١٣٠) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٨٤.

(١٣١) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٨٦- ١٨٧؛ وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٢) ابن مسكوية، *تجارب*، ١: ١٨٧.

(١٣٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٥) علي بن مقلة، هو الوزير الكبير، ولد بعد سنة ٢٧٠هـ، وزر للمقتدر والقاهر والراضي، وتعرض لمحن كثيرة، منها قطع لسانه ويده، وهو صاحب خط مشهور وقتل سنة ٣٢٨هـ. انظر: أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات *الأعيان*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٥: ١١٣- ١١٨ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٢٢٤- ٢٣٠.

(١٣٦) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦؛ يظهر أن ترشيح نصر لابن مقلة يعود إلى الهدايا الكثيرة التي غمره ابن مقلة بها ليضمن فوزه بالمنصب. انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٤.

(١٣٧) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٨) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤؛ ويعلق المسعودي على هذه التسمية أي البقلية بقوله: والعلة في تسميتهم البقلية، هو اسم دياني عندهم. أما عريب بن سعد، فذكر أن هذه الجماعة تعرف بالنقلية. انظر: *صلة*، ١١: ١١٩.

(١٣٩) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤- ٣٥٥ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٩ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٦- ١٨٧.

(١٤٠) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٥، ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٦؛ * الموفقي نهر قرب واسط منسوب إلى الموفق أبي أحمد الناصر لدين الله بن المتوكل على الله وأخي المعتمد وهو نهر كبير حفره الموفق . انظر: ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ٥: ٢٢٥.

(١٤١) عريب، *صلة*، ١١: ١١٩.

(١٤٢) الطبري، تاريخ، ١٠: ٨٢ .

(١٤٣) انظـــر: عـــبدالعزيز الدوري، *تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري*، ط٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥م)، ٩٦.

(١٤٤) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٤٥) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٤٦) انظر المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤.

(١٤٧) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٣: ٢٧٢؛ ابن كثير، *البداية*، ١٥: ٣١.

(١٤٨) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٤٩) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٥٠) انظـــر: عريب، صلة، ١١: ١٢١؛ فهو يدرج هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٣١٧هـــ، وهذا يخالف المشهور من أنها في نهاية سنة ٣١٦هـــ، وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧- ٢٥٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٨.

(١٥١) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٨.

(١٥٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٩ ؛ وقارن: ابن الأثير ، *الكامل*، ٨: ٢٠٠.

(١٥٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٩.

(١٥٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦١ ؛ القاهر بالله، محمد بن أحمد المعتضد، أمه مولدّة بالمغرب يقال لها قتول، استخلف في شوال سنة ٣٢٠هـــــ وخلع وسملت عيناه في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـــ وتوفي سنة ٣٣٩هـــ. انظر: الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٣٣٩- ٣٤٠. (ترجمة: ٢٥٣).

(١٥٥) عريب، *صلة*، ١١: ١٢٣.

(١٥٦) عريب، *صلة*، ١١: ١١٣- ١٢٥ ؛ الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦١- ٢٦٢.

(١٥٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٢٤- ١٢٥.

(١٥٨) عريب، صلة، ١١: ١٢٥؛ وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٦.

(١٥٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٢.

(١٦٠) انظر: عريب، *صلة*، ١١ : ٢٧، ٢٨، ١٢٤، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤.

(١٦١) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٦.

(١٦٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ١٤٣.

(١٦٣) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤.

(١٦٤) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠- ٣٥١ ؛ والغريب أن عريب بن سعد الذي أسهب في وصف حادثة الاعتداء على مكة ونهب كنوز الكعـــبة يدرج هذه الحادثة ضمن أحداث سنة ٣١٦هـــ وهذا يخالف المشهور، ومن الجدير بالذكر أنه سبق وأن تعرضت مكة للإهانة والنهب والقتل على يد إسماعيل بن يوسف العلوي سنة ٢٥١هـــ، فقد سلبت الكعبة كسوتها وكنوزها وقتل الكثير من سكان مكة على يد ذلك العلوي . انظر: الطبري، تاريخ، ٩: ٣٤٦- ٣٤٧؛ وقارن: أحمد بن واضح اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـــ/ ١٩٨٠م)، ٢: ٤٩٨؛ وانظر: القراءات المختلفة لاسم أمير مكة عند دي خوية، القرامطة، حاشية ٩٣.

(١٦٥) زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٤.

(١٦٦) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦٤؛ وانظر ما جاء من تصويب للبيت الأخير الذي جاء في كتاب: كشف *أسرار الباطنية وأخبار القرامطة*، للحمادي : وهو:

وأنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبغي سوى ربها ربا

انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٥٨ ؛ ٢٢٣.

(١٦٧) أبو العلاء المعري، *رسالة الغفران*، تحقيق: عائشة عبد الرحمن (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ٣٥.

(١٦٨) حسن بزّون، *القرامطة بين الدين والدولة والثورة* (بيروت: دار الانتشار العربي، ١٩٩٧م)، ٧٦.

(١٦٩) زكار، *أخبار القرامطة*، ١٥٣؛ وانظر الخلاف حول حقيقة هذا الإله الدعي: لدى المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠؛ وقارن كذلك ما جاء عند دي خويه، *القرامطة*، ١٠٤- ١٠٧؛ لويس، أصول الإسماعيلية، ١٣٢ — ١٣٣.

(١٧٠) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ١٥٣؛ وانظر حول حادثة ظهور الدجال أبو زكريا الطمامي أو التمامي أو الصمامي وتضارب الأقوال في وقت مقتله، لويس، *أصول الإسماعيلية*، ١٤٤- ١٤٥؛ وانظر كذلك رأي مادلونغ بخصوص ظهور الأصفهاني بين قرامطة البحرين، وتسليم أبي طاهر سلطاته الحكومية له، ثم القضاء عليه أخيراً . "*الفاطميون وقرامطة البحرين*"، ٦١- ٦٢.

(١٧١) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٤.

(١٧٢) المعري، *رسالة الغفران*، ٣٤.

(١٧٣) ناصر خسرو، *سفر نامة*، ١٤٤.

(١٧٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٤٨٦.

(١٧٥) دي خويه، *القرامطة*، ١١٧.

(١٧٦) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٢٤.

(١٧٧) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٧٨) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٥.

(١٧٩) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٤٤- ٣٤٥.

(١٨٠) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦٤؛ انظر التقديرات المتفاوتة للقتلى لدىدي خويه، *القرامطة*، ٩٥ - ٩٦.

(١٨١) دى خويه، *القرامطة*، ٩٦.

(١٨٢) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٨٣) انظر: دي خويه، *القرامطة*، ٩٦.

(١٨٤) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٢٧.

(١٨٥) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٢٨- ١٢٩.

(١٨٦) أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد: انظر خبر وزارته عند، *ابن طباطبا في الفخري في الآداب السلطانية*، ٢٧٣، ٢٨١- ٢٨٢.

(١٨٧) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٣٠؛ وقارن: ابن الأثير، الكامل ...، ٨: ٢١٨.

(١٨٨) عريب، *صلة*، ١١: ١٣١.

(١٨٩) أبو القاسم عبيدالله الكلواذي ؛ انظر: ابن طباطبا، *الفخري في الآداب السلطانية*، ٢٧٣.

(١٩٠) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٣٨.

(١٩١) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٢٥.

(١٩٢) عريب، *صلة*، ١١: ١٣٩.

(١٩٣) عريب، *صلة*، ١٤٠.

(١٩٤) عريب، صلة، ١١: ١٤١؛ وانظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٣٠ -٢٣٢ حيث ذكر أسطورة تقليد ابن وهب للوزارة وهي تصور مدى سذاجة بعض رجال الدولة وصناع القرار في ذلك الوقت إن كان في تلك الأسطورة شيء من الصحة.

(١٩٥) عريب، صلة، ١١: ١٤٢- ١٥٢ ؛ وقارن: المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٣؛ والهمذاني، يدرج مقتل المقتدر ضمن حوادث سنة ٣١٨ هـ وهذا يخالف تماماً ما هو معروف، *تكملة*، ١١: ٢٧٢ – ٢٧٣.

(١٩٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٣.

(١٩٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٢.

(١٩٨) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٤.

(١٩٩) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٣ ؛ وقارن: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٤ : ٢٤٥.

(٢٠٠) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٢.

(٢٠١) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٧٤.

(٢٠٢) عريب، صلة، ١١: ١٥٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٦.

(٢٠٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٤- ٢٧٩؛ وقارن: ابن طباطبا، *الفخري*، ٢٧٦.

(٢٠٤) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٦؛ يذكر عريب اسم يلبق، وورد في مصادر أخرى أنه بليق. انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٧٧- ٢٧٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٦.

(٢٠٥) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٦.

(٢٠٦) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٨١.

(٢٠٧) انظر: عمر فوزي، الخلافة العباسية، *السقوط والانهيار* (عمان: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ٢: ٦١.

(٢٠٨) الساجية والحجرية: الساجية: فرقة من الجند ينتسبون إلى ابن أبي الساج، أحد قواد المعتصم. والحجرية: فرقة من الغلمان الأتراك عينهم المعتصم لحراسة الحجر في قصر الخلافة وسموا بالحجرية نسبة إلى هذا الحجر . انظر: صفاء حافظ عبد الفتاح، *نظم الحكم في الدولة العباسية* (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٦م)، ١٢٨- ١٨٩.

(٢٠٩) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٨٢- ٢٨٤

(٢١٠) عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦١.

(٢١١) انظر المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٢- ٣٥٣؛ الهمذاني *تكملة*، ١١: ٢٨٤.

(٢١٢) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣؛ وانظر: عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦٣.

(٢١٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٩٤.

(٢١٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٩٥؛ وانظر: زكار، أخبار *القرامطة*، ١٥٤؛ حيث يذهب إلى القول بأنه بعد فترة من الوقت توصل الفريقان إلى اتفاق، تم بموجبه أن تدفع الخلافة لأبي طاهر مبلغاً كبيراً من المال سنوياً، ثم يعلل ذلك بسبب إخفاق القرامطة في

قطـــع الحـــج وإلى ما لحق الدولة الفاطمية إثر وفاة المهدي سنة ٣٢٢هــ/ ٩٣٤م. وهذا رأي في ظني يحتاج إلى إعادة النظر،، فالربط فيه بين الأحداث غير متماسك.

(٢١٥) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣؛ وانظر: ابن طباطبا، الفخري في الآداب *السلطانية*، ٢٨٠- ٢٨٣.

(٢١٦) محمد بن رائق: انظر شيئاً من أخباره وسيرته عند: ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ٥: ١١٤- ١١٥؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٣٢٥- ٣٢٦.

(٢١٧) عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦٢؛ وانظر: محمد طقوش، *الدولة العباسية* (بيروت: دار النفائس، ١٤١٧هــ/ ١٩٩٦م)، ١٦٨- ١٦٩.

(٢١٨) انظر: عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦٢.

(٢١٩) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣- ٣٥٤.

(٢٢٠) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣١١.

(٢٢١) انظر: بزّون، *القرامطة*، ٢٣١؛ وقارن ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٣٤؛ حيث أشار إلى ذلك الحدث إشارة غامضة.

(٢٢٢) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٥١؛ زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٢٥- ٢٢٦.

(٢٢٣) ابـــن الأثـــير، *الكامل*، ٨: ٣٥١- ٣٥٢؛ انظر تفاصيل مقتل الدجال الأصفهاني عند الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢٢٣) دي خويه، *القرامطة*، ١٠٥- ١٠٦؛ وقارن: بزون، *القرامطة*، ٢٣١.

(٢٢٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٣٧٨؛ وانظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣١٢؛ وانظر تفاصيل أكثر عن الفدية المالية عند دي خويه، *القرامطة*، ١١٠- ١١١.

(٢٢٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٥٣- ٣٥٤، وانظر: دي خويه، *القرامطة*، ١١٢.

(٢٢٧) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٢- ٣٥٣؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٢: ١٤٢ — ١٤٣.

(٢٢٨) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٢٣.

(٢٢٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢٣٠) المسعودي، *التنبيه*، ٣٦٢.

(٢٣١) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٣٥٣.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

حادثة اعتداء القرامطة على مكة في المصادر الأندلسية

خالد بن عبدالكريم البكر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

التمهيد: [*]

اعتداء القرامطة على مكة شائعٌ ذائع في الأوساط العلمية، بل هو عندهم أشهر من قفا نبك. ولذا فإن هذه الدراسة لا تسعى إلى إعادة إنتاج أخبار الحادثة، وإنما تهدف إلى بذل المزيد من الجهود العلمية نحو استقصاء آفاق التواصل الحضاري بين الجزيرة العربية والأندلس، ومحاولة البحث عن مصادر أخرى لتاريخ الجزيرة العربية في العصر العباسي، فقد كان الأندلسيون ينظرون باهتمام إلى الحوادث السياسية والثقافية الواقعة بالمشرق فيتفاعلون معها، أما تلك الحوادث ذات الصلة بالمشاعر الدينية فأثرها أشد وأقوى. ويتبين ذلك من خلال رصد ردود فعل الأندلسيين – كما تصورها مصادرهم– على حادثة الاعتداء الآثم الذي وقع بمكة سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) حينما اجترأ أبوطاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي –زعيم قرامطة البحرين– على انتهاك حرمة الأماكن المقدسة، فعبث بها، ووضع السيف في رقاب الحجيج، ثم استخف بمشاعر المسلمين قاطبة عندما اقتلع الحجر الأسود من موضعه وحمله معه إلى بلاده.

لقد اختزنت الذاكرة الأندلسية هذه الحادثة بألم عميق، وظل صداها يتجاوب في أذهانهم عبر أجيال متطاولة. ولذا؛ فإن هذه الدراسة تسعى إلى معرفة أثر الحادثة في المجتمع الأندلسي، من خلال استقراء المصادر الأندلسية، مع التركيز بشكل خاص على المصادر المكتوبة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لقربها الزمني من الحادثة. فكيف عرضتها المصادر الأندلسية؟ وبماذا امتازت روايتهم حول الموضوع عن الرواية المشرقية؟ وما أثرها السياسي والفكري في الأندلس؟

(*) يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير لسعادة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن صالح الهلابي، الذي تفضل بقراءة البحث فلم يكن ضنيناً بوقته ولا شحيحاً بعلمه، وإنما كان –كعادته– جواداً كريماً في إثراء البحث وإبداء عدد من الملحوظات العلمية الصائبة، فعسى الله أن يكافأه بالحسنى.

أولاً: عرض الحادثة في المصادر الأندلسية:

يحسن بنا قبل الخوض في استقصاء تفاصيل الرؤية الأندلسية تجاه الحادثة؛ أن نتساءل عن كيفية وصول خبرها إلى الأندلس؟

فمما يلفت الانتباه أن جُل المصادر التاريخية في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، قد ضربت صفحاً عن ذكر الحادثة، فلم تعتن بتدوينها، أو حتى الإشارة إليها . ويستثنى من ذلك قلةٌ ، منهم عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) الذي قدّم توضيحات مهمة عن بعض جوانبها في صلته لتاريخ الطبري[١]، وأبو الوليد بن الفرضي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) الذي اكتفى بإيراد إشارات مقتضبة عنها في كتابه تاريخ علماء الأندلس[٢].

قد يعطي هذا انطباعاً بأن الأندلس استقبلت خبر الحادثة استقبالاً فاتراً، وليس هذا بصحيح. وإنما تفسير ذلك يكمن -على ما يظهر- في ميل مؤرخي الأندلس وقتذاك نحو تدوين تاريخ بلادهم، واهتمامهم بالتواريخ المحلية دون التواريخ العامة[٣]. ومع هذا فقد نزع بعضهم إلى تسجيل الحوادث التاريخية في المشرق، ومثال ذلك ما كتبه عريب بن سعد، الذي وصل تاريخ الطبري حتى سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، وتطرق في **صلته** إلى حادثة اعتداء القرامطة على مكة، فجعلها في سنة (٣١٦هـ / ٩٢٨م) خلافاً لما هو شائعٌ عند معظم المؤرخين[٤]، الذين وضعوها في سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م). لقد أورد عريب تفصيلات عما فعله القرامطة داخل المسجد الحرام، لا تختلف كثيراً عما هو مبسوطٌ في المصادر التاريخية، إلا أنه يكاد ينفرد بذكر مقاومة أعراب بني هذيل للقرامطة، عندما صعد أحدهم إلى سطح الكعبة ليقتلع ميزابها، "فرماه بنو هذيل الأعراب من جبل أبي قبيس بالسهام حتى أزالوه عن السطح، ولم يصل إلى قلعه"[٥].

ويبدو عريباً هنا أدنى إلى الدقة من بعض المصادر المشرقية في عصره،والتي تحدثت عن سقوط أحد رجال القرامطة من سطح الكعبة، ولكن دون الإشارة إلى الأسباب الواقعية لذلك . فثابت بن سنان الصابئ يصف المشهد بقوله: "وأصعد -أي القرمطي- رجلاً ليخلع ميزاب البيت، فوقع صريعاً ميتاً"[٦]، ومضى آخرون مثله على هذا النسق[٧]. غير أن قسماً من المصادر المتأخرة[٨]وافقت عريباً فيما ذهب إليه، ولعلها نقلت عنه مباشرة وإن لم تصرّح بذلك في موضعه[٩]، بينما اختار قسمٌ آخر من هذه المصادر، التوفيق بين الروايات المختلفة. ففي هذا الصدد أشار (قطب الدين النهروالي)[١٠] إلى أكثر من رجل صعد إلى سطح الكعبة بأمر القرمطي. فالأول أُصيب بسهم من جبل أبي قبيس فما أخطأ مقتله. وأما الثاني فسقط على رأسه، فتهيّب الباقون من الصعود .

ولقد امتاز عريبٌ أيضاً بإشارته إلى ما نهبه القرامطة من مقتنيات ثمينة في جوف الكعبة[١١]، لكن المؤسف هو أن الرجل لم يذكر مصدره الذي استقى منه هذه المعلومات، فهو ليس شاهد عيان لما حدث، وإلا لما فاته القول بأنه

(رأى) و (سمـــع)، فضـــلاً عن أنه لم يرحل أصلاً إلى المشرق كما يستفاد من مصادر ترجمته[١٢]. فإما أن يكون قد استقى معلوماته عن مصادر مشرقية أو مصادر أندلسية. ففي حال افترضنا الاحتمال الأول –وهو النقـــل عن مصادر مشرقية–؛ فإن أحد الباحثين[١٣]أشار صراحة إلى أن عريباً استفاد في صلته من صلة أخرى لتاريخ الطبري، دوّنها أحد مشـــاهير تلامذته وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني (ت ٣٧٠هـــ/ ٩٨٠م). وهذا من شأنه حسم القضية والتوقف عن التفكير في جميع الاحتمالات الممكنة، لولا أن هذا الرأي لا يخلو من هنات؛ أولها أنه اعتمد على مـــا ذكره صاعد الأندلسي[١٤]عن صلة الفرغاني لتاريخ الطبري، فاستنتج من ذلك أن صلة الفرغاني كانت متداولة في الأوساط العلمية بالأندلس، بحيث تمكن عريبٌ من مطالعتها والاستفادة منها.

والحق؛ أن صاعداً إنما أعطى في كتابه طبقات الأمم لمحة عابرة إلى صلة الفرغاني دون الإشارة إلى أن عريباً أو أحـــداً غيره من الأندلسيين قد استفاد منها. بل إنه لم ينصّ صراحة على أنها كانت متداولة في الأندلس، وحتى على فرض أن مجرد إشارته لها إنما تعني ذلك ضمناً ؛ فإن هذا كان في العصر الذي عاشه صاعد وهو القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، لا القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي الذي عاش فيه عريب.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن عريباً لم يورد في ثنايا صلته أدنى إشارة إلى صلة الفرغاني، رغم أنه اعتاد على ذكر مصادر أخرى متنوعة.

أمـــا الأمـــر الثالث؛ فهو أن الأوساط العلمية في الأندلس قد احتفت بكتاب عريب واغتبطت به، حيث قال المقري في هذا الشأن: "عريب بن سعد القرطبي، له كتاب اختصار الطبري، قد سعد باغتباط الناس به"[١٥]، وبالتالي فلا معنى لاحتفائهم بكتاب عريب لو أن صلة الفرغاني كانت في متناول أيديهم وقتئذ.

وبناءً على ما تقدم؛ فإنه لا يمكن القطع بأن جُل الموضوعات الواردة في صلة عريب –ومنها حديثه عن اعتداء القـــرامطة عـــلى مكـــة– كانت مقتبسة عن مصادر مشرقية. فمن يدري! لعل عريباً التقط مادته من أفواه الحجاج الأندلسيين الذين شهدوا الحادثة. لا سيما وأن ابن الفرضي أشار في تراجمه لعلماء الأندلس في القرن الرابـــع الهجري/ العاشر الميلادي إلى بعض من شهد الحادثة من الأندلسيين، حيث نالهم نصيبٌ من أذى القرامطة، كما في حالة سعدان ابـــن معاوية[١٦] (ت ٣٢٧هـــ/ ٩٣٨م) الذي أصابته ضربة سيفٍ في وجهه، أحدثت ضرراً بالغاً في خدّه وعينه[١٧]. ولا بد أن يكون سعدان قد قصّ على أهل بلده خبر القرامطة، وكيف أصابته هذه الجراح من سيوفهم، ولولا أن ابن الفرضي خصص كتابه لسرد تراجم علماء الأندلس، لكنّا نتوقع منه أن يُطلعنا على تفاصيل شافية عن رؤية الأندلسيين لهذه الحادثة. لا سيما وأن ابن الفرضي أشار إلى أندلسي آخر شهد الحادثـــة، وهـــو محمد بن شاكر ابن جناح[١٨]، فقـــال عـــنه: "رحل وشهد وقعة القرمطي بمكة، وذلك سنة ثمان عشرة"[١٩]. وهذا ما يحملنا على الظن بأن تفاصيل الحادثـــة ذاعت على الفور في الأندلس، بواسطة رواة أندلسيين كانوا شهود عيان لوقائع الحادثة. بل إن ابن الفرضي

أبدى اهتماماً ملحوظاً بتداعياها اللاحقة، فسعى إلى توثيق أحداثها البارزة من خلال تراجمه، فمثلما ترجم لأشخاص شـــهدوا الحادثة عند وقوعها؛ فقد ترجم أيضاً لآخرين شهدوا الفصل الأخير من تداعياها، والمتمثل في إعادة الحجر الأسود إلى موضعه . ففي ترجمته لمحمد بن عبدالملك بن ضيفون اللخمي[٢٠]، قال عنه: "حج سنة تسع وثلاثين، وشهد صرف الحجر الأسود إلى مكانه في هذا العام"[٢١].

ومـــا يلفت الانتباه أن ابن الفرضي وضع تاريخ الحادثة في سنة (٣١٨هــ/ ٩٣٠م) خلافاً لما ذهب إليه عريب ابـــن سعد من أنها وقعت سنة (٣١٦هــ/ ٩٢٨م). وعدم الدقة في ضبط التاريخ الصحيح لسنة الحادثة أمـــرٌ وارد حتى في المصادر المشرقية، فقد أعطى بعضهم تاريخاً آخر لهذه الحادثة، فوضعها في سنة (٣١٩هــ/ ٩٣١م) مثلما فعل الفاسي في **شفاء الغرام**[٢٢]، لكن معظم المصادر المشرقية أجمعت على تعيينها في سنة (٣١٧هــ/ ٩٢٩م) كما مرّ بنا مـــن قـــبل. ونحن لا نظفر بمثل هذا التاريخ في المصادر الأندلسية إلا في القرن الخامس الهجري، وهي أبعد زمناً عن تـــاريخ الحادثة من مصادر القرن الرابع الهجري، غير أن المرء يلحظ تطوراً نوعياً في مادتها العلمية عند استقصائه لخبر الحادثـــة. إذ حفلت بتفاصيل جديدة لم ترد في سابقاتها من مصادر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وسلّطت الضـــوء على جوانب أخرى من الحادثة، خارج المسجد الحرام، إذ كانت المصادر الأخرى تقتصر -في الغالب- على وصف ما جرى داخل الحرم الشريف، لشناعته وفظاعته . فقد تحدث ابن حزم في الجمهرة[٢٣] عما لحق بقاضي مكة يحـــيى بن عبدالرحمن بن هارون القرشي الزهري من ضرر القرامطة. إذ أوذي في ماله، وسُلب من ممتلكاته ما يُقدر بمائـــة وخمســـين ألف دينار، فهان ذلك عنده مقابل الإبقاء على حياته، حيث تمكن من الهرب مع أسرته إلى وادي الـــرهجان[٢٤]. ولقـــد أثنى عليه ابن حزم ، لأنه "لم يُسمع شاكياً أو ذاكراً شيئاً مما أُخذ له"[٢٥]. وعلى الأرجح؛ فإن قاضـــي مكـــة لم يكن الشخص الوحيد الذي ألّمت به هذه المصيبة في أمواله؛ وإنما لقي آخرون من أهل مكة المصير نفســـه، حيـــث امتد أذى المعتدين إلى بيوت الناس، فنهبوا أموالهم وممتلكاتهم ، وهو ما يبيّنه (النهروالي) بقوله: "... وكذلك نُهبت دور أهل مكة إلى أن صار الباقي ممن نجا من تلك الواقعة فقراء يستعطون .." [٢٦].

وعلـــيه؛ فإن ما جاء به (ابن حزم) يعكس جانباً مهماً من معاناة أهل مكة وقتذاك، إلا أنه -أي ابن حزم- لم يذكـــر مصدراً لمعلوماته هذه[٢٧]. واللافت للانتباه أن (ابن فهد) في **إتحاف الورى**، و(عبدالقادر الجزيري) في **الدرر الفـــرائد** اقتفيا أثر (ابن حزم) في إيراد هذا الخبر دون الإحالة إلى مصدر، فلعلهما نقلاه عن **الجمهرة** ، ولربما استقى (ابـــن حـــزم) هذه المعلومة عن معاصريه الأندلسيين العائدين من الحج، حيث كان لبعضهم اهتمامٌ ملحوظ بتدوين الأخبار والوقوف على الآثار، وفي مقدمة هؤلاء أبو العباس أحمد بن عمر العذري (ت ٤٧٨هــ/ ١٠٨٥م)، والذي أخذ عنه ابن حزم في كتابه الجمهرة[٢٨].

لقـــد رحل العذري إلى مكة وجاور بها ثمانية أعوام (٤٠٨- ٤١٦هــ/ ١٠١٦- ١٠٢٤م)، ثم انتهز فرصة وجوده في مكة، ومضى يقف على معالمها ويتتبع آثارها، فشاهد مقبرة جماعية بالقرب من الحجون[٢٩]، واعتبرها أثراً

مادياً من آثار اعتداء القرامطة على الحجيج سنة (٣١٧ هـ/ ٩٢٩م) فقصّ خبرها على طلابه في الأندلس، وأثبت ذلك أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) في معرض حديثه عن اعتداء القرامطة على مكة، فقال: "... وأخبرني أبو العباس، قال: لما حضرت سنة خمس عشرة وأربعمائة الحفر بين الحجون والأوصام؛ أُثيرت هناك جماجم وعظام كثيرة، فلما رأوا ذلك أعادوا ما نُبش من التراب منها"[٣٠].

على أن البكري لم يكتف بما شاهده العذري أو سمعه -أثناء مجاورته بمكة- عن اعتداء القرامطة ؛ وإنما نقل مادته أيضاً عن مصادر مكتوبة، وهي فيما يبدو مصادر مفقودة، كتاريخ أبي بكر محمد بن علي بن القاسم، ومصنفٌ لإبراهيم بن فارس، فاستفاد منها البكري، واستوفى معلوماتها عن أخبار الحادثة، ثم عرضها عرضاً مفصّلاً نكاد نفتقر إلى مثله في المصادر المشرقية.

لقد حدّد البكري تاريخ الاعتداء على مكة، فبيّن أنه وقع يوم الاثنين السابع من ذي الحجة من سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م)[٣١]، مختلفاً في تعيين السنة عن كل من عريب بن سعد وابن الفرضي!. كما حدّد أيضاً قوة القرامطة التي هاجمت مكة بتسعمائة مقاتل[٣٢]، وهو رقمٌ ضئيل قياساً بالفظائع التي ارتكبها القرامطة في مكة، غير أنه من الممكن قبوله إذا أخذنا ببعض الروايات التي نصّت على أن أبا طاهر سليمان زعيم القرامطة، لم يتمكن من دخول مكة إلا بعد أن أعطى أهلها الأمان، وأظهر لهم أنه قادمٌ للحج[٣٣]، فلو كان عدد قواته كبيراً لما احتاج إلى ذلك كله، ولاقتحم عليهم البلد الحرام عنوةً. ومن الممكن أيضاً القول بأن البكري أراد بهذا العدد احتساب المقاتلين من الرجالة فقط دون الفرسان، وهو ما تعضده مصادر أخرى[٣٤].

أما ضحايا الاعتداء في المسجد الحرام، فبلغ عددهم -وفقاً للبكري- ألفاً وسبعمائة رجل وامرأة، وُضع السيف في رقابهم جميعاً حتى من كان منهم متعلقاً بأستار الكعبة، وقد امتلأت بئر زمزم بجثث القتلى[٣٥]. والبكري في تقديره لعدد الضحايا بهذا الرقم، يبتعد عن المبالغات الواردة في بعض المصادر المشرقية، والتي وصلت بعدد القتلى إلى الثلاثين ألفاً[٣٦]، وهو أمرٌ فيه نظر قياساً إلى المدة التي أمضاها القرامطة في مكة، والتي لا تتجاوز أحد عشر يوماً في حدّها الأقصى[٣٧].

وعندما يصل البكري إلى خبر اقتلاع الحجر الأسود من موضعه ؛ فإنه يعوّل على مصدر أصيل، كان شاهد عيان مباشر للحدث. ولذا اتسمت مادته هنا بالدقة والشمول، فهو يذكر اليوم الذي اقتلع فيه الحجر الأسود، بل ويحدّد وقت اقتلاعه، ثم يعيّن اسم الرجل الذي باشر عملية الاقتلاع بيده، وهو كما يستدل من اسمه؛ رجل من أهل مكة اشتغل بحرفة البناء، فقال في ذلك: "قال محمد بن علي الذهبي: وحضرته يوم قلع، يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من العام المؤرخ -أي عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م-، قلعه بيده جعفر بن أبي علاج البنا المكي بأمر القرمطي -لعنه الله- وحمل الحجر إلى بلاده .."[٣٨].

الواقع أننا لم نتمكن من الاهتداء إلى شخصية محمد بن علي الذهبي، الذي نقل عنه البكري هذه الفقرة، كما أن

الباحثين[٣٩] الذين درسوا إنتاج البكري وفحصوا مصادره، لم يأتوا بنتيجة تُذكر حول هذه الشخصية . فلعله صاحب مصنفٍ مفقود، مما يعطي رواية البكري هنا قيمة خاصة.

على أن المعلومات التي أوردها البكري تكتسب قدراً آخر من الأهمية، وذلك في إشارته إلى أن زعيم القرامطة استعان بالبنائين لاقتلاع الحجر الأسود. الأمر الذي يكشف عن رغبة القرامطة في المحافظة على الحجر، بقصد المساومة عليه مستقبلاً، وهذا بخلاف ما ذهب إليه (عارف تامر)[٤٠] الذي حاول تعليل هذا المسلك المنحرف من قبل القرامطة، باتساقه مع تعاليم الإسلام التي ألغت عبادة الأصنام !، فاستشهد في ذلك بقول الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ مخاطباً الحجر الأسود: "... والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك"[٤١].

فلو أن الأمر كذلك عند القرامطة؛ لأوكلوا المهمة لأحد رجالهم ليقوم بتكسير الحجر وتحطيمه بشكل كامل، لا أن يستعينوا بأحد البنائين المهرة ليقتلعه من موضعه بعناية.

ثم إذا كان الحرص على تنقية الشعائر الإسلامية من شبهة عبادة الأصنام، هو الذي دفعهم إلى سلب الحجر الأسود؛ فماذا نقول عن قتلهم الرجال والنساء في البلد الحرام وفي الشهر الحرام، فضلاً عن نهب أموال الناس وممتلكاتهم!. ولذا لم يلتفت (مصطفى غالب) إلى مسألة تنقية الشعائر الإسلامية من شبهة عبادة الأصنام، وإنما عني بإظهار البعد السياسي في الحادثة، فقال: "**إن الغاية من هذا التصرف هو إظهار عجز الخلافة العباسية عن حماية الحجاج والأماكن المقدسة**"[٤٢]. ربما كان محقاً بعض الشيء في رؤيته لجانب من جوانب الحادثة، ولكن فاته أن الاستخفاف بمقدسات المسلمين لا يمكن أن يؤدي إلى استعداء الناس ضد الخلافة العباسية وكسب تأييدهم، بل إن العكس هو الصحيح.

ومثلما نصّ البكري على ذكر اسم الرجل الذي اقتلع الحجر الأسود بيده؛ فقد حرص أيضاً على إيراد اسم الرجل الذي باشر عملية إعادته إلى موضعه، فقال: "... وأُعيد الحجر إلى مكانه يوم النحر، ردّه بيده حسن بن المزوّق البنا، فكانت غيبته من يوم قلع إلى أن رُد اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام"[٤٣].

ويلاحظ أن البكري لم يذهب إلى القول بأن هذه المدة الطويلة من احتجاز القرامطة للحجر الأسود، كانت محاولة منهم لإضفاء الطابع الديني على منطقتهم، مثلما فعل غيره من مؤرخي المشرق[٤٤]، والذين دعموا فكرتهم بقيام القرامطة بتأسيس دارٍ للهجرة في الأحساء[٤٥] سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)[٤٦]، أي قبل الهجوم على مكة بعام واحد.

ثانياً: أثرها السياسي:

جاء حادث اعتداء القرامطة على مكة متزامناً مع ذروة الصراع السياسي في الغرب الإسلامي بين الفاطميين والأمويين، ووضحت معالم هذا الصراع في مبادرة أمويي الأندلس لانتزاع مدينتي (سبتة)[٤٧] سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)

و (طنجة)[٤٨]سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م) لتكونا نقطتي ارتكاز للجيوش الأموية في المغرب، وخط دفاع أمامي للأندلس، يتيح لها مراقبة الأحداث في المغرب الأقصى عن كثب، ومقاومة الخطر الفاطمي الزاحف.

لقد تخلل هذا الصراع حملات دعائية متبادلة بين الجانبين حول شرعيتهما في الحكم، ففي حين رفع الفاطميون شعار حق آل البيت في الخلافة؛ ردّ الأمويون بتكذيب دعوى الفاطميين في انتسابهم إلى الدوحة النبوية. وعندما سمّى الفاطميون أنفسهم خلفاء؛ قام عبدالرحمن بن محمد بإجراء مماثل، فأعلن نفسه خليفةً، واتخذ لقباً خليفياً، فصار يدعى "الناصر لدين الله"، وكان ذلك في ذي الحجة من عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)، حيث بلغ الصراع ذروته بين الجانبين.

فلما وقعت حادثة اعتداء القرامطة على مكة بعد ذلك بعام، انعكست آثارها بسرعة مذهلة على مسرح الصراع السياسي في المغرب، فقد شعر الفاطميون بحرج شديد في العالم الإسلامي، ولا أدل على ذلك من خطاب عبيد الله المهدي (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) إلى أبي طاهر في هذا الصدد، حيث كتب إليه موبخاً، فقال: "... قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة ..."[٤٩].

أما في الأندلس ؛ فقد صوّر (ابن حيان)[٥٠] في مقتبسه موقف الخليفة عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) من الحادثة، حيث حرص على استغلالها في دعايته السياسية، فلم يقتصر على التشهير بالفاطميين ومن انضوى إليهم من القرامطة وحسب؛ وإنما غمز قناة العباسيين أيضاً لكونهم عاجزين عن حماية الأماكن المقدسة، ثم لم يلبث أن أعلن عزمه على المسير إلى المشرق لحماية بيت الله الحرام أولاً، و ليطلب الجاني بجنايته ثانياً، ولاستعادة ميراثه وملك آبائه الخلفاء ثالثاً. وشرع في الإعداد لهذا المشروع الضخم، فأعلن التعبئة العامة بين صفوف قواته في الأندلس وقوات حلفائه بالمغرب، وأمر بالاستعداد "لميقات معلوم ووقت محدود" والاستكثار من الأسلحة والمراكب، بل وحدد مرافئ العبور من الأندلس إلى المغرب، وهي سبتة و وهران[٥١]. لكن الناصر لم يحقق شيئاً من ذلك؛ إما لأن الأمر لا يعدو كونه مناورة عسكرية هدفها استعراض القوة وإيهام الفاطميين بهجوم كبير عليهم، وإما لأنه شعر باستحالة تنفيذ مثل هذا المشروع لبعد الشقة بين الأندلس والمشرق، وعدم توفر الإمكانيات اللازمة لهذا المشروع الضخم والخطير[٥٢].

وعليه؛ فإن غاية ما كان يطمح إليه الناصر من وراء توظيف الحادثة في دعايته السياسية، إنما هو مقاومة المدّ الإسماعيلي في الأندلس، إضافة إلى تأجيج الثورات المحلية في إفريقيه ضد الفاطميين، باعتبارهم مسئولين في النهاية عن انتهاك القرامطة لحرمة الأماكن المقدسة، ووضح ذلك في الشعارات التي رددها الثائرون مع أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي (٣١٦- ٣٣٦هـ/ ٩٢٨- ٩٤٧م)، إذ وصفوا الخليفة الفاطمي القائم بن عبيدالله المهدي (٣٢٢- ٣٣٤هـ/ ٩٣٤- ٩٤٥م)، بـ "القرمطي الكافر"[٥٣].

ثالثاً: أثرها الفكري:

تركت هذه الحادثة الشنيعة في نفوس الأندلسيين شعوراً عميقاً بالألم، شأنهم في ذلك شأن المجتمعات الإسلامية الأخرى التي كبُر عليها إهانة المسلمين في مقدساتهم. وهذا ما دفع بعض الأندلسيين إلى وصف القرامطة بأنهم بغاة خارجون على الخلافة الشرعية، إذ قال فيهم (أبو طالب عبد الجبار الشقري) في أرجوزته التاريخية:(٥٤)

فولي الخلافة المعتضد وكان في حربه يؤيد

فخرجت في ملكه القرامطة بغياً فأبدى فيهم مساخطه

لكن السواد الأعظم من مسلمي الأندلس نظر إلى القرامطة باعتبارهم غير مسلمين، وأشدهم في ذلك الفقيه (ابن حزم) الذي هاجمهم في المحلى فوصفهم بـ "القرامطة الكفرة لعنهم الله"(٥٥)، كما وصف زعيمهم أبا طاهر سليمان بـ "الكافر الملعون الذي قتل المسلمين في المسجد الحرام وسلبهم"(٥٦)، بل إنه ذهب إلى القول أن "من سكن في أرض القرامطة مختاراً فكافرٌ بلا شك، لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام ونعوذ بالله من ذلك"(٥٧). ولم يقتصر (ابن حزم) على ما تقدم؛ وإنما اتهم القرامطة بالدعوة إلى المساواة في المكاسب والنساء، متأثرين في ذلك بالمزدكية(٥٨).

وقد حاول أحد الباحثين(٥٩) نفي هذه التهمة عن القرامطة العرب لأنهم أقل تطرفاً في المسائل الدينية والأدبية من إسماعيلية الفرس، أو لأنهم لم يكونوا مطلعين على أغراض رؤساء الحركات السرية. وبصرف النظر عما رمي به القرامطة من ممارسات إباحية ؛ فإن ما أشار إليه (ابن حزم) -وهو الذي لم يرحل قط خارج الأندلس- من دعوة القرامطة إلى المساواة في المكاسب، قد أكّده الرحالة الفارسي (ناصر خسرو)(٦٠) عند زيارته لإقليم هجر في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وهو أمرٌ يدل في النهاية على أن الأندلس عرفت شيئاً غير قليل عن الحركة القرمطية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين.

ولقد صنّف (الشاطبي) القرامطة ضمن الفرق الباطنية(٦١). أما (القرطبي) فقد شبّههم بالزنادقة الطاعنين في القرآن الكريم(٦٢)، ولعله استمد رأيه هنا مما تناقلته الروايات التاريخية من أن أبا طاهر القرمطي كان يقول مستهزئاً – وهو يخاطب المسلمين في المسجد الحرام-: "... أنتم تقولون: ومن دخل هذا البيت كان آمناً، فأين الأمن وقد فعلت ما فعلت؟"(٦٣). وكان يقول أيضاً "أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟"(٦٤).

واعتبر (لسان الدين بن الخطيب) القرامطة رمزاً للسوء والظلم، فقال يصفهم في أرجوزته(٦٥):

في عهده قد ظهر القرامطة أمة سوء في الأنام قاسطة

اقتلعوا من المقام الحجرا وقتلوا الحجاج ظلماً واجترا

وأياً ما كان حجم الاختلاف في تصنيف القرامطة عند الأندلسيين؛ فإن من الجلي الواضح أن الفكر الأندلسي

في إجماله كان يرى فساد عقائد القرامطة، وأنها رجسٌ من عمل الشيطان، مثلما عبّر عنها أبوحيان النحوي الأندلسي (ق ٧هـ) بقوله[٦٦]

ويجرون التيوس وراء رجس تقرمط في العقيدة والمقال

وقلما ورد في المصادر الأندلسية ذكرٌ لأحد زعماء القرامطة دون أن يكون اسمه متبوعاً باللعن والتجريم والتأثيم . فقد أثنى (ابن حزم) على قاتل أبي سعيد الجنّابي، فقال: "... وما أعلم أحداً أعظم يداً عند المسلمين منهم، رضي الله عنهم"[٦٧]. واعتبر (ابن بسام)[٦٨] أبا سعيد الجنّابي من جبابرة الملوك في الإسلام. ولئن كانت عبارة (ابن بسام) أقل قسوة من مثيلتها لدى (ابن حزم)؛ فإن (ابن جبير) حمل بشدة على أبي طاهر القرمطي، فقال واصفاً الحجر الأسود: "... وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال إن القرمطي لعنه الله هو الذي كسره ..."[٦٩].

على أن هناك مصادر أندلسية أمسكت عن ذم القرامطة حين تعرضت لخبر اعتدائهم على مكة، وإنما أوردت خبر الحادثة دون تعليق يشي بموقف فكري، ففي العقد الفريد (لابن عبد ربه) نجد العبارة التالية في سياق الحديث عن باب الكعبة، وهي: "وحواجبه كلها مذهبة ما عدا الحاجب الأيمن، فإن العلوي الثائر لما تغلب على مكة قلع ذهبه فترك على حاله"[٧٠]. بينما يطالعنا (ابن الأبار) في الحلة السيراء بقوله: "... وفي أيام عبيدالله -يعني خليفة الفاطميين- بطل الحج وأخذ الحجر الأسود، أخذه القرامطة فبقي وأقام عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً"[٧١]. أما (محي الدين بن عربي)[٧٢] فقد قال في محاضرة الأبرار ما يلي: "وفي أيام المقتدر بالله، بطل الحج، سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وأخذ الحجر الأسود. وذلك أن أبا طاهر سليمان بن الحسن القرمطي، دخل مكة يوم التروية، فقتل الحجاج قتلاً ذريعاً، ورمى القتلى في زمزم، وأخذ الحجر الأسود، وعرّى الكعبة، وقلع بابها. وبقي الحجر الأسود عندهم اثنين وعشرين سنة إلا شهراً، ثم ردّوه لخمس خلون من ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد بذل لهم في رده خمسون ألف دينار، فما فعلوا، وقالوا: أخذناه بأمر، فلا نرده إلا بأمر".

فابن عربي هنا لا يستعمل ذات الألفاظ التي استعملها غيره من المؤلفين الأندلسيين في تجريم عمل القرامطة. وفوق هذا فإنه يستبعد تصنيف صنيعهم هذا ضمن أعمال السلب والنهب، حيث نصّ على أنهم رفضوا المبالغ الطائلة التي عرضتها عليهم الخلافة العباسية لافتداء الحجر الأسود منهم[٧٣].

إننا لا نجد في هذه النصوص التي استعرضناها إدانة قوية لجريمة القرامطة كتلك التي مرت بنا من قبل. ولربما خطر في الذهن أن إحجامهم عن ذلك يعزز ما قيل فيهم من أنهم ذوو ميول شيعية. فابن عبد ربه رماه دارسه (جبرائيل جبور) بالتشيع[٧٤]، بينما أعلن (المقري)[٧٥] أنه يشتم رائحة التشيع من كتاب درر السمط وخبر السبط لابن الأبار. وأما ثالث الثلاثة محي الدين بن عربي ، فقد وصفه (المقري)[٧٦] بأنه ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات. كما اعتبره (مصطفى غالب)[٧٧] من أكبر فلاسفة الإسماعيلية.

والواقــع؛ أن ما قيل عن الثلاثة الذين ذكروا غير صحيح، فالأدلة التي ساقها (جبور) لإثبات تشيع ابن عبدربه تقــوم في مجمــلها عــلى أساس أن كتاب العقد مشحونٌ بفضائل علي بن أبي طالب، وذم مخالفيه. وهذا الوجه من الاســتدلال لا يصح في نعت المرء بأنه يتشيع، فكيف إذا كان هذا المرء من موالي الأمويين -كابن عبدربه- وقد نظم أرجوزة ذكر فيها الخلفاء الراشدين، فأسقط منها علياً رضي الله عنه، وجعل مكانه معاوية بن أبي سفيان ﷺ[٧٨].

وأمــا قــول (المقري) عن تشيع ابن الأبار في كتابه درر السمط، فقد ردّ هذه المسألة محقق الكتاب الذي أكدّ بنــبرة جازمــة "أنــه لم يرد في مصنفات ابن الأبار التي وصلتنا ما يوحي بموقف شيعي أو متعاطف مع آراء الشيعة الكلامية"[٧٩]. وفيما يتعلق بمحي الدين بن عربي وتصنيفه في عداد الإسماعيلية، فيكفي أن نورد هنا البيان الذي عبّر به الــرجل عــن موقفــه من الإسماعيلية بوضوح تام، فقد أثنى على أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) حينما هــاجمهم في كــتابه (فضائح الباطنية) فقال -أي ابن عربي-: "ونبغت طائفة ثالثة ضلت وأضلت؛ فأخذت الأحكام الشــرعية وصرفتها في بواطنهم، وما تركت من حكم الشريعة في الظواهر شيئاً، تسمى الباطنية، وهم في ذلك على مذاهــب مخــتلفة. وقد ذكر الإمام أبو حامد في كتاب المستظهري له في الردّ عليهم شيئاً من مذاهبهم وبيّن خطأهم فيها"[٨٠].

عــلى أن بعض الأندلسيين قد أبدى إعجابه بما فعله القرامطة، وتمنى لو أنه يفعل مثل ما فعلوا، فقد أشار (ابن سهل) في نوازله إلى رجلٍ منهم، اسمه (أبو الخير)، كان يجاهر بقوله: "لو استطعت أن أقلع الكعبة وأترك المسلمين بلا قبلة لفعلت " كما كان يزري على الحجيج "الذين يتعبون أبدانهم ويخرقون ثيابهم ويقصدون حجارة صماء"[٨١].

ويستوقفنا هنا أن أبا الخير لم يدع إلى اقتلاع الحجر الأسود من موضعه فحسب؛ وإنما كان يتمنى إزالة القبلة بأكمــلها، وتعطيل شعائر الحج. ولقد اجتهد في نشر آرائه بين أوساط العامة من الناس. ومثل هذا الكلام قد يستفاد مــنه في الــتعرف على أسباب اعتداء القرامطة على مكة في موسم الحج بالذات، فهو يدعم فكرة القائلين بأن شعائر الحج عند القرامطة من شعائر الجاهلية[٨٢]. لا سيما وأن المصادر نسبت لأبي طاهر القرمطي أبياتاً من الشعر، قالها عند فراغه من مهاجمة مكة، وهي تصب في هذا الاتجاه، وجاء فيها قوله: [٨٣]

فلو كان هــذا البيــت لله ربنــا ... لصبّ علينــا النار من فوقنا صبــا

لأنا حججنــا حجــة جاهليــة ... محللة لم تبــق شرقاً ولا غربــا

وأنا تركنا بين زمزم والصفــا ... جنائز لا تبغي سوى ربها ربــا

ولكن رب العرش جل جلالــه ... لم يتخذ بيتاً ولم يتخــذ حجبــا

لم يكــن أبــو الخير وحيداً في هذا الاتجاه ؛ وإنما تبعه في ذلك آخرون من أبناء الأندلس، بدليل قول الخليفة

الحكـــم المستنصـــر بالله (٣٥٠- ٣٦٦هـ/ ٩٦١- ٩٧٦م): "... وقد بلغني أن جماعة على مذهبه، وأمرت الحكام بالتشديد عليهم وإخافتهم ..."[٨٤]. ومع ذلك فإن رواج مثل هذه الأفكار في الأندلس محدود جداً، وذلك لما كان للمذهب السني من قوة متأصلة[٨٥].

الخاتمة

تبـيّن من الدراسة أن المصادر الأندلسية تناولت -باهتمام- خبر اعتداء القرامطة على مكة، فلم يقتصر عرضها أو الإشـارة إلـيها على المدونات التاريخية وكتب التراجم والطبقات فحسب ؛ وإنما جاءت أيضاً كتب البلدانيات والأنســاب بتفاصيل مهمة عنها، تناقلها -فيما بعد- مؤرخو المشرق الإسلامي، وذلك أمرٌ يدل على أهمية المصادر الأندلسية في الكشف عن جوانب من تاريخ الجزيرة العربية، لا سيما في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، الذي تزامن فيه ازدياد عدد المرتحلين من أبناء الأندلس إلى الحجاز ؛ مع نشاط الحركة العلمية في الأندلس، وما استتبعها من ظهور عدد من المصنفات المتنوعة.

وكشفت الدراسة أيضاً عما امتازت به المصادر الأندلسية من ميل ظاهر إلى الابتعاد عن المبالغة في تصوير وقائع الحادثة، إضافة إلى الدقة والشمول في عرض تفاصيلها، إذ وصل الأمر ببعضهم إلى الوقوف المباشر على مسرح الحادثة بمكة، محاولاً استنطاق آثارها المادية.

كمـا اتضح من الدراسة أن الحادثة ألقت بظلالها على قضية الصراع السياسي في الغرب الإسلامي، بين أمويي الأندلس والفاطميين.

ولعل في ذلك ما يشير إلى درجة التواصل الحضاري بين أطراف العالم الإسلامي وبين مركزه.

التعليقات

(١) عريـــب بن سعد القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، نشره محمد أبو الفضل إبراهيم ملحقاً بتاريخ الأمم والملوك للطبري (بيروت: دار التراث، د. ت)، ١١/١١٩.

(٢) ابـــن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي، *تاريخ علماء الأندلس*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١/٣٢١- ٣٢٢؛ ٢/٧٠٤.

(٣) يوســف أحمــد بــني ياســين، *علم التاريخ في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري*، ط١ (الأردن: حمادة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م)، ٢٢٣.

(٤) المســعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، *التنبيه والإشراف* (بيروت: دار الهلال، ١٩٨١م)، ٣٥١؛ مسكويه، أبو علي أحمد ابن محمــد، *تجــارب الأمــم* (مصر: مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، ١: ٢٠١؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عــبدالرحمن، *المنــتظم في تاريخ الملوك والأمم*، ط١ (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧هـ)، ٦: ٢٢٢؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ٦: ٢٠٣.

(٥) عريب بن سعد، *صلة*، ١١: ١١٩.

(٦) الصابىء، ثابت بن سنان، *أخبار القرامطة*، تحقيق: سهيل زكار، ط١ (د. م: منشورات عبد الهادي حرصوني، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ٥٣.

(٧) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٦: ٢٢٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣٠٤.

(٨) ابن فهد، النجم عمر بن فهد، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط١ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)، ٢: ٣٧٧؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*، نشره حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، د. ت)، ١: ٥١٠.

(٩) الواقع أن بعض المصادر المتأخرة تميل إلى ما أوردته المصادر الأندلسية عن بعض جوانب الحادثة، مثلما فعل صاحب *الدرر الفرائد* عندما نصّ على نقله المباشر من كتاب *المسالك والممالك* للبكري ؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١٣.

(١٠) النهروالي، قطب الدين، *الإعلام بأعلام بيت الله الحرام* (بيروت: مكتبة خياط، د. ت)، ٣: ١٦٣.

(١١) عريب بن سعد، *صلة*، ١١: ١١٩.

(١٢) المراكشي، أبو عبدالله محمد بن عبدالملك الأنصاري، *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، د. ت)، السفر الخامس، القسم الأول، ١٤١- ١٤٣.

(١٣) حسن الوراكلي، تراث أبي جعفر الطبري في الأندلس، *أبحاث أندلسية*، ط١ (د. م: د. ن، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ١٠٩.

(١٤) صاعد الأندلسي، *طبقات الأمم*، تحقيق: حياة بو علوان، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م)، ١٨٣.

(١٥) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣: ١٨٢.

(١٦) سعدان بن معاوية، من أهل قرطبة، سكن إقليم القصب، وصار مفتياً لأهل ذلك الموضع؛ انظر: ابن الفرضي، *تاريخ*، ١: ٣٢١-٣٢٢.

(١٧) المصدر نفسه، ١: ٣٢٢.

(١٨) محمد بن شاكر بن جناح، من أهل باجة. رحل إلى مكة وأخذ بها عن أبي سعيد بن الأعرابي؛ انظر: المصدر نفسه، ٢: ٧٠٤.

(١٩) المصدر نفسه، ٢: ٧٠٤.

(٢٠) محمد بن عبدالملك بن ضيفون بن مروان اللخمي، من أهل قرطبة. حدّث وكتب الناس عنه؛ انظر: ابن الفرضي، *تاريخ*، ٢: ٧٩٧.

(٢١) المصدر نفسه، ٢: ٧٩٧.

(٢٢) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام* (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ١: ١٩٣.

(٢٣) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ١٣٥.

(٢٤) وادٍ بمكة يصب في نعمان؛ ياقوت، أبو عبدالله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣: ١٠٨.

(٢٥) ابن حزم، *جمهرة*، ١٣٥.

(٢٦) النهروالي، *الإعلام*، ٣: ١٦٤.

(٢٧) أورد ابن فهد هذا الخبر دون أن يعزوه إلى مصدر، وفعل الجزيري الشيء نفسه، فقد يكونا ناقلين عن ابن حزم الذي أورده هو

الآخر دون مصدر؛ انظر: ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٩؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ٢٣٤.

(٢٩) الحجـون: جبل بأعلى مكة يشرف على مسجد الجن (مسجد الحرس) وعلى شعب الجزارين؛ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق: رشدي الصالح ملحس (بيروت: دار الأندلس، د. ت)، ٢: ١٦٠.

(٣٠) البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، *المسالك والممالك*، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري (تونس: الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٢م)، ١: ٤٠٤- ٤٠٥.

(٣١) المصدر نفسه، ١: ٤٠٤.

(٣٢) المصدر نفسه، ١: ٤٠٤.

(٣٣) الهمذاني، القاضي عبدالجبار، *كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ -ضمن كتاب أخبار القرامطة* -، جمع وتحقيق: سهيل زكار، ط١، (د. م: عبدالهادي حرصوني، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م)، ١٥٥-١٥٦.

(٣٤) مجهول المؤلف، *العيون والحدائق في أخبار الحقائق*، تحقيق: نبيلة عبدالمنعم داود، (النجف: مطبعة النعمان، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، ٤: ٣٤٨؛ وقد أشار فيها إلى أن جيش أبي طاهر القرمطي كان يتألف من (٦٠٠) فارس، و (٩٠٠) راجل.

(٣٥) البكري، *المسالك*، ١: ٤٠٤.

(٣٦) *العيون والحدائق*، ٤: ٣٤٨؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٦.

(٣٧) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٣: ٢٥٤؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٨؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١١.

(٣٨) البكري، *المسالك* ، ١: ٤٠٤- ٤٠٥.

(٣٩) حسين مؤنس، *تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس*، ط٢ (القاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١٣٢- ١٤٨؛ عبدالله يوسف الغنيم، *مصادر البكري ومنهجه الجغرافي*، ط٢ (الكويت: ذات السلاسل، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ١١٣.

(٤٠) عارف تامر، *القرامطة* (بيروت- بغداد: دار الكاتب العربي ومكتبة النهضة، د. ت)، ١٦٧.

(٤١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٣٢٤.

(٤٢) مصطفى غالب، *القرامطة بين المدّ والجزر*، ط٢ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣م)، ٤١٠.

(٤٣) البكري، *المسالك*، ١: ٤٠٤- ٤٠٥.

(٤٤) ناصر خسرو، *سفر نامة*، ترجمه يحيى الخشاب، ط٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ١٤٤؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٨ ؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١١.

(٤٥) الأحساء: مدينة في إقليم البحرين -وهو القسم الشرقي من الجزيرة العربية-، تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة المبرز وإلى الشمال الشرقي من مدينة الهفوف الحالية، وتحيط بها بساتين النخيل من جميع الجهات. عمرها وحصنها أبو طاهر القرمطي؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ١١٢؛ حمد الجاسر، *المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية*، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، القسم الأول، ١٢٨.

(٤٦) النهروالي، *الإعلام*، ٣: ١٦٢.

(٤٧) سبتة: مدينة في العدوة المغربية تقع في مواجهة الجزيرة الخضراء في الأندلس، وهي ميناء كبير في البحر المتوسط، استولى عليها

البرتغاليون سنة (٨١٨هـ) ثم احتلها الأسبان من بعدهم ولا تزال في حوزتهم إلى الآن، يوجد بها آثار إسلامية ومعالم تاريخية، وبضاحيتها جبل موسى المنسوب إلى موسى بن نصير؛ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق: إحسان عباس، ط٢ (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م)، ٣٠٣؛ الصديق بن العربي، *كتاب المغرب*، ط٣ (بيروت: دار الغرب الإسلامي ودار الثقافة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢٢٥- ٢٢٦.

(٤٨) طنجة: مدينة مغربية فتحها عقبة بن نافع، تقع على رأس مضيق جبل طارق بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ولا يفصلها عن الشاطيء الأسباني سوى مسافة (١٧) كلم؛ الحميري، *الروض*، ٣٩٥- ٣٩٦؛ الصديق بن العربي، *كتاب المغرب*، ١٦٥.

(٤٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٢٠٤.

(٥٠) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف، *المقتبس*، نشره بيدرو شالميتا (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩م)، ٥: ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٥١) وهران: مدينة في المغرب الأوسط على ساحل البحر، بناها جماعة من البحريين الأندلسيين سنة (٢٩٠هـ). وهي اليوم من الموانئ المهمة في الجزائر، وتشتهر بصيد الأسماك وكثرة الكروم ووفرة الحمامات المعدنية؛ الحميري، *الروض*، ٦١٢؛ ناجي جواد، *رحلتي إلى إفريقية العربية (الجزائر)* (حلب: مجلة الضاد، د. ت)، ١١٣.

(٥٢) محمد أحمد عبد المولى، *القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية*، ط١ (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)، ٢: ٦٢٤- ٦٢٥.

(٥٣) ابن عذاري، أحمد بن محمد، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق: جورج كولان وليفي بروفنسال، ط٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ١: ٢٨٥.

(٥٤) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تحقيق: سالم مصطفى البدري (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ١: ٥٨٩.

(٥٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، **المحلى**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د. ت)، ١٠: ٤٩٥.

(٥٦) ابن حزم، *المحلى*، ١١: ٩٦.

(٥٧) ابن حزم، *المحلى*، ١١: ٢٠٠.

(٥٨) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، *الفصل في الملل والأهواء والنحل* (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١: ٣٤؛ ٢: ٣٨؛ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد، *الأصول والفروع*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢: ١٧٦.

(٥٩) بندلي جوزي، *من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام*، ط (القدس: منشورات صلاح الدين، ١٩٧٧م)، ١٥٩- ١٦٠.

(٦٠) ناصر خسرو، *سفر نامة*، ١٤٣.

(٦١) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم اللخمي، **الاعتصام** (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١: ١٥٧.

(٦٢) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن*، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٤: ١٤.

(٦٣) ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٥.

(٦٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، *البداية والنهاية*، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح (القاهرة: دار الحديث، د. ت) ١١: ١٧١.

(٦٥) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله، شرح رقم الحلل في نظم الدول، نشره عدنان درويش (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٠م)، ١٠٥.

(٦٦) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٥٦٧ .

(٦٧) ابـــن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، *نقط العروس في تواريخ الخلفاء*، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: مجلة كلية الآداب– جامعة فؤاد الأول، ١٩٥١م)، ٨٠.

(٦٨) ابن بسام، *الذخيرة*، ١: ٦٢.

(٦٩) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني، *تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار* (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ٥٩.

(٧٠) ابـــن عـــبدربه، أبـــو عمر أحمد بن محمد، *العقد الفريد*، تحقيق: محمد سعيد العريان (د. م: دار الفكر، د. ت)، المجلد الرابع، ٧: ٢٤٧.

(٧١) ابـــن الأبـــار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، *الحلة السيراء*، تحقيق: حسين مؤنس، ط١ (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣م)، ١: ٢٨٩.

(٧٢) محي الدين بن عربي، *محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١: ١١١.

(٧٣) ذهب بعض المؤرخين إلى أن العباسيين افتدوا الحجر الأسود من القرامطة بمبالغ طائلة؛ ناصر خسرو، *سفر نامة*، ١٤٤، وقد نظم الصلاح الصفدي قصيدة في ذلك، جاء فيها:

تغرّب عندهـــم عشرين عاماً	تلت عامين من بعد الكســـور
ولكن المطيع شراه منهـــم	بخمسين ألف دينار نضيـــر

انظر: عبدالقادر الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١٢.

(٧٤) جبرائيل جبور، *ابن عبدربه وعقده*، ط٢ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م)، ٨٤.

(٧٥) المقري، *نفح الطيب*، ٤: ٥٠٦.

(٧٦) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ١٦٤.

(٧٧) مصطفى غالب، *أعلام الإسماعيلية* (بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٤م)، ٥٠٥.

(٧٨) المقري، *نفح*، ٢: ٥١٢.

(٧٩) ابـــن الأبـــار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، *درر السمط في خبر السبط*، تحقيق: عزالدين عمر موسى، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٤٦، (مقدمة المحقق).

(٨٠) ابن عربي، محي الدين، *الفتوحات المكية* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١: ٣٣٤.

(٨١) ابـــن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل، *ديوان الأحكام الكبرى*، تحقيق: رشيد النعيمي، ط١ (د. م: شركة الصفحات الذهبية المحدودة، ١٤١٧هـ)، ٢: ١٣١٨، ١٣١٩– ١٣٢٠.

(٨٢) محمد أحمد الخطيب، *الحركات الباطنية في العالم الإسلامي*، ط١ (عمان: مكتبة الأقصى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١٥٢.

(٨٣) النهروالي، *الإعلام*، ج ٣: ١٦٤.

(٨٤) ابن سهل، *ديوان الأحكام*، ٢: ١٣٣١.

(٨٥) محمـــود عـــلي مكـــي، التشيع في الأندلس، *صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية*، مدريد، المجلد الثاني، العدد ١– ٢، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ١١٥.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

الأسطول الحربي العُماني ودوره في الدفاع عن عُمان منذ القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث الهجري

عبدالله بن ناصر الحارثي
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس

المقدمة:

كان للأسطول الحربي العُماني مساهمة كبيرة في مجال الفتوحات الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين. وقد تطورت صناعة السفن الحربية في عُمان قبيل العصر العباسي ووصلت أوج ازدهارها في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري.

فقد شهدت عُمان منذ منتصف القرن الثاني الهجري فترة من الاستقرار السياسي أدت إلى الازدهار الاقتصادي، وبخاصة في مجال التجارة والملاحة البحرية، وبالتالي أصبحت مطمعاً للقراصنة الهنود. وكان لابد لعُمان من أن تضع الخطط والسياسات الاستراتيجية للتصدي لهؤلاء القراصنة في عرض البحار، ومن ثم أصبح تطوير الأسطول الحربي ضرورة ملحة.

وقد كوّن الإمام غسان بن عبدالله أسطولاً حربياً، حيث ابتكر العُمانيون في عهده نوعاً جديداً من القوارب الصغيرة سريعة الحركة، والتي عرفت "بالشذاءات"، والغرف لملاحقة هؤلاء القراصنة الذين استخدموا سفناً ذات حجم كبير وثقيل الحركة نسبياً، والتي عرفت باسم "البوارج".

وفي عهد الإمام المهنا بن جيفر اليحمدي ازداد حجم الأسطول الحربي العُماني واتسع نفوذ عُمان. وفي عهد الإمام الصلت بن مالك الخروصي تعرضت جزيرة سقطري لغزو حبشي، وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومن هنا زاد اهتمام الإمام الصلت بالأسطول الحربي العُماني الذي تمكن من الانتصار على هؤلاء الغزاة، وإعادة الجزيرة إلى السيادة العُمانية، وتأمين التجارة البحرية في بحر العرب.

موقع عُمان وحدودها:

كـــان ابن خلدون أكثر المؤرخين المسلمين وضوحاً في تعريفه بحدود عُمان وأبعادها الطبيعية إذ يقول: "عُمان وهـــي مـــن ممالك جزيرة العرب المشتملة على اليمن، والحجاز، والشحر، وحضرموت، عُمان، وهي خامسها إقليم سلطاني منفرد على بحر فارس من غربيه مسافة شهر، شرقيها بحر فارس جنوبيها بحر الهند، وغربيها بلاد حضرموت، وشماليها البحرين"(١)، ويبدو أن ابن خلدون قد نسي نجد والبحرين، وهما على التوالي وسط الجزيرة العربية وشمالها.

ومـــن هنا يتضح لنا أن عُمان تقع جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، وتحيط البحار بها من ثلاث جهات، بحر العـــرب من الجنوب، وخليج عُمان من الشرق، والخليج العربي من الشمال، والربع الخالي من الغرب(٢)، وهي جهة عازلة طاردة، حتمت على العُمانيين التوجه نحو البحر. ولذا اعتبرت بيئة عُمان بيئة بحرية، وإذا كان الإنسان ابن بيئته كما يقول المثل، فالعُمانيون أبناء بيئتهم لم يخرجوا على هذه القاعدة، فقد نشأوا في بيئة بحرية مثالية لعدة أمور منها: مـــا تتمتع به بلادهم من سواحل طويلة ممتدة على تلك البحار، وموانئ طبيعية صالحة لرسو السفن، وموقع جغرافي ممـــتاز عـــلى مدخل الخليج العربي، ذلك الممر التجاري الهام على مر العصور، الذي أكتسب أهمية جغرافية وتجارية وسياسية عظيمة انعكست هذه الأهمية على عُمان، إضافة إلى كبر مساحة عُمان خلال تلك الفترة، فقد كانت عُمان ذات مســـاحة كبيرة واسعة النفوذ، إذ سيطرت على أكثر من نصف الساحل الغربي للخليج، وعلى أكثر من نصف الساحل الجنوبي لبلاد العرب(٣).

بهـــذا الموقع، وبهذا الامتداد أصبحت عُمان مركزاً وسطاً بين منطقة القرن الأفريقي بساحل شرقي أفريقية من ناحـــية، وبـــلاد الهند وما خلفها من ناحية ثانية(٤)، ومنطقة الخليج وما خلفها من ناحية ثالثة. هذا الوضع حتم على العُمانيين العمل في البحر فمارسوا فيه شتى أنواع الأنشطة الاقتصادية من صيد وغوص وملاحة وتجارة، كما كان لهم دورهم الفاعل في الجوانب السياسية والعسكرية.

تطور صناعة السفن في عُمان:

أخـــذت صـــناعة الســـفن تتطور في عُمان منذ القدم، وأخذت في الازدهار منذ القرن الأول الهجري/السابع المـــيلادي، واســـتمر ذلـــك الازدهار في القرون اللاحقة، حيث تمت صناعة عدة أنواع من السفن مختلفة الأحجام، ومـــتعددة الاســـتخدامات لتفي باحتياجات البلاد في النشاط البحري في التجارة ونقل المسافرين، وللغوص، ولصيد الأسمـــاك، فكـــان منها ما هو للمسافات البعيدة، وأخرى للمسافات القريبة، واستخدمت بعض تلك السفن للأمور الحربية(٥).

وكـــان للوضع البحري لعُمان ووقوعها على مدخل الخليج أهمية بالغة، إذ كانت السيطرة على مضيق مسندم (هرمـــز) موضع صراع سواء بين القوى المحلية، أو بينها وبين القوى الأجنبية، كما اصبح لعُمان خلال فترة بحثنا هذا

مصالح استدعت أن يكون لها أسطول حربي، وقد لعب هذا الأسطول دوراً بارزاً في التاريخ السياسي للخليج والمحيط الهندي[٦].

تعريف الأسطول:

الأسطول مجموعة من السفن تستخدم للأمور الحربية أو المدنية وتجمع على أساطيل، فيقال الأسطول التجاري، أو الأسطول الحربي[٧]، والذي يهمنا هنا الأسطول الحربي.

دور الأسطول الحربي العماني قبيل فترة البحث:

كانت بداية مشاركة الأسطول الحربي العُماني في العصر الإسلامي بعد موقعة جلولاء سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، والتي انتصر فيها المسلمون على الفرس بقيادة ملكهم يزدجرد في السواحل الجنوبية من بلاد فارس الواقعة على الساحل الشرقي للخليج، وذلك لتطويق الدولة الإسلامية الناشئة من الشرق والجنوب، ولكسر ذلك الطوق أمر الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺعامله على البحرين وعُمان عثمان بن أبي العاص الثقفي بإعداد جيش إسلامي لكسر ذلك الطوق، وكان الوالي حينئذ في عُمان، فدعا للجهاد، فلبى العُمانيون دعوة الجهاد، فاجتمع له ثلاثة آلاف مجاهد، اجتمعوا في مدينة صحار، فعبر بهم الوالي مياه الخليج من منطقة الصير (جلفار)[٨] إلى جزيرة (ابن كاوان)[٩]، وهناك اجبروا قائد الحامية العسكرية الفارسية الموجودة بها على الاستسلام.

فلما علم ملك الفرس يزدجرد بذلك غضب غضباً شديداً، وأمر عامله على إقليم كرمان بأن يعد حملة كبيرة يتوجه بها إلى تلك الجزيرة وتخليصها من يد المسلمين.

التقى الجيشان الإسلامي والفارسي بجزيرة (جاش)[١٠] القسم حالياً، وكانت الدائرة على الفرس، حيث قتل قائد الحملة الفارسية (شهرك). وبذلك يكون الأسطول الحربي العُماني قد قضى على محاولة الفرس اليائسة، وفك ذلك الطوق الذي فرضه الفرس على الدولة الإسلامية. وكانت مشاركة الأسطول الحربي العُماني في هذه الموقعة بداية لدور العُمانيين في الفتوحات الإسلامية اللاحقة على الجبهة الفارسية، ومنها فتح توج الثانية، والتي وقعت في سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣م[١١].

وفي العصر الأموي تصدى الأسطول الحربي العُماني بقيادة سعيد وسليمان ابني عباد بن عبد بن الجلندى للحملات التي وجهها الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الأموي من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق، والأجزاء الشرقية من الدولة الأموية لإخضاع عُمان لولايته، والقضاء على نفوذآل الجلندي بزعامة سعيد وسليمان. وقد التقى الطرفان في عدة معارك بالساحل العُماني. منها معركة بركاء بساحل الباطنة. وكانت أكبر معركة وقعت بين الطرفين تلك التي وقعت بميناء مسقط، حيث بلغ عدد سفنها ثلاثمائة سفينة استطاع الأسطول الحربي العُماني بقيادة سليمان بن عباد تدمير نيفا وخمسين سفينة منها، ولاذت السفن الأخرى بالفرار.

وتورد المصادر التاريخية العُمانية[١٢] أم عدد القوات التي أرسلها الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عُمان بلغت نحو أربعين ألف مقاتل منها عشرون ألف مقاتل قوام الحملة البحرية التي كانت بقيادة مجاعة بن شعوة المزني، ويبدو أن ضخامة هذه الحملة كانت انتقاماً لهزيمة حملة برية سابقة أرسلها الحجاج بقيادة القاسم بن شعوة المزني، وهو أخو مجاعة. ومن جانبنا نرى أن هذه الأعداد المذكورة مبالغ فيها.

دور الأسطول الحربي العُماني في العصر العباسي:

أولاً: المحافظة على استقلال عُمان:

تغّلب العُمانيون على ولاة الدولة العباسية عام ١٧٧هـ/٧٩٣م، وأقاموا دولة اليحمد، فقد بايع العُمانيون محمد بن عبدالله بن أبي عفان اليحمدي إماماً لهم، وبعد عامين تقريباً خلفه الإمام الوارث بن كعب الخروصي اليحمدي، الذي استقرت الأمور في عهده، وبفضل حزمه وعزمه ساد الأمن والنظام ربوع عُمان[١٣]. ومنذ تلك الفترة أصبحت عُمان ذات سيادة مستقلة عن الدولة العباسية، وهناك عدة عوامل ساعدت العُمانيين على الاستقلال ببلادهم، والمحافظة على هذا الاستقلال منها:

- رغبة العُمانيين في اختيار حكامهم حسب نظام ارتأوه لأنفسهم -وهو نظام الشورى- المتمثل في الإمامة المنتخبة.
- طبيعة البلاد الجغرافية من حيث، الموقع العام لعُمان، وبعدها النسبي عن قلب الخلافة العباسية، فضلاً عن تضاريسها الصعبة التي وفرت لأهلها ملاذا حصيناً يحتمون به من أي غزو خارجي يهدد كيانهم السياسي[١٤].
- وحدة العُمانيين وتماسكهم والتفافهم حول قيادتهم.

ومن الطبيعي ألا يوافق الخليفة العباسي هارون الرشيد على انفصال عُمان واستقلالها عن الدولة العباسية، وهو الذي اشتهر عنه مخاطبته لسحابة مرت عليه: "اذهبي حيث شئت فسيأتيني خراجك حيثما كنت"، فأرسل حملة بحرية كبيرة بقيادة ابن عمه عيسى بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس لإخضاع عُمان، وذلك سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤م، قوامها ستة آلاف مقاتل منهم آلف فارس. ونزلت هذه الحملة بجلفار في الساحل العُماني الشمالي، واتجهت إلى مدينة صحار بساحل الباطنة بعُمان[١٥].

وكانت أخبار هذه الحملة قد وصلت إلى صحار مقارش[١٦] بن محمد بن عبدالله اليحمديعن طريق رسالة وصلته من داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي العُماني، وكان حينئذ والياً على السند من قبل هارون الرشيد[١٧]، وهو من أهل البصرة، وكتب الوالي إلى الإمام الوارث بن كعب الخروصي (١٧٩- ١٩٢هـ/ ٧٩٥- ٨٠٧م)، فأمره الإمام بإعداد قوة للتصدي للحملة العباسية، فأعد الوالي جيشاً يربو على ثلاثة

آلاف مقاتل، والتقى الجيشان بقرية (حتى) الواقعة شمال صحار. وكان النصر حليف العُمانيين، حيث هزمت الحملة العباسية هزيمة منكرة، وتعد هذه الهزيمة أول انتكاسة بحرية للخلافة العباسية في عُمان[١٨]، وفر من بقى من هذه الحملة إلى سفنهم الراسية بالساحل العُماني، فوجه إليهم الوالي حملة بحرية مكونة من ثلاثة مراكب[١٩] بقيادة أبي حميد بن فلج الحداني[٢٠] السلوتي، وعمرو بن عمر فاقتحموا سفينة عيسى بن جعفر وأسروه وأحضروه إلى صحار، وتم سجنه بحصنها.

وكان الإمام قد خرج من نزوى لصد عيسى بن جعفر، وفي الطريق تلقى خبر هزيمته وسجنه بصحار. فرجع إلى نزوى، وهناك قام في الناس خطيباً فقال: "يا أيها الناس إني قاتل عيسى بن جعفر فمن كان معه قول فليقل". فقام الفقيه علي بن عزره التراري فقال: "إن قتلته فواسع لك، وإن تركته فواسع لك" فرأى الإمام تركه سجيناً[٢١]، ويعتبر هذا الموقف من الإمام موقفاً حكيماً، وذلك تجنباً لقيام هارون الرشيد بالانتقام لمقتل قريبه[٢٢]، لكن مجموعة من الشراة الشباب بقيادة يحيى بن عبدالعزيز تسوروا السجن وقتلوا عيسى بن جعفر من حيث لا يعلم الإمام ولا واليه على صحار[٢٣]، وذلك لسوء أخلاق جند الحملة العباسية، لما ارتكبوه من مناكر في عُمان مما جعل العُمانيين يثورون عليهم، كما ذكر البلاذري[٢٤]: "فخرج إليها -يعني عُمان- بأهل البصرة فجعلوا يفجرون بالنساء ويسلبونهم ويظهرون بالمعازف فبلغ ذلك أهل عُمان، وجلهم شراة، فحاربوه ومنعوه من دخولها، ثم قدروا عليه فقتلوه".

و لم يقم هارون الرشيد بالانتقام لقتل عيسى بن جعفر، وذلك لانشغاله في مواجهة البيزنطيين، وكانت وفاته بطوس بقرية يقال لها سنباذ عام ١٩٣هـ/ ٨٠٨م[٢٥].

وقبل أن ننهي هذا الموضوع نريد أن نوضح أن انتصار العُمانيين لا يعود فقط على تلك العوامل المساعدة التي أشار إليها الأستاذ فاروق عمر كالرابطة القبلية التي حتمت على داود بن يزيد المهلبي إشعار العُمانيين بهذه الحملة، ولا لانشغال الخليفة هارون الرشيد بحروبه مع البيزنطيين، ولا إلى ذلك الصراع الذي نشب بين الأخوين الأمين والمأمون على كرسي الخلافة[٢٦]. بل يعود إلى اقتناع العُمانيين بحقهم في اختيار كيانهم السياسي المستقل وإلى استبسالهم في القتال، ووقوفهم صفاً واحداً في مواجهة تلك الحملة الغاشمة التي استهدفت ذلك الكيان السياسي بأسلوب عنجهي يتعارض مع تعاليم الإسلام الأخلاقية في أوقات الحروب.

ثانيا: التصدي للقراصنة الهنود:

نعمت عُمان بالاستقرار وأنتشر فيها العدل في عهد الإمام الوارث بن كعب الخروصي وازدهرت اقتصاديا في عهد خليفته الإمام غسان بن عبدالله اليحمدي (١٩٢-٢٠٨هـ/٨٠٧-٨٢٣م)، حيث شهدت البلاد فترة من الخصب والنماء نتيجة لهطول أمطار غزيرة أدت إلى وفرة المياه[٢٧]، مما ساعد على نمو الثروة الزراعية والحيوانية، فشهدت البلاد نشاطاً تجارياً كبيراً طمع فيه القراصنة الهنود (أو الميد: كما عرفوا عند العرب)[٢٨]، وقاموا بالإغارة

على السواحل العُمانية، وكان ذلك في عام ٢٠١هـ/ ٨١٦م، واستخدموا البوارج -وهي سفن كبيرة مخصصة لنقل الركاب والبضائع- في الإغارة على السواحل العُمانية، واستغلوا في ذلك طبيعة المنطقة الجبلية والأخوار الممدة من جلفار إلى دبا[٢٩] (رأس منطقة شبه جزيرة مسندم) مستغلين تلك المخابئ ليقوموا بعمليات السطو على السفن التجارية المارة العابرة من منطقة الخليج وإليها من بحر العرب والمحيط الهندي. فيسلبوها وينهبون ما بها من بضائع، ثم يفرون بها إلى فارس والعراق لبيعها هناك[٣٠]. الأمر الذي حدا بالإمام غسان إلى اتخاذ إجراءات سريعة لردع هؤلاء القراصنة، وتنفيذاً لأوامره قام صناع السفن العُمانيون بابتكار نوع جديد من السفن الحربية عرفت بالشذاءات والغرف، والتي تعرف محلياً بالزوارق[٣١]، وهي قوارب صغيرة الحجم خفيفة سريعة الحركة بدلاً من تلك المراكب الكبيرة الثقيلة التي يتكون منها سابقاً الأسطول العُماني، وذلك لتتمكن من مطاردة تلك البوارج لكونها أكثر كفاءة لملاحقتها، وأكثر مقدرة على المناورة وسرعة الالتفاف أثناء القتال[٣٢].

وقد تكللت جهود العُمانيين بالنجاح، فلم يكتفوا بهزيمة أولئك القراصنة والقضاء على قرصنتهم في الشواطئ العُمانية، بل تعقبوهم إلى بلادهم، كي لا تسول لهم أنفسهم العودة لممارسة عملياتهم الإجرامية مرة أخرى[٣٣].

ثالثاً: تطور الأسطول الحربي العُماني واتساع نفوذ عُمان:

كان الإمام غسان بن عبدالله قبل وفاته -رحمه الله- بصدد إعداد حملة بحرية كبيرة لغزو ساحل الهند الغربي لردع أولئك القراصنة الذين يسطون على السفن التجارية المارة ببحر العرب، وبحر الهند، لكن المنية وافته قبل أن يحقق أمله[٣٤]، فتحقق ذلك الأمل على يد الإمام المهنا بن جيفر اليحمدي (٢٢٦- ٢٣٧هـ/ ٨٤٠- ٨٥١م)، الذي وصف عهده بأنه امتداد للاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، الذين شهدتهما عُمان خلال تلك الفترة، وامتاز عهده بحكومة مركزية قوية بفضل شخصيته القوية والحازمة، وكان من مظاهر قوة عُمان في عهده ازدياد عدد القوات العسكرية البرية والبحرية فقد عظمت كفاءة الأسطول الحربي العُماني فبلغت عدد سفنه ثلاثمائة سفينة مهيأة للحرب فضلاً عن بقية السفن الأخرى التي يمكن استنفارها عند الحاجة[٣٥].

لقد تمكن العُمانيون بفضل امتلاكهم هذا الأسطول الكبير وخبرتهم الحربية والملاحية من فرض سيطرتهم ونفوذهم على بعض المناطق المجاورة بساحل بحر العرب، وفي منطقة الخليج، وخير مثال على ذلك سيطرتهم على جزيرة سقطرى[٣٦] لواقعة بين طرق التجارة العالمية، وعلى مدخل البحر الأحمر، والتي رابطت فيها قوة عُمانية، وكان يقيم بها عامل من قبل أئمة عُمان[٣٧].

رابعاً: تحرير جزيرة سقطرى من الاحتلال الحبشي:

كان الوالي على جزيرة سقطرى في عهد الإمام الصلت بن مالك الخروصي (٢٣٧- ٢٧٢هـ/ ٨٥١- ٨٨٥م)، القاسم بن محمد الجهضمي السمدي، وفي تلك الفترة في عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، قام نصارى الحبشة بغزو

جزيـــرة ســـقطرىن واحتلالها بالتعاون مع نصارى سقطرى الذين نقضوا معاهدة الأمن والسلام المبرمة بينهم وبين العُمانـــيين. فقضـــوا عـــلى القوة العُمانية المرابطة في الجزيرة، وقتلوا الوالي العُماني القاسم بن محمد وكثيراً من أهلها المســـلمين وسبوا نساءهم وأطفالهم ونهبوا متلكاتهم وحولوا مساجدها إلى كنائس للنصارى. وعند وقوع هذا الغزو كـــان موجوداً بسقطرى الشاعر حمد بن خلفان بن حميد الجهضمي من أهالي سمد الشأن[٣٨]، وبرفقته أبنته فاطمة في زيـــارة قريبهم الوالي الجهضمي. وشهدوا مقتله والأفعال الإجرامية التي ارتكبها أُلئك الغزاة بالمسلمين في الجزيرة[٣٩]، وللاســـتغاثة بالإمام الصلت بن مالك الخروصي، وإثارة حفيظته، وهمم وحماس العُمانيين معه نظم الشاعر الجهضمي المذكـــور قصـــيدته المشـــهورة في كتب التاريخ العُماني على لسان ابنته فاطنة[٤٠]، مضاهاة منه لقصيدة أبي تمام[٤١] المشهورة في الخليفة العباسي المعتصم بن هارون الرشيد في فتح عمورية، وذلك في سنة ٢٢٣هـــ/ ٨٣٧م[٤٢]. وسمى الجهضمي قصيدته الزهراء السقطرية على أنها تعبر عن استغاثة بالإمام الصلت الخروصي.

وقـــد ربـــط بعض الشعراء العمانيين[٤٣]، بين هاتين الاستغاثتين، ومن جانبنا لا نستبعد أن يكون هناك اتصال وتعـــاون بين نصارى هاتين المنطقتين نعني سقطرى والحبشة، وبين الدولة البيزنطية، على أساس أن نصارى سقطرى كـــانوا أصـــلاً من بلاد اليونان ويتمذهبون على المذهب النسطوري نسبة إلى نسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣٠م)[٤٤]، وأن هذا الغزو جاء انتقاماً لما قام به الخليفة العباسي المعتصم من تخريب لمدينة عمورية أهم وأفضل مدينة في الأناضـــول، وعـــند البيزنطـــيين، ولكونها مسط رأس والد الإمبراطور تيوفيل، وذلك انتقاماً لما قام به الإمبراطور المذكـــور، الـــذي هاجم مدينة "زبطرة" أقرب الثغور الإسلامية إلى بلاد الروم، فأحرقها وخربها وقتل رجالها وسبى نســـاءها وأطفالها. وغضب المعتصم لهذه الواقعة خصوصاً وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته. وكان أشد ما أثار في نفسه الحمية، وقوى همته واستنهض عزيمته هو استغاثة امرأة هاشمية أخذت تصيح عندما وقعت في أسر الروم مستنجدة "وامعتصماه" فغضب ولبى هذه الاستغاثة[٤٥].

وعلى غرار ذلك لبى الإمام الصلت بن مالك الخروصي تلك الاستغاثة التي نظمت على لسان الفتاة السقطرية، فجهـــز حملـــة بحـــرية كبيرة مكونة من مائة إلى مائة وعشرين قطعة بحرية[٤٦]، وتوجه الأسطول العُماني إلى جزيرة ســـقطرى لتحريرها من قبضة الأحباش، وتم تجهيز الحملة بكل ما تحتاجه من معدات الحرب والقتال والمؤن، وأوكل الإمـــام بقـــيادة ذلك الأسطول إلى خمسة من خيرة قادة جيشه في الحزم والعزم والنزاهة والتقوى وأوصاهم بأن يقوم الثاني منهم مقام الأول إذا أصيب، وينقل الشيخ السالمي[٤٧] ذلك بقوله: "فجمع الإمام الجيوش وجهز المراكب وولي علـــيهم محمد بن عشيرة، وسعيد بن شملال، فإن حدث بأحدهما حدث فالباقي منهما يقوم مقام صاحبه، فإن حدث بهمـــا جمـــيعاً حـــدث، ففي مقامهما حازم بن همام وعبدالوهاب بن زيد وعمر بن تميم". ولم يكتف الإمام بتجهيز المجـــاهدين في سبيل الله بما يحتاجون إليه من معدات الحرب ومؤن الطعام والشراب، وإنما أمدهم بما هو أكبر من ذلك وأنفع وأبقى لهم في الدنيا والآخرة، فزودهم بتلك النصائح الإيمانية والنفحات الروحانية فزهدهم في الدنيا ورغبهم في

الآخرة، وذكرهم بتعاليم الإسلام السمحة في القتال وكتب لهم كتاباً بيّن فيه ما يأتون وما يذرون. وليس بإمكاننا أن نـــورد نص هذا الكتاب في هذا البحث المختصر فهو يربو على خمس عشرة صفحة، ويتضمن عدة وصايا وتعليمات وضّـــح فيها الإمام مهام كل فئة من هذا الجيش، من قادة وجنود وربابنة سفن والعاملين عليها والعلاقة فيما بينهم، وكيفـــية تعامـــلهم مع أهل سقطرى المسلم منهم والمحارب، وأن يكونوا حرصين في اتباع تعاليم الإسلام ومبادئه في غزوهم هذه(٤٨).

فساروا على بركة الله وتوفيقه مستقلين أسطولهم الحربي من ميناء صحار، وعند وصوله الجزيرة أحاط بها إحاطة الســـوار بالمعصم. و لم تذكر المصادر التاريخية عدد أفراد تلك الحملة، لكن فيما يبدو لنا إنها كانت كبيرة خاصة وأن عدد سفن الأسطول الحربي التي نقلتهم كانت تزيد على المائة سفينة، وأن يتولى قيادتها بالتتابع خمسة من خيرة القادة العُمانيين، الذين كانوا فعلاً عند حسن ثقة الإمام بهم فقد قادوا تلك الغزوة بكل كفاءة واقتدار وأبلوا ومن معهم من الجند بلاءً حسناً. فلا غرو أن حققوا النصر والظفر على أعدائهم وذلك تحقيقاً لوعد الله لعباده المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٩).

وبالعـــزيمة والاستبسال حرر الأسطول الحربي العُماني جزيرة سقطرى من الاحتلال الحبشي، وأعادها مرة ثانية تحت السيادة العُمانية، وأعاد معها الأمن والطمأنينة إلى نفوس أهلها والملاحين والتجار والمسافرين المارين عليها للتزود بالماء والمؤن.

الخاتمة:

اتضـــح لنا من خلال إعدادنا لهذا البحث المختصر أن هناك عدة عوامل هيأت الأسطول الحربي العُماني للقيام بواجبه في الدفاع عن أرض عُمان -البوابة الشرقية للعالم العربي- نذكر منها:

- تفوق العُمانيين في المجال الملاحي والتجاري في المنطقة.
- تطور صناعة السفن وازدهارها في عُمان خلال فترة البحث.
- الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في عمان خلال فترة البحث.
- تطور الأسطول الحربي العُماني وقيامه بالمحافظة على استقلال عُمان وكيانها السياسي.
- كـــان أهـــم حدثـــين تصدى لهما الأسطول العُماني هما: ردعه للقراصنة الهنود، وتحريره لجزيرة سقطرى من الاحتلال الحبشي، وإعادة الأمن والاستقرار في مياه بحر العرب والخليج العربي.

والله حسبنا ونعم الوكيل؛؛؛

التعليقات

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٩هـ)، *تاريخ ابن خالدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)* (بيروت، ١٩٨٣م)، ٤: ١٩٨.

(٢) انظر: الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤هـ)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣ (بيروت: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م)،٣٩، ٨٢- ٩١؛ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، *الأعلاق النفيسة*، مجلد٧ (ليدن: ١٨٩١م)، ٧: ٩٦؛ الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت)، ٤: ١٥؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد ابن علي (ت ٨٢١هـ)، *كتاب صبح الأعشى*، ٥: ٥٥؛ الحارثي، عبدالله بن ناصر، *بنو نبهان في عُمان والأوضاع الاقتصادية في عصرهم*، ٥-٦ ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٠م.

(٣) رجب محمد عبدالحليم، *العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين* (مسقط: مكتبة العلوم، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ٤٣-٤٤؛ عُمان وتاريخها البحري، ٢٣-٢٥.

(٤) رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٤؛ أبوالعلا، محمود، *جغرافية إقليم عُمان (سلطنة عُمان ودولة الإمارات)*، ط١ (مكتبة الفلاح، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٨-٢١.

(٥) رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٦؛ أرنولدز ويلسون، *تاريخ الخليج*، ترجمة: محمد أمين عبدالله، ط٣ (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ٢٦.

(٦) أبوالعلا، *جغرافية إقليم عُمان*، ٢١-٢٢؛ عاشور، سعيد، وخليفات، عوض محمد، *عُمان والحضارة الإسلامية*، جامعة السلطان قابوس، ٤-٥.

(٧) أنيس، إبراهيم وآخرون، *المعجم الوسيط*، (بيروت: دار أمواج، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

(٨) جلفار: بالضم ثم الفتح والتشديد، وفاء وآخره راء: بلد بعُمان عامر كثير الغنم والجبن والسمن يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان. الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ١٥٤.

(٩) جزيرة ابن أو بني كاوان، وتسمى أيضاً جزيرة لفت: يصفها الحموي بأنها جزيرة عظيمة تقع في بحر فارس (الخليج العربي) بين البحرين وعُمان، الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ١٣٩.

(١٠) جزيرة جاش (الفارسية): وقد عربها العرب إلى القشم أو القسم، وتقع عند مدخل الخليج العربي بالقرب من جزيرة هرمز، العوتبي، سلمة بن مسلم (ت في ق. ٥هـ/١١م)، *الأنساب* (مسقط، ١٩٨٤م)، ٢: ٣٢٥.

(١١) عن الموضوع انظر: البلاذري، أبو الحسن أحمد بنب يحيى (ت ٢٧٩هـ)، *فتوح البلدان*، ط١ (بيروت: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٣٧٤-٣٨٠؛ ابن الأثير، عز الدين أبوالحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، *الكامل في التاريخ* (بيروت: ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ٣: ٣٩-٤٠؛ عاشور، سعيد، وخليفات، عوض محمد، *عُمان والحضارة الإسلامية*، ٢٧؛ عمر، فاروق (د)، *الخليج العربي في العصور الإسلامية*، ط١ (دبي: دار القلم، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ٤٣-٤٤؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)*، ط١ (بيروت: مؤسسة عز الدين، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ٤: ٣٢٩، ٣٩٧؛ العوتبي، *الأنساب*، ٢: ١٢٥- ١٢٨.

(١٢) الأزكوي، سرحان بن سعيد (ت قي ق. ١٢هـ/١٨م)، *تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة*، ٤٤ -٤٦؛ السالمي، نور الدين عبدالله بن حميد (ت ١٣٣٢هـ)، *تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان*، (مسقط: نشر مكتبة الإمام نور

الدين السالمي)، ١: ٧٤-٧٥؛ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت ١٢٩١هـ)، *الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان*، تحقيق: عبدالمنعم عامر (القاهرة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ١٢-١٥؛ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت ١٢٩١هـ)، *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين*، تحقيق: عبدالمنعم عامر، د. مرسى عبدالله، ط٢ (القاهرة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ١١٣-١١٥؛ الخروصي، سليمان بن خلف، *ملامح من التاريخ العُماني*، ط٣ (مسقط: مكتبة الضامري، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ١٠٠-١٠١؛ انظر أيضاً: مايلز، س. ب. *الخليج وبلدانه وقبائله*، ترجمة: محمد أمين عبدالله، (سلطنة عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٦٦-٦٨؛ رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٩.

(١٣) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٤-١١٥؛ ابن رزيق، *الشعاع الشائع*، ٢٧-٣٢؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٤- ٢٠٥؛ الخروصي، *ملامح من التاريخ العُماني*، ١٠٨؛ عاشور، سعيد، وخليفات، عوض محمد، *عُمان والحضارة الإسلامية*، ٣٠.

(١٤) عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٥.

(١٥) أجمعت المراجع العُمانية على أنه عيسى بن أبي جعفر المنصور. انظر السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٨؛ ابن رزيق، *الشعاع الشائع*، ٢٢٥، ٣٢؛ السالمي، محمد بن عبدالله وناجي عساف، *عُمان تاريخ يتكلم* (دمشق: ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ١٣٣؛ الخروصي، *ملامح من التاريخ العُماني*، ١٠٨، بينما ذكرت المراجع الأخرى ما أوردناه انظر: البلاذري، *فتوح البلدان*، ٨٤؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي* ، ٢٠٦؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٧٨.

(١٦) تورد غالبية المراجع العُمانية أنه مقارش بن محمد بينما يذكر ابن رزيق أن اسمه فارس بن محمد، وكذلك أخذ عنه مايلز، والسالمي، *تحفة الأعيان*؛ الخروصي، *ملامح من التاريخ العُماني*، ١٠٩؛ ابن رزيق، *الشعاع الشائع*؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*.

(١٧) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٦: ٣٦٢. يذكر الزركلي أنه ولي السند من قبل هارون الرشيد من سنة ١٨٤هـ حتى وفاته ٢٠٥هـ، *الأعلام*، ٢: ٣٣٦.

(١٨) السالمي محمد، وناجي عساف، *عُمان تاريخ يتكلم*، ١٣٣؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٨؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٧٨-٧٩.

(١٩) أجمعت المراجع العُمانية على أنها ثلاثة مراكب بينما يذكر فاروق عمر أنها ٣٠٠ مركب، ٢٠٨.

(٢٠) ذكر الطبري أن اسمه ابن مخلد الأزدي، *الأمم والملوك*، ٨: ٤٨٥. بينما ذكر ابن رزيق أن اسمه أبوحميد بن فلح في كتابيه السابقين.

(٢١) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٨- ١١٩.

(٢٢) عمر، فاروق، *الخليج العربي* ، ٢٠٩.

(٢٣) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٨- ١١٩؛ ابن رزيق، *الفتح المبين*، ٢٢٥- ٢٢٦؛ *الشعاع الشائع*، ٣٢-٣٣.

(٢٤) البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٨٤. انظر أيضاً عمر فاروق، *الخليج العربي* ، ٢٠٦؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٧٨.

(٢٥) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ* ، ٦: ١٥٨-١٩٨، ٢١١-٢١٤؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد (بيروت: دار المعرفة)، ٣: ٣٤٧.

(٢٦) عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٩؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله* ، ٨٠.

(٢٧) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٥؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢١٨-٢٢٠؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٨١.

(٢٨) شـــهابن حســـن صالح، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، وزارة التراث القومي والثقافة، ط١ (مسقط: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ١١٦.

(٢٩) تقع مدينة دبا بشبه جزيرة مسندم في المنطقة الشمالية من عُمان. مطلة على خليج عُمان اشتهرت بكونها مرفأ نشطا وسوقاً من أسواق العرب قبل الإسلام، وكان الجلندي بن المستكبر ملك عمان يعشر أهلها.

(٣٠) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٣.

(٣١) عن صناعة السفن العُمانية انظر: *عمان وتاريخها البحري*، ١٤٧. ابن رزيق، *الفتح المبين*، ٢٢٥-٢٢٦.

(٣٢) شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٦-١١٨.

(٣٣) عن الموضوع انظر: الأزكوي، سرحان بن سعيد، *تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة*، ٥١، الأزكوي، *تاريخ عُمان*، تحقيق: أحمد عبيدلي؛ ابن رزيق، *الشعاع*، ٣٥-٣٦، *والفتح المبين*، ٢٢٧؛ السالمي وناجي عساف، *عُمان تاريخ يتكلم*، ١٣٤؛ السالمي، *تحفـة الأعـيان*، ١: ١٢٢-١٢٣؛ مايلـز، *الخلـيج وبلدانه وقبائله*، ٨٢؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢١٦-٢١٨؛ رجب عبدالحليم، *العُمانيون والملاحة*، ٤٩؛ ارنولد، تاريخ الخليج، ٤٤.

(٣٤) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٥-١٢٦؛ شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٨.

(٣٥) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٥٠؛ شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٢٤.

(٣٦) ســـقطرى: بضم أوله وثانيه، وسكون طائه، وراءه، وألف مقصورة، اسم جزيرة عظيمة كبيرة تبلغ مساحتها ٣٦٢٦كم مربعاً، فيها عدة مراسي تتوسطها الجبال. فيها عدة قرى ومدن تقع جنوب عدن في المحيط الهندي، وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهـــند، وكانـــت مركزاً للقراصنة الهنود الذين يقطعون على المسافرين والتجار والملاحين، ويبدو أن العُمانيين قد احتلوها بعد قضائهم على القراصنة الهنود في عهد الإمام غسان بن عبد الله، واتخذوها قاعدة لهم، وذلك لوقوعها على الطريق التجاري الهام الواصل بين شرق أفريقية والبلاد الواقعة إلى جنوب المحيط الهندي وبر الصين من جهة وعُمان من جهة ثانية، ثم لوجود مجموعة مـــن الاباضـــيين من أهلها على الرغم من أن غالبية سكانها من نصارى العرب خاصة قبائل مهرة، وبها ما يقارب عشرة آلاف مقاتل. الحموي، *الموسوعة العربية الميسرة*، مج٣، ٢٢٧.

(٣٧) مايلـــز، *الخلـــيج وبلدانه وقبائله*، ٨٢؛ رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٩-٥٠؛ شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٩-١٢٠.

(٣٨) نســـبة إلى مدينة سمد الشأن، بالمنطقة الشرقية من عُمان تقع على ضفة واد عرف باسمها واد سمد، وهي من المدن القديمة، كانت قاعدة من قواعد ملوك بني نبهان ومعقلاً من معاقل زعامتهم. السيابي، سالم بن حمود، *العنوان عن تاريخ عُمان*، ٧٣.

(٣٩) الحـــارثي، أحمـــد بن عبدالله، و السالمي، الإمام نور الدين ، *اليسرى في إنقاذ جزيرة سقطرى*، ط١ (مسقط: مكتبة الضامرى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ٢-٧.

(٤٠) بعض ما قاله الجهضمي:

قل للإمام الذي ترجـــى فضائلـــه	ابن الكرام وابن الســـادة النجـــب
وابن الجحاجحة الشم الذين هـــم	كانوا سناها وكانوا سادة العـــرب
أمست سقطرى من الإسلام مقفرة	بعـــد الشرائع والفرقـــان والكتب
واستبدلت بالهدي كفراً ومعصيـــة	وبالآذان نواقيسا مـــن الخشـــب

وبالذراري رجالاً لا خـــلاق لهـــم من اللئام علــوا بالقهر والغلـــــب
جار النصاري على واليك وانتهبوا من الحريم و لم يالوا مـــن السلـــــب
إذ غادروا قاسما في فتيــــة نجـــب عقوى مسامعهم في سبسب خـــرب
ما بال صلت ينام الليـــل مغتبطـــاً وفي سقطرى حريم بادهـــا النهـــب
ياللرجال أغيثوا كـــل مسلمـــــة ولو حبوتم على الأذقان والركـــب
حتى يعود عمـــاد الدين منتصبـــاً ويُهلك الله أهل الجـــــور والريـــب
وثم يصبح دعا الزهـــراء صادقـــة بعد الفسوق وتحيـــــا سنة الكتب

انظر السالمي، *تحفة الأعيان*، ١٦٧-١٦٨.

(٤١) وقوله:

السيف أصدق أنباء مـــــن الكتـــب في حـــدّه الحد بين الجـــدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحـــائـــف في متونهن جـــلاء الشـــك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعـــــة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
تـــدبير معتصـــم بالله منتقـــــم لله مرتقـــــب في الله مرتهـــــب
خليفة الل ه جازي الله سعيك عـــن جرثومة الدين والإســـلام والحسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمائهم صفـــر الوجوه وجلت أوجه العرب

أبو تمام، حبيب بن أس الطائي، *ديوان أبي تمام*، تقديم وشرح د. محيى الدين صبحي، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م)، ١: ٩٦ -١٠٤.

(٤٢) عن فتح عمورية انظر: اليعقوبي، أحمد بن احمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هـــ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت، ١٤٠٠هـــ/ ١٩٨٠م)، ٢: ٤٧٥-٤٧٦؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٦: ٤٧٩-٤٨٨؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٦٧٧- ٧٣٣هـــــ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق: د. محمد جابر عبدالعال الحسينين م. إبراهيم مصطفي (القاهرة: الهيئة المصـــرية العامة للكتاب، المكتبة العربية، ١٤٠٤هـــ/١٩٨٤م)، ٢٢: ٢٥٠-٢٥٣؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابـــن محمـــد (ت ٥٩٧هـــ)، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفي عبدالقادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـــ/١٩٩٢م)، ١١: ٧٨- ٨٣.

قال إبراهيم بن المهدي في غزو الروم لزبطرة:

يا غارة الله قـــد عاينـــت فانتهلـــي هتك النساء وما منهم يرتكـــب
هب الرجال على اجرامهـــا قتلـــت ما بال أطفـــال بالذبح تنتهـــب

المسعودي، *مروج الذهب*، ٤: ٥٩- ٦٠.

(٤٣) ومن بعض ما قاله الشيخ أحمد بن عبدالله الحارثي:

يا وقعة بسقطرى جلّ قائدهــــــا وأنت زهراء فيهـــــا أول السبب
لبى دعـــــاك بجيش لا تزاحمــــه الأفلاك في السبعة السيارة الشهب
فالصلت سلّ حسام الحـــق منتصباً على البغـــاة فأرداهم على العقب

حتى أعاد سقطـــرى وهي باسمـــة تختال ما بين حد السيف والغضب
يا وقعة بسقطـــرى شاكلـــت مثلاً يوماً بوقعــــــــة عمورية الكرب
تقاربت زمنـــا والشبــه في عمــــل كأن بينهمـــــا شيء من النشب
في تلك كـــان أمير المؤمنين فـــتى هـــارون معتصمـــاً بالله منتدب
لبى نداء شجيـــا في استغاثتـــــه لحرة مـــن بنات الدين والحسب
إذ قال لبيـــك يا لبيـــك مبتـــدراً بجيشه قبـــل نضج التين والعنب

الحارثي والسالمي، *اليسرى في إنقاذ جزيرة سقطرى* ، ١٠-١٨.

(٤٤) الشهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٩-١٢٠.

(٤٥) العبادي، أحمد مختار، *في التاريخ العباسي والفاطمي*، دار النهضة العربية، ١١٨- ١١٩.

(٤٦) الحارثي والسالمي، *اليسرى في إنقاذ جزيرة سقطرى*، ٥ و١٥.

(٤٧) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٦٨.

(٤٨) عن الموضوع انظر: السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٦٦-١٨٣.
– السالمي وعساف، *عُمان تاريخ يتكلم*، ١٣٦-١٣٧؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٩٨-٣٠١؛ عاشور، سعيد عبدالفتاح، بحث بحصاد ندوة الدراسات العُمانية، ١: ٢٨٠.

(٤٩) سورة الروم، آية ٤٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

مخلاف عثَّر في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر للميلاد)

أحمد بن عمر الزيلعي
قسم الآثار والمتاحف – جامعة الملك سعود

مخلاف عثَّر أو المخلاف السليماني (حالياً منطقة جازان) من المناطق المجهولة في المصادر التاريخية، وخصوصاً في القرون الخمسة الأولى للهجرة النبوية الشريفة، وستظل كذلك مادام الباحثون والدارسون يتهيبون البحث فيها، ويتحاشون المساس بماضيها والغوص في مجاهل تاريخها، وما كان لها من أهمية حضارية، وأدوار تاريخية على المستويين المحلي والإقليمي، وخصوصاً علاقتها مع كل من مكة المكرمة واليمن. ولعلها لا تكون مجازفة من الباحث حينما يَقْدِم على موضوع شائك كهذا للمشاركة به في ندوة تاريخية مهمة لها حضورها العالمي المميز، لولا أنه على أمل أن يغطي البحث عند تمامه فترة تاريخية مجهولة من فترات تاريخ مخلاف عثر أو المخلاف السليماني بعد أن أُطلقت عليه هذه التسمية الأخيرة فيما بعد، واشتهر بها. فما هو مخلاف عثر هذا؟ وأين موقعه؟ وما نصيبه من الذكر في المصادر العربية المتاحة، وما أهميته التاريخية والحضارية في زمن هذه الدراسة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات أو بعضها تجدر الإشارة إلى أن مدينة عثَّر ومخلافها المسمى باسمها والمنسوب إليها (مخلاف عثَّر)، لم يكن لهما -في حدود علمي- نصيب كبير من الذكر في المصادر التاريخية والجغرافية المتاحة في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر للميلاد، وما ذكر عنهما -وهي إشارات محدودة جداً- يمكن توظيفه في أربعة سياقات: أولها ورود عثَّر في الشعر الجاهلي على أنها مأْسَدة أي كثيرة الأسود، يقول عُرْوَة بن الورد (ت نحو ٣٠ ق.هـ/ ٥٩٤م)[١]:

تَبَغَّانِيَ الأعداءُ إما إلى دمٍ	وإما عُراض الساعدين مصدّراً
يظل الإبَاءُ ساقطاً فوق متنةِ	له العدوةُ القصوى إذا القِرْن أصحرا
كأن خواتَ الّرعْدِ رزُّ زئيرِه	من اللاء يْسكُنَّ الغَرِيْفَ بعَثَّرا

ويقول آخر:[٢]

ليثٌ بعثَّرَ يصطادُ الرجَالَ إذا ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانه صدقا

ويقول ابن مقبل (تميم بني أُبيٍّ ت. نحو ٣٧هـ/ ٦٥٧هـ): [٣]

جلوساً بها الّشمُّ العجافُ كأهم أسودٌ بَترْجٍ أو أسودٌ بُعثُودا

وعُثْوُد جزء من مخلاف عثر كما سيأتي بعد. يتضح من هذا الوصف الشعري لموقع عثر أنه كان قبيل بعثة النبي ﷺ، وفي صدر الإسلام غابات تكثر فيها الأسود، وهو ما يتعارض مع اكتشاف دلائل أثرية على استيطان حضري قديم في موقع مدينة عثر يسبق الإسلام بقرون عديدة. [٤] ومن المحتمل أن المقصود بالأمكنة التي تكثر فيها الأسود من إقليم عثر، هي تلك التي تمثل الظهير الداخلي لمدينة عثر نفسها كونها معروفة حتى اليوم بغاباتها الكثيفة، وغطائها النباتي الغزير، وخصوصاً في وادي بيش الذي تقع مدينة عثر في غربيِّة تقريباً. [٥] ويؤيد هذا الاحتمال قول الهمداني: "وإلى حازَّة عثر تنسب الأسود التي يقال لها أسود عثر وأسود عتود"[٦]. ومعروف أن الحازَّة هي المقصودة هنا بكثرة الأسود، وهي تعني حتى اليوم في عرف الأهالي المحليين الأرض التي بين السهل والجبل[٧]، أي تلك التي أطلقنا عليها سابقاً ظهير مدينة عثر، أو امتدادها الداخلي في أودية كل من صَبْيَا وبَيْش وعُثْوُد وما وما حولها[٨].

ويلحظ من الأبيات السابقة ورود عثّر بتضعيف الثاء، وهو ما يتفق مع ورودها في معظم المصادر المتاحة، إلا أن هناك من الشعراء من يوردها بالتخفيف، أي بسكون الثاء (عَثْر) من ذلك قول عمرو بن زيد، أخي بني عوف[٩]:

جلوساً بها الّشمُّ العجافُ كأهم أسودٌ بَترْجٍ أو أسودٌ بُعثُودا

وصلنا إلى عَثْرٍ وفي دارِ وائلٍ بها ليلُ منَّا سَادَةٌ وأُسُوْدُ

ومنه شعر الأحوص قوله[١٠]:

أَلَمَّت بعثْرٍ من قُباءٍ تزُوْرُنا وأَنَّا قباءٌ للمُزَاورِ من عَثْرٍ

أما السياق الثاني في تناول مدينة عثر من قبل المصادر الجغرافية فيتمثل في كونها محطة من محطات طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي الذي يأتي من عدن مقارباً لساحل البحر الأحمر، ومجتازاً لعدد كبير من محطات الطريق إلى الُشعَيْبة فجدّة، ثم شرقاً إلى مكة المكرمة[١١]. وهذا الطريق يتصل به طريق حضرموت الساحلي، وكذلك طريق عمان الذي يسلك ساحل البحر العربي عبر حضرموت إلى عدن[١٢]. وممن ذكرها في هذا السياق من الجغرافيين العرب الحربي (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) جاعلاً إياها على طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي إلى مكة المكرمة، ومحدداً مساره على عثر بقوله: "ومن جازان إلى بَيْش، ومن بيش إلى عثر، ومن عثر إلى ضَنْكان"[١٣] ويبدو التشويش واضحاً في نص الحربي إذ إن بيش وعثر اسمان لموقع واحد تقريباً؛ فالاسم الأول يطلق على الوادي، أو على الامتداد الداخلي

لـــلمكان، والــثاني يطلق على الساحل أي على مدينة عثر الساحلية، أما ابن خرداذبة (في حدود ٣٠٠هـــ/ ٩١٢-٩١٣م) فيضـــع عثر على مسار الطريق نفسه[١٤]، ولكنه تجاهل ذكر كل من جازان وبيش، وهو محق في ذلك، لأن جـــازان الساحل، أي مدينة جازان الساحلية المعروفة اليوم لم تكن معروفة في زمان ابن خرداذبة، وسابقه: إبراهيم بن إسحاق الحربي؛ ولأن بيش وعثر هما -كما ذكرنا للتو- شيء واحد على أساس أن مدينة عثر هي ساحل بيش، وهذا ما يقرره اليعقوبي (ت ٢٨٤هـــ/ ٨٩٧م) الذي كان معاصراً في بعض سِنِيّ حياته لابن خرداذبة من أن "عثر ساحل بيش"[١٥]. على أن قدامه بن جعفر البغدادي (٣٢٠هـــ/ ٩٣٢م) الذي يجئ بعد سابقيه في هذا السياق، يبدو أنه أكثر فهمـــاً منهما، بجغرافية المكان، فهو، وإن اتفق معهما فيما أورد عن مسار الطريق إلى عثر جيئة وذهاباً، إلا أنه يضع خياراً يدلل -كما أوضحنا- على فهمه لطبيعة المكان وجغرافيته حينما يقول "فمن أراد طريق الجادة أخذ من عثر إلى العُـــرُش، ثم جاز على طريق الجادة المخاليفَ، ومن أراد الساحل أخذ من عثر إلى مرسى ضَنْكان، ثم مرسى حَلِيْ إلى السَّـــرَّين"[١٦]. ويتضح من قول قدامة "ثم جاز على طريق الجادة المخاليف" أي الجادة السلطانية التي تسلكها القافلة الرسمية من صنعاء، أو من تَعز وزَبِيد ليس على طريق الساحل، وإنما قليلاً إلى الداخل بين السهل والجبل قاطعة الأودية الرئيســـية[١٧]، وهي ما يعبر عنها هنا بالمخاليف أي حيث الاتساع العمراني والزراعي لتهامة اليمن، ثم لمخلاف عثر، ومـــنهما إلى مكـــة المكـــرمة. ويتضح من نص قدامة أيضاً، ويتفق معه سابقه: ابن خرداذبة في التمييز بين ضنكان الداخلية، وضنكان الساحلية حينما أضافا الأخيرة إلى كلمة "مرسى" أي "مرسى ضنكان" تمييزاً لها عن الأولى التي هي معـــدن ذهب معروف في تلك الناحية[١٨]، وهما بذلك يزيلان اللبس الوارد في معلومات سابقهما: الحربي من حيث ذكره لضنكان فقط دون إضافة، وهو ما يتبادر إلى الذهن من أن المقصود هي ضنكان الداخل التي فيها معدن الذهب المذكـــور للتو، والتي هي أكثر شهرة من الأولى، وأقرب إلى طريق الجادة السلطانية من طريق الساحل، موضوع هذا الســـياق. أمـــا الـــبكري (ت ٤٧٨هـــ/ ١٠٩٤م) فيربط عثر بالسرين التي تقع بدورها على طريق الحج والتجارة الســـاحلي إلى مكة المكرمة، وتمثل إحدى محطاته الرئيسية، ثم يذكر أنها (أي عثر) على مسيرة عشرة أيام من السرين بســـير الراكب في اتجاه الجنوب[١٩]. وهي مسافة تقترب من المسافة الحقيقية إذا قدرنا أن المرحلة في حدود ٤٠ كيلو متراً بقياسات العصر الحالي.

والسياق الثالث يتناول عثر بوصفها مدينة ساحلية عامرة، وسوقاً تجارياً مزدهراً من ذلك ما يصفه بها الهمداني (ت بعد ٣٤٤هـــ/ ٩٥٥- ٩٥٦م) من أنها "سوق عظيم"[٢٠]، ويصفها المقدسي (ت ٣٨٠هـــ/ ٩٩٠م) بأنها "مدينة كبيرة طيبة مذكورة، لأنها قصبة الناحية، وفرضة صنعاء وصعدة ، وبها سوق حسن، وجامع عامر"[٢١]، أما الحميري (ت ٧٢٧هـــ/ ١٣٢٧م) فأبعد النُّجْعَة حينما ذهب بعثر إلى ساحل عمان، وحينما صحَّف (هو أو الناسخ) ثاءها بتاء مثـــنَّاة فوقـــيَّة "عَتْر" بدلاً من رسمها الحقيقي بالثاء المثلثة "عثر"، ويصفها بأنها "مدينة واسعة .... بناؤها من الخشب والحشيش إلا حماماتها فإنها جيدة البناء، وبها مسجد جامع على الساحل، وأكثر طعامهم الذرة، ومبلغ منافع صاحبها

سـبعون ألف دينار"[٢٢]. الجدير بالإشارة إلى أن المحقق يقول في الهامش: "أقرب الصور لها "عَفْر" عند الإدريسي، و لم أجد لها هذا الوصف" -على حد قوله- على أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أن هذا الوصف ينطبق على عثر، لقرب صورة رسم الكلمة، ولتشابه حرفي الثاء والتاء؛ ولأن أسلوب البناء، وصنف الطعام هما السائدان في المنطقة حتى عهد ليس بالبعيد.

أما السياق الرابع والأخير في المصادر المذكورة فيصف عثر على أنها ناحية جليلة، أو أنها عمل من أعمال مكة المكـرمة، أو مخلاف من مخاليفها. والمدلول الجغرافي في جميع هذه الأوصاف واحد، إذا إن الناحية والعمل والمخلاف بمعـنى واحـد عـلى أساس أن عثر كانت مركزاً إدارياً يتبعها عدد من الأودية والبلدان، وعليها والٍ يجبي الأموال، ويرفعها إلى والٍ أعلى هو هنا والي مكة المكرمة ، أو مباشرة إلى دار الخلافة العباسية ببغداد[٢٣].

ولعل خير من فصل في ذكر مخلاف عثر من الجغرافيين المسلمين إثنان هما: ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)؛ والمقدسي الذي أشرنا إلى تاريخ وفاته قبل، ومن المؤرخين واحد هو عمارة الحكمي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)؛ فابن حوقل في معرض حديثة عن حكام تهامة أو ملوكها يقول: "ويتلوه [أي يتلو ابن زياد حاكم زبيد أو تهامة اليمن] في المُكْـنَة والمقدرة ابن طرف صاحب عثر، ويشتمل ملكه على وجوه الأموال، وضروب الجبايات، ويكون الواصل إليه كنصـف ما يصل إلى ولد ابي الجيش بن زياد من المال"[٢٤]. يتلو ابن حوقل المقدسي الذي تناول مخـلاف عثـر أو ناحية عثر -كما يحلو له تسميتها- بقوله: "وناحية عثر ناحية جليلة، عليها سلطان برأسه، ومدنها نفيسة"[٢٥] ويفهم مـن قـول المقدسـي "عليها سلطان برأسه" أن حاكم عثر مستقل بشؤونها الداخلية، وكونه كذلك فلابد أنه كان يحكمهـا حكمـاً وراثـيّاً، وأنه ينتمي إلى أسرة كانت قد استقلت بحكمها الداخلي مع ولائها وتبعيتها لوالي مكة العباسـي[٢٦]. أما عمارة الحكمي، وهو أول من عرض من المؤرخين لمخلاف عثر بمثل هذا القدر من التفصيل، فإنه يقـول: "وممن امتنع من عمال أبي الجيش بن زياد [حاكم تهامة اليمن ومقره زبيد] سليمان بن طرف، صاحب عثر، وهـو من ملوك تهامة، وعمله مسيرة سبعة أيام في عرض يومين، وهو من الشرجة إلى حلي، ومبلغ ارتفاعه في السنة خمسـمائة ألف دينار عثَّرية"[٢٧]. أما من حيث التبعية فإن إقليم عثر أو مخلافها، وبعض المصادر تسميه مخلاف بيش، والمعـنى واحـد -كما أوضحنا قبل- فيتبع من الناحية السياسية لإمارة مكة المكرمة، وقد استمر هذا الوضع طوال فترات ازدهاره، ثم بعد ذلك حينما أصبح يعرف باسم المخلاف السليماني باستثناء فترات ليس هنا مجال ذكرها[٢٨].

ممـا سبق يتضح أن مسمى عثر يطلق على مدينة عثر نفسها، وعلى مخلافها الذي يمتد جنوباً من مدينة الشَّرْجة الواقعـة تقريـباً عـلى الحـدود الحالية بين المملكة العربية السعودية واليمن، وشمالاً إلى جنوب حدود إمارة حَلِيْ حيـنذاك[٢٩]، أي إلى الحدود الجنوبية لمركز البِرْك (بِرْك الغماد) الذي كان يتبع إمارة مكة المكرمة إلى أن انضم قبل ثـلاث سـنوات لمنطقة عسير[٣٠]، ومن الغرب يمتد مخلاف عثر من البحر الأحمر إلى الأطراف الجبلية لإمارة منطقة عسير؛ وخصوصاً من الجنوب الغربي. وهذا ما ينطبق تقريباً على الامتداد نفسه الذي تشغله اليوم منطقة جازان. ويُعَدّ

هـذا المخـلاف مـن أخصب المخاليف الجنوبية لإمارة مكة المكرمة على مدى تاريخها، ومن أكثرها غني بالمحاصيل الزراعـية، والثروة الحيوانية، وبه عدد من الأودية التاريخية التي تستمد سيولها من جبال السروات، وتصب في البحر الأحمر تاركه طبقة من الطينة الرسوبية الغنية التي تجود فيها الزراعة ، وينتشر حولها الاستيطان البشري مما جعل مخلاف عثر في زمانه، أو منطقة جازان حالياً من أكثر مناطق المملكة العربية السعودية كثافة بالسكان، ومن هذه الأودية من الشـمال إلى الجـنوب وادي حَمَضة ووادي يَتَمَة، ووادي رِيمْ، ووادي عُتْوُد، ووادي بَيْش ، ووادي صَبْيَا، ووادي ضَمَد، ووادي جازان، ووادي خُلَب[٣١]. وبمخلاف عثر عدد من المدن التاريخية بعضها لا يزال قائماً، وبعضها مندثر؛ فمن المدن التاريخية العامرة بها حتى الآن: جازان، العاصمة الإدارية للمنطقة، وأبو عريش، وضمد، وصبيا، وبيش[٣٢]، ومـن المدن المندثرة: الشرجة، وجازان العليا، والمنارة بوادي جازان، والراحة (راحة بني شريف في بيش)، وضَنْكان المشـهورة بمـنجم ذهـب، بالإضافة إلى مدينة عثر نفسها عاصمة الإقليم[٣٣]. فقد كانت مدينة عثر من أكثر المدن السـاحلية التهامـية ازدهاراً بوصفها محطة من محطات طريق الحج والتجارة الساحلي بين الحجاز واليمن، وعاصمة لإقلـيم يمتاز بالخصب، وبالكثافة السكانية والرعوية، وميناء نشطاً في تجارته مع موانىء اليمن الواقعة إلى الجنوب منه، ومـع مـوانىء الحجاز الواقعة إلى الشمال منه، فضلاً عن الموانئ المقابلة له مما يلي البر الحبشي. كما إنها كانت دار ضـرب للسكة ينسب إليها واحد من أشهر الدنانير المضروبة في جزيرة العرب، ذلك هو الدينار العثري الذي كانت تحسـب بـه مقاديـر عشور اليمن، وبعض أقاليم الجزيرة العربية الأخرى، وكذلك مختلف الجبايات التي كان يجري تقاضيها بالدينار العثري في نطاق تداولة[٣٤]. أما مدينة عثر فهي الآن في حكم المندثر، و لم يبق منها إلا تلول أثرية تقع على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قرية قَوْز الجَعَافِرَة التي أصبحت في الوقت الحاضر علماً على كامل المكان بما في ذلـك موقع عثر نفسها. وتقع قرية القوز أو قوز الجعافرة على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة صـبيا المعروفة. أما عثر فتقع على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات إلى الغرب من قرية القوز المذكورة، وهي خالية تماماً مـن أيـة سـكنى، وتبلغ مساحة موقعها حوالي ٢×١ كم ، وهي كما أسلفنا - عبارة عن تلول مرتفعة تطل على السـاحل مباشرة، وينتشر فوق سطحها العديد من الكسر الفخارية المتنوعة، بعضه يعود إلى عصور ما قبل الإسلام، ومعظمـه يعـود إلى العصور الإسلامية بما في ذلك وجود بعض نماذج من الخزف ذي البريق المعدني الذي يعود إلى العصـور العباسية[٣٥]، وينتشر حول الموقع عدد من الآبار القديمة المطمورة كشف السيل في إحدى السنين عن ثلاثين بئراً منها مما يدل على أهمية المكان واتساعة، وكثافة سكانه وأنْعَامه على حين ازدهاره[٣٦].

لقـي موقع عثر الأثري اهتماما ملحوظاً من قبل الإدارة العامة للآثار والمتاحف بوازرة المعارف (حالياً وكالة الآثـار والمتاحف) من حيث قيامها بمسحه عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م تحت مسمى القوز (٢١٧هـ - ١٠٨) المطل عـلى مضـيق يسـمى رأس طـرفة، وهو ميناء به مرسى طبيعي في تلك الجهة[٣٧]. ثم قامت الإدارة نفسها في عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م بإجـراء حفرية في موقع عثر ما لبثت نتائجها أن نشرت في مجلة **أطلال** في العام ١٤٠٥هـ/

١٩٨٥م، وكشفت تلك الحفريات عن نتائج في غاية الأهمية ليست مما يندرج تحت موضوع هذا البحث[٣٨].

الوضع السياسي لعثر ومخلافها:

أما الوضع السياسي لعثر في القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر للميلاد فهو من أهم المشكلات التي يواجهها الباحثون لا من حيث ندرة المعلومات، ولا من حيث وضعها في سياق تاريخي منطقي، وذلك فيما يتعلق بالقليل والقليل جداً منها مما يمكن أن يعد إرهاصات أولى لتاريخ مخلاف عثر السياسي في هذين القرنين اللذين من المحتمل أن مخلاف عثر شهد خلالهما حكم أسر محلية، أو غير محلية استقلت بالشؤون الداخلية للمخلاف مع بقائها مرتبطة بالخلافة العباسية، وبولاتها المباشرين على مكة المكرمة حينذاك.

ولعل أول الإشارات الواضحة والدالة على هوية حكام عثر في تلك الفترة، ما وصلنا عن طريق الهمداني الذي يذكر في مكان من كتابه **صفة جزيرة العرب** بأن حكام هذا المخلاف هم موالي قريش[٣٩] دون أن يوضح إلى أي من قريش ينتمي أولئك الموالي؟ ولكنه في مكان آخر من الكتاب نفسه يقرر صراحة بأن "ملوكه من بني مخزوم ومن عبيدها"[٤٠].

وبالرجوع إلى الولاة العباسيين من بني مخزوم الذين وُلُّوا أمور الولاية الأم، وهي مكة المكرمة، يتضح أن أول من وليها منهم في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي هو عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالحميد بن عبدالله بن عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، وقد وليها للخليفة المعتز بالله العباسي (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) [٤١]، واستمرت ولايته على مكة (متصلة أو منفصلة) من سنة ٢٥١- ٢٥٤هـ/ ٨٦٥-٨٦٨م[٤٢] (٤٢). أما الرجل الثاني الذي ولي مكة من بني مخزوم فهو أبوعيسى محمد بن يحيى بن محمد بن عبدالوهاب بن سليمان المخزومي، وكان الذي ولاه إياها الخليفة العباسي المعتمد على الله أحمد بن جعفر المتوكل (ت ٢٧٩هـ ٨٣٠م) [٤٣]، ثم ما لبث الخليفة المعتمد أن عزل أبا عيسى هذا بابن عمه أبي المغيرة محمد بن عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المخزومي[٤٤]، ولد أمير مكة المذكور أعلاه والذي ذكرنا للتو أنه وليها في زمن الخليفة المعتز بالله، ويبدو أن أبا عيسى هذا امتنع من تسليم مكة لابن عمه المغيرة، فاقتتل الاثنان، فقتل أبوالمغيرة أبا عيسى، ودخل مكة -كما تذكر المصادر- ورأسه بين يديه[٤٥]، وقد ولي مكة فترة امتدت إلى سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨٢م، وربما إلى أبعد من ذلك[٤٦].

وعلى الرغم من ولاية بني مخزوم لمكة المكرمة حوالي عقدين من الزمن فإن المصادر التاريخية المتاحة لم تذكر أنهم أرسلوا ولاة من جانبهم، أو نواباً لهم على مخلاف عثر طوال حكمهم لمكة. غير أن هناك إشارة يتيمة يوردها ابن حزم (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) بقوله: "وبنو طرف الذين وُلُّوا بعض جهات اليمن هم موالي عيسى بن محمد والد أبي المغيرة"[٤٧].

ومن هنا يستطيع الباحث أن يمسك بأول خيوط الحقيقة الدالة على حكام عثر من موالي بني مخزوم، ويستطيع

كذلك الاستدلال على هوية هؤلاء الموالي وهم "بنو طرف" الذين كانوا ذوي قرابة قريبة من جهة الأمهات لبني مخزوم، ولاة مكة المشار إليهم آنفاً؛ لكون طرف، جد بني طرف المذكورين، ليس مولى لعيسى المخزومي، وإلى مكة في عهد المعتز، وحسب، وإنما هو صهره أي أخو زوجته وأم ولده، أبي المغيرة محمد بن عيسى، وذلك طبقاً لما يذكره ابن حزم الذي يقرر هذه الحقيقة بقوله: "وكان طرف، مولى عيسى، وجد أبي المغيرة لأمه، وابنه الحسن بن طرف خال أبي المغيرة"[٤٨]، إذاً، فهم أصهار عيسى، وأخوال ولده أبي المغيرة محمد بن عيسى الذي ذكرنا للتوّ أنه ولي مكة للخلفية العباسي المعتمد على الله. فليس من المستبعد أن يكون بنو طرف هؤلاء أهل مكانه وحسب مُعْتَبَرين عند أسيادهم بني مخزوم حتى يكونوا موضع ثقتهم، وخصوصاً جدهم طرف الذي نقدر أنه أول من تولى منهم حكم مخلاف عثر، كما نقدر أن الحكم استمر وراثياً في عقبه على الرغم من انتهاء ولاية أسيادهم بني مخزوم لمكة، بل إن حكم هؤلاء الموالي المخزوميين المدعوين بني طرف ربما استمر في عثر حتى نهاية هذه الفترة أي إلى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ويعزز هذا الاحتمال عدد من الأدلة التاريخية؛ بعضها مستقى من المصادر الأدبية القليلة المتاحة، والآخر مما كُشف عنه من أسماء بعض حكام عثر المنقوشة على ما وصلنا من الدنانير الذهبية المضروبة في مدينة عثر نفسها، وبصورة خاصة تلك الدنانير العثرية التي ضربت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

فأما الأدلة التاريخية المستقاة من المصادر الأدبية فهي تنحصر في بعض الكتب الجغرافية والتاريخية المعاصرة لتلك الفترة. وهذه الكتب، وعلى الرغم من قلتها – فإنها تحتفظ بذكر حكام عثر في فترات تكاد تكون متصلة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ النصف الثاني من العاشر الميلادي، إلا أنها لا تذكر أياً منهم بالاسم، وإنما تطلق عليهم أوصافاً منها: "بنو طرف"، و"موالي بني مخزوم"، و"العبيد" هكذا مجردين من أي إضافة. فممن نعتهم ببني طرف ابن حزم، ثم معاصره ابن حوقل، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. أما الهمداني فيسمى حكام عثر أو ملوكها -كما قدمنا- "بني مخزوم وعبيدهم". وينعتهم صاحب سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني، وهو من رجال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بنعت "العَبْدين" في أكثر من موضع من السيرة[٤٩]. ويبدو أن هذين العبدين كانا يحكمان مخلاف عثر بالمشاركة، كما يبدو أنهما كانا أهل قوة ومنعة وبأس شديد حتى إن الإمام العياني نفسه لم يجرؤ على غزو ديارهما من الوهلة الأولى حيث تذكر السيرة أن الأشراف بني أبي الطيب الحسنيين وفدوا عليه في سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م، وطلبوا منه العون والمساعدة في توليتهم تهامة، وإقصاء العبدين من حكمها[٥٠]، كما إن الإمام نفسه كان يضمر الكراهية للعبدين من قبل، وكان ينوي غزو بلادهما، وتأديبهما، وإقصائهما عنها في أكثر من مناسبة[٥١]. وعلى الرغم من النوايا المتكررة للإمام تجاه غزو ديار العبدين -كما تسميها السيرة- فإنه لم تكن لديه العزيمة الكافية على وضع نواياه تلك موضع التنفيذ، وإنه لم يجد استجابة مشجعة من رعاياه حينما خاطبهم في هذا الشأن، وإنما ردّوا عليه بكتبهم طالبين منه أن يمهلهم بعض الوقت لإصلاح خيولهم وركابهم وعُددهم؛ لكونهم عادوا للتو من سفرهم في غزو نجران. فعدل الإمام على مضض عن غزوه لعثر في سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[٥٢]، وعوضاً عن ذلك كتب قصيدة

بعثها إلى رجاله رفق كتبهم التي أرسلوها إليه طلباً لإمهالهم بعض الوقت. ومما جاء في تلك القصيدة[٥٣]:

أمـــا أجبـــتم دعـــوتي فتأهـــبُّوا ... لهـــبوطِ بـــيشٍ مـــترلِ العـــبدان [كذا]
هـــذا لـــنا حـــولٌ لُهـــمُ بأرضِـــهم ... وتعـــوقُ عـــنه عوائـــقُ الحدثـــان [كذا]
لـــولا دنـــاة الناكـــثين وغدرِهـــم ... ودبّيـــبهم بالمكْـــر والبهـــتان
مـــا تمَّ للعبديـــن مـــاحظيـــا بـــه ... من حَوْزِ ما ملكـــا مـــن البلـــدان

أمـــا الأدلة التاريخية المستقاة من المسكوكات المضروبة في عثر فتنحصر كذلك في القرن الرابع الهجري/ العاشر المـــيلادي، وتحديـــداً في عهود الخلفاء العباسيين المطيع لله (٣٣٤- ٣٦٣هـــ/ ٩٤٦- ٩٧٤م)، والطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـــ/ ٩٧٤-٩٩١م) والقادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـــ/ ٩٩١-١٠٣١م). ويبدو أن أمراء عثر حققوا خلال هذه الفترة قدراً ملحوظاً من الاستقلال عن ولاة مكة خوّلهم سك أسمائهم جنباً إلى جنب مع الخلفاء العباسيين، وهو تقليد لا يُخَوّل إلا لكبار الولاة في الولايات الرئيسية، وليس في الأقاليم الصغيرة التابعة لتلك الولايات.

ونتيجة لسك أسماء أمراء عثر على الدينار المنسوب إلى بلدهم (دينار عثر أو الدينار العثري) أمكن العثور على أسمـــاء ســـتة منهم تقلبوا على حكم المخلاف حوالي ثمانية وأربعين عاماً امتدت من سنة ٣٤٦- ٣٩٤هـــ/ ٩٥٧-١٠٠٤م، وأول هؤلاء الأمراء أبو علي محمد بن القاسم الذي وجد اسمه ممهوراً على أحد عشر ديناً مؤرخة بين سنتي ٣٤٦هـــ، و ٣٥٩هـــ/ ٩٥٧-٩٧٠م[٥٤]، أي أن حكمه لمخلاف عثر امتد من خلال النقود حوالي أربعة عشر عاماً. والأمير محمد بن القاسم هذا يُعتقد -على رأي أحد الباحثين المحدثين- أنه ولد القاسم بن طرف، صاحب عثر في نهاية القرن الثامن الهجري/ مطلع القرن العاشر الميلادي[٥٥]، وهو الذي ورد ذكره في محاولات والي مكة التصدي لعـــلي بـــن الفضل -أحد زعيمي الدعوة الإسماعيلية باليمن حينذاك- حينما احتل زبيد، وهدد جميع التهائم بطغيانه وجـــبروته[٥٦]. ومـــن المعتقد أن محمداً هذا خَلَف والده القاسم في إمارة عثر، ولكننـــا لا نعرف -على وجه الدقة واليقين- كيف ومتى وصل إلى الحكم سوى ما رأيناه من فترة حكمه الموضحة على الدنانير المنسوبة إليه. ومع ذلك، فمـــن المحتمل أنه وصل إلى حكم عثر قبل هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير، وأنه استمر في الحكم بعد عام ٣٥٩هـــ/ ٩٧٠م، ذلك العام الذي يؤرخ لآخر دينار يحمل اسمه في حدود ما وصلنا من الدنانير المنسوبة إليه[٥٧]. على أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أن فترة حكمه لم تتجاوز سنة ٣٦٨هـــ/ ٩٧٩م، وذلك لأن أمير عثر في هذا التاريخ كان ابنه الأمير أبو القاسم علي بن محمد بن القاسم لظهور اسمه على دينار فريد -في حدود ما وصل إلى علمي- يحمل التاريخ المشار إليه[٥٨].

أمـــا في خـــلال سنتي ٣٧٣- ٣٧٤هـــ/ ٩٨٣- ٩٨٥م -في حدود ما هو متاح من دنانير عثر- فكان يجلس على كرسي الإمارة في المخلاف الأمير أبو يعفر السمو بن محمد خلفاً لأخيه أبي علي محمد بن القاسم، وهو ثاني ولد

من أولاد محمد بن القاسم بن علي بن طرف يصل إلى سدة الحكم في مخلاف عثر[٥٩].

وفي سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩-٩٩٠م كان أمير عثر الابن الثالث لمحمد بن القاسم بن علي بن طرف، ويدعى أبا محمد المعمر بن محمد طبقاً لما هو منقوش على ظهر دينار فريد منسوب إليه حتى الآن[٦٠]. ويبدو أن هذا الأمير وصل إلى حكم عثر قبل هذا التاريخ، وأن ديناره هذا الذي بين أيدينا، هو آخر إصدار له أثناء حكمه؛ لأنه في سنتي ٣٨٠، ٣٩٢هـ/ ٩٩٠، ١٠٠١- ١٠٠٢م كان أمير عثر شخص يدعى أبا الفرج الطرفي طبقاً لهذين الدينارين المؤرخين والمنسوبين إليه في حدود ما وصل إلى أيدينا[٦١]. وتجدر الملاحظة إلى أن هذا الأمير لم يعترف بالخليفة العباسي الجديد القادر بالله (٣٨١- ٤٢٢هـ/ ٩٩١- ١٠٣١م) الذي وصل إلى الخلافة بعد عزل سلفه الخليفة الطائع لله في سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م[٦٢]، وإنما احتفظ باسم الخليفة المعزول على الدنانير المضروبة في عهده كما فعل غيره من حكام الدول المستقلة استقلالاً ذاتياً عن الخلافة العباسية حينذاك، ومنهم السامانيون، والغزنويون، وسواهم[٦٣].

ويلاحظ كذلك أن أبا الفرج هذا، وإن كان منسوباً إلى بني طرف أو طرف لا يبدو أنه من أبناء محمد بن القاسم بن علي، أو من حفدته، ولا نعرف إن كانت نسبته هذه تنميه إلى بني طرف، موالي بني مخزوم، أمراء عثر، أو أنه من موالي مواليهم، ولا نستبعد هذا الاحتمال الأخير؛ لأن النسبة بياء النسب إلى أسر الحاكمين غالباً ما تكون لمواليهم المنسوبين إليهم، والأدلة على ذلك كثيرة في التاريخ الإسلامي[٦٤]. فليس من المستبعد أن يكون أبوالفرج هذا مولى لبني طرف وصل إلى حكم عثر بالتغلب، أو بالوصاية على قاصر غمطه حقه في تسجيل اسمه على السكة، كما هي عادة بعض الأوصياء في مثل هذه الحالة[٦٥]. ويشبه أبا الفرج هذا أمير آخر لعثر ظهر اسمه على الدنانير العثرية مباشرة بعد سابقه، ويدعى بشري الطرفي، وأول ظهور له كان على دينار ضرب في عثر سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢- ١٠٠٣م[٦٦]وكذلك على دينار آخر ضرب في المدينة نفسها في السنة الثانية، أي في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣- ١٠٠٤م، وإنما بعد أن تخلص من النسبة "الطرفي"، واستبدلها بنقش اسم والده إلى جانب اسمه هكذا: "بشري بن عبدالله"[٦٧]. فهل ما ذهبنا إليه بخصوص أبي الفرج الطرفي ينطبق على بشري هذا من حيث إن الاثنين من موالي بني طرف تغلبا على أسيادهما، واستبدا بالأمر دونهما، كما حدث مع جيرانهما موالي بن زياد في أواخر أيامهم[٦٨]. وهل أبو الفرج الطرفي وبشري الطرفي متعاصران وشريكان في السلطة والتسلط على أسيادهما، وكذلك في التعاقب على الحكم على النحو الذي يظهر على السكة؟ فإذا صحّت الإجابة على هذه التساؤلات بأي احتمالات لوقوعها فليس من المستعبد أن يكون الاثنان (أبو الفرج وبشري) هما العبدان المعاصران للإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني، والمذكوران في سيرته بهذا اللفظ كما قدمنا.

ولا يتعارض ما ذكر مع حقيقة وجود سليمان بن طرف الحكمي، وتوحيده لمخلافي عثر وحكم تحت مسمى المخلاف السليماني وفقاً لما هو متعارف عليه في أوساط الدارسين الذين تناولوا تاريخ منطقة جازان في العقود الستة أو الخمسة الماضية -وإنما يتعارض مع التاريخ الموضوع والمتداول لذلك الحدث الكبير في بعض الدراسات الحديثة،

وهـــو عام ٣٧٣هـــ/ ٩٨٣م[٦٩]، ذلك أن هذا التاريخ لا يستند على أدلة ثابتة في المصادر التاريخية الموثوقة، وإنما بني عـــلى آراء كانت معقولة ومقبولة في وقتها. أما الآن فتدحضها الحقائق التي أشرنا إليها سابقاً، وبصورة خاصة تلك المســـتقاة من سيرة الإمام العياني، ومن المسكوكات التي ظلَّت تحمل أسماء بعض أمراء عثر حتى عَشْر التسعينات من القرن الرابع الهجري/ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، مما يعني أن زمن ظهور سليمان بن طرف وتوحيده لمخلاف حكـــم عثر ربما جاء في وقت متأخر نسبياً عما هو متداول حتى الآن في بعض الدراسات الحديثة، أي عام ٣٧٣هـــ/ ٩٨٣م -كما أشرنا إلى ذلك للتو. لذلك، فمن المعتقد أن ظهور سليمان بن طرف، وما استتبع ذلك من أحداث ربما كان متزامناً مع مطلع القرن الخامس الهجري/ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، ما لم يُكتشف من الأدلة التاريخية ما يخالف ذلك. وهذا ما نأمل معالجته في دراسة أخرى لاحقة إن شاء الله.

نخلـــص مما سبق إلى أن عثر كانت من المدن الإسلامية المزدهرة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر للميلاد، وأنها كانت محطة من المحطات الرئيسية على طريق الحج والتجارة الساحلي بين اليمن ومكة المكرمة. كما كانت عاصمة لمخلاف سمي باسمها هو مخلاف عثر قبل أن يتحول اسمه إلى المخلاف السليماني في فترة لاحقة، ثم مـــنطقة جازان في وقتنا الحاضر. وكان مخلاف عثر يمتد من الشرجة بالقرب من حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، إلى قُرَيْب حدود إمارة حلي بن يعقوب من الجنوب (حالياً تتبع محافظة القنفذة - إمارة مكة المكرمة). ويشتمل هـــذا المخـــلاف عـــلى عدة أودية أشهرها وادي بيش الذي هو امتداد مدينة عثر الداخلي من الشرق حتى إن بعض المصادر تسمى عثر بيشاً، ومخلافها: مخلاف بيش.

ونخلص كذلك إلى أن مخلاف عثر يتبع إمارة مكة المكرمة، وكانت تحكمه أسرة من موالي بني مخزوم القرشيين، وأن هذه الأسرة توارث أفرادها حكم المخلاف طوال فترة الدراسة، وأنها بلغت من القدرة والتمكن بحيث استطاعت ضـــرب دنـــانير ذهبية حملت أسماء بعض حكامها، وأن تلك الدنانير بلغت من الشهرة، وقوة التداول والوثوق بها، وبنقاوة معدنها، وصدق عيارها، درجة خوَّلتهاالأنْ تُحسب بها مقادير العشور، ومختلف الجبايات التي كانت تتقاضاها الخلافـــة العباســـية من الدويلات المحلية التابعة لها، والواقعة في نطاق تداول تلك الدنانير العثرية ذات السمعة الجيدة، والشهرة الواسعة في زمانها.

التعليقات

(١) ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر - دار بيروت، ١٣٧٦هـــ/ ١٩٥٧م)، ٤: ٨٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) الهمـــداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـــ/ ١٩٧٤م)، ٧٧.

(٤) هـــذا مـــا أورده فريق المسح الأثري التابع للإدارة العامة للآثار والمتاحف بوزارة المعارف تحت عنوان: "ظواهر حضارة جنوب الجزيـــرة العربـــية"، أنظر زارينس، يوريس، وعبدالجواد مراد، وخالد اليعيش؛ "التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية"، *أطلال* (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، العدد الخامس، ١٤٠١ هـــ/ ١٩٨١م)، ٢٦؛ العقيلي، محمد بـــن أحمـــد؛ *الآثار التاريخية في منطقة جازان* (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٩هـــ/ ١٩٧٩م)، ٢٤؛ الزيلعي، أحمد بن عمر؛ *آثار منطقة جازان* (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـــ/٢٠٠٣م)، ١١٠- ١١٣.

(٥) عن وادي بيش أنظر: العقلي، محمد بن أحمد؛ *تاريخ المخلاف السليماني* (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٧٨هـــ/ ١٩٥٨م) ج١، قســـم (١)، ٣٩؛ وأنظـــر لـــلمؤلف نفســـه، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: *مقاطعة جازان* (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٩هـــ/ ١٩٦٩م)، ١: ٦١- ٦٤.

(٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٧٧.

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها، أنظر بصورة خاصة ملاحظة المحقق هامش رقم (١).

(٨) كل هذه الأودية تقع في منطقة جازان، وهي من الأدوية المشهورة قديماً وحديثاً، وتقع مراكزها على التوالي إلى الشمال الشرقي مـــن مدينة جازان الحالية، المركز الإداري لمنطقة جازان، وفي كل منها تجمعات سكانية وسكنية كبيرة، أشهرها: مدينة صبيا في وادي صبيا، ومدينة بيش في وادي بيش، ومدينة الدَّرْب في وادي عتود. أنظر: العقيلي، *المعجم الجغرافي*، ١: ٦١- ٦٤، ١٣٨- ١٤٢، ١٥٢- ١٥٣.

(٩) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ٨٥.

(١٠) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز؛ *معجم ما استعجم*، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، د.ت) ٣: ٩٢١.

(١١) عـــبدالله بن عبدالله؛ *المسالك والممالك*، تحقيق: م.ج. دي غويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩م)، ١٤٧-١٤٨؛ *نبذة من كتاب الخراج*، تحقيق: م.ج دي غويه (ليدن: مطبعة بريل ١٨٨٩م)، ١٩٢- ١٩٣.

(١٢) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٤٧- ١٤٨؛ قدامة بن جعفر، *نبذة من كتاب الخراج*، ١٩٢- ١٩٣.

(١٣) إبراهـــيم بـــن إسحاق؛ *كتاب المناسك وأماكن طرق الحج*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـــ/ ١٩٦٩م)، ٦٤٦.

(١٤) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٤٧- ١٤٨.

(١٥) أحمد بن أبي يعقوب؛ *البلدان* (ليدن: مطبقة بريل، ١٨٩١م)، ٣١٩.

(١٦) قدامة بن جعفر، نبذة من *كتاب الخراج*، ١٩٢.

(١٧) طـــريق الجـــادة السلطانية ينطلق من صنعاء نحو تهامة إلى مكة، ويلتقي معه طريق تعز الذي يمر على ميدنة زَبِيْد ليس لأنها على مســـار هـــذا الطـــريق، ولكن لأنها كما يقول الجزيري: "وإنما يجيء إلى زبيد قصداً؛ لأنها دار الملك، وبها يجتمع شداد الركب ويـــتكامل" أنظر: الجزيري، عبدالقادر بن محمد عبدالقادر الأنصاري، *درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة* (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٤هـــ)، ٤٦٩.

(١٨) تقع ضنكان المشهورة بكونها منجم ذهب في منطقة عسير إلى الشرق من مدينة القحمة الساحلية بحوالي عشرين كيلومتراً، وهي مهجـــورة إلا مـــن بقايا جدران منازلها ومسجدها الجامع. أنظر: الزيلعي، أحمد بن عمر وآخرون؛ *آثار منطقة عسير* (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـــ/ ٢٠٠٣م)، ٧٤- ٧٥.

(١٩) الغنيم، عبدالله؛ *جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري*، ط١ (الكويت: ذات السلاسل، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٤٨؛ الزيلعي أحمد بن عمر وآخرون؛ *آثار منطقة عسير*، ٧٤- ٧٥، وعن منجم الذهب بها، أنظر: الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب؛ *كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء*، تحقيق: حمد الجاسر، ط١ (الرياض: المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، ٨٦، ٣٨١- ٣٨٢.

(٢٠) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٧٦.

(٢١) *أحسن التقاسيم*، ٨٦.

(٢٢) محمد بن عبدالمنعم؛ *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق: إحسان عباس، ط٢ (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ٤٠٨.

(٢٣) عن المخلاف والناحية ومدلولاتها أنظر: ياقوت، *معجم البلدان*، ٣٧.

(٢٤) أبوالقاسم النصيبي؛ *صورة الأرض* (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م)، ٣٢.

(٢٥) *أحسن التقاسيم*، ٨٦.

(٢٦) الزيلعي، أحمد بن عمر؛ *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان*، ط١ (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ١٨-١٩.

(٢٧) *تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣ (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م)، ٦٣- ٦٤.

(٢٨) أنظر على سبيل المثال: اليعقوبي، *البلدان*، ٣١٦؛ ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٣٣؛ الإدريسي، أبوعبدالله محمد بن محمد الحسني؛ *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ١: ١٤٥؛ وعن تبعية المخلاف السليماني لإمارة مكة في بعض فتراته التاريخية، أنظر الزيلعي، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية، في أمكنة متفرقة.

(٢٩) حَلِي: مخلاف حلي أو إمارة حلي تشتمل على وادي حلي المعروف على بعد حوالي ٦٠ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من القنفذة، وتمتد جنوباً إلى حدود إمارة جازان أو المخلاف السليماني، وعاصمتها مدينة حلي بن يعقوب المعروفة اليوم باسم "حلي قديم"، وكانت تحكمه أسرة محلية يقال لسلاطينها "بنو حرام". أنظر: الزيلعي، أحمد بن عمر، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ق٣-٩هـ/ ٩-١٥م)، *حوليات كلية الآداب*، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة (الكويت: جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص١١؛ الزيلعي؛ أحمد بن عمر؛ "*بنو حرام (حكام حلي) وعلاقاتهم الخارجية (ق ٤-٩هـ/ ١٠-١٥م)*، *مجلة كلية الآداب*، المجلد الخامس عشر، العدد الأول (الرياض: عمادة شؤون المكتبات -جامعة الملك سعود، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٠١- ١٣٧.

(٣٠) البِرْك، أو براك الغماد، موقع مشهور منذ ماقبل الإسلام يقع على ساحل البحر الأحمر في الطرف الغربي لإمارة عسير، به بعض الآثار التي تعود إلى عصر السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، مؤسس حكم بني رسول باليمن. أنظر: الزيلعي، *آثار منطقة عسير*، ٦٦- ٧٤.

(٣١) الزيلعي، *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان*، ١٢.

(٣٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٤) أنظر على سبيل المثال: ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٢٥؛ عمارة الحكمي، *تاريخ اليمن*، ٦٣- ٦٤.

(٣٥) الزيلعي، *آثار منطقة جازان*، ١١٢-١١٣.

(٣٦) العقيلي، *الآثار التاريخية في منطقة جازان*، ٢٥.

(٣٧) أنظر: زارنيس وعبدالجواد مراد، وخالد اليعيش، "التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية" *أطلال*، العدد الخامس، ٢٦- ٢٧.

(٣٨) أنظر: زارنيس، وعوض الزهراني، "الاستكشافات الحديثة في سهل تهامة الجنوبي موقعي عثر وسهي"، *أطلال*، العدد التاسع، ٦٩ - ١٠٢.

(٣٩) ٧٦.

(٤٠) ٢٥٩.

(٤١) الفاســي، تقــي الديــن محمد بن أحمد الحسني؛ *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٦: ٤٦٣.

(٤٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسين، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٢: ٢٩٧، ٣٠٠.

(٤٤) الفاسي، *العقد الثمين*، ٢: ٢٤٦، ٣٨٦.

(٤٥) ابــن حــزم، أبومحمد علي بن أحمد؛ *جمهرة أنساب العرب*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١٤٩؛ الفاسي، شفاء الغرام، ٢: ٣٠٠؛ *العقد الثمين*، ٢: ٣٨٦.

(٤٦) أنظر: الفاسي، *العقد الثمين*، ٢: ٢٤٨؛ *شفاء الغرام*، ٢: ٣٠١.

(٤٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ١٤٩.

(٤٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٩) ابن يعقوب، الحسين بن أحمد؛ *سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني*، تحقيق: عبدالله بن محمد الحبشي، ط١ (صنعاء: دار الحكمة اليمانية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ٣١، ٤٠، ١٤٥.

(٥٠) ابن يعقوب، المصدر نفسه، ١٣٠، ١٤٤.

(٥١) ابن يعقوب، المصدر نفسه، ١٤٤.

(٥٢) ابن يعقوب، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥٣) ابن يعقوب، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥٤) الشــرعان، نايف عبدالله؛ "*نقود أموية وعباسية ضرب الحجاز ونجد وتهامة*"، رسالة ماجستير (الرياض: قسم الآثار والمتاحف - جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ)، ٥٧.

(٥٥) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٦.

(٥٦) زكار، سهيل، *أخبار القرامطة في الإحساء - الشام - العراق - اليمن* (الرياض: دار الكوثر، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ص٢٦٠-٢٦١.

(٥٧) الشرعان، *"نقود أموية وعباسية"*، ٥٧.

(٥٨) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٨.

(٥٩) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٨- ٥٩.

(٦٠) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٩.

(٦١) الشرعان، المرجع نفسه، ٦٠.

(٦٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي؛ *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، ط١ (حيدر آباد: ١٣٥٨هـ)، ٧: ١٥٦-١٥٧؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد؛ *الكامل في التاريخ*، ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٧: ١٤٨- ١٤٩.

(٦٣) انظر: قازان، وليم؛ *المسكوكات الإسلامية* (بيروت: البنك المركزي، ١٩٨٣م)، ٤١٠؛ الشرعان، "نقود أموية وعباسية"، ٦١؛ ويذكر ابن الأثير أن الخطبة في خراسان ظلت للطائع، وظل أهلها متمسكون ببيعته وعدم البيعة للقادر، *الكامل في التاريخ*، ٧: ١٤٩.

(٦٤) مثال ذلك كافور الأخشيدي (ت ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) نسبة إلى سيده محمد بن طغج الأخشيد (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، وآقباش الناصري، أمير الحج العراقي المقتول في مكة سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م نسبة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م). انظر ابن الجوزي، *المنتظم*، ٧: ٥٠- ٥١؛ الفاسي، *العقد الثمين*، ٣: ٣٢٢- ٣٢٤.

(٦٥) من مثل كافور الأخشيدي الذي كان عبداً خصياً لأبي بكر محمد بن طغج الأخشيد، حاكم مصر، فلما توفي الأخير في عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م قام كافور بالوصاية على ابني سيده وهما: أبو القاسم أنوجور بن الأخشيد، وأبو الحسن على بن الأخشيد واحداً تلو الآخر، واستبد بالأمر دونهما، فلما ماتا استقل بمصر حتى وفاته في جمادي الأولى عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م. انظر ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف؛ *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. ت) ٤: ١- ٢.

(٦٦) الشرعان، "نقود أموية وعباسية"، ٦١.

(٦٧) الشرعان، المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٦٨) آخر من تولى الإمارة من بني زياد في تهامة اليمن، وعاصمتهم زبيد، طفل صغير يدعى "عبدالله أو إبراهيم" على حد قول عمارة الحكمي. وقد أدى التنافس بين موالي بني زياد من العبيد الأحباش، وتكالبهم على الملك إلى إقصاء الطفل الزيادي وعمته، وتأسيس دولة بني نجاح في زبيد في سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م. أنظر عمارة الحكمي، *تاريخ اليمن*، ٧٥- ٧٧.

(٦٩) العقيلي، *المخلاف السليماني*، ١: ٨٠؛ الزيلعي، *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان*، ١٩؛ أبوداهش، عبدالله ابن محمد؛ *أهل تهامة: المخلاف السليماني وحلي بن يعقوب وأحوازها في القرون الإسلامية الوسيطة*، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ٤٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

العلاقة العدائية بين اليمنيين وولاة الخلافة العباسية
منذ عهد السفاح حتى عهد الرشيد (١٣٢-١٩٣هـ)

محمد عبده السروري

قسم التاريخ- جامعة تعز

اتسمت علاقة أهل اليمن بولاة الخلافة العباسية بثلاث حالات هي: العلاقة الجامدة، العلاقة الطيبة، العلاقة العدائية.

ففي العلاقة الجامدة لم يرصد المؤرخون أي حدث إلا تولية الولاة أو عزلهم واهتمامهم بجباية الأموال والإشراف على الدواوين والنظم الإدارية. أما في العلاقة الطيبة فقد اهتم الولاة وهم قلة بإصلاح أمور مهمة في اليمن مثل تبويب جامع صنعاء الكبير من قبل الوالي عمر بن عبدالمجيد الخطابي الذي تولى اليمن من قبل السفاح[1]، ومنها إحداث غيل صنعاء المسمى غيل البرمكي في سنة ١٨٣هـ. وهو عبارة عن شق قناة للمياه من جنوب مدينة صنعاء ليمر في مزارع صنعاء الجنوبية والغربية ويستمر جريانه حتى مزارع شعوب والروضة شمال صنعاء[2]. كذلك عمل على بناء مسجد في سوق اللساسين. وكان كثير الصدقة[3]. وبخصوص العلاقة العدائية فهي الأكثر تدوينا من قبل المؤرخين. وسينحصر حديثنا عنها لما لها من أهمية في أحداث اليمن والمتمثلة في الخروج على ولاة الخلافة العباسية. ومن أهم الأسباب التي جعلت أهل اليمن يخرجون عن طاعة ولاة الخلافة العباسية هي ظلم وقسوة الولاة، وتشدد الخلفاء العباسيين، والعصبية القبلية، والخلاف المذهبي. فضلاً عن فرض الولاة الأموال زائدة على أهل اليمن وذلك كله ما سنوضحه خلال الحديث عن علاقة الولاة خاصة معن بن زائدة الشيباني وحماد البربري بأهل اليمن وهي كالآتي:

علاقة الولاة بأهل صنعاء:

تبدأ علاقة الولاة بعلاقتهم بأهل صنعاء لأنها تعتبر عاصمة ولاية اليمن ومقر الولاة. وأي حدث فيها يؤثر على بقية مناطق اليمن. فقد بدأت العلاقة العدائية بين ولاة الخلافة وأهل صنعاء منذ بداية ظهور الخلافة العباسية، زمن خلافة أبي العباس السفاح. وذلك حين ولى على اليمن أحد رجاله وهو محمد بن يزيد بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي الذي وصل إلى صنعاء في ٩ رجب ١٣٣هـ فبدأ بالقيام بأعمال نقم منها اليمنيون وهي أنه فكر بفكرة غير طيبة

تتمثل بأنه هم بإحراق المجذومين الذين كانوا بالسرار من صنعاء. وأمر بجمع الأحطاب لتنفيذ ذلك الحرق وبرر ذلك بقوله: "لو كان بهم خيراً ما أوقع الله بهم الجذام"[٤]. إلا انه مات قبل أن ينجز عمله ذلك. وكما يبدو أن هذا الوالي نظـر إلى أن مـرض الجـذام مرض معدٍ وغير قابل للشفاء آنذاك. ولذلك فكر بإحراقهم حتى لا تنتشر العدوى من مرضهم إلى بقية أهل صنعاء الأصحاء. والواقع إن هذا العمل يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي ومع ما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[٥].

ومـن ضـمن علاقة ولاة اليمن بأهل صنعاء ما حدث في ولاية الوالي علي بن الربيع بن عبدالمدان الحارثي من نزاع بين أهل صنعاء والأبناء، وهم بقايا الفرس في اليمن، بشأن الأراضي الواسعة التي كانت في الرحبة شمال صنعاء. ولمـا وصـل هذا الوالي إلى صنعاء اتجه الطرفان إلى تحكيمه في أمر تلك الأراضي. فاختار أهل صنعاء عمرو بن ثمامة وكـيلاً لهم، كما اختار الأبناء إبراهيم بن فراس وكيلاً لهم. وأثناء التحاكم أخرج إبراهيم بن فراس كتاب رسول الله ﷺ أنها للأبناء[٦]، إلا أن عمرو بن ثمامة أنكر هذا الكتاب وقال إنه يكفر به. وحينذاك غضب الأمير علي بن الربيع مـن عمـرو بن ثمامة وقال له مستغرباً "تكفر بكتاب رسول الله ﷺ". ولذلك أنزل عقابه عليه بأن جرده من ثيابه وضربه خمسة وسبعين سوطا[٧]. كما يتضح أن عمرو بن ثمامة لا يقصد أن يكفر بكتاب رسول الله، ولكنه يشك أن ذلك الكتاب من رسول الله فعلاً فلم يصدق به أي أنه اعتبر الكتاب مزيفًا، وهذا ما لم يقبله الوالي. ويوحي هذا بأنه أحـد مظاهر العصبية القبلية فيما بين الأبناء وأهل صنعاء. ولما جاء التحكيم لصالح الأبناء أدى ذلك إلى غضب أهل صنعاء من ولاة الخلافة العباسية واستمرار تذمرهم عن طاعة الولاة.

وبالنسبة لعلاقة جند الولاة بأهل صنعاء ما حدث من صراع في الخلافة المهدي العباسي في أيام ولاية رجاء بن زنباح الجذامي لليمن. والذي دخل صنعاء في ذي الحجة سنة ١٥٩هـ. أدى هذا الصراع إلى حدوث قتال فيما بين الطـرفين في يـوم العيد. نتج عنه عدة قتلى بين الطرفين أجبر جند الولاة إلى الخروج إلى شعوب شمال باب صنعاء الشـمالي للـتمركز فيه. وبعد هذا القتال تمت المصالحة بين الطرفين. فرجع جند الولاة إلى صنعاء للإقامة بها[٨]. ولم توضـح المصـادر سـبب هذا القتال. ولكن سببه كما يتضح هو تذمر أهل صنعاء وتضايقهم من وجود جند ولاة الخلافة بين مساكنهم داخل صنعاء. إضافة إلى ظلم وطغيان هؤلاء الجنود على أهل صنعاء.

ويستمر الصراع فيما بين جند ولاة الخلافة وأهل صنعاء. ففي عهد الرشيد أثناء دخول الغطريف بن عطاء إلى صـنعاء سـنة ١٧٠هـ حيث وجد الفتنة مشتعلة بين الجند وأهل صنعاء لمدة شهرين من رجب حتى شعبان سنة ١٧٠هـ. وفي هذا الخلاف تمكن الغطريف من الصلح بينهم وحل الخلاف[٩]. وكما يتضح أن قرابة الغطريـف من الخلـيفة الرشـيد هي التي مكنته من حل الخلاف. أما مسببات هذا الخلاف فهي نفس المسببات السابقة وهي تذمر وتضايق أهل صنعاء من تواجد جند ولاة الخلافة بينهم بدون حق.

علاقة معن بن زايد بأهل اليمن:

نظـــراً لأتصاف الخلافة العباسية في عصرها الأول باستخدام القوة والشدة نحو رعاياها فكان لابد لها لتحقيق ذلـــك من اختيار ولاة على الأمصار يحملون هذه الصفة. لذلك جاء اختيار معن بن زائدة الشيباني لولايـــة اليمـــن نابعا من هذا السبب إضافة إلى عدة مسببات أخرى. ويتمثل بالآتي:

الســـبب الأول: اتصاف معن بن زائدة بالقسوة والجبروت وهذا ما يلاحظ من خلال استخدام معن للقوة مع أهل الحافر أو الجند وأهل حضرموت وقتله للآلاف منهم. وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

الســـبب الثاني: دفاع معن بن زائدة عن الخليفة المنصور عندما حاول الراوندية قتله وكان حدوث ذلك عندما ثـــارت الـــراوندية على أبي جعفر المنصور سنة ١٣٧هـــ أو ١٤١هـــ. وأرادوا قتله. فوقف معن بن زائدة في صف الخلـــيفة وقـــاتل الـــراوندية حتى انتصر عليهم. وكان معن قبل ذلك مختفياً عن أنظار المنصور لأنه قاتل المسودة أو العباسيين مع ابن هُبيرة والي العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. وكان يبحث عن الأمان من المنصور في حين كـــان المنصـــور يبحث عنه لمعاقبته[١٠]. فعندما ظهر معن في قتال الراوندية ورأى المنصور صدق قتاله رضي عنه[١١]. وأعطاه الأمان ثم كافئه بعشرة آلاف درهم وولاية اليمن[١٢].

الســـبب الثالـــث: عصبية معن القيسية كانت العصبية القبلية فيما بين القيسية واليمنية أواخر الخلافة الأموية وبدايـــة الخلافة العباسية على أشدها مشتعلة في أنحاء الخلافة الإسلامية. حيث كان ولاة الخلافة القيسية يستخدمون الشـــدة مـــع أهل اليمن وأينما وجدوا والعكس كان اليمنيون يستخدمون الشدة مع القيسيين أينما وجدوا. وكان الخلفـــاء العباســـيون يشجعون ذلك. من ذلك أنَّ الخليفة المنصور العباسي لما ولّى معن بن زائدة الشيباني على اليمن طلـــــب مـــنه استخدام العصبية القبلية وقال له: "وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى تنقض حلف ربيعة واليمن وابلغ في ذلك ما يحب أمير المؤمنين"[١٣].

والمقصـــود بحلـــف ربيعة واليمن هو الحلف القديم الذي قام بين اليمن وربيعة بن نزار في عهد تبع بن حسان، وكان هدف هذا الحلف هو النصرة والإخاء فيما بين الطرفين[١٤]. وظل هذا الحلف يتجدد بين ربيعة واليمن في عدة مـــرات امـــتد إلى زمـــن الإسلام. منها ما حدث من تحالف بين كلب من ربيعة لخثعم. وحلف ربيعة جميعاً لكندة، وحلف بكر بن وائل للازد بالبصرة على تميم[١٥]، وكذلك حلف ربيعة واليمن في بلاد السند وهو الحلف الذي ضربه الـــوالي عُيينه بن موسى فقتل الكثير منهم وأدى إلى ظهور العصبية هناك[١٦]، ونتيجة لما يشكله هذا التحالف من قوة بـــين عرب الشمال وعرب الجنوب فقد رأى الخليفة المنصور العباسي خطورة ذلك على نفوذه وسلطانه، لذلك أراد إنهاء هذا التحالف القديم بإيجاد العصبية القبلية بين الطرفين في داخل اليمن نفسها.

السبب الرابع: اتصاف الخليفة المنصور العباسي بالعنف والجبروت تجاه جميع رعاياه. وذلك يتضح مـــن خلال إقدام

الخليفة المنصور العباسي على قتل أبي مسلم الخرساني في شعبان سنة ١٣٧هـ[١٧]. وذلك عقب توليه الخلافة ما يقرب من سنة. وأبومسلم يعد من أهم من عمل على مناصرة الثورة العباسية في خرسان وقاتل من أجلها حتى قامت الخلافة العباسية. فلم يشفع له ذلك أمام الخليفة المنصور. كذلك لم يرحم الخليفة المنصور أبناء عمومته العلويين الذين ناصروا الثورة العباسية. حيث كان شعار الدعوة هي الرضا من آل محمد[١٨]. فتنكر المنصور عن ذلك وتخلى عن هذا الشعار. فأقدم على قتل محمد بن عبدالله بن حسن الملقب بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبدالله وجمعاً من أسرتيهما عندما خرجا عليه في كل من الحجاز والعراق وذلك سنة ١٤٥هـ[١٩].

السبب الخامس: عصيان أهل اليمن ورد فعل الخلافة العباسية وولاتها على اليمن، وذلك ما يوضحه قول الخليفة المنصور الذي اقتبسناه آنفاً عندما أتاه الخبر بأن أهل اليمن قد أظهروا المعصية وأن عبدالله بن الربيع عامل اليمن قد هرب ممن وثب عليه وضعف عنهم ... وجه بمعن بن زائدة الشيباني إلى اليمن[٢٠]. والواقع أن ظهور عصيان أهل اليمن كان نتيجة لاستخدام ولاة الخلافة العباسية الظلم والقسوة والعصبية تجاههم. فقد اعتبر اليمنيون ذلك ظلماً لا يجب السكوت عليه بل يجب مقاومته، لذلك أعلنوا العصيان خروجا على ولاة الخلافة وعدم طاعتهم. في حين أن الخلافة العباسية اعتبرت هذا العصيان خروجا على سلطانها، فعملت على تكليف ولاتها على اليمن بزيادة استخدام القوة.

السبب السادس: هو أن ولاية معن كانت ناتجة عن وجود اختلافات باليمن يوضح ذلك ابن الأثير بقوله: "وكان المنصور قد استعمل معن بن زائدة على اليمن لما بلغه من الاختلاف هناك"[٢١]. وكما يتضح أنه يقصد بالاختلاف هو الخلاف الذي حدث بين أهل صنعاء والأنباء حول أرض الرحبة في زمن الوالي السابق لمعن بن زائدة وهو علي بن الربيع.

السبب السابع: عدم طاعة والي اليمن عبدالله بن الربيع الخلافة في استخدام القوة نحو أهل اليمن. يظهر ذلك من خلال عزم الخليفة المنصور العباسي إرسال معن بن زائدة إلى اليمن. وقوله: "إن صاحب اليمن قد هم بمعصيتي وإني أريد أن آخذه أسيرا. ولا يفوتني شيء من ماله فما ترى؟" قال معن: "يا أمير المؤمنين ولني اليمن، واظهر أنك ضممتني إليه". فقال الخليفة: "يا ربيع إنا قد ضممنا مَعْناً إلى صاحب اليمن، فأزح علته من الكراع والسلاح ولا يمسي إلا وهو راحل"[٢٢]. وكما يتضح أن الخلافة العباسية كانت تريد من وإلي اليمن عبدالله بن الربيع بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي استخدام العنف والقسوة تجاه أهل اليمن.

فعصى هذا الوالي أمر الخلافة و لم يعمل على طاعتها في هذا الجانب. كونه ينتمي إلى العصبية اليمنية، ولا يريد الأضرار بعصبيته. لذلك خرج من اليمن بعد أن ترك ابنه عليها والذي سار على نهج أبيه في هذا الأمر لذلك اعتبرت الخلافة أن هذا الأمر عصيانٌ عليها. فأوكلت أمر القسوة على أهل اليمن إلى عصبية قيسية وليس يمنية.

وعلى الرغم من اختلاف المصادر في ذكر السنة التي تولى بها معن بن زائدة الشيباني اليمن. فيما بين سنة ١٤٠هـ[٢٣]. وسنة ١٤١هـ[٢٤]. وسنة ١٤٢هـ[٢٥]. إلا أنه من المرجح أنها سنة ١٤٠هـ. استناداً إلى قول المصادر اليمنية في هذه التولية. والواقع أن الاختلاف أن يرجع الزمن إلى الذي حدثت به الحرب ضد المنصور من قبل الراوندية، وهم قوم من أتباع أبي مسلم الخرساني. فقد ورد أن حركة الراوندية جاءت ضمن أحداث سنة ١٤١هـ. وفي هذا الشأن علق الطبري في تاريخه (٥٠٢/٧) على حركتهم بأنها حدثت كما قيل سنة ١٣٦هـ أو ١٣٧هـ. وذلك بعد قتل أبي مسلم الخرساني مباشرة. ومن المرجح أن حركة الراوندية حدثت في عدة سنوات منها سنة ١٧١هـ وسنة ١٤٧هـ. وعلى ذلك فإن معن بن زائدة كسب عطف الخليفة المنصور لمنحه الأمان بعد حربه للراواندية سنة ١٣٧هـ. حيث ظل بعد ذلك معن أحد سمار الخليفة المنصور الذين كانوا يدخلون عليه كل ليلة لمسامرته إلى أن ولاه اليمن سنة ١٤٠هـ.

جاء معن بن زائدة الشيباني إلى اليمن بجيش كثيف فلما وصل إلى صنعاء على الأرجح سنة ١٤٢هـ أول عمل قام به هو أخذ الوالي السابق أسيراً واستلامه الولاية منه بعد أن قرر أن قرأ عليه عهد الخليفة له بولايته على اليمن[٢٦]. كما عمل على إرسال أخيه أو ابن عمه والمسمى سليمان والياً على إقليم الجند فسكن في إحدى قراها الخارجية والمسماه قرية الزريبة قبلي الذنبتين. وهي على ربع مرحلة من الجند من جهة القبلة أي الشمالية للجند[٢٧].

لم يسلك هذا الوالي سلوكاً دينياً فيه العدل والطيبة مع أهل الجند ولكنه سلك معهم بما لم يرض به الدين الإسلامي أوضح ذلك الجندي بقوله: "فساءت سيرة معن على أهل مخلاف الجند بحيث شاء فيهم الحليلة (أي الزوجة) واحتقرهم وصار مولعاً بإذلالهم فمن جملة ما ذكر عنه أنه كانت لا تزف امرأة إلى بعلها حتى تعرض عليه وربما وقع بها"[٢٨].

لذلك لم يقبل أهل الجند هذا التصرف غير الديني أو غير الإنساني من قبل هذا الوالي الظالم. فعملوا على قتله انتقاماً لأفعاله القبيحة. ومهما يكن من أمر هذه القصة وصحتها من عدمه فإنها توحي بمدى الظلم من هذا الوالي تجاه أهل اليمن. وإنهم لم يتجهوا لقتله إلا لأنه تمادي كثيراً في ظلمه لهم.

ولما وصل الخبر إلى مسامع معن بن زائدة إلى صنعاء بقتل أهل الجند لواليه وقريبه ثارت ثائرته وعمل على الانتقام له بطريقة العصبية الجاهلية فبدلاً من أن يتجه معن إلى معرفة أخطاء واليه على أهل الجند أو أخطاء أهل الجند على واليه بطريقة دينية منصفة، وبحل الخلاف بإنصاف الجميع، أو حتى يعمل على قتل من قتل قريبه فقط. بل أنه عمد إلى الأخذ بثأر قريبه بطريقة غير دينية وغير منصفة فأسرف في ذلك وظلم.

إذ أنه أسرع في غزو الجند ونواحيها فعمل على تخريب القرية التي قتل فيها قريبه سليمان، وهي قرية الزريبة، وقتل منهم نحو ألفي رجل، وكان كلما خاطبه أهل الجند بالكف عن قتل أهل القرية رحمة بهم رفض ذلك وقال: "لا أكف حتى أقتل الفين". ثم ينشد:

إذا تمت الألفان كادت حــرارة على صدر من ذكر سليمان تبرد[٢٩].

لم يكـتف معــن بهذا العمل وهو تخريب قرية الزريبة وقتل أهلها بل عمل على تغوير المياه حتى لا تستفيد منه الأنعــام والـناس في الشـرب وري الأرض. وهي المياه التي كان بقاع الجند منها (الماء الموجود في محارث إليهاقر وغيره)[٣٠]. وهكذا كان عمل معن مع أهل الجند في غاية الوحشية والقسوة.

كذلـك لم يقتنع معن بذلك العمل بل تصرف تصرفاً آخر وهو أنه الزم الناس لبس الثياب المصبغة بالنيل وترك شعورهم منشورة فصار ذلك لهم عادة حتى صاروا يعدونه جمالاً وزينة لقدم عهدهم به ومعرفتهم له[٣١].

وســيراً على منوال الظلم والقهر من قبل معن فقد اتجه إلى منطقة أبين فخاض مع أهلها عدة وقعات منها وقعة (يوم الكثيب الأبيض بناحية عدن)[٣٢]. والتي انتصر فيها على أهلها أجبرهم على الطاعة.

وفي غضون ذلك (انقض أهل حضرموت على معن)[٣٣]. بسبب ما اتصف به معن من الظلم والجبروت فوجد معــن ذلـك فرصــة له للاســتمرار في أعماله الوحشية لقهر أهل اليمن تنفيذا لسياسة الخلافة العباسية. مدعيا أن حضرموت خرجوا عن سلطانه وإنهم إباضية يجب محاربتهم. فجهز جيشاً كبيراً واتجه بنفسه إلى حضر موت: (فدخل صــوران وشبام ونال منهم ما أراد. وقتل عمرو بن زيد الاشباوي وكان ملكا)[٣٤] وهو من سلالة ملوك حضرموت القدماء.

ويــأتي أهم أعمال معن مع أهل حضرموت عندما اتجه لمحاربتهم محاربة شديدة في عدة معارك وعدة وقائع في أنحــاء حضــرموت أســفرت تلك المعارك على إسرافه الكثير في قتل رجال حضر موت حيث بلغ عدد قتلاهم ١٥ ألف[٣٥]. وهكذا اتصفت أعمال معن بالوحشية تجاه أهل اليمن.

لم يقتصـــر ظـــلم معن على أهل اليمن بأنه أسرف في قتل رجالهم فقط بل فرض عليهم زيادة في مقدار عشور حاصـــلاتهم الزراعية من ذلك أنه عندما أراد الذهاب إلى حضرموت من صنعاء (مرّ بديار في وادي مسور -خولان- فعظم في عينه ما رأى من جريرة الزبيب فقال لنائبه لا تقبل منهم إلا عشرة ألاف ذهباً). وعلى الرغم من أنهم جمعوا أعشار زبيبهم حسب ما طلب معن (عشرة آلاف ذهباً) إلا أنهم ظلوا يطالبونه أن يخفف عنهم من ذلك فخفض عنهم ألف ذهب بنوا به مسجداً لهم[٣٦].

لم تــتوقف محاربة معن لأهل الجند وحضرموت فقط بل امتدت إلى محاربة بعض قبائل صعدة حيث قتل أحد رجالها وهو الشاعر عمر بن زيد الغالبي في معركة المنضح في بلاد واداعة الشام شمال صعدة. مما أدى إلى قيــام محمد ابــن أبان ثائراً فحارب معنا حتى أخذ بثأر عمر. ويبدو أن سبب قتل عمر يرجع إلى أنه هجا الربعيين في شعره فأدى ذلـك إلى طرده من البلد. وبعد ذلك ظل عمر يترفق في شعره للربعيين حتى عاد عن طريق توسط ابن خالته جرير بم حجر بن رعنه الأصغر[٣٧]. وبعد ذلك لقي عمر مصرعه على يد معن.

الموقف من تصرفات معن بن زائدة في اليمن:

وقفـــت الخلافة العباسية مؤيدة لتصرفات معن بن زائدة في اليمن إذ أن معنا لم يكن يتصرف خارجاً عن رغبة الخلافـــة العباسية. وهذا ما يوضحه معن نفسه عندما (كتب إلى أبي جعفر المنصور يعلمه مما كان منه فأجابه أبوجعفر المنصـــور يصـــوب له رأيه)[٣٨]. وليس غريباً أن يصوب المنصور رأي معن ابن زائدة في حروبه مع أهل اليمن. إذ أن المنصور نفسه استخدم الظلم والجبروت والقتل نحو الكثير من أبناء عمومته وإخوانه وغيرهم من العرب والمسلمين.

وبالنســـبة لموقـــف الكـــثير من الناس فقد استنكروا تصرفات معن القاسية ضد أهل اليمن. وبالتحديد قسوته الشـــديدة تجاه أهل حضرموت وأخذوا يتحدثون عن أفعاله وقسوته من ذلك حديث القرشيين مع المنصور نورده هنا لمعرفة رأي الخليفة المؤيد لقتل أهل حضرموت وسببه وهو الآتي:

- قال رجل من قريش للمنصور: "ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى ما فعل معن بأهل حضرموت كاد أن يأتي عليهم".
- فقـــال المنصور: "يا ابن أخي خبرني عن قوم نساك من قومك ومن الأنصار كنت أعرفهم بملازمة السواري في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ. وقد اصفرت ألوانهم من العبادة. قال قتلهم الخوارج يوم قديد.
- فجعـــل المنصور يسأله قال: فأخبرني عن الرجل الصالح الذي كان يلازم السارية الفلانية حتى كأنه خشبة من العبادة. قال: قتل يوم قديد.
- قال فأخبرني عن البيت الصالح بني فلان ما فعل الدهر بهم قال: قتلوا يوم قديد.
- فجعل المنصور يسأله عمن قتل يوم قديد من المهاجرين والأنصار من وجوه أهل المدينة وعبادهم ونساكهم وهو يقول قتلوا يوم قديد.
- قـــال المنصـــور: يا ابن أخي أفتعيب على معن من قتل أهل حضرموت؟ وقد أخذ بثأركم. فسكت عن ذلك القرشي[٣٩].

يتضح من هذا الحديث أن سبب قتل أهل حضرموت أولاً: أنهم كانوا من الخوارج! وثانيها: أن هؤلاء الخوارج قـــتلوا المهاجـــرين والأنصار يوم قديد. والواقع أن حادثة يوم قديد بين الخوارج والأمويين سنة ١٣٠هـــ وليس ضد العباســـيين. وأن أغلـــب الخوارج قد قتلوا يوم قديد في حربهم مع بني أمية في حين أن قتال معن لأهل حضرموت في العصر العباسي بعد أكثر من ١٥ سنة من حادثة قديد. و لم يكن لأهل حضر موت ذنب في ذلك.

اشتهر معن بن زائدة بالجود والكرم إلى جانب اشتهاره بسفك الدماء. فلما أنفق الكثير من الأموال أثناء ولايته للـــيمن غضـــب منه الخليفة المنصور العباسي. ومن الغريب أن يغضب الخليفة المنصور لكثرة إنفاق المال و لم يغضب لكثرة سفكه لدماء أهل اليمن. أي أن الأموال أكثر ثمناً من دماء أهل اليمن في نظر الخليفة؛ مما يدل على منتهى الظلم والقسوة.

وفي غضون ذلك عمل معن على استرضاء الخليفة فبعث وفدا من قومه يطلب العفو منه والرضا عنه وفي ذلك قـــال معن موجهاً خطابه للمنصور: "قد أفنيت عمري في طاعته وأتعبت نفسي، وأفنيت رجالي في حرب في حرب اليمن، ثم يسخط عليّ أن أنفقت المال في طاعته".

وعندما دخل الوفد العراق ودخلوا على الخليفة المنصور طلب منه رئيس الوفد الاقتصاد بحاجته وحاجة صاحبه فقال الوفد للخليفة: "يا أمير المؤمنين معن بن زائدة عبدك وسيفك رميت به عدوك، فضرب وطعن ورمى، حتى سهل ما حزن وذل ما صعب، واستوى ما كان معوجا من اليمن، فأصبحوا من خول أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فإن كان في نفـــس أمير المؤمنين هنة من ساع أو واش أو حاسد فأمير المؤمنين أولى بالتفضيل على عبـــده، ومن أفنى عمره في طاعـــته". ولمـــا سمع الخليفة المنصور كلام الوفد اقتنع به، فقبل وفادهم وقبل العذر عن معن، وأمر بعودهم إليه. فلما وصلوا إلى معن وقرأ عليه الكتاب بالرضا شكر لأصحابه صنعهم ذلك وخلع عليهم، وأجازهم كما توجه إلى الخليفة المنصور لشكره(٤٠).

وبعد أن أمضى معن بن زائدة ست سنوات في ولايته لليمن. عاد إلى العراق إلى الخليفة المنصور وذلك لإرساله إلى خرسان لقتال الخوارج بها فسار إلى بُست من سجستان وبقى بها ثلاث سنوات ثم قتل سنة ١٥١هـــ. أما بالنسبة للـــيمن فقد استخلف عليها عند خروجه منها أبنه زائدة بن معن وظل بها ثلاث سنوات(٤١). ولما علم زائدة بقتل أبيه خرج من اليمن واتجه إلى العراق.

نهاية معن بن زائدة:

هناك روايتان عن قتل معن أحدهما رواها الهمداني والأخرى رواها ابن كثير وهما كالتالي:

الرواية الأولى: أوردها الهمداني وهي أن نهاية معن كانت على أيدي الحضارمة انتقاماً لقتل الكثير منهم. وقصة ذلـــك الآتي: كان لعمرو بن الشباوي ولدان صغيران فلما بلغا أرادا الذهاب إلى معن للثأر لأبيهما فأخذا ما يكفيهما مـــن النفقة وخرجا مختفيين وسارا نحو معن فحضرا موسم الحج ثم ذهبا إلى بغداد ثم إلى المدينة التي كان بها معن وهي مديـــنة بُســـت بسجستان فعملا على الوصول إليه بكل وجه فلم يتمكنا من الوصول إليه ثم ظلا يتابعانه فلما خلا الموضع يوماً ودخل معن يهريق الماء في بعض بيوت تلك المدينة وكان قد أحتجم ذلك اليوم كما كبر سنه فتبعه الأكبر بسكينة مسمومة فقتله بها ثم هرب مع أخيه فاختفيا عند بعض اليمانية بتلك البلد لبعض الوقت حتى سكن الطلب عن مـــن قـــتله. ثم خـــرجا فقصدا الشام ثم مصر ثم ركبا من القلزم حتى عدن فلقيهما وجوه اليمن فاستقبلوهما استقبال الأبطال(٤٢).

الرواية الثانية: أوردها ابن الأثير ونصها الآتي: "انكر قوم من الخوارج سيرته فاندسوا مع فَعَلَة كانوا يبنون في مترله فلما بلغوا السقف أخفوا سيوفهم في القصب ثم دخلوا عليه بيته وهو يحتجم فقتلوه بها وشق بعضهم بطنه بخنجر

كان معه" وبعد قتله لم يتمكن أحد منهم من النجاة فقد ألقى القبض عليهم ابن أخيه يزيد بن مزيد فقتلهم(٤٣).

ومهما يكن من أمر فقد كانت نهاية معن القتل نتيجة ارتكابه أعمالاً وحشية ضد أهل اليمن وضد الخوارج . تلك هي قصة معن بن زائدة مع أهل اليمن.

علاقة الهيصم بولاية اليمن:

ازداد تذمــــر أهل اليمن من تصرفات ولاة الخلافة العباسية في اليمن، واتسع نطاق خروجهم في عهد الرشيد. وامـــتد ذلك على اتساع مغارب صنعاء أو ما يسمى بمغارب اليمن. وهي المناطق الممتدة من حراز حتى حجة بما فيها شـــبام حمير أو جبل ذخار. كذلك اختلف خروج القبائل اليمنية عن ولاة الخلافة العباسية في عهد الرشيد. فبدلاً من الخـــروج القبلي غير المنظم، كما حدث لقبائل الجند وحضرموت في عهد معن والمنصور، أخذ الخروج شكلاً منظماً في عهـــد الرشـــيد عن طريق قيادة الزعامات القبلية لقبائلها في هذا الخروج. كما أخذت القبائل تحارب من مناطق محصـــنة وهي الجبال بدلاً من بيوتها.وكذلك اخذ هذا الخروج يستمر لفترة طويلة. ويبدو أن تصرفات معن مع أهل اليمن هي التي جعلت من القبائل اليمينة أن تعمل على تنظيم نفسها ذلك التنظيم. وتعتبر حركة الهيصم خير مثال لهذا التذمر وهذا الاتساع والتنظيم وذلك ما سيتوضح في الآتي:

ظهر الهيصم بن عبدالمجيد(٤٤) أو عبدالصمد(٤٥) البحري(٤٦) الهمداني(٤٧) معلناً الخروج على ولاة الخلافة العباسية بناحية قيس المسمى جبل بني حبش في المحويت(٤٨). وامتدت حركة إلى جبال العضد أو جبال مســـور حجة ومنطقة لاعـــة وبيت ذخار في شبام حمير أو شبام كوكبان(٤٩). كما امتدت إلى منطقة حراز ومنطقة عشتان(٥٠). وكان ذلك على الأرجح سنة ١٨١هـــ(٥١).

أسباب خروج الهيصم:

الفترة الأولى: تدرجت أسباب عصيان الهيصم على ولاة الخلافة العباسية في اليمن، وأخذت شكلاً تصاعدياً. ففي البداية أمتنع الهيصم عن طاعة الولاة في مناطقه والمتمثلة في عدم دفع المخصصات المالية الزائده المفروضة عليه. و لم يعمـــل في هذه المرحلة على محاربة الولاة. وامتد هذا العصيان فيما بين سنة ١٧٩خـــ(٥٢) حتى سنة ١٩١هـــ وعلى الرغم من عدم ذكر المصادر لأسباب هذا الامتناع وهذا العصيان. هل هو خلاف مذهبي؟ متمثل في انتماء الهيصم إلى مذهـــب الخوارج أو الشيعة أو الأمويين أو غيره. أو عصبية قبلية؟ أو أنه ناتج عن زيادة فرض أموال على أراضيه من قـــبل الـــولاة العباسيين؟ وممكن استنتاج ذلك بأن ظلم ولاة الخلافة لأهل اليمن وقسوتهم واستخدم الوحشية نحوهم فضلاً عن زيادة فرض الأموال على أراضيه من قبل الولاة. وأيضاً العصبية القبلية هي الأسباب الرئيسة لعصيان الهيصم على ولاة الخلافة العباسية في اليمن.

الفـــترة الثانـــية: فترة خروج الهيصم على والي الخلافة العباسية أحمد بن إسماعيل في شهر ربيع الآخر من سنة

١٨١هـ. وقيامه بقتل ابن عروة القرشي وسليمان بن عبدالله اللخمي(٥٣).

الفـترة الثالـثة: فـترة اعتداء والي حماد البربري على جارية الهيصم ونهبها بالقوة واتجه الهيصم للانتقام بقتله والقصة كما أوردها الهمداني تتمثل بالآتي:

إن والي منطقة لاعة في حجة من قبل حماد البربري عندما أخبره أحد رجاله بأن عند أخت الهيصم جارية جميلة مولدة. فبعث هذا الوالي إلى أخت الهيصم يطلب شراء هذه الجارية إلا أن أخت الهيصم رفضت بيعها بسبب أن ولاية هذه الجارية تحت تصرف أخيها الهيصم وليس تحت تصرفها. وأخوها الهيصم آنذاك كان متواجداً في جبل تيس وليس في لاعة لذلك لا يمكن لها أن توافق على بيعها(٥٤). وآنذاك لم يعمل والي لاعة على مكاتبة الهيصم وإنما استخدم القوة والجبروت وذلك عن طريق الهجوم على أخت الهيصم وأخذ الجارية منها بالقوة فلما بلغ خبر هذا الحادث إلى الهيصم في جـبل تيس أخذته العزة بالإثم وثارت ثائرته وركبته العصبية القبلية والعار. فانحدر مسرعاً من جبل تيس في اتجاه لاعـة وتصرف مع هذا الوالي الذي أخذ الجارية بأكثر من فعله وتصرفه في أخذ الجارية حيث أقدم الهيصم على قتل هذا العامل.

وبعـد ذلـك شعر الهيصم بخطئه وعمل على مكاتبة حماد البربري والي الخلافة العباسية على اليمن وأعلمه أنه أرتكـب خطـأ في قتله بعض ولاته وأنه على استعداد لدفع دية هذا العامل. وأنه على استعداد لطاعة حماد البربري ومسـالمته. إلا أن حمـاداً رفض مسالمته وطاعته بسبب إقدامه على قتل أحد عماله فاتجه حماد لمقاتلته وآنذاك لم يجد الهيصم بدا من الدفاع عن نفسه ومقاتلة حماد(٥٥).

الفترة الرابعة: استخدم حماد البربري القوة والشدة والعنف تجاه أهل اليمن وازدياد ظلمه بسبب انضمام الكثير من أهل اليمن إلى حركة الهيصم. ذلك ما أوضحته المصادر اليمنية حينما تحدثت عن حماد بالقول: "فخالف عليه خلق كثير من اليمن بسبب ما نالهم من العنف وقائدهم الهيصم بن عبدالصمد"(٥٦). كما أوضح ذلك اليعقوبي عند حديثه عن توليه أعمال اليمن بقوله: "وولى حماد البربري مولاه فجار على أهل اليمن وغلظ عليهم"(٥٧).

ومـن جهة السبب الذي جعل الرشيد يولي حماداً اليمن هو خروج بعض مناطق اليمن عن طاعة الخلافة وذلك أثناء ولاية محمد بن برمك على اليمن. والذي كتب إلى الخليفة الرشيد يشكو إليه خروج أهل عك بتهامة على طاعته وطاعـة الخلافـة. لذلك طلب الخليفة الرشيد مولاه حماد الحضور إليه ليوليه على اليمن ويرسله إليها وقال له عبارة توحـي بغضـبه عـلى أهـل اليمن ورغبته بإنزال أقصي العقوبة عليهم وهي قولته المشهورة: "أسمعني أصوات أهل اليمن"(٥٨)، فسار حماد نحو صنعاء فوصلها في شوال سنة ١٨٤هـ(٥٩).

الأحـداث: لم يقبل حماد مسالمة الهيصم ودفعه دية الوالي المقتول لأنه توقع لأنه سيتمكن من الايقاع بالهيصم سريعاً وسيعمل على القصاص منه. لذلك أصر على محاربته. كما أصر الهيصم جهته على محاربة حماد وتأليب اليمنيين

عليه، فاشتدت حركة الهيصم بانضمام عدة زعامات بقبائلها إلى الهيصم مثل عمرو بن خالد الحميري في عشتان. والصباح بن أبرهة في حراز. وإبراهيم أخي الهيصم في تيس[٦٠]. والضحاك بن كثير وغيرهم[٦١]. لذلك امتدت حركة الهيصم إلى أنحاء مغارب اليمن الأعلى من حراز وشبام كوكبان والمحويت إلى لاعة ومسور حجة[٦٢].

وفي غضون امتداد حركة الهيصم إلى مناطق كثيرة من مغارب اليمن الأعلى واستخدم حماد القسوة والشدة نحوهم رفضوا الدخول في طاعة حماد البربري كما رفضوا دفع الخراج المفروض عليهم زيادة من قبل حماد. فاستنجد حماد بالخلافة العباسية فكتب إلى الخليفة هارون الرشيد يطلب امداده بالجنود للقضاء على الهيصم واتباعه فأمده الخليفة الرشيد بجيش كبير تحت قيادة عشرة من قواد من أهل العراق وخرسان[٦٣].

ولما وصل ذلك الجيش إلى حماد البربري في صنعاء ازدادت وطئته وقسوته وظلمه على أهل اليمن (وسام أهلها سوء العذاب) فاشتكى أهل اليمن حماد البربري إلى هارون الرشيد. وذلك عندما حج بعض أهل اليمن والتقوا بالرشيد أثناء وجوده في مكة للحج في أحد حجاته فقالوا له: "نحن نعوذ بالله وبك يا أمير المؤمنين: اعزل عنا حماد البربري إن كنت تقدر! فقال: لا. ولا كرامة"[٦٤]. والواقع عن رفض الخليفة هارون الرشيد عزل حماد والعفو عن الهيصم واتباعه نابع من خوفه من امتداد حركة الهيصم إلى أنحاء اليمن. وكذلك تقليد اتباعها في بقية أمصار الخلافة. كما أنه نابع من اتجاه ولاية الرشيد على اليمن إلى استخدام القوة والعنف والوحشية ضد أي حركة تخالف رأي الخلافة العباسية وولاتها على اليمن. لذلك لم يعمل الرشيد على عزل حماد والعفو عن الهيصم وأتباعه.

ومن جراء تشدد الخليفة العباسي الرشيد وواليه على اليمن حماد البربري في استخدام القوة والوحشية. استمرت الحرب فيما بين الهيصم وأنصاره من جهة وبين الوالي حماد من جهة أخرى لمدة ٩ سنوات.

أسفرت هذه الحرب فيما بين الطرفين إلى حصاد أكثر من ٢٠ ألف رجل[٦٥] معظمهم من أهل اليمن. وهذا يدل على شدة القتال فيما بين الطرفين كما يدل على وحشية وظلم حماد والخلافة العباسية لأهل اليمن، لأن الخلافة هي التي سمحت لحماد بهذا التصرف وكذلك يدل على إصرار كل طرف عدم التنازل للطرف الآخر أو الخضوع لأوامره.

ومن الواضح أن مناعة جبال اليمن وحصونها وشراسة قتال الهيصم وأنصاره جعلت من الصعب على حماد التمكن من القضاء على حركة الهيصم ولما لم يستطع حماد تحقيق النصر على حركة الهيصم بالقوة لجأ إلى استخدام أسلوب آخر يحقق له النصر يتفق مع حصانة تلك الجبال وشراسة المقاتلين فيها. وهو عمل على إبعاد الزعامات القبلية المتحالفة مع الهيصم عن القتال بجانبه. فطلب حماد منهم التخلي عن القتال ضده مقابل منحهم الأمان وتخفيف الخراج عنهم. وبالفعل اقتنع الكثير من الزعامات القبلية واتباعهم بعدم جدوى الحرب وفائدتها فاتجهوا إلى تسليم أنفسهم لحماد مقابل منحهم الأمان لإنهاء عدة سنوات من الحرب بين الطرفين. وممن سلموا أنفسهم لحماد وطلبوا منه الأمان

مــن الــزعامات القبلية إبراهيم أخو الهيصم[٦٦]، والصباح بن ابرهة[٦٧]، وعمرو بن خالد[٦٨]، وكذلك الضحاك بن كثير[٦٩]. وتعتبر هذه الزعامات التي وقفت بجانب الهيصم وناصرت حركته.

ولمــا تخلت هذه الزعامات القبلية عن مناصرة الهيصم والقتال إلى جانبه. أدى ذلك إلى ضعف قوات الهيصم، فأصــبح من السهل على حماد القضاء على حركة الهيصم. فاستغل حماد الضعف فأسرع في الاتجاه بقواته إلى السيطرة عــلى جبال العضد في مسور حجة وهي معقل الهيصم، فتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة. وبالنسبة للهيصم نفسه فإنه لما عجز عن مقاومة حماد البربري اتجه إلى الترول من قلعته والهروب إلى قرية بيش[٧٠] من تهامة للاختفاء بها.

لما اختفى الهيصم عمل حماد على نشر جواسيسه في أنحاء المناطق التي ثارت مع الهيصم، وذلك بهدف الإسراع على القضاء على الهيصم وحركته نهائياً. ولما وصل العلم إلى مسامع حماد بوجود الهيصم مختفياً في قرية بيش عن طريق أحــد رجال تلك القرية المذكورة أسرع حماد إلى إرسال جيش للإلقاء القبض عليه. أوضح ذلك اليعقوبي بقوله: "ثم صــار إلى حماد رجل من أهل البلد، فأعلمه أن الهيصم قد نزل من قلعته، وصار إلى قرية من القرى متنكراً يتجسس الأخبار، فوجه معه إلى تلك القرية بقائد يقال له حراد فأخذ الهيصم"[٧١].

وبعــد إلقاء القبض على الهيصم قال: "والله إن القتل لشيء ما أنكره، وما خلقت الرجال إلا للموت والقتل" وأنشد قوله:

فشفــاءُ مــا لا تشتهيـــــــــ ـيه النفسُ تعجيلُ الفــراق[٧٢].

وكمــا يظهر مما سبق أن حمادًا أوعز إلى الهيصم بتسليم نفسه مقابل منحه الأمان إلا أن الهيصم وقع في الشك فيما بين تصديق منح حماد الأمان له أو تكذيبه. فقلل ذلك من عزيمة الهيصم على المقاومة. فضلاً عن ذلك فإن الأكثر تثبــيطاً لعزيمة الهيصم في الاستمرار في القتال واتجه إلى التخفي هو تخلي الزعامات القبلية عن مناصرته وخاصة أخوه إبراهــيم. أوضحت ذلك المصادر بقولها: "فاستأمن إبراهيم بن عبدالمجيد أخو الهيصم إلى حماد فأمنه فكان سبب ظفر حمــاد بجــبال العضــد فهــرب الهيصم إلى بيش تهامة"[٧٣]، وبعد ذلك حمل الهيصم إلى صنعاء على جمل تحت رحمة الأسر[٧٤].

وعندما تمكن حماد من اسر الهيصم وذلك في سنة ١٩١هـ[٧٥]، واستسلم الكثير من رجال الهيصم بعد منحهم الأمان عمل حماد على إرسالهم إلى الخليفة هارون الرشيد فأرسل بالهيصم وبأهل بيته وبأخيه إبراهيم وبعدة وجوه من أهــل الــيمن ممــا كــان من رؤسائهم ممن كان يتهمه بالميل إلى الهيصم[٧٦] قدر عددهم بحوالي ٦٠٠ رجل منهم الصباح[٧٧]. ويتضح من هذا أن حمادًا خدع إبراهيم أخا الهيصم والصباح وغيرهم من وجوه أهل اليمن بمنحهم الأمان ثم إرســالهم إلى الخليفة الرشيد لمعاقبتهم أو العفو عنهم ومنحهم الأمان. وهذا يتنافى مع وعود حماد في منحهم الأمان مقابل تخليهم عن الحرب.

نهايـــة الهيصم: تجمع المصادر على أن نهاية الهيصم كانت القتل إلا أن هناك ممن يرجح سبب القتل إلى خديعة حمـــاد له ويوضـــح ذلك ما أورده الهمداني أن حماداً خدع الهيصم حين أوعز إليه أن يعترف للخليفة هارون الرشيد بخروجه عليه إذا أراد عفوه بقوله: "وكان حماد قد دس من ينصحه وقال: إذا سألك أمير المؤمنين عن جرمك فأقر له حتى يعفو عنك، ولا آمن عليك إن جحدت وقد صح عنده العلم"(٧٨).

صـــدق الهيصـــم نصيحة حماد الخادعة فلما وصل إلى الخليفة هارون الرشيد إلى الرقة التي كان الخليفة آنذاك متواجداً بها(٧٩) بدأت المحاكمة السريعة له فقال الخليفة هارون الرشيد للهيصم: "أنت الخارج على أمير المؤمنين وقاتل أجـــناده والمطل على الكعبة البيت الحرام بالفتن"، فقال الهيصم: "نعم فلما أقر له استحل هارون قتله فأمر به فضربت عنقه(٨٠). وبذلك نجحت خديعة حماد للهيصم في أمرين:

الأول: قبوله الاستسلام بمنحه الأمان.

الثاني: اعترافه بالخروج على الخليفة الرشيد فأدي ذلك إلى قتله ونهاية حركته.

نهاية أنصار الهيصم:

وبالنسبة إلى أنصار الهيصم هناك ثلاث روايات توضح كيف كان التعامل معهم وهي الآتي:

الرواية الأولى: تحكي عن العفو عن أنصار الهيصم والسماح لهم بالعودة إلى اليمن دون عقاب. وقصة ذلك أنه بعـــد أن نجح الخليفة من أخذ الإقرار من الهيصم أراد أن يأخذ من الضحاك بن كثير الإقرار بخروجه على الخليفة حتى يحكـــم عليه بالقتل إلا أن الضحاك أدرك أن الخليفة يريد أن يأخذ الاعتراف منه ليس ليعفو عنه ولمن ليقتله كما فعل بالهيصـــم لذلـــك لم يعترف له. فأسند سبب ذلك الخروج إلى واليه على اليمن حماد. أوضح ذلك الهمداني بقوله عن الرشـــيد: "فـــلما دعا بالضحاك بن كثير فذكر له مثل مقالته للهيصم". فقال: "الذي فعل ذلك خادمك حماد. قال: كـــيف ذلك؟ فقص له الخبر من مبتدأ مشاقة الهيصم له. فلما علم الخبر سقط من يده فتندم على قتل الهيصم وأطلق الضـــحاك وأصحابه وحباهم وأمر بحملهم إلى اليمن وغضب على حماد حتى مات(٨١). ويظهر مما سبق أن الضحاك يشـــير إلى اتجاه حماد إلى مقاتلة الهيصم وعدم مسالمته وقبول دفع الدية منه. مما جعل الكثير من مغارب اليمن الأعلى تقف مع الهيصم ضد الخلافة العباسية في اليمن في تلك الحرب التي أثارها الهيصم، وكان بإمكانه توقيف القتال بقبول مسالمة الهيصم.

الـــرواية الثانية: يذكر سجن الهيصم في سجون بغداد أوضحت ذلك المصادر اليمنية وهي أن الخليفة هارون الرشيد أمر بضرب عنق الهيصم وصرف من كان معه إلى السجن في بغداد فأقاموا هناك إلى أن هلك الرشيد (٨٢)سنة ١٩٣هـــ، ومنهم من مات في سجنه والباقون خرجوا من السجن في زمن الأمين محمد بن هارون(٨٣).

الرواية الثالثة: تتحدث عن قتل جميع أنصار الهيصم أوضح ذلك اليعقوبي أنه لما ألقى حماد القبض على الصباح

وأخذه أسيراً ووجه به إلى الرشيد مع ٦٠٠ رجل من أصحاب الهيصم فضرب أعناقهم جميعاً وصلب الهيصم الصباح معــاً[٨٤]. ويبدو أن الخلافة في بغداد أشاعت قتل الهيصم وأنصاره في جميع أمصار الخلافة حتى لا يفكر أحد بالخروج على الخلافة العباسية، أما قتلهم فلا نميل إلى تأييده.

إن روايــة الهمــداني ورواية المصادر اليمنية الأخرى أرجح من غيرها وليس هناك تناقض كبير فيما بين رواية الهمداني التي تذكر بإطلاق أهل اليمن جميعاً في عهد الرشيد أو بين الرواية الثانية التي تذكر دخول أهل اليمن السجن فترة قصيرة ثم خروجهم من السجن في عهد الأمين. وبالنسبة لرواية قتل الرشيد لمن حضر لديه من أهل اليمن لا يمكن تصــديقها إذ أنــه لــو قتلهم جميعاً لانتشر ذلك الخبر لدى أهل اليمن وكان له رد فعل في زيادة الثورة ضد الخلافة العباسية تحت ضغط العصبية القبلية الموجودة بقبائل اليمن.

لم تكن معاملة حماد البربري لأهل اليمن مقتصرة على العسف والجبروت وقتل رجالهم فقط بل شرد جمعاً كبيراً ممــن ثاروا عليه إلى أنحاء متفرقة من اليمن. وبذلك أجبر الكثير منهم على الرضوخ لطاعته. كما أجبرهم على دفع ما علــيهم من خراج مقررة، وكذلك دفع ما فرضه عليهم من زيادة في الخراج[٨٥] ذلك ما أوضحته المصادر بأنه لما قدم حمــاد إلى الــيمن "عامــلهم بالعسف والجبروت وقتل من رؤسائهم جماعة وشرد جمعاً في البلاد حتى دانوا وأطاعوا بالخراج المعتاد وزيادة عليه ما أراد"[٨٦].

وبعــد ذلــك قــتل الهيصم وانتهت حركته لم يستطع أحد من أهل اليمن الخروج عن ولاية الخلافة العباسية وبالتحديد في المدة الأخيرة من زمن حكم حماد وسكن أهل اليمن وهدأ تمردهم نتيجة خوفهم من بطش حماد وقهره ووحشية تصرفه. أدى ذلك إلى انتشار الأمن ورخص الأسعار وخاصة صنعاء وخصب اليمن. ذلك ما فسر من وجهة نظر الخلافة وولاتها وهو ما أوردته المصادر اليمنية بقولها: "وأمنت الطرق في أيامه أماناً لم يكن في عهد مثله حتى أن الجلب كان يسير من اليمامة إلى صنعاء لا يخشون عاسفا وحملتهم يضلون بالأغنام في عنق كل شاه مخلات مملوءة تمرا فتباع بالرخص، وأخصب اليمن في أيامه خصباً لم يعهد، ورخصت الأسعار"[٨٧]. وعلى الرغم من انتشار ذلك إلا أن الناس في اليمن تعبوا من حماد من شدة عنفه وعسفه[٨٨].

وفي الواقــع يمكن تفسير ذلك على أنه بعد انتهاء الحرب في اليمن بدأ النشاط التجاري فيما بين اليمن والبلدان الإســلامية الأخــرى وغيرها من البلدان. فاتسع النشاط التجاري وازدادت حاجة الناس لشراء السلع التجارية بعد انقطاعهــا فترة الحرب فيما بين حماد والهيصم والممتدة لتسع سنين. أما بالنسبة لخصب اليمن فإن ذلك عامل طبيعي يعــتمد على حالة الطقس في اليمن. ومن خلال النظرة في حالة الطقس تلك نجد أنه في بعض السنوات يزداد هطول الأمطار على اليمن بغزارة فينتشر الخصب. وفي بعض السنوات عكس ذلك يقل هطول الأمطار في اليمن فينتشر فيها الجفاف والجدب. ومن جراء الخصب في اليمن واتساع النشاط التجاري ترخص الأسعار وعلى ذلك فهذه الحالة التي

حدثت في أواخر حكم حماد هي حالة من جملة الحالات التي يتكرر حدوثها في اليمن في العديد من السنوات.

عـــزل حماد: وفي عهد الخليفة العباسي الأمين تغيرت سياسة الخلافة نحو حماد فقد عزل عن ولايته لليمن نتيجة شـــكوى أهل اليمن. وولت مكانه محمد بن عبدالله الخزاعي والذي عمل عند قدومه إلى صنعاء على مصادرة أموال عمال حماد وإنصاف أهل اليمن. ويوضح ذلك ابن جرير الصنعاني حين تحدث عن ولاية الخزاعي لليمن بقوله: "وأخذ ما قدر عليه من عمال حماد فجعل يستأديهم ويحققهم حتى يخرجوا إليهما طالبهم به من المال فجبى بذلك مالاً عظيماً وعدل في أهل اليمن"[٨٩].

وحـــول عـــزل حماد اختلفت المصادر في ذلك فاليعقوبي يوضح أن عزله كان في أواخر حياة الرشيد، كما أنه يذكر أن ولاية حماد لليمن استمرت ثلاث عشرة سنة اعتبر أن ولايته تبدأ من ١٧٩هـــ عندما بدأ أول ظهور لحركة الهيصم[٩٠]. ونرجح رواية المصادر الأخرى التي تذكر أن ولاية حماد لليمن كانت سنة ١٨٤هـــ وعزله عنها كان في بداية خلافة الأمين سنة ١٩٣هـــ، وابن جرير الصنعاني الذي ذكر أن حماداً عندما تولى اليمن دخل صنعاء في شوال ســـنة ١٨٤هـــــ[٩١]، وانتهـــت ولايته في بداية خلافة الأمين حيث أنه خرج من صنعاء مستهل شهر رمضان سنة ١٩٣هـــ[٩٢].

وعـــن ولايـــة حماد أشار ابن الأثير أن ولايته سنة ١٨٤هـــ كانت لليمن ومكة[٩٣]. وهذا يعني أن حماداً كان يقضـــي في مكة أشهر الحج وهي ثلاث أشهر من شوال حتى محرم وبقية الأشهر يقضيها في اليمن. أشار إلى ذلك ابن جرير الصنعاني بأن حماداً كان لا يدع حضور الحج وكان يستخلف على صنعاء إذا خرج منها مرة مسلم بن منصور ومرة محمد بن إبراهيم[٩٤].

ممـــا سبق نجد أن معاملة معن بن زائدة الشيباني وحماد البربري القاسية تركت أثراً سيئاً على أهل اليمن حيث مـــال أهل اليمن فيما بعد إلى مناصرة الزيدية في صعدة ومناصرة الإسماعيلية في مسور لاعة ومذيخرة، ومناصرة علي الصـــليحي في حراز الذي أعلن موالاته للفاطميين. كما أدت إلى ظهور الزعامات القبلية في اليمن مثل آل الكرندي وآل المناخي وآل يعفر. فنتج عن ذلك ظهور دويلات مستقلة في اليمن عن الخلافة العباسية.

التعليقات

(١) الجـــندي، أبـــو عـــبدالله بهاء الدين، محمد بن يوسف بن يعقوب، *السلوك في طبقات العلماء والملوك*، تحقيق: محمد الأكوعن منشـــورات وزارة الإعلام اليمينة، ط١ (بيروت: ١٤٠٣هـــ/١٩٨٤م)، ١: ٢٠٧؛ الخزرجي، أبوالحسن على بن الحسن بن أبي بكـــر (ت٨١٢)، *العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك*، ط٢ (دمشق: دار الفكر)، مصور، ٢٤؛ ابن الديبع، عبد الرحمن ابن علي (ت٩٤٣)، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، تحقيق: محمد الأكوع، (القاهرة: المطبعة السلفية)، ١١٩.

(٢) مجهول، *تاريخ اليمن*، ق١٦٣؛ الطبري، إسحاق بن يحيى بن جرير الصنعاني (ت٤٥٠)، *تاريخ صنعاء*، تحقيق: عبدالله الحبشي،

نشر مكتبة السنحاني، ٥٠؛ الجندي، *السلوك*، ٢١٣؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٨، ٢٩؛ محمد عيسى الحرري، *الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري*، ط٢ (بيروت: عالم الكتب، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ٣٦.

(٣) الرازي، أحمد بن عبدالله بن محمد (ت٤٦)، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق: حسين العمري، ط٢ (دمشق: ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ١٥٦؛ الجندي، *السلوك*، ١: ٢١٣، ٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: عبدالفتاح عاشور، (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ١: ١٤٢؛ الحداد، محمد بن يحيى، *التاريخ العام لليمن، اليمن في موكب الإسلام (١)*، ط١ (بيروت: دار التنوير، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٦٩؛ الحرري، *الاتجاهات*، ٣٦.

(٤) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٠؛ الجندي، *السلوك*، ١: ٢٠٧؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٠.

(٥) سورة الفتح، الآية ٥.

(٦) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٠؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢١.

(٧) الخزرجي، *العسجد*، ٢٥؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢١.

(٨) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٢٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٧.

(٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٢٧؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٨.

(١٠) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٧: ٥٠٧؛ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين على، *الكامل في التاريخ*، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٣: ٤٥٩، ٥٤٨.

(١١) ابن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق: مكتبة التراث، مؤسسة التاريخ العربي (بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٩٣م)، ١٠: ٨٢.

(١٢) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٧: ٥٠٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٥٤٩؛ ابن كثير، *البداية*، ١٠: ٨٢.

(١٣) ابن الديبع، *قرة*، هامش٢، ١٢٢.

(١٤) الهمداني، *الدامغة*، ٤١٩.

(١٥) الهمداني، *الدامغة*، ٤١٣.

(١٦) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر، *تاريخ اليعقوبي*، تحقيق: عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، ٣: ٣١١.

(١٧) ابن كثير، *البداية*، ١٠: ٧٧.

(١٨) حسن محمود، *العالم الإسلامي*، ٢٤-٢٦.

(١٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٣١٥، ٣١٨.

(٢٠) اليعقوبي، *تاريخ*، ٣: ٣١٠.

(٢١) ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٦٢١.

(٢٢) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٨: ٦٤-٦٥؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١٢٢.

(٢٣) ابن الديبع، *قرة*، ١٢٢؛ الجندي، *السلوك*، ٢٥؛ الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤١.

(٢٤) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٠٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٥٤٨.

(٢٥) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٣١٠؛ الحمزي، عماد الدين إدريس (ت١٤)، *كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار*، تحقيق: عبدالمحسن المدعج (الكويت: مؤسسة التراث العربي، ١٩٩٢م)، ٣٥.

(٢٦) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٨: ٦٥؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١٢٢.

(٢٧) الجندي، *السلوك*، ١:٢٠٩.

(٢٨) الجندي، *السلوك*، ١:٢٠٩–٢١٠؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٦.

(٢٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٢؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٢٦؛ الجندي، *السلوك*، ١:٢١٠؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٢٩–٣٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٥؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٣٠؛ زبارة، *خلاصة المتون*، ١٤٧؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٦.

(٣٠) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٠؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٦.

(٣١) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٠.

(٣٢) الهمداني، *الدامغة*، ٤٠٣.

(٣٣) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ زبارة، *خلاصة المتون*، ١٤٧؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٤٦.

(٣٤) الهمداني، *الدامغة*، ٤٠٤.

(٣٥) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٦؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ يحيى بن الحسين، *غاية*، ١:١٣٠؛ زبارة، *خلاصة*، ١٤٧؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٥، أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢.

(٣٦) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٤٦؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢.

(٣٧) الهمداني، الحسن بن علي بن يعقوب (ت٣٤٠)، *الإكليل*، ج١ ،٢ ، تحقيق: محمد الأكوع، ط٢ (بيروت: دار الأدب، ١٩٨٣م؛ الدامغة، تحقيق: محمد الأكوع، ١٢٩،٢:١٢١؛ محمد أمين صالح، تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاث الأولى للهجرة (عصر الولاة)، ط١ (القاهرة: مطبعة الكيلاني، ١٩٧٥م)، ١١٣.

(٣٨) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٢؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢.

(٣٩) ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٣١؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٧؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٥؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٧.

(٤٠) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٨:٦٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣:٦٢٩.

(٤١) الجندي، *السلوك*، ١:٢١١.

(٤٢) الهمداني، *الدامغة*، ٤٠٥؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٥؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٣.

(٤٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٣:٦١٣–٦١٤.

(٤٤) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٤٣.

(٤٥) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٢٢٣.

(٤٦) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٤٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٤٨) الحمادي، محمد بن مالك، *كشف أسرار الباطنية*، تحقيق: محمد الأكوع، ط٢ (نشر مركز الدراسات اليمنية، ١٩٩٤م)، ٩٩–١٠٠.

(٤٩) ابن الديبع، *قرة العيون*، ٤٩؛ ابن عبدالحميد، *بهجة*، ٣٤؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٥٧.

(٥٠) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣؛ الخزرجي، *العسجد*، ١:١٣٢؛ الجندي، *السلوك*، ١:١٣٢؛ الفقي، عصام الدين، *اليمن في ظل الإسلام*، ط١ (دار الفكر العربي، ١٩٨٢م)، ٧٧؛ الحرري، *الاتجاهات*، ٣٨.

(٥١) مجهول، *تاريخ*، ١٦٣؛ الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٩؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٤.

(٥٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ١:٣٠٥.

(٥٣) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٨.

(٥٤) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٢؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥-١٤٤؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٠٣هـ*، ط١ (الشارقة: دار الثقافة العربية، جامعة عدن، ٢٠٠١م)، ١٤٥.

(٥٥) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٢-٣٢٣.

(٥٦) الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٣١.

(٥٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٥٨) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٣١؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٤٣؛ زبارة، محمد ابن يحيى، *خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون*، مركز التراث والبحوث اليمني، ط١، ١٥١؛ الحرري، *الاتجاهات*، ٣٨.

(٥٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ الخزرجي، *العسجد*، ٥٩؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٧٠؛ زبارة، *خلاصة المتون*، ١٥١.

(٦٠) ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٣٥؛ ابن الديبع، *قرة العيون*، ١٣٤؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٣٤؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٩؛ شمسان، إيمان، *اليمن عصر الولاة*، ١٤٤-١٤٥.

(٦١) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٦٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ٣٥٩.

(٦٣) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٣٤.

(٦٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٦٠؛ الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٥٩.

(٦٥) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٣٤.

(٦٦) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٥٧؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٤٣؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٤٦.

(٦٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٦٨) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ ابن الديبع، *قرة العيون*، ١٣٤.

(٦٩) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٧٠) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٤٣.

(٧١) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٧٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٧٣) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥.

(٧٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٧٥) أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥.

(٧٦) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٧٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ الفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ٧٧.

(٧٨) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٧٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٨٠) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٨١) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥.

(٨٢) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١-٥٢؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٥٧؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٣٤.

(٨٣) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٨٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٤٦.

(٨٥) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩.

(٨٦) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩.

(٨٧) ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٩؛ الفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ٧٧؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٤.

(٨٨) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤.

(٨٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٩٠) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩-٣٦٠.

(٩١) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٩٢) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٩٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٤:٦.

(٩٤) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في الجزيرة العربية خلال العصر العباسي (١٣٢- ٤٠٠هـ)

عبدالله بن محمد السيف
كلية الآداب – قسم التاريخ
جامعة الملك سعود

لدراسة النشاط الزراعي أهمية في معرفة الأحوال الاقتصادية للسكان بيد أننا في هذا البحث سنتناول العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري كالعوامل الإيجابية مثل خصوبة التربة، وتوفر المياه، وتدفق رأس المال، والأيدى العاملة، وتنوع الأرض الزراعية. إضافة إلى استتباب الأمن، وحسن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية الذي ساعد على تسويق الإنتاج الزراعي، وجلب بعض النباتات الجديدة. كما أننا لم نغفل العوامل السلبية التي عرقلت النشاط الزراعي في بعض الفترات في الجزيرة العربية خلال هذه الفترة كالفتن والاعتداءات القبلية، والهجرة إلى الأمصار الإسلامية بسبب القحط وسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى الكوارث الطبيعية والأوبئة والآفات مثل الزلازل، والسيول الجارفة، وزحف الرمال وتراكم الأملاح على الأرض الزراعية، ومهاجمة الجراد والقرود لمناطق الإنتاج الزراعي.

من المعروف أن الحياة السياسية في الجزيرة العربية في العصر العباسي شهدت مرحلتين: المرحلة الأولى ويمثلها العصر العباسي الأول، وفيه كانت الخلافة العباسية قوية وجميع أقاليم الجزيرة العربية تقريباً تخضع مباشرة لها عن طريق الولاة الذين يتم تعيينهم في هذه المناطق. أما الثانية فتبدأ مع ضعف الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري وظهور النزعات الاستقلالية لدى بعض الكيانات السياسية في الجزيرة العربية مثل بني زياد وبني يعفر الحواليين وبني الرسي في اليمن،إضافة إلى الدولة الأخيضرية في اليمامة والقرامطة في البحرين، والإباضية في عمان، بينما كان الحجاز يخضع أحياناً للعباسيين والفاطميين. ولا شك أن مثل هذه الاضطرابات السياسية لها تأثير على النشاط الزراعي وسنتحدث عن ذلك خلال حديثنا عن العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في كل إقليم من أقاليم الجزيرة العربية.

أولاً: العوامل الإيجابية:

لا شك أن خصوبة التربة، وتوفر المياه لهما دور كبير في إزدهار الزراعة، وقد من الله على الجزيرة العربية،

بتنوع في المناطق الزراعية الخصبة، فالأرض الزراعية كانت تتنوع بين المنطقة الساحلية والأودية والواحات في المناطق الصحراوية، إضافة إلى سفوح المناطق الجبلية، وهذا التنوع في الأرض الزراعية الخصبة أدى إلى تنوع وتكامل في الإنتاج الزراعي لأقاليم الجزيرة العربية.

لقد توفرت الأراضي الخصبة في إقليم الحجاز في واحات المدنية المنورة وأوديتها والمناطق القريبة منها مثل أراضي خيبر[١] وفدك[٢] وينبع[٣] ووادي القرى[٤]. وفي المناطق المجاورة لمكة مثل وادي مرّ الظهران[٥] وخليص[٦] وتربة[٧]. أما الطائف فيذكر عرام "أنها ذات مزارع ونخيل ... وسائر الفواكه بها"[٨]. وفي بلاد بني سليم تنتشر الواحات الخصبة مثل واحات الأتم والرحضية وصفينة والسوارقية[٩]. ومن المناطق المشهورة بخصوبة التربة رنيه[١٠] وبيشة[١١]. وفي إقليم نجد توجد الأراضي الخصبة في ضرية[١٢] وفيد[١٣] والنباج[١٤] والشريف[١٥]. وتعتبر اليمامة أهم المناطق الزراعية المعروفة في نجد بخصوبة التربة ووفرة إنتاجها من التمور والحبوب حتى كان إنتاجها الزراعي يصدر إلى الأقاليم الأخرى[١٦]. وكان لأسود بن مالك بن عبدالله (من بني يشكر بن بكر بن وائل) نخل موقوفة "تصرم في كل سنة مرتين"[١٧]. وذكر ياقوت عن السكوني قرية سدوس بأنها من أخصب قرى اليمامة[١٨]، ويعتبر وادي الخرج أحد الأودية المشهورة بخصوبة التربة، وهو "خير واد باليمامة أرضه أرض زرع ونخل"[١٩]. ويذكر المقدسي أن اليمامة بلد جيدة التمور[٢٠]. وتنتشر المناطق الخصبة في مناطق اليمامة مثل: قرقري[٢١] والوشم[٢٢] وسود باهله[٢٣]، والفقي[٢٤]. ويعتبر وادي الغيل في الفلج من أشهر المناطق الزراعية الخصبة حيث تكثر المزروعات وأشجار النخيل فيروى الأصفهاني أنه واد بين جبلين "ملآن نخيلاً"[٢٥].

أما في شرق الجزيرة العربية فكانت خصوبة التربة عاملاً مهماً من العوامل التي ساعدت على نمو النشاط الزراعي في البحرين، فمن المناطق التي كانت تمتاز أرضها بخصوبة التربة في البحرين هجر والمشقر والقطيف وجزيرة اوال[٢٦]، وجواثا،[٢٧]، ووادي الستارين[٢٨] وكذلك يبرين[٢٩]، فضلاً عن خصوبة السهول الزراعية في عمان[٣٠]، حيث يشبه المقدسي حفيت في عمان بهجر في البحرين[٣١].

أما في إقليم اليمن فيذكر بتروفسكي أن نسبة ٨٠٪ من الأراضي اليمنية في الأودية والسهول صالحة للزراعة[٣٢]. لقد انتشرت المناطق الخصبة في معظم بلاد اليمن وأوديتها كتلك التي استوطنتها قبائل حمير كوادي الجنات ومخلاف ذي جرة وخولان[٣٣] وتعتبر منطقة ذمار ومنطقة رعين والسحول من المناطق الخصبة في اليمن[٣٤] وكذلك الأراضي الخصبة شمال مدينة صنعاء. حيث يجري وادي ضهر المشهور بخصوبة تربته[٣٥]. أما في منطقة همدان فتشتهر بخصوبة التربة هنوم، وقرى حقل البون في ريدة وأثافت[٣٦]. وفي منطقة خولان في صعده كانت الأراضي الخصبة توجد في وادي علاف[٣٧]. كما اشتهرت مأرب ورمع وزبيد بخصوبة التربة[٣٨]. يقول البكري عن مدينة زبيد التي تقع على وادي زبيد. "وليس باليمن بعد صنعاء أكبر من زبيد... واسعة الرساتيق كثيرة المياه والفواكه"[٣٩]. وتعتبر منطقة خيوان من المناطق الخصبة المشهورة بالانتاج الزراعي[٤٠]. ومن المناطق الخصبة أيضاً شبوة وأبين في

منطقة حضرموت[٤١] ومنطقة نجران وقراها مثل قرية شوكان[٤٢].

لقد كانت الأرض الزراعية في جنوب الجزيرة العربية تتنوع بين المناطق الساحلية إلى سفوح المناطق الجبلية إضافة إلى الأودية والواحات. واستفاد المزارعون من زراعة سفوح المناطق الجبلية حيث توجد التربة الخصبة وذلك باستصلاحها على شكل مدرجات يقول الهمداني عن وادي الجنات: "وهو كثير الغيول والمآجل والمسايل فيه الأعناب مختلطة في أعاليه مع جميع الفواكه وأسفله جامع للموز وقصب السكر والأترج والخيار والذرة والقثاء والكزبرة وغيره"[٤٣]. كما ازدهر النشاط الزراعي في الأودية الخصبة حيث تكثر الواحات على هذه الوديان كوادي حضرموت ووادي رمع ووادي سردد ووادي نجران وغيرها[٤٤]. ولا شك أن هذا التنوع في الأرض الزراعية أدى إلى تنوع في المحاصيل الزراعية.

ومن العوامل التي ساعدت على إزدهار النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي توفر المياه من الأمطار والعيون والآبار الجوفية القريبة من سطح الأرض. لقد كانت الزراعة في الحجاز تعتمد أحياناً على الأمطار الشتوية وكانت هذه المياه تنحدر عبر الوديان الكثيرة. وكان الزراع يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه. فيروى السمهودي نقلاً عن ابن زباله أن وادي مهزور في المدينة المنورة سال في سنة ١٥٨هـ في عهد أبي جعفر المنصور حتى ارتفع الماء في المزارع إلى انصاف النخل[٤٥]. وكانت مزارع ذرة تعتمد على الأمطار حيث يذكر عرام أن "زرعها أعذاء "والعذي" هو الذي لا يسقى"[٤٦] ونظراً إلى أن الأمطار الشتوية غير كافية للزراعة لذلك اتجه السكان إلى حفر العيون والآبار التي كان بها مياه باطنية كافية لري مساحات واسعة.

لقد ذكرت المصادر عدداً من العيون التي استخدمت في العصر العباسي لري المزروعات فيروي الحربي أن ببدر عيانان جاريتان يزرع عليهما الحناء والموز والعنب والنخل[٤٧]. وفي ينبع مئة عين عذبة[٤٨]. ويذكر عرام أن الصفراء كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها[٤٩]. وفي وادي ساية أكثر من سبعين عيناً[٥٠]. أما وادي رهاط ففيه عين جارية عليها النخل والموز والأترج ويحمل ثمرها إلى ذات عرق ومكة والطائف[٥١]. وفي وادي يَلْيَل عين كبيرة عذبة تسمى عين البحير[٥٢]. كما توجد الينابيع في شَمَنْصير التي يزرع عليها النخل والتين[٥٣]. وفي قرية الفعر وقرية الشَرّع مزارع ونخيل تسقي من العيون[٥٤]. وتوجد العيون الكثيرة في قرية مَرّان[٥٥]. ووادي مرّ الظهران[٥٦]. وبَديع حيث يزرع الرمان والنخل علي هذه العيون الكثيرة[٥٧]. كما توجد العيون الخرارة الكثيرة في خيف ذي القبر وخيف النَعم[٥٨].

وفي الطائف يزرع النخيل والموز والأعناب وسائر الفواكه على المياه الجارية[٥٩]. كما توجد العيون الجارية في السقيا والكديد[٦٠] ورنيه[٦١] ورابغ وخليص[٦٢] وورقان[٦٣]. وبالقرب من الحديبية توجد المياه الجارية يقول عرام "ومياههم بُثور وهي أحساء وعيون ليست آباراً"[٦٤]. ويروي أيضاً بان مياه رنيه وبيشة وتثليث تعتمد على البثور

التي تجري تحت الحصى بالقرب من سطح الأرض "على مقدار ذراع وذراعين ودون الذراع"(٦٥).

ومع التوسع في الزراعة ازداد حفر الآبار لري المزروعات فيروي السمهودي نقلاً عن الأسدي أن في بطن نخل "أكثر من ثلاثمائة بئر كلها طيبة"(٦٦). ويستخرج أهل السوارقية الماء من آبار لهم في واد يقال له سَــوارِق، ويزرعون عليها الفواكه المختلفة(٦٧). وكان في قرية أمج عشرون بئراً لري المزروعات والنخيل(٦٨). ويدلنا على التوسع في حفر الآبار ما رواه الحربي من أنه على بعد ميل من قرية السقيا "مزارع نخل صدقات الحسن بن زيد، فيها من الآبار المطوية بالخشــب يــزرع علــيها أصناف الخضر ثلاثون بئراً"، وهناك مما أحدث في خلافة المتوكل خمسون بئراً أخرى(٦٩). ويوجــد بالسيالة آبار كثيرة(٧٠). ويذكر ابن حوقل أن نخيل المدينة تسقي من الآبار(٧١). وفي وادي الصحن مجموعة آبار متصلة ببعضها يزرع عليها الحنطة والشعير(٧٢). ويروي الحربي أن بحَاذه ست وثلاثون بئراً "وبقاع حَاذة على نحو مــيل مــنها نحو من مائتي بئر غزيرة"(٧٣). وفي وادي بيضان آبار كثيرة تزرع عليها الحنطة والشعير والقت(٧٤). كما انتشرت الآبار لري المزروعات في ا لحجاز مثل رابغ(٧٥)، وملل والأبواء والجحفة وقديد وعسفان(٧٦).

من هذه الأمثلة نلاحظ أن السكان في الحجاز اعتمدوا على مياه الآبار في إرواء مزروعاتهم فيرفعونها من الآبار بواســطة النواضح فيروي اليعقوبي أثناء حديثه عن المدينة قوله: "وبها آبار يسقى منها النخل والزرع تجرها النواضح وهي الإبل التي تعمل في الزرانيق"(٧٧).

لقد اقيمت بعض السدود والقنوات في الحجاز في القرن الأول الهجري لري المزروعات مثل (سد معاوية) وسد (سيسد) الذي أنشأه معاوية في شرق الطائف سنة ٥٨هــ. وسد عبدالله بن عمرو بن عثمان في العقيق بالمدينة وقناة عروة بن الزبير للاستفادة من سيول أودية العقيق(٧٨). ومن المحتمل أن هذه السدود والقنوات كانت تؤدي دورها في العصــر العباسي . فتذكر المصادر أن سد معاوية ﷺ الذي عمل على هيئة البركة حتى ينحبس فيه الماء كان به ماء كــثير في العصــر العباســي(٧٩). وبالقرب من الحديبية وضع حِبيس كبير من الحجارة لحجز مياه الأمطار للاستفادة منها(٨٠). ويروي الأزرقي أنه كان يوجد سد بالثُقبة في مكة امتلأ حتى فاض بمياه السيول في خلافة المأمون(٨١).

كانــت الــزراعة في الــيمامة في العصر العباسي تعتمد أحياناً على الأمطار الشتوية وكان المزارعون يسقون أراضــيهم الزراعــية من هذه المياه. يقول ابن الفقيه: "وأما حنطتهم فتسمى بيضاء اليمامة وهي عذى لا سقى"(٨٢). ويروي الأصفهاني أن رياض السُّلي (روضة سويس، روضة البديع، وروضة الطنب، وروضة الجرداء) تسقى من وادي بنبان "وهي مزارع أعذاء لبني حنيفة"(٨٣). ويذكر الهمداني أن من الأودية التي تصب في الخرج ذو أرول ومأوان وتمر وقلاب حيث تجتمع في واد واحد(٨٤).

ونظراً إلى أن الأمطار الشتوية موسمية وغير كافية للزراعة لذلك اتجه السكان إلى حفر الآبار والعيون وإقامة بعض القنوات التي ساعدت على استصلاح كثير من الأراضي الزراعية. فكانت العيون باليمامة كثيرة مثل عين هيت،

وعـــين جَو. وعين الهجرة. وعين الخَضْراْء[٨٥]. أما المياه الجارية على سطح الأرض فيذكر ابن الفقيه أن "بالمجازة نهران وبأســفلها نهر يقال له سيح الغَمر وبأعلاها قرية يقال له نعام بها نهر يقال له سيح نعام"[٨٦]. كما إنتشرت العيون في النـــباج[٨٧] والفواره[٨٨] وفيد[٨٩] التي يقول عنها البكري "وأول من حفر فيه حفراً في الإسلام ابوالديلم مولى يزيد بن عمر بن هبيرة، فاحتفر العين التي هي اليوم قائمة، وأساحها وغرس عليها".

وفي إقلـــيم الفلج باليمامة انتشرت العيون والأنهار الجارية مثل سبح الزهدمي وسيح اسحق وعين الذبّاء التي " يخـــرج منها سبعة عشر نهراً"[٩٠]. وقد عدد الهمداني عيون الفلج بقوله: "ولبنى جعدة سيحان يقال لأحدهما الرقادي والآخـــر الأطلس. وأما سيح قشير فاسمه سيح اسحق. فأما الرقادي فان مخرجه من عين يقال لها عين ابن أصبع ومن عين يقال لها عين الذباء مختلطتين وأما الأطلس فان مخرجه من عين يقال لها عين الناقة"[٩١]. ويذكر خسرو أن المياه في اليمامة وفيرة حيث تجرى في قنوات، وفي إقليم الفلج وحدها أربع قنوات لسقي أشجار النخيل[٩٢].

وفي بعـــض المـــناطق الزراعية في اليمامة كانت المياه تجري تحت الحصى بالقرب من سطح الأرض مثل عقيق الـــيمامة (عقـــيق تمرة) الذي كانت مياهه بثور توجد بالقرب من سطح الأرض (وربما أثارته الدواب بحوافرها) [٩٣]. وكـــان ماء نفي يسقي خمسة آلاف بيت وهو "أحساء تحسى من البطحاء"[٩٤]. وقد عدد الحربي الآبار والعيون التي كانت في فيد قائلاً (وبها ... ثلاث عيون، وآبار ليست بالعذبة..) [٩٥].

ومـــع التوســـع في الزراعة ازداد حفر الآبار لري المزروعات؛ ففي الفقي توجد الآبار الكثيرة[٩٦]. كما توجد الآبار في قارة العنبر. وقارة الحازمي. وغمرة. والهدّار. وآكمه والمذارع والغيل في الفلج وحولها النخيل والزروع[٩٧]. وفي سوق الفَلَج مائتان وستون بئراً[٩٨]. وعلى الرغم من أن القوافل التجارية كانت تتزود من هذه الآبار بالماء إلا أنه يـــبدو أن هذه الآبار استخدمت أيضاً في ري المزروعات والبساتين، حيث يذكر الأصفهاني أن "منازل بني قشير في ناحية السوق على شط الوادي نخيل ودور وحيطان"[٩٩]. كما كانت توجد الآبار أيضاً في قرية السّال باليمامة[١٠٠]، وكان المزارعون يرفعون المياه من الآبار بواسطة النواضح من الابل لارواء مزروعاتهم. يقول الهمداني: "الهدّار فيه نخل وزرع على آبار وسوان من الإبل"[١٠١] ويذكر خسرو أن المياه في الفلج تستخرج من الآبار بواسطة الجمال[١٠٢].

وفي شرق الجزيرة العربية كانت الأمطار موسمية وغير كافية للزراعة، لذلك اتجه السكان إلى الاستفادة من المياه الجوفـــية القريـــبة مـــن ســـطح الأرض، وذلك بحفر الآبار واستنباط العيون وشق بعض القنوات التي ساعدت على إستصـــلاح كثير من الأراضي الزراعية، يقول البكري عن البحرين "وهي بلاد سهلة كثيرة الأنهار من العيون، عذبة المياه، ينبطون الماء على القامة والقامتين"[١٠٣]. وأهم العيون في البحرين عين محلم وتقع في هجر، يقول الأزهري عنها: بأنها "عين فوارة بالبحرين وما رأيت عيناً أكثر ماء منها، وماؤها حار في منبعه، وإذا بَرَدَ فهو ماء عذب.. ولهذه العين إذا جرت في نهرها خلج كثيرة، تتخلج منها تسقي نخيل جؤاثا وعسلج وقريات من قرى هجر"[١٠٤]. ويصف الهمداني

عـــين محـــلم بالبحرين بأنها نهر عظيم وهي "في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم"[١٠٥]. ويروي ياقوت أن السري والصفا نهران يتخلجان من نهر محلم بالبحرين يسقى قرى هجر كلها[١٠٦]. ومن العيون التي كانت تعتمد عليها الزراعة عين هجر وعين متالع وعين الزارة[١٠٧]. ويذكر الهمداني[١٠٨] أن يبرين نخل وحصون وعيون جارية، أما المشقر بالبحرين ففيه "نخل لا يبرح الماء في أصوله"[١٠٩] ويقول ناصر خسرو الذي زار الأحساء سنة ٤٤٣هـــ بأن العيون بها كثيرة، وعلى كل العيون "سواقي ترفع الماء تسقي المزارع، جل ماء العيون في المدينة يستنفد في سقي المزارع الكثيرة بها"[١١٠].

أمـــا في إقليم عمان فكانت العيون العذبة توجد في بلدة (خَوْر فُكان)[١١١] وبلدة كمزار[١١٢] والسر ونزوة التي يقول المقدسي عن أهلها "شربهم من أنهار وآبار"[١١٣]. ويذكر البكري أن صحم ماؤها من العيون حيث يزرع النخل الكـــثير وقصـــب السكر[١١٤]. وللتغلب على مشكلة المياه حفر السكان الآبار لري مزروعاتهم والشرب منها. وقد أوردت المصـــادر ذكـــراً لعدد من الآبار، فيروي الهمداني أن بئر النقير بناحية البحرين على عشر قيـــم (أي قامات) وكانـــت غزيـــرة المياه[١١٥]. وفي شراف بالبحرين ثلاث آبار رشاؤها أقل من عشرين قامة[١١٦]. كما توجد الآبار الكثيرة القريبة من سطح الأرض في كاظمة ويبرين[١١٧]. يقول الشاعر المخبل القريعي:

وسارت إلى يبرين خمساً فاصبحت يخر على أيدى السقاة جدالهـــا[١١٨]

قال الأصمعي "إنما يقع الجدال على أيدي السقاة إذا نزعوا الدلاء، لأن الآبار تحت النخل"[١١٩].

أمـــا في عمان فيصف المقدسي أهل صحار بأن لهم "آبار عذيبية وقناة حلوة"[١٢٠]. كما توجد الآبار في نزوة والســـر التي تحيط بها النخيل[١٢١]. ويجمل المقدسي حديثه عن عمان قائلاً بأنها "كورة جليلة تكون ثمانين فرسخا في مثلها كلها نخيل وبساتين عامة سقياهم من آبار قريبة ينزعها البقر أكثرها في الجبال[١٢٢]. وعلى الرغم من المعلومات الجـــيدة والمفصـــلة التي أوردها المقدسي عن عمان، إلا أنه يؤخذ عليه تعميمه الواضح في قوله بأن عمان كلها نخيل وبساتين عامة.

أما في جنوب الجزيرة العربية فكانت الزراعة تعتمد على مياه الأمطار الموسمية التي تنحدر عبر الوديان الكثيرة في الـــيمن. وكان المزارعون يسقون مزارعهم من هذه المياه فيروي الهمداني أن وادي الجنات كثير المسايل[١٢٣]. وكانت بعـــض الأراضـــي البعلية لا تشرب إلا من الأمطار[١٢٤]. ويذكر الهمداني أن رحبة ورحابة تشرب من مياه الأمطار المـــنحدرة مـــن جبل دقرار، وكان بها نخل عظيم[١٢٥]. أما في منطقة همدان فكان الموز يسقى من مياه الأمطار[١٢٦]. وكان أهل مأرب يزرعون على مياه جاريه من ناحية سد مأرب[١٢٧].

ونظراً إلى أن المرتفعات الجنوبية لسلسلة جبال السروات ترتفع ارتفاعاً ملحوظاً بحيث تسقط الأمطار وتسير في أوديـــة كـــثيرة عـــلى جانبي السلسلة الجبلية سواء إلى ساحل تهامة غرباً أو إلى السهول الجنوبية أو إلى الشرق باتجاه

الصحراء (الربع الخالي) [١٢٨] لذلك فكر السكان في تنظيم هذه المياه وخزنها والاستفادة منها طول العام. وقد اشتهرت اليمن بتطوير نظام الري وإنشاء عدد من السدود لتخزين مياه السيول حيث كانوا يبنون بالحجارة سدوداً في الممرات الضيقة من الوديان ويعملون لها مقاسم في كل طرف تصرف المياه إلى الأراضي على جانب الوادي ويحتفظون بكميات منه للري بين موسم وآخر. كما أن حجز المياه وخزنها يساعد على ارتفاع منسوب المياه الجوفية في الوديان والأراضي السهلية. ومن أهم هذه السدود سد الخانق بصعدة وسد ريعان في وادي ضهر وسد العرائس في لحج وسدود أودية بيحان وجردان ووادي عمد وحقل يحضب[١٢٩] ويتحدث الهمداني عن النظام الذي كان متبعاً في الري بمثال وادي ضهر حيث كانت تروى المزارع بالترتيب وهو "أن يشرب الأول فالأول ولا يؤثر فيه سلطان على يتيم ولا ذمي" وكان بعض خدم السلطان جر الغيل إلى عنب السلطان بغير علم الدائل فهدم غروسه كلها "ولم يغير عليه السلطان"[١٣٠].

لقد ترتب على ذلك أن أصبحت بعض أودية اليمن من المناطق الزراعية المشهورة مثل وادي الجنات ومخلاف ذي جرة وخولان الذي وصف بأنه خزانة اليمن[١٣١] وكذلك ذمار ورعين والسحول التي وصفت بأنها مصر اليمن[١٣٢].

ونظراً لاختلاف المناطق الزراعية في اليمن -كما أسلفنا- لذلك اختلفت كميات الأمطار الساقطة عليها فأصبحت في بعض المناطق غير كافية للزراعة لذلك اتجه السكان إلى الاستفادة من العيون الجارية فيروي الهمداني أن قرية شبام أقيان فيها عيون تسقي البساتين.[١٣٣] وفي قريتي الهجرين "غيل يصب من سفح جبل يشربونه". وزروعهم النخل والبر والذرة[١٣٤]. كما توجد الغيول في وادي الجنات ووادي ضهر[١٣٥]. وفي المذيخرة عين يسيل منها نهر يسقي عدة قرى في اليمن[١٣٦]. وفي سنة ١٨٣هـ تولى ولاية صنعاء محمد بن خالد البرمكي فحفر غيل البرمكي يقول الرازي "وهو الذي أحدث الغيل بصنعاء اليوم... وهو نهر بصنعاء منفعته ظاهرة بها" فكان يسقى بساتين صنعاء وبعض القرى القريبة منها مثل قرية الرحبه ووادي الروضة[١٣٧]. وكان في الخريمة بساتين ومياههم سيح[١٣٨]. ويذكر الهمداني ان دامغ القريبة من ذمار كثيرة الأنهار الجارية[١٣٩].

وفي بعض المناطق اتجه السكان إلى حفر الآبار للاستفادة منها في الشرب والزراعة ففي وادي السر كانت توجد العيون والآبار[١٤٠]. ويذكر الهمداني ان ذمار "بها زروع وآبار قريبة ينال ماؤها باليد"[١٤١]. ويقول البكري عنها "ومياههم عيون جارية، وآبار قريبة ينال ماؤها باليد وآبارهم قريبة الارشيه"[١٤٢]. وفي برط تنعمه استخدم المزارعون النواضح لرفع المياه من الآبار يقول الهمداني عن برط: "وزروعه كثيرة أعقار وعلى المساني وهي النواضح"[١٤٣]. وفي أواخر القرن الرابع الهجري حفر حسين بن سلامة الآبار في اليمن[١٤٤]. وكانت بئر سراقة لمراد في أسفل الجوف "وماؤها عذب فرات، لا تكدرها الدلاء..."[١٤٥].

لقد قسم ابن رسته ضياع اليمن وطريقة ريها إلى عدة أقسام: "صنف منها أعذاء وصنف منها على العيون

وصـــنف على الآبار يستقي منها بالإبل والبقر وصنف وهي اسراها وأكثرها قيمة على ماء السد سكر قد اتخذ على فوهة جبال قد احاطت بمواضع تقرب من ضياعهم قد نصبوا على أسافل ذلك السد أفواها يجرون منها المياه في أنهار قد احتفروها إلى ضياعهم"[١٤٦].

ويعتـــبر رأس المـــال وتدفقـــه من العوامل المساعدة على تقدم الزراعة وازدهارها. وقد تضخمت الثروات في العصرين الراشدي والأموي لدى الحجازيين نتيجة للفتوحات الإسلامية وتدفق الأموال على الحجاز كذلك الأعطيات الســخية التي درج خلفاء بني أمية على إعطائها للحجازيين. وكان العطاء يصرف لأغلب السكان، ولقد ترتب على هذا النمو السريع للثروات ارتفاع مستوى المعيشة وازدهار الزراعة نتيجة للطلب على المنتجات الزراعية[١٤٧].

وفي العصـــر العباســـي اهـــتم العباســـيون بالحجاز، وبدأت الأموال تتدفق على سكانه، سواء من العطاء أو الأعطيات، فيذكر الزبير بن بكار أن الخليفة أبا جعفر المنصور حج في إحدى السنوات وأعطى كل واحد من أشراف القرشيين ألف دينار "ولم يترك أحداً من أهل المدينة إلا أعطاه، إلا أنه لم يبلغ بأحد ما بلغ بالإشراف، فكان ممن أعطى الألف دينار هشام بن عروة. وأعطى قواعد قريش صحاف الذهب والفضة وكساهن، وأعطى بالمدينة عطايا لم يعطها أحد كان قبله"[١٤٨].

ويروي الأصفهاني أن والي الخليفة أبي جعفر المنصور على مصر يزيد بن حاتم المهلبي أعطى ابن المولى محمد بن عبدالله بن مسلم عشرة آلاف دينار فاشترى بها ضياعاً تغل ألف دينار[١٤٩]. وعندما اشتكى شاب من ولد عمرو بن حـــزم إلى المنصور ظلم الأمويين لآل حزم باستصفاء أموالهم أمر أبوجعفر المنصور بإعطاء هذا الشاب عشرة آلاف درهم وكتب إلى عماله "أن ترد ضياع آل حزم عليهم ويعطوا غلاتها في كل سنة من ضياع بني أمية"[١٥٠].

ومـــن المحتمل أن الخليفة أبا جعفر المنصور حرم بعض سكان الحجاز من العطاء نتيجة لاشتراكهم في الثورات التي قامت ضد العباسيين مثل ثورة محمد ذي النفس الزكية. فلما جاء الخليفة المهدي أمر بإعادة العطـــاء إلى من حرم مـــنه[١٥١]. فيذكر ابن بكار أن المهدي ولى المغيرة بن حبيب العطاء لأهل المدينة وأعطاء ألف فريضة يفرضها لمن شاء مـــن أهـــل المدينة[١٥٢]. وفي سنة ١٦٠هـــ حج المهدي فقسم في مكة والمدينة أموالاً عظيمة "بلغت ثلاثين ألف ألف درهـــم. حملـــت معه (ووصله) من مصر ثلثمائه ألف دينار. ومن اليمن مائتا ألف دينار فقسم ذلك كله. وفرق من الثـــياب مائـــة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب"[١٥٣]. وعندما وفد عليه الحسين بن علي بن الحسن أعطاه أربعين ألف ديـــنار[١٥٤]. وقدم عليه بعض سكان المدينة في خلافته فأمر لكل رجل منهم بسبعمائة دينار[١٥٥]. وفي سنة ١٦٤هـــ قســـم الخلـــيفة المهدي على يد المغيرة بن حبيب أموالاً على أهل المدينة حسب مكانتهم الاجتماعية شملت بني هاشم وقريش والأنصار والموالي . ويذكر الزبير بين بكار أن عدد الذين استفادوا من هذه الأموال ثمانين ألف إنسان أعلاهم خمسة وستون ديناراً وأقلهم أربعة دنانير[١٥٦]. وعندما قدم المهدي المدينة وزع على الناس الأموال فأصاب الرجل من

قريش ثلاثمائة دينار[١٥٧]. ويروي الأصفهاني أن الخليفة المهدي عندما مدحه الشاعر محمد بن عبدالله بن مسلم (بن المولى) أمر له بعشرة آلاف درهم وألحقه وأبناءه في شرف العطاء[١٥٨].

واستمرت الأعطيات تتوالى على سكان الحجاز في عهد هارون الرشيد فيروى ابن بكار أن الزبير بن حبيب وفد عليه حين ولي الخلافة فأعطاه أربعة آلاف دينار[١٥٩]. وفي سنة ١٧٠هـ قسم أموالاً كثيرة في أهل مكة والمدينة[١٦٠]. وفي سنة ١٨٦هـ حج الخليفة هارون الرشيد ومعه إبناه محمد الأمين وعبدالله المأمون فوزع العطاء في المدينة ومكة للرجال والنساء حتى بلغ ما انفق "ألف ألف دينار وخسمين ألف دينار"[١٦١] كما فرض العطاء لخمسمائة من وجهاء موالي المدينة وألحق بعضهم في شرف العطاء[١٦٢]. وفي سنة ١٨٨هـ حج الرشيد وأعطى أهل المدينة نصف العطاء[١٦٣]. واستمرت الأعطيات تنهال على سكان الحجاز من الخلفاء العباسيين فيروي اليعقوبي أن الخليفة الواثق فرق أموالاً جمة بمكة والمدينة وسائر البلدان على الهاشميين وسائر قريش والناس[١٦٤]. وفي عهد المتوكل أخذ محمد بن عبدالله بن طاهر حين حج بالركب العراقي سنة ٢٤٦هـ "ثلاثمائة ألف دينار لأهل مكة، ومائة ألف دينار لأهل المدينة، ومائة ألف لإجراء الماء من عرفات إلى مكة"[١٦٥].

ولا ريب أن هذه الأموال التي تدفقت على الحجاز في العصر العباسي ساعدت على نمو الزراعة. إضافة إلى ما ورثه الحجازيون من أملاك وثروات عن آبائهم. ولقد ترتب على نمو الثروات ارتفاع مستوى المعيشة، وازدهار الزراعة نتيجة للطلب على المنتجات الزراعية، فتوسع المزارعون وأصّلحوا كثيراً من الأراضي، كما جلبوا بعض النباتات الجديدة.

واليد العاملة من العوامل الأساسية في نهضة الزراعة، ونحن نعلم أن الرقيق تدفق بشكل كبير على الحجاز في أواخر العصر الراشدي وخلال العصر الأموي، ومن ضمن المجالات التي عمل فيها الرقيق الزراعة. والذي لا نشك فيه أن بعض هؤلاء الرقيق ساهموا في تحسين أساليب الزراعة بخبرتهم ومعرفتهم لبعض النباتات التي جُلبت فيما بعد لتزرع في الحجاز[١٦٦].

وفي العصر العباسي وردت إشارات تدل على أن الرقيق كان موجوداً بكثرة في الحجاز[١٦٧]. وكان يعمل بجانب أسياده في المزارع[١٦٨]. ويقول الجاحظ عن بني سليم وأنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروميين والصقالية مع نسائهم[١٦٩]. ويذكر ابن حوقل أن المدينة لها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار يسقون بها العبيد[١٧٠]. ويروي الطبري أن داود بن عيسى الوالي العباسي على مكة جمع موالي بني العباس وعبيد حوائطهم لمناهضة ثورة الطالبيين[١٧١].

أما في اليمامة فكان الرقيق يعمل في المزارع في العصر الأموي. حتى أنه كان في الخضارم وحدها أربعة آلاف رقيق يعملون وأسرهم على استصلاح الأراضي واستثمارها لزيادة الإنتاج الزراعي[١٧٢]. ومن المحتمل أن الرقيق في

العصـــر العباســـي اســـتمر يعمـــل في المجال الزراعي، حيث وردت اشارات في المصادر تدل على وجوده بكثرة في الـــيمامة[١٧٣]. ويروي الخطيب البغدادي أن الخليفة أبا جعفر المنصور طلب من والي اليمامة السرّي بن عبدالله الهاشمي أن يشـــتري له رقيقاً من رقيق اليمامة للعمل كبوابين له، فاشترى مائتي غلام من اليمامة[١٧٤]. ويروي الحربي أن قرة ابـــن جابـــر أحد سكان قرية أضاح قال: "كنا نضح على حرث لنا بناحية أضاح، ولنا غلام ونحن نعمل في حرثنا، وكان يلح على رطانة بالزنجية حتى رويناها قال: وقف علينا زنجي قد إستعرب وفهم"[١٧٥].

ويستفاد من هذا النص أن الرقيق كان يعمل في اليمامة في الزراعة، كما أن هناك رقيقاً ممن تعلموا اللغة العربية وفهموها، وبالمقابل وجد رقيق جديد لا يتكلم العربية.

أمـــا في شـــرق الجزيـــرة العربية فهناك بعض الروايات التي تدل على أن الرقيق عمل في الزراعة فيذكر ناصر خسرو[١٧٦] أن أبا سعيد الجنابي اعتنى بإصلاح الأراضي في البحرين، ووفر لها الأيدي العاملة حيث كان لديه ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي يعملون في الزراعة. ويروي ابن الأثير[١٧٧] أن قبائل المنتفق هاجمت في سنة ٣٧٨هـــ القطيف فنهبت مواشيها وعبيدها وأموالها. ومن الراجح أن العبيد كانوا يعملون في الزراعة في عمان نظراً لكثرة الزنوج فيها في القـــرن الـــرابع الهجري[١٧٨]. ويذكر ابن الجوزي[١٧٩] أن حريقاً وقع في عمان سنـــة ٣٢٤هـــ "فاحترق من العبيد الســـود سوى البيض إثنا عشر ألف" وعلى الرغم من المبالغة في هذا الرقم إلا أنه يدلنا على أهمية الرقيق وكثرتهم في عمان في القرن الرابع الهجري[١٨٠].

أما في جنوب الجزيرة العربية فاشتغل بالزراعة بعض العرب والموالي والرقيق. فالقبائل العربية في اليمن استقرت في مـــناطقها وزاولـــت الزراعة فيها[١٨١]. كما زاول الأبناء في اليمن الزراعة في أخصب أودية اليمن وسكنوا قراها. وكان تركيزهم على الأراضي القريبة من صنعاء المعروفة بخصوبة التربة ومن هذه المناطق بني بهلول وبيت بوس وبعض الأراضي الواقعة بين صنعاء ومأرب، حيث عرفت بانتاجها الزراعي الكبير حتى قيل عنها بأنها خزانة اليمن[١٨٢].

وســـاهم الرقـــيق في اليمن في النشاط الزراعي مع سادتهم، وتشير المصادر إلى كثرة الرقيق في اليمن في العهود الإسلامية الأولى[١٨٣]. ومن الراجح أن هؤلاء الرقيق إستمر وجودهم في العصر العباسي لأن المقدسي يذكر أن اليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق[١٨٤].

لقـــد ساعد استتباب الأمن في الجزيرة العربية خلال معظم فترات الحكم العباسي على ازدهاد الزراعة وتسويق المنـــتجات الزراعية حيث أصبحت الطرق آمنة. وتنقل الأشخاص والسلع دون قيود فيروي الرازي أن حماد البربري مـــولى هارون الرشيد تولى ولاية اليمن سنة ١٨٤هـــ فقضى على الفتن والثورات وتتبع الأعراب وأمن الطرقات حتى أصـــبحت المنـــتجات الزراعية تصل إلى الأسواق[١٨٥]. كما قام بعض الولاة في اليمن بإصلاح الطرقات وحفر بعض الأنهـــار التي يستفيد منها السكان مثل محمد بن خالد البرمكي الذي حفر غيل البرمكي بصنعاء وأصلح الطرق المؤدية إلى مكة[١٨٦].

وعلاوة على ما تقدم فان الجزيرة العربية تمتعت بموقع إستراتيجي هام حيث كانت تمر به شرايين التجارة العالمية في ذلك الوقت، كما ارتبط بشبكة من الطرق البرية الداخلية والخارجية مع الأقاليم الأخرى. ولا شك أن حسن الموقع الجغرافي من ناحية ساعد على تسويق المنتجات الزراعية محلياً وخارجياً مثل تصدير التمور من اليمامة والبحرين إلى الحجاز واليمن(١٨٧) وتصدير الفواكه من اليمن إلى الحجاز(١٨٨). ويذكر البكري أن "ميرة البحرين يجلب إليها من فارس، ويجلب إلى فارس منها التمر والدبس".(١٨٩) كما تم جلب بعض المزروعات الجديدة من ناحية أخرى مثل إستيراد بعض الحمضيات من الهند إلى عمان في القرن الرابع الهجري ثم نقلها فيما بعد إلى العراق والشام فيذكر المسعودي "أن شجر النارينج والأترج المدور، حمل من أرض الهند إلى أرض غيرها بعد الثلثمائة، فزرع بعمان، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس"(١٩٠).

ثانياً: العوامل السلبية:

لقد ذكرنا أهم العوامل التي ساعدت على نمو الزراعة وتطورها في الجزيرة العربية في العصر العباسي، بيد أننا لا ننكر أن هناك بعض العوامل التي عرقلت الزراعة وحدت من تطورها في بعض الفترات فقد شهد إقليم الحجاز في العصر العباسي بعض الثورات والاضطرابات الداخلية كثورة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥هـ ضد الدولة العباسية وقد أيدته بعض القبائل في الحجاز مثل "جهينة ومزينة وسليم وبنو بكر وأسلم وغفار". إلا أن هذه الثورة أخمدت على يد القائد العباسي عيسى بن موسى بعد أن قتل محمد بن عبدالله والكثير من أتباعه(١٩١).

وفي سنة ١٦٩هـ ثار الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ضد الدولة العباسية وأيده أناس كثير من أهل الحجاز. إلا أن هذه الثورة –أيضاً– فشلت وقتل ا لحسين مع عدد من مؤيديه(١٩٢). ولا ريب في أن هذه الفتن والثورات كان لها تأثير على نمو الزراعة. لأن بعض من يقتل في هذه الحروب كان يعمل في الزراعة فيروى الطبري أن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما أعلن الثورة ضد العباسيين سنة ٢٠٠هـ وقف ضده موالي بني العباس وعبيد الحوائط من عبيد العباسيين(١٩٣). بل امتدت يد التدمير في بعض الأحيان إلى المزارع نفسها فيروي الطبري أن الوالي العباسي العمري عندما علم بمقتل الحسين بن علي "وثب على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممن خرج مع الحسين. فهدمها وحرق النخل"(١٩٤). ويروي السمهودي أن الخليفة المتوكل أرسل أبا الساج في جيش ضخم لاخماد ثورة محمد بن صالح بن عبدالله بن موسى الحسني فهزمهم وقتل بعضهم "وأخرب سويقة وعقر بها نخلاً كثيراً"(١٩٥). ويذكر الطبري في حوادث سنة ٢٣٠هـ قائلاً: "وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب، وغلظ أمر بني سليم، فأستباحت القرى والمناهل، فيما بينها وبين مكة والمدينة." بيد أن الخليفة العباسي الواثق أرسل لهم القائد بغا الكبير فتمكن من هزيمتهم(١٩٦).

أما في اليمامة فأثرت الإضطرابات الداخلية على النشاط الزراعي ففي سنة ٢٣٢هـ كانت قبائل بني نمير تغير

عـــلى المناطق القريبة منها في اليمامة . فكتب الخليفة الواثق إلى قائده بغا الكبير يأمره بالقضاء على فتنتهم فسار إليهم وقـــتل منهم "زهاء ألف وخمسمائة رجل" وكان بعضهم "أصحاب نخل وشاه"[١٩٧]. ويروي الأصفهاني أن الحروب وقعـــت بين جعدة وقشير بسبب الخلاف على سيح اسحاق "وهو نهر مخرجه من قناة، وهو بطيحة واسعة، وعليه من الـــنخل ما لا يدري ما مبلغه"[١٩٨]. وعندما استولى بنو الأخيضر على اليمامة كانت سياستهم الداخلية تتسم بالجور وســـوء التعامل، يقول ابن حوقل وفي سنة ٢٣٨هـــ في عهد الخليفة المتوكل دخل محمد بن يوسف الحسني الأخيضر اليمامة فجلا أهلها بسبب "جوره إلى أرض مصر والمعدن في آلاف كثيره"[١٩٩] ويقول اليعقوبي بأن أكثر من بالعلاّقي في مصر "قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية"[٢٠٠]. وكانت قُرّان من المناطق الزراعية في اليمامة وعندما استولى بنو الأخيضر على اليمامة وعاملوا أهلها معاملة سيئة ترك أهل قران بلدهم وهاجروا في سنة ٣١٠هـــ من اليمامة إلى البصرة "لحيف لحقهم من ابن الأخيضر في مقاسماتهم وجدب أرضهم..)" [٢٠١].

فهـــل كانـــت هذه الهجرة من بعض قبائل اليمامة مثل بني حنيفة إلى مصر والعراق بسبب الظلم الأخيضري والقحط وتغيير نظام الأرض الزراعية السائد إلى نظام المقاسمة وهو تعبير عن تذمر هذه القبائل من حكم الأخيضريين بســـبب تدهور العلاقات معهم، أم أن هذه الهجرة كان لها دوافع أخرى كالاضطرابات القبلية[٢٠٢]، وسوء الأوضاع الاقتصـــادية في الـــيمامة عكـــس الأقاليم التي تمت الهجرة إليها والتي كانت تتمتع بوضع اقتصادي جيد حيث يذكر اليعقوبي هجرة بني حنيفة إلى وادي العلاقي بمصر أحد المراكز المهمة لإنتاج الذهب حيث يقول: "وأكثر من بالعلاقي قـــوم مـــن ربـــيعة من بني حنيفة، من أهل اليمامة، إنتقلوا إليها بالعيالات والذرية ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر"[٢٠٣].

ولا شـــك أن هذه الهجرة كان لها تأثير سلبي على النشاط الزراعي في إقليم اليمامة، والتي كانت الزراعة أهم الجوانب الاقتصادية فيها.

وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو اليمامة. وذكر أن جيشـــاً من العرب مر بالفلح وطلب من أهلها خمسمائة منّ من التمر، فلم يوافقوا على ذلك فحاربهم الجيش وقتل "من أهل القلعة عشرة رجال وقلعت ألف نخلة"[٢٠٤].

وعـــلى الرغم من المبالغة في هذه العبارة إلا أنها تدلنا على كثرة أشجار النخيل في اليمامة، وأثر الاضطرابات الداخلية على الزراعة.

أمـــا في شرق الجزيرة العربية فأدت الفتن والاضطرابات الداخلية التي راح ضحيتها عدد من العاملين في المجال الـــزراعي إلى تدهـــور النشاط الزراعي ففي سنة ١٣٤هـــ مثلاً قتل عدد كبير من أهل عمان بالقرب من جلفار في معركة ضد الدولة العباسية[٢٠٥]، وفي سنة ١٥١هـــ ثار أهل البحرين ضد الدولة العباسية، فسار إليهم عقبة بن سلم

والي البصـــرة مما أدى إلى مقتل عدد منهم وأسر عدد آخر[٢٠٦]. كما تأثرت بعض مدن شرق الجزيرة العربية لهجوم القـــرامطة عليها مثل مدن صحار وهجر والقطيف ويبرين، مما أدى إلى تشريد عدد من سكانها ومقتل آخرين[٢٠٧]، يـــروي المسعودي أن أبا سعيد الجنابي القرمطي خرب في سنة ٢٨٧هـــ قرية يبرين التي كانت كثيرة النخل والعيون، فـــيقول "فأبـــاد أهـــلها وكانـــت مـــن أطيب بلاد الله وأكثرها أهلاً وعمائر ونخلاً وشجراً، فلا أنيس بها إلى هذا الوقت"[٢٠٨].

ومن المشكلات التي كانت تواجه الزراعة الاعتداءات القبلية على المناطق الزراعية، فيذكر ناصر خسرو أن أحد أمراء الأعراب هاجم في سنة ٤٤٣هـــ كثيراً من المزارع والنخيل في القطيف[٢٠٩].

أمـــا في جنوب الجزيرة العربية فهناك بعض العوامل التي أثرت على تطور الزراعة وحدت من نشاطها في بعض الفترات وأهمها الفتن الداخلية والثورات التي أدت إلى تدمير بعض المناطق الزراعية فيروي الهمداني أن رحبة ورحابة في مخلاف مأرب كان بها نخل عظيم وكان أكثر تمر صنعاء منها "ثم اخربتها الفتنة"[٢١٠]. وفي سنة ١٩٩هـــ قدم إبراهيم ابـــن موســـى بـــن جعفر العلوي إلى اليمن فناصرته بعض قبائل خولان فأخرب "سد الخانق بصعدة وكان عليه من البساتين والحدائق ما يطول ذكره"[٢١١].

وفي سنة ٢٧٠هـــ تدهورت الأوضاع السياسية في اليمن بعد مقتل محمد بن يعفر الحوالي فاعتدت القبائل على بعضـــها[٢١٢]. كمـــا أن موالي بني يعفر الطريفين استولوا على بعض القرى في اليمن، وفرضوا عليها ضرائب باهظة، وتحكمـــوا في رقـــاب أهلها، وقام أحدهم وهو إبراهيم بن خلف ببيع بعض السكان من القرى التي استولى عليها في سوق النخاسة في مكة[٢١٣]. وفي سنة ٢٨٥هـــ سار الهادي يحيى بن الحسين إلى نجران فقطع أشجار النخيل والأعناب في قـــرية شـــوكان[٢١٤]. وتكـــرر ذلـــك في ســـنة ٢٩٢هـــ عندما ثار بنو الحارث بنجران حيث حاصرهم وقطع نخيـــلهم[٢١٥]. كما استولى أصحاب الهادي علي وادي علاف في مخلاف صعدة سنة ٢٩٠هـــ. وقطعوا أعناب أهله واخـــربوا مـــنازلهم[٢١٦]. وعـــندما هاجم القرامطة اليمن سنة ٢٩٩هـــ. قصدوا بعض مدنها واستباحوها مثل مدينة صنعاء[٢١٧]، ومدينة زبيد مما أدى إلى تشريد عدد من سكانها ومقتل آخرين[٢١٨].

كمـــا أن طبـــيعة المناطق الجبلية جعلت المزارع في جنوب الجزيرة العربية يواجه صعوبات بسبب جرف مياه الأمطـــار للتربة. لكن أهل اليمن استطاعوا الاستفادة من هذه المرتفعات وذلك بزراعتها على شكل مدرجات . كما أن الســـيول الجارفـــة التي تجرف التربة وتغمر المنتجات الزراعية، وتشرد الناس، وتدمر طرق المواصلات من العوامل الســـلبية التي واجهت المزارع في جنوب الجزيرة العربية مثل السيل المدمر الذي داهم صنعاء سنة ٢٥٩هـــ، ويعرف بسيل يعمد "خرب دوراً كثيرة، واحتمل أموالاً وعالماً لا تكاد تحصى"[٢١٩]. وفي سنة ٢٦٢هـــ سقطت الأمطار على صـــنعاء بغزارة مما أدى إلى خسائر بشرية ومادية كبيرة حيث اخرب الدور واتلف الأموال، وأهلك الناس[٢٢٠]. وقد

شـــهدت الحجـــاز بعض السيول الجارفة فيروى الأزرقي أن مكة دهمها سيل عظيم في سنة ١٨٤هـــ فذهب بالناس وامتعتهم وغرق الوادي في أثره. وفي سنة ٢٠٢هـــ أصاب مكة سيل عظيم هدم الدور وقتل الأنفس "وأصاب الناس بعـــده مـــرض شديد من وباء وموت فاش"[٢٢١]. وفي سنة ١٩١هـــ وسنة ٢٥١هـــ بلغ السيل في عمان مواضع لم يبلغها من قبل[٢٢٢].

ومن المشكلات التي حدت من توسع الزراعة وتطورها في الحجاز، زحف الرمال على الأرض الزراعية فيروي عرام أثناء حديثه عن يَلْيَلْ بأنها عين غزيرة الماء تجرى في رمل فلا تمكن الزراعة عليها إلا في مواضع يسيرة مـــن أحناء الرمل[٢٢٣]. وفي شرق الجزيرة العربية تتحول الكثبان الرملية من مكان إلى آخر بفعل الرياح والعواصف، يقول البكري "وبلاد البحرين منهالة الكثبان جارية الرمال حتى يسكروه بسعف النخل، وربما غلب (عليهم) في منازلهم، فاذا أعياهم حملـــوا النقوض وتحولوا"[٢٢٤]. وقد أثرت الرمال على الطرق البرية فكان الطريق البري من عمان إلى البحرين تغطيه الرمال في معظم الأحيان[٢٢٥].

ولا ريـــب أن شدة الحرارة في فصل الصيف وارتفاع نسبة الرطوبة وتراكم الأملاح في الأرض الزراعية بسبب شـــدة التبخير، كانت من المشكلات التي تواجه المزارعين. يقول البكري عن أهل البحرين "وبساتينهم على نحو ميل مـــنها، ولا يأتونها إلا غدوا أو رواحاً لإفراط حر الرمضاء"[٢٢٦]. ويقول المقدسي عن أهل عمان بأنه يترل عليهم في اللـــيالي شـــبه الدبس[٢٢٧]. وقد وردت إشارات تدل على تراكم الأملاح في بعض مناطق الإنتاج الزراعي في الجزيرة العربية مما يؤثر على المحاصيل الزراعية[٢٢٨]. يقول السجستاني: "إنما يستحر الفغا بالأرض السبخة الملحة الماء ويتجنب العذاب"[٢٢٩]. ويروي ابن سعد نقلاً عن الواقدي أن سعيد بن محمد بن أبي زيد كانت له "أريضة سبخة تغل في السنة دينارين"[٢٣٠].

وتعتـــبر الزلازل من الكوارث الطبيعية التي تعرض لها جنوب الجزيرة العربية وأثرت على النشاط الزراعي فيه مـــثل الزلزال الذي تعرضت له صنعاء وعدن سنة ٢١٢هـــ حيث سقطت المنازل. "وخربت القرى، وهلك خلق لا يحصـــى"[٢٣١]. وفي سنة ٢٤٥هـــ تعرض وادي ضهر القريب من صنعاء والمشهور بإنتاجه الزراعي إلى زلازل شديدة يقـــول الهمـــداني "وكـــان هذا الغيل في الجاهلية ضعف ما هو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض مـــياته"[٢٣٢]. وتؤثـــر قلة الأمطار على الزراعة، فإذا قلت الأمطار أصاب الناس القحط والمجاعات وهلكت المواشي فـــيروي الهمـــداني أن اليمن تعرضت للقحط سنة ٢٦٠هـــ يقول: "ومن ولد بحير أحمد بن حفص وأهل بيته بوادي ضـــهر، وكـــان أحمد والي صنعاء لمحمد بن يعفر، وفي أيامه قحطت صنعاء في سنة الستين ومائتين فسميت شدة ابن حفـــص، وكان حسن الأثرة بها"[٢٣٣]. كما اشتد القحط في اليمن سنة ٢٩٠هـــ وسنة ٢٩١هـــ حتى خربت عدة قـــرى، ومات خلق كثير يقول الهمداني: "أن آل أبي حبيش فنوا في حطمة التسعين ومايتين،في اليمن، بعد أن نفدت أموالهم، وبذلوا وجوههم للمسألة"[٢٣٤].

وعندما قلت الأمطار في شرق الجزيرة العربية أصاب الناس القحط والمجاعات وقلة الإنتاج الزراعي، فيروي ابن الجوزي في أخبار سنة ٣٢٤هـ قوله "وردت الأخبار عن الأحساء وعن تلك البلاد أن الأقوات عدمت، فأضطر أهل بادية فيها إلى أكل مواشيهم. وفارق أهل البوادي منازلهم"[٢٣٥]. وكانت تفرض بعض الضرائب على الزراعة فيروي المقدسي أنه كان "يؤخذ بعمان من كل نخلة درهم"[٢٣٦]. ولا ريب أن هذه الضريبة تعتبر مرتفعة إذا عرفنا كثرة أشجار النخيل في شرق الجزيرة العربية، ويعتبر الجراد من الآفات التي كانت تهاجم المناطق الزراعية في الجزيرة العربية وتتلف المحاصيل الزراعية[٢٣٧]. وكانت القرود في جبال عمان تضر بأهل عمان، وتفسد الإنتاج الزراعي[٢٣٨] ولا ريب أن القرود الكثيرة في جبال السروات كانت تضر بالمزارعين وتفسد عليهم إنتاجهم من الأعناب وقصب السكر وغيرها من الإنتاج الزراعي[٢٣٩]. وكانت بعض المناطق الزراعية وبئة على الرغم من أنها منتجة يقول الرازي عن أبين: "أرض ميرتنا وريفنا وهي وبئة شديدة الوباء"[٢٤٠]. وكانت بعض جذوع الأشجار في منطقة نجران تتعرض للتسوس بسهولة يقول الجاحظ "ولهو أسرع فيه من الأرضة في الجذوع النجرانية"[٢٤١]. ويعتبر القمل من الآفات التي كانت تهاجم المناطق الزراعية ففي سنة ٢٣٤هـ كثر القمل (قمل الزرع)، برستاق اليمن الكبرى حتى يئس الناس من غلاتهم[٢٤٢].

الخاتمة:

تلك هي أهم العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي سواءً كانت إيجابية أم سلبية بيد أن العوامل الإيجابية كانت أكثر تأثيراً على النشاط الزراعي من العوامل السلبية، كما أن التفكك السياسي الذي أصاب الجزيرة العربية، بعد ضعف الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وبروز الكيانات السياسية المتعددة في القرنين الثالث والرابع للهجرة لم يؤثر كثيراً على النشاط الزراعي لأن المعلومات المتوفرة في المصادر تشير إلى ازدهار الزراعة وتنوع الإنتاج الزراعي في مختلف أقاليم الجزيرة العربية[٢٤٣].

التعليقات

(١) ياقوت، *معجم البلدان*، لا يبزج، ١٨٦٧م، ٣: ٦٨٢؛ السمهودي، *وفاء الوفاء* (بيروت: ١٣٩٣هـ)، ٤: ١٢١.

(٢) الأصفهاني، *بلاد العرب* (الرياض: ١٣٨٨هـ)، ٧٦.

(٣) المقدسي، *أحسن التقاسيم* (ليدن: ١٩٠٦م)، ٣٨؛ البكري، *معجم ما استعجم* (القاهرة: ١٣٦٤هـ)، ٢: ٦٥٦.

(٤) ابن حوقل، *صورة الأرض* (ليدن: ١٩٧٦م)، ١٣.

(٥) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: ١٣٩٤هـ)، ٥١٤.

(٦) الحربي، *المناسك*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: ١٣٩٨هـ)، ٤٦١.

(٧) الأصفهاني، *بلاد العرب* (الرياض: ١٣٨٨هـ)، ١٠٩؛ ياقوت، المصدر السابق، ١: ٨٣٤.

(٨) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: ١٣٩٤هـ)، ٤٢٠.

(٩) المصدر نفسه، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٦.

(١٠) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك* (لندن: ١٨٨٩م)، ٤٣١.

(١١) عرام، المصدر السابق، ١٩٤.

(١٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٨٦٠.

(١٣) المصدر نفسه، ١٠٣٣، وفيد لا تزال إلى العصر الحاضر على السفح الشرقي لجبل سلمى المعروف في وسط جزيرة العرب. وعن مظاهر الحضارة في مدينة فيد خلال العصر العباسي؛ انظر: عبدالعزيز السنيدي، *مظاهر الحضارة في مدينة فيد خلال العصر العباسي*، مجلة الدارة، العدد الثالث (الرياض: ١٤٢٣هـ)، ٧١ وما بعدها.

(١٤) الحربي، *المناسك*، ٥٨٧، ٦٢٢.

(١٥) ياقوت، معجم البلدان، ٣: ٧٠٤.

(١٦) ابن هشام، *سيرة النبي*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: ١٣٥٦هـ)، ٤: ٣١٦- ٣١٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، (القاهرة: ١٣٥٦هـ)، ٣: ٣٥٣؛ ويذكر ابن سعد أن ثمامة لما أسلم ضيق "علي قريش فلم يدع حبة تأتيهم من اليمامة"، (بيروت: انظر الطبقات، دار صادر)، ٥: ٥٥٠؛ والميرة جلب الطعام للبيع انظر: ابن منظور، *لسان العرب* (طبعة بولاق)، ٧: ٩٣؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٣: ٣٥٢.

(١٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب* (القاهرة: دار المعارف)، ٣٠.

(١٨) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ٤٨؛ المشترك وضعا، ٣٤٥؛ وسدوس قرية لا تزال تعرف بهذا الاسم، وهي بلدة عامرة ذات نخيل ومزارع؛ انظر: ابن بليهيد *صحيح الأخبار* (القاهرة: ١٣٩٢م) ٣: ٨٠١؛ وأبوعبدالله السكوني هو أحمد بن الحسن بن إسماعيل السكوني، كان مختصاً بالخليفة العباسي المكتفي ثم الخليفة المقتدر، وقد ألف كتاباً في أسماء مياه العرب؛ انظر: ياقوت، *معجم الأدباء* (القاهرة: مطبعة دار المأمون، ١٣٥٧هـ)، ٣: ٨- ٩.

(١٩) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٤١٩؛ ولا تزال منطقة الخرج منطقة زراعية ذات غلة وإنتاج انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ١: ٣٧١.

(٢٠) المقدسي، *أحسن التقاسيم* (ليدن: ١٩٠٦م)، ٤٩.

(٢١) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ٢٦. وقرقري أرض واسعة تعرف الآن باسم البطين، وتشتهر بإنتاج القمح والتمور وفيها عدد من القرى منها ضرماء، والمزاحمية، والعويند والبرة؛ انظر عبدالله بن خميس، *معجم اليمامة*، ٢: ٢٧٤- ٢٧٦.

(٢٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب* (الرياض: ١٣٩٤هـ)، ٢٨٤؛ إقليم الوشم إقليم واسع يقع جنوب القصيم، ويضم عدداً من القرى أهمها شقراء وأشيقر، ومرات، ثرمداء، وأثيثية؛ انظر: مصطفى الدباغ، *الجزيرة العربية* (بيروت: ١٣٨٢هـ)، ١: ١٥٩- ١٦٠.

(٢٣) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٦٨- ٣٦٩؛ ويعرف الآن باسم العرض وأشهر قراه القويعية، انظر نفس المصدر، ٢٣٦، هامش ٢.

(٢٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨٥؛ والفقي أصبح يعرف الآن باسم سدير، وبه قرى كثيرة ومزارع انظر عبدالله بن خميس، *معجم اليمامة*، ٢: ٢٥٦.

(٢٥) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٧. والفلج في الجزء الجنوبي من اليمامة يعرف الآن باسم الأفلاج منطقة عامرة بالسكان والنخيل والزروع؛ انظر عبدالله ابن خميس، *معجم اليمامة*، ١: ٥٩- ٩٧.

(٢٦) السجستاني، *كتاب النخل*، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٤٠٥هـ)، ٤٤- ٤٥؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب* (الرياض: ١٣٩٤هـ)، ٢٧٩، ٣٣٠؛ ابن حوقل، *صورة الأرض* (بيروت: دار الحياة، د.ت)، ٣٣؛ البكري، *جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك*، تحقيق: عبدالله الغنيم (الكويت: ١٣٩٧هـ)، ٩٣، وأوال تسمى الآن البحرين؛ انظر: الأحسائي، *تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد* (الرياض: ١٤٠٢هـ)، ٥.

(٢٧) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ١٧٥.

(٢٨) الأزهري، *تهذيب اللغة*، ١٢: ٣٨٢؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ٤: ٣٤٥.

(٢٩) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨١؛ المسعودي، *التنبيه والإشراف* (بيروت: ١٣٨٨هـ)، ٣٤١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ١٧، (رواية الأزهري).

(٣٠) السجستاني، *النخل*، ٤٤، ٤٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٤٠٠.

(٣١) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٣.

(٣٢) بيتروفيسكي، *اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة*، تعريب محمد الشعيبي (بيروت: ١٩٨٧م)،٩٦.

(٣٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٦، ٢٣٥، ووادي الجنات لا يزال معروفاً ومشهوراً بالزراعة؛ انظر: نفس المصدر، ١٣٦، هامش ٣.

(٣٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٩.

(٣٥) الهمداني، *الاكليل*، تحقيق: محمد الأكوع (بيروت: ١٩٨٦م)، ١١٩، ولا يزال وادي ضهر شمال صنعاء ويبعد عنها ١٦ كيلاً تقريباً. انظر، يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ٣٣.

(٣٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٧ ،٣٥٠؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ٨٩.

(٣٧) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٤٩؛ يحيى بن الحسين بن القاسم، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عاشور ومصطفى زيادة (القاهرة: ١٣٨٨هـ)، ١٨٨.

(٣٨) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٢١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٥٣، ٦٨؛ القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد*، دار صادر (بيروت: ١٣٨٠هـ)،٦٠.

(٣٩) البكري، *جزيرة العرب*، ٣١، ومدينة زبيد تقع على وادي زبيد في بلاد الأشاعر، وقد أسسها والي اليمن محمد بن زياد سنة ٢٠٤هـ بأمر من الخليفة العباسي المأمون، انظر: الجندي، *السلوك*، ٢٢١.

(٤٠) قدامة بن جعفر، *الخراج وصنعة الكتابة*، تحقيق: محمد حسين الزبيدي (بغداد: ١٩٨١م)، ٨٣؛ الادريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (بيروت: ١٤٠٩هـ)، ١: ١٤٧.

(٤١) الرازي، *تاريخ صنعاء*، تحقيق: حسين العمري وعبدالجبار زكار، ١٤٤.

(٤٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨١٧؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٧٠.

(٤٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٦- ١٣٧.

(٤٤) انظر: يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ١٤- ١٥.

(٤٥) السمهودي، *وفاء الوفاء*، ٣: ١٠٧٨، ويذكر ابن شبه أن هذا السيل، حدث في سنة ١٥٦هـ في عهد أبي جعفر المنصور، المصدر نفسه والصفحة.

(٤٦) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، ٤٠٧.

(٤٧) الحربي، *المناسك*، ٤١٩؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ٢٣١.

(٤٨) الحربي، المصدر السابق، ٤١٣؛ البكري، المصدر السابق، ٢: ٦٥٦.

(٤٩) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، ٣٩٨؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٨٣٦.

(٥٠) البكري، المصدر السابق، ٣: ٨١١؛ السمهودي، *وفاء الوفاء*، ٤: ١٢٣١

(٥١) الحربي، *المناسك*، ٣٤٩- ٣٥٠.

(٥٢) عرام السلمي، المصدر السابق، ٣٩٨.

(٥٣) المصدر نفسه، ٤٠٩.

(٥٤) المصدر نفسه، ٤٠٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ٤٣٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ٤١٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٥٨١.

(٥٧) الحربي، *المناسك*، ٥٤٢.

(٥٨) عرام، المصدر السابق، ٤١٤- ٤٥١.

(٥٩) المصدر نفسه، ٤٢٠.

(٦٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٧٤٢، ٤: ١١١٩.

(٦١) ابن خرداذبة، المسالك *والممالك* (ليدن: ١٨٨٩م)، ١٣٤.

(٦٢) الحربي، *المناسك*، ٣٦١، ٤٥٦.

(٦٣) البكري، المصدر السابق، ٤: ١٣٧٧.

(٦٤) عرام السلمي، المصدر السابق، ٤٢٠.

(٦٥) المصدر نفسه، ٤٢١.

(٦٦) السمهودي، *وفاء الوفاء*، ٤: ١١٤٩.

(٦٧) عرام السلمي، المصدر السابق، ١٣٤؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ١٠٠؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ١٨٠.

(٦٨) الحربي، *المناسك*، ٤٦١؛ السمهودي، *وفاء الوفاء*، ١١٣٠.

(٦٩) الحربي، *المناسك*، ٤٥١، ٤٥٢.

(٧٠) المصدر نفسه، ٤٤٢.

(٧١) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٠.

(٧٢) عرام السلمي، المصدر السابق، ٤٣٥؛ الفيروز أبادي، *المغانم المطابة* (الرياض: ١٣٨٩هـ)، ٢١٦.

(٧٣) الحربي، *المناسك*، ٣٣٦.

(٧٤) عرام، المصدر السابق، ٤٣٥.

(٧٥) الحربي، المصدر السابق، ٤٥٦.

(٧٦) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٣٠- ١٣١.

(٧٧) اليعقوبي، *البلدان*، (ليدن: ١٩٨١م)، ٣١٣.

(٧٨) انظر كتابنا الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الفصل الأول.

(٧٩) الحربي، *المناسك*، ٣٣٠؛ السمهودي، *وفاء*، ٤: ١٣٣٢.

(٨٠) عرام السلمي، المصدر السابق، ٤١٠.

(٨١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٧٠.

(٨٢) ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٩.

(٨٣) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٠٤-٣٠٥، ولا يزال السلي معروفاً ويقع في شرق مدينة الرياض؛ انظر: نفس المصدر، ٢٠٣، هامش ٤.

(٨٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨.

(٨٥) ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٨.

(٨٦) نفس المصدر، ٢٨.

(٨٧) الحربي، *المناسك*، ٥٨٧، ٦٢٢.

(٨٨) المصدر نفسه، ٦٠٧.

(٨٩) البكري، المصدر السابق، ٣: ١٠٣٣.

(٩٠) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢.

(٩١) الهمداني، المصدر السابق، ٣٠٦.

(٩٢) خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت: ١٩٧٠م)، ١٤٠- ١٤٢.

(٩٣) عرام، *أسماء جبال تهامة*، ١٢٤، ويعرف عرام في نفس الصفحة البثر بأنه يشبه الأحساء ويجري تحت الحصى على مقدار ذراع وذراعين ودون الذراع.

(٩٤) الهمداني، المصدر السابق، ٢٨٩.

(٩٥) الحربي، *المناسك*، ٣٠٩.

(٩٦) الهمداني، المصدر السابق، ٢٨٥.

(٩٧) نفس المصدر، ٢٨٥- ٢٨٦، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٢.

(٩٨) نفس المصدر، ٣٠٤.

(٩٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٢.

(١٠٠) الأدريسي، *نزهة المشتاق*، ٤٥.

(١٠١) الهمداني، المصدر السابق، ٣٠٤.

(١٠٢) خسرو، *سفرنامة*، ١٤٠.

(١٠٣) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٨، والقامة قامة الإنسان وتجمع على شكل قامات وقيم؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ١٢: ٤٩٩.

(١٠٤) الأزهـــري، *تهذيــب اللغة* (القاهرة: ١٩٦٧م)، ج٥: ١٠٨؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ١٢: ١٤٩؛ ياقوت، معجم *البلدان*، ٤: ١٧٩.

(١٠٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٦.

(١٠٦) ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ٢١٩.

(١٠٧) ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ١٢٦، ٥: ٥٢، ٣٩٣.

وعن عين متالع يقول ذو الرمة:

نحاها لثــاج نحيـــة ثم إنـــه   توخي بهـــا العينين عيـــني متالـــع

أنظر: الأصفهاني، *بلاد العرب* (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٨هـــ)، ٣٤٥.

(١٠٨) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨١؛ ياقوت معجم *البلدان*، ١: ٧١.

(١٠٩) الهمداني، المصدر السابق، ٣٣٠.

(١١٠) خسرو، المصدر السابق، ٤٢.

(١١١) ياقوت، معجم *البلدان*، ٢: ٤٠٠.

(١١٢) المصدر نفسه، ٤: ٤٧٩.

(١١٣) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٣.

(١١٤) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٧.

(١١٥) الهمداني، المصدر السابق، ٣٠٩.

(١١٦) ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ٣٣١.

(١١٧) أبوالفداء، *تقويم البلدان*، ٨٥.

(١١٨) السجستاني، *النخل*، ٧٥، والجدال جمع جدالة وهي البلحة إذا اخضرت واسدارت قبل أن تشتد، نفس المصدر والصفحة.

(١١٩) المصدر نفسه، ٧٥.

(١٢٠) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٢.

(١٢١) المصدر نفسه، ٩٣.

(١٢٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١٣٦.

(١٢٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١٣٦.

(١٢٤) المصدر نفسه، ٣٦٠.

(١٢٥) المصدر نفسه، ٢٢١.

(١٢٦) المصدر نفسه، ٣٦٢.

(١٢٧) ياقوت، معجم *البلدان*، ٥: ٣٥.

(١٢٨) انظر: الهمداني، *الاكليل*، ١: ١٨٦- ١٨٧؛ يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ٨١.

(١٢٩) الهمداني، *الاكليل*، ٤١٨٦-١٨٧؛ وانظر: الحديثي، *أهل اليمن في صدر الإسلام*، ٤٠.

(١٣٠) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١٨٦- ١٨٧؛ وانظر: يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ١٥.

(١٣١) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١٢١.

(١٣٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٩.

(١٣٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٢، *الاكليل*، ٨: ١٥١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٩.

(١٣٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٧١.

(١٣٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٧؛ *الاكليل*، ٨: ١١٩.

(١٣٦) ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٩٠.

(١٣٧) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٦، وعن غيل البرمكي؛ انظر أيضاً الهمداني، *الاكليل*، ١: ٤١٤- ٤١٥؛ الجندي، *السلوك*، ٢١٣؛ ابن الديبع، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، ٩٨- ٩٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٢٤.

(١٣٨) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٤.

(١٣٩) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١١٧.

(١٤٠) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٦، وعن صفات الآبار وأسمائها؛ انظر: ابن زياد الاعرابي، كتاب البئر، تحقيق: رمضان عبدالتواب (بيروت: ١٩٨٢م)، ٥٤ وما بعدها.

(١٤١) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٢٤؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٨.

(١٤٢) البكري، *المسالك والممالك*، ٣٠.

(١٤٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٥١.

(١٤٤) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ٢٣٢.

(١٤٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٦١.

(١٤٦) ابن رسته، *الاعلاق النفيسة*، ١١٢.

(١٤٧) انظر كتابنا، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي*، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ).

(١٤٨) الزبير بن بكار، *جمهرة نسب قريش*، (القاهرة: ١٣٨١هـ)، ٣٠٣.

(١٤٩) الأصفهاني، *الأغاني*، (طبعة دار الكتب)، ٣: ٢٩١.

(١٥٠) الطبري، *تاريخ الرسل*، (طبعة دار المعارف)، القاهرة، ٨: ٨٥.

(١٥١) صالح العلي، *العطاء في الحجاز في العهود الإسلامية الأولى*، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠، ١٩٧٠م، ٦٧.

(١٥٢) الزبير بن بكار، المصدر السابق، ١٠٩.

(١٥٣) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٨: ١٣٣.

(١٥٤) المصدر نفسه، ٢٠.

(١٥٥) الزبيري، *نسب قريش*، (القاهرة: ١٩٦٧م)، ٢٤٢- ٢٤٣.

(١٥٦) ابن بكار، المصدر السابق، ١١١.

(١٥٧) الزبيري، المصدر السابق، ٢٤٢.

(١٥٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ٣: ٢٩٩.

(١٥٩) اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، (بيروت: ١٩٧٠م)، ٢: ٤٠٧.

(١٦٠) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٢: ٢٣٤.

(١٦١) المصدر نفسه، ٢٧٥، ٣٦٤.

(١٦٢) المصدر نفسه، ٣٦٤.

(١٦٣) المصدر نفسه، ٣١٣.

(١٦٤) اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، ٢: ٤٨٣.

(١٦٥) ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة* (القاهرة: دار الكتب، ١٣٨٣هـ)، ٢: ٣٢٢.

(١٦٦) صالح العلي، *ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري مجلة العرب*، (الرياض: ١٩٦٩م/ ١٣٩٨هـ)، ١١: ٩٦٨.

(١٦٧) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٧: ٦٠٩، ٨: ١٩٥، ١٣٢.

(١٦٨) المصدر نفسه، ٨: ٥٣٢.

(١٦٩) الثعالبي، *ثمار القلوب في المضاف والمنسوب*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة، (القاهرة: ١٣٨٤هـ: ١٩٦٥م)، ١٢٣.

(١٧٠) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٠؛ الادريسي، *نزهة المشتاق*، طبع الجزء الخاص بجزيرة العرب، تحقيق: الدكتور إبراهيم شوكة، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ٢١، لسنة ١٩٧١م، ٢٥.

(١٧١) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٨: ٥٣٢- ٥٣٩.

(١٧٢) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٣: ٣٥٢، والخضارم تشمل الآن قرية اليمامة والسلمية والسيح في إقليم الخرج؛ انظر: الحربي *المناسك* (الرياض: ١٣٩٨هـ)، هامش (١).

(١٧٣) انظر: ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٩؛ الأصفهاني (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩: ٣٢، ٣٠١: ١، ٤٢: ١٣٧.

(١٧٤) الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد* (القاهرة: ١٣٩٤هـ)، ٣: ١٧١؛ ياقوت، *معجم الأدباء*، ٣: ٣؛ العبودي، أخبار ابي العيناء اليمامي (الرياض: ١٣٩٨هـ)، ٨.

(١٧٥) الحربي، *كتاب المناسك*، ٣٢١؛ ولا تزال قرية أضاح معروفة وتنطق وضاح؛ انظر: نفس الصفحة، هامش ٢.

(١٧٦) ناصر خسرو، جزيرة *العرب كما رآها الرحالة خسرو*، ترجمة أحمد البدلي، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، (الرياض: ١٩٧٩م)، المجلد السادس، ٤٣.

(١٧٧) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٩: ٥٩.

(١٧٨) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٨: ٥٦٧؛ السالمي، *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان* (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٠هـ)، ١: ٢٨٥.

(١٧٩) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٣٥٧.

(١٨٠) عبدالرحمن العاني، *عمان في العصور الإسلامية الأولى*، بغداد، ١٩٧٦م، ٢٤٧.

(١٨١) انظر: الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٧، ١٧١، ٢٣٥، ٢٤٩؛ *الاكليل*، ١٠: ٦٢- ٦٣؛ ابن رسته، *الاعلاق النفيسة*، ١١٣.

(١٨٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٥، والأبناء هم بقايا الجيش الفارسي في اليمن، وعندما جاء الإسلام أسلموا. لمزيد من المعلومات عنهم وعن الآراء التي قيلت بشأنهم، انظر: عبدالمحسن المدعج، *الأبناء منذ دخولهم اليمن حتى نهاية القرن الثالث*

الهجري، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٣٧، ٣٨ جامعة (دمشق:١٩٩٠م)، ٢٠؛ بيتروفسكي، المرجع السابق، ٣٠٩ وما بعدها.

(١٨٣) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٣٤٤؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٠٠.

(١٨٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٧.

(١٨٥) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٨- ١١٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٤٣.

(١٨٦) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٦؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٤٢.

(١٨٧) ابن الفقيه، *كتاب البلدان* (ليدن: ١٣٠٢هـ)، ٢٩؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٨- ١١٠.

(١٨٨) ابن الفقيه، *البلدان*، ١٢٥.

(١٨٩) البكري، *جزيرة العرب*، ٤٠.

(١٩٠) المسعودي، *مروج الذهب* (بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ)، ١: ٣٨٢؛ وانظر أيضاً: عبدالعزيز الدوري، *تاريخ العراق الاقتصادي*، (بيروت: لبنان، ١٩٧٤م)، ٦٩- ٧٠، حيث يذكر أن أشجار البرتقال والليمون جلبت من الهند إلى عمان ثم منها إلى العراق لأول مرة في القرن الرابع الهجري؛ وانظر أيضاً: فالح حسين، *الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي* (الأردن: ١٣٩٨هـ)، ١٠٦؛ سليمان العسكري، *التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي* (القاهرة: ١٩٧٢م)، ١٦٣.

(١٩١) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٨١.

(١٩٢) المصدر نفسه، ٥٩٠؛ اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، ٢: ٣٧٦.

(١٩٣) اليعقوبي، *التاريخ*، ٢: ٤٠٤ — ٤٠٥؛ الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٩٤- ١٩٧.

(١٩٤) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٢- ٥٣٩.

(١٩٥) المصدر نفسه، ٢٠٠.

(١٩٦) المصدر نفسه، ٩: ١٣٠.

(١٩٧) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك* (طبعة دار المعارف بمصر: ١٩٧٥م)، ٩: ١٤٦، ١٤٨.

(١٩٨) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٥.

(١٩٩) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٥٨.

(٢٠٠) اليعقوبي، *البلدان* (ليدن: ١٨٩٢م)، ٣٣٤.

(٢٠١) ياقوت، *معجم البلدان* (طبعة دار صادر، ٤: ٣١٩)، قران تعرف الآن بالقرينة قرية عامرة ذات نخيل ومزارع، انظر: ابن خميس، *معجم اليمامة*، ٣: ٢٦٨.

(٢٠٢) عبدالله الزيدان، *حملة بغا التركي*، مجلة جمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون (الرياض: ١٤٢١هـ)، ١: ١٠٤- ١٠٥.

(٢٠٣) اليعقوبي، *كتاب البلدان*، ٣٣٤.

(٢٠٤) ناصر خسرو، *سفرنامه*، ١٤٠، والمن يساوي شرعاً رطلين، كل رطل ١٣٠ درهماً، انظر: فالترهنتس، *المكاييل والأوزان الإسلامية*، (عمان: ١٩٧٠م)، ٤٥- ٦٤.

(٢٠٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٧: ٣٢٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٤٥٢؛ السالمي، *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان*، ١: ٩٥.

(٢٠٦) البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق: عبدالعزيز الدوري (بيروت: ١٣٩٨هـ)، ٣: ٢٤٥؛ الطبري، *تاريخ الرسل والملوك* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥م)، ج٨، ٣٩؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ٨: ١٤٩.

(٢٠٧) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ٣٤٠- ٣٤١؛ البكري، *جزيرة العرب*، ٣٩- ٦٤؛ شيخ الربوة، *كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*، (بيروت: لبنان، ١٩٨٨م)، ٢٨٧.

(٢٠٨) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ٣٤١.

(٢٠٩) خسرو، المصدر السابق، ٤٥.

(٢١٠) الرازي، *صفة جزيرة العرب*، ٢٢١.

(٢١١) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٢٣٥- ٢٣٦؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٤٨- ١٤٩.

(٢١٢) الهمداني، *كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: ١٤٠٨هـ)، ٩٠.

(٢١٣) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٧٧؛ بتروفسكي، المرجع السابق ٢٠٥.

(٢١٤) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٧٠.

(٢١٥) المصدر نفسه، ١٩٥.

(٢١٦) المصدر نفسه، ١٨٨.

(٢١٧) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٢٦٣- ٢١٠.

(٢١٨) الجندي، *السلوك في طبقات العلماء والملوك*، تحقيق: محمد الأكوع (بيروت: ١٤٠٣هـ)، ١: ٢٣٨- ٢٤٠.

(٢١٩) المصدر نفسه، ٢٢٩- ٢٣٠.

(٢٢٠) ابن الديبع، *قرة العيون*، ١٢٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٦٢.

(٢٢١) الأزرقي، *أخبار مكة، تحقيق: رشدي ملحس* (طبعة دار الأندلس)، ٢: ١٧٠.

(٢٢٢) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٠، ٢٦٣.

(٢٢٣) عرام السلمي، المصدر السابق، ٣٩٨.

(٢٢٤) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٩.

(٢٢٥) المصدر نفسه، ٤٦.

(٢٢٦) المصدر نفسه، ٣٨.

(٢٢٧) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، (ليدن: ١٩٠٦م)، ٩٥.

(٢٢٨) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ٣٤١؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ١٨؛ أبوالفدا، *تقويم البلدان* (باريس: ١٨٤٠م)، ٨٤.

(٢٢٩) السجستاني، *النخل*، ٨٤، والفغايا جمع فغية، وإذا ركب النخل غبار فغلظ جلد بسرته، فذلك الفغا؛ انظر كتاب *النخل*، ٨٤.

(٢٣٠) ابن سعد، *الطبقات*، (بيروت: ١٣٧٧هـ)، ٥: ٤١١.

(٢٣١) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٥٢.

(٢٣٢) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١٢٢، وعن الزلازل التي تعرض لها وادي ضهر؛ انظر: الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٢٤٣؛ ويحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٥٨؛ ويذكر الطبري أنه في سنة ٢٤٢هـ وقعت باليمن زلازل مع خسف، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد

أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ)، ٩: ٢٠٧.

(٢٣٣) الهمداني، *الاكليل*، ٢: ١٥٧.

(٢٣٤) الهمداني، *الاكليل*، ١٠: ١٦٨– ١٦٩؛ وانظر أيضاً: ابن الديبع، قرة العيون، ٢١٩؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ١٩٠؛ والحطمة سنة الجدب والقحط، لأنها تحطم كل شئ، انظر: الهمداني، كتاب الجوهرتين، ٢٧٤.

(٢٣٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٥: ٢٢٧.

(٢٣٦) المقدسي، *أحسن القاسيم*، ١٠٥.

(٢٣٧) لقد هاجم الجراد المناطق المجاورة للبحرين وأضر بأشجارها وثمارها في السنوات ٣١١هـ، ٣٢٧هـ، ٣٤٤هـ، ٣٤٧هـ، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ١٣: ٢١٨، ٣٧٨، ٤١: ٩٨، ١١٤.

(٢٣٨) الإدريسي، *نزهة المشتاق في إختراق الآفاق* (بيروت: ١٤٠٩هـ)، ١: ١٥٩؛ شيخ الربوة، *نخبة الدهر*، ٢٨٧.

(٢٣٩) المسعودي، *مروج الذهب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ)؛ ١: ٢٠٣؛ عرام، المصدر السابق، ٣١٧.

(٢٤٠) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٤٤.

(٢٤١) الجاحظ، *البخلاء*، تحقيق: أحمد العوامري وعلي الجارم (بيروت: ١٤٠٨هـ)، ١ :١٠٩.

(٢٤٢) السنويري، نهاية الارب في فنون الأدب، تحقيق: أحمد كمال زكي، محمد مصطفى زيادة (القاهرة:١٩٨٠م)، ٢٣: ١٨٨، لقد ورد في ابن الجوزي (*المنتظم*، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا (بيروت: ١٤١٢هـ)، ١٤: ٤٨) برستاق القيمرة الكبرى.

(٢٤٣) ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٩؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٤٩-٣٦٠؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٣؛ ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ٥٢.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

موانئ الجزيرة العربية على الخليج العربي في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري

سعيد بن عبدالله القحطاني
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

تعتبر موانئ الساحل الشرقي للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي -الذي يشكل ذراعًا بحريًا رأسه في منطقة الرافدين، ويتجه إلى الجنوب حتى خليج عمان[1]، ثم يلتقي بالبحر العربي فالمحيط الهندي- من أهم المراكز التجارية التي كانت تستقبل السفن الآتية من الهند، والصين، وشرق أفريقيا، ومن جنوب الجزيرة العربية وغيرها من مختلف الجهات، والمتجهة إلى سيراف[2] والبصرة وغيرها من الموانئ الأخرى المتناثرة على جنبات هذا الساحل[3].

ولموانئ الجزيرة العربية في هذا الجانب دور بارز في النشاط التجاري كمحطات هامة على مرِّ العصور بحكم كونها مراكز تصدير واستقبال للسلع التي يحملها العديد من التجار الذين يرتادون ساحل الجزيرة العربية الشرقي في مختلف المواسم، ومعهم السلع والبضائع التجارية من مناطق التبادل التجاري سواء القريب منها أو البعيد، وقد زاد نشاطها مع قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وتحول مركز الخلافة الإسلامية من الشام إلى العراق، واتخاذ بغداد عاصمة للعباسيين، عندما أسسها أبوجعفر المنصور سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[4]، حيث زادت فعاليات موانئ هذا الساحل التجاري، واستعادت مكانتها الاقتصادية، التي كانت قد تقلصت زمن الأمويين لتحول الطرق التجارية البحرية العالمية في معظمها إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط آنذاك[5].

لهذا فإن موانئ الجزيرة العربية على الخليج العربي بلغت مكانة مرموقة في النشاط التجاري خلال العصر العباسي الأول، الذي شهد ازدهارًا تجاريًا حظي بتشجيع الخلفاء العباسيين الأوائل، حيث بذلوا قصارى جهدهم لتوفير الأمن والاستقرار لمسالك الطرق التجارية البرية منها والبحرية، وذلك بتأكيد سلطتهم على مناطق نفوذهم والتصدي للعابثين بأمن الطرق من اللصوص وقطاع الطرق. وفي ذلك الحين كانت دولة بني العباس شديدة البأس، قد منحت الطرق جانبًا من عنايتها، فوضع الحكام على طول الساحل متارس ومخافر، وكان السفر مأمونًا، فزادت حركة تداول السلع والبضائع، تبعًا لزيادة الطلب عليها في الأسواق نظرًا لتطور الاستهلاك الذي نتج عن تسارع النهضة

الحضارية في المدن الإسلامية، فاتجه التجار نحو استيراد البضائع التجارية على مختلف أنواعها وتباين إنتاجها، الكمالية منها والضرورية، تلبية لاحتياجات الخلفاء والوزراء وكبار موظفي الدولة، ومجتمع الطبقة الثرية الذين ساهموا في نمو التجارة في هذه الفترة، فضلاً عن حاجة العامة من عناصر طبقات المجتمع الأخرى، ولمواجهة زيادة نمو سكان المدن في منطقة الخليج العربي وفي العراق[٦].

لقد أصبحت موانيء الجزيرة في جانبها الشرقي تمثل أكبر المراكز التجارية لاتصالها مع بلاد الهند، وسرنديب (سيلان)، والصين وغيرها من الأقطار الأخرى، ومما ساعد على انتعاش نشاطها التجاري أيضًا، صلاحية هذه الموانيء كمحطات للسفن التجارية لتوفر ضروريات الحياة التي من أبرزها المياه العذبة التي يتزود بها أصحاب السفن في رحلاتهم البحرية الطويلة[٧]، حيث تنعدم في معظم محطات الساحل الشرقي للخليج. كذلك ما يتمتع به تجار الخليج العربي من خبرة تجارية، ومعرفتهم بمسالك الطرق البحرية الآمنة عبر المحيط الهندي وغيره من الممرات البحرية الأخرى، ومهاراتهم في صناعة المراكب والسفن البحرية[٨]، ودرايتهم بأسرار هبوب الرياح الموسمية في مختلف الجهات، والتي يستعينون بقوتها أثناء تنقلهم عبر مياه البحار في مختلف المواسم[٩]، وعمل بعضهم وسطاء وأدلاء لهذا زادت الحركة التجارية بين موانيء الجزيرة العربية الشرقية وبين المحطات التجارية في العراق من جهة وبين مناطق التبادل التجارية الخارجة من جهة أخرى، مثل بلاد الهند التي أشار لها السيرافي في رحلته أثناء حديثه عن فرضة كَلَه[١٠] بالهند التي تقع في منتصف الطريق بين عُمان والصين، فقال: "وبكلَّه مجتمعُ الأمتعة، من العود، والكافور، والصندل، والعاج والرصاص القلعَيِّ، والأبنوس والبقَّم والأفاوية. كلُّها وغير ذلك مما يتسع ويطولُ شرحه والجهازُ من عُمان في هذا الوقت إليها،، ومنها إلى عُمان واقع"[١١].

لقد ركزت كثير من المصادر العربية التاريخية والجغرافية، وكتب الرحلات على الدور التجاري لموانئ الجزيرة العربية على ساحلها الشرقي، ففي هذه الموانيء كانت السفن ترسو لتحمل المتاجر أو تفرغها حسب الحاجات والأوقات والفصول، فقد أسهمت في ازدهار النشاط التجاري بين البلاد العربية وأقطار جنوب شرق أسيا، وشرق أفريقيا، حيث كانت لها صلات تجارية مباشرة، تدفقت معها أنواع السلع والبضائع المختلفة على هذه الموانيء ومنها تنقل إلى مختلف الأسواق داخل الجزيرة العربية أو في أسواق موانئ الساحل الشرقي أو خارجها، وسيتناول البحث هذه الموانيء كما يلي:

ميناء مَسْقط؛ الذي يعتبر المحطة الأمامية الرئيسة للسفن التجارية التي تسلك الطريق البحري المتجه نحو الهند حتى تحط رحالها في ميناء كَوْلَم ملي (كويلون) على ساحل المليبار الهندي[١٢]، وكانت الرحلة تستغرق بين هاتين المحطتين مدة شهر على اعتدال الريح[١٣]، ومن كَوْلَم ملي تفترق الطرق فإما إلى ساحل الدكن جنوب الهند الشرقي، وإما إلى سرنديب (جزيرة سيلان)، ثم يخرج الطريق نحو الشرق مرورًا بكله[١٤]، التي تقع على منتصف الطريق البحري إلى ميناء الصين الكبير خانقو والمعروف حاليًا باسم كانتون، وكان أصحاب السفن القادمة من العراق وسيراف[١٥] ومن

ســاحل جنوب الجزيرة العربية الشرقي في طريقهم إلى المراكز التجارية في الهند، والسند، وسرنديب، والصين، أو إلى الحبشة وغيرها من الجهات الأخرى، يمرون على ميناء مسقط في الذهاب والإياب، يتزودون منه بالماء العذب، قبل أن يستأنفوا رحلتهم للمراكز التجارية الأخرى التي يقصدونها سواء على سواحل الخليج العربي أو على المحيط الهندي[١٦].

فكانــت السفن التجارية القادمة من المحيط الهندي والبحر العربي في طريقها للخليج ترسو في هذا الميناء الذي يستأثر بأكبر قدر مما تحمله من سلع وبضائع تجارية بحكم موقعه في آخر عمان من تلك الجهة، وقد تحدث ابن الفقيه عــن أهمــية مَسْقَط كمحطة تجارية تلتقي عندها السفن على مختلف جهاتها فقال على لسان التاجر سليمان: "وذكر سليمان أن السفن الصينية تحمَّل من البصرة وعُمان وتعبأ بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضــع مــنه، فــإذا عُــبِيء المتاع استعذبوا الماء إلى موضع منها، يقال له مُسْقَط، وهو آخر عُمان، وبين سيراف وهــذا الموضــع نحــو مائتي فرسخ[١٧] وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيرَاف ومَسْقَط من البلاد سيف (ساحل) بني الصفّاق وجزيرة ابن كاوان، وفي غربي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع المسمى دردور[١٨] وهو مضيق بين جبلين[١٩]"[٢٠].

فمــن هذه النصوص نستدل على وجود ملاحة مباشرة ومنتظمة فيما بين ميناء مَسْقَط ومختلف الجهات التي لها علاقــة تجارية بأقطار الخليج العربي. فقد كان هذا الميناء يعج بالحركة التجارية، فكثرت به البضائع والسلع التجارية متبايــنة المصــادر التي تحملها السفن الآتية من كل حدب وصوب والتي يستقبلها ميناء مسقط بحكم موقعه كمحطة تجارية في آخر عُمان من الجنوب الشرقي. وكان لتجار مَسقَط علاقة تجارية مع الموانيء الهندية، والصينية، وسومطرة، ومــع موانيء شرق أفريقيا، لذلك نشطت حركة أسواقها لكثرة التجار الذين يأتون إليها في مختلف المواسم ويزاولون نشاطهم التجاري في أسواقها، ويعزز هذا الرأي ما أشار إليه المسعودي في قوله: "إن رجلاً من أهل مدينة سمرقند من بــلاد مــا وراء النهر خرج من بلاده ومعه متاع كثير، حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان، وركب إلى بلاد كله وهي منتصف الطريق وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام مــن الســيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم، وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان... وساحل البحرين"[٢١].

كما أن التجار العمانيين كانوا يرتادون الأسواق الخارجية فقد ذكر المسعودي المراكب العمانية التي كانت تحط رحالها في الساحل الأفريقي الشرقي فقال: "وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الــزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج. والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عَرَبٌ من الأزد"[٢٢]. ومما تجدر الإشارة إليه بأن العمانيين إلى جانب عملهم الــتجاري والملاحــي قد ساهموا مع غيرهم من أبناء العرب المسلمين في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك البقاع، وشــكلوا بها جاليات إسلامية زاولت معظمها أعمال التجارة[٢٣] فكان لا بد لهم من التفاهم مع التجار العرب بلغة

يفهمونها، فانتشرت الثقافة العربية، ودخلت مصطلحات وكلمات عربية كثيرة في لغات شعوب شرق أسيا، وأفريقيا، حـتى أنـه سميـت بعض المدن في الهند بأسماء عربية مثل مدينة المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بني أمية على السـند[٢٤] وقد أورد المسعودي رواية تؤكد انتشار الجاليات الإسلامية في الهند فقال: "وقد حضرت إلى بلاد صيمور مـن بـلاد الهند سنة أربع وثلاثمائة... وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة[٢٥]، وسيرافيين، وعمانيين، وبصريين، وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد، وفيهم خلق من وجوه التجار"[٢٦].

ونتـيجة لهذه العلاقة الطيبة قويت الصلات التجارية، فكانت منتجات هذه الجهات لم تنقطع عن ميناء مَسْقَط والمـوانيء الأخرى على سواحل الخليج العربي في هذه الفترة، فكانت الأقمشة الحريرية والصوفية، والطيب بأنواعه، والبهارات، وأدوات الزينة تزدحم بها أسواق مَسْقط. ومما زاد من أهميتها التجارية كونها تقع في منطقة غنية بالزراعة فقد ساعدتها البيئة الجغرافية بأن تكون معظم الأراضي القريبة غنية بأشجار النخيل والفواكه الجرومية[٢٧]. وتكثر فيها البسـاتين لـزراعـة الحنطة والشعير، فكان إنتاجها الزراعي يواجه حاجة السكان، ويصدر الفائض الزراعي ضمن صـادرات عمان إلى مختلف الجهات الأخرى[٢٨]، مثل التمر الذي يجلب منها إلى بلاد فارس، وقد اشتهر عندهم بأنه طعام الملوك[٢٩]. ومن العوامل الجغرافية الأخرى التي ساعدت على صلاحية ميناء مسقط ليكون محطة تجارية لاستقبال السـفن الملاحـية التجارية القادمة من الهند، والصين، والزنج، ومن مختلف الجهات، الجبال المرتفعة التي تحيط به من الجهة الغربية والجهة الجنوبية، التي تحد من قوة اندفاع التيارات الهوائية في اتجاه البحر، لهذا كان من أفضل المراسي التي يفضله أرباب السفن، وكذلك توفر المياه العذبة التي تجذب المسافرين للتزود منها في رحلاتهم الطويلة"[٣٠].

ميناء صُحار: يعتبر هـذا المينـاء من أهـم المرافيء في منطقـة الساحـل الشرقي للجزيـرة العربيـة، فهو أيضًا مدينة مزدهرة بمظاهرها الحضارية، فالمصادر العربية تجمع على أن صحار أعمر مدينة بإقليم عُمان في هذه الفترة الـتي يعنـيها البحث، فقد وصفها الأصطخري كونه شاهد عيان بقوله: "وعُمان مستقله بأهلها... وقصبتها صُحار وهـي عـلى البحر، وبها متاجر البحر وقصد المراكب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على شـاطيء بحر فـارس بجميـع بـلاد الإسلام أكثر عمارة ومالاً من صُحار وبها مدن كثيرة"[٣١]. فمن هذه الرواية يتـبين لـنـا أهميـة ميناء صُحار[٣٢] التجارية والتي استلزمت حركة ملاحية دائبة ونشيطة صوب الهند، والصين، واليمن، والعراق، وبلاد فارس، حيث أصبحت محطة صُحار مركز حط وإقلاع بحري وسوقًا للتجارة لعرض منتجات تلك الجهات، فمكانة صحار التجارية قديمة، فقد كانت من إحدى أسواق العرب السنوية قبل الإسلام المشهورة التي أشـار إلـيها اليعقوبي بقوله: "كانت أسواق العرب عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم ... فمنها صُحار يقوم في رجب في أول يوم من رجب، ولا يحتاج فيها إلى خفارة ..."[٣٣].

فمن الطبيعي أن تستفيد صُحار من هذه المكانة، الاقتصادية، كميناء ومدينة بحرية، فاستمرت نشاطاتها التجارية في صدر الإسلام، وازدهرت تجارتها خلال العصر العباسي الأول، باعتبارها قصبة عمان ومركزًا تجاريًا مع الشرق، بالإضافة إلى كونها مركزًا له أهميته في تجارة الجزيرة العربية. فكانت أسواقها رائجة التجارة وملتقى للتجار الذين يحملون السلع من العراق، ومن بقية أقاليم الجزيرة العربية مثل الحنطة، والحبوب، والتمور التي لا يوجد مثيل لها في غيرها، واللبان وبعض المنسوجات، والخيول، وكثير من صادرات الدولة الإسلامية والتي يحملها التجار إلى الهند والصين وإلى مختلف الأفاق[٣٤]. وكانت هذه المراكب[٣٥] التي تخرج من ميناء صحار إلى مختلف الجهات لا تعود من رحلاتها فارغة، بل تشحن بالسلع والبضائع المتنوعة التي تزخر بها المراكز التجارية في الهند، وسرنديب والصين، أو من موانيء البحر العربي، والساحل الشرقي لأفريقيا والتي يتم استيرادها إلى موانيء الجزيرة العربية الشرقية. وتنقل منها إلى الأسواق الأخرى في بلاد الرافدين أو الشام، أو إلى غيرها من مناطق التبادل التجاري. فقد كانت السلع الصينية والهندية وخاصة الكمالية منها تشهد إقبالاً من قبل التجار لأنها تحقق لهم مكاسب كبيرة لكثرة الطلب عليها من الخلفاء وموظفي الديوان، والأثرياء، فالغالب أن معظم هذه السلع الواردة من أثمن السلع لندرتها، لهذا كانت أسواق مدينة صُحار تتميز بكثرة تجارتها، لأنها تتمتع بمركز تجاري مرموق، ترفأ فيها سفن التجار القادمين من معظم الجهات، فتزدحم أسواقها بالتجار. وأصبحت من أهم المحطات التجارية التي تصب فيها الطرق البحرية عبر الخليج العربي، مما أدى ذلك إلى اتصالها بالتجارة الخارجية في مختلف المواسم، لهذا وصفها ابن حوقل بأنها مركز تجاري هام، يأتي إليه التجار من كل جانب يحملون السلع والبضائع التي يتم تداولها في أسواقها الرائجة، فقال: "إنها دهليز[٣٦] الصين، وخزانة الشرق، والعراق ومغوثة اليمن"[٣٧].

كان التجار يحملون إلى أسواق ميناء ومدينة صُحار من المتاع أحسنه، فمن الصين يحمل الحرير، والدار صيني (القرفة)، والمسك[٣٨] الفاخر، والعقاقير الطبية، والورق[٣٩]، ومن الهند القرنفل، والصندل، والفلفل، والكافور، والزابج[٤٠]، والبَقَّم، والنيل، والخيزران، والياقوت، والألماس من سرنديب، والكركدن، والطاووس[٤١]، والببغاء، والدجاج السندي وجميع أنواع العطر والصَّيْدَلَه[٤٢].

و لم تقتصر السلع التجارية الواردة على ميناء صحار على ما ذكرناه آنفًا؛ بل تعدى ذلك إلى البضائع التي ترد إليها من موانيء البحر الأحمر والبحر العربي متنوعة المصدر، بالإضافة إلى ما تسهم به أقاليم الجزيرة العربية من منتوجات زراعية، وصناعية، وحيوانية، يتم تصديرها ضمن عروض التجارة إلى مختلف الأسواق. ولقد حافظ ميناء صحار على دوره التجاري كمركز للتجارة العالمية على الخليج العربي، حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومما يؤيد استمرارية ازدهار نشاط هذا الميناء التجاري، ما ذكره المقدسي، في وصفه الشيِّق لأسواق صحار العجيبة، ولقصورها الشاهقة باعتباره شاهد عيان، زارها في أواسط هذا القرن عندما قال: "صُحار هي قصبة عُمان، ليس على بحر الصين اليوم بلدًا أجلَّ منه، عامرٌ آهِلٌ حسنٌ، طيب، نزه، ذو يسار، وتجار، وفواكه، وخيرات، أسرى

من زبيد وصنعاء، أسواق عجيبة وبلدة ظريفة، ممتدة على البحر، ودُورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة، والجامع على البحر ... في آخر السوق... وهم في سعة من كل شيء، ودهليز الصين، وخزانة الشرق والعراق، ومغوثة اليمن، قد غلب عليها الفرس"[٤٣].

فمن هذا الوصف الجميل للأسواق والمساكن والتجار نستدل منه على نشاط ميناء صحار التجاري، ومهارة السكان في أعمال التجارة والملاحة، وصلتهم بمختلف المناطق، كل هذا ساعد على ازدهار أسواقها وتنمية ثرواتها، حتى أصبحت تفوق زبيد وصنعاء اقتصاديًا. كما يتبين لنا من هذه الرواية؛ فقد كانت تزدحم بالتجار الذين يفدون عليها من الصين والهند، ومن فارس، ومن العراق وغيرهم، لرواج أسواقها المكتظة بالبضائع والتجارات التي تحملها السفن التجارية والتي تقصدها من كل مكان فقد قال عنها الإدريسي: "أقدم مدن عمان وأكثرها أموالاً قديمًا وحديثًا، ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم، وإليها تجلب البضائع من اليمن، ويتجهز منها أنواع التجارات"[٤٤].

فلا غرو أن توصف فرضة صُحار بأنها المنفذ الرئيس لتجارة الشرق والغرب، حيث كانت تمثل حلقة وصل بين هاتين المنطقتين، ومركز إبحار واستقبال السفن المحملة بكثير من السلع الخاصة بالتجارة الشرقية، والتي تعج بها أسواقها، والتي كانت تفيض على أصحابها فيوضًا، وسعة من الثروة، لهذا كان أهل صحار يسكنون مساكن عالية مبنية من الآجر وخشب الساج الهندي الثمين، فقد ذكر المقدسي أنهم في سعة من كل شيء، ومثله قال الإدريسي: "وأحوال أهلها واسعة جدًا ومتاجرهم مربحة"[٤٥]. ومما زاد من أهمية ميناء صحار، أنه كان المركز الرئيس للإدارة في إقليم عمان، وقويت شوكته بعد أن استقلت ولاية عمان عن الخلافة العباسية في بداية النصف الأول من القرن الرابع الهجري، حتى أن قواتها البحرية هاجمت البصرة فيما بين عامي ٣٣١/ ٣٣٤هـ - ٩٤٣/ ٩٥٣م[٤٦]. وقد وصف أحد الباحثين المحدثين بأن القرن الرابع الهجري، كان بمثابة العصر الذهبي لمدينة صحار، لتفوقها في كل مناشط الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، وقد أصبح أهل المناطق الأخرى يخشون سطوة العمانيين في هذه الفترة، مثل أهل مدينة سيراف الذين شيدوا سورًا منيعًا حول مدينتهم لصد هجمات العمانيين[٤٧].

ومع أنها تعرضت لحملات عسكرية وجهتها ضدها الخلافة العباسية، عندما حرص البويهيون على إخضاعها لسلطة بغداد واتخذوا منها قاعدة لأسطولهم البحري سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م[٤٨]، كما تعرضت لهجمات القرامطة[٤٩] الذين حاولوا بسط نفوذهم على إقليم عمان[٥٠]، إلا أن وضعها التجاري لم يتأثر، فقد حافظت على علاقتها التجارية العالمية وظلت كميناء رئيس تصب فيه تجارة الشرق والغرب، فقد وصفها البكري بعد هذه الأحداث، فقال في عبارات تحمل دفء شهود العيان بأنها سوق عمان، وعدها من المدن التجارية الهامة في الجزيرة العربية[٥١]. فمن هذه الرواية وغيرها نستدل على أن صحار في هذه الآونة ما زالت هي قاعدة عمان، فكانت من أهم موانيء الخليج العربي لمكانتها التجارية والإدارية.

موانئ البحرين:

إن للبحرين موانئ كثيرة على الساحل الغربي للخليج العربي الممتد من البصرة شمالاً وحتى عُمان جنوبًا، لهذا كانت هذه المحطات التجارية تشكل نقطة اتصال بين المحطات التجارية الواقعة في جنوب الخليج العربي،وبين حاضرة الخلافة العباسية، وما يليها من مراكز تجارية أخرى. فقد اشتهرت موانئ البحرين بنشاطها التجاري في الفترة التي يعنيها البحث، ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي الاستراتيجي، كما أسلفنا من قبل ، بالإضافة إلى خبرة أهلها بالملاحة ومواسمها، وصناعة السفن، وارتباطهم أيضًا بمواسم صيد اللؤلؤ الذي تميزت البحرين بإنتاج أجوده بين البلدان الأخرى(٥٢).

لهذا أصبحت موانئ ء البحرين مراكز رسو وإبحار، وأسواق تصدير واستيراد لعمليات تجارية واسعة، حيث كانت مرافئ جيدة لرسو كثير من السفن التجارية في رحلاتها عبر مياه الخليج العربي، من الصين، والهند، وجنوب الجزيرة العربية، ومن بلاد العراق، وفارس، وغيرها من الأقطار الأخرى(٥٣). وكانت نتيجة ذلك أيضًا ازدياد حركة أسواق مدن البحرين التجارية، لاستفادتها من الطريق التجاري البحري القادم من المحيط الهندي ومن البحر العربي من خلال الخليج العربي، في اتجاه حاضرة الخلافة العباسية بغداد، فكانت السفن التي تسلكه في الجيئة والعودة، تحمل السلع والبضائع من أماكن الوفرة إلى أسواق الدولة الإسلامية التي تحتاج إليها ، وحيث إن موانئ الجزيرة العربية الشرقية هي المجاز والممر الرئيس لهذه السلع التجارية في معظم الأوقات، فقد امتلأت أسواقها بالتجار الأجانب الذين يحملون معهم منتجات بلادهم ويزاولون نشاطهم في أسواق البحرين المنظمة والموانئ الآمنة التي أسهمت في ازدهار التجارة في هذه الفترة، فكانت البحرين واسطة العقد بين مرافئ جنوب الخليج العربي وبلاد الرافدين كما أسلفنا من قبل لا سيما وأن الدولة العباسية اتجهت في تجارتها في العصر العباسي الأول نحو الشرق، فانتقل تبعًا لذلك مركز النقل التجاري البحري إلى منطقة الخليج العربي بحكم قربه من حاضرة الخلافة العباسية بغداد(٥٤)، لهذا برز عدد من موانئ البحرين والتي من أهمها ما يلي:

قطر:

تأتي شبه جزيرة قطر، التي تقع على سيف الخط بين عُمان والعُقير، من أبرز المحطات التجارية الواقعة على الطريق البحري الذي يمر بساحل الجزيرة العربية الشرقي، وهذه المحطة تتشكل من عدة جزر، نستدل على ذلك من وصف الرحالة والمؤرخ المسعودي للأماكن التي تقابل ساحل فارس من جهة الغرب الذي كان شاهد عيان بحكم تنقله مع أصحاب السفن في رحلاته إلى مختلف الأقاليم الواقعة على المحيط الهندي وغيره، فقال: "بلاد البحرين وجزائر قطر"(٥٥). ومثله الهمداني الذي عدها من المحطات التي تقع على سيف الخط عندما قال: "وأخذ البحر من ذلك الموضع- أي عَبّادان(٥٦) - مُغَرِّبًا مطيفًا ببلاد العرب منعطفًا عليها فأتى منها سَفْوَان(٥٧)، وكاظمة(٥٨) ونَفَذ إلى القَطيف، وهَجَر، وأسْيَاف البحرين، وقَطَر، وعُمان، والشِّحر..."(٥٩).

فكانت هذه المحطة من الموانيء التي تمر بها السفن والمراكب التي تجوب مياه الخليج من مختلف الاتجاهات، وهي تحمـــل الســـلع والبضـــائع مثل الطيب، والجواهر، والبهارات، والرقيق وغيرها من تجارات الشرق والغرب المتنوعة، الكمالية منها والضرورية. ومما عزز من مكانة هذا الميناء التجارية، أنه محطة هامة من محطات الطريق البري التي تخرج مـــن البصرة في اتجاه عُمان بمحاذاة الساحل، فقد ذكرها ابن خرداذبة في جملة مراحل هذه الطريق بقوله: "... ثم إلى ساحل هجر، ثم إلى العُقَيْر[٦٠] ثم إلى قطر، ثم إلى السنجة ثم إلى عُمان"[٦١] لهذا لا نستبعد أن مرافيء قطر قامت عندها تجـــارات واســـعة حقق معها تجار الخليج وغيرهم أرباحًا طائلة"[٦٢]، لا سيما وأن قطر اشتهرت بصيد اللؤلؤ الذي يســـتخرج من سواحلها[٦٣]، فكان لذلك أثره الإيجابي على تنشيط حركة أسواقها التجارية، لإقبال التجار من مختلف الأقطار على تداول تلك اللآليء لجودتها، إضافة إلى ذلك أن قطر اشتهرت بصناعة الثياب التي عُرفت بالبرود القطرية ذات اللون الأحمر، والتي فاقت شهرتها الآفاق، وتغنى بها الشعراء، لما تتميز به من جودة نسيجها ودقة صناعتها، لهذا كانـــت تحمـــل ضمن الهدايا التي تقدم للخلفاء العباسيين في هذه الفترة. فقد ذكر الجاحظ أن الشاعر أبا العتاهية[٦٤] أهـــدى للخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨- ٢١٨هـــ/ ٨١٣- ٨٣٣م) هدايا كثيرة من جملتها أردية قطـــرية[٦٥]. وكان العلماء يستحسنون لبسها، فقال في هذا الشأن الإمام الشافعي: "وأحب ما يلبس إليّ البياض فإن جـــاوزه بعصب اليمن والقطري وما أشبهه مما يصنع غزله ولا يصبغ بعد ما ينسج فحسن"[٦٦]. وقد ورد في المعاجم اللغوية أن القطرية ضرب من البرود وهي حلل جياد تتميز بلونها الأحمر[٦٧].

فمـــن هـــذه الرواية وغيرها يتضح أن تجارة الثياب القطرية كانت رائجة ومزدهرة، لأنها على درجة عالية من الجـــودة كما أسلفنا، حيث توافق مختلف أذواق الناس، و لم تكن شهرتها وليدة الفترة التي يعنيها البحث، فقد كانت تُصدر إلى الحجاز وخاصة مكة عند ظهور الإسلام، كما ورد أن الرسول ﷺ كان يلبسها، وكذلك بعض الصحابة، يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: "كان على رسول الله ﷺ ثوبـــان عمانـــيان أو قطريان"[٦٨]. كما اشتهرت مرافيء قطر بتصدير الإبل التي تسمى بالجياد، حيث تجلب لأسواقها بكثرة من المناطق المجاورة لها"[٦٩].

يتـــبين من الروايات السابقة أن أسواق فرضة قطر لم تقتصر على أن تكون مراكز استقبال للسفن القادمة من عـــرض مياه الخليج العربي، وكذلك للقوافل البرية القادمة إليها عبر الطريق البري فحسب، بل كان لها نشاط تجاري تميزت به فيما يجلب إليها من السلع والبضائع المتنوعة والتي يعاد تصديرها إلى مختلف السلع، بالإضافة إلى ما تنتجه أو مـــا تشـــتهر بـــه مـــن سلع تجارية، مثل نجائب الإبل التي تنسب إليها وما والاها من البر، وكذلك التمور والنعام، والمنســـوجات التي أشرنا إليها آنفًا؛ فجمعت بين أوجه النشاط الاقتصادي، من تجاري، وصناعي، وزراعي،مما أهل أســـواقها إلى اســـتقطاب التجار وأصحاب المهن للاستقرار بها، وزاولوا نشاطهم التجاري وغيره من أوجه الأنشطة الاقتصـــادية الأخرى. وساهم ذلك في تطور الموانيء القطرية، التي استمر دورها التجاري مزدهرًا فكانت على اتصال

وثيق بموانيء الهند، والصين، والحبشة، واليمن، والعراق، والموانيء الإسلامية الأخرى، حتى أصبحت إحدى المحطات التجارية الهامة في شرق الجزيرة العربية.

وأتفق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين أن تجارة قطر الخارجية كانت مرتبطة إلى حد كبير بالبحرين، وهذا ما حدا بالجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين في العصر العباسي أن يتكلموا عن قطر من خلال كتاباتهم عن البحرين[٧٠]، وأعتقد أن مرد ذلك يعود إلى تبعيتها الإدارية، فغلب اسم الولاية كوحدة إدارية على نشاط هذا الميناء، الذي أصبح آهلاً بالسكان واستمر في التطور حتى أصبحت قطر إحدى دول الخليج العربي الهامة في وقتنا الحاضر.

ميناء العُقَيْر:

كان من الموانيء التي أسهمت في استقبال ونقل تجارة الجزيرة العربية على ساحلها الشرقي، فهو يعتبر فرضة مدينة هجر العظمى، حاضرة بلاد الأحساء التي تقع إلى الغرب من ميناء العُقير، والتي تتميز بثرواتها الزراعية، لتوفر موارد المياه بها، وخصوبة تربتها؛ لهذا اشتهرت بزراعة النخيل، وكثرة الثمار؛ ولهذا فقد فاق هذا الميناء غيره في تجارة التمور التي تنتجها منطقة الأحساء، فكانت هجر مضرب المثل بكثرة تمورها، حيث قال القائل: "كمستبضع التمر إلى هجر"[٧١]. فاشتهرت بإنتاج أنواع كثيرة من التمور والتي تنافس غيرها من إنتاج المناطق الأخرى. ومما زاد الإقبال على تمور هجر رخص أسعارها لكثرة محصولها، حتى أن الرحالة الفارسي ناصري خسرو ذكر رخص تمورها في زمانه فقال: "أنه قد يباع أكثر من ألف مَنّ[٧٢] بدينار واحد"[٧٣]. وزاد على ذلك بأنه كان يستعمل طعامًا للمواشي وهذا دليل على غزارة الإنتاج؛ وكما هو معروف في عروض التجارة أنه كلما زاد العرض رخص السعر. ومما يؤكد على ازدهار زراعة النخيل في هجر كثافتها، التي وصفها الشاعر بقوله:

حبس بين رملة[٧٤] وقف[٧٥] وبين نخل هجر الملتف[٧٦]

وكذلك اشتهرت هجر بصناعة المنسوجات التي تميزت بجودة حياكتها، حيث كانت تصدر البرود الهجرية والأثواب من صناعة هجر إلى مختلف النواحي، فقد ذكر ابن سعد أنها كانت تهدى لعلية القوم[٧٧].

إن ميناء العُقير يعتبر من المحطات التجارية البحرية التي يمر بها الطريق البحري المحاذي للساحل الغربي للخليج العربي، فكانت هذه المحطة تستقبل السفن التجارية القادمة من الصين، والهند، ومن جنوب الجزيرة العربية، وكذلك من البصرة وغيرها من البلاد الأخرى؛ كما أنها مرحلة من مراحل الطريق البري الذي يخرج من البصرة في اتجاه عمان بمحاذاة الساحل الشرقي للجزيرة العربية. وقد أشار الحربي عندما عدّد المراحل التي تقع على هذا المسار فقال: "وبَالعُقير منبر[٧٨] لبني الرجاف من عبدالقيس، وهي فرضة الصين، وعمان، والبصرة، واليمن على ساحل البحر"[٧٩] فنستدل من هذه الرواية أن ميناء العُقير كان أشهر موانيء البحرين من الناحية التجارية في العصر العباسي، فقد انتعشت تجارته وتوسعت، حيث كان يستقبل السفن التي تحمل البضائع النفيسة من أسواق الهند والصين وغيرها من

الآفاق الأخرى، خاصة بعد بناء بغداد واتخاذها عاصمة للخلافة الإسلامية، وتكاثر سكانها، لذلك غدا هذا الميناء من أهم موانيء البحرين التي يعج أسواقها بمختلف السلع والبضائع التجارية سواء المستوردة أو المنتجة محليًا.

ومما ساعد على ازدهار نشاط أسواق العُقير التجاري خبرة أهل البحرين بأعمال الملاحة، فكان لهم سفنهم التي تخرج في تجارهم الداخلية والخارجية. وساعدهم كذلك معرفتهم الجيدة بصناعة وسائل النقل البحري، ودرايتهم بالظروف المناخية، مثل العواصف والأنواء، وهبوب الرياح الموسمية، علاوة على ذلك فإن هذا الميناء يخدم منطقة الأحساء حيث لا يعد موقعه الجغرافي كثيرًا عنها، فهو فرضتها على البحر. وهذه المنطقة غنية كما أسلفنا بثرواها الزراعية والحيوانية والصناعية، وتضم قاعدة إقليم البحرين هجر العظمى، وغدت الأحساء مقرًا للدولة القرمطية التي شجعت على مزاولة مختلف الأنشطة الاقتصادية، وفي مقدمتها النشاط التجاري الذي ازدهر معه نشاط ميناء العُقير الذي يعد من أبرز المحطات التجارية في البحرين ويرتاده التجار في مختلف المواسم(٨٠).

وظل ميناء العقير الميناء الرئيسي لمنطقة الأحساء حتى وقت قريب، حيث حل محله ميناء الدمام في خدمة المنطقة تجاريًا بعد اكتشاف البترول في الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية.

جزيرة أُوال:

كانت من الموانيء الهامة في إقليم البحرين التي أسهمت في النشاط الاقتصادي للساحل الشرقي للجزيرة العربية في الفترة التي يعنيها البحث وفي العصور السابقة، بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي. فهي من المحطات التجارية للطريق البحري الواصل بين شمال الخليج العربي وجنوبه. تقصدها السفن التجارية من الصين، والهند، ومن اليمن، ومن البصرة، ومن بقية الأقاليم الأخرى(٨١)، ويدل على ذلك قول تميم بن أُبَيّ بن مُقْبل:

عَمَدَ الحُداةُ بها لعارضِ قَرْيَة فكأنَّها سُفُنٌ بِسِيفِ أُوَالِ(٨٢)

وقال جرير كذلك:

وشَبَّهْتُ الحُدُوجَ غَدَاة قَوٍّ سَفِين الهِندِ رَوَّحَ من أُوالاَ(٨٣)

وأُوال من مراكز اللؤلؤ التي يلتقي عندها التجار الذين يقصدونها من مختلف الأقطار، معهم الأموال الكثيرة، وأنواع السلع التجارية التي تختلف باختلاف الأقاليم حرًا وبردًا، وتختلف باختلاف طبائع الأرض، فليس في كل إقليم كل حاجاته إلا ما ندر، فالصناعات غير متحدة، كما أن درجة إجادها ليست متفقة في كل الأصناف، لهذا كان الإقبال على شراء اللؤلؤ الذي تكثر مصائده في جزيرة أُوال(٨٤). ويعتبر اللؤلؤ من السلع التجارية الكمالية الهامة التي تحمل إلى العراق وغيره؛ لتلبية حاجة السكان على اختلاف درجاهم وأذواقهم، فعلى سبيل المثال، نجد أن الحياة المدنية قد نضجت في مدينة بغداد في هذه الفترة، وفي المدن الأخرى، في إطار دولة الخلافة العباسية، وغيرها من الدويلات

المستفرعة عنها، فكان على التجار أن يلبوا مطالب الناس الذين زاد إقبالهم على شراء العطور، والتوابل، والأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية الفاخرة، والمجوهرات النادرة، لاستعمالات التجميل والزينة، واللؤلؤ يأتي في مقدمة أدوات الزينة ويفضل على غيره لما يتميز به من جودة ولمعان يبهر الأبصار[٨٥].

لقد امتازت جزيرة أُوال على المراسي الأخرى بسعة مراسيها وبعدها عن العوائق البحرية، إذ كانت مقصد القوافل البحرية الواردة من كل مكان، كما أشرنا من قبل، لكونها محطة تجارية تصب فيها تجارة الهند، والصين، والعراق، وخلاف ذلك، لهذا أصبحت سوقًا يلتقي عندها التجار القادمون من مختلف الآفاق، ومعهم السلع والبضائع المتنوعة؛ وفي نفس الوقت يشترون منها اللؤلؤ الذي يفضلونه على غيره[٨٦]، والذي تكثر فيها مصائده[٨٧]، فتنشط على أثر ذلك أسواقها. إن اللؤلؤ الذي تشتهر به البحرين وعُمان كان محل اهتمام الدولة العباسية، لهذا استحدثت ولاية للإشراف على أعمال الغوص، أضيفت إلى ولاية الخليج العربي[٨٨]. هذا ومما زاد في أهمية هذا الميناء أنه محاط بأرض خصبة تكثر فيها الزروع والنخيل، وفيها من العيون والآبار العذبة ما يسد حاجة أهلها، فازدهرت زراعتها، إلى جانب نشاطها التجاري الذي كانت تعج به أسواقها فإليها تجلب البضائع من أنحاء المعمورة، ففي هذه الأسواق كانت تباع طرائف الصين والهند مثل القمح، والأرز، والسكر، والبقول، والخزف، والمسك والعود، والكافور والدارصيني (القرفة) والحفائر الخزفية، واللبود، والعقاقير، والطواويس، والأقفال، والفضة، والسروج، والكاغد[٨٩]. وقد استمر هذا النشاط فيما بعد الفترة التي يعنيها البحث، يؤيد ذلك ما أشار إليه الإدريسي، بأن التجار يقصدون أسواق جزيرة أُوال ويقيمون بها الأشهر الكثيرة، يزاولون فيها نشاطهم التجاري؛ فكانت أسواقها في ذلك الحين موضع فخار ومصدر ثروات كبيرة[٩٠].

والخلاصة فإن جزيرة أُوال تعتبر من أهم موانيء الجزيرة العربية الشرقية على الخليج العربي، لا سيما وأن أهل هذه الجزيرة لهم خبرة واسعة في صناعة السفن ويتفوقون على أقرانهم في هذا المجال، وفي صيد اللؤلؤ وتجارته، فلهم خبرة ومعرفة بأوقات الغوص لاستخراج اللؤلؤ الذي تشتهر به سواحلها، فيعرفون أماكن وجود صدفه، لأن للصدف مراعٍ يتجول فيها ويتنقل إليها في أوقات معينة من فصول السنة، لا يعرفها إلا دليل ماهر. ويعطي الإدريسي خلاصة لمهمة الدليل، فيقول: "فإذا خرج الغواصون عن أُوال تقدمهم الدليل والغواصون خلفه في مراكبهم صفوفًا، لا تتعدى جريه ولا تخرج عن طريقه، فكلما مرّ الدليل بموضع من تلك المواضع التي يصاد فيها اللؤلؤ تنحىّ عن ثيابه وغطس في البحر ونظر، فإن وجد ما يرضيه خرج فأمر بحط قلاعه وأرسى دونه وحطت جميع المراكب حوله فأرست وانتدب كل غواص إلى غوصه"[٩١].

وعلاوة على ذلك كانت هذه المحطة تمتاز بموقعها الجغرافي المناسب حيث إنها تقع على الطريق البحري الذي يربط شمال الخليج بجنوبه، فكانت لها علاقة بحرية وتجارية مع الهند والصين باعتبارها محطة تجارية تمر عليها معظم السفن القادمة من مختلف الجهات في طريقها إلى العراق أو العائدة منه، وهي محملة بالسلع والبضائع، لهذا اجتمعت في

ســـوقها جميع التجارات والبياعات، من أهمها اللؤلؤ الذي يتوفر فيها بكثرة، بالإضافة إلى العطور، والطيب، والملابس الحريــرية، وغيرهـــا مـــن السلع الأخرى متباينة المصدر، والتي كانت ترد من مختلف البلدان ومنها تحمل للأسواق الأخرى.

ومـــن المـــوانيء الأخرى التي أسهمت في تجارة الجزيرة العربية في هذا الجانب، ميناء القطيف؛ الذي كان من المراكـــز الـــتجارية في هذه الفترة على ساحل الخليج الغربي، ونستدل على ذلك بما ذكره الحربي بأن القطيف مدينة كبيرة(٩٢)، تكثر تجارتها البحرية والبرية بحكم موقعها وقربها من سواحل جزيرة أُوال، وسهولة وصول السفن لمرساها الذي يعرف بالقُليعة(٩٣).

كمـــا أن محطة القطيف التجارية كانت تلتقي عندها طرق التجارة البرية فهي مرحلة من مراحل الطريق البري الســـاحلي الذي يخرج من العراق إلى جنوب الجزيرة العربية بمحاذاة الساحل الشرقي حتى عُمان ومنه إلى عدن(٩٤)، فكانت أسواقها عامرة بالتجارات التي تأتيها عن طريق البحر، أو ما تحمله القوافل البرية القادمة من الصحراء بالإضافة إلى مـــا تنـــتجه من حاصلات زراعية لخصوبة أرضها وتوفر مياه الري العذبة،بها وقد اشتهرت بكثرة المزروعات من أبـــرزها أشجار النخيل(٩٥)، وقد ذكرها الهمداني بأنها قرية عظيمة، فقال: (القطيف قرية عظيمة الشأن وهي ساحل أكـــبر من العُقير) (٩٦). وقال في موضع آخر: (العُقير من دونه وهو ساحل وقرية دون القطيف) (٩٧). نستنتج من هذه المقارنة، أن ميناء القطيف يخدم مدينة لها شأن عظيم كثيفة السكان تأتي إليه السفن التجارية ومعها السلع التجارية التي تجلـــب مـــن مختلف الآفاق، وتنقل منه بعض الصادرات الثمينة مثل اللؤلؤ والتمر، لهذا علا نجم القطيف الاقتصادي والحضـــاري فـــيما بعد حتى عدها البكري إحدى مدينتي البحرين بعد هجر(٩٨)، بل إنها أصبحت في القرن السادس الهجري عاصمة بلاد البحرين وأعظم مدنها(٩٩) فقد قال عنها ياقوت: "وهي مدينة بالبحرين، هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها" (١٠٠).

وكانـــت موانيء الجزيرة العربية على الساحل الغربي للخليج العربي على اتصال وثيق بالموانيء الأخرى الواقعة عـــلى ساحله الشرقي في الجانب الفارسي، ومما عزز العلاقة التجارية بين الجانبين القرب المكاني، حيث إنه لا يفصل بين هرمز والساحل العماني إلا مضيق يسهل قطعه لقصر المسافة بينهما، فكانت المراكب التجارية تنتقل بين الساحلين في مخـــتلف المواســـم. وقد زادت هذه الصلات التجارية في العصر العباسي الأول لكون المنطقتين تحت نفوذ الدولة العباســـية والتي حرصت على توفير الأمن لكافة محطات الخليج العربي، مما شجع على تنقل التجار بين الموانيء في يسر وســـهولة دون أن تعترضـــهم عوائق حدودية. هذا ويأتي في مقدمة الموانيء الواقعة على الساحل الشرقي في الجانب الفارسي عدة موانيء من أهمها:

ميناء هُرمز:

يعتبر ميناء هرمز من أهم موانيء الخليج العربي، لأهمية موقعه الجغرافي على مدخل الخليج من جهة المحيط الهندي،

فكــان هــذا الميناء يقوم بدور الوسيط التجاري، حيث يستقبل تجارة الشرق والغرب؛ لهذا اشتهر بنشاطه التجاري، ونستدل على ذلك من وصف الأصطخري لهذه الفرضة عندما قال: "وينتهي على ساحل هذا البحر إلى هُرْمُز، وهي فرضة كِرْمَان، مدينة غراء كثيرة النخل حارة جدًا"[١٠١]. وقال في موضع آخر: "إنما هي مجمع تجار كرمان... فرضة الـبحر وموضـع السوق... مساكن التجار في رستاقها متفرقين في القرى نحو فرسخين، وبلدهم كثير النخل"[١٠٢]. فكانت أسواق ميناء هرمز مليئة بالسلع والبضائع الهندية والصينية، منها التوابل، والأحجار الكريمة وخاصة الياقوت، والعقـاقير، والكـافور، والعنبر، والعود الهندي، وجلود النمور، والصندل الأبيض، والأبنوس، وجوز الهند، والفيلة، والـرماح، والمسـك التبتي[١٠٣]. ومن الصين الحرير والثياب الحريرية ومن اليمن البرود، والأدم، والعصائب، والعنبر الـثمين، والديـباج والورس، والبخور، والمرّ، والدروع، والسيوف، والنحاس، والزئبق[١٠٤]، ومن البحرين اللآلىء، والخيول، والنعام، وهناك سلع كثيرة تأتي من أقطار الجزيرة العربية الأخرى يضيق المجال عن حصرها.

وتشـتهر هرمـز بزراعة الكمون الكثير، والنيلج[١٠٥] الذي يفوق غيره في الجودة ويصدر إلى كل الآفاق[١٠٦]. وأيضًـا بعـض أنواع الحبوب من أبرزها الشعير الذي أشار إليه الإدريسي بقوله: "والشعير هو أكثر زراعاهم وجل حبوبهم"[١٠٧]. وكان الملح يكثر في المنطقة المجاورة للميناء، حيث يستخرج من تلال صخرية ناصعة البياض يتم تداوله في الأسواق، وهو من الصادرات ذات القيمة الكبيرة[١٠٨]. هذا ومن الطبيعي أن تزدهر أسواق هرمز ويرتادها أخلاط مـن الـتجار العرب والعجم، لتبادل البضائع والسلع التجارية التي تشتهر بها أسواقها الرائجة، لذلك كان هذا الميناء مساندًا لموانيء الجزيرة العربية وعلى وجه الخصوص الواقعة على الخليج العربي.

ويأتي ميناء سيراف[١٠٩] في مقدمة الموانيء الشرقية التي لها صلات تجارية قوية بموانيء البحرين وعُمان، لأنه يمثل مركـز الـتجارة العالمية في الخليج العربي، فقد كان يستقبل السفن الصينية الكبيرة الحجم وغيرها، والتي تحمل تجارة الشـرق المتنوعة، حيث كان يتعذر عليها الوصول إلى شمال وغرب الخليج، لعدم عمق المياه في هذا الجانب، فتتوقف عند ميناء سيراف في الجانب الفارسي، وتفرغ حمولتها فيه، ومن ثم تحمل وتنقل في مراكب صغيرة الحجم إلى الموانيء الأخرى، المتناثرة على ساحل الجزيرة العربية الشرقي وفي موانيء العراق[١١٠].

وممـا يؤيد صلة موانيء الجزيرة العربية على الخليج العربي بميناء سيراف ما ذكره السيرافي عندما قال: "إن أكثر السفن الصينية تُحَمّل من سيراف، وأن المتاع يُحْمَّلُ من البصرة وعُمان،وغيرها من سيراف، فيعبأ في السفن بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه"[١١١].

ويتضـح مـن هـذه الرواية وغيرها بأن ميناء سيراف غدا في هذه الفترة التي نعنيها بالبحث من أهم المحطات الـتجارية التي برزت فيها خدمة التجارة الشرقية، فقد أشاد الأصطخري وهو شاهد عيان، بعمران هذه المدينة الدال على سعة أهلها الاقتصادية فقال: "... إن سيراف تضاهي شيراز بحجمها وازدهارها، وأن بيوتها عدة طوابق مبنية من

خشـــب الساج المستورد من بلاد الزنج"[١١٢]. وأشار ابن حوقل في رواية قريبة من وصف الاصطخري، حيث قال: "سيراف وهي الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة جليلة، وأبنيتها ساج، وتتصل أبنيتها إلى جبل يطل على البحر ... وهـــي مـــن أغنى بلدان فارس"[١١٣]. وقد أشار المقدسي للباقة أسواقها؛ فذكر أنها دهليز الصين دون عُمان وخزانة فـــارس، وأن دورهـــا بنيت من خشب الساج والآجر، شَاهقة"[١١٤]. فهذه الروايات تعطينا صورة للنشاط التجاري والملاحي والعمراني لفرضة سيراف وأسواقها التي يرتادها التجار من كل مكان وخاصة من الساحل الشرقي للجزيرة العربـــية، فقد كانت من المحطات التجارية التي يزاولون فيها نشاطهم التجاري، لأنها من أثرى البلاد بسبب الازدهار التجاري الذي تتصف به أسواقها.

وقـــد أثـــنى المسعودي على مهارة الملاحين السيرافيين في أعمال الملاحة عبر البحار، وخبرتهم بالطرق البحرية الآمنة في تنقلاتهم البحرية إلى مختلف البلاد بمراكبهم المحملة بالسلع والبضائع متباينة المصدر، فقد ذكر أنهم وصلوا إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، وإلى غيره من الأقطار الأخرى[١١٥]، لهذا أصبحت سيراف محطة تجارية لكثير من المنتجات العالمية، فارتادها تجار الجزيرة العربية مع غيرهم لشراء ما تحتاجه أسواق بلادهم من مختلف التجارات،فكانت أسواقها مـــزدحمة بالسلع التجارية مثل الأخشاب، والطيب، والكافور، والحرير، وغير ذلك مما ينقل لها من سلع الصين والهند وبلاد فارس، فقد غدت من أهم المدن التجارية على الخليج العربي. وفي الوقت نفسه يتم تسويق ما يحمله التجار من السـلع الـتي تـتوفر في أقاليم الجزيرة العربية في هذه المحطة، كما أنها توفر على تجار الجزيرة العربية مشقة السفر إلى الأقطار البعيدة، طالما أن معظم المنتجات التجارية لتلك الأقطار متوفرة في أسواق فرضة سيراف القريبة منهم وبأسعار في متـــناول اليد، فمن الطبيعي أن تقوى العلاقة بين موانيء الساحل الشرقي للخليج العربي مع نظائرها على الساحل الغربي منه، لا سيما وأن هذه المنطقة جميعها تحت سيادة دولة الخلافة العباسية.

أيضًـــا كانـــت موانيء البحرين وعُمان على صلة وثيقة بميناء البصرة الذي أصبح أهم الموانيء العراقية في فترة البحث، لا سيما بعد أن توسع هذا الميناء وحل محل ميناء الأُبلة، فقد أصبح ميناء البصرة يزدحم بالسلع التجارية التي تجلب من كل الآفاق، في مقدمتها البضائع الهندية والصينية، فقد كانت هذه السلع تأتي إليه إما مباشرة وإما عن طريق مـــوانيء الجزيـــرة العربية الشرقية، لأنها كانت تقوم بدور حيوي في تجارة العراق المزدهرة في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[١١٦].

ففـــي البصـــرة يلتقي تجار الجزيرة العربية بتجار العراق وغيرهم من أخلاط التجار من مختلف الأقاليم؛ فكانت أســـواق البصرة تعج بحركة البيوع، حيث تتوفر فيها المنتجات العراقية والشامية، مع منتجات الصين، والهند، وبلاد الأفرنج[١١٧].

كانت السفن التي تخرج من ميناء البصرة في اتجاه جنوب الخليج العربي تمر في الغالب على معظم موانيء الجزيرة العربية على الخليج العربي، لتتزود بالمؤن أو للمبادلات التجارية، لأن الموانيء البحرينية والعمانية كانت تشكل محطات

مهمـــة لـــتجارة جـــنوب شرق أسيا، إضافة إلى ما يردها من السلع اليمنية أو الحبشية وغيرها من الأقطار الأخرى، فكانت السلع تتوفر في أسواقها وبكثرة مثل الفلفل، والزعفران، واللبان، والقرفة، والمسك، والحديد، والعنبر، واللؤلؤ وغير ذلك من أنواع السلع والبضائع المتنوعة فكان ينقل الكثير منها إلى العراق حيث مركز الخلافة والأسواق الرائجة.

ولا شك في أن هذه الموانيء التي أشرنا إليها على الساحل الشرقي للخليج العربي أو في شماله كانت ذات أهمية كـــبيرة في ربـــط الحركة التجارية بين ساحل الجزيرة العربية الشرقي وتلك المناطق، ولذا كان من الأهمية الإشارة إلى الحـــركة الـــتجارية بين موانيء البحرين وعمان وبلاد فارس والعراق في هذه الفترة، وبشيء من الإيجاز، فقد كانت التجارة تدر على أصحابها أرباحًا واسعة من الثروة. ونتيجة لذلك كان أهل سيراف يسكنون مساكن شاهقة مبنية من خشـــب الساج الهندي الثمين، وقد عدهم الرحالة من أغنياء التجار. وفي الوقت نفسه كان التجار العمانيون لهم باع طويـــل في الـــتجارة فقد كانوا يلعبون دورًا هامًا في التجارة الدولية، حيث نجد أن هناك إشارات في مصادر البحث تذكـــر أن الـــتجار العمانيين وصلوا إلى المراكز التجارية في الصين والهند، وكذلك في أفريقيا، وكانوا يتحدون جميع المخاطر ، لهذا شاطروا غيرهم في السيطرة على التجارة في الخليج العربي، وعملوا على منافسة تجار سيراف والبصرة في تجـــارة جنوب شرق أسيا، ووصلوا إلى مجاهل أفريقيا، فكانت لهم علاقات تجارية مع مختلف مناطق التبادل التجاري الخارجية في الصين، والهند، وشرق جنوب أفريقيا، ولا نستبعد هذا فقد كانت لهم السيادة على مدخل الخليج العربي الجـــنوبي، وقـــد ساعدهم على ذلك معرفتهم بمسالك الطرق البرية والبحرية، وخبرتهم بالأوقات الصالحة للرحلات التجارية والملاحة في البحر العربي والمحيط الهندي فضلاً عن الخليج العربي.

الخاتمة

يتـــبين مـــن البحث اتساع رقعة سواحل الجزيرة العربية الشرقية مما أهّلها لنشاط تجاري بارز في الفترة موضع الدراســـة، فكانـــت لهـــا صلات تجارية بمناطق التبادل التجاري، حيث تمر بها بعض طرق التجارة العالمية في العصر العباســـي، سواء البرية منها، أو البحرية، فقد تميزت موانيء هذا الجانب بموقعها الذي يربط بين المنطقة الموسمية المتمثلة في أقطار جنوب شرق آسيا مثل: الهند والصين والتي اشتهرت بإنتاج التوابل والصناعات الحريرية والصوفية، والمنطقة الأخـــرى أقطار حوض البحر المتوسط التي اشتهرت بإنتاج الحبوب وبعض المصنوعات المترلية، مما مكن تجار الجزيرة العربية في ساحلها الشرقي من مزاولة نقل السلع التجارية بين هاتين المنطقتين بالإضافة إلى ما تسهم به الجزيرة العربية من إنتاج أقاليمها من السلع والبضائع التي تدخل ضمن عروض التجارة.

فكانت المراكب البحرية التجارية تستخدم كثيرًا من الموانيء المنتشرة على طول شواطيء الجانب الشرقي، فقد لعبت دورًا بارزًا في النشاط التجاري كمحطات هامة بحكم كونها مراكز تصدير واستقبال للسلع التي يحملها العديد مـــن الـــتجار الذيـــن يرتادون أسواق الجزيرة العربية في مختلف المواسم، ومعهم البضائع التجارية من مناطق التبادل التجاري سواء القريب منها أو البعيد، ومن أبرز هذه الموانيء، ميناء مسقط، وميناء صحار، وموانيء شبه جزيرة قطر،

وميـــناء العقـــير، وميناء جزيرة أوال، وميناء القطيف، وقد أوضح البحث نشاط كل ميناء وتعد هذه الموانيء من أهم المراكز التجارية، التي كانت تستقبل السفن الآتية من الهند والصين وشرق إفريقية ومن جنوب الجزيرة العربية والمتجهة إلى ســيراف والبصــرة وغيرها من الموانيء الأخرى الواقعة على الجانب الشرقي للخليج العربي أو شماله، وبالعكس، بالإضافة إلى القوافل البرية التي تربطها ببقية أقاليم الجزيرة العربية الأخرى.

التعليقات

(١) يبلغ أقصى عرض الخليج العربي ٣٨٦كم، وأقصى ضيق له حوالي ١٢٩كم، ويبلغ طوله من ساحل عمان إلى نهايته عند سهول بلاد الرافدين ٧٢٢كم، وتبلغ مساحته الكلية ١٤٥,٠٠٠كم٢، (الهاشمي، رضا جواد، *النشاط التجاري القديم في الخليج العربي وآثاره الحضارية* (بغداد: مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٢، لعام ١٩٨٠م)، ٦٨.

(٢) ســيراف: هــي مديــنة جليلة على ساحل بحر الخليج العربي الشرقي في بلاد فارس، وهي قديمًا كانت فرضة الهند، فهي مدينة عظــيمة، أغــنى بــلاد فارس. ياقوت، شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله، (ت ٦٢٦هـــ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م)، ٣: ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣) يوسف، محمد، *علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري*، المجلد ٥ (القاهرة: مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م)، ١: ١٦- ٢٠.

(٤) الطــبري، أبوجعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـــ/٩٢٢م)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ٧: ٦١٤.

(٥) الشـــامي، أحمـــد، *العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى* (بغداد: مجلة المؤرخ العربي، ١٩٨٠م)، العدد ١٢، ١٠٦.

(٦) الشامي، أحمد عبدالحميد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى*، حصاد الندوة الرابعة التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة، رجب ١٤١٧هـــ/ نوفمبر ١٩٩٦م، ١١٩.

(٧) ابن الفقيه، أبوبكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت ق ٣هـــ/ ٩م)، *مختصر كتاب البلدان* (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٣هـــ)، ١١.

(٨) وقد ورد في الشعر العربي أدلة على معرفة العرب من سكان هذه المنطقة قبل الإسلام، لصناعة السفن، وخوضهم عباب البحر، من ذلك ما ورد في معلقة طرفة بن العبد:

كـــأن حُدوجَ المالكيةِ غــدوةً   خلايا سفينٍ بالنواصــفِ من دَدِ
عَدَوليةٌ أو من سفينِ ابن يامـــنٍ   يجورُ بهـــا الملاحُ طورًا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومُها بهـــا   كمـــا قَسَمَ الترب المفايلُ باليد

وقد قال ياقوت: (عدولي قرية بالبحرين تنسب إليها السفن)، معجم البلدان، ٤: ٩٠؛ وقد اشتهر أزد عمان باحتراف الملاحة، فقال عنهم أحد الشعراء :

"إذا أزديــة ولــدت غلامًـــا   فبشرهـــا بمــــلاح مجيـــــد"

انظر، أحمد محمد عبدالعال، *دور الخليج في حركة التجارة في العصر العباسي الأول*، وانظر شرح القصائد العشر. صنفه الخطيب

التـبريزي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط٤ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٩٧-٩٨؛ من بحوث ندوة مكانـة الخلـيج العـربي في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، فبراير ١٩٨٥م، ١٠٧؛ وكان العمانيون يصنعون السفن، بعد أن يحصلوا على الأخشاب من الجزر الهندية. أشار لذلك أبوزيد السيرافي، في معرض حديثه عن هـذه الصناعة لدى العمانيين. رحلة السيرافي، ١٠٠؛ وانظر العاني، عبدالرحمن، *دور العمانيين في الملاحة والتجارة حتى القرن الرابع الهجري* (سلطنة عمان: نشر وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١م)، ١٢- ١٣.

(٩) كان أرباب السفن على معرفة باختلاف مهاب الرياح على كل من الخليج العربي والمحيط الهندي، طبقًا لمنازل الشمس والبروج، فكـانوا يعـرفون هبوب الرياح، فقد ذكر المسعودي بأنه كانت لهم دلائل وعلامات يعملون بها أبان هيجانه وأحوال ركوده وثوراتـه، (*مـروج الذهب*، ١: ١٢٩)؛ وأضاف ابن رسته إيضاحًا لهذا الأمر، فقال: (وأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخـول الشـمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي، فلا يزال في كل يوم تكثر أمواجه وتتقاذف، ويصعب ظهره إلى أن تصير الشـمس إلى الحوت. وأشد ما يكون صعوبة ظهره وكثرة أمواجه وشدته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس، فـإذا كان قرب الاستواء الربيعي يبتدئ في قلة الأمواج ولين الظهر وسهولة المركب إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة، وألين ما يكـون ظهرًا وأسهل مركبًا في آخر زمان الربيع وهو عند كون الشمس في الجوزاء ... وأما بحر الهند، فإذا صارت الشمس في السنبلة تقل ظلمته وتنقص أمواجه ويلين ظهره ويسهل مركبه إلى أن تصير الشمس في الحوت. وألين ما يكون ظهرًا عند كون الشـمس في القـوس). ابن رسته، أبوعلي أحمد بن عمر، (كان حيًا سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م)، *الأعلاق النفيسة*، نشر بعناية دي غويـه، (ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م)، ٨٦- ٨٧؛ ويشهد الخليج العربي هبوب رياح شمالية غربية ويستمر هبوبها ٩ أشهر في السنة، وتهب عليه كذلك رياح جنوبية غربية، وجنوبية شرقية، الهاشمي، المرجع السابق، ص٦٨.

(١٠) كَلَـه، فرضة بالهند، وهي محطة في منتصف الطريق بين عُمان والصين وموقعها من المعمورة في طرف الاستواء؛ (ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ٤٧٨).

(١١) سـليمان الـتاجر (ت ٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، السيرافي، أبوزيد (كان حيًا سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، *أخبار الصين والهند*، تحقيق: إبراهيم خوري (بيروت: مطبوعات دار الموسم للأعلام، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ٧٠.

(١٢) ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ١١- ١٢؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، *تقويم البلدان* (بيروت: دار صادر)، ٣٩١؛ ومدينة كَوْلَم هي أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها لهم أموال عريضة، انظر ابن بطوطة، أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧هـ)، *رحلة ابن بطوطة*، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٥٧٥.

(١٣) سلمان، التاجر، أخبار الصين والهند، ٣٦.

(١٤) الألوسـي، عادل محيي الدين، *تجارة العراق مع أندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري أواخر القرن الثالث عشر الميلادي*، ٢٥٤.

(١٥) كـان أهـلها يفضلونها على البصرة لشدة عمارتها وحسن دورها، ولباقة أسواقها ويسار أهلها وبعد صيتها. (السيرافي، *أخبار الصين والهند*، ١١٠).

(١٦) المسعودي، أبوالحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد (بيروت: دار المعرفة، ١٩٤٨م)، ١/١٤٩.

(١٧) الفرسخ يتألف من ٣ أميال، أي أن طول الفرسخ كان حوالي ٦كم، (فالترهنتس، *المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري*، ترجمة: كامل العسلي، (عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م)، ٩٤.

(١٨) الدردور وجمعها دردورات، وهي ثلاثة، أحدها بالقرب من جزيرة بني كاوان والثاني بالقرب من جزيرة قِمّارَ (موضع بالهند)، والثالث في آخر الصين، والدردور هو مضيق بين جبلين (أبوالفداء، *تقويم البلدان*، ٣٧٣؛ وانظر أحمد عبدالعال، *دور الخليج في حركة التجارة البحرية في العصر العباسي*، ١٢١.

(١٩) الجبلان هما كُسير وعوير وهما في وسط البحر الشرقي ويظهران على الماء شيئًا يسيرًا ويخاف على المراكب في ذلك الموضع وهما عن عمان في البحر خمسون فرسخًا؛ (أبوالفداء، *تقويم البلدان*، ٣٦٩).

(٢٠) ابن الفقيه، كتاب *مختصر البلدان*، ١١؛ وانظر البكري، أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد، (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، *جزيرة العرب*، من كتاب *الممالك والمسالك*، تحقيق: عبدالله يوسف الغنيم (الكويت: المطبعة العصرية، ١٣٩٧هـ)، ٦٢٦.

(٢١) المسعودي، مروج الذهب، ١/١٤٠.

(٢٢) المسعودي، المصدر السابق، ١٠٧.

(٢٣) المسعودي، المصدر السابق، ١٣٨.

(٢٤) المسعودي، المصدر السابق، ١/١٦٨.

(٢٥) البياسرة، مصطلح يراد به من ولد من المسلمين بأرض الهند، وأحدهم بيسر وجمعهم بياسرة، المسعودي، المصدر السابق، ٢١٠.

(٢٦) المسعودي، المصدر السابق، ٢١٠.

(٢٧) الأصطخري، ابن اسحق إبراهيم محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، *المسالك والممالك*، تحقيق: محمد جابر عبدالعال الجيني (القاهرة: دار القلم، ١٣٨١هـ/ ١٩٩١م)، ٢٧.

الجرم: الحر فارسي معرب والجمع جروم، وأرض جرم توصف بالحر، وفواكه الجروم هي فواكه المناطق الحارة، ابن منظور، جمال الدين أبوالفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، *لسان العرب*، إعداد وتصنيف يوسف خياط (القاهرة: دار المعارف)، ١: ٤٤٧.

(٢٨) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٦.

(٢٩) الشامي، أحمد، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ٩٠.

(٣٠) المسعودي، *مروج الذهب*، ١/١٤٩.

(٣١) الأصطخري، المسالك والممالك، ٢٧.

(٣٢) بلغ طول مرسي مينائها فرسخًا في عرض فرسخٍ، كروما، أدولف، صحار، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٤، نشر طهران، ١٤٦- ١٤٨.

(٣٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت، دار صادر، ١٩٨٠م)، ١: ٢٧٠؛ وتقوم هذه السوق لعشرين يومًا من رجب؛ المرزوقي، أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ/ ١٠٢٠م)، *الأزمنة والأمكنة* (حيدر أباد: الدكن، مطبعة مجلس إدارة المعارف، ١٣٢٢هـ)، ٢: ١٦٣؛ وانظر كذلك، حمور، عرفان بن محمد، *أسواق العرب* (بيروت: دار الشورى، ١٩٧٠م)، ١٧٨.

(٣٤) العـــاني، عبدالرحمن، *دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري* (وزارة التراث القومي والثقافي في سلطنة عمان، ١٩٨١م)، ٢٩- ٣٠.

(٣٥) كان هناك نوعان من السفن تستخدم في نقل التجارة بين الصين وبلاد العرب. الأولى مصنوعة على شكل ألواح صفوف، تثقب من أطرافها لتدق بها المسامير الخشبية، وتشد بألياف النخيل، ثم تطلى قيعانها بزيت السمك ولها سارية واحدة، وتستخدم الحبال في الأرساء. أما النوع الثاني من السفن فهي مراكب كبيرة لاجتياز مالا يجتازه غيرها من السفن الصغيرة من المضايق والممرات، (بولو، ماركو (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م)، *رحلات ماركوبولو*، ترجمة: عبدالعزيز جاويد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م)، ٥٨، وتذكـر بعـض الأبحـاث أن سفن الخليج ومراكب البصرة بيضاء لأنها تستخدم الشحم والنورة في طلائها، (الحمارنـة، صـالح، *دور الأُبلة في تجارة الخليج* (الكويت، مجلة المؤرخ العربي)، العدد ٤، ٤٩). ويبدو أن العرب التجار كانوا يفضلون الإبحار بالسفن الكبيرة من صحار إلى المحيط الهندي أو البحر العربي، حيث يتوفر لهم الأمان على تجارتهم، لتوفر الحماية من قبل الحراس المرافقين للتجار.

(٣٦) الدِّهْلِـيزُ: ما بين الباب والدار؛ (الرازي، محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م) *مختار الصحاح* (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ١٠٨، وأضاف ابن منظور والدهليز الجيئة، *لسان العرب*، ١٠٢٦/١). وأعتقـد أن هذا كناية على استمرار الاتصال بين صحار والصين حتى كأنها في القرب مثل ما بين الباب والدار.

(٣٧) ابن حوقل، أبوالقاسم محمد البغدادي (ت نحو ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، *صورة الأرض* (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٧٩م).

(٣٨) المسـك من العطور الزكية الرائحة، فالمسك هو مادة حيوانية تستخرج من غدة في بطن حيوان يعرف بقط الزباد، والمسلك من أغلى العطور ثمنًا، ظل حكرًا على المترفين، وصار مظهراً من مظاهر الأبهة، الألوسي، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا، ٢١٨.

(٣٩) زيتون، محمد محمود، *الصين والعرب عبر التاريخ* (القاهرة: دار المعارف)، ٢٥- ١٠٤.

(٤٠) الزابج: أي النارجيل، لزيادة في الشرح انظر الألوسي، المرجع السابق، ٢٥٢.

(٤١) ذكـر المسعودي بأن للطواويس في الهند شأن عظيم، والذي يحمل منها إلى أرض الإسلام وتخرج عن أرض الهند فتبيض وتفرخ تكون صغيرة الأجسام وتشبه بالهندية بالشبه اليسير، *مروج الذهب*، ٢: ٣٨.

(٤٢) ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ١٥- ١٦.

(٤٣) المقدسـي، أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّا الحنفي (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩م)، ٩٢.

(٤٤) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، *جزيرة العرب منتزهة المشتاق*، تحقيق: إبراهيم شوكة (بغداد: مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، المجلد ٢١، ٤٠- ٤١.

(٤٥) المصدر السابق، ٤١.

(٤٦) المسـري، عـلي بـن حسين، *العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي* (بيروت: دار الحداثة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ١٤٥- ١٤٦، ٣١٠.

(٤٧) الشـامي، أحمد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى*، حصاد ٤ ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، رجب ١٤١٧هـ/ نوفمبر ١٩٩٦م، ١٤٤.

(٤٨) ابـن الأثـير، أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ*، باعتناء

الشيخ عبدالوهاب النجار (القاهرة: ١٣٥٧هـ)، ٧: ١٧، ٥٧.

(٤٩) القــرامطة: شيعة عملوا على نشر المذهب الإسماعيلي وعُرفوا بهذا الاسم، نسبة إلى كبير دعامتهم، حمدان بن الأشعث، الملقب بقــرمط لصغر قامته ورجليه؛ (سرور، محمد جمال، *نفوذ الفاطميين في جزيرة العرب* (القاهرة، ١٩٥٦م)، ٢١). وهناك إجماع بــين الباحثين على ارتباط أصول القرامطة بالدعوة الإسماعيلية، انظر، زعرور، إبراهيم، ***العلاقات بين قرامطة البحرين والخلافة الفاطمية في مصر***، اتحاد المؤرخين العرب، حصاد ٤، ٢٠١.

(٥٠) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، *تاريخ ابن خلدون*، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، ١٩٥٧م، ١٩٨/٤؛ ولمزيد من المعلومات انظر، Wendell Phillips, Omana historg, London ١٩٠٦, p.١٣.

(٥١) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٧، ١٦٠.

(٥٢) ابــن رســته، الأعلاف النفيسة، ١٨٢؛ ولمزيد من المعلومات انظر أحمد، العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى، ١١٦.

(٥٣) الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد ابن علي الأكــوع (الــرياض: دار اليمامة، ١٩٧٤م)، ٥٧، ٢٥٩- ٢٨٠؛ زريق، قسطنطين، التجارة الإسلامية، مجلة المقتطف، الجزء الخامس من المجلد ٧٨ سنة ١٩٣٥م، ٥٤٢ وما بعدها.

(٥٤) الشامي، أحمد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي، والسواحل الغربية للهند*، ١١٩.

(٥٥) المسعودي، *مروج الذهب*، ١: ١١٠.

(٥٦) عَــبّادان: هــو موضع تحت البصرة قرب مياه الخليج، وهذا الموضع في الجزيرة بين النهرين على الطريق إلى سيراف في الجانب الفارسي؛ (ياقوت) *معجم البلدان*، ٤: ٧٤.

(٥٧) سَــفْوَان: ماء بين المِرْبَد والبصرة، وأصبح بلدة بين البصرة والكويت، وهو في الحدود العراقية، انظر، هامش ٣ صفحة ٥٧ من الهمداني، *صفة جزيرة العرب*.

(٥٨) كاظمَة: تقع على سيف الخليج العربي في دولة الكويت، البكري، *جزيرة العرب*، ٥٠، هامش رقم ١.

(٥٩) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٥٧؛ وانظر، البكري، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ١٩، ٢٠، ١٠٨.

(٦٠) العُقَيْرُ: تقع على خليج البحرين إلى الجنوب من القطيف، البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٦؛ وقال عنها ياقوت: "القصير مدينة على البحر بينها وبين هجر ليلة"، *معجم البلدان*، ٤: ١٣٨.

(٦١) ابــن خرداذبة، أبوالقاسم عبيدالله بن عبدالله بن أحمد (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، *كتاب المسالك والممالك* (ليدن: مطبعة برايل، ١٩٦٧م)، ٦٠.

(٦٢) ماركو بولو، رحلات ماركوبولو، ٥٥- ٥٨.

(٦٣) وســواحل قطــر من أشهر مغاصات اللؤلؤ؛ (شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)، *كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر* (ليبزج: ١٩٢٣م)، ٧٨، فكان اللؤلؤ من أهم حاصــلات أهل قطــر، مثــلهم في ذلك مثل أهل جزيرة أوال، وعُمان. انظر، المسري، حسين علي، ***العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي في العصر العباسي*** (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٢م)، ٢٣٨.

(٦٤) أبـــو العتاهـــية: هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد، الشاعر المعروف، نشأ بالكوفة وسكن بغداد، كانت ولادته سنة ١٣٠هـــ وتوفي سنة ٢١٣هـــ ببغداد؛ ابن خلكان، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٠٨هـــ/ ١٢١١م - ٦٨١هـــ/ ١٣٧٩م)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٩٨هـــ/ ١٩٧٨م)، ١: ٢١٩- ٢٢٣.

(٦٥) الجـــاحظ، أبـــو عـــثمان عمـــرو بن بحر بن محبوب بن طراد الكناني البصري (ت ٢٥٥هـــ/ ٨٦٨م)، *البيان والتبيين*، تحقيق: عبدالســـلام هـــارون، لجنة التأليف والترجمة (القاهرة: ١٩٤٨م)، ٣: ١٢١؛ ولمزيد من المعلومات انظر السيف، عبدالله محمد، *الصـــناعة في الجزيرة العربية في العصر العباسي*، الرياض، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد ١٢، العدد ٢، ١٩٨٥م، ٣٣٣- ٣٣٤.

(٦٦) الشافعي، أبوعبدالله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـــ/ ٨١٩م)، *الأم* (بولاق: المطبعة الأميرية، ١٣٢١هـــ)، ١: ١٧٤؛ ولمزيد من المعلومات انظر، العاني، عبدالرحمن عبدالكريم، *البحرين في صدر الإسلام، وأثرها في حركة الخوارج* (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٣م)، ٨٣.

(٦٧) الجوهـــري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٧هـــ/ ١٠٠٧م)، *الصحاح*، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار (القاهرة: مطابع دار الكتاب العـــربي، ١٣٧٦هـــــ/ ١٩٥٦م)، ٢: ٧٩٦؛ ابـــن سيده، أبوالحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـــ/ ١٠٦٥م)، *المخصص* (بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣١٦هـــ)، ٤: ١٣٥.

(٦٨) ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـــ/ ٨٥٥م)، *المسند* (القاهرة: ١٣١٣هـــ)، ٥: ٢٤، ٦: ١٤٧.

(٦٩) ابن منظور، *لسان العرب*، ج٣، ص١١٤.

(٧٠) الشامي، أحمد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى*، ١١٦.

(٧١) المـــيداني، أبوالفضـــل أحمـــد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـــ/ ١١٢٤م)، *مجمع الأمثال* (القاهرة: ١٣٥٢هـــ/ ١٩٣٣م)، ٢: ٩٨.

(٧٢) مَنّ، والمن وهو المينة القديمة، يساوي شرحًا رطلين، كل رطل ١٣٠ درهمًا. هنتس، فالتر، *المكاييل والأوزان الإسلامية*، ترجمة: كامل العسلي، ٤٥.

(٧٣) خســـرو، ناصـــري علوي (ت ٤٨١هـــ/ ١٠٢٧م)، *سفر نامة*، ترجمة: يحيى الخشاب (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٤هـــ/ ١٩٤٥م)، ٩٤.

(٧٤) الرملة: قرية بني عامر بن بني عبدالقيس بالبحرين. ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٦٩.

(٧٥) قُـــفُ، ما ارتفع من الأرض وغُلظ، وهو جبل غير أنه ليس بالطويل. فيه إشراف على ما حوله، وقيل هي قفاف الصمان وهي بلاد عريضة؛ ياقوت، المصدر السابق، ٤/٣٨٤.

(٧٦) القـــالي، أبوعـــلي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـــ/ ٩٦٦م)، *الأمالي* (دار الكتب المصرية، ١٣١٤هـــ/ ١٨٩٦م)، ٢: ١٠٠.

(٧٧) ابن سعد، محمد الزهري (ت ٢٣٠هـــ، ٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر)، ١: ٢٦٢.

(٧٨) المقصـــود بالمنبر المكان الذي تقام فيه الجمعة، ويتفق الفقهاء على أن من شروط إقامته وجود مجتمع مقيم ذو عدد كاف، ويرى البعض ضرورة وجود وال فيه دون أن يعينوا مكان ذلك الوالي، العاني، عبدالرحمن، *البحرين في صدر الإسلام*، ١٢٠.

(٧٩) الحربي، إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، *المناسك وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، مطبعة المتنبي، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ٦٢٠- ٦٢١.

(٨٠) زكار، سهيل، *الدولة القرمطية في البحرين* (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، حصاد الندوة (٤)، ١٣٥.

(٨١) البكري، *جزيرة العرب*، ص١٣٦، وأوال هي الجزر التي تتكون منها مملكة البحرين حاليًا.

(٨٢) ياقوت، *معجم البلدان*، ١/٢٧٤.

(٨٣) البكري، *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، حققه وضبطه مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١: ٢٠٨، والشاعر جرير بن عطية بن الخطفي من فحول شعراء الإسلام، عاش في العصر الأموي، وكانت وفاته في سنة إحدى عشرة ومائة، انظر ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ١: ٣٢٦.

(٨٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ١٠١.

(٨٥) نصر، علي منصور، *مكانة الخليج العربي التجارية في العصر العباسي، اتحاد المؤرخين العرب*، ندوة طرق التجارة العالمية (القاهرة: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ٤٢٥.

(٨٦) الجاحظ، *كتاب التبصر بالتجارة* (مصر: مكتبة الخانجي)، ٣٢؛ المسري، حسين، *العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي*، ٢٣٤.

(٨٧) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٣؛ المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ١٠١؛ شيخ الربوة، *نخبة الدهر وعجائب البر والبحر*، ٧٨.

(٨٨) العسكري، سليمان إبراهيم، *التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي* (الكويت: مؤسسة الشراع، ١٩٨٨م)، ١١٣.

(٨٩) الجاحظ، *التبصر بالتجارة*، ٢٦؛ اليعقوبي، *كتاب البلدان* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٠، ١٢٠ - ١٢٥؛ ولمزيد من التفصيل انظر، نصر، مكانة الخليج العربي التجارية في العصر العباسي، ٤٣٣.

(٩٠) الإدريسي، *جزيرة العرب*، ٥١- ٥٢.

(٩١) الإدريسي، *جزيرة العرب*، ٥٢.

(٩٢) الحربي، *المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة*، ٦٢١.

(٩٣) القُليعة -بالتصغير- بالبحرين لعبدالقيس. وأهل القطيف يطلقون اسم القلعة على القسم الذي يقع على ساحل البحر من مدينتهم، وقد يكون الاسم حديثًا، انظر الهامش رقم ٢ صفحة ٦٢١، الحربي، المصدر السابق.

(٩٤) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٢٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ٤٧.

(٩٥) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٦.

(٩٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٥٧.

(٩٧) الهمداني، المصدر السابق، ٢٧٩، ٣١٧.

(٩٨) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٥.

(٩٩) البكري، المصدر السابق، ١٣٦.

(١٠٠) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤/٣٧٨.

(١٠١) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٣١.

(١٠٢) الأصطخري، المصدر السابق ، ١٠٠.

(١٠٣) عبدالجواد، ليلى، *الحياة في هرمز في العصور الوسطى* (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، حصاد (٤) ندوة عقدها الاتحاد، ١٤١٧هـ)، ٣٤٧.

(١٠٤) الجاحظ، *التبصر بالتجارة*، ص٢٧؛ ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ٢٥٢؛ المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٧؛ ماركوبولو، *رحلات*، ٤٥.

(١٠٥) النيلج، نوع ممتاز من النيلة يستخدم في صناعة اللون الأزرق؛ عبدالجواد، *الحياة في هرمز*، ٣٦٢ هامش رقم ١٠٤.

(١٠٦) الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الأفاق* (بيروت: بدون تاريخ)، ١: ٤٣٦.

(١٠٧) الإدريسي، المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(١٠٨) سونيا، هو، *في طلب التوابل*، ترجمة: محمد عزيز رفعت (القاهرة: ١٩٥٧م)، ١٥٠؛ عبدالجواد، المرجع السابق، ٣٤٨.

(١٠٩) مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، فرضة الهند، وكانت أغنى بلاد فارس، ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ٢٩٤- ٢٩٥.

(١١٠) التاجر، سليمان، والسيرافي، أبوزيد، أخبار الصين والهند، ٣٥.

(١١١) السيرافي، المصدر السابق، ٣٥.

(١١٢) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٣١.

(١١٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٤.

(١١٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٤٢٦- ٤٢٧.

(١١٥) المسعودي، *مروج الذهب*، ١: ١٠٨.

(١١٦) العسكري، سليمان إبراهيم، *التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي* (القاهرة: مطبعة مدني، ١٩٧٢م)، ٩٤؛ القوصي، عطية، تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، نشرة دورية تصدر عن قسم الجغرافيا، جامعة الكويت، ٨- ٩.

(١١٧) الجاحظ، *التبصر بالتجارة*، ١ وما بعدها.

Studies in the History of Arabia

Vol. V

Arabia from the rise of the Abbasid State to the end of the ٤th century A. H.

(part one)

Editorial Committee

Prof. Dr. Abdulaziz S. Al- Hilabi

Prof. Dr. Mohammed al- Jameel **Prof. Dr. Ahmad O. Al- Zaylai**

Dr. Moshalleh K. Al- Moraekhi **Dr. Khalid A. Al- Bakr**

دراسات في تاريخ الجزيرة العربية

الكتاب الخامس

الجزيرة العربية

من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري

(الجزء الثاني)

هيئة التحرير

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي　　أ. د. محمد بن فارس الجميل

د. مشلح بن كميخ المريخي　　د. خالد بن عبدالكريم البكر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كلية الآداب قسم التاريخ

الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري/كلية الآداب قسم التاريخ - الرياض، ١٤٢٦هـ

٢ مج

ردمك : ٤ - ٩٢٦ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٠ - ٩٣١ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (ج٢)

١- الجزيرة العربية - تاريخ- العصر العباسي　　أ- العنـوان

ديوي٩٥٣,٧٣٩١　　١٤٢٦/٦٠٤٣

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٦٠٤٣

ردمك : ٤ - ٩٢٦ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٠ - ٩٣١ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (ج٢)

النشر العلمي والمطابع ١٤٢٧هـ

المحتويات

(الجزء الأول)

دراسات تاريخ في الجزيرة العربية

هــذا عــنوان لسلســلة من الدراسات في تاريخ الجزيرة العربية، تحتوي على الأبحاث التي قدمت في الندوات العالمية الخمس. كانت الندوة الأولى نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب، بجامعة الملك سعود (الرياض آنذاك) في جمادى الأولى ١٣٩٧هـــ (أبــريل/ نيسان ٩٧٧م)، وموضوعها: "مصادر تاريخ الجزيرة العربية" ويحوي أبحاثها الكتاب الأول في جزأين.

أما الندوة العالمية الثانية فكان قد اشترك في الإعداد لها وعقدها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بالكلية ذاتها، في جمادى الأولى ١٣٩٩هــ (أبريل/نيسان ١٩٧٩م) وموضوعها:

"الجزيرة العربية قبل الإسلام" ويضم أبحاثها الكتاب الثاني.

أمــا الــندوة العالمــية الثالثة التي نظمها القسمان فعقدت في الفترة ١٥-٢١ محرم ١٤٠٤هــ (٢١-٢٧ أكــتوبر/تشرين الأول ١٩٨٣م)، وموضوعها: "الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين"، ويضم أبحاثها الكتاب الثالث بجزئين.

وأمــا الندوة العالمية الرابعة التي نظمها القسمان وعقدت في الفترة ٧-٩ ذي القعدة ١٤٢٠هــ (١٣-١٥ فــبراير/ شــباط ٢٠٠٠م) وموضوعها: "الجزيرة العربية في العصر الأموي"، فإن أبحاثها يضمها الكتاب الرابع بجزء واحد.

وأما الندوة العالمية الخامسة التي نظمها القسمان فقد عقدت في الفترة ٢١- ٢٣ محرم ١٤٢٤هــ (٢٤- ٢٦ مــارس/ آذار ٢٠٠٣م) وموضوعها: "الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، ويضم أبحاثها هذا الكتاب وهو الكتاب الخامس من حيث التسلسل.

والقســمان يعدان الآن لعقد الندوة العالمية السادسة لتاريخ الجزيرة العربية وموضوعها: "الجزيرة العربية من بداية القرن الخامس حتى نهاية القرن السابع الهجري"، وسوف تنشر أبحاثها في الكتاب السادس إن شاء الله.

لجان الندوة

أولاً: اللجنة التحضيرية

١- أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	رئيساً
٢- د. عويضة بن متيرك الجهني	رئيس قسم التاريخ	نائباً للرئيس
٣- د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	نائباً للرئيس
٤- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	مقرراً للجنة
٥- أ. د. عبدالله بن محمد السيف	قسم التاريخ	عضواً
٦- أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٧- أ. د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضواً
٨- أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضواً
٩- د. عبدالله بن إبراهيم العسكر	قسم التاريخ	عضواً
١٠- د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضواً
١١- د. عبدالله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضواً
١٢- د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس	قسم التاريخ	عضواً
١٣- د. عبدالله بن إبراهيم العمير	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٤- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	عضواً
١٥- د. خالد بن عبدالكريم البكر	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٦- د. طلال بن محمد الشعبان	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٧- د. عبدالله بن عبدالرحمن الدوسري	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

ثانياً: اللجنة العلمية

١- أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	رئيساً
٢- أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٣- أ. د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضواً

٤- د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٥- د. عبدالله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضواً
٦- د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضواً

ثالثاً: أمانة الندوة

١- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	أميناً
٢- أ. نايف بن عبيد ثنيان الحربي	قسم التاريخ	عضواً

رابعاً: اللجنة المالية

١- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	مقرراً
٢- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

خامساً: لجنة البرنامج

١- أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	رئيساً
٢- أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضواً
٣- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	عضواً
٤- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

سادساً: لجنة العلاقات

١- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	رئيساً
٢- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٣- أ. بندر البصيص	الإدارة العامة للإعلام والعلاقات الجامعية	عضواً
٤- أ. نايف بن عبيد ثنيان الحربي	قسم التاريخ	عضواً
٥- أ. عادل بن هزاع القحطاني	قسم التاريخ	عضواً

مقدمو الأبحاث عند انعقاد الندوة

(أسماء مقدمي الأبحاث وعناوينهم عند انعقاد الندوة)

البابطين، د. إلهام أحمد

قسم التاريخ -مركز الدراسات الجامعية للبنات- جامعة الملك سعود -الرياض

بطانية، أ. د. محمد ضيف الله

قسم التاريخ -جامعة اليرموك- إربد- المملكة الأردنية الهاشمية

البكر، د. خالد بن عبدالكريم

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

بوتشيش، أ. د. إبراهيم القادري

قسم التاريخ -جامعة مولاي إسماعيل- مكناس -المغرب

البيطار، أ. د. أمينة محمد علي

قسم التاريخ -مركز الدراسات الجامعية للبنات- جامعة الملك سعود -الرياض

جارالله، د. عبدالرحمن حسن

قسم التاريخ -جامعة صنعاء- الجمهورية العربية اليمنية

أبوجبلة، د. عامر جاد الله

قسم الآثار والسياحة -جامعة مؤته- الكرك -المملكة الأردنية الهاشمية

الجميل، أ. د. محمد بن فارس

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

الحارثي، أ. د. ناصر بن علي

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية -جامعة أم القرى- مكة المكرمة

الحارثي، د. عبدالله بن ناصر

قسم التاريخ -جامعة السلطان قابوس- سلطنة عُمان

الحداد، د. عبدالله عبدالسلام

قسم التاريخ -جامعة صنعاء- الجمهورية العربية اليمنية

مقدموا الأبحاث عند انعقاد الندوة

أباحسين، د. علي

مركز الوثائق التاريخية –البحرين

الروزي، د. عبدالغفور بن إسماعيل

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الروسان، د. محمود

قسم التاريخ –جامعة اليرموك– إربد– المملكة الأردنية الهاشمية

الزيدان، د. عبدالله بن علي

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الزيلعي، أ. د. أحمد بن عمر

قسم الآثار والمتاحف –جامعة الملك سعود– الرياض

السروري، أ. د. محمد عبده

قسم التاريخ –جامعة تعز– الجمهورية العربية اليمنية

السري، د. أحمد بن علي حيدر

قسم التاريخ والآثار –جامعة الإمارات العربية المتحدة– العين –الإمارات العربية المتحدة

السنيدي، د. عبدالرحمن

قسم التاريخ –جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– الرياض

السويلم، د. ابتسام عبدالمحسن

قسم التاريخ –مركز الدراسات الجامعية للبنات– جامعة الملك سعود –الرياض

سيف، د. علي سعيد

قسم التاريخ –جامعة صنعاء– الجمهورية العربية اليمنية

الشجاع، أ. د. عبدالرحمن

قسم التاريخ –جامعة صنعاء– الجمهورية العربية اليمنية

الطايش، د. علي

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الطراونة، أ. د. خلف فارس

قسم الآثار والسياحة –جامعة مؤته– الكرك –المملكة الأردنية الهاشمية

العامودي، د. محمود

قسم التاريخ –الجامعة الإسلامية– غزة

مقدموا الأبحاث عند انعقاد الندوة

العسكر، د. عبدالله بن إبراهيم

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

علي، د. أحمد رجب محمد

قسم التاريخ والآثار -جامعة الإمارات العربية المتحدة- العين -الإمارات العربية المتحدة

القحطاني، د. سعيد بن عبدالله

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

المحمودي، د. أحمد

قسم التاريخ – جامعة مولاي إسماعيل- مكناس –المغرب

موسى، أ. د. عز الدين عمر موسى

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

الهلابي، أ. د. عبدالعزيز بن صالح

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود- الرياض

ولد داداه، أ. د. محمد ولد مولود

نواكشوط –الجمهورية الإسلامية الموريتانية

يوسف، د. فرج الله أحمد

دار القوافل للنشر والتوزيع- الرياض

تمهيد

تتشرف الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بإصدار "الكتاب الخامس" من سلسلة تاريخ الجزيرة العربية وهو يضم معظم أبحاث الندوة العالمية الخامسة وموضوعها:

"الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية وحتى نهاية القرن الرابع الهجري"

وعقدت في الفترة ٢١ -٢٣ محرم ١٤٢٤هـ (٤٢ - ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٣م) وقد اشترك في تنظيمها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض.

وتتقدم الندوة بالشكر والتقدير للباحثين الكرام من خارج المملكة العربية السعودية ومن داخلها الذين أسهموا ببحوث قيمة في هذه الندوة التي يضمها هذا السفر، كما تشكر المشاركين في الندوة من غير الباحثين لإسهامهم الفعال في الحوار والمناقشة مما ساهم في إثراء البحوث وتدارك ما في بعضها من نقص أو قصور.

والتزاما منا في قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بمواصلة كتابة تاريخ الجزيرة العربية من خلال حلقات هذه الندوة وبمشاركة زملائنا أساتذة التاريخ والآثار في كل الجامعات والمؤسسات العلمية فسوف يكون موضوع الندوة السادسة:

"الجزيرة العربية من بداية القرن الخامس وحتى نهاية القرن السابع الهجري"

(١١١٠ - ١٣٠٠م)

وقد أعدت محاورها وأرسلت الدعوات للباحثين والمختصين للمشاركة، وسوف تعقد في الفترة من ٥ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٥ مارس ٢٠٠٦م، وحتى ٩ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٩ مارس ٢٠٠٦م.

والندوة رئيسا وأعضاء مدينون بالشكر والتقدير لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الفيصل لوضع إمكانات الجامعة سواء المادية أو الخدمات والمرافق تحت تصرفنا واهتمامه بها ومتابعة تنظيمها والتأكد من جودة مطبوعاتها وتوج ذلك برعايته لافتتاحها، كما يشكرون سعادة وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي (مدير جامعة القصيم حاليا) الأستاذ الدكتور خالد بن عبدالرحمن الحمودي لمؤازرتنا في كل ما كان يقع تحت اختصاصه فساهم في إنجاحها، ويخصون كذلك عميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور رشود بن محمد الخريف الذي ساهم في

تذليل العقبات التي اعترضتها، ومتابعة أعمالها والحرص على إنجاحها.

وواجب الشكر حق علينا للأخوة الكرام في العلاقات العامة وعلى رأسهم الزميل الدكتور علي بن دبكل العتري لما بذلوه من جهود كبيرة على كل المستويات، وللعاملين بالنشر والمطابع بالجامعة لما قاموا به من عمل متقن ودقيق نقدره لهم في المجلدات السابقة، ونحن على يقين أنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم في طباعة وإخراج هذا الكتاب بمستوى يليق بسمعة جامعة الملك سعود.

وختاما أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه، وأن يوفقنا للصواب في القول والعمل، إنه سميع مجيب.

رئيس الندوة

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

المقدمة

تنوعـــت موضوعات "الكتاب الخامس" فشملت جوانب هامة من تاريخ الجزيرة العربية في الحقبة الزمنية التي تبدأ مع بداية الدولة العباسية وتنتهي مع نهاية القرن الرابع الهجري وليس للنهاية أي معنى موضوعي سوى أن العصر العباسي مدتـــه الزمنية طويلة واقتضت الضرورة شطره إلى شطرين، حتى نكمل الشطر الثاني من هذا العصر في أبحاث الندوة السادسة لتاريخ الجزيرة العربية. وبدأ الكتاب بالأحوال العامة في الجزيرة العربية قبل قيام الدولة العباسية ليكون بمثابة تمهـــيد وانـــتقال بين عصرين. وتناولت أبحاث أخرى بعض حركات التمرد (الثورات)، وبعض الحركات التي حملت مضـــمونا عقديا في نواحي متفرقة من الجزيرة العربية وناقشت أسبابها المحلية والأسباب الناجمة عن سياسات الحكومة المركـــزية في بغداد، ووسائل إخمادها والنتائج التي تمخضت عنها. أما الأبحاث التي تناولت الجوانب الاقتصادية فهي اثنان وهذا يكشف أن تغطية هذا الجانب المهم ومثله الدراسات المجتمعية لا زالت بحاجة كبيرة إلى المزيد من البحوث والدراســـات. أمـــا الأبحـــاث الـــتي عنيت بالموضوعات الحضارية خاصة الحركة والتواصل العلمي بين أقاليم الدولة الإســـلامية فهـــي معقولـــة من حيث حجمها وممتازة من حيث معالجتها. ومن حسن حظ هذه الندوة أنها بمقارنتها بســـابقتها حظيت ببحوث آثارية متنوعة وغنية فمنها المكتشفات الأثرية وعمارة المساجد والكتابات والمسكوكات. كمـــا تميزت أبحاث هذه الندوة بتغطيتها لمعظم أقاليم الجزيرة العربية بدأ من الحجاز ثم وسط الجزيرة فشرقها فجنوبها الغـــربي ونقصد تهامة ثم اليمن، وقد حظيت اليمن بنصيب طيب نتيجة لمساهمة كريمة من عدد من الباحثين اليمنيين. وكذلك خدمت العلاقات العلمية بين الجزيرة العربية وكل من المغرب والأندلس خدمة طيبة.

أمـــا عملنا في هيئة التحرير فتمثل في حرصنا على أن تكون الأبحاث في نسق واحد من حيث التوثيق وطريقة الإحالات على المصادر والمراجع ووضعها في أواخر البحوث. كما التزمنا أن تقتصر تعديلاتنا التحريرية على الشكل والصـــياغة ولا تمـــس المضمون بحال من الأحوال مثل تصويب أسماء الأشخاص والأمكنة وما إلى ذلك، فإن كان لنا ملاحظة على المضمون أبديناها على الباحث إن شاء أخذ بها أو صرف النظر عنها.

أما ترتيب الأبحاث فقد خضع لاعتبارات ثلاثة هي التسلسل الزمني والتقارب الموضوعي والتقارب المكاني، و لم يدخل في الاعتبار مكانة الباحثين ورتبهم العلمية.

نتقدم بالشكر الجزيل للزملاء الباحثين على تعاونهم معنا ونعتذر لهم وللقراء جميعا إن شاب عملنا بعض القصور علما أننا بذلنا جهدنا على أن يخرج هذا السفر بأفضل صورة ممكنة.

ختاما نشكر كل من ساهم في عقد الندوة وشارك فيها باحثا ومشاركا ومنظما ونخص بالشكر والتقدير النشر العــلمي ومطــابع الجامعــة على تعاونهم وحرصهم على إتقان طباعة هذا الكتاب وعلى رأسهم المشرف على النشر العلمي والمطابع أ. د. علي بن محمد الدربي.

والله الموفق؛؛؛

هيئة التحرير

الأربعاء ٢٧ صفر ١٤٢٦هـ

٦ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م

البحـــوث

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

الحركة اللغوية في مكة والمدينة حتى نهاية القرن الثاني الهجري

محمود محمد العامودي
أستاذ النحو والصرف وعميد كلية الآداب
الجامعة الإسلامية – غزة

ملخص البحث:

يبين البحث حالة الفصحى في مكة والمدينة في صدر الإسلام، وموقف الرسول ﷺ وصحابته من اللحن.

ثم يوضح انطلاق الحركة اللغوية من إقليمي البصرة والكوفة، والحركة اللغوية التي شهدتها مكة والمدينة في القرنين الأول والثاني الهجريين، والتي وصفت بالضعف.

كما يكشف البحث عن علماء المدينتين في تلك الفترة، ودورهم في الحركة العلمية لرواية اللغة، وفي اعتماد نحاة الكوفة عليهم.

مكانة لغة قريش في الجاهلية وصدر الإسلام:

يقول السيوطي[١]: "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمداً ﷺ فجعل قريشاً قُطَّانَ حَرَمِه، وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفي كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب".

ويقول أبونصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ وأسلسها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عما في النفس"[٢].

وعلى هذا فقد تميز العرب بأنهم أمة فصاحة وبلاغة تتأثر بالبيان الرفيع والجملة الوجيزة الموحية، وعرفت أسواقهم الأدبية بالمنافسة والمناظرة والاصطفاء من لغات العرب، والتزام الشعراء والبلغاء بهذه اللغة المصطفاة التي

أجمعـــوا على استحسانها، وأصبحت هي وسيلة التعبير عما يخالج النفوس من أغراض وأحاسيس وتعارفت الأمة على سلامة لغة قبائل الجزيرة والطعن بلغات أهل السواحل لمخالطتهم الأجانب في الأسفار والتجارات.

ولما كانت الفتوحات واختلاط العرب الفاتحين بالشعوب التي كانت تحت سيطرة الفرس والبيزنطيين والأحباش ودخولهم في الإسلام واضطرارهم إلى تعلم ما استطاعوا من العربية وكان بين العرب الفاتحين وهؤلاء الشعوب اختلاط وأخذ وعطاء تسرب الفساد إلى لغة كثير من العرب، وبدأ يسمع لحن في التخاطب.

أولية اللحن:

لقـــد نبه الرسول ﷺ إلى عظيم خطر اللحن، وهو في المدينة، فقد روي أن رجلاً لحن بحضرته، فقال ﷺ[٣]: "أرشدوا أخاكم فقد ضل"، وقال ﷺ [٤]: "رحم الله امرأً أصلح من لسانه".

لقد وجدنا التشديد والضرب على يد من يلحن في مجتمع المدينة ومكة بحضرة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، فكان أبو بكر -رضي الله عنه- يقول[٥]: "لأن أَقْرَا فَأُسْقِطَ أَحَبُّ إليَّ من أن أَقْرَأَ فَأَلْحَنَ".

فـــإذا بلغنا عهد عمر-رضي الله عنه- وجدناه يمر على قوم يسيئون الرمي، فقرعهم، فقالوا: "إنا قوم متعلمين"، فأعرض مغضباً وقال[٦]: "والله لخطؤكم في لسانكم أشدُّ عَلَيَّ من خطئكم في رميكم".

بـــل إن عمـــر-رضي الله عنه- سمع رجلاً يتكلم في الطواف بالفارسية، فأخذ بَعَضده، وقال: "ابتغ إلى العربية سبيلاً"، وكان عمر-رضي الله عنه- يقول[٧]: "من قرأ القرآن فأعرب به فمات كان له عند الله يوم القيامة كأجر شهيد".

كمـــا أن عمـــر-رضي الله عنه- يحضهم على تعلم الأدب الرفيع، فيقول[٨]: "علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق"، ويقول أيضاً[٩]: "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة".

وقـــد كتب كاتب لأبي موسى الأشعري إلى عمر-رضي الله عنه-[١٠]: "من أبوموسى، فكتب إليه عمر: "سلام عليك، أما بعد فاضرب كاتبك سوطاً وأحداً، وأَخِّر عطاءه سنة".

حقاً لقد كانت المدينة في بداية القرن الهجري الأول هي المنارة الأولى التي كشفت عن وجود اللحن في الكلام، وخطورة وجوده بين الناس، ولذا أصدر علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- أمراً لأبي الأسود الدؤلي بوضع النحو، فقال له[١١]: "اجعل للناس حروفاً، وأشار إلى الرفع والنصب والجر".

وقد بدأ أبوالأسود بتحديد معنى الاسم والفعل والحرف -فيما يقال- وكذلك تحديد الظاهر والمضمر والشيء الـــذي ليس بظاهر ولا مضمر، ثم قال له: "تتبعه وزد فيه"، قال أبوالأسود: فجمعت منه أشياء وعرضها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها (إنَّ وأنَّ وليت ولعل وكأن) ولم أذكر (لكن) فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال بل هي منها زدها فيها[١٢].

فـأبو الأسـود الدؤلي إنسان ملم إلى حد كبير بثقافة عصره، فهو يحفظ القرآن، ويروي الحديث ويحيط باللغة ويقـول الشعر، فإذا أضيف إلى هذه القدرة الثقافية وهذه الطاقات النفسية ما عرف عن أبي الأسود من أنه كان من أكمـل الرجال رأياً وأسدهم عقلاً[١٣] حتى إن الخلفاء الراشدين الثلاثة عمر وعثمان وعلي[١٤] يستعينون به، برزت أمامنا شخصية متكاملة الأبعاد في السلوك والفكر جميعاً.

وهـذا يسـلمنا إلى القـول: إن أبا الأسود الدؤلي هو الواضع الأول للنحو العربي وهو أول من ارتاد بموقفه الشجاع الطريق إلى الدراسات اللغوية بأسرها[١٥].

وهـذا يعزز من موقف النهضة العلمية التي شهدتها المدينة المنورة في عهد الخلفاء الأربعة في كل ميادين الثقافة، وكانت بداية الانطلاقة والبحث اللغوي بإيعاز من الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي.

لقـد أحـس أولو الأمر في المدينة باللحن، وتنبهوا إليه، وتأذت نفوسهم به، وعابوه وعابوا أصحابه، وعدوه مُسْقِطاً للشرف والحرمة والهيبة، قادحاً في الأهلية للإمامة في الصلاة وفي الأهلية للولاية على الدين.

ومن أقوالهم في اللحن:

أ - يقول نافع مولى عبدالله بن عمر بن الخطاب -ﷺ-[١٦]: "كان رجل إلى جنب ابن عمر، فلحن، فأرسل إليه، إما أن تَنَحَّى عَنَّا، وإما أن نُنَحَّى عَنْكَ".

ب - قال حماد بن سلمة[١٧]: "من لحن فليس يحدث عني".

ج - قيل لعبدالملك بن مروان[١٨]:أسرع إليك الشيب، فقال "شيبتني كثرة ارتقاء المنبر ومخافة اللحن".

مكان نشأة النحو:

اتفق العلماء على أن العراق كانت مهداً لنشأة النحو، وذلك للأسباب التالية[١٩]:

١ - كانـت موطـناً للعجم قبل الفتح، وبعد الفتح أقبل المسلمون عليها عرباً وعجماً، إذ إنها تمتاز بأسباب الحياة الناعمة ورغد العيش.

٢ - كانت أكثر البلاد إصابة بوباء اللحن وتعرضاً لمصائبه بسبب هذا المزج.

٣ - العراقيون ذوو عهد قديم بالعلوم والتأليف، ولهم فيها خبرة متوارثة.

لقـد كانـت البصـرة مهد نشأة النحو، كما احتضنت البصرة النحو زهاء قرن من الزمان قبل أن تشتغل به الكوفـة الـتي كانـت بدورها أسبق من بغداد إذ كان أهل الكوفة حينئذ يشتغلون بقراءات القرآن وبرواية الأشعار والأخـبار متفرغين لهذا، ثم اشترك علماء المصرين البصرة والكوفة في النهوض بالنحو من الخليل بن أحمد الفراهيدي

(ت ١٧٠هـ) شيخ الطبقة الثالثة من البصريين، وأبي جعفر الرؤاسي (ت ١٨٧هـ) شيخ الطبقة الأولى من الكوفيين، حتى نمت اصوله وكملت عناصره في مستهل العصر العباسي الأول على يد المُبرد (ت ٢٨٥هـ) خاتم البصريين، وثعلب (ت ٢٩٥هـ) خاتم الكوفيين[٢٠].

يقون ابن سلام[٢١] (ت ٢٣٢هـ): "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية".

ويقول ابن النديم[٢٢] (ت ٤٣٥هـ): "إنما قدمنا أهل البصرة أولاً؛ لأن علم العربية عنهم أخذ".

لقد تمت أوليات الدراسة النحوية في مدينة البصرة وشمل ذلك الفترة التي تمتد من أبي الأسود إلى الخليل بن أحمد، وكانت الكوفة وقتها مشغولة برواية الأشعار والأخبار[٢٣].

بداية جمع المادة اللغوية:

وعلى أي حال فمن المنطقي أن يكون البحث اللغوي عند العرب قد بدأ في شكل جمع المادة اللغوية أو ما يعرف بمتن اللغة، وأن يسبق ذلك الدرس النحوي، وقد تم هذا الجمع أولاً بطريق المشافهة والحفظ، ودون منهج معين في ترتيب المادة المجموعة أو تبويبها[٢٤].

وبعد ذلك اتجه أهل اللغة إلى التبويب والتصنيف ورد النظر إلى النظير كل بطريقته الخاصة التي رآها، فمنهم من صنف المادة اللغوية بحسب الموضوعات مثل كتاب النبات، والإبل، والخيل، والسلاح، والأنواء، وأخرجها في شكل وسائل منفصلة، ومنهم من اتجه إلى الشعر الجاهلي أو الإسلامي يدونه ويرويه ويشرح مفرداته الصعبة، ومنهم من اهتم بتسجيل بعض الظواهر الخاصة التي لاحظها في بعض القبائل... وهكذا توحدت هذه الجهود بظهور المعاجم اللغوية المنظمة التي كان رائدها الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) وذلك بوضعه معجم العين[٢٥].

دوافع نشأة الدراسات اللغوية:

ولعل خير وقت اتضحت فيه هذه الحاجة الضرورية إلى تناول اللغة بالضبط ثم بالتقعيد بغية تيسير تعليمها لغير العرب ممن دخلوا في الإسلام ثم ممن لم يسلموا كان بعد استقرار الفتوح[٢٦].

ويرى الدكتور علي أبوالمكارم[٢٧] أنه كان هناك دافعان قويان وضعا المشكلة اللغوية في محور التفكير:

أولهما: دافع اجتماعي نشأ عن هذا الاختلاط بين القبائل العربية وبين غير العرب ولم يكن ممكناً أن يحدث هذا الاختلاط الاجتماعي ثم لا يتخذ له لغة تعبر عنه وتقضي حاجاته.

ثانيهما: دافع ديني، فإن العرب قد أرادوا أن ينشروا الإسلام بين هذه الشعوب المفتوحة، ومحور الإسلام هو القرآن، وهو نص عربي، ومن الضروري على كل مسلم ومسلمة أن يقرأ منه آيات كل يوم، ومن ثم لا بد له من

الإلمـــام من اللغة العربية، ولو بقدر يمكنه من فهم هذه الآيات، وهكذا اصبح تعلم اللغة قضية دينية إذ هي تمثل في نظر القادة المسلمين الوحدة الفكرية بين المسلمين جميعاً.

ويؤكد الدكتور أحمد مختار عمر هذا المعنى بقوله[٢٨]: "ما وجد في القرآن الأول من تأملات نحوية أو محاولات لدراسة بعض المشاكل اللغوية كان الحافز إليه إسلامياً، ولم يقصد لذاته وإنما لاعتباره خادماً للنص القرآني، ومن ذلك محاولـــة ابن عباس جمع الكلمات الغريبة في القرآن وشرحها إن صحت نسبة غريب القرآن إليه، وكذلك محاولة أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف بالشكل حين استحضر كاتباً، وأمره أن يتناول المصحف، وأن يأخذ صبغاً يخالف لون المـــداد، فيضع نقطة فوق الحرف إذا رآه يفتح شفتيه، وتحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه، وبين يدي الحرف إذا رآه يضم شفتيه، أما إذا اتبع الحرف الأخير نوناً فينقط نقطتين فوق بعضهما، أما الحرف الساكن فقد تركه".

ويرفض الدكتور علي أبوالمكارم[٢٩] أن يكون ظهور اللحن أو شيوعه هو السبب الأساسي في نشأة الدراسات الـــنحوية، وإلا لظهرت محاولات نحوية أو قضايا تتصل بظواهر اللغة التركيبية في العصر الجاهلي أو في عهد النبي وأبي بكر وعمر، وهو ما لا نجد له أصلاً فيما ترويه كتب التاريخ ومصادر اللغة.

لقـــد تأثـــرت دراســـة اللغـــة -عند المسلمين- بالمنهج الإسلامي، كما تأثرت المادة اللغوية بالإسلام، فنشأة الدراســـات اللغوية بدأت متأثرة بحاجات دينية، وضرورات اجتماعية ناتجة عن الدين، وإن كانت تختلف في الأسباب المباشـــرة عـــن غيرها من العلوم الإسلامية، ومصدر هذا الاختلاف يعود إلى أن محور الدين هو القرآن، والقرآن نص عـــربي، ومعنى ذلك أن العرب وحدهم هم الذين يستطيعون فهمه، والعمل بما يدعو إليه من تعاليم، ولكن القرآن لا يخاطب العرب وحدهم، وإنما يتناول الأمم جميعاً[٣٠].

لم يكـــن بد إزاء هذا كله من نقل هذه الأمم الأعجمية إلى القرآن والعربية، فكيف هذا النقل بغير تناول هذه اللغة التي نطق بها القرآن -والتي تحمل التراث الإسلامي المقدس- بالتقعيد، ليتيسر تعليم هذه اللغة لهذه الأمم ثم ليمكن من بعد خلق وحدة الفكر التي ترتكز عليها -وتدعمها في آن واحد- وحدة العقيدة[٣١].

ولكن نقل هذه الأمم إلى القرآن يتطلب أولاً وقبل كل شيء توحيد النص القرآني، وهذا يسلم إلى نتيجة بالغة الأهمية، وهي أن الحقائق التاريخية للمجتمع واللغة جميعاً تقرر أن المعقول ألا تنشأ الدراسات اللغوية على وجه العموم بصورة موضوعية إلا بعد عهد الخليفة الثالث عثمان سنة ٣٥هـــ؛ لأن عثمان هو الذي وحد النص القرآني حين جمع الناس على مصحف واحد، فمهد بذلك الطريق إلى ضبط النص ضبطاً دقيقاً، وهي الخطوة التي فتحت باب الدراسات النحوية بأسرها[٣٢].

خلاصـــة القول: إن المدينة المنورة التي عاش فيها الخليفة عمر وعثمان رضي الله عنهما شهدت الخطوة الأولى لظهور الدراسات اللغوية. وبعد ذلك أصابها الركود والضعف.

أسباب ضعف الحركة اللغوية في مكة والمدينة:

لقــد انطلقت الحركة اللغوية من مدينتي البصرة والكوفة، و لم نسمع لغير هاتين المدينتين عن منافسة ذات قيمة فــيما يــتعلق بــرواية اللغة ودراستها، وهذا أمر معروف لا يجادل فيه أحد، بل إن رواة البصرة والكوفة أنفسهم قد أحسوا بضعف الرواية وركودها في بقية المدن الأخرى.

يقول أبوالطيب اللغوي[٣٣]: "ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين -أي البصرة والكوفة- فأما مدينة الرسول ﷺ فلا نعلم بها إماماً في العربية".

وقال الأصمعي[٣٤]: "أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحَّفة أو مصنوعة".

و لم يذكر الأصمعي أن بالمدينة حركة علمية لرواية اللغة، وكذلك لم يسمع أحد بمثل هذه الحركة في المدينة، أو بعــبارة أشمــل: في إقليم الحجاز كله، حيث كان المظنون أن يكون ذلك الإقليم هو منبع هذه الحركة العلمية لتهيؤ الظروف له لغوياً وجغرافياً ولكن ذلك لم يحدث، والشخص الوحيد الذي ذكر الأصمعي أنه من رواة المدينة وهو ابن دأب (ت ١٧١هــ) بهرجه وزيفه بقوله: والعجب من ابن دأب حين يزعم أن أعشى همدان قال:

مَنْ دَعَــا لِي غُزَيِّلــي أَرْبَــحَ اللهْ تِجَارَتُــه
وخِضَــابٌ بِكَفِّــهِ أَسْــوَدَ اللَّــوْن قَارَتُــهْ

ثم قــال الأصــمعي: يــا سبحان الله! يحذف الألف التي قبل الهاء في "الله" ويسكن الهاء، ويرفع تجارته وهو منصوب، ويجوز هذا عنه، ويروي الناس عن مثله"[٣٥].

ويمكن أن نجمل الأسباب التي أدت إلى ضعف الحركة اللغوية في مكة والمدينة في القرنين الأول والثاني الهجريين إلى التالي:

١ - لم تكن مكة والمدينة مصدراً للغة:

تعــد الــبادية مصدراً مهماً من مصادر جمع اللغة والأدب، وقد حرص الرواة واللغويين على جمع مادتهم من المــناطق التي لم تختلط بغيرها من الأعاجم، ولهذا فقط انحصر اهتمام الرواة واللغويين في المنطقة التي تمتد من غربي نجد حيــث تــنحدر هضبتها نحو الغرب، وبين سفوح جبال الحجاز حين تأخذ الهضبة في الارتفاع مكونة تلك السلسلة الجبلية في غربي الجزيرة، وقد سمى القدماء هذه المنطقة عالية السافلة وسافلة العالية، وعنهم قال أبوعمرو بن العلاء[٣٦]: "أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم"، وعن قبائل هذه المنطقة نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب وهم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اُتُّكل في الغريــب وفي الإعــراب والتصــريف، ثم هذيــل وبعض كنانة وبعض الطائيين، و لم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم[٣٧].

وهــذه القــبائل هــي التي أمدت الرواة واللغويين باللغة والأدب، وقد رفض بعض اللغويين الأخذ من قريش وثقيف؛ لأن اللغة فيهما اختلطت بمؤثرات لغة الأعجام، فلم تعد صافية نقية.

ولهــذا يمكــن القول إن مكة والمدينة لم تكن مصدراً لجمع اللغة والأدب، لأن الأعاجم سكنوا هاتين المدينتين فأفســدوا لغة أهلها، ولهذا لم نجد الرواة واللغويين يلجأون إلى هاتين المدينتين لجمع اللغة والأدب من أهلها فيحدثوا فيها نهضة لغوية تساوق البصرة والكوفة.

يقول الأصمعي(٣٨): "أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة صحيحة إلا مصحَّفة أو مصنوعة"، وقد اتهم ابن ســلام قريشا بنحل الشعر، يقول(٣٩): "وقريش تزيد في أشعارها". ويقول ابن سلام أيضاً(٤٠): "وأشعار قريش أشعار فيها لين، فتشكل بعض الإشكال".

خلاصة القول: إن شعر هاتين المدينتين فيه رقة ولين، ولا يصح أن يؤمه الرواة أو أن يسعوا في طلبه، ولهذا لم تكن هاتان المدينتان ملجأ إليه الرواة ليجمعوا شعرهم ليكون حجة في اللغة والنحو.

٢ – فقدان مكة والمدينة للزعامة السياسية:

أو الوضع السياسي لمكة والمدينة في العصرين الأموي والعباسي:

لعــل أهــم ظاهرة تميز المدينة في العصرين الأموي والعباسي أنها فقدت زعامتها السياسية التي تمتعت بها طوال حكم الخلفاء الراشدين، فقد كانت عاصمة للخلافة الإسلامية تتبعها الولايات وترف شئونها، أما في هذين العصرين فقد أصبحت تابعة لدمشق حيناً وتابعة لبغداد حيناً آخر.

أمــا في عصر بني أمية كان الأنصار والمهاجرون يبغضون بني أمية وولاتهم؛ لأنهم يشعرون باغتصاب بني أمية للخلافة، ولما لاقوا منهم من قتل ونهب للأموال وهتك للحرمات.

إن هــذه الحياة المضطربة سياسياً لن تسمح للموالي للبقاء فيها حتى يفسدوا اللغة، ولن تسمح لعلماء اللغة أن ينشطوا فيها.

يقــول الدكتور شوقي ضيف(٤١): "إن المدينة كانت موطناً من مواطن معارضة الأمويين وقد قسوا على أهلها في معاملتهم تارة بتوجيه الجيوش إليهم، وتارة بإقامة ولاة يبطشون بهم، واستمرت المدينة مغاضبة لهم طوال خلافتهم، لا تنسى خصومتهم وما أذاقوها من سوء العذاب".

لقــد كانــت المدينة تشكل معارضة لبني أمية انطلق منها الحسين بن علي علي وعبدالله بن الزبير، وقد كانت نــتائج ثوراتهم على بني أمية فاجعة استبيحت فيها أموالهم ودماءهم وأنفسهم بالإضافة إلى المقتلة العظيمة التي لحقت بهم.

أمـــا في عهد بني العباس فقد استمر الوضع السياسي مضطرباً بسبب استخدام الشدة من قبل ولاة بني العباس لأهل المدينة وخاصة بعدما بايعوا محمد النفس الزكية عندما أعلن ثورته في المدينة سنة ١٤٥هـــ.

و لم يستمر الوضع على هذا الحال بل شهدت الحجاز في عهد الخليفة العباسي المهدي ١٥٨-١٦٩هـــ نوعاً من الاســـتقرار، والذي كان يتماشى مع سياسة الخليفة بشكل عام، والذي حاول من خلالها استرضاء العلويين خاصة، كما عمل على تسهيل أوضاع الحجاز الاقتصادية كما أضاف إلى حرسه الخاص خمسمائة رجل من الأنصار، كما تم في عهـــده إجراء إصلاحات وتوسعات في المسجد الحرام والمسجد النبوي، كما عمل على الاهتمام بطرق الحج من العراق إلى مكة، كما عمل على تسهيل الاتصال بين المدينة ومكة واليمن[٤٢].

وتغيرت هذه السياسة في عهد الخليفة الهادي ١٦٩-١٧٠هـــ حيث استعمل الشدَّة والتنكيل ثانية مع العلويين في المدينة ثم في مكة[٤٣].

و لم يكن الوضع في مكة أحسن حالاً منه في المدينة، لقد غرقت مكة في حوادث عبدالله الزبير، وكانت إذ ذاك عاصـــمة لخلافته ومقراً لسياسته ثم عادت إلى الأمويين وتعاقب عليها ولاة لهم قساة غلاظ منهم الحجاج وخالد بن عبدالله القسري وكانت فيه شدة فأخذ يتوعدهم ويهددهم في خطبه العصماء.

ثم حـــج الوليد بن عبدالملك سنة ٩٤هـــ، فخطب فيها خطبة بتراء توعد فيها أهلها تهددهم[٤٤]، وينتهي القرن الأول وندخـــل القرن الثاني ولا توجد حوادث واضحة في هذا القرن سوى ما كان من استيلاء الإباضية برياسة أبي حمزة الخارجي على مكة سنة ١٢٧هـــ واستولوا أيضاً على المدينة.

هذا الوضع المضطرب في مكة والمدينة جعل الاستقرار والهدوء وطلب العلم والحركة العلمية فيهما بعيد المنال.

٣ - ثراء مكة والمدينة ولهوهما:

أو الوضع الاقتصادي في مكة والمدينة في العصرين الأموي والعباسي:

لما كان كثير من القرشيين الذين يعيشون في المدينة مغاضبين لبني أمية، وكان يذهب هذا المذهب نفسه جماعة الأنصـــار وضع معاوية عينيه استرضاء خصومه بالمال فكان يكثر من عطاياه على كل من يفد عليه من المدينة، وتبع معاويـــة غـــيره مـــن خلفـــاء بني أمية في هذا التقليد، فكانوا يجيزون من يفد عليهم جوائز سنية، يريدون بذلك أن يصطنعوهم لأنفسهم، وأن يتقوا موجدتهم وغضبهم[٤٥].

ولقـــد كـــان أهـــل المدينة يعيشون في ثراء ورفاهية منذ عهد عثمان -ﷺ- بسبب الفيء الذي يأخذونه من الفتوحات واستمر هذا اليسار طوال العصر الأموي في المطعم والملبس والحلي والجواهر مما أحدث تغييراً في نمط حياتهم وجعـــلها تمـــيل إلى الترف والدعة واللهو، وأخذ أهل المدينة يلهون بالغناء تارة وبطيران الحمام تارة أخرى، كما لُهُو

بالـــنرد[٤٦]، والشطرنج[٤٧]، والحكايات التي تؤدي إلى السرور والضحك[٤٨]، وحكايات أشعب والناضري مع أهل المدينة مشهورة[٤٩].

هذه الحياة اللاهية التي يملؤها فراغ وثراء وتحضر وترف أبى لها أن تقوم فيها نهضة علمية فضلاً عن كونها حركة لغوية متخصصة.

و لم تلبـــث مكة أن عنيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه فظهر عندها ابن محج وتلاميذه، ولكن ينبغي أن نعرف أن المدينة ظلت هي المركز الأول في الحجاز للغناء والمغنين وتخريجهم[٥٠].

كمـــا عاش أهل مكة في ثراء وترف في عهد بني أمية ورثوه عن آبائهم من الفتوحات الإسلامية أو من الأموال التي كان يغدقها الأمويون على شباب مكة والمدينة ليلهوهم عن طلب الملك والخلافة.

لقد عرف أهل مكة كل ضروب النعيم والترف في المطعم والملبس وفنون الزينة المختلفة إذ أتيح لهم أن يأخذوا بحظـــوظ وافـــرة في كل جانب من جوانب الحياة فطعموا الألوان المختلفة المترفة من الطعام، وأكلوا وشربوا في أواني الذهب والفضة[٥١].

يقول الدكتور شوقي ضيف[٥٢]: "لعل أهم ما يلاحظ على هذه البيئة المترفة أن جمهرة من كانوا فيها من شباب كـــانوا فـــارغين مـــن عمل فليس هناك ما يشغلهم وخاصة أن بني أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مه ابن الزبير، فلم يـــتخذوهم على الولايات، ومع ذلك لم يمنعوهم عطاء بل كانوا يزيدون فيه من حين إلى حين، فهم أهلهم وعشيرتهم الأقربون".

ومثل هذا الشباب في المدن المترفة إن لم يُوَجَّه لدراسات فكرية، تَوَجَّهَ إلى اللهو وبعض الملاهي حتى يقطع وقته في المـــتعات الممكنة مثل الغناء واللعب بالشطرنج والنرد والقَرْق أي السيجة . وهذا ما عرف به شباب مكة في هذه الفترة.

٤ – حالة الشعر في مكة والمدينة في العصرين الأموي والعباسي:

لقـــد نهض الشعر في عصر بني أمية في المدينة المنورة نهضة واسعة، وكأن المدينة عادت في هذا العصر إلى حال تشـــبه حالهـــا في الجاهلية، إذ كان الشعر أهم فنون الأدب التي تمارسها، ويدلل على ذلك كثرة التراجم التي عقدها أبوالفـــرج في أغانيه لشعرائهم[٥٣]، وهي تراجم تتضمن أخبارهم كما تتضمن طرائف من أشعارهم، وخاصة التي غنى فيها المغنون، ولكن أي ألوان الشعر الذي نهض في المدينة؟

لقد أذعنت المدينة لحكم بني أمية رغماً عن أنفها، ولعلها من أجل ذلك لم يظهر بها شعر سياسي مثلما ظهر في هـــذا العصـــر عند شعراء الأمويين من مثل الأخطل أو شعراء الشيعة من مثل الكميت وحتى ابن الزبير لم يكن لـــه شاعر بالمدينة.

كذلك لم يَنْمُ شعر الهجاء لبني أمية، لأن المدينة كانت تتخفف، و لم ترد أن تتورط في شغب قد يؤذيها.

أمـــا شـــعر المديح فلم يكن بالمستوى المطلوب، وإذا أخذنا أن نقيس مديح هؤلاء الشعراء على ما أنتجوه هم أنفسهم من شعر في الحب والغزل غنى فيه المغنون والمغنيات في المدينة لم نجده شيئاً مذكوراً.

إن المديـــنة لم يظهر بها شعر سياسي و لم تكن متفوقة في شعر الهجاء أو شعر المديح وهذا يرجع إلى الأوضاع السياســـية التي شهدتها المدينة بالإضافة إلى التحولات الاجتماعية التي أصابت الناس وما طرأ عليهم من ثروة وترف وتحضر .

أمـــا الشغل الشاغل للمدينة في هذا العصر فكان الغزل، وقد اهتم به الشعراء اهتماماً كبيراُ ن وقد توفروا عليه من قرشيين وأنصار وموال كل يريد أن يحدث فيه ما يشتهر به بين أبناء عصره، واستطاعوا أن ينهضوا به نهضة واسعة إذ حشدوا أنفسهم له وكادوا ألا يستبقوا من ملكاتهم شيئاً لفن آخر لا لخطابة ولا لكتابة ولا حتى لشعر تقليدي(٥٤).

ومـــع هـــذه النهضة الواسعة التي شهدتها المدينة للغزل وأغانيه في هذا العصر فقد شاركتها فيها مكة، بل قل كانـــت تنافســـها منافســـة شديدة، وطبيعي أن تنافس مكة المدينة، فقد كان بها كثرة من الغزلين والمغنين، حقاً هي تأخـــرت عن المدينة قليلاً في النهوض بفن الغناء ولكنها لم تلبث حين عرفته أن أسرفت فيه، فكان لها مغنون ممتازون مـــثل ابـــن مِسْجح وهو أقدم مغنيها واشتهر بنقله إلى العربية ألحاناً وأنغاماً من الغناء الأجنبي الفارسي والرومي(٥٥) وكذلك صنع تلميذه ابن مُحرز(٥٦).

كما نجح في مكة فن المقطوعات، والأبيات التي يعبر بها الشاعر في سرعة عن حادثة تجري في حياته، فالناس في مكـــة تلهـــيهم الـــتجارة عن أداء أي شيء سواها، وليس عنده من الوقت ما ينفقه في أداء التقاليد الفنية المرسومة للقصيدة.

ولهذا نستطيع أن نقول إن مكة لم تكد تعرف الشعر التقليدي إلا في مواسم الحج وفي سوق عكاظ حين كان ينشد شعراء البادية شعرهم.

لقـــد اشتهر شعراء مكة في العصر الأموي بالغزل وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة، وأبو دَهْبل الجُمَحي وأكثر شعره مقطوعات أريد بها الغناء لا الإنشاد.

وإذا وقفـــنا على شعر عبيدالله بن قيس الرقيات، والحارث بن خالد المخزومي، والعرجي نجده يسير على نفس النمط السابق.

إن مكة عنيت في العصر الأموي بالأغاني، وإن شعراءها تخصصوا في هذا الفن، و لم يتعدوه إلى غيره من ضروب الشعر التقليدي، وما يرتبط به من مديح وهجاء.

وخلاصـــة القـــول: إن هذا الشعر الذي أنتجه شعراء مكة والمدينة، والذي يهتم بالغزل والغناء لا يبحث عنه اللغويـــون والـــنحاة، ولا يمثل مصدر اهتمامهم؛ لأنهم يهتمون بالشعر التقليدي الذي يطغي عليه أثر البادية والغرابة والذي يستنتج منه التراكيب المختلفة للغة.

فقهاء مكة والمدينة:

لقد ظهرت حركة فقهية أخذت تؤسس في كل بلدة كبيرة مدرسة فقهية، فكان في مكة عكرمة، وعطاء، وابن أبي ملـــيكة، وفي المدينة سالم، ونافع، وعبيدالله بن عبدالله ابن عتبة، وعروة بن الزبير، والزهري، وفي الكوفة النخعي، والشعبي، وشريح بن الحارث القاضي، وسعيد بن جبير، وفي البصرة الحسن، وابن سيرين، وقتادة، وإياس ابن معاوية، ومالك بن دينار، وأيوب السختياني.

واشـــتهرت بيئة الحجاز بغلبة الحديث عليها كما اشتهرت بيئة العراق بغلبة القياس ولذلك نبغ منهم من سُمُّوا أهل الرأي[٥٧].

فحول شعراء مكة والمدينة:

لقـــد عَـــدَّ ابـــن ســـلام أربعة من الشعراء الفحول في مكة والمدينة وهم الطبقة السادسة من طبقات فحول الإسلاميين، وهم:

الأول: عبيدالله بن قيس الرقيات[٥٨] من قريش الظواهر -وهم أعراب بادية مكة- وكان غزلاً وأغزل من شعره شعر عمـــر بـــن أبي ربيعة، وكان عبيدالله بن قيس الرقيات يشبب ولا يصرح، وكان منقطعاً إلى آل الزبير، فمدح مصعباً وهجا عبدالملك بن مروان.

الـــثاني: الأحوص الأنصاري[٥٩] من الأوس وكان يشبب بنساء أهل المدينة فتأذبوا به، وكان مَعْبَدٌ وغيره من المغنين يغنون في شعره.

الثالث: جميل بن عبدالله بن معمر[٦٠] من عُذْرَة، أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته بثينة.

الـــرابع: نصيب بن رباح[٦١] وكان عبداً أسودَ من أهل وادي القُرى، فكاتب على نفسه، ثم أتى عبدالعزيز بن مروان فقال فيه مِدْحَةً، فوصله واشترى ولاءه.

ومن أشهر شعراء مكة والمدينة:

١ - عمـــر بن أبي ربيعة[٦٢] من بني مخزوم، وكان فاسقاً يتعرض للنساء الحواج في الطواف وغيره من مشاعر الحج ويشبب بهن.

٢ - العرجي[٦٣] واسمه عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان يترل بموضع قِبَلَ الطائف يقال له: العَرْج

فنسب إليه، وهو أشعر بني امية، وهو شاعر مطبوع في النسيب.

٣ - ابن هَرْمَة[٦٤] هو إبراهيم بن علي بن سلمة الفهري المدني الشاعر المعروف بابن هرمة من شعراء الدولتين، كان شيخ الشعراء في زمانه، وكان منقطعاً إلى الطالبيين، وكان منهوماً في الشراب لا يكاد يصبر عليه.

ويقال: إنه ولد سنة سبعين ونادم المنصور سنة أربعين ومائة، وعَمَّرَ بعد ذلك دهراً.

لقد مات وما يحمل جنازته إلا أربعة نفر لا يتبعهم أحد حتى دفن بالبقيع، وكانت وفاته سنة خمسين ومائة، وكان الأصمعي يقول[٦٥]: ختم الشعر بابن ميادة وابن هرمة.

علماء اللغة في مكة والمدينة:

أولاً: من ولد أو توفي في مكة أو المدينة:

هناك من مشاهير اللغويين ممن ولد أو توفي في مكة أو المدينة، لكنهم، حسبوا على البصرة أو الكوفة؛ لأنهم عاشوا في أحدهما مثل:

١ - أبو عمرو بن العلاء[٦٦] (ت ١٥٤هـ) كانت ولادته في مكه، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة، أحد القراء السبعة، خزاعي من مازن، سمع نافعاً مولى ابن عمر، وأخذ القراءة عَرْضاً وسماعاً للحروف عن جماعة من أهل الحجاز والبصرة.

٢ - أبوعبيد القاسم بن سلام الأزدي[٦٧] (ت ٢٢٤هـ) أقام بمكة إلى أن مات فيها، إمام في سائر الفنون، أخذ القراءة عن الكسائي، واللغة عن أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم. وأهم تصانيفه الغريب المصنف، وقد اعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بني هاشم جمعه نفسه.

٣ - أبوسعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي[٦٨] (ت ٢١٠هـ) صاحب النحو واللغة والأخبار والملح، لم يقف الأصمعي عند حدوده الإقليمية -البصرة- في طلب العلم، فقد كان لإقامته في مكة والمدينة[٦٩] وبغداد وخرسان أثر واضح في ثقافته تمثل بمروياته التي امتلأت بها كتب اللغة والأدب بشكل بارز[٧٠].

كما اتصل الأصمعي بالإمام الشافعي في مكة فقال[٧١]: "قرأت شعر الشنفري الأزدي على محمد بن إدريس الشافعي".

وقال عبدالصمد بن المعذل[٧٢]: "رأيت الأصمعي بمكة وقد جاءه الأحمر الكوفي فألقى عليه مسائل في الغريب، فجعل يجيبه الأحمر كأنه مجنون من سؤاله وحركته".

ثانياً: من عاش في مكة أو المدينة:

١ - عبدالله بن عباس[٧٣] بن عبد المطلب (ت ٦٨هـ)، حبر الأمة الصحابي الجليل، ولد بمكة ولازم رسول الله ﷺ اوتوفي بالطائف، وقد حاول جمع الكلمات الغريبة في القرآن وشرحها إن صحت نسبة غريب القرآن إليه[٧٤].

٢ - أبوخالد عكرمة بن خالد بن العاص المخزومي[٧٥] (ت ١١٥هـ)، تابعي ثقة جليل روى القراءة عن أصحاب ابن عباس، وكان ملماً بعلم اللغة، وكان أبوعمرو بن العلاء يكتب إلى عكرمة بن خالد فيسأله عن الحروف.

٣ - أبوحفص محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي بالولاء المكي[٧٦] (ت ١٢٣هـ) مقريء أهل مكة بعد ابن كثير وأعلم قرائها بالعربية.

وكان يحسن شيئاً يسيراً من جليل النحو فسقط، وكان من أهل مكة، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه، ويزعمون أن كثيراً من علمهم وقراءهم مأخوذ عنه[٧٧].

٤ - ابن قسطنطين من الموالي وعاش بمكة، يقول أبوالطيب اللغوي[٧٨]: "أما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له: ابن قسطنطين يشدو شيئاً من النحو، قال أبوحاتم السجستاني: وضع ابن قسطنطين بمكة شيئاً من النحو، ثم قدم البصرة فسمع النحو، فطرح جميع ما كان عمل، ووضع شيئاً آخر لا يساوي شيئاً".

٥ - علي الجمل من أهل المدينة، يقول أبوالطيب اللغوي[٧٩]: "وممن كان بالمدينة أيضاً علي الملقب بالجمل، وكان وضع في النحو كتاباً لم يكن شيئاً، وقال أبوحاتم: ومع ذلك فإني أظن أن الأخفش وضع كتاباً من كتاب الجمل، فلذلك قال: الزيت رطلان، والزيت لا يُذكر عندنا؛ لأنه ليس بإدام أهل البصرة".

مجهود علماء مكة والمدينة:

عن ما أشار إليه أبوالطيب من أن أبا عمرو بن العلاء استعان بعكرمة لمعرفة الحروف، وادعاء الكوفيين من أن علمهم وقراءهم مأخوذ من ابن قسطنطين، فإن علم النحو قد انتهى إلى علماء البصرة، فيها نشأ وبها تطور، فهم وحدهم أصحاب الكتب النحوية، والرجوع إليهم في علم العربية منذ نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الثاني الهجري.

أما المدينة فكان علي الملقب بالجمل، وقد قيل إنه وضع في النحو كتاباً لم يكن شيئاً وهذه طبيعة كل بداية.

واخترع أهل المدينة بعد ذلك علامة التشديد وهي قوس طرفاه إلى أعلى. هكذا ( ) يوضع فوق الحرف المفتوح وتحت المكسور وعلى شمال المضموم، أما الفاتحة فكانت توضع داخل القوس ( ) والكسرة تحته ( ) والضمة على شماله ( ) ثم استغنوا عن النقط في حالة استخدام الشدة وأصبحت الفتحة مع الشدة هكذا ( ) ومع الكسرة ( ) ومع الضمة ( )[٨٠].

ويمكننا أن نرجع نشأة التفسير اللغوي إلى الرعيل المتقدم من تلامذة ابن عباس الذين عاشوا في مكة والمدينة

نظـــراً لحاجـــة الناس في زمانهم إلى ما يصعب فهمه، وإلى ما يشكل عليهم بيانه، وتفسير ما غمض معناه وأبهم، وقد قيل: إن ابن جُرَيْج (ت ١٥٩هـــ) أول من صنف الكتب بالحجاز(٨١).

فاهتمام علماء مكة والمدينة كاهتمام علماء الأمصار الإسلامية الأخرى، فإنهم وإن كرسوا جل اهتمامهم لعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف لم يهملوا المسائل اللغوية والنحوية.

إن اهتمام علماء مكة والمدينة بالعلوم الدينية لا ينفي وجود من حل فيهما وله إلمام بالنحو والعلوم العربية، وإن انشغل بالعلوم الدينية، فعلوم العربية وجدت لخدمة الكتاب المجيد الذي لا سبيل إلى فهمه إلا بسلاح علوم العربية.

خلاصة البحث:

إن هذا البحث يكشف عن النشاط النحوي واللغوي في المدينتين، وقد مر هذا النشاط بمراحل متباينة:

أولها: الحرص على تعلم العربية وصيانتها من الخطأ أيام الرسول ﷺ وصحابته البررة -رضوان الله عليهم.

ثانيها: ما أضافه تلامذة ابن عباس ممن فسروا غريب ألفاظ المصحف الشريف، وما خلفوه من ملاحظات لغوية.

ثالثها: إن علماء المدينتين الأوائل وضعوا شيئاً من النحو كابن قسطنطين وابن محيصن وعلي الجمل وعكرمة بن خالد المخزومي.

رابعها: كان لمجاورة علماء العربية والفقهاء والمفسرين والمحدثين اثر كبير في ازدياد النشاط النحوي واللغوي فيهما.

التعليقات

(١) السـيوطي، جـلال الديـن عـبد الـرحمن (ت ٩١١هـ)، *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى وآخرون (القاهرة: دار التراث)، ١: ٢١٠.

(٢) السيوطي، *المزهر*، ١: ٢١٠.

(٣) اللغـوي، أبي الطيـب (ت ٣٥١هـ)، *مراتب النحويين*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار الفكـر العربي، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ٢٣؛ بن جني، أبي الفتح عثمان (ت ٣٩١هـ)، *الخصائص*، تحقيق: علي النجار، ط٢، القاهرة، ٢: ٨.

(٤) الأنـباري، أبي بكـر محمـد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ)، *الأضداد*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٢٤٤.

(٥) اللغوي، *مراتب النحويين*، ٢٣؛ المقرئ، أبي طاهر عبد الواحد بن عمر بن محمد (ت ٣٤٩هـ)، *أخبار النحويين*، تقديم وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا، ط١ (القاهرة: دار الاعتصام، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٢٥.

(٦) الأنباري، *الأضداد*، ٢٤٤.

(٧) المقرئ، *أخبار النحويين*، ٢٥.

(٨) الأزهــري، عطاء الله أحمد بن عطاء الله المصري (ت ١١٨٦هـ) *نهاية الأرب في شرح لامية العرب*، دراسة وتحقيق: الدكتور محمود محمد العامودي، ط١(غزة: دار البشير ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ٣٠.

(٩) المقرئ، *أخبار النحويين*، ٢٤.

(١٠) اللغوي، *مراتب النحويين*، ٢٣ .

(١١) اللغوي، *مراتب النحويين*، ٢٤ .

(١٢) الـزجاجي، أبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق (ت ٣٤٠هـ)، *أمالي الزجاجي*، تحقيق: وشرح عبدالسلام هارون، دار الجيل، ط٢ (بيروت: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٣٢٩؛ وانظر: عيد، محمد، *الرواية والاستشهاد باللغة* (القاهرة: عالم الكتب، ١٣٩٦هـ/ ١٩٨٤م)، ٨-٩.

(١٣) بـن خلكـان، أبي العـباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ)، *وفيات الأعيان وإنباء أنباء الزمان*، تحقيق: الدكتور إحسان عباس (بيروت: دار صادر)، ٢: ٢١٦.

(١٤) الأصبهاني، أبي الفرج (ت ٣٥٦هـ)، *الأغاني*، تحقيق: عبد علي مهنا وآخرون، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ١٢: ٢٩٧.

(١٥) أبو المكارم، علي، *تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري*، ط١ (القاهرة: الحديثة للطباعة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ٦٧.

(١٦) المقرئ، *أخبار النحويين*، ٢٤.

(١٧) المقرئ، *أخبار النحويين*، ١٩.

(١٨) المقرئ، *أخبار النحويين*، ٣٠.

(١٩) محمد، *الموجز في نشأة النحو*٢١-٢٢.

(٢٠) محمد، محمد الشاطر أحمد، *الموجز في نشأة النحو* (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٢٢.

(٢١) الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ)، *طبقات فحول الشعراء*، شرح محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني)، ١٢.

(٢٢) النديم، أبي الفرج محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨هـ)، *الفهرست* (القاهرة، ١٣٤٨هـ)، ٩٦.

(٢٣) *نشأة النحو*، ١٦-١٧.

(٢٤) عمر، أحمد مختار، *البحث اللغوي عند العرب*، ط٤ (القاهرة: عالم الكتب، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٧٨.

(٢٥) عمر، *البحث اللغوي عند العرب*، ٧٩.

(٢٦) *أبو المكارم، تاريخ النحو العربي*، ٥٤.

(٢٧) *أبو المكارم، تاريخ النحو العربي*، ، ٥٥.

(٢٨) عمر، *البحث اللغوي عند العرب*، ٧٧-٧٨؛ وانظر: النديم، *الفهرست* ٤٠.

(٢٩) *أبو المكارم، تاريخ النحو العربي*، ، ٥٢.

(٣٠) *أبو المكارم، تاريخ النحو العربي*، ، ٤٩.

(٣١) *أبو المكارم، تاريخ النحو العربي*، ، ٥١.

(٣٢) *أبو المكارم، تاريخ النحو العربي*، ، ٥١.

(٣٣) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٥٥.

(٣٤) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٥٦؛ و*السيوطي، المزهر*، ٢: ٤١٣.

(٣٥) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٥٩-١٥٧؛ وانظر: عيد، *الرواية والاستشهاد باللغة*، ١٩.

(٣٦) *السيوطي، المزهر*، ١: ٢١١.

(٣٧) *السيوطي، المزهر*، ١: ٢١١.

(٣٨) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٥٦؛ و*السيوطي، المزهر*، ٢: ٤١٣.

(٣٩) *طبقات، فحول الشعراء*، ١: ٢٥٠.

(٤٠) *طبقات، فحول الشعراء*، ١: ٢٤٥.

(٤١) ضيف، شوقي، *الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية*، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ٢٣.

(٤٢) *تاريخ الجزيرة العربية*، ٢٠٤-٢٠٥.

(٤٣) جبران، نعمان محمود، وحمد آل ثاني روضة سحيم، *تاريخ الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الوسطى*، ط١(إربد، عمان: مؤسسة حمادة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٢٠٥.

(٤٤) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (ت بعد ٢٩٢هـ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر)، ٢: ٣٤١.

(٤٥) ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة*، ٢٧-٢٨.

(٤٦) الأصبهاني، *الأغاني*، ١٧: ١٠٢.

(٤٧) الأصبهاني، *الأغاني*،٤: ٥٢.

(٤٨) ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة*، ٣٦-٣٧.

(٤٩) الأصبهاني، *الأغاني*، ١٧: ٩١-١٧٢.

(٥٠) الأصبهاني، *الأغاني*، ١٧: ٢٧٦؛ الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبدربه (ت ٣٢٨هـ)، *العقد الفريد*، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٣: ٢٤٢.

(٥١) الأندلسي، *العقد الفريد*، ١: ١١١؛ وانظر: ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة*، ١٧٣.

(٥٢) ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة*، ١٧٥.

(٥٣) انظر أسماء الشعراء في: ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة*، ٧٣-٧٤.

(٥٤) ضيف، *الشعر والغناء في المدينة ومكة*، ٧٩.

(٥٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٣: ٢٧٦.

(٥٦) الأصبهاني، *الأغاني*، ١: ٣٧٨.

(٥٧) ابن قتيبة الدينوري، أبي محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، *المعارف*، حققه وقدم له الدكتور ثروت عكاشة، ط٦ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ٢٤٨؛ وانظر: ضيف، شوقي، *التطور والتجديد في الشعر الأموي*، ط٧ (القاهرة: دار المعارف، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٧١-٧٢.

(٥٨) الدينوري، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، *الشعر والشعراء*، تحقيق: وشرح أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار

المعارف، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ١: ٥٣٩؛ *والجمحي، طبقات فحول الشعراء*، ٢: ٦٤٨؛ *والأونبي، سمط اللآلي*، ١: ٢٩٤-٢٩٦.

(٥٩) الدينوري، ترجمته في الشعر والشعراء، ١: ٥١٨؛ *والجمحي، طبقات فحول الشعراء*، ٢: ٦٥٥-٦٥٦؛ والأونبي، *سمط اللآلي*، ١: ٧٣.

(٦٠) الدينوري، ترجمته في الشعر والشعراء، ١: ٤٣٤ *والجمحي، طبقات فحول الشعراء*، ٢: ٦٦٩؛ الأونبي، أبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ)، *سمط الآلي في شرح أمالي القالي*، تحقيق: عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، ط٣ (بيروت: دار الحديث، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١: ٢٩-٣٠.

(٦١) الدينوري، ترجمته في الشعر والشعراء، ١: ٤١٠ *والجمحي، طبقات فحول الشعراء*، ٢: ٦٧٥؛ والأونبي، *سمط اللآلي*، ١: ٢٩١-٢٩٢.

(٦٢) الدينوري، ترجمته في الشعر والشعراء ،٢: ٥٥٣-٥٥٤؛ والأصبهاني، *الأغاني*، ١: ٢٨-٩٤.

(٦٣) الدينوري، ترجمته في الشعر والشعراء، ١: ٥٧٤؛ والأونبي، *سمط اللآلي*، ، ١: ٤٢٢-٤٢٣.

(٦٤) الدينوري، ترجمته في الشعر والشعراء، ٦٣٩؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٤: ٣٦٨؛ والأونبي، *سمط اللآلي*، ، ٣٩٨.

(٦٥) الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)، *فوات الوفيات*، تحقيق: الدكتور إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، ١: ٣٤-٣٥.

(٦٦) اليماني، عبدالباقي بن عبد المجيد (ت ٧٣٤هـ)، *إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين*، تحقيق: الدكتور عبدالمجيد دياب، ط١ (الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١٢١؛ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧)، *البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة*، تحقيق: محمد المصري، ط١ (الكويت: منشورات مركز المخطوطات والتراث، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ١٠١.

(٦٧) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٤٨-١٤٩؛ *وإشارة التعيين*، ٢٦١.

(٦٨) *إشارة التعيين*، ١٩٥.

(٦٩) البغدادي، أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ)، *معجم الأدباء*، ط٣ (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ٦: ٣٨٧.

(٧٠) إبراهيم، إياد عبد المجيد، *الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي*، ط١ (بغداد: دار الشئون الثقافية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ٦١.

(٧١) البغدادي، *معجم الأدباء*، ٦: ٣٨٧.

(٧٢) اللغوي، *مراتب النحويين*، ٩٠.

(٧٣) الزركلي، خير الدين، *الأعلام*، ط٨ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ٤: ٩٥.

(٧٤) عمر، *البحث اللغوي عند العرب*، ٧٧.

(٧٥) ابن الجزري، أبي الخير شمس الدين محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ)، *طبقات القراء (غاية النهاية في طبقات القراء)*، عني بنشره ج. برجستراس، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ١: ٥١٥؛ واللغوي، *مراتب النحويين*، ٣٥.

(٧٦) ابن الجزري، *طبقات القراء*، ٢: ١٦٧؛ والزركلي، *الأعلام*، ٦: ١٨٩.

(٧٧) اللغوي، *مراتب النحويين*، ٤٩.

(٧٨) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٥٩.

(٧٩) اللغوي، *مراتب النحويين*، ١٥٨.

(٨٠) عمر، *البحث اللغوي عند العرب*، ٧٨.

(٨١) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ)، *طبقات الحفاظ*، تحقيق: علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، ٧٤.

التحول من مدرسة المدينة إلى مدرسة بغداد وأثره على المسار العلمي في الأندلس

عبدالغفور بن إسماعيل روزى
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

يجيز بعض من المؤرخين لأنفسهم أحياناً صواب تشبيه الزمن التاريخي بمراحل عمر الإنسان. إن الزمن التاريخي في حالـــته المعنـــية هو الزمن المتغير والمتعاقب ضمن تحول وتبلور طبيعيين مقرونين بأسبابهما، الأمر الذي يتيح رصد أطـــواره بالصفة نفسها التي يمكن بها رصد المتغيرات التي تطرأ على الكائن البشري. وتلح الحاجة إلى صياغة مثل هذا النهج، عندما يرنو المؤرخ إلى متابعة ظاهرة تاريخية معينة منذ بدايتها مروراً بنموها إلى النضج والذروة، ثم انحدارها إلى الضعف والتلاشي. ففي هذه الحالة تبدو الظاهرة التاريخية المعنية أقرب إلى الأطوار الحياتية للإنسان من ولادة وطفولة إلى نمو واكتمال، ومن ثم إلى كهولة وزوال.

كـــان ابـــن خلدون من المؤرخين الرواد الذين ألمحوا إلى قرب الشبه بين الزمن التاريخي وعمر الأشخاص. فمن خلال رصده لأعمار الدول القروسطي الإسلامية، ولا سيما تلك التي قامت في المغرب الإسلامي، خلص بأن "الدول لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"، وهي الخلاصة التي أدت به إلى رسم خط نصف دائري للحالة الفرضية التي تعمرها الـــدول، حيـــث يبدأ خط الدولة من رأس القوس المنحنى ليبلغ أقصى ارتفاعه في وسط الدائرة ثم يعاود الانحدار إلى مســـتوى خط البداية نفسه. إن عمر الدول، عند ابن خلدون توضيحاً "لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل، هو عمر شخص واحد من العمر الوسط"[١].

إن المقـــترح الـــذي صاغ ابن خلدون فكرته لقي التواصل من بعده، ورعاه غير نهج تطبيقي. ولعل من أشهر المـــدارس التاريخية التي رعت أفكار ابن خلدون وأطّرت نهجه هي مدرسة الحوليات التاريخية الفرنسية "Annales"، وبصـــورة أقوى داعيها الأشهر فرنان بروديل Fernand Braudel (ت ١٩٨٥م). لقد برزت ضرورة التطبيق الزمني للـــتاريخ عـــند بروديل حينما كان عليه أن يختار أما أن يحرر رسالة دكتوراه روائية عن العاهل الإسباني فيليب الثاني

Philip II (حكمــه مــن ١٥٥٦ حتى ١٥٩٨م)، أو أن يكتب عن البحر المتوسط، عالم الهيمنة الإسبانية عندئذ، في عهــد فيليــب هــذا. لقد اختار بروديل الخيار الأخير. ولأن المنهج الحولي الفرنسي يدعو لأولوية البعد عن الكتابة الوصــفية للــتاريخ، وتفضيل النهج التحليلي والاستنباطي والمقارن، فإن بروديل فضل تاريخ المتوسط بدءاً من تاريخه السياســي العام، ونزولاً إلى تاريخ الجزئيات الصغيرة المكونة له على متابعة أحلام فيليب الإمبراطوري، وذلك خلال قــرن كامل (١٠هــ/١٦م). ولأن قرن، بمداه الزمني الطويل Longue duree ليس زمن إسبانيا ورصد قاصر لرصد تــاريخ إسبانيا وحكم فيليب أثناءه فحسب، وإنما هو زمن مثالي يتيح فهم التغييرات الهائلة التي طرأت على ا لمتوسط خلال القرن بما فيها تاريخ الإمبراطورية الإسبانية[٢].

رامــت التوطــئة الآنفة الوصول إلى القول بأن الأندلس بوصفها تجربة تاريخية، وإن امتدت زمنياً لثمانية قرون (٢٨/٩/٩٢هــ- ١٧/٦/٧١١م حتى ٢/٣/٨٩٧هــ- ٢/١/١٤٩٢م)[٣]، إلا أنها تجربة قابلة للتجزئة الزمنيــة على غرار العمر الزمني الإنساني. وتتيح المعرفة بتاريخ التجربة باليوم، من بدئها إلى نهايتها، على تقويم مراحلها الزمنية على أطــوار عمــرية، كما تسهل رصد أطوارها الفكرية، وكذلك الوقوف عند محطاتها الرئيسة، ومن ثم متابعة الصلات الرابطة لمسالكها، والتعريف بالنتائج والهيئة التي انتهت إليها. وبالمعطيات هذه، فإن الدراسة سوف تحاول تحديد تاريخ كل مرحلة من المراحل التي مرت، حسب النمو الزمني والشكلي التالي:

كانت الأندلس، بما ملكت أصلاً، وبما أُضيف إليها بعد الفتح الإسلامي، إضافة جديرة بكل المقاييس إلى عالم الإســلام الأوسع. لقد أبدت دلالات كافية على أنها ستشكل كياناً محسوباً، وأظهرت كذلك مظاهر توحي بصحة ولادتها، ولما سيكون عليه حالها مستقبلاً. لقد وجدت الرعاية من فاتحيها والذين دخلوها مستقرين، ومن أهلها الذين اعتنقوا ديناً محرراً ومستنيراً، وتعلموا لغة معبرة لسمو معرفي وفكري. ولدت الأندلس بقوة، وكذا بدت منذ طفولتها.

لوحــت الأندلس بأول دلالة قوتها الصحية بوصفها وليده، عندما تمكنت من الحبو بنفسها دون الاعتماد على رعاية مرجوة تمتد إليها من مركز الخلافة في دمشق، أو على الأقل من ولاية المغرب التي أوكلت إليها الرعاية المباشرة. لقــد كــان على الأندلس وقد أُخرج منها فاتحيها موسى بن نصير وطارق بن زياد، وقتل أول واليها عبدالعزيز بن موسى بن نصير غيلة[٤]، وأُلحقت بها ثلاث هزائم متكررة فقدت فيها ولاتها: السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبدالرحمن الغافقي أن ترعى نفسها، وقد تمكنت من ذلك.

لعلــنا سنجانب الحقيقة إذا ما افترضنا أنّ الأندلس وهي تواجه ما واجهت في بكورة أيامها، سوف يكون لها قــدر مــن سعة بال ليزرع في تربتها أي نبتة من نبتات المعرفة الفكرية، ولاسيما تلك التي تستمد غذاءها من أصول ديــنها ولغــتها الجديديــن. لقد نمت الأندلس خلال ما يعرف بعصر الولاة (٩٦- ١٣٨هــ) على أبسط حاجتها التنظيمــية والإداريــة الملبية لحاجتها الأدنى. لقد حاول نفر من الولاة: عبدالعزيز بن موسى بن نصير[٥]، وأيوب بن

حبيـــب الـــلخمي، والسمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي إعطاء الأندلس بعضاً من التنظيم الإداري والعسكري، إلا أنّ المعروف أنّ هؤلاء قد انتهى بهم الأمر قتلاً أو استشهاداً في فتوحات بلاد الغال[٦].

وأمـــام ظروف التنشئة المقلقة غدت الأندلس مجبورة على القناعة بواقعها الراهن وتنظيماتها العسكرية والقبلية المـــتحكمة، وقبلت حياله بما هو متوافر ومناسب من الاجتهادات الإدارية، والمعنى بالتنظيم الإداري لربما كان ينحصر حينه في واجبات الوالي ومسئولية قادة الجند، ومذهب "قاضى الجند"، الذي يشار إليه بتكرار. لا تجتهد المصادر، على أيـــة حال، في التعريف بصلاحية هذا المنصب، على الاجتهاد نفسه، كما يفعل الخشنى، على التعريف بكفاءة قاضي الجـــند العلمية، حيث يعدد نفر من هؤلاء ممن كان لهم حظ من المقدرة العلمية بالقياس لزمن وجودهم المبكر. ومن هؤلاء: القاضى مهدي بن مسلم، الذي يذكر الخنشى بأنه كان من أبناء المسالمة، أي من أصل إسباني اعتنق الإسلام، وهو أمر يدعو إلى التحقق بالقياس إلى زمنه المبكر، والقاضي مهاجر بن نوفل القرشي، والقاضي يحيى بن يزيد، والذي يشـــير الخشنى بأنه استقضي على الأندلس بالمشرق وقدمها قاضياً بتعيين، كما قال محمد بن وضاح، من قبل الخليفة عمـــر بن عبدالعزيز ﷺ، ثم القاضي معاوية بن صالح الحضرمي، والذي يشار إليه بأنه كان من جلة أهل العلم ورواة الحديث، شارك مالك بن أنس في بعض رجاله[٧].

أن حظ القضاة المذكورين من العلم يبين أن الفضاء الفكري الأندلسي الباكر لم يكن باهتاً تماماً. إلاّ أنه في ذات الوقت يثير تساؤلاً عما يكون بمقدور انفار أن يحركوا السكون الفكري الغالب، لاسيما أن المذكورين من القضاة لا يذكر عنهم أنهم مارسوا التدريس أو جلسوا في حلقات الإقراء، وإنما حصروا منافعهم في القضاء بين الناس.

إن ضـــعف آلـــية التـــثاقف في الأندلس خلال المرحلة التأسيسية للمجتمع الأندلسي، والذي يشترط فيه توافر سلســـلة رواة العـــلم وهي آلية لم تكن قد تأسست في الأندلس بعد، يبرر نعت محمد ابن وضاح[٨] الأندلس "بالبلد الساقط همم أهلها"، وكان يتأسى حينه على ضياع مرويات معاوية بن صالح، مما حدا به أن يقول: "قدم [معاوية ابن صالح] بلداً [الأندلس] لم يكن أهله يومئذ أهل علم"[٩].

إن القـــول بـــأن الأوزاعية، وهي مدرسة فكرية وفدت الأندلس خلال هذه الفترة، كانت بمثابة الحجر المحرك لســـكون مـــياه بحيرة الفكر الأندلسي قد يكون فيه شيء من المبالغة. وهذا عائد إلى ضحالة العلم بالبحيرة الأندلسية عندئذ أصلاً كما هو عائد إلى حجم الحجر الذي ألقي فيها. لقد دأب نفر من دارسي تاريخ الشعر الأندلسي، والشعر هو المقياس الوحيد الذي يمكن قياس ذهنية المجتمع عليه، على وصف المجتمع الأندلسي بمجتمع الأجناد والقبائل. وذلك لغلبة الروح ا لعسكرية بين جماعات الفاتحين، وكذلك لانتظام الأجناد على التنظيمات القبلية[١٠].

لا يقصد من تشخيص المجتمع الأندلسي بالجندية والقبلية على أية حال إلى التلميح بأن الأجناد وأهل القبائل هم فـــئة بعيدة عن عالم العلم والفكر. أن الوضع الفكري في الأندلس كان في تلك الحقب ضعيفاً أساساً وأن وجد فإنه

كان في مرحلة نشأة بحيث إنه لا يمكن تحميل وهن العلم على أوضاع اجتماعية سائدة. كما لا ينبغي تجاهل حقيقة أن أجـناد الأندلس كانت تقع عليهم مسؤوليات لا جدال أنهم كانوا يقومون بها كما هو مرسوم عليهم، فضلاً عن أن الكيانات القبلية كانت تشغلهم عوائق إرساء الاستقرار في البلد المفتوحة لتوها. ولا شك أن الصور المرسومة على هذا الـنحو للذهنـية الأندلسية الراهنة هو الذي يضعف من حكمنا على دور الأوزاعية الفعلي، ليس بوصفها مذهباً بل بوصفها آلية فكرية، قادرة على تحريك السكون في الأندلس. وذلك لأن الأوزاعية نفسها عند دخولها الأندلس كانت قد جوبهت بعوائق مختلفة حدّت من ترسيخ أقدامها فيها[١١].

والعوائـق كـان مـنها: أن الأندلس لم تسع إلى الأوزاعية و لم تطلبها من موطنها للحاجة إليها، بل وفدت الأوزاعية إليها، كما أشرنا، مع الجند الشامي، أو فيما عُرف في حوادث تاريخ الحقبة بـ "طالعة بلج" فضلاً أن الجند الشـامي إبـان دخوله الأندلس دخل طرفاً في الصراع القبلي المشتعل حينذاك فيها. وبسبب هذا الانشغال لم يتسن لـذوى الميول الفكرية في الجيش الشامي من نشر ما لديهم من علم بين طلاب العلم. وزاد من إضعاف أيّ أثر لهذا الفـريق توزيع والي الأندلس المعين، (أبو الخطار) الحسام بن ضرار الكلبي الجند الشامي على نواحي الأندلس، مبعداً لهم من قرطبة، العاصمة المحتملة لحضانة أي فكر علمي حمله الشاميون معهم[١٢].

بـيد أن هذه المعوقات فيما يبدو لم تمنع من ظهور نفر من العلماء ممن كانوا ضمن الطالعة ممن يربط الراصدون بينهم وبين المذهب الأوزاعي. ومن هؤلاء صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢هـ) وهو، كما يشير الحميدي، "أول مـن أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي"[١٣] ويضيف ابن الفرضي: "وعليه دارت الفتيا بالأندلس أيام الأمير عبدالرحمن بـن معاويـة وصدراً من أيام ابنه هشام .. .. لا ينازعه في ذلك أحد، فهو شيخ المفتين وإمام الأوزاعية وروايته[١٤]. وعلى الرغم من المكانة القيادية التي احتلها صعصعة بن سلام بوصفه شيخاً للأوزاعية إلا أن آخرين فيما يبدو شاركوه في الترويج لهذا المذهب، فابن الفرضي يشير إلى زهير بن مالك البلوي (ت قبل ٢٥٠) ملمحاً أنه دخل الأندلس قبل بـني أمية، وذاكراً أنه كان منفرداً برأي الأوزاعي[١٥]. ويلحق ابن الفرضي مزيداً من الأسماء إلى قائمة المنضوعين إلى مذهب الأوزاعي ويذكر المصعب بن عمران الذي تولى القضاء، وكان يروي عن الأوزاعي في حين أنه كان لا يقلد مذهـباً ويقضـى بما يراه صواباً. وكذلك محمد بن إسحاق وأسد بن عبدالرحمن الذي يشار إليه، بسبب توليه قضاء كورة البيرة في إمرة عبدالرحمن بن معاوية وكان حياً بعد سنة خمسين ومائة[١٦]. ويخلص الكبيسي، من خلال متابعته لشيوخ الأوزاعية في الأندلس، أن العمل بالأوزاعية تواصل في الأندلس إلى أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن الذي حكم بـين سـنتي ٢٣٨- ٢٧٣هـ. على الرغم من مرور زمن على أخذ الأندلس بالعمل بالمذهب المالكي، "في عشـرة السبعين ومائة"، كما يقول عياض، في حياة مالك وحكم الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل[١٧].

ولكـن عـلى الرغم من قصر قائمة دعاة الأوزاعية في الأندلس، إلا أن هؤلاء القلة فيما يبدو كان لهم بعض المساهمات الرائدة في تخصيب تربة الحقول الفكرية في الأندلس. حيث يُروى عن صعصعة ابن سلام، بوصفه مثالاً على

فعـــل هؤلاء، أنه قد انتفع بعلمه وتتلمذ على يده عدة، وروى عنه الكثير، ومن هؤلاء أيضاً فقيه الأندلس ومؤرخها عـــبدالملك بـــن حبيب صاحب الكتاب المشهور"طبقات الفقهاء، وتاريخ افتتاح الأندلس"[١٨]. ولا جدال أن تحريك شيوخ الأوزاعية للآلية الفكرية المجمدة في الأندلس، برغم محدودية نطاقها وبالتالي أثرها، أهّل مرحلة المؤثر الأوزاعي عـــلى الأندلس بوصفه مرحلة فكرية مؤثرة إلى جانب مؤثرات مشرقية تالية أخرى، ساعدت على تشكيل المسارات الفكرية، كما يؤطر محمود علي مكي مراحلها. لقد قسم مكي مراحل المؤثر الفكري المشرقي على الأندلس إلى ثلاث مـــراحل؛ تبدأها الأوزاعية ويعرفها مكي بمرحلة المؤثر الشامي، وتبدأ من عام ١٢٥ وتستمر إلى أواخر النصف الثاني مـــن القـــرن الثالـــث الهجري، تليها مرحلة المالكية، وهي التي يعرفها مكي بالمرحلة الحجازية. وتبدأ من أواخر أيام مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك (الداخل)، وتستمر إلى أواخر الوجود الإســـلامي في الأندلس. ثم تليها المرحلة البغدادية، وهي التي تحدد بمرحلة أهل الحديث، وهؤلاء يوازون المالكيون في طول الاستمرار إلى آخر أيام الأندلس أيضاً[١٩].

لم تغـــب عـــن الأندلس الآلية الفكرية المحركة خلال الأيام التالية للفتح الإسلامي لها وإلى قيام الحكم الأموي (٩٦ حتى ١٣٨هـــ) فحسب، بل غابت عنها على قدر مساوي مقومات الدولة المتحدة. ولا يختلف مختلف على أن الأندلس لم تمتلك الأرضية السياسية و لم تتهيأ لها الأسباب العلمية الأولى إلاّ مع قيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبدالملك (الداخل). إن اكتساب الأندلس صفة الدولة المتحدة كانت الخطوة السابقة للخطوة التي خطتها الأندلس في دربها نحو العلم.

يســـجل المقري طرفاً من الملكة الأدبية التي امتلكها عبدالرحمن بن معاوية، وعبرت عن مكنوناتها في المراسلات الســـجالية الـــتي تبادلها ابن معاوية مع رفيق دربه وخادمه المخلص بدر، أو فيما نظمه شعراً مهجرياً يبث فيه حنينه لأرض الآبـــاء والأجـــداد في أرض غربته في الأندلس[٢٠]. بيد أن الصعوبات التي وقفت حائلاً بينه وبين عزمه لإقامة دولـــته هناك، قدرت أن تكبت ظهور التدفق الأدبي والفكري فيه، لقد انحصرت مشكلة الداخل في طموحه لتوحيد أندلـــس لم تعـــتد منذ الفتح على الوحدة. حيث تجسدت المواجهة بين رغبته في تأسيس أندلساً موحداً، قابله رغبة أصحاب الإنزواء الذين كان كل واحد منهم يريد قطعة من الأندلس لنفسه. ومع تمكن الداخل، بعد مواجهات مريرة مـــن التغلب على مناوئيه، كان قد امسى رجلاً قد أخذت منه أيام حكمه التي ربت على الربع قرن نصيبها منه. لقد اشتكى الداخل بأنه لم يرح في سنوات حكمه سوى أيام، وقد تركت المعاناة فيه التعب والإنهاك، بحيث إنه كان من الصـــعب علـــيه استنطاق دواخله الأدبية إلاّ من أبيات عبرت عن وحدته وغربته في أرض الإقصاء والتنائي عن أرض النشأة. فضلاً عن استنطاق مكامن أمته الفكرية[٢١].

إن معرفتـــنا بمعاناة عبدالرحمن المرهقة، والمستحوذة حتماً على جهوده السياسية والعسكرية، تقلل من جدوى محاولة الربط بين دور محتمل له، وبين ظهور أولى الملامح الفكرية للأندلس في عهده. فهو لم يمتلك الوقت لاهتمامات

جانبـــية. لـــذا فلن نذهب بعيداً ونأخذ بالتفسير الأبوي التاريخي وتخلص منه على أن إقامة الداخل لدولته كان سبباً مباشـــراً لظهـــور براعم الفكر في الأندلس، فالأقرب إلى الاحتمال هنا أن استقرار الأندلس نفسها كان عاملاً مؤدياً لظهور مثل تلك البوادر. إن أفكار المدرسة الأوزاعية التي سادت عصره وصدراً من عصر خلفه هشام لم تكن سوى توجهات فكرية ورثها عصر الداخل من عصر الولاة، ولذلك فإن الداخل تعامل معها أمر واقعاً، أو بوصفها مصدراً تكفيه حاجة حكومته للقضاة ومن يتقلدون المسؤوليات الدينية كإمامة المصلين والفتيا والتدريس. فما عدا هذا فنحن لا نقرأ عن صلات عملية مباشرة بين الداخل بوصفه أميراً للأندلس وبين دعاة الأوزاعية في أيامه[٢٢].

إن مصـــنفات الـــتراجم الأندلســـية بقدر ما تبدي من اهتمام لمتابعة شيوخ الأوزاعية، تهتم بقدر أوسع لمتابعة نشـــاطات معاصريهم من الطلاب الأندلسيين الذين أخذوا حين ذلك يشدون الرحال إلى المدينة ليجلسوا في حلقات إمام دار الهجرة مالك بن أنس في المدينة، ومنهم:

"القاضـــي معاوية بن صالح، وسعيد بن أبي هند، وعبدالرحمن بن موسى الهواري، ومحمد بن إبراهيم بن مزين الأودي، وشـــبطون بن عبدالله، وحفص بن عبدالسلام السلمي، وزياد بن عبدالرحمن بن محمد، وسعيد بن عبدوس، وغيرهم.

إن الذين وردت أسماؤهم في القائمة الآنفة هم في الحقيقة يمثلون الرعيل الأول من طلاب العلم الأندلسيين الذين تجـــاوزت طموحاتهم مستوى العلم المتوافر لهم في الأندلس في صدر الحكم الأموي في الأندلس، كما يلمح إلى ذلك حسين مؤنس، وفضلوا عوضاً عنه الارتحال إلى المدينة حيث يكفيهم الالتحاق بعالم غدا مقصداً لطلاب العلم من كل صـــوب، كمـــا قيل[٢٣]. وعلى الرغم من معاصرة النشاط العلمي لهؤلاء مع أقرانهم شيوخ الأوزاعية في الأندلس بعد عودتهـــم مـــن المشـــرق، إلا أن عبدالرحمن الداخل فيما يبدو تعامل معهم بنفس التجاوز الذي تعامل به مع شيوخ الاوزاعـــية. ومثلما سمعنا عن امتهان شيوخ الأوزاعية التدريس، نقرأ أيضاً عن أخذ طلاب مالك الأوائل نفس التوجه دون اعتلاء مناصب إدارية رسمية، فالفتيا في ذاك الوقت كانت لا تزال تدور على صعصعة بن سلام، تلميذ الأوزاعي وراويته، حيث تسنم مكانة شيخ المفتين وإمام الأوزاعية بقرطبة[٢٤].

عـــند قياس المحطات البارزة في عمر تاريخ الفكر الأندلسي يمكن اعتبار السنوات الأخيرة من حكم عبدالرحمن الداخـــل مـــنعطفاً مهماً في هذا التاريخ. فإلى ذلك الحين، ومنذ ظهور نواة المسارين السياسي والفكري في الأندلس، تعايش الطرفان معايشة متوازية، لم تبد فيها خطوطهما ميلاً إلى التلاقي إلا في الزمن المشار إليه. في السنوات الأخيرة مـــن حكم الداخل بدأ أمير الأندلس بوصفه ممثلاً للسلطة السياسية يبدي إهتماماً غير معلن، وميلاً للتقرب من الطبقة العلمية الآخذة في النمو في ذلك الوقت، ولا سيما في عدد طلاب المالكية.

في مســـألة تســـمية من سيخلفه في إمارة الدولة الأموية في الأندلس، يركن المؤرخون إلى رواية شائعة التداول

منسوبة إلى عبدالرحمن الداخل ومفادها: "إن عبدالرحمن بن معاوية –رحمه الله– لما حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليمان بطليطلة، وكّل ابنه عبدالله المعروف بالبلنسي، موصياً إياه : "من سبق إليك من أخويك فارم إليه بالخاتم والأمر: فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه وإجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الشامبين إليه.. تقدم هشام من ماردة قبل سلمان .. فخرج إليه أخوه عبدالله، وسلم بالخلافة، ودفع إليه بالخاتم، كما أوصاه وأدخله القصر"[٢٥].

إن الرواية الآنفة لا تمثل في الحقيقة سوى القشرة الظاهرة في قصة ذات أبعاد متراكبة، ومحاولة الوصول إلى جوهرها يبين ببراهين أن قصة ولاية العهد وإنتقال السلطة من المؤسس (الداخل) إلى ابنه هشام لم يكن مجرد سباق بين أخوين يطلب كل منهما حكم والدهما، ويمتلك كل منهما شروطاً مؤهلة للمطلب، بل على نقيضه تماماً فهي كانت عملية مدروسة أحكم عبدالرحمن فصولها ليضمن وصول هشام للحكم بدلاً من أخيه الأكبر سليمان[٢٦].

أما عن دوافع عبدالرحمن في تفضيل هشام على سليمان، على الرغم من الاعتبارات السنية فإن الدراسة في سعيها لمعرفة السبب تميل إلى ترجيح عامل الإقبال على العلم بين سليمان وهشام. لقد تحرى عبدالرحمن ميول أبناءه، ووجد ميلاً في هشام لمخالطة أهل العلم في محيطه القرطبي، أما سليمان فقد تحقق عبدالرحمن أنه يستمد ركيزته من موالاة الطبقة العسكرية الأندلسية له، "نجده الشاميين"[٢٧] كما جاء في الوصية . ولذا فإن أهل العلم غدوا ولأول مرة مطلباً لعاهل الأندلس، وغاية يؤمل أن يوفر سندهم قوة معززة لقوة الحكم الأندلسي في أيامها القادمة.

إن وصول هشام إلى الحكم كان إذن مقروناً بآمال عقدها أبوه فيه في أن يأخذ بيد الأندلس إلى الوجهة الفكرية، ويسد بذلك نقصاً كان عبدالرحمن يدرك أنه، بسبب التزاماته العسكرية وانشغاله بإقامة دولته، لم يتمكن أن يحققه لها[٢٨]. وغلبة هذا الاعتبار في مضامين الروايات التاريخية المطروحة أدت إلى تركيز المؤرخين اهتمامهم الحصري لمتابعة إنجازات هشام العلمية وتقويم عصره من خلال تحقيقه آمال أبيه المعقودة عليه. وإحقاقاً للحق ينبغي الاعتراف بأن هشاما بإنجازاته العلمية وفّر للمؤرخين الكثير مما يمكن لهم تداوله في هذا الشأن.

ولعل هناك غير عامل كان له أثره في عقد عبدالرحمن الآمال على هشام أيضاً، منها إدراك عبدالرحمن أن الأندلس في أواخر أيامه قد تجاوزت مرحلة بناء الدولة ودخلت مرحلة بداية الاستقرار. وعندئذ توسم عبدالرحمن أن هشاما بما توافرت فيه من شروط اجتهد هو في التحري عنها سيكون الأنسب للسير بالأندلس إلى وجهتها المختارة، وقد يكون للتعزز العددي لأهل العلم في الأندلس في أواخر أيام عبدالرحمن فضلاً عن أولئك الذين أتينا على ذكرهم آنفاً سبب أيضاً. ويمكن أن نضيف إلى ما سبق من الفرضيات في أن الأندلس نفسها كانت حينذاك قد شبت عن طوقها وغدت قادرة على مد يدها طلباً لما يسد حاجتها من نواقص لكونها حالة مدركة لمصالحها. وعوضاً عن الانتظار إلى أن يفد إليها حاجتها الفكرية من المشرق، كما درج عليها ركونها إلى حينه، فإنها أخذت البادرة ووجه

طلابها وجهتهم إلى حيث القطب الفكري الذي يوجه الجميع وجهتهم إليه في المدينة[٢٩]. لقد عبر طلاب الأندلس بهذا التوجه إلى وصولهم إلى نفس مستوى الطموح العلمي الذي كان عليه أقرانهم طلاب عوالم الإسلام المعاصرين لهم.

يقـيم الكبيسـي هذه المرحلة الحيوية من مراحل النمو الفكري للأندلس والتي أدت إلى ترسخ المذهب المالكي بوصفه نهجاً فكرياً ويقول: أن المالكية وضعت أسسها بالأندلس في أيام عبدالرحمن ابن معاوية وعلى الأكثر في أواخر أيامه، وأخذ بناؤها بتكامل منذ أيام أبنه هشام[٣٠]. وكان الدعم الأبرز الذي مهد لهذا التحول عودة رعيل أكثر رفعة في تحصـيلهم العلمي من طلاب الأندلس من المدينة. فبالمقارنة مع السابقين من طلاب الأندلس الذين لا نعرف على وجه اليقين مدة وكيفية جلوسهم إلى الإمام مالك، فإن كتب طبقات العلماء الأندلسيين تمدنا بتفصيلات واسعة عن سيرهم ومستوى تحصيل هؤلاء العلمي، وتتوثق دقة التفاصيل المعطاة عنهم كلما ألحقت أسماء إضافية إلى القائمة. ومن هؤلاء أبو موسى الهواري، ويحيى بن مضر القيسى (ت ١٨٩هـ)، ومحمد بن بشير المعافري (ت ١٩٨هـ) والغازي بـن قيس (ت ١٩٩هـ)، وزياد بن عبدالرحمن اللخمى (ت ٢٠٤هـ)، وسعيد بن أبي هند[٣١]. وتضيف المدونات موسـعة إهـتمامها عندما تختم القائمة بذكر أواخر الطلاب الذين لحقوا بمالك قبل وفاته وهم عيسى بن دينار (ت ٢١٢هـ)، وقرعوس بن العباس (٢٢٠هـ)، ويحيى بن يحيى الليثي[٣٢].

إن توافـق وجـود مثل هذا العدد من طلاب المالكية في الأندلس مع سعي هشام للسير بالأندلس إلى وجهتها العلمـية كـان محتماً أن يعطي زخماً للتوجه نفسه كما يمنح الطرفين، المالكية بوصفها مذهبا وهشاما بوصفه السلطة المتبنية لها، أرضاً صلبة في هذا التلاقي. وفي الواقع أن هشاما كان المستفيد الأول في هذه المعادلة، وذلك دون أن تخلو الفـائدة أيضاً للطرف المالكي. فمن جهة هشام فإن استناده على أسماء لا يتطرق الخلاف على مستواهم العلمي كان دعماً قوياً له ولمسعاه، فهم "كانوا جميعاً"، حسب تأكيد حسين مؤنس، مالكيين أصلاء، أي جامعين بين علم مالك وذكائـه وكياسته"[٣٣]. فهم للمستوى هذا كانوا جديرين الآن بمسمي "شيوخ المالكية" بدلاً من طلاب المالكية. لقد توسع هؤلاء ليس في علم مالك فحسب، بل عادوا يحملون ألقاباً مميزة منحها لهم مالك واصفاً سعيد بن أبي هند بأنه (الحكيم، أو حكيم الأندلس، ويحيى بن يحيى بأنه عاقل الأندلس، وعبدالملك بن حبيب عالم الأندلس)[٣٤]. وعلى هذا الغـرار نفسـه، فإن أهل الأندلس إستحباباً باطلاق الألقاب تقليداً لمالك كانوا يسمون زياد بن عبدالرحمن المعروف بشـبطون، إقراراً منهم بتحصيله العلمي مع مالك، بـ "فقيه الأندلس"[٣٥]. كما عُرف عن هؤلاء عقد صداقات مع مـالك تجاوزت درجة العلاقة التي عادة ما تكون بين طالب وأستاذه. كما أن تقارب مستوى التحصيل العلمي لدى هـؤلاء أفضـى إلى خلاف في منْ من هؤلاء أدخل "الموطأ" إلى الأندلس، حيث تختلف النسبة إلى الغازي بن قيس، وزيادة بن عبدالرحمن "شبطون" ويحيى بن يحيى الليثي. الا أن مصطفى الهروس يعرض رأياً مرضياً قد يكون من الأسلم القـبول به، يقول فيه: "أن الغازي بن قيس أول من أدخل الأندلس الموطأ وعرّفهم به، وزياد بن عبدالرحمن أول من أدخل الأندلس موطأ مالك متفقها بالسماع منه، ويحيى بن يحيى أول من أدخل الموطأ مكملاً مثقفاً بالسماع لأنه آخر

من أخذ عن الإمام رحمه الله[٣٦].

إن المحطة الأبرز في مسعى هشام للسير بالأندلس إلى وجهتها الفكرية تمثل دون جدال في إعلانه المذهب المالكي مذهباً رسمياً للأندلس. وسببه، كما يوجز القاضي عبدالرحمن السبتي، صاحب ترتيب المدارك بقوله: "وأما أهل الأندلس فكان رأيها منذ فتحت على رأي الأوزاعي، إلى أن رحل إلى مالك زياد بن عبدالرحمن وقرعوس بن العباس والغازي بن قيس ومن بعدهم. فجاءوا بعلمه وأبانوا للناس فضله، واقتداء الأئمة به، فُعرف حقه، ودُرس مذهبه، إلى أن أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الناس جميعاً بالتزامهم مذهب الإمام مالك، وصير القضاء والفتيا عليه، وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك، رحمه الله[٣٧].

والواقع أن الدافع الرئيس الذي جعل هشاما يتخذ قراره الحاسم وبعيد الأثر يعود إلى رعيل شيوخ المالكية الأواخر، فهؤلاء، فضلاً عن قعودهم لتدريس المذهب في الأندلس "وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به حينه بالأندلس[٣٨]. وكان بعض هؤلاء بمثابة الجسر الذي انتقل عبرهم سمعة أمير الأندلس إلى المدينة وصيت الإمام مالك إلى الأندلس. وعزا ابن القوطية الدور الأوفى في عملية التقريب هذه لزياد بن عبدالرحمن، إذ يوضح ذلك بقوله : ورحل بعد عام من ولايته -أي هشام- زياد بن عبدالرحمن اللخمي، فقيه الأندلس، جد بني زياد القرطبيين إلى الشرق، فلما صار بالمدينة، ووصل إلى مالك بن أنس، رحمه الله، سأله عن هشام، فأخبره عن مذهبه، وحسن سيرته، فقال مالك: ليت الله زين سمتنا بمثل هذا[٣٩]. والأمير هشام،من جانبه عندما نُقل إليه ما قاله مالك بادل مالك أمانيه راداً "عالم دار الهجرة يكفينا"[٤٠]. وما تلا هذا لا يمكن وصفه سوى بحلقات من الود والمجاملة بين الطرفين، لقد قوي مذهب مالك بالأندلس، ومع علو شأنه ارتفعت مكانة مالك أيضاً. وأما مالك فإنه بقي على مودته، والأمثلة كثيرة. بيد أن لبعضها دلالات، فهو مدح عالم الأندلس مصعب بن عمران، مع أنه لم يكن مالكياً بقوله: تكاد أحاديث ابن عمران أن تكون سيرا[٤١]. كما يذكر أن مالكاً غير في فتواه في وجوب دية قطع اللسان في الحال، إلى التأني في الدية طمعاً في نبتها. وكان ذلك، بسبب الشاعر الأندلسي أبو المخشي التميمي، الذي يقال أن الأمير هشاما قطع لسانه في شعر قاله فيه، بيد أن لسان أبا المخشي نما بعد ذلك وأصبح قادراً على الكلام تلعثماً. لقد برر مالك التغيير في فتواه بقوله: "يتأنى بالحكم عاماً. فإن نبت أو شيء منه، عمل في ديته بحسب ذلك. فقد بلغني أن رجلاً بالأندلس نبت لسانه أو أكثره بعد ما قطع، فأمكنه الكلام[٤٢].

على الرغم من صور التلاحم التي كانت قائمة بين هشام وبين شيوخ المالكية، والتي يشبهها حسين مؤنس بشهر العسل الذي غدت خلاله قرارات هشام معبرة عن رغبات شيوخه، إلا أن علاقته الشخصية المباشرة بهم، كما يلفت نظرنا إليه مؤنس أيضاً، حافظت على شيء من التباعد، فهو لا يعرف عنه أنه عهد لأحد منهم في قضاء قرطبة بعد وفاة القاضي معاوية بن صالح، بل عهد في القضاء إلى المصعب بن عمران مع أنه لم يكن من كبار الفقهاء ولا

مالكياً، بل شيخاً من العرب الشاميين. وهدده بالقتل إذا رفض القضاء، مع أنه لم يصر على زياد بن عبدالرحمن عندما رفض القضاء[٤٣]. لعل هشاما بهذه السياسة كان حسبه من شيوخ المالكية إضفاء الشرعية والرضا لحكمه. كما كان يترضـى منهم الموآزرة في تحقيق آمال أبيه منه. و لم يكن نصرة شيوخ المالكية لهشام بالأمر الهين أيضاً في المقابل، فهم ساعدوه على الاستقلال المذهبي من العباسيين، مكملين بذلك الاستقلال السياسي الذي حققه والده. كما رضي منهم نشر علم رفيع هو الاسمى في زمنه في الأندلس، طالما أنه يحقق حنين الأندلسيين وميلهم إلى "عمل أهل المدينة" كما يمارسها الإمام مالك ويطبقه مذهبه[٤٤].

إن مسألة تهميش هشام لفقهائه في دائرة دولته الرسمية تظهر إلى الواجهة في أيام الحكم بن هشام، وتحديداً عند الحديث عن أسباب قيام ما عُرف لاحقاً بـ "هيج الربض، والذي عُرف به الحكم لاحقاً بـ "الحكم الربضى". أن صور المعايشة المتبادلة التي مارسها هشام كما سايره فيها فقهاء المالكية، لم يعد فيما يبدو ممكنا في أيام الحكم. فالحكم، وعلى الرغم من أنه حاول أن يحافظ على العلاقة الودية، مثل الاحترام الذي كان يبديه لزياد بن عبدالرحمن ولجوئه ليحيى بن يحيى الليثي لعقد صلح مع عمه الثائر عبدالله الذي يعرف بالبلنسي، إلا أن سياسته اتسمت بانفراده في القرارات بعيداً عن مشاورة شيوخه، وهو أمر لم يعتد عليه الشيوخ في أيام أبيه هشام. ومن هنا بدأت بوادر التباعد تظهر بين الطرفين واضحة، وفيه أخذ شيوخ المالكية باضطراد يمثلون الطرف المعارض لحكم الحكم بن هشام. وكان ربض قرطبة الجنوبي المقابل للمدينة مباشراً، مما يلي نهر الوادي الكبير، بعناصر سكانه الوافدة الممتزجة مسرحاً لحوادث تلك الواقعة المؤلمة. إن "هيج الريض"، كما اكتسب اسمه لدى المؤرخين هو حدث نملك معلومات عنه، وسعة دراستنا هنا لا يسمح لنا التوقف عند تفصيلاته الوافرة، ويمكن التعويض عنه بالإحالة إلى ما قيل فيه من قبل من اهتموا بتاريخ الأندلس العام. ولا جدال أن الجزء "مقتبس ابن حيان" الخاص بعصر الأمير الحكم بن هشام، والذي نشر مؤخراً سيكون مثالاً مرضياً، وذلك لإفراد ابن حيان عناية مطولة عن الواقعة، والذي كان إلى حد واسع المصدر الذي استقى منه الآخرون معلوماتهم عنها[٤٥].

إن عدم قدرة الدراسة استيعاب ثراء المعلومات المتوافرة عن واقعة الريض، لا يعنى أن الدراسة بإمكانها التجاوز عن كل ما أتى به المؤرخون عنها. فمن الجوانب العديدة التي تناول بها المؤرخون الواقعة، هناك معلومات قد لا يكون تجاوزها صواباً، وهي التي تتناول تهمة ضلوع شيوخ المالكية في الواقعة نفسها. إن التهمة الموجهة إلى شيوخ المالكية، هي تهمة متسقة مع مسار الواقعة نفسها، وهي في نفس الوقت ذات صلة بتاريخ المسار الفكري الأندلسي الذي هو أيضاً المسار المحوري لهذه الدراسة. وذلك لأن فقهاء المالكية الكبار: يحيى بن يحيى الليثي وطالوت بن عبدالجبار بالاسم، هم الذين توجه إليهم ليس تهمة الضلوع في الواقعة فحسب، بل تفعليها بالتأجيج والقيادة. ويبرر المتهمون التهمة بأن قيادات شيوخ المالكية شعروا مع الحكم بن هشام بأنهم يفقدون المكانة المنفردة التي تمتعوا بها في أيام هشام ابن عبدالرحمن الداخل، وتحديداً في مسألة رسم القرارات وتلبية الرغبات، وذلك لأن الحكم بن هشام -كما قيل-

كـــان ميالاً إلى الانفراد في رأيه، على نقيض أبيه الذي عُرف عنه إفساح الرأي لمشاوريه من رعيل المالكية المعاصرين له[٤٦].

إن الـــتهمة الموجهـــة لشيوخ المالكية بقيادة المواجهة ضد الحكم بن هشام في حادثة الربض، وعلى الرغم من شيوعها عند المؤرخين، ليست على أية حال قمة ثابتة على المتهمين بها وتحديداً على يحيى بن يحيى الليثى وطالوت بن عبدالجبار. فشيوخ المالكية، حين متابعة دور كل واحد منهم في "الهيج" لا يبدو أنهم كانوا جبهة واحدة ضد الحكم، كما أنهم لم يكونوا جميعاً بقدر متساوى أضلاع في الواقعة. إن أقصى ما يتهم به الليثى هو هروبه إلى طليطلة بسبب ارتـــياعه من مشاركة أخيه في الهيج. وطالوت من اختبائه عند يهودي في غرناطة، ويصعب تحديد التهمة على عيسى بن دينار وقرعوس ابن العباس[٤٧].

إن تحديـــد الـــتهم عـــلى شيوخ المالكية ومحاولة إثبات الأدوار عليهم ليس، على أية حال، ضرباً من ضروب الـــتخمين. فالأدوار يصنفها عياض السبتي على درجات، فهناك من تثبت عليه التهمة مثل يحيى بن مضر القيسي (أو اليحصبى) الذي أعدم مع من تم القبض عليهم، وهناك مثل الفرج بن كنانة، الذي كان على القضاء أيام الهيج ويشير عياض على أن ابن كنانة، من موقعه ذاك، كان عامل إسكان لغضب الأمير للمشاركين في الهيج، وشفيعاً لهم عنده، هذا فضلاً عن نفر من فقهاء المالكية الذين تتراوح التهم الموجهة إليهم بنسب متدرجة[٤٨].

لـــيس مـــن المســـتغرب إذا ما تمخض عن واقعة الهيج المريرة نتائج متعددة ومؤثرة في الكيان الأندلسي بأبعاده المختلفة. فمن جانب المؤثر الفكري، كان هناك احتمال خسران الأندلس على العموم والقرطبي على وجه خاص جيل مـــن طلاب العلم ممن كانوا يقطنون الربض وينضون في حلقات الملتقيات العلمية في قرطبة، سواء فيمن رحّلوا خارج الأندلـــس بعد الربض، أو الذين تركوا قرطبة ارتعاباً، سوى من قتل في الواقعة نفسها. بيد أن هذه الخسارة الشاملة كـــان مـــتوقعاً أن يكون الرعيل المالكي أكثر تضرراً منه. إذ لم يكن الضرر الناتج قاصراً على هروب واختفاء شيوخ المالكية وهما يحيى الليثي وطالوت بن عبدالجبار، بل الاحتمال من عدم تمكن عودة المدرسة المالكية إلى ما كانت عليه قبل هيج الربض.

لقـــد غلب الظن أن مالكية الأندلس سيؤول مصيرها إلى ذات المآل الذي آلت إليه الأوزاعية من قبل وعبر عن اســـتمراره الصوري بالسماح باستمرار إجازة غرس الأشجار بالمسجد الجامع في قرطبة أخذاً بمذهب الأوزاعى[٤٩]، فضـــلاً عـــن أثر خافت امتد إلى أيام حكم الأمير محمد بن عبدالرحمن (حكمه ٢٣٨- ٢٧٣هـــ). بيد أن هذا الظن سرعان ما بدده الأمير الحكم بن هشام نفسه عندما بادر بإصدار عفو عام عن المتهمين في الهيج، وعفو خاص لكل من يحيى بن يحيى الليثى، وطالوت بن عبدالجبار، وعيسى بن دينار[٥٠].

لقد أورث الحكم بن هشام ثمرة عودة الليثى وطالوت إلى الدائرة العلمية القرطبية إلى أبنه عبدالرحمن بن الحكم

(الأوسط)، حيث لم يلحق القطاف بنفسه. ولكن اطمأن على أنها ستكون ضمن الأندلس الممهدة الخالية من المنازعين لابنه[٥١]. وإذا كان الحكم قد مهد لعودة روؤساء المالكية الأندلسية إلى قواعدهم في قرطبة، فإن عبدالرحمن بن الحكم بحكمـــه المنفتح قد مهد لاستعادة مالكية الأندلس قوتها بمثل ما لم تعتليه من قبل. ليس المجال هنا تعداد الأسباب التي جمعت المؤرخين في إجماع نادر على وصف عصر الأوسط "بأيام العيد والعرس"[٥٢]. بيد أن ما ينبغي التأكيد عليه أن عصر الأوسط كان فعلاً العصر الذي امتلك السماحة التي قدرته على نسيان الماضي وإعطاء دعاة المالكية نفحة المضي قدمـــاً في ترسيخ المذهب. وهذا ما أدى بحسين مؤنس إلى النظر إلى هيج الربض بوصفه حادثاً فاصلاً في تاريخ الفكر الأندلســـي[٥٣] . فهناك فعلاً كانت مالكية أندلسية قبل هيج الربض، ومالكية أخرى متجددة بعده. لم تعد مالكية ما بعـــد الـــربض أداة سند لشرعية الحكم الأموي الأندلسي، كما كانت أيام هشام بن عبدالرحمن، ولا قوة تحد مثلما حاولت إظهاره أيام الحكم بن هشام، بل غدت تعبيراً فكرياً توسع له السلطة الأموية المجالات الممكنة ليمثل فيها يحي الليـــثي الدور الأكبر، ويليه عيسى بن دينار وإلى حد أقل طالوت بن عبدالجبار. إن ليحيى الليثي قصصاً تروى في أيام الأوسط مما لا يتيح المجال لإحاطة بها، إذ يكفي التنبيه إلى أن ابن حيان في مقتبسه المفرد لعصر عبدالرحمن الأوسط يأتي إلى ذكـــر اسم الليثي أكثر لربما مما يأتي باسم الأمير عبدا لرحمن نفسه[٥٤]. وفي كل هذا كان الليثى بقدر ما كان يبني مكانته الشخصية، كان يعمل أيضاً على ترسيخ المالكية في الأندلس.

لذا فإنه من العدل القبول بما يردده غير مؤرخ بأنه "لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطى يحـــيى مـــن الحظـــوة، وعظم القدر، وجلالة الذكر"، وهذه المكانة التي تربع فيها الليثى تقود ابن حزم إلى القول : " مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان؛ مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قـــبله مـــن أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بـــالأندلس، فـــإن يحيى ابن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى لم يل قضاء قط، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم[٥٥].

إن رفعـــة المكانة التي ترسمها الكلمات المعبرة الآنفة ليحيى بن يحيى الليثي، شيخ الجبهة المالكية الأندلسية، تمنح الهيمـــنة الكاملة للمالكية العائدة على المسار الفكري للأندلسي. فيحيى في هذه المرحلة لم يتسنم قيادة الجبهة المالكية فحســـب، وإنما بقدرته على احتواء أمير الأندلس عبدالرحمن الثاني بدا وكأن المالكية ستغدو العنصر الفكري الوحيد الـــذي سيجري في الشريان الفكري في الأندلس. بيد أن الصورة سرعان ما أبدت إيحاءات متداخلة مع حالة المالكية الأندلسية بصورتها الراهنة. لقد ظهرت المالكية وكأنها قابضة حقاً لزمام الحالة الفكرية الأندلسية بإحكام. بيد أن الأفق الفكري الأندلسي أبدى دلائل تبرعم أزاهير فكرية في حقول بعيدة عن حقول المالكية. قد لا يسمح المقام الخوض في

وقائعهـــا، والتوسع في شواهدها، وتعين الدلالات، فالمجال المتوافر هنا لا يسمح بالاسترسال. وعليه حسبنا من الطرح هنا التوقف عند الأسماء:

حفل العصر بعلماء من أمثال يحيى بن حكم الغزال، الرائد اللغوي والشاعر، وعباس بن فرناس، العالم التجريبي، عباس بن ناصح وعبدالله بن الشمر، رواد الجمع بين صنوف العلم. وهناك أيضاً فتية لشيونة، الذين جال في خاطرهم إمكانـــية الوصول إلى مكة بالإبحار غرباً، صحيح أن جهودهم توقف عند البحار الغربية، بيد أن العالم عرف أن "بحر الظـــلمات"، أو كما كان يسمى، ليس نهاية العالم، كما كان المعتقد. وكان هناك أيضاً زرياب المغني، الذي لم يكن قاصراً على نبوغ الموسيقى والغناء فحسب، بل ناقلاً لحضارة بغداد إلى الأندلس، وصاحب الابتكارات الخاصة[٥٦].

إن الحلـــة الجديدة التي أرتدها قرطبة، ومن بعدها حواضر الأندلس الأخرى، أدت إلى أن يتبارى المؤرخون في صـــياغة جمـــل إشـــادة بعصر عبدالرحمن الأوسط الفريد. ومما قيل: قال ابن عبدربه: بأنه -أي الأوسط، عاش بخير، وكانـــت رعيته معه بخير. وزاد ابن القوطية: بأن عصر الأوسط كان "مثل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين"[٥٧].

لم تنقطع الإشادة بأيام الأوسط على ما أفصح به المؤرخون القدامى، بل هناك شواهد على تواصل التأكيد على تمـــيز العصر عند المؤرخين المحدثين. و لم يقف هؤلاء عند أطراف الانطباعات العامة والتشبيهات البلاغية التي عبر بها الأولون، بل وسعوا أطر التقويم لتشمل جوانب حياتية خاصة ومظاهر أنموذجية مستقاة من العصر. لقد استعار توماس أف جليك Thomas F. Glick وصف حالة التبلور Crystallization من وصف توماس سمث Thomas. Smith لأحـــوال التبلور التي عاشتها الإمبراطورية الإنجليزية في القرن ١٩م/ ١٣هـــ. وخلص أن الأندلس في عصر الأوسط عاشـــت حالة تبلور غطت ببريق ضيائها المحيط الأندلسي[٥٨]. وبالمثل رأى آنخل جنثالث بالنثيا Angel Gonzalez Palencia أن عصـــر الأوسط كان العصر الذي حققت فيه الثقافة الإسلامية - العربية سيادها المطلقة على الأندلس. ومـــن خـــلال اهتمامه بتاريخ الأدب الأندلسي ألمح جارسيا جومس Garcia Gomez إن الشعر الأندلسي في عصر الأوســـط، والشـــعر هو المعبر عن ذهنية المجتمع الراهن، قد أبدى دلائل تخلص في عصر الأوسط من المعاني والأفكار المشـــرقية الوافدة، التي دخلت الأندلس مع جيل الفاتحين، وأخذ معان تعكس الخصوصيات الأندلسية. ويمضى ليفي بروفنســـال Levi-Provincal مؤكـــداً إن الجوانـــب الاجتماعـــية في عصر الأوسط شهدت حالة ذوبان العناصر الاجتماعـــية التي كانت العناصر الاجتماعية تتكون فيها، وتتشكل فيها مجتمعاً أندلسياً منصهراً، ولد ظهور الشخصية الأندلسية المنتمية في ثقافتها للأندلس، وليس للاعتبارات التي كانت تتحكم في انتماءاها في الماضي[٥٩].

ليس هناك خلاف أن لغة الأرقام، النهج الإحصائي التاريخي كما يُعرف به، هي اللغة الحاسمة التي تحول القول من عموميته إلى دقته، والجدول الآتي هو المعنى بما نقول:

نمو الاهتمامات العلمية في الأندلس

الحقل العلمي	٩٥-١٥٠	١٥١-٣٠٠	٣٠١-٣٩٩	٤٠٠-٤٥٠	٤٥١-٦٠٠	بعد ٦٠١	بدون تاريخ وفاة
فقه	٢	٢٩	١٣١	٨٥	١٧٢	٧	١٥٤
حديث	٢	١٩	١٣٧	٩٤	١٣٤	٥	١٤٦
القرآن	–	٤	٥١	٧٧	١٦١	١٤	٩٤
تفسير	١	٣	٢٢	١٣	٢٢	٣	٢٦
تاريخ	١	٤	٤٨	٤٣	٤٣	١	٢٢
أدب	١	٧	٦٨	٨٤	١٢٥	٧	٧٢
شعر	–	١١	٧٥	٦٦	٧٩	٣	٧٧
لغة	١	١٤	٧٥	٥٢	٨١	٧	٦٨
آخر	١	١٧	١٠٠	١٢٥	١٣٩	١٢	١٢٤
النسبة المئوية	٩	١٠٨	٧٠٧	٦٤٠	٩٥٦	٥٩	٧٨٣
٣٢٥٩	٢٥%	٣,٣١%	٢١,٦٩%	١٩,٦٤%	٢٩,٣٣%	١,٨١%	٢٤,٠٣%

النسبة المئوية من مجموع ٣٢٥٩ عالم أندلسي[٦٠].

يوضح الجدول أمرين مهمين: الأول: الزيادة الملحوظة في أعداد العلماء في كافة التوجهات العلمية ما بين النصف من القرن الثاني إلى نهاية الثالث الهجري، وقفز الأرقام جميعها إلى نسب أعلى بعد القرن الثالث وفي الرابع الهجري. الثاني: امتلاك الفقه والحديث على النسب الأعلى منذ البداية، مع المحافظة تقريباً على ذات النسب إلى النهاية.

ويمكن الحكم من الجدول أن الفقهاء نما عددهم اضطراداً بين العقود من ١٥١ إلى ٣٩٩هـ، حيث مثلوا نسبة ٤٦% من إجمالي عدد علماء الأندلس المصنفين عند ابن الفرضي وابن بشكوال وابن الزبير. هناك، على أية حال، انخفاض في نسبة الفقهاء بين ٤٠٠ إلى ٤٥٠هـ، ثم العودة إلى الارتفاع مجدداً بعد٤٥٠ تقريباً، يليه انخفاض ملحوظ (٧ انفار فقط) في مطلع القرن السابع الهجري.

وبالمقارنة، يقترب رقم عدد رجال الحديث مع الفقهاء في البداية، ويستمر أقل من عدد الفقهاء (١٩ رجل حديث) ما بين ٣٥١- ٣٠٠هـ. لكن الجدول يشير بوضوح إلى ارتفاع عدد رجال الحديث ارتفاعاً ملحوظاً من مطلع القرن الرابع إلى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً، ويستمر على ارتفاعه عن عدد الفقهاء إلى منتصف القرن السادس، ويتوافق هذا العدد مع ما نعرفه عن استعادة الفقه لمكانته الرسمية في العهد المرابطي في الأندلسي. أما عن

قوائـــم الحقـــول العلمية الأخرى فحسبنا منها ملاحظة التفرعات الرقمية والقول بأن الحقول العلمية المطروقة من قبل الأندلســـيين شـــهدت ارتفاعـــاً من أرقام بسيطة إلى القرن الثاني الهجري إلى أرقام ملحوظة وقريبة من نسب الفقه والحديـــث منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري تقريباً. وهذا يتساير مع ما نذهب إليه من تفرع الاهتمامات العلمية خلال عصر الأوسط وبعده.

وينبغي أيضاً ملاحظة أمرين في القائمة المعروضة؛ الأول: الانخفاض الملحوظ في عدد أهل العلم في الأندلس بدءاً مـــن بداية القرن السابع الهجري (٦٠١هـــ، من مجموع ٩٨% قبل القرن إلى ٢% تقريباً بعده. الثاني: العدد الكبير لأهل العلم في كافة الحقول العلمية الذين لا يعرف لهم تواريخ وفاة، وهذا يضيف لربما أرقاماً إلى كافة الحقول العلمية المدروسة ولاسيما الحديث ثم الفقه.

إن مـــتابعة أرقام القائمة المستعرضة تعزز الخلاصة بأن عصر عبدالرحمن الأوسط هو عصر مالك لجوانب تمييز ولاســـيما في الجانب الفكري بالمقارنة إلى العصور الأندلسية السابقة له. والوصول إلى مثل هذه الخلاصة هو الباعث لإثارة تساؤلات عن أسباب هذا التمييز؛ هل يكمن السبب في أسلوب حكم الأوسط القائم على الانفتاح والتسامح الفكـــري، وما عرف عنه من إقبال على العلماء بكافة ميولهم وتوجهاتهم، وكذلك تبنيه للمستجدات مهما اختلفت أطيافها؟ أو يمكن ربط السبب إلى حالة السلم الذي ساد عصر الأوسط، وخلو العصر من القلاقل المعكرة، مثلما كان الحـــال في عصر أبيه الأمير الحكم بن هشام. أو أن الأمر هو أفراز مرحلي وطبيعي دافعه سيادة التوجه العلمي المتطلع لمغذيات فكرية جديدة. أو هل يكون ما يحصل برمته نتاج لتضافر العوامل المذكورة مجتمعة أو غيرها في سعى متوافق يرمي إلى إحداث مجالات علمية أوسع، وتبني ما يمكن للأندلسيين رعايته من أفكار، وفتح قنوات تمهيدية لانسيابها.

إن تـــناغم الفرضـــيات المطروحة لأسباب التوسع في الحقول العلمية المفتوحة مع سمات عصر الأوسط نفسها، يقـــود إلى صـــياغة جملة استفسارات لغرض التساؤل عن الدور الذي تحمله الفريق الذي كان ينظر إليه بوصفه راعياً للواقـــع العـــلمي في البيت الأندلسي، ويعنى بهؤلاء شيوخ المالكية الأندلسية بعد عودتهم المظفرة والموعودة لكراسيهم الشـــاغرة في مطلـــع عصر الأوسط. ومعرفتنا بهذه الحقيقة هي التي في الواقع تسوغ تساؤلنا عما فعله شيوخ المالكية تحديداً، لأن السؤال يوجه عادة إلى من يملك الإجابة ومن قبله القرار.

إن العفـــو الـــذي أصـــدره الأمير الحكم في أواخر أيامه عن كبار المالكية، يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت بن عبدالجبار، واستثمر الأمير عبدالرحمن تبعاته، عنى أن المالكية تسلمت زمام المسار العلمي مرة أخرى، وكأن ما حصل في "الـــربض" غـــدا أمراً منسياً تماماً، وعنى هذا تباعاً عودة القيادة العلمية إلى يد شيوخ المالكية. وكان قد عُرف عن هؤلاء في السابق، وقبل الربض، منذ أن حول هشام ابن عبدالرحمن المذهب المالكي مذهباً حصرياً للأندلس، تفضيلهم المالكية مذهباً وحيداً للأندلس، والمالكية نهجاً علمياً للأندلسيين.

إن هذه المسلمة هي التي تدفعنا إلى طرح السؤال بصيغة مباشرة؛ كيف قبل مالكيو الأندلس وهم يرون الطوق الــذي فرضــوه عــلى التحصيل العلمي ينكسر أمامهم؟ وكيف وسعت صدورهم التغاضي عن الانفتاحات العلمية المشهودة في عصر الأوسط؟.

لم يخــض أهل المتابعة في أسرار هذه التقلبات، مع أهم، ومثلما سيرد لاحقاً، وقفوا كثيراً عند المواجهات التي ثارت بين شيوخ المالكية وأصحاب التوجهات العلمية المضادة، مثل رجال الحديث.

إن غــياب الطــروحات في القضية المثارة لاشك أنه عامل مغمض لحالة مهمة في حالات التاريخ الفكري في الأندلــس. فالقضية لم يخض فيها أهل المتابعة الراصدين لتاريخ الفكر في الأندلس. ولعل أقرب من قرب منها، وأولى رأيــاً فــيها هو محمد الوزاد، ففي رصده لارهاصات "هيج الربض" على الجانبين : السلطة الأموية ممثلة في الأميرين الحكــم بــن هشام وابنه عبدالرحمن؛ وجبهة المالكية الأندلسية ممثلة في كبار المالكية الأندلسية، يحى بن يحيى الليثي، وعيســى بــن ديــنار، وطالوت بن عبدالجبار، يقول الوزاد: "ورغم غلبة جند الأمير (الحكم) وأعمال الانتقام التي ارتكبوها، فإن المواجهة انتهت إلى إدراك السلطتين ضرورة إنشاء علاقة واقعية بينهما. أي بعد عفو الحكم عن الفقهاء المتهمين بالمشاركة في الربض، واعتراف شيوخ المالكية بأخطائهم وتوبتهم"[٦١].

وعلى الرغم من جدارة هذا المقترح الذي يكاد أن يكون يتيماً في النقاش المطروح، وكذلك توافقه مع ما آلت إلــيه العلاقة المرصودة بين الطرفين، شيوخ المالكية وعبدالرحمن الأوسط، إلا أن المقترح نفسه يبرر شيئاً من الوقوف عــنده. ولعل الاعتبار الأهم في النقاش، أن جبهة المالكية الأندلسية بعد الربض، لم تكن جبهة جامعية ومؤلفه، فهي عمومــاً كانــت قائمــة عــلى عالم واحد وهو يحى بن يحيى الليثي، بعد تفرغ عيسى بن دينار للفتوى والتدريس، وانصراف طالوت بن عبدالجبار وخمول ذكره. لقد بقي الليثي لوحده يشكل المرجعية الوحيدة للمالكية كما ظهرت بلبوســها الجديــد عقب الربض، وكان أعلى سماقا رفض الليثى منصب القضاء، مع التدخل في تعيينهم، والاكتفاء بمنصب "المشاور" المستحدث الذي نظر إليه بهيبة أعلى من هيبة منصب قاضي الجماعة، إلى جانب ما عُرف لليثى من حظوة ونفوذ عند الأمير عبدالرحمن نفسه[٦٢].

لعــل الأقــرب لواقع الحال إبدال عبارة "العلاقة الواقعية" التي اقترحها الوزاد، بعبارة "العلاقة المتفاهمة"، فمن جانــب عبدالرحمن بن الحكم فقد عُرف عنه قدرة الاستيعاب للمستجدات، فضلاً عن سمة تسامح فيه. ومن جانب الليــثى يــبدو أنّ صعوده إلى المكانة العالية التي لم يسبق لعالم أندلسي الوصول إلى مثلها، واحرازه النفوذ على الأمير وشــيوخ المالكية الآخرين، قد ارضاه وأمسك يده من التدخل في كل أمر طارئ. فالمالكية لم تعد بالنسبة له ممارسة بقدر ما غدت قوة تمنح صاحبها صنع القرارات الكبرى. ولذلك فإن ظهور اهتمامات علمية جديدة عند الأندلسيين، وهو في علو مقامه ذلك، لم يمثل له شأناً مقلقاً، ولا سيما أن هذه الاهتمامات كانت لا تزال في بدايتها، وفي حدود

الـــتطلعات الفـــردية، ولا تمثل أنشقاقاً جماعياً من المسار المالكي الأندلسي. فهي على هذا الحال غير جديرة بمنازلتها، فهـــي لم تكـــن قـــد مثلت بعد جبهة علمية قادرة على منازعة المالكية الأندلسية هيمنتها العلمية أو حتى قادر على مشاركتها السيادة العلمية.

إن مـــا اطمأنـــت إليه نفوس جبهة المالكية الأندلسية ممثلة في شيخها الليثى سرعان ما أخذت تدخل في حالة ترصـــد، وذلك عندما أخذ رعيل آخر من طلاب علم أندلسيين يعودون من المشرق. وهؤلاء لم تكن وجهتهم المدينة دار الهجرة وإمامها مالك بن أنس، بل كانت بغداد، فيما يصنفها محمود علي مكي بالمرحلة البغدادية، ضمن مراحل المؤثرات المشرقية على الأندلس. وبغداد حينها، في مطلع القرن الثالث الهجري، كانت قد ورثت المدينة كموئل يوجه طـــلاب العلم إليها وجهتهم بعد وفاة الإمام مالك عام ١٧٩هـــ. وكعادة طلاب العلم الأندلسيين الذين لم يجهدوا أنفســـهم ألا للوجهة الأفضل والأرفع ذكراً. افتتح محمد بن وضاح بن يزيغ (٢٠٠ - ٢٨٦هـــ) وجهة الترحال إلى بغـــداد، حيث الفكر الحنفي والشافعي ودراسة علم الحديث عام ٢١٨هـــ. وبعد عودته من رحلته الأولى، عاد مرة أخـــرى للاستزادة العلمية إلى بغداد. وهنا يشار إلى سماعه سماعاً واسعاً لعلم الحديث، حيث لم يغادر محدثاً كبيراً إلا ذهب إليه وأخذ عنه حتى بلغ عدد شيوخه، كما يترجم له ابن فرحون، مائة وخمسة وستين رجلاً[٦٣].

قـــدم محمد بن وضاح؛ بالملكة الفردية والعملية التي عُرف بها، نموذجاً جديداً لعالم أندلسي بعيداً عن الانضواء المالكي. وكان ممكنا أن تبقي تجربته ضمن الحالات الفردية مثل غيرها من الحالات العلمية التي رصدت في الأندلس في أيـــام الأوسط، لولا أن نموذجه تعزز بنموذج أقوي في نفس السياق. ويتمثل هذا النموذج في بقي بن مخلد (٢٠١- ٢٧٦هـــــ). وعـــلى الرغم أن جهوده في التحصيل العلمي في بغداد، ولاسيما في سعيه للدراسة مع شيوخ الحديث، حيث بلغ عددهم في الرحلتين التي ارتحلها إلى بغداد مائتين وأربعة وثمانين رجلاً[٦٤] وعلى رأسهم أحمد بن حنبل، قورن بعـــدد من درس معهم محمد بن وضاح في بغداد مع علماء الحديث وبما عُرف من تأهيل محمد بن وضاح العلمي، إلا أن بقي بن مخلد أبدى نشاطاً في التعريف بعلم الحديث في الأندلس فاق ما قام به ابن وضاح قبله[٦٥]. ومع أن ما قام بـــه ابـــن وضاح بقي ضمن الاجتهادات الفردية، أو هكذا نظر إليه من قبل المالكية، إلا أن انضمام بقي بن مخلد في الجهـــد ومـــع تضافر جهد الاثنين، ابن وضاح وابن مخلد ظهر علم الحديث بوصفه جبهة علمية قادرة على تأسيس نفســـها بوصـــفها مدرسة منافسة للمالكية ومشاركة لها. وهذا الظهور لم يكن متوقعاً أن يقبل به الطرف المالكي، وبـــالأخص عـــندما أخـــذت مدرســـة الحديث الناشئة تجتذب موالين لها على نفس النسق الذي كانت حكراً على المالكية[٦٦]. وتستأثر بطلاب بدأوا تحصيلهم العلمي من المدرسة المالكية.

وكـــان مما سهل عبور طلاب المالكية إلى علم الحديث هو معرفة هؤلاء بما يمثله الحديث أصلاً في الفكر المالكي نفســـه. فالمالكيون كانوا في الواقع أعرف الناس بمنافع علم الحديث، وكما أضيف إلى إدراكهم هذا أن علم الحديث كـــان في الأصل مصدر علم علماء الأندلس الأوائل منذ أيام توجه الأندلس للأوزاعية، قبل أن ينصرف أهل الأندلس

من الحديث عند انصرافهم من الأوزاعية، وذلك عندما شغلهم، كما يقول الصمدي، فقه مذهب مالك[٦٧]. ومع ما حملت هذه التغييرات من مخاوف على المالكية الأندلسية، إلا أن راعي المالكية يحي بن يحيى الليثي لا يُعرف عنه أنه سجل اعتراضاً لما كان يراه في محاولات رجال الحديث، ولاسيما من بقي بن مخلد في نشر علم الحديث في الأندلس، والتعريف بكتبه التي أدخلوها معهم من بغداد. قد يفسر موقف الليثي بغير تفسير منه التسامح، على ديدن أمير الأندلس، عبدالرحمن بن الحكم، أو التغاضي، وهذا عرف عنه، أو الاستسلام بحكمة أمام التيارات البغدادية التي أخذت تهب على الأندلس، بعد أن شرع لها عبدالرحمن منافذ العبور الحضاري والفكري بسياسة انفتاح يقر له به المؤرخون. أو أن هذا كان أدراك من الليثى لرصانه المكانة العلمية الخاصة التي كان يعتليها، فهو عندها كان يتربع على أوج نضجه الفكري والسياسي على حد سواء.

لم يكن موقف الليثى من ظهور مدرسة الأثر ورجال الحديث، كما سنتبين منه لاحقً، معبراً عن مواقف شيوخ الفقه الآخرين تماماً. فإذا كان رأى كبير الفقهاء وشيخهم يفهم منه أن ظهور مدرسة الحديث في الأندلس لا يعد أمراً يستدعي إعلان النفير عليه. فإن آخرين من الفقهاء ممن لربما احجمهم موقف شيخهم كانت نفوسهم تضمر ردود أفعال غير التي كانت في صدر شيخهم الليثى. لقد ظهرت ردود الفعل المغايرة بعد وفاة الليثى عام ٢٣٤هـ، وتأكد الأمر بعد وفاة عبدالرحمن بن الحكم عام ٢٣٨هـ، ثم قرين الليثى في العلم عيسى بن دينار عام ٢١٢هـ. لقد وصُف ابن دينار بأنه كان أفقه من الليثى، وبأنه هو الذي علم أهل الأندلس الفقه. وابن دينار مثل الليثى لا يعرف له موقف تجاه رجال الحديث[٦٨].

إن وفاة شيوخ المالكية الكبار، وكذلك أمير الأندلس الراعي لهم. فتح المجال لرعيل المالكية الآخرين لإعلان مواقفهم من رجال الحديث علناً. وهنا يبرز اسم الفقيه المالكي أصبغ بن خليل بوصفه رأس حربة تعلن مالكية الأندلس من خلاله مواجهة، أهل الحديث. وقد عرّف عياض ابن خليل قائلا:

"كان من أهل العلم والفقه والرياسة، بصيراً بالوثائق، حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه، دارت عليه الفتيا خمسين عاماً، وطال عمره، وكان معادياً للآثار، ليس له معرفة بالحديث. وشديد التعصب لرأي مالك وأصحابه، وهو الذي قال: لأن يكون في تابوتي رأس خنزير خير من أن يكون فيه مسند ابن أبي شيبه. ويضيف عياض: أن أصبغ بن خليل كان يعادي أهل الأثر. وكان قاسم بن أصبغ -قريب له- يدعو عليه ويقول: هو الذي حرمني أن أسمع من بقي بن مخلد [وكان يسكن قريب منه] ونهى أبي أن يحملني إليه[٦٩].

بهذا الحماس المنفلت، أخذ أصبغ يثير حملة على أهل الحديث ويثير بذلك فتنة فكرية لم تعرف مثلها الأندلس من قبل. وكان محتماً عند اتساعها أن تصل أخبارها إلى مسامع الأمير محمد بن عبدالرحمن. ويكمل ما حدث ابن سعيد نقلاً عن صاحب الجذوة مستطرداً :

كـــان محمد محباً للعلوم مؤثراً لأهل الحديث، عارفاً، حسن السيرة، ولما دخل الأندلس أبو عبدالرحمن بقى بن مخلد بكتاب أبي بكر بن أبي شيبة، وقُرىء عليه، أنكر جماعة من أهل الفقه ما فيه من الخلاف، واستشنعوه، وبسطوا العامة عليه، ومنعوا من قراءته، إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد، فاستحضره وإياهم، واستحضر الكتاب كله، وجعل يتصـــفحه جـــزءاً جزءاً، إلى أن أتى على آخره، وقد ظنوا أنه موافقهم على الأنكار عليه، ثم قال لخازن الكتب: هذا كـــتاب لا تستغني خزانتنا عنه فانظر في نسخه لنا، ثم قال لبقي بن مخلد: انشر علمك، وارو ما عندك من الحديث، واجلس للناس حتى ينتفعوا بك. فنهاهم أن يتعرضوا له[٧٠].

ويشـــير الخشني إلى تواصل التأييد لرجال الحديث إلى عهد الأمير عبدالله بن المنذر، قائلاً: "قال خالد بن سعد: حدثـــني أحمـــد بن خالد قال: سمعت محمد بن وضاح يقول: دخلت على الخليفة عبدالله ﷺ ذات يوم فقال لي: يا محمد بن وضاح لا تفتونا إلا بالأحاديث المسندة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة لنا بالرأي"[٧١].

يخلص مؤنس من خلال متابعته لتاريخ المواجهة التي قامت بين أهل الفقه وأهل الحديث، أن المواجهة حسمت يـــوم وقف الأمير محمد بن عبدالرحمن موقفه المذكور مع بقي بن مخلد[٧٢]. وقد يكون هذا صحيحاً لاعتبارين أولهما؛ محدودية عدد من حملوا لواء المواجهة من أهل الفقه على أهل الحديث، فالمصادر تكاد لا تذكر سوى مؤججها الوحيد أصـــبغ بـــن خليل، ولا تشير مثلاً إلى موقف مؤيد لمثل هذا من قبل عبدالملك بن حبيب، معاصر ابن خليل وقرينه في المشـــاورة والفـــتوى والمكانة العلمية. وثانيهما: أن الفقهاء بوفاة الليثى كانوا قد فقدوا فقيها ينعم بحظوة نادرة عند الأمراء الأمويين، ولذا فإن الأمير محمد بن عبدالرحمن بموقفه الحاسم مع أهل الحديث، كان في الواقع يعلن التخلي عن المحابـــاة الممـــنوحة لـــبعض الشـــيوخ، ولاســـيما الليثى الذي كان الأمير الأوسط لا يخفي تبرمه منه ومن الفقهاء الضالعين[٧٣]، ويعطى أمره لنشر علم آخر إلى جانب الفقه المالكي.

لم يكن متوقعاً أن يحسم موقف الأمير محمد باب الجدل القائم بين الفقهاء وأهل الحديث ويقفل بابه تماماً. وقد يكـــون قد بقي شيء من الخلاف في الصدور. إلا أن الأندلس نفسها ومنذ أيام الأمير محمد، مروراً بالمنذر، ثم عبدالله (٢٣٨- ٣٠٠هـــــ) كانـــت قـــد دخلت مرحلة صراع سياسي، عرفت بالفتنة الأولى تميزاً لها عن الفتنة الثانية التي ســـقطت دولة الأمويين بعدها، والفتنة الطاغية هذه كانت قادرة على صرف أنظار الأندلسيين من مشاكلها الفكرية إلى مخاوفها السياسية.

بـــيد أن الظـــروف السياسية المثقلة تلك، كانت أيضاً فترة تأنٍّ للجانبين ليتدارس كل فريق ما كان ينافح عنه الفريق الآخر، ويتدبرا في غايات ومضامين ما كان يثير الزوابع والجدل.

ويـــبدو أن صـــفاء النفوس، ونسيان الرواسب بين الفريقين بدأ يبشر عن نفسه مع استعادة الأندلس وحدها، وعـــودة الأمويـــين عـــلى يـــد عبدالرحمن الثالث (الناصر)، من ٣٠٠ - ٣٥٠هـــ إلى القوة التي أفضت إلى إعلان

عـــبدالرحمن إعلان الخلافة الأموية في الأندلس عام ٣١٦هـــ. ومع عودة الوحدة السياسية بدأ يلوح في الأفق ملامح وحدة فكرية أيضاً، نتج ذلك من التقاء المدرستين، الفقه والحديث، ومن ثم انصهارهما تدريجياً في مفهوم فكرى أشمل مـــن ذي قـــبل. عندها أخذ القوم يدركون أنهم كانوا ينازلون بعضاً في دعاوى هم يتشاركون فيها أصلاً. أدركت المالكـــية أن الحديث وعلومه، ويشهد بذلك موطأ مالك، هو أصل المنبع الذي يروي أفكارهم. وفي المقابل تيقن أهل الحديـــث أن عملهم ليس إلا عضداً مقوياً لأركان المالكية ذاتها، فالمالكية تقوم أصلاً على القرآن والسنة. كما أدرك الجانبان أنهما كانا أقرب إلى بعضهما برغم التباعد المفروض. وكان هذا اعترافاً بأن المالكية هي نهج الأندلس المذهبي والعلمي، وأن أهل الحديث، كما عُرف عن ابن وضاح نفسه، هم على ولاء لها. لقد عُرف عن ابن وضاح أنه كان ملتزماً لمذهب مالك، منافحاً عنه مدافعاً، وهذا ما أدى بعياض في مداركه أن يعده من الطبقة الثالثة الذين انتهى إليهم عـــلم مـــالك[٧٤]. وكان هناك مالكيون، كما يظهر هذا التوجه واضحاً في داود بن جعفر الذي يقال أنه أملى على تلامـــيذه ثلاثة آلاف حديث، وحبيب ابن الوليد المعروف بدحون، ممن نظروا إلى الموطأ على أنه "مسند" وإلى مالك عـــلى أنـــه محـــدث، ومضـــوا في دراسة أحاديث مالك دراسة مستقلة عن الأحكام والآراء التي رتبها مالك عليها واســـتطردوا في هذه الناحية دون أن يثيروا استنكار الفقهاء[٧٥] بالتقارب الموجود أصلاً بين الفريقين، يبدو أن الوحدة السياســـية التي شهدتها الأندلس في مطلع القرن الرابع قد سبقها وحدة تدريجية بين شيوخ المالكية وشيوخ الحديث، فـــبعد الخلافات الاستهلالية بين الطرفين، والذي كان موقف الأمير محمد بن عبدالرحمن حاسماً لها[٧٦]، يبدو أن طرفي الخلاف بدأ يتزايد الميل فيهم إلى ردم الصدع وأحداث تفاهم داخلي بينهم، فإن بدا ذلك قراراً اختيارياً في ظاهره إلا أن دوافـــع اجبارية أخرى كان لها أثرها أيضاً في عملية الردم . لعل صورة الجماعة العلمية في الأندلس، أو طبقة أهل العلم كما كانوا يعرفون عموماً، بوصفها جماعة متصدعة داخلياً ومتنافرة فيما بينها كان لها أثر في لم الشمل، فهؤلاء هم عقل المجتمع، والدعاة لوحدة الوطن الأندلسي في زمن سادها التناحر والتنافر السياسي، ولا يتوافق مطلبهم مع ما يشـــتكون من مثله في داخل صفوفهم. كما أن هناك ناحية مهمة في هذه القضية، وإن ظلت مهملة في أعين مؤرخي تاريخ الفكر في الأندلس، ويتحور هذا الأمر في الجانب التأكيدي عليه في المصادر التاريخية. فعند استنطاق المصادر في تناولها للخلاف المثار بين شيوخ المالكية وشيوخ الحديث، نرى أن كتب التواريخ الأندلسية العامة، ابن حيان ومقتبسه مـــثلاً كانت أكثر ابرازاً وشرحاً لصور الخلافات، كما هي أوسع في التفصيلات التي ترسمها. على النقيض من هذا، تصـــمت كتب الطبقات والتراجم عنها بصورة عامة، حتى في تراجم من كان أصحابها ضلعاً في الخلاف، سوى من تطرف في مواقفه، مثل أصبغ بن خليل، كما مر بنا.

في الجانب العلمي، يبدو أن الفريقين بعد وفاة رعيلهما الأقوياء، يحيى الليثي وزياد بن عبدالرحمن، وعبدالملك بن حبيب، في جانب الفقهاء؛ محمد بن وضاح وبقى بن مخلد في جانب أهل الحديث، أخذا يدركان أنهما استنفدا كثيراً من قوة الجذب وإثارة الاهتمام، فالمالكية الأندلسية بعد ذهاب رعيلها الكبار غدت مالكية أندلسية في مظهرها، حيث

لم تعد فيها هيئة المالكية القائمة على "عمل أهل المدينة"، وحل بدلاً منها مالكية لاجئة إلى الشروح (المدونة الكبرى)، والمختصرات مثل المدونة الصغرى. وغدت المالكية بسبب ذلك في حاجة إلى آفاق فكرية مجددة لدمائها، كما أن علماءها بعد يحيى الليثى وأصبغ بن خليل وعبدالملك بن حبيب، كما يخلص مؤنس، لم يعودوا يطمحون إلى مثل مكانهم إلا إذا كانوا من طراز جديد، وأهل الحديث بدورهم، بعد ابن وضاح وابن مخلد، لم يظهر فيهم من يحمل الراية مثلما حمل القادة الراحلون، فعلم الحديث، بينما كانت أخبار ازدهاره في بغداد تصل تباعاً إلى الأندلس[٧٧]، أظهر جموداً في الأندلس وافتقد القدرة على مجارات ما كان دراسة علم الحديث يحرزه في المشرق.

وهناك جانب آخر كان له أيضاً دوره في التقارب الحاصل، والجانب هذا يمكن البحث خلاله في المسار الانفرادي الذي سلكه كل فريق على حدة، فالمالكيون عموماً، وليس بطبيعة الحال كلهم، ظهروا أكثر التصاقاً بالسلطة الأموية، وغدوا وكأنهم رجال خدمة لهم، ولذا فإن جهودهم غدت منصرفة أكثر إلى القيام بالمسؤوليات الرسمية التي يعينون فيها، منها إلى الرواية والتدريس. بينما ظهرت صورة رجال الحديث على النقيض من هذا تماماً. فهم غدوا الطبقة العاملة في حقول التدريس وعقد الحلقات. كان الأميران، محمد بن عبدالرحمن وعبدالله بن محمد علماؤها من أهل الحديث ورجالهما من الفقهاء. ولتوافر النزعة الفطرية لدى العلماء عموماً للدراسة والتدريس والتحصيل العلمي، فإن علماء الفقه الأندلسي أمسوا أميل إلى تقليد أهل الحديث في هذه الجهود، ولعل هذا كان سبباً آخر للتقارب.

ولعل خاتمة القول هنا يكمن في أن الأندلس وأهل الفكر فيها لم يكونوا في حاجة أو حتى في مستوى علمي متمكن ليثيروا على أنفسهم زوابع هم في غنى عنها. فعلماء الأندلس، المالكيون أولاً وأهل الحديث ثانياً، كانوا لا يزالون، مهما بلغ في بعضهم القدرة العلمية المنافسة لعلماء عالم الإسلام، يرنون إلى المشرق ويستوردون منها علومهم. ويمكن القول أن الأندلس عموماً في حاجتها الفكرية بقيت، إلا من استثناءات، في الطرف المستقبل لما يأتيها من علوم المشرق.

مع تبلور هذه المرحلة، وبدءاً من أواخر النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ودلالة على الانصهار العلمي بين المالكية، الذين يمثلون المؤثرا المدني أو الحجازي على رأى محمود مكي، وأهل الحديث، الذين يمثلون المؤثر البغدادي على نفس التقسيم، غدا سعي الجمع بين الحقلين، الفقه والحديث، مطلباً مرغوباً وبالتالي شائعاً فيما بعد. أن نظرة إحصائية فاحصة لتراجم ابن بشكوال في الصلة، وأعمال مخصصة لسيرة العلماء، مثل المغرب في حلي المغرب، ومصنف لتراجم فروع علمية خارج الفقه والحديث، مثل طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، توفر نسبة غير قليلة (ما يربو على ١٥٠ عالماً جامعاً بين المطلبين، الفقه والحديث بين الربع الأخير من القرن الثالث إلى مطلع النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وحملت بعض هذه التراجم مفارقات بعيدة الاحتمال، مثل جمع يحيى بن إسحاق حفيد يحيى الليثي رواية الفقه من أبيه وجده والحديث من الآخرين، ويحيى بن الأصبغ بن الخليل الذي جمع الحديث إلى الفقه[٧٨].

وأحـــياناً مفارقـــات يمكن فهمها في سياق ما كان حاصلاً، حيث يقول ابن سعيد: "ومن العجائب أن عبدالله كان شافعياً، وأخاه عبدالعزيز حنفياً، والحكم المستنصر مالكياً"[٧٩].

إن دلالات مـــا قـــيل عن انتماء ثلاثة من أمراء البيت الأموي، عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط وأخيه عـــبدالعزيز، ومن بعدهما الحكم بن عبدالرحمن الناصر (المستنصر) إلى المذاهب الثلاثة التي عرفتها الأندلس، تتوافق مع الخلاصـــات التي ترمي الدراسة إليها . وهي أن الحركة الفكرية الأندلسية بعد المؤثرات البغدادية عليها بدأت وكأنها حـــركة قابلـــة للانطلاق خارج الحواجز والوصاية التي فرضها عليها دعاة المالكية الأندلسية. لا يعني هذا أن المالكية الأندلســـية كانت تفرض طوقاً على التحصيل العلمي وتغلق النوافذ أمام الحقول العلمية الأخرى. لا نعرف أن ذلك كـــان شائعاً أو حتى مثل مخطط منفذ سوى من بعض غلاة الفقهاء مثل أصبغ بن خليل الذي كان يمنع ابن أخيه من الجلـــوس لبقي بن مخلد، كما مر بنا. بيد أن المالكية، وقبل ظهور أثر رجال الحديث، كانت التوجه الحصري لطارق باب العلم، إذ لم يكن هنا باب للعلم في الأندلس سوى باب المالكية.

ومثلما لم يكن متوقعاً أن يكون ولاء أمراء الأندلس لغير المالكية من زمن هشام الأول إلى عبدالرحمن الأوسط زمن السيادة المالكية، فإن اختلاف أمراء الأندلس إلى ثلاث مذاهب، خلال حقب التلاقي بين الفقه والحديث، كان بـــنفس القدر متوقعاً. وذلك لأن أمراء الأندلس كانوا في أهوائهم الخاصة يستنشقون هواء التيارات التي كانت تهب عـــلى الأندلـــس. والتيارات بتنوعها واختلافها، لم يعد تأثيرها قاصراً على الاختيار المذهبي فحسب، بل إلى ما تجلبه الخـــيارات المذهبـــية مـــن فكر شمولي من ورائها. وهذا الذي نملك في الواقع دلالات ظهور براهينه سواء في الجانب التحصـــيلي أو التطبيقي وفي ميادين التأليف العلمي . في متابعته التاريخية لتاريخ الفكر الأندلسي، ينتقل آنخل جنثالث بالنثـــيا مـــن شـــاهد علمي إلى الآخر، وكأنه في عمله يتابع نتائج التلاحم الفكري بين الفقه والحديث في الأندلس، والتوســـع الكمـــي والنوعي في الحقول العلمية[٨٠] . وعندما حصر توماس. إف جليك نظره إلى دقائق نمو الفكري العـــلمي – التطبيقي، في الأندلس، غدت الحقب التي حددت هنا، وكأنها الأزمنة التي شهدت فيها الأندلس انفجارها العلمي[٨١].

إن حـــيز الدراسة المحسوب سوف لن يوفر المجال للوقوف عند النماذج الفكرية الغنية التي برزت في الأندلس، ويلمح المتابعون لهؤلاء أن بروزهم كان مرتبطاً أو نتيجة للتقلبات الفكرية التي حاولت هذه الدراسة متابعة خطوطها العريضـــة. وإذا لم يكن من مجال سوى ذكر الأسماء، فلعل من المقنع أن نبدأ بالخليفة الأموي الثاني، الحكم المستنصر (٣٥٠- ٣٦٦هـــــ)، لقد عرفناه مالكياً مذهباً، ولكنه كان في نفس الوقت ميالاً ليس إلى الحديث فحسب، بل إلى العلوم قاطبة، فهو لم يجمع مكتبة لم تجتمع لحاكم مسلم أبدا، بل كان قارئاً وشارحاً لها. وفي تقديم النماذج هناك ابن حـــزم، وابن عتاب والمنذر بن سعيد البلوطي، وقاسم بن أصبغ، وابن القوطية، وابن عبدالبر[٨٢]. ولعل من المستحسن أن نخـــتم بالإشارة إلى أن من تسنموا مكانة كبير العلماء، أو "شيوخ العصر" كما يسميهم حسين مؤنس منذ مطلع

القرن الرابع الهجري . (٧ حالات من مجموع ٣٥ حالة قبل القرن/ ٤ و٣٠ بعد القرن / ٤) كانوا من العلماء الذين جمعوا الفقه والحديث فضلاً إلى ميادين علمية أخرى(٨٣).

لعـــل من حسنة التقارب الفكري الأندلسي أن الانصهار البوتقي فيه لم يكن ماسحاً لأصول التوجهات العلمية القائمـــة . أن الانصـــهار العلمي لم يعن أن المالكية قد زالت وانتهت من الأندلس، ومثلها علم الحديث. صحيح أن الانصـــهار كونه أشبه بما هو جبهة فكرية عريضة، وممثلة لجبهة رسمية، لا تمانع في الوقوف أمام تيارات جديدة، مثل حـــركة ابـــن مسرة في أيام عبدالرحمن الناصر(٨٤) في صورة تذكر بما كانت تفعله المالكية في سابق عهدها. لكن في الحقـــيقة، لا الفقـــه المـــالكي، ولا علم الحديث اختفيا تماماً إلى أواخر أيام الأندلس، فقد استمر للمالكية، مثل علم الحديث، طلابها ودعاتها والمنافحون عنها بصورة قريبة من حيث الشكل الخارجي لما عرفته الأندلس في بكورة أيامها، بمـــا عُـــرف بالمعســـكر اليمني والقيسي، أو البلدي والشامي(٨٥). واستمرا بتلك الهيئة معسكرين علمياً، يجتمعان في إنجازات، ويحتفظ كل معسكر بخصوصيته(٨٦).

كـــان مـــن المحـــتمل استمرار كل هذه التطلعات العلمية بحماسها وزخمها المسجل وحيويتها المتجددة لولا أن ظـــروف الأندلس السياسية بعد سقوط الخلافة الأموية، ونمو الخطر الأسباني الشمالي، كانا من ضمن العوامل المثبطة لكـــل الآمال. لقد طلب علماء الأندلس في أول أمرهم موآزرة أمرائهم من أجل نشر وترسيخ علومهم. وعند نضوج العلم في الأندلس فيما بعد كان أمراء الأندلس قد ذهبوا وتركوا علماءهم يواجهون سوياً الزوال العلمي والسياسي.

التعليقات

(١) ابـــن خلـــدون، عـــبدالرحمن بن محمد، *المقدمة* (بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، د. ت)، ١٧٠ - ١٧٣ انظر كذلك الصفحات ٢٦- ٢٧ : ٢٩٣- ٢٩٥. أن دول المغرب المعنى بها هي كافة الدول التي قامت في الغرب الإسلامي عقب الفتح مـــثل الأدارسة، ودول الخوارج في المغربيين الأوسط والأقصى، والاغالبة، والفاطميون، ثم المرابطون والموحدون. انظر عن هذه الدول ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، وعبدالله العروي، مجمل تاريخ المغرب.

(٢)

Fernand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, 2 vols Trans: Sian Reynolds, (New York: Harper Row, Pub 1972); Samuel Kinser, Annaliste Paradigm? The Geohistorical Structuralism of Fernand Braudel, American Historical Review vol 86, Feb 1981, 63

عـــبدالغفور إسماعيل الروزي، *المغرب الإسلامي في عالم قرنان بردويل المتوسطى*، دراسة تقديمية لمدرسة (الحوليات Annales) التاريخـــية وتطبـــيقاتها المنهجـــية، دراسات تاريخية، جامعة الملك سعود/ كلية الآداب (الرياض: مركز البحوث، ١٤١٥هـــ/ ١٩٩٥م)، ٢: ١٢٢- ١٢٥.

(٣) إن هذا هو ما يجمع عليه المؤرخون في تحديد تاريخ فتح الأندلس.

(٤) هناك أراء عديدة حول أسباب استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك أسهم بها غير مؤرخ، ويصعب حصرها هنا لتعددها . انظر: المؤلف المجهول، *أخبار مجموعة*، تحقيق: إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٢٧- ٢٨؛ كذلك المقرى نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ١: ٢٨١؛ أيضاً دراساتنا عبدالعزيز بن موسى بن نصير وأسباب مقتله، *دراسة تحليلية لأحداث التاريخ الأندلسي المبكر*، مجلة جامعة الملك سعود م٧ الآداب (٢) (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ٥٠٤- ٥٠٥ .

(٥) عبدالعزيز اختاره والده موسى قبيل تركه الأندلس بأمر من الوليد بن عبدالملك بوصفه أول وال على الأندلس، أما السمح بن مالك فقد اختاره الخليفة الأموي في مسعاه لاختيار العمال الصالحين. انظر: حسين مؤنس، *فجر الأندلس* (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م)، ١٢٩- ١٣١/١٣٥- ١٤٠.

(٦) عن أسباب مقتل عبدالعزيز بن موسى انظر دراستنا (هامش (٤). أما عن ظروف مقتل السمح ابن مالك، انظر: ابن القوطية، *تاريخ افتتاح الأندلس*، تحقيق: إبراهيم الابياري (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٣٨.

(٧) يقول الخشني أن منصب "قاضي الجند بقرطبة" هو الذي تحول لاحقاً إلى منصب قاضي الجماعة"، الخشني، أبي عبدالله محمد بن حارث بن أسد القيرواني، (د ٣٦١هـ)، *قضاة قرطبة* (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ١٤؛ وعن القضاة الذين يصنفهم الخشني بقدماء قضاة قرطبة، انظر: ٨ - ٢١.

(٨) سيتم التعريف به لاحقاً.

(٩) الخشني، *قضاة قرطبة*، ١٥- ١٦.

(١٠) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، *عصر سيادة قرطبة* (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨١م، ١٤- ١٦)؛ ويزيد أميليو غارسيا غومس في وصفه المجتمع الأندلسي بالبداوة، *الشعر الأندلسي*، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م)، ٢٨.

(١١) يرجح خليل إبراهيم الكبيسي، مستنداً على ما يخلص إليه ابن الخطيب في الإحاطة، أن يكون مذهب الأوزاعي قد دخل الأندلس سنة ١٢٥هـ، حيث دخل الأندلس في ذلك العام عدد كبير جداً من أعلام أهل الشام مع بلج بن بشر القشيري، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ٢٩؛ والمذهب ينسب إلى إمام أهل الشام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، انظر: طه لولي، عبدالرحمن الأوزاعي، *شيخ الإسلام وإمام أهل الشام* (بيروت: ١٩٦٨م).

(١٢) لم نشأ إرهاق الدراسة بتفصيلات دخول الجند الشامي الأندلس، فهي حوادث يخلّ بها الإيجاز ويفسدها محاولة إعطاء خطوط عامة لها. وعليه ارتات الدراسة فائدة الإحالة إلى ما فصله فيها إحسان عباس في كتاب، *تاريخ الأدب الأندلسي*، ٢٣- ٢٥؛ وكذلك على دراستنا: "أبو المخشي التميمي الأندلسي .. شاعر أعار سيرته للتاريخ. وهو كان أحد الداخلين إلى الأندلس مع هذه الطالعة (الكويت: المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع/٧٥، س/١٩، ٢٠٠١م)، ١٤٢- ١٤٤.

(١٣) الحميدي، أبي عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي (ت ٤٨٨هـ)، *جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس*، رقم ٥١٠ (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ٢٤٤؛ أيضاً: الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩)، *بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس*، رقم ٨٥٣ (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م)، ٣١١.

(١٤) عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤)، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*، تحقيق: أحمد بكير محمود، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ١: ٥٥.

(١٥) ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الازدي (ت ٤٠٣)، *تاريخ علماء الأندلس*، تحقيق: دار إحياء التراث، رقم ٤٥٤ (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ١٥٣.

(١٦) ابن الفرضي، رقم ١٤٣٢، ١٣٤، ورقم ١٠٩٩، ٤٢، ورقم ٢٣٩، ٧٤. أيضاً: خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٠- ٣٤.

(١٧) خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٣؛ عياض، *المدارك*، ١: ٥٥.

(١٨) المرجع السابق، ٣١.

(١٩)

M.A. Makki, Ensayo Sobre aportaciones Orientales en La Espana Musulmana, Revista del Instituto de Esfudios Islamicos en Madrid, vols, IXX, (Madrid 1961 - 2) 2 - 167

عـــن المدينة يشير ابن خلدون في المقدمة أنها كانت عندئذ "دار علم" في أيام الإمام مالك، ٤٤٩. أما عن بغداد يكفينا الخطيب الـــبغدادي لنـــلم من كتابه وصفاً عن الحالة العلمية فيها. انظر كذلك: منير الدين أحمد، *تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري*، ترجمة سالي الصقار (الرياض: دار المريخ، ١٩٨١م).

(٢٠) المقـــري، أحمـــد بـــن محمـــد التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ٣: ٣٧- ٥٥.

(٢١) المقـــري، *الـــنفح*، ٣: ٥٤؛ كذلك: خالد الصوفي، *تاريخ العرب في الأندلس*، عصر الإمارة (٢) (ليبيا: جامعة قاريونس، كلية الآداب، ١٩٨٠م)، ١٠٠- ١٠٦.

(٢٢) إن حالـــة الأوزاعية في عهد عبدالرحمن بن معاوية كان أشبه بحالة الواقع الموجود فعبدالرحمن لم يتعهد الأوزاعية تعهداً شخصياً ولا رسمياً. خليل الكبيسى، *دور الفقهاء*، ٣٦، يتابع المؤلفات تراجم المذكورين ويميل إلى المصادر.

(٢٣) حسين مؤنس، *شيوخ العصر في الأندلس* (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٦م)، ١٦- ١٨. أما عن المدينة وغدوها مقصد طلاب العلم، انظر: عياض، *ترتيب المدارك*، ١: ٨٢ - ٩٥.

(٢٤) خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٦- ٣٧.

(٢٥) ابـــن عـــذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق: س. كولان وليفي برفنسال (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢: ٦١- ٦٢.

(٢٦) في الحرص على البقاء في أقصى ما مست حاجة الدراسة إليه، نحيل القارئ الراغب في التوسع إلى دراستنا: هشام بن عبدالرحمن *الداخـــل وأسباب خلافته أباه في الإمارة: دراسة تحليلية لروايات ولاية العهد في العصر الأموي المبكر في الأندلس*، مجلة جامعة الملك سعود، م١٥، الآداب (٢) (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ٣٥٧- ٤١٦.

(٢٧) بشـــير حـــيان خلف بن حيان القرطبي، إلى سليمان بعبارة "سليمان الشام "، *المقتبس، السفر الثاني*، تحقيق: محمود علي مكي (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ٢.

(٢٨) انظـــر لتفصـــيلات أوسع في النقاط التي طرحت هنا: عبدالغفور روزي، *هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة*، ٣٧٨- ٣٩٧.

(١٤) عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤)، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*، تحقيق: أحمد بكير محمود، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ١: ٥٥.

(١٥) ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الازدي (ت ٤٠٣)، *تاريخ علماء الأندلس*، تحقيق: دار إحياء التراث، رقم ٤٥٤ (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ١٥٣.

(١٦) ابن الفرضي، رقم ١٤٣٢، ١٣٤، ورقم ١٠٩٩، ٤٢، ورقم ٢٣٩، ٧٤. أيضاً: خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٠- ٣٤.

(١٧) خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٣؛ عياض، *المدارك*، ١: ٥٥.

(١٨) المرجع السابق، ٣١.

(١٩)

M.A. Makki, Ensayo Sobre aportaciones Orientales en La Espana Musulmana, Revista del Instituto de Esfudios Islamicos en Madrid, vols, IXX, (Madrid 1961 - 2) 2 - 167

عن المدينة يشير ابن خلدون في المقدمة أنها كانت عندئذ "دار علم" في أيام الإمام مالك، ٤٤٩. أما عن بغداد يكفينا الخطيب البغدادي لنسلم من كتابه وصفاً عن الحالة العلمية فيها. انظر كذلك: منير الدين أحمد، *تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري*، ترجمة سالي الصقار (الرياض: دار المريخ، ١٩٨١م).

(٢٠) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ٣: ٣٧- ٥٥.

(٢١) المقري، *النفح*، ٣: ٥٤؛ كذلك: خالد الصوفي، *تاريخ العرب في الأندلس*، عصر الإمارة (٢) (ليبيا: جامعة قاريونس، كلية الآداب، ١٩٨٠م)، ١٠٠- ١٠٦.

(٢٢) إن حالة الأوزاعية في عهد عبدالرحمن بن معاوية كان أشبه بحالة الواقع الموجود فعبدالرحمن لم يتعهد الأوزاعية تعهداً شخصياً ولا رسمياً. خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٦، يتابع المؤلفات تراجم المذكورين ويميل إلى المصادر.

(٢٣) حسين مؤنس، *شيوخ العصر في الأندلس* (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٦م)، ١٦- ١٨. أما عن المدينة وغدوها مقصد طلاب العلم، انظر: عياض، *ترتيب المدارك*، ١: ٨٢ - ٩٥.

(٢٤) خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٦- ٣٧.

(٢٥) ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق: س. كولان وليفي برفنسال (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢: ٦١- ٦٢.

(٢٦) في الحرص على البقاء في أقصى ما مست حاجة الدراسة إليه، نحيل القارئ الراغب في التوسع إلى دراستنا: هشام بن عبدالرحمن *الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة: دراسة تحليلية لروايات ولاية العهد في العصر الأموي المبكر في الأندلس*، مجلة جامعة الملك سعود، م١٥، الآداب (٢) (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ٣٥٧- ٤١٦.

(٢٧) بشير حيان خلف بن حيان القرطبي، إلى سليمان بعبارة "سليمان الشام "، *المقتبس، السفر الثاني*، تحقيق: محمود علي مكي (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ٢.

(٢٨) انظر لتفصيلات أوسع في النقاط التي طرحت هنا: عبدالغفور روزي، *هشام بن عبدالرحمن الداخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة*، ٣٧٨- ٣٩٧.

(٢٩) محمد بن عبدالله حباني، *أهمية كتاب موطأ الإمام مالك بن أنس واهتمام العلماء به* (الرياض: عالم الكتب، مج/٢٣، ع/٣- ٤، ذو الحجة ١٤٢٢هـ/ المحرم - صفر ١٤٢٣هـ)، ١٩٧ - ٢٤٢.

(٣٠) خليل الكبيسي، *دور الفقهاء*، ٣٩.

(٣١) انظر تراجمهم ؛ الزبيدي، أبو بكر محمد الحسن، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ (القاهر: دار المعارف)، ٢٥٣؛ ابن الفرضي، *تاريخ*، ٨٩٥؛ الخشني، *قضاة*، ٢٨٢؛ ابن الفرضي، ٥٧٨، نفسه ٢٨٨؛ انظر كذلك: خالد عبدالكريم حمود البكر، *الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري* (الرياض: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ٦٤ - ٦٥.

(٣٢) يصعب الإحاطة بالمصنفات التي ترجمت لهؤلاء، وللمثال انظر: محمد بن حارث الخشني (ت ٣٦١)، *أخبار الفقهاء والمحدثين*، تحقيق: ماريا لويسا آبيلا ولويس مولسبا (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، ١٩٩٢م)؛ وعياض، *المدارك*؛ ابن الفرضي، *تاريخ*، وذلك في مواضع أسمائهم.

(٣٣) حسين مؤنس، شيوخ *العصر*، ١٧.

(٣٤) الخشني، *أخبار*، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٧٢، يختلف أصحاب الألقاب في روايات أخرى.

(٣٥) الشيرازي، أبو إسحاق، *طبقات الفقهاء*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: ١٩٧٠م)، ١٥٢.

(٣٦) مصطفى الهروس، *المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، نشأة وخصائص* (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ٣٦.

(٣٧) عياض، *ترتيب المدارك*، ١ : ٥٥، وقد توهم المقرى في النفح (٣: ٢٣٠) وجعل تحول الأندلس إلى المالكية في دولة الحكم بن هشام بن عبدالرحمن، والأصح ما أثبته عياض وغيره.

(٣٨) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٤٦.

(٣٩) ابن القوطية، *تاريخ افتتاح الأندلس*، ٦٢، وترد العبارة عند آخرين بصيغ مختلفة قليلاً؟ "ليت الله زين موسمنا بمثل هذا (المقري، ١ : ٣٣٧)، أخبار مجموعة "وددت أن الله " ...، ١٠٦.

(٤٠) المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، *كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن: بريل، ١٩٠٩م)، ٢٣٧. ويورد المقدسي صور ما كان على النحو التالي: وفشا مذهب أبي حنيفة رحمه الله بالمغرب ؛ قلت: فلم يفش في الأندلس، قالوا لم يكن بالأندلس أقل منه ههنا؛ ولكن تناظر الفريقان بين يدي السلطان، لعله كان هشام؛ فقال لهم من أين كان أبو حنيفة؟ فقالوا من الكوفة، فقال ومالك ؟ قالوا: من المدينة؛ قال: عالم دار الهجرة يكفينا ؛ فأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة، وقال: لا أحب أن يكون في عملي مذهبان. ويضيف المقدسي قائلاً: وسمعت هذه الحكاية من عدة مشايخ الأندلس.

(٤١) الخشني، *قضاة قرطبة*، ٢٧.

(٤٢) ابن الخطيب، لسان الدين، *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق: محمد عبدالله غيان، ط٤ (القاهرة: مكتب الخانجي، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٢٣٢- ٢٣٣. انظر كذلك بحثنا، أبو المخشي التميمي الأندلسي .. شاعر أعار سيرته للتاريخ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ١٩/٧٥/٤ (الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١م)، ١١٧- ١٦٤.

(٤٣) حسين مؤنس، شيوخ *المالكية*، ١١.

(٤٤) فضلاً عن اعتراف هشام بالمذهب المالكي بوصفه مذهباً رسمياً للأندلس، فإن كوندي ينفرد بذكر جملة من القرارات التي

أصـــدرها هشام والمعبرة أيضاً عن توجه شيوخ المالكية، منها فتح مدارس للأطفال في قرطبة وحواضر الأندلس الأخرى، وأمره بـــأن تكون لغة الدراسة العربية. J.A. Condy. History of the Domination of the Arabs in Spain, frans. J. Foster. (London, Henezy G. Bhon. 1854), 1: 224-110 .

(٤٥) حيان بن خلف بن حيان القرطبي، *المقتبس*، ١٤٠- ١٧٣.

(٤٦) ليفي بروفنسال، *تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية ٧١١ - ١٠٣١*، ترجمة: علي عبدالرؤوف البحيى وآخرون (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م)، ١٤٠- ١٤٦؛ المقرى، *نفح الطيب*، ١: ٢٣٠.

(٤٧) محمـــد بن حارث الخشني، *أخبار الفقهاء والمحدثين*، ٣٥٩؛ عبدالواحد المراكشي، *المعجب*، تحقيق: محمد سعيد عريان (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٦٣م)، ٤٤- ٤٦.

(٤٨) عياض، *المدارك*، ١: ٣٥٤- ٣٥٥، ٤٩٢- ٤٩٣، ٥٠٥- ٥٠٧ ، ٣: ١٧، ٣١، ٥٠، ١٤٠ ؛ ابن الغرفي، ٢: ٨٩٥- ٨٩٦.

(٤٩) في شخص زهير بن مالك البلوى الذي كان يفاخر بتفرده بالاوزاعية، (ابن الفرضي، ٤٥٦، ١٥٣) .

(٥٠) عن عفو الليثي وابن دينار، انظر: محمد بن حارث الخشني، *أخبار الفقهاء والمحدثين*، ٣٦٠- ٦٢، ٢٧٢ أما عن قصة عفو الحكم عن طالوت انظر: المراكشي: المعجب، ٤٤- ٥٠.

(٥١) في لحظة مواساة للنفس نظم الحكم بن هشام أبياتاً وجهها إلى ابنه عبدالرحمن نستقطع منها بيت القصد:

فهاك بلادي أنني قـــد تركتهـــا مهاداً و لم أترك عليهـــا منازعـــا

المؤلـــف المجهـــول، *أخـــبار مجموعـــة في فتح الأندلس*، تحقيق: إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠١هـــ/ ١٩٨١م)، ١٢٠.

(٥٢) حاولـــنا رصـــد الأوصاف التي وصفت بها أيام عبدالرحمن بن الحكم "الأوسط"، انظر: عبدالغفور روزي، *زرياب والزريابية في الأندلـــس مـــن مـــنظور عصر عبدالرحمن الوسط*، العصور، مج/١.٠ (لندن: دار المريخ يناير ١٩٩٥م، شعبان ١٤١٥هـــ)، ١: ١١٥- ١٤٣.

(٥٣) حسين مؤنس، شيوخ *العصر*، ٢٠.

(٥٤) ابـــن حـــيان القـــرطبي، *المقتـــبس من أنباء أهل الأندلس*، تحقيق: محمود علي مكي (بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٩٣هـــ/ ١٩٧٣م). انظر في مواضع ذكر عبدالرحمن الأوسط ومواضع ذكر اسم يحي بن يحي الليثي.

(٥٥) المقري، *نفح الطيب*، ١: ٢٣٠ - ٢٣٢.

(٥٦) خـــالد الصـــوفي، *تاريخ العرب في الأندلس، عصر الإمارة*، (ليبيا: جامعة قاريونس، ١٩٨٠م)، ١: ١٧٣؛ عبدالغفور روزي، *زرييات والزريابية من منظور عصر عبدالرحمن الأوسط*.

(٥٧) ابـــن القوطـــية، *تاريخ افتتاح الأندلس*، تحقيق: إبراهيم الأنباري (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م)، ٧٥؛ المؤلف المجهول، *أخبار مجموع*، ١٢٢.

(٥٨) الـــنظرية كما يشرحها صاحبها انظر: Thomas S. Smith, " Aestheticism and Social Structure: Style and Social Structure: Style and Social Network in the Dondy life", ASR, vol. 39 (October), 728 - 748. أما تطبيقها عند جليك انظر: Thomas F. Glick, Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages. Pirnceton: Princton University Press. 1979 (194 - 214).

(٥٩) انخـــل جونزالـــيس بالنثيا A.G. Palancia، *تاريخ الفكر الأندلسي*، ترجمة: حسين مؤنس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م)، ٥.

جارسيا جومس G.Gomez، *الشعر الأندلسي*، ترجمة: حسين مؤنس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م)، ٣٠- ٣٣. لـــيفي بروفنســـال Levi - Provincal، الحضـــارة العربـــية في إسبانيا، ترجمة: الطاهر أحمد مكي (القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٦١ - ٦٤ .

(٦٠) مجمـــوع الـــ ٣٢٥٩ هي تراجم العلماء المصنفة في : ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ابن بشكوال، كتاب الصلة، وابن الزبير، صلة الصلة.

انظر : Abdulghafour I. Rozi, The Social Role of Scholars (Ulama) in Islamic Spain: A Study of Medieval Biographical Distionaries (Trajim), Unpublished Ph: D dissertation, (Boston University 1983), 198.

(٦١) محمـــد الـــوزاد، *الاتجاهات الفكرية في الأندلس خلال القرن ٣هـ* (فاس: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع/٤-٥، س، ١٩٨٠- ١٩٨١م)، ١٥٥.

(٦٢) المرجع نفسه، نفس الصفحة، ومنصب المشاورة من بعد الليثي غدا منصباً متوارثاً لشيوخ الفقه والحديث لاحقاً.

(٦٣) ابـــن فـــرحون المالكي، *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب*، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة: دار التراث، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ٢: ١٧٩- ١٨١؛ الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، *بغية الملتمس* (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م) رقم ٢٩١، ١٣٣. ويتابع منير الدين أحمد،مظاهر الإحرازات العلمية التي أحرزها بغداد في علم الحديث، اعتماداً على ما ورد عند الخطيب البغدادي، منير الدين أحمد، *تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم*، ترجمة: سامي الصقار (الرياض: دار المريخ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

(٦٤) الضبي، *البغية*، ٢٤٥- ٢٤٧.

(٦٥) حسين مؤنس، *شيوخ العصر* ، ٤٣- ٤٨.

(٦٦) حظـــي كـــل من محمد بن وضاح وبقى بن مخلد بدراسات موسعة عنهما، انظر: نوري معمر، محمد وضاح القرطبي، *مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس مع : بقى بن مخلد* (الرباط: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). أكرم ضياء العمري، *بقى بن مخلد القرطبي*، (بيروت: د.ن، د.ت).

(٦٧) عرفـــت الأندلـــس خـــلال القرن الثاني الهجري نفر من محدثي المشرف مثل داود بن جعفر الصغير وحبيب بن الوليد المعروف بدحون وصعصعة بن سلام ومعاوية بن صالح. خالد الصمدي، *حركة الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري*، أبو محمد عبدالرحمن بن عتاب نموذجاً، (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ١٣.

(٦٨) ابن سعيد، *المغرب في حلى المغرب*، تحقيق: شوقي ضيف، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م)، ١: ٥٠ - ٥١.

(٦٩) عـــياض، *ترتيـــب المـــدارك*، ١: ٢٤٨. ومصنف أبي بكر ابن شيبه هو كتاب في الحديث وفي فتاوى الصحابة والتابعين، كان بقى بن مخلد درسه في بغداد وأدخله ودرسه في الأندلس، الحميدي، *الجذوة*، ١١. وتوفي أصبغ بن خليل عام ٢٧٣هـــ.

(٧٠) ابن سعيد، *المغرب*، ١: ٥٢.

(٧١) محمد بن حارث الخشني، *أخبار الفقهاء والمحدثين*، ١٢٦.

(٧٢) حسين مؤنس، *شيوخ العصر*، ٤١ - ٤٢.

(٧٣) ابن حيان، *المقتبس*، تحقيق: محمود مكي، ٣١٤- ٣١٥.

(٧٤) نوري معمر، *محمد بن وضاح*، ٣٣ - ٣٤.

(٧٥) حسين مؤنس، *شيوخ العصر*، ٤١- ٤٢.

(٧٦) مؤنس، شيوخ، ٤٨، حيث يقول: والطريف أن الفقهاء لم يتعرضوا له بعد ذلك، أي لبقي بن مخلد وشيوخ الحديث الآخرين.

(٧٧) منير الدين أحمد، *تاريخ التعليم عند المسلمين*، ٥١- ٦٠.

(٧٨) الضبي، *البغية*، رقم ١٤٦٠- ١٤٦٢، ٤٩٨.

(٧٩) ابن سعيد، *المغرب في حلى المغرب*، ١: ١٨٨.

(٨٠) انخل جنثالث بالنثيا، *تاريخ الفكري الأندلسي*، ترجمة: حسين مؤنس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م).

(٨١)

Thomas F. Glick, Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages, Comparativ Perspectives on Social and Cultural Formation, (Princeton, Princeton University Press 1979). Chpter (S): 2, 7, 8

(٨٢) انظر عن هؤلاء: انخل بالنثيا، *تاريخ الفكر*، ٣٩٣- ٤٠٢؛ حسين مؤنس، *شيوخ العصر*، ٨٢- ٨٥.

(٨٣) A. Rozi, The Social Role, 309 .

(٨٤) انظر عن الحركة: ابن حيان، *المقتبس*، تحقيق: ب. شالميتا (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩م)، ٥: ٣١٢- ٣١٤؛ ابن حيان نفسه في منظور الدراسة هو أيضاً ثمرة من ثمار الانفتاح العلمي.

(٨٥) في التعريف التاريخي لهذه المسميات في الأندلس، انظر: حسين مؤنس، *فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦م)* (القاهرة: الشركة العربية، ١٩٥٩م)، ٣٥٥- ٣٧٢.

(٨٦) بينما مال أبناء الرعيل المالكي الأول (مثل يحيى بن عبدالله بن يحيى الليثي ت ٣٦٣) التحول إلى الحديث، حافظ أبناء الرعيل الثاني ومن بعدهم (أبناء ابن عتاب وابن أصبغ الولاء لتوجهات آبائهم، ونفس الأمر نلاحظه على أبناء الفقهاء. انظر في مواضعهم في ابن الفرضي وابن بشكوال. خالد الصمدي، حركة الحديث بقرطبة، ٦٨.

مساهمة المذهب المالكي في بناء جسور الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب[١]
(من قيام الدولة العباسية حتى القرن الرابع الهجري)

إبراهيم القادري بوتشيش
جامعة مولاي إسماعيل – كلية الآداب
مكناس – المغرب

إذا كانت صلاة الحجاز ببلاد المغرب تضرب بجذورها في أعماق التاريخ القديم، فإن إيقاعها أصبح أكثر سرعة منذ بداية انتشار الإسلام، خاصة عندما أصبحت بلاد المغرب تتسلخ عن الحضارة الغربية الرومانية، لتنجذب بشكل نهائي نحو حضارة المشرق الإسلامي[٢]، وتستقي ينابيع ثقافتها من بلاد الحجاز، باعتبارها مهبط الوحي ومنبع العلم الشرعي.

والمتأمل في الصلاة الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب، يلاحظ دون عناء أن المذهب المالكي شكل عصب تلك الصلاة، إذ ساهم بشكل كبير في تواصل العلماء المالكيين في كلتا المنطقتين، مما تمخض عنه علاقات علمية تنوعت أشكالها ما بين الرحلات العلمية التي كان يقوم بها العلماء المغاربة نحو مكة أو المدينة للقاء الإمام مالك أو تلامذته، وتبادل الرسائل والمبعوثين بين علماء المنطقتين، فضلاً عن استفتاء علماء بلاد المغرب الإمام مالك بن أنس، واستشارته في الأمور القضائية والعقدية، وهجرة العلماء الحجازيين إلى بلاد المغرب واستقرارهم مع عائلاتهم في حواضرها، وهو ما سنتناوله بالدراسة والتحليل في هذا البحث.

أولاً: العوامل المساهمة في بناء جسور الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب:

١ – الرصيد التاريخي:

بدأ الحضور الحجازي يترسخ في بلاد المغرب منذ مطلع الفتوحات الإسلامية، إذ تشير المصادر إلى مشاركة مجموعة من القبائل الحجازية بزعامة عبدالله بن الزبير في فتوحات إفريقية[٣]. وتقدم لنا النصوص بعض الإحصائيات الهامة حول مشاركة أهل المدينة المنورة في فتوحات بلاد المغرب، فتقدرهم بعشرين ألفا[٤]، بينما يشير نص آخر ينسب إلى الواقدي إلى أعداد القبائل العربية الأخرى مثل مزينة التي بلغ عددها ٨٠٠ مقاتل، وبني سليم التي وصل عدد أفرادها إلى ٤٥٠، في حين شاركت قبائل بني الدئل وضمرة وعبدمناة بـ ٥٠٠ جندي[٥].

وغير خاف أن هذه الفتوحات العسكرية التي تزعمها الحجازيون في بلاد المغرب، كانت تحمل معها بذور الصلات العلمية من أول وهلة، إذ كان من عادة الفاتحين أن يصحبوا معهم نخبة من الفقهاء من الصحابة والتابعين. وقد توج الخليفة عمر بن عبدالعزيز هذه البذرة العلمية بإرسال بعثة من العلماء لتفقيه أهالي المغرب(٦)، ومنذئذ بدأت الصلاة الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب تتوطد، ليصبح إيقاعها يتسارع منذ منتصف القرن الثاني الهجري بفضل المذهب المالكي كما سنفصل فيما بعد.

٢ – الرمز الديني لبلاد الحجاز في عقلية المغاربة:

كانت بلاد الحجاز –ولا تزال– تكتسب أهمية بالغة في مخيال المغاربة، لما تمثله من قدسية دينية تعزى إلى وجود الكعبة المشرفة بها، فضلاً عن كون مكة تعتبر مهبط الوحي، الينبوع الأصلي للعلم والمعرفة، والكتاب المترل الذي دعت أول سوره إلى الأخذ بناصية العلم والثقافة. كما أن المدينة تضم قبر الرسول ﷺ، مع ما يمثله ذلك من وقع نفسي مؤثر في قلوب المغاربة الذين كانوا يتحرقون شوقًا لزيارته، حتى ليقال أن المغاربة الذين عجزوا عن زيارة المدينة كانوا يبعثون برسائل شفهية ودعوات دينية مع الحجاج إلى النبي ﷺ يلتمسون فيها بركته وشفاعته. وكل ذلك جعل المدينتين الحجازيتين معاً محط عيون المغاربة من طلاب العلم وغيرهم ممن كانوا يتوقون لزيارتهما، حتى أن الرحلة العلمية إليهما كانت بمثابة وسام علمي يزيد من مكانة العالم المغربي، ويميزه عن سائر أقرانه من العلماء.

٣ – تشابه البيئتين المغربية والحجازية:

من بين النظريات الطريفة التي يفسر بها ابن خلدون انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس، ما يمكن تسميته بالتفسير البيئي، وهو تفسير يعتمد على مقاربة تماثل البيئتين الحجازية والمغربية التي يجمعها في نظره قاسم مشترك يتمثل في طابع البداوة الغالب على أهاليهما، إذ يقول في هذا الصدد: "وأيضًا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم"(٧). بيد أن ابن خلدون يقرن أيضًا صلات بلاد المغرب بالحجاز بخط الرحلة العلمية الذي يبدأ في المغرب لينتهي بالمدينة "وهي دار علم" حسب تعبيره. وبما أن العراق لم تكن في طريق رحلة المغاربة، فقد اقتصروا على الأخذ من علماء المدينة وشيخهم آنذاك الإمام مالك.

رغم طابع التعميم الذي يلف هذا التفسير الخلدوني، فإنه يقدم مقاربة سوسيولوجية هامة في مجال الصلات الثقافية بين بلاد المغرب والحجاز تقوم على دعامتين:

- تتمثل الأولى في مقاربة بيئية مفادها أن تشابه البيئتين المغربية والحجازية أعطى زخمًا للعلاقات الثقافية بين البلدين، حيث أن التماثل البيئي من شأنه تشجيع الرحلات العلمية وتبادل الزيارات، واستقرار العلماء في أحد البلدين.
- أما الثانية فهي مقاربة مرتبطة بجغرافية التنقل وتحكم العامل العلمي فيه، إذ أن رحلة طلاب العلم المغاربة كانت

تنـــتهي عـــند المديـــنة المنورة التي يجدون فيها ما يشبع نهمهم العلمي، نظرًا لوجود الإمام مالك بها. ونعتقد أن المقاربتين معًا قمينتين بتفسير قوة الصلاة الثقافية بين المغرب وبلاد الحجاز.

٤ – الحج إلى الديار المقدسة بالحجاز واقترانه بطلب العلم:

يـــبدو أن تفســـير ابن خلدون السالف الذكر يتعلق بالجانب العلمي فحسب، ولذلك تحدث عن رحلة العلماء المغاربـــة نحو المدينة؛ غير أن مكة لم تكن تقل أهمية لدى علماء البلاد المغربية، خاصة أن الحج كفريضة دينية اقترن في الغالب الأعم بطلب العلم، وهو ما تعكسه مختلف الصيغ التعبيرية الواردة في كتب الطبقات والتراجم للدلالة على جمع علماء الغرب الإسلامي بين فريضة الحج وطلب العلم، مثل تعبير "حج وطلب العلم"(٨)، أو "رحل إلى المشرق حاجا وطالبا"(٩) أو "حج وسمع بمكة"(١٠) أو "رحل حاجا فكتب في رحلته حديثا كثيرا"(١١)، إلى غير ذلك من التعبيرات التي تعكـــس الترابط بين أداء الحج وطلب العلم. و لم تحل أخطار الطريق واحتمال التعرض لقطاع الطرق أو الوقع في أسر النصـــارى دون إقدام بعض علماء المغرب والأندلس على أداء فريضة الحج، والارتشاف من معين علماء مكة الذين طـــارت شـــهرتهم في الآفاق من أمثال علي بن عبدالعزيز وابن الأعرابي وأبي الفضل الهروي وأبي بكر بن عمر المكي وغيرهم من فطاحلة العلماء المكيين(١٢).

ولا يخامرنا شك في أن الحج ساهم إلى حد كبير في جعل مكة المكرمة من أهم مناطق الحجاز التي توافد عليها علماء الغرب الإسلامي. فإذا أخذنا المعطيات الواردة في كتاب تاريخ علماء الأندلس "لابن الفرضي الذي عـــاش إلى حـــدود القـــرن ٤هــ، اتضح أنها شكلت منطقة جذب لعدد من العلماء الأندلسيين الوافدين على الحجاز، وهو ما يتضح من خلال الجدول التالي:

النسبة المئوية العالية لمكة ضمن مدن الحجاز التي قصدها
العلماء الأندلسيون من خلال معطيات "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي

المدن الحجازية	عدد العلماء الأندلسيين الراحلين إليها	النسبة المئوية
مكة المكرمة	١٥٨	٧٢%
المدينة المنورة	٥١	٢٣%
جدة	٥	٢%
مناطق حجازية أخرى	٧	٣%
المجموع	**٢٢١**	**١٠٠%**

يضاف إلى ذلك أن عددًا من علماء بلاد المغرب قدموا لمجاورة الحرم المكي، فكانوا يمكثون هناك مددًا مختلفة قد

تصـــل إلى مدى الحياة، حتى أن عددًا منهم ظلوا بمكة طلباً للعلم أو تقديم الخدمات العلمية للحجاج إلى أن اخترمتهم المنية(١٣). وعلى كل حال فإن مجاورة علماء المغرب والأندلس للحرم المكي اقترن دائمًا بطلب العلم أو تدريسه، وهذا جدول يوضح عدد ونسبة العلماء الأندلسيين المجاورين بمكة، مقارنة مع العدد الإجمالي لعلماء الأندلس الراحلين إليها، وذلك حسب المعطيات الواردة عند ابن الفرضي وابن بشكوال:

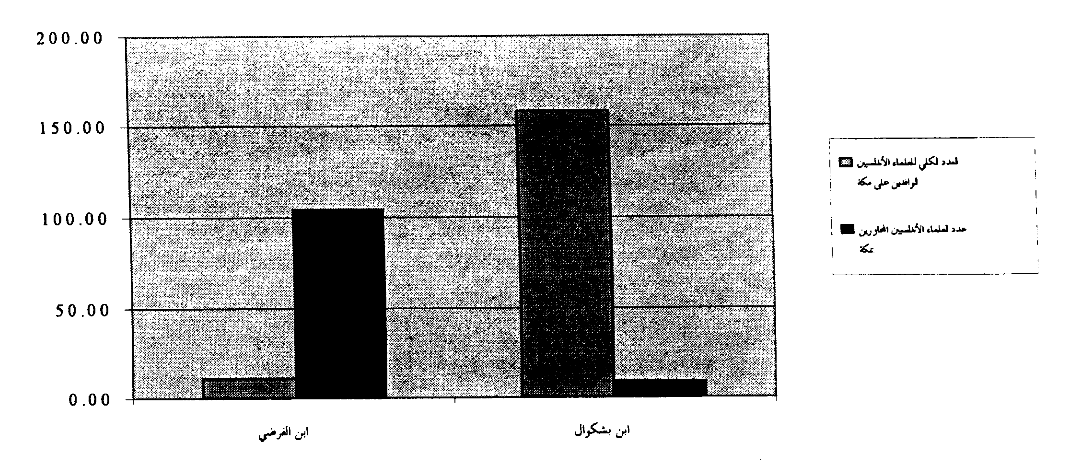
نسبة العلماء المجاورين بمكة لمجموع العلماء الأندلسيين الراحلين إلى مكة

حسب ابن الفرضي وابن بشكوال

العدد الكلي للعلماء الأندلسيين الراحلين إلى مكة	المجموع	عدد العلماء الأندلسيين المجاورين بمكة	المجموع	النسبة المئوية
حسب ابن الفرضي ١٥٨	٢٦٢	١١	٢٠	%٦,٩٦
حسب ابن بشكوال ١٠٤		٩		%٨,٦٥

ويمكن صياغة هذه المعطيات كذلك عبر المبيان التالي:

مبيان حول عدد العلماء الأندلسيين الوافدين على مكة والمجاورين بها



٥ – إعجاب المغاربة بالإمام مالك ومحبة وتقدير هذا الأخير لهم:

يمكـــن أيضًا التعرف إلى الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب من خلال وشائج المحبة والتقدير المتبادلة بين الإمام مالك وعلماء الغرب الإسلامي الذين كانوا منجذبين أشد الانجذاب إليه لما عرفوه عنه من كريم السجايا وحميد الأخـــلاق، وعلـــو الكعـــب في المجال العلمي، والتعلق الشديد بالسنة والأثر(١٤)، مما دفعهم إلى الوفود عليه والانقياد لمذهبه، والاقتناع أنه القدوة الحسنة والنموذج الأمثل(١٥). ولقد بلغ من تقدير المغاربة ومحبتهم للإمام مالك أن نظموا

قصائد تمجد علمه وتثني عليه، ومما قاله أحدهم في مدحه:

إمام الورى في الهدى والسمت مالــك   وفي الفقــه والآثــار ما إن يــدارك
فــآراؤه في الفقــه يسطــع نورهــا   وتسهــل في إيضاحــــه المسالــك[١٦]

مــن جهــته، كان الإمام مالك يُكنُ كل المحبة والتقدير لعلماء بلاد المغرب حتى أنه كان يلقب العالم التونسي الــبهلول بن راشد بــ "عابد البلد"[١٧]، وعرف عبدالله بن عمر بن غانم وهو من مشايخ تونس أيضًا بأنه "صاحب مــالك بــن أنــس"[١٨]، وبلــغ من إعجاب مالك بهذا العالم وتقديره له أن عرض عليه ابنته للزواج والإقامة عنده بالمديــنة[١٩]. ومــن مظاهر تكريمه وإجلاله له أنه كان يوسع له في مجلسه ويقعده إلى جانبه، ويطيل الحديث معه إلى درجــة أن طلبة العلم الوافدين على إمام دار الهجرة للقائه ومجالسته كانوا يضيقون بالانتظار صبرًا، فيقولون: "شغله المغربي عنا"[٢٠]. أما عبدالله بن فروخ فكان يسميه مالك "بفقيه المغرب"[٢١]. ولعل كثرة الإجلال والتقدير الذي كان يكــنّه الإمــام مــالك لهــذا العالم التونسي ما جعل أبا العرب يذكر ما يلي: "كان مالك بن أنس رحمه الله يكرمه ويعظمــه"[٢٢]. كما حظي الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي وهو من مشايخ تونس بمحبة وتقدير الإمام مالك حتى أن تلميذه ابن وهب أكد ذلك بقوله: "ما رأيت مالكًا أميل منه إلى أحد كميلــه إلى ابن أبي حسان"[٢٣]. وكان من كثرة تقديره له أنه عندما زاره وهو في طريقه إلى الحج، تلقاه مالك بالسلام وقام إليه، وكان لا يفعل ذلك إلا مع قلة من العلماء الذين يجلهم ويقدرهم. وحسبما يستشف من رواية صاحب "رياض النفوس"، فإن الإمام مالك صرّح لابن غانم أنه لو علم بقدومه لأتى بنفسه للاطمئنان عليه[٢٤].

ومما يعكس محبة عالم المدينة لفقهاء الأندلس أيضًا، ما ذكره ابن الفرضي[٢٥] في ترجمــة العالم الأندلسي حفص ابن عبدالسلام السلمي أنه لزم مالكًا بن أنس سبعة أعوام "وكان مالك يدني منزله"، بينما بلغ من شدة إعجابه بأحد علماء قرطبة أن كان يلقبه بالحكيم[٢٦]؛ كما كان معجبًا بعالم أندلسي آخر يدعى عبدالرحمن بن عبدالله، فكان يقربه إليه ويكرمه[٢٧].

والحاصــل أن جميع العوامل السالفة الذكر ساهمت بشكل أو بآخر في بناء جسور الصلاة الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب، فما هي أهم تجلياها وأشكالها؟

ثانيًا: مظاهر الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب ودور المذهب المالكي في صياغتها:

لا جــدال في أن المذهب المالكي شكل حجر الزاوية في الصلاة الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب، ومع ذلك لا نجــد المصــادر التاريخية توليه ما يستحق من اهتمام؛ وتبقى كتب الطبقات والسير والتراجم من المظان الأساسية التي يعول عليها الباحث في رصد تلك الصلات، والتي يمكن حصر صورها حسبما تمدنا به النصوص فيما يلي:

١ - تتلمذ المغاربة على يد الإمام مالك بن أنس:

رغم بعد الشقة وصعوبة التنقل وما يحدق بذلك من أخطار، فقد شدّ عدد من طلاب العلم المغاربة الرحال نحو الإمام مالك للارتشاف من فيض علمه، وسماع الرواية والحديث منه. وفي هذا الصدد تطالعنا المصادر بعدد من العلماء والـرجال المغاربة الذين كانوا يتطلعون للقاء إمام دار الهجرة والتتلمذ على يديه من بينهم العالم التونسي البهلول بن راشـد(٢٨) وعـبدالله بن عمر بن غانم الذي روى عنه الحديث حتى عرف في المصادر "بصاحب مالك بن أنس"(٢٩)، وكـان يشكل حلقه في سلسلة الإسنادات التي تسند الأحاديث إلى الرسول ﷺ(٣٠). وكان قد صحب هذا العالم في رحلته إلى الإمام مالك عالم تونسي آخر سمع عنه وروى عنه(٣١).

ومـن أبـرز العلماء الذين التقوا بالإمام مالك ونهلوا من علمه، العالم المجاهد أسد بن الفرات الذي خرج من تونـس قاصدًا المدينة المنورة سنة ١٧٢هـ، وهو لم يتجاوز الربيع الثامن عشر من عمره، وهناك لقي إمام دار الهجرة وواظب عليه وسمع منه الموطأ(٣٢). ولم يحل التقدم في السن دون رحلة عبدالله بن فروخ وهو من مشايخ إفريقية أيضًا ولقائه بمالك والتتلمذ على يديه(٣٣).

ومـن عـلماء إفريقـية الذين تتلمذوا على الإمام مالك أيضًا الفقيه أبوعون معاوية بن الفضل الصمادحي(٣٤) وأبوالحسن علي بن زياد التونسي الذي يعد أول من أدخل الموطأ لبلاد المغرب(٣٥)، ويزيد بن محمد الجمحي الذي لم يكتف بلقاء مالك بن أنس، بل اهتبل الفرصة للقاء عدد جمّ من علماء المدينة، ومنهم إبراهيم بن محمد(٣٦)، فضلاً عن مجموعـة مـن العـلماء التونسيين الذين عرفوا بأصحاب مالك، ويمكن أن نجملهم حسب معطيات كتاب "رياض النفوس" في الجدول التالي:

العلماء التونسيون الذين تتلمذوا على يد الإمام مالك

حسب معطيات كتاب "رياض النفوس"

اسم العالم التونسي	العبارة المستعملة للدلالة على تتلمذه على يد الإمام مالك	الصفحة
عبدالله بن أبي غسّان	سمع من مالك	٢٤٠
يحيى بن زكريا التجيبي	يعد في جماعة أصحاب مالك	" " "
أبوخارجة عنبسة الغافقي	له سماع من مالك	٢٤١
عمر بن الحكم اللخمي	سمع من مالك	٢٤٧
اسم العالم التونسي	العبارة المستعملة للدلالة على تتلمذه على يد الإمام مالك	الصفحة
أبوالقاسم الزواوي	سمع من مالك وروي عنه	٢٤٨
عباس بن الوليد	لقي مالكا وروي عنه	٢٤٨
أبوالخطاب محمد بن الأعلى	روي عن مالك	٢٥١

أبومسعود العباس بن أشرس	سمع من مالك- صاحب مالك	٢٥٢
عمر بن سمك بن حميد	روي عن مالك	٢٥٣
أبوطالب عبدالله بن عثمان	سمع من مالك	٢٥٣
أبومحرز محمد بن عبدالله	من المعدودين من أصحاب مالك	٢٧٤
زكريا بن محمد بن الحكم اللخمي	كان من أصحاب مالك	٢٧٦
أبوعمر البهلول بن عمر	من جملة أصحاب مالك من أهل إفريقيا	٢٨١
أبوعبدالله زرارة بن عبدالله	روي عن مالك	٢٨٢
أبوالحجاج رباح بن ثابت	سمع عن مالك	٢٨٣
أبومحمد عبدالله بن أبي حسان	سمع عن مالك	٢٨٤
أبوعبدالله محمد الحضرمي	سمع من مالك موطأه	٢٩٠
الحارث بن أسد القفصي	سمع من مالك	٢٩٠
عبدالمؤمن بن المستتير	روي عن مالك وأصحابه	٢٩١
علي بن يوسف بن عياض	سمع من مالك	٢٩٢
عباس بن الوليد الفارسي	لقي مالكاً وروي عنه	٢٤٨
زرارة بن عبدالله	روي من مالك	٢٨٣
عمر بن الحكم اللخمي	سمع من مالك	٢٤٧
عبدالله بن فروخ	سمع من مالك	١٧٦
يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري	روي عن مالك بن أنس	٩٣
أبو عثمان المعافري	أتيت مالك بن أنس	١٠٩
محمد بن الحكم	له سماع من عبدالرحمن بن زياد بن أنعم ومن مالك	١٥٣
عبدالله بن أبي غسان	سمع من مالك	١٥٧
اسم العالم التونسي	العبارة المستعملة للدلالة على تتلمذه على يد الإمام مالك	الصفحة
الأقرع بن بكار النصيري	كان قد لقي مالك	١٥٧
أبوالسلم عبدالرحمن الخولاني	سمع من مالك بن أنس	١٥٧
أبومحمد عبدالعزيز بن يحيى المدني	سمع من مالك موطأه وغيره ومن جماعة من محدثي المدينة	١٥٨
عبدالله بن محمد الزواوي	سمع من مالك وروي عنه	٢٥٤

أما بالنسبة لعلماء الأندلس، فثمة كوكبة لامعة منهم توجهت نحو المدينة المنورة بغية لقاء الإمام مالك وتحصيل العلم على يديه، نذكر من بينهم زياد بن عبدالرحمن القرطبي المعروف بشبطون (ت: ٢٠٤هـ)، الذي لقيه وسمع منه الموطأ[٣٧] وحسان بن يسار الهذلي الذي رحل مع أخيه فسمع منه[٣٨]. وكان بعض علماء الأندلس يمكثون مدة طويلة مع الإمام مالك مثل الفقيه شبطون بن عبدالله الذي لازمه وسمع منه وحتى وفاته[٣٩]، ثم الفقيه الأندلسي حفص بن عبدالسلام السلمي الذي ظل ملازمًا له مدة سبعة أعوام[٤٠]، فضلاً عن يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ) الذي سمع منه وغيره من فقهاء المدينة[٤١]، وبقي مقيمًا عنده حتى بعد انتهاء السماع منه، معللاً بقاءه بقوله: "أقمت لأستفيد من شمائله"[٤٢].

وعلى غرار علماء الأندلس، رحل علماء المغرب الأقصى نحو المدينة المنورة لأخذ العلم من مالك، نذكر من بينهم يحيى بن يحيى بن كثير من بربر مصمودة، الذي لقيه وسنه لا يتجاوز ٢٨، وسمع منه الموطأ[٤٣]. ومنهم من لم يلق مالكًا ولكنه درس على تلامذته، ونذكر في هذا السياق درّاس بن إسماعيل (ت ٣١٧هـ) الذي كان حافظًا للرأي على المذهب المالكي[٤٤]، وبه اشتهر مالك في المغرب[٤٥]، وموسى بن يحيى الصديني الذي "كان له رحلة إلى المشرق لقي فيها أبا جعفر الأسواني المالكي"[٤٦]، وعبدالله بن إبراهيم الأصيلي الذي كان من حفاظ مذهب مالك ومن أبصرهم بعلله ورجاله[٤٧]. وكان الإمام مالك يحظى بالاحترام وجلال الهيبة من قبل تلامذته المغاربة، فقد ورد على لسان الفقيه الأندلسي سعيد بن أبي هند ما يلي: "ما هبت أحدا هيبتي لعبدالرحمن بن معاوية حتى حججت فدخلت على مالك فهبته هيبة شديد"[٤٨].

ومن خلال لائحة أسماء العلماء الذين أتينا على ذكرهم يتضح أن سماع الحديث أو روايته عن الإمام مالك، شكل أهم مظهر من مظاهر الصلات العلمية بين الحجاز وبلاد المغرب، مما يعكس أهمية المذهب المالكي في صياغة تلك الصلات.

٢ - مساهمة العلماء المغاربة في مجالس الإمام مالك:

كان علماء المغرب الإسلامي يغتنمون فرصة زيارة المدينة المنورة لحضور مجالس الإمام مالك. وكانوا يتنافسون ويتراحمون للجلوس بقربه، بل كانوا يبذلون المال في سبيل ذلك حتى أن أحدهم كان "يعطي لرجل كل يوم ثلاثة دراهم ليأخذ له مجلسًا يجلس فيه بالقرب من مجلس مالك"، فإذا حضر هذا العالم يقوم الرجل ويترك له موضعه[٤٩]، وفي نفس المنحي تذكر إحدى الروايات أن عالمًا مغربيًا يدعى محمد بن معاوية، حضر أحد المجالس العلمية التي كان يعقدها الإمام مالك لإتمام قراءة كتاب الصلاة من الموطأ، فسأله مالك عمّن يقرأ له هذا الكتاب، فأشار إلى شخص كان قد اتفق معه على خمسة دراهم ليقرأ عليه ٢٥ ورقة في المجلس الواحد[٥٠].

ويقدم صاحب "رياض النفوس" نقلاً عن أحد علماء إفريقية وصفا مباشرا لأحد المجالس العلمية التي كان

يعقدها الإمام مالك، فيذكر أن المجلس كان كبيرًا واسعًا، مفروشًا بالنمارق والمتكآت يمينًا وشمالا. ويذكر -في سياق هـذا الوصـف- لـه قبل بروز الإمام مالك إلى المجلس، خرجت جارية في حضنها مراوح وضعت كل واحدة منها على متكأة، ثم خرج جماعة من المشايخ لأخذ مواضعهم في المجلس، وبعد هذه الترتيبات، برز الإمام مالك بين الجارية ورجلان طاعنين في السن، فجلس وسلم على الجميع، ثم بدأ يجيب عن المسائل واحدة تلو الأخرى(٥١).

وثمـة رواية أخرى تصور مجلسًا علميًا عقده الإمام مالك، وحضره أحد مشايخ إفريقية. وخلاله أثيرت بعض القضـايا الـتي أفـتى فـيها الإمام مالك. ويتبين من خلالها إصراره على تنفيذ أحكامه التي استفتى فيها من طرف الأمـراء(٥٢)؛ ويخيل إلينا أن هذا الإصرار في تنفيذ الأحكام الشرعية هو ما جعله يحظى بإعجاب المغاربة الذين كانوا يحضرون مجالسه العلمية.

كمـا تـرد مناسبة أخرى لذكر حضور علماء المغرب مجالس الإمام مالك العلمية من خلال ترجمة أبي محمد عبدالله زرارة بن عبدالله الذي وصف بدوره ما جرى في أحد مجالسه، والمسألة التي طرحت خلاله بشأن رجل كانت تقـيم معـه أمه، بينما يقيم والده في السودان. وقد طلب منه هذا الأخير النهوض إليه، بينما رجته أمه البقاء معها. ويذكر العالم التونسي أن الإمام مالكًا أفتى بجواب ذكي يقتضي بطاعة الأب وعدم معصية الأم(٥٣).

وبالمثل، نجد نصًا حول مجلس حضره أحد العلماء المغاربة ويدعى علي بن يونس بن عياض. وخلال هذا المجلس ثار نقاش ديني بين الإمام مالك وسفيان بن عيينه الذي قام بالحديث في هذا المجلس، وقد كان العالم المغربي منشدًا إلى هـذا الحديـث إلى درجـة أنه نقل حرفيا ما حدث به سفيان المذكور، وهو دليل على حرص علماء المغرب على الاستفادة من حضورهم المجالس العلمية(٥٤).

كما حضر نفس العالم المغربي بمعية وفد بربري أحد المجالس العلمية التي عقدها الإمام مالك، حيث طرحت في هذا المجلس مسائل دينية(٥٥).

والملاحظ أن علماء الغرب الإسلامي تميزوا برغبتهم العلمية وتعمقهم في طرح الأسئلة. وفي هذا السياق يصف المـالكي ما دار من حوار وأسئلة صعبة طرحها أسد بن الفرات على الإمام مالك في أحد مجالسه العلمية؛ فبعد فراغه من السماع منه خاطبه بقوله: "زدني يا أبا عبدالله سماعا منك"، ثم سأله عن مسألة فأجابه فيها، فزاد عليه في السؤال فما كان من الإمام مالك إلا أن حسم الموقف بقوله: "حسبك يا مغربي، إن أحببت الرأي فعليك بالعراق"(٥٦).

ومـن الملفت للانتباه أن علماء بلاد المغرب لم يكونوا يحضرون هذه المجالس العلمية قصد السماع والاستفادة فقـط، بل كانوا يسهمون بدورهم في حلّ بعض المسائل الفقهية التي كانت تطرح في رحاب هذه المجالس، خاصة أن ثقـة الإمام مالك بأمانتهم وكفاءتهم العلمية جعلته يطلب في إحداها من عبدالله بن فروخ أن يجيب عن المسائل التي كانت تطرح عليه. وبعد سماع الإجابة التفت إلى أصحابه مطمئنًا إياهم بصحة الجواب بقوله: "هذا فقيه المغرب"(٥٧).

بل كان هو نفسه يروي أحيانًا عن بعض علماء الأندلس كما هو الحال بالنسبة للقاضي الأندلسي معاوية بن صالح الحضرمي الذي روي عنه حديثًا واحدًا(٥٨).

ومن خلال إحدى المرويات، يتضح أن الإمام مالك كان يخصص موضعًا يجلس فيه إلى جانبه العلامة المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي، وأنه كان من عاداته ألا يستدعي أحدا للجلوس فيه، لكنه كان يكسر هذه القاعدة كلما حضر لمجلسه عالم من علماء المغرب الذين يجلهم(٥٩).

وبلغ من اهتمام الإمام مالك بعلماء الغرب الإسلامي أن كان يوصي بهم خيرًا، ويقدم إليهم النصائح والتوجيهات بعد عزمهم على مغادرة المدينة؛ ففي ترجمة أسد بن الفرات، يروي المالكي أنه بعد انتهاء زيارته للمدينة، طلب هو ورفاقه المغاربة من إمام دار الهجرة أن يقدم لهم بعض الوصايا، فأوصاهم بتقوى الله والقرآن ومناصحة الأمة ونشر العلم(٦٠).

وفي رواية أخرى أن عالمًا تونسيًا آخر -الحارث بن أسد القفصي- طلب من الإمام مالك عند وداعه أن يوصيه، فأوصاه بتقوى الله وتلاوة القرآن(٦١).

٢ – تبادل الرسائل وإرسال المبعوثين:

كان تبادل الرسائل بين الإمام مالك وعلماء الغرب الإسلامي وجهًا ثانيًا من أوجه الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب. وتنبث في كتب التراجم والطبقات شهادات ونصوص حول المراسلات المستمرة التي لم تنقطع بين الجانبين، ولا غزو فقد كان عبدالله بن فروخ أحد علماء تونس يراسل الإمام مالك باستمرار، عارضًا عليه الأحكام التي أفتى بها "وكان مالك يعرفه ويكاتبه بجواب مسائله"(٦٢). وقد أورد أبوالعرب في طبقاته نص الرسالة الجوابية التي بعثها مالك إلى هذا العالم التونسي الذي كان قد راسله بغية إخباره بالبدع المنتشرة في إفريقية، وتأليفه كتابا للرد على المبتدعة، فجاوبه إمام دار الهجرة برسالة أبدى فيها بعض التحفظ حول إقدامه على هذا التأليف، مذكرا إياه أن من شرط من يجادل المبتدعة أن لا يخطئ لأن مجرد خطأ صغير قد يستغله الخصوم فيتمادوا في رغبتهم. ومما جاء في هذه الرسالة: "إنك إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تذل وتملك أو نحو ذلك، لا يرد عليهم إلا من كان عالما ضابطًا عارفًا بما يقول لهم، ليس يقدرون أن يعرجوا عليه، فإن هذا لا بأس به، أما غير ذلك، فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ، فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشيء فيطغوا، ويزدادوا تماديًا على ذلك"(٦٣).

ويشير صاحب "رياض النفوس" إلى رسالة وجهها الفقيه التونسي عبدالله بن غانم إلى إمام دار الهجرة بواسطة أحد العلماء المغاربة الذي قرأها في مجلسه، يخبره فيها بتوليه منصب القضاء بإفريقية(٦٤). وكان حاتم بن عثمان المعافري قد تولى شخصيًا نقل الرسائل من ابن غانم إلى الإمام مالك. وكان هذه الأخير يطلب من بعض أصحابه قراءة الرسائل، فيجيب على المسائل المعروضة عليه، وإذا رأى فيها ما يوجب التغيير والتعديل، أمر بدواة ليصحّح ما

يرغـــب في تصـــحيحه قبل أن يبعث إليه الجواب النهائي. وكان مراسلوا الإمام مالك يلتمسون منه وضع خاتم على رسائله باعتبار مسؤوليته أمام الأمة، بيد أنه لم يكن يختمها تحت ذريعة أن الخاتم لا يكون إلا لثلاثة أشخاص: تاجر أو قاض أو سلطان، لذلك كانت رسائله تصل إلى ابن غانم غير مختومة(٦٥).

وســاهم الاختلاف بين علماء الغرب الإسلامي في المجال القضائي في تعدد الرسائل المبعوثة من قبلهم إلى إمام دار الهجــرة، فقد ورد عند صاحب "رياض النفوس" أن عبدالله بن غانم اختلف مع عبدالله بن فروخ في مسألة ولاية القاضـــي من طرف أمير غير عادل، فكتب بذلك إلى الإمام مالك بالمدينة، وبعثها مع رسول، فلما قرأ مالك الرسالة انتصر لرأي عبدالله بن فروخ(٦٦).

فضـــلاً عـــن الرسائل، تجلت الصلات العلمية بين الإمام مالك وتلامذته من أهل الغرب الإسلامي في متابعته لأخـــبارهم أولاً بـــأول، كما هو الحال بالنسبة لسؤاله عن عبدالله بن غانم وما إذا كان قد تقلد منصب القضاء(٦٧). وبالمثل، كان يسأل العلماء المغاربة الوافدين على المدينة، ويطلب أجوبتهم حول بعض المسائل الدينية(٦٨). وكان يغتنم فرصـــة استقباله لبعضهم للسؤال عن أحوال تلامذته ببلاد المغرب حتى أنه كان يجلس مع عبدالله بن غانم في جلسات مطولة يسأله خلالها عن المغرب وأخباره(٦٩).

والجديـــر بالإشارة أن أصحاب مالك كانوا بدورهم يتبادلون الرسائل مع علماء الغرب الإسلامي، ففي ترجمة البهلول بن راشد، ورد أن عالمًا من علماء المدينة سأل أحد المغاربة الوافدين إليها حول هذا العالم التونسي، فلما تأكد من معرفته له، بعث معه رسالة تتضمن رغبة امرأة من أهل سمرقند بالتوبة على يديه(٧٠).

وعـــلى نفـــس النهج، كان عبدالله بن غانم يكاتب أحد فقهاء المدينة، وهو أبوعمر عثمان بن عيسى بن كنانة حول بعض الأحكام القضائية، فيسأل له هذا الأخير مالكًا عنها، ثم يرد عليه الجواب(٧١).

وبالمـــثل، كان الرسل والمبعوثون يتوافدون على المدينة بين الفينة والأخرى لحمل خطابات ورسائل موجهة من علماء تونس إلى إخوانهم في المدينة المنورة(٧٢).

٣ – استفتاء علماء بلاد المغرب الإمام مالك:

كـــان مجال اهتمام الإمام مالك بعلماء الغرب الإسلامي من بين المعالم البارزة في الصلات العلمية بين الحجاز وبلاد المغرب؛ وحسبنا أن كل مسألة تم فيها الاختلاف أو وقع فيها تعارض بين علماء بلاد المغرب، كانت ترفع إليه للحســـم فـــيها. وكـــثيرًا ما كانت تصله رسائل تعكس هذا الاختلاف في الأحكام، كذلك الذي وقع بين العالمين التونسيين عبدالله بن فروخ والبهلول بن راشد، والذي حسم فيه بالدعوة إلى الأخذ باليسر بشرط إقامة حدود الله(٧٣).

ومـــن جهته، استفتى أحد علماء صفاقس من البلاد التونسية الإمام مالك في زي العمامة(٧٤) التي يعتم بها بعض الـــناس دون أن يجعلوهـــا تحت الحلق، فأنكر مالك ذلك ثم سأله عن العمامة وما إذا كانت في الجاهلية، فأجابه بأنها

كانت في صدر الإسلام وأنه لاحظ أن العلماء المتحلقين في مجلس شيخه ربيعة الرأي كانوا كلهم متعممين[٧٥]. وفي نفس المنحى كان عبدالله بن غانم يوجه مسائله إلى الإمام مالك فيأخذ الإجابة من عند صاحبه ابن كنانة[٧٦]. ومن جملة ما استفتى فيه المغاربة الإمام مالك ما قيل عن وفد بربري حضر أحد المجالس العلمية للإمام مالك، فاستفتاه في مسألة الصلاة بالتاكمة وهي جمع الحشيش من الزرع والصلاة فوقه، فأفتاهم مالك بجوازها[٧٧]. كما استغل أحد علماء الأندلس وهو قرعوس بن العباس حضور أحد مجالس الإمام مالك ليستفتيه حول مدى شرعية ما يقوم به والده الذي ولي خطة السوق بالأندلس، حيث كان يشتد على أهل الريب والغش ويضربهم ضربًا موجعًا، فأفتاه مالك إن كان يفعل ذلك غضبًا لله فالمطلوب أن يكون ضربًا خفيفًا[٧٨].

وبعد وفاة مالك، استمر علماء البلاد المغربية في استفتاء أهل المدينة فيما عنّ لهم من مسائل فقهية معقدة[٧٩]، لذلك كانت أحكام أهل الحجاز تشكل مرجعية أساسية لهم[٨٠]. وفي هذا الصدد، يذكر المؤرخ ابن حيان أن الفقيه الأندلسي محمد بن يوسف بن مطروح كان كثير السؤال والاستفتاء لعلماء المدينة حتى أن مجموع أسئلته لهم بلغت ثمانية مجلدات عرفت بثمانية أبي زيد[٨١].

والجدير بالذكر أن بعض علماء الغرب الإسلامي ممن رحلوا إلى الحجاز ساهموا بدورهم في إصدار الفتاوى، وهو ما يعكسه نص المقري الذي أشار إلى أن الفقيه الأندلسي محمد بن عمر القرطبي (ت ٤١٧هـ) كان قد "جاور بالمدينة المنورة وأفتى بها"[٨٢]. وكان بعض الأندلسيين من الأصول الحجازية القرشية قد أفتوا بأنه لا يعرف ما إذا كانت أرض الأندلس قد فتحت عنوة أم صلحا، وأن بلاد الحجاز، فتحت عنوة وصلحا على قولين[٨٣]. كما استند فقهاء الأندلس في فتاواهم حول قبول جوائز السلاطين على رأي فقهاء الحجاز[٨٤].

٤ – إدخال كتاب الموطأ إلى بلاد المغرب ونشر فقه مالك وتفاسيره:

تتجلى الصلات الثقافية الحجازية -المغربية أيضًا في الجهود التي بذلها علماء الغرب الإسلامي لإدخال كتاب الموطأ إلى بلادهم، وإشاعة فقه مالك وتفاسيره. ويعتبر أبوعبدالله زياد بن عبدالرحمن القرطبي المعروف بشبطون (ت ٢٠٤هـ) أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس بعد سماعه المباشر من الإمام مالك[٨٥]. وبعد ذلك أقدم مجموعة من علماء الأندلس على تأليف تفاسير الموطأ مثلما فعل عبدالملك بن حبيب، بل إن هذا الأخير ألف كتاب "الواضحة" الذي يعتبر مختصرًا لكتاب الموطأ[٨٦]. أما في المغرب الأقصى فيذكر أن أبا الحسن علي بن زياد العبسي التونسي يعتبر أول من أدخل كتاب الموطأ للمغرب بعد رحلته نحو الحجاز، وهو الذي قام بتفسير آراء مالك التي لم تكن معروفة لدى المغاربة قبل ذلك[٨٧]. وشاع كتاب الموطأ في عهد الأمير الإدريسي إدريس الثاني، مما جعل آراء مالك تنتشر انتشارًا كبيرًا في أوساط المجتمع المغربي[٨٨]، فبالرغم من تشيع الأدارسة، لم يمانعوا في انتشار "الموطأ"، وهو أمر يفسر بتضمنه روايات روي فيها مالك عن عبدالله بن حسن والد الإمام إدريس الأكبر[٨٩].

٥ – الزيارات العلمية المتبادلة بين أهل المغرب والحجاز:

بتتبع الأدب البيوغرافي المغربي والأندلسي، يتضح أن تبادل الزيارات العلمية بين علماء بلاد المغرب والحجاز ظلت نغمة متواترة طيلة القرون الأربعة الهجرية الأولى، وتزخر النصوص بذكر الرحلات العلمية التي قام بها علماء الغرب الإسلامي أفراد وجماعات نحو مكة والمدينة وجدة وغيرها من حواضر الحجاز. ومن البديهي أن تكون كفة اتجاه الزيارات العلمية راجحة في اتجاه خط الرحلة من المغرب نحو الحجاز، نظرًا لما كانت تمثله هذه المنطقة من جاذبية دينية وثقافية، ومع ذلك لا نعدم إشارات حول الرحلة المعاكسة من الحجاز نحو بلاد المغرب.

وقد شملت هذه الزيارات المتبادلة في بعض الأحيان قدوم وفود برمتها، حيث أشار صاحب "رياض النفوس" في ترجمته للفقيه المغربي علي بن يونس بن عياض الليثي أنه كان حاضرًا في أحد مجالس الإمام مالك حين دخل عليهم وفد من البربر من أهالي المغرب الأقصى، فاستفتوه في بعض المسائل الدينية(٩٠)، ولا يهمنا في هذا المقام موضوع الفتوى بقدر ما يهمنا خبر زيارة هذا الوفد المغربي كمظهر من مظاهر الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب. وفي حالة ما إذا لم تكن الرحلة الجماعية تشمل وفدًا كثير العدد، فإنها كانت تضم على الأقل حسبما تفصح عنه بعض النصوص أربعة نفر(٩١)، أو عالمين أثنين(٩٢)، وغالبًا ما يكون سماعهم سماعًا واحدًا(٩٣).

وبالمثل رحل عدد من العلماء الأندلسيين نحو المدينة المنورة للقاء علمائها المالكيين إذ تشير النصوص إلى رحلة محمد بن يوسف بن مطروح الذي سمع بالمدينة من مطرف بن عبدالله(٩٤)، وعبدالرحمن بن إبراهيم بن عيسى الذي "أدرك ابن كنانة وابن الماجشون ومطرف بن عبدالله ونظرائهم من المدنيين"(٩٥).

ومن تونس رحل عون بن يوسف الخزاعي ليصل إلى المدينة المنورة سنة ١٨٠هـ ويلقي بها أربعين شيخًا(٩٦). وقد سمحت هذه الزيارات التي كان يقوم بها علماء المغرب للمدينة المنورة بالإطلاع على أوضاعها،وأحوال علمائها، وحسبنا أن الفقيه ابن اللباد من علماء إفريقية "كان عالمًا باختلاف أهل المدينة واجتماعهم"(٩٧).

وقد فضل بعض علماء الأندلس الإقامة في المدينة المنورة والمجاورة بها، وفي هذا الصدد ذكر المقري(٩٨) أن الفقيه الأندلسي محمد بن عمر القرطبي (ت ٤١٧هـ) "حج وجاور بالمدينة المنورة وأفتى بها". بل إن بعض العلماء الأندلسيين كانوا يستمرون في الإقامة بالمدينة المنورة حتى وفاتهم، وفي هذا السياق أورد الونشريسي نازلة ذات أبعاد ودلالات حول رحلة العلماء الأندلسيين إلى المدينة ووفاتهم بها(٩٩).

أما الرحلات العلمية نحو مكة، فقد كان علماء الغرب الإسلامي يغتنمون فرصة الحج للقاء علمائهم المالكيين، وهو ما تثبته النصوص البيوغرافية، فالبهلول بن راشد "سمع من حنظلة بن أبي سفيان بمكة"(١٠٠)، كما سمع أبوالحجاج رباح بن ثابت الأزدي من أبي ذئب ومجموعة من علماء مكة أيضًا(١٠١).

أما بخصوص الأندلسيين الذين رحلوا إلى مكة للسماع من شيوخها المالكيين، فإن ابن الفرضي قدم لائحة

للعلماء الأندلسيين الذين درسوا على علماء مكة، بلغ عددهم ١٥٨ عالمًا إلى حدود القرن ٤هـ، ومن بين هؤلاء من أطال الإقامة بمكة حيث بقي بها أحدهم مدة ١١ سنة[١٠٢]، في حين كان الأندلسيون المجاورون بها يمكثون مدة أطول قد تصل إلى مدى الحياة. وقد سعى هؤلاء إلى المزيد من التبحر في العلوم الشرعية على يد شيوخ مكة. وإذا اتخذنا معطيات كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي عينة للعلماء الأندلسيين المجاورين بالحرم المكي، أمكن الكشف عن الأهداف العلمية التي كانوا يرومونها من رحلاتهم "الطويلة"،وهو ما يمكن إعطاء الدليل عليه من خلال الجدول التالي:

الدلالات العلمية لرحلة العلماء الأندلسيين المجاورين بمكة حسب ابن الفرضي

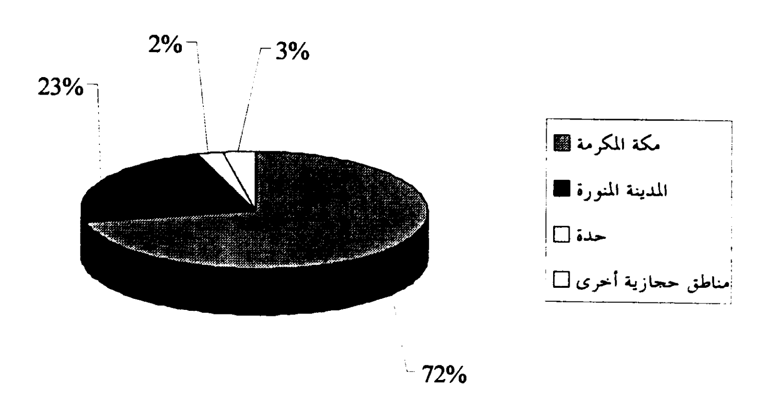
اسم العالم	سنة المجاورة بمكة	الصفحة	الدلالة العلمية للمجاورة بمكة
أحد بن موسى الأسود	٣١١هـ	٨٢	سمع بمكة من أبي الحسن الهمذاني وأبي الفضل الهروي
أصبغ بن علي بن حكيم	غير مذكورة	٩٦	جاور بمكة فسمع من أبي الحسن الهمذاني وأبي بكر الطوسي
بدر مولى ريدان الصقلبي	غير مذكورة	٩٦	جاور بمكة فسمع من أبي الحسن الهمذاني وابي بكر الطوسي
زمعة بن عثمان بن هشام	غير مذكورة	١٥٨	غير مذكورة
عبدالله بن عبدالسلام	ت بها ٣٠٨هـ	٢٢٠	جاور بمكة فلم يزل علىمنهج الأبدال
عبدالله بن سعيد بن رافع	غير مذكورة	٢٢٩	كتاب جمعه في الرواية عن مالك بن أنس
عبدالله بن سعيد الحجري	ت بها ٣٢٢هـ	٢٤٤	غير مذكورة
عبدالحميد بن محمد الزهيري	٣٤٨هـ	٢٩٠	كتب بمكة عن محمد بن الحسن الآجري وعن شيخ يعرف بالأصفهاني
علي بن موسى بن زياد اللخمي	٣٧٠هـ	٣١٤	سمع بمكة من أبي الحسن الهمذاني وجماعة من المكيين المجاورين بها
قاسم بن أحمد بن جحدر	٣٩١هـ	٣٦٠	جاور بمكة ورحل الناس إليه
أبو رجاء محمد حامد البغدادي	٣٣٧هـ	٣٦٠	سمع من أبي رجاء محمد حامد البغدادي وكان مجاورًا بمكة

أما رحلة علماء الأندلس نحو المناطق الحجازية الأخرى، فلم تتجاوز بالنسبة لمدينة جدة (٥) رحلات، في حين

توزعت (٧) رحلات أخرى على مختلف مناطق الحجاز الأخرى، مما يسمح برسم النسب المئوية عبر المبيان التالي:

نسبة استقبال المدن الحجازية للعلماء الأندلسيين

حسب معطيات "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي



وبخصوص الاتجاه المعاكس، أي رحلة العلماء الحجازيين نحو بلاد المغرب، فرغم ما يميز هذا الموضوع من المحدودية بسبب قلة النصوص، فإن لدينا أسماء بعض علماء الحجاز الذين ألقوا بعصا الترحال في بعض حواضر الغرب الإسلامي، أو شغلوا المناصب العليا بها مثل عامر بن محمد بن سعيد القيسي الذي عرف بالصلاح والورع، كان قد سمع مالكاً وروى عنه، ووفد على مدينة فاس سنة ١٨٩هـ في عهد الأمير المولى إدريس الأكبر [١٠٣]. كما وفد على نفس الأمير فقيه الحجاز عبدالله بن مالك الخزرجي الأنصاري الذي كان يلقب بالمالكي الأنصاري[١٠٤]. ونذكر أيضًا من علماء المدينة الذين وفدوا على تونس العالم عبدالعزيز بن يحيى المدني الهاشمي الذي قدم إليها سنة ٢٢٥هـ، وبقي بها سنة ليغادرها في العام الموالي[١٠٥].

واستقبلت الأندلس بدورها بعض الشخصيات العلمية الحجازية من أمثال الفقيه الفرج بن كنانة الذي حلّ بها في عهد أميرها عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٨هـ)، وكذلك إبراهيم بن العباس المرواني جد بني أبي صفوان القرشيين[١٠٦]، فضلاً عن أحمد بن الحسين من بني سعد الذي يقول عنه ابن الفرضي أنه "وصل إلى الأندلس حدثا"[١٠٧]. وقد شكل هؤلاء العلماء الحجازيون بداية تكوين عائلات حجازية استقرت في حواضر الغرب الإسلامي، واشتهرت بالعلم والفقه كما سنذكر في نتائج الصلات العلمية بين الحجاز وبلاد المغرب.

٦ – حلقات التدريس المالكية:

شكلت عملية التدريس شكلاً آخر من أشكال الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب، وحسبنا أن الرحلة العلمية كانت بغرض الإفادة والاستفادة العلميتين؛ وفي هذا الصدد ورد في ترجمة العالم الأندلسي أصبغ بن علي بن حكيم أنه بعد رحلته إلى الحج سنة ٣٨٤هـ أبى العودة إلى الأندلس، وفضل مجاورة الحرم المكي، وكان حريصًا على

حضور حلقات الدروس التي كان يعقدها علماء مكة المالكيون[١٠٨].

وكـــان الأندلســـيون الذين يحضرون هذه الحلقات الدراسية يدونون العلوم التي كانوا يتلقونها من أفواه علماء مكة، وهو ما تعكسه ترجمة العالم الأندلسي عبدالحميد بن محمد الزهيري التي ورد فيها: "وأقام مجاورًا وحج سنة تسع وأربعين (٣٤٩)، وكتب بمكة عن محمد بن الحسين الآجري وعن شيخ يعرف بالأصبهاني"[١٠٩].

وفي الوقت ذاته، ساهم بعض العلماء الأندلسيين في تنظيم حلقات دراسية كان يحضرها عدد من طلاب العلم، ونسوق في هذا الصدد نموذج الفقيه الأندلسي قاسم بن أحمد بن جحدر الذي كان يقصده طلبة العلم بفضل ما حازه مـــن شـــهر علمـــية، وهومـــا يعكسه قول ابن الفرضي عنه: "فجاور بمكة واستوطنها وعلا بها ذكره ورحل الناس إليه"[١١٠].

كانت هذه الحلقات الدراسية بمثابة تجمع علمي يلتقي فيها العلماء المغاربة بنظرائهم الحجازيين، فيحكتون فيما بيـــنهم ويتبادلون الأفكار، وكانت أهم العلوم التي تدرس تندرج في عداد العلوم الدينية، خاصة علم الأصول والكلام وعلم القراءات، فضلاً عن الفقه والحديث.

من حصيلة ما سبق، يتضح أن التفاعل الثقافي بين الحجاز وبلاد المغرب كان على أشده، وأن الرحلات العلمية المتـــبادلة بـــين العلماء المالكيين في المنطقتين شكلت قطب الرحى فيه، فما هي النتائج التي تمخضت عن هذا التفاعل الثقافي؟

ثالثًا: نتائج الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب:

مـــن البديهي أن يتمخض عن الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب نتائج بعيدة الغور، شملت مجموعة من الجوانب الحضارية المتأثرة بالمذهب المالكي.

١ – انجذاب الأندلس والمغرب نحو ثقافة الحجاز:

مـــنذ الفـــتح الإسلامي للأندلس، عرفت هذه الأخيرة هيمنة واضحة للثقافة الشامية، وهو أمر يعزى إلى كون فـــتحها قـــد تم في عصر الأمويين، فأصبح التأثير الشامي واضح البصمات في كل مرافق الحياة الاجتماعية والسياسية والإدارية، خاصة بعد دخول عبدالرحمن بن معاوية إليها سنة ١٣٨هـــ[١١١].

بيد أنها بدأت تنفلت من تأثير الثقافة الشامية لتنحو نحو الثقافة الحجازية بعد رحلة علماء الأندلس نحو الحجاز والتقائهم بالإمام مالك، خاصة إذا علمنا أن هذا الأخير كان قد أبدى موقفًا مؤيدًا للأمويين ضد العباسيين، مما جعل الأندلســـيين يولـــون وجههـــم شطر المدينة، حتى غدا التيار الحجازي مهيمنًا في الأندلس خلال عهد الأمير الأموي الأندلسي هشام الرضا (١٧٢- ١٨٠هـــ).

وقد انعكس اكتساح الثقافة الحجازية للأندلس على حساب الثقافة الشامية من خلال تراجع مذهب الأوزاعي وضموره ، مقابل زحف المذهب المالكي وانتشاره في كل أوجه الثقافة الأندلسية، وآية ذلك أن الأندلسيين كانوا في بادئ الأمر على مذهب الإمام الأوزاعي، لكن مع تنامي رحلة علمائهم نحو المدينة وتتلمذهم على يد مالك بن أنس، غدا التحول المذهبي بارز المعالم، إذ أخذ مذهب الأوزاعي يضمحل مقابل اكتساح المذهب المالكي، يقول المقري[١١٢] راصدًا ظاهرة التحول المذهبي بالأندلس وهو بصدد الحديث عن الفقيه الأندلسي شبطون "كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس، وكان [وكانوا؟] قبله يتفقهون على مذهب الأوزاعي". ويقول في موضع آخر وهو بصدد رصد نتائج رحلات العلماء الأندلسيين إلى المدينة: "فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته، فانتشر يومئذ رأية وعلمه بالأندلس"[١١٣]. وفي عهد الأمير الحكم بن هشام (ت ٢٠٦هـ)، صار المذهب المالكي مذهب أهل الأندلس والمغرب دون منازع[١١٤]، وذلك في حياة مالك نفسه[١١٥]، حتى أن تمسك أحد الفقهاء بالمذهب الأوزاعي اعتبر استثناء[١١٦]، بل إن بعض الأوزاعيين تحولوا بعد رحلتهم إلى المدينة إلى مالكيين، وهو ما يفهم من الترجمة التي خص بها ابن الفرضي الفقيه الأندلسي عبدالملك بن الحسن حين قال عنه: "وكان يذهب أولا مذهب أبي عمرو الأوزاعي، ثم رجع إلى مذهب المدنيين"[١١٧].

ولم يكن المغرب الأقصى وإفريقية بمعزل عن هذا التحول نحو الثقافة الحجازية وسيادة المذهب المالكي بهما، ذلك أن رحلة العلماء المغاربة أسفر عنها الانسلاخ عن المذهب الكوفي، والتوجه كليًا نحو المذهب المالكي؛ فيقول ابن القاضي متتبعًا ظاهرة التحول هاته وهو بصدد الحديث عن درّاس بن إسماعيل (ت ٣٥٧هـ): "رحل فحج ولقي علي ابن أبي مطر بالإسكندرية، وهو ممن أدخل مذهب مالك المغرب، فإنه كان الغالب على المغرب في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد التونسي وابن أشرس والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات وغيرهم من الحفاظ بمذهب مالك، فأخذه كثير من الناس فلم يزل ينتشر ويظهر"[١١٨].

من حصاد هذه النصوص يتضح أن الثقافة الحجازية أصبحت لها السيادة في بلاد المغرب، وقد تجسدت في انتشار المذهب المالكي بفضل الرحلات العلمية التي قام بها علماء بلاد المغرب نحو الحجاز.

٢ – تكوين أطر مغربية مالكية:

تمخض عن رحلة المغاربة إلى الحجاز وتتلمذهم على يد مالك بن أنس تكوين نخبة من الأطر المالكية المغربية التي سيكون لها دور كبير في نشر المذهب المالكي بالغرب الإسلامي والدفاع عنه عبر المؤلفات ونشر العلوم المالكية؛ ولا غرو فقد لمعت كوكبة من علماء البلاد المغربية الذين عادوا من المدينة أو من مكة وغيرها من مدن الحجاز بعد أن ضربوا بسهم وافر في العلوم، نذكر من بينهم عبدالرحمن بن زياد اللخمي الملقب بشبطون الذي كان ينعت لكثرة علمه وتتلمذه على مالك بن أنس "بفقيه الأندلس"[١١٩]، ويحي بن يحي الليثي الذي أصبح بعد رحلته الحجازية لا

يشق لـــه غبار في ميدان الحديث حتى وصف بأنه أمام وقته[١٢٠]، فضلاً عن عبدالملك بن حبيب الذي عاد من الحجاز إلى الأندلس "وقد جمع علمًا عظيمًا"[١٢١]، وقد لخّص ابن لبابة شهرة هذه النخبة من الأطر المالكية الأندلسية بقولـــه: "عبدالملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها وعيسى بن دينار فقيهها"[١٢٢]. الجدير بالذكر أن هذه الأطر أصـــبحت بعد عودتها من الحجاز موسوعية الثقافة، ونسوق في هذا الصدد نموذج الفقيه محمد بن إسحاق ابن منذر الأندلســـي الذي عاد من رحلته إلى مكة والمدينة المنورة حوالي سنة ٣٥٦هـــ "حافظًا للفقه، بصيرًا بالاختلاف، عالمًا بالحديث، ضابطًا لما رواه، متصرفا في علم النحو واللغة، حسن الخطابة والبلاغة"[١٢٣].

أمـــا بخصـــوص الأطـــر المالكية التونسية والمغربية فيكفي أن نذكر بشهادة الإمام مالك بعلو كعبهم في المجال الفقهـــي، ولا غرو فقد وصف عبدالله بن فروخ بفقيه المغرب، وعبدالله بن غانم بقاضي البلد والبهلول بن راشد بعابد البلد[١٢٤].

ومما يعكس طول باع هذه الأطر المالكية أن بعضهم كان يحفظ المدونة عن ظهر قلب[١٢٥]، فعبدالملك بن حبيب كـــان "حافظًـــا للفقه على مذهب المدنيين نبيلاً فيه"[١٢٦]. ورغم ضياع كتب أحد علماء الأندلس ممن التقوا بالإمام مالك، وهي الكتب التي حملها معه من الحجاز، فقد بقي حافظًا لمتونها وكأنها لم تضع منه[١٢٧].

والجدير بالإشارة أن هؤلاء العلماء ساهموا في نشر علوم الحجاز بالحواضر المغربية كفاس[١٢٨]. وقد انتشر علم الحديـــث والفقـــه على الخصوص، وأصبح المغاربة يعتنون بهما عناية فائقة بزت ما عداها من العلوم، وغصّت مدن الغرب الإسلامي مثل القيروان وفاس وقرطبة بالفقهاء والمحدثين[١٢٩].

وجـــندت هذه الأطر المالكية نفسها للدفاع عن المذهب المالكي، ونسوق في هذا الصدد مثال عبدالله بن أحمد ابـــن طالب من علماء تونس الذي كان "شديدًا في الدفاع عن مذهب مالك"[١٣٠]، ويوسف بن يحيى من أهل قرطبة الـــذي "كـــان عالمًـــا بالنسب على مذاهب الحجازيين"[١٣١]. كما تجند البعض للرد على المذاهب الأخرى ودحض حُججهـــا، وحســـبنا أن يحيى بن عمر ألف كتابًا في الرد على الشافعي وهو من معاصريه، وكتابًا آخر في الرد على المرجئة والشكوكية[١٣٢].

إلى جانـــب ذلـــك، أصبح علماء البلاد المغربية بعد عودتهم من الحجاز مراجع علمية هامة في مجال التدريس، ونجحوا في تخريج أجيال من العلماء المالكيين، فمحمد بن معاوية الذي أخذ العلم على شيوخ مكة رجع إلى الأندلس "فكـــثر أخـــذ الـــناس عنه"[١٣٣]؛ أما محمد بن أحمد الأندلسي الذي جاور بمكة حوالي سنة ٣٣٦هـــ، فقد عاد إلى الأندلس سنة ٣٤٥هـــ و "سمع منه الناس كثيرًا"[١٣٤]، بينما تفقه على يد الفقيه يحيى بن يحيى الليثي تلميذ مالك عدد لا يحصى، "وروى عنه كثير من الخلق"[١٣٥]، بل إن بعض العلماء كلفت بمهام تدريس البيت الحاكم في الأندلس كما هـــو الحـــال بالنســـبة لمحمد بن يحيى بن عبدالسلام الذي "أدب عند الملوك واستأدبه أمير المؤمنين الناصر ﷺ لابنه

المغيرة"[١٣٦]، وعمل بعضهم على حمل كتب علماء مكة، خاصة كتب الآجري[١٣٧].

يضـاف إلى ذلـك أن هؤلاء العلماء لعبوا دورًا أساسيًا في نشر الثقافة الحجازية والمذهب المالكي من خلال الكتـب والمصـنفات التي ألفوها، ولا غرو فقد ألف عبدالملك بن حبيب كتاب "الواضحة" التي هي إحدى الشروح المشهورة على "موطأ" مالك. وهو الكتاب الذي عدّه ابن حزم[١٣٨] من مفاخر أهل الأندلس في مجال التصنيف الفقهي المـالكي. كما خرّج أحد العلماء الأندلسيين الراحلين إلى الحجاز من حديث الأئمة حديث مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج[١٣٩]. أما عبدالرحمن بن إبراهيم فقد ألف ثمانية كتب تشمل مجموعة أسئلة كان قد طرحها على علماء المدينة، وتعـرف بثمانـية أبي زيـد[١٤٠]. في حـين عمـل محمـد بـن عبدالسـلام الـذي رحل إلى مكة حوالي سنة ٢٤٠هـ وسمع من شيوخها على إدخال كثير من حديث الأئمة واللغة والشعر الجاهلي للأندلـس[١٤١]. وبدورهـم أسـهم شيوخ إفريقية في نشر علوم الحجاز خاصة الفقه، وفي هذا الاتجاه ألف البهلول بن رشاد ديوانًا في الفقه غلب علـيه مذهب مالك[١٤٢]. بيد أن أهم نموذج في التأليف المالكي يتمثل في كتاب "الأسدية" الذي ألفه أسد بن الفرات في سـتين مجلـدًا تشمل أجوبة عبدالرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك[١٤٣]، وقد اعتبره أحد الباحثين "باكورة ثمار المدرسة المالكية المغربية في التأليف الفقهي"[١٤٤].

٤ – استيطان عائلات العلماء الحجازيين ببلاد المغرب:

تمخـض عن الصلات الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب هجرة عدد من البيوتات العلمية الحجازية واستقرارها النهائي في بعض الحواضر المغربية كفاس وتونس وقرطبة. ففي كتاب "بيوتات فاس الكبرى"، يعرض مؤلفه ابن الأحمر لعدد من العائلات التي اشتهرت بالعلم، من بينها عائلات من أصول حجازية مثل بيت بني عشرين الذي يرجع نسبه إلى قبـيلة الخـزرج التي ناصرت الرسول ﷺ بالمدينة؛ وقد هاجرت هذه العائلة التي تتميز بالشرف والعلم من المدينة المـنورة نحو فاس، ووصفها ابن الأحمر بأنها "بيت علم وتحصين وأصالة"[١٤٥]. ومن البيوتات الحجازية التي استوطنت فاس أيضًا بيت بني حزب الله من الخزرجيين، وهم "بيت أصالة وعلم"[١٤٦]، وكذلك بيت بني فرقاجة من الخزرجيين سكان المدينة، وهم "بيت فقه وثروة"[١٤٧]، وبيت بني رضوان الذي سمي كذلك نسبة إلى جدهم رضوان ابن يوسف بـن رضـوان الخـزرجي الأنصاري[١٤٨]، وبيت بني عتيق العبدريين الذين ينحدرون من قبيلة بني عبدالدار القرشية، واستقروا في فاس فصاروا بها "بيت علم وثروة وحسب"[١٤٩]. ويمكن أن نسرد أيضًا بني حدور الخزرجيين الذين يقال أن جدهم كان فقيهًا عالمًا، وفد على مدينة فاس في عهد الأمير الإدريسي المولى إدريس الثاني (١٧٨– ٢١٦)، وكان إمامًا بالنيابة في جامع القرويين[١٥٠]، وهو الذي كتب عقد شراء المولى إدريس الأول موضع عدوة الأندلس بفاس من قبيلة بني يزغتن[١٥١].

أمـا في الأندلس فيتحدث ابن الفرضي عن علماء أندلسيين من أصلاب حجازية كذلك، مثل محمد بن مروان القرشي الذي كان أبوه مولى لرجل من الأنصار[١٥٢]، وقد أفلح هؤلاء العلماء الحجازيون في تولي المناصب الكبرى في

الأندلـــس خاصـــة في مجال القضاء والوزارة، حيث نجد عددًا ممن ينسبون إلى القرشيين يتولون هذه المناصب في عهد الأمير الأندلسي عبدالرحمن بن الحكم[١٥٣]. ولعلّ كثرة العائلات القرشية بالأندلس ما حدا بأحد أمرائها إلى تخصيص ديوان لعطاءات قريش[١٥٤]. ومن المحتمل أن تكون مقبرة قريش في الأندلس تعبيرًا عن كثرة الأسر الحجازية بها[١٥٥].

٥ – استقرار علماء الغرب الإسلامي بأرض الحجاز:

على غرار علماء الحجاز الذين استقروا ببلاد المغرب، يبدوا أن بعض علماء الغرب الإسلامي، استطابـــوا المقام في أرض الحجـــاز أيضًـــا. فمـــنهم من بقي بها مدة قبل أوبتهم لأقطارهم، ومنهم من استوطنها إلى أن لفظ أنفاسه الأخـــيرة. وفي هذا المعنى، أورد ابن الفرضي في ترجمة أحد فقهاء الأندلس أنه توفي ببيداء من أرض الحجاز بعد سنة ٣٧٠هـــ[١٥٦]، بينما توفي عالم آخر بعد خروجه من المدينة المنورة بموضع يقال له السويداء[١٥٧]، في حين توفي ثالث حوالي سنة ٣٤٠هـــ بقرية حجازية تعرف بالظباء[١٥٨].

وفيما يخص مكة، ثمة نصوص تشير إلى استقرار عدد من العلماء المغاربة بها، بل إن بعضهم آثروا مجاورة الحرم المكـــي والبقاء به إلى أن التحقوا بالرفيق الأعلى[١٥٩]؛ لعلّ استقرار بعض العلماء المغاربة بمكة أو ببلاد الحجاز عمومًا، وعدم عودتهم للمغرب، ما يفسر ورود نوازل مغربية يدور موضوعها حول الورثة "الغائبين بمكة"، أو "المدعى عليه في الحجاز"[١٦٠]. ويقدم ابن بشكوال معلومات حول المدة الزمنية التي كان يمكث فيها بعض العلماء الأندلسيين المجاورين بمكة، والتي يمكن صياغتها عبر الجدول التالي:

اسم العالم الأندلسي	سنوات مجاورته بمكة	مجموع المدة الزمنية	الجزء والصفحة
رزين بن معاوية العبدري	من بداية المجاورة حتى سنة وفاته ٥٢٤هـــ	–	٢٩٦/١ -٢٩٧
أحمد بن عمر بن أنس العذري	من ٤٠٨هـــ إلى ٤١٦هـــ	٩ سنوات	١١٥/١ -١١٧
عمر بن أنس بن دلهاث	من ٤٠٨هـــ إلى ٤١٦هـــ	٩ سنوات	نفس المصدر والصفحة
إسماعيل بن محمد بن خزرج	من ٤١٠هـــ إلى ٤١٢هـــ	٣ سنوات	١٧٠/١ -١٧١
سعدون بن محمد بن أيوب الزهري	من ٤٠٠ إلى وفاته سنة ٤٣٥هـــ	٣٦ سنة	٣٥٩/١
محمد بن وليد بن عقيل	جاور إلى أن توفي سنة ٤٥٢هـــ	–	٧٨٨/٣
محمد بن يحيى الفرضي	جاور إلى سنة وفاته ٤٥٠هـــ	–	٧٩٣/٣ -٧٩٤
محمد بن عبدالله المالكي	جاور وأقام في مكة	–	٨٩٣/٣
محمد بن أحمد القيسي	من ٤٢٨هـــ إلى ٤٣٤هـــ	٧ سنين	٧٨٩/٣

وعلى غرار مكة، استقطبت المدينة المنورة أيضًا عددًا من علماء الغرب الإسلامي الذين سكنوا فيها، ومن بينهم سعيد بن خلف من أهل القيروان الذي "سكن المدينة ... وكان يتخلق إليه ويعظ الناس"[١٦١]، وعبدالرحمن ابن دينار الذي كان له عدة رحلات نحو المدينة المنورة، فضل في إحداها الاستقرار فيها نهائيًا[١٦٢].

٦ – تأسيس مدرسة مغربية– مالكية على الطراز الحجازي:

إن إعجاب العلماء المغاربة بالإمام مالك وتشبثهم بالمذهب المالكي، جعل المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي تحـذو مدرسـة الحجـاز حـذو النعل بالنعل، حتى أن هذا التقليد كان من المآخذ التي أخذها ابن حزم على علماء الأندلـس[١٦٣]، فباستثناء المسائل الأربع التي خالف فيها أهل المغرب أهل الحجاز[١٦٤] اتخذت المدرسة المالكية المغربية آراء عـلماء الحجـاز مرجعيتهم الأساسية وقدوتهم المثالية[١٦٥]. لقد بدأ تأثر علماء البلاد المغربية بالمدرسة الحجازية، وأخذهم بقياس عمل أهل المدينة يتضح حين سار عبدالملك بن حبيب على نهج الإمام مالك في تحريم الغناء[١٦٦]، وفي تحـريم بعـض الأزيـاء على أهل الذمة[١٦٧]. كما استند أحد فقهاء الأندلس على رأي أهل الحجاز في قبول جوائز السـلاطين[١٦٨]. وفي نفس المنحى قاس أحد علماء مراكش شعير المغرب على شعير أهل الحجاز في الزكاة، وقد أثر عنه قوله: "الشعير الذي مع القمح جنس واحد، إنما هو ما قارب القمح في الدقيق كشعير الحجاز"[١٦٩]. وبالمثل أفتى أحـد العـلماء المغاربة بعدم هدم أحد المساجد قياسًا على مسجد المدينة[١٧٠]. وتشير كتب النوازل المغربية إلى "المد النـبوي المجلوب من المدينة إلى الأندلس"[١٧١] كدلالة على التقليد الأندلسي لمدرسة الحجاز. ولعلّ أبرز صورة تعكس تقليد علماء البلاد المغربية للطراز الحجازي حتى في الحياة اليومية ما ذكره صاحب "رياض النفوس" عن الفقيه التونسي سـحنون (ت ٢٤٠هـ) بأنه "تأدب بأدب أهل المدينة حتى في العيش"[١٧٢]. كما انعكس التأثير الحجازي في ذهنية المغاربة بأن صاروا يقسمون "بالمشي إلى مكة"[١٧٣]، وهو أمر يحمل مغزى عميقًا عن الهالة التي كانت تحتلها مكة في مخيال المغاربة.

ومـن الـبديهي أن يتمخض عن هذا التقليد المغربي للثقافة الحجازية ظهور مدرسة مغربية – حجازية موحدة يشكل المذهب المالكي قاسمها المشترك، وتتميز بوحدة الرؤى والأفكار والأهداف المشتركة.

والخلاصـة العامة أن الصلاة الثقافية بين الحجاز وبلاد المغرب شكلت خيطًا من خيوط الروابط الحضارية بين البلدين، ويعزى الفضل في ذلك إلى المذهب المالكي الذي أفلح في تمتين عرى تلك الصلات، وخلق أشكال متعددة من التـبادل الـثقافي تنوعت بين الرحلات العلمية، وتبادل الكتب والمصنفات، وتتلمذ قطاع عريض من علماء الغرب الإسـلامي على يد الإمام مالك، ناهيك عن تبادل الرسائل والاستشارة في الأمور القضائية والفتاوى، مما تمخض عنه تأثر ثقافة الغرب الإسلامي بلون بالثقافة الحجازية.

التعليقات

(١) نقصد ببلاد المغرب ما يعرف حاليًا بالمغرب العربي مضافًا إليه بلاد الأندلس.

(٢) السيد محمد أبوالعزم داود، *الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين* (طبعة مكة: المكتبة الفيصلية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٢٥.

(٣) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، ط٢ (تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م)، ٦٨.

(٤) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٦٩- ٧٠.

(٥) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٦٩- ٧٠.

(٦) حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*، ط٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م)، ١: ٣٢٩.

(٧) ابن خلدون، *المقدمة*، ط٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ٤٤٩.

(٨) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس* (الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ١: ١٣، ٢٠، ٢٨، ٣١، ٨٢، ٢٩١.

(٩) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٢٣.

(١٠) القاضي عياض، *كتاب الغنية*، تحقيق: ماهر زهير جرار، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م)، ١٥٣.

(١١) ابن عطية، *فهرست ابن عطية*، تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، ٧١، ٧٥، ٩١، ٩٣؛ ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ١٨٩، ١٩٤.

(١٢) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١٣، ٢٠، ٨٢، ١٣١، ٢٩١.

(١٣) انظر نماذج عنهم عند ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٥٩.

(١٤) محمد العمراني، "*البيئة وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي*"، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٤٥، ١٩٨٥، ١٨-١٩.

(١٥) عمر الجيدي، *محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي* (البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٧م)، ٢٩- ٣٠.

(٢٠) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ٢٢٨.

(٢١) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ١٨٠.

(٢٢) ابن العرب، *طبقات علماء أفريقية وتونس*، ١٧١.

(٢٣) المالكي، *رياض*، ٢٨٦.

(٢٤) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ١٨٠؛ المالكي، *رياض*، ١: ١٧٥.

(٢٥) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١١٨.

(٢٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١٥٩.

(٢٧) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢٥٧.

(٢٨) المالكي، *رياض*، ٢٠٠-٢٢؛ أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٢٦.

(٢٩) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ١٧٥.

(٣٠) المالكي، *رياض*، ٢١٦؛ ومما جاء في هذا النص: "وبعض ما يتصل بنا عنه في الإسناد عن داود بن يحيى عن عبدالله بن عمر بن غانم... حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن عبدالله بن عمر قال رسول الله ﷺ، من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار".

(٣١) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٠٧.

(٣٢) المالكي، *رياض*، ٢٥٥؛ ابن الأبار، *كتاب الحلة السيراء*، تحقيق: حسين مؤنس (القاهرة: ١٩٦٣م)، ٢: ٣٨١.

(٣٣) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٠٧.

(٣٤) المالكي، *رياض*، ٢٣١.

(٣٥) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٢٢٠؛ المالكي، *رياض*، ٢٣٤.

(٣٦) المالكي، *رياض*، ٢٣٩.

(٣٧) المقري: *نفح الطيب*، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٦م)، ٢: ٢٥٥- ٢٥٦.

(٣٨) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١١٦.

(٣٩) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١٩٩.

(٤٠) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١١٨.

(٤١) الحميدي، *جذوة المقتبس*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢ (القاهرة- بيروت: دار الكتاب ودار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ٢: ٢٠٩- ٢١٠.

(٤٢) نور الدين عنتر، *تقديم الرحلة للبغدادي*، ٢٦- ٢٧.

(٤٣) ابن حيان، *المقتبس من أنباء أهل الأندلس*، تحقيق: محمود على مكي (القاهرة: ١٩٧١م)، ٢١٨.

(٤٤) القاضي عياض، *المدارك*، تحقيق: سعيد أحمد أغراب (فضالة- المحمدية، ١٩٨١م)، ٦: ٨١؛ ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١٤٦.

(٤٥) ابن القاضي، *جذوة الاقتباس* (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٣م)، ق١، ١٩٢.

(٤٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ١٥٠.

(٤٧) كنون، *النبوغ المغربي في الأدب العربي*، ط٣ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥م)، ١: ٥١.

(٤٨) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١٥٩.

(٤٩) المالكي، *رياض*، ١: ٢٨٦.

(٥٠) أبوالعرب، *طبقات*، ٢٥٤.

(٥١) المالكي، *رياض*، ٢٨٤- ٢٨٥؛ أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٧٠.

(٥٢) المصدر نفسه، ٢٨١.

(٥٣) المصدر نفسه، ٢٨٢.

(٥٤) المصدر نفسه، ٢٩٢- ٢٩٣.

(٥٥) المصدر نفسه، ٢٩٢.

(٥٦) المصدر نفسه، ٢٥٦.

(٥٧) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ١٨٠.

(٥٨) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ٤٣.

(٥٩) المالكي، *رياض*، ١: ١٧٩؛ الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*،١٨٠.

(٦٠) المصدر نفسه، ٢٥٧.

(٦١) المصدر نفسه، ٢٩١.

(٦٢) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٠٧.

(٦٣) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*،١١٠؛ المالكي، *رياض*، ١: ١٧٧.

(٦٤) المالكي، *رياض*، ١: ٢٨٥؛ أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٢٣٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ٢٣٢- ٢٣٣.

(٦٦) المصدر نفسه، ١: ١٧٨- ١٧٩.

(٦٧) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٧١.

(٦٨) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٧١١٠٩.

(٦٩) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ٢٢٨.

(٧٠) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٣٠- ١٣١.

(٧١) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٧١١١٦.

(٧٢) المالكي، *رياض*، ١٧٨.

(٧٣) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ٢٢٠، ١٨٠.

(٧٤) ينظر في تاريخ العمامة أبوبكر عبدالكافي: "العمامة، تاريخها وتقاليد لباسها عند العرب" مجلة الفكر، مج٢٥، ١٢٢٢- ١٢٢٨.

(٧٥) المالكي، *رياض*، ١: ٢٤٧.

(٧٦) أبوالحسن بن عبدالله، النباهي المالقي، *المرقبة العليا*، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي (بيروت: منشورات دار الأفاق الجديدة، ١٩٨١م)، ٢٥.

(٧٧) المالكي، *رياض*، ٢٩٢.

(٧٨) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٣٧٢.

(٧٩) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٢١٣- ٢١٤.

(٨٠) الونشريسي، *المعيار المعرب*، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٠م)، ٧: ٥١١.

(٨١) ابن حيان، *المقتبس*، ١٨٣؛ ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٥٩.

(٨٢) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٢٧٠.

(٨٣) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٧: ٥١١.

(٨٤) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١١: ١٨١.

(٨٥) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٢٥٥- ٢٥٦.

(٨٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٧٠.

(٨٧) المالكي، *رياض*، ١: ٢٣٤.

(٨٨) عمر الجيدي، *محاضرات في تاريخ المذهب المالكي*، ١٦٠.

(٨٩) السيد محمد أبوالعزم داود، *الأثر السياسي والحضاري*، ١٦٦.

(٩٠) المالكي، *رياض*، ٢٩٢.

(٩١) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٣٦: ٢: ٦١- ٩٣.

(٩٢) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٣٦٠.

(٩٣) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ١٧١.

(٩٤) ابن حيان، *المقتبس*، ١٨٣؛ ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٩.

(٩٥) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٥٩.

(٩٦) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٨٨- ٢٣٠؛ الدباغ، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*، تحقيق: إبراهيم شبوح (طبعة مصر: ١٩٧٨م)، ٢: ١٤٦.

(٩٧) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٢٥٢.

(٩٨) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٢٧٠.

(٩٩) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١٠: ٤٠٦.

(١٠٠) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٢٧.

(١٠١) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ١٥٦.

(١٠٢) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٢١.

(١٠٣) ابن القاضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ق١، ٢٧.

(١٠٤) ابن أبي زرع، *روض القرطاس*، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور (الرباط: دار المنصور للطباعة، ١٩٧٣م)، ١٥.

(١٠٥) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٧٨.

(١٠٦) ابن حيان، *المقتبس*، ١٧٩.

(١٠٧) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٦٢.

(١٠٨) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٨٢- ١٠٠.

(١٠٩) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢٩٠.

(١١٠) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٣٦٠.

(١١١) أحمد أبوالفضل، "*التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس على عهد الأمير عبدالرحمن الداخل*"، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٦، ١٩٨٨م، ٢٢١- ٢٣١.

(١١٢) المقري، *نفخ الطيب*، ٢: ٤٥.

(١١٣) المقري، *نفخ الطيب*، ٢: ٤٦؛ انظر أيضًا: الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٦: ٣٥٦.

(١١٤) عبدالرحمن الحجي، *التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة* (دمشق- بيروت: دار القلم، الكويت- الرياض: دار الفكر، ١٩٧٦م)، ٢٨٢.

(١١٥) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٦: ٣٥٦.

(١١٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١٥٣.

(١١٧) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٦٩؛ ابن حيان، *المقتبس*، ٢١٧.

(١١٨) ابن القاضي، *جذوة الاقتباس*، ق١، ١٩٤.

(١١٩) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٤٥.

(١٢٠) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ١٨٠.

(١٢١) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٧٠.

(١٢٢) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٧١.

(١٢٣) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ٧٧.

(١٢٤) الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية*، ١٨٠.

(١٢٥) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٢٤٨.

(١٢٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢٧٠.

(١٢٧) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢٥٨.

(١٢٨) ابن القاضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ق١، ١٧٤.

(١٢٩) السيد محمد أبوالعزم داود، *الأثر السياسي والحضاري*، ٢٩٤.

(١٣٠) أبوالعرب، *طبقات علماء إفريقية وتونس*، ٢٤٠.

(١٣١) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ٢٠١.

(١٣٢) القاضي عياض، *المدارك*، ٢: ٢٣٦.

(١٣٣) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ٦٨.

(١٣٤) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٩٢- ١١٢.

(١٣٥) الحميدي، *جذوة المقتبس*، ٢: ٢٠٩- ٢١٠.

(١٣٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ٧٨، ٦٩.

(١٣٧) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٨١.

(١٣٨) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، *رسائل ابن حزم*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م)، ٢: ١٨١.

(١٣٩) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١٣٧.

(١٤٠) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢٥٩.

(١٤١) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ١٥.

(١٤٢) المالكي، *رياض*، ٢٠١.

(١٤٣) المالكي، *رياض*، ٢٦١.

(١٤٤) السيد محمد أبوالعزم داود، *الأثر السياسي والحضاري*، ٢٩٤.

(١٤٥) *بيوتات فاس الكبرى*، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١م)، ١٢.

(١٤٦) *بيوتات فاس الكبرى*، ١٢.

(١٤٧) *بيوتات فاس الكبرى*، ٣٨.

(١٤٨) *بيوتات فاس الكبرى*، ٧٠.

(١٤٩) *بيوتات فاس الكبرى*، ٥٢.

(١٥٠) *بيوتات فاس الكبرى*، ٥١.

(١٥١) ابن القاضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ق١، ٣٠.

(١٥٢) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ٣٦- ٣٧.

(١٥٣) انظر ابن حيان، *المقتبس*، ١٦٨- ١٧٩- ١٩٤.

(١٥٤) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١٢١.

(١٥٥) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١٧، ٥٨؛ ابن حيان، *المقتبس في أخبار بلد الأندلس*، تحقيق: عبدالرحمن الحجي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣م)، ٢٢٩.

(١٥٦) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ٣١٥.

(١٥٧) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٣٤٢.

(١٥٨) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢: ٥٩؛ والبيداء أرض ملساء بين مكة والمدينة، أما السويداء فهي موضع على ليلتين من المدينة المنورة، في حين أن الظباء بضم الظاء يقصد به واد بتهامة، انظر على التوالي: ياقوت الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ١: ٥٢٣، ٣: ٢٨٦، ٤: ٥٧.

(١٥٩) المصدر نفسه، ١: ٣٧- ٢١٥- ٢٢٠- ٣٦٠.

(١٦٠) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١٠: ١٢١- ٤١٨.

(١٦١) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ١: ١٧٧.

(١٦٢) ابن الفرضي، *تاريخ علماء الأندلس*، ٢٥٧.

(١٦٣) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٦: ٣٥٦.

(١٦٤) النباهي، *المرقبة العليا*، ٥١.

(١٦٥) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٧: ٥١١، ٩: ٣٤٠.

(١٦٦) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١١: ٧٦.

(١٦٧) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٢: ٢٥٥.

(١٦٨) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١١: ١٨١.

(١٦٩) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١: ٣٦٤.

(١٧٠) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٧: ٢١٨- ٢١٩.

(١٧١) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ١: ٣٩٩.

(١٧٢) المالكي، *رياض النفوس*، ١: ٣٦٤.

(١٧٣) الونشريسي، *المعيار المغرب*، ٢: ٨٣- ٨٩؛ النباهي، *المرقبة العليا*، ١٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

التيارات السياسية والفكرية في اليمن من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع
أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته
كلية الآداب – قسم التاريخ
جامعة صنعاء

المجتمع الإسلامي كالجسم البشري، فهو مجتمع عضوي، وأي جزء منه أصابه شيء تأثرت بقية أجزائه.. ورغم أن اليمن في القرون الأربعة الهجرية الأولى –بصفته جزءاً من نسيج المجتمع الإسلامي- يعد بعيدًا عن عاصمة الدولة الإسلامية إلاّ أنه من خلال رصد الواقع نجده قد أصابه ما أصاب بقية أجزاء المجتمع.

فقد كان القرن الأول الهجري قرن التوحد في مصدر التلقي للمجتمع المسلم، فالمرجعية واحدة، وجهة التلقي واحدة هي جهة القرآن والسنة... ولما حدث التمدد الجغرافي بالفتوحات الإسلامية حصل تمدد بشري وثقافي معرفي وسلوكي فظهرت مصادر أخرى تزاحم المصدرين الوحيدين (القرآن والسنة)، سواء أُريد لهذه المصادر أن تكون مزاحمة لثوابت المجتمع، أو أنها تسربت بصورة تلقائية فصار لها ردود أفعال منها مزاحمة مرجعية الأمة.

وقد بدأ القرن الثاني الهجري يحمل في رحمه مجموعة من الأفكار الغريبة على الحس المستمد من القرآن والسنة.. حيث استقبل هذا القرن ألوانًا من الأفكار أوجدت تيارات فكرية مذهبية أفرزت أنظمة حاكمة مثلتها في الواقع، وأوجدت تيارات علمية صارت تمثل مدارس في المجتمع... الخ.

واليمن –في ظل هذه التطورات- لديه قابلية التأثر والتأثير بحكم كونه شريحة في نسيج المجتمع الإسلامي. وما وجد في عواصم الأمصار الكبيرة هو نفسه له وجود في الأمصار البعيدة مثل اليمن، ولما جاء العباسيون ليتسنموا رأس الهرم القيادي للدولة حيث أداروا دفة الحكم باسم الخلافة الإسلامية كان المجتمع الإسلامي تمور فيه الأفكار والتيارات مورًا، وتظهر منها مجموعات وتختفي أخرى... واليمن واحد من الأمصار الإسلامية.

وأما التيارات العلمية فإنها نبتت وتجدرت في القرن الأول، وصارت عملية التقعيد والتصنيف في القرنين الثاني والثالث في همة ونشاط، ولم يأت القرن الرابع إلاّ والمسيرة العلمية في أبهى حللها.. وهكذا عاش اليمن هذه المراحل كلها.

ويجب أن نعترف بأن اليمن لم يكن –بصفته مصرًا من الأمصار البعيدة عن عاصمة الدولة– يعج بالأفكار والمذاهب والثقافات والفلسفات الجديدة الغريبة على الحس الإسلامي، كما هو الحال في بلاد المشرق وبلاد الشام ومصر، ولم تنشأ منه أفكار ومذاهب وإنما ما كان يتولد في اليمن ما هو إلاّ صدى ما يحدث في تلك الأمصار الكبيرة.

وسنحاول هنا متابعة ما وُجد منها في اليمن بحسب زمن وجودها ثم نرصد ما نتج منها من تيارات سياسية أو غيرها.

أولاً: تيار الخوارج:

وُجد تيار الخوارج في اليمن من وقت مبكر، فقد أوى إليه أفراد من الفارين من موقعة النهروان سنة ٣٨هـ/ ٦٥٩م[١]، ولم يتخلوا عن أفكارهم بل ظلت تتسع قاعدتهم البشرية متخذين من بلاد حضرموت مركزًا[٢].

وكانت أفكار الخوارج قد تلونت بألوان أفكار زعمائهم فصاروا طوائف، ولكن اللون الخارجي الذي ساد في اليمن هو الفكر الإباضي[٣] المنسوب إلى عبدالله بن إباض المري التميمي (عاش إبان القرن الأول الهجري ولعل وفاته كانت عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م) ومذهبهم في الإمامة عدم اشتراط النسب القرشي، وأنه حينما يتوفر العلم والقوة فعلى المسلمين إقامة الإمامة[٤]. وهو أقرب فرق الخوارج إلى الجماعة الإسلامية، بل ينكرون أن يكونوا فرقة من الخوارج[٥]، ولعل محاولات خروجهم من اليمن في العصر الأموي[٦] كان على غير الفكر الإباضي لأن عبدالله بن إباض كان إلى جوار عبدالله بن الزبير للدفاع عن مكة ضد الجيش الأموي[٧].

وكان الحركة التي قادها عبدالله بن يحيى الكندي الأعور من حضرموت في نهاية العصر الأموي في عهد مروان ابن محمد من المرجح أنها كانت على الفكر الإباضي، هذه الحركة التي امتد نفوذها إلى مكة والمدينة لولا تحرك مروان ابن محمد السريع –رغم ما كان يعانيه من مشكلات– تمكن من القضاء على هذه الحركة بقتل قائدها وتتبع مراكزها في حضرموت[٨]. ولم تدلنا المصادر على زعامة ما للخوارج فيما بعد هذه الأحداث إلاّ أن أبا جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ) أرسل معن بن زائدة أميرًا على اليمن فكلف هذا أخاه عاملاً من قبله على حضرموت فأقام بتريم. وسرعان ما قُتِل على يد أهل حضرموت لما قام به من ظلم، ومارسه من فسق، وأتبعوا ذلك بخلع طاعة الوالي العباسي معن بن زائدة، فما كان منه إلاّ أن غزاهم بنفسه، ونكّل بهم وأجبرهم على الطاعة وعين ابنه زائدة على حضرموت، ليعود بحسب طلب المنصور لمقاتلة الخوارج في خراسان، ولكن الإباضية ترصدوا لمعن نفسه في الطريق فقتلوه[٩].

ويبدوا أن الخوارج فيما بعد حتى نهاية القرن الرابع لم يعد لهم كيان سياسي يتحركون من خلاله إلا أنه في الراجح أنهم كانوا متجمعين في مجموعة لها إمام في حضرموت[١٠]، ومجموعة أخرى في مغرب صنعاء في (شبام) ونواحيها إلى حجة، وكانت الزكاة تُدفع إلى إمامهم وزعمائهم[١١]، ورغم انهم يدينون لإمام منهم ولهم زعماء تُدفع لهم الزكوات إلاّ أنهم كما يبدو جماعات صغيرة وليست كيانًا سياسيًا. وهذه الجماعات كثيرًا ما كانت تدخل مع

النظام الحاكم –أيًا كان– في صراع كما حصل مع الناصر بن الهادي الذي اصطدم بهم لما رفضوا الطاعة له فمزقوا كتاب دعوته إليهم فقاتلهم حتى دان بعضهم، وناظر بعضهم، وألف فيهم كتابًا للرد على الإباضية[١٢].

أما إباضية حضرموت وكانوا في مدينة (دوعن) وبعضهم في جزيرة (سوقطرة)[١٣] فقد تكفل بهم –في القرن الرابع الهجري– أحمد بن عيسى العلوي المعروف بالمهاجر حيث تمكن من إقناع الكثير منهم فتخلوا عن مذهبهم، وربما انسحب الباقون إلى عمان مركز تجمعهم[١٤].

ورغم أن أبا زهرة[١٥] ذكر الإباضية ضمن الفرق التي لها مذهب فقهي مدون، إلاّ أن كتبهم تنص على أنه ليس لهم مذهب خاص فهم رجال تقييد لا تقليد، ولا يتقيدون إلاّ بالله ورسوله فقط[١٦].

ولا علاقة لهذا البحث للخوض في المجال الفكري أو الفقهي.

ثانيًا: التيار الشيعي (العلوي):

يعرف الدارسون أن أكثر الحركات التي وقفت في وجه الدولة الأموية هي تلك الحركات ذات التوجه الشيعي أو العلوي. ويفضل التفريق بين اتجاهين: علوي وشيعي.. فالأول أسبق من الثاني.. بينما الثاني استغل الأول ليحقق المرامي التي لم تكن سابقًا عند الاتجاه العلوي .

وكان الأصفهاني قاصدًا حينما سمي كتابه (مقاتل الطالبيين) ولم يسمهم (الشيعة). وكتب التاريخ المبكرة تطلق على زعماء هذه التحركات بأنهم (علويون)[١٧]، ومن ثم يرتبط ظهور التشيع المذهبي بعصر جعفر الصادق[١٨] أي في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث.

ولم يكن للعلويين أي تحركات من داخل اليمن طوال القرنين الأول والثاني لأن مقرهم الأصلي كان في الحجاز ومنه ينتشرون إلى مواقع أخرى من دار الإسلام[١٩]. ورغم أن اليمن مجاور للحجاز إلاّ أنه لم يدفع بإبنائه العلويين نحو اليمن وإنما إلى المشرق... إلى العراق وخراسان.. ورأينا أول وجود لتحرك علوي في اليمن كان عشية مطلع القرن الثالث من خلال حركة محمد بن إبراهيم طباطبا التي خرجت في الكوفة سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م ترفع شعارًا علويًا، وهو الدعاء للرضا من آل محمد[٢٠]، ومثله ابن عمه إبراهيم بن موسى المعروف بالجزار[٢١]، وكان له دوره العنيف في التعامل مع مناوئيه في اليمن الذي عرف بالوصف اللصيق به (الجزار)، ولعل دوره هذا هو الذي أوجد الأرضية الواسعة للشيعة في اليمن.. رغم أنه حوّل ولاءه بعد سقوط ابن عمه طباطبا فانحاز إلى الجانب العباسي وصار أميرًا على اليمن باسم الدولة العباسية في عهد المأمون ومن ثم لم يعد ممثلاً للعلويين[٢٢].

وهذا التوجيه العلوي حتى هذا التاريخ –كما يبدو– لم يكن يحمل فكرًا مذهبيًا، وإنما كانت الفكرة السائدة في أوساطهم أنهم لا يرون شرعية الأنظمة الحاكمة أو الأشخاص المتحكمين أو أنهم يرون زعمائهم الأفضل في تولي

الخلافة إلاَّ أنه لم يأت مطلع القرن الثالث الهجري إلاَّ ومصطلح (العلويين) يكاد يكون قد تلاشى وحل محله مصطلح (الشـيعة) أو (التشيع) أو ظهور مصطلحات أو مسميات تنسب إلى قيادتهم كالقرامطة أو فلان العلوي، وهكذا. مع العـلم أنه كان قد ساد في القرن الثاني مصطلح (الرافضة) ويعني به الذين رفضوا زيد بن علي لتصوره حول الإمامة، وإمامة الخلفاء الراشدين[٢٣]، بالإضافة إلى أن بعض المصطلحات والمسميات التي لم تكن معروفة عند جيل الصحابة قد بـدأت تتسلل في أوساط الشيعة على استحياء مثل: (النص)، (الوصية)، (الرجعة)، وإضفاء العصمة والتقديس على الأئمـة عـلى غرار ما كان يعتقده الفرس في ملوكهم، ولا نستطيع أن نستبعد التدبير المقصود من قبل حاملي الفكر الفارسي أو اليهودي وكلاهما يعاديان الفكر الإسلامي ويسعيان لاجتثاثه[٢٤]. ولم يستخدم العباسيون عند ثورتهم على الأمويين مصطلح الشيعة، وإنما استخدموا مصطلح (الرضا من آل محمد)، كل هذا يؤكد أن انتشار مصطلح (الشيعة) لم يتجذر إلاَّ من مطلع القرن الثالث الهجري بشكل ملحوظ حيث ظهر تياران شيعيان بارزان: التيار الشيعي الإمامي الإثنا عشري، والتيار الشيعي الإمامي الإسماعيلي على إثر وفاة جعفر الصـادق (ت ١٤٨هـ/ ٧٦٥م)، ومـن غير المعقـول أن نقبل ما يقوله (الشيعة) من أن التشيع ملازم لمبعث الرسول ﷺ لأن الواقع التاريخي، وأقوال علي بن أبي طالب ﷺ لا يدلان على وجود (التشيع)[٢٥].

وقـد لحـق الـيمن مـا لحق غيره من أمصار دار الإسلام من شيوع الفكر الشيعي في القرنين الثالث والرابع الهجـريين، وقـد أطلق بعض المؤرخين اليمنيين[٢٦] على التحركات الشيعية (القرامطة والزيدية) في اليمن في القرنين الثالث والرابع بأنها فتن، ولم يعدها فكرًا محاورته أو قبوله.

إن التـيار الشيعي لم يكن له وجود متحرك داخل اليمن في العقود الخمسة الأولى تقريبًا من القرن الثالث، ولا يعني هذا عدم وجود الميل إلى التشيع داخل اليمن، إلاَّ أنه ظهرت بناءً على ذلك ألوان من التشيع تقتضي أن نفرد لكل لون من ألوانه الموجودة في اليمن حديثًا منفردًا به.

اللون الأول:

المـيل للعلويين.. وهو لون عام يبدأ من التعاطف وينتهي بالانتماء المذهبي، وفي وسط هذا الميل العلوي ظهرت الشيعة الإثنا عشرية التي تنتظر (الإمام)[٢٧] متى يظهر ومن ثم لا يوجد لديها أي تحرك مناوئ للدولة، ولم تتخذ إزاءها الإجـراءات القمعية إلاَّ أن هذه الكتلة الشيعية سواء المتعاطفة مع العلويين أو الإثنا عشرية كانت تمثل المصدر البشري الـذي يعتمد عليه كل من الشيعة الإسماعيلية.. والشيعة الزيدية. فقد وجدنا إشارات في المصادر تدل على أن اليمن كـان فيه شيعة اثنا عشرية استغلها القرامطة (الإسماعيلية) متخذين منهم قاعدتهم الشعبية في مناطق تحركهم في عدن أبـين وعـدن لاعة[٢٨]، كما استفاد يحيى بن الحسين (الهادي) مؤسس الزيدية في اليمن من وجود الميل للعلويين في مناطق ظهوره في صعدة[٢٩]. وكان للإثني عشرية في اليمن عادة يمارسونها أثناء أداء فريضة الحج تتمثل في أنهم كانوا بعد الانتهاء من الحج يشدون رحالهم إلى العراق للطواف حول المشاهد الشيعية[٣٠] التي يعدونها مقدسة.

اللون الثاني:

الشـيعة الإسماعيلية.. ومن مسمياتهم (القرامطة)، (الباطنية) وينسبون أنفسهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ورغـم وفاتـه قـبل أبيه إلاّ أن أتباعه يعتقدون بأن جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى ابنه إسماعيل فتولاها بعده ابنه محمد[٣١]. وقد كانوا أسبق من التيار الزيدي في التخطيط والتحرك السري داخل اليمن، وإن كان ظهور الزيدية على مسرح الأحداث أسبق من الإسماعيلية.

بـدأ الإسماعيليون بالحركة داخل اليمن من وقت مبكر، فكتب الإسماعيلية الأولى تتحدث عن نبوءات يروجها زعماؤهم عند اتباعهم بأن اليمن هو البلد الذي سيظهر فيها الإمام[٣٢]، ولما جاء علي بن الفضل إلى الكوفة بعد حجة عام ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م عبر الداعي الحسين بن عبدالله بن ميمون القداح –وهو الإمام الإسماعيلي كما يبدو أو غيره إلاّ أن عبيدالله المهدي هو ابن الحسين هذا- عن فرحه بمقدمه وأنهم كانوا في انتظاره[٣٣].

ومـن المـرجح أن هذا الموقف ليس مجرد نبوءات، وإنما يدل على أن هناك خطة سرية عاملة في الخفاء لإيجاد الأنصار للفكر الإسماعيلي.. ولهذا تعطينا كتب الإسماعيلية إشارات واضحة بأن اليمن كان هو البلد المرشح لتقوم فيها الدعوة الإسماعيلية ودولتها، وأن الإمام الإسماعيلي المستور كان يشيع بين أتباعه أنه في انتظار من يأتي من اليمن ليبعث معـه مـن يقوم بالدعوة[٣٤]. ومن المحتمل أن هذا الانتظار لم يكن عفويًا أو تخمينيًا أو مجرد أمنيات وإنما هو جزء من مخطـط، فالإسماعيليون قسموا الأرض الإسلامية إلى وحدات دعوية عرفت بجزائر الأرض، وغُدت اليمن جزيرة من جزائر الدعوة الإسماعيلية[٣٥]. وكانت القيادة الإسماعيلية تعرف بلدان أتباعها في اليمن[٣٦].

ويصـرح القاضي النعمان[٣٧] –وهو من أقدم من أرخ للدعوة الإسماعيلية- بأن علي بن الفضل كان "من أهل بيت تشيع ونعمة ويسار" وهذا دليل واضح على أنه تربى في بيئة شيعية.

ولا تعنينا هنا التفاصيل ولكن يكفي أن نستعرض الخطوط الرئيسية والمعالم التي ترسم صورة هذا التيار –التيار الشيعي الإسماعيلي- في اليمن لأنه سيظل تيارًا ظاهرًا حينًا مختفيًا أحيانًا كثيرة.

لقـد توفرت في العصر الحديث الكثير من كتب الإسماعيلية، ومن الأمانة العلمية أن نرجع إلى كتبهم لنستقي مـنها المعلومـات الـتي تخصهم وخاصة ما يتعلق بمعتقداتهم، مع العلم أننا لا نستطيع أن نفهم الأعمال والتصرفات والخطط والتنظيمات لأي أمة أو فئة أو شخص إلاّ إذا تعرفنا على معتقداته.

فالإسماعيلية تقوم على عقيدة فلسفية[٣٨]، ورغم أنها تعتمد على المنطوق الإسلامي إلاّ أنهم –بحسب معتقداتهم- يـرون أن كل مبدأ له ظاهر وباطن، وحسب زعمهم فالنبي والعوام يدركون الظاهر، بينما الباطن لا يعلم تأويله إلاّ الإمـام[٣٩]. حـتى أن أبا عبدالله الشيعي صاحب الدعوة بالمغرب وصف بأنه كان "أكثر علمه الباطن، ونظر في علم الظاهر نظرًا لم يبالغ فيه"[٤٠].

وبمـــا أن التيار الشيعي الإسماعيلي تميز بالتنظيم الدقيق على مدى تاريخه فإننا نلمح مراحل تنقل فيها هذا التيار مـــرحلة بعـــد أخرى: مرحلة تهيئة الأرض وهي مرحلة سرية.. ومرحلة سرية أخرى وهي مرحلة الإعداد للظهور.. ومرحلة إعلان الحركة في أوساط الناس دون الإعلان عن حقيقة معتقداتهم (إعلان الظاهر).. ومرحلة (كشف الباطن) أو (إعلان المعتقدات الإسماعيلية) كما جاءت عن أئمتهم وصارت جزءاً من المعتقدات الإسماعيلية[٤١].

أمـــا المرحلة السرية الأولى وهي مرحلة تهيئة الأرض فقد أطلق عليها الإسماعيليون أنفسهم بأنها مرحلة "حرث الأرض الـــبور حـــتى يأتي صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها"[٤٢]، فهي مرحلة تقوم على الدعاة، معتمدين العواطف التي تزدحم بها قلوب الناس لآل البيت، وحزنهم لمقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما.

ورغـــم أنـــنا لم نعثر على نص يدلنا على وجود دعاة للإسماعيلية في اليمن في النصف الأول من القرن الثالث الهجـــري إلاّ إنما جاء في كتب الإسماعيلية مما يسمونه نبوءات بأن الدعوة وظهور الإمام سيكون من قبل اليمن، وأن قيادتهم في الكوفة كانت تنتظر من يأتي من اليمن ليحملوه مسئولية المرحلة القادمة[٤٣].. فلا نعتقد أن هذا الوضع يقوم عـــلى النبؤات فعلم الغيب ليس من مجالات العلم الذي في إمكان الإنسان أن يعلمه، ولكن الذي نرجحه أن القيادة الإسماعيلـــية كانـــت قـــد درست الجهة التي ينبغي أن يتحركوا فيها أو أن تكون صالحة للحرث ليأتي صاحب البذر (الإمام) فيبذر حبه فيها. فكانت (جزيرة اليمن) –بحسب التقسيمات الإسماعيلية- هو المكان المناسب للعمل فيه نظرًا لبعده عن مركز الدولة، وقربه من مركز تجمع بشري ديني طبيعي وهو مكة المكرمة، بالإضافة إلى وجود توجه شيعي في الـــيمن ســـيكون أساسًا للعمل في وسطه[٤٤]، ومما يؤيد هذا معرفة قادة الدعوة الإسماعيلية في الكوفة بقدوم أحد وجهـــاء اليمن إليهم، ومعرفتهم بأماكن تجمع الشيعة الإثني عشرية[٤٥].. ولعلهم كانوا يدركون أن منطقة مثل صعدة ليســـت صالحة لغرس دعوتهم لأن التوجه الشيعي في منطقة صعدة توجه شيعي معتدل لا علاقة بالفكر الإثني عشر. ومـــن المرجح أن القيادة الإسماعيلية كانت تعد اليمن لتكون مركز إعداد الدعاة في المرحلة القادمة وبعثها إلى المناطق الأخرى[٤٦].

تنتقل إلى المرحلة السرية الثانية وهي مرحلة الإعداد للظهور وهي مرحلة تتوفر حولها معلومات لا بأس بها فقد تحـــددت قـــيادتها بعـــلي بن الفضل –الوجيه اليمني الشيعي الإثنا عشرية- وابن حوشب الكوفي الداعية الإسماعيلي المدرب.. وتحددت مواقع تحركهم: عدن أبين، وعدن لاعة.. وتحددت لهم أساليب تحركهم وأدوارهم.. وهذه المرحلة دامت حوالي اثنين وعشرين عامًا.. بدأت بعام ٢٦٨هـــ/ ٨٨١م وانتهت بعام ٢٩٠هـــ/ ٩٠٢م[٤٧]، إلاّ أن من علي ابـــن الفضل، وابن حوشب ظلا يمارسان أعمالهما بصورة سرية فكانا يدعوان مستترين. ثم بدءا يظهران دعوتهما بين الناس بعد سنتين من الاستتار[٤٨].

و لم تـــرد إليـــنا التفاصيل عما فعلاه فيما بين هذين التاريخين لكن يبدو من خلال القرائن أن في هذه المرحلة تم تجهيز الكثير للمرحلة الثالثة ومن أهمها:

كسب الأنصار.. وكسب المواقع.. والتحصين والاستيلاء على القلاع الحصينة[٤٩]، وإعداد قوات مقاتلة من القبائل التي تحولت في ولائها إلى الفكر الشيعي الإسماعيلي. وشراء السلاح[٥٠]، استعدادًا للانتقال إلى المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة.. مرحلة إعلان الظاهر والمواجهة.. إنها مرحلة إعلان ظاهر الإسماعيلية المتوائمة مع أحكام الإسلام. هذه المرحلة هي مرحلة المواجهة العلنية بين الدعوة الإسماعيلية ورجالاتها والقوى المجاورة لها أيًا كانت عباسية أو زيدية أو قوى قبلية متعددة المشارب وقد حدد تاريخ بداية هذه المرحلة بعام ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م وهذا التاريخ يختلف عما ذكره بعض المؤرخين من أن الدعوة الإسماعيلية ظهرت في اليمن عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م[٥١] فكما ذكرنا آنفًا بأنهما ظلا مختفيين سنتين ثم أظهرا الدعوة نحو الهدف المحدد وهو الدعوة إلى الإمام المهدي. وليس المقصود بظهور الدعوة هو إعلان المواجهة. ومما يدل على هذا أن الهادي يحيى بن الحسين أقام دولته عام ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م ولم نجد ذكرًا لأي صدام حصل بينه وبين الإسماعيليون في بلاد حجة (عدن لاعة) وشبام ومسور رغم أن هذه المناطق انضمت إلى دولة الهادي. وهذا بالإضافة إلى أن الإمام الإسماعيلي الذي أرسل ابن الفضل وابن حوشب إلى اليمن من الكوفة أثناء إقامته فيها، بينما نجده خرج من الشام عام ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م عازمًا على التوجه إلى اليمن قبل إعلان الدعوة في اليمن ولكنه غيَّر وجهته نحو بلاد المغرب[٥٢].

ومما يزيد الأمر توكيدًا اتفاق تاريخ إعلان المواجهة في بلاد اليمن مع إعلان المواجهة في بلاد المغرب، وإن لم يكن تغلبهم على بني الأغلب إلاَّ عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م[٥٣].

وقد تمكن كل من علي بن الفضل وابن حوشب من الانتصار على معظم القوى المناوئة، لهما فزحف علي بن الفضل من أبين إلى يافع ودك قوة أبي العلاء الأصبحي، ثم إلى المعافر (الحجرية) قاضيًا على آل الكرندي معلنًا أنه يعمل لصالح الدولة العلوية، ثم جاس خلال الأراضي التي يسيطر عليها المناخيون فاستولى على مدينتهم المذيخرة، ثم اندفع شمالاً حتى ذمار ودخل صنعاء عام ٢٩٣هـ/ ٩٠٥م.

في الوقت نفسه كان تحرك ابن حوشب حيث اصطدم بآل طريف وآل يعفر وقبائل مغرب صنعاء، فالتقى الزعيمان في صنعاء بعد تحقيق هذا النصر الساحق، وكان رأي ابن حوشب الاكتفاء بما حققوه لمدة سنة حتى يتمكنوا من السيطرة عليه، ولكن ابن الفضل لم يكن مقتنعًا بهذه الخطة وأصر على التوجه إلى تهامة ونفذ ما أراده فزحف نحو تهامة واكتسح مدنها ومنها مدينة زبيد، وتمكن من القضاء على سلطة الإمارة التهامية التابعة لإمارة مكة العباسية[٥٤].

فكانت هذه المرحلة هي مرحلة عسكرية لفرض السيطرة والسيادة الإسماعيلية على معظم اليمن، ولم يعملا على الاصطدام بالدولة الهادوية في صعدة في هذا الأثناء، لعل ذلك ناشئ من كونها دولة فتية وتقودها شخصية فذة في علمها وعسكريتها، ولم يتوجها نحو حضرموت، لعل السبب وراء ذلك الخوف بتشتت قواتهم وبعدهم عن أعوانهم ومراكز دعوتهم.

المرحلة الرابعة.. مرحلة إعلان الباطن –مرحلة القرمطة– وهي مرحلة ما يعتقده الإسماعيليون على جهة الباطن لأنهم كما ذكرنا آنفًا أن إمامهم الحقيقي بالباطن ولهذا عرفوا بالباطنية.

وهذه المرحلة لم يُعلن عنها إلاَّ في أوساط من عُرفوا بالقرامطة.. وأوهمت القيادة الإسماعيلية في المغرب ومصر أن القـرامطة خارجون عنهم ويصبون عيهم لعناتهم، ومن هؤلاء سعيد الجنابي في البحرين، وعلي بن الفضل في اليمن، وأبومهزول القرمطي[٥٥].

وقبل أن نحدد حقيقة هذه المرحلة لا بد من توضيح كلمة القرامطة.. يجب أن نأخذ تعريفها من أتباعهم لا من مناوئيهم، فعارف تامر[٥٦] –وهو من إسماعيلي عصرنا– يقول عن القرمطية بأنها: "حركة ثورية فكرية انقلابية فلسفية ذات تعاليـم اشـتراكية عمـيقة جديدة عنيفة على المجتمع، وذات أهداف بعيدة المدى"، ويؤكد على "أن القرامطة إسماعيليون لحمًا ودمًا وعقيدة.. وأن التسمية القرمطية موجودة قبل حمدان بن الأشعث، وقد أطلقها أهل دمشق على كـل من يعتنق الأفكار الإسماعيلية، ثم انتشر وتعمم في كل مكان من أجزاء المشرق الإسلامي، والقصد منه لا يخرج عـن وصم الإسماعيليين بما يخفض من قيمتهم ويحط من مركزهم، واعتقد– والكلام ما زال لعارف تامر– أن الإمام عبيدالله المهدي لم يطلق على دولته في المغرب اسم (الفاطميين) إلاَّ تخلصًا من هذا الاسم الذي لم يكن يتناسب ومركز الأسرة في العالم الإسلامي[٥٧].

لقـد كفانا هذا القول الجدل حول ما إذا كانت القرامطة إسماعيلية أم لا؟ ولم يبق إلاَّ أن نبرز أمرين: أولهما: عقائد (الإسماعيلية– القرامطة)، وثانيهما: سبب الخلاف بين القرامطة والقيادة الإسماعيلية، وانعكاساتهما على الوضع الإسماعيلي في اليمن.

أما عقيدة الإسماعيلية فليس من مجال بحثنا أن نحيط بكل جوانبها وإنما سنتحدث فقط عما يتعلق بقضايا كان لها أثرها في هذه المرحلة أو ما يتعلق بفكرة الباطن والظاهر.

وحالنا –اليوم– أحسن حالاً من حال دي خوية المستشرق الهولندي في كتابه (القرامطة) الذي نشره في أواخر القـرن التاسع عشر، وكذلك من حال برنارد لويس في أطروحته (أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية) وكانت بالإنجليزية عام ١٩٤٠م وطبعت بالعربية عام ١٩٤٧م، فقد حاول الباحثان الوصول إلى مصادر إسماعيلية فوصلا إلى مجموعـة متـناثرة بغض النظر عن مصداقية دي خويه والتواء برنارد لويس، أما نحن –اليوم في مستهل القرن الواحد والعشـرين– فقـد توفرت لدينا مصادر ومراجع إسماعيلية كثيرة نشرت على أيدي فئات أو أفراد ينتمون إلى الفكر الإسماعيلي، ومن حقهم علينا أن ندون تعبيرهم عن فكرهم ما أمكن ذلك[٥٨].

فقـد قرر –الدكتور مصطفى غالب–[٥٩] بأن "النصوص التاريخية التي اكتشفت في السنوات الأخيرة على أن الحركة القرمطية استمدت عقائدها ومبادئها وفلسفتها وتنظيماتها السرية من الحركة الإسماعيلية. فالحركة القرمطية إذن

تنطلق من الإسماعيلية وتذوب معها في انطلاقة واحدة وغاية مشتركة".

وهــذا الإقرار والتقرير يجعلنا نرجع إلى مصادرهم لنرى ماذا تقرره عقديًا وما أفرزته هذه العقيدة من تنظيمات وأعمال وترتيبات لأن العمل فرع عن تصوره والاعتقاد به.

ومــن المؤكد أن الفكر الباطني هو أساس الفكر الإسماعيلي، والناظر في كتاب (تأويل الدعائم للقاضي النعمان ابــن محمد (قاضي الخليفة الفاطمي المعز) يؤكد هذا التقرير لأن كل الأحكام الإسلامية هي أحكام ظاهرة ولها تأويل في الــباطن يخرجه عن ظاهره ليتعلق إما بالإمام أو حججه أو دعاته أو نقبائه أو تنظيماته السرية... الخ. وهذا يجعل المــرء يقــف مشدوهًا أمام القدرة على التأويل الباطني الغريب حيث تخرج الأحكام الشرعية عن حقيقتها ليصبح لها تفسيرٌ مخالفٌ عما يفهمه المسلمون من أحكام الإسلام بل أن الإسماعيلي المؤمن بالفكر الإسماعيلي لا علاقة له بالحكم الشرعي الظاهر وإنما عليه أن يلتزم بتأويل الحكم في الباطن ليكون مؤمنًا بالفكر الإسماعيلي.

وهذا الكتاب وأمثاله ينهي ذلك الجدل الذي دار في أوساط بعض الدارسين بأن أعداء الإسماعيلية الباطنية دسوا علــيهم واتهموهم بما ليس فيهم[٦٠]، ومن ثم فإن دور إعلان الباطن ليس مجرد افتراء على الباطنية الإسماعيلية وإنما هو من صلب معتقداتهم.

فإذا ما أضفنا إلى أن الفكر الإسماعيلي كما أنه يقوم على الباطن فهو يقوم على السرية المطلقة والستر الغامض، وهــذا الستر يؤدي إلى اتخاذ الوسائل المموهة والمتناقضة في وقت واحد.. ومن أبرز الأمور التي تتعلق بالستر هو ستر الإمام فيُستخدم من الوسائل ما يكفل بقاء الإمام مستورًا غير معرض للأذى.. فلماذا لا تكون حركة القرامطة سواء في الشــام، أو في خراسان، أو البحرين، أو في اليمن هو الصورة الممثلة لإعلان الباطن، وأن القيادة الإسماعيلية نفسها كانــت راغبة في هذا الاتجاه رغم ما ظهر من خلافها معهم، فقد يكون خلافًا (تكتيكيًا) مقصودًا كما فعل عبيدالله المهــدي لما خرج من سلمية فقد أرسل أحد دعاته إليها واصدر إليه أمره الصارم قائلاً: "ارجع أنت إلى سلمية واجمع من قدرت عليه من الغوغاء وسُبنا بما قدرت عليه، واحمل العامة على هدم دورنا.."[٦١].

وقــد يكــون الخلاف خلافًا حقيقيًا فالدعاة الذين وصفوا بالقرامطة.. وهو مصطلح بالتأكيد لم يطلقوه على أنفســهم لأن من معانيه المدنس أو الخبيث أو المكار أو المحتال[٦٢]. هؤلاء الدعاة وصل بهم الاقتناع إلاّ أن الوقت قد حــان لإعلان ما يعتقدونه من أفكار، بينما القيادة الإسماعيلية العليا ترى عدم التعجل أو أن خطتها في المرحلة الأولى مــن الظهــور تقضــي باستمالة الجماهير الإسلامية في بلاد الإسلام كلها لا باستعدائها، وهذا ما نلحظه من خلال خطوات الدولة الفاطمية التي اتخذت خطة التربية والتعليم والتثقيف الطويل لتحويل الناس واقتناعهم بأفكارهم وعدم المجاهرة بها في وقت لم يتقبلها الناس.

مــن هذا كله نستطيع أن نفسر موقف علي بن الفضل في اليمن من الخلاف مع الإمام في المغرب. فهو إما أن

يكـــون خلافًـــا (تكتيكيًا)، أو خلافًا حقيقيًا، ولعل هذا هو الراجح، ومما يثبت هذا أن عبيدالله المهدي لما وصله نبأ الخلاف الواقع بين علي بن الفضل وابن حوشب أرسل إليهم واحدًا من دعاته لحل النزاع فلم ينجح وأرسل تقريره إلى عبيدالله المهدي قائلاً: "إن القوم قد أظهروا الباطن، وعلموا به وفطنوا له، وتشاتموا، وتفاضحوا بينهم"[٦٣].

فالـــباطل الذي أظهره علي بن الفضل يتمثل في إبراز عصمة قادالهم وأن لهم مكانة أفضل من الرسل[٦٤]، وفي إظهار تأويل الباطن للأحكام الإسلامية ومنها الفرائض التي تؤول لتكون رموزًا لطاعة الإمام والولاء له[٦٥]. وهذا ما يؤكـــده ناصر خسروا الرحالة الإسماعيلي[٦٦] حيث يصف مجتمع القرامطة في الأحساء بأنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يوجـــد في مدينـــتهم مسجد. وفي استباحة المحرمات الإسلامية، وقد ينكر مثل هذا الطرح ويجعلها من التهم التي يطلقها أعداؤهم، ولكن بالعودة إلى كتب الإسماعيلية نفسها يكتشف الباحث أن التعاليم القرآنية كلها عندهم ليست "إلاّ صورًا للحض على طاعة الإمام طاعة تامة.. والمؤمنون الحقيقيون هم أولئك الذين يؤولون الوحي الإلهي على هذا الـــنحو، وأمـــا الذيـــن يـــأخذون القرآن والسنة على ظاهرهما الحرفي فلا يستحقون أن يسموا مسلمين بل هم حمير كافرون"[٦٧]. وبغض النظر عن صور استباحة المحرمات سواء أكانت مبالغًا فيها أم لا إلاّ أن المبدأ في حد ذاته مقر في معـــتقداتهم، وهـــذا ما يظهر من خلال مصطلحاتهم المترددة في أوساطهم (قائم القيامة) (ليلة الإمام) (ليلة الإفاضة) (الألفة) (التشريق) وكلها توحي بإباحة كل شيء في مثل هذه المناسبات[٦٨].

إن هـــذا التـــيار الإسماعيلي القرمطي قد أثار عليه كل الأطراف بما فيهم قياداتهم الإسماعيلية مما جعلهم جميعًا يعملـــون –معًا أو متفرقين– على تغييب وإبعاد هذا النوع من الأفكار أو الأعمال ومن ثم سقطت حكومته في اليمن عام ٣٠٤هـــ/ ٩١٦م بعد دك عاصمته (المذيخرة) على يد أسعد الحوالي وحلفائه.

ورغـــم بقاء ابن حوشب في الشمال الغربي من صنعاء إلاّ أن جهود أسعد الحوالي في صنعاء والناصر بن الهادي في صعدة وإبراهيم بن زياد في زبيد بالإضافة إلى القبائل المجاورة لهم تكاتفت جميعها لاجتثاث ما بقي منهم على هيئة قوة، لأن ابن حوشب الذي توفي بعد عام ٣٠٨هـــ/ ٩٢٠م، انكمشت قوته، وبعد وفاته تفرق أتباعه، ورجع منهم من رجع عن المذهب الإسماعيلي لينكفئ هذا التيار على نفسه في سرية مرة أخرى ليظهر في عام ٤٣٩هـــ/ ١٠٤٧م بشكل الدولة الصليحية برعاية وحماية الدولة العبيدية (الفاطمية) في المغرب[٦٩].

وظل التيار الإسماعيلي عاملاً في الساحة اليمنية في حقب تاريخها المتعاقبة.

اللون الثالث:

الشيعة الزيدية.. لا خلاف في أن هذا اللون هو لون شيعي، وأنه منسوب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب (ت ١٢٢هـــ/ ٧٤٠م)، ورغم أن هذه النسبة ليست على الحقيقة لأن أصحاب هذا الاتجاه سواء زيد ابن علي نفسه أو من جاء بعده ونسبوا إلى هذا الاتجاه لا يصرحون بأنهم يحملون إسمًا أو يرفعون شعار (الزيدية). وإنما

تمت النسبة على سبيل التجاوز لأن زيد بن علي هو الذي يرجع إليه فضل السبق في هذا الاتجاه الذي يعتمد في أصوله الفكرية على رأي المعتزلة[٧٠].

وعد أهل علم الفرق والملل والنحل أن هذا التيار ارتبط بمجموعة من الشخصيات التي انتهجت ما انتهجه زيد ابن علي مثل ابنه يحيى (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م) ثم محمد وإبراهيم اللذين قتلا في عهد أبي جعفر المنصور، ثم الناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٣٠٤هـ/ ٩١٦م). وسكت أصحاب كتب علم الملل والنحل عن الوجود الزيدي في اليمن ولا تفسير لهذا السكوت إلاَّ أنهم لم يطلعوا على كتب هؤلاء، مع احتمال أنهم لم يعدوهم من الزيدية. رغم أنهم ذكروا الزيدية المناوئة للدولة العباسية، أما يحيى ابن الحسين الذي عرف بالهادي فلم يظهر في كتب علم الملل والنحل، حتى كتب التاريخ التي ذكرته لم تشر إليه على أنه يمثل التيار الزيدي وإنما عرف باسمه أو بالعلوي[٧١].

لقد بدأ تمركز العلويين في شمال وغرب اليمن من عهد المأمون حيث مكنهم من بعض الأرض الواقعة في الشمال الغربي من اليمن، ذلك المثلث الذي يقع رأسه في مكة وقاعدته صعدة وشمال زبيد[٧٢].

ولعل هذا الوجود العلوي في هذه المنطقة هو الذي دفع إبراهيم الجزار ليتخذ من صعدة مركزًا له ليقود الحركة العلوية المؤيدة لطباطبا[٧٣]، وباختفاء إبراهيم الجزار من اليمن اختفت الحركات العلوية طوال العقود السبعة الأولى من القرن الثالث ليظهر بعدها يحيى بن الحسين الذي تربى في ظل حركة زيدية في طبرستان بقيادة ناصر الأطروش. ولا ندري ما إذا كانت هناك ترتيبات بين الرجلين على أن يتحرك يحيى بن الحسين من اليمن أم كانت حركة ذاتية منه؟ وهل مؤازرة ناصر الأطروش ليحيى بن الحسين كانت تقوم على أساس تعاون بين الرجلين أم هو تخلص من يحيى حتى لا ينافسه في الأمامة في طبرستان أن الفكر الزيدي لا يمانع من ظهور إمامين في وقت واحد[٧٤]؟ وهذا لا شك يؤدي إلى نزاع وصراع.

المهم أن مجيء يحيى بن الحسين –الذي عرف بالهادي إلى الحق وأطلق على فقهه فيما بعد المذهب الهادوي والذي تغلب في اليمن على مذهب زيد بن علي– المهم أن هذا المجيء بداية منعطف كبير في تاريخ اليمن حيث أرسى المذهب الزيدي الهادوي سواء لفقهي أو العقدي المرتكز على الخلفية المعتزلية مع بعض الجوانب المخالفة لهم، أو السياسي الذي شكل خطًا ثابتًا طوال القرون التالية رغم ما تعرض له هذا الخط من ضعف أحيانًا وتوارٍ أحيانًا، وصراعات عنيفة بين أبنائه من أئمة أو فرق متأخرة أحيانًا أخرى، رغم ذلك كله إلاَّ أن الخط ظل مرسومًا ومحفورًا في تاريخ اليمن بشكل مستمر، وليحيى بن الحسين الدور الأكبر في إرساء القواعد الأولى للمذهب الزيدي السياسية والفكرية والفقهية.

لقد عمل يحيى بن الحسين لتحقيق ذلك الدور في أكثر من مجال: المجال السياسي، والمجال الفكري، والمجال الفقهي.

فأمـــا المجـــال السياسي فقد تمثل أولاً: في الدور القتالي الذي بدأه يحيى بن الحسين من أول ما وصل إلى صعدة مـــتخذاً منه مقرًا وعاصمة لدولته التي أنشأها مستعينًا بقبائل خولان وبعض قبائل همدان. التي آزرته سواء حبًا في آل علي أو لتحقيق مآرب خاصة، أو للخروج من الفوضى التي كانت قد عمت في اليمن نتيجة ضعف الدولة العباسية، وبروز زعامات يمنية عديدة متصارعة.

بدأ يحيى بن الحسين تحركه الفعلي عام ٢٨٤هــ/ ٨٩٧م، وكان القتال مريرًا مع القبائل المجاورة من ناحية ومع ممثلي الدولة العباسية، وكانت هناك تحالفات مع قبائل أخرى[٧٥] معلنًا من أول وهلة إسقاطه النظري والفعلي للوجود العباسي، وإعطاء نفسه الحق في تولي الخلافة أو الإمامة.

وتمـــثل ثانيًا بإنشاء دولة لها مقومات الدولة، كانت مثالاً احتُذِيَ في مراحل الدولة الزيدية اللاحقة. وأبرز هذه المقومـــات إبـــراز مبدأ الزيدية في الإمامة، وإقامة نظام القضاء وتعيين الولاة والعمال على المناطق المنظمة إلى دولته، وإقامة نظام مالي محدد من مظاهره سك العملة وتنظيم الإيرادات والمصروفات.

وأما المجال الفكري فيتمثل في قام إمامة زيدية متمثلة في دولة متوارثة حيث ما أن توفي يحيى بن الحسين (الهادي) عام ٢٩٨هــ/ ٩١٠م حتى انتقلت الإمامة إلى ابن الهادي محمد المرتضي، ثم الابن الآخر أحمد الناصر. وصارت هذه الخطـــوة ســـابقة تاريخية احتذها الأسر الزيدية فيما بعد، رغم ما تنص عليه المبادئ السياسية الزيدية والتي نص عليها الإمـــام الهادي نفسه عند عرضه لشروط الإمامة "أن يكون من أبناء الحسنين، عالمًا، زاهدًا، خرج داعيًا إلى الله، مجردًا ســـيفه، خائضًا للحتوف، منابذًا للطاغين، مقيمًا لحدود الله.. الخ"[٧٦]. فشرط الإمامة الواضح هو خروج الإمام داعيًا لنفسه بينما لاحظنا انتقال السلطة من الهادي إلى المرتضي ثم إلى الناصر دون أن يكون هذا الشرط قد طبق.. وصحيح أن أبـــناء الناصـــر اخـــتلفوا فيما بينهم كل يدعى أنه الأحق بالإمامه فخرج كل واحد منهم داعيًا لنفسه إلاّ أن هذا التصـــرف لم يلغ السابقة التاريخية توارث الإمامة في أسرة واحدة، وقد تجددت هذه السابقة على يد القاسم بن علي العـــياني الذي ورث الدولة الزيدية الهادوية فقبض على زمام الأمور وورَّث –هو بدوره– الحكم لابنه الحسين، ولولا الأفكـــار الـــتي اعتقدها المناقضة للفكر الزيدي لكان قد واصل هذا الخط في توارث الحكم في أسرة العياني. كما هو الحال في القرون التالية.

وتمثل أيضًا المجال الفكر بالرسائل العديدة التي عمل على نشرها الهادي إلى الحق لمقارعة آراء مناوئيه أو لتحديد الأصـــول النظرية للفكر الذي يحمله حيث ستشكل هذه الرسائل المادة الأولى التي حاك حولها علماء الزيدية فيما بعد آراءهم.

مع العلم أن الفكر الشيعي الزيدي المتأخرة ناله بعض غبار الفكر الإسماعيلي فعلق منه في بعض فرق الزيدية ما علـــق مثل (الحسينية)، وما ذلك الصراع بين المطرفية ومناوئيها إلاَّ أثر من آثار تأثر الفكر الزيدي بالأفكار المحيطة به، ومنها الفكر الإسماعيلي، والإمامي الإثنا عشري[٧٧].

وأمـــا المجـــال الفقهي.. فإن المذهب الفقهي الزيدي مرَّ بثلاث مراحل: مرحلة زيد بن علي التي استمرت حتى منتصف القرن الثالث الهجري.

فـــزيد بـــن علي رحمه الله لم يكن معلنًا مذهبًا خاصًا به وإنما كان مثله مثل بقية علماء الأمة الذين كانت لهم اجـــتهاداتهم واختياراتهم الفقهية جمعت بعد وفاته في كتاب عرف بـــ (مجموع الفقه الكبير) (٧٨)، و لم تكن اجتهادات زيد بن علي تشكل مذهبًا، و لم يدع لنفسه ذلك.

المـــرحلة الثانية: مرحلة القاسم بن إبراهيم الرسي (ت ٢٤٦هـــ/ ٨٦٠م) الذي لم يكن مقلدًا للإمام زيد وإنما كان مجتهدًا، وصارت اختياراته تشكل خطاً واضحًا في المذهب الزيدي العام(٧٩).

المـــرحلة الثالثة: مرحلة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم، فهو حفيد رأس المرحلة الثانية السابقة، فقد توفرت للهادي مكانة علمية عالية، ومكانة سياسية كبيرة، مكنتاه من أن يتخذ له اختيارات واجتهادات خـــالف فـــيها زيد بن علي وجده القاسم وصار مذهبه (المذهب الهادوي) هو المقصود بالمذهب الفقهي الزيدي في الـــيمن(٨٠) حيـــث لم يتقيد الهادي بأقوال زيد ولا بأقوال القاسم ولا بكثير من أقوال أهل البيت(٨١)، مع العلم أنه لم يطلق على مذهبه بالهادوي وإنما جاءت هذه التسمية بعد وفاته ومن خلال تلامذته أو أتباعه فيما بعد(٨٢).

و لم يـــبق مذهـــب الهادوي مقصورًا على اليمن بل وصل إلى بلاد الديلم وإذربيجان وخراسان، و لم ينته القرن الرابع الهجري إلاَّ وقد صيغ المذهب الزيدي من آراء أئمتهم: القاسم، والهادي،والناصر الأطروش والمؤيد الهاروني (ت ٤١١هـــــ/ ١٠٢٠م) وأخـــوه أبوطالب (ت ٤٢٤هـــ/ ١٠٣٣م)، وغيرهم. ليصبح بعد ذلك هو المذهب الزيدي المعتبر عند أتباعه وليست آراء الإمام زيد هي المكونة للمذهب الزيدي(٨٣).

ثالثًا: التيار السياسي القبلي المتوجه بالولاء للدولة العباسية:

ويتمـــثل هذا التيار بالكيانات التي ظهرت في اليمن إما على شكل تمردات على الدولة العباسية في بداية الأمر فـــلما قويـــت رغب الطرفان في مد جسور الولاء بينهما، وإما على شكل أمراء أوكلت إليهم الدولة العباسية مهمة الإمارة وتحولت المهمة الإدارية إلى توارثها في أسرة الأمير.

الأول: تيار تحول من التمرد إلى الولاء:

إن الصـــراع الذي دار في البلاط العباسي بين الأمين والمأمون جرأ الكثير من الطامعين والمغامرين على اقتناص الفرصة في أنحاء كثيرة من دار الإسلام –ومنا اليمن– للحصول على مكاسب سياسية في بلدانهم.

وقد ساعدت –هؤلاء المغامرين– مجموعة من العوامل –داخل اليمن– لتحقيق مطامعهم.. منها الطبيعة الجغرافية للـــيمن من حيث الموقع، أو من حيث التضاريس الوعرة، ومنها الطبيعة البشرية من حيث التكوين القبلي وولاءاته..

ومنها أن اليمن حمل في أحشائه الجغرافية والبشرية مذاهب فكرية أدت إلى وجود تباينات على مسرح الأحداث داخل اليمن.

لقـد وجدت زعامات عدة قبلية استغلت الظروف المحيطة بها فاتخذت لها مواقع وخطت فيها خطوات لتحقيق مآربها بعضها نجحت وبعضها فشلت، وفي مقدمة هؤلاء يُعْفر بن عبدالرحمن الحوالي الذي تمكن من الحصول على ما يـريد بعـد جهـود ذاتية اعتمد فيها على مهارته الزعامية، وتحالفاته القبلية.. وتحصينات مواقعه الحربية.. وضرباته المـتلاحقة الموجعـة للدولـة العباسية مما ألجأها إلى أن تمد يد المفاوضة إليه للمصالحة لإعطائه الشرعية في البقاء، بل والتوسع على حساب من حوله وتحت راية الدولة العباسية نفسها.

بدأت تحركات يعفر الحوالي ٢١٤هـ/ ٨٢٩م، واصطدام بالولاة العباسيين في عهود المأمون والمعتصم والواثق. وفي الوقـت الذي كان الوضع العباسي مضطربًا في دار الخلافة الذي مهد لسيطرة الأتراك عليها كان الوالي العباسي عـلى الـيمن جعفر بن دينار يتفاوض مع يعفر الحوالي عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٧م على أن يقدم فروض الطاعة للخليفة العباسـي وهذا يصدر مرسومًا يقضي بتولي يعفر الحوالي إمرة اليمن على أن يورثها أولاده من بعده[٨٤] ليحقق يعفر الحـوالي بهـذه الخطوة قفزة ضخمة أهلته لأن يسعى لضم اليمن كلها إلى إمارته لأنه الحاكم باسم الدولة العباسية، ولتحقيق الدولة العباسية استقرارًا وارتباطًا اسميًا لليمن وفي الوقت ذاته يفتتح هذا الوضع العصر العباسي الثاني المتصف بالضعف.

لقد كان للحركة التي قام بها يعفر الحوالي دورها في إيجاد تيار سياسي استمر حوالي القرنين.. تيار عصبه قبلي، وهويته الظاهرة عباسي. وفي غالبية تحركه لم يستخدم الثارات القبلية وسيلة للسيطرة والانتقام ما عدا في بداية النشأة حينما عمل يعفر الحوالي على الانتقام من آل شهاب[٨٥].

وعـلى الرغم من طول عمر هذه الدولة إلاَّ أن الشخصيات التي حكمتها لم يبرز منها إلاَّ يعفر المؤسس الأول وأسـعد بن إبراهيم المؤسس الثاني (ت ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) بينما الباقون لم يكونوا بالقدر الذي يمكن أن يعتد بهم إلاَّ إذا اسـتثنينا محمد بن يعفر لكونه خلف أباه وأدار الدولة بعد أبيه رغم الغموض الذي صاحب اختفاء أبيه ثم قتله هو على يد ابنه إبراهيم[٨٦]... إلاَّ أنه من الثابت أن الدولة اليعفرية ظلت تقاوم للبقاء حتى انتهت بوفاة أسعد بن عبدالله ابن قحطان عام ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م[٨٧].

والشـيء الأكثر غموضًا هو أننا لم نحصل على صورة ولو مصغرة عن شكل الدولة اليعفرية وإنما هي حركات وتحـركات مضادة مع زعمائها من بدايتها حتى نهايتها دون أن نجد شكلاً أو هيكلاً لنظام الحكم ومقرًا دائمًا ما عدا شبام التي اتخذها أسعد الحوالي مقرًا له.. مع وجود بعض الإشارات إلى وجود قضاة عاصروا الدولة، ومراسيم عباسية تعطي لهم الحق في التصرف هذا كل ما هنالك[٨٨].

ولعل السبب يرجع إلى اختفاء مدونات تاريخ هذه الدولة سواء بقصد أو بدون قصد مثلها مثل كثير من القوى التي كانت تحكم داخل اليمن في حقب مختلفة.

الثاني: تيار سياسي مكلف بالإمارة المتوارثة:

رغـم أن هـذا التيار مرتبط بالدولة العباسية، ومدعوم من قبلها إلاّ أنه يقوم أصلاً على الاعتماد على مكانة الـزعامات اليمنـية من ناحية، وتوريثها الحكم في أبنائها من ناحية أخرى، والفرق بين هذا التيار والتيار الذي بدأ مـتمردًا على الدولة العباسية ثم آل إلى الولاء أن الدولة العباسية هي التي أوكلت الإمارة طائعة إلى زعامة التيار المولي هـذا بيـنما التيار السابق لجأت الدولة العباسية مضطرة لقبول الزعامة المتغلبة فكسبتها إلى صفها بدلاً من استمرار الصراع معها. ويتمثل هذا التيار بالشراحيين والزياديين.

الشراحيون:

يعطيـنا الهمـداني[٨٩] معلومـة جديـرة بالاهتمام عن (الشراحيين) بأنهم كانوا ملوك تهامة من عهد المعتصم (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) إلى أيام المعتمد (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) وأنهم كانوا في زبيد الرأس من الجميع وإن كان مقرهـم (عركـبة)[٩٠] إلا أن وجودهـم الفعـلي كـان في المـناطق التهامية وبالذات في وادي زبيد حيث وصفهم نشوان الحمـيري[٩١] بأنهم كانوا ملوك زبيد قبل بني زياد، وقد قام عبدالله بن يوسف الشراحي بتسوير مدن عرفت في تهامة منها زبيد، والمعقر، والكدراء، والمهجم وجعل في كل مدينة مسجدًا وعين فيها قضاة[٩٢].

و لم تعـرف كـيف كانت عملية الارتباط بين الشراحيين والدولة العباسية، ولكن من الراجح أن تهامة اليمن كانـت إداريًا مرتبطة بإمارة مكة ومن ثم أوكلت الإدارة العباسية إلى الشراحيين مهمة الولاية على زبيد بحكم قوتهم ووجودهـم في المنطقة واكتفت الدولة العباسية راضية بالدعاء للخلافة والخليفة، وبذكر اسمه على السكة التي كانت تصدرها أسرة الشراحيين[٩٣].

وهـناك سـؤال يطرح نفسه عن دور الولاة العباسيين الذين كان الخلفاء يرسلون إلى اليمن مما يدور في تهامة. وللإجابـة عن هذا نعتقد أن اليمن إداريًا كان مقسمًا إلى منطقتين جغرافيتين: منطقة تهامة وهذه مرتبطة بإمارة مكة، بيـنما المـنطقة الجبلية كانت هي ولاية اليمن وهذه التي ترسل إليها الولاة، والأدلة على هذا الرأي كثيرة منها: أن العلويين الذي ظهروا في تهامة عام ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م لم يتصد لهم والي اليمن وإنما أرسلت إليهم قوة من مكة للقضاء عليها[٩٤]. ومنها: أنه لما قام يعفر الحوالي بالتمرد على الدولة العباسية تصدى لها ولاة عباسيون غير الشراحيين[٩٥].

ورغـم توارث الإمارة في أسرة الشراحيين طوال إمارتهم إلا أننا لم نطلع على أي شيء يدل على نظام الحكم القائم ما عدا التوارث في الولاية والارتباط في الولاء مع العباسيين، وضرب السكة باسمهم واسم الخليفة العباسي هذا كل ما حصلنا عليه من معلومات عن هذا الكيان الذي ظل قائمًا حتى عهد الخليفة العباسي المعتمد (تولى الخلافة عام

٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) أي قبل أن يبرز الزياديون في زبيد خاصة، وتهامة عامة.

الزياديون:

أما الزياديون الذين ذكروا ضمن من حكموا اليمن في العهد العباسي فقد ثار جدل –وما زال– بين الدارسين المحدثين حول تاريخ نشأتهم ومسميات أمرائهم.. ولم يكن هذا الأمر مثارًا في أوساط المؤرخين القدامى لأنهم تلقوا معلوماتهم عن هذه الدولة من مصدر واحد هو (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها. ويسمى تاريخ اليمن) لعمارة بن علي اليمني (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) ولم يشغلوا أنفسهم في التحقق مما قاله عمارة من مؤرخي القرن السادس إلاَّ أن كتابه كان هو المصدر المعتمد عند المؤرخين الذي جاءوا من بعده ولم تشهد نقاشًا حول نشأة هذه الدولة إلاَّ في العصر الحديث وعندما لفت القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع إنتباه الباحثين إلى بعض الإشكالات الواردة في تاريخ هذه الدولة مرجعًا سبب ذلك إلى أوهام وقع فيها عمارة اليمني وحاول القاضي الأكوع أن يزيل هذا اللبس وهذا الوهم وإن لم يصل إلى نتيجة حاسمة.

وبالرجوع إلى المصادر المعاصرة لعمارة، والأقدم منه والآتية بعده وجدنا معلومات تاريخية مهمة تؤكد تلك الإشكالات التي واجهت القاضي الأكوع.

لقد أوصل البحث إلى مجموعة من الحقائق التاريخية حول تاريخ بني زياد كلها تؤكد على أن بني زياد لم يكن لهم وجود في القرن الثالث الهجري وأن حكمهم بدأ من مطلع القرن الرابع الهجري. وأن تهامة اليمن عامة وزبيد خاصة طوال القرن الثالث كانت تحكم أولاً من قبل أمراء عباسيين ثم من الشراحيين التابعين للأمراء العباسيين، وكان آخر هؤلاء إبراهيم بن محمد الحرملي الذي أسند إمارة تهامة إلى إبراهيم بن محمد بن زياد الذي ما لبث أن توارث أبناؤه الحكم فصارت دولتهم تعرف بدولة بني زياد والتي لم يتجاوز نفوذ بلاد تهامة اليمن.

ثالثًا: تيار قبلي سياسي متمرد على الدولة العباسية (المناخيون):

ينسب المناخيون إلى أحدى الأسر الحميرية المعروفة بذي مناخ، ويطلق عليهم (الجعافر) في الجاهلية والإسلام، ولهذا نسب إليهم مخلاف جعفر (العدين حالياً)[٩٦].

ظهرت أول ما ظهرت تمردات هذه الأسرة مشكلة تيارًا داخل اليمن على يد إبراهيم بن جعفر المناخي سنة ٢١٣هـ، ولم يتوقف تحركه بل تمكن بسرعة من السيطرة على (الجَنَد) في رمضان من عام ٢١٤هـ[٩٧] وهو العام نفسه الذي كان فيه يعفر الحوالي قد أعلن العصيان في الشمال الغربي من صنعاء على الدولة العباسية.

وجاء جعفر بن إبراهيم بعد أبيه وظل سائرًا على نهجه وقاوم اليعفريين بصفتهم ممثلين للدولة العباسية[٩٨] حتى ظهرت دولة علي بن الفضل القرمطية فاصطدم معها، وما لبث أن خرَّ صريعًا في إحدى مواجهاته معها عام ٢٩٢هـ/ ٨٠٥م، ولم تغن عنه محاولاته المستميته الممثلة بالاستغاثة بالهادي يحيى بن الحسين الزيدي الذي كان يشكل

الدولـــة الفتـــية في شمال اليمن رغم ما قيل عن علاقة مصاهرة بينه وبين قبائل صعدة الموالية له أو علاقة ولاء فكري مذهـــبي[٩٩]، إلاّ أنهـــا لم تغن عنه شيئًا. وحاول التحرك غربًا مستعينًا بإمارة زبيد –العباسية[١٠٠]– إلاّ أنها كانت في ضـــعف لم يجعـــلها قادرة على الدفاع عن نفسها فضلاً عن أن تدافع عن غيرها. ومن ثم فقد لاقي إبراهيم بن جعفر مصـــيره المحتوم وشرب من الكأس الذي سقي به خصومه، فقد عرفت عنه القسوة والشراسة والبشاعة في القتل دون رحمة[١٠١].

لقد ظل هذا التيار يتفاعل مع الأحداث وتظهر زعامات قبلية هنا أو هناك توحي الإشارات التاريخية إليها بأنها كانـــت تشكل دولاً –رغم شكنا الكبير في هذا الوصف– ومن هذه الزعامات أحمد العمري في همدان الذي لم يدم طويـــلاً فقضـــي علـــيه[١٠٢]، ومنهم ابن أبي العلاء أمير (لحج) الذي قتل على يد علي بن الفضل[١٠٣]، ومنهم (آل الكرندي) ملوك (المعافر)[١٠٤]، ومنهم (الوائليون) المجاورون لآل مناخ في العدين[١٠٥]، و (المخائيون) في جبل التعكر المعروف بجبل شمسان المطل على عدن[١٠٦].

وعلى الاتجاه نفسه ظهرت زعامات عدة متذبذبة الولاءات وبحسب مصلحتها تغير ولاءها أينما حلت المصلحة مثل (الدَّعام) في همدان، و (الضحاك) في زيدة[١٠٧]، وآل طريف المتغلبين على صنعاء[١٠٨]، وآل المنتاب الذين خلفوا الإسماعيلـــية في مســـور[١٠٩]، والخولانيون بزعامة ابن أبي الفتوح الخولاني الذي كانت له جولات في السيطرة على صنعاء، ومثله (ابن الرُّوية) المذحجي[١١٠].

فهذه القوى القبلية بزعاماتها مثلت تيارًا لم ينته في هذا العصر الذي نرصد فيه تياراته، وإنما صار تيارًا قبليًا لوَّن جل التحركات السياسية في اليمن في عصوره التالية.

هذه هي التيارات التي حفرت أخاديد في تاريخ اليمن في القرون التالية فهي قبلية مذهبية.. موالية لهذه القوة أو تلـــك.. متمرده تعمل لحسابها الخاص من منطلق قبلي أو مذهبي. وأي دارس لليمن لا بد أن يرصد هذه التيارات في منحنيات تاريخ اليمن.

التعليقات

(١) الـــرازي، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب (ت ٦٠٦هـــ/ ١٢٠٩م)، *اعتقاد فرق المسلمين والمشركين* (ومعه كتاب: المرشد الأمـــين إلى اعـــتقادات فرق المسلمين والمشركين لطه عبدالرؤوف سعد ومصطفى الهواري) (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـــ/ ١٩٧٨م)، ٦٤؛ البغدادي، عبدالقادر بن طاهر (ت ٤٢٩هـــ/ ١٠٣٧هـــ)، *الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم*، ط٥ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٢هـــ/ ١٩٨٢م) ، ٦١.

(٢) الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين عامي ٣٥٠ و ٣٦٠هـــ/ ٩٦١ و ٩٧٠م)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد علي الأكوع، بإشراف حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـــ/ ١٩٧٤م)، ٧٠، ١٧٥، ١٧٦.

(٣) عــرفوا في اليمن بالخوارج أو بالإباضية أو المحكمة لأنهم رفضوا التحكيم. الرازي، *اعتقاد فرق المسلمين*، ٥٢، ومنهم من عرف في مغــرب صنعاء بالمُصرَّرَة لأنهم كانوا يتحرزون في بولهم إلى حد أنهم كانوا يربطون حول مجرى البول صرة من الثياب، وربما أطلــق عليهم البياضة، إما نسبة إلى مخلاف البياض في مغرب صنعاء، وإما لأنهم كانوا يلبسون الملابس البيضاء. مسلّم اللحجي، أبوالغمــر مســلم بــن محمد بن جعفر (ت ٥٤٥هــ/ ١١٥٠م)، *تاريخ مسلم اللحجي ويسمى (أخبار الأئمة من أهل البيت وشــيعتهم باليمن)*، ج٤، الذي يضم ثلاث طبقات من علماء الزيدية، (مخطوط مكتبة باريس رقم ٥٩٨٢ خ. القرن الثامن في ٢٦٠ق، لــديَّ صورة عن طريق الأستاذ عبدالله محمد الحبشي)، ٢٠٢- ٢٠٦؛ ابن المجاور، جمال الدين، أبوالفتوح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هــ/ ١٢٩١م)، *صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة (تاريخ المستبصر)*، تصــحيح وضبط أوسكر لوفجرين (لندن: مطبعة بريل، ١٩٥١م)، ٢٧٨. مع العلم أن الإباضية تنفي عن نفسها صفة الخوارج وتجعل نفسها مذهبًا من المذاهب الإسلامية المعتبرة.

(٤) أحمد عطية الله، *القاموس الإسلامي*، ط١ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٦هــ/ ١٩٦٦م)، ١: ٦؛ وتنقسم الإباضية إلى أربــع فرق هي: الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب الطاعة...، وانظر: النجار، عامر، *الخوارج عقيدة وفكرًا وفلسفة*، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠م)، ١٦٥- ١٨٦.

(٥) أبوزهرة (الشيخ) محمد، *تاريخ المذاهب الإسلامية* (القاهرة: دار الفكر العربي)، ٢: ٥٤؛ النجار، *الخوارج*، ١٦٥- ١٦٧.

(٦) الشــجاع، عــبدالرحمن عــبدالواحد، *تاريخ اليمن في الإسلام في القرون الأربعة الهجرية الأولى*، ط٤، المنقحة ٢٠٠٢م (طبعة بإشراف المؤلف)، ١٤٣.

(٧) النجار، *الخوارج*، ١٦٧.

(٨) الســيابي، ســالم بــن حمود، *الحقيقة والمجاز في تاريخ الإباضية باليمن والحجاز*، ٦٢، لقد استشكل على الدكتور عامر النجار (الخوارج ١٧٠) أمر نهايته وخلط بين نهاية عبدالله بن إباض ونهاية عبدالله بن يحيى، فجعل نهاية عبدالله بن إباض في عهد مروان ابن محمد، وأنه قتل على يد عبدالملك بن محمد بن عطية، وأنه قتل في تباله... وهذا غير صحيح؛ لأن المصدر الذي اعتمد عليه وهو كتاب الرازي لم يحدد مكان قتله وإن ذكره المحقق في الهامش ولكن بدون مصدر بالمقصود بالمقتول هنا هو عبدالله بن يحيى الكندي لا عبدالله بن إباض، انظر الرازي، *اعتقادات فرق المسلمين*، ٦٤.

(٩) المرجع نفسه، ٦٢، ٦٣.

(١٠) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٧٥.

(١١) مســلّم الــلحجي، *تــاريخ مســلم* (ق ١٩٤- ٢٦٩)، له أيضًا من أخبار الزيدية، ٣٢، ٣٣، السكسكي، عباس بن منصور (ت ٦٨٣هــ/ ١٢٨٤م)، *البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان*، تحقيق: خليل أحمد إبراهيم أحمد، ط١ (القاهرة: دار التراث العربي، ١٤٠٠هــ/ ١٩٨٠م)، ٩؛ نشوان الحميري، أبوسعيد (ت ٥٧٣هــ/ ٩٩٥م)، *الحور العين*، تحقيق: كمال مصطفى، (طبع بمكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد، مطبعة السعادة بمصر)، ٢٠٢- ٢٠٣.

(١٢) مســلّم الــلحجي، *تاريخ*، ١٩٤؛ له أيضًا *من أخبار الزيدية*، ٣٣، ٣٩؛ ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح، *مطلع البدور ومجمع الــبحور* (مخطوطــة مصورة لديَّ عن نسخة لدى القاضي إسماعيل بن علي الأكوع عن مخطوطة الأستاذ علي بن أبي الرجال، صــنعاء، ٣: ٤٢، المحــلي، أبوالحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت ٦٥٢هــ/ ١٢٥٤م)، *الحدائق الوردية من مناقب أئمة الــزيدية* (المخطوطة مصورة قام بها السيد يوسف المؤيد وعُدت الطبعة الأولى، (١٤٠٢هــ/ ١٩٨٢م)، ٢: ٤٦؛ الأصطخري،

أبوإسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي (ت ٣٤١ أو ٣٤٦هـ/ ٩٥٢ أو ٩٥٧م)، *مسالك الممالك*، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٢٧م)، ٢٥.

(١٣) الهمداني، *جزيرة العرب*، ٧٠، ١٧٥، ١٧٦.

(١٤) الشاطري، محمد بن أحمد بن عمر، *أدوار التاريخ الحضرمي* (جدة: مكتبة الإرشاد، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م)، ١: ١٤٦، ١٤٨؛ وأنظر: المهاجر أحمد بن عيسى.

(١٥) أبوزهرة، *تاريخ المذاهب الإسلامية*، ٢: ٥٤.

(١٦) السيابي، سالم بن محمود بن شامس، *أصدق المناهج وتمييز الإباضية من الخوارج*، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف (وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٧٩م)، ٦٣، ٦٤.

(١٧) أطلق على الحركات: زيد بن علي، ومحمد النفس الزكية، وطباطبا، ويحيى، وإدريس بأنها حركات علوية. وفي اليمن في تهامة عام ٢٠٧هـ قامت حركة نعتت بأنها علوية وقيام الهادي في اليمن في نهاية القرن الثالث الهجري عرفت بأنها حركة علوية أيضًا.

(١٨) البندري، محمد، *التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي*، ط٢ (عمان: دار عمار، ١٩٨٨م)، ٢٠.

(١٩) ابن المجاور، *تاريخ المستبصر*، ٥٧.

(٢٠) الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين عامي ٣٥٠ و ٣٦٠هـ/ ٩٦١ و ٩٧٠م)، الإكليل، تحقيق: محمد علي الأكوع (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ٢: ١٣١؛ الطبري، أبوجعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، *تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٢ (دار المعارف بمصر، د. ت)، ٨: ٥٢٨، ٥٣٦؛ الأشعري، أبوالحسن علي بن إسماعيل (٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، *مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د. ت)، ١٥٦- ١٥٧؛ المحلي *الحدائق الوردية*، ١: ١٩٧، ٢٠٤.

(٢١) الهمداني، *الإكليل*، ٢: ١٣١؛ المحلي، *الحدائق الوردية*، ١: ٢٠٤.

(٢٢) الخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن بن أبي بكر (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، *اليمن في عهد الولاة (الأجزاء الخمسية من الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من أهل الإسلام)*، تحقيق: راضي دغفوس، ٩٨؛ يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد الحسني (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م)، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: د. سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة: دار الكتاب العربي ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ١: ١٤٩.

(٢٣) الشهرستاني، أبوالفتح، محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، *الملل والنحل* [بهامش كتاب الفصل بين الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلس (ت ٤٥هـ)، مصورة بالأوفست، ط٢ (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ١: ١٨٠، ١٨١.

(٢٤) انظر: الغفاري، ناصر بن عبدالله بن علي، *أصول مذاهب الشيعة الأمامية الإثنى عشرية* (رسالة دكتوراه)، ج٣ (الجيزة، مصر: دار الرضا للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ٧٠- ١٠٩.

(٢٥) البنداري، *التشيع*، ٢٠- ٢٥.

(٢٦) ابن سمرة الجعدي، عمر بن علي (ت بعد ٥٨٦هـ/ ١١٨٩م)، *طبقات فقهاء اليمن*، تحقيق: فؤاد السيد (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٧م)، ٧٥.

(٢٧) تعتقد الإمامية الإثنا عشرية أن محمدًا المهدي بن الحسن العسكري بن جعفر الصادق قد غاب سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، وهم ينتظرون عودته ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا.

(٢٨) النعمان، القاضي النعمان بن محمد (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م)، *رسالة افتتاح الدعوة*، تحقيق: وداد القاضي، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٠م)، ٤٤، ٤٥؛ الحمادي، محمد بن مالك بن أبي القبائل الحمادي اليمني (ت نحو ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)، *كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط١(صنعاء، اليمن: مركز الدراسات والبحوث، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ٤١؛ الوصابي، عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الوصابي (ت ٧٨٣هـ/ ١٣٨٠م)، *تاريخ وصاب المسمى (الإعتبار في التواريخ والآثار)* تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط١ (اليمن، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث، ١٩٧٩م)، ٢٣؛ عدن أبين: المعروفة في جنوب اليمن بينما عدن لاعة هي في وادي لاعة في الشمال الغربي من اليمن.

(٢٩) العلوي، علي بن محمد بن عبيدالله العباسي(ت في القرن الرابع الهجري)، *سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين*، تحقيق: د. سهيل زكار، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، ٣٥، ٣٨، ٦٥، ٨٠؛ الجنداري، أحمد بن عبدالله (ت ٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م)، *الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز* (مخطوط، مكتبة الغربية بالجامع الكبير، صنعاء، خ ١٣٣٢هـ في ٢٢٢ق. رقم ٦٥ تاريخ)، ق ٣٠/أ؛ ابن أبي الرجال، *مطلع البدور*، ١: ١٢٩.

(٣٠) النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٣٨؛ الحمادي، *كشف*، ٢١؛ إدريس عماد الدين بن حسين القرشي، *عيون الأخبار وفنون الآثار*، تحقيق: د. مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، د. ت)، ٥: ٣٦؛ الوصابي، *الاعتبار*، ٢٣.

(٣١) انظر: إحسان إلهي ظهير (ت ١٩٨٧م)، *الإسماعيلية تاريخ وعقائد* (لاهور: باكستان، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، د. ت).

(٣٢) النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٣٨؛ إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٣١.

(٣٣) النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٣٨، ٣٩، ٤٠؛ إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٣٦؛ الحمادي، *كشف*، ٤٢.

(٣٤) المصدر الأول نفسه، ٣٨.

(٣٥) النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٣١؛ إدريس، *عيون الأخبار* ، ٥: ٣٩؛ محمد كامل حسين، *مقدمة ديوان المؤيد*، ٥٤؛ حيث قسم الإسماعيليون الأرض إلى إثني عشر قسمًا أو جزيرة.

(٣٦) النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٤١.

(٣٧) المصدر نفسه، ٣٨، ٣٩.

(٣٨) مصطفى غالب، *الحركات الباطنية في الإسلام*، ط٢ (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٩٢، ٩٣؛ مصطفى غالب، *تاريخ الدعوة الإسلامية*، ط٣ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٩م)، ١٣.

(٣٩) الهمذاني، عبدالجبار (القاضي) (ت ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م)، *تثبيت دلائل النبوة* (ضمن كتاب أخبار القرامطة لسهيل زكار)، ١٤٩؛ مصطفى غالب، *القرامطة بين المد والجزر*، ط١ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٩م)، ٣٣٥- ٤٤٠.

(٤٠) النعمان، *افتتاح*، ٥٩.

(٤١) انظر: الشجاع، *تاريخ اليمن في الإسلام*، ط٤، ١٦٤- ١٧١.

(٤٢) القاضي النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٥٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ٣٨.

(٤٤) انظر: الشجاع، *تاريخ اليمن في الإسلام*، ط٤، ١٦٤- ١٦٥.

(٤٥) لما وصل ابن حوشب إلى عدن لاعة وجد رجلاً تزوج ابنته فيما بعد يعرف بأحمد بن خليع، وأنه كان ينتظر قدوم ابن حوشب فمن أين جاءت معرفته بمقدمه ما لم تكن هناك وسائل اتصال بين القيادة الإسماعيلية وأتباعها في المناطق المختلفة.

(٤٦) القاضي النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٤٦- ٤٧.

(٤٧) الشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد، *اليمن في عيون الرحالة*، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ٣٥- ٣٨.

(٤٨) النعمان، *افتتاح*، ٤٤.

(٤٩) إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٣٨.

(٥٠) المصدر نفسه،، ٥: ٣٩.

(٥١) النعمان، *افتتاح*، ٤٤؛ إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٣٨؛ ولعل يحيى بن الحسين (*غاية الأماني* ١: ١٩١)، لما أشار إلى أن علي بن الفضل وابن حوشب دخلا اليمن عام ٢٩١هـ/ ٩٠٣م، ولم يتنبه إلى وجود المرحلة السرية للإعداد، وخلط بين تاريخ خروجها إلى اليمن، وتاريخ ظهورها.

(٥٢) إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٩٠، ٩٢.

(٥٣) النعمان، *افتتاح الدعوة*، ٩٢؛ انظر: القطب، محمد علي، *الفاطميون بين صحة النسب وتزوير التاريخ*، ط١ (بيروت: صيدا، المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ١٨.

(٥٤) الحمادي، *كشف*، ٢٦- ٣٣؛ إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٣٧- ٣٩؛ العلوي، *سيرة الهادي*، ٣٨٩، ٤٠٣؛ الرازي، أحمد بن عبدالله (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق: د. حسين عبدالله العمري وعبدالجبار زكار، ط١ (بيروت: ١٩٧٤م)، ٢٦٣؛ الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين عامي ٣٥٠ و ٣٦٠هـ/ ٩٦١ و ٩٧٠م)، الإكليل، تحقيق: محمد علي الأكوع (دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٨: ٤٨، ١٠٨؛ الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٢٨؛ عريب بن سعد القرطبي (من رجال القرن الرابع الهجري)، *صلة تاريخ الطبري* (ملحق بتاريخ الطبري)، ٢٠؛ الهمذاني، محمد بن عبدالملك، *تكملة تاريخ الطبري* (ملحق بتاريخ الطبري)، ١٩٨.

(٥٥) إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٩، ٩٥، ٩٦.

(٥٦) عارف تامر، القرامطة، ٧٩.

(٥٧) عارف تامر، *القرامطة*، أصلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم (بيروت: دار مكتبة الحياة)، ٧٧.

(٥٨) انظر: الولي، طه، *القرامطة أول حركة اشتراكية في الإسلام*، ط١ (دار العلم للملايين، ١٩٨١م)، ١٥٩- ٢٢٤.

(٥٩) مصطفى غالب، *الحركات الباطنية في الإسلام*، ١٣١، ١٣٢١.

(٦٠) مثل ما قيل عن الغزالي، أبوحامد (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، *فضائح الباطنية*، تحقيق: محمد علي قطب، ط١ (بيروت: الدار العصرية،١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، فضائح الباطنية.

(٦١) إدريس، *عيون الأخبار*، ٥: ٩٤.

(٦٢) مصطفى غالب، *الحركات الباطنية في الإسلام*، ١٣٣.

(٦٣) عبدالجبار الهمداني، *تثبيت دلائل النبوة*، ١٤٩، (ضمن مجموعة أخبار القرامطة، تحقيق: سهيل زكار).

(٦٤) الحامدي، إبراهيم بن الحسين (ت ٥٥٧هـ/ ١١٢٦هـ)، *كنز الولد*، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس ١٩٧٩م)،

٢١١؛ أبوفراس، شهاب الدين (إسماعيلي)، *مطلع الشموس في معرفة النفوس* (الرسالة الأولى من رسائل الإسماعيلية إخراج عامر تامر)، ٣٢، ٣٣، (الرسالة الأولى من أربع رسائل إسماعيلية، إخراج/ عارف تامر).

(٦٥) انظر: النعمان، القاضي النعمان بن محمد (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م)، *تأويل الدعائم*، تحقيق: محمد حسن الأعظمي (مصر: دار المعارف، د. ت)؛ الحامدي، *كنز الولد*، ٢٠٨، ٢٨٦، ٢٨٧؛ النعمان، القاضي النعمان بن محمد (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م)، *الرسالة المذهبية* (ضمن أربع رسائل إسماعيلية إخراج/ عارف تامر)، ٥٧.

(٦٦) ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م)، سفر نامة، ترجمة: د. يحيى الخشاب، ط٣ (دار الكتاب الجديد، د. مكان النشر، ١٩٨٣م)، ١٤٢، ١٤٣.

(٦٧) دي خويه، ميكال بان، *القرامطة، نشأتهم، دولتهم وعلاقتهم بالفاطميين*، ترجمة وتحقيق: حسني زينة، ط١ (بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨٧م)، ١٣٩، وقد نقل هذه الأفكار من كتاب تأويل الزكاة للإسماعيلي جعفر بن منصور اليمن (ابن حوشب) [مخطوط، ليدن]، رقم (١)، ٢٦١٣).

(٦٨) دي خويه، *القرامطة، نشأتهم*، ١٢٩- ١٣٢؛ زكار، سهيل، *أخبار القرامطة في الإحساء — الشام — العراق — اليمن* (دراسة وجمع وتحقيق)، ط٢ (دمشق: دار إحسان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٣٣، ٩٧، ٢٣٠؛ مصطفى غالب، *الإمامة وقائم القيامة* (بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٨١م)؛ سامي العياش، *الإسماعيلية في المرحلة القرمطة*، ٢٣٩.

(٦٩) انظر: الشجاع، *اليمن في عيون الرحالة*، ٤١- ٤٤.

(٧٠) الشهرستاني، *الملل والنحل*، ١: ١٨٩.

(٧١) الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين عامي ٣٥٠ و ٣٦٠هـ/ ٩٦١ و ٩٧٠م)، الإكليل، ج١، تحقيق: محمد علي الأكوع، ط٢ (بغداد: دار الحرية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ١: ٣٣٣- ٣٣٨؛ ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ٧٥.

(٧٢) ابن المجاور، *تاريخ المستبصر*، ٥٧.

(٧٣) الهمداني، *الاكليل*، ٢: ١٣١؛ الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٢٨، ٥٣٦؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، *تاريخ ابن خلدون* (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت د. ت)، ٥: ٥١٤- ٥١٨؛ الأشعري، *مقالات الإسلاميين*، ١٥٦- ١٥٧؛ المحلي، *الحدائق الوردية*، ١: ١٩٧.

(٧٤) الهادي إلى الحق، يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨هـ/ ٩١٠م)، *المجموعة الفاخرة* (صورت المخطوطة بالأوفست وعُدت الطبعة الأولى (صنعاء : مكتبة اليمن الكبرى)، ٤٩.

(٧٥) انظر: العلوي، *سيرة يحيى بن الحسين* ففيها التفاصيل الكافية لهذا الدور الذي قام به يحيى بن الحسين، الشجاع، *اليمن في عيون الرحالة*، ٢٦- ٣١.

(٧٦) الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، *المجموعة الفاخرة*، ٤٩.

(٧٧) الشهرستاني، *الملل والنحل*، ١: ١٨٣؛ المرتضي، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)، *المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل*، صحيح نوما ارنلد ١٣١٦هـ (حيدر أباد، الدكن: دائرة المعارف النظامية)، ٩٧؛ وانظر: الأكوع، إسماعيل بن علي (القاضي)، *الزيدية، نشأتها ومعتقداتها*، ط٣ (د. ت،١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ١٠٧.

(٧٨) السياغي، الحسين بن أحمد (ت ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م)، *الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير*، ط٢ (الطائف، السعودية:

مكتبة المؤيد، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ١: ٤٣؛ يحى بن الحسين بن القاسم بن محمد الحسني (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م)، *طبقات الزيدية الصغرى وتسمى (الطبقات في ذكر فضل العلماء وعلمهم ومصنفاتهم)* (مخطوط.. لديَّ صورة منه عن المكتبة المركزية بصنعاء)، ق٤.

(٧٩) أبوزهرة، *تاريخ المذاهب الإسلامية*، ٢: ٤٩٧.

(٨٠) السياغي، *الروض النضير*، ١: ١١٥، ١١٦.

(٨١) يحين بن الحسين، *طبقات الزيدية الصغرى*، ٦، ٦٦.

(٨٢) إبراهيم بن القاسم بن المؤيد، صارم الدين (توفي نحو ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، *طبقات الزيدية الكبرى وتسمى: (نسمات الأسحار في طبقات رواة كتب الفقه والآثار) و (طبقات الزيدية رواة الفقه والآثار)* (مخطوطة مصورة لدى الباحث عن مخطوطة القاضي حسين السياغي، صنعاء)، ٣.

(٨٣) انظر: الشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد، *الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجري* (رسالة الدكتوراه- تحت الطبع)، ٣٠١- ٣٠٧.

(٨٤) الحمزي، *كنز الأخيار*، ٥٠، ٥١؛ الهمداني، *الاكليل*، ٢: ١٨٢؛ مجهول، *تاريخ اليمن في الكوارث والفتن* (مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، على ميكروفيلم رقم ١٨ عن مخطوط الامبروزيانا G10) مصورة لدي عن نسخة مصورة للأستاذ محمد بن علي الأكوع ، (ق ١٢٣- ١٦٨)؛ الأكوع، محمد بن علي، *الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢هـ/ (جمع وتحقيق)*، ط١ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، ٢٣٤.

(٨٥) الهمداني، *الاكليل*، ١: ٤٧٥ و ٢: ١٨١؛ ابن جرير، إسحاق بن يحيى بن جرير الصنعاني الطبري (ت نحو ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، *تاريخ صنعاء*، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي (صنعاء: مكتبة السنحاني، د. ت)، ٦٣.

(٨٦) الهمداني، *الاكليل*، ٢: ١٨٢؛ مجهول، *تاريخ اليمن*، (ق ١٢٣/أ)؛ الأكوع، *الوثائق السياسية*، ٢٣٤.

(٨٧) انظر: الشجاع، *تاريخ اليمن في الإسلام*، ١٨٤.

(٨٨) انظر: الأكوع، *الوثائق السياسية* (ما يخص الوثائق المتعلقة باليعفريين).

(٨٩) الاكليل، ٢: ٦٦؛ وصفة جزيرة العرب، ٢٢٢، ٢٥٩، انظر: نشوان الحميري، أبوسعيد (ت ٥٧٣هـ/ ٩٩٥م)، *ملوك حمير وأقيال اليمن*، قصيدة نشوان وشرحها، تحقيق: إسماعيل بن أحمدر الجرافي وعلي بن إسماعيل المؤيد (بيروت: دار العودة، صنعاء: ودار الكلمة، ١٩٧٨م)، ١٨٠؛ الوصابي، *تاريخ وصاب*، ١٨، ١٠١.

(٩٠) عركبة: هو الاسم القديم لما يعرف بوصاب ذلك الجبل المتسع والواقع إلى الجنوب الغربي من صنعاء بمسافة ١٨٢كم. المقحفي، إبراهيم أحمد، *معجم البلدان والقبائل اليمنية*، ط٢ (بيروت: دار الكلمة، ١٩٨٥م)، ٧٤٥).

(٩١) ملوك حمير، ١٨٠؛ الوصابي، *تاريخ وصاب*، ١٨.

(٩٢) الوصابي، *تاريخ وصاب*، ١٠١.

(٩٣) الوصابي، *تاريخ وصاب*، ١٠١.

(٩٤) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٩٣.

(٩٥) مجهول، *تاريخ اليمن*، (ق ١٦٨: أ، ب)؛ ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ٢٤٧/٦.

(٩٦) الهمداني، *الاكليل*، ٢: ٩٣، ٩٤؛ نشوان الحميري، *ملوك حمير*، ١٦٧.

(٩٧) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٢١١؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١: ١٤٨، ١٤٩.

(٩٨) الحمادي، *كشف أسرار الباطنية*، ٣٠.

(٩٩) العلوي، *السيرة*، ٢٤.

(١٠٠) الهمـــداني، *الاكليل*، ٢: ١٩٣؛ الحمادي، *كشف اسرار الباطنية*، ٢٨- ٣٠؛ الخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن بن أبي بكر (ت ٨١٢هـــ/ ١٤٠٩م)، *العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك*، (صنعاء: وزارة الإعلام، المخطوط مصورًا بدار الفكر بدمشـــق، د. ت)، ٣٩؛ ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٩٤٤هـــ/ ١٥٣٧م)، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (القاهرة: السلفية، د. ت)، ١: ١٩٢، ١٩٣.

(١٠١) الحمادي، *كشف أسرار الباطنية*، ٢٩.

(١٠٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـــ/ ٨٩٧م)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٢: ٤٦١.

(١٠٣) الحمادي، *أسرار الباطنية الباطنية*، ٢٨- ٣٠.

(١٠٤) الهمداني، *الاكليل*، ٢: ٢٤١، ٢٧٩؛ ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٠٥.

(١٠٥) ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٠٥.

(١٠٦) الهمداني، *الاكليل*، ١: ٢٢٩؛ العلوي، *السيرة*، ٤٠٦؛ ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٠٥؛ تعليق الأكوع على تاريخ اليمن لعمارة، ١٧٤.

(١٠٧) مجهول، *تاريخ اليمن*، (ق ١٢٩/أ)؛ الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين عامي ٣٥٠ و ٣٦٠هـــ/ ٩٦١ و ٩٧٠م)، *الإكلـــيل*، تحقيق: محب الدين الخطيب (القاهرة: السلفية ١٣٦٨هـــ، ١٠: ١٨٠، ١٨٢؛ الخزرجي، *اليمن في عهد الولاء*، ١١٤.

(١٠٨) الهمداني، *الإكليل*، ١٠: ١٨٢؛ العلوي، *السيرة*، ٢٤٥، ٢٥١؛ مجهول، *تاريخ اليمن*، (ق ١٢٩/أ).

(١٠٩) الحمـــادي، *أسرار الباطنية*، ٤١؛ الهمداني، حسين بن فيض الله (الدكتور)، *الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (من سنة ٢٦٨هـــ إلى ٦٢٦هـــ)* (صنعاء: وزارة الإعلام والثقافة، د. ت)، ٥٤، ٥٥.

(١١٠) ابـــن رســـتة، أبو علي أحمد بن عمر (ت بعد ٢٩٠هـــ/ ٩٠٣م)، *الأعلاف النفيسة* (ليدن: هولندا، مطبعة بريل، ١٨٩١م)، ١١٣؛ الهمداني، *صفة*، ٢٣٦؛ العلوي، *سيرة*، ٢٤٠.

الصلات العلمية بين الحجاز واليمن حتى عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م

عامر جادالله أبوجبلة

قسم التاريخ – جامعة مؤتة
الأردن

الصلات العلمية بين الحجاز واليمن حتى عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م

بدأت الصلاة العلمية بين الحجاز واليمن في وقت مبكر من الدعوة الإسلامية في مكة[١] ثم من خلال الوفود التي جاءت إلى المدينة لتقابل النبي ﷺ في العام التاسع للهجرة النبوية[٢]، حيث كان النبي يرسل معهم من يعلمهم القرآن الكريم وسننه الشريفة ومبادئ الإسلام[٣]. هذا فضلاً عن جهود عمال الرسول ﷺ على اليمن الذين رسخوا علوم القرآن، والحديث والفقه، وما يتصل بها في حواضر اليمن العديدة، ومساجدها المشهورة، ومن أمثال هؤلاء الصحابة والتابعين: معاذ بن جبل (ت ١٨هـ/ ٦٣٩م) [٤]. الذي أصبح له تلاميذ في اليمن في قراءة القرآن ومنهم أبو عمرو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي (ت ٧٥هـ/ ٦٩٤م)، وغيرهم[٥] كما بعث النبي ﷺ كذلك كلا من علي بن أبي طالب[٦] وخالد بن الوليد[٧] وأبي عبيدة عامر بن الجراح[٨] للغاية نفسها.

وكان لموسم الحج منذ البدايات أثره الواضح في صلات العلماء وطلبة العلم اليمنيين مع علماء الحجاز، ومن يفد إلى مكة من العلماء، لما يوفره موسم الحج من لقاء بين علماء الأمة من شتى بقاعها ومراكزها العلمية، وهذا يفيد أساسًا في تبادل العلوم والمعارف، فيذكر أن عمرو بن ميمون الأودي من حضرموت (ت ٧٥هـ/ ٦٩٤م) كان صاحب معاذ بن جبل، وقد اشتهر عمرو الأودي هذا بالعلم والعمل، حج مائة مرة ما بين عمرة وحجة، وقد وفرت له رحلاته إلى مكة فرصة الالتقاء، بعمر، وعلي، وابن مسعود، وعبدالله بن عمر، وابن عباس، فروى عنهم الحديث[٩].

ويشار إلى أحد التابعين من اليمن وهو عثمان بن حاضر الحميري أبوحاضر أحد أصحاب ابن عباس (ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م) كان قدم مكة وحدثهم بها فكتب عنه أهل الحجاز[١٠].

ومن علماء اليمن الذين كانوا يرحلون باستمرار إلى مكة في مواسم الحج أبو عبدالله المغيرة بن حكيم الصنعاني،

وهــو معــدود من كبار التابعين من أهل صنعاء، أدرك الصحابة، وله رواية، وكان المغيرة هذا قد سافر إلى مكة من صنعاء، خمسين سفرا[١١].

ويذكــر أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ/ ٧١٢م) كان يتردد على اليمن لزيارة أخواله، حيث كان يطيل الإقامة بالقرب من عدن[١٢]. كما يشار إلى أن المغني المشهور في مكة الغريض عبدالملك (ت ٩٥هـ/ ٧١٤م) كــان قــد زار اليمن وأقام فيها مدة، وذكر له مجلس غناء، غنى فيه على العود، أبياتًا من شعر زهير، وكانت وفاته باليمن[١٣].

وكان أبو عبدالرحمن طاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦هـ/ ٧٢٤م) عالم اليمن[١٤] قد رحل إلى مكة ولزم ابن عباس[١٥] كان مقامه مدينة الجند ويتردد مع ذلك إلى صنعاء، وربما أقام يها، ويذكر أنه كان قد أدرك خمسين من أصــحاب رسول ﷺ[١٦] وغيرهم من العلماء الذين اجتمع بهم أثناء رحلاته إلى مكة، مثل: الحسن البصري، وعمرو ابن دينار، وغيرهم[١٧].

وكــان عكرمة (ت ١١٣هـ/ ٧٣١م) مولى لابن عباس في مكة وكان ابن عباس قد اجتهد في تعليمه، حتى أصبح أحد فقهاء مكة والتابعين فكانت له رحلة إلى بلدان عديدة منها اليمن[١٨].

ويشار إلى عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥هـ/ ٧٣٣م) المولود في الجند من اليمن سنة سبع وعشرين، بأنه انتقل إلى مكــة وتفقــه بجماعة من الصحابة وعلى رأسهم ابن عباس، وقال ابن جريح عالم مكة في عطاء: "كان المسجد لعطــاء فراشا عشرين سنة... وكان من أعلم الناس بالمناسك" فكانت نشأة عطاء بمكة حتى أصبح فقيها، والمفتي في مواسمها زمن بني أمية[١٩].

ويذكــر أن الولــيد بن السروي، من تابعي أهل اليمن أدرك أنس بن مالك الأنصاري (ت ٩٣هـ/ ٧١٢م) وصــلى خلف عمر بن عبدالعزيز بالمدينة[٢٠] كما يشار إلى عثمان بن يزدويه من اليمن الذي أدرك كذلك أنس بن مالك، ويذكر عنه قوله: "قدمت المدينة، وعمر بن عبدالعزيز وإليها، فصليت الصبح خلفه، ومعنا أنس بن مالك فيمن صلى خلفه[٢١].

وكــان وهــب بــن منبه بن كامل (ت ١١٤هـ/ ٧٣٢م) إمامًا في صنعاء، من القراءة، والمحدثين، والفقهاء المشهورين في اليمن، وكان قد لقي عشرة من أصحاب رسول ﷺ من بينهم ابن عباس في مكة، الذي صحبه وهب ثــلاث عشرة سنة، فأخذ عنه علمًا كثيرًا، حتى أن ابن عباس كان يأذن له بالكلام في مجلسه، ويذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان قد أمر أخاه محمد بن يوسف وهو يومئذ والي صنعاء والجند أن يقرأ على أفضل من يقرأ عليه في اليمن، فقرأ على وهب بن منبه[٢٢].

وكــان أخو وهب، همام بن منبه (ت ١٣١هـ/ ٧٤٩م) من ثقات التابعين كان يشتري الكتب لأخيه وهب،

وكان همام هذا قد لازم أبا هريرة، فأخذ عنه مائة وأربعين حديثًا، وصنفها في رسالة "الصحيفة الصادقة" أو "الصحيحة" والتي تعتبر أقدم تأليف في الحديث النبوي[٢٣] وذلك نتيجة حضوره حلقة أبي هريرة عند منبر النبي ﷺ في المدينة[٢٤].

وكان عمرو بن حبيب القاضي، من أهل مكة انتقل إلى اليمن، ممن صحب عطاء، وعمرو بن دينار، وغيرهما من التابعين، ويشار إليه بأنه كان شيخًا صالحًا عزيز الحديث[٢٥].

ومن علماء القراءات اليمنيين عبدالله بن كثير المقرئ (ت ١١٦هـ/ ٧٣٤م) وكان قد قرأ على مجاهد من علماء الحجاز القرآن الكريم[٢٦].

ومما يدل على استمرار الاتصال ما بين الحجاز واليمن في مجال العلوم الفقهية ارتحال عمرو بن دينار (ت ١٢٥هـ/ ٧٢٤م) من صنعاء إلى مكة حيث نشأ فيها، وتفقه على جماعة من الصحابة، وأخذ عنه علماء آخرون، وبسبب علو مكانته العلمية قال طاووس اليماني لابنه عبدالله: "إذا قدمت مكة فجالس عمرو بن دينار فإن أذنه قمع للعلماء"[٢٧].

وقال سفيان بن عيينه، قالوا لعطاء: "بمن تأمرنا بعدك؟ قال: بعمرو بن دينار"[٢٨]، وهذا دليل على مكانة ومنزلة عمرو بن دينار في العلم في مكة، والتي تحصل عليها بعد قدومه إليها من اليمن وإقامته الدائمة فيها.

وكان عبدالله بن طاووس (ت ١٣٢هـ/ ٧٥٠م) من العلماء المرحول إليهم في صنعاء، إذ كان فقيها، عالمًا بالعربية، وقصده الناس للعلم، ومن بينهم معمر بن راشد البصري[٢٩] الذي سكن صنعاء، وارتحل إلى معمر فيما بعد سفيان بن عيينه من مكة[٣٠].

ومما تقدم يمكن القول أن الصلات العلمية بين الحجاز واليمن كانت مستمرة، ولم تتوقف، بل كانت مزدهرة ووثيقة قبل اعتلاء العباسيين للسلطة في بغداد، وقد شكلت تلك الصلات العلمية خلال فترة ما قبل العباسيين الأساس الموضوعي، لاستمرارها في العصر العباسي، بل وبازدياد ملحوظ، فهذا معمر بن راشد البصري (ت ١٥٣هـ/ ٧٧٠م) قد رحل إلى صنعاء، وتفقه بعبدالله بن طاووس، وهمام بن منبه، وغيرهم من علماء اليمن[٣١] حتى أصبح معمر هذا من علماء صنعاء، فأخذ عنه العلم جماعة من العلماء الكبار في اليمن مثل: "عبدالرازق، والقاضي هشام"[٣٢]، ومن الذين ارتحلوا إليه من مكة سفيان الثوري، وسفيان بن عيينه، وعبدالله بن مبارك، كما يذكر أن لمعمر هذا كتابًا هو: الجامع المشهور في السنن، الذي هو أقدم من الموطأ[٣٣].

ومن الواضح أن ازدياد حلقات إقراء القرآن الكريم وتعليمه في مساجد الأمصار، أدى إلى ازدياد عدد القراء، وإلى ظهور مشاهير منهم تميزوا بقراءاتهم وعلى رأسهم أبوعمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ/ ٧٧٠م)[٣٤] الذي قدم إلى

اليمن ودخل صنعاء وعدن[٣٥]، ويذكر أن ممن تتلمذ عليه في صنعاء في قراءة القرآن، أبو خليد محمد بن ماهان صاحب معمر[٣٦] وكذلك مكرم بن إسماعيل بن الزبير الأبناوي، أحد أئمة صنعاء في القراءة والذي قرأ على محمد ابن عمر البصري، بقراءة أبي عمرو بن العلاء[٣٧]. وكان أبوعمرو بن العلاء عالمًا نحويًا[٣٨].

ومن علماء مكة الذين رحلوا إلى صنعاء لأخذ العلم عن علمائها عبدالملك بن جريج (ت ١٥٥هـ/ ٧٧١م) الذي أخذ الحديث والفقه عن عمرو بن عبيد بن حيرد إمام أهل صنعاء، الذي أدرك ابن الزبير وصلى خلفه[٣٩] كما تفقه على ابن جريج في صنعاء القاضي أبو عبدالله هشام يوسف الأبناوي (ت ١٩٧هـ/ ٨١٢م) وكان هشام الأبناوي هذا أحد شيوخ الشافعي في اليمن[٤٠] وله في الصحيحين عدة أحاديث[٤١]. وكان ابن جريج كذلك أثناء إقامته في مكة قد تتلمذ على علماء اليمن في مكة، عطاء، وعمرو بن دينار حيث قال ابن جريج: "ما دون هذا العلم تدويني أحد جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاء سبع سنين"[٤٢]، حيث يذكر أن ابن جريج كان أول من صنف الكتب في الإسلام، حيث كان قد لازم حلقة عطاء بن أبي رباح عشرين سنة[٤٣].

ومن فقهاء التابعين باليمن أبو مسلم الكشي، كان يتردد بين صنعاء ومكة، وزبيد، وسمع عليه شيوخ كثير[٤٤].

وكان سفيان الثوري (ت ١٦١هـ/ ٧٧٧م) قدم صنعاء سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة، فأخذ عنه العلم أهل صنعاء، ويشار إلى أنه صنف لهم كتابًا يعرف بـ: "معلم سفيان" وضع فيه ما يحتاج إليه المسلم من أمر دينه ودنياه، فكان هذا الكتاب في كل دار من صنعاء، إلى جانب المصحف الشريف، وكانت إقامة سفيان الثوري في صنعاء أربعين يومًا، يحدثهم كل يوم بمائة حديث[٤٥] قال عنه سفيان ابن عيينة: "ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري"[٤٦].

ويشار إلى أن مذهب الإمام مالك (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) في الفقه، قد انتشر في اليمن، وبخاصة في وصاب، وذلك من خلال علي بن محمد بن أحمد التباعي، الذي أدرك الإمام مالك في القرن الثاني، أخذ عنه[٤٧]، ولكن لم يكن لهذا المذهب الانتشار الواسع، فاختفى بعد وقت قصير من ظهوره[٤٨].

ومن علمائه اليمن وفقهائه الذين التقوا بالإمام مالك عالم المدينة واستمعوا له، بكر بن عبدالله الصنعاني الذي قال: "أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأي، فكنا نستزيده من حديث ربيعة"[٤٩].

وكان عبدالله بن المبارك بن واضح (ت ١٨١هـ/ ٧٩٧م) من علماء الحجاز، قد تفقه على مالك بن أنس في المدينة[٥٠] وقد رحل إلى اليمن والتقى معمر بن راشد في صنعاء، وقال فيه أحمد بن حنبل: "لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن وإلى مصر، وإلى الشام والبصرة، والكوفة، وكان من رواة العلم"[٥١].

ويذكر من فقهاء اليمن مطرف بن مازن الكناني (ت ١٩١هـ/ ٨٠٦م) الذي ولي الفقهاء بصنعاء في خلافة

المهـــدي العباســـي، كـــان محدثًـــا فقيهًا، حدث عن ابن الجريح عالم مكة، وغيره، كما روى الشافعي حينما كان باليمن(٥٢).

ومن شعراء اليمن في عدن الشاعر محمد بن مناذر العدني (ت ١٩٨هـــ/ ٨١٣م). وهو شاعر مجيد محسن، ولد بعـــدن، وتأدب، وتخرج بها، ثم طمحت نفسه إلى المزيد من المعارف فشد الرحال إلى البصرة(٥٣) حيث التقى علماء اللغـــة في البصـــرة، مثل الخليل، ويونس، وأبي عبيده، وغيرهم(٥٤) ثم أنتقل إلى مكة حيث لزم المسجد الحرام، فكان المهتمون بالشعر، والأخبار والنحو، والغريب، من حوله يكتبون عنه(٥٥). كما يشار إلى أن يونس بن حبيب النحوي البصـــري، كان قد لقى الشاعر ابن مناذر العدني في مكة، الذي أجابه عن مسألة لم يجبه عنها أبو عبيدة، فقام يونس الـــنحوي بـــنقل الإجابـــة إلى أبي عبيدة(٥٦). ويذكر أن سفيان بن عيينة عالم مكة المشهور، كان يسأله عن غريب الحديـــث، ومعانيه فيجيبه ابن مناذر عن ذلك(٥٧). هذا فضلاً عن أن ابن مناذر الشاعر كان "قارئًا تروى عنه حروف تفرد بها"(٥٨).

وكـــان سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـــ/ ٨١٣م) أحد الأئمة الأعلام في مكة(٥٩) في الحديث والتفسير، وكان إمامًا عالمًا ثبتًا ورعا، مجمعًا على صحة حديثه وروايته، قال الشافعي: "لولا مالك وسفيان لذهب علـــم الحجاز"(٦٠)، وقال أحمد بن حنبل: "ما رأيت أحدًا أعلم بالسنن من أبن عيينة"(٦١). وأكد الشافعي على مقدرة سفيان بن عيينة في الإفـــتاء، مع أنه شديد الابتعاد عنه، إذ قال الشافعي: ما رأيت أحدًا فيه من آلة الفتوى ما في سفيان، وما رأيت أحدًا أكف عن الفتوى منه"(٦٢).

قـــدم سفيان بن عيينة إلى اليمن وأقام في صنعاء، ويذكر أنه خرج ذات يوم فرأى الناس مد بصره يريدون أن يســـمعوا منه(٦٣) وهذا يشعر بمنزلة سفيان بن عيينة العلمية من جهة، وبمدى اهتمام وحرص طلبة الفقه والحديث في صنعاء على تلقي العلم عن عالم الحجاز سفيان بن عيينة، كما وصفه الشافعي(٦٤) حتى أن الإمام عبدالرزاق الصنعاني أمام أهل صنعاء، كان قد سمع من سفيان بن عيينة وذلك سنة (١٨٠هـــ/ ٨٩٦م) (٦٥).

ومـــن ذمـــار من اليمن اشتهر المحدث أبوهشام عبدالملك الذماري (ت ٢٠٠هـــ/ ٨١٥م)، أخذ عنه أحمد بن حنبل، والبخاري، وابن معين، وغيرهم(٦٦). وذمار مدينة مشهورة بعلمائها(٦٧) ولها جامع ومساجد مشهورة(٦٨).

ومن فقهاء اليمن المشهورين أبوقرة موسى بن طارق الزبيدي (ت ٢٠٣هـــ/ ٨١٨م)، العارف بالسنن والآثار، ويذكر له رواية عن مالك، والسفيانين، ومعمر، وابن جريج، وكان يرتحل داخل اليمن، وإلى مكة، حتى أصبح له في الجند وعدن ولحج ومكة، ووادي زبيد، في كل واحدة من هذه البلاد رواية وأصحاب(٦٩) نقلوا منه السنن(٧٠)، إضافة إلى أن أبـــا قـــرة هـــذا كان من القراء، حيث كان قد أدرك نافعًا القارئ (ت ١٧هـــ/ ٧٣٥م)، وأخذ عنه قراءته للقرآن(٧١) وهذا يوضح مدى علاقة علماء اليمن الوثيقة بعلماء الحجاز من خارج مدينة صنعاء، حيث أن أبا قرة هذا

كانت إقامته في وادي زبيد[٧٢].

ويذكر أن أبا قرة موسى بن طارق الزبيدي كان قد روي عن أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ/ ٧٦٧م) [٧٣]، ولكن المذهب الحنفي من المفترض أن ينتشر في اليمن في الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري، لأنه منذ خلافة الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦- ٨٠٨م) كان القضاة على المذهب الحنفي، إذا كان القاضي أبو يوسف قاضي القضاة (ت ١٨٢هـ/ ٨٩٨م) لا يولي إلا من أشار به، حيث كان على المذهب الحنفي، ومن المرجح انتشار مذهب أبي حنيفة في اليمن بهذه الطريقة[٧٤]. ويشار إلى أنه ظل منتشرًا في بعض قرى وادي زبيد من تهامة، وفي بعض أسر زبيد نفسها، وفي ناحية جبل أشرق من أنس وغيرها[٧٥]، وهذا مؤشر على أن أبا قرة الزبيدي كان قد نشر المذهب الحنفي في هذه البلاد في وقته.

أما الشافعي (محمد بن إدريس ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، فقد نشأ في مكة، وتعلم القرآن على سفيان بن عيينة، ثم خرج إلى المدينة فقرأ الموطأ على مالك بن أنس، وحفظه[٧٦] ورحل إلى اليمن مع جده عبيدالله الذي أخرجه معه إلى صنعاء وأدبه وحضه على طلب العلم، حيث قال: قدمت اليمن فكنت عند شيخ بها أسمع منه الحديث[٧٧]. ويذكر الشافعي رحل إلى اليمن زمن الرشيدي فلما صار في نجران تسلم قضاءها[٧٨]. ثم أشار الشافعي نفسه إلى أنه كان يدور في بلاد اليمن لطلب الحديث[٧٩] ودخل صنعاء وأخذ العلم عن قاضي صنعاء يومئذ وهو هشام بن يوسف، وعن مطرف بن مازن[٨٠]، كما دخل على القاضي حسين الطبري، صاحب هجر، ووادي الفروات من بلاد سنحان لطلب العلم[٨١]. وقصد الشافعي كذلك حجر بن قيس المدري، نسبة إلى مدرات بوادي جند، للأخذ عنه والاستماع إليه[٨٢]، وذكر من شيوخ الشافعي في الفقه والحديث محمد بن خالد الجندي، من اليمن[٨٣]، كما يشار إلى زواج الشافعي في مدينة صنعاء[٨٤].

ويذكر أن الفقيه عبدالعزيز بن يحيى الكناني المكي الذي عاش حتى حدود سنة ٢٤٠هـ، كان قد رافق الشافعي عندما رحل إلى اليمن، وذكر عن عبدالعزيز هذا بأنه المكي المتكلم، أحد أصحاب الشافعي أخذ عنه، وطالت صحبته واتباعه له[٨٥].

إن ترحال الشافعي بين الحجاز واليمن يشعر بأن الشافعي كان قد تأثر وأثر في مجال الحركة العلمية في هذه البلاد وذلك من خلال تسلمه لقضاء نجران، ومن خلال تجواله في بلاد اليمن لطلب الحديث على شيوخها وعلمائها، وإقامته في صنعاء، كل ذلك من شأنه أن يؤسس قاعدة أولية لمذهبه في اليمن الذي انتشر في مرحلة لاحقة من تاريخ اليمن، تحديدًا في مطلع القرن الرابع الهجري[٨٦]. حيث يذكر أن أول من أظهر مذهب الشافعي في اليمن الفقيه المحافظ موسى بن عمران المعافري (الذي ذكر في المائة الرابعة) ويشار إلى أنه روي كتاب المنتقى في السنن عن مؤلفه ابن أبي الجارود المكي[٨٧].

ومـــن علماء الحديث والفقه في اليمن الإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م) الذي تتلمذ على عالم مكة عبدالملك بن جريج [٨٨] ويذكر أن عبدالرزاق كان يرحل في أعمال تجارية، حتى أنه في إحدى رحلاته تلـك رحل في تجارة إلى الشام، وذكر أنه لقي كبار علمائها وسمع منهم[٨٩]. وفي هذا إشارة إلى جمعه في رحلاته بين رحلـة التجارة والعلم، وأفادته من تواجده في مراكز العلم من علمائها، حتى صار إمامًا يرحل إليه في صنعاء العلماء وتلامـيذ الفقـه من الآفاق لفقهه ومن أجل علمه، فرحل إليه كبار العلماء مرورًا بمكة مثل: إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) وعلي بن المديني (ت ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م) ومحمود بن غيلان[٩٠]. أبي خيثمة زهير بن حرب[٩١].

وكان هؤلاء العلماء الذين رحلوا إلى عبدالرزاق الصنعاني قد رحلوا إليه قبل نهاية القرن الثاني الهجري ففتح لهم داره وهي فيما يبدو مكتبته الخاصة، فيها أصول الأحاديث والفقه، لينقلوا ويدونوا منها الأحاديث، وهذا يستشف من قـول عبدالرزاق الصنعاني لهم: "هذا البيت ما دخلته يد غيري منذ ثمانين سنة، أسلمه إليكم بأمانة الله، على أنكم ما تقولـون ما لم أقل، ولا تدخلون على حديثًا من حديث غيري، ثم أومأ إلى أحمد (ابن حنبل) وقال: أنت أمين الدين علـيك وعلـيهم"، فأقـاموا عنده حولا[٩٢]. ويشار إلى عبدالرزاق بأنه أحد أئمة الأمصار المعدودين، ومن مصنفاته "مصـنف عبدالرزاق في الحديث، وله تاريخ"[٩٣]، ويذكر أنه بسبب كثرة الراحلين إلى عبدالرزاق الصنعاني قيل عنه: "لم يرحل إلى أحد بعد رسول الله ﷺ، في طلب العلم كما رحل إلى عبدالرزاق[٩٤].

ومـن عـلماء الـيمن الذيـن اشتهروا بعلم القراءة، قراءة القرآن في صنعاء، المقرئ بكر بن الشرود (ت بعد ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م) الـذي كـان قد أخذ قراءة نافع المدني (ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م) عن عيسى بن وردان الحذاء (ت ١٦٠هـ/ ٧٧٦م) الذي كان من أقدم أصحاب نافع، وأخذ قراء كثيرون عن بكر بن الشرود، بقراءة نافع منهم محمـد بن عمر السمسار[٩٥] ويذكر أن عبدالرزاق الصنعاني إمام اليمن المشهور كان قد تتلمذ على بكر بن الشرود هذا[٩٦].

ومن القراء اليمنيين من أخذ بقراءة حمزة (ت ١٥٨هـ/ ٧٧٤م) مثل: عبدالله بن صالح بن أبي غسان في صنعاء (ت بعـد ٢١٠هـ/ ٨٢٥م)، وكان يقرأ أيضًا بقراءة عاصم الكوفي (ت ١٢٧هـ/ ٨٤٥م) [٩٧]. ويذكر أن قراءة عاصـم، كانـت قد عرفت في اليمن عن طريق أبي كرب الكوفي (ت ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) الذي دخل اليمن، وكان تلميذًا لأبي بكر سالم بن عياش (ت ١٩٣هـ/ ٨٠٨م) أحد تلاميذ عاصم وراوي قراءته[٩٨].

أما قراءة أبي عمرو بن العلاء فيذكر أنها كانت متداولة في صنعاء في القرن الثالث الهجري، على يد أبي العكار ابن إسماعيل بن الزبير[٩٩].

وكـان الإمـام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) قد أقام فترة في مكة يتلقى العلم، وشوهد في المسجد الحرام مع الشافعي[١٠٠]. ويذكر أن الإمام أحمد كان قد رحل إلى اليمن سنة (١٩٩هـ/ ٨١٤م) وكان بصحبته يحيى

ابــن معين حيث سمعا وأخذا العلم عن إمام صنعاء المشهور عبدالرزاق الصنعاني صاحب المصنف، كما أفاد أحمد ابن حنــبل من سماع كتب عبدالرزاق، حتى بلغ عدد الشيوخ الذين روى عنهم الإمام أحمد في "مسنده" أكثر من مائتين وثمانين[١٠١]. كما أخذ الإمام أحمد بن حنبل الحديث والفقه عن عبدالملك الذماري، قاضي صنعاء[١٠٢]. كما رحل إلى عــدن للقــاء فقيهها إبراهيم بن أبان ليأخذ عنه الحديث فلم يجده[١٠٣] ويشار إلى إبراهيم بن أبان كان فقيهًا محدثًا. ويقــول فيه الشرجي "يكفيه فضيلة ارتحال الإمام أحمد بن حنبل إليه[١٠٤]". ويشير الجندي إلى أحمد بن حنبل بقوله: "كــان ذا علم شهير وفقه كثير، أحد أعيان الإسلام، وفضلاء الأنام، وكتابه "المسند" وما جمع فيه من الأحاديث لم تتفق لغيره، يدل على تميزه على سائر الفقهاء والمحدثين[١٠٥].

ومــن المحدثــين من عدن محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧هـ)، الذي تولى القضاء بها، وسكن مكة فسمع من كبار المحدثين أمثال: مسلم ابن حجاج القشيري، وأبي عيسى الترمذي وقال: حججت ستين حجة ماشيا، وقيل حج سبعا وسبعين حجة وصار شيخ الحرم في زمانه[١٠٦].

ومــن علماء الكوفة في الحديث أبوكريب بن محمد بن العلاء (ت ٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، كان قدم صنعاء وأقام فيها، وأخذ عن علمائها، وأدار بعض الحوارات العلمية مع بعض علمائها مثل عبدالوهاب بن همام الصنعاني[١٠٧].

ويذكر أن الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) كان قد دخل مدينة ذمار من اليمن[١٠٨].

وكان الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي من كبار المحدثين قد رحل إلى اليمن في النصف الثاني مــن القرن الثالث، ودخل صنعاء، وسمع من أصحاب عبدالرزاق من أمثال: أسحق بن إبراهيم الدبري، وإبراهيم ابن برة[١٠٩].

ومن النحويين الذين رحلوا إلى اليمن سليمان بن معبد أبي داود السنجي المروزي (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م) الذي رحل إلى بلاد الحجاز ثم إلى اليمن، حيث كان قد سمع من عبدالرزاق بن همام الصنعاني[١١٠].

ومــن عــلماء اليمن في القرن الثالث محمد بن عبد الأعلى الصنعاني الذي روي عنه الترمذي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، وكان محمد بن الأعلى الصنعاني له رحلات إلى البصرة[١١١].

ويذكــر أن أسحق بن إبراهيم الدبري (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، كان إمامًا حافظًا أخذ عن علماء صنعاء مثل عبدالرزاق، وقد رحل إليه الفضلاء، وممن رحل إليه، اسحق بن إبراهيم النحوي[١١٢].

ويشــار إلى أن أهــل اليمن في المائة الثالثة قبل دخول الإمام الهادي يحيى بن الحسين سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) وانتشــار دعوته، وقبل ظهور دعوة علي بن الفضل القرمطي، كانوا إما "مالكية وإما حنفية وهو الغالب" إلى وقت ظهور تصانيف الشافعية بفقهاء مكة والمدينة[١١٣].

ودخل إمام الزيدية الإمام الهادي يحيى بن الحسين صنعاء سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) [١١٤] وكان قدم من الحجاز، اجتمع إليه في المسجد الجامع في صنعاء قدر سبعين فقيهًا، ورأسهم شيخهم يحيى بن عبدالله النقوي، في مناظرة مع يحيى بن الحسن[١١٥].

وتوفي الإمام الهادي يحيى بن الحسين، إمام الزيدية سنة (٢٩٨هـ/ ٩١١م)[١١٦]، ومن مؤلفاته: الأحكام وهو مجلدان في الفقه، وكتاب المنتخب في الفقه[١١٧]، ويذكر أنه عمل على تفسير القرآن من سورة (المنافقون في سورة النبأ) حيث أتم ما كان قد بدأه جده القاسم وعمه محمد[١١٨]، وهو تفسير بالرأي (تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله) [١١٩].

ومن النحويين الذين رحلوا إلى مكة ثم صنعاء، يوسف بن يحيى بن يوسف (ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م) رحل فسمع بمكة من علي بن عبدالعزيز، وبصنعاء من أبي يعقوب الدبري، صاحب عبدالرزاق، وكانت وفاة يوسف النحوي هذا بالقيروان، ويشار إليه بأنه كان "عالمًا حافظًا للغة، بصيرًا بالعربية، إمامًا، عالمًا جامعًا لفنون من العلم"[١٢٠].

ويذكر أن إبراهيم بن أحمد الشيباني الرياضي، من بغداد كان قد لقي جملة من مشاهير الشعراء في وقته، وكان من الرحالة الذين طافوا البلاد، ومنها الحجاز واليمن، حتى استقر به المطاف بالقيروان، حيث توفي بها سنة (٢٩٨هـ/ ٩١١م)[١٢١].

ومن علماء اليمن المشهورين لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، المولود سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) بصنعاء في أسرة كانت تعمل بالتجارة، وكان أبوه رحالاً تاجرًا ومن جملة تجارته الفضة، دخل الكوفة، والبصرة، وبغداد، وعمان ومصر[١٢٢].

وكان الهمداني نفسه، يعمل مع أبيه جمالاً، فكثرت رحلاته، ولكنه في إحدى رحلاته طاب له المقام بمكة فجاور فيها، وتلقى علم الحديث والفقه عن علمائها، كما اقتنى خلال مجاورته في مكة كثيرًا من الكتب كدواوين الشعر، ومؤلفات ابن الكلبي في الأنساب وغيرها[١٢٣] كما كان الهمداني يحج مرات عديدة، ويجاور في مكة يأخذ عن مشيختها، ويأخذون عنه، حتى "طار صيته ونفذت كتبه إلى الأندلس، وإلى الشرق والغرب"[١٢٤].

وكان الهمداني قد تلقى العلم في مكة على الخضر بن داود وذلك في سنة (٣٠٧هـ/ ٩٢٠م) وهو من رواة السيرة، كما التقى الهمداني، واجتمع في مكة بأبي علي الهجري، حيث نقل الهمداني عنه نصوصًا شعرية لبعض المواقع مثل: ذات غسل وجزالي[١٢٥]، وهذا يشعر بتواصل الصلات العلمية بين اليمن والحجاز، وفي شتى جوانب العلوم المتداولة آنذاك.

وكان أبوبكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) يختلف إلى صنعاء وبغداد، وهو أحد عيون العلماء في اللغة العربية[١٢٦].

ويشار إلى أن الزجاجي عبدالرحمن بن اسحق (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م) كان قد صنف كتاب "الجمل" في مكة، فاصبح كتابه هذا متداولاً في بلدان كثيرة منها الحجاز واليمن(١٢٧).

ويذكر أن الفقيه أبا منصور الخراساني كان في اليمن سنة (٣٣٩هـ/ ٩٥١م)، كان قد وصل إلى عدن، وأن أحد المؤدبين فيها كان قد سأله عن أبي العباس بن دريد، فأجابه بأنه ما زال حيًا(١٢٨).

وكان اسحق بن إبراهيم الفارابي (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، صاحب "ديوان الأدب" يقال بأنه خال الجوهري الملكي أو الجوهري خاله، ممن رحل إلى اليمن، وسكن زبيد، وبها صنف كتابه المذكور، ومات اسحق بن إبراهيم هذا قبل أن يروى عنه كتابه "ديوان الأدب"(١٢٩).

ومن فقهاء اليمن عبدالله بن علي من آل زرقان (الزرقاني) كان قد أرتحل إلى مكة (سنة ٣٥٣هـ/ ٩١٤م) فسمع فيها الأسيوطي، كما سمع في رحلته إلى مكة أيضًا عن أبي العباس الكندي في المسجد الحرام(١٣٠) ولما قدم أبوزيد المرزوي إلى ذمار من أرض اليمن أرتحل الزرقاني غليه فأخذ عنه صحيح البخاري، وأخذ عن الزرقاني جماعة منهم: القاسم بن محمد القرشي، وكان هذا من الأئمة المعدودين في اليمن، وهو من المتقدمين في نشر مذهب الشافعي(١٣١).

وكان أبوالحسن المغيرة بن عمرو بن الوليد العدني أخذ بمكة سنن أبي قرة عن أبي سعيد المفضل الجندي، وذلك سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، وكان يعرف بالتاجر فيقال: المغيرة العدني التاجر(١٣٢).

ويذكر أن القاسم بن محمد بن عبدالله الجمحي القرشي من مكة(١٣٣) (ت ٤٣٧هـ/ ١٠٤٤م)، كان قد سكن قرية سهفنة من اليمن(١٣٤) وانتشر عن طريقه مذهب الشافعي في مخلاف الجند وصنعاء وعدن، ومنه استفاد فقهاء هذا المذهب في هذه البلاد، وفي قريته سهفنة، وأخذ عنه شافعية المعافر ولحج وأبين، وأهل الجند والسحول، وأحاظة، وعنّة، ووادي ظبا. وكان القاسم هذا قد تفقه وتعمل في وسط المائة الرابعة، وفي البداية كان قد تفقه علي أبي بكر بن المضرب في زبيد باليمن فتفقه به بمختصر المزني، وشئ من شروحه(١٣٥) كما تفقه بالشيخ عبدالله بن علي من آل زرقان، وسمع من عبدالعزيز بن يحيى المعافري من حرازة. وكان للقاسم بن محمد القرشي رحلة إلى مكة سنة (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) لقي فيها أبا بكر أحمد بن إبراهيم المروزي الفقيه، وأخذ عنه كتاب السنن لأبي داود وموطأ مالك بن أنس(١٣٦)، ثم رجع في السنة نفسها إلى قريته سهفنة حيث أخذ عنه العلماء فيها "مختصر المزني" بروايته(١٣٧). كما أخذ القاسم بن محمد القرشي عن المراغي (كان موجودًا بمكة سنة ٣٨٨هـ) (١٣٨) "سنن المزني"، "وسنن الربيع"، ومؤلفات المراغي في الكلام. وكان القاسم قد جمع مع الفقه والحديث والكلام وأصول الفقه علم القراءات ومعاني القرآن(١٣٩). فكان فقيهًا عالمًا جمع مجلسه القرباء والبعداء، وأخذ عنه العلم خلق كثير"(١٤٠).

ومن الذين رافقوا القاسم بن محمد القرشي في رحلاته إلى الحجاز واليمن الفقيه أحمد بن عبدالله الصعبي

(ت ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م)[١٤١]، وكان ذلك سنة ٣٨٨هـ[١٤٢].

ومـن فقهاء اليمن أبو الفتح يحيى بن عيسى بن ملامس (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، الذي تفقه على الحسين بن جعفر المراغي، ومحمد بن يحيى بن سراقة المعافري (ت ٤١٠هـ/ ١٠١٩م). وارتحل ابن ملامس إلى مكة وجاور فيها وشـرح "المختصـر للمزني" شرحه المشروح في اليمن وذكر في أوله أنه شرحه في مكة في أربع سنين مقابلاً الكعبة الشـريفة، وكـان شـرحه للمختصر من كتب أبي علي بن أبي هديرة وكتب أبي ساحق المروزي، وكتب أبي علي الطبري. ويشار إلى أن ابن ملامس هذا كان "ذا مال نكاحا" تزوج في أربع سنين في مكة ستين إمرأة[١٤٣]. ويذكر أنه لقـي الإمـام أبا حامد الإسفراييني في مكة، وحضر معه مجلس مذاكرة فأعجب الإسفراييني بعلم ابن ملامس هذا، فاقـترح عليه أن يذهب معه إلى بغداد، فقال له: "ما أنت إلا ذكي فاهم فطن تصلح لطلب العلم، فهل لك بالرواح معـي إلى بغـداد، وأجعلك مُلقي مدرستي وأكبر أصحابي عندي"، إلا أن يحيى بن ملامس اعتذر للاسفراييني بأنه لم يخرج من اليمن على هذه النية[١٤٤].

الخلاصة

بدأت الصلات العلمية بين الحجاز واليمن منذ وقت مبكر من تاريخ الدعوة الإسلامية زمن النبي ﷺ حيث أنه وبعد إرسال النبي ﷺ لعماله إلى اليمن بدأ انتشار الإسلام وعلومه ومبادئه من خلال تعليم هؤلاء الصحابة، الناس في الـيمن: القرآن الكريم، والحديث، والتفقه في الدين، ثم بدأت هذه العلوم تتعمق في مراكز العلم في اليمن في مساجد: صنعاء، وعدن، والجند، وزبيد، وحضرموت، وغيرها، حيث تتلمذ اليمنيون على صحابة رسول ﷺ.

ومـن الأمور الأساسية التي عززت هذا التواصل، وهذه الصلات العلمية بين الحجاز واليمن رحلة اليمنيين إلى مكـة للحج، بما يوفره هذا الموسم السنوي الكبير، للالتقاء بعلماء الحجاز في مكة والمدينة، وغيرهم من علماء الأمة، والإفادة من علومهم والأخذ عنهم، حتى برز من اليمنيين علماء مشهورون من أمثال: طاووس، وابنه عبدالله، وعطاء بـن أبي ربـاح، ووهب بن منبه، وغيرهم، ولذلك كانت فترة ما قبل الدولة العباسية فترة أساسية في تهيئة وازدياد الصلات العلمية بين الحجاز واليمن، وبدون انقطاع.

ولقـد ازدادت الصلات العلمية بين الحجاز واليمن ابتداء من ١٣٢هـ- ٤٠٠هـ ازديادًا ملحوظًا، وهذا ما رصـده البحث من خلال أسماء العلماء العديدين الذين انتقلوا من الحجاز إلى اليمن، أو من اليمن إلى الحجاز، حيث تبادلوا علومهم ومعارفهم، بل ومؤلفاتهم، ونشروا علمهم وأفاد منهم عامة الناس.

ومن الواضح أن الصلات العلمية خلال فترة البحث بين الحجاز واليمن، كانت قد تركزت بداية حـول علوم القرآن والحديث، والفقه، ثم علوم اللغة، وربما علم الكلام، ولكن على نطاق ضيق في مرحلة لاحقة.

وأظهر البحث أن الحجاز (مكة، والمدينة) استقطبت العديد من طلبة العلم من اليمن، بل مشاهير علماء اليمن أمثال: أبي قرة موسى بن طارق الزبيدي "صاحب السنن" ولسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني، صاحب التصانيف النفسية والمشهورة مثل: صفة جزيرة العرب، وكتاب الإكليل، والدامغة، والجوهرتين العتيقتين، وهذا يظهر أن الحركة العلمية بين الحجاز واليمن كانت مثل هذه المؤلفات ثمارها، ونتاجها.

كما بين البحث أن اليمن بمراكزه الحضارية خلال فترة البحث، مثل (صنعاء، وعدن) وغيرهما، استقطب مشاهير العلماء من الحجاز، أو من العلماء الذين مروا من الحجاز إلى اليمن مثل: أبي عمرو بن العلاء، وابن جريج، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ومعمر بن رشاد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والهادي يحيى بن الحسين، وغيرهم.

ونتيجة لتلك الصلات العلمية بين الحجاز واليمن خلال فترة البحث دخلت إلى اليمن أشهر القراءات للقرآن الكريم مثل: قراءة نافع، وقراءة عاصم، وقراءة حمزة، وقراءة أبي عمرو بن العلاء.

أما المذاهب الدينية التي دخلت اليمن نتيجة للصلات العلمية بين الحجاز واليمن خلال فترة البحث، فأهمها: مذهب الإمام مالك، ومذهب أبي حنيفة، ومذهب الشافعي، ثم مذهب الزيدية. والمذهبان الأخيران هما المذهبان السائدان الآن في أرجاء اليمن.

التعليقات

(١) انظر: محمد بن علي الأهدل، *نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون* (مصر: مطبعة زهران، بالتربيعة ١٣٥٠هـ)، ٧٥-٨٧؛ والهمداني، *الإكليل*، ٢: ٤٠٣؛ وانظر:

Abd al- Muhsin al madaj, *The yemen In Eearly Islam*, (London: 1988), p.9.

(٢) ابن سعد، أبوعبدالله محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى*، باعتناء إحسان عباس، ٩ج، (بيروت: دار صادر)، ١: ٣٢٤، ٣٤٥، ٥: ٥٢٤؛ والشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد محمد، *اليمن في صدر الإسلام* (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧م)، (مقدمة)، ٢١٤؛ وانظر: أبوجبلة، عامر جادالله، *تاريخ التربية والتعليم في اليمن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة*، رسالة دكتوراه غير منشورة، بإشراف أ.د. صالح درادكة، الجامعة الأردنية (١٩٩٧م)، ٨٠.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، *تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ١١ج (بيروت: دار سويدان، ١٩٦٧م)، ٣: ١٢٨؛ وانظر: ٢: ٥٣٨؛ والرازي، أحمد بن عبدالله الصنعاني (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق: حسين عبدالله العمري، وعبدالجبار، زكار، ط١(صنعاء: ١٩٧٤م)، ٧٨- ٧٩، ١٤٠- ١٤١.

(٤) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٢٤٩؛ والجعدي، عمر بن علي بن سمرة (ت بعد ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م)، *طبقات فقهاء اليمن*، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م)، ٤٤؛ والخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، *الكفاية والأعلام "الفصول الخمسة الأولى" اليمن في عهد الولاة*، تحقيق: راضي دغفوس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية (تونس: ١٩٧٩م)، ٧٣.

(٥) الشـرجي، أبوالعباس أحمد بن أحمد بن عبداللطيف (ت ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، *طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص*، ط١ (صـنعاء: الـدار اليمنـية للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م)، ١٠٩؛ والجندي، أبوعبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، *السلوك في طبقات العلماء والملوك*، ج١، تحقيق محمد الأكوع، ط١ (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٩٩٣م)، ١: ٨٤.

(٦) الأهدل، محمد، *نشر الدرر الكنون*، ٧٣، ٧٤؛ والرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٢٩٥.

(٧) الوصـابي، وجـيه الدين الحبيشي (ت ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م)، *تاريخ وصاب*، الاعتبار في التواريخ والآثار، ط١ (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٩٧٩م، ١١؛ وجرادة، محمد سعيد، *الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور*، لجنة نشر الكتاب اليمني، عدن (بيروت: دار الفارابي، ١٩٧٧م)، الأكوع، محمد، *الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٢٢هـ*، ط١ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦م)، ٩٠.

(٨) ابـن عساكر، علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، *تهذيب تاريخ دمشق*، عبدالقادر بدران، ٧ج (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩م)، ٧: ١٦٣؛ والجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٤٤.

(٩) الأهـدل، بدر الدين أبوعبدالله الحسين بن عبدالرحمن بن محمد، (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، *تحفة الزمن في تاريخ اليمن*، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط١ (بيروت: منشورات المدينة، ١٩٨٦م)، ٤٧.

(١٠) ابـن حيان، محمد بن حيان البستي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٠٥)، *كتاب مشاهير علماء الأمصار*، عني بتصحيحه، م. فلا يشهر (دار الكتب العلمية د. ت)، ١٢٤.

(١١) الجـندي، *السـلوك*، ١: ١٢؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ٧٤؛ والشرجي، *طبقات الخواص*، ٣٤١؛ والرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٤٤٠، وابن حيان، *كتاب مشاهير علماء الأمصار*، ١٢٤.

(١٢) انظـر: غـانم، محمد عبده، *اليمن في الشعر غير اليمنى حتى أواخر العصر العباسي*، مجلة الإكليل، العدد الخامس، السنة الأولى، ١٩٨١م، ٢٦- ٢٧.

(١٣) الأصفهاني، أبوالفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/ ٩٠٦م)، *الأغاني*، ٢٤ج، طبعة دار الكتب، صورتها مؤسسة جمال للطابعة والنشـر (بـيروت: دار إحـياء التراث العربي، ١٩٦٣م)، ٣: ٣٩٩؛ والشامي، أحمد محمد، *من الأدب اليمني* (بيروت: دار الشروق، ١٩٧٤م)، ٣١٨.

(١٤) الجندي، *السلوك*، ١: ٩٤؛ وابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٨٩.

(١٥) ابـن سعد، *الطبقات*، ٢: ٣٦٧، والفقي، عصام الدين، *اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول*، ط١ (دار الفكر العربي، ١٩٨٢م)، ٣١٢.

(١٦) الشرجي، *طبقات الخواص*، ١٥٩؛ والجندي، *السلوك*، ١: ٩٣.

(١٧) الجندي، *السلوك*، ١: ٩٦؛ والشرجي، *طبقات الخواص*، ١٥٩.

(١٨) الحنبلي، ابن العماد (ت ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م)، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، ٨ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١: ١٣٠؛ وأبوجـبلة، عامـر جادالله، *تاريخ التربية والتعليم في صدر الإسلام*، ط١، رسالة ماجستير بإشراف أ.د. عبدالعزيز الدوري، الجامعة الأردنية، المؤلف (عمان: ١٩٩٨م)، ١٢٩- ١٣٠.

(١٩) الجعـــدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٨- ٥٩؛ وابن حيان، *كتاب مشاهير علماء الأمصار*، ١٩٢؛ والرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٦٠.

(٢٠) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٤٤٩؛ الجندي، *السلوك*، ١: ١١٨.

(٢١) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٤٤٣؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١١٤.

(٢٢) الـــرازي، *تـــاريخ مدينة صنعاء*، ٢٢٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٩، ٢٩٦؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ٦٢؛ والحميري، نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـــ/ ١١٧٧م)، *منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العـــرب من الكلـــوم*، اعتنى بنسخها وتصـــحيحها عظـــيم الديـــن أحمد، ط٣ (صنعاء: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٦م)، ١١٥؛ والحميري، نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣هـــ/ ١١٧٧م)، *الحور العين*، تحقيق: كمـــال مصطفى، ط٢ (بيروت: دار أزال للطباعة والنشر والتوزيع، وصنعاء: والمكتبة اليمنية، ١٩٨٥م)، ١١٥، ٢٦٥؛ وابن حيان، كتاب *مشاهير علماء الأمصار*، ١٢٢- ١٢٣.

(٢٣) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٢؛ والرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٤٥١؛ والشرجي، *طبقات الخواص*، ٣٥٦- ٣٥٧.

(٢٤) الأهدل، *نثر الدرر المكنون*، ٢٨.

(٢٥) ابن حيان، *كتاب مشاهير علماء الأمصار*، ١٩٢.

(٢٦) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٢٩٨.

(٢٧) الجندي، *السلوك*، ١: ١١٣؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ٧٥.

(٢٨) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٩- ٦٠؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١١٣.

(٢٩) الجـــندي، *السلوك*، ١: ١١٩؛ والرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٥٥؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ٧٩؛ والشرجي، *طبقات الخواص*، ١٦٠- ١٦١؛ والجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٦.

(٣٠) انظر: الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٦- ١٣٧.

(٣١) الجعدي، *طبقات فقهات اليمن*، ٦٦؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٢٣؛ والرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٥٠.

(٣٢) الجندي، *السلوك*، ١: ١٢٣.

(٣٣) انظر: الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٦.

(٣٤) ابـــن النديم، محمد بن اسحق (ت ٤٣٨هـــ/ ١٠٤٦م)، *الفهرست*، تحقيق: رضا تجدد، (طهران: ١٩٧١م)، ٣٠- ٣١؛ وابن سعد، *الطبقات*، ٦: ٣٤٢، ٣٨٥.

(٣٥) أبـــو مخـــرمة، عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد، *تاريخ ثغر عدن*، الجزء الأول: قسمان (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٦م)، ق٢، ١: ١٨٧.

(٣٦) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٠٣؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٢٥.

(٣٧) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٠٧.

(٣٨) ابن النديم، *الفهرست*، ٤٥، ٤٦؛ وابن العماد، *شذرات الذهب*، ١: ١٢٦؛ وانظر:

Georg Magdisi, *The rise of* Edinburgh University *Colleges*. D. G. (1962), p.123.

(٣٩) الجـــندي، *الســـلوك*، ١: ١٢١، ١٣٠؛ و الخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن (٨١٢هـــ/ ١٤٠٩م)، *العقد الفاخر الحسن في طـــبقات أكابر اليمن*، مخطوط (استكمال للكتاب طراز أعلام الزمن وبنفس الرقم) (٢٣٣ ورقة)، مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، ق٦٩.

(٤٠) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٧؛ الجندي، *السلوك*، ١: ١٣٨.

(٤١) الجندي، *السلوك*، ١: ١٣٨.

(٤٢) الشـيرازي، أبو اسحق إبراهيم بن علي (ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)، *طبقات الفقهاء*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠م)، ٧١؛ وانظر: الأزرقي، أبوالوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت بعد ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م)، *أخبار مكة*، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، ٢ج ، ط٣ (بيروت: دار الأندلس للتوزيع، ١٩٨٣م) ، ١: ١١٤، ٣٧٧.

(٤٣) الجندي، *السلوم*، ١: ١٣٠؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ٨٩.

(٤٤) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٤.

(٤٥) الخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، *طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن*، مخطوط في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، رقم ٢٥٨٦، ق١٢٤.

(٤٦) الجـندي، *السـلوك*، ١: ١٢٩؛ ويحيى بن الحسين (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م)، *طبقات الزيدية الصغرى* (٤٢٢ ورقة) مخطوط مصور لدى الدكتور عبدالرحمن الشجاع، قسم التاريخ، جامعة صنعاء، اطلعت عليه بتاريخ ١٩٩٤/٢/٢٦م، (مخطوط) ق٢٥.

(٤٧) الجندي، *السلوك*، ١: ١٤٧؛ والفقهي، عصام الدين، *اليمن في ظل الإسلام*، ٣١٥.

(٤٨) انظـر: إسماعـيل الأكوع، *مدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقلة في اليمن*، *التربية العربية الإسلامية*، "المؤسسات والممارسات" (عمان: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٩٠م)، ٣: ١٠٤٠.

(٤٩) الشيرازي، *طبقات الفقهاء*، ٦٨؛ وانظر: ابن حيان، *كتاب مشاهير علماء الأمصار*، ١٤٠.

(٥٠) انظر: الشيرازي، *طبقات الفقهاء*، ٩٤.

(٥١) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٩٧؛ والخزرجي، *العقد الفاخر الحسن*، "مخطوط" ق١٦١- ١٦٢.

(٥٢) الجندي، *السلوك*، ١: ١٣٩؛ الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد يعقوب (ت ٣٥٠- ٣٦٠هـ/ ٩٦١- ٩٧٠م)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق محمد الأكوع، ط٣ (صنعاء، بيروت: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣م)، ١٠٣.

(٥٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٤، وهامشها.

(٥٤) السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٢٤م) *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ٢ج، ط٢ (دار الفكر، ١٩٧٩م)، ١: ٢٤٩.

(٥٥) ابـن المعـتز، عبدالله (ت ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م)، *طبقات الشعراء*، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ط٤ (دار المعارف، ١٩٨١م)، ١١٩.

(٥٦) الأصفهاني، *الأغاني*، ١٨: ١٩٣.

(٥٧) ابن المعتز، *طبقات الشعراء*، ١٢٠.

(٥٨) السيوطي، *بغية الوعاة*، ١: ٢٤٩.

(٥٩) انظر: الجندي، *السلوك*، ١: ١٥٩؛ والأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ٩٧.

(٦٠) أبومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ق٢، ١: ٩٣- ٩٤.

(٦١) أبومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٩٤.

(٦٢) أبومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٩٤.

(٦٣) أبومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٩٤.

(٦٤) أبومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٩٤.

(٦٥) أبومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٩٤.

(٦٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، هامش ١٠١.

(٦٧) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٠٠؛ والحجري، محمد بن أحمد، *مجموع بلدان اليمن وقبائلها*، تحقيق: وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن علي الأكوع، ٤ج، في مجلدين، ط١ (صنعاء: منشورات وزارة الإعلام والثقافة، ١٩٨٤م)، مج١، ١: - ٢: ٣٤٥.

(٦٨) انظر: خليفة، ربيع حامد، *منبر خشبي نادر في الجامع الكبير في مدينة ذمار*، مجلة الاكليل، العدد الأول، السنة السادسة (١٩٨٨م)، ١٠٢؛ و السياغي، حسين، *معالم الآثار اليمنية* (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمنية، ١٣٩٠هـ)، (مقدمة)، ٨٢- ٩٣؛ والحجري، محمد، *مجموع بلدان اليمن وقبائلها*، مج١، ١- ٢: ٣٤١.

(٦٩) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٩؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٤٠؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ١٩٩.

(٧٠) الأهدل، *تحفة الزمن*، ٩٩.

(٧١) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٩؛ و ابن الجزري، أبوالخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، *غاية النهاية في طبقات القراءة*، باعتناء ج برجستر اسر، ج٢، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م)، ٢: ٣١٩؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٤٠.

(٧٢) الجندي، *السلوك*، ١: ١٤٠.

(٧٣) الجندي، *السلوك*، ١: ١٤٠.

(٧٤) انظر: الشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد محمد، *الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة*، رسالة دكتوراه غير منشورة، بإشراف أ.د. يوسف علي يوسف، جامعة الأزهر (القاهرة: ١٩٨٦م)، ٢٧١- ٢٧٢.

(٧٥) الأكوع، إسماعيل، *مدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقله في اليمن*، *التربية العربية الإسلامية*، المؤسسات والممارسات، ١٠٤٠.

(٧٦) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٣٧.

(٧٧) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٣٥، ١٤٠.

(٧٨) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٣٨؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٥١؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ١١٠.

(٧٩) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م)، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة (القاهرة: دار الكتاب العربي للطابعة والنشر، ١٩٦٨م)، ١: ١٤٥.

(٨٠) الجندي، *السلوك*، ٢: ١٥١؛ ويحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١: ١٤٤؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٨؛ وصالح، محمد أمين، *تاريخ اليمن الإسلامي*، ٢١٧.

(٨١) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١: ١٤٥.

(٨٢) الفقي، عصام، *اليمن في ظل الإسلام*، ٣١٣.

(٨٣) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٦؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٦١.

(٨٤) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١: ١٤٥.

(٨٥) الشيرازي، *طبقات الفقهاء*، ١٠٣؛ الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٨١.

(٨٦) العمـــري، حسين، *الشافعية في اليمن*، *الموسوعة اليمنية*، ج٢، ط١ (صنعاء: ١٩٩٢م)، ٢: ٥٤٢؛ والفقي، عصام الدين، *اليمن في ظل الإسلام*، ٣١٨.

(٨٧) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٨٠- ٨١؛ والشيرازي، *طبقات الفقهاء*، ١٠٠.

(٨٨) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٧- ٦٨.

(٨٩) الحموي، ياقوت (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان*، ٤ج (بيروت: دار صادر، ١٩٥٥م)، ٣: ٤٢٨؛ والذهبي، أبوعبدالله شمـــس الديـــن محمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، *تذكرة الحفاظ*، ٤ ج ، ط٣ (حيدر أباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٧م)، ١: ٣٦٤.

(٩٠) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٧- ٦٨.

(٩١) الحمـــوي، ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٤٢٨؛ والأهدل، *تحفة الزمن*، ٨٧، ويحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١: ١٨؛ وجرادة، محمد سعيد، *الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور*، ٥٩.

(٩٢) الحموي، ياقوت، *معجم البلدان*، مادة "صنعاء"، ٣: ٤٢٨.

(٩٣) الجندي، *السلوك*، ١: ١٢٨؛ وحاشيتها، ١٢٩.

(٩٤) الجندي، *السلوك*، ١: ١٢٨؛ والخزرجي، *طراز أعلام الزمن*، (مخطوط) ق ١٤٠.

(٩٥) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٧.

(٩٦) الهمــداني، أبومحمــد الحســن بن أحمد يعقوب (ت ٣٥٠- ٣٦٠هـ/ ٩٦١- ٩٧٠م)، *الإكليل*، الجزء الأول، تحقيق محمد الأكوع، ط١ (بيروت: ١٩٨٦م)، ١: ٤١٨- ٤١٩؛ وانظر: الأهدل، *تحفة الزمن*، ٩٣.

(٩٧) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٠٥.

(٩٨) ابـــن خلكـــان، أبوالعـــباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، *وفيات الأعيان*، تحقيق: إحسان عباس، ٨ج (بيروت: دار صادر، دار الثقافة، ١٩٦٨- ١٩٧٨م)، ٢: ٣٥٣.

(٩٩) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٠٧.

(١٠٠) الشيرازي، *طبقات الفقهاء*، ٧٣.

(١٠١) انظر: الخزرجي، *طراز أعلام الزمن* (مخطوط) ق٧٦؛ ومعروف، بشار عواد، مادة "أحمد بن حنبل" *موسوعة الحضارة الإسلامية*، (حرف الألف)، (١٩٩٣م)، ٣٥٠.

(١٠٢) الجندي، *السلوك*، ١: ١٣٨؛ ويحيى بن الحسين، *طبقات الزيدية الصغرى*، (مخطوط)، ق٢٧.

(١٠٣) الخزرجي، *طراز أعلام الزمن*، (مخطوط)، ق٧٦، ق١١١؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٣٥.

(١٠٤) الشرجي، *طبقات الخواص*، ١٢٩؛ وانظر: أبومخزمة، *تاريخ ثغر عدن*، ق٢، ١: ٦٤؛ والجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٦٦.

(١٠٥) الجندي، *السلوك*، ١: ١٣١؛ انظر: الأهدل، *تحفة الزمن*، ٨٩.

(١٠٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٤ وهامشها؛ والجندي، *السلوك*، ١: ١٣٦.

(١٠٧) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٣٤؛ وعبدالرحمن محمد، *الحياة العلمية في اليمن*، ١٥٩.

(١٠٨) الحموي، ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٧.

(١٠٩) الرازي، *تاريخ مدينة صنعاء*، ٩٠، ٢٦٥، ٣٨٧، ٣٩٠؛ وعبدالرحمن بن محمد، *الحياة العلمية في اليمن*، ٢٥٨.

(١١٠) القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م)، *أنباه الرواة على أنباه النحاة*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ٤ ج، ٢: ٢٠- ٢١.

(١١١) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٧٣؛ والاهدل، *تحفة الزمن*، ١٠٣.

(١١٢) الحجري، محمد، *مجموع بلدان اليمن وقبائلها*، مج١، ١-٢: ٣٢٦.

(١١٣) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٥٥، ٧٩.

(١١٤) العقيلي، محمد، *تاريخ المخلاف السليماني*، ط٢ (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٨٢م)، ٣٢٤.

(١١٥) يحيى بن الحسين، *طبقات الزيدية الصغرى*، (مخطوط)، ق٤٤؛ وابن سمرة الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٧٩.

(١١٦) الخزرجي، *العقد الفاخر الحسن* (مخطوط)، ق١٨٥؛ والجنداري، أحمد بن عبدالله (ت ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م)، *كتاب الجامع الوجيز بوفيات العلماء أولي التبريز*، مخطوط في مكتبة الجامع الكبير، بصنعاء رقم ٢٥٢٤، ق٣٣ (أ)؛ وسيد، أيمن فؤاد، *تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري*، ط١ (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٨م)، ٢٣٦- ٢٣٧.

(١١٧) المحلي، حميد بن أحمد المحلي، *الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية*، مخطوط في جزئين (دمشق: نشر دار اسامة، ١٩٨٥م)، ٢: ١٤- ١٥؛ المطاوع، أحمد، *تاريخ اليمن الإسلامي من سنة ٢٠٤- ١٠٠٦هـ*، تحقيق: عبدالله الحبشي، ط١ (بيروت: منشورات المدينة، ١٩٨٦م)، ٧٨- ٧٩.

(١١٨) بروكلمان، *تاريخ الأدب الغربي*، ٣: ٣٢٨؛ وعبدالله الحبشي، *مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن* (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، د. ت)، ٥٠٩؛ والشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد، *الحياة العلمية في اليمن*، ٢٢.

(١١٩) زادة، طاش كبرى، *مفتاح السعادة*، ٢: ٩٥، ١٩٦.

(١٢٠) السيوطي، *بغية الوعاة*، ٢: ٢٦٣- ٢٦٤.

(١٢١) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، *البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة*، تحقيق: محمد المصري، ط١ (الكويت: جمعية إحياء التراث الإسلامي، مركز المخطوطات والتراث، ١٩٨٧م)، ٤٣- ٤٤.

(١٢٢) الهمداني، أبومحمد الحسن بن أحمد يعقوب (ت ٣٥٠- ٣٦٠هـ/ ٩٦١- ٩٧٠م)، *كتاب الجوهرتين العتيقتين*، بعناية محمد الشعيبي، ط١ (دمشق: مطبعة دار الكتب، ١٩٨٢م، ٤٧؛ ومقدمة حمد الجاسر لكتاب *صفة جزيرة العرب للهمداني*، ٩.

(١٢٣) انظر: مقدمة حمد الجاسر، *لكتاب صفة جزيرة العرب للهمداني*، ٤٢.

(١٢٤) انظر: مقدمة محمد الأكوع، *لكتاب الإكليل للهمداني*، ١: ٤٣.

(١٢٥) مقدمة حمد الجاسر لكتاب *صفة جزيرة العرب للهمداني*، ١٠- ١١؛ وانظر: الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٧٦- ٢٧٧.

(١٢٦) القفطي، *انباه الرواة*، ٣: ٢٠١- ٢٠٨.

(١٢٧) القفطي، *انباه الرواة*، ٢: ١٦١؛ والهلالي، هادي عطية، *نشأة الدراسات النحوية واللغوية في اليمن وتطورها* (بغداد: دار آفاق عربية للصحافة والنشر، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٤م)، ٢٧.

(١٢٨) ابومخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ٢٣٥.

(١٢٩) السيوطي، *بغية الوعاة*، ١: ٤٣٧.

(١٣٠) الجندي، *السلوك*، ١: ٢١٨- ٢١٩.

(١٣١) الجندي، *السلوك*، ١: ٢١٨- ٢١٩.

(١٣٢) الجندي، *السلوك*، ١: ٢١٦.

(١٣٣) الجندي، *السلوك*، ١: ٢٢٩.

(١٣٤) الجندي، *السلوك*، ١: ٢٩٠.

(١٣٥) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٨٨؛ والجندي، *السلوك*، ١: ٢٢٩.

(١٣٦) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٨٩، ٩٠.

(١٣٧) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٨٩.

(١٣٨) الجندي، *السلوك*، ١: ٢٣٠.

(١٣٩) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٩٠.

(١٤٠) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٩١.

(١٤١) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٩١، والجندي، *السلوك*، ١: ٢٣٠.

(١٤٢) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٨٩.

(١٤٣) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٩١- ٩٢؛ الجندي، *السلوك*، ١: ٢٣٠.

(١٤٤) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ٩٢- ٩٣؛ والجندي، *السلوك* ١: ٢٣٠- ٢٣١.

الإهداءات المنقولة إلى الكعبة المشرفة منذ ما قبل الإسلام حتى العهد السلجوقي

إلهام أحمد البابطين

قسم التاريخ/ كلية الآداب

جامعة الملك سعود/ الرياض

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

شهد المسجد الحرام والكعبة المشرفة على مدى تاريخهما الطويل كثيراً من الإهداءات المنقولة منذ ماقبل الإسلام وحتى العصور الحديثة. وما يهم الباحثة من هذه الإهداءات تلك التي جرى رصدها منذ ما قبل الإسلام حتى عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وهي السنة التي وصل فيها طغرلبك السلجوقي (ت ٤٥٥هـ/١٠٦٣م) إلى بغداد، وأقيمت له الخطبة فيها. وهي فترة مهمة تبارى خلالها الخلفاء والوزراء والأمراء والأعيان وبعض الموسرين في إرسال الهدايا المنقولة إلى الحرم المكي لتعلق في الكعبة المشرفة، أو تنصب في المسجد الحرام. ونعني بالهدايا المنقولة هنا تلك التي تصنع خارج مكة، وترسل إلى حرمها في مواسم الحج في الغالب أو في أوقات أخرى -كما سيرد- وهي غير كسوة الكعبة التي قتلت بحثاً، وغير الإصلاحات والإنشاءات المعمارية الثابتة التي جرت في الحرم المكي طوال تاريخه.

لقد حرصت هذه الدراسة على الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما أبرز الإهداءات التي أهديت إلى الكعبة المشرفة ؟ وما أشكالها وصفاتها ؟
- ما أبرز الشخصيات التي أرسلت هدايا إلى الكعبة المشرفة؟
- ما أسباب حرص هذه الشخصيات على إرسال الهدايا؟
- ما مصير هذه الهدايا؟
- ما أهمية هذه الإهداءات وما مغزاها السياسي وأهميتها الحضارية؟

كما حرصت الدراسة على تقصي كل الإهداءات المنقولة إلى الكعبة المشرفة، وملاحظة مدى الاستمرار والتغير

فيها من خلال المقارنة بين ما كان يهدى إلى الكعبة قبل الإسلام وبعده.

يرجع تاريخ الإهداء للكعبة المشرفة إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام حين رفعا قواعد البيت وحفرا جُبًّا[١] عميقا على يمين الداخل إلى الكعبة[٢] يوضع فيه ما يهدى إليها من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك[٣]. وفي حديث لابن عباس، قال: "وكان البيت يكرم على وجه الدهر، ويهدى له"[٤]. إلا أن المصادر لا تسعفنا بمزيد من التفاصيل حول هذه الإهداءات، ولعل أقدم الإشارات التي وصلت إلينا تعود إلى عصور ما قبل الإسلام حيث يذكر المسعودي أن الفرس كانت تهدي إلى الكعبة أموالاً وجواهر، من ذلك أن ساسان بن بابك أهدى إليها غزالين من ذهب، وجوهرا وسيوفا وذهبا كثيرا، فقذفه في زمزم[٥]، وقيل إن هذا الإهداء كان من جرهم حين كانت بمكة. ويرجح المسعودي أن هذا الإهداء كان من الفرس؛ لأن جرهم لم تكن ذات مال، ويضع احتمالا آخر وهو أن يكون ذلك الإهداء من غيرها[٦]. والحقيقة أن المصادر التي بين أيدينا لم توضح أسباب إرسال ملوك الفرس لهذه الهدايا إلى الكعبة، وإن كان المسعودي يذكر أن أسلاف الفرس كانت تقصد البيت الحرام، وتطوف به تعظيما له ولجدها إبراهيم وتمسكا بهديه وحفظا لأنسابها وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك[٧]. ولو صحت هذه الرواية فقد لا تكون هي السبب الرئيسي وراء إرسال الهدايا للكعبة وإنما هناك أسباب أخرى ربما تعود إلى أهمية مكة الاستراتيجية بوصفها موقعا له مكانة متميزة في التجارة العالمية، وكذلك محاولة كسب العرب من سكان الجزيرة العربية إلى جانبهم حيث لا يخفى على الفرس أهمية الكعبة الدينية لدى العرب الذين كانوا يأتونها في موسم الحج من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، فضلاً عما هو معروف ما للعرب من علاقات واتصالات واضحة مع الفرس قبل الإسلام وحتى مبعث النبي ﷺ.

ويذكر الفاسي أن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة أول من جعل السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة"[٨]. إلا أن هذه الرواية لا ترد في المصادر المكية المتقدمة مما يعرضها للشك أيضاً؛ لأن كلاب كان يقطن حول مكة و لم تكن له سلطة على مكة التي كانت خزاعة هي المسيطرة عليها في زمانه، ولا بد أن كلاب إن صحت هذه الرواية قد أهدى الكعبة ما أهداها في فترة سلطة خزاعة، ولعله أراد من وراء ذلك كسب الشهرة والنفوذ لدى العرب، والتمهيد مع أهل مكة لبسط سلطته عليها لا سيما، وأن لكلاب منجرات عمرانية خارج مكة انتفع منها أهل مكة، ومنها حفر العديد من الآبار التي تقع خارج مكة[٩].

ولا تمدنا المصادر بعد ذلك بروايات واضحة عما أهدي إلى الكعبة حتى في عهد قريش نفسها، وهو عهد أشادت المصادر بازدهار أحوال مكة خلاله، ومع ذلك لا نجد إشارات إلى هدايا أهديت للكعبة سوى إشارة واحدة في عهد عبدالمطلب، جد النبي ﷺ حينما أعاد حفر بئر زمزم حيث وجد فيها غزالين من ذهب عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي وسبعة أسياف قلعية[١٠] وسبعة أدرع سوابغ، كانت جُرهم قد دفنتها قبل إخراج خزاعة إياها عن مكة، فضرب عبدالمطلب من الأسياف بابا للكعبة، وجعل إحدى الغزالين صفائح ذهب في الباب، وجعل الأخرى

في الكعبة، وهذا ما جعل بعض الروايات تذكر أن هذه هي أول مرة تحلّى فيها الكعبة بالذهب، وهناك من الروايات ما تشكك في صحة خبر هاتين الغزالتين دون مبرر يذكر[١١]، ولا نرى مسوغاً لهذا التشكيك، لأن تقليد الإهداء إلى بيوت العبادة معروف منذ القدم[١٢]، هذا إلى جانب الإشارة إلى الغزالتين وردت في قصيدة لشاعر قريش أبي مسافع الأشعري (حليف بني مخزوم) ويعلق الشارح على هذا البيت بقوله وجدت في شرح ذلك قصة تاريخية مضمونها أن نفراً من شباب قريش في الجاهلية اتفقوا على سرقة الغزال الذهبي المحفوظ في جُبِّ الكعبة[١٣]، بل إننا نرى أن هذه الرواية في حالة صوابها فإنها تقر حقيقة الإهداءات السابقة لعهد عبدالمطلب، لأن ما عثر عليه الأخير في زمزم إنما هو إهداء ممن سبقه، أما قصر عبدالمطلب الذهب الذي عثر عليه في زمزم على الكعبة، فإن ذلك ليس بغريب عليه فهو جد النبي ﷺ وعُرف بكثرة الفضائل والإصلاحات في مكة. ويذكر الحربي وفي عهد قريش تم حفر بئر في جوف الكعبة لحفظ هداياهم إليها وعينوا رجلاً من قبلهم لحراسة ذلك البئر. ونتفق في الرأي مع أحد الباحثين الذي شك في نسبة البئر إلى قريش لأن تاريخ حفر البئر يعود إلى عهد إبراهيم -كما أسلفنا- ويبدو أن قريشاً أعادت حفر البئر عند تجديد عمارة البيت[١٤].

أما في الإسلام فيذكر أن النبي ﷺ يوم فتح مكة ٨هـ/٦٢٩م وجد في الجُب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى إلى البيت[١٥]. وليس في المصادر التي بين أيدينا ما يفيد بتصرف النبي في هذا الذهب، وهو مبلغ كبير كان ﷺ في أشد الحاجة إلى إنفاقه في سبيل نشر الرسالة، وإنما أبقاه للكعبة[١٦]، ليس ذلك فحسب بل جعل لها جزءً من خمس الغنيمة، وهو سهم الله[١٧]. وفوق ذلك، يقال أنه ص أهدى إلى الكعبة البرسم الذهبي[١٨] الذي أرسله إليه من اليمن باذان الفارسي[١٩] عند إسلامه، وذلك بهدف التبرؤ من المجوسية وترك رسومها، وأنه ﷺ أمر بتعليقه داخل الكعبة[٢٠]. ولعل هذا مما يفيد بتشجيع الإهداء للكعبة، و ينفي بالتالي الكراهية في ذلك[٢١]. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الرواية الأخيرة -إن صحت- فإنها تفيد بأن تاريخ الإهداء للكعبة في الإسلام إنما يعود إلى عهد الرسول ﷺ وتحديدا في سنة ١٠هـ/٦٣١م، وليس كما يذكر أحد الباحثين المحدثين من أنه يعود إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه [٢٢] (١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م). أما أول إشارة في المصادر المتيسرة للإهداء إلى الكعبة في العهد الراشدي فكان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث كان مما بُعث به إليه رضي الله عنه بعد فتح مدائن كسرى عام ١٦هـ/ ٦٣٧م، هلالان من الذهب فبعث بهما بدوره إلى مكة، فعلقتا في جوف الكعبة[٢٣]، كما أهدى إليها ما سمي بالكاودوشه[٢٤] وقدحين من جواهر وُصفا بأنهما فائقا الثمن والقيمة مرصعان بالجوهر الفاخر والزبرجد المرتفع علقهما في الكعبة[٢٥]. وهذا أيضاً مما يعزز نفي الكراهية في ذلك عند من يرى هذا الرأي. ومما تجدر ملاحظته هو شح المعلومات في المصادر المتاحة حول الإهداء للكعبة في عهد الرسالة المحمدية أو في العهد الراشدي، فقد اتصف هذان العهدان بندرة المعلومات المتعلقة بإرسال هدايا إلى الكعبة هذا في الوقت الذي قامت فيه للمسلمين دولة أخذت تُعنى بشؤون الحرمين الشريفين، وقد يتبادر إلى الذهن أن ذلك من باب الكراهية، ولكن ينفيه ما سبق ذكره من إهداء عمر

الهلالـــين المذكورين أعلاه وأمره بتعليقهما في الكعبة -كما قدمنا- فأما تفسيرنا لقلة الإهداءات في صدر الإسلام في عهد الرسول فربما يرجع إلى أنه ﷺ سخر جميع ما تيسر له من غنائم وأموال لمعالجة أوضاع الدولة الإسلامية الناشئة، وأحوال المسلمين، فضلاً عن أنه ﷺ لم يكن ذا مال، ولم يترك ثروة حتى يهدي إلى الكعبة، أما العهد الراشدي فمع تيســر مالية الدولة نتيجة الفتوحات والغنائم، فإن المصادر لم تسجل للخلفاء الراشدين إرسال هدايا سوى ما قام به الخلـيفة عمــر من إرسال الهلالين الذين ذكرنا سابقا أنهما أرسلا إليه من المدائن. ولعل المصادر لم تولِ ذلك الأمر اهتماما بينما ركزت على ذكر أحوال الدولة الإسلامية الأخرى، ولا ننسى إنشغال الخلفاء بأمور الدولة والفتوحات والصـــراعات التي شهدتها الدولة منذ أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٤- ٣٥هـــ/ ٦٤٤- ٦٥٦م)حتى قيام الدولة الأموية.

أمـــا في العهـــد الأموي فأول إشارة للإهداء للكعبة جاءت في خلافة يزيد بن معاوية (٦٠- ٦٤هـــ/ ٦٨٠- ٦٨٣م) حيـــنما بعث بهلالين وقدحين وقارورتين، والهلالان مرصعان بالكبريت الأحمر أي الياقوت الرماني قيمتهما مائتا ألف دينار، وهما من الذخائر التي كانت محفوظة في الكنيسة بدمشق، وأما القدحان فأحدهما عقيق والآخر مها، والقارورتان من عقيق أيضاً ومن ياقوت. وبعد ذلك بعث الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان(٦٥- ٨٦هـــ/٦٨٥- ٧٠٥م) إلى الكعـــبة بشمستين[٢٦]، وقدحين من قوارير، وضرب على الأسطوانة الوسطى صفائح الذهب من أسفلها إلى أعلاهـــا[٢٧]. وبهـــذا فإن تاريخ الشمسة يعود إلى العهد الأموي، وتحديدا إلى خلافة عبدالملك، وليس كما يذكر بعـــض المؤرخين القدامى وتابعهم بعض المعاصرين من أن تاريخ الشمسة يرجع إلى عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله[٢٨] (٢٣٢- ٢٤٧هــــــ/ ٨٤٦- ٨٦١م). والشمسة اعتبرها أحد الباحثين من أعظم الهدايا التي كانت تصل إلى مكة[٢٩]، وقد تعرض لذكر الشمسة بعض المؤرخين المعاصرين غير أنهم وقعوا في بعض الأخطاء فيما يتعلق باللفظ، أو المعـــنى فأوردوها بلفظ الشمسية، وفسروها على أنها كسوة الكعبة، وقد تتبع باحثون آخرون ذلك وتوصلوا إلى أن اللفظ الصحيح هو الشمسة وليست الشمسية، وأنها حلية ضخمة على هيئة الشمس، ولها اثنا عشر ذراعا تشبه أشعة الشـــمس، ويرى بعضهم أن عدد ما يشبه أشعة الشمس فيها لم يكن مصادفة، وإنما قصد به تمثيل عدد شهور السنة، فموســـم الحج يحل بعد مضي اثني عشر شهرا أي سنة كاملة، والأهلة الموجودة في نهاية الأشعة تمثل الشهور القمرية الهجرية، وكانت تعلق في وجه الكعبة في موسم الحج بخلاف الكسوة التي تغطي الكعبة بكاملها[٣٠].

وبعد عبدالملك بن مروان بعث ابنه الوليد(٨٦- ٩٦هـــ/ ٧٠٥- ٧١٥م) بقدحين إلى الكعبة[٣١]، ومن المحتمل أن هذيـــن القدحين كانا من المعادن الثمينة حتى يكون تعليقهما في الكعبة من باب التحلية لها. ويقال إن الحلية التي حلّـــى بها الوليد بن عبدالملك الكعبة هي في الأصل من مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وكانت مصنوعة من ذهـــب وفضة وحملت إلى الوليد من طليطلة بالأندلس على ظهر بغل قوي فتفسخ تحتها، وكان لها أطواق من ياقوت وزبـــرجد[٣٢]. كمـــا أهـــدى الوليد بن يزيد بن عبدالملك (١٢٥- ١٢٦هـــ/ ٧٤٣- ٧٤٤م) إليها السرير الزينبي

وبهلالين أيضاً[٣٣]. والسرير الزيني لا توضيح في المصادر المتاحة لشكله، ولا صفاته ولا حليته، وحتى الهلالين لم تبين المصادر هل كانا ذهبا أم نوعاً آخر من الجواهر! ويبدو أن السرير الزيني يُنسب لزينب بنت الحسن بن الحسن بن علي ابـــن أبي طالـــب، وكانـــت زوجة الوليد بن عبدالملك، وهو خليفة[٣٤]. ومما يلاحظ أن هدية الوليد بن يزيد كتب علـــيهما: (بســـم الله الرحمن الرحيم، أمرَ عبدالله الخليفة الوليد بن يزيد أمير المؤمنين في سنة إحدى ومائة)[٣٥]، وهي عبارة تفيد أن لمسألة الإهداء أهدافاً أخرى أبرزها الاثبات لجمهرة المسلمين سيادهم الروحية والزمنية على مكة. وقد اســـتمرت هدية الوليد بن يزيد، وما كتب عليها محفوظا في الكعبة حتى العهد العباسي حيث يذكر الأزرقي في سنة ٢٤٢هـــ/٨٥٦م عن بعض الحجبة، وعن إسحاق بن سلمة الصايغ[٣٦] أنه قرأها حين خَلَّق الكعبة[٣٧]. وقبل أن نختم حديث الإهداء للكعبة في العهد الأموي لا بد من الإشارة إلى أن الأهداء في ذلك العهد يثير التساؤل فمعاوية بن أبي ســفيان

(٤١-٦٠هـــ/ ٦٦١- ٦٨٠م) الذي دامت خلافته حوالي عشرين عاما لم يصلنا أنه أهدى إلى الكعبة شيئـــا، وهو صـــاحب الإنجازات العمرانية الكثيرة في مكة التي أشادت بذكرها المصادر لا سيما تواريخ مكة، بينما الوليد بن يزيد الذي لم تستغرق خلافته سوى سنة واحدة أهداها السرير والكرسي والهلالين! ويبدو أن معاوية لم يكن مقتنعا بمسألة الإهـــداء للكعبة هذا إذا لم تكن المصادر قد أغفلت أو تغافلت عن ذكرها، وهذا مما نستبعده سيما وأنها أسهبت في ذكر منجزاته الأخرى التي لا تدخل في صلب هذا البحث.

أمـــا العهـــد العباســـي فقـــد شهد منذ بدايته إهداءات متنوعة للكعبة؛ منها أن أبا العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـــــ/ ٧٤٩- ٧٥٣م) أهداها ما عرف في المصادر التاريخية باسم الصفحة الخضراء، وهي من زبرجد اشتراها بأربعة آلاف دينار[٣٨]، إلا أن المصادر هنا لم توضح ما إذا كان قد كتب فيها شيئاً ذا دلالة تاريخية، كما فعل الوليد ابـــن يـــزيد، أو كتب فيها عهداً لأحد لا سيما وأن بعض المصادر تذكر أنها علقت في الكعبة[٣٩]، وسنرى أن بعض الخلفاء العباسيين أودعوا الكعبة عهوداً لمن سيخلفهم في تولي أمور الخلافة. أما لونها الأخضر فيثير التساؤل أيضا حيث مـــن المعروف أن شعار العباسيين كان السواد، على حين أن الأخضر كان شعار العلويين خصومهم في ذلك الوقت. وبعـــد السفاح أهدى أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـــ/٧٥٣- ٧٧٤م) الكعبة القارورة الفرعونية[٤٠]، وأضاف الـــبيروني الـــذي يـــورد ذكر هذه الهدية أن معها لوحاً عظيماً من فضة أهداه إليه ملك الروم[٤١]، الجدير بالذكر أن القـــارورة الفرعونية علقت مع الصفحة الخضراء في الكعبة، وظلتا فيها إلى عهد الأزرقي الذي يذكرهما بقوله: "كل هـــذا معلق في البيت"[٤٢]، والقارورة الفرعونية أيضا لا تفصح المصادر عن أية معلومات عنها، ولعلها عثر عليها في مصر[٤٣]، وأرسلت للخليفة فأودعها في الكعبة جرياً على سنن من سبقه من الخلفاء في إيداع مثل هذه الإهداءات في الكعـــبة المشرفة. أما هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـــ/٧٨٦- ٨٠٨م) فأهدى إلى الكعبة في سنة ١٨٦هـــ/٨٠٢م قصـــبتين مـــن ذهـــب كللهما بفصوص من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ علقهما فيها مع المعاليق الأخرى. وفي هاتين القصـــبتين البيعة لابنيه محمد(الأمين) وعبدالله (المأمون)، وما أخذه عليهما من العهود[٤٤]. وهي رواية مهمة إذ تفيد

تفصـــيلا في أسباب الإهداء للكعبة في العهد العباسي الأول، ومن المحتمل أن هاتين القصبتين الثمينتين علقتا في الكعبة من باب التحلية من جهة، ولإضفاء نوع من الأهمية لما ورد فيهما وعدم انتهاكه من جهة أخرى.

أمـــا المـــأمون (١٩٨- ٢٠٢هـــ/ ٨١٣- ٨١٧م) فأهدى إليها الياقوتة التي كانت كل سنة تعلق في المواسم بسلســـلة مـــن ذهب في وجه الكعبة(٤٥)، ويذكر الفاكهي أنها أكبر من الدرة اليتيمة التي تزن مثقالين ونصف وربع العشر(٤٦). ومما يعكس قيمتها الرفيعة أنها استمرت تعلق في وجه الكعبة في كل موسم حتى في عهد من جاء بعده من الخلفـــاء، وذلك إلى جانب الهدايا التي كانت ترسل إليها من قبلهم وهذا ما سيرد ذكره بعد. ولعل من أهم ما حصل علـــيه المأمون من التحف في خراسان كانوناً من ذهب مرصعاً بكثير من الجواهر، عمد المأمون على إهدائه إلى الكعبة لـــيوقد عليه العود والندّ بالليل والنهار(٤٧)، وفي خلافة المأمون أيضاً أسلم أحد ملوك التبت، وأهدى إلى الكعبة صنما من ذهب(٤٨) على رأسه تاج من ذهب مكلل بخرز الجواهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد على سرير مرتفع عن الأرض عـــلى قوائم، والسرير من فضة، وعلى السرير فرشة من الديباج، وعلى أطراف الفرش أزرار من ذهب وفضة مـــرخاة، والأزرار عـــلى قـــدر الكرسي في وجه السرير. وحينما وصلت الهدية إلى مكة أرسلت إلى الخليفة المأمون بخراســـان فبعث بها إلى وزيره الحسن بن سهل (ت ٢٣٦هـــ/ ٨٥١م) بواسط، وأمره أن يبعث بها إلى الكعبة، فبعث بها إلى مكة سنة ٢٠١هـــ/ ٨١٦م، فلما نفر الحجيج من منى إلى مكة نصب السرير وما عليه من الفرشة ومن الصنم وسط رحبة عمر بن الخطاب بين الصفا والمروة، فمكث بها ثلاثة أيام منصوباً ومعه لوح من فضة مكتوب فيه: بسم الله الـــرحمن الرحيم هذا سرير فلان بن فلان ملك التبت أسلم وبعث بهذا السرير هدية إلى الكعبة، فاحمدوا الله الذي هداه إلى الإسلام. وكان يقف على السرير محمد بن سعيد ابن أخت نصير الأعجمي(٤٩) الذي جاء بالسرير من واسط فـــيقرأه على الناس بكرة وعشية، ويحمد الله الذي هدى ملك التبت إلى الإسلام، ثم دفعه إلى الحجبة، وأشهد عليهم بقبضـــه، فجعلوه في خزانة الكعبة في دار سادن البيت شيبة بن عثمان (ت ٥٩هـــ/٦٧٩م)(٥٠). فأما السرير فأخذه أمير مكة يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي (ت ٢٠٢هـــ/ ٨١٧م) من الحجبة، واستعان به على حربه ضد إبراهيم بن موسى (الكاظم) بن جعفر العلوي (ت بعد ٢٢٢هـــ/ بعد ٨٣٧م)، وذلك بضربه دنانير ودراهم سنة ٢٠٢هـــ/ ٨١٧م، ويذكر الأزرقي أن التاج واللوح بقيا في الكعبة إلى اليوم أي إلى عصر الأزرقي (ت ٢٥٠هـــ)(٥١). ونقدر أن هذا الصنم والكرسي والسرير وأمثاله من الإهداءات النادرة التي تودع في الكعبة ما هي إلا بمثابة مدخرات لها.

وأهدى المعتصم بالله (٢١٨- ٢٢٧هـــ/ ٨٣٣- ٨٤١م) إلى الكعبة في سنة ٢١٩هـــ/ ٨٣٤م قفلاً من ذهب فـــيه ألف دينار، وقيل مثقال ذهب(٥٢)، ولم تبين المصادر ما إذا كان هذا القفل محشوا بألف دينار وضعت فيه لصالح الكعـــبة، أو أن القفل نفسه مسبوكا من ذهب زنته ألف دينار. ويبدو أن الخلفاء العباسيين تباروا في تعليق الحلي في وجه الكعبة في الموسم، فعلاوة على ياقوتة المأمون بعث المتوكل على الله بشمسة عملها من ذهب مكللة بالدُرِّ الفاخر والـــياقوت الرفـــيع والزبـــرجد علقهـــا بسلسلة من ذهب، وكانت شمسة المتوكل هذه تعلق في وجه الكعبة في كل

موسـم[٥٣] مع الياقوتة التي بعث بها إليها المأمون[٥٤]. ومنذ عهد المتوكل أصبح تقليد إرسال الشمسة إلى الكعبة سنَّة سار عليها الخلفاء العباسيون من بعده، فكانوا يرسلون بسلسلة في كل موسم، وفيها شمسة مكللة بالدُرِّ والياقوت والجوهر، حيث كان يقدم بها إلى مكة قائد من العراق في قافلة مستقلة ضمن ركب الحجيج، تعرف بقافلة الشَّمْسَة، فتدفع إلى حجبة الكعبة، ويشهد عليهم بقبضها فيعلقونها في يوم السادس من ذي الحجة فتكون على الكعبة، ثم تنزع يوم التروية[٥٥]. وعلى الرغم من أهمية هدية الشمسة فإن المصادر الميسورة لا تمدنا بأية معلومات عن الشمسات التي كانت ترسل إلى الكعبة في مواسم الحج بعد شَّمْسَة المتوكل وقبل شمسة الأخشيديين التي سيرد ذكرها بعد، ولعل أول إشارة إلى ذكر الشمسة في المصادر المتيسرة -بعد شمسة المتوكل- تعود إلى سنة ٩٠١/٢٨٩م حينما أرسل الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ/ ٨٩٢- ٩٠١م) شَّمْسَة إلى الكعبة جعل فيها جوهراً نفيساً وأرسلها إلى مكة ضمن قافلة فيها عدد من القواد، ولم يبين المصدر فيما إذا كانت وصلت إلى مكة سالمة أم أنها نهبت مع ما نهب من قوافل الحج حيث كان الزعيم القرمطي زكرويه بن مهرويه (ت ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م) في ذلك الوقت يغير على قوافل الحج ويقاتل أصحابها وينهب ما معهم[٥٦]. وهناك إشارة أخرى تذكر أن هذه الشمسة نهبت مع ما نهب من الكعبة، ومنها الحجر الأسود وحلي الكعبة، وذلك في عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م على يد ملك البحرين وزعيم القرامطة أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي الهجري (ت ٣٣٢هـ/٩٤٤م) ثم إن هذه الإشارة نفسها ترد مرة أخرى عن الشمسة عند إعادتها مع ما أعيد من الحلي مع الحجر الأسود عام ٣٣٩هـ/٩٥٠م وقيل ٣٢١هـ/٩٣٣م[٥٧]. وبذلك يمكن القول أن الأحوال السياسية التي شهدتها الدولة الإسلامية خلال تلك الفترة وما كانت تتعرض له قوافل الحج من قتل وسلب ونهب أثرت تأثيراً كبيراً على ما كان يرسل أو يصل إلى مكة من إهداءات فاخرة لا سيما هدية الشَّمْسَة الفائقة الثمن.

أما الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـ/ ٨٦٩- ٨٩٢م) فقد أرسل في موسم حج عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م -مع الفضل بن العباس الهاشمي[٥٨]- قصبة من فضة فيها ثلاثمائة وخمسون درهما فضة، وأدخل فيها كتاباً فيه بيعة جعفر بن المعتمد، وبيعة أبي أحمد الموفق بالله، وجعل على رأس القصبة ثلاث رزّات -وقيل رزان وأزرار- وجعل في الرزّات ثلاث سلاسل من فضة فعلقت جميعها في الكعبة في صفر سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م[٥٩]. ولا ندري لماذا لم تعلق مباشرة مادامت أرسلت من قبل الخليفة؟

ولم تقتصر الهدايا على الخلفاء بل شاركهم فيها أصحاب النفوذ والميسورون من المسلمين فعندما أسلم ملك السند عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م بعث إلى الكعبة بطوق من ذهب فيه مائة مثقال مكلل بالزمرد والياقوت وبالماس وياقوتة خضراء وزنها أربعة وعشرون مثقالا فدفعها إلى الحجبة، فكتبوا في أمرها إلى أمير المؤمنين المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـ/ ٨٦٩- ٨٩٢م)، وأخذوا الدرة فأخرجوها وجعلوها في سلسلة من ذهب، وجعلوها في وسط الطوق مقابلة الياقوت والزمرد فجاء كتاب أمير المؤمنين بتعليقها فعلقت مع معاليق الكعبة في سنة ٢٥٩هـ/

٨٧٢م[٦٠]. وهكذا يلحظ أن كل إهداء يصل مباشرة إلى الكعبة من سلاطين المسلمين يعرض على الخليفة قبل تعليقه في الكعبة، ولعل ذلك من باب طلب الإذن منه.

و قـــد تفانى خلفاء المسلمين، وأمراء الدول الإسلامية في إرسال الهدايا إلى الكعبة بشكل عام، وهدية الشمسة بشـــكل خاص لا سيما حينما يمدون نفوذهم إلى مكة، ويدعى لهم على المنبر بها. فعندما امتد النفوذ الأخشيدي إلى مكـــة عمل كافور الوصي على والي مصر الأخشيدي (٣٥٥- ٣٥٧هـ/٩٦٥- ٩٦٧م) شمسة لمولاه أونوجور بن الأخشـــيد (٣٣٤- ٣٤٩هـ/ ٩٤٥- ٩٦٠م) وأخذ يبعثها إلى مكة مع ركب الحاج المصري في كل سنة، وكـــان يســـير بها إلى الحرم جعفر بن محمد الموسوي (ت ٣٤١هـ- ٩٥٢م) ثم ابنه أبو الحسين، ثم ابنه مسلم، ثم أخوه أبو تـــراب إلى أن أخذهـــا القـــائد الفـــاطمي جوهر الصقلي (ت ٣٨١هـ/٩٩٢م) حينما استولى على مصر في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م[٦١]. وهذه معلومة مهمة تؤكد حـــرص الخلفـــاء العباسيين والولاة من الأخشيديين على إرســـال الشمســـة ســـنويا إلى الكعبة في موسم الحج في ركب رسمي يعين من قبلهم غير أنه لابد من التساؤل هنا هل كانت الشمسة التي أعدها كافور الأخشيدي تعاد إلى مصر بعد الحج، ويعاد إرسالها مرة أخرى إلى الكعبة في الموسم التالي، أم يرســـل شمسة أخرى؟ فإذا كان يرسل شمسة أخرى فهل ترسل بنفس مواصفات الأولى، وإن كان من المفترض أنها تـــبقى في الكعـــبة، وترسل شمسة أخرى في الموسم التالي، وبزينة تفوق سابقتها، ولكن ذلك يظل في حكم الافتراض حيـــث لم توافينا المصادر بمعلومات في هذا الشأن. كما أن هذا ليس بغريب على الولاة من الأخشيديين الذين كانوا عـــلى استعداد لقمع جميع الحركات التي تهدد أمن مكة وطريق الحج، وكانوا لا يدخرون وسعا في استخدام المال من أجل راحة الحجيج، وافساح الطريق لهم لتأدية مناسكهم إلى جانب توفير الهدوء والاستقرار في الأماكن المقدسة؛ فقد كـــانوا يحملـــون إلى القـــرامطة في كـــل ســـنة ثلاثمائة ألف دينار هذا خلاف ما كان يصرف في مكة من صلات وصدقات[٦٢].

وفي ســـنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م أرسل الخليفة المطيع لله العباسي (٣٣٤- ٣٦٣هـ/ ٩٤٥- ٩٧٣م) قناديل –لم يُذكـــر عددها– أحدها ذهبا وزنه ستمائة مثقال، والباقي فضة، حيث علقت خارج البيت مدة خمسة أيام حتى رآها الناس، ثم أدخلت البيت[٦٣]. ومما تجدر الإشارة إليه أن الخطبة بمكة تنافس عليها خلال تلك الفترة كل من العباسيين والفاطمـــيين، ففي سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م أقيمت الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي، وبطلت الخطبة لبني العباس بينما تمكـــن العباســـيون بمساعدة القرامطة من استعادة سلطتهم على مكة في السنة التالية –٣٥٩هـ/ ٩٦٩م– وخطب للخلـــيفة المطيع لله العباسي وللقرامطة[٦٤]، ويبدو أن الهدف من إرسال الهدية آنفة الذكر، ومن عرضها للناس خارج الكعبة قبل تعليقها داخل البيت هو إظهار سلطة الخليفة العباسي المطيع لله على مكة أمام جمهور المسلمين عامة.

وفي هـــذا الســـياق حيـــنما امـــتد النفوذ الفاطمي إلى مكة، وأقيمت الخطبة للخليفة المعز لدين الله (٣٤١- ٣٦٥هـ/ ٩٥٢- ٩٧٥م) عمل في عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م شمسة للكعبة، لم يصل إلى علمنا أنه بعثها إلى الكعبـــة في

موسم حج ذلك العام، وإنما نصبها يوم عرفة على إيوان قصره بالقاهرة المعزية حيث وصفتها المصادر بأن " سعتها اثنا عشر شبراً في مثلها، وأَرضها ديباج أَحمر، ودَوْرُها اثنا عشر هلال ذهب -كذا-، وفي كلِّ هلال أُتْرُجَّة ذَهب مُشبَّك، جَوْفُ كل أُتْرُجَّة خمسون دُرَّة كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأَحمر والأَصفر والأزرق، وفي دَوْرها مكتوب آيات الحج بزمرد أَخضر، وحَشْوُ الكتابة دُرٌّ كبار لم يُرَ مثله، وحَشْوُ الشَّمْسَة المِسْكُ المسحوق؛ فرآها الناس في القصر ومن خارجه لِعُلُوِّ موضعها؛ ونصبها عِدَّةُ فراشين، وجَرُّوها لِثقَلِ وزنها"[٦٥]. ويبدو أنهم أعدوا أكثر من شمسة تفاوتت في أحجامها حيث يذكر المقريزي أن في الشمسة الكبيرة ثلاثون ألف مثقال ذهبا وعشرون ألف درهم مخرقة، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه، وأن في الشمسة من الذهب سبعة عشر ألف مثقال[٦٦]. وتذكر رواية المقريزي هذه أن المعز صلى صلاة عيد النحر، وخطب وانصرف إلى القصر وأذن للناس عامة بالدخول، فدخلوا والشمسة منصوبة على حالها، فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق وخراسان، ونقل عن بعض من دخل القصر أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسة، كما نقل عن أصحاب الجوهر ووجوه التجار قولهم أنه لا قيمة لما فيها، وأن شمسة بني العباس كان أكثرها مصنوعا وأن مساحتها مثل ربع هذه، وكذلك شمسة الأخشيديين[٦٧]. ومع ادراكنا لما في هذه الرواية مما يثير التساؤل، ومن المبالغة الواضحة سواء في تعظيم شمسة المعز، أو في التقليل من شأن شمسة بني العباس أو من شمسة الأخشيديين قياسا لها إلا أن الرواية تعكس تطور الفن الإسلامي في إتقان الحلي والتحف المهداة إلى الكعبة، وتعكس كذلك حرص الخلفاء في التباهي بإرسال هدية الشمسة للكعبة في موسم الحج، وإنفاق المال الكثير في سبيل ذلك. ولا شك لدينا أن الهدف من وراء ذلك هو سياسي ليظهروا للناس سيطرتهم على مكة، وبالتالي الأحقية في خلافة المسلمين في أنحاء الدولة الإسلامية لما لمكة من أهمية دينية لدى المسلمين، فضلا عن تجمع المسلمين فيها في موسم الحج سواء من أهل مكة أو من الوافدين إليها من مختلف الأنحاء. ومما يلاحظ أيضا أن الفاطميين خالفوا العباسيين في وقت نصب الشمسة، وأن كانوا قد اتفقوا معهم في نصبها في موسم الحج والهدف واضح هنا، ولا داعي للتكرار، فالمتوكل العباسي كانت شمسته تعلق سنويا في وجه الكعبة من اليوم السادس إلى اليوم الثامن أي يوم التروية حيث تنزع. أما المعز الفاطمي فكانت شمسته التي عملها للكعبة تنصب يوم عرفة على إيوان قصره، وتستمر في يوم النحر منصوبة ليراها كل من يأتي قصر الخليفة مسلما ومهنئا في عيد النحر، ولا نعرف إن كان قد أرسلت في العام الموالي إلى مكة أم لا!

وقبل ختام حديثنا عن إهداء شمسة للكعبة لا بد من القول إن المصادر التي بين أيدينا لم توضح إن كان ذلك الاحتفال بالشمسة قد جرى في مصر أم في الكعبة، ويبدو من سياق الرواية، ومن الروايات التاريخية التي تعود لذلك العصر أن المعز لم يأت مكة، و لم يحج بالناس بل إن دخول المعز لدين الله مصر كان في يوم الثامن من رمضان من عام ٣٦٢هـ/٩٧٢م[٦٨]، فكيف به يحج في تلك السنة أو حتى يرسل شمسة إلى الكعبة بالمواصفات المذكورة في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى الاستقرار والتمكين لنفسه في مصر خصوصا بعد تهديد القرامطة له ولنفوذه في الشام ومصر.

أمـــا أمير الحج في تلك السنة فإن كتب التاريخ العام لم تفصح عمن حج بالناس في سنة ٣٦٢هـــ سواء من العباسيين أومن الفاطميين[٦٩] وأما تواريخ مكة فقد تباينت رواياتها في هذا الشأن فالفاسي مثلاً يذكر أن الخطبة للمطيع العباسي دامت بمكة والحجاز في المواسم من سنة ٣٦١هـــ إلى سنة ٣٦٣هـــ[٧٠] بينما يذكر ابن فهد أن الذي حج بالناس في تلك السنة هو ابن القمر العثماني، صاحب القرامطة[٧١] أما الجزيري المختص في أخبار الحج فلا يذكر شيئاً عن هدية الشمســـة أو حج المعز في سنة ٣٦٢هـــ، وإنما اكتفى بذكر عبارة "لم يحج ركب العراق"[٧٢] وحتى المصادر المهتمة بتاريخ القاهرة ذكرت أن الذي حج بالناس في هذه السنة هو أبو أحمد الموسوي[٧٣]، بينما يذكر القلقشندي أن المعز حـــاول إقامـــة الخطـــبة له بمكـــة مـــنذ عـــام ٣٦٠هـــــ، ولكـــنه فشـــل[٧٤]، أمـــا في الســـنة التالـــية ٣٦٣هـــ/ ٩٧٣م فهناك شبه اتفاق لدى المصادر السابقة على أن الخطبة بمكة كانت للمعز[٧٥].

مما سبق يمكن الاستنتاج أن شمسة المعز أعد لها منذ موسم عام ٢٦٢هـــ/ ٩٧٢م، وأرسلت إلى الكعبة في السنة التالـــية الـــتي شهدت الخطبة للمعز في الحرمين، لا سيما وأن المصادر ذكرت الاحتفال الذي أقيم في وقت تمام عمل الشمســـة بحضور أهل مصر والشام والعراق وخراسان وكذلك الشعراء، ومنهم الشاعر تميم بن المعز ابن الخليفة الذي نظـــم شعراً بديعاً في هذه المناسبة يستشف منه أن الاحتفال تم في مصر، وأن الشمسة في طريقها إلى الكعبة، ولو بعد عام من تاريخ الاحتفال[٧٦].

ولم يكـــتفِ المعـــز بإهداء الكعبة شمستة المشهورة، وإنما تعدى ذلك إلى إهدائها ستائر نقش عليها اسمه، وأمر بنصـــبها عليها، ومحاريب من ذهب وفضة لم يُذكر عددها، نقش عليها اسمه أيضاً، ونصبت داخل الكعبة[٧٧]. وسار على نهج المعز ابنه العزيز بالله (٣٦٥- ٣٨٦هـــ/ ٩٧٥- ٩٩٦م) حيث أهدى إلى الكعبة محراباً من ذهب[٧٨]، إلا أن هذه الرواية لم تبين إن كان قد نقش عليه اسمه وأمر بنصبه داخل الكعبة كما فعل والده، أم أنه اكتفى بإرساله ليكون تحفة ثمينة للكعبة المشرفة، وفي الوقت ذاته فإن ما سبق ذكره من إهداءات للكعبة سواء من قبل المعز أو ابنه العزيز إنما تعكـــس مبلغ عنايتهما بالكعبة، وإظهار تلك العناية أمام الحجاج إلى بيت الله الحرام من مختلف بقاع الأرض، ذلك كـــان في الوقت الذي لم تشر فيه المصادر المتاحة إلى أن أحدا منهما خرج لأداء فريضة الحج! ولعل مرجع ذلك يعود إلى النـــية القوية والعزيمة الصادقة التي كانت تنقصهما والتي عبر عنها المعز نفسه في إحدى خطبه التي ألقاها في جموع مـــن رجالـــه حيـــنما قال: "قد أنعم الله -عز وجل- وتفضل ومكن، ونريد الحج وزيارة قبر جدي رسول الله ﷺ والجهـــاد، فـــأيش يقصر عن هذا ؟ إن قلت ليس عندي مال أني لكاذب، وإن قلت ليس عندي كراع وسلاح، أني لكاذب، وإن قلت ليس عندي رجال أني لكاذب، اللهم أعني بنية أقوى من نيتي"[٧٩].

ومهما يكن من أمر حج الخليفة المعز وابنه العزيز فإن المصادر التاريخية المتاحة تسكت عن ذكر أي هدايا للكعبة بعدهما، ولعل ذلك يعود إلى عدة احتمالات منها عدم إرسال هدايا خلال تلك الفترة بسبب الأوضاع السياسية التي تفـــرض نفســـها في مكة، واتجاهات القبائل التي تسيطر على طريق الحج، فضلا عن مصاعب الطريق وأخطاره، وما

تـــتعرض له قوافل الحجاج من قتل وسلب ونهب على يد قطاع الطرق[٨٠]. كل ذلك من الأمور التي ربما كانت قد حالت دون إرسال هدايا بشكل عام وهدية الشمسة الثمينة بشكل خاص إلى مكة المكرمة في تلك الفترة، والاحتمال الآخر حول القصور في ذكر الهدايا المرسلة إلى مكة ربما يكون مصدره شح المعلومات في المصادر المتيسرة، ومع ذلك فـــنحن نفـــترض أن تقليد هدية الشمسة قد توقف بعد سقوط الخلافتين الفاطمية والعباسية، ولو أن هذا التقليد ظل ســـائداً لما تخلى عنه سلاطين مصر في زمن الأيوبين والمماليك، ولما أغفلته مصادر تاريخ مصر التي دأبت سنوياً على ذكـــر مسير قافلة الحاج حاملة معها الكسوة والصلات على الرسم المعتاد في كل شهر من شهور ذي القعدة[٨١]، أما الإهـــداءات الأخرى فإن هناك قلة من الإشارات إلى بعض تلك الهدايا التي أرسلت إلى الكعبة من قبل بعض الأمراء، مـــن ذلك هدية صاحب عُمان (واسمه عثمان -كذا- بعد سنة ٤٢٠هـــ/١٠٢٩م) إلى مكة والمتمثلة في عدة قناديل محكمة الصناعة، بالإضافة إلى محاريب مبنية زنة كل محراب أزيد من قنطار سمرت جميعها في الكعبة مما يلي بابها[٨٢].

وفي عام ٦٣٢هـــ/ ١٢٣٤م أهدى مؤسس الدولة الرسولية في اليمن الملك المنصور السلطان عمر بن علي بن رســـول (٦٢٦- ٦٤٧هـــ/ ١٢٢٨- ١٢٤٩م) الكعبة قناديل من الذهب والفضة على يد ابن النُّصَيري أحـــد ولاة مكـــة مـــن قبله، حيث عمل الأخير على تعليق هذه القناديل في الكعبة[٨٣]، وكان قد بسط نفوذه على مكة في سنة ٦٢٩هـــ/١٢٣١م[٨٤].

أمـــا مكان حفظ هذه الإهداءات ومن يتولاها، فلم يعثر في المصادر المتاحة على أية معلومات مباشرة ومحددة تبين مكان حفظها، وطريقة الحفظ والشخص أو الأشخاص الموكول إليهم ذلك، ولكن يبدو من الإشارات البسيطة أن أمر حفظ الهدايا في عصور ما قبل الإسلام استمر حتى عهد قريش، وذلك بأن تودع في البئر التي حفرها إبراهيم في جـــوف الكعـــبة لهذا الغرض، وعمقها ثلاثة أذرع[٨٥]، أما في العهد الإسلامي فهناك من الإشارات ما تذكر خزانة الكعـــبة التي كانت في دار شيبة بن عثمان والتي يتولاها بنو شيبة أنفسهم، وفيها يحفظون الأموال الوقفية، وما يهدى للبيت بعد أن يقبضها الحجبة ويشهد عليهم بقبضها[٨٦].

أمـــا مصير هذه الإهداءات فيبدو مما أشرنا إليه سابقاً من عدم تصرف الرسول ﷺ وكذلك أبو بكر وعمر في كـــنز الكعـــبة أن ما جُعل فيها وسبل لها يجري مجرى الأوقاف، فلا يجوز أخذ شيء من حلية الكعبة لا للحاجة ولا للتبرك، وقيل وفي ذلك تعظيم للإسلام، وترهيب على العدو[٨٧]، إلا أن محتويات الكعبة وخزانتها تعرضت منذ العهد القـــديم لكـــثير من حوادث السلب والنهب منها ما يعود إلى عهد جرهم الذين كانوا يجعلون عليه رجلا يحرسه إبان عهدهـــم، ولكنه بعد ذلك تعرض للسرقة من قبلهم قبل خروجهم من مكة، كما قيل بأنهم أخفوا بعضه في مكة[٨٨]، ويذكـــر الأزرقـــي أنه، ومنذ أن تعرض ذلك الجب للسرقة زمن جرهم، بعث الله ثعبانا، وأسكنه في الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيه فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه، واستمر عـــلى ذلك زمن جرهم وخزاعة وقريش حتى قررت قريش إعادة عمارة البيت، فدعوا عليه، فاختطفه عقاب[٨٩]. ولا

شك أن هذه الرواية من الخرافات التي لا يقبلها عقل، ولكنها تدلل على أن حماية موجودات الكعبة، مما يشغل أهل مكة حتى في ذلك الزمن الموغل في القدم، ويتجلى هذا الانشغال في عهد قريش الذين كانوا يعاقبون من يسرق كنز الكعبة بقطع يده، وقد قطعوا يد مليح بن شريح بن الحارث بن السباق بن عبدالدار ومقيس بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم ورجل يقال له دُويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة من أجل سرقة غزال الكعبة[٩٠]. أما في صدر الإسلام فلم تتعرض خزانة الكعبة لشيء من النهب، بل ويذكر الأزرقي عن بعض الحجبة أن الذهب الذي وجده الرسول ﷺ في جب الكعبة استمر على ما هو عليه و لم يتعرض له أحد حتى سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٣م[٩١]. وهناك من الإشارات ما تفيد ببقاء بعض الإهداءات التي تعود إلى العصر الأموي سليمة في الكعبة حتى سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م[٩٢]. أما في العصر العباسي فهناك عوامل متعددة أدت إلى اختفاء الكثير مما أهدي للكعبة فالعامل الأول: أعمال النهب والسلب التي تعرضت لها مكة عامة والكعبة بشكل خاص فمنها ما حدث في خلافة المأمون سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م عندما سيطر الطالبيون على مكة وأخذ الحسين بن الحسن الأفطس ما في خزانة الكعبة فقسمه على أصحابه[٩٣]. وفي سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م تعرضت مكة لثورة علوية أخرى تزعمها إسماعيل بن يوسف الحسني (ت ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) فنهب ما في خزائن الكعبة من الذهب والفضة[٩٤]. إلا أن أشد ما تعرض له كنز الكعبة من تطاول على أيدي السارقين والعابثين والمعتدين جاء على يد أبي الطاهر القرمطي في عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠هـ/ ٩٠٧- ٩٣٢م)[٩٥]. والعامل الثاني: الفتن التي كانت تقع بمكة وما كان يترتب عليها من أخذ حلي الكعبة وهداياها لضبط أمور مكة ومحاربة الخارجين على الخليفة؛ مثلما حدث في سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م عندما أرسل يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي، والي مكة من قبل الخليفة المأمون، إلى الحجبة فأخذ منهم السرير الذي بعث به ملك التبت وضربه دنانير ودراهم ليستعين به على حرب إبراهيم بن موسى الكاظم الحسيني الذي خرج إلى مكة من اليمن وقال: "أمير المؤمنين يخلفه لها"[٩٦]. ومن ذلك ما حدث من قبل أمير مكة والحجاز أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي (ت ٤٣٠هـ) في سنة ٣٨١هـ حين خرج على طاعة الحاكم بأمر الله الفاطمي ودعا لنفسه بالإمامة، فأخذ ما في خزانة الكعبة من مال وما عليها من حلية وأطواق الذهب والفضة وضربها دنانير ودراهم، وهي التي تسمى بالفتحّية نسبة إليه، أو الكعبية نسبة إلى الكعبة التي سكت من كنوزها، كما أخذ المحاريب التي أهداها للكعبة صاحب عُمان[٩٧]. أما العامل الثالث: الاستفادة من هدايا الكعبة كمدخرات عند الحاجة[٩٨] إما لاعادة العمران، أو للتزيين حسبما يرى الحجبة مثلما حدث في خلافة المتوكل سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م عندما أخرج الحجبة ما عندهم في خزانة الكعبة من أجل إكمال زينة الكعبة وتحليتها[٩٩]. والعامل الرابع: تطاول أيدي بعض فتيان الحجبة إلى مال الكعبة، إلا أنه يجب التنويه إلى أن مشيخة الحجبة كانت تحرص على وصاية أبنائهم بالتنزه عن ذلك المال، واعادة ما سرق منه على يد أبنائهم[١٠٠]. ولا ندري إن كان للكوارث التي تعرضت لها مكة خلال فترة الدراسة من سيول جارفة[١٠١] أثر في فقدان هدايا الكعبة أم غير ذلك. ومهما يكن من أمر تلك الكوارث، وأثرها على هدايا الكعبة فإن أيا منها مما ذكره الأزرقي وبعض مما لم يذكره لم يكن موجوداً في الكعبة في عام

٨١٢هـ/١٤٠٩م وهذا ما يقرره الفاسي بقوله: "وليس في الكعبة الآن شيء من المعاليق التي ذكرها الأزرقي ومما لم يذكره مما ذكرنا سوى الستة عشر قنديلاً، وليس فيها شيء من حلقة الذهب والفضة التي كانت في أساطينها وجدرانها بسبب توالي الأيدي عليه من الولاة وغيرهم"(١٠٢).

أما في العصر الحالي فلم يصل إلى علمنا أية تأكيدات عما إذا كانت تلك الإهداءات أو بعضها لا يزال في الكعبة أم أنها فقدت أو نهبت منها، والظاهر أن معظمها لا سيما الذهبية أو الفضية هي الآن في حكم المفقود للأسباب ذاتها. وحسب ما وصل إلى علمي توجد في الكعبة الآن لوحات خطية بعضها يعود إلى عصر بني رسول، وبعضها بعد ذلك، وعلمت أن بعض ما في الكعبة نُقل إلى متحف الحرمين الذي أقيم بالقرب من كسوة الكعبة(١٠٣).

ومن عرضنا السابق نخلص إلى النتائج الآتية:

- تاريخ الإهداء إلى الكعبة يعود إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.
- توالت الإهداءات على الكعبة في العهد السابق للإسلام من قبل الفرس وجرهم وكلاب بن مرة وعبدالمطلب جد النبي ﷺ في عهد قريش.
- تاريخ الإهداء إلى الكعبة في الإسلام يعود إلى عهد الرسول، وتحديدا إلى سنة ١٠هـ/ ٦٣١م. وليس إلى خلافة عمر بن الخطاب، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين.
- تفانى خلفاء المسلمين منذ العهد الأموي في إرسال الهدايا إلى الكعبة بعد نقش أسمائهم عليها، مسبوقة بلقب أمير المؤمنين والعبودية لله تعالى، ثم تاريخ إرسال الهدية، وقد استمر هذا التقليد في العهدين العباسي والفاطمي، وإن كانوا قد زادوا في ذلك بعض آيات القرآن الكريم المتعلقة بالحج.
- تعدّ هدية الشَّمْسَة من أهم وأبرز الإهداءات المنقولة إلى الكعبة خلال فترة الدراسة. وتاريخها يرجع إلى العهد الأموي، وتحديدا إلى خلافة عبدالملك بن مروان.
- منذ عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله أصبح تقليد إرسال الشَّمْسَة سنَّة سار عليها الخلفاء من بعده حيث كانت ترسل في موسم كل حج صحبة الركب الرسمي الذي كان يتقدمه قائد من العراق معين من قبل الخليفة العباسي، واستمر كذلك في العهدين الأخشيدي والفاطمي.
- تفانى الخلفاء والأمراء في إعداد هدية الشَّمْسَة القيمة، وتأنقوا في صنعها وتجميلها ووصلت الشمسة أوج تطورها في العهد الفاطمي في خلافة المعز لدين الله فشمسته تفوقت على شمسات العباسيين والأخشيديين تفوقا مذهلا سواء في الحجم أو في الوزن أو في الاتقان في صنعها من الديباج الأحمر، وحشوتها من المسك المسحوق، فضلا عن التفنن في الذهب المصاغ بها، وفي تحليتها بالدر والياقوت الملون، وكتابة آيات الحج عليها بزمرد أخضر.

- حرص الخلفاء العباسيون على توثيق عهودهم بالبيعة لمن يخلفهم، وذلك بإضفاء سمة دينية عليها تتمثل في كتابتها وإمضائها وختمها، ثم إرسالها إلى مكة برفق هدايا قيمة للكعبة، والأمر بتعليقها مع الهدايا الأخرى في جوف الكعبة.

- شهدت مواسم الحج عرض تلك الهدايا التي كانت ترسل إلى الكعبة مع توضيح الهدف من إرسالها في بعض الأحيان، وكانت الهدايا تصل إلى مكة قبل إعلان شهر ذي الحجة حيث جرت العادة بعرضها للناس في الأيام الأولى من ذلك الشهر حتى يوم التروية، وبعضها يعرض في المسجد الحرام بعد صدور الحجيج من منى إلى مكة، والأول أكثر شيوعا.

- بعض تلك الهدايا كانت تعلق سنويا في الكعبة ومنها الياقوتة التي بعثها الخليفة المأمون، والتي استمرت تعلق في الكعبة إلى جانب هدايا من تلاه من الخلفاء العباسيين.

- جميع الهدايا التي أرسلت مباشرة إلى الكعبة من قبل زعماء وكبراء العالم الإسلامي بُعث بها إلى الخليفة العباسي، فهو وحده من يأذن بتعليقها في الكعبة، أو عرضها في المسجد الحرام.

- الدافع الرئيسي وراء إرسال الهدايا إلى الكعبة في موسم الحج بشكل عام، وهدية الشَّمْسَة بشكل خاص، كان سياسياً أو دعائياً، إذ كانت فرصة يُظهر فيها المُرسل سيطرته الحقيقية على مكة المكرمة أمام هذا الحشد الهائل من المسلمين الذين يفدون إليها من كل فج عميق.

- كانت الهدايا المرسلة إلى الكعبة تعرض في أيام المواسم إما قبل يوم عرفة أو بعد نفرة الحجيج من منى إلى مكة، وعادة ما يكون عرضها في مكان بارز؛ فإما أن تعلق على واجهة الكعبة أو تنصب بين الصفا والمروة وسط رحبة عمر بن الخطاب بحيث يراها معظم الوافدين إلى مكة من الحجاج، فضلا عن أهل مكة نفسها.

- هناك مراسيم اتخذت منذ العهد العباسي عند إرسال أية هدايا إلى الكعبة تمثلت تلك المراسم في إرسالها مع قافلة لها قائد يعين عليها من قبل الخليفة، ومعه عدد كثير من الجند يصحبون القافلة، وفي بعض الأحيان ترفق بكتاب خاص من الخليفة يحمل مضمونا سياسيا يتعلق في الغالب بولاية العهد، أو تزف خبرا مفرحا للمسلمين مثل إسلام ملك من الملوك. وكان رسول الخليفة يباشر بنفسه أمر تعليق الهدية في الكعبة، أو عرضها للناس حسب ما يصدر عن الخليفة.

- كانت الهدايا أحيانا تعلق فور وصولها إلى مكة، ولكنها في بعض الأحيان كانت تأخذ مزيداً من الوقت يستغرق حوالي شهرين ما بين وصولها وتعليقها.

- بعد انتهاء عرض الهدايا كانت إما أن تعلق في الكعبة أو تحفظ في خزانتها.

- كان حجبة البيت من رجال بني شيبة يتولون استلام مايُهدى إلى الكعبة، بعد أن يؤخذ عليهم شهود بالاستلام، كما كان يعهد إليهم بحفظ هذا المال، فلا يجوز لغيرهم التعرض لكتر الكعبة بغير إذنهم.

- هناك من الملوك ممن اعتنق الإسلام في عصر الرسول ﷺ، وكذلك في العصر العباسي من عمد إلى إرسال هدية ذات دلالة على انتقاله مما كان يعبد آباؤه وأجداده إلى الدين الجديد. ويبدو أن الهدف من وراء ذلك هو تأكيد دخول هؤلاء في الإسلام، وتبرؤهم من الشرك، وإشهار ذلك أمام جموع المسلمين في مكة.

- منذ العصر العباسي الثالث والصراع على الخطبة يمثل المحور الأساسي لإرسال الهدايا إلى الكعبة، وقد شهدت فترة الدراسة تنافسا حادا بين العباسيين والفاطميين على الخطبة في مكة، وبالتالي على الهدايا المرسلة إلى الكعبة وخاصة هدية الشَّمْسَة. من جانب آخر فإن المصالح الاقتصادية لعبت دورا مهما في سبيل الوصول إلى الخطبة والدعوة على منابر مكة في موسم الحج، فما عمله القرامطة من إقامة الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله سنة ٣٥٩هـ لم يكن ودًّا لهم بل نكاية بأعدائهم من الفاطميين الذين سيطروا على بلاد الشام، وحرموهم من مورد اقتصادي كان في غاية الأهمية لهم،ألا وهو الأموال التي كانت تحمل إليهم سنويا من قبل الأخشيديين.

- جرت العادة منذ العهد السابق للإسلام أن ما كان يهدى إلى الكعبة له حكم الوقفية عليها، وقد استمر هذا التقليد في عصر صدر الإسلام، إذ لا يجوز صرف تلك المدخرات في غير مصالح الكعبة، وما يزيد عن الحاجة يبقى من مدخراها إلى حين الحاجة إليه، فقد توصل البحث إلى أن بعض الإهداءات خاصة الذهب والفضة هي بمثابة مدخرات للكعبة يرجع إليها عند الحاجة. ومع ذلك فقد تعرضت موجودات الكعبة للسطو والنهب على مر العصور.

التعليقات

(١) الجُبّ البئر البعيدة القعر، ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، *لسان العرب المحيط*، تحقيق: يوسف خياط (بيروت: دار لسان العرب، د.ط، د. ت)، ١: ٣٩٣.

(٢) ويُذكر أن جُبَّ الكعبة هو خزانتها المحفورة في باطنها قرب بابها الشرقي. الأنصاري، عبدالقدوس، *الكعبة، أسماء وعمارات، ومعبداً لا معبوداً، وتاريخاً قبل الإسلام، الجزيرة العربية قبل الإسلام*، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، ط١ (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١١٨.

(٣) ابن هشام، عبدالملك المعافري (ت ٢١٨هـ)، *السيرة النبوية*، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ١: ١٥٢، ١٩٣؛ الأزرقي، محمد بن عبدالله (ت ٢٥٠هـ)، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق: رشدي ملحس، ط٣ (بيروت: دار الثقافة ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ١: ٢٤٤؛ وانظر: الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)، ٢: ٢٤٠؛ الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، *تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام*، تحقيق: محمد حمدان، ط١ (بيروت، القاهرة:

دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ٢ :٥٠. واستمر ذلك الجب في عهد قريش حيث يُذكر أنهم كانوا يحفظون ما يهدى للكعبة في بئر في جوفها؛ المقدسي، المطهر بن طاهر (ت ٧١٠هـ)، *البدء والتاريخ*، د.ط (بيروت: دار صادر ، د.ت)، ٤: ١٣٩.

(٤) الحربي، أبو إسحاق إبراهيم (ت ٢٨٥هـ)، *المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة*، تحقيق: حمد الجاسر، ط١ (الرياض: دار اليمامة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٤٨٦.

(٥) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: يوسف داغر، ط ٣ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٨م)، ١: ٢٦٥- ٢٦٦؛ وانظر: ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، *العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، تحقيق: يوسف داغر ي، ط٣ (بيروت: دار الكتاب اللبنان، ١٩٨١م)، ٢: ٦٢٤؛ الفاسي، محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ)، *تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام*، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٤٣٥٠، القاهرة، ورقة ٢٨ ب، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر تدمري، د. ط (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ١: ١٨٩؛ النهروالي، محمد بن أحمد (ت ٩٩٠هـ)، *الإعلام بأعلام بيت الله الحرام*، تحقيق: هشام عطا، ط ١ (مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٩٤؛ القطبي، عبدالكريم بن محب الدين المكي (ت ١٠١٤هـ)، *إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام*، تحقيق: أحمد محمد جمال الدين وآخرين، ط ٢ (الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٥٨؛ رفعت، إبراهيم (ت ١٣٥٣هـ)، *مرآة الحرمين*، ط١ (القاهرة: ١٩٥٢م)، ١: ٢٧٨؛ باسلامه، حسين عبدالله، *تاريخ الكعبة المعظمة*، ط٢ (جدة: الكتاب العربي السعودي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٢٠٩- ٢١٠.

(٦) المسعودي، ١: ٢٦٥- ٢٦٦؛ وانظر: الفاسي، *شفاء*، ١: ١٨٩؛ باسلامة، ٢١٠.

(٧) المسعودي، ١: ٢٦٥؛ وانظر: ابن خلدون، ٢: ٦٢٤.

(٨) الفاسي، *شفاء*، ١: ١٨٩؛ النهروالي، ٩٥؛ القطبي، ٥٨، رفعت، ١: ٢٧٨؛ باسلامة، ٢١٠.

(٩) الفاكهي، محمد بن إسحاق (ت ٢٧٩هـ)، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، ط ٢ (بيروت: دار خضر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ٤: ١٠٤.

(١٠) السيوف القَلْعِّية وهي الهندية العتيقة التي تنسب إلى القَلْعَة وهي قلعة عظيمة في الهند من جهة الصين فيها معدن الرصاص القلعي، وهناك موضع بالبادية يقال له القَلَعَة وإليه تنسب السيوف. ياقوت، شهاب الدين بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، *معجم البلدان*، د.ط (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٤: ٣٨٩.

(١١) تباينت الروايات في المصادر حول ما وجده عبدالمطلب في زمزم، وحول ما حلّي به الكعبة منه. انظر: ابن هشام،١: ١٤٦، ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)، *الطبقات الكبرى*، تحقيق: محمد عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ١: ٦٩؛ الأزرقي، ٢: ٤٦، ٤٧، الفاكهي، ٢: ١٢، ٣: ٢٣٠، البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، *جُمل من أنساب الأشراف*، تحقيق: سهيل زكار وآخرون، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ١: ٨٦؛ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١: ٢٤٧؛ الطبري، ٢: ٢٥١؛ البيروني، محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ)، *الجماهر في معرفة الجواهر*، د.ط (القاهرة: مكتبة المتنبي، د.ت)، ٦٦؛ السهيلي، عبدالرحمن (ت ٥٨١هـ)، *الروض الأنف في شرح السيرة النبوية*، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، د.ط (القاهرة:

دار الكتب الحديثة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ٢: ٩٩ - ١٠٠؛ ابن الأثير، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ)، *الكامل في التاريخ*، د.ط (بيروت: دار صادر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٢: ١٤؛ المقدسي، ٤: ٨٣؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٨٥؛ ابن ظهيرة، محمد جارالله بن محمد (٩٨٦هـ)، *الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف*، ط٤ (مكة المكرمة: المكتبة الشعبية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، ٧٠؛ الأسدي، أحمد بن محمد (ت ١٠٦٦هـ)، *إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام*، تحقيق: غلام مصطفى، ط١ (نارس الهند: الجامعة السلفية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، ١٣٥؛ ابن عبدالقادر الطبري، علي (ت ١٠٧٠هـ)، *الأرج المسكي في التاريخ المكي*، تحقيق: أشرف الجمال، ط١ (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ١٤٩.

(١٢) تخبرنا المصادر التاريخية القديمة ومنها النقوش العربية الجنوبية الكثير عن الإهداءات المختلفة للمعابد. ولمزيد من التفاصيل انظر: أرمان، أدولف: ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة عبدالمنعم أبو بكر ومحمد شكري، د.ط (القاهرة: د.ن، د.ت) ٢١٤؛ الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، *قرية الفاو* صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، ط١ (الرياض: جامعة الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٢٠؛ أوبنهايم، ليو: بلاد مابين النهرين، ترجمة سعدي عبدالرزاق، د.ط (بغداد، دار الحرية، ١٩٨١م)، ١١٧، ١١٨؛ بافقيه، محمد عبدالقادر وآخرون، *مختارات من النقوش اليمنية القديمة*، د.ط (تونس: المنظمة العربية للتربية والتعليم، ١٩٨٥م)، نقش ٤٥/٥، ٢٠١؛ الماجدي، خزعل، *الدين السومري*، د.ط (عمان: دار الشروق، ١٩٨٨م)، ١٥٨.

Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars quarta, Inscription himgariticas et sabaeas continens, Tomus I. II. III, parisiis, 1889, 1911, 1929), Jamme, A.W.f: Sabaean Inscriptions From Mahram Bilqis (Marib) Baltimore, Johns Hopkins, 1962, ja559- 3-4 p28, Ja561-3-4, p36, Ja655/4, p160, Ja662/5- 6, p167, Ja576/1, p67, Ja669/6-7, p174, Jamme, A.W.f: Pieces Epigraphiques Des Heid bin AlGEL La Necropole de Timna (Hajer Kholan), Louvin, Universite de Louvin, Bibolotheque du Louvin,1952, ja347, pp191-192, ja384, pp192-194.

(١٣) قال أبو مسافع الأشعري:

إنَّ الغزال الذي كنتم وحليته ... تقنونه لخطوب الدهر والغيرِ
طافت به عصبةٌ من شرّ قومهم ... أهل العلا والندى والبيتِ ذي السترِ
فاستقسموا فيه بالأزلام علّكُم ... أن تُخبروا بمكان الرأسِ والأثرِ

وقال أيضاً في هذه المناسبة:

أبْلغْ بني النضر أعلاها وأسْفَلها ... أنَّ الغزالَ وبيت الله والرُّكُن
أمْستْ قِيانُ بني سَهْمٍ تَقَسَّمُهُ ... لم يُغْلَ عند نَدَامَاهُنَّ بالثَّمنِ

حسان بن ثابت، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي (ت ٥٤هـ)، *ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*، تحقيق: وليد عرفات، د.ط (بيروت: دار صادر، ١٩٧٤م)، ١١٨- ١٢١؛ ابن حبيب، محمد البغدادي (ت ٢٤٥هـ)، *المنمق في أخبار قريش*، تحقيق: خورشيد فاروق، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٥٩- ٦٦؛ وانظر: الطبري، ٢: ٢٨٣، ٢٨٦.

(١٤) الحربي، ٤٨٦؛ عبدالقدوس الأنصاري، *الكعبة*، ١٣٨.

(١٥) الأزرقي، ١: ٢٤٦؛ ابن الزبير، أحمد بن علي (ت ٥٦٣هـ)، *الذخائر والتحف*، تحقيق: محمد حميدالله، ط٢ (الكويت: مطبعة

حكومة الكويت، ١٩٨٤م)، ١٥٥؛ ابن خلدون، ٢: ٦٢٨؛ ابن ظهيرة، ٦٠. وذكر الفاكهي (٥: ٢٣٥) أنها كانت ستين أوقية.

(١٦) ورد عن عمر بن الخطاب القول: "لقد هممت أن لا أدع فيها -أي الكعبة- صفراء ولا بيضاء إلا قسمته -فقال له شيبة سادن البيت- قلت إن صاحبيك لم يفعلا قال هما المرآن اقتدى بهما". البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، *صحيح البخاري*، د.ط (د.م: دار الفكر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٢: ١٥٩؛ وانظر: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*، تحقيق: قصي الخطيب وآخرين، ط١ (القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ٣: ٥٣٣.

(١٧) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *جامع البيان في تفسير القرآن*، د.ط (القاهرة: دار الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ١٠: ٤.

(١٨) البرسم الذهبي لم نجد له ذكرا في كتب الحديث ولا السيرة، ولا ندري إن كانت كلمة برسم قد تعرضت للتحريف من قبل النساخ كأن يكون أصلها إبْرِيسَم وهو الديباج أو الحرير الذي اشتهرت به بلاد اليمن ومنه الملون والأصفر. فمن المحتمل أن المراد بالبرسم الذهبي الذي أهداه باذان من اليمن للرسول هو الديباج الأصفر. ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ)، *النهاية في غريب الحديث*، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمد الطناوحي، د.ط (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت)، ٢: ٩٧؛ الزبيدي، ٢: ٣٧، ٨: ١٩٩.

(١٩) من الأبناء وهم من أولاد الفرس الذين سيرهم كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن إلى اليمن لقتال الحبشة، فأقاموا باليمن، وكان باذان بصنعاء، وقيل هو آخر من قدم اليمن من ولاة العجم، أسلم في سنة ١٠هـ/٦٣١م، وولاه الرسول ﷺ اليمن كلها. ابن هشام، عبدالملك المعافري (ت ٢١٨هـ)، *السيرة النبوية*، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ١: ٦٩، الطبري، *تاريخ*، ٢: ٢١٥، ٦٥٥- ٦٥٧، ٣: ١٥٨، ٢٢٧- ٢٢٩، ٢٣٦، ابن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، تحقيق: محمد البنا وآخرين، د.ط (القاهرة: دار الشعب، د.ت)، ١: ١٩٥؛ الكامل في *التاريخ*، ٢: ٣٣٦- ٣٤١؛ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ط ٢٥ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ١: ١٢٥.

(٢٠) البيروني، ٦٦- ٦٧.

(٢١) لمزيد من التفاصيل انظر الآراء الواردة لدى ابن حجر، ٣: ٥٣٤- ٥٣٥.

(٢٢) الزيلعي، أحمد عمر، *مكة وعلاقاتها الخارجية*، ط١ (الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٩٥.

(٢٣) الأرزقي، ١: ٢٢٤؛ البيروني، ٦٧؛ الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٨ب، *شفاء*، ١: ١٨٩؛ ابن ظهيرة، ٧١؛ النهروالي، ٩٥، القطبي، ٥٨؛ الأسدي، ١٣٦؛ رفعت، ١: ٢٧٨؛ باسلامه، ٢١٠. بينما يذكر ابن عبدالقادر الطبري (الأرج، ١٤٩) أن أول من حلى البيت في الإسلام الوليد بن عبدالملك، وقيل أبوه، وقيل ابن الزبير.

(٢٤) وهنا أيضاً الكاودوشه لا نجد لها توضيحاً في المصادر المتاحة ولا ندري إن كانت الكلمة صحيحة أم تعرضت للتحريف من قبل النساخ، والجدير بالذكر أن مما غنمه المسلمون في المدائن بعد فتحها ما يسمى"درَفْشِ كاويان -كابيان-"، وهي راية فارس العظمى، وكانت من جلود النمور طولها أثنا عشر ذراعاً في عرض ثمانية أذرع على خشب طوال موصل، وكانت مرصعة

بالـــياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر، وقيمتها ألفي -ألف- ألف دينار ومائتي ألف. فلا ندري إن كانت هذه الراية الثمينة هي نفسها الكاودوشه التي أهداها عمر للكعبة أم أن الأخيرة شيئاً آخر. الطبري، *تاريخ*، ٣: ٥٦٤؛ المسعودي، ٢: ٣٠٨- ٣٠٩، ٣١٩؛ ابن الزبير: ١٥٧.

(٢٥) البيروني، ٦٧.

(٢٦) الشَّـــمْس ضرب من الحلي من القلائد خاصة، وقيل معلاق القلادة في العنق، والجمع شموس. وقد ورد ذكر قلائد الشمس في شعر العصر الأموي وكانت تنظم من الدر واللؤلؤ.

قال الشاعر: والدُّرُّ واللؤْلؤُ في شَمْسِهِ مُقَلِّـــدٌ ظَبْـــيَ التَّصاوِيـــــرِ.

ابـــن أبي ربيعة، عمر بن عبدالله (٩٢هـــ)، *ديوان عمر بن أبي ربيعة* (بيروت، د.ط، دار صادر، د.ت)، ١٠٠، ١٦٤، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦؛ ابـــن منظور، ٢: ٣٥٨؛ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـــ)، *القاموس المحيط*، د.ط (بيروت: دار الفكـــر، ١٤٠٣هـــــ/ ١٩٨٣م)، ٢: ٢٢٣- ٢٢٤؛ الزبـــيدي، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـــ)، *تاج العروس من جواهر القاموس*، د.ط (بيروت: منشورات مكتبة الحياة، د.ت)، ٤: ١٧٢؛ البابطين، إلهام أحمد، *الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي*، ط١ (الرياض: مطابع الخالد، ١٤١٩هـــ)، ٣٨١.

(٢٧) الأزرقي، ١: ٢٢٤؛ البيروني، ٦٧؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٠؛ تحفة الكرام، ورقة ٢٧ب، ٢٨ب، ابن ظهيرة، ٧١، الأسدي، ١٣٦؛ رفعت، ١: ٢٧٨. قارن: الشيبي، محمد (ت ١٣٣٥هـــ)، *إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام*، تحقيق: إسماعيل حافظ، ط١ (مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة الثقافي والأدبي، ١٤٠٥هـــ/١٩٨٤م)، ٢١٧؛ باسلامه، ٢١٠.

(٢٨) المقريـــزي، أحمـــد بن علي (ت ٨٤٥هـــ)، *اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا*، تحقيق: جمال الدين الشيال، د.ط، (القاهـــرة: المجلـــس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٨٧هـــ/ ١٩٦٧م)، ١: ١٤١؛ وانظر تعليقات المحقق في ١٤٠هامش ١، الـــزيلعي، ٩٥. ولعـــلهم أرادوا أن المتوكل هو أول من جعل ارسال الشمسة إلى الكعبة في كل سنة في موسم الحج سنة تسير عليها الدولة الإسلامية.

(٢٩) الزيلعي، ٩٥.

(٣٠) الشيال، جمال الدين، *محقق كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء*، ١: ١٤١هامش ١؛ الزيلعي، ٩٦- ٩٨.

(٣١) الأزرقي، ١: ٢٢٤؛ البيروني، ٦٧؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٠؛ ابن ظهيرة، ٧١؛ الأسدي، ١٣٦؛ رفعت، ١: ٢٧٨؛ باسلامة، ٢١١.

(٣٢) السهيلي، ١: ٢٢٤؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٨٨؛ ابن فهد، ٢: ١١٩.

(٣٣) الأزرقي، ١: ٢٢٤؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٠؛ ابن فهد، النجم عمر (ت ٨٨٥هـــ)، *اتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: فهيم شلتوت، ط١ (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي، ١٤٠٤هـــ/١٩٨٣م)، ٢: ١٣٤؛ ابن ظهيرة، ٧١؛ الأسدي، ١٣٧، رفعـــت، ١: ٢٧٨- ٢٧٩؛ باســـلامه، ٢١٠. وأضاف الفاسي الكرسي، وقال رفعت هو السرير، ولدى ابن ظهيرة السرير الرسي.

(٣٤) الـــزبيري، المصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـــ)، *نسب قريش*، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط٢ (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م)، ٥٢؛ ابـــن عســـاكر، عـــلي بن الحسين (ت ٥٧١هـــ)، *تراجم النساء*، تحقيق: سكينة الشهابي، ط١ (دمشق: ١٤٠٣هـــ/ ١٩٨٢م) ١١٣.

(٣٥) الأزرقي، ١: ٢٢٤.

(٣٦) لم يترجم له الفاسي في تراجم المكيين، و لم نجد له ترجمة في المصادر المتيسرة، ويبدو من رواية الأزرقي (ت ٢٥٠هـ)، أنه كان من المعاصرين له وممن خلقوا الكعبة في ذلك العهد. الأزرقي، ١: ٢٢٤.

(٣٧) الأزرقي، ١: ٢٢٤.

(٣٨) الأزرقـي، ١: ٢٢٥؛ البيروني، ٦٧؛ الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٨ب، *شفاء*، ١: ١٩٠؛ ابن ظهيرة، ٧١، النهروالي، ٩٥؛ القطـبي، ٥٨؛ الأسدي، ١٣٧؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامه، ٢١١. ووردت لدى الأزرقي وابن ظهيرة والأسدي بالصحفة ويـبدو أنه من تصحيف النساخ وإلا فهي الصفيحة أي السيف العريض (ابن منظور، ٢: ٤٤٦) وهي بهذا المعنى سيف أحضر بينما لدى النهروالي الصحيفة الحضر.

(٣٩) الأزرقي، ١: ٢٢٥؛ القطبي، ٥٨.

(٤٠) الأزرقـي، ١: ٢٢٥؛ البيروني، ٦٧؛ الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٨ب؛ *شفاء*، ١: ١٩٠، ابن ظهيرة، ٧١، الأسدي، ١٣٧، رفعت؛ ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١١.

(٤١) البيروني، ٦٧.

(٤٢) الأزرقي، ١: ٢٢٥.

(٤٣) الجديـر بالذكـر أن المصـادر أشارت إلى حفريات إسلامية في دفائن أرض مصر تعود إلى العهد الأموي، وتحديداً في خلافة عـبدالملك بن مروان وواليه على مصر أخيه عبدالعزيز، وأفاضت في ذكر ما عثر عليه من الجواهر والتحف، أما العهد العباسي فالإشـارات إلى التنقيب في آثار مصر تعود إلى عهد المأمون عندما بعث عددا من الباحثين لينقبوا في الأهرام، وأنفق على هذه البعـثة أمـوالا عظـيمة، فوجدوا فيها الكثير من التحف الذهبية أثارت عجب الخليفة المأمون، ولا ندري إن كانت القارورة الفرعونـية ممـا عـثر عليه في تنقيبات سابقة في آثار مصر الفرعونية في عهد الخليفة المنصور أم لا! عن تلك الحفريات انظر، المسـعودي، ١: ٤٠٧- ٤٠٨، المقريـزي، *المواعـظ والاعتـبار بذكر الخطط والآثار* (بيروت، دار صادر، د.ط، د.ت)، ١: ١١٣.

(٤٤) الأزرقي، ١: ٢٢٥، ٢٣٤؛ ابن فهد، *اتحاف*، ٢: ٢٣٦. وانظر، النهروالي، ٩٧، ١٥١؛ باسلامة، ٢١١.

(٤٥) الأزرقـي، ١: ٢٢٥؛ البيروني، ٦٧، الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٨ب؛ *شفاء*، ١: ١٩٠؛ ابن ظهيرة، ٧١؛ النهروالي، ٩٥؛ القطبي، ٥٨؛ الأسدي، ١٣٧؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١١.

(٤٦) الفـاكهي، ٥: ٢٣٦؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٢. والدرة اللؤلؤة العظيمة، ويقال درة يتيمة جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة، ولا نظير لها. ابن منظور، ١: ٩٦٧، ٣: ١٠٠٤؛ القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، د.ط (القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت)، ٤: ٨٤.

(٤٧) ابن الزبير، ١٨٣. وفيه أن الخليفة المأمون أمر بعد ذلك بكسر ذلك الكانون لما نمى إلى علمه ظن فئة من الناس أن الخليفة أراد أن يجعل بيت الله بيت نار.

(٤٨) وذكر البيروني (٦٧) أنها أصنام ذهبية وفضية.

(٤٩) هكذا ذكرهما الأزرقي (١: ٢٢٦) و لم نجد في المصادر المتاحة ترجمة لحياة الاثنين.

(٥٠) الأزرقـي، ١: ٢٢٥- ٢٢٧؛ وانظـر، اليعقوبي، ٢: ٤٥٢؛ الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٨ب؛ *شفاء*، ١: ١٩٠؛ ابن فهد،

اتحاف الورى، ٢: ٢٧١- ٢٧٣؛ الأسدي، ١٣٧؛ باسلامه، ٢١١- ٢١٢. ودار شيبة بن عثمان دخلت في المسجد وهي جنب دار الندوة ودار الإمارة وخزانة الكعبة تحتها، وهي دار أبي طلحة عبدالله بن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار ولها باب في المسجد الحرام. الفاكهي، ٢: ٢٠٦، ٣: ٣١٢.

(٥١) الأزرقي، ١: ٢٢٦- ٢٢٧. وانظر، الفاسي، *العقد*، ٧: ٤٦٧. قارن، الفاكهي (٣: ١٠٩) حيث ذكر أن مكة تعرضت في سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م لسيل خطير ملأ الوادي ودخل المسجد الحرام ورفع المقام من مكانه وكان يقال له سيل ابن حنظلة.

(٥٢) الفاكهي، ٥: ٢٣٦؛ ابن الزبير، ٣٦؛ الفاسي، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، تحقيق: مصطفى الذهبي، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة نزار الباز، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ٥٠؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٢٨٩- ٢٩٠؛ الجزيري، ٢٢٦- ٢٢٧؛ ابن ظهيرة، ٧١، النهروالي، ٩٥- ٩٦؛ القطبي، ٥٨؛ الأسدي، ١٣٧؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١٣.

(٥٣) الأزرقي، ١: ٢٢٥؛ البيروني، ٦٧؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٠؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٤١؛ ابن ظهيرة، ٧١؛ النهروالي، ٩٥؛ القطبي، ٥٨؛ الأسدي، ١٣٧؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١١.

(٥٤) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٤١.

(٥٥) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٤١، ١٧٨؛ وانظر، الزيلعي، ٩٥.

(٥٦) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٧٨. وانظر، ابن الأثير، *الكامل*، ٧: ٥٤٨- ٥٥٠.

(٥٧) العمري، ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ)، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، تحقيق: أحمد زكي، د.ط (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، ١: ٦٢؛ النويري، أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، د.ط (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت)، ٢٥: ٢٩٩. وانظر، ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٣٧٧؛ الجزيري، ٢٣٦.

(٥٨) هكذا ذكرته تواريخ مكة ويفيد الطبري (تاريخ، ٩: ٥١٥) أن الذي حج بالناس في عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس. قارن، الفاسي، *العقد*، ٧: ١٢- ١٣.

(٥٩) الفاكهي، ٥: ٢٣٦- ٢٣٧؛ الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩١- ١٩٢؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٣٣٧، ٣٣٨؛ النهروالي، ٩٦؛ القطبي، ٥٩؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١٣.

(٦٠) الفاسي، الزهور المقتطفة، ٥١؛ *شفاء*، ١: ١٩١؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٣٣٦؛ النهروالي، ٩٦؛ القطبي، ٥٩؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١٣.

(٦١) ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٧هـ)، *المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر انتقاه المقريزي*، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، د.ط (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية د.ت)، ١٦٢؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٤٢.

(٦٢) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٨٦- ١٨٧؛ الزيلعي، ٣٧.

(٦٣) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، ط١ (حيدآباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٨هـ)، ٧: ٥٣؛ الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٨ب؛ شفاء، ١: ١٩٢، ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٤٠٧؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٧٧هـ)، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*، د.ط (القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ)، ٢٤٥؛ ابن ظهيرة، ٧٢؛ الأسدي، ١٣٧؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١٣.

(٦٤) ابن الجوزي، ٧: ٥٣؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٨: ٦١٢؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، *البداية والنهاية في*

الـتاريخ، ط٢ (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٨٧هـ)، ١١: ٢٦٨؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٤٠٧؛ الجزيري، ٢٤٤- ٢٤٥؛ الزيلعي، ٤٣.

(٦٥) ابن ميسر، ١٦١- ١٦٢؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٤٠- ١٤٢، ٢١٤؛ المواعظ والاعتبار، ١: ٣٨٥.

(٦٦) المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، ١: ٣٨٥- ٣٨٦.

(٦٧) ابن ميسر، ١٦٢؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٤٢؛ الزيلعي، ٩٧.

(٦٨) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٧: ٦٠؛ القلقشندي، ٤: ٦٦.

(٦٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٦٣٠؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١١: ٢٧٢- ٢٧٥. بينما ذكر القرماني وفي أيام الخليفة الطائع (٣٦٣- ٣٨١هـ/٩٧٣- ٩٩١م) قطعت الخطبة من الحرمين لبني العباس وأقيمت للمعز. أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ)، *أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ*، د.ط (بيروت: عالم الكتب)، ١٧٠.

(٧٠) الفاسي، شفاء، ٢: ٣٥٢.

(٧١) ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٤٠٩.

(٧٢) الجزيري، ٢٤٥.

(٧٣) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ)، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، د.ط (القاهرة:، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣م)، ٤: ٦٦.

(٧٤) القلقشندي، ٤: ٢٦٩.

(٧٥) انظر المصادر الواردة في الهوامش، ٦٩- ٧٤. وانظر، النويري، ٢٣: ٢٠٢.

(٧٦) مما قيل في هذه المناسبة:

وحبَّذا الشَّمْسة التي نُصبتْ ... يَقْصُر عنها المديحُ والخُطَبُ
قايَستِ العيدَ وهي حُلّتُه ... وأخفت اليومَ وهو مُنْتَصب
يَنْهَب ياقوتُها العيونَ فما ... يَكْملُ إلاّ من حيث يَنْتَهب
دائرةٌ أحدقتْ بغُرّتها ... أهلةٌ لا تُجنّها السُّحُب
كأنما دُرّها وجوهرُها ... نجومُ ليل سماؤها ذَهَبُ
كأنما رُصّعتْ مَنَاقبُك ال ... غُرّ عليها وأُفْرغ الحَسَبُ
في كبِدِ المسجد الحرام لها ... شوقٌ وللبيت نحوها طربُ

تميم بن المعز، تميم بن المعز لدين الله (ت ٣٧٤هـ)، *ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي* (القاهرة، ط٢، دار الكتب المصرية، ١٩٩٥م)، ٥٥- ٥٧. وعن تميم بن المعز انظر، الثعالبي، عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ)، *يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر*، تحقيق: *مفيد قميحة*، ط١ (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ١: ٥٢٥- ٥٣٤؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٧: ٩٣- ٩٥؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، د.ط (بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٩م)، ١: ٣٠١- ٣٠٣.

(٧٧) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ٢٣٠.

(٧٨) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ٢٤٦.

(٧٩) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ٢٠٩؛ الزيلعي، ١٣٥- ١٣٦.

(٨٠) لمزيد من التفصيل انظر، ابن الجوزي، ٧: ٣٣، ٥٧، ٧٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٩: ٣٢٥، ٣٤٠؛ النويري، ٢٣: ٦٧،٧٣، ١٥١؛ ابن كثير، ١٢: ١٣- ١٤؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ١: ١٧٨- ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٤٠٤، ٤٠٨، ٤١٠، ٤٤٧؛ الجزيري، ٢٣١- ٢٥٤.

(٨١) المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ٢: ٧، ١٥، ٢٠، ٢٤، ٣٦، ٤١، ٥١، ٧٤، ٧٩.

(٨٢) الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٩أ ، شفاء، ١: ١٩٢؛ ابن ظهيرة، ٧٢؛ الأسدي، ١٣٧- ١٣٨؛ رفعت، ١: ٢٧٩؛ باسلامة، ٢١٤.

(٨٣) قائد يمني في عهد الملك المنصور اشتهر بكنيته واسمه الأول غير معروف هكذا ذكره الفاسي في القسم الخاص بالكنى. انظر، العقد، ٨: ١٧٤.

(٨٤) المقريزي، *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١ (بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ١١٠؛ الفاسي، *تحفة الكرام*، ورقة ٢٩أ، شفاء، ١: ١٩٢؛ *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٦: ٣٤٧- ٣٤٨؛ ابن ظهيرة، ٧٢؛ الأسدي، ١٣٨؛ رفعت، ١: ٢٧٩. وقد ذكر سنة ٣٦٢هـ ولعله خطأ في النسخ.

(٨٥) الأزرقي، ٢: ٤٧؛ المقدسي، ٤: ١٣٩؛ عبدالقدوس الأنصاري، *الكعبة*، ١١٨، ١٢٩.

(٨٦) الأزرقي، ١: ٢٠٧، ٢٢٦؛ الفاكهي، ٢: ٢٠٦، ٣: ٣١٢، الماوردي، علي بن حبيب (ت ٤٥٠هـ)، *الأحكام السلطانية*، د.ط (القاهرة: دار الفكر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ١٦١؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ١٩، ٢٧١.

(٨٧) محب الدين الطبري، أحمد بن عبدالله (ت ٦٩٤هـ)، *القرى لقاصد أم القرى*، تحقيق: مصطفى السقا، ط٣، (القاهرة: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٥٢١؛ ابن حجر، ٣: ٥٣٤.

(٨٨) ابن هشام، ١: ١١٣، ١٩٣؛ الأزرقي، ١: ٢٤٤؛ الطبري، ٢: ٢٨٤- ٢٨٥؛ السهيلي، ٢: ١٠؛ المقدسي، ٤: ١٢٥. وفي رواية لابن إسحق أن عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي خرج بغزالي الكعبة فدفنها في زمزم وانطلق ومن معه إلى اليمن. وفي رواية أخرى أن حارس الجُب الجرهمي سرق الهدايا الثمينة. ابن هشام، ١: ١١٤؛ الطبري، ٢: ٢٨٥؛ السهيلي، ٢: ١١؛ عبدالقدوس الأنصاري، *الكعبة*، ١٣٧- ١٣٨. وانظر ٣ من البحث.

(٨٩) الأزرقي، ١: ٢٤٥، الطبري، ٢: ٢٨٧؛ السهيلي، ١: ٢٢٤- ٢٢٥.

(٩٠) حسان بن ثابت، ديوان حسان، ١١٩، ١٢١؛ ابن هشام، ١: ١٩٣؛ ابن حبيب، ٤٢١؛ الطبري، ٢: ٢٨٦؛ السهيلي، ١: ٢٢٤؛ المقدسي، ٤: ١٣٩.

(٩١) الأزرقي، ١: ٢٤٧؛ ابن الزبير، ١٥٥.

(٩٢) الأزرقي، ١: ٢٢٤- ٢٢٥.

(٩٣) لمزيد من التفاصيل انظر، الأزرقي، ١: ٢٤٧؛ الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٦- ٥٤٠؛ ابن الزبير، ١٥٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١- ٣١٣؛ النويري، ٢٢: ١٩٧؛ ابن خلدون، ٥: ٥١٩- ٥٢٠؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ٢٨٥- ٢٨٦؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٢٦٤- ٢٦٩؛ ابن فهد، *غاية المرام*، ١: ٣٩٠.

(٩٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٧: ١٦٥- ١٦٦؛ ابن كثير، ١١: ٩- ١٠؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ٢٩٤؛ العقد، ٣: ٣١٢؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٣٢٩- ٣٣٠.

(٩٥) لمزيد من التفاصيل انظر، ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٧- ٢٠٨؛ الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، *دول الإسلام*، د.ط (بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ١٧٢؛ *العبر في خبر من غبر*، تحقيق: محمد زغلول، د.ط (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ١: ٤٧٤؛ ابن كثير، ١١: ١٦٠- ١٦٢؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ٣٤٦- ٣٤٧؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٣٧٤- ٣٨٠.

(٩٦) الأزرقي، ١: ٢٢٦؛ الفاسي، *العقد*، ٧: ٤٦٧؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٢٧٨؛ ابن فهد، *غاية المرام*، ١: ٤٠٢- ٤٠٣.

(٩٧) الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٣، ٢: ٣٠٨؛ العقد، ٤: ٧١؛ ابن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٤٣٧؛ ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر (ت ٩٢٢م)، *غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام*، تحقيق: فهيم شلتوت، ط١ (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ١: ٤٨٥.

(٩٨) ومن الطريف أن نذكر هنا أن من التقاليد المتبعة إلى وقت قريب أن بعض المحسنين حينما يبني مسجدا يترك في أحد جدرانه قدراً مملوءاً دنانير ذهب فإذا تداعى المسجد للسقوط يعثر الناس على ذلك الذهب ويستنفعون به في إعادة بنائه.

(٩٩) الأزرقي، ١: ٣٠٥.

(١٠٠) الأزرقي، ١: ٢٤٧- ٢٤٨. ويذكر النهروالي (٩٧) أن شيوخ سدنة البيت الشريف إذا احتاجوا اختلسوا من مال الكعبة ما يسدون به حاجتهم، ويقول، "وقد ادركناه في زمن الصبا".

(١٠١) لمزيد من التفاصيل عن هذه السيول وآثارها انظر، الأزرقي، ٢: ٣٣، ١٦٩- ١٧٠؛ الفاكهي، ١: ٤٥٦، ٣: ١١٢؛ الفاسي، *شفاء*، ٢: ٤١٥- ٤٢٢.

(١٠٢) الفاسي، *شفاء*، ١: ١٩٣. وقد نقل قول الفاسي كل من، الأسدي، ١٤١؛ رفعت، ١: ٢٨٠.

(١٠٣) عمل إبراهيم رفعت أميراً للحج المصري في سني ١٣٢٠- ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣- ١٩٠٤م، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م، ولم يشر إلى أنه رأى شيئًا من الإهداءات المعلقة في الكعبة، وإنما شاهد نصوصاً منقوشة في لوحات على جدران الكعبة مؤرخة في سني ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م، ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م و ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م، ولعلها هي التي ظلت في أمكنتها إلى حوالي عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م حينما أجريت بعض الترميمات للكعبة، ونقلت إلى المتحف كما أشرنا إلى ذلك في متن البحث. رفعت، ١: ٢٦٦.

الآثار العباسية المكتشفة بموقع الجميرا بساحل الخليج العربي

أحمد رجب محمد علي
أستاذ الآثار المشارك بجامعتي
القاهرة والإمارات العربية المتحدة

المقدمة:

يعتـــبر موقـــع الجميرا من أهم المواقع الأثرية التي تم الكشف عنها في منطقة الإمارات، وموقع الجميرا الآن يقع ضـــمن حدود إمارة دبي على الخليج مباشرة، وقد تم الكشف في هذا الموقع عن العديد من المنشآت المعمارية، والتي كـــان موقعهـــا عبارة عن تلال تم الكشف أسفلها عن أساسات بعض العمائر والجزء السفلي من الجدران بما لا يزيد عـــلى ارتفاع ١٢٠سم بعضها ذو طابع سكني، وبعضها توحي بقاياه أنه سوق ومبنى يشير تخطيطه وبعض الشواهد الأثرية إلى أنه كان مربداً للإبل، ومبنى تشير بقاياه ومحاربه المتجهة ناحية مكة إلى أنه مسجد المدينة. كل هذا يشير إلى أننا أمام مدينة متكاملة لها مسجدها ومساكنها ومرافقها، بل إن حجم المسجد الكبير يشير إلى أن المدينة كان يسكنها أناس كثيرون، ولكن المرجح أنهم كانوا يسكنون أعشاشاً من سعف النخيل، أما المباني فكانت مخصصة لكبار رجال المدينة.

كمـــا عُثر في أرضيات المباني وحولها على العديد من المكتشفات المنقولة من خزف وزجاج ومعادن وعملات بعضـــها ذو طـــابع محـــلي وبعضـــها مؤكد استيراده مثل البورسلين الصيني. مما يجعلنا بالفعل أمام موقع هام تشير الاســـتطلاعات الأولـــية إلى أنـــه مرفأ ومركز تجاري وتشير بقاياه المعمارية إلى أنها مدينة ذات نظام ومرافق وتشير المكتشـــفات إلى أنـــه موقع مفتوح على الخارج والداخل وليس موقع مغلق، وفي هذا البحث سنتناول بالدراسة هذا الموقـــع ســـواء المكتشفات المعمارية فيه أو المكتشفات المنقولة في محاولة لإبراز أهمية الموقع، فقد تم الكشف عن هذا الموقـــع ســـنة ١٩٦٩م على يد البعثة الأمريكية التابعة لجامعة بيروت، والتي نشرت بعض التقارير الأولية، ثم الاتفاقية الثقافـــية الموقعة بين دولة الإمارات العربية المتحدة والجمهورية العراقية والتي بمقتضاها أستقدمت بعثة أثرية مراقبة في الأعـــوام ٧٢-١٩٧٤م، والتي أصدرت العديد من التقارير من خلال مجلة الآثار الدورية المتخصصة في العراق المسماة

(سـومر) والتي أصدرت العديد من التقارير عن هذا الموقع سنة ١٩٧٣م حتى ١٩٨٠م. كما نشر عنها الأستاذ ناصر حسن العبودي في كتابه صفحات من آثار وتراث الإمارات صادر عن مركز زايد للتراث والتاريخ. وأخيراً عملت في الموقـع بعـثة تابعة لإدارة الآثار والمتاحف بدبي برئاسة الأستاذة عائشة المبارك والدكتور حسين قنديل أسفرت عن الكشف عن العديد من المكتشفات الأخرى التي أضافت إلى المكتشفات السابقة العديد من المباني والمكتشفات المنقولة والمحفوظة الآن بمتحف دبي (بقلعة الفهيدي).

والواقـع فقد أثرت أن تكون دراستي من الموقع مباشرة بزيارة الموقع وتصويره وعمل بعض الرسومات الخاصة بـين كما قمت بتصوير المقتنيات المعروضة الآن بمتحف دبي ودراستها على الطبيعة، فهذا بحث ميداني، وذلك بالنظر إلى الموقع نظرة كلية حالية ومحاولة تأريخه خصوصاً مع وجود بعض الخلافات في التأريخ، ففي حين يرجح كاي[١] إن هـذا الموقـع يـرجع إلى العصر الساساني يري بيتر هليير أن الموقع يرجع للعصر الأموي[٢]. بينما يري علماء الآثار والمـتاحف ببلدية دبي أن الموقع يرجع للعصر العباسي، ومن هنا كانت الحاجة إلى محاولة إيضاح ماهية وتاريخ الموقع مـن خـلال الشـواهد الأثرية والمعمارية مع عرض سريع من الطبيعة مباشرة للمكتشفات المعمارية والفنية، ولذلك فجميع رسومات هذا البحث من عملي من الطبيعة مباشرة، وكذلك صور البحث من تصويري. أملاً أن يضيف هذا البحث جديداً إلى الدراسات عن المرافئ العباسية على ساحل الخليج العربي. وفيما يلي دراسة تفصيلية لهذا الموقع.

أولاً: المكتشفات المعمارية:

تم الكشف في موضع الجميرا عن العديد من المنشآت المعمارية هي:

١ - قصر كبير لعله قصر الحاكم وسأرمز إليه بالرمز (أ).

٢ - مبنى سكني كبير وسأرمز إليه بالرمز (ب).

٣ - مبنى سكني آخر وسأرمز إليه بالرمز (ج).

٤ - مسجد وسأرمز إليه بالرمز (د).

٥ - سوق تجاري وسأرمز إليه بالرمز (هـ).

٦ - مربد للإبل وسأرمز إليه بالرمز (و).

وفيما يلي تفصيل للمكتشفات المعمارية بموقع الجميرا:

١ - المبنى الأول (المبنى أ) قصر الحاكم: شكل (١) صورة (١):

ويعـد هذا المبنى هو أفخم المباني السكنية المكتشفة في مدينة الجميرا الأثرية حيث أنه المبنى الوحيد الذي يشتمل

عـــلى أعمدة أسطوانية في أحد قاعاته، مما يرجح أنها ربما صالة استقبال كبيرة، وان البناء ربما يخص حاكم المدينة أو أغنى من فيها.

والمـــبنى عبارة عن شكل مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب طوله ٣٠متر، وعرضه ٢٠متر تقريباً. يمكننا أن نقسمه إلى قسمين:

- القســـم الأول: عبارة عن فناء مكشوف يتوسط ضلعه الشمالي مدخل، وهذا الفناء تفتح عليه من الجهة الغربية قاعتين ربما تخصان الحراس أو الخدم.
- القســـم الثاني: وهو قاعات القصر، حيث يتكون القصر من عدد من القاعات نصل إليها عن طريق مدخل في منتصـــف الضـــلع الجنوبي من الفناء المكشوف يؤدي إلى ردهة صغيرة تؤدي إلى فناء مكشوف صغير بالجهة الجنوبية منه عدد من الأعمدة الأسطوانية الحجرية ربما تمثل مقعد يشرف على هذا الفناء، ومن هذا الفناء نصل إلى عدد من القاعات عن طريق فتحة باب في الجهة الشرقية تؤدي إلى فناء آخر صغير تفتح عليه ثلاث قاعات، وفي الجهـــة الغربية من الصالة المكشوفة باب يؤدي إلى قاعة كبيرة، كما يوجد بالجهة الغربية من القسم الثاني فتحة باب صغيرة ربما تخص الخدم أو الحريم. وبالجهة الجنوبية من القاعات يوجد فناءين كبيرين بهما بقايا أفران ربما كانت بهما المطابخ الخاصة بالقصر (صورة ٦).

والقصر مبني بالحجارة والجص ومبيض بالجص، وإن كانت فقدت أجزاء كبيرة منه، وفي زوايا البناء، وكذلك منتصـــف الواجهات توجد دعامات دائرية ساندة لزيادة متانة الجدران، كذلك تشير بقايا الزخارف الجصية المنتشرة عـــلى أرضية المبنى إلى أن جدران المبنى كانت مزخرفة بزخارف جصية على شكل وريدات حلزونية، وأشكال عقود بداخـــلها ما يشبه السهام وثيقة الصلة بالزخارف العباسية من النوع المعروف باسم طراز سامراء الثالث على الجص (صورة ١٥).

كذلـــك تشـــير البقايا المكتشفة إلى أن مداخل القاعات على الفناء المكشوف، وكذلك فتحات النوافذ كان يعلوها عقود من الصنج المعشقة، وهو ما تظهره لنا بعض الصنج المكتشفة في أرضية القصر (صورة ١٧).

٢ – المبنى السكني الثاني (مبني ب): شكل (٢) صورة (٢، ٣):

ويوجـــد هذا المبنى بالجهة الشرقية من الموقع وهو بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب ٢٨متر، ومن الشرق إلى الغرب ١٨متر، ويوجد المدخل إلى المبنى في منتصف الضلع الجنوبي وعلى جانبيه دعامتين أسطوانيتين يؤديان إلى دركاة مربعة صغيرة تؤدي إلى فناء مستطيل الشكل تفتح عليه القاعات من ثلاث جهات أربع قاعات من الجهة الشرقية وأربع في الجهة الغربية، وواحدة على كل جانب من جانبي دركاة المدخل، أما الجهة الشمالية من المبنى فلا يوجد بها قاعات، ويبدو أنه كان بها قاعات وهدمت في فترة تالية، ووصل المبنى بمبنى آخر أحدث منه أضيف في

هــذه الجهة، وهو ما يدلنا عليه اختلاف أسلوب البناء وسمك الجدران. حيث أن المبنى الأصلي مبني بالحجر والجص شــأنه شــان قصــر الحاكم السابق الذكر، ومدعم بدعائم أسطوانية وله جدران سميكة، أما الجزر المضاف إلى المبنى الأصــلي فمبني بالحجارة أيضاً، ولكن بأسلوب مختلف، فالحجارة أكبر حجماً وأكثر تهذيباً، وغير مطلية بالجص من الخــارج، ويــبدو من أول وهلة أنه جزء مضاف في فترة لاحقة على هذا المبنى، وأنها لا ترجع إلى فترة إنشاء المبنى الأصلي (شكل ٢، صورة ٢).

٣ – المبنى الثالث (المبنى السكني ج): شكل (٣) صورة (٥):

وهذا المبنى أصغر من المبنيين السابقين، فهو عبارة عن مستطيل قريب من المربع طوله ١٨ متر، وعرضه ١٥متر. يمكننا أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: ويبدأ بالمدخل حيث يؤدي إلى دركاة مستطيلة تؤدي إلى فناء مستطيل يفتح على صالة مستطيلة.
- أما القسم الثاني (الشرقي): فهو عبارة عن مجموعة من القاعات عددها ثلاث تفتح إحداها على دركاه المدخل والثانية على الفناء والثالثة على الصالة.
- أما القسم الثالث (الغربي): فهو عبارة عن خمسة غرف اثنتان تفتحان على دركاة المدخل، وواحدة على الفناء، واثنتان على الصالة.

والمــبنى مبني من الحجارة الغير مهذبة، والغير متساوية في مقاساتها، شدت إلى بعضها بالجص، وطليت بالجص من الخارج والداخل، وهو ما تدل عليه بقايا الجدران، أما أرضية المبنى فقد بلطت بعض القاعات بالحجارة بينما ترك البعض الآخر دون بلاط (شكل ٣، صورة ٥).

٤ – المسجد (المبنى د): شكل (٤)، صورة (٧):

المسجد يتوسط الموقع تقريباً كعادة المدن والقرى الإسلامية، وهذا المسجد مستطيل الشكل طوله من الشرق إلى الغرب عشرون متراً، ومن الجنوب إلى الشمال عشرة أمتار، مبني بالحجارة والجص، وبصفة عامة يمكننا أن نقسم هذا المسجد إلى قسمين:

- القسم الأول: بيت الصلاة، ويوجد في الجهة الغربية من المسجد، ويمثل نصف مساحته تقريباً. وهذا القسم في جــداره الغربي يوجد المحراب الذي يتوسط الجدار على شكل صنيه نصف دائرية اتساعها ١,٥٠ متر وعمقها ١٢٠ســم، خلفهــا بروز مستطيل الشكل، ومساحة ظلة القبلة تشير الدلائل إلى أنها كانت مقسمة إلى ثلاث أقسام، القسم الأوسط مربع وربما كانت تغطيه قبة. أما القسمان الطرفيان فمستطيلات، وربما يغطيها أقبية أو ســقف مسطح، حيث أن الدلائل الأثرية المكتشفة وإن أشارت إلى تقسيم الظلة إلى ثلاثة أقسام الأوسط مربع

إلا أنها لم تقدم لنا أية دليل على نوعية التغطية إلا أن معظم المساجد الصغيرة في شرق العالم الإسلامي خصوصاً في الهند كانت تقسم ظلة قبلتها إلى ثلاثة أقسام الأوسط تغطيه قبة بل وأحياناً تغطي الأقسام الثلاثة ثلاث قباب إن كانت جميعها مربعة، ولما كانت مدينة الجميرا مرفأً تجارياً بين المشرق وخصوصاً الهند والعراق لذا يرجح أن بعض التقاليد المعمارية الهندية، وكذلك العراقية قد أثرت في هذه المدينة.

- أما القسم الثاني: فأغلب الظن أنه كان فناء مكشوف تفتح عليه القبلة ربما بعقد أوسط (المربعة الوسطى)، وربما بثلاث عقود كل فتحة تفتح بعقد، حيث أن الدلائل الأثرية لا تشير إلى هذه التفاصيل لأننا لم نعثر سوى على أساس المسجد وبارتفاع حوالي ٩٠سم.

٥ – السوق "الحوانيب" (المبنى هـ): شكل (٥) صورة (٨، ٩، ١٠):

وهـــذا السوق عبارة عن طريق عرضه حوالي ستة أمتار تفتح عليه من الجانبين حوانيت عددها في الجهة الأولى ثلاث حوانيت، وفي الجهة الثانية أربع حوانيت خلف اثنان منهم مخزن كبير.

– القسم الأول (الشرقي): صورة (١٠):

حوانيت هذه الجهة عددها ثلاثة متساوية تقريباً في المساحة كل حانوت مربع الشكل تقريباً طول ضلعه حوالي ٥ أمتار، يتقدم كل حانوت منهم من جهة الطريق مصطبة ارتفاعها حوالي ٥٠سم وطولها بطول الحانوت، وعرضها حوالي ١,٥٠ متر، ربما كانت هذه المصاطب تعرض عليها البضائع للدلالة على ما بداخل الحانوت[٣].

– القسم الثاني (الغربي): صورة (٩):

والقسم الثاني من الحوانيت في الجهة الأخرى من الطريق يضم أربعة حوانيت أيضاً مربعة تقريباً طول ضلع كل حانوت حوالي ٥ أمتار ولا يتقدم الحوانيت مصطبة من جهة الطريق لذا يرجح أن حوانيت هذه الجهة كانت مخصصة لنوع من البضائع ذو طبيعة تختلف عن حوانيت الجهة الأخرى، وربما كانت مخصصة للملابس، أو ما شابه ذلك. أما الجهة الأخرى (الشرقية) فربما كانت حوانيتها مخصصة للمأكولات والحبوب وغيرها التي لا تحتاج للمشتري أن يدخل إلى داخـــل الحـــانوت، وإنما يكتفي بأن يقف أمام المصطبة ويختار من العينات المعروضة ليعطيه البائع من الداخل. أما الأشياء الأخرى كالأقمشة والثياب فتحتاج إلى دخول المشتري إلى داخل الحانوت للقياس. كذلك فعرض الملبوسات أمـــام الحـــانوت يعرضـــها للأتربة مما يؤثر على رونقها وزهائها. ولعل ذلك يؤيده أن حانوتان من الحوانيت الأربعة الموجـــودة في الجهة الغربية خلفهما مخزن لخزن البضائع. وفي النهاية فهذا السوق الصغير كان هو سوق المدينة الدائم الذي يمد سكانها بما يحتاجون إليه من مأكولات وملبوسات وغيرها. (شكل ٥، صورة ٨، ٩،١٠).

٦ – مربد الإبل (مبنى و): شكل (٦) صورة (١١، ١٢، ١٣، ١٤):

وهـــذا البناء مربع الشكل تقريباً طول ضلعه حوالي ٤٠متر مبني بالحجارة الغير مهذبة والجص، وجدرانه سميكة

يبلغ سمكها حوالي ١٢٠سم، له مدخل يتوسط ضلعه الجنوبي على جانبيه دعامتين أسطوانيتين. أما داخل المربد فعبارة عن فناء كبير تحيط به الغرف والقاعات والحواصل من جميع الجهات، وهذا ما أكد أن هذا المكان كان مربداً للقوافل القادمـــة من المناطق الداخلية حيث تحط في هذا المكان فتحط الإبل في الفناء بينما توضح البضائع ويسكن الأشخاص في هذه الحواصل.

وهذه الحواصل والغرف تتميز باختلاف مساحاتها مما يدل على اختلاف وظائفها سواء للسكن أو التخزين بل إن بعـــض الحواصـــل نستطيع أن تميز من أول وهلة أنها كانت حمامات حيث أنها مبلطة بالحجر ومحجوزة من جميع الجهات يصعد إليها بدرجتي سلم، ثم يهبط إليها وكأنها حوض حتى لا تسمح بتصريف المياه إلى الداخل ومن الخارج فتحت بجدرانها من أسفل فتحات لتصريف المياه (صورة ١٤).

كذلك فتدعيم المدخل بدعامتين كبيرتين على جانبه حتى يكون متيناً في مواجهة الجمال التي يمكن أن تترنح يميناً أو يســـاراً فتهدم جانبي المدخل إذا كان ضعيفاً كذلك أشارت بعض الدلائل الأثرية إلى وجود مرابط للإبل في الفناء وهو أكد وظيفته (صورة ١١ن ١٢ن ١٣ن ١٤).

ومـــن خلال سمك الجدران ووجود الدعائم واختلاف أنواع الأساسات نستطيع أن نتبين وظيفة البناء فالسمك في الجدران معناه ارتفاع في البنيان، وكذلك نوع الأساس ومادة البناء تساهم في إعطائنا المعلومات عنه[٤].

ثانياً: المكتشفات المنقولة في موقع الجميرا:

أمدتـــنا مـــنطقة الجمـــيرا بـــالعديد من المكتشفات المنقولة التي عثر عليها في أرضيات المباني وخارجها، هذه المكتشفات التي ساهمت كثيراً في تأريخ الموقع عبارة عن أواني خزفية وفخارية وزجاجية ومعدنية وعملات. وفيما يلي تفصيل هذه المكتشفات:

أولاً: المكتشفات الفخارية والخزفية:

أمدتنا مدينة الجميرا بالعديد من القطع الفخارية والخزفية المختلفة في أسلوب زخرفتها. وفيما يلي تفصيل ذلك:

الأواني الفخارية:

عثر في مدينة الجميرا على العديد من الأواني المصنوعة من الفخار من أهمها:

- إنـــاء من الفخار كروي الشكل له فوهة واسعة وعراوي عند حافته يبدو أنه كان يعلق فيها خيط وعلى ذلك فربما كان هذا الإناء مخصص لحفظ العسل أو مواد سكرية يخشى عليها من الحشرات لذا كانت تعلق في سقف الغرفة (صورة ١٨).
- جـــره مـــن الفخار كبير الحجم ارتفاعه حوالي ٧٠سم كمثري الشكل لها فوهة ضيقة ورقبة ربما كان مخصصاً

لحفظ الغلال أو المواد الغذائية (صورة ١٩).

- جـــره كبير ارتفاعه حوالي متر له بدن كمثري ورقبة طويلة وفوهة واسعة فقدت أجزاء منه وأغلب الظن كان هذا القدر مخصص لتخزين الماء (صورة ٢٠).
- إناء ذو بدن كروي منبعج له فوهة ضيقة ومقبض واحد صغير ربما كان يملأ به الماء (صورة ٢١).
- إنـــاء ذو بـــدن كمثري الشكل وله فوهة ضيقة (جره) ومقبض واحد ينبع من جسم الإناء العلوي ربما كان مخصصاً للماء أيضاً (صورة ٢٢).
- جـــره كمثري الشكل ليس له قاعدة وفوهته ضيقة وبدون رقبة وله مقبض (أذنين) ربما كان مخصصاً لتخزين بعض المواد الغذائية (صورة ٢٣).
- جـــرة كمـــثري الشكل ليس له قاعدة وله فوهة ضيقة ذات رقبة قصيرة وانين ربما كان مخصصاً أيضاً لتخزين بعض المواد الغذائية (صورة ٢٤).

الفخار المطلي:

وهناك بعض الأواني الفخارية عثر عليها في الجميرا إلا أنها تتميز عن الأواني السابقة بوجود طلاء على سطحها فقـــد بعضه ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن هذه الأواني كان يحفظ بها سوائل يخشى عليها من التسرب من الإناء الفخـــاري، ولهـــذا طليت هذه الأواني حتى تحفظ السوائل من التسرب ربما زيت ربما سمن ... إلخ. ومثال ذلك قدر كمثري الشكل يضيق عند القاعدة، وله فوهة متوسطة ورقبة متوسطة الطول (صورة ٢٥)، قدر ثان كمثري الشكل له فوهة ضيقة برقبة قصيرة جداً مطلي بطلاء أخضر فاتح فقدت أجزاء كبيرة منه (صورة ٢٦).

الخزف ذو الطلاء الزجاجي الأخضر:

وهـــناك نـــوع من الخزف عثر عليه في الجميرا ذو طلاء زجاجي أخضر داكن بدون أية زخارف، ومثال ذلك صحن من الخزف مطلي بالجليز الأخضر الداكن –فقدت أجزاء منه– (صورة ٢٧).

الخزف ذو الزخارف القالبية والطلاء الأخضر الداكن:

وثمـــة نوع آخر من الخزف عثر عليه في الجميرا وهو الخزف ذو الزخارف القالبية البارزة، وعليه طلاء زجاجي أخضر، ومثال ذلك قدر –فقدت منه أجزاء– عليه زخارف قالبية بارزة (منفذ بأسلوب الصب في القالب)، وله ثلاثة مقابض صغيرة (عراوي) ربما كان يربط منها ويعلق وعليه زخارف من أشكال حلزونية وأشكال صفوف من الدوائر البارزة يشبه ما كان معروفاً في العصر الساساني باسم زخارف حبات اللؤلؤ، والتي انتقلت بعد ذلك إلى الفن الأموي والعباسي (صورة ٢٨).

الخزف ذو الطلاء الأصفر الداكن:

وهـــذا الـــنوع من الأنواع الشائعة في مدينة الجميرا، حيث عثر على عدد من الأواني مطلية بالطلاء الزجاجي الأصفر الزيتي من أمثلتها:

- صحن قليل العمق مطلي بالطلاء الزجاجي الأصفر الزيتي فقدت أجزاء منه (صورة ٢٩).
- صحن ثان مطلي بالطلاء الأصفر الزيتي فقدت أجزاء من أطرافه (صورة ٣٠).

الخزف المحزوز تحت الطلاء:

عـــثر في منطقة آثار الجميرا على صحن من الخزف المحزوز تحت الطلاء، عليه زخارف محزوزة هندسية ونباتية، وعليه زخرفة من الأشرطة المتجاورة على حافته، وهو يشبه إلى حد كبير الخزف المحزوز تحت الطلاء المنتشر في إيران والمعـــروف باسم الخزف الجبرين ولعله مستورد من هناك، حيث أن موقع ميناء الجميرا على الساحل الغربي للخليج يجعلـــه قريـــباً من المرافئ والموانى الإيرانية الموجودة على الضفة الأخرى من الخليج أو ربما انتقل إليه عن طريق العراق حيث انتشر فيه هذا النوع أيضاً (صورة ٣١).

البورسلين الصيني:

وقـــد وجدت في حفائر الجميرا بعض قطع البورسلين الصيني أغلبها عبارة عن أجزاء من أطباق أو أواني -غير كاملـــة- (صورة ٣٢)، ولا عجب في العثور على أواني البورسلين في مدينة الجميرا إذ أن موقعها على طريق التجارة ووظيفـــتها كمرفأ للسفن يجعل وصول بضائع الشرق وكذلك بضائع الغرب أمراً عادياً، وإن كانت أواني البورسلين الصيني التي عثر عليها في الجميرا تتميز بالقلة واغلبها عثر عليه في أرضية قصر حاكم المدينة.

الأواني الزجاجية:

عثر في منطقة الجميرا على بقايا إناء زجاجي ذو بدن مخروطي يستدق كلما اتجهنا إلى أعلى وفوهة ضيقة ذات مجـــراة (بـــزبوز)، وربمـــا كـــان هذا الإناء مخصص لشرب الماء أو العصائر ... إلخ، وهو مصنوع من زجاج مائل للخضـــرة[٥] (صـــورة ٣٣). كمـــا عثر على بقايا إناء آخر من نفس لون الزجاج، وشكل الإناءين وسمك الزجاج المستخدم في صناعتهما يوحي بأنهما مصنوعان بأسلوب الصب في القالب. كما عثر على العديد من الأواني الزجاجية الغـــير واضحة المعالم وإن كانت معظم المكتشفات الزجاجية تشير إلى أن النوع الشائع هو الزجاج ذو اللون الأخضر (صورة ٣٣، ٣٤).

المكتشفات المعدنية:

عـــثر في منطقة الجميرا على بوتقة صغيرة ذات يد طويلة وثلاثة أرجل قصيرة ربما كانت لتحضير بعض الأشياء

أو الأدويـــة عـــلى النار وهي مصنوعة من البرونز ويعتريها الصدأ الآن (صورة ٣٥). كما عثر على بعض الكؤوس النحاسية ومن المرجح أن هذه المنتجات النحاسية محلية الصنع[٦].

العملات:

عـــثر في الجميرا على العديد من العملات الفضية والنحاسية والبرونزية خصوصاً العباسية والتي تؤكد أن معظم مكتشـــفات هذا الموقع ترجع للعصر العباسي خصوصاً القرن الثالث الهجري، حيث وجدت العديد من العملات التي تـــرجع إلى هذا التاريخ، ومن أهمها درهم من القرن الثالث الهجري يحمل تاريخ سنة مائتين وأربعة هجرية[٧] (صورة ٣٦).

نتائج البحث:

وأخـــيراً وبداسة موقع آثار الجميرا واستعراض ما تم الكشف عنه من مكتشفات معمارية ومكتشفات منقولة نستطيع أن نتوصل إلى الحقائق الآتية:

١ - تم في موقع الجميرا الكشف عن بعض المنشآت المعمارية السكنية منها بناء مميز نستطيع أن نقول أنه كان قصراً لحاكم المدينة فضلاً عن بعض المنشآت السكنية الأخرى الخاصة بأعيان وكبار رجال المدينة.

٢ - تمـــيزت المباني السمنية في الجميرا بوجود الزخارف الجصية من وريدات وعناصر هندسية وثيقة الصلة بما يعرف بطـــراز سامراء الثالث على الجص، ومما يؤكد أن هذه المنشآت تعود للعصر العباسي وبالتحديد القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

٣ - كان أغلب رجال المدينة من عمال وصيادين والطبقات الفقيرة يسكنون في خيام أو عشش من سعف النخيل، وهذا يفسر قلة المباني السكنية المبنية بالحجر، حيث أنها كانت قاصرة على كبار رجال المدينة.

٤ - وجد في الجميرا مسجداً كبيراً مساحته تؤكد على كثرة عدد المصلين فيه سواء من سكان المدينة أو من التجار الموسميين، وهو مسجد متأثر إلى حد كبير بطراز العمارة الإسلامية في الهند وإيران.

٥ - تم الكشـــف في المدينة عن سوق لبيع البضائع لأهل المدينة مما يدل على ازدهار الحركة التجارية والبيع والشراء فيها وإلى تنظيم المدينة ووجود قسم خاص للسوق.

٦ - تم الكشف عن مربد كبير للإبل به ساحة كبيرة وقاعات وغرف وحمامات جاهزة لاستقبال التجار والمسافرين، وهـــو ما يدل على ازدهار حركة التجارة الداخلية، حيث أن هذا المرفأ كان مخصصاً لاستقبال القوافل القادمة من المناطق الداخلية لنقل بعض المتاجر من السفن القادمة من الشرق إلى العراق والتي كانت تستريح أحياناً في هذا المرفأ التجاري.

٧ - مادة البناء التي بنيت بها المنشآت المعمارية في مدينة الجميرا كانت الحجارة المختلفة الأشكال والمقاسات، والتي كانت تشد إلى بعضها بالجص وتطلى من الداخل والخارج بالجص فضلاً عن الأخشاب في الأسقف وأغلب هذه الصخور مرجانية باستثناء حالة واحدة وجدت فيها حجارة جيرية وهي قصر الحاكم، وربما جلبت من المناطق الداخلية حيث توجد بعض جبال الحجر الجيري.

٨ - عثر في منطقة الجميرا على بعض الأواني الفخارية الغير مطلية والتي كان يستخدمها أهل المدينة، ومن المرجح أنها صناعة محلية مجلوبة من المناطق الداخلية، حيث كانت تجلبها القوافل من المناطق الداخلية، وتعود محملة بالبضائع المستوردة، وقد تعددت أشمال هذه الأواني ما بين الكروي والكمثري وذو المقبض الواحد والمقبضين وذو العراوي للتعليق في السقف.

٩ - عثر غي الجميرا على العديد من الأواني المستوردة وأغلب الظن بعضها مستورد من العراق (الدولة العباسية) خصوصاً في القرنين الثالث والرابع الهجريين مثل بعض أنواع الخزف ذو الطلاء الزجاجي الأخضر أو الخزف ذو الزخارف البارزة والطلاء الأخضر أو الخزف ذو الزخارف باللون الأصفر الزيتي وهي من أنواع منتشرة في العراق في تلك الفترة، وقد أكد ذلك العثور بنفس طبقاها على عملات بعضها مؤرخ سنة ٢٤٠هـ.

١٠- عثر في موقع الجميرا على بعض الأواني الزجاجية الخضراء ربما مجلوبة من المناطق الداخلية منفذة بأسلوب الصب في القالب.

١١- عثر في موقع الجميرا على كؤوس وبوتقات نحاسية وبرونزية ربما صناعة محلية حيث انتشرت صناعة النحاس واستخراجه في منطقة الإمارات منذ العصر البرونزي، وعثر على أفران لصهر النحاس في المناطق الداخلية من الإمارات خصوصاً منطقة العين (سفح جبل حفيت).

١٢- أثبتت الشواهد الأثرية المكتشفة في موقع الجميرا وهي:

- أسلوب البناء والدعائم الساندة للجدران.
- الزخارف الجصية النباتية المحورة الشبيهة بأسلوب سامراء في العراق.
- أنواع من الخزف المكتشفة والوثيقة الصلة بالعراق القرن الثالث والرابع للهجرة.
- العملات المؤرخة التي عثر عليها وبعضها يحمل تاريخ ٢٤٠هـ.

كل هذه الشواهد وغيرها تثبت أن هذا الموقع مؤرخ بالقرن ٣-٤هـ/٩-١٠م، وأن لم يمنع هذا أن يكون الموقع ساكناً قبل تلك الفترة إلا أن هذه الفترة تمثل ازدهار وانتعاش هذا الموقع.

١٣- من حيث وظيفة هذا الموقع فالشواهد مثل:

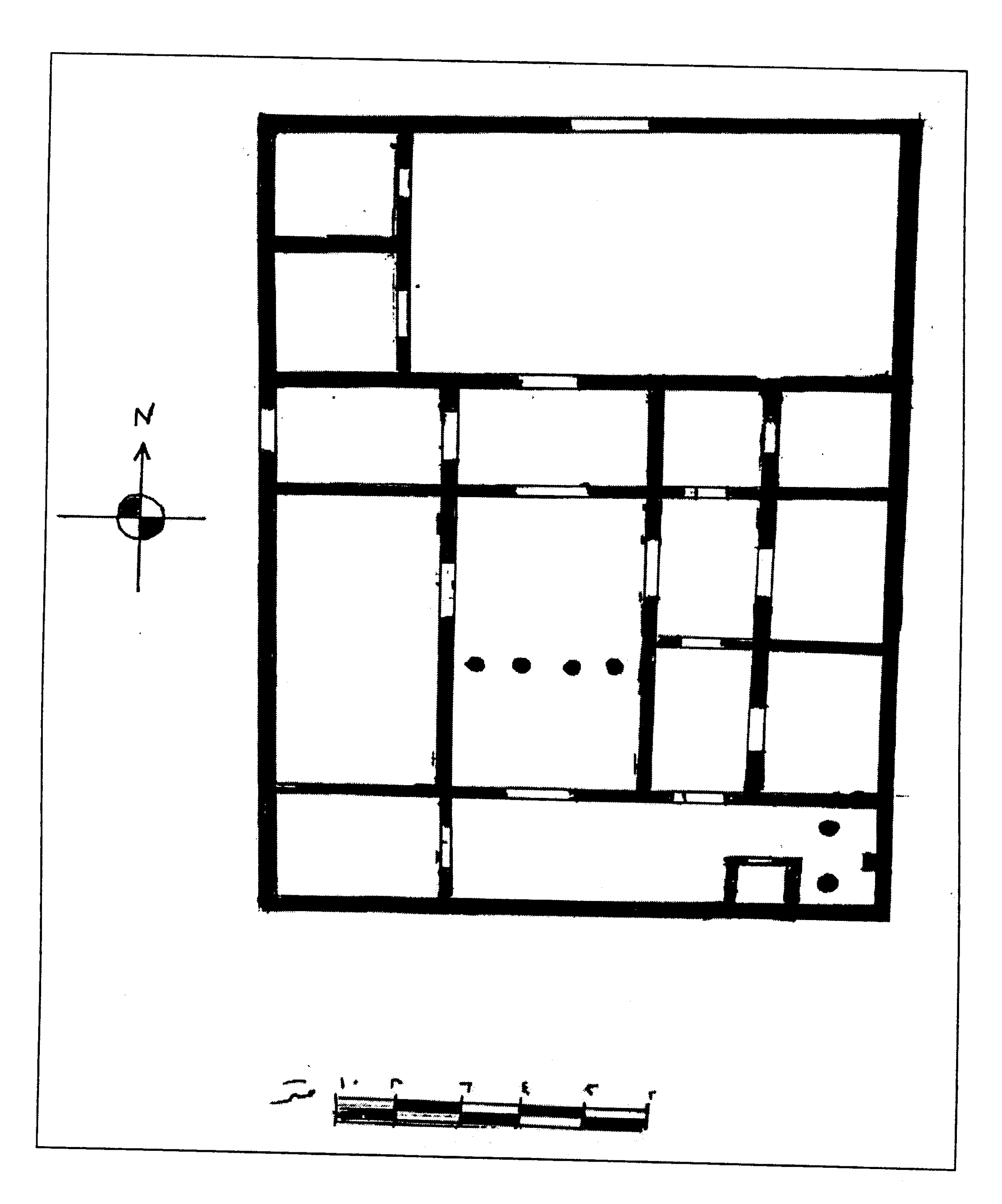
- وجود الموقع على الشاطئ وهو موقع استراتيجي من ناحية التجارة ويقع على طريق التجارة في الخليج[٨].

- وجود المنتجات الصينية والعراقية والإيرانية.

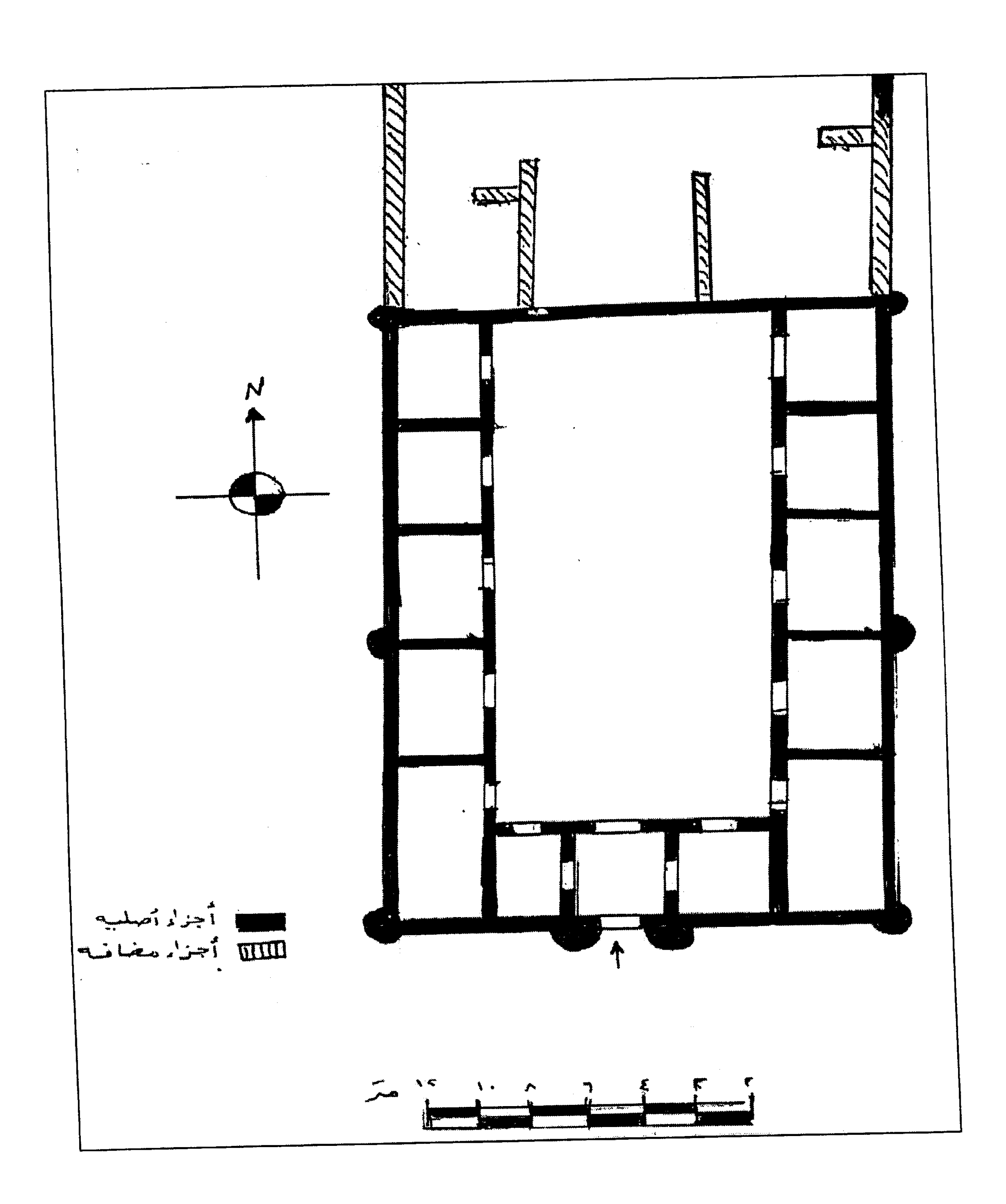
- وجود مربد الإبل.

كـــل ذلـــك يدل على أن الموقع كان مرفأ تجارياً وميناء هام على طريق التجارة في الخليج فضلاً عن أنه كان مركـــزاً للـــتجارة مـــع الواحات الداخلية، حيث تأتي القوافل محملة بمنتجات الواحات من فخار وتمر وبعض المزروعات وعسل لتحط في المربد وتعود محملة بالمنتجات الهندية والعراقية والإيرانية.

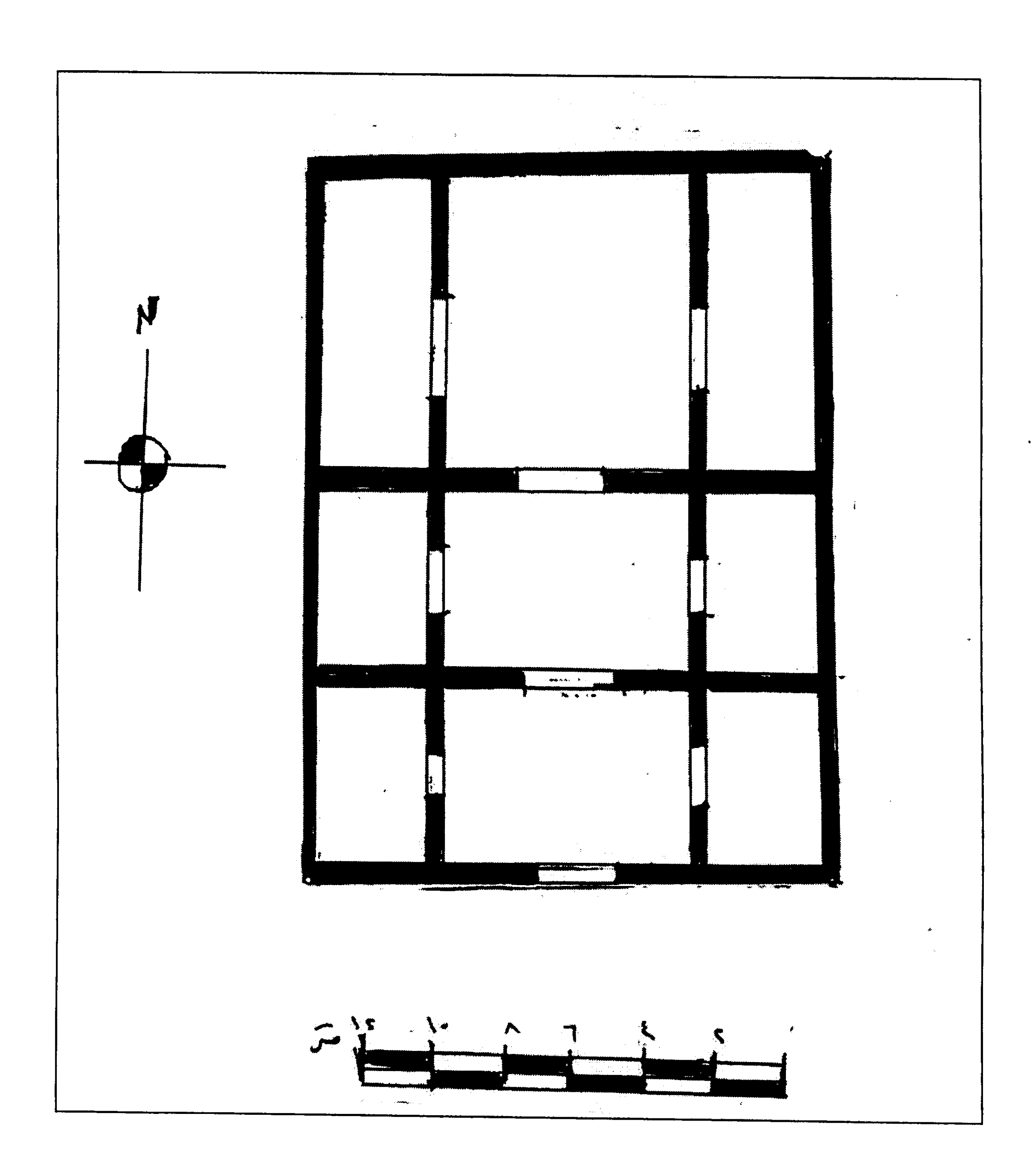
الأشكال



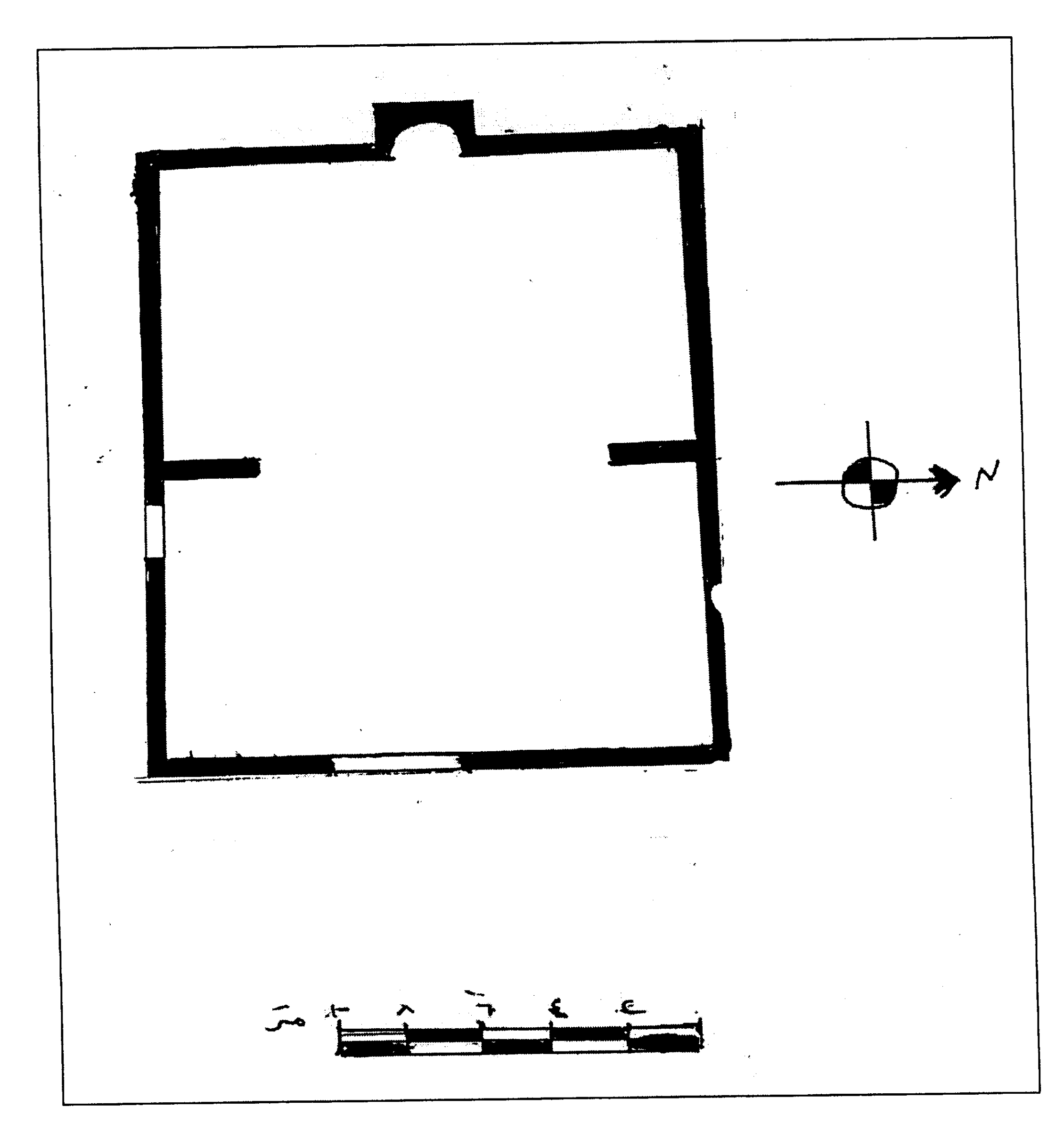
شكل (١) مسقط أفقي لبقايا قصر الحاكم بمدينة الجميرا (مبنى أ)



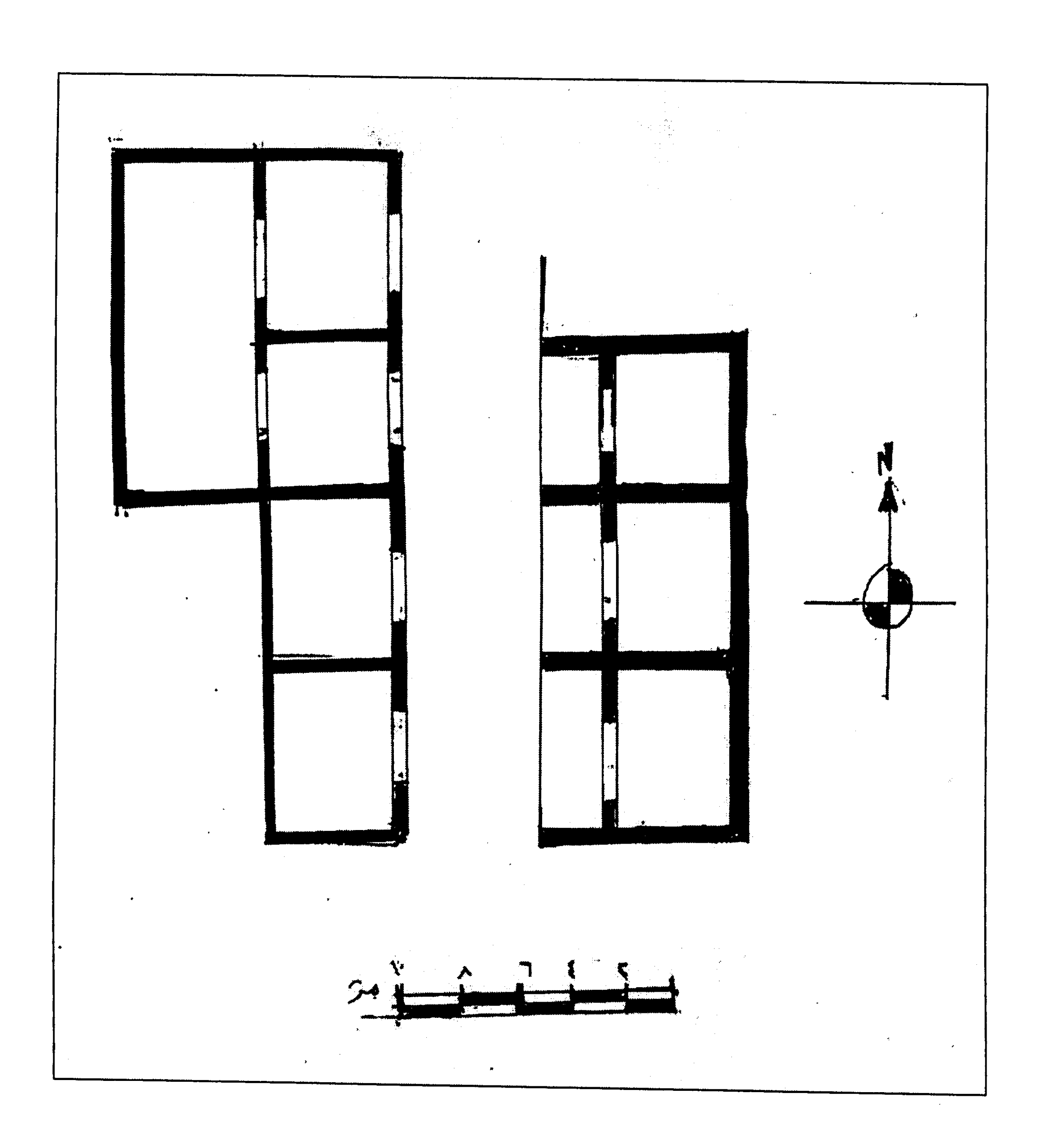
شكل (٢) مسقط أفقي لبقايا المبنى السكني (ب) بمدينة الجميرا



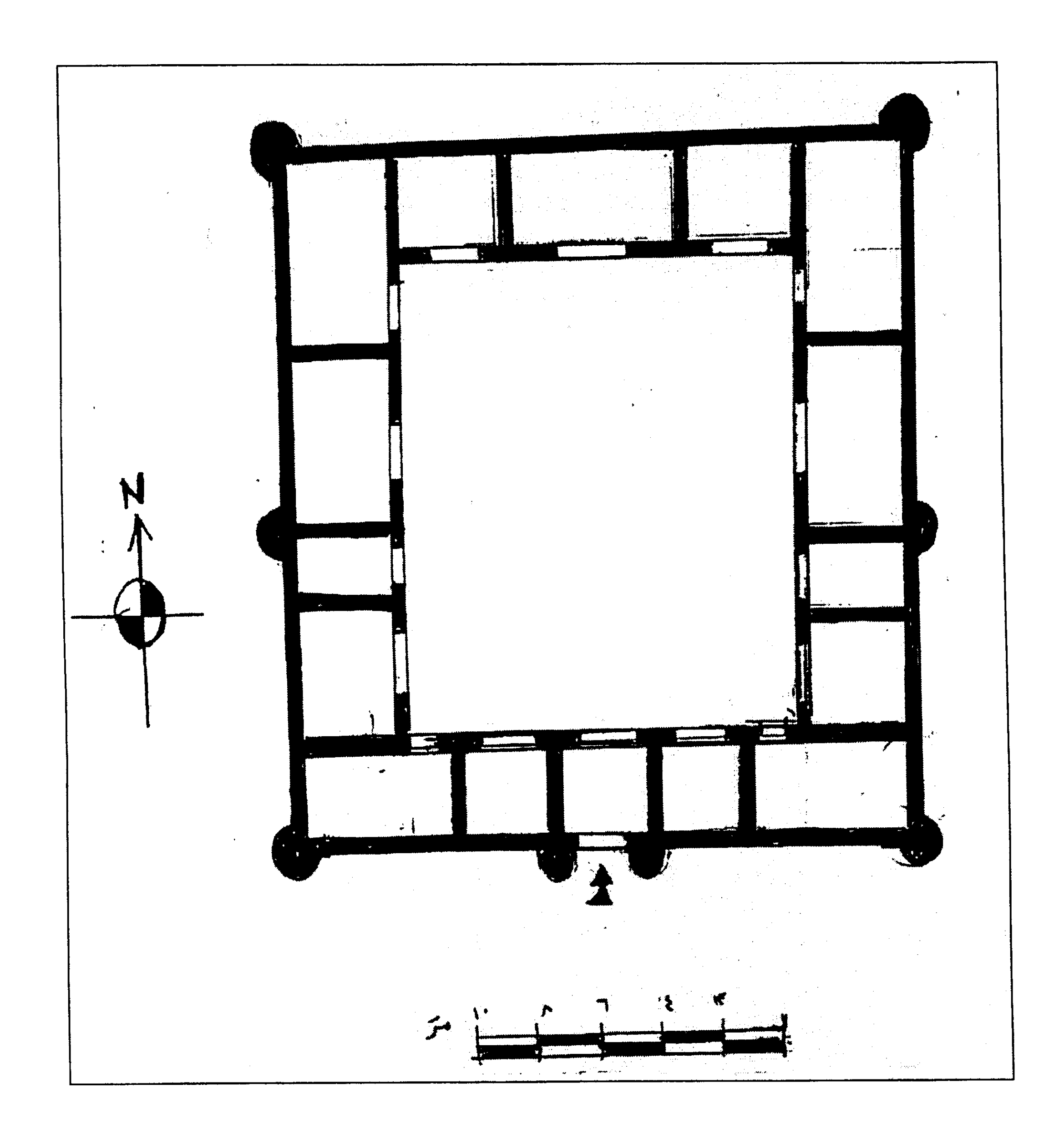
شكل (٣) مسقط أفقي لبقايا المبنى السكني (ج) بمدينة الجميرا



شكل (٤) مسقط أفقي لبقايا المسجد بمدينة الجميرا (مبنى د)



شكل (٥) مسقط أفقي لبقايا السوق بمدينة الجميرا (مبنى هـ)



شكل (٦) مسقط أفقي لبقايا مربد الإبل بمدينة الجميرا (مبنى و)

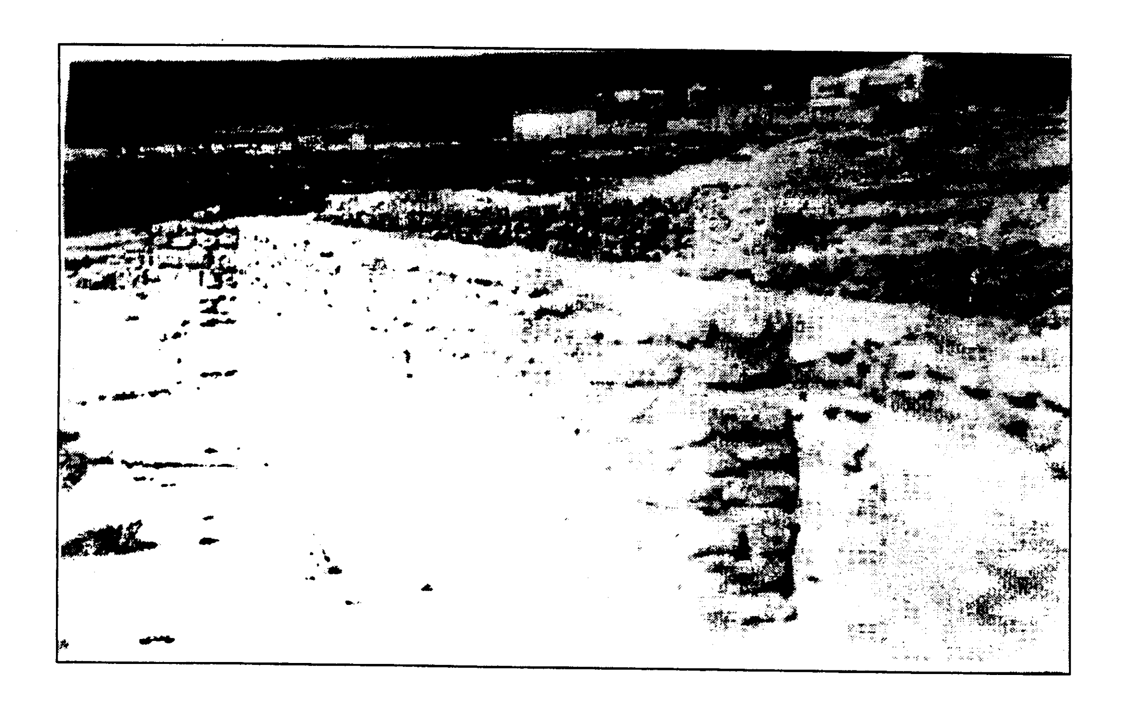
الصور



صورة (١) الجميرا المبنى السكني (أ) (قصر الحاكم)



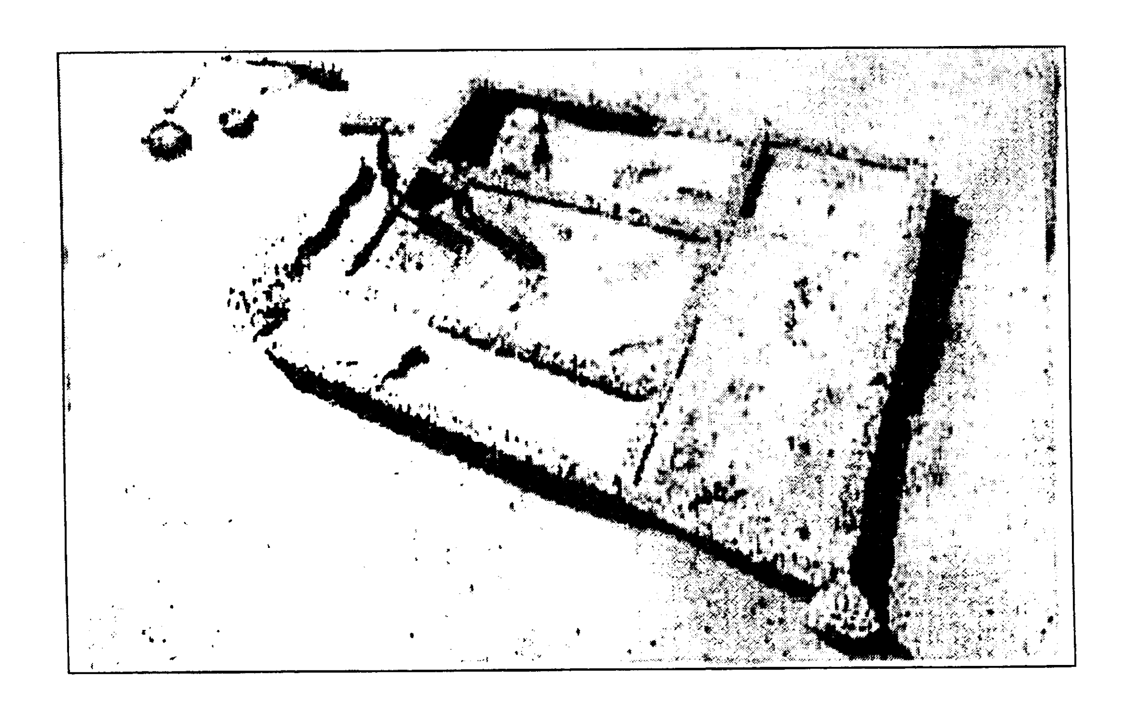
صورة (٢) الجميرا المبنى السكني (ب)



صورة (٣) الجميرا جدران ودعامات المبنى السكني ب (لاحظ الطلاء والجص)



صورة (٤) الجميرا تفاصيل المبنى السكنى(ب) (لاحظ الحجارة وأسلوب البناء)



صورة (٥) الجميرا المبنى السكني (ج)



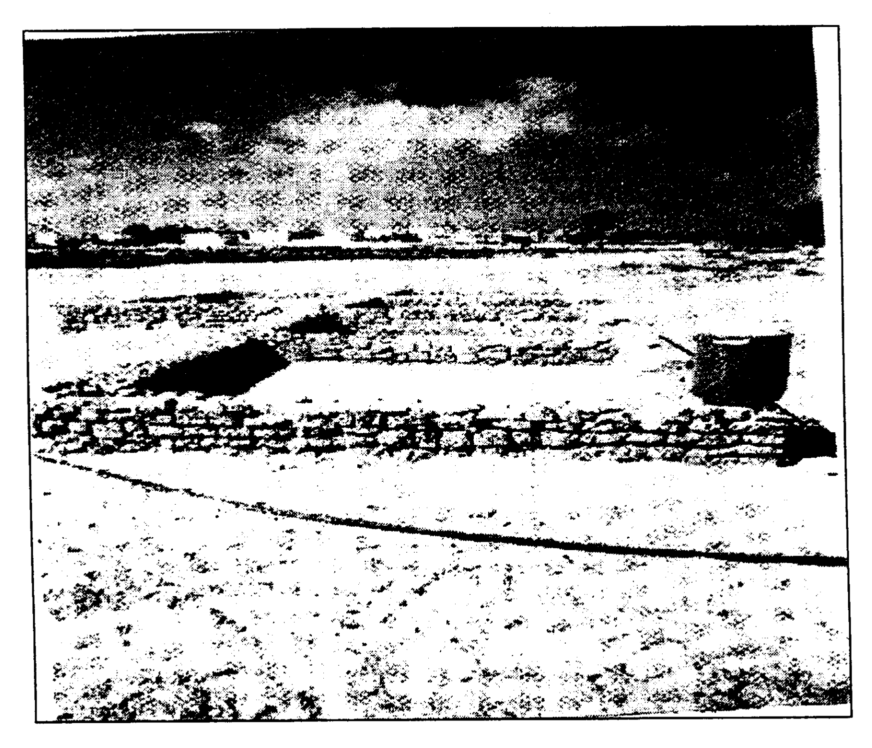
صورة (٦) أحد الأفران المكتشفة بالمبنى (أ) (قصر الحاكم) ولا يزال فيها بقايا رماد



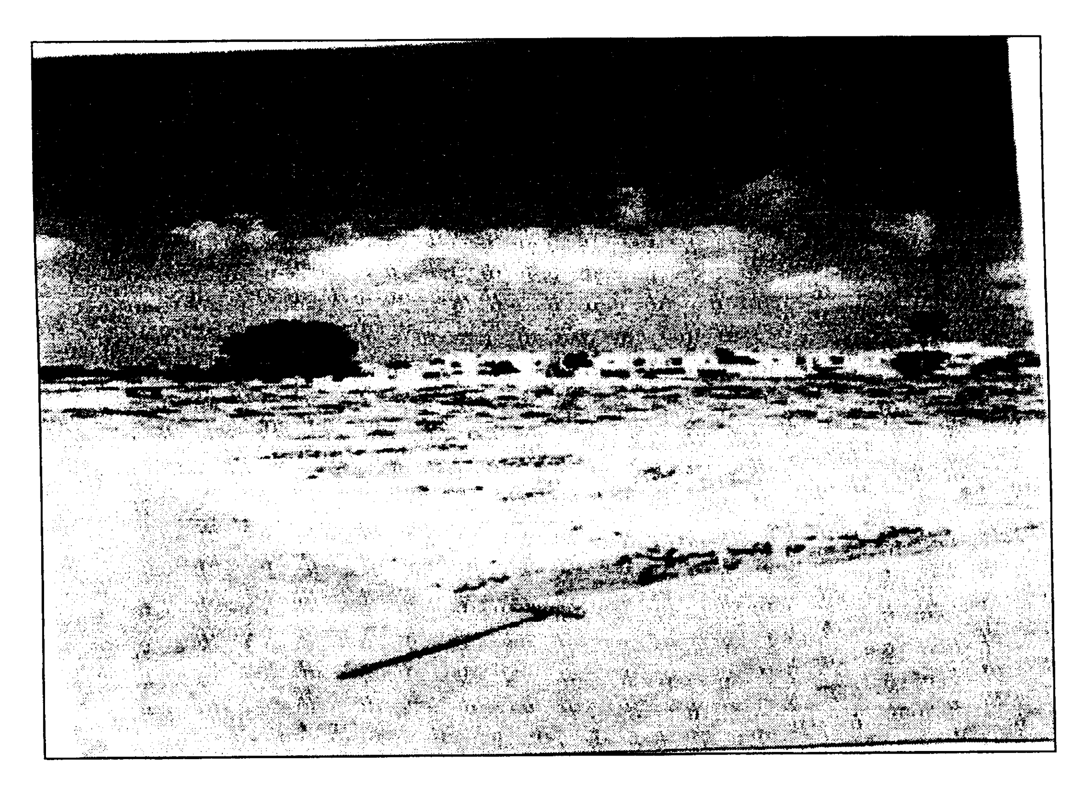
صورة (٧) المسجد (مبنى د) أثناء إجراء الحفريات الخاصة بكشفه



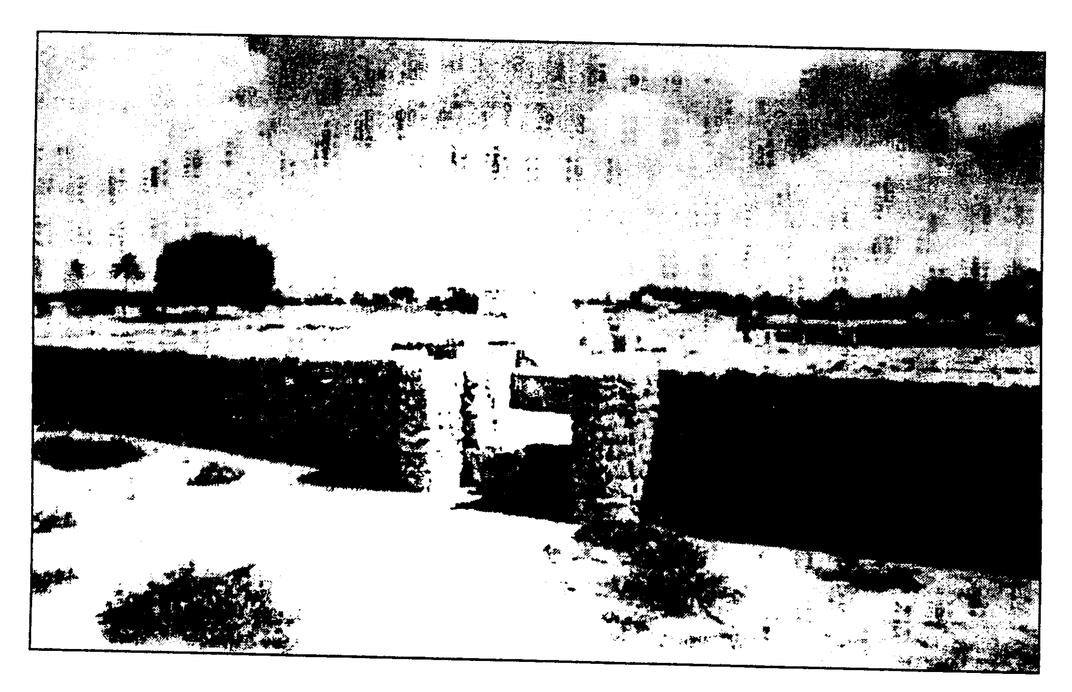
صورة (٨) السوق (مبنى هـ) لاحظ الطريق الأوسط والحوانيت على الجانبين



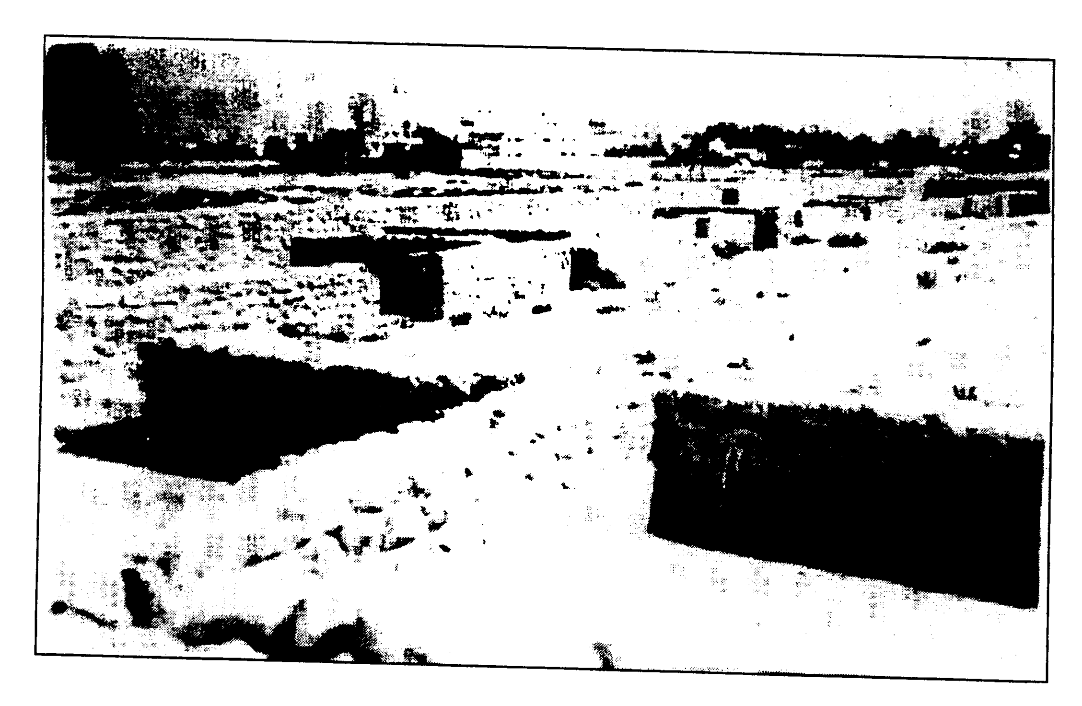
صورة (٩) الحوانيت في الجهة الغربية من طريق السوق (لاحظ المخزن في خلف الحوانيت)



صورة (١٠) الحوانيت في الجهة الشرقية من طريق السوق (لاحظ المصاطب أمام حوانيت هذه الجهة)



صورة (١١) مربد الإبل (مبنى و) فتحة المدخل المؤدي للفناء



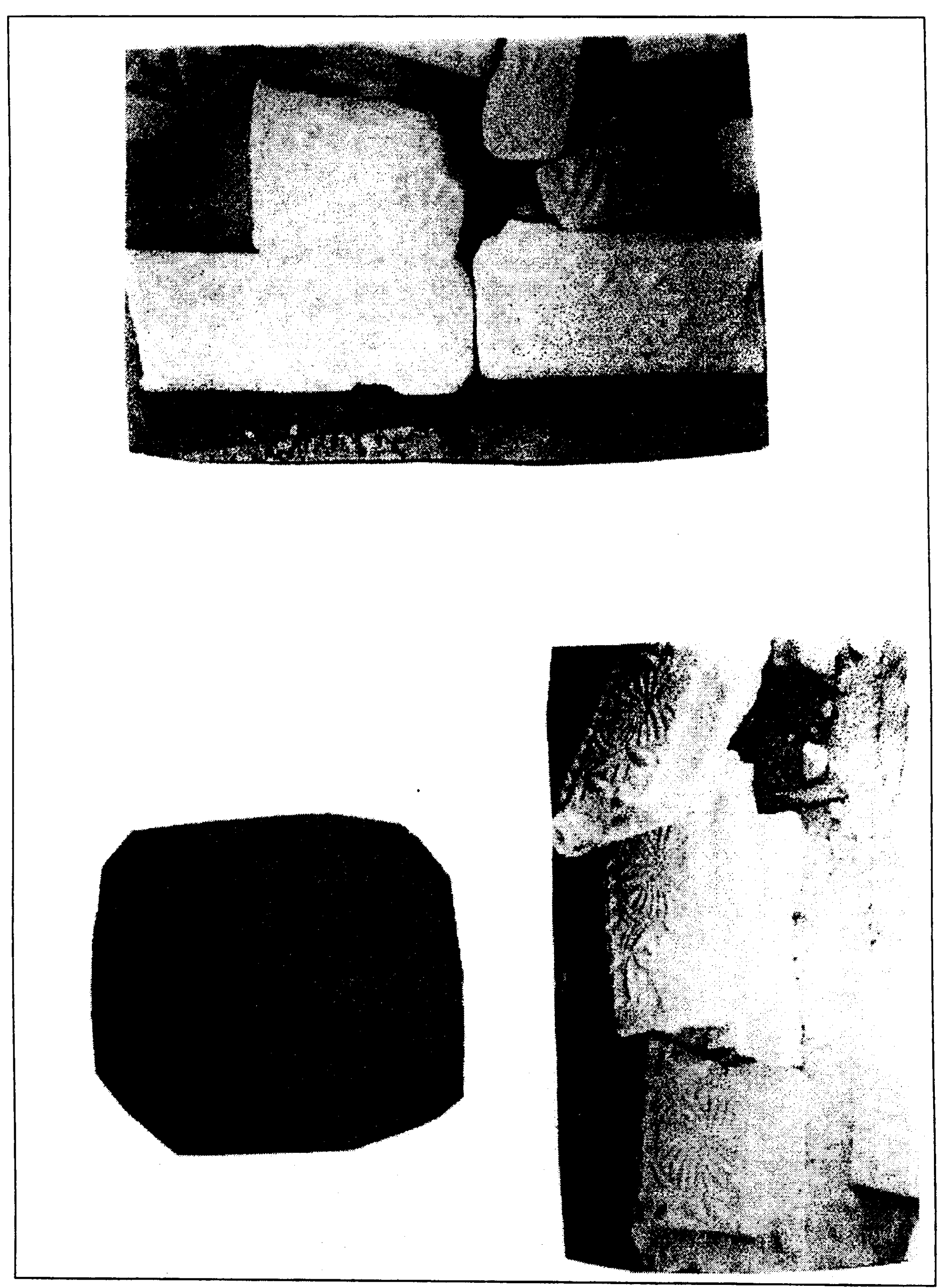
صورة (١٢) جزء من فناء مربد الإبل والحجرات المطلة عليه



صورة (١٣) تفاصيل من السور الخارجي للمربد (مبنى و) لاحظ الدعامة في زاوية المربد



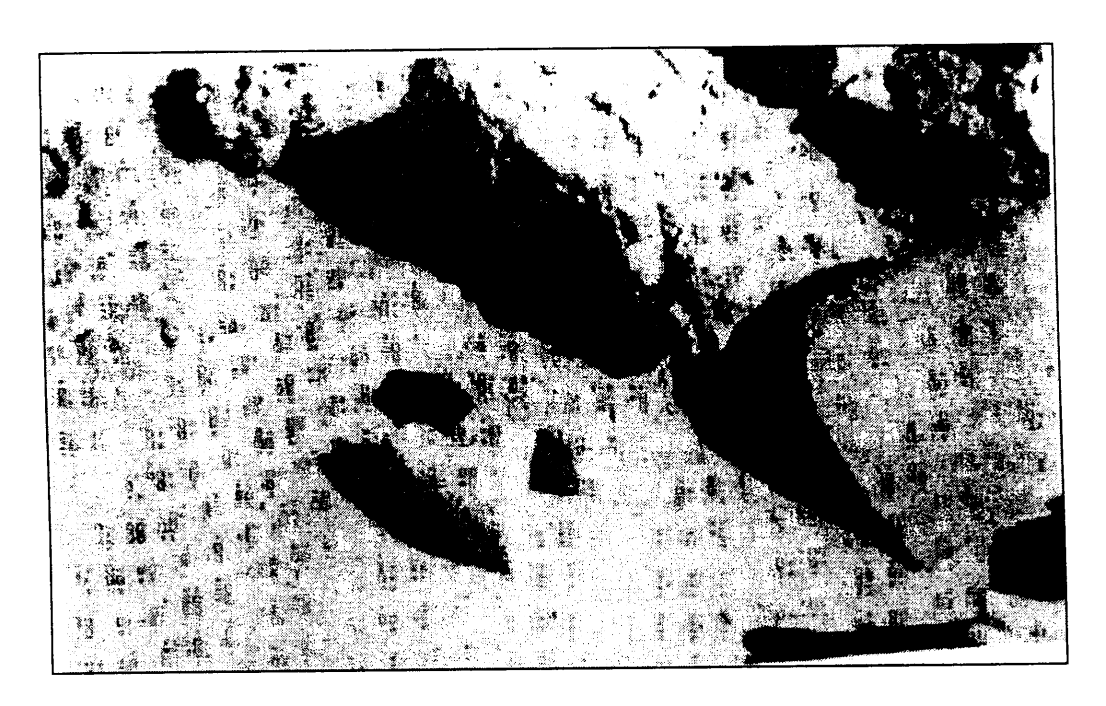
صورة (١٤) أحد الحمامات بمربد الإبل (لاحظ فتحة صرف المياه)



صورة (١٥) زخارف جصية كانت تزخرف قصر الحاكم بالجميرا (مبنى أ)
وثيقة الصلة بزخارف مدينة سامراء ق. ٣هـ/٩م



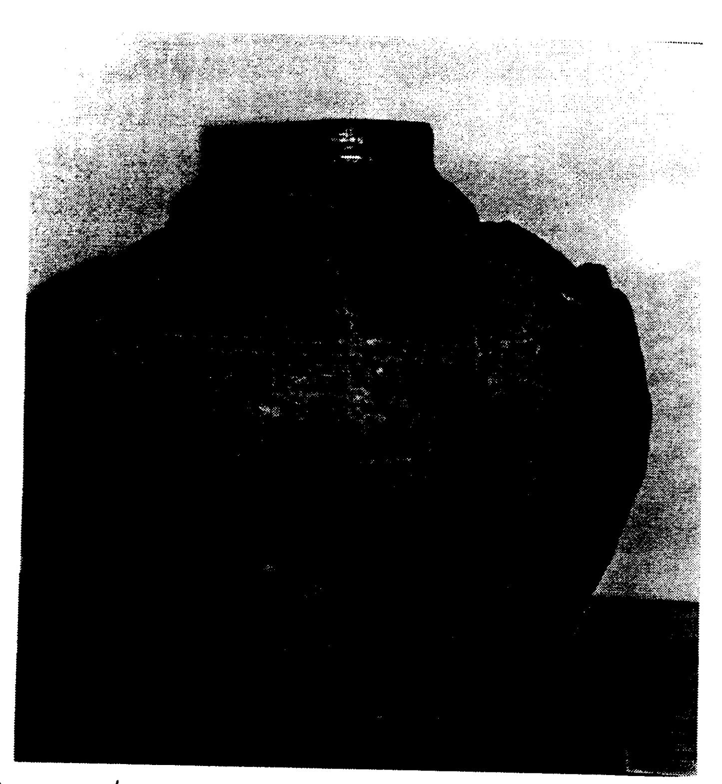
صورة (١٦) زخارف أسنان المنشار من قصر الحاكم (المبنى أ)



صورة (١٧) أحد الصنجات المعشقة الحجري
التي تثبت استعمال الصنجات المعشقة بأبواب ونوافذ قصر الحاكم (مبنى أ)



صورة (١٨) إناء من الفخار له عراوي يعلق منها يرجح أنه كان يوضع به العسل أو المواد السكرية ق. ٣هـ/٩م حفريات الجميرا (محفوظ بمتحف دبي)



صورة (١٩) قدر من حفريات الجميرا ذو بدن كمثري ورقبة صغيرة ق. ٣هـ/٩م (محفوظ بمتحف دبي)



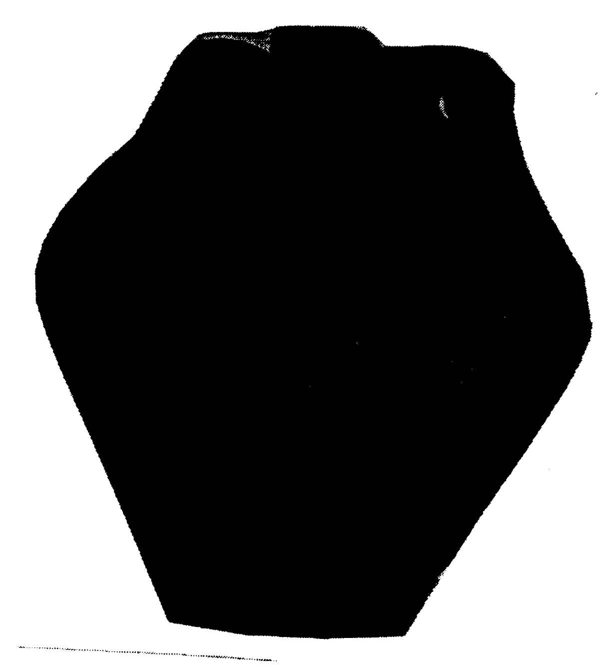
صورة (٢٠) جره ذو فوهة واسعة ورقبة طويلة
ق.٣هـ/٩م، أغلب الظن لتخزين الماء
حفريات الجميرا (محفوظه بمتحف دبي)



صورة (٢١) إناء كروي الشكل له فوهة ضيقة ومقبض واحد ، أغلب الظن لحفظ المواد الغذائية حفريات الجميرا

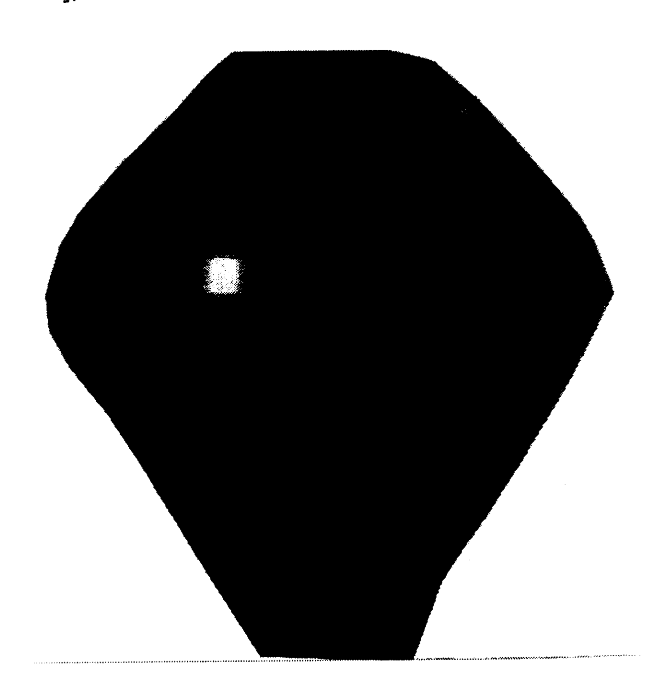


صورة (٢٢) قدر من الفخار ذو بدن كمثري وفوهة ضيقة ومقبض واحد ق. ٣هـ/٩م
أغلب الظن لتخزين المواد الغذائية حفريات الجميرا محفوظ بمتحف دبي

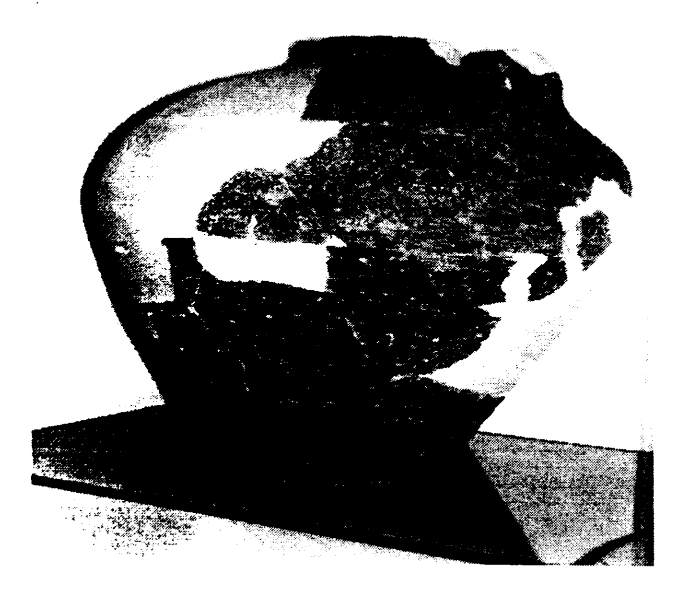


صورة (٢٣) جره من الفخار ذو بدن كمثري الشكل وفوهة ضيقة وأذنيين ق. ٣هـ/٩م
أغلب الظن لخزن المواد الغذائية، حفريات الجميرا، محفوظة بمتحف دبي

صورة (٢٤) جره كمثري الشكل ذو فوهة ضيقة ومقبضين ق. ٣هـ/٩م
أغلب الظن لحفظ المواد الغذائية، محفوظة بمتحف دبي



صورة (٢٥) قدر من الفخار المطلي كمثري الشكل له قاعدة ضيقة وعلى بدنه من أعلى عراوي يعلق منها
ق. ٣هـ/٩م ربما لخزن السمن والدهن أو العسل ، محفوظ بمتحف دبي



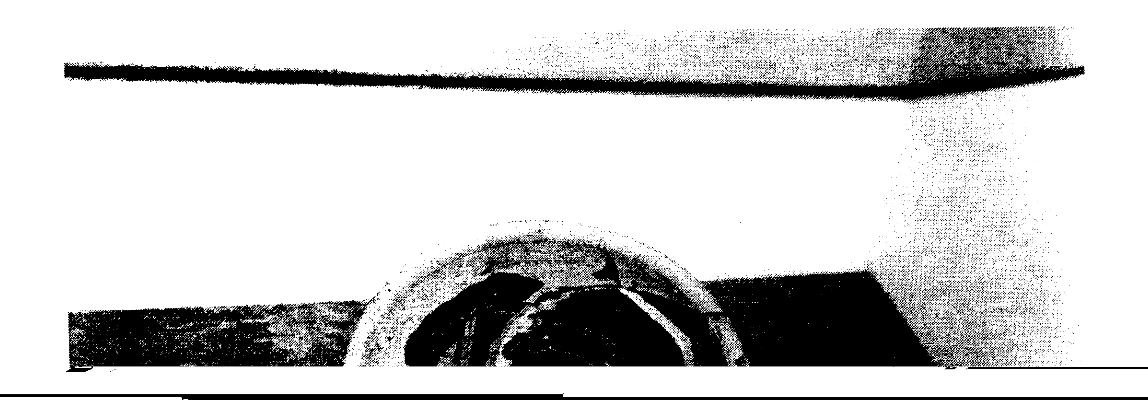
صورة (٢٦) قدر من الفخار المطلي بطلاء زجاجي أخضر فاتح ق. ٣هـ/٩م
حفائر الجميرا محفوظ بمتحف دبي

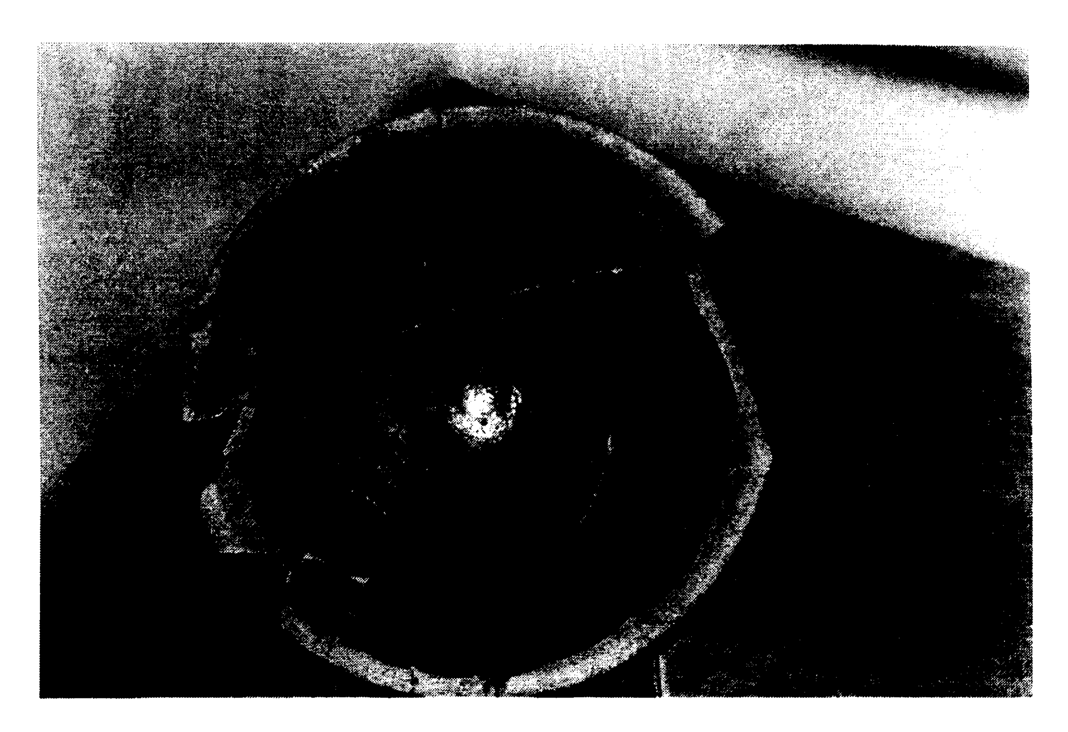


صورة (٢٧) صحن من الخزف ذو الطلاء الزجاجي الأخضر الداكن ق. ٣هـ/٩م
حفائر الجميرا محفوظ بمتحف دبي

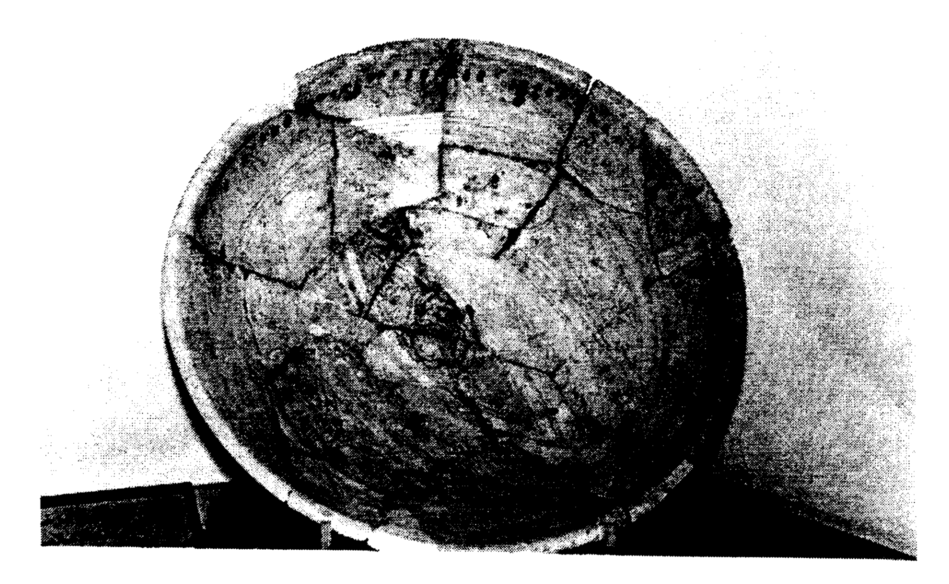


صورة (٢٨) جزء من قدر من الخزف ذو الزخارف القالبية البارزة تحت الطلاء الزجاجي الأخضر ق. ٣هـ/٩م حفائر الجميرا محفوظ بمتحف دبي

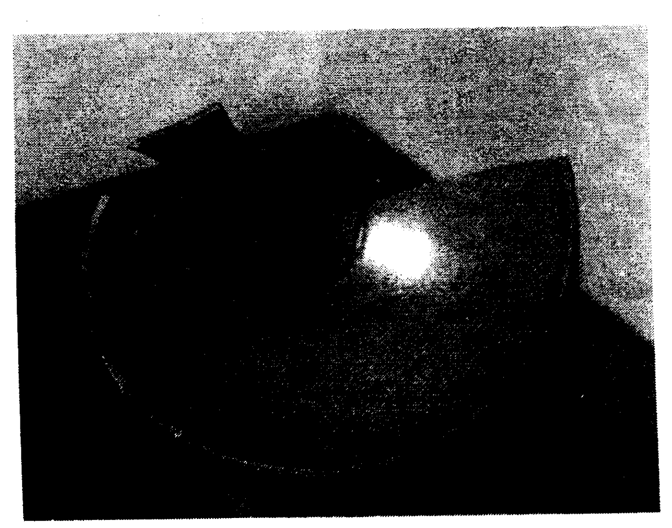


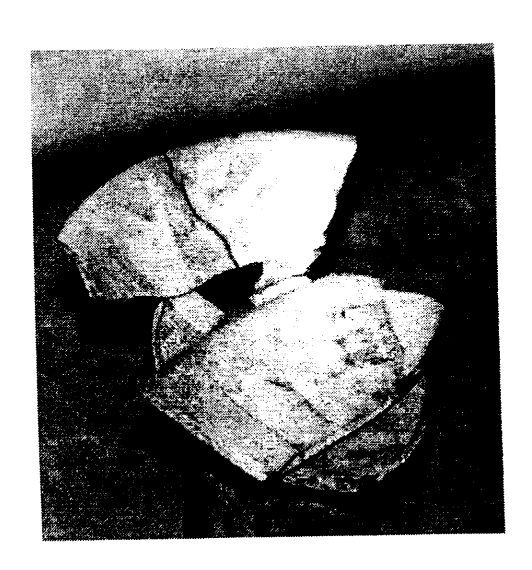


صورة (٣٠) صحن من الخزف ذو الطلاء الزجاجي الأصفر الزيتي
ق. ٣هـ/٩م حفائر الجميرا محفوظ بمتحف دبي



صورة (٣١) صحن من الخزف المحزوز تحت الطلاء
ق. ٣هـ/٩م حفائر الجميرا محفوظ بمتحف دبي





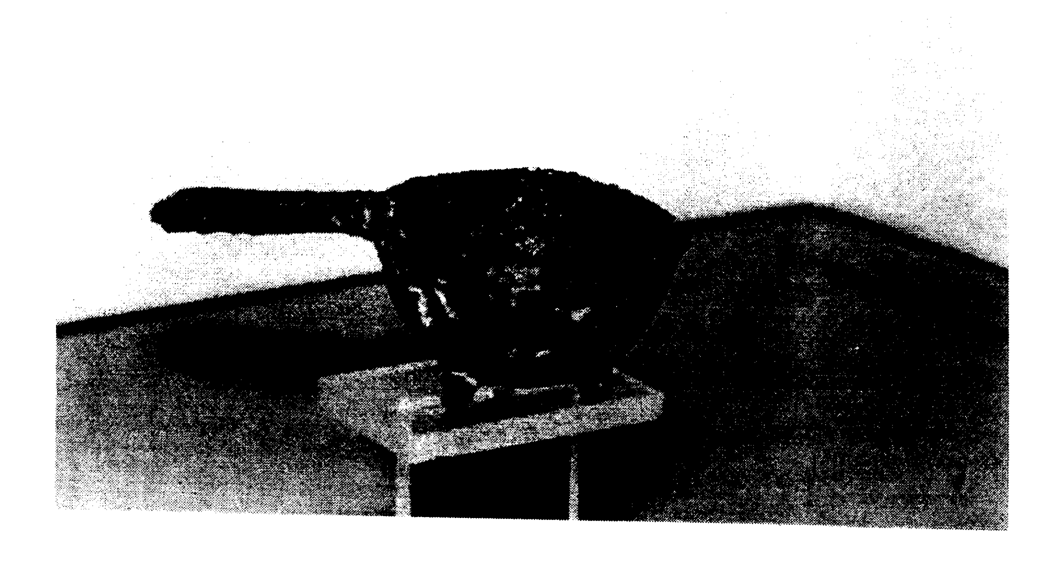
صورة (٣٢) أجزاء من أطباق من البورسلين الصيني
عثر عليها في حفائر الجميرا محفوظة بمتحف دبي



صورة (٣٣) إناء من الزجاج الأخضر عثر عليه من حفائر الجميرا محفوظ بمتحف دبي



صورة (٣٤) بقايا إناء زجاجي عثر عليه في حفائر الجميرا ق. ٣هـ/٩م محفوظ بمتحف دبي



صورة (٣٥) بوتقة من النحاس ذات يد طويلة وثلاث أرجل قصيرة القطر ٧,٥٠سم محفوظة بمتحف دبي



صورة (٣٦) درهم عباسي مؤرخ بسنة ٢٤٠هـ عثر عليه في حفائر الجميرا
نقلاً عن دليل دبي التاريخية متحف دبي

التعليقات

(١) Koy (Sheirly): Emirates Archaeological Heritage, Dubai. 1988. p. 73.

(٢) Hellyer (Peter): Hidden Riches (An Archaeological introduction to the United Arab Emirates). Abu Dhabi. 1998. p. 130.

(٣) Dubai Museen: Historical Dubai, Dubai. 2002. p. 3.

(٤) د. فوزي عبدالرحمن، *الرائد في فن التنقيب عن الآثار*، ط٢ (ليبيا: منشورات جامعة بنغازي، ١٩٩٣م)، ٢١٨.

(٥) يتميز الزجاج العباسي في القرن ٣هـ/ ٩م بأنه ذو لون أخضر أو أزرق وأن معظمه ينفذ بأسلوب النفخ في القالب (انظر وجدان علي نايف، *الأمويين، العباسيين*، الجمعية الملكية الأردنية للفنون الجميلة (عمان: ١٩٨٨م، ١٣٣).

(٦) تشير المصادر إلى أن نحاس ماجان (الإمارات وعُمان) كان مشهوراً بل كان يصدر إلى معظم البلدان. انظر د. حمد بن صراي، *منطقة الخليج العربي* (أبو ظبي: ٢٠٠٠م)، ٢٨.

(٧) هذا التاريخ واقع في فترة حكم المتوكل على الله والتي تقع سنة ٢٣٢هـ وفي عهده ظهر بوضوح نفوذ الأتراك في سامراء حيث كانت مقر الخلافة العباسية وهو يمثل بداية العصر العباسي الثاني. د. هاشم عبدالراضي، قضايا ومواقف في التاريخ العباسي، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ١٢٨.

(٨) من المعروف أن عدد كبير من أهل الخليج خصوصاً سكان المناطق الساحلية كانت حرفتهم الرئيسية هي التجارة بين الشرق وبين العراق وشبه الجزيرة العربية، وكان النقل البحري يمثل جزء كبير من مصادر دخلهم. انظر د. فاطمة الصايغ، *الإمارات من القبيلة إلى الدولة*، ط١ (العين: ١٩٩٧م)، ١٩؛ وانظر أيضاً د. عبدالرزاق المعاني، *التجارة والملاحة في الخليج العربي* (الشارقة: ٢٠٠١م)، ٢٥.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

طرز أهم المساجد الباقية بالجزيرة العربية حتى نهاية العصر العباسي الأول (دراسة تحليلية مقارنة)

د. علي أحمد إبراهيم الطايش

أستاذ مشارك بقسم الآثار والمتاحف

اشتهرت الجزيرة العربية منذ زمن بعيد بالمنشآت المعمارية بأنواعها المختلفة، وخير دليل على ذلك ما كشفت عنه حفائر الفاو من منشآت معمارية متنوعة، شيدت إما من الأحجار المثبتة بالمونة، وإما من قوالب اللبن، وكسيت جدرانها بطبقة جصية[١]، وهذا يدل عن خبرة العرب قبل الإسلام بالعمارة .

ولم تنته خبرة عرب الجزيرة العربية المعمارية هذه بدخول الإسلام، ولكنها ظلت باقية ومستمرة منذ عصر الرسول ﷺ وحتى العصر العباسي، وخير دليل على ذلك ما كشفت عنه حفائر الربذة من منشآت معمارية متنوعة بصفة عامة والمنشآت الدينية بصفة خاصة (المساجد)[٢].

وكان الرسول ﷺ أول من وضع بذور العمارة الإسلامية منذ وصوله إلى المدينة المنورة، وتشييد المسجد الجامع في وسطها، بالإضافة إلى مساجد الصلوات الخمس في الخطط[٣].

ولقد انتشرت المساجد في أرجاء ﷺ عند غزوته تبوك في شهر رجب عام ٩هـ / ٦٣١م سبعة المدينة المنورة، وفي كثير من المناطق التي سار فيها الرسول عشر مسجدا، ويحتمل أن يكون الرسول ﷺ قد أمر بنفسه بتخطيط بعض المساجد، أو أنها شيدت بشكل سريع ومبسط بتوجيهات منه[٤].

وقد سار الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الخلفاء والولاة المسلمين حتى العصر العباسي على نهج الرسول ﷺ في عمارة المساجد وتوسعتها وزخرفتها، أو إضافة عناصر معمارية، أو أثاثات متعلقة بها وبوظائفها، وأصبحت من سماتها والدالة عليها مثل المنبر، والمئذنة، ودكة المبلغ، والمقصورة، وكرسي المصحف وغيرها.

وأصبح تخطيط مسجد الرسول ﷺ هو التخطيط الذي يهتدي به في تخطيط المساجد داخل الجزيرة العربية أو في خارجها، ولاسيما في القرون الأربعة الأولى من الهجرة،كما صار أهم الطرز المعمارية لهذه المساجد في العصور والأقطار الإسلامية[٥].

ويـــرجع السبب في ذلك من غير شك إلى أن المسلمين أمروا أن يتأسوا بالرسولﷺ، وبالخلفاء الراشدين ﷺ، ولاسيما في الأمور التي تتعلق بالعبادات[٦]، كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقال الله ﷻ **﴿لَقَدْ كَـــانَ لَكُـــمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾**[٧]، كما روي عن الرسول ﷺ (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) [٨].

ويتألف تخطيط أو طراز مسجد الرسول ﷺ بصفة عامة من صحن أوسط مكشوف مربع أو مستطيل المسقط تحـــيط به أربع ظلات عادة ما تكون ظلة القبلة هي أكبر الظلات اتساعا وعمقا، والظلات مقسمة إلى أروقة بواسطة صـــفوف مـــن البائكات ترتكز عقودها على أعمدة ودعامات، وعرف هذا التخطيط بإسم التخطيط التقليدي، أو التخطيط النبوي[٩].

ويلقي هذا البحث الضوء على أهم المساجد الباقية بالجزيرة العربية التي شيدت منـــذ الرسولﷺ وحتى العصر العباسي، والتي اتسمت بتعدد طرزها وأنماطها وعلى الرغم من هذا التعدد إلا أنه حوفظ على التخطيط التقليدي، وهو تخطـــيط مسجد الرسولﷺ، وهو الصحن والظلات الأربع، ويرجع هذا التعدد إلى عدة عوامل من أهمها على سبيل المثال لا للحصر:

العامل الجغرافي :

وكـــان العـــامل الجغـــرافي له أكثر من دور في تخطيط المساجد، فقد اختلفت تضاريس الجزيرة العربية بشكل مـــلحوظ ما بين مناطق جبلية وعرة وصحاري منبسطة، وأودية وسهول ساحلية: ففي المنطقة الغربية والجنوبية يوجد سلاسل جبلية مرتفعة، ويقل الارتفاع تدريجيا كلما اتجهنا إلى الشرق حتى نصل إلى المناطق السهلية المطلة على الخليج العربي ، كما تميزت المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية بوجود غابات وأشجار الوعر والأثل والزيتون وغيرها بالإضافة لأشجار النخيل، ولذا توفرت مواد البناء اللازمة للعمارة، وهي الأخشاب والحجر الجيري والرملي والطوب اللبن[١٠].

كمـــا اتسمت بلاد الجزيرة العربية أيضا بالجو الصحراوي الحار، ولكي يتلافى معمار الجزيرة العربية التقلبات الجوية والحرارة داخل منشآته المعمارية بصفة عامة، والدينية بصفة خاصة فشيد جدرانها بطريقة تخفض الحرارة لإيجاد طقـــس ملطف بداخلها، فشيدت من الطوب اللبن؛ لأنه أفضل مادة لامتصاص الحرارة، بالإضافة إلى تشييدها سميكة حتى لا يتأثر الداخل بالتقلبات الجوية، وجعلت الأساسات من الحجر، وذلك لحمايته من السيول والرطوبة[١١].

كمـــا كـــان للعامل الجغرافي دوره في تسقيف المساجد، فمن المعروف أنه بعد أن انتهى الرسول ﷺ من بناء مســـجده، واشـــتد الحر على المسلمين بداخل المسجد –وخاصة في صلاتي الظهر والعصر– فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فظلل، فقال: نعم فأمر له بسواري من جذوع النخل شقه، ثم طرح عليها العوارض (الجسور الخشبية)

والخصف والأذخر (الجريد والخوص)، ثم غطي السقف بالطين بعد فترة لتسرب مياه الأمطار خلال السقف وسقوطها عــلى المصــلين[١٢]، ثم استبدلت هذه الأعمدة (السواري) من جذوع النخل في عصر عثمان بن عفان ﷺ (٢٩-٣٠هــ/ ٦٤٩-٦٥٠م) بأعمدة من الحجر النحيت[١٣].

لــذا نجــد أن معمار الجزيرة العربية لتوافر مصادر البناء ببلاده استطاع أن يستخدم في معظم مساجد الجزيرة العربــية الدعامات أو الأعمدة المتخذة من الحجر بأشكالها المختلفة في البائكات التي تقسم ظلات المساجد إلى أروقة لكــي تتحمل أن يرتكز عليها مباشرة السقف الخشبي، أو ينطلق من أعلاها العقود سواء أكانت موازية أم عمودية على جدار القبلة، لكي تقسم سقف المسجد إلى مساحات مستطيلة أو مربعة لكي يسهل تسقيفها .

كما تحكمت **المساحة** في تخطيط المساجد من حيث موقعها، واتساعها، وانتظام أضلاعها،بالإضافة إلى ارتباط المعمار **بخط تنظيم الطريق**، الذي يجعل المعمار مضطرا إلى أن يكون الضلع الخارجي للمسجد (الواجهة) موازيا لجدار القبلة، وأحيانا عن هذا انحراف في الضلع الخارجي بعض الشيء[١٤].

بالإضــافة إلى **تحديــد موضع القبلة**، حيث يشكل هذا العامل العنصر الأول من عناصر تخطيط المسجد، وهو المحور الذي يتشعب منه جميع عناصر التخطيط الأخرى للمسجد[١٥]، كما يحدد طبيعة المسقط الأفقي (التخطيط) فإما أن يكــون ذو مســقط مربع أو قريب من المربع، أو ذا مسقط مستطيل عرضي أو رأسي[١٦] وأيضا كان **للعقيدة الإســلامية** دورها في وضع الخطوط الرئيسية للمعمار التي يجب أن يراعيها عند تخطيط المسجد منها على سبيل المثال عمــق ظلة القبلة، واتساع رواق المحراب (القبلة)، وذلك من إقبال المصلين على الصف الأول، وجود المئذنة لإعلان الآذان، عــدم وجــود فتحات مداخل في مقدمة المسجد، بل في مؤخره، وعلى جانبيه حتى لا يقطع الداخل صفوف المصلين[١٧].

ولــذا وقــع اختــياري على دراسة طرز أهم المساجد الباقية في الجزيرة العربية التي اتسمت بتعددها، ليكون موضــوع البحث في الندوة العالمية الخامسة التي ينظمها كل من قسم التاريخ، وقسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب-جامعة الملك سعود، والمنعقدة في الفترة من ١٠- ١٢شعبان ١٤٢٤هــ/٦- ٨ أكتوبر ٢٠٠٣م.

ونستطيع في ضوء أهم المساجد الباقية أن نحصر طرز هذه المساجد في ثلاثة طرز على النحو الآتي:

- الطراز الأول : طراز المسجد ذي الأعمدة الخشبية والمغطى بسقف خشبي .
- الطراز الثاني : طراز المسجد التقليدي (الصحن الأوسط ويحيط به أربع ظلات).
- الطراز الثالث : طراز المسجد غير التقليدي (المسجد ذي الأروقة دون الصحن).

الطراز الأول: طراز المسجد ذو الأعمدة الخشبية والمغطى بسقف خشبي

يعتبر مسجد الرسول ﷺ هو أقدم أمثلة المساجد ذات الأعمدة الخشبية والسقف الخشبي المسطح[١٨]، فكان ابتداء تشييده في شهر ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، وقد باشر العمل بنفسه، وكان مسقطه قريبًا من المربع، فيبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب ٦٠ذراعا (حوالي ٣٠م)، وطوله من الشمال إلى الجنوب ٧٠ذراعا (حوالي ٣٥م)، وشيد أساساته من الحجر لمسافة ثلاثة أذرع (حوالي١،٥م) يعلوه جدار من اللبن، وفتح به ثلاثة أبواب (باب في المؤخرة، وباب في كل من الضلعين الشرقي والغربي). أما من الداخل فكان يشتمل على ظلة واحدة تتكون من ثلاثة صفوف (سواري) من جذوع النخل، كل صف به ست اسطوانات (شكل ١)، وأتخذ السقف من جذوع النخل، والجريد، وغطي بالطين[١٩].

وعلى الرغم مما اتسم به تخطيط مسجد الرسولﷺ من البساطة، إلا أنه كان الأصل الأول للمساجد الكبرى الأولى[٢٠] التي شيدت في الأمصار الإسلامية الأولى في عصر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ منها: مسجد البصرة (١٤هـ/ ٦٣٥م)[٢١]، ومسجد الكوفة (١٥هـ/ ٦٣٦م) [٢٢] بالعراق، ومسجد عمرو بن العاص (٢١هـ/ ٦٤٢م) بفسطاط مصر[٢٣]، ومسجد القيروان بتونس (٥٠- ١٠٥هـ/ ٦٧٠- ٧٣٢م) [٢٤] (أشكال ٢-٣) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

ثم ظهر الطراز نفسه في شرق العالم الإسلامي، ومن أقدم أمثلته مسجد عروس الفلك الذي شيده السلطان محمود الغزنوي (٣٨٩-٤٢١هـ/ ٩٩٨-١٠٣٠م) في غزنة (أفغانستان حاليا)[٢٥]، ثم ظهر بعد ذلك في بعض مساجد بلاد الأناضول[٢٦].

الطراز الثاني: طراز المسجد التقليدي (الصحن الأوسط ويحيط به أربع ظلات)

وظهر لهذا الطراز ثلاثة أنماط في مساجد الجزيرة العربية الباقية وهي على النحو الآتي:

- النمط الأول: مسجد ذو مسقط مربع أو قريب من المربع.
- النمط الثاني: مسجد ذو مسقط مستطيل عرضي.
- النمط الثالث: مسجد ذو مسقط مستطيل رأسي.

النمط الأول: مسجد ذو مسقط مربع أو قريب من المربع

ومن أمثلة هذا النمط : مسجد الرسول ﷺ في العصر الأموي، والجامع الكبير بصنعاء (٦هـ/ ٦٢٧م)، والمسجد الغربي بمدينة الربذة (القرن ٣هـ/٩م)، ومسجد البطالية بالمنطقة الشرقية[٢٧] (٤٦٩-٦٠١هـ/ ١٠٧٦-١٢٠٤م) (خريطة١).

مسجد الرسول ﷺ في العصر الأموي : (٨٨- ٩١هـ/ ٧٠٧- ٧١٠م)

جرت توسعة لمسجد الرسولﷺ في عصر الخليفتين الراشدين عمر بن الخطاب (١٧هـ/ ٦٣٨م)، وعثمان بن عفـــان (٢٩هـ/٦٤٩م) ﷺ [٢٨]، ولكن التوسعة المهمة من حيث الناحية المعمارية والفنية كانت في العصر الأموي عـــندما أمر الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك عامله على المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز بتوسعته، وإعادة بنائه ما بـــين سنتي ٨٨-٩١هـ/ ٧٠٧-٧١٠م[٢٩]،حيث اكتمل تخطيط مسجد الرسول ﷺ وأصبح هو النموذج المتبع في معظم تخطيطات المساجد والذي يعرف باسم التخطيط التقليدي أو التصميم النبوي[٣٠].

وأصبح تخطيط مسجد الرسول ﷺ عبارة عن مساحة مربعة المسقط تقريبا (شكل ٤)[٣١] يبلغ عرضه ١٦٧,٥ ذراعا، وطوله ٢٠٠ ذراعا، ويشتمل تخطيطه من الداخل على صحن أوسط يحيط به أربع ظلات تشرف عليه ببائكات معقودة، أكبر هذه الظلات هي ظلة القبلة التي تتكون من خمسة أروقة بواسطة خمسة صفوف من الأعمدة (بائكات)، تـــرتفع فوق تيجان أربعة صفوف منها من جهة جدار القبلة عوارض خشبية (جسور) تسير موازية لجدار القبلة، أما الصـــف الأول مـــن جهة الصحن فتعلو تيجانه عقود موازية لجدار القبلة يبلغ عددها أحد عشر عقدا[٣٢]، يقطعها في الوســـط رواق عمودي (بلاطة عمودية) (شكلا ٤- ٥) على جدار القبلة- أي وضع العوارض الخشبية (الجسور) أعلى الأعمدة في اتجاه عمودي على جدار القبلة - وكان هذا الرواق يبدأ من جهة الصحن إلى أن ينتهي عند الرواق الأول مـــن جهـــة جدار القبلة أمام المحراب، أي لا يقطع جدار القبلة، كما ورد وصفه عند ابن عبد ربه (توفى سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) عند وصفه لظلة القبلة فيقول[٣٣]: "وقبالة القبلة موسطة البلاطات (الأروقة) بلاط (رواق) مذهب كله شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهي إلى البلاط (الرواق) الذي بالمحراب ولا يشقه".

وبناءً على ما ورد في وصف ابن عبدربه يعد مسجد الرسولﷺ (النبوي) بعد عمارة الخليفة الأموي الوليد بن عـــبدالملك على يدي عامله عمر بن عبد العزيز، هو المثال الأول في تاريخ المساجد الذي يشتمل على رواق عمودي (مجاز قاطع) يقطع صفوف الأروقة الموازية لجدار القبلة، وسرعان ما ظهر أكثر تطورا في الجامع الأموي بدمشق (٨٧ - ٩٦هـــ/ ٧٠٦- ٧١٤م) (شكل ٦) الذي شيده أيضا نفس الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك)، وانتهى من بنائه بعد الفراغ من عمارة مسجد الرسول ﷺ بحوالي خمس سنوات (أي سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م)[٣٤]، وهو أقدم مثال باق في العمارة الإسلامية، ثم ظهر بعد ذلك في هذا العصر الأموي في المسجد الأقصى بعد تجديدات كل من الخليفتين عـــبدالملك بـــن مروان والوليد بن عبد الملك له (٧٢-٩٦هـ/ ٦٩١-٧١٤م) (شكل٧)[٣٥]، وفي المسجد الملحق بالـــزاوية الجنوبـــية الغربية بقصر الحير الغربي (١١٠هـ/ ٧٢٨م)[٣٦]، ثم ظهر بعد ذلك في العصر العباسي كما في مسجد القيروان بتونس بعد تجديد زيادة الله الأغلب سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م[٣٧]، ثم ظهر بعد ذلك في العصور التي تلته ومنها العصر الفاطمي في مصر[٣٨].

أمـــا الظلة المقابلة للقبلة فهي مشابهة أيضا لظلة القبلة (شكلا ٤- ٥) فتتكون من خمسة أروقة بواسطة خمسة صـــفوف (بائكـــات) من الأعمدة تشرف على الصحن ببائكة معقودة من أحد عشر عقدا، يليها أربعة صفوف من الأعمدة يعلوها عوارض خشبية (جسور) تسير موازية لجدار القبلة.

بينما الظلتان الجانبيتان: فالشرقية تتكون من ثلاثة أروقة بواسطة ثلاثة صفوف من الأعمدة (بائكات) تشرف عـــلى الصـــحن ببائكة معقودة من تسعة عشر عقدا عموديا على جدار القبلة، أما البائكات الداخلية فيعلو أعمدتها عوارض خشبية (جسور) تسير عمودية أيضا على جدار القبلة. أما الظلة الغربية فتتكون من أربعة أروقة بواسطة أربع بائكات تشرف ببائكة معقودة مشابهة للظلة المقابلة لها، وأيضا تتشابه معها من حيث البائكات الداخلية .

الجامع الكبير بصنعاء (٦هـــ/٦٢٧م) :

ويعـــد من أقدم المساجد في اليمن، وله أهمية خاصة من حيث إن من أمر بتشييده هو الرسولﷺ في السنوات الأولى من الهجرة، مما يعد من المساجد العتيقة في العالم الإسلامي[٣٩].

وقد اختلفت المصادر التاريخية حول مؤسسه، وإن كان هناك شبه اتفاق على أن مؤسسه هو إما الصحابي وَبْر ابـــن يَحْـــنس الأنصاري الذي أرسله الرسولﷺ واليا على صنعاء سنة ٦هـــ/ ٦٢٧م، وأمره ببناء هذا المسجد، أو الصحابي فروة بن مسيك المرادي، وهو الأرجح[٤٠].

وكـــان تشييد الجامع في بدايته بسيطا ومسقطه مربع الشكل، ويبلغ طوله ١٢م وله مدخل واحد، ويشتمل من الداخل على ثلاث ظلات، وقد تعرض هذا الجامع إلى مراحل مستمرة من التجديد والتعمير والإضافة خلال العصور الإسلامية، من أهمها تلك التي أجريت له في كل من العصر الأموي أيام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦-٩٦هـــ/ ٧٠٥ - ٧١٥م، والعصر العباسي على يد الأمير علي بن الربيع سنة ١٣٦هـــ/ ٧٥٤م[٤١].

وتخطـــيطه الحالي (شكل٨) هو مسقطه قريب من المربع (٦٨×٦٥م) يدخل إليه عبر اثنى عشر بابا، ويشتمل من الداخل على صحن أوسط تحيط به أربع ظلات أكبرها وأعمقها ظلة القبلة (الشمالية)، وتتكون من خمسة أروقة بواســـطة خمـــس بائكات معقودة موازية لجدار القبلة ترتكز عقودها على أعمدة ودعامات،وفتح بصدر جدار القبلة دخلة المحراب.

أمـــا الظلة المقابلة للقبلة (الجنوبية) فتتكون من أربعة أروقة بواسطة أربع بائكات معقودة تسير عقودها موازية لجدار القبلة أيضا . أما الظلتان الجانبيتان فكل منهما تتكون من ثلاثة أروقة بواسطة ثلاث بائكات معقودة.

الجامع الغربي بمدينة الربذة[٤٢]: القرن (٣هـــ/ ٩م)

وهو مشيد من الأحجار ذات الأحجام المختلفة، ومسقطه قريب من المربع (٢٢,٧٥×٢٠,١٥م) (شكل ٩). ويشـــتمل مـــن الداخل على صحن أوسط، يحيط به أربع ظلات أكبرها وأعمقها ظلة القبلة التي تتكون من رواقين

بواسـطة بائكـتين من الأعمدة، كل بائكة تتكون من ستة أعمدة أسطوانية، كما يتضح من خلال قواعد الأعمدة المـربعة، أو مسـتطيلة المسقط، وفتح بصدره دخلة المحراب، وهي نصف دائرية عميقة، وعلى يمينها قاعدة المنبر. أما الظلات الثلاث الأخرى فكل منها يتكون من رواق واحد.

وعـند تأصيل هذا النمط من تخطيطات المساجد من حيث إحاطة الصحن بأربع ظلات، نجده أولا في المسجد الحـرام بعـد توسـعته الثانية في خلافة الخليفة عثمان بن عفان ﷺ سنة ٢٦هـ/ ٦٤٧م[٤٣] كما ورد في المصادر التاريخـية، مـنها عـلى سبيل المثال ما ورد عند البلاذري بقوله: "ويقال إن عثمان بن عفان أول من اتخذ للمسجد الأروقـة، وأتخذهـا حين وسعه"[٤٤]. ويتطابق هذا النص مع ما أورده الديار البكري حيث يذكر: "ثم لما استخلف عـثمان بـن عفان ﷺ ابتاع دورا سنة ست وعشرين ووسع المسجد الحرام بها أيضا، وبنى المسجد والأروقة فكان عثمان أول من اتخذ للمسجد أروقة"[٤٥]، وذلك لوقاية المسلمين من حرارة الشمس أثناء الصلاة -وخاصة في صلاتي الظهر والعصر- كما فعل الرسول ﷺ بمسجده بالمدينة المنورة (كما سبق القول).

أمـا بالنسبة لتأصيل المسجد ذي المسقط المربع أو القريب من المربع، فقد ظهر في العراق أولا عندما قام زياد ابن أبيه، والي العراق من قبل الخليفة معاوية بن أبي سفيان بإعادة بناء كل من مسجدي البصرة والكوفة ما بين سنتي ٤٤-٥١هـ/ ٦٦٥-٦٧٠م[٤٦]، واتبع تخطيط مسجد الرسول ﷺ بعد توسعة عثمان بن عفان سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م مـن حيث اشتماله على خمسة أروقة بواسطة خمسة فوف من الأعمدة (بائكات)، يعلوها عوارض خشبية (جسور) يرتكـز عليها السقف أي بدون عقود، وقد لاحظ هذا التشابه ابن جبير وسجلها في رحلته[٤٧]. أما الظلات الثلاث الأخرى فكل منها يتكون من رواقين فقط، وأصبحت هذه سمة في المساجد العراقية ذات التخطيط المربع المسقط، أو القريب منه.

ثم ظهر هذا النمط من المساجد في مسجد البصرى بجنوب الشام (شكل ١١) الذي شيده الخليفة الأموي يزيد ابـن عبدالملك سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م[٤٨]، وأيضا مسجدالعلوي في مدينة إسكاف بني جنيد بالعراق الذي شيده الوالي عـلى هذه المدينة خال بن عبدالله القسري من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م (شكل ١٢)، ومسـقطه مـربع غـير منتظم الأضلاع[٤٩]، والمسجد الجامع في حرَّان شمال الرقة، وشيد بين سنتي ١٢٦-١٣٢هـ/ ٧٤٤-٧٥٠م[٥٠].

ومـن أمثلة هذا النمط في العصر العباسي مسجد بغداد الذي شيده الخليفة أبو جعفر المنصور، وبدأ في تشييده سـنة ١٤٥هـ/٧٦٢م (شكل ١٣)[٥١]، ومسجد الرقة الذي شيده نفس الخليفة أيضا سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م (شكل ١٤)[٥٢].

ومن أمثلة هذا النمط في مصر جامع أحمد بن طولون بالقاهرة (٢٦٣- ٢٦٥هـ/ ٨٧٦- ٨٧٨ م)[٥٣] (شكل ١٥).

النمط الثاني: مسجد ذو مسقط مستطيل عرضي

ويتميز هذا النمط أن ظلة القبلة فيه تتكون من ثلاثة أروقة عرضية بواسطة ثلاث بائكات موازية لجدار القبلة، وعادة ما يقطعها رواق عمودي (مجاز قاطع).

ومن أقدم أمثلة هذا النمط في الجزيرة العربية بل وفي العالم الإسلامي كله هو:

مسجد عمر بن الخطاب :

ويقــع بوســط مدينة دومة الجندل، وهو من أقدم المساجد الأثرية بالجزيرة العربية، ومحافظا على تخطيطه منذ إنشــائه، لأنه لم يتعرض لإعادة بناء أو توسعة، وينسب هذا المسجد إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ [٥٤]، ومسقطه مستطيل عرضي (٣٢,٥×١٨م) .

ويشــتمل تخطــيطه من الداخل على ظلة واحدة تحتل ثلثي مساحة المسجد تقريبا[٥٥] (شكل ١٦) وهي ظلة القــبلة، وهــي تتكون من ثلاثة أروقة بواسطة ثلاثة صفوف من الدعامات الحجرية (بائكات) موازية لجدار القبلة، يــتكون الصــف الأول والثاني من جهة الصحن من تسع دعامات، بينما الثالث يتكون من عشر دعامات، تعلوها عوارض خشبية (جسور) موازية لجدار القبلة. وفتح بصدر جدار القبلة دخلتان عميقتان مستطيلتان: إحداهما، وهي الأكثر اتساعا وعمقا للمحراب، والأخرى للمنبر.

ويتقدم ظلة القبلة ويوازيها من الجهة الشمالية صحن مكشوف مستطيل المساحة أيضا، ويشغل جزءاً كبيرًا منه من جهة الشمال مصلى صغير مستطيل المسقط (١٨,٥×٢,٥م) بصدره دخلة محراب نصف دائرية عميقة غير أصيلة ولكنها مضافة في وقت لاحق. ويستخدم هذا المصلى مصلى شتوي، أو مصلى للنساء في شهر رمضان، ويشكل هذا المصلى الظلة المقابلة لظلة القبلة، وتتكون من رواق واحد (شكل ١٦)[٥٦].

وقــد ظهــر هــذا النمط بعد ذلك في العصر الأموي بالشام في الجامع الأموي بدمشق (شكل ٦) (٨٧-٩٦هـــــ/٧٠٦-٧١٤م) [٥٧]، ولكن ظهر -هذا النمط- في هذا الجامع بصورة متطورة كما يتضح من تخطيطه الذي يــتكون من صحن أوسط تحيط به أربع ظلات أكبرها وأعمقها ظلة القبلة التي تتكون من ثلاثة أروقة بواسطة ثلاث بائكات معقودة تسير عقودها موازية لجدار القبلة، يقطعها في الوسط رواق عمودي (مجاز قاطع) تتوسطه قبة خشبية تعرف باسم قبة النسر. أما الظلات الثلاث الأخرى فيتكون كل منها من رواق واحد فقط (شكل ٦)[٥٨] ٥٨ .

ويتضــح من تخطيط الجامع الأموي أنه يجمع ما بين تخطيط مسجد الرسول ﷺ بالمدينة (شكل ٥)، ومسجد عمــر بن الخطاب بدومة الجندل (شكل ١٦)، فأخذ من الأول التخطيط التقليدي (الصحن الأوسط، ويحيط به أربع ظــلات والرواق العمودي (المجاز القاطع) الذي يقطع ظلة القبلة، ولكن ظهر أكثر تطورا -كما سبق القول-، بينما

أخذ من الثاني المسقط العرضي، وظلة القبلة التي تتكون من ثلاثة أروقة، والتي تسير موازية لجدار القبلة، ولكن ظهرت الظلة فيه بصورة متطورة حيث أصبحت بائكاتها معقودة، وترتكز عقودها على أعمدة ودعامات(٥٩).

النمط الثالث: مسجد ذو مسقط مستطيل رأسي

ويتمثل هذا النمط في مسجد الرسول ﷺ بعد تجديده وتوسعته في العصر العباسي:

وذلك على يدي الخليفة المهدي العباسي سنة ١٦٢- ١٦٥هـ/ ٧٧٨- ٧٨٢م (شكل ١٨)، واستقرت حدود المسجد على حالها إلى أن أحترق سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م(٦٠)، وكان الرحالة ابن جبير قد زاره في سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وترك وصفا دقيقا له، هو في واقع الأمر وصف لحالة المسجد، وتخطيطه في العصر العباسي أيام الخليفة المهدي (أي في سنة ١٦٥هـ/ ٧٨٣م) (شكل ١٨).

ذكر ابن جبير أنه كان بالمسجد حينذاك بيت للصلاة (ظلة القبلة) يشمل خمسة أروقة بواسطة خمسة صفوف (بائكات) من الأعمدة بكل منها سبعة عشر عمودا، وله مؤخر (الظلة الشمالية) فيه مثل العدد من الأروقة والأعمدة، وبالشرقية ثلاثة أروقة، وبالغربية أربعة أروقة(٦١) (شكل ١٨).

وعند مقارنة هذا النمط من مساجد الجزيرة العربية وهو الصحن والظلات الأربع ومسقطه مستطيل الرأسي، نجد أقدم أمثلته في شرق العالم الإسلامي في مسجد دمغان بإيران، وهو من أقدم المساجد القائمة بها، وقد شيد فيما بين سنتي ١٣٠-١٧٠هـ/ ٧٤٧-٧٨٦م(٦٢) (شكل ١٩) .

وقد سارت تخطيطات المساجد العراقية في العصر العباسي على هذا النمط كما في : مسجد سامراء (٢٣٥هـ/ ٨٥٠م)(٦٣) (شكل ٢٠) ، ومسجد أبي دلف (٢٤٥هـ/ ٨٦٠م)(٦٤) (شكل ٢١).

الطراز الثالث: طراز المسجد غير التقليدي (المسجد ذي الأروقة دون الصحن)

يتضح من خلال المساجد الباقية بالجزيرة العربية أن تخطيط هذا الطراز عبارة عن مساحة ذات مسقط مستطيل عرضي أو رأسي قسمت من الداخل إلى أروقة بواسطة عدد من صفوف الدعامات أو الأعمدة (بائكات) تختلف هذه البائكات من مسجد إلى آخر.

ومن أمثلة هذا الطراز الباقية على سبيل المثال لا الحصر :

- مسجد جواثى بمدينة الأحساء بالمنطقة الشرقية (شكل ٢٢).
- ومسجد المنطقة السكنية الجنوبية بالربذة (شكل ٢٣) (خريطة ١).

مسجد جواثي:

يقـــع هـــذا المســـجد في مـــنطقة جواثي بمدينة الأحساء، وتبعد ١٧ كم شمال شرق مدينة الهفوف بالمنطقة الشـــرقية[٦٥]، وكانت مدينة مزدهرة أيام الرسولﷺ، ولهذا المسجد أهمية خاصة حيث يعد المسجد الثالث بالجزيرة العربـــية بعد مسجد قباء ومسجد الرسولﷺ [٦٦]، وأيضا أول مسجد في الإسلام شيد خارج المدينة المنورة، في أيام الرسولﷺ [٦٧].

وشيد هذا المسجد من الطوب اللبن، ويتكون حاليا من مساحة مستطيلة المسقط (شكل ٢٢)[٦٨]، تنقسم من الداخل إلى ثلاثة أروقة بواسطة بائكتين معقودتين .

مسجد المنطقة الجنوبية بالربذة[٦٩]: (شكل٢٣)

ويـــرجع تاريخـــه إلى القـــرن ٣-٤هـــ/ ٩-١٠م، وهو ذو مساحة مستطيلة المسقط (١٢,٣٠×١٠,٣٠م)، ويشـــتمل من الداخل حاليا على أربع قواعد مستطيلة المسقط من الحجر، كانت تعلوها الأعمدة التي تحمل السقف، قســـم هـــذا المسجد إلى ثلاثة أروقة، وفتح بصدر هذا المسجد دخلة المحراب، وهي دخلة عميقة ومستطيلة المسقط (شكل ٢٣).

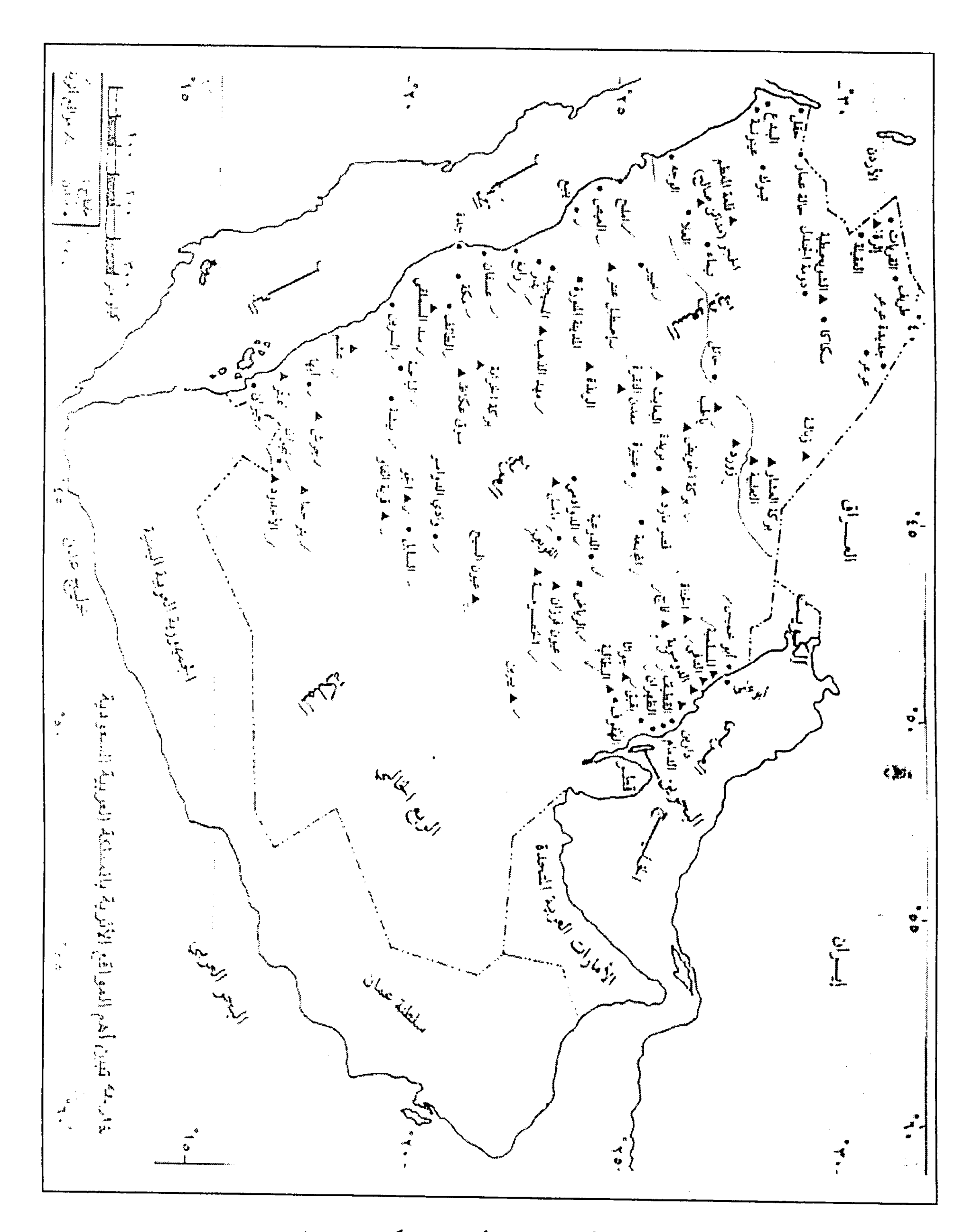
وعند تأصيل هذا الطراز من المساجد نجده قد ظهر في مساجد الأمصار الإسلامية الأولى منها على سبيل المثال لا الحصر مسجد جواثي، ثم جامع عمرو ابن العاص بفسطاط مصر عند تشييده سنة ٢١هـــ/٦٤١م (شكل ٣).

أما أُقدم أمثلته الباقية ببلاد الشام فترجع إلى العصر الأموي، وتتمثل في تخطيط كل من: مسجد قصير الحلابات (شكل ٢٤)، ومسجد خان الزبيب (شكل ٢٥)، ومسجد أم الوليد (شكل ٢٦)، وكل هذه المساجد يرجع تشييدها في الفترة المحصورة ما بين سنتي ٨٩- ١٣٣هـــ/٧٠٨-٧٥٠م)[٧٠].

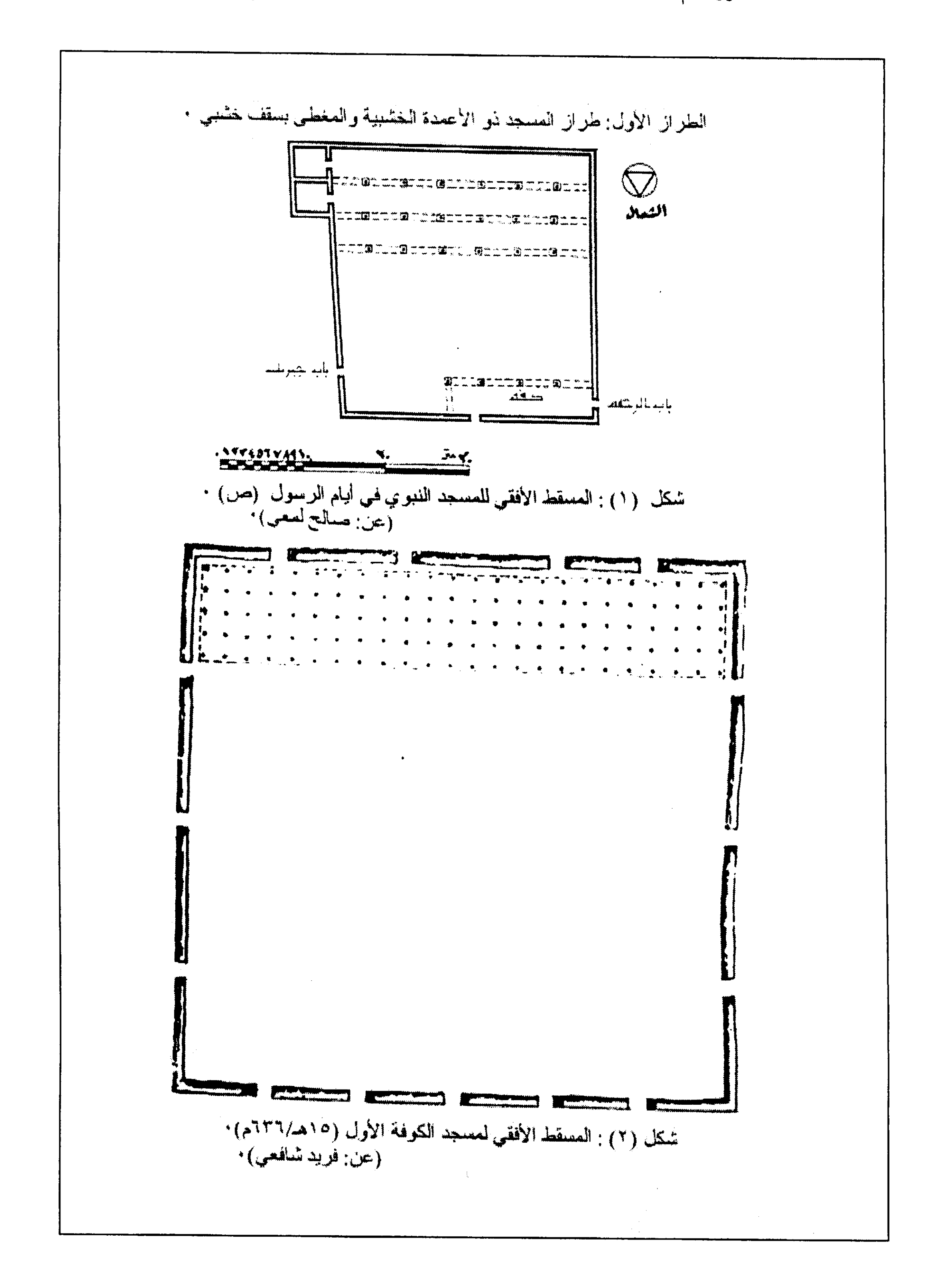
وظهـــر هذا الطراز أيضا في بعض مساجد الغرب الإسلامي[٧١]، منها على سبيل المثال لا الحصر مسجد رباط سوســـة (٢٠٦هـــ/٨٢١م) [٧٢] (شكل ٢٧)، ومسجد بوفتاته بسوسة (٢٢٣- ٣٢٦هـــ/ ٨٣٨- ٨٤١م)[٧٣] (شكل ٢٨)، ومسجد الباب المردوم بطليطلة بالأندلس (٣٩٠هـــ/ ٩٩٩- ١٠٠٠م) [٧٤] (شكل ٢٩) .

كمـــا ظهر أيضا هذا الطراز في شرق العالم الإسلامي، كما يتضح في مسجد بلخ في أفغانستان (القرن ٣هـــ/ ٩م) [٧٥] (شكل ٣٠).

وخـــتاما فهذا البحث يلقي الضوء على (طرز أهم المساجد في الجزيرة العربية الباقية حتى العصر العباسي)، فإذا كنـــت وفقت في تحديد هذه الطرز فلله الحمد، وإذا قصرت فيكون هذا البحث ما هو إلا بداية لدراسة أعمق وأشمل لطرز مساجد الجزيرة العربية.

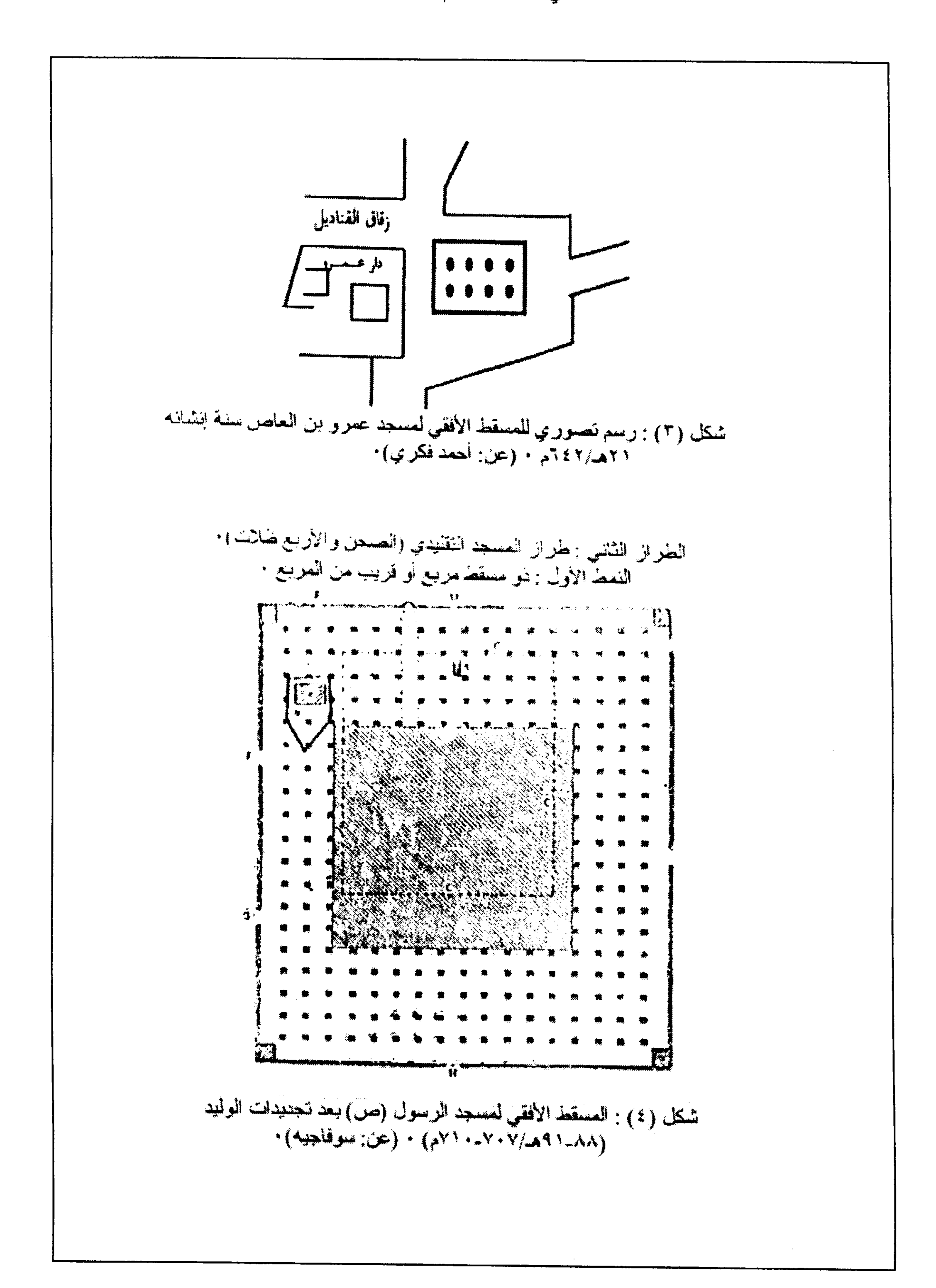


خريطة (١): أهم المواقع الأثرية بالمملكة العربية السعودية



شكل (١) : المسقط الأفقي للمسجد النبوي في أيام الرسول (ص) ٠
(عن: صالح لمعي)٠

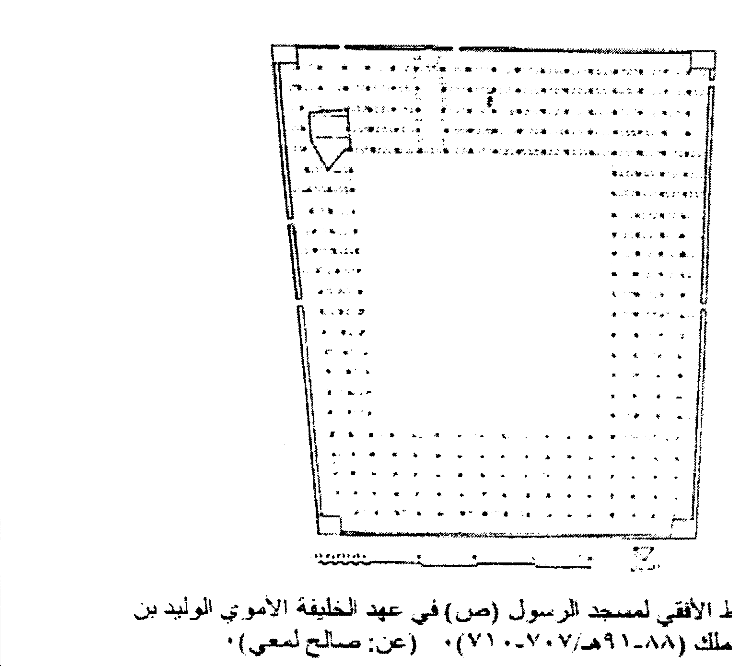
شكل (٢) : المسقط الأفقي لمسجد الكوفة الأول (١٥هـ/٦٣٦م)٠
(عن: فريد شافعي)٠



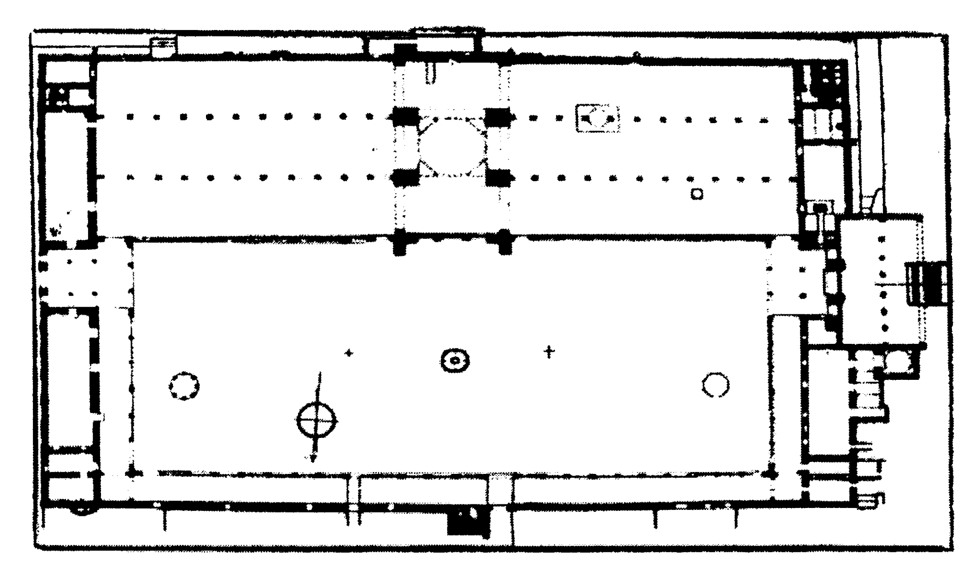
شكل (٣) : رسم تصوري للمسقط الأفقي لمسجد عمرو بن العاص سنة إنشائه ٢١هـ/٦٤٢م . (عن: أحمد فكري).

الطراز الثاني : طراز المسجد التقليدي (الصحن والأربع ظلات).
النمط الأول : ذو مسقط مربع أو قريب من المربع .

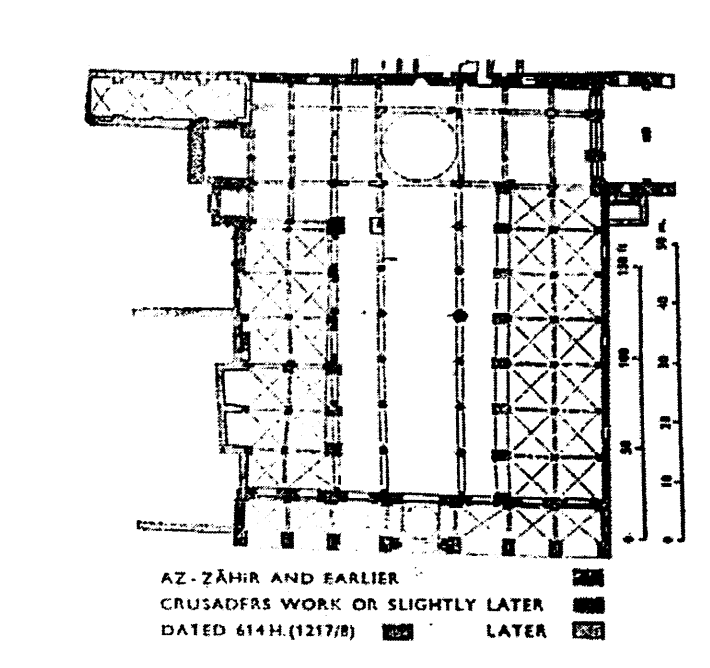
شكل (٤) : المسقط الأفقي لمسجد الرسول (ص) بعد تجديدات الوليد (٨٨-٩١هـ/٧٠٧-٧١٠م) . (عن: سوفاجيه).



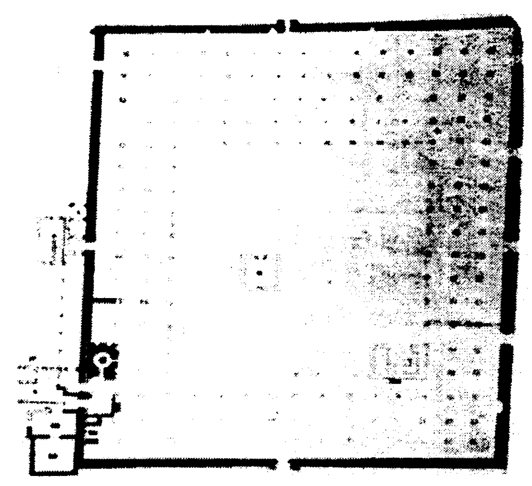
شكل (٥) : المسقط الأفقي لمسجد الرسول (ص) في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٨-٩١هـ/٧٠٧-٧١٠)٠ (عن: صالح لمعي)٠



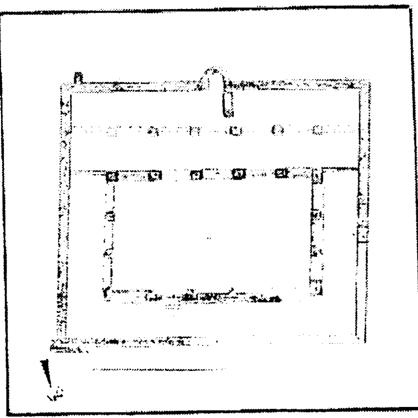
شكل (٦) : المسقط الأفقي للجامع الأموي بدمشق (٨٧-٩٦هـ/٧٠٦-٧١٤م)٠
(عن: سوسن سليمان)٠



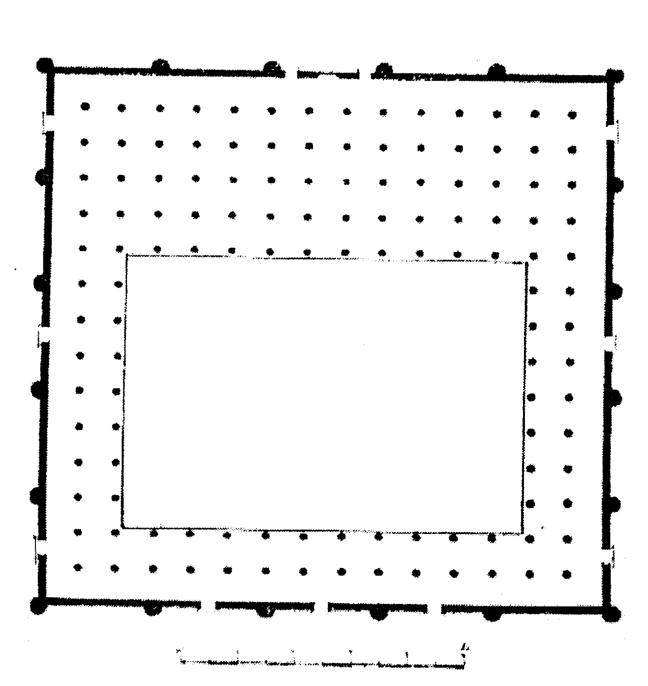
شكل (٧) : المسقط الأفقي للمسجد الأقصى في العصر الأموي (٧٢هـ/٦٩١م)٠
(عن: كريزويل)٠



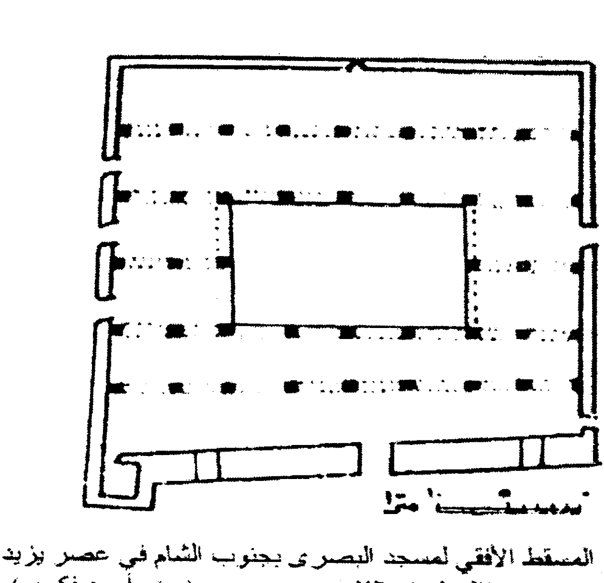
شكل (٨) : المسقط الأفقي للجامع الكبير بصنعاء (سنة ٦هـ/٦٢٧م)٠
(عن: مصطفى شيحة)



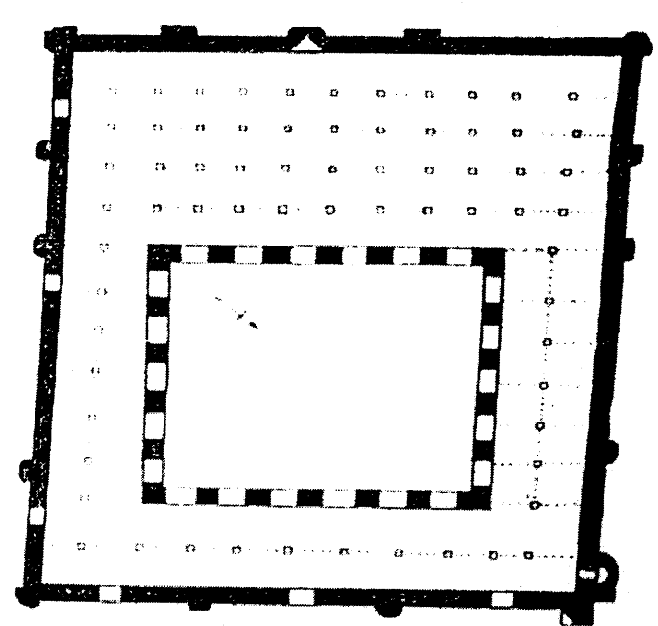
شكل (٩) : المسقط الأفقي للجامع الغربي بمدينة الربذة (القرن ٣هـ/٩م)٠
(عن: سعد الراشد)٠



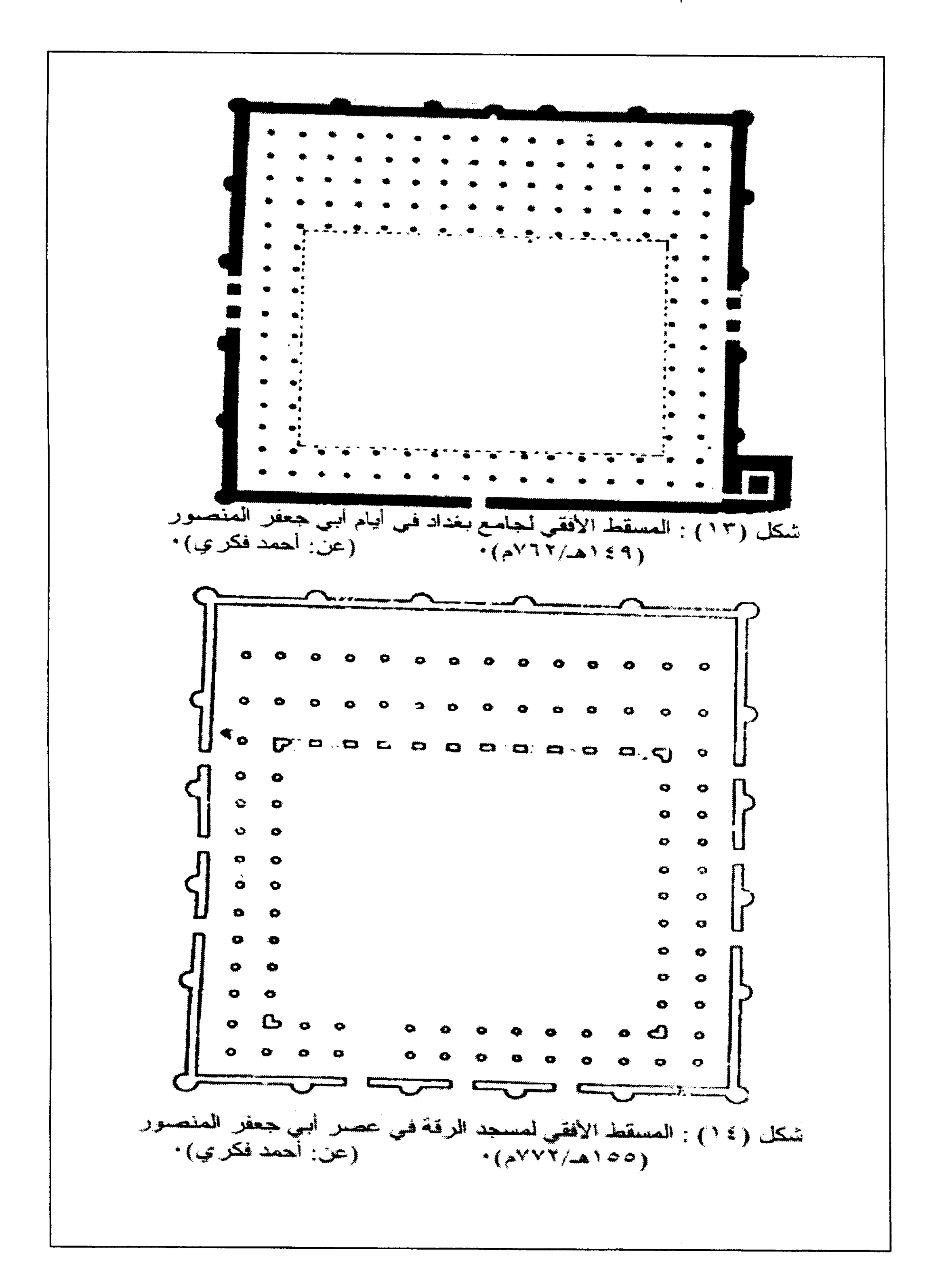
شكل (١٠) : المسقط الأفقي لمسجدي البصرة والكوفة بعد عمارة زياد بن أبيه (٤٤-٥١هـ/٦٦٥-٦٧٠م)٠ (عن: فريد شافعي)٠



شكل (١١) : المسقط الأفقي لمسجد البصرى بجنوب الشام في عصر يزيد بن عبدالملك (١٠٢هـ/٧٢٠م)٠ (عن: أحمد فكري)٠

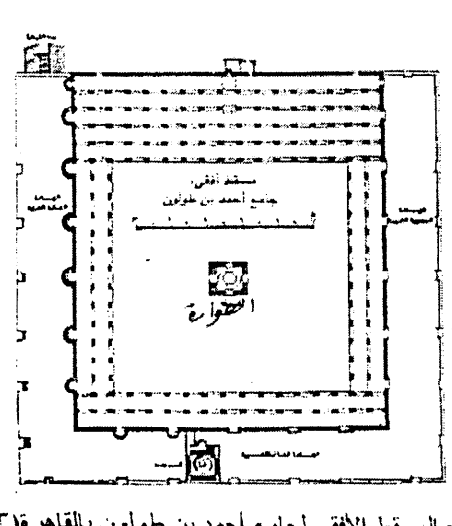


شكل (١٢) : المسقط الأفقي لمسجد العلوي بمدينة إسكاف بني جنيد بالعراق (١١٠هـ/٧٢٨م)٠ (عن: أحمد فكري)٠



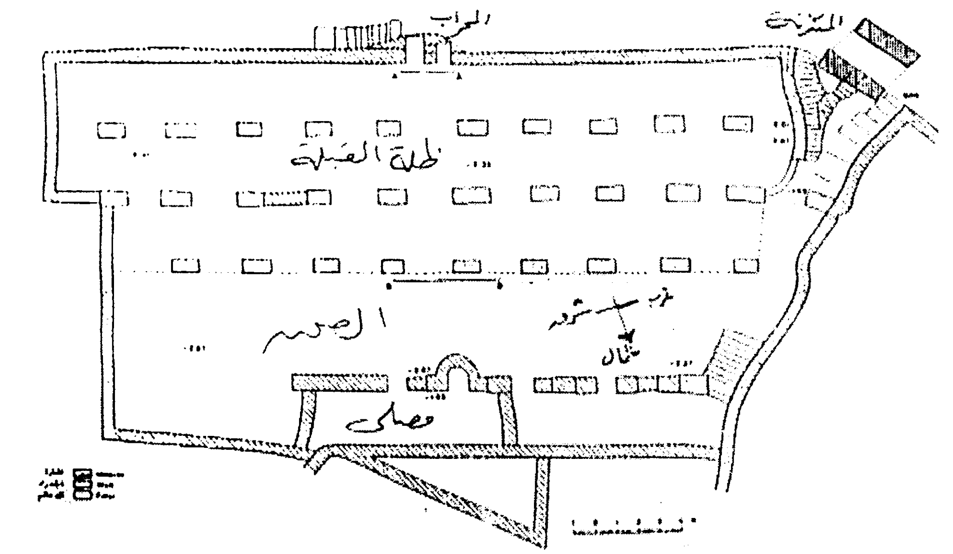
شكل (١٣) : المسقط الأفقي لجامع بغداد في أيام أبي جعفر المنصور (١٤٩هـ/٧٦٢م)٠ (عن: أحمد فكري)٠

شكل (١٤) : المسقط الأفقي لمسجد الرقة في عصر أبي جعفر المنصور (١٥٥هـ/٧٧٢م)٠ (عن: أحمد فكري)٠

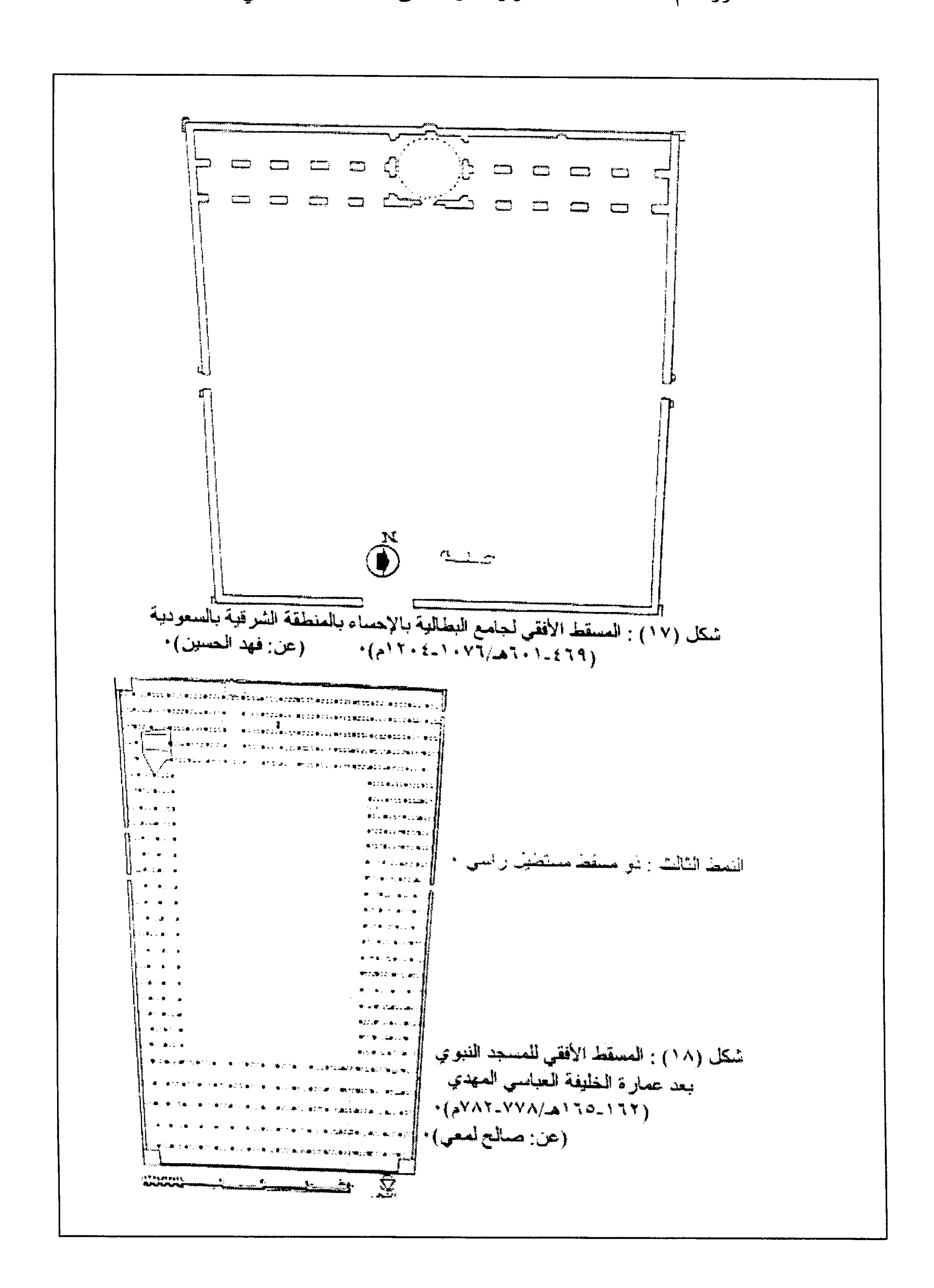


شكل (١٥) : المسقط الأفقي لجامع أحمد بن طولون بالقاهرة(٢٦٣-٢٦٥هـ/ ٨٧٦-٨٧٨م)· (عن: فريد شافعي)·

النمط الثاني : ذو مسقط مستطيل عرضي ·



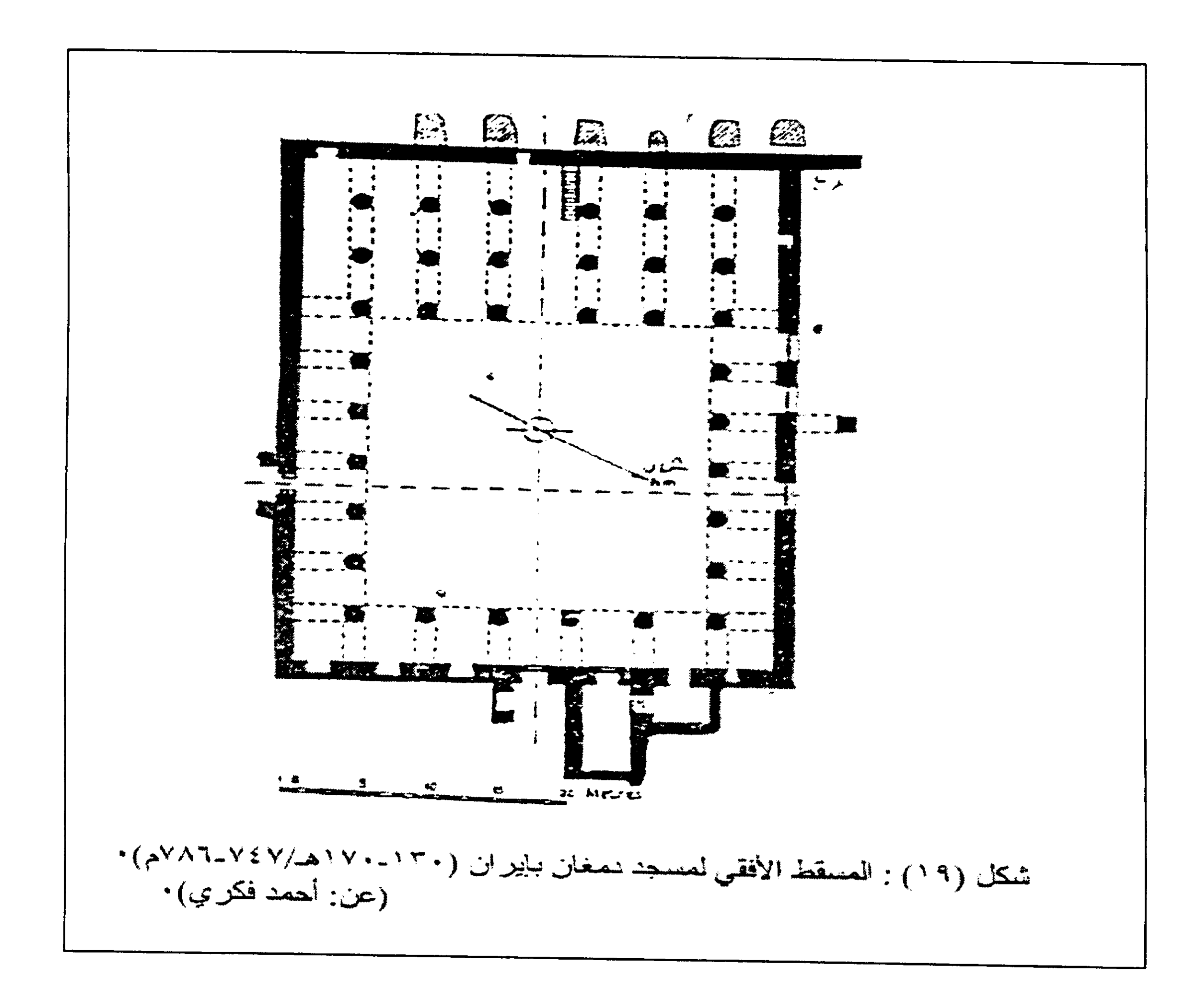
شكل (١٦) : المسقط الأفقي لمسجد عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بدومة الجندل (عن: خليل المعيقل)·



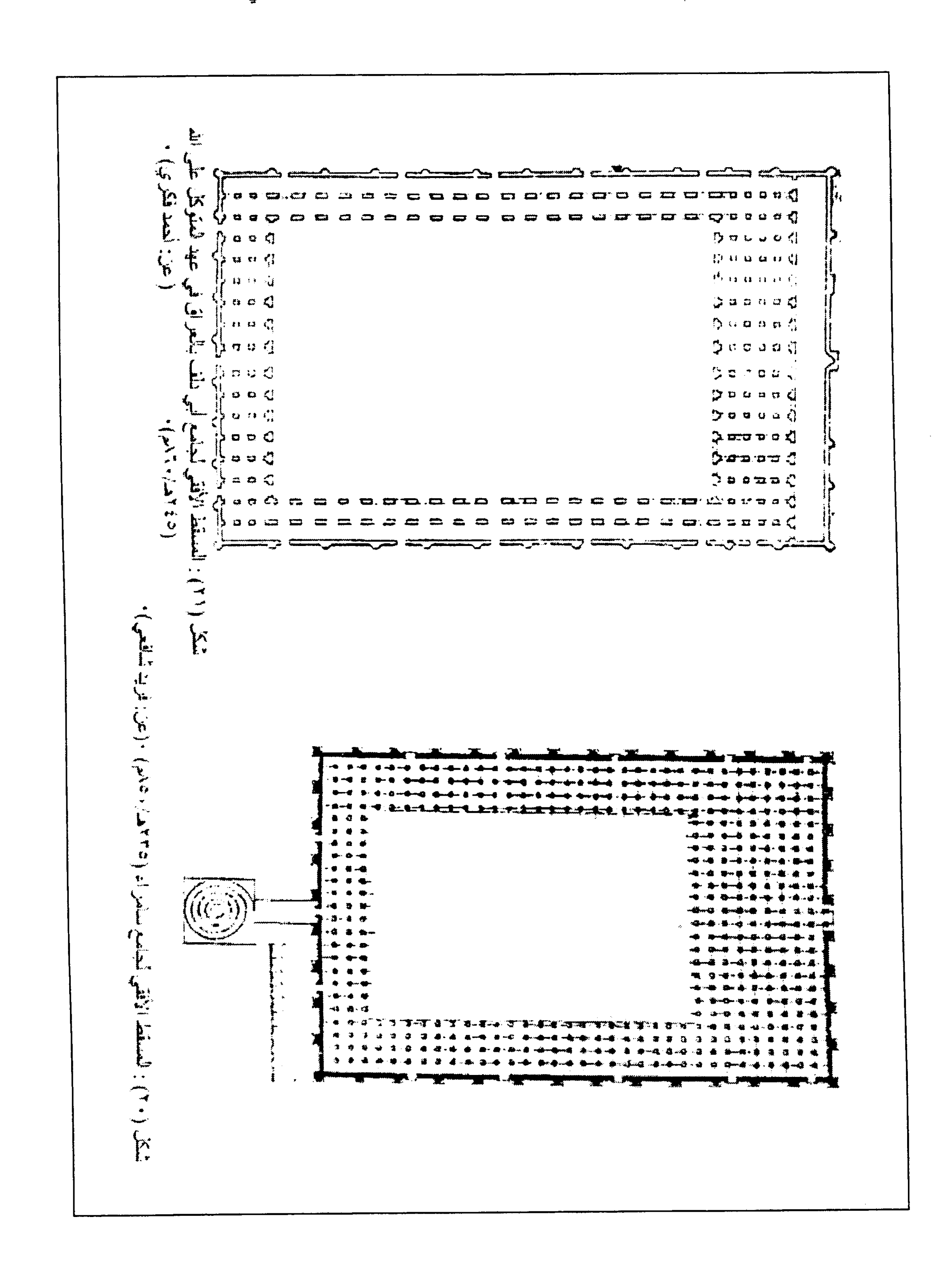
شكل (١٧) : المسقط الأفقي لجامع البطالية بالإحساء بالمنطقة الشرقية بالسعودية (٤٦٩-٦٠١هـ/١٠٧٦-١٢٠٤م)٠ (عن: فهد الحسين)٠

النمط الثالث : ذو مسقط مستطيل رأسي ٠

شكل (١٨) : المسقط الأفقي للمسجد النبوي بعد عمارة الخليفة العباسي المهدي (١٦٢-١٦٥هـ/٧٧٨-٧٨٢م)٠ (عن: صالح لمعي)٠



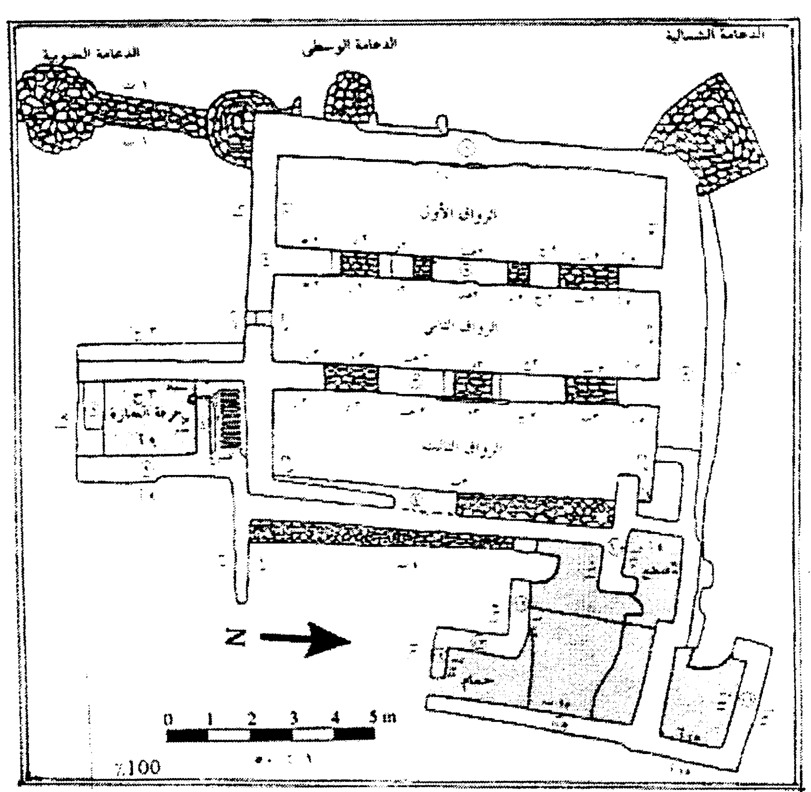
شكل (١٩) : المسقط الأفقي لمسجد دمغان بإيران (١٣٠-١٧٠هـ/٧٤٧-٧٨٦م)٠
(عن: أحمد فكري)٠



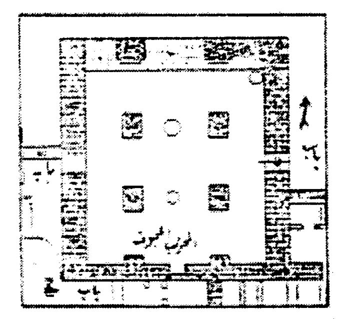
شكل (٢١): المسقط الأفقي لجامع أبي دلف بالعراق في عهد المتوكل على الله (٢٤٦هـ/٨٦٠م). (عن: أحمد فكري).

شكل (٢٠): المسقط الأفقي لجامع سامراء (٢٣٥هـ/٨٥٠م). (عن: فريد شافعي).

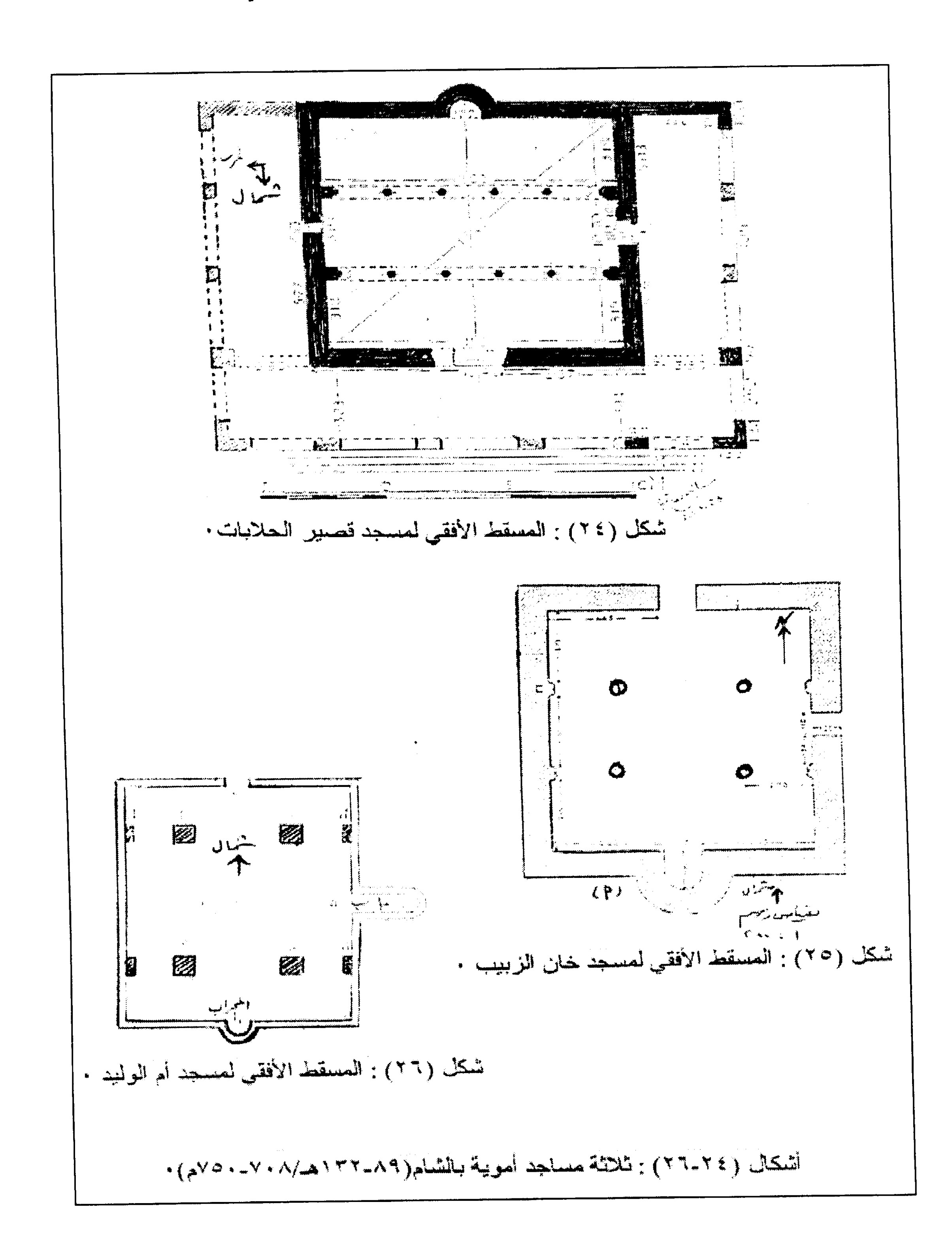
الطراز الثالث : طراز المسجد غير التقليدي(ذو الأروقة دون الصحن)٠



شكل (٢٢) : المسقط الأفقي لمسجد جواثى بالإحساء بالمنطقة الشرقية بالسعودية
(عن: علي صالح المغنم)٠



شكل (٢٣) : المسقط الأفقي لمسجد المنطقة السكنية الجنوبية بالربذة٠(القرن٣هـ/٩م)
(عن: سعد الراشد)٠

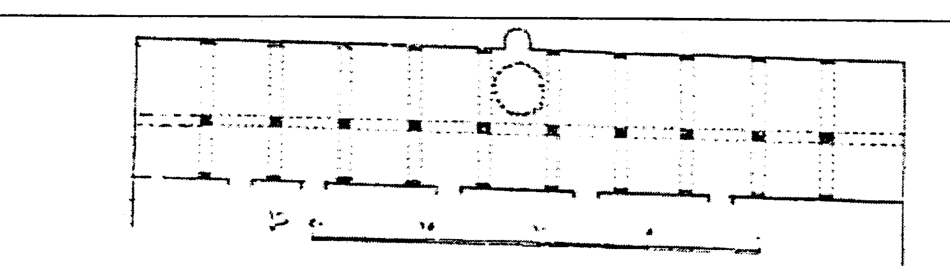


شكل (٢٤) : المسقط الأفقي لمسجد قصير الحلابات.

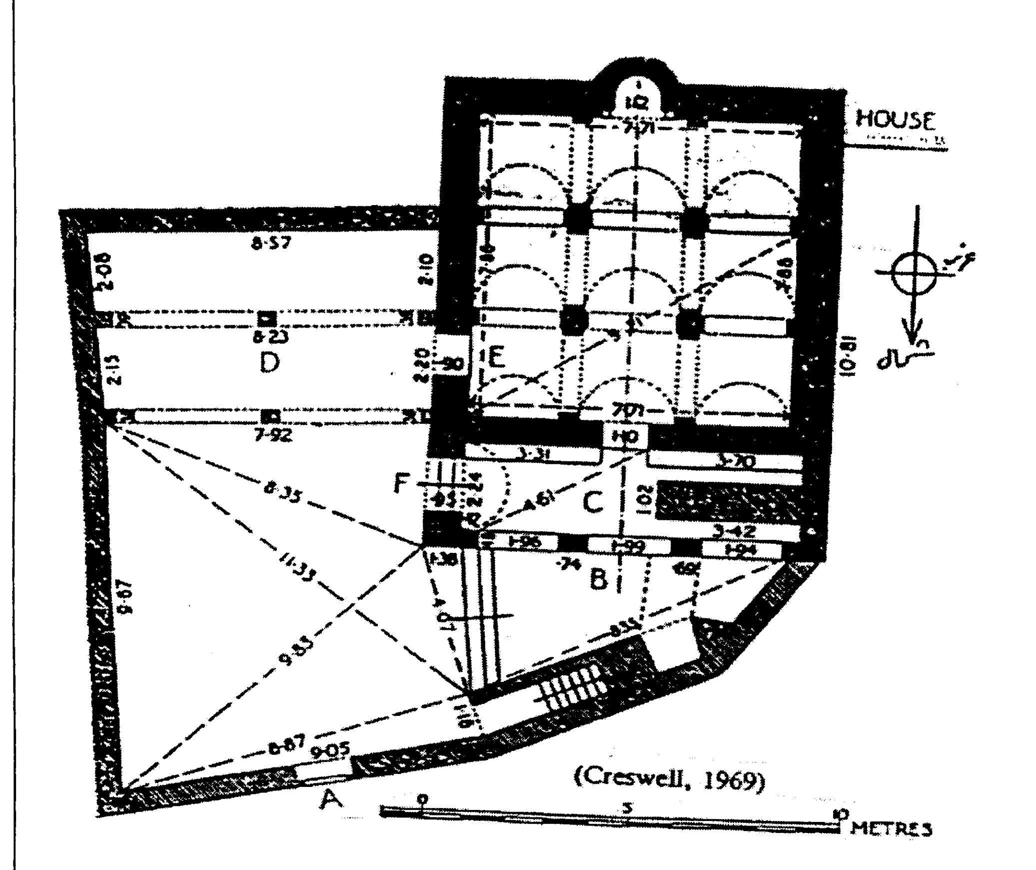
شكل (٢٥) : المسقط الأفقي لمسجد خان الزبيب.

شكل (٢٦) : المسقط الأفقي لمسجد أم الوليد.

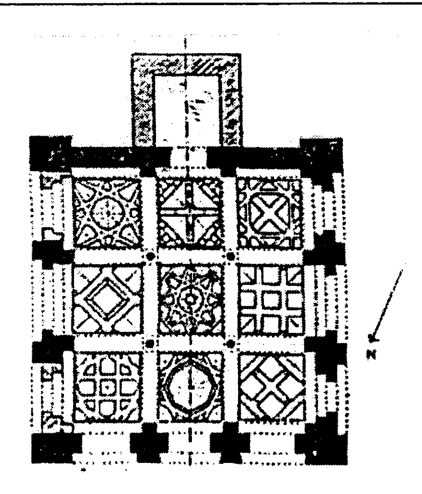
أشكال (٢٤-٢٦) : ثلاثة مساجد أموية بالشام(٨٩-١٣٢هـ/٧٠٨-٧٥٠م).



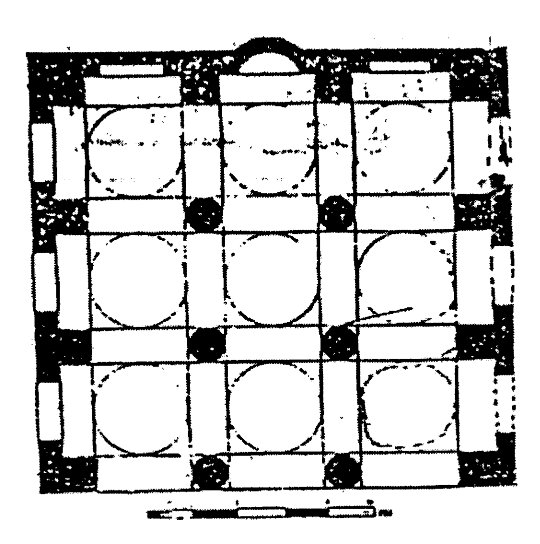
شكل (٢٧) : المسقط الأفقي لمسجد رباط سوسة في عهد زيادة الله الأغلب (٢٠٦هـ/٨٢١م)٠ (عن: أحمد فكري)٠



شكل (٢٨) : المسقط الأفقي لمسجد بوفتاتة في سوسة(٢٢٣-٢٢٦هـ/٨٣٨-٨٤١م)٠ (عن: كريزويل)٠



شكل (٢٩) : مسقط أفقي لمسجدالباب المردوم بطليطلة (٣٩٠هـ/٩٩٩-١٠٠٠م).
(عن : أسامة طلعت)



شكل (٣٠) : مسقط أفقي لمسجد بلخ في أفغانستان(الربع الثاني من القرن٣هـ/٩م)
(عن: GOLOMBEK).

التعليقات

(١) عبدالرحمن الأنصاري، *قرية "الفاو"، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية* (جامعة الرياض، ١٣٧٧-١٤٠٢هـ)، ١٨.

(٢) سعد عبدالعزيز الراشد، *الربذة، صورة للحضارة العربية المبكرة في المملكة العربية السعودية*، جامعة الملك سعود (الرياض: ١٤٠٥هـ)، ٤٦- ٤٧.

(٣) عن المدينة المنورة وتطورها العمراني وتراثها المعماري أنظر: صالح لمعي مصطفى، *المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري* (بيروت: ١٩٨١م).

(٤) عن هذه المساجد أنظر: سعد عبد العزيز الراشد: "الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ﷺ" (ضمن *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين*، الجزء الثاني)، جامعة الملك سعود (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١٤٧- ١٤٨.

(٥) حسن الباشا: *المدخل إلى الآثار الإسلامية* (القاهرة: ١٩٩٦م)، ١٠٨.

(٦) حسن الباشا: "أثر عمارة عثمان بن عفان ﷺ في المسجد الحرام في تخطيط المساجد وفي العمارة الإسلامية" (ضمن *الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين*، الجزء الثاني)، جامعة الملك سعود (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢٣٥.

(٧) قرآن كريم، سورة الأحزاب، آية ٢١.

(٨) *مسند أحمد بن حنبل*، تحقيق: محمد ناصر الألباني، الجزء الرابع، ٢١.

(٩) فريد شافعي، *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، المجلد الأول، عصر الولاة (القاهرة: ١٩٧٠م)، ٣٧٣؛ *العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها*، (الرياض: ١٩٨٢م)، ١٠، ٨٢ .

(١٠) محمد محمود أمين: "دور البيئة الجغرافية في ضوء أنماط العمارة التقليدية بالمملكة العربية السعودية"، *مجلة الدارة*، العدد الثاني، السنة ٢٢، ربيع الثاني (١٤١٧هـ)، ١٤٩- ١٥٢.

(١١) محمد عبدالله النويصر: "خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية"، *مجلة الدارة المئوية*، مجلة الدارة المئوية، السعودية (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٢١.

(١٢) محمد هزاع الشهري، *عمارة المسجد النبوي منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكي*، ط١ (دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ٣٤- ٣٥.

(١٣) صالح لمعي، *المدينة المنورة*، ٦٥.

(١٤) يعتبر مهندس جامع الأقمر (٥١٩هـ/ ١١٢٥م) في العصر الفاطمي أول من احترم خط تنظيم الطريق، والتزم باتجاه القبلة في نفس الوقت. آمال العمري، علي الطايش، *العمارة في مصر الإسلامية (العصرين الفاطمي والأيوبي)* (القاهرة: ١٩٩٦م)، ٨٧- ٨٨، شكل ٤٢.

(١٥) أحمد فكري، *مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل* (القاهرة: ١٩٦٢م)، ٢٩٣- ٣١٧.

(١٦) علي الطايش، "العمارة الجركسية الباقية بشارعي الخيامية والسروجية"، مخطوط رسالة دكتوراه بكلية الآثار- جامعة القاهرة (١٩٨٩م)، ٣٠١- ٣٠٨.

(١٧) محمد الكحلاوي، "القيم الدينية وأثرها في تخطيط عمارة المساجد" *بحوث في الآثار الإسلامية في المغرب والأندلس*، الجزء الأول (القاهرة: ١٩٩٩م)، ٥٤- ١٢٠.

(١٨) علي الطايش، "طرز المساجد السلجوقية ببلاد الأناضول (٤٧٠- ٧٠٨ هـ / ١٠٧٧- ١٣٠٨م)"، ندوة *الآثار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي* من ٣٠ نوفمبر - ١ ديسمبر ١٩٩٨م، كلية الآثار- جامعة القاهرة، ٢١٨.

(١٩) عبدالقدوس الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، السعودية ١٩٧٣م، ١٠٤؛ حسني نويصر، *الآثار الإسلامية* (القاهرة: ١٩٩٦م)، ٤٢، شكل ١.

(٢٠) عبدالقادر الريحاوي، *العمارة في الحضارة الإسلامية* (جدة: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ٧٢.

(٢١) شريف يوسف، *تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور* (العراق: ١٩٨٢م)، ٢٣٠-٢٣١؛ غازي محمد رجب، *العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق* (بغداد: ١٩٨٩م)، ٥٥.

(٢٢) عبدالقادر الريحاوي، *العمارة في الحضارة*، ٢٩-٣١.

(٢٣)

(٢٤) أحمد فكري، *المدخل*، ٢٠٣- ٢٠٩.

(٢٥) أوقطاي أصلان آبا، *فنون الترك وعمائرهم*، ترجمة أحمد محمد عيسى (أستانبول: ١٩٨٧م)، ٩٢.

(٢٦) علي الطايش، *طرز المساجد السلجوقية*، ٢١٧- ٢١٨.

(٢٧) عن هذا المسجد انظر هامش رقم (٥٩) من البحث.

(٢٨) صالح لمعي، *المدينة المنورة*، ٦٢- ٦٦.

(٢٩) عبدالقدوس الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*، ١٠٤.

(٣٠) فريد شافعي، *العمارة العربية*، ٣٧٣.

(٣١) SAUVAGET (JEAN), *LA MOSQUÉE DE MEDINE*, PARIS 1947, FIG.5.

(٣٢) السمهودي (نور الدين علي بن أحمد) (توفي ٩١هـ/ ١٥٠٥م)، *رحلة ابن جبير*، ط٢ (بيروت: ١٩٨٦م)، ١٥٢.

(٣٣) ابن عبدربه (أبو عمر أحمد بن محمد) (توفي ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، *العقد الفريد*، تحقيق: أحمد أمين وآخرون، ط٣ (القاهرة: ١٩٦٨م)، ٦: ٢٦٠.

(٣٤) محمد حمزة الحداد، "عمارة المسجد النبوي الشريف، دراسة جديدة في ضوء مشاهدات ابن عبدربه الأندلسي"، *الجمعية التاريخية السعودية*، الإصدار الأول (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٣٢.

(٣٥) سوسن سليمان، *آثارنا الإسلامية، العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول* (القاهرة: ٢٠٠٠م)، ٦٤.

(٣٦) عبدالقادر الريحاوي، *العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية* (دمشق: ١٩٧٩م)، ٧٥.

(٣٧) أحمد فكري، *المدخل*، ٨٧.

(٣٨) ومن أمثلته في القاهرة في العصر الفاطمي كما في كل من الجامع الأزهر (٣٥٩- ٣٦١هـ/ ٩٧٠- ٩٧٢م)، والجامع الحاكم بأمر الله (٣٨٠-٤٠٣هـ/ ٩٩٠-١٠١٣م).

(٣٩) مصطفى شيحة، *مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية* (القاهرة: ١٩٧٨م)، ٢٩.

(٤٠) سعد الراشد، *الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية*، ١٥٢، ويؤكد هذا ما ذكره الرازي في كتابه: "أنه لما توجه فروة بن مسيك

المرادي إلى صنعاء ومخالفيها وحضرموت بأمر الرسولﷺ، أمره أن يبني مسجد صنعاء ....". الرازي (أبو العباس أحمد بن عـــبدالله الصنعائي) (توفى ٤٦٠هــ/١٠٦٧م)، *تاريخ صنعاء*، تحقيق: حسين العمري، ط٢ (١٩٨١م)، ٤٩٩؛ القاضي حسين احمد ا لسياغي، *معالم الآثار اليمنية* (صنعاء: ١٣٨٠هــ)، ١٣؛ محمد بن أحمد الحجري، *مساجد صنعاء* (بيروت: ١٣٩٨هــ)، ٢٣- ٣٢.

(٤١) مصطفى شيحة: **مدخل إلى العمارة**، ص٣٠-٣١، شكل ٢، لوحات ١- ٧.

(٤٢) الـــربذة إحدى المدن الإسلامية المهمة التي تقع بين نجد والحجاز، وقد ارتبط أسمها بالصحابي أبي ذر الغفاري الذي سكنها سنة ٣٠هـــــ/٦٥١-٦٥٢م (أي زمن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، وتوفى بها سنة ٣٢هــ / ٦٥٢م. وتذكر المصادر التاريخية أنه اخـــتط بهـــا مسجداً، كما ذكرت أن هناك مسجد آخر بالمدينة، وأن أحدهما مسجدًا جامعًا. وقد كشفت الحفائر الأثرية عن مسجدين بالربذة: أحدهما في الناحية الغربية، والآخر في المنطقة السكنية الجنوبية. سعد الراشد: **الربذة**، ٢٩، ٤٦.

(٤٣) محمد بن سالم العوفي، *تطور عمارة وتوسعة المسجد الحرام في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود*، جامعة الإمام (من ينابيع الثقافة ٢٠) (السعودية: ١٤١٩هــ/ ١٩٩٨م)، ٢١.

(٤٤) المعهد العربي لإنماء المدن، *المساجد في المدن العربية*، توطئة لموسوعة المساجد (١٤١٠هــ)، ٧١.

(٤٥) حسن الباشا: "أثر عمارة عثمان"، ٢٤١.

(٤٦) غازي رجب محمد، *العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق* (بغداد: ١٩٨٩م)، ٥٨.

(٤٧) ابن جبير، *الرحلة*، ١٩٧ — ١٩٨.

(٤٨) أحمد فكري، *المدخل*، ٢٢١، شكل ٩١.

(٤٩) غازي رجب، *العمارة العربية*، ١٠٠، شكل ٣٣.

(٥٠) وهي الفترة التي اتخذت فيها حران عاصمة للخلافة الأموية في عهد الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. أحمد فكري، *المدخل*، ٢٢٥، شكل ٩٣.

(٥١) غازي رجب، *العمارة العربية*، ١٠٠، شكل ٤٢.

(٥٢) فريد شافعي، *العمارة العربية*، ٢٥، شكل ٣٢.

(٥٣) حسن عبدالوهاب، *تاريخ المساجد الأثرية*، جزءان، القاهرة ١٩٤٦م، ٣٤- ٣ ٥.

(٥٤) جفـــري كـــنج، *دراسة للمساجد في المملكة العربية السعودية*، ترجمة أحمد أبو القاسم، (المنهل، العدد٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨)، ١٤٠٧هـــــ/ ١٩٨٧م، ص٢٨٥، خلـــيل بن إبراهيم المعيقل، "الآثار الإسلامية في منطقة الجوف" *بحوث في آثار منطقة الجوف* (السعودية: ١٤٢٢هــ)، ٩٨.

(٥٥) المرجع نفسه، ١٢٨، شكل ٢.

(٥٦) المرجع نفسه، ١٢٧ — ١٤٢.

(٥٧) سوسن سليمان، *آثارنا الإسلامية*، ٩٨، شكل ٢٧.

(٥٨) عبدالقادر الريحاوي، *العمارة العربية*، ٤٧- ٥٦، شكل ٤.

(٥٩) انتقل هذا النمط المتطور في الجامع الأموي إلى مشرق العالم الإسلامي، وظهر في المساجد الأولى التي شيدها سلاجقة الأناضول، ومـــن أقدم أمثلتها الباقية: جامع ديار بكر (٤٨٤هــ / ١٠٩١-١٠٩٩م)، واستطاع السلاجقة أن يطوروا أيضا بدورهم هذا

النمط، وذلك بأنهم اكتفوا ببناء قبة أعلى المحراب، واستغنوا عن المجاز القاطع، ويتضح هذا التطور في: جامع دنيصر (٦٠١هـ / ١٢٠٤م). وقد ظهر هذا النمط الأخير المتطور في مسجد البطالية بمحافظة الإحساء بالمنطقة الشرقية بالسعودية حاليا (٤٦٩-٦٠١هـ / ١٠٧٦ – ١٢٠٤م) (شكل ١٧) (خريطة ١). وعن هذا المسجد انظر: فهد بن علي الحسين، *الآثار الإسلامية بقرية البطالية بالمنطقة الشرقية، دراسة في آثارها وعلاقتها بمدينة الإحساء التاريخية* (الرياض: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ١٥٠، شكل ١٢.

(٦٠) أحمد فكري، *المدخل*، ١٧٩.

(٦١) ابن جبير، *المدخل*، ١٧٥.

(٦٢) أحمد فكري، *المدخل*، ٢٨٤، شكل ١٠٧.

(٦٣) شريف يوسف، *تاريخ فن العمارة العراقية*، ٣٢٤- ٣٣٣، مخطط ٦١.

(٦٤) غازي رجب، *العمارة العربية*، ١٥٨- ١٧٦، شكل ٧٣.

(٦٥) عن هذه المنطقة ومسجدها، انظر: علي بن صالح المغنم، *"موقع جواثي ومسجدها، دراسة آثارية"*، مخطوط رسالة بجامعة الملك سعود -كلية الآداب- قسم الآثار والمتاحف، ١٤٢٠-١٤٢١هـ.

(٦٦) جفري كنج: *دراسة للمساجد*، ٢٨٨.

(٦٧) وتذكر المصادر التاريخية بأن هذا المسجد هو أول مسجد تقام فيه صلاة الجمعة بعد المسجد النبوي . سعد الراشد: "الآثار الإسلامية في الجزيرة"، ص ١٤٨، هامش ٢١.

(٦٨) علي بن صالح المغنم: "موقع جواثي"، ص٤٢، شكل ٨.

(٦٩) سعد الراشد، *الربذة*، ٤٧.

(٧٠)

CRESWELL (K.A.C.) , *EARLY MUSLIM ARCHITECTURE* . OXFORD,1932, PP. 287- 289, FIGS. 331 - 336

(٧١) محمد حمزة الحداد: "التخطيط غير التقليدي للمساجد في الأندلس، دراسة تحليلية مقارنة لأصوله وتطوره في العمارة الإسلامية"، *مجلة دراسات آثارية إسلامية*، المجلد الخامس (القاهرة: ١٩٩٥م)، ١٤٩- ١٨٥.

(٧٢) محمد توفيق بلبع، *نشأة الرباط وتطوره، وأهمية نظام المرابطة في تاريخ المسلمين* (الأسكندرية: ١٩٦٨م)، ص٤٩.

(٧٣) أحمد فكري، *المدخل*، ٢٥٣- ٢٥٤، شكل ١٠٤، CRESWEL (K.A.C.)
A SHORT ACCOUNT OF EARLY MUSLIM ARCHITECTURE. OXFORD, 1958, PP. 50-51, FIG. 9

(٧٤) أسامة طلعت عبد النعيم، *الموجز في العمارة الأندلسية* (القاهرة: د. ت)، ٢٤، شكل ١٤.

(٧٥) محمد حمزة الحداد، *العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العثماني حتى عهد محمد علي*، المدخل (القاهرة: ١٩٩٢م)، ٢١.

مسكوكات الخارجين على الخلافة العباسية في الجزيرة العربية
(منذ قيام الخلافة وحتى نهاية القرن الرابع الهجري)

فرج الله أحمد يوسف

دار القوافل – الرياض

ظهرت في عهد الخلافة العباسية العديد من الدول المستقلة منها على سبيل المثال: دولة الأغالبة (١٤٨- ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ - ٩٠٩م)، والدولة الزيادية (٢٠٤- ٤١٢هـ/ ٨١٩- ١٠٢١م)، والدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢٠ - ٨٧٢م)، والدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢هـ/ ٨٦٨- ٩٠٥م)، وكانت المستقلة تعترف بالخلافة العباسية وتدين بالولاء للخلفاء العباسيين فتدعو لهم على المنابر وتسجل أسمائهم على المسكوكات.

لكن الخارجين على الخلافة العباسية لم يعترفوا بسلطة الخلافة العباسية فهم استقلوا بالحكم وشاراته فأوقفوا الدعاء للخلفاء العباسيين على المنابر، و لم يسجلوا أسمائهم على المسكوكات، بل إن بعضهم قد تلقب بأمير المؤمنين، ومن الخارجين على الخلافة العباسية في الجزيرة العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري:

- إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي.
- دولة بني الرسي.
- دولة الأباضية.

١ – إبراهيم بن جعفر العلوي

خرج على الخلافة العباسية في اليمن أثناء خلافة عبدالله المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣- ٨٣٣م)، ولما عين الخليفة المأمون أخاه علي الرضا وليًا للعهد سنة ٢٠١هـ/ ٨١٧م عاد إلى كنف الخلافة العباسية، لكنه ما لبث أن عاود الخروج بعد وفاة أخيه سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٩م، وضرب إبراهيم المسكوكات باليمن أثناء خروجه على الخلافة العباسية، ومنها درهم ضرب سنة ٢٠٠هـ نقش عليه اسمه، وجزء من الآية ٨١ من سورة الإسراء ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.[1]

٢ – دولة بني الرسي

شهدت سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م ثورة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن

أبي طالب على الخليفة المأمون بالكوفة واستمرت الثورة من جمادى الأولى سنة ١٩٩هـ/ ديسمبر ٨١٤م وانتهت في ذي القعدة من السنة نفسها، وكان محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا قد مات أثناء تلك الثورة في رجب سنة ١٩٩هـ/ مارس ٨١٥م وبعد موته بدأ أخوه القاسم بن إبراهيم الدعوة لنفسه وأرسل دعاته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والري وقزوين وطبرستان فأثارت تحركاته الخليفة العباسي المأمون(١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣- ٨٣٣م) الذي أمر بالقبض عليه ففر القاسم إلى فارس ومنها إلى مصر ثم أقام في الرس بالحجاز حتى صار ينسب إليها واشتهر بالقاسم الرسي، ويذكر المؤرخون أن القاسم لم يستقر في الرس طويلاً فما لبث أن فر من الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤٢م)، واستقر به المقام بالهند حتى وفاته سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م.[٢]

لكن تم العثور على شاهد قبر القاسم الرسي والشاهد مؤرخ في شوال سنة ٢٤٦هـ، مما يؤكد أنه مات ودفن بالرس في التاريخ المدون على الشاهد، و لم يمت بالهند في سنة ٢٤٥هـ كما أجمع على ذلك المؤرخون.[٣]

وظل أبناء القاسم وأحفاده يقيمون في الرس[٤] وفي سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م قدم وفد من قبائل خولان بصعدة إلى يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي وطلبوا منه التوجه معهم إلى اليمن ليولوه أمرهم فذهب إلى هناك لكنه ما لبث أن عاد إلى الرس بعد اختلافه مع أهل صعدة الذين قاموا بإرسال وفد آخر لمقابلته وإقناعه بالعودة إلى صعدة مرة أخرى في سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م حيث تولى الحكم مؤسسًا بذلك دولة بني الرسي، وتلقب بالهادي إلى الحق واستمر في الحكم حتى وفاته في ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ/أغسطس ٩١١م.[٥]

مسكوكات الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين:

ضرب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم المسكوكات ويعود أقدمها في ضوء ما وصلنا إلى سنة ٢٨٨هـ ومنها دينار محفوظ في إحدى المجموعات الخاصة لم يسبق نشره وأقوم بنشره في هذا البحث للمرة الأولى، ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعا سنة ثمان وثمانين ومائتين.

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: مركز: الهادي إلى

الحق أمير

المؤمنين بن

رسول الله

هامش: قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ونزل من القرآن ما هو شفاء.

الوزن: ٢,٩ جم القطر: ١٧ملم *(اللوحة رقم ١)*

وتتشابه نصوص كتابات هذا الدينار مع دينار آخر محفوظ في متحف قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب جامعة الملك سعود[٦] وكان الهادي إلى الحق ضم صنعاء إلى حكمه منذ سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م لكنه ما لبث أن أخرج منها وعاد إليها مرة أخرى في المحرم سنة ٢٨٨هـ/ يناير ٩٠١م بمساعدة أحد أعيانها ويدعى أبو العتاهية بن الروية المذحجي، وأشار بعض المؤرخين إلى دخول الهادي إلى الحق صنعاء سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م وقيامه بضرب الدنانير والدراهم بها: (...ثم أن أبا العتاهية بن الروية المذحجي استدعى الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من صعدة إلى صنعاء فدخلها في المحرم سنة ثمان وثمانين فدعا الهادي إلى نفسه فبايعه الناس وضرب اسمه على الدينار والدرهم وكتب الطراز ووجه عماله إلى المخاليف فقبضوا الأعشار...).[٧]

وولى الهادي إلى الحق على صنعاء أحد أبناء عمومته ويدعى علي بن سليمان لكن أهل صنعاء ما لبثوا أن طردوه وأخرجوا عامل الخليفة العباسي من السجن، وأعيدت الخطبة في صنعاء للخليفة العباسي المعتضد بالله، لكن الهادي إلى الحق ما لبث أن استرد صنعاء في رجب سنة ٢٨٨هـ/يوليو ٩٠١م.[٨]

ونقش الهادي إلى الحق على دنانيره المضروبة في صنعاء سنة ٢٨٨هـ الآية ٨١ -٨٢ من سورة الإسراء ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ وظهرت هذه الآية لأول مرة على المسكوكات الإسلامية عندما نقشها إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على دراهمه المضروبة بالبصرة سنة ١٤٥هـ أثناء خروجه وأخيه محمد النفس الزكية على الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور، وهي تعبر عن سخط العلويون على العباسيين الذين استثمروا مكانة العلويين لدى الناس أثناء الثورة على الخلافة الأموية لكنهم استأثروا بالخلافة وتنكروا للعلويين وأبعدوهم عن الحكم ولذلك كان محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم يعدان خروجهما على الخلافة العباسية انتصارًا للحق على الباطل.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الآية شعارًا رفعه العلويون على مسكوكاتهم فقد نقشت الآية على مسكوكات مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ - ١٧٧هـ/ ٧٨٩ - ٧٩٣م)، ثم على مسكوكات ابنه وخليفته إدريس بن إدريس بن عبدالله (١٨٧ - ٢١٣هـ/ ٨٠٢ - ٨٢٨م)[٩].

ومن مسكوكات الهادي إلى الحق دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٦هـ وهو محفوظ في دار الآثار الإسلامية بالكويت(١٠)، ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصعدة سنة ست وتسعين ومئتين.

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: مركز: الهادي إلى

الحق أمير

المؤمنين

بن رسول الله

هامش: قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ونتزل من القرآن ما هو شفاء.

الوزن: ٢,٨٢جم القطر: ٢١ملم *(اللوحة رقم ٢)*

كما ضرب الهادي إلى الحق سلسلة من الدنانير في صعدة سنة ٢٩٨هـ منها دينار محفوظ في إحدى المجموعات الخاصة لم يسبق نشره وأقوم بنشره في هذا البحث للمرة الأولى، ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينر بصعدة سنة ثمان وتسعين ومئتين.

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: مركز: الهادي إلى

الحق أمير

المؤمنين

بن رسول الله

هامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

الوزن: ٢,٨٩ جم القطر: ١٨ملم *(اللوحة رقم ٣)*

وتتشابه نصوص كتابات هذا الدينار مع ثمانية دنانير محفوظة في المتحف البريطاني، ومتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ومتحف قطر الوطني، وإحدى المجموعات الخاصة:

- دينار محفوظ في المتحف البريطاني، ويبلغ وزنه ٢,٩١جم وقطره ١٢ملم. *(اللوحة رقم ٤)*
- دينار محفوظ في متحف قطر الوطني ويبلغ وزنه ٢,٩٠جم وقطره ٢٠ملم.
- دينار محفوظ في المتحف البريطاني، ويبلغ وزنه ١,٥٨جم وقطره ١٤ملم.
- دينار محفوظ في المتحف البريطاني ويبلغ وزنه ٢,٩٠جم وقطره ١٩ملم.[١١]
- ثلاثة دنانير محفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.[١٢]

وجاءت المأثورات المسجلة على هذه الدنانير مطابقة لما سجل على المسكوكات العباسية حيث كتب بمركز الوجه شهادة التوحيد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، والرسالة المحمدية (محمد رسول الله) وبالهامش الداخلي مكان وتاريخ الضرب وبالهامش الخارجي الآية ٤، ٥ من سورة الروم ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ﴾ وهي الآية التي ظهرت على المسكوكات العباسية في عهد الخليفة المأمون حيث نقشت على الدراهم منذ سنة ١٩٩هـ وعلى الدنانير منذ سنة ٢٠٦هـ.[١٣]

وسجل على مركز الظهر ألقاب الهادي إلى الحق (الإمام الهادي إلى الحق أمير المؤمنين بن رسول الله)، ويتضح بذلك أن الهادي إلى الحق لم يكتف بالخروج على الخلافة العباسية وتأسيس دولة مستقلة عنها بل تسمى بإمرة المؤمنين ويعد بذلك أول من أسس خلافة إسلامية تنافس الخلافة العباسية وسبق بذلك الفاطميين الذين أعلنوا قيام خلافتهم سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م.

وظهر اسم الهادي إلى الحق مقترنًا بلقب أمير المؤمنين على المسكوكات منذ سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م ، وإضافة إلى لقب أمير المؤمنين سجل الهادي إلى الحق على مسكوكاته لقب آخر هو "ابن رسول الله" وهو بهذا يؤكد أنه من

أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ظهر الاختصار في النسب على المسكوكات الإسلامية من قبل فعندما عين الخليفة العباسي المأمون علي الرضا في ولاية العهد نقش اسمه على الدراهم على النحو التالي: "علي بن موسى بن علي بن أبي طالب" مختصرًا النسب الذي يربطه بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١٤]. بينما سجل على هامش الظهر الآية ٣٣ من سورة التوبة "محمد رسول الله أرسله " ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وإذا كانت الآية ٨١- ٨٢ من سورة الإسراء قد ظهرت على دنانير الإمام الهادي المضروبة في صنعاء سنة ٢٨٨هـ فإنها قد نقشت أيضًا على مسكوكاته المضروبة في صعدة سنة ٢٩٨هـ، ومنها دينار محفوظ في مجموعة عبدالمجيد الخريجي[١٥]، ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينر بصعدة سنة ثمان وتسعين ومئتين.

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: مركز: الهادي إلى

الحق أمير

المؤمنين

بن رسول الله

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ونزل من القرآن ما هو شفاء. ***(اللوحة رقم ٥)***

وتتشابه نصوص كتابات هذا الدينار مع دينار محفوظ في متحف الآثار بأسطنبول [١٦]، وتم المزج في كتابات الدينارين بين المأثورات التي سجلت على المسكوكات العباسية مثل الآية ٤-٥ من سورة الروم (لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)، والمأثورات الخاصة بمسكوكات بني الرسي مثل الآية ٨١-٨٢ من سورة الإسراء ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾، وفي المقابل ضربت دنانير بصعدة لم يظهر عليها إلا الآية ٨١- ٨٢ من سورة الإسراء ومنها دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨هـ محفوظ في المتحف العراقي نصوص كتاباته كما يلي[١٧]:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدينر بصعدة سنة ثمان وتسعين ومئتين.

الظهر: مركز: الهادي إلى

الحق أمير

المؤمنين

بن رسول الله

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ونزل من القرآن ما هو شفاء.

كما ضرب الهادي إلى الحق سلسلة من الدراهم في صعدة (هي في الحقيقة من فئة سدس درهم لأن وزنها يتراوح بين ٠,٤٦ إلى ٠,٩٥ جرام، واستمر خلفاء الهادي في ضرب هذه الدراهم بالوزن نفسه تقريبًا)، وسجل عليها الآية ٨١- ٨٢ من سورة الإسراء فقط وتتشابه نصوص كتاباتها على النحو التالي[١٨]:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بصعدة.

الظهر: مركز: الهادي إ

لي الحق أمير

المؤمنين

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. (الشكل رقم ١)

وعـــاد الهـــادي إلى الحق إلى صنعاء مرة أخرى وتمكن من استعادتها وضمها إلى حكمه سنة ٢٨٩هـــ/ ٩٠٢م وظلت خاضعة له حتى استولى عليها القرامطة سنة ٢٩٣هـــ/ ٩٠٦م لكنه ما لبث أن عاد إليها في السنة التالية لكنه طرد منها وبقيت خاضعة للقرامطة حتى سنة ٢٩٧هـــ/ ٩١٠م عندما أرسل الهادي أحد قادته ويدعى محمد بن علي العباســـي فـــتمكن من طرد القرامطة منها(١٩)، ويبدو أنها قد ظلت تحت حكم الهادي إلى الحق إلى سنة ٢٩٨هـــ/ ٩١١م فقـــد ضـــرب بها دينارًا تلك السنة وهو محفوظ بالمتحف البريطاني لم يسبق نشره وأقوم بنشره في هذا البحث للمرة الأولى ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: لا إله إلا الله

محمد رسول الله

الهادي إلى الحق

أمير المؤمنين

هامش: بسم الله ضرب هذا الدينر بصنعاء سنة ثمان وتسعين ومئتين.

الظهر: مركز: قل هو الله أحد

الله الصمد لم يلد

و لم يولد و لم يكن

له كفوا أحد

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ونترل من القرآن ما هو شفاء.

الوزن: ٢,٩٢جم القطر: ١٨ ملم *(اللوحة رقم ٦)*

وتمـــيز هـــذا الطـــراز من مسكوكات الهادي بنقش سورة الإخلاص التي كانت قد ظهرت على المسكوكات الإسلامية منذ تعريبها سنة ٧٧هـــ لكنها لم تظهر على المسكوكات العباسية وأن كانت قد نقشت على مسكوكات بعض الدول التابعة للخلافة العباسية، وعلى مسكوكات الخارجين عليها.

ذكـــر المؤرخـــون أن الإمـــام الهادي كان يسيطر على مناجم الذهب والفضة في اليمن، ومن المناجم التي كان يستغلها معدن ضنكان ومعدن الرضراض، وتضيف روايات المؤرخين أن العيار العلوي الصعدي من أهم العيارات في الإسلام، هذا على الرغم من أن دنانير الهادي إلى الحق يتراوح وزنها ما بين ١,٥٨ إلى ٢,٩١ جرام وهي بذلك تقل كثيرًا عن الوزن الشرعي للدينار الإسلامي وهو ٤,٢٥ جرام.

مسكوكات الإمام الراضي بالله محمد بن يحيى:

بعــد وفــاة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي في ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ/ أغسطس ٩١١م خلفه ابنه الراضي بالله حتى تنازله عن الحكم في ذي القعدة سنة ٣٠٠هـ/ يونيو ٩١٣م.[٢٠]

ضـرب الراضـي بالله المسكوكات أثناء فترة حكمه، ومنها دينار ضرب صعدة محفوظ في المتحف البريطاني، ونصوص كتاباته كما يلي[٢١]:

الوجه: مركز: لا إله إلا الله

محمد رسول الله

الراضي بالله

أمير المؤمنين

هامش: بسم الله ضرب هذا الدينر بصعدة سنة... ... .

الظهر: مركز: قل هو الله أحد

الله الصمد لم يلد

ولم يولد ولم يكن

له كفوا أحد

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ونترل من القرآن ما هو شفاء.

الوزن: ١,٩٥جم　　القطر: ٢٣ملم

ومن مسكوكات الراضي سدس درهم ضرب صعدة نصوص كتاباته كما يلي[٢٢]:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بصعدة.

الظهر: مركز: الراضي

بالله أمير

المؤمنين

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. (الشكل رقم ٢)

ورغم أن المؤرخين قد ذكروا أن لقب محمد بن يحيى بن الحسين هو المرتضي وليس الراضي بالله حيث جاء في كتاب غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: (... الإمام المرتضي أبوالقاسم محمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم...)[٢٣] لكن لقبه كتب على الدنانير والدراهم: "الراضي بالله" مما يؤكد أنه اللقب الصحيح لأن المسكوكات تعد وثائق تاريخية هامة لا تتعرض للتصحيف أو الخطأ الذي تعاني منه كتب المؤرخين.

مسكوكات الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى:

بعد تنازل الراضي بالله عن الحكم في ذي القعدة سنة ٣٠٠هـ/ يونيو ٩١٣م ظلت دولة بني الرسي بلا حاكم حتى قدم أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم إلى صعدة من الحجاز حيث كان يقيم فبايعه أخيه الراضي بالله وعامة الناس في محرم سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م وتلقب بالناصر لدين الله واستمر في الحكم حتى وفاته في جمادى الآخرة سنة ٣٢٢هـ/ يونيو ٩٣٤م.[٢٤]

ضرب الناصر لدين الله المسكوكات ولا نعرف منها حتى الآن في ضوء ما وصلنا إلا الدراهم ومنها سدس درهم محفوظ في المتحف البريطاني لم يسبق نشره وأقوم بنشره في هذا البحث للمرة الأولى، ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بصعدة.

الظهر: مركز: الناصر لد

ين الله أمير

المؤمنين

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

الوزن: ٠,٤٧جم القطر: ١٧ملم *(لوحة رقم ٧)*

مسكوكات الداعي إلى الحق يوسف بن يحيى بن الناصر لدين الله:

بعـد وفاة الناصر لدين الله أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم تولى الحكم ابنه يحيى فخرج عليه أخواه القاسم والحسـن واشـتعلت بينهم حروب طاحنة استمرت من سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م إلى سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م وانتهت الحـروب باتفـاق عامة أهل صعدة على مبايعة الحسن بن الناصر لدين الله لكن أخيه القاسم ما لبث أن خرج عليه فعـادت الدولـة للتنازع والاقتتال من جديد و لم تهدأ الأمور إلا بمبايعة يوسف بن يحيى بن أحمد الناصر لدين الله في صعدة سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م، ويشير مؤرخي دولة بني الرسي إلى أن يوسف لم يكن من الأئمة المعترف بهم بل كان داعـيًا فقط، ولهذا فإنه تنازل عن الحكم للإمام المنصور بالله[٢٥]، كما سنرى أنه الوحيد من أئمة بني الرسي الذي لم يسجل على مسكوكاته لقب: الإمام، واكتفى بتسجيل لقب الداعي إلى الحق رغم تلقبه بإمرة المؤمنين.

ضـرب يوسف الداعي إلى الحق المسكوكات ومنها دينار ضرب صنعاء سنة ٣٧٠هـ وهو محفوظ في متحف قطر الوطني، ونصوص كتاباته كما يلي[٢٦]:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينر بصنعا سنة سبعين وثلثمائة.

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: مركز: الداعي إلى

الحق أمير

المؤمنين يوسف

ابن رسول الله

هامش: جاء الحق وزهق الباطل عن الباطل كان زهوقا ونترل من القرآن ما هو شفاء. **(الشكل رقم ٣)**

سـجل يوسف الداعي إلى الحق اسمه ولقبه والتأكيد على نسبه الذي يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم كما أكـد مثل أسلافه منذ عهد الهادي إلى الحق على أنه خليفة وأميرًا للمؤمنين (الداعي إلى الحق أمير المؤمنين يوسف ابن رسول الله).

والديــنار من ضرب صنعاء التي لم تكن تابعة لدولة بني الرسي إلا أنهم كانوا غالبًا ما يسيطرون عليها من حين لآخــر ولتأكــيد هــذه السيطرة ضربوا بها المسكوكات، وكان يوسف الداعي إلى الحق قد استولى على صنعاء سنة ٣٩٦هــ/٩٨٠م لكنه طرد منها بواسطة بني زياد في السنة نفسها ويبدو أنه قد عاد إليها سريعًا وهذا ما يؤكده هذا الدينار المضروب بها سنة ٣٧٠هــ، ويعد يوسف الداعي إلى الحق أول حكام دولة بني الرسي الذي نقش اسمه ولقبه على المسكوكات فقد كان أسلافه يكتفون بنقش ألقابهم فقط، وظهر اسم ولقب يوسف الداعي إلى الحق على شريط كــتابي بقطعــة نسيج: (الداعي إلى الحق أمير المؤمنين يوسف بن يحيى بن الناصر أحمد بن رسول الله صلى الله عليهم أجمعين.)[٢٧]

مسكوكات الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني

قدم إلى صعدة سنة ٣٨٩هــ/ ٩٩٨م في عهد يوسف الداعي إلى الحق القاسم بن علي العياني، وتمكن من عزل يوســف الداعي إلى الحق وتولى الحكم بدلاً منه وتلقب بالمنصور بالله وظل في سدة الحكم حتى وفاته في رمضان سنة ٣٩٣هــــ/ يوليو ١٠٠٣م فعاد يوسف الداعي إلى الحق واعتلى العرش حتى وفاته في صفر ســنــة ٤٠٣هــ/ سبتمبر ١٠١٤م.[٢٨]

ضرب المنصور بالله المسكوكات ومنها دينار ضرب صنعاء سنة ٣٨٩هــ، والدينار محفوظ في متحف العملات بمؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض، ونصوص كتاباته كما يلي[٢٩]:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينر بصنعا سنة تسع وثمانين (وثلث مائة).

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله.

الظهر: مركز: لله

المنصور بالله

أمير المؤ

منين القسم

ابن رسول الله

هامش: جاء الحق وزهق الباطل عن الباطل كان زهوقا ونتزل من القرآن ما هو شفاء. (اللوحة رقم ٨)

ويوضح هذا الدينار سعى حكام دولة بني الرسي الحثيث من أجل السيطرة على صنعاء فقد بادر المنصور بالله بضمها إلى ملكه في نفس السنة التي استولى فيها على الحكم، وعند مقارنة هذا الدينار بالآخر الذي ضربه يوسف الداعي إلى الحق في صنعاء سنة ٣٧٠هـ نجد أن المنصور بالله قد سجل شعار دولة بني الرسي وهو الآية ٨١-٨٢ من سورة الإسراء، وقلد المنصور بالله الداعي إلى الحق في تسجيل اسمه ولقبه على الدينار *(المنصور بالله أمير المؤمنين القاسم ابن رسول الله)*.

وضرب المنصور بالله الدراهم في صعدة ومنها سدس درهم نصوص كتاباته كما يلي[٣٠]:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بصعدة.

الظهر: مركز: المنصور

بالله أمير

المؤمنين

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

ومن ما سبق يتضح لنا أن الإمام الهادي إلى الحق مؤسس دولة بني الرسي لم يكتف بالخروج على الخلافة العباسية فقط بل يعد أول من أقام خلافة منافسة لها، وسبق بذلك الفاطميين الذين أعلنوا قيام خلافتهم سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م. وقد نقش على مسكوكاته لقب أمير المؤمنين، وتبعه في ذلك خلفائه

وسجل الإمام الهادي إلى الحق على مسكوكاته لقب (ابن رسول الله)، ثم ظهر هذا اللقب على مسكوكات خلفائه في محاولة منهم للتأكيد على أنهم من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم بذلك أحق بالخلافة من بني العباس، وبينما اكتفي الإمام الهادي إلى الحق بتسجيل لقبه فقط على المسكوكات، وتبعه في ذلك الراضي بالله، والناصر لدين الله، فإن الإمام يوسف الداعي إلى الحق أول من سجل اسمه ولقبه على المسكوكات، وتبعه في ذلك الإمام المنصور بالله.

٣ - دولة الأئمة الأباضية في عُمان

الأباضية هم أتباع عبدالله بن أباض المري الذي خرج في أيام الخليفة الأموي مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ/ ٧٤٥ - ٧٥٠م)، تمكنت هذه الفرقة من تأسيس دولة في عُمان أثناء الصراع بين الأمويين والعباسيين على الخلافة فعملوا على توطيد أركان دولتهم، لكن بعد أن استتب الأمر للعباسيين أرسل الخليفة أبوالعباس السفاح جيشًا إلى عُمان بقيادة خازم بن خزيمة أوقع بالأباضية هزيمة منكرة وقتل إمامهم الأول الجلندا بن مسعود سنة ١٣٤هـ/ ٧٥٢م، وما لبث الأباضية أن أعادوا دولتهم و لم تتصدى لهم الخلافة العباسية مرة أخرى إلا في عهد هارون الرشيد (١٧٠ -١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م) الذي أرسل جيشًا انتصر عليه الأباضية.(٣١)

ومن أئمة الدولة الأباضية الإمام الوارث بن كعب الذي عاصر عهد الخليفة هارون الرشيد، وخلفه الإمام غسان ابن عبدالله الذي توفي في ذي القعدة سنة ٢٠٧هـ/ مارس ٨٢٣م، وبعد وفاة الإمام غسان بن عبدالله ظلت الإمامة شاغرة حتى بويع عبدالملك بن حميد في الثامن من شوال سنة ٢٠٨هـ/ ١٢فبراير ٨٢٤م، وتولى الإمامة بعده المهنا ابن جيفر الفجحي (٢٢٦ - ٢٣٧هـ/ ٨٤٠- ٨٥١م)، ثم تولى الإمامة بعده الإمام الصلت بن مالك حتى وفاته في ذي الحجة سنة ٢٧٥هـ/ أبريل ٨٨٩م.(٣٢)

وفي سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م أرسل الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ - ٩٠١م) إلى عُمان جيشًا بقيادة محمد بن أبي القاسم استطاع السيطرة عليها وإعادها تحت سيطرة الخلافة العباسية لكن الأباضية سرعان ما انتفضوا على الحكم العباسي وعادت دولتهم المستقلة بقيادة الإمام سعيد بن عبدالله، وخلفه في الحكم سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م الإمام راشد بن الوليد، ولا تذكر المصادر التاريخية أي من الأئمة حتى نهاية القرن الرابع الهجري إلا الإمام الخليل بن شاذان الذي لم تحدد المصادر التاريخية وقت توليته.(٣٣)

رغم أن الدولة الأباضية في عُمان قد تأسست مع بداية الخلافة العباسية إلا أن مسكوكاتها المعروفة حتى الآن قليلة ونادرة، ومن المسكوكات التي ضربت في عهد الدولة الأباضية:

- درهمان عثر عليهما في سناو بالمنطقة الشرقية بسلطنة عُمان، ولا يظهر عليهما مكان الضرب ولا تاريخه، أما الكتابات التي سجلت عليهما فهي: على الوجه شعار الخوارج: لا حكم إلا لله، وعلى الظهر: محمد رسول الله، ويبلغ وزن أحدهما ٢٩، جم وقطره ١٠ملم، أما الآخر فيبلغ وزنه ٣٦، جم وقطره ٩,٥ملم.(٣٤)
- درهم سجل عليه اسم الإمام رضوان بن جعفر، وتاريخ الضرب سنة ٣٤٥هـ، ومكان الضرب عُمان.(٣٥)
- درهم سجل عليه اسم الإمام رضوان بن جعفر، وتاريخ الضرب سنة ٣٤٨هـ، ومكان الضرب عُمان.(٣٦)
- درهم سجل عليه اسم الإمام رضوان بن جعفر، وهذا الدرهم محفوظ في متحف قطر الوطني، و لم يسبق نشره من قبل، ونصوص كتاباته كما يلي:

الوجه: مركز: ألا لا

لا إله إلا

(الله وحده)

(حكم إلا لله)

الظهر: مركز: رضوان

ولا توجد كتابات في هامشي الوجه والظهر، أو قد تكون هناك كتابات لكنها طمست. **(اللوحة رقم ٩)**

تعد الدراهم الثلاث الأخيرة من أهم المسكوكات التي ضربت في عهد دولة الأئمة الأباضية إذ أن اثنين منهما مؤرخين في فترة مضطربة من تاريخ الدولة، هذا و لم تذكر المصادر التاريخية اسم رضوان ن جعفر ضمن الأئمة الأباضية، وأجمعت على أن الإمامة قد انقطعت بوفاة الإمام راشد بن الوليد سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م خضعت عُمان بعدها لحكم ولاة الخلافة العباسية لمدة خمسة وستين سنة متصلة[٣٧].

لكن هذه الدراهم الثلاثة وتسجيل اسم رضوان بن جعفر عليها بالإضافة إلى مكان الضرب عُمان تؤكد أن الإمامة لم تنقطع بوفاة الإمام راشد بن الوليد سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م، بل من المرجح أن يكون رضوان بن جعفر قد بويع بالإمامة بعده استنادًا إلى تاريخ الضرب المسجل على الدرهمين وهو سنتي ٣٤٥، ٣٤٨هـ، وبذلك تكون المسكوكات قد أضافت اسم إمام أغفلت ذكره المصادر التاريخية، ويعد الإمام رضوان بن جعفر الوحيد من أئمة الدولة الأباضية لذي ذكر اسمه على المسكوكات.

ويمكن إيجاز النتائج التي توصلت إليها في البحث على النحو التالي:

١- رغم إجماع المؤرخين على أن عيار الدنانير التي ضربها بني الرسي كانت من أهم العيارات الإسلامية، إلا أن الدنانير التي بين أيدينا تؤكد العكس تمامًا حيث تتراوح أوزانها ما بين ١,٥٨ إلى ٢,٩١ جرام، وبذلك نجد أن عيار دنانير بني الرسي يقل كثيرًا عن الوزن الشرعي للدينار الإسلامي وهو ٤,٢٥ جرام.

٢- تعود أقدم مسكوكات الإمام الهادي إلى الحق مؤسس دولة بني الرسي المعروفة لدينا حتى الآن إلى سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م وقد نقش عليها لقب أمير المؤمنين مما يوضح بأنه لم يكتف بالخروج على الخلافة العباسية، بل يعد أول من أقام خلافة منافسة لها، وسبق بذلك الفاطميين الذين أعلنوا قيام خلافتهم سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م.

٣- نقش الإمام الهادي إلى الحق على مسكوكاته لقب (ابن رسول الله)، ثم ظهر هذا اللقب على مسكوكات

خلفائه في محاولة منهم للتأكيد على أنهم من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم بذلك أحق بالخلافة من بني العباس.

٤- اتفقت جميع المصادر التاريخية على أن لقب الإمام محمد بن يحيى بن الحسين هو المرتضي، لكن اللقب الذي سجل على مسكوكاته سواء كانت دنانير أم دراهم هو الراضي بالله، مما يؤكد أنه اللقب الصحيح لأن المسكوكات تعد وثائق تاريخية لا تتعرض للتصحيف الذي تعاني منه كتب المؤرخين.

٥- اكتفي الإمام الهادي إلى الحق بتسجيل لقبه فقط على المسكوكات، وتبعه في ذلك الراضي بالله، والناصر لدين الله، وكان يوسف الداعي إلى الحق أول من سجل اسمه ولقبه على المسكوكات، وتبعه في ذلك الإمام المنصور بالله.

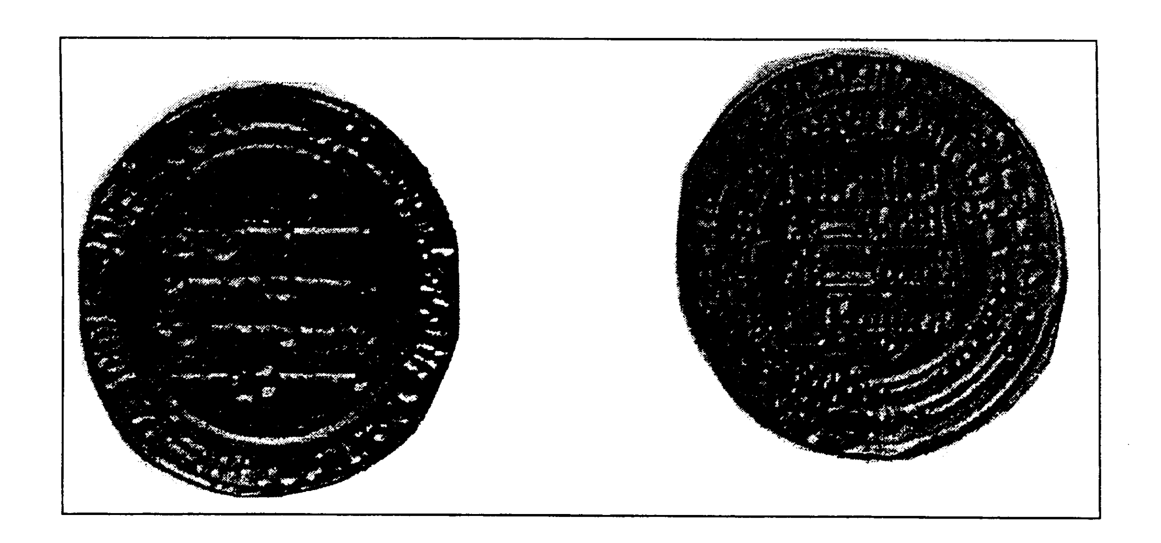
٦- لم تردعلى مسكوكات حكام دولة بني الرسي عبارات تدل على اعتناقهم للمذهب الشيعي إلا في عهد الإمام المهدي لدين الله (٦٤٦ - ٦٥٦هـ/ ١٢٤٨ - ١٢٥٨م) حيث نقش على مسكوكاته عبارة "علي ولي الله".

٧- تظهر مسكوكات بني الرسي الصراع المرير الذي خاضوه من أجل السيطرة على صنعاء بوصفها حاضرة اليمن، فما أن استقر الإمام الهادي إلى الحق في صعدة حتى سارع للاستيلاء على صنعاء وتمكن من ذلك وضرب بها أقدم مسكوكاته المعروفة لدينا حتى الآن في سنة ٢٨٨هـ، وبها أيضًا ضرب يوسف الداعي إلى الحق دينارًا سنة ٣٧٠هـ، وكذلك فعل الإمام المنصور بالله القاسم العياني الذي ضرب بها دينارًا سنة ٣٨٩هـ، وبذلك نرى أنه بمجرد سيطرة أحد حكام دولة بني الرسي على صنعاء يسارع بضرب المسكوكات بها لتأكيد سيطرته عليها.

٨- أجمعت المصادر التاريخية على أن الداعي إلى الحق يوسف لم يكن من الأئمة المعترف بهم ضمن أئمة بني الرسي، وأنه كان داعيًا فقط وليس أحد الأئمة، وهنا تتفق المسكوكات مع الروايات التاريخية إذ لم يرد على مسكوكات يوسف إلا لقب الداعي إلى الحق فقط، رغم أنه تسمى بإمرة المؤمنين مثل الأئمة.

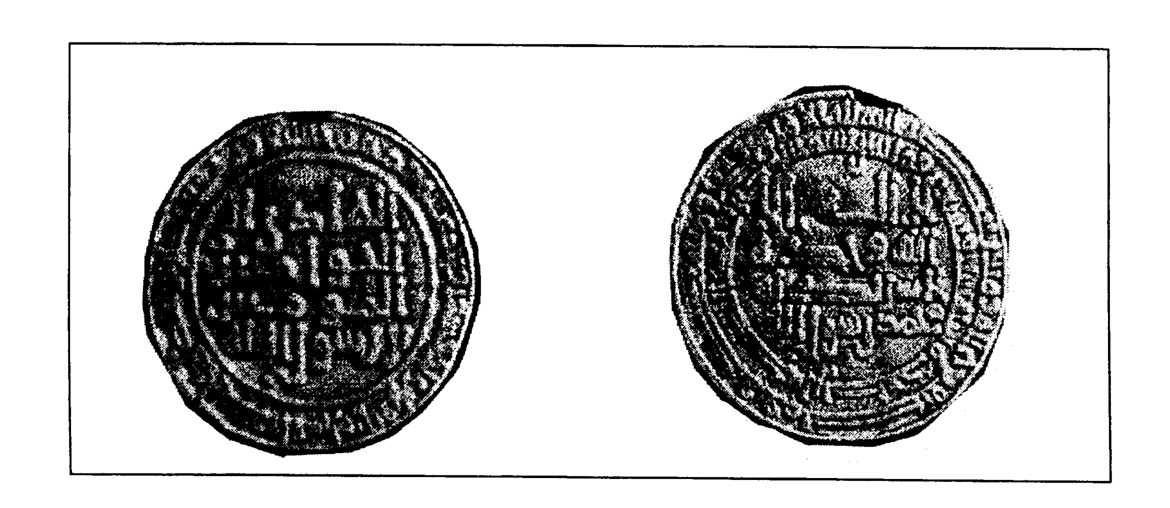
٩- رغم أن الإمام رضوان بن جعفر هو الوحيد من الأئمة الأباضية الذين ضربوا المسكوكات إلا أن المصادر التاريخية أغفلت ذكره لكن دراهمه الثلاثة التي سجل عليها اسمه بالإضافة إلى مكان الضرب عُمان تؤكد أن الإمامة لم تنقطع بوفاة الإمام راشد بن الوليد سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م كما تجمع على ذلك المصادر التاريخية، بل من المرجح أن يكون رضوان بن جعفر قد بويع بالإمامة بعده استنادًا إلى تاريخ الضرب المسجل على اثنين من الدراهم الثلاثة وهو سنتي ٣٤٥، ٣٤٨هـ، وبذلك تكون المسكوكات قد أضافت اسم إمام أغفلت ذكره المصادر التاريخية.

اللوحة رقم (١)



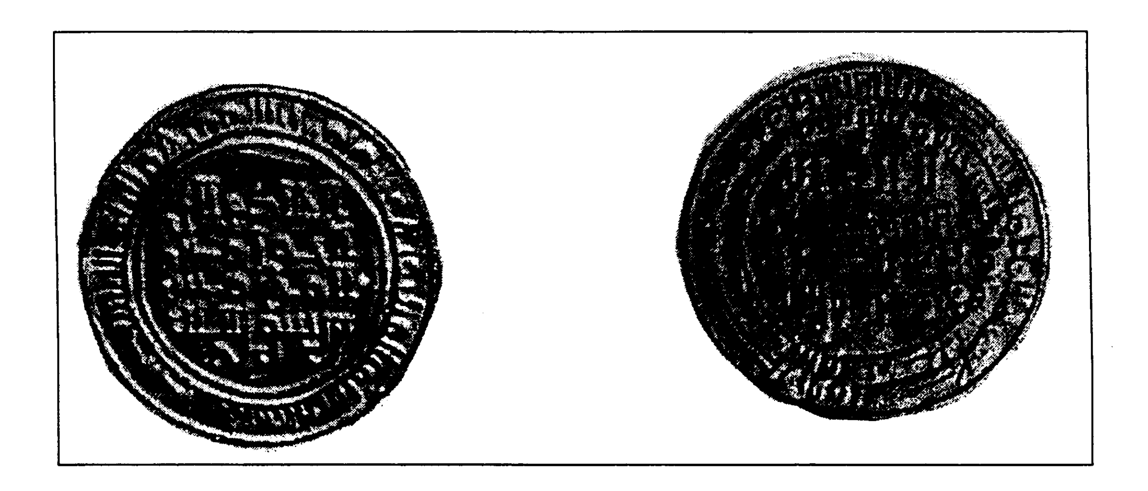
دينار للإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء سنة ٢٨٨هـ، وهو محفوظ في إحدى المجموعات الخاصة

اللوحة رقم (٢)



دينار للإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء سنة ٢٩٦هـ، وهو محفوظ في دار الآثار الإسلامية بالكويت

اللوحة رقم (٣)



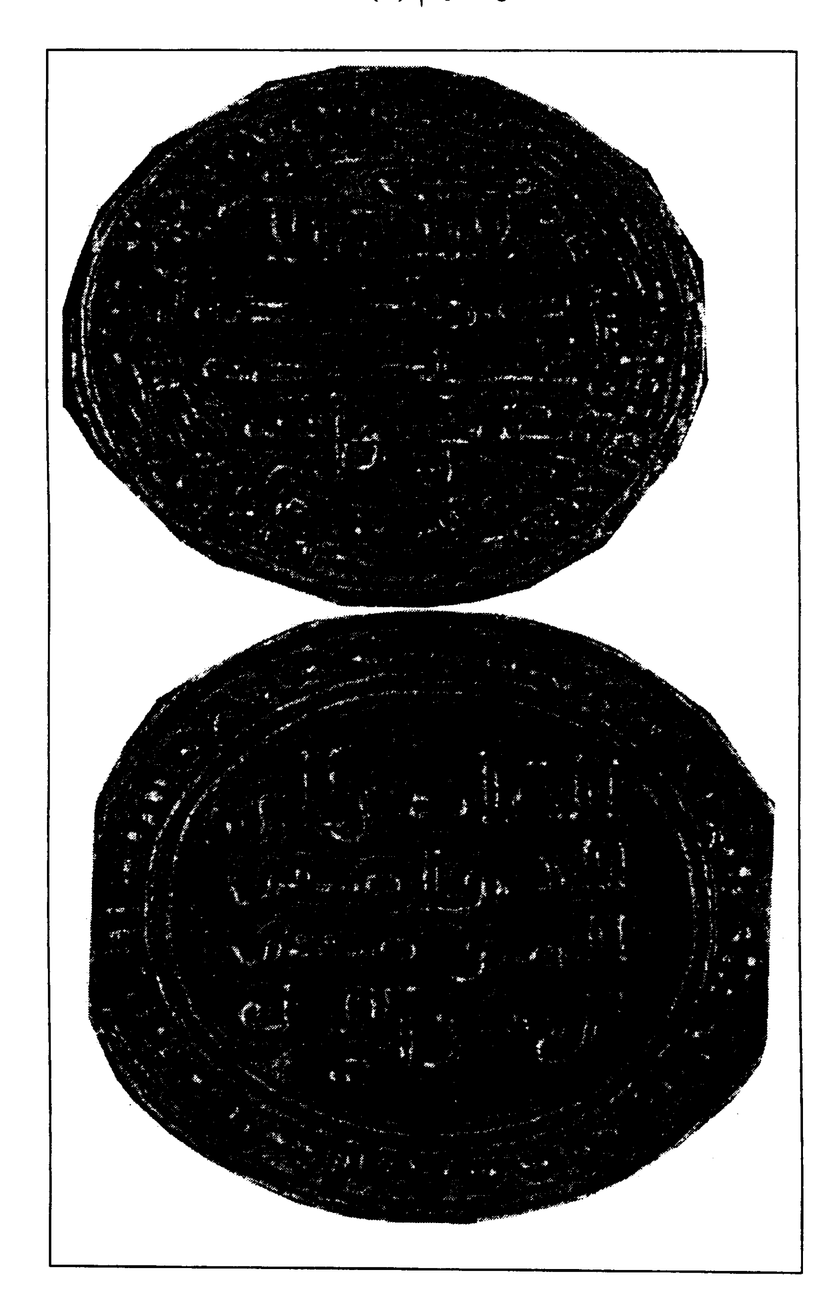
دينار للإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء سنة ٢٩٨هـ، وهو محفوظ في إحدى المجموعات الخاصة

اللوحة رقم (٤)



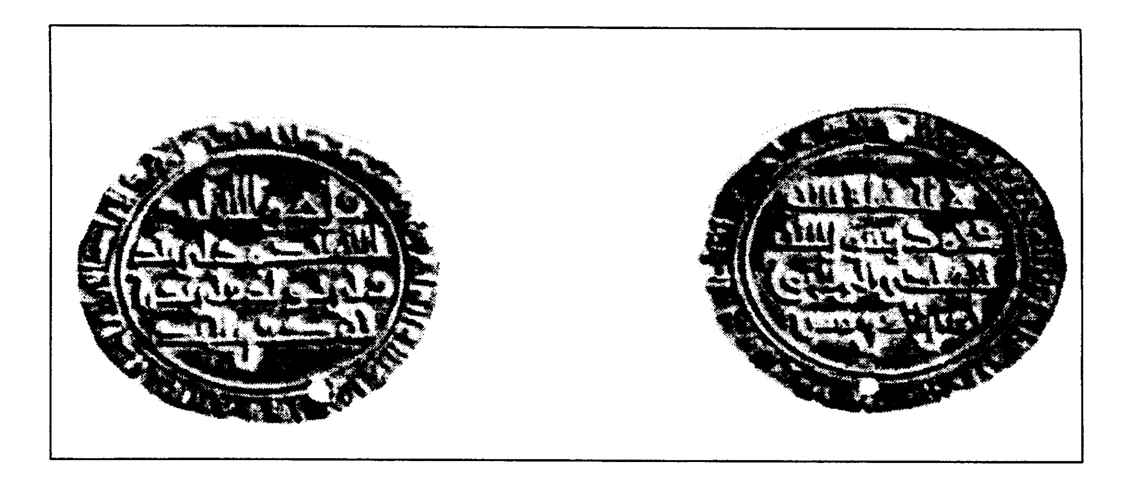
دينار للإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء سنة ٢٩٨هـ، وهو محفوظ في إحدى المجموعات الخاصة

اللوحة رقم (٥)



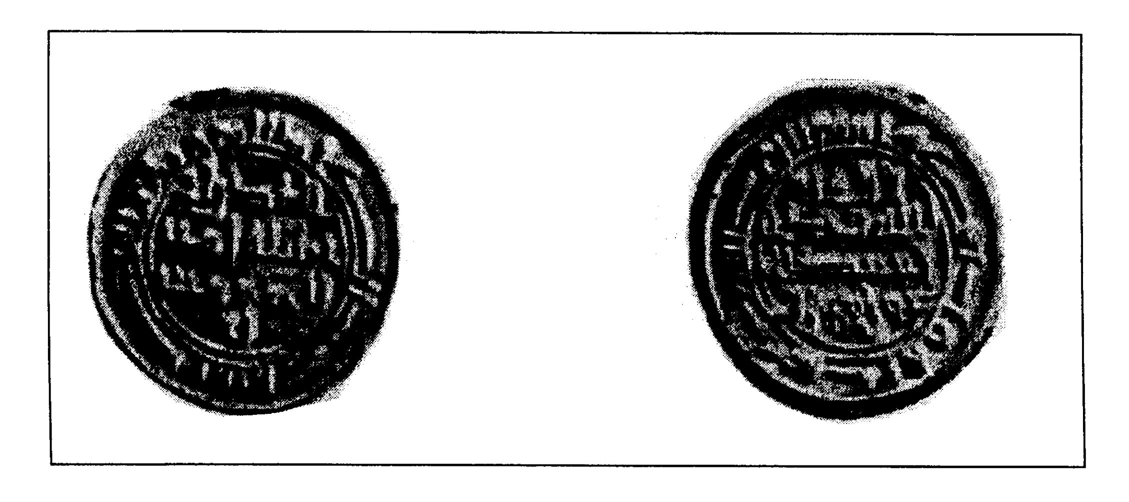
دينار للإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء سنة ٢٩٨هـ، وهو محفوظ في مجموعة عبدالحميد الخريجي

اللوحة رقم (٦)



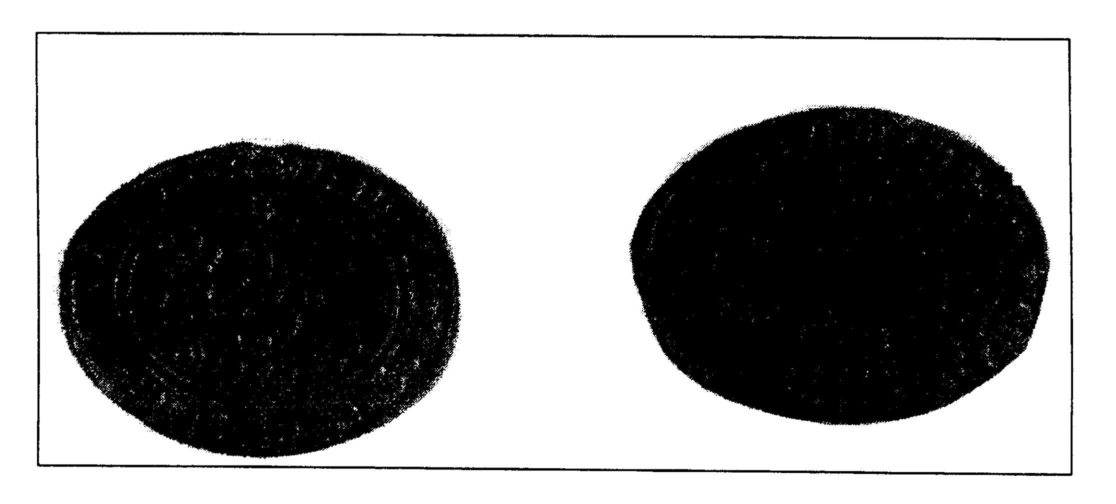
دينار للإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء سنة ٢٩٨هـ، وهو محفوظ في المتحف البريطاني بلندن

اللوحة رقم (٧)



درهم للإمام الناصر لدين الله ضرب صعدة، وهو محفوظ في المتحف البريطاني بلندن

اللوحة رقم (٨)



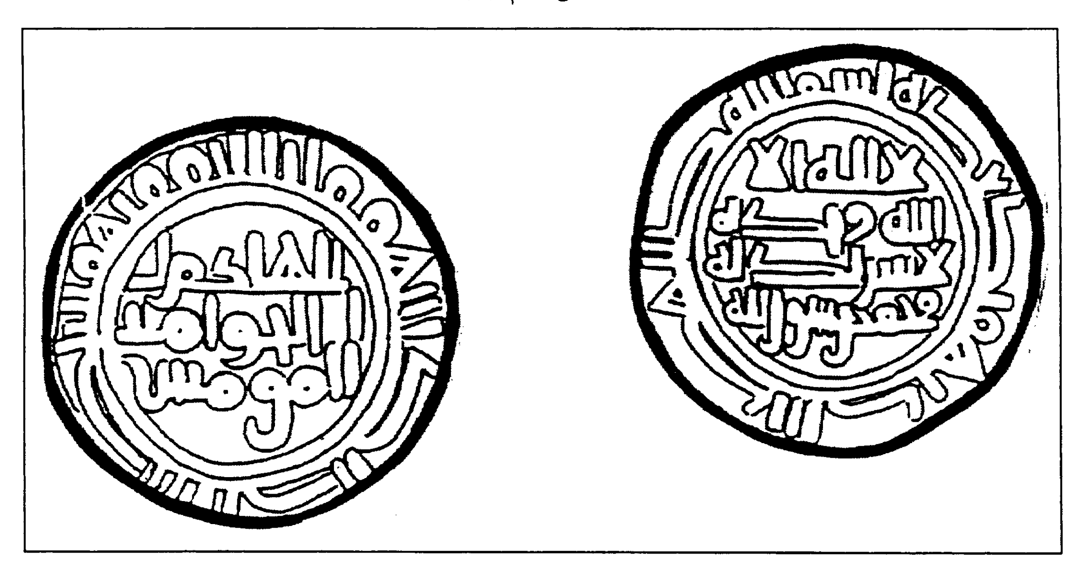
درهم للإمام المنصور بالله ضرب صنعاء سنة ٣٨٩هـ، وهو محفوظ في متحف العملات بمؤسسة النقد العربي السعودي.

اللوحة رقم (٩)



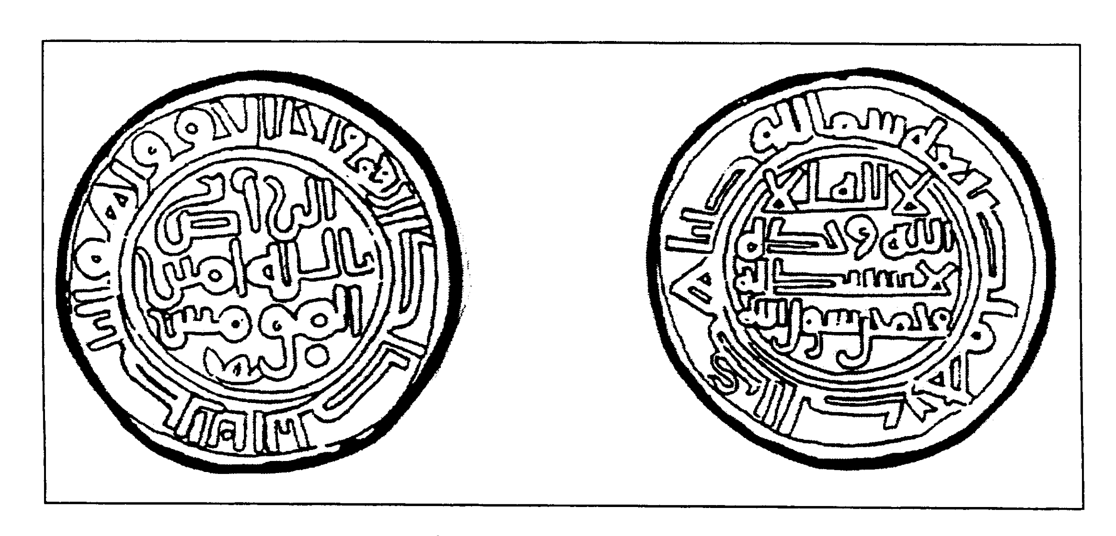
درهم للإمام رضوان بن جعفر، وهو محفوظ في متحف قطر الوطني

الشكل رقم (١)



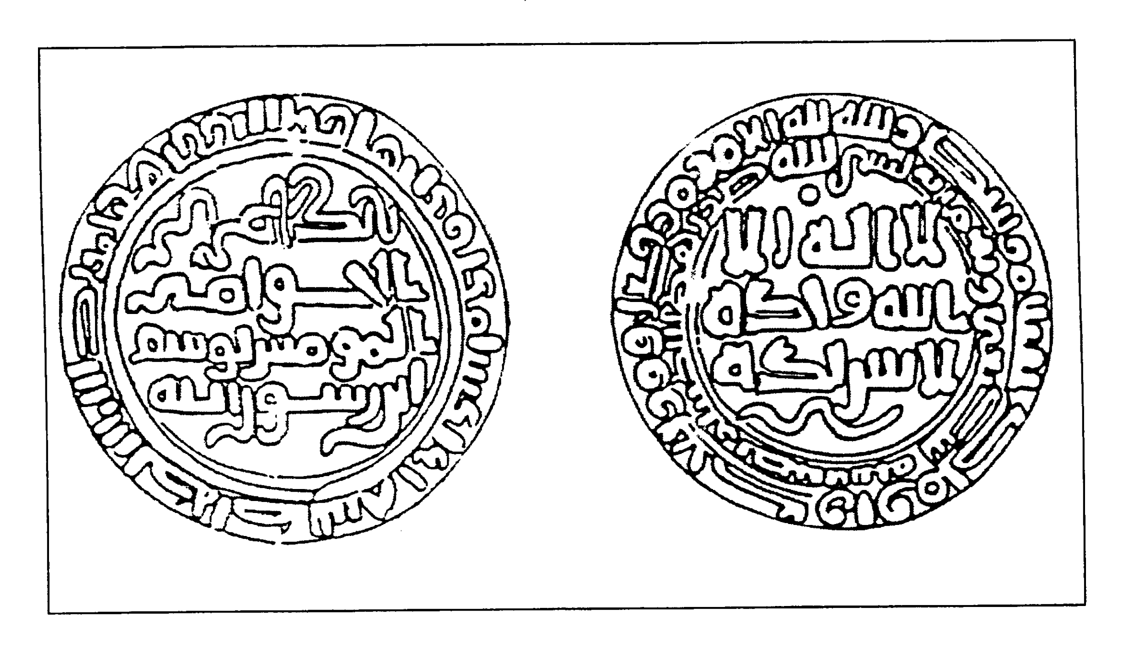
رسم تخطيطي لدرهم للإمام الهادي إلى الحق، ضرب صعدة
(نقلاً عن يوسف، فرج الله أحمد، الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية)

الشكل رقم (٢)



رسم تخطيطي لدرهم للإمام الراضي بالله، ضرب صعدة
(نقلاً عن يوسف، فرج الله أحمد، الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية)

الشكل رقم (٣)



رسم تخطيطي لدينار للداعي يوسف، صنعاء سنة ٣٧٠هـ

(نقلاً عن يوسف، فرج الله أحمد، الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية)

التعليقات

(١) شما، سمير، *أحداث عصر المأمون كما ترويها النقود*، كرسي سمير شما بجامعة اليرموك (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ١٦٩-١٧٠.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، *تاريخ الخلفاء*، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد (مصر: ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، ٥٢٥؛ وحسن، حسن إبراهيم، *تاريخ الإسلام السياسي*، ط١ (القاهرة: ١٩٦٧م)، ٤: ٢١٦؛ والفقي، د.عصام الدين، *اليمن في ظل الإسلام منذ فجره وحتى قيام دولة بني رسول*، ط١ (القاهرة: ١٩٨٤)، ١١٣.

(٣) حصلت على هذه المعلومات من د.مشلح المريخي، وهي ضمن بحث من إعداده ما زال قيد النشر.

(٤) (نسب القاسم بن إبراهيم إلى الرس، وهو جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة وهي قرية على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة المنورة) المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، *اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا*، تحقيق: جمال الدين الشيال (القاهرة: ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، ١٢؛ ويذكر حمد الجاسر أن الرس (... من أودية القَبليَّة، والقَبليَّة على ما نقل الزمخشري عن شيخه الشريف علي بن وهاس الحسني المكي: سراة بين المدينة وينبع، فما سال منها إلى ينبع يسمى الغور، وما سال في أودية المدينة يسمى القَبليَّة، وحدها من الشام ما بين الحت من جبال بني عرك من جهينة، وما بين شرف السيالة ... وفيه عرض من النخل من صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم نحلها فاطمة رضي الله عنها ... وإلى هذا الموضع ينسب الإمام الهادي جد الأئمة الزيديين المعروفين في اليمن ...) الجاسر، حمد، *"الرس في القرآن الكريم وآراء الباحثين حوله"*، العرب، الجزء الأول، السنة الخامسة (رجب ١٣٩٠هـ/ سبتمبر ١٩٧٠م)، ١-١٢.

(٥) ابن القاسم، يحيى بن الحسين، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة: ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ١: ١٦٧؛ والفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ١٢٠.

A.B.Eagle, Gahayat al-amani and the Life and Times of al-Hadi Yahya b.al-Husan: an introduction, newly edited text and translation with detailed annotation (A thesis presented to university of Durham for the degree of Master of Letters,1990), PP.3-8

(٦) الراشد، سعد عبدالعزيز، *"دنانير عباسية نادرة ضرب صنعاء محفوظة في متحف الآثار جامعة الملك سعود"*، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الثالث (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ٥٦٩-٥٧٠.

(٧) الراشد، *دنانير عباسية*، ٥٧١.

(٨) Eagle, Ghayat al-amani, PP.37-48.

(٩) وتوجد العديد من دنانير الهادي إلى الحق المضروبة في صعدة سنة ٢٩٨هـ في عدة متاحف ومجموعات خاصة حول العالم. التازي ، عبدالوهاب، *"العملة ودور السك في المغرب"* الأكاديمية، العدد الرابع (ربيع الثاني ١٤٠٨هـ/ نوفمبر ١٩٨٨م)، ١٩٣-٢٢١؛ والجابر، إبراهيم جابر، *النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني* ٢ (الدوحة: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٣٢٢-٣٢٤.

S.Lane-Poole, Addition to the Oriental Collection 1877-1888,Part I (London 1889) P.2, R Bikhazi, Coins of Al-Yaman(1-4 December 1970 of Al-Abhath Aquartely Journaly for Arab Studies Published by the American University of Beirut. (Beirut,Lebanon), PP. 132-569.

(١٠) بيتس، مايكل روبرت ودارلي دوران، "فن العملة الإسلامية"(كنوز الفن الإسلامي - ترجمة حصة الصباح وآخرون - جنيف ١٩٨٥م)، ٣٦٧.

(١١) يوسف، فرج الله أحمد، *نقود الخارجين على الخلافة العباسية في شرق العالم الإسلامي*، مخطوط رسالة ماجستير - كلية الآثار - جامعة القاهرة (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ١٢٤.

(١٢) يتراوح وزن الدنانير الثلاثة ما بين ٢,٨٢ إلى ٢,٨٥ جم وقطرها ما بين ٢٠ إلى ٢١ ملم. محمد، عبدالرحمن فهمي، *"دراسة لبعض التحف الإسلامية"*، مجلة كلية الآداب، المجلد الثاني والعشرون، الجزء الأول (مايو ١٩٦٠م - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٥م)، ١٨٤-١٨٥.

(١٣) شما، *أحداث عصر المأمون*، ٣٣٦- ٣٣٧.

(١٤) العش، محمد أبوالفرج، *النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني*ا (الدوحة: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ٤٤٨.

(١٥) الخريجي، عبدالمجيد، ونايف الشرعان، *الدينار عبر العصور الإسلامية*، (جدة: ١٤٢٢هـ)، ٩٢.

(١٦) Artuk, Istambul Arkeoloji Muzeleri Teshirdeki Islami Sikkeler Katalogu (Cilt. Istanbul 1971) P.291 I,G.

(١٧) النقشبندي، ناصر، *"الدينار الإسلامي لملوك الطوائف"* سومر، المجلد الثالث، الجزء الثاني (١٩٤٧م)، ٢٨١.

(١٨) يوسف، فرج الله، *الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية، دراسة مقارنة* (الرياض: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، ٥٧.

(١٩) ابن القاسم، المصدر السابق، ١: ١٧٩-١٩٩؛ الفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ١١٥.

(٢٠) ابن القاسم، *غاية الأماني*، ٢٠٢؛ والفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ١٢٠.

(٢١) يوسف، *الآيات القرآنية*، ٥٧.

(٢٢) يوسف، *الآيات القرآنية*، ٥٧.

(٢٣) ابن القاسم، غاية الأماني، ٢٠٢، Eagle,Ghayat al-amani.P.76.

(٢٤) ابن القاسم، *غاية الأماني*، ٢٠٤؛ وذكر زامباور أن الناصر لدين الله توفي سنة ٣٢٥هـ، زامباور: *معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي*، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون (بيروت: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ١٨٧.

(٢٥) ابن القاسم، *غاية الأماني*، ٢٢٨- ٢٣٧.

(٢٦) يوسف، *نقود الخارجين على الخلافة العباسية*، ١٤٠.

(٢٧) الباشا، حسن، *الألقاب الإسلامية في التاريخ والآثار* (القاهرة: ١٩٧٥م)، ٢٨٥.

(٢٨) لم يكن المنصور بالله من أبناء الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم لكنه من أحفاد القاسم الرسي. ابن القاسم، *غاية الأماني*، ٢٢٨- ٢٣٧.

(٢٩) مؤسسة النقد العربي السعودي، *متحف العملات* (الرياض: ١٤١٦هـ)، ٩٥.

(٣٠) يوسف، *دراسة مقارنة*، ٥٨.

(٣١) ابن زريق، حميد بن محمد، *الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان* (القاهرة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ٣٢- ٤٢؛ الأزكوي، سرحان بن سعيد، *تاريخ عُمان* (القاهرة: ١٩٨٠م)، ٤٦-٥٠؛ الشهرستاني، أبوالفتح محمد بن عبدالكريم، *الملل والنحل* (القاهرة: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، ١: ١٣٤.

(٣٢) ابن زريق، *الشعاع الشائع باللمعان*، ٤٠-٥٢؛ الأزكوي، *تاريخ عُمان*، ٤٦-٥٥؛ العبيدلي، *الدولة العمانية الأولى* (مسقط: ١٩٩٦م)، ١١٨-١٢٠.

(٣٣) أبـــن زريق، *الشعاع الشائع باللمعان*، ٤٠-٧١، الأزكوي، *تاريخ عُمان*، ٤٦- ٥٥؛ الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٩: ١٠٥؛ زامباور، *معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي*، ١٩٣.

(٣٤) R,E,Darley-Doran: History of Currency in the Sultanate of Oman, the Central Bank of Oman, Muscat 1990, P.21

(٣٥) العش، محمد أبوالفرج، *النقود العُمانية من خلال التاريخ الإسلامي* (سلسلة تراثنا، العدد ٥٤، أبريل ١٩٨٤م) ٢٦.

(٣٦) العش، محمد أبوالفرج، *النقود العمانية*، ٢٦.

(٣٧) مؤلف مجهول، *تاريخ أهل عُمان* (القاهرة: ١٩٨٠م)، ٩٣.

نقود محمد بن بيهس من دمشق وتبوك
قراءة جديدة

خلف فارس الطراونة
جامعة مؤتة – كلية الآداب
قسم الآثار والسياحة

محمد نايف العمايره
جامعة مؤتة – كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ

مقدمة تاريخية:

يعتبر تاريخ محمد بن صالح بن بيهس الكلابي غامضاً وكذلك علاقته بدمشق، وما ذكرته كتب التاريخ كانت لمحاً أو نتفاً من الأخبار قليلة جداً تكررت في معظمها، إلا أن النقود وبشكل خاص "الدراهم" الفضية التي تمكن من سكها أظهرت أنه حكم دمشق حكماً مطلقاً من سنة ١٩٨ ولغاية ٢٠٩هـ ومن سنة ٢٠٩ – ٢١٢هـ، يحوّم الشك حولها، ويذكر كذلك أنه أقام بدمشق أميراً متغلباً عليها إلى أن قدم الأمير عبد الله بن طاهر دمشق سنة ٢٠٨هـ ودخل بأمر من المأمون إلى مصر ورجع بعدها إلى دمشق ثم حمل معه بن بيهس إلى العراق وتوفي هناك. ويعتقد أن ذلك كان سنة ٢١٢هـ[١].

من هو محمد بن صالح بن بيهس الكلابي

إنه أمير عرب الشام وسيّد قيس، تغلب على دمشق من سنة ١٩٨– ٢٠٩هـ، وقد كان عندئذ متغلباً على حوران حيث كانت الحال فوضى في دمشق واستمرت إلى أن جاءها عبد الله بن طاهر بأمر من المأمون[٢]. ففي سنة ١٩٥هـ خرج علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبي العميطر السفياني، وأمه نفيسة بنت عبيدالله ابن العباس بن علي بن أبي طالب وكان يقول: أنا من شيخَيْ صفين يعني علياً ومعاوية وقد دعا لنفسه بالخلافة وقوي على سليمان بن المنصور عامل دمشق فأخرجه عنها وكان ذلك سنة ١٩٥هـ وأعانه وقتها الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية وكان أبي العميطر قد بلغ التسعين من العمر والناس قد أخذوا عنه علماً كثيراً وتميز بحسن سيرته

وأخلاقه، إلا أنه لما خرج ظلم وأساء السيرة فتركوا ما نقلوا عنه[٣].

وعندما كان أكبر أصحابه من كلب، كتب إلى محمد بن صالح بن بيهس الكلابي يدعوه إلى طاعته ويتهدده إن لم يفعل، فلم يجبه بن بيهس إلى ذلك فأقبل أبي العميطر السفياني على قصد القيسية فكتبوا إلى محمد بن صالح الكلابي، فأقبل إليهم في ثلاثماية فارس من مواليه واتصل الخبر بالسفياني فوجه إليه يزيد بن هشام في اثني عشر ألفاً فالتقوا فانهزم يـــزيد ومن معه وقتل منهم إلى أن دخلوا أبواب دمشق وأسرهم بن بيهس وحلق رؤوسهم ولحاهم وأطلق سراحهم وكان عددهم قد تجاوز ثلاثة آلاف فارس، وبعدها ضعف أمر السفياني وحصر بدمشق ثم جمع جمعاً وجعل عليهم ابنه القاســـم وخرجوا إلى ابن بيهس فالتقوا فقتل القاسم وانهزم أصحاب السفياني وبعث رأسه إلى الخليفة الأمين، ثم جمع جمعـــاً آخر وسيرهم مع مولاه المعتمر فلقيهم ابن بيهس فقتل المعتمر وانهزم أصحابه فوهن أمر أبوالعميطر السفياني[٤]. وبعـــد ذلك بدأ بن بيهس يغير كل يوم على ناحية فيقتل ويأسر ولما فرغ من حرب يزيد بن هشام نزل قرية يقال لها "ســـكا" بـــنواحي دمشق واجتمع إلى أبي العميطر السفياني وزراؤه فقالو له: لا يهولنك محاصرة بن بيهس، إياك فإن الحرب سجال فكتب أبو العميطر السفياني إلى السواحل والبقاع وبعلبك وحمص فأتاه خلق عظيم واشتبكت الحرب بـــين شبعا وقرحتا، وأقبل بن بيهس حتى نزل قرية شبعا وأصبح منها غازياً إلى دمشق، وخرج "مسلمة" وهو يعقوب ابـــن علي بن محمد بن سعيد بن عبد الملك، وخرجت معه القيسية فتقاتلوا ذلك اليوم مع مسلمة قتالاً شديداً وكثرت الجراحات في الفريقين وانصرف بن بيهس وخاف القيسية على أنفسهم وذهبوا إلى ابن بيهس وأحكموا الأمر معه[٥]. ويذكر أن هذه الحادثة التاريخية هي من أقدم الأحداث التاريخية التي يقترن اسمها باسم بلدة شبعا.

ومـــا أن عـــاد إلى حوران واجتمعت نمير على مسلمة بن عبد الملك بدمشق وبايعوه بالخلافة فقبل منهم وجمع مواليه ودخل على السفياني فقبض عليه وقيده على رؤوسا بني أمية فبايعوه وأدني قيساً وجعلهم خاصته، ثم مرض ابن بـــيهس، فجمع رؤساء بني نمير، فقال لهم: ترون ما أصابني من علتي هذه، فارفقو ببني مروان، وعليكم بمسلمة بـــن يعقـــوب ابـــن علي بن محمد بن سعيد بن عبد الملك، فإنه ركيك، وهو ابن أختكم وأعلموه أنكم لا تتبعون ببني أبي ســـفيان وبايعوه بالخلافة وكيدوا به السفياني، ولما عوفي بن بيهس من مرض أصابه عاد إلى دمشق فحصرها وسلمها إلـــيه القيســـية وهرب مسلمة بن عبد الملك والسفياني في ثياب النساء إلى المزة بنواحي دمشق وكان ذلك في سنة ١٩٨هـــ[٦]. وتعدّ هذه المرحلة بداية النزاعات التي أضعفت الخلافة في بغداد وأصبحت سلطة الخليفة العباسي سلطة إسمية.

فقـــد بـــدأ الـــتفكك السياسي للخلافة الذي أدى إلى نشوء الدويلات الإسلامية في المشرق والمغرب فحاول الكثيرون من الحاكمين والطامعين الانفصال عن مركز الخلافة العباسية وكانت تلك المحاولات على أنواع نذكر منها:

١- ظهـــور عـــلي بن عبد الله الملقب بأبي العميطر السفياني بالشام الذي ادعا لنفسه بالخلافة وطرد الأمين استقل استقلالاً تاماً عن الخلافة العباسية.

٢- خروج نصر بن شيث العقيلي سنة ١٩٩هـ.

٣- قيام إبراهيم بن موسى بن جعفر المسمى "بالحزار" بمكة واليمن وكان ذلك سنة ٢٠٠هـ.

٤- ابتداء أمر بابك الخرمي سنة ٢٠١هـ.

٥- قيام أبو السرايا بالكوفة متستراً باسم بن طباطبا العلوي.

٦- محاولة بن السري بإنشاء أسرة مالكة وراثية بمصر ولكن مع الاعتراف الاسمي بخلافة المأمون.

٧- استقلال الأغالبة بتونس[٧].

لذلك يمكن القول بأن الكثير من المؤرخين لم يهتموا بنوع العلاقة الفعلية التي كانت تقوم بين المأمون وبين الدويلات المحلية التي قامت بزمنه أو انفصلت أو حاولت الانفصال عن الخلافة سواء اعترفت اسمياً ورسمياً بها، أو لم تفعل إلى محاولات المأمون أحكام سلطته عليها، لذلك لم تكد الشام تستريح من فتنة أبي العميطر السفياني حتى قام أول عهد المأمون بدمشق رجل من بني أمية اسمه سعيد بن خالد الأموي العثماني الفديني [٨]، مدعياً الخلافة بعد أبي العميطر وأغار على ضياع بني شربنث السعدي وجعل يطلب القيسية ويقتلهم ويتعصب لأهل اليمن، فوجه إليه يحيى ابن صالح في جيش، فلما كان بالقرب من حصنه المعروف بـ "الفدين"[٩]، هرب منه العثماني، فوقف يحيى بن صالح على الحصن فهدمه وضرب زيزياً من أرض الأردن جنوبي عمان وتحصن العثماني في عمان وسار يحيى بن صالح إلى عمان واستنجد العثماني بقوم من عطفان وانضمت إليه مجموعة من بني أمية ومن جلاء عن دمشق من أصحاب أبي العميطر ومسلمة فلم يزل يحيى بن صالح يحاصره ويحاربه بأمر من محمد بن بيهس حتى أبعده إلى جميع القرى المجاورة لعمان فسار إلى حسبان جنوباً وبها حصن قديم فأقام به وتفرق أصحابه عنه[١٠]. واستمر يطارده مع بقية فلول الأمويين حتى تبوك جنوباً من أرض البلقاء وصولاً إلى عُمان في أقصى حدود الجزيرة العربية في الجنوب الغربي[١١] وعلى ما يبدو أن معارك المفرق وزيزيا وعمان وحسبان من أرض البلقاء (الأردن حالياً) مكنت العباسيين في ظل إمارة محمد بن بيهس من طرد فلول الأمويين إلى تبوك وصولاً إلى عُمان وعلى ضوئها تمكنوا من إخماد هذه الفتنة وأنهو أمر الأموي[١٢].

ولقد اتضح لي أن هناك ذكر واضح وصريح لموقع تبوك من أرض البلقاء في الشام من حيث تأثير غزوة "مؤتة" الذي كان واضحاً في غزوة "تبوك" التي قادها النبي محمد ﷺ، وقامت في ظروف قريبة الشبه من بعضهما وذلك من حشود البيزنطيين وحلفائهم "متنصرة العرب" في البلقاء حيث ساهم ذلك في السيطرة المطلقة على الحجاز بما في ذلك مناطق النفوذ القرشي على تخوم الشام، وإذا كانت تبوك الانطلاقة العملية لحركة الفتوح الشامية في شمال المملكة العربية السعودية حالياً فهي الوجه الحقيقي لجنوب البلقاء من أرض الأردن وامتداداً لأرض الشام، فقد استمرت أهميتها إلى أن أصبحت جزء من أملاك محمد بن صالح بن بيهس الكلابي[١٣]. حيث تقع بضع محطات على خط واحد

مثل تبوك ومعان وأذرح وأيلة، وأنها من أعمال البلقاء من حدود الشام[١٤].

لذلك كان على قبائل البلقاء أن تتأثر أيضاً بالرياح الجنوبية للجزيرة العربية في وقت تألقت فيه مكة شهرة ومركزاً استقطابياً هاماً، فقد كان لمكة علاقات وثيقة مع تلك القبائل التي ارتبطت مصالحها مع بعضها البعض ولعل أبرز مؤثرات الوضع الجغرافي لمنطقة البلقاء والتي تشكل تبوك جزءاً منها أنها كانت امتداداً طبيعياً للحجاز التي كانت بالإضافة إلى دورها التجاري البارز يرهص بمتغيرات جذرية، ستكون أكثر انعكاساً على هذه المنطقة من خلال عدة وسائل لا سيما التجارة التي امتدت شرايينها حتى مدينة بصرى السوق المركزي لبلاد الشام الواقعة على الحدود الشمالية للبلقاء[١٥].

دراهم محمد بن صالح بن بيهس الكلابي

يبدو أن دور محمد بن بيهس في ظل خلافة الخليفة هارون الرشيد كان هامشياً مع العلم أنه قدم خدمات كبيرة له، ولكن ظهر دوره كقائد عسكري وطموح في ظل خلافة الأمين بحيث أخذ على عاتقه مطاردة فلول الأمويين من دمشق إلى تبوك إلى عُمان، وفي ظل خلافة المأمون أصبح أميراً وأوكل مهمة مطاردة الأمويين إلى شقيقه يحيى بن صالح لذلك امتدت مناطق نفوذه ومن خلال مطالعتنا لمجريات الأحداث التاريخية من دمشق إلى تبوك جنوبي بلاد الشام شمالي المملكة العربية السعودية حالياً.

فقد عمد إلى سك دراهم "فضية" فقط عندما كان أميراً في ظل خلافة المأمون وانحصرت سنوات سكها ما بين سنة ١٩٨ - ٢١١هـ، وقد ظهر على المدار الكتابي لتلك الدراهم من الوجه كلمة "تبوك" إضافة إلى اسم مدينة الضرب دمشق، ولكن لم يظهر له دراهم تحمل اسمه للسنوات ٢٠١هـ، ٢٠٢هـ، ٢١٠هـ، ولربما أنه يتوافر لتلك السنوات دراهم، ولكن لم تنشر لغاية الآن، ومع ذلك يخلو الدرهم المؤرخ لسنة ٢١١هـ من اسم محمد بن بيهس مع العلم أنه يحمل نفس كتابات الدراهم الأخرى إضافة إلى اسم تبوك ودمشق.

ومن الجدير بالذكر وحسبما تمكنت من الاطلاع عليه من كتب ومقالات وكتالوجات عربية وأجنبية وتأكيداً لما قاله المرحوم الأستاذ سمير شما، فإن المتحف البريطاني ومتحف الأشموليان بأكسفورد تخلو مقتنياتهما من دراهم محمد ابن بيهس[١٦].

فقد ظهر له حتى الآن ثلاثون درهماً فقط، وهذه الدراسة تضيف درهمين آخرين ليصبح العدد اثنان وثلاثون درهماً ظهرت حتى الآن من دراهم محمد بن بيهس الكلابي. وهذين الدرهمين من ضمن إحدى المجموعات الخاصة بالأردن. وكلاهما من ضرب سنة ٢٠٥هـ، وقد تمكنت من الاطلاع عليهما لتدقيق قراءتهما ولتوضيح اسم "تبوك" والذي لا مجال للشك فيه. لذلك أرجح الرأي القائل بأن بن بيهس حكم دمشق وحوران وحتى تبوك، وفيما يلي قائمة دراهمه التي ظهرت حتى الآن:

درهمان لسنة ١٩٨هـ / ٨١٣م[١٧].

درهمان لسنة ١٩٩هـ / ٨١٤م[١٨].

درهمان لسنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م[١٩].

ثلاثة دراهم لسنة ٢٠٣هـ / ٨١٨م[٢٠].

أربعة دراهم لسنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م[٢١].

خمسة دراهم لسنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م[٢٢].

ثلاثة دراهم لسنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م[٢٣].

درهم واحد لسنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م[٢٤].

ثلاثة دراهم لسنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣م[٢٥].

خمسة دراهم لسنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤م[٢٦].

الدراسة الوصفية للدرهم موضوع البحث

الوجـــه

مركز: لا اله الا

اللـــه وحده

لا شريك له

مدار: بسم اللـــه ضرب هذا الدرهم بدمشق[٢٧] سنة خمس ومئتين

المدار الخارجي: O تبوك[٢٨] O OO O

الظهـــر

مركز: محمد

محمد رسول اللـــه

الامام المامون

عبد اللـــه أمير المومنين

بن بيهس

مدار: محمد رسول اللـــه ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

القطر: ٢٥ ملم، الوزن: ٢,٦٥٠ غم.

المكان الحالي: مقتنيات خاصة الأردن[٢٩].

انظر لوحة (١) صورة (١)

الدراسة التحليلية لكتابات الدرهم موضوع البحث

تتكون كتابات مركز الوجه من ثلاثة أسطر متوازية نصها: لا اله الا / اللـــه وحده / لا شريك له.

تحيط بذلك كتابات بشكل دائري نصها:

بسم اللـــه ضرب هذا الدرهم بدمشق سنة خمس ومئتين

ظهرت أحرف "الضاد والراء" في ضرب مفصولة عن بعضهما كما جاء حرف "الباء" مشابهاً لحرف "الراء".

وجاءت كلمة "الدرهم" خالية من حرف "الألف" واشتركت مع "هذا" بنفس الحرف. وأما "سنة" فقد افتقرت لركـــزة النون فجاءت هكذا "ســـة" وقد أحيط بكتابات المركز والإطار الدائري الكتابي الذي يحيط به إطار كتابي آخـــر، ظهرت كلمة "تبوك". كما يلي ظهر حرف الكاف مشابهاً لحرف "الدال" وإن ما يميزه عن حرف الدال هو الانحـــناء البسيط الواضح بالنسبة لحرف الدال هكذا " " " ". وقد تبع ذلك على نفس الإطار حلقات دائرية زخرفية عبارة عن ثلاثة حلقات صغيرة على مسافات متباعدة وبينها حلقتين متوسطتين متجاورتين.

وتؤكد الأخطاء الكتابية الواردة على كتابات وجه هذا الدرهم ما ذهب إليه الباحثون والدارسون لعلم النميات وما شاهدته في هذا الدرهم من أن دراهم بن بيهس لم تضرب ضرباً جيداً.

وأما كتابات مركز الظهر فقد جاءت بخمسة أسطر متوازية وعلى النحو التالي:

محمد / محمد رسول اللـــه / الامام المأمون / عبد اللـــه امير المؤمنين / بن بيهس

فقد ظهر لي أن هناك تشابك ما بين حرف "اللام" في "رسول" و "اللام" في "اللـــه" كما جاء حرف "النون" في "المـــامون" مشـــابهاً لحرف "الراء" ومفتوحاً أكثر مما هو معهود وظهر اسم "محمد بن بيهس" مقسوماً إلى قسمين "محمـــد" في السطر الكتابي الأول "بن بيهس" في السطر الكتابي الخامس على المركز. وظهر في السطر الكتابي الثالث لقب "المأمون" وهو "الإمام" ومعناه القدوة، أم القوم في الصلاة فهو إمام واللقب موجود في القرآن الكريم في آيات

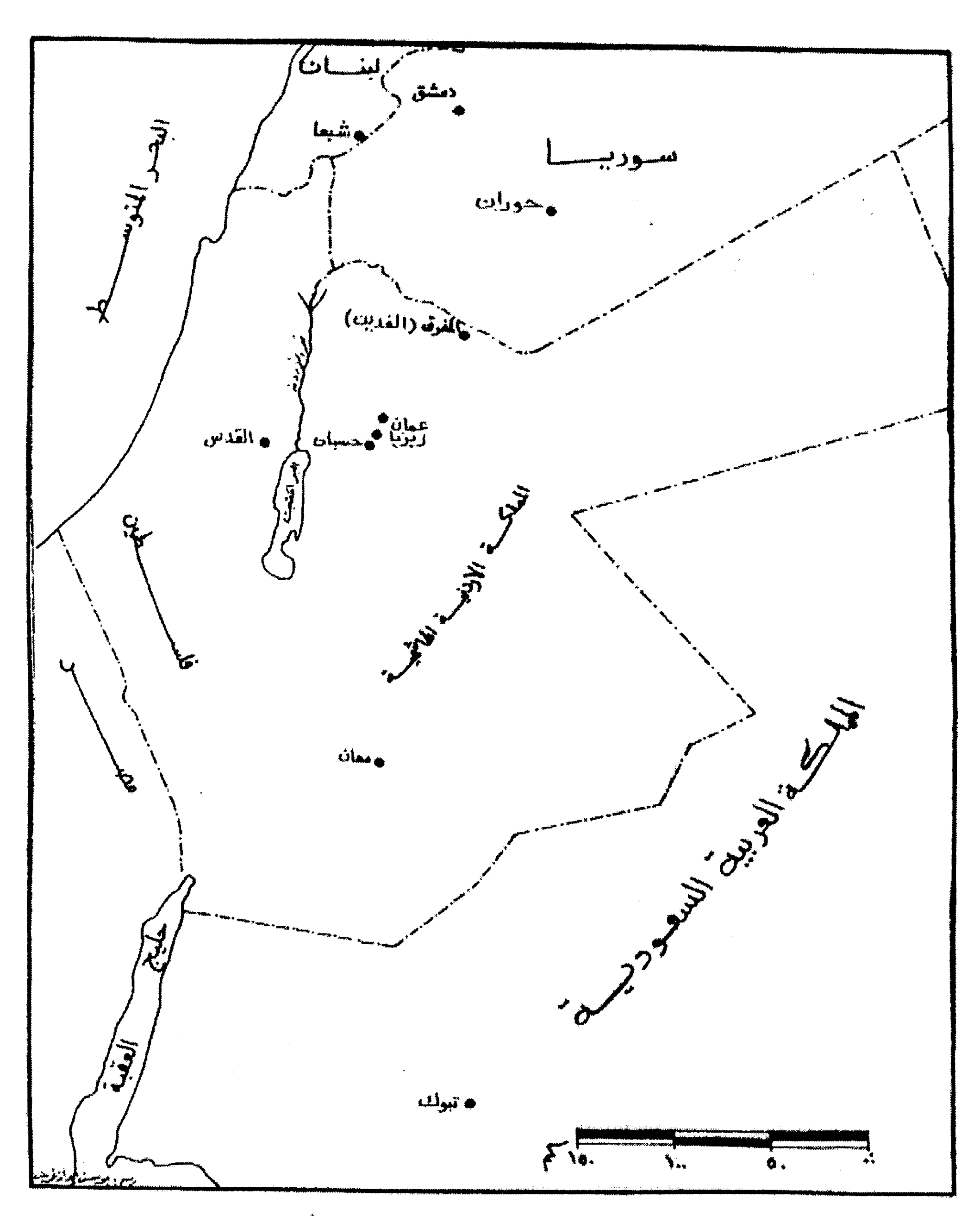
كـــثيرة ففـــي سورة الفرقان الآية (٧٣) وقد استعمل هذا اللقب الخليفة المأمون لأن فيه تأكيد على الناحية الدينية لا الدنيوية من سلطة رئيس المسلمين، واللفظ كما ذكر مستعار من إمامة الصلاة وقد ورد ذكرها في سورة الأنبياء الآية (٧٢). قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ صدق الله العظيم.

وعن كتابات مدار الظهر، فقد جاء بها أغلاط تنم عن عدم الدقة بالنسبة للضرب مثل كلمة "الهدى" تخلو من حـــرف الألـــف الأولى والأخيرة هكذا "لهد" وظهر حرف "النون" في و "دين" وكأنه حرف "الراء" وقرئت وكأنها و"ديـــنر" وظهر التنقيط في حرفي "الباء" من "بن" وحرف "الباء" من "بيهس". وهكذا يتضح لنا أن دراهم محمد بن بيهس لم تنل الاهتمام الكافي لذلك جاءت فيها أغلاط لا يستهان بها وباعتقادي أنها أخطاء غير مقصودة ولكنها مخلة في بعض الأحيان.

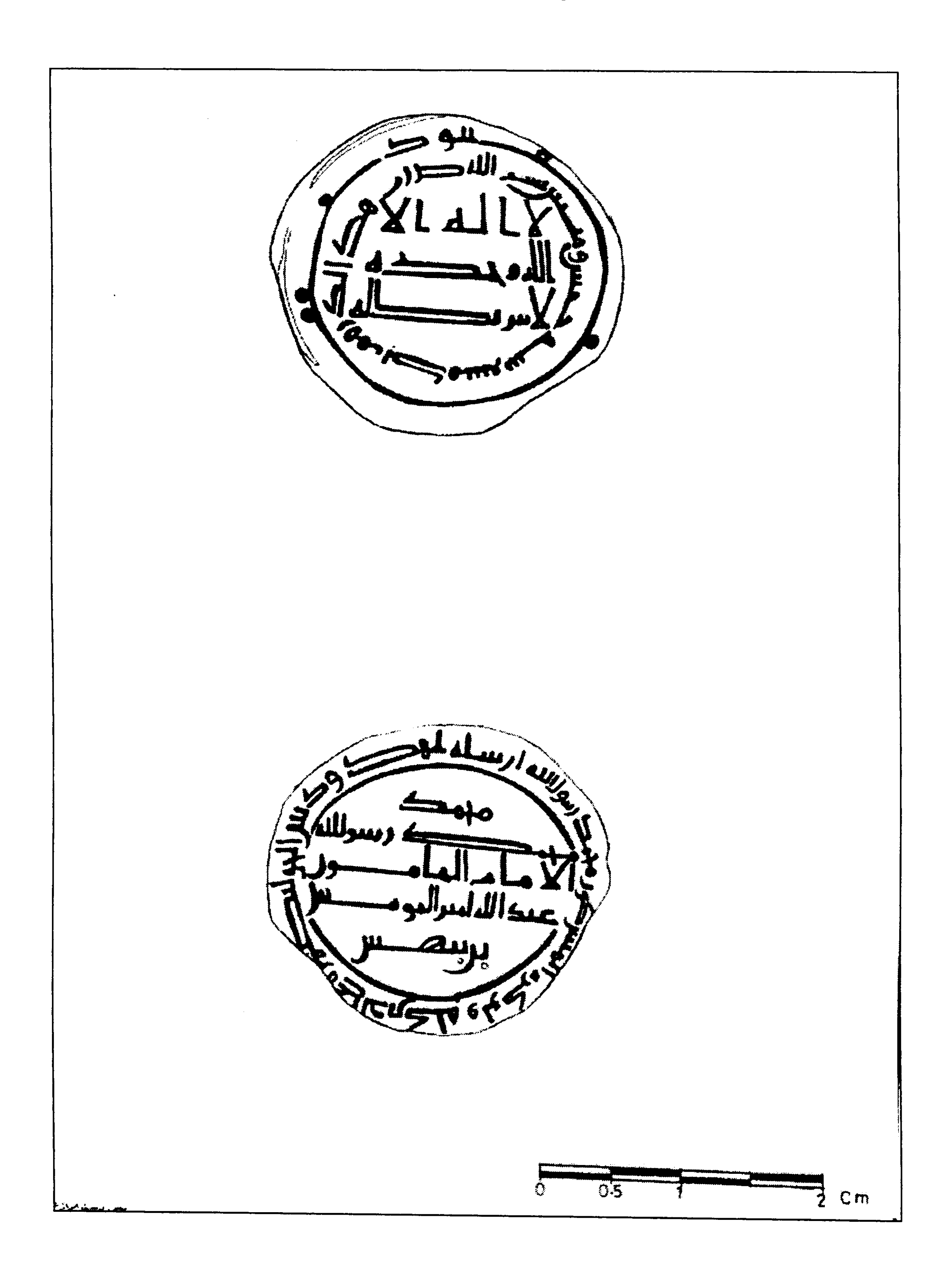
النتيجة

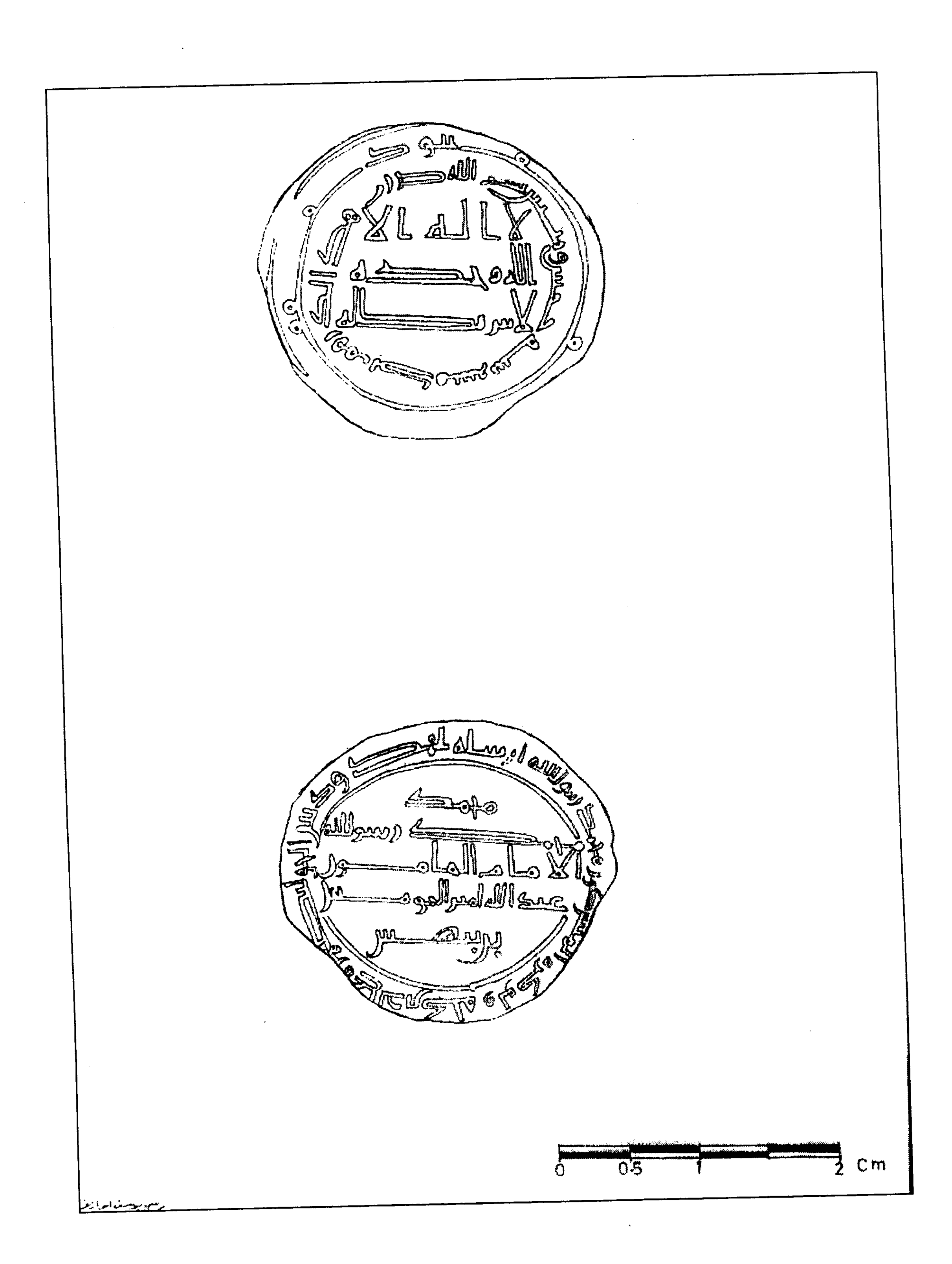
توصـــلت الدراســـة ومن خلال قراءة درهمين جديدين من دراهم محمد بن بيهس أن الكلمة المدونة على مدار وجـــه هـــذه الدراهـــم هي "تبوك" وليس "بنود" كما تعزو ذلك بعض الدراسات القديمة في مجال علم النميات وأن مجـــريات الأحـــداث التاريخية تؤكد أن محمد بن بيهس كان له دوراً كبيراً في تتبع فلول الأمويين من "شبعا" بلبنان وصولاً إلى تبوك في شمالي المملكة العربية السعودية. وأن دوره كان مهماً وكبيراً في ظل حكم الخليفة العباسي السابع المـــأمون، حيـــث اعترف بن بيهس بسلطته اعترافاً اسمياً، لذلك لم يترك فرصاً تفوته لتوسيع حدوده وسيطرته لتغطي مـــنطقة واســـعة من شبعا شمالاً إلى تبوك جنوباً مروراً بدمشق وحوران والفدين وعمان وحسبان والبلقاء حتى عُمان وبمساعدة شقيقه يحيى بن صالح الذي كان ساعده الأيمن في مطاردة فلول الأمويين ضمن المنطقة السابقة الذكر.

وأضافت الدراسة أن دراهم بن بيهس على قدر كبير من الأهمية لقلة ما نشر منها حتى الآن وهي موزعة على سنوات ضرب ما بين ١٩٨- ٢١١هـــ باستثناء السنوات ٢٠١هـــ، ٢٠٢هـــ، ٢١٠هـــ، وأن أهم المتاحف العالمية بـــل والعربية تفتقر مقتنياتها لدراهم بن بيهس وتؤكد الدراسة أن تلك الدراهم لم تضرب ضرباً جيداً و لم تنل الرعاية [illegible]



مناطق نفوذ محمد بن بيهس الكلابي


0
0.5
1
2 Cm


0
0.5
1
2
cm

التعليقات

(١) ابـــن تغـــرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ١٤ جزءاً (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومـــي، ١٩٧٤م) "طبعة جديدة"، ٢: ١٩١، ٢٠٠-٢٠١؛ بن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، *تاريخ بن خلدون* (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١م)، ٣: ٢٣٤ – ٢٣٥.

(٢) ابـــن الأثـــير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، *الكامل في التاريـــــخ*، ١٣ جزءاً (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥م)، ٦: ٢٤٩-٢٥٠.

(٣) عـــلي، محمـــد كرد، *خطط الشام*، ٦ أجزاء (بيروت: دار صادر، دمشق: مكتبة النوري، ١٩٨٣م)، ١٥٤– ١٥٥؛ شما، سمير سليم، *أحداث عصر المأمون كما ترويها النقود* (إربد: مطابع جامعة اليرموك، ١٩٩٥م)، ١٦٤-١١٦٥.

(٤) ابن الأثير، ٦: ٢٤٩، علي، ١: ١٥٤-١٥٥.

(٥) علي، ١: ١٥٧؛ عبد الهادي، زياد، *تاريخ شبعا تحت عنوان* "نوبة حنين إلى الوطن"؛ Htt:/www-chebaa.net. History 3 – 3 2002

(٦) ابن الأثير، ٦: ٢٥٠؛ ابن خلدون، ٣: ٢٣٤؛ شما، أحداث، ١٦٥.

(٧) ابن الأثير، ٦: ٢٤٩-٢٥٠، ٣٠٤، ٣١٠-٣١١، ٣٩٦؛ الطبري، محمد بن جرير، *تاريخ الرسل والملوك*، ١٠ مجلدات، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ٨: ٥٦٦-٤١٥، ٩: ٤٩، ٥٢-٥٤؛ شما، *أحداث*، ١٦٣-١٦٤.

(٨) الفدين، تصغير الفدن وهو القصر المشيد، وهي قرية على شاطئ الخابور ما بين ماكسين وقرقيسيا، وقد قيل أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك جمع فقهاء من أهل المدينة فيهم عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يستفتيهم عن الطـــلاق قـــبل النكاح، فمات عبدالرحمن "بالفدين" من أرض حوران ودفن فيها، انظر: محمود، فايز، *المفرق تاريخ صحراوي* (عمان: دار الأفق الجديد، ١٩٨٣م)، ١٢.

(٩) علي، كرد، ١: ١٥٨، محمود، ١٢.

(١٠) الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم *البلدان*، م٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٥٧م)، ٢٤٠-٢٤١، محمود، ٤٠.

(١١) الدبـــاغ، مصـــطفى مراد، *القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين* (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩م)، ٢١٤؛ وانظر: *بلادنا فلسطين*، ق١، ١: ٣٣٠.

(١٢) بيضون، إبراهيم، *حملة مؤتة مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الإسلامية في بلاد الشام*، "المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في صدر الإسلام"، م٣، تحرير محمد عدنان البخيت (عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م)، ٤٧– ٧٧.

(١٣) ابـــن الأثـــير، *الكامل*، ٢: ٢٧٧؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع، *الطبقات الكبرى* (بيروت: طبع دار بيروت، ودار صادر، ١٩٥٨م)، ١٦٥؛ بيضون، *حملة مؤتة*، ٤٨.

(١٤) عـــلي، جواد، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ٣: ٤٩؛ بيضون، *حملة مؤتة*، ٥٠؛ ابن خرداذية، *المسالك والممالك*، ٩٧.

(١٥) عباس، إحسان، *تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي*، ١٣٢ – ٢٥٥هـــ/ ٧٥٠-٧٨٠م (عمان: ١٩٩٢م).

(١٦) شمـــا، سمير، حكم *محمد بن صالح بن بيهس الكلابي بدمشق كما تظهره النقود*، مجلة اليرموك للمسكوكات، م٦ (إربد: مطابع جامعة اليرموك، ١٩٩٤م)، ١٣– ٢٤، ١٨.

(١٧) Miles, G.C. Rare Islamic Coins, The American Numismatic Society, New York, 1950; No, 252, pp. 66-69; - Cadrington, O. Some Rare Oriental Coins, No, 270, 1902, London.

(١٨) Tubingen University Museum, Excavations Near the Baltic Shore, Folia Orient, Vol. 25, 1988, pp. 157-169; وانظـــر، *جمعية المسكوكات الأمريكية*، ; - Numismatic Literature No. 126, Sept., 1991, No. 207, p. 37.

(١٩) Lavoix, H. Catalogue des Monnaies Musulmanes dela bibliotheque Nationale, Vol. I, 1887, No. 1262, 907; Tiesenhausen, W. Monnaies des Khalifes Orientaux, St. Petersburg, 1873, No, 1705, p.189.

(٢٠) Shamma, S. Collection, The Ashmolean Museum, Oxford, "From Spink Sale 1-6" 1988, No. 242وانظر: Lavoix, H. Vol. I, No. 907, p.221; Tiesenhausen, W. No. 1705, p.189:

(٢١) Miles, G. C. RIC, No. 257, p.72; Artuk, Ibrahim Cevriye, Istanbul Arekeologji Museleri; Teshirdeki Islami Sikkeler Katalogu, Vols. 1-11, Istanbul, 1971 – 1974, No. 302. P.87
وانظر: شما، *اليرموك للمسكوكات*، ١٩٩٤، ع٦، ١٧.

(٢٢) Shamma's collection. The Ashmolean Museum, Oxford; ANS. No. 1980, 35-36; Lavoix, H. Vol. I, No. 908, p. 222; Princeton University Collection
العش، محمد أبو الفرج، *النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني*، رقم ١٨١٩، (قطر: وزارة الإعلام، ١٩٨٤م) ١: ٤٤٥-٤٤٦.

(٢٣) انظر: مجموعة الجامعة الأمريكية رقم C8344؛ مجموعة محمد لمبادا؛ مجموعة شما، شما، *أحداث*، ٧٣٣.

(٢٤) مجموعة شما، "مشترى من دمشق" شما، *أحداث*، ٧٣٣، رقم الصورة ٧٨.

(٢٥) العش، رقم ١٨٢٠، ٤٤٦؛ Tiesenhausen, No. 1796, p. 199؛ فهمي محمد، عبد الرحمن، *موسوعة النقود العربية وعلم النميات*، فجر السكة العربية (مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٥م)، ٥٨٣، رقم ١٩٨٢.

(٢٦) Tornberg, No. 320; Tiesenhausen, No. 1801. P.200; Anderson & Vasme, No. 75. مجموعـــة شمـــا، صـــورة رقـــم ٧٩، أحـــداث، ٨٠٧؛ Markov, A. Inventarny Katalog Musulmanskish Mont, St. Petesburg, 1896, No. 43.

(٢٧) دمشـــق، واسمها القديم "دمسكو" وعند الفرنسيين Damas وعند اللاتين والإنجليز Damascus وتعرف بالشام الكبيرة وهي من أقدم مدن العالم ومن أعظم مدن الشام كلها. استأثرت بعظمة التاريخ بكل أدواره، يوم كانت عاصمة للآراميين والسريانيين ومركـــز أنظـــار الفاتحين من الأشوريين والبابليين والفراعنة واليونان والرومان في الجاهلية والإسلام. وكانت دار ضرب دمشق نشـــيطة منذ العصر الروماني ولكن دمرها البيزنطيون ورجعت إلى وضعها الطبيعي على أيدي العرب وكان لها دور هام بضرب الســـكة العربية ذات التأثيرات البيزنطية ومسكوكات عليها صورة الخليفة عبد الملك بن مروان، وجاء من إنتاجها دراهم معربة ســـنة ٧٩هـــ ومجموعة كبيرة من الفلوس ودنانير ودراهم عباسية، كما ضربت فيها السكة الطولونية وكان لها دورها بضرب الـــنقود "الدراهـــم" الفضية العباسية في ظل خلافة الرشيد والأمين والمأمون ومن ذلك الدراهم موضوع البحث، انظر، زكي،

أحمد، *قاموس الجغرافية القديمة*، ط١ (مطبعة بولاق، ١٨٩٩م)، ٤٠؛ سبانو، أحمد غسان، *تاريخ دمشق القديم* (دمشق: ١٩٨٧م)، ١٣؛ الأصطخري، أبو اسحق إبراهيم، *المسالك والممالك*، تحقيق: محمد جابر الحسيني (القاهرة: ١٩٦١م)، ٥٩؛ البكري، مهاب درويش، *نفائس من الدراهم العباسية في المتحف العراقي*، مجلة المسكوكات٥٢، ١٩٧٤م، ٦٧؛ الطراونة، خلف فارس، *المسكوكات الإسلامية العباسية في متحف الآثار الأردني*، حولية دائرة الآثار العامة، م٢٩ (الأردن: عمان، ١٩٨٥م)، ١٢؛ الطراونة، خلف فارس، *المسكوكات الأيوبية(دراسة أثرية فنية)* (اليرموك: إربد، مطبعة جامعة، ١٩٩٢م)، ٣٥ -٣٦.

(٢٨) تبوك، موضع بين وادي القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة وقيل تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ماء ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ. وتبوك بين جبل حسْمى وجبل شروري وحسمى غربيها وشروري شرقيها. ويقال أن تبوك بعد أن نزلتها بعض قبائل لخم وجذام حيث نزلوا على عين ماء أمرهم رسول الله ﷺ أن لا أحد يمسّ من مائها فسبق إليها رجلان وهي تبقي بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها، فقال لهما رسول الله ﷺ ما زلتما تبوكان. ومنذ ذلك اليوم سميت تبوك بذلك الاسم و "البوك" هو إدخال الشيء وتحريكه وأقام النبي ﷺ بتبوك أياماً حتى صالحه أهلها. شما، سمير، *أحداث*، ١٩٩٥م، ٦٧؛ الحموي الرومي، *معجم البلدان*، ٢: ١٤-١٥؛ نسيم، جوزيف، *"العلاقات الإسلامية البيزنطية في الشام وتخومه في صدر الإسلام في ضوء صراع القوى بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى"*، ٢٥٥-٣٠٩، ٢٧٥، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثالث، ١٩٨٧م، تحرير محمد عدنان البخيت. الأردن – عمان، وتبوك من أرض الشام ضمن جند دمشق وقراه وأصقاعه إلى الجنوب من معان أو إلى الشرق منها فيسميها المؤرخون والجغرافيون "ارض الشام" و "أطراف الشام"، أو "مشارف الشام". وتشمل المنطقة مقنا، وتبوك، ذات السلاسل، ودومة الجندل، وكلها تقع ضمن المنطقة المحصورة بين الشام والحجاز، هذا وقد ظهر اسمها على الدراهم الفضية التي سكت بدمشق في العصر العباسي للفترة ما بين ١٩٨ – ٢١١هـ وفي ظل خلافة المأمون وإمارة محمد بن بيهس الكلابي، عطوان، حسين، *الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي* (بيروت، لبنان: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ٥٢.

(٢٩) مجموعة خاصة الأردن، أشكر صاحب الدرهمين لتفضله السماح لي بتصويرهما ونشرهما.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

المنسوجات اليمنية في العصر العباسي

علي سعيد سيف محمد
قسم الآثار – كلية الآداب
جامعة صنعاء

مقدمة:

يصعب على الباحث أن يكون فكرة عامة عن الكيفية التي بدأ بها الإنسان القديم نسج ملابسه ليدفع بها عن جسده أذى الطبيعة، فقد كان يتخذ من ثمار الأرض ونباتاتها طعامًا ومن لحم الحيوانات غذاء ومن جلود الحيوانات كساء له ومن الكهوف مأوى.

ولما كانت حاجته إلى الطعام هي الدافع الأول: لملء معدته بدأ يفكر كيف يصطاد الحيوان فأخذ يصقل ويشذب الحجر ومن ثم طور فكرته في عمل الرمح والسهم من حجر الظران ثم نصب الشباك لاصطياد تلك الحيوانات، وعندما بدأت التجمعات البشرية وبدأ نوع من الحرج من الشخص المقابل له بدأ يفكر في ستر عورته فاستخدم ورق الشجر (وقد كان أبو البشرية آدم عليه السلام أول من ستر عورته بأوراق الشجر) كما بين ذلك عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[1].

ثم كثر احتكاك البشر مع بعضهم ذكورًا وإناثًا فرأى الأوراق التي جعلها على عورته لسترها لا تفي بالغرض المطلوب منها، وأهدته فكرته إلى نسج الأقمشة وذلك ليس لستر العورة فحسب بل وحتى يحمي جسده من أذى الطبيعة سواء الحارة أو الباردة، وبرقيه الحضاري أعطى صناعة النسيج اهتمامًا بالغًا منذ فجر التاريخ ومنذ أن فكر في الاستقرار والعيش المستقر بدلاً من التنقل في الغابات، فبدأ يحرث الأرض ويزرعها وأثناء تلك العمليات استطاع أن يتعرف على المواد الخام التي يمكن من خلالها الحصول على ما يشبه الخيط وخاصة المواد الليفية.

فبدأ يكون من تلك الألياف رداءً وفرشًا ثم كانت الحاجة إلى أن يجد الآلة التي يستعين بها على عمل المنسوجات فكان أن اخترع الأنوال والمغازل الصغيرة التي يقوم بها أفراد العائلة والتي أصبحت فيما بعد مصانع تنشئها الدولة وأطلق عليها فيما بعد الطراز، أو دور الطراز، وقد كان لليمن نصيب كبير منها.

أولاً: تعريف النسيج

النسيج هو عبارة عن تقاطع خيوط طولية متجاورة تسمى السدي Weft مع خيوط أفقية عرضيه تسمى اللحمة Raft[٢]، كما أنه عبارة عن جسم مسطح رقيق يتكون إما من خيط واحد متشابك بعضه ببعض على هيئة أنصاف دوائر متداخلة ومتماسكة أو من مجموعة خيوط طوليه يطلق عليها السدى تتقاطع مع خيوط عرضيه تتداخل بشكل متساو وبانتظام مع خيوط السدى ويطلق عليها اللحمة[٣] ويحدث نتيجة التكرار المذكور في عدد من خيوط السدة.

واللحمة منسوج ذو متانة ومرونة تقل وتزيد تبعًا لطبيعة وخواص النسيج[٤].

ويعرف اللغويون النسيج فيقول ابن منظور في لسانه النسيج ضم الشيء إلى الشيء وهذا هو الأصل فيه، ونسجت الريح الربح إذا تعاورته ريحان طولا وعرضا لأن الناسج يعترض النسيج فيلحمه ما أطال من السدى[٥]، ويقول الزبيدي في تاجه ونسج الحائك الثوب، ينسجه بالكسر وينسجه بالضم ونسجت الريح الورق الهشيم جمعت بعضه إلى بعض وقيل نسج الحائك الثوب من ذلك لأنه ضم السداة إلى اللحمة فهو ناسج[٦].

ويقول ابن سيده المنسج الخشبة أو الأداة المستعملة في النساجة التي يمد عليها الثوب[٧] وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الأنسجة (ثياب – ملابس) منها قول الحق سبحانه وتعالى لنبيهﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ[١] قُمْ فَأَنْذِرْ[٢] وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ[٣] وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ[٤]﴾[٨] وقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[٩] وقوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ﴾[١٠] وقوله: ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[١١] وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[١٢] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[١٣].

المواد المستخدمة في صناعة النسيج:

وهي المواد الأولية التي تمتاز بتركيب شعري أو ليفي وتتوفر صفة المتانة والمرونة وتنقسم خامات النسيج إلى مواد طبيعية وصناعية والذي يهمنا منها هو الخامات الطبيعية والتي نحصل عليها من الحيوان والنبات.

فمن مواد النبات نحصل على القطن والكتان والقنب والبردي، ومن الحيوانات نحصل على الصوف والحرير[١٤]. ويعتبر الكتان الصوف والحرير القطن المواد الرئيسية التي يصنع منها النسيج[١٥].

الأول: الكتان FLAX:

نبات الكتاب نبات شتوي غالبًا ما يتبع الفصلية المسماة Linacol Families ويوجد منه أنواع عديدة ولكن أهمها وأكثرها انتشارًا المعروفة بالاسم اللاتيني Linum Usitatissmum[١٦] لينوم أو سيتاتسيموم وهو من النبات الذي يزرع إما للحصول على البذور أو الألياف، والألياف هي التي تدخل في صناعة المنسوجات، ويتم ذلك عن

طريق استخلاصها من سيقان الكتان[١٧].

ولقــد اخــتلف العلماء والباحثون بشأن الموطن الأصلي لنبات الكتان وأصله، ولذا يرى الباحث أنه لا يمكن تحديــد فــترة متى وأين بدأ الإنسان يستخدم ألياف الكتان في صناعة المنسوجات لأول مرة، ولكنه يمكن القول أن اســتخدام الألــياف الكتانية في صناعة الملابس كان قائمًا إبان العصر الحجري حيث كشف عن نسيج من كتان في منطقة البحيرات بسويسرا، ولكن رغم خشونة النسيج وسذاجة نسجه يضع أمامنا احتمال معرفة الكتان منذ عصور سحيقة[١٨].

كمــا أنــه عرف الكتان في العراق القديم في العصر السومري حيث ورد وصف مراحل صناعته في الكتابات السومرية من خلال مضمون قصيدة تأتي على ذكر النبات كما يذكر النص عملية تمشيط خيوط النبات وغزله وتقويته بالبرم ثم مدها ونسجها، وقد عرف الكتان في اللغة السومرية باسم Gada جادا وفي الآكدية باسم Kitu كيتو[١٩].

كما عرف في الآرامية باسم كتانا وفي العبرية باسم كولوت وفي الحبشية باسم كينان وفي اليونان باسم كيتون أو خيــنون Chi Ton. ويــبدو أن صناعة الكتان كانت متشابهة وصولاً إلى الفترات الإسلامية المتأخرة، ومن خلال وصف لأحد النصوص الخاصة بالكتان المؤرخة بحدود الألف الأول الميلادي يقرأ ما يأتي[٢٠].

"يبل الكتان في البرك، ثم يفصل بعضه عن بعض، ثم تغسل خيوطه بماء النهر"[٢١].

ثانيًا: الصوف:

وهــو عبارة عن شعيرات ذات نمو خاص تغطي أجسام الحيوانات من فصيلة الثديات، وتعرف العائلة التي تنتج الصوف باسم Ruminatia أو أسرة الحيوانات المجتزأة وأهمها الأغنام والماعز[٢٢].

وترجع المنسوجات الصوفية بلا أدنى ريب إلى عصور ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين ووادي النيل بسبب وفرة المــراعي الطبيعــية الشاســعة الــتي حباها الله سبحانه وتعالى لتلك البلدان التي سهلت تربية الأغنام ذات الأصواف الجــيدة[٢٣]. ولــذا ندرك أن الإنسان أخذ يرتقي بأصواف الأغنام ليصنع منه منسوجات سواء كانت رداء أو غيره. ولقــد تم العــثور عــلى عدد كبير من الكتابات المسمارية التي تبين أنواع الخراف الصالحة أصوافها ضمن النصوص التجارية والاقتصادية والدينية.

وقــد كانــت تفضل الخراف ذات الإلية الكبيرة عن غيرها وتعرف عند السومريين Kun Gal وعند الآكدين Guk Kallu وتســتعمل Etqu إلى نوع الصوف الممشط وكذلك جز الصوف[٢٤]، حيث كانت عملية جز الصوف من العمليات الاحتفالية القومية الكبيرة وتكون تحت إشراف المعبد في البداية ثم أصبحت بإشراف الحاكم أو الملك[٢٥] ومــن أجل القيام بعملية النسيج كان الصوف الخام يمر بعدة مراحل تبدأ بالجز. وهذه العملية تتم ضمن الاحتفالات

الخاصة والتي يقوم بها رجل من العارفين[٢٦]، ثم يغسل الصوف لتخليصه من الأتربة وغيرها من الفضلات والمواد العالقة به. ثم يشطف عدة مرات حتى يتم تنظيفه. ويستخدم إلى جانب ذلك مواد من كربونات الصوديوم أو البوتاسيوم وأنواع من الأملاح تستخدم على شكل مساحيق متنوعة لتنظيف الأصواف[٢٧].

ثالثًا: الحرير:

الحرير مادة تختلف عن جميع خامات النسيج الطبيعية بأنها لا تكون جزء أو عضواً من الكائن الحي، لكنه ينتج من تجمد مادة تفرزها دودة تنتمي في الغالب إلى الاسرتين بومبيسيدي Bombycidae وساتورنيدي Satornidae وتسمى دودة القز وأهمها المسمى بومبكس موري Bombyxmori، وتمتاز خامة الحرير باللمعان والدقة والنعومة والمزونة وقوة التحمل وهي مميزات لا تتوفر بأي خامة أخرى[٢٨].

ولقد عرف الإنسان الحرير منذ أقدم العصور إلا إننا لا نعرف كيف اهتدى إلى معرفة الحرير[٢٩].

وتجمع المصادر التاريخية على أن الأجناس البشرية التي استوطنت بلاد الصين هم أصحاب الفضل الأول في معرفة هذه المادة التي نسج منها أدق وأجمل المنسوجات وأثمنها[٣٠] ولاكتشاف هذه المادة والاستفادة منها قصة صينية يرجع عهدها إلى سنة ٢٥٠٠ق.م بطلة هذه القصة أميرة صينية تدعى (سي لينج تشي) ملخصها أنه استلفت نظرها ديدان صغيرة كانت تعيش على أشجار التوت فراقبتها ولاحظتها ملاحظة دقيقة وهدتها ملاحظتها إلى طريقة تربيتها ووسيلة استخراج الخيوط من شرنقتها وكوفئت هذه الأميرة بأن رفعت إلى مصاف الآلهة[٣١]. ونستنتج من هذه القصة أن بداية صناعة نسيج الحرير كانت في حوالي ٢٥٠٠ق.م حسب زعم القصة التي تحمل الجانب الأسطوري الذي لا يخلو من الحقيقة.

ولقد احتكرت الصين صناعة الحرير لقرون عديدة فاحتفظت بسر إنتاجه من دودة القز وتربيته، حتى يقال أنه فرضت على من يذيع سر الحرير عقوبة الإعدام. وصارت الصين البلد الوحيد المصدر للمنسوجات الحريرية، حتى أنه صار هناك طريق يعرف بطريق الحرير، وهو طريق بري[٣٢] يبدأ من الصين مارا بشمال بحر الخرز متوجهًا إلى العراق مرورًا بمدينة الحضر ثم يتجه إلى بلاد الشام ومنه إلى بحر مرمرًا عند مضيق البسفور[٣٣].

ويشأ القدر أن يذاع سر صناعة الحرير ولكنه بطريقة أسطورية أيضًا وبطلتها أميرة صينية تزوجت بحاكم مدينة خوتان (بخاري الصغرى) [٣٤] وعند خروجها إلى مقر إقامتها الجديد اخفت في ثنايا شعرها بويضات دودة القز لتفقس في موطنها الجديد ففقست هذه البويضات[٣٥] وتوالدت وانتشرت ومن هناك نقل مجموعة منها خلسة إلى بيزنطة حيث توالدت ونمت ووصلت صناعة الحرير إلى اليونان والرومان وعرفتها مصر في عصر البطالسة[٣٦].

ولقد أطلقت العرب على الحرير قبل عملية غزله (القز) وسموه بعد الغزل الإبريسم، ولا يعرف بالحرير أو الديباج إلا بعد أن يصبغ الإبريسم بالألوان.

ولقد حُرم في الإسلام لبس الحرير على الرجال وذلك خوفًا عليهم من الترف الزائد ومما يشبه الأخذ بمتع الحياة ومـــن الذهـــاب بخشونة الرجال وصلابتهم[٣٧]. كما أن رجال الكنيسة قاوموا بشدة رجال الدولة الرومانية للبسهم الحريـــر وأعلنوا عليهم حرب شعواء، ولكن تغلبت في الأخير روح الترف على الناس فأقبلوا على اقتناء ولبس الحرير. وهـــناك أحاديث نبوية شريفة أباحت لبس الحرير للنساء وحرمته على الرجال من المسلمين إلا للضرورة أو إذا كان الـــثوب مشتملاً على قدر إصبعين أو أربعة أصابع من الحرير فقط[٣٨]. والحديث الشريف الذي ينهي عن لبس الحرير هو ما رواه حذيفة ابن اليمان: "نهى النبي ﷺ أن تشرب في آنية من الذهب أو الفضة أو أن تأكل بها وعن لبس الحرير أو الديباج أو أن تجلس عليه"[٣٩].

رابعًا: القطن:

وهـــو عـــبارة عـــن ألـــياف من الشعيرات التي تحيط ببذور عدة سلالات من النبات المعروف بالجو سيبيوم Gossypium التابعة للفصيلة الخيارية Malua Cea وأهم أنواع نبات القطن النوع المسمى G. Barbadians والذي تتبعه سلالة القطن ذات التيلة الطويلة[٤٠].

وثمـــرة الشجرة عبارة عن غلاف يتفتح عند النضج ويترك البذور المحاطة بكومة من الألياف القطنية[٤١]. وكان العـــرب يطلقـــون عـــلى القطن ستة أسماء مختلفة قطن Kutn عطب Utb برس Biers توت Tout خُرفو Khurfu كرسوف Kursuf[٤٢]، ولقد انفردت اليمن بتسمية العطب وذكرت في النقوش اليمنية القديمة ع ط ب مما يدل على أنه صناعة المنسوجات القطنية كانت موجودة قبل الإسلام.

وأمـــا مـــراحل تصـــنيع القطن فتبدأ بجني الثمار وتنظيفه[٤٣] وتتم عملية التنظيف بواسطة آلة تدعى الكوربال Curable وهي نفس الآلة التي كانت تستخدم في الهند والصين[٤٤]، وهي فصل الألياف عن البذور. ثم بعد ذلك تتم عملـــية تســـوية خيوطه وتسمى هذه المرحلة بالتصفيح والتسوية[٤٥]، كما تعرف بالندف، ولذلك يقول ابن سيده: ندفت القطن ندفا وقطن نديف والمندفة ما ندفت به والنداف نادفه، وكذلك الحلج وحلجته حلجًا، والمحلاج والمحلج ما يحلج عليه وهي الخشبة أو الحجر يحلج عليه القطن[٤٦].

ولقد عرفت الصناعة القطنية في الهند حيث كان فيها مراكز زراعة القطن ونسجه منذ ثلاثين قرنًا وأن نسيجهم من القطن شمل أنواعًا ممتازة برقتها ودقتها[٤٧]. كما عرفت صناعة النسيج القطني في العراق منذ عهد الآشوريين حيث يذكـــر الملك الآشوري سنحاريب سنة (٧٠٥- ٦٨١ق.م) أنه جلب الشجرة التي تحمل الصوف من القطن قبل هذه الفترة[٤٨].

ويذكر ثيوفراستيس: أن بلاد العرب كانت من البلدان المنتجة للقطن. كما قر ذلك أيضًا بليني من بعد، واللذان عاشـــا في بداية القرن الأول الميلادي، وأن هذا النبات كان ينمو في الخليج العربي بالقرب من ساحل جزيرة العرب.

ووجـــدت آثار قطنية ترجع إلى قبائل الساميين من بلاد العرب مما يدل على أن البلاد العربية كانت من مواطن القطن الأصلية(٤٩).

وزراعة القطن كان معروفة في اليمن منذ أقدم العصور، وعرفت استخدامه في المنسوجات، بدليل ما ورد ذكره في النقوش اليمنية القديمة فضلاً عن أن البرود اليمنية البيضاء تدل على معرفة اليمن لهذا النوع من الأنسجة.

الألوان والأصباغ:

استخدم النساجون مصادر أصباغ ثلاثة هي:

أ – أصباغ نباتية.

ب – أصباغ حيوانية.

ج – أصباغ معدنية.

وكانت معظم الألوان نباتية كاللون الأحمر بنوعيه الوردي والقرمزي.

ونحصل على اللون الوردي من شجر البلوط، أما اللون القرمزي فكان يستخرج من ديدان القز أو لقرمز ويتم تحضـــير هذه الصبغة عن طريق تجفيف الحشرات وسحقها فتصبح جاهزة للاستعمال(٥٠). وهذا اللون يخلط مع محلول الشـــب عند صباغة النسيج الصوفي؛ وينتج من أجمل أطيافه اللون الأحمر الأرجواني؛ حيث كان مصدره من القواقع والمعروفة بالموركس التي كانت تنتشر على ساحل البحر الأبيض المتوسط(٥١). أما اللون الأزرق فكان يحصل عليه من نـــبات النـــيل وكان يستخلص منه العصارة الطبيعية. وهذه النبات يعرف باسم Indoxy وبعد غسلها بالماء الجاري تصبح ذات لون أخضر أولاً ثم يصبح بعد ذلك بلون أزرق غامق بعد عملية تأكسدها؛ كما تستخدم معها كربونات الصـــوديوم الـــتي تســـاعد عـــلى تثبيـــت الألوان على النسيج(٥٢). أما اللون الأصفر فيستخرج من نبات الزعفران والكركم(٥٣) والورس(٥٤) وتؤخذ من سحق أزهار وجذور النباتات المجففة ثم ينقع المسحوق الناتج في الماء البارد فينتج لونًـــا أحمر، ثم يفصل بواسطة مادة قلوية يكون أحد أطيافه اللون الأصفر، كما تؤخذ الصبغة الصفراء من سحق ثمار الرمان والسماق. وأما بالنسبة للون الأخضر فتؤخذ هذه الصبغة من خلط المواد التي يؤخذ منها اللون الأصفر مع مادة أخـــرى تعطي اللون الأزرق وهي النيلة والتي نحصل بإضافتها إلى المواد التي تنتج اللون الأصفر فينتج لونًا أخضر. أما الصـــبغة البنفسجية فتؤخذ من غدد الـــ Mossols وهو نبات ينمو على سواحل لبنان وله رائحة تشبه رائحة الثوم؛ وعـــند اســـتعماله في الصناعة تعرض للشمس فتتحول إلى اللون الأخضر ثم الأحمر ثم البنفسجي(٥٥). أما اللون البني القهوائي فيؤخذ من نبات العفص(٥٦).

تعتـــبر هـــذه أهم الألوان التي استخدمت في صناعة المنسوجات القديمة وهي مواد متوفرة في الطبيعة، وإنتاجها

والحصـــول عليها سهل. إلا أن هذه المواد الملونة للمنسوجات كانت غير ثابتة وسرعان ما تزول بمواد سائلة، ولأجل تثبيتها على المنسوج استخدمت مواد مثبته منها مادة التنين التي تستخرج من لحاء شجر البلوط والعصفر وثمار الرمان وأشجار الفستق والجوز إلى جانب مادة الشب[٥٧]، إضافة إلى مادة الطين (الطمي) والترتر (زيت حبة الخردل).

ثانيًا: زخرفة النسيج

الأولى: الرسم على المنسوج أو طباعته:

فلقد اتبع النساجون طريقة الرسم باليد مرورًا باستخدام المواد العازلة مثل الشمع والطفلة الطينية وذلك لتغطية المســـاحات والزخارف التي يراد صباغتها، فإذا غمس النسيج في أحواض الصباغة فإن المواد العازلة تمنع تسرب لون الصباغة إلى المساحة المغطاة[٥٨].

الثانية: وهي طريقة التطريز:

وهـــذه الطـــريقة تعتبر من أقدم الطرق التي عرفها الإنسان لتزيين ملابسه بأشكال مرسومة على النسيج بخيوط مغايرة، ويتم تنفيذها بثلاث غرز.

أ - غـــرزة الســـلة وهـــي عـــبارة عن خيط مزدوج وما بين الخيطين تنفذ الإبرة من الأسفل إلى الأعلى أو غرزة البلانكيت.

ب - الغرزة الملفوفة وهي عبارة عن لف الخيط حول الإبرة ثم السحب.

ج - التطريز بواسطة السداة ذات اللحمة أثناء النسيج[٥٩].

الثالثة: وهي طريقة القالب:

وهي عبارة عن رسم وحدة زخرفية على القالب الخشبي ثم تحفر حفرًا بارزًا وهو ما يطلق عليه القالب الإيجابي، وذو الـــنقوش الغائرة يطلق عليه القالب السلبي. ثم يغمس القالب بمادة الصباغة ويطبع على النسيج فيظهر رسم ملون بالصـــبغة في حالـــة القالب الإيجابي، وتكون الزخارف بعضها خالية من الصبغة في حالة القالب السلبي، بينما يطبع الإطار المحيط بها[٦٠].

(الطراز أو دور الطراز) (المصنع – معمل النسيج):

لقد أنشأ المسلمون مصانع أطلقوا عليها الطرز. وكلمة الطراز فارسية معربة ومعناها في الأصل التطريز، ثم دلت على الرداء المحلي بالوشي حال التطريز المتشابك وخاصة الرداء المزين بالأشرطة المطرزة[٦١]. والطراز كلمة تعني تقليم الـــثوب وتزييـــنه أو تطريزه بعد نسجه بكتابة تتضمن اسم الخليفة مصحوبة بالدعاء له مع اسم المدينة التي نسج بها القمـــاش وتـــاريخ النســـج واسم الوزير واسم الصانع الذي قام بنسجه[٦٢]. وتطور معنى التطريز من الشريط المطرز

بالكـــتابة إلى معــــنى آخــــر وهــــو الشريط المكتوب عليه سواء كان الشريط على حافته أو في الوسط بوجه عام، ثم اســـتخدمت بعد ذلك كلمة الطراز للدلالة على المصانع نفسها[٦٣]. ويذكر عروة ابن الزبير أن الخليفة الأموي هشام ابـــن عبدالملك أول من استخدم الطراز وعمل في أيامه الخرز والرقم وغيره من الوشي في سنة ١٠٨هـ[٦٤]. والطراز أبهـــة الملوك والسلطان. ومذاهب الدول أن ترسم أسماء ملوكها أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم مـــن الحريـــر أو الديباج أو الإبريسم على شكل شريط كتابي يختص بهم ينفذ على الثوب أو سداه لحمته بخيوط من الذهب أو ما يخالف لون الثوب[٦٥].

و نجد أن كلمة الطراز قد استعملت في الشعر العربي حيث قال حسان بن ثابت في شعره :

بيض الوجوه كريمة احسابهم شم الأنوف من الطراز الأول[٦٦]

كذلك وصف أحد جسور بغداد على نهر دجلة بطيلسان أبيض والجسر يبدو كالطراز الأسود.

ووصـــلنا مـــن الحفائـــر الأثرية طرازان هما طراز الخاصة وطراز العامة. وانفردت اليمن عن غيرها من الأقطار الإسلامية بإضافة طرازين إلى الطرازين السابقين وهما طراز الخلافة.

طراز الخاصة:

وهـــو المصـــنع الذي ينسج منسوجات تخص الخليفة وموظفيه من كبار رجال الدولة وحاشيته وما تحتاج إليه الدولـــة من أقمشة مثل كسوة الكعبة وعمل الأعلام والخلع والخيام وغيرها[٦٧] وأطلق الغربيون على دار الطراز اسم الخـــتريم Chanzem أي دار الطراز وهذه الدور كانت خاضعة لرقابة الدولة يشرف عليها موظف كبير يسمى ناظر الطراز أو صاحب الطراز، ومن واجباته مراعاة جودة النسيج والتأكد من وجود اسم الخليفة على ما تخرجه أنوال دور الطراز والنظر في مواد الصباغة[٦٨] وحتى يخرج النسيج بأبهة تليق بمن صنع لهم النسيج.

طراز العامة:

وهـــو الطراز الذي يمد الشعوب بما تحتاجه من منسوجات وملابس وكان على هذه المصانع موظفون يراقبون ســـير العمـــل[٦٩] يطلـــق عليهم صاحب الطراز أو ناظر الطراز إضافة إلى المحتسب وهو ما يعرف اليوم بجهاز الرقابة والمحاسبة.

ومما يدل على وجود طراز الخاصة والعامة في اليمن قطعة نسيج من القطن المصبوغ باللون البني والأزرق عليها شـــريط كـــتابي بـــالخط الكوفي المورق زينت نهاية حروفه المستقيمة بوريقات نباتية وتحمل هذه القطعة اسم الخليفة العباسي المقتدر بالله، ومما ينص هذا الشريط ".... صنعت في طرز الخاصة بصنعاء سنة ٣٣١هـ"[٧٠] (لوحة ٥).

وتوجد هناك قطعة أخرى من النسيج القطني المصبوغ المقلم يغلب عليها اللون السمني عليها شريط من الكتابة

الكوفـــية باللون الأبيض نصها ... (بسم الله الرحمن الرحيم نعمة من الله لعبدالله أبي العباس الإمام المعتضد بالله أمير المؤمـــنين.... ممـــا أمر بعمله في طراز صنعاء سنة أربع وثمانين ومائتين، لوحة رقم (٣) أما الطرازان التي انفردت بها اليمن فيهما:

أ – طراز الملوك في المنسوجات اليمنية (ش ٢) [٧١]:

يعتـــبر هـــذا الطراز من الطرز اليمنية الخاصة بإقليم اليمن حيث تعتبر هذه ميزة لهذا القطر لما كان يتميز به من خـــبرة في مجال إنتاج المنسوجات حيث كشفت حفريات الفسطاط عن قطعة نسيج زخارفها تتكون من ثلاثة أشرطة أفقية تزينها عناصر هندسية تتمثل في أشكال المربعات والمعينات وشريط من الكتابة الكوفية نصها "صنع طراز الملوك سنة مائتين" ومحفوظة هذه القطعة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

أ – طراز الخلافة في المنسوجات اليمنية:

يعـــد هـــذا الطراز من الطرز التي انفردت بها اليمن ومما يدل على ذلك قطعة نسيج تحمل عبارة نصها "بفضل طـــراز الخلافة" بالخط الكوفي[٧٢]. وهذا دليل على شهرة اليمن التي كانت تتمتع بها آنذاك مما جعل الخلافة العباسية تخص اليمن بهذه الطراز الذي ينتج أجمل وأدق المنسوجات.

ثالثًا: المنسوجات اليمنية في العصر العباسي

قبل الخوض في المنسوجات الإسلامية اليمنية نمهد لما كانت عليه المنسوجات في اليمن قبل الإسلام فقد ازدهرت الحضارة اليمنية قبل الإسلام ازدهارًا كبيرًا وذلك بسبب موقع اليمن على ممر تجاري بحري هام هو البحر الأحمر وممر بري وهو طريق اللبان الذي كان يمتد في ظفار حضرموت إلى ميناء قنا على الساحل الاجلنوبي ثم يسير برًا عبر الطريق فـــيمر بمديـــنة شـــبوة (عاصمة حضرموت)، ومنها إلى تمنع (عاصمة قتبان) ثم إلى مأرب (عاصمة سبأ) ثم إلى قرناو (عاصمة معين) ومنها يصل عبر الطريق مرورًا بمكة والمدينة وديدان (العلا) حتى يصل إلى ميناء غزة على ساحل البحر الأبـــيض المتوســـط. وبعد أن اكتشف الطريق البحري كانت التجارة تمر عبر مينا قنا ثم موزع (المخا) فالبحر الأحمر ولذلـــك يذكر لنا صاحب كتاب الطواف حول البحر الأرتيري الذي عاش في المائة الأولى من الميلاد قائمة بالتجارة المستوردة إلى موزع[٧٣]. وهذه القائمة تحتوي على منسوجات أرجوانية اللون ناعمة الملمس ومنها أيضًا أنواع خشنة، وهـــي الملابـــس ذات الأكمـــام وغير مزخرفة ومحاكة بالذهب وملونة بالزعفران إضافة إلى العباءات والبطانيات[٧٤] والفوط[٧٥] والتي ما زالت تستخدم حتى عصرنا الحالي.

ومـــع ذلك فإن النسيج في اليمن يتميز في كل منطقة عن المناطق الأخرى إلا أن الكثير منها يتشابه في التزيين والزخـــرفة، ومن ذلك ما كان يستخدم في عمل (العِدْل والخروج) والتي توضع فيها أحمال الحمير. هذا وقد تحدثت الـــنقوش اليمنـــية القديمـــة عن المنسوجات حيث يذكر نقش النصر (جلازر ١٠٠٠) غَزَّالين في مناطق العود وقبيلة

العــواذل، وقــد ذكر ذلك النسيج باسم (ح ل ل ت) وهي ما يطلق عليه في العربية (الحلة) حيث استخدمت هذه الكلمة لوصف منتوج يمني[٧٦].

إضــافة إلى ذلك فقد كشفت الحفريات الأثرية عن مومياوات في منطقة شبام الغراس[٧٧] وعددها خمس وهي ملفوفــة بلفائف كتانية ويرجع تاريخها إلى ٢٨٠ق.م حسب تحليل c14، وهذا يدل على أن اليمن كانت على دراية كــبيرة بفــن النسيج. كما أن الشعراء العرب في الجاهلية أفاضوا في أشعارهم في وصف النسيج اليماني مما يدل على اختصــاص اليمن بفن صناعة النسيج وقد وصفها أحد المسلمين الأوائل وقال عنها بأنها ولاية غنية بالمنسوجات التي تنــتجها. ويقول الأزرقي أن الكعبة كسيت من قبل ملوك التبابعة الحميريين من اليمن لفترة طويلة قبل ظهور الإسلام وذلك بقماش الوصائل[٧٨].

وفي أثناء حكم كسرى فارس (خسرو انوشروان) (٥٣١- ٥٧٩م) احتلت اليمن بعثة عسكرية فارسية اتى بها ســيف بــن ذيزن والتي عُدت فيما بعد ولاية تابعة للحكم الفارسي. وفي ذلك يقول الثعالبي: (أن المنتجات الخاصة بالولاية اليمنية كان يجلبها انوشروان إلى فارس). ويذكر أيضًا الأصفهاني في كتابه الأغاني أن باذان حاكم اليمن من قبل فارس أرسل إلى كسرى فارس قافلة تحمل ثيابًا يمنية ومسك وطيب وعنبر وهي خراج البلاد اليمنية أو ما تسمى كجزية فيها من الملابس ولأحزمة والفوط إلا أن هذه القافلة لم تصل إلى مرفأها لأنها نهبت على الطريق الخارجي[٧٩]، ويعود ذلك أن اليمنيين كانوا غير راغبين بالحكم الفارسي.

لذلك كان هناك تبادل تجاري مع فارس –أيًا كان نوع هذا التبادل- وخاصة في النسيج لذا يقول سيرجيت أنه صــنع ملابــس مــن النوع العدني (سيأتي ذكره) في أصفهان ونيسابور، وصنع أيضًا قماش صوفي يدعى السعيد[٨٠] (ســيأتي ذكــره). ويذكر الجهشياري قائمة الخراج الذي كان يرسل من اليمن وهي مملؤة بالملابس، فيذكر أن طول القمــاش ٥٠٠ ذراع وهي ثوب من القماش اليمني. وقد اهتدى آخر الحكام الفارسيين في اليمن إلى الإسلام في عام ٦٢٨م وبدخولــه الإسلام أصبحت اليمن ولاية إسلامية. وقد اعتاد النعمان ابن المنذر ملك الحيرة على أن يرسل إلى ســوق عكــاظ عــندما يحل الموسم عطرًا لبيعه وينفق عائداته على الجلود والحبر والعصب والحرير الموشي والعدني المسير[٨١].

والمعلومــات عن الأنسجة اليمنية قبل الإسلام جاء ذكر أغلبها على ألسنة الشعراء العرب، من ذلك ما ذكره الشاعر امرؤ القيس في معلقته[٨٢].

خرجتُ بها أمشــي تَجُّر وراءَنــا	على أَثَرَيْنا ذيــــلَ مِرْطٍ مُرَحَّــلِ
إلى مثليهـــا يرنو الحليــمُ صبابــةً	إذا ما اسبَكَرَّت بين درعٍ ومِجْولِ
فَعَنَّ لنــا سِــرْبٌ كــأنَّ نعاجَــهُ	عَــذاريَ دَوارٍ في مُــلاءٍ مُذَيَّــلِ

أما عن المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي فقد أشارت كتب اللغة والمعاجم وغيرها في بعض مواضعها إلى أن بلاد اليمن قد اشتهرت منذ أقدم العصور في إنتاج أنواع الملابس والأنسجة[٨٣].

ونذكر منهم ابن منظور في لسانه غير أن وصفه كان نظريًا لتلك الملابس وكذلك كتاب السير والتراجم فنذكر منهم ابن سعد في كتابه العظيم الطبقات الكبرى، وذكره الألبسة التي كان يرتديها ممن ترجم لهم، كما أورد أنواع الألبسة كُتَّاب التاريخ كالطبري وغيره[٨٤]. وصناعة الأنسجة كانت أبرز حرف أهلها، فيروي أن خالد بن صفوان أجاب رجلاً أطنب في التفاخر في اليمن فقال له ما عساي أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد أو دابغ جلد أو سائس قرد[٨٥]. وكانت اليمن أكبر ممون لشبه الجزيرة العربية حيث كانت تصدر كل ما تحتاجه الجزيرة العربية من البسة وأنسجة[٨٦]، ومن اشهر منسوجاتها البرد والخال والوصائل والحبرة والسحل والمعافرية والأتحمية والصعب والجندية والنجرانية والسعيدية والعدنية والحضرمية والحميرية والصيرية والحيشانية والشرعبية والحلل.

وتشير كثير من المصادر العربية إلى الأنسجة اليمانية والتي يظهر من إشاراتها أنها (أي الأنسجة) كانت موجودة في العراق والحجاز غير أن أكثرها برود من اليمن، مما يدل على سعة انتشارها. ويروي ابن الفقيه أن الكعبة كساها النبي ﷺ بالثياب اليمانية أو إزارا غليظًا مما يصنع باليمن[٨٧]. وتشير المصادر إلى أن النبي ﷺ عقد معاهدة هدنة مع نصارى نجران قضت بأن يدفعوا جزءً من الجزية على شكل قماش وأن المبعوث النجراني الذي قدم المدينة كان يرتدي قماشًا مخططًا (حبرة) وعباءة مذيلة حاشيتها بالحرير حيث كان الحرير ينسج في اليمن قبيل الإسلام[٨٨] وحتى انتهاء الهدنة ثم دفع ٢٠٠٠ عباءة. وبعض المصادر الأخرى تذكر ألف عباءة هذا ويذكر الثعالبي أن مائتين عباءة جلبت إلى بغداد في عهد الخليفة المأمون من اليمن[٨٩].

وقيل أن الرسول ﷺ ذكر أن حاكم الجند كانت له أم فارسية[٩٠] ويقال أنها حميرية اعتادت أن تغزل وتأخذ خيوط الغزل معها من اليمن[٩١]. هذا وقد ترك الرسول الأعظم ﷺ ملابس حيث ذكرت كتب السير أن الرسول ﷺ ترك قميصًا صحاريًا وآخر سحوليا. وذكر أيضًا أن النبي ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة. كما ذكر أيضًا أن الرسول ﷺ ترك ثوبين حبرة وإزارا عمانيًا وثوبين صحاريين وقميصًا صحاريًا وآخر سحوليًا وجبة يمانية وكساء أبيض[٩٢].

بينما نجد أن حفيد النبي ﷺ الحسين عليه السلام كان يرتدي سروالاً من نسيج صوف يمني[٩٣]. وكان الشاعر عمر ابن أبي ربيعه يرتدي عباءة يمنية، وكذلك الشاعر الفرزدق كان يرتدي عباءة يمنية مخططة[٩٤]. ويقال أن هشام بن عبدالملك كان له خيمة أعدها لنفسه مصنوعة من نسيج صوفي مخطط (حبرة) صنعها له يوسف بن عمر في اليمن. وثمة خيمة أخرى تحتوي على أربعة فرش معدة للنوم ومصنوعة من حرير الخز الأحمر بصحبة وسائد من الحرير.

وكان هشام بن عبدالملك يرتدي قميصًا مخططًا وعمامة من حرير الخز الأحمر. وهذا القول يدعونا إلى الاعتقاد

بأن خلفاء بني أمية كانت لهم مصانع نسيج ملكية في اليمن، يؤيد ذلك ما كشفت عنه الحفريات في مدينة الفسطاط في مصـــر والتي سجل على النسيج المكتشف ما يعرف بطراز الملوك وأيضًا طراز الخلفاء. والذي يوحي بمكانة اليمن آنـــذاك في صناعة النسيج إضافة إلى ذلك ما أورده الجهشياري[٩٥] من قائمة بالمنتجات الخاصة بالولايات اليمنية والتي جلبت إلى بيت المال في بغداد أثناء حكم الخليفة هارون الرشيد ١٧٠- ١٩٣هـــ وهذه القائمة صنفها مسؤول الخدم في عهـــد حكم الخليفة المهدي وهي الخراج السنوي. والذي قدر بنحو ٨٧٠ ألف دينار من دون الثياب، وأما طبيب الرشـــيد وهـــو بختيشوع فكان يحصل على ثلاث ثياب من الثياب اليمنية سنويًا[٩٦] وهي من النوع المشجر المعروف بالوصائل.

ويذكـــر الجـــاحظ أنســـجة صوفية وحريرية يمنية، وأن من بين صادرات اليمن عباءات. ووفقًا لما أورده ابن خرداذية فإن صادرات اليمن هي من الأنسجة الصوفية الموشاة والمشجرة وأثواب أخرى وكذا العنبر والورس والبغال والحمير[٩٧]. ويقول ابن الفقيه أن أقوام من اليمن كان لبسهم عباءات يمنية (حلة) وثياب صعدية وعدنية. إضافة إلى ما ذكـــره الهمـــداني مـــن أن هناك أصناف ملوكي ثمين منسوج من الحرير وأصناف جلدية وهي التي لا يصيبها البلل والـــرطوبة حين يكون الجو ممطرًا وهذا الحرير غاية في الروعة[٩٨]، في حين يذكر المقدسي أن مزايا المناطق المختلفة في اليمن وتنوع تضاريسها أدى ذلك إلى تنوع في أنسجتها والتي نذكر منها جلد زبيد والصبغ النيلي – وهذه الصبغة ما زالـــت تستعمل حتى الآن- وهي أشبه بزرقة السماء، وقماش من الكتان من عدن وهي مفضلة على كتان القصب، وأنســـجة مـــن المحاجـــر تسمى ليف، والعباءات المخططة، والبرود السحولية، والفرش الجلدية، والحقائب السعيدية والقمـــاش الســـعيدي من صنعاء، والورس من عدن[٩٩]. وعلى ضوء ما سبق فقد تمتعت اليمن آنذاك بسمعة طيبة في صـــناعة النســـيج، ولذا يؤكد لنا الثعالبي أن العباءات المخططة من اليمن تعتبر من قائمة المواد الغالية الثمن. ويقول صـــاحب الموشح أن السادة المتأنقين في ذلك العصر يرتدون عباءات مكشكشة أو موشاة. وعلى هذا الأساس يذكر ابن خلدون وهو يبين التقدير الذي يضفي على الصناعات اليمنية ما نصه "دامت الفنون في أرض الحضارة لو حافظوا عـــلى الصناعة وخاصة من أولئك الغرباء على اليمن (صناعة النسيج الوشي ونسيج العصب ونسيج الملابس وأنسجة الحرير لوصلت إلى حد الكمال في الصنعة)"[١٠٠].

هـــذا ويقرر القلقشندي عن وجود مصانع للتطريز في اليمن وهي التي تعتبر إحدى العلامات المميزة للخليفة – هي أثواب الخليفة. وقد قال عماد الدين وهو والي حماة في تاريخه عن الملك السعيد إسماعيل وهو أحد ملوك الأيوبيين أنـــه تصـــرف بحماقـــة وطـــيش إذ أنـــه زعم، والزعم مطية الكذابين، أنه كان واحدًا من بني أمية وارتدى ملابس الخلافة[١٠١].

كما يذكر ابن بطوطة أن ملك اليمن وهو المعظم يوسف بن عمر بن رسول اعتاد على إكساء الكعبة حتى أن الملـــك المنصور قلاوون المملوكي حرمه هذا الحق[١٠٢]. ويذكر الخزرجي أنه في الثامن من شوال سنة ٨٠٠هـــ جهز

الملك الأشراف إسماعيل محمل الحج إلى مكة المشرفة بما لابد منه من المال والكسوة[١٠٣].

أنواع الأنسجة:

يصعب على الباحث أن يجد مصدرًا يتحدث عن أنواع الأنسجة اليمنية، ولكن يمكن من خلال الإشارات التي يوردها المؤرخون وأصحاب المعاجم وكتاب السير تكوين فكرة بسيطة عن الأنسجة اليمنية، كما أن الكتب التاريخية الخاصة باليمن لم تشر أو تفرد فصولاً عن هذه الأنسجة وإنما شذرات عن أبهة ملك ووصف ارديته وملابسه.

ومـــن خلال استقصاء أنواع الأنسجة وجد الباحث أن تسميات الأنسجة اليمنية هي نفس التسمية التي كانت مســتعملة منذ عصور ما قبل الإسلام وحتى العصور الإسلامية المتأخرة، وسميت أيضًا نسبة إلى مكان النسج فيها أو دور الطراز، وهذه الأنسجة هي:

١ – اليمنية:

وهـــو نوع من النسيج اليمني ولقد جاءت الأنسجة اليمانية في العراق، وذلك عندما قدم عبيد الله بن زياد إلى الكوفة لدى سماعه خبر مجيء الحسين بن علي إليها فأخرج ثيابًا مقطعة من مقطعات اليمن[١٠٤].

كما روي أن الشعبي كان يلبس عمامة حمراء يفخر بها من ثياب اليمن وقد ورد ذكر اليمانية في بعض الأبيات الشعرية منها:

يا جفنه كإزار الحوض قد كفاؤ ... ومنطقا مثل وشي اليمنية الحبرة

وقال الأسدي

إن المـــودة والهـــوادة بيننـــــا ... خلق كسحق اليمنية المنجـــاب

٢ – البرود:

ضرب من ضروب المنسوجات اليمنية وتعتبر أشهر أنسجة اليمن حيث تذكر مقرونة باليمن "كالبرود اليمانية" ويـــروى ابن سعد في طبقاته أن النبي ﷺ كان له برود يمانية طوله ستة أذرع في ثلاثة أذرع[١٠٥] كما يروي الواقدي بسنده قال رأيت عثمان بن عفان وعليه برود يمانية ثمنها مائة درهم[١٠٦] ويقول حميد بن ثور.

اجد بليلي مدحة عربيـــة ... كما خبر البرد اليماني المسبغ

ويعرف ابن منظور البرد من الثياب وقال ابن سيده البرد ثوب فيه خطوط وخصه بعضهم بالوشي والجمع أبراد أو برود[١٠٧].

والـــبردة كساء يلتحف به وقيل إذا جعل الصوف شقة وله أهداب فهي بردة وعليه شبه منديل من صوف قد

اتزر به فقلت ما تسميه قال بردة. وقال الأزهري: وجمعها برد وهي الشملة المخططة. وقال الليث البرد معروف من بـــرود الصعب والوشي. وقال: وأما البرود فكساء مربع أسود فيه صفرة تلبسه الأعراب[١٠٨]. إضافة إلى ذلك فهناك نصـــوص تحدد نسبة البرود اليمانية إلى اليمن فيروي دينار جد سليمان المكتب أنه رأى عليًا وعليه نجرانيان. والمقصود علـــيه حلـــتان نجرانيـــتان. ويروي عفان بن مسلم عن أبي عوانه عن عبدالله بن حنش: رأيت على ابن عمر بردين معافريين[١٠٩] مما يرجع نسبتها إلى اليمن وإلى منطقة المعافر في محافظة تعز بالجمهورية اليمنية.

٣ – الأتحمي:

ضرب من البرود وواحدها اتحمى وهي المتحمة وانشد الشاعر

صفراء متحمة حيكت تمائمها　　　من الدمقس ومن فاخر الوطواط[١١٠]

والأتحمي نوع من البرود قال رؤبة، أمسى كسحق الاتحمي يرسمه

وقال الشاعر:

وعليـــــــــه اتحمـــــــــي　　　نسجـــه مـــن نســـج هـــوارم

غزلتـــــه أم حلمـــــــــي　　　كـــــل يـــوم وزق درهـــــم

وقال وصهوته من أتحمي مشرعب. وآخر يقول: مثل الأتحمي أتحمه أصبح اتحمية كالثوب الأتحمي وقد اتحمت الـــبرود اتحامًا فهي متحمة[١١١]. ويقال: تحتمت الثوب إذا وشيته ووشي متحمم اللون إلى الشقر كأنه شبه بالأتحم. ويقال المذاهب البرود الموشاة وهو أرفع الأتحمي وهذا ما يدل على أن الأتحمي أنواع وأصناف موشاة[١١٢].

٤ – الخال:

الخال ثوب من ثياب اليمن[١١٣] وهو ضرب من برود اليمن وقيل هو الثوب الناعم[١١٤] قال الشماخ:

وبُردانِ من خال وسبعون درهما　　　على ذاك مقروظ من القد ماعز

وقال امرؤا القيس:

وأكرعة وشي البرود من الخال　　　والـــــخال اللـــــــــــواء[١١٥]

٥ – الحبرة:

الحـــبرة ضرب من برود اليمن[١١٦] وتجمع حبر وحبرات وهي من البرود اليمانية، يقال: برد حبير وبرد حبرة. وفي الحديـــث أن النبي ﷺ خطب خديجة (رضي الله عنها) وخلقت إباها بالعبير وكسته بردًا أحمر. والحبير من البرود مـــا كـــان موشى. وفي حديث أبي ذر "الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وألبسنا الحبير. وقال ﷺ: "مثل الحوا ميم في

القـــرآن كمثل الحبرات في الثياب". والحبير بالكسر الموشى[١١٧]. وقد سجي رسول الله ﷺ حين توفي ببرد حبر، أي أن الحبرة من البرود اليمانية.

ولكن هناك أنواع أخرى من البرود غيرها. والحبرة صفة لاسم مكان فهي إذا ليست مقتصرة على مكان واحد من اليمن. والموشاة المخططة من الثياب[١١٨].

٦ – العَصْب:

الصـــعب بفـــتح العين وسكون الصاد ضرب من برود اليمن، وواحده وجمعه سواءَ يقال: برود عصب أو برد عصب.

قال أبو كرب أسعد التبع اليماني:

وكسونا البيت الحرام من العصب	مـــلاء معضـــدا وبـــــرودا
وأقمنـــا من الشهـــر تسعـــــا	وجعلنـــا لبابـــه إقليـــــــدا
ونحرنا سبعين ألفـــا مـــن البـــدن	ترى الناس حولهن ركـــــودا[١١٩]

والعصـــــب ضـــرب من الثياب يعصب غزله ويدرج ثم يصبغ ويحاك برود عصب[١٢٠]. ولقد ورد ذكر عصب الـــيمن في نصوص عديدة، فيقول الأصمعي: أربعة أشياء قد ملأت الدنيا لا تكون إلا باليمن الورس والكندر والخطر والعصـــب. ويقـــول المقدســـي: الـــيمن معدن العصائب والعقيق والأدم الرقيق وبرود سحولا والجريب وسعيدي صـــنعاء[١٢١]. ويـــبدوا أن العصب كان من لباس المترفين الذي يكون غالي الثمن وهناك اختلافات في لبسه للأغنياء والفقراء وقد وردت العصب في بعض الأشعار قال وضاح:

وأبصرت سلمى بين بردي مرجل	وابراد عصب من مهلهلة اليمن

وقال:

ونلبس من بز العـــراق مناصفـــا	وأبراد عصب من مهلهلة الجند

ويقول كثير:

لبسنا ثياب العصب فاختلطا السدى	بنا وبهم والحضرمي المخضر[١٢٢]

والعصب برود يمانية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج أو بوضع غزله سوية ويقيد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشيا بنقاء ولا يسمح للمعتدة لباسها ويسمح لها بارتدائها، ولا تخضب الأثواب بأكملها وتدعى أثواب مخططة بالـــبرود. أما الذي يحظر ارتدؤه في تلك الحالة فهو ثوب صبغ بالبول[١٢٣] وفي حديث عمر ﷺ أن النبي ﷺ أراد أن ينهي عن عصب اليمن. وقال: نبئت أنه يصبغ بالبول، ثم قال: نهينا عن التعمق.

٧ – الجندية:

هي ضرب من برود اليمن وينسب إلى الجندية ومنها العصب، وقد أشار وضاح اليمن في بيت من الشعر:

ونلبس من بز العراق منا صفًا وأبراد عصب من مهلهلة الجند

إلى جانب ذلك يرد ذكر للثياب الجندية في شعر عمر بن أبي ربيعة يقول في بيت منه:

شق عنها محقق جندي فهي كالشمس من خلال السحلب

ويذكر ابن منظور في حديث سالم: سترنا البيت بجنادي أخضر، فدخل أبو أيوب فلما رآه خرج إنكارًا لله، ولا نعرف سبب ذلك وربما أنه كان مما يصنع بالبول – قيل هو جنس من الأنماط، أو الثياب يستر بها الجدران[١٢٤].

٨ – النجرانية:

لقد وردت الثياب النجرانية وذلك عندما عقد النبي ﷺ معاهدة هدنة مع نصارى نجران يدفعون بموجبها حلل كجزية أو ما سمي بصلح المال واختلفت الروايات في عددها[١٢٥] إضافة إلى ذلك قال أنس ابن مالك: "كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برود نجراني غليظ الحاشية[١٢٦].

٩ – السعيديه والتزيديه:

ضرب من البرود اليمانية، ويصف المقدسي أن ما تشتهر به صنعاء القماش السعيدي، ويذكر ابن حبيب في شرحه أنه شبه طرائق الدم في أذرعهن بطرائق تلك الدروع لأن تلك البرود تضرب في اللون إلى الحمرة[١٢٧]. ويورد ابن رسته وصفًا لصادرات صنعاء منها أردية مخصصة وعباءات[١٢٨]. ويضيف ابن منظور بأن البرود التزيدية بها خطوط حمر تشبه بذلك طرائق الدم، ويصف الشاعر:

بِرَدَّ القيانُ جِمالَ الحَيِّ فاحتملوا فكلها بالتَّزِيديَّات مَعْكُومُ

١٠ – المعافرية:

يقول ابن منظور: "المعافر قبيلة. وقال سيبويه: معافر بن مرة أخو تميم، وإليهم تنسب الثياب المعافرية. يقال: معافري[١٢٩] وقال الأصمعي: ثوب معافري"[١٣٠] ومنه حديث: "رأيت على ابن عمر بردين معافريين". وهناك عدة نصوص تذكر فيها أن الرسول ﷺ كتب إلى أهل اليمن "أن على كل إنسان حالمًا منكم دينارًا كل سنة أو قيمته من المعافري"[١٣١]. وهو من أنواع المنسوجات الرقيقة الجيدة.

ويحكى أن التبع اليماني اسعد الكامل أول من كسا الكعبة وأنه علق عليها قماشًا معافري[١٣٢] والمعافر: حي باليمن تنسب إليهم الثياب المعافرية[١٣٣]. وتشكل اليوم الحجرية وشرعب والتعزية التابعة لمحافظة تعز.

١١ – السحولية:

السحولية: ضرب من برود اليمن. والسحول نسبة إلى موضع باليمن، والسحولية ثوب أبيض من القطن[١٣٤]. وسحل والسحل والسحيل ثوب لا يبرم. غزله أي لا يفتل وسحله وسحلوه لم يفتلوا سداه، ومثل السحيل الغزل الذي لم يبرم، أما الثوب فإنه لا يسمى سحيلا ولكن يقال للثوب: سحل، والسحل ثوب أبيض. وخص بعضهم أنه الثوب من القطن الأبيض الرقيق[١٣٥]. ويذكر المقدسي أن اليمن معدن العصائب والعقيق والأدم الرقيق والبرود سحولا والجريب[١٣٦]. ولقد ذكرت الثياب السحولية في الحديث عن كفن النبي ﷺ فيروي هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أن رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة"[١٣٧].

هذا ولقد أوردت الدكتور سعاد ماهر محمد عند حديثها عن قميص رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة عن كفن النبي ﷺ جميعها تشير إلى أن الرسول ﷺ كفن بثياب يمانية (سحولية). ويروي الثعالبي عن أبي عمر والأصمعي وأبي عبيدة والليث "أن كل ثوب من قطن أبيض فهو مسحل". أشارت الدكتورة سعاد ماهر في دراستها عن مخلفات الرسول ﷺ إلى القميص بقولها: "أن القطع جميعها تمتاز بأنها بيضاء اللون وخالية من الزخارف الملونة، وكذلك الزخارف النسيجية، وأن جميع القطن منسوج يدويًا وبأنوال بسيطة، وأن قطعتين من القطن قد تكون أجزاء من ثوب سحولي أما الأخرى فهي من الكتان"[١٣٨]. وبما أن الدكتورة أثبتت أن القطعتين من ثياب القطن الأبيض وذلك بمعمل مصلحة الآثار المصرية، وهذا الإثبات المعملي يتفق مع ما قدمه الكتاب واللغويون سالفي الذكر من أن الثياب القطنية البيضاء سحولية المنشأ.

١٢ – العدنية:

من البرود اليمانية ووردت فيه نصوص نذكر منها حديث أسامة بن زيد قال "دخلنا على رسول الله ﷺ نعوده وهو مريض فوجدناه قائمًا قد غطي وجهه ببرد عدني فكشف عن وجهه[١٣٩]".

ويروى أن ملك الحيرة النعمان كان يرتدي المنسوجات العدنية بحيث كان يرسل إلى سوق عكاظ لشراء البرد العدنية. ويذكر ابن هشام أن رجلاً كان يرتدي عباءة عدنية (حلة) عند منى أثناء أدائه الشعائر الدينية قبيل ظهور الإسلام ووهبته سيدة من الحجاز حلة عدنية كهدية[١٤٠].

هذا وقد عرفت الأردية العدنية في العراق حيث يروي الأصبهاني أنه أهدى بعض ولاة الكوفة إلى أحد الرجال رداءً عدنيًا[١٤١]. ويروي الفضل بن دكين عن عثمان قال " لقيت الشعبي في يوم عيد فطر أو أضحى وعليه برد عدني"، إضافة إلى ذلك فقد اشتهرت عدن بالعمائم العدنية، فيروي البكري: أن وفد همدان حينما قدموا على النبي ﷺ كان عليهم مقطعات الحبرة والعمائم العدنية[١٤٢]. وعند ابن هشام رواية نصها: "رأيت عثمان يوم الجمعة على المنبر وعليه إزار عدني غليظ"[١٤٣].

١٣ – الحضرمية:

يذكـــر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عندما هاجر قال لعلي ﷺ "نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضـــر". كما أن ابن حنبل يروي أن رسول الله ﷺ قام من الليل في برد له حضرمي" وقد نشد في ذلك كثير من الشعراء:

لبسنا ثياب العصب فاختلط السدي بناوبهم والحضرمي المخضر[١٤٤]

من ذلك نجد أن النسيج الحضرمي اشتهر بلونه الأخضر.

١٤ – الحميرية:

أشارت المصادر إلى النسيح الحميري، فيروي الفضل بن دكين وأحمد... عن عبدالملك بن عمير أنه قال "رأيت أبـــا موسى داخلا من هذا الباب وعليه مقطعه ومطرف حميري"[١٤٥]. والمطرف من الأردية المصنوعة من الخز المربعة ولها أعلام[١٤٦]

١٥ – الصيرية:

من الثياب اليمانية الصيرية يذكر أبوالفرج الأصفهاني أن جريرًا قدم على الحجاج فأكرمه الحجاج وكساه جبة صيريه وأنزله فمكث أيامًا[١٤٧].

١٦ – المراجل:

المراجل ضرب من البرود اليمانية وقد سميت بذلك نسبة إلى تصاوير الرجال عليها[١٤٨].

١٧ – الوصائل:

الوصائل من الثياب اليمانية البيض ومفردها وصيلة وقال صاحب العين:الوصائل ثياب مخططة بيض وحمر[١٤٩]. ويقول الأزرقي: "كسيت الكعبة من قبل ملوك التبابعة اليمنيين بفترة طويلة قبل ظهور الإسلام بقماش الوصائل"[١٥٠]. ويصف صاحب تاج العروس: أن الوصائل ثياب يمنية مخططة حمراء اللون[١٥١]، والوصيلة واحدة الوصائل وهي ثياب يؤتي بها من اليمن[١٥٢].

١٨ – الحلل:

يقـــول ابـــن منظور: الحلة رداء وقميص، والحلل برود من اليمن، ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين من جنس واحـــد[١٥٣]. قال: والحلة رداء وإزار أو غيره. ولما وصل الحسين ﷺ إلى منطقة التنعيم في طريقه إلى الكوفه "لقي بها عـــيرا قد أقبلت من اليمن بعث بها بحير بن ريسان الحميري" إلى يزيد بن معاوية وكان عامله على اليمن، وكان على

العير الورس والحلل ينطلق بها إلى يزيد[١٥٤].

١٩ – الشرعبية:

قال ابن منظور: الشرعب الطويل، والشرعبية شق الحم والأدم طولاً. وينسب إليه البرود الشرعبية قال قيس ابن الخطيم:

ألا إن بين الشرعبي وراتج ضرابا كتخديم السبال المصعد[١٥٥]

جـاء في شمـس العلـوم:[١٥٦] وإليهم تنسب الرماح الشرعبية، والبرود الشرعبية. ويقول سرجنت: أن البرود الشرعبية تعرف في عصرنا الحالي أنها تحاك من قبل حاكة يهود[١٥٧].

إضافة إلى ما سبق نجد أن هناك العديد من مسميات المنسوجات اليمنية منها المناديل اليمنية، والمتاحف اليمانية، والفوط اليمانية، والخوخة اليمانية، والجبة اليمانية.

رابعاً: أماكن صناعة النسيج اليمني "دور الطراز"

تحتل أماكن صناعة المنسوجات أهمية كبرى في تسمية الأنسجة اليمنية إذ نجد أن أغلب الأنسجة اليمنية نسبت إلى مـناطق إنـتاجها، علمًا أن بعض هذه المنسوجات غير معروف نسبتها إلى مكان معلوم. ومن المرجع أن تكون صنعاء مكان صناعتها.

السحولية (الطراز السحولي):

السـحول بضم أوله وأخره لام، وسحول قبيلة من اليمن وقرية من قرى اليمن يُحمل منها ثياب القطن يقول طرفه ابن العبد:

وبالسفح آيات كأن رسومها يمان وشته ريدة وسحول[١٥٨]

وتقع السحول ما بين عقبة إب الذهوب جنوبًا حتى القفر شمالاً وما اكتنفه من الجبال[١٥٩] وإليها تنسب الثياب السحولية، وقد جاء في عيون الأثر "كفن رسول الله ﷺ بثلاثة أثواب سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة[١٦٠] وقيل عن أثواب الرسول ﷺ وأثاثه ما يلي:

"تـرك ﷺ يوم مات ثوبي حبرة وإزارًا عمانيًا وثوبين صحاريين وقميصًا سحوليًا وجبة يمنية وخميصة وكساء أبـيض وقلانـس صغار ثلاث وملحفة ومقراض. وتشير الدكتورة سعاد ماهر أن بعض أجزاء مخلفات الرسول ﷺ القميص، وهي سحولية مصنوعة من القطن (العطب)، وهو من النبات الذي ينمو في سهل تهامة في وادي سهام الواقع على ساحل البحر الأحمر المنخفض إلى الشمال من وادي زبيد وريمة[١٦١].

المعافرية (الطراز المعافري):

المعافـــر اسم لقبيلة يمنية وتنسب إليهم الثياب المعافرية وتعرف اليوم بالحجرية من محافظة تعز، وقال الأصمعي ثوب معافر غير منسوب فإذا نسب قال معافري وقيل:

خلو المعافر دار الملك فاعتزموا صيد مقاولـــة من نســـل احـــراز

وتقـــع المعافـــر (الحجرية) اليوم جنوب مدينة تعز فيما بين برداد والضباب شمالاً وذبحان وما تاخم اصابح لحج "الصبيحة" جنوبًا وما بين بلاد المخا غربًا وخدير والجند والسكاسك شرقًا"(١٦٢).

وللمعافر سمة خاصة في الحياكة منذ العصور المبكرة، ويقال أن أبا كرب أسعد أول من كسا الكعبة بثياب معفر ويقـــال أن الـــنبي ﷺ كفن بقماش معافري وربط ابن هشام ذلك بالقول أن النبي ﷺ أمر كل يهودي في اليمن أن يدفع دينارًا أو معافريًا والمعافر رداء -قماش- مخطط(١٦٣).

الجندية (الطراز الجندي):

الجَـــنَد: بالفـــتح موضع باليمن، وهو أجود كورها. وفي الصحاح: الجند بلاد باليمن. وقيل: هي من مخاليف اليمن(١٦٤) وتتبع حاليًا محافظة تعز وتقع إلى الشمال من المدينة، وينسب إليها الثياب الجندية فيذكر وضاحٍ:

ونلبس من بز العراق مناصفا وأبرادا عصب من مهلهلـــة الجنـــد

النجرانية (الطراز النجراني):

نجران اسم واد باليمن سمي بنجران بن ريدان من سبأ الأوسط ونسب إليها الثياب النجرانية وقد ورد ذلك في معـــاهدة الرسول ﷺ مع نصارى نجران والتي قضت على أن يدفع أهل نجران ٢٠٠٠ حلة نجرانية جزية أو ما عرف بصلح الملا(١٦٥).

الحضرمي (الطراز الحضرمي):

الحضـــرمية نســـبة إلى حضرموت وهي اسم منطقة تقع في المنطقة الشرقية من اليمن على ساحل البحر العربي وإليهم تنسب البرود الحضرمية وفي ذلك يقول الشاعر:

لبسنا ثياب العصب فاختلط السدى بنـــا وبـــهم والحضرمـــي المخضــــر

وقـــد سبق الحديث عن الثياب الحضرمية إلا أن ما نضيفه الآن وهو أنه كانت آلاف الأنوال تستعمل في مدن وقرى حضرموت حتى بلغت في الشحر وحدها (١٣٠٠) نول، وبحَارَةٍ من حارات تريم (٤٠٠) نول(١٦٦)، مما يوحي بأن هذه المنطقة كان أغلب مهن أهلها النساجة.

العدنية (الطراز العدني):

نسـبة إلى مديـنة عدن وتقع على ساحل البحر العربي "خليج عدن" وهي ميناء هام على مر العصور التاريخية ولقـد شـاركت مدينة عدن في التجارة العالمية منذ العصور القديمة، فقد ذكر صاحب كتاب الطواف حول البحر الإرتيري: أنه كان هناك تجارة من عدن، وقد قدم قائمة بها (أي التجارة) منها الثياب العدنية(١٦٧). وذكر ابن هشام: أن رجلاً كان يرتدي حُلة عدنية عند منى أثناء أدائه للشعائر الدينية الوثنية، وذكر إسحاق ابن الحسين الثياب العدنية، وكذلك المقدسي ذكر قائمة من التجارة التي تأتي إلى ميناء عدن ومنها الثياب العدنية(١٦٨).

الشرعبية (الطراز الشرعبي):

نسبة إلى شرعب وهي منطقة تتبع إداريًا محافظة تعز وينسب إليها الرماح الشرعبية والبرود الشرعبية(١٦٩).

الطراز الصنعاني:

تعتـبر مدينة صنعاء من أهم المراكز العظيمة الشأن في صناعة المنسوجات، ويقول ابن رسته "وتجلب من صنعاء الجلـود والأدم والـبغال المشعرة والأنطاع والبرود المرتفعة والمصمت والأردية" ويبلغ سعر البرود عندهم بـ ٥٠٠ ديـنار(١٧٠)، ممـا يدل على أن صنعاء كانت أهم مركز حضاري في اليمن لصناعة ونسج البرود. وكتب اسحق ابن الحسـين: عن أثواب يمنية نسجت في صنعاء، وفيها مكان ينسجون فيه معروف باسم السعيدية. وذكر الخاقاني: أن حريـر الخز من الكوفة والوشي من صنعاء، وهي منسوجات جميلة، ذكر ذلك أيضًا النويري في كتابه نهاية الأدب في فـنون الأدب أن الأنسـجة المخططة لليمن والواشية المشجرة لصنعاء وهي تطريز النهاية الثوب تعرف باسم أنسجة صنعاء(١٧١).

ومعظمهـا تشير إلا أنها صنعت بطراز الخاصة بصنعاء وبعضها يحمل أسماء الخلفاء العباسيين في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما يحمل البعض أسماء أمراء اليمن وسلاطينها(١٧٢). وهناك قطعة نسيج في متحف الفن الإسلامي بالقاهـرة صـنعت بطـراز الخاصة بصنعاء تعود إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين تحمل اسم الأمير الرسي الداعي يوسف بن يحيى(١٧٣)، وقطعة أخرى بمتحف لوند بالسويد تحمل اسم الخليفة المعتمد على الله العباسي (ت ٢٧٦هـ) تشير إلى أنها صنعت بطراز الخاصة بصنعاء الخاصة(١٧٤) (لوحة ١).

كمـا أن هـناك قطعة أخرى هامة تمدنا بمعلومات جديدة عن طرز أخرى في اليمن فهي تحمل عبارة مطرزة بـالخط الكـوفي نصـها "بفضل طراز الخلافة"(شكل ١) وهذه العبارة تشير إلى أنه كان هناك طرز خاصة بالخليفة ورجال بلاطه وحاشيته(١٧٥).

إضـافة إلى ذلك هناك طراز آخر عرف باسم طراز الملوك حيث يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بقطعة من المنسوجات يزين جزءها السفلي شريط من الكتابة الكوفية وهي كلمة مكررة نصها "لا مالك أو لا خالد" ويزين

جزءها العلوي شريط من الكتابة الكوفية نصه "صنع بطراز الملوك سنة مايتين" (شكل ٢) وتعود هذه القطعة إلى عهد الخليفة المأمون(١٧٦).

هذا فضلاً عن البرود والحبر والتزيدية، ولقد ورد اسم مدينة صنعاء على النسيج بعدة أساليب هي:

أ – طراز صنعاء أو طراز الخاصة بصنعاء:

ب – طراز الخلافة.

ج – طراز الملوك.

وهـــذا يـــدل عـــلى أن مدينة صنعاء كانت في فترة العصر العباسي الأول وبداية الثاني عبارة عن ورشة عمل للمنسوجات الخاصة والعامة، وهي المدينة التي تقوم بتزويد عاصمة الخلافة بما يحتاجه من أقمشة ومنسوجات.

هـــذا إلى جانب أن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يحتفظ بقطع نسيج تحمل تواريخ ٢٦٦هـــ ، ٢٨٢هـــ ، ٢٨٥هـــ ، ٣٣١هـــ، وهذه التواريخ تقع في حكم دولة بني يعفر الذين ارتفع شأنهم منذ بداية العصر العباسي الثاني وتقلـــدوا مناصب الحكم والإدارة في اليمن وخاصة صنعاء من قبل الخلفاء العباسيين، وهذه القطع النسيجية تم العثور عليها في الحفريات الأثرية التي أجريت بمدينة الفسطاط بمصر(١٧٧). ويدل ذلك على أن النسيج اليمني كان عليه إقبال شديد في مصر.

زبيد (الطراز الزبيدي):

اشتهرت زبيد بالحياكة منذ تأسيسها وحتى العصر الحالي، ويصفها المقدسي بأنها أشبه ببوابة الصين وميناء بحري لليمن. وأورد الخزرجي: مواد دعيت زبيدا، وقد فرضت ضرائب على منتجيها من الحرير والأقمشة الموصلية، إضافة إلى أن زبيد اشتهرت بزراعة العطب (القطن) في واديها المسمى زبيد ووادي رماع. ويذكر سرجنت(١٧٨) أن أصحاب زبيد من زارعي القطن أعفوا من الضرائب. وما تزال زراعة القطن في وادي زبيد مستمرة حتى اليوم.

هـــذا وكانت صناعة الأقمشة في زبيد تمتاز بصبغة النيلة التي لا نظير لها والتي شبهها البعض با للازورد ومنها صـــنعت الثياب النفيسة بدقة متناهية يصعب التفريق بينها وبين ما كان ينصع في الشام(١٧٩). وفي مدينة زبيد ظهرت مصـــانع للغـــزل والنســـيج منذ بداية القرن الرابع الهجري ١٠م حيث أضحت زبيد سوقًا تجارية بين صنعاء وعدن، واستمرت هذه المصانع تغطي اليمن من منسوجاتها المختلفة من اللحف والبرود والفوط حيث بلغ عدد مصانعها ١٥٠ مصنعًا ومنها انتشرت صناعة النسيج إلى بقية مدن الساحل التهامي في اليمن(١٨٠).

كما اشتهرت زبيد بصناعة الأصباغ المستعملة لصبغ الملابس المنتجة من تلك المصانع والتي كان يستدعي وجود معامل لإنتاج الأصباغ خاصة أنه كان هناك منسوجات تصدر إلى خارج زبيد حيث كان الحمل (حمولة جمل) الواحد

يضم ١٢٢ بردة إضافة إلى الحرير الخالص والمخلوط بالكتان[١٨١].

خامسًا: دراسة لبعض قطع النسيج اليمني

مـــن خـــلال قطع النسيج المحفوظة في المتاحف العالمية والمجموعات الخاصة تبين لنا أن الصناع اليمنيين لم يقبلوا على تصوير الحيوانات والطيور امتثالاً لأمر الرسول ﷺ بالنهي عن التصوير وعزوف الفنان اليمني والعربي المسلم عن تصـــوير الكائـــنات الحية واللجوء إلى الطبيعة (أي تصوير كل ما ليس فيه روح)، ولذا فقد أقبل الفنان اليمني وأخيه العـــربي عـــلي تصوير الطبيعة فكان نصيب النساج من ذلك كبير فقد وجدت أغلب المنسوجات اليمنية يزينها الخط الكوفي، والذي تميز بجماله وروعته وسهولة تشكيله فنيًا فجاء الخط كقطعة فنية إلى جانب الزخارف النباتية وأنواعها فكانت منسوجاتهما كأنها ثوب ربيع "ومعظم المنسوجات مصنوعة من القطن[١٨٢] وصبغ النساج اليمني قماشه بلونين أو أكثر، وكان طريقته في الصباغة أن يصبغ الخيوط قبل نسجها فعند ما يلحم اللحمة مع خيوط السداة يبدو النسيج متنوع اللون في الخيوط ذاتها.

وكما عالج النساج اليمني الخيوط بالألوان المختلفة فقد شكل قطعة النسيج من أشرطة غير منتظمة يتراوح لونها في التغيير ما بين اللون البني إلى اللون الأزرق ومن الأزرق الفاتح إلى الأزرق الغامق ومن ثم إلى اللون الأبيض.

لـــذا نجد أن هذا الوصف ينطبق على ما كتبه الكتاب العرب المسلمون عن النسيج اليمني المخطط[١٨٣]. إضافة إلى تلـــك الألـــوان فقد نقش طرازا يبين أهمية تلك المنطقة وهذا الطراز لا يخلو من البراعة حيث ترى الكتابات فوق المنســـوجات أمـــا مطرزة بخيوط القطن غير الملونة[١٨٤]، أو بخيوط قطنية ملونة مطلية بماء الذهب. وتمثل هذه القطع المطـــرزة بكـــتابات مذهـــبة منها قطعة نسيج محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ومصنوعة بدار الطراز بصنعاء (الـــيمن) وتحمـــل أسمـــاء بعـــض الخلفـــاء العباسيين وترجع إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر المـــيلاديين[١٨٥]. إضـــافة إلى نموذج آخر عظيم الشأن، لهذا النمط في إحدى المجموعات الخاصة المحفوظة بمتحف الفن الإســـلامي بالقاهـــرة وذكـــر عليها اسم الأمير الرسي[١٨٦] يوسف الداعي بن يحيى[١٨٧] والي اليمن في القرن الرابع الهجري.

أمـــا القطع المحفوظة في مجموعة بوسطن فإن الكتابات التي عليها أخذت شكل النمط المبكر رغم شدة سذاجته ومـــع ذلـــك فقـــد ظهرت أولى العناصر الزخرفية الزهرية الشكل لوحة رقم (٢) والذي أضحى لا يخلو من البراعة والموهبة في تزيين قطع النسيج وذلك بتشابك الخطوط وانحناءها الضئيلة على الحرف الأصلي [١٨٨].

إلى جانـــب ذلـــك يعتبر القميص السحولي المحفوظ بالمسجد الحسيني من مخلفات الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام أقدم نموذج باق من العصر الإسلامي لنسيج يمني إذا صح أن القميص من مخلفات الرسول ﷺ.

وصف القطع:

يحتفظ متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن بقطعة نسيج يمنية مؤرخة بالقرن الثالث الهجري وهي ذات أرضية زرقـــاء متموجة وبنية وبيضاء (القماش أبيض) وعليها كتابة كوفية يظهر عليها التوريق والكتابات مطلية بماء الذهب ﷺ مع خط أسود للتحديد. والكتابة الكوفية تتكون من سطرين يظهر عليها بداية التوريق وهي كالتالي:

الســـطر الأول: سمك الحروف فيه (٠,٤) والثاني يماثله وسمك الحروف يه (٠,٠١٥) وتنص الكتابة في السطر الأول (بكرة من الله لعبدالله بن احمد الإمام المعتمد علي الله أمير المؤمنين؟)[١٨٩].

أما السطر الثاني: فالكتابة فيه غير واضحة ومن الصعوبة قراءتها[١٩٠] لوحة رقم (١).

يمكن تحديد تاريخ هذه القطعة في فترة حكم الخليفة المعتمد علي الله في الفترة ما بين سنة ٢٥٦- ٢٧٩هـــ.

كما يوجد في المتحف نفسه قطعة أخرى من النسيج تتميز بأن لها حاشية بنية اللون في الجهة اليمنى

وعليها كتابة كوفية بماء الذهب ونجد في حروفها تطورًا بارزًا في عنصر التوريق الطاغي على الحروف[١٩١]. وهي ذات أرضـــية زرقاء بنية وقماش أبيض اللون مقلم بلون بني عرضه (٠,٠٨) وتتكون الكتابة من ثلاثة أشرطة، على النحو التالي:

١ — شريط من الخط الكوفي ارتفاعه (٠,٠٤) ومطلي بالذهب مع خط أسود للتحديد قوام الكتابة فيه:
"بسم الله الرحمن الرحيم"

٢ - شريط من الكتابة الكوفية ارتفاعه (٠,٠٢) نص كتابته: "عز من الله"

٣ - شـــريط من الكتابة الكوفية مماثل ارتفاعه (٠,٠٢) يقع في الزاوية اليسرى من الجانب السفلي للقطعة ويصعب قراءة نصه، وهذه القطعة طولها ٧٩سم × ٤٥سم عرض، وهي بدون أهداب، لوحة رقم (٢) .

وهـــناك قطعـــة نسيج محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة تحت رقم ١٣٦٦ وبمقياس ٥٠×٢٠سم يغلب علـــيها اللـــون البني الفاتح بخطوط زرقاء رأسية سميكة وأخرى أفقية رفيعة تتقاطع مع بعضها مكونة مربعات عليها شريط كتابي بلون أبيض منفذة بالتطريز نصها: (مما أمر بعمله في طراز الخاصة بصنعاء سنة ست وستين ومائتين)[١٩٢] لوحـــة رقم (٣). ويظهر أن هذه القطعة قد صنعت في عهد الأمير إبراهيم بن محمد يعفر الذي أعاد بناء الجامع الكبير بصنعاء سنة ٢٦٥هــ.

وهـــناك قطعـــة أخـــرى مـــن النسيج اليمني مصنوع من القطن محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم ١٤٠٣٠ وبمقـــياس ٤٠×٢٢ســـم وهي ذات لون أبيض يميل إلى الأصفر عليها شريط من الخط الكوفي تنتهي قوائم حروفه بوريقات نباتية وخاصة الحروف المستقيمة، ونصه: (... عز وسلامة مما أمر بعمله في طراز صنعاء سنة اثنتين

وثمـــانين ومائتين)[١٩٣]. وتعود هذه القطعة إلى الفترة التي تولي فيها علي بن الحسين (المعروف بجفتم) والذي تولي في الفترة ما بين سنة ٢٧٩- ٢٨٢هـ (الخزرجي: العسجد ص٣٤).

إضـــافة إلى ذلـــك توجد قطعة أخرى من نسيج قطني من اليمن محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم ١٣٢١٤ وبمقـــياس ٧٠×٣٠سم خطوطها الأفقية باللون السمني وخطوطها الرأسية باللون البني وعليها شريط كتابي نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، نعمة من الله لعبدالله أبي العباس المعتضد بالله أمير المؤمنين ... ومما أمر بعمله في طراز صنعاء سنة أربع وثمانين ومائتين)[١٩٤] لوحة رقم (٤). وهي تعود إلى فترة حكم أسعد بن يعفر الحوالي.

وهـــناك قطعـــة أخـــرى من النسيج اليمني المصنوعة من القطن محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم ٢٢٠١٧ وبمقـــياس ٢١×٢٧سم يغلب عليها اللون الأصفر الفاتح عليها شريط كتابي نفذ بالتطريز ونصه: (... أمير المؤمنين أكرمه الله، مما عمل في طراز صنعاء سنة خمس وثمانين وما ...)[١٩٥] لوحة رقم (٥).

إلى جانـــب ذلـــك وجدت قطعة أخرى محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم سجل ٩٠٥٣ ومقاسها ٩٠×٢٤ســـم ومصـــنوعة من النسيج القطني المصبوغ باللون البني والأزرق عليها شريط بالخط الكوفي المورق نصه (... صـــنعت في طراز الخاصة بصنعاء سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة)[١٩٦] لوحة رقم (٦) وكما حملت هذه القطعة اسم الخليفة العباسي المقتدر بالله.

وقطعـــة أخـــرى في متحف المنسوجات توضح طبيعة المنسوجات اليمنية وهي تعود إلى القرن الرابع الهجري مخططة بخطوط بيضاء، وعليها كتابات كوفية منفذة بماء الذهب حروفها مطولة بهيئة زخرفية وتبدأ بزهرتين صغيرتين وعلى الجانب الأيسر منها زهرة واحدة لوحة رقم (٧). ويحتفظ المتحف نفسه بقطعة أخرى مصنوعة من القطن يمنية ترجع إلى القرن الرابع الهجري يزينها شريطان كتابيان بالخط الكوفي المورق المنفذ بماء الذهب المطلي بلون أسود كما يوجـــد في أسفلها شريط بجدول، وهذه القطعة محفوظة بمجموعة دمبارتون أوكسي لوحة رقم (٨). إلا أن من أبرز القطـــع المحفوظـــة بهـــذا المتحف قطعة ترجع إلى القرن الرابع الهجري عليها شريط كتابي يدنوه شريط زخرفي مطرز بزخارف هندسية والشريط الكتابي قوام الكتابة فيه سورة الإخلاص ويدنوه شريط كتابي آخر نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله و.. الحمد لله) ثم شريط ثالث يتضمن سورة الفاتحة[١٩٧] لوحة رقم (٩).

وأجمـــل الأمثلة اليمنية المزخرفة بكتابات مطرزة بماء الذهب يفخر بحيازتها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وقد صـــنعت بطراز الخاصة بصنعاء في القرنين ٣ ، ٤ ويحمل بعضها اسم الأمير الرسي، والخطوط التي تؤلف زخرفة هذه القطعـــة لونهـــا أزرق وبني (قهوائي)، أما الكتابة التي تزينها فمنسوجة من الكتان ولعل نصها (بفضل طراز الخلافة بصـــنعاء ومقاسها ٦٨× ٣٨سم ومرقمة ٩٢٦٥[١٩٨] لوحة رقم (١٠) شكل رقم (١). كما وجد هناك طراز آخر عـــرف بطراز الملوك ويمثل ذلك قطعة نسيج محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة يزين جزءها العلوي شريط من الكـــتابة الكوفية عبارة عن كلمة مكررة نصها: (لا مالك أو لا خالد) كما يزين جزءها السفلي شريط كتابي ينص

على (صنع طراز الملوك سنة مائتين) شكل رقم (٢) وهذا التاريخ يعود إلى فترة حكم الخليفة المأمون الذي حكم ما بين ١٩٣- ٢١٨هـ[١٩٩].

وقطعة أخرى يفخر بحيازتها متحف كلية الآداب بجامعة القاهرة كلية الآثار حاليًا وزخرفة هذه المنسوجات اليمنية مقصورة على الخطوط الملونة في النسيج القطني والناشئة من صبغ خيوط السداة قبل النسيج بلون أو بعدة ألوان حتى يبدو النسيج متعدد الألوان[٢٠٠] بعد نسجه وفيها الأزرق والأبيض الضارب إلى الصفرة والأسمر الضارب إلى الحمرة وقياسها ١٧×٢١سم وتحمل رقم فيسجل المتحف ١٠٦٧[٢٠١] لوحة رقم (١١).

الخاتمة:

من خلال استعراضنا في هذا البحث للنسيج اليمني يتضح لنا أن اليمن ساهمت بدور كبير في صناعة المنسوجات وتسويقها وتصديرها، فلقد صنعت اليمن منسوجات متنوعة ومتعددة سبق تسميتها ومناطق طرزها ولقد كان لموقع اليمن التجاري ووقوعها على ساحل البحر الأحمر والبحر العربي تقوم بتصدير التجارة اليمنية والعالمية وخاصة الأقمشة المطرزة المصنوعة محليًا ونسبتها إلى مناطقها.

وكذلك نجد في اليمن مناسج خاصة وعامة فمن خلال دراستنا للقطع نجد أنه كان في صنعاء مثلاً طراز الخاصة وهو خاص بالخليفة حيث كان للخلفاء الأمويين ومن بعدهم العباسيين مناسج خاصة في صنعاء إضافة إلى طراز الخلافة وطراز الملوك وهو ما دلت عليه التنقيبات الأثرية في الفسطاط التي تعتبر قرينة خارجية على صناعة النسيج اليمني.

كما تمتعت اليمن بمناسج أهلية فقد كان في صنعاء أيضًا طراز صنعاء وهو طراز العامة، وهناك إشارة إلى أنه صنع بطراز الأهلية بصنعاء. هذا بالإضافة إلى ما أورده المؤرخون وأصحاب المعاجم والسير أن في اليمن مناسج متعددة نسبت إلى مناطقها وأشهرها على الإطلاق السحولية والتي كفن بقماشها النبي ﷺ وكذلك السعيدية والتزيدية والنجرانية والشرعبية. وكانت اليمن تصدر إلى كل بقاع العالم النسيج.

فضلاً عن ذلك فقد غلب على صناعة النسيج اليمني القطن حيث كان هذا النبات من المزروعات اليمنية إلى جانب الحرير والكتان. واتبعت في اليمن طريقة في التلوين تكاد تكون منفردة وذلك بصبغ الخيوط قبل نسجها.

- استخدام اليمانيون الخط الكوفي حيث أقبلوا عليه يزينون به منسوجاتهم وذلك لما يتمتع به هذا الخط من قابلية كبيرة للزخرفة مما أضفى على النسيج اليمني جمالاً وروعة أكثر.
- عزوف اليمانيون عن تصوير الكائنات الحية على منسوجاتهم وذلك امتثالاً لنهي الرسول ﷺ عن تصوير كل ما فيه روح.

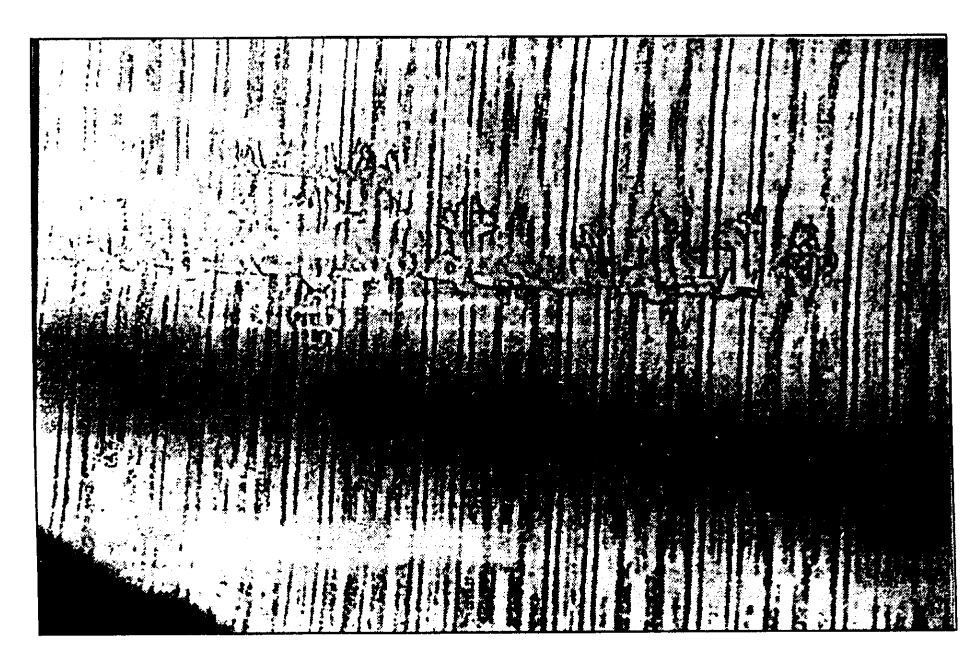
- إقبال اليمنيين على الزخرفة النباتية وخاصة التوريق فلقد ظهرت في صناعة نسيجهم الخط الكوفي المورق وكذلك الزخـــرفة بـــين الكـــتابات مما جعلنا لا نستطيع قراءة بعض الكلمات لتداخلها مع الزخارف إضافة إلى الزخرفة المجدولة.
- انتشرت صناعة النسيج في معظم المناطق اليمنية وبحسب مسمياتها نسبة إلى أماكن صناعتها.

هـــذا ومـــا زالـــت صناعة النسيج اليمنية اليدوية في صنعاء مستعملة حتى اليوم ممثلة بصناعة المآزر والفوط أو المقطـــب وذلك في سمسرة النحاس حتى تظل المحافظة على التراث مستمرة وقد أقيمت هذه الصناعة من قبل الدولة. وأمـــا في مديـــنة زبيد فلا تزال تحتل الصدارة في صناعة الأنسجة اليدوية وخاصة المآزر البيضاء وكذلك البسط حتى اليوم.

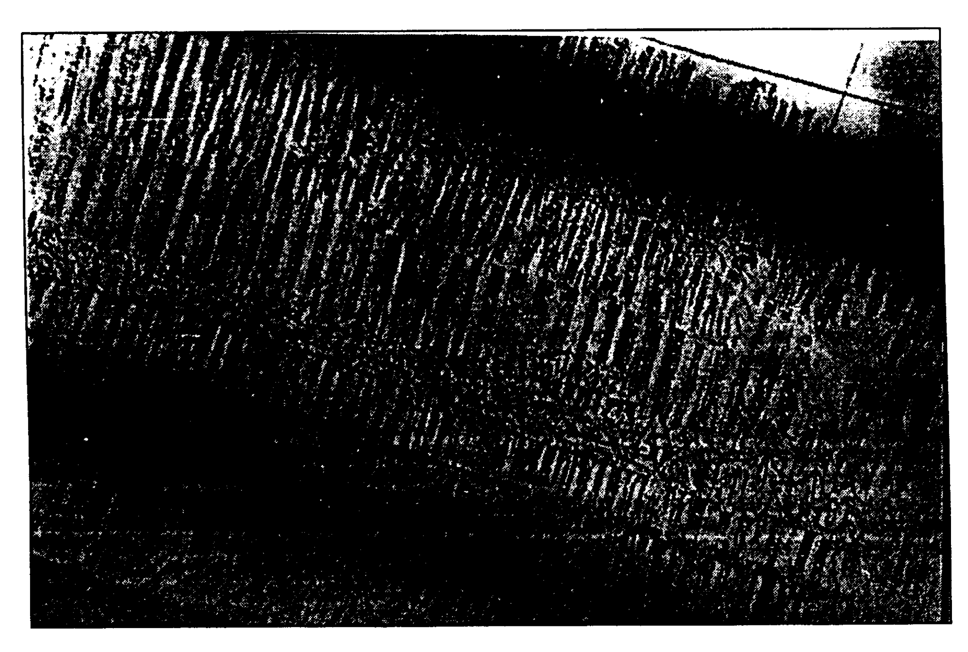
وفي الأخير أرى لزامًا عليَّ في الموضوع أن أسرد أسماء الانسجة اليمنية في نهاية بحثي هذا سرداً دون تعليق فقد سبق التعليق عليه وعلى أشهر المناطق التي يصنع فيها لنقف على أنواع المنسوجات اليمنية وأعدادها ومسمياتها.

١ – اليمانية.	٢ – البرود	٣ – الأتحمي	٤ – الخال
٥ – الحبرة	٦ – العصب.	٧ – الجندية.	٨ – النجرانية.
٩ – السعيدية.	١٠ – التزيدية.	١١ – المعافرية.	١٢– السحولية.
١٣– العدنية.	١٤ – الحضرمية.	١٥ – الحميرية.	١٦ – الصيرية.
١٧– الحشانية.	١٨– المراجل.	١٩ – المراحل.	٢٠ – الوصائل.
٢١ – الحلل.	٢٢ – الشرعبية.	٢٣ – الزبيدية.	٢٤ – المناديل اليمنية.
٢٥ – الملاحف اليمنية.	٢٦ – الفوط اليمنية.	٢٧ – الخوخة اليمانية.	٢٨ – الجبة اليمنية.
٢٩ – المطرف.	٣٠– المعجر.	٣١– المهاجري.	٣٢– الشووب.
٣٣ – النقب.	٣٤ – شقق الحمراء	٣٥ – السباعيات.	٣٦ – البيروم.

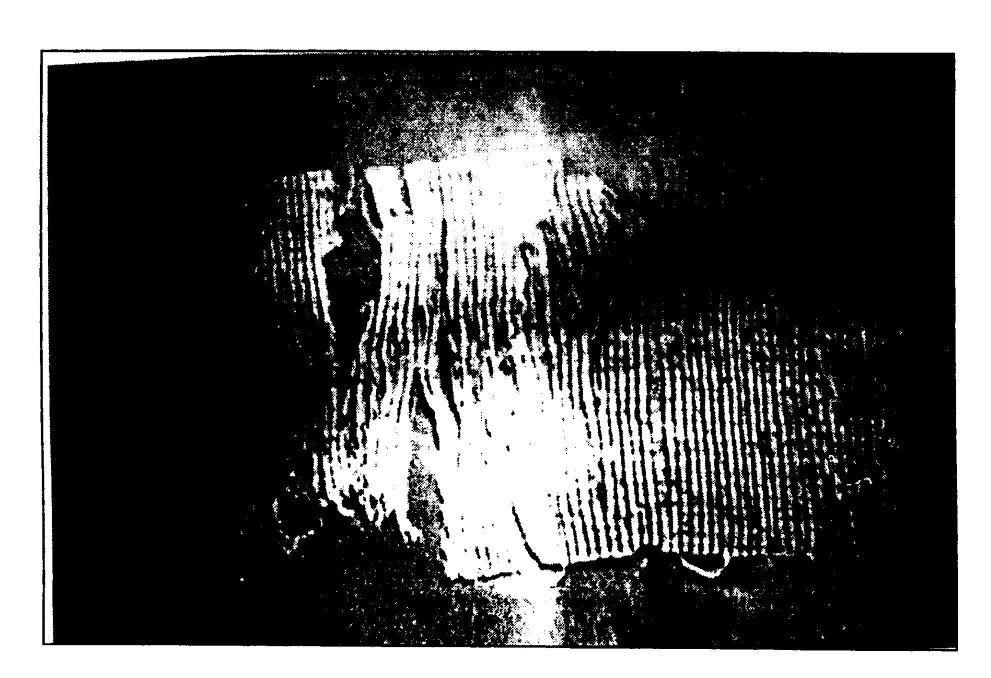
فإذا كنت قد وفقت فمن الله وحده وإن قصرت فمن نفسي وحسب أني اجتهدت والله من وراء القصد.



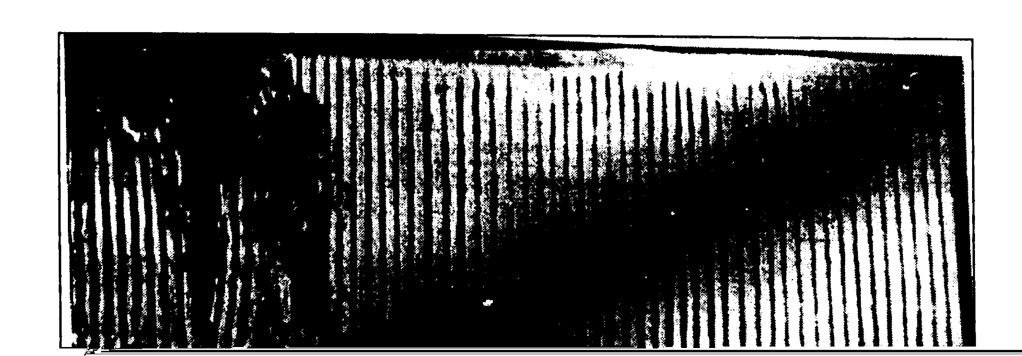
لوحة رقم (١) عن بريتون



لوحة رقم (٢) عن بريتون

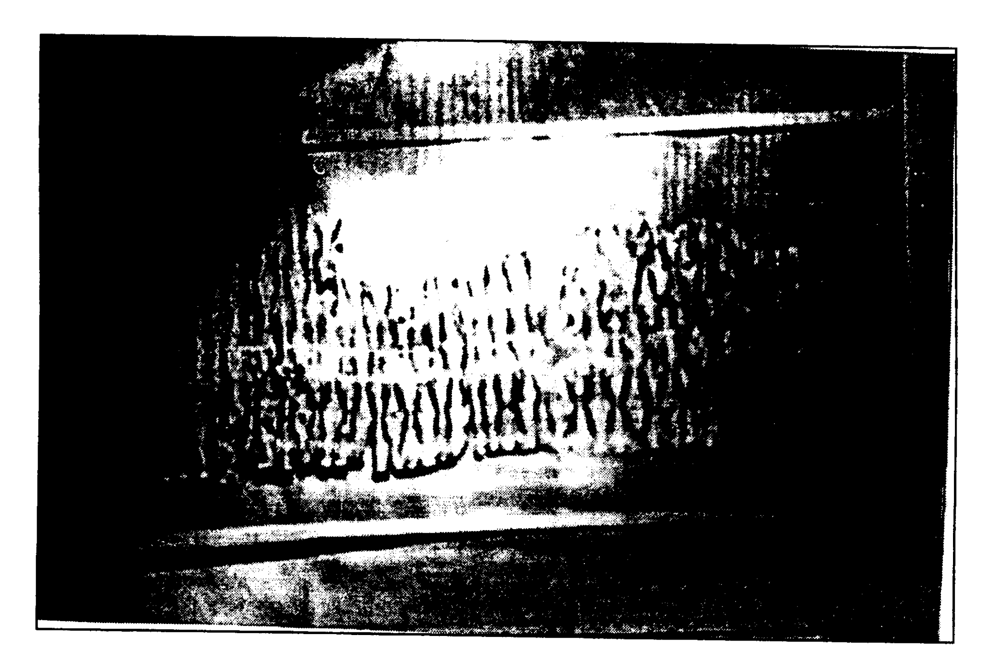


لوحة رقم (٣) عن ربيع

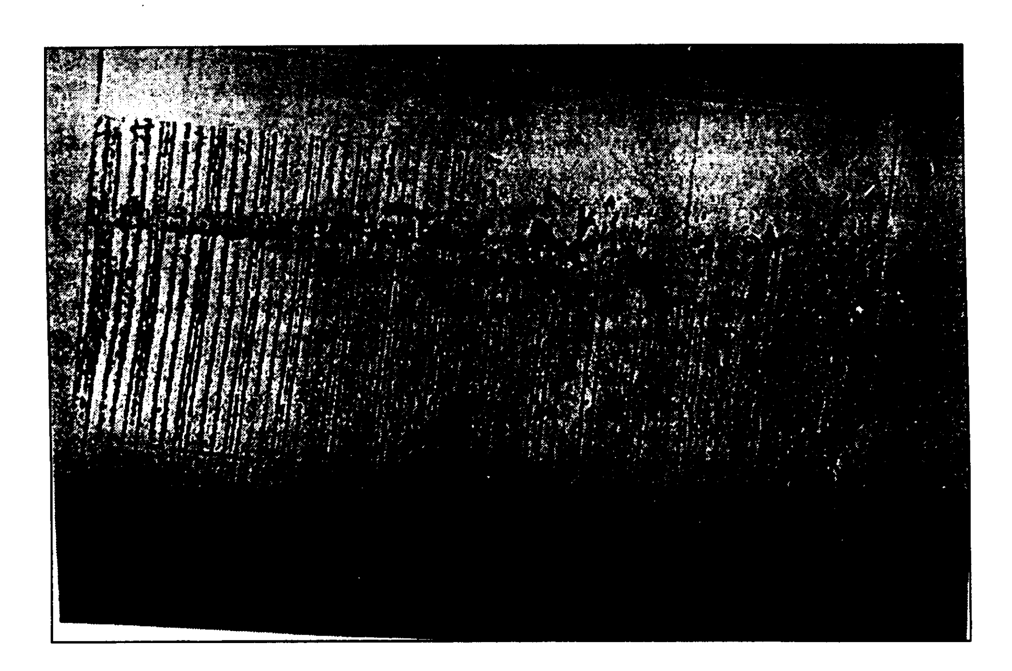




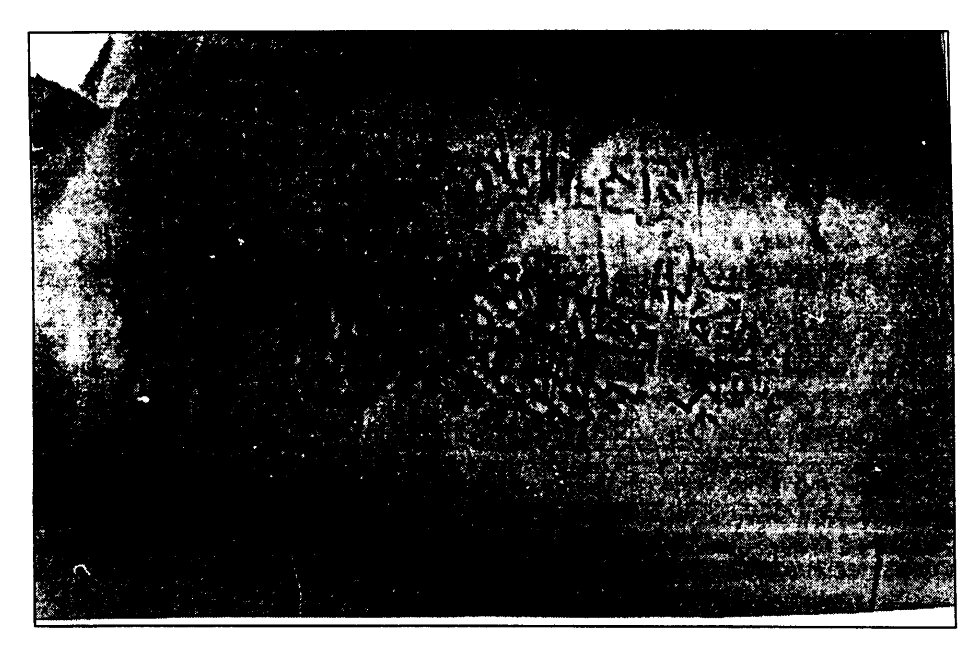
لوحة رقم (٥) عن ربيع



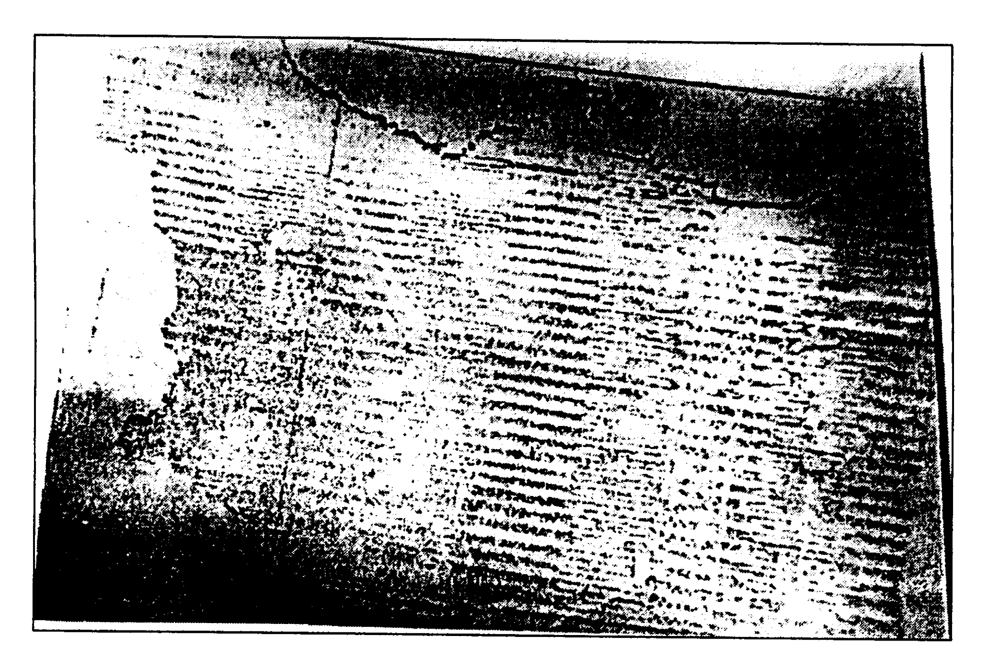
لوحة رقم (٦) عن ربيع



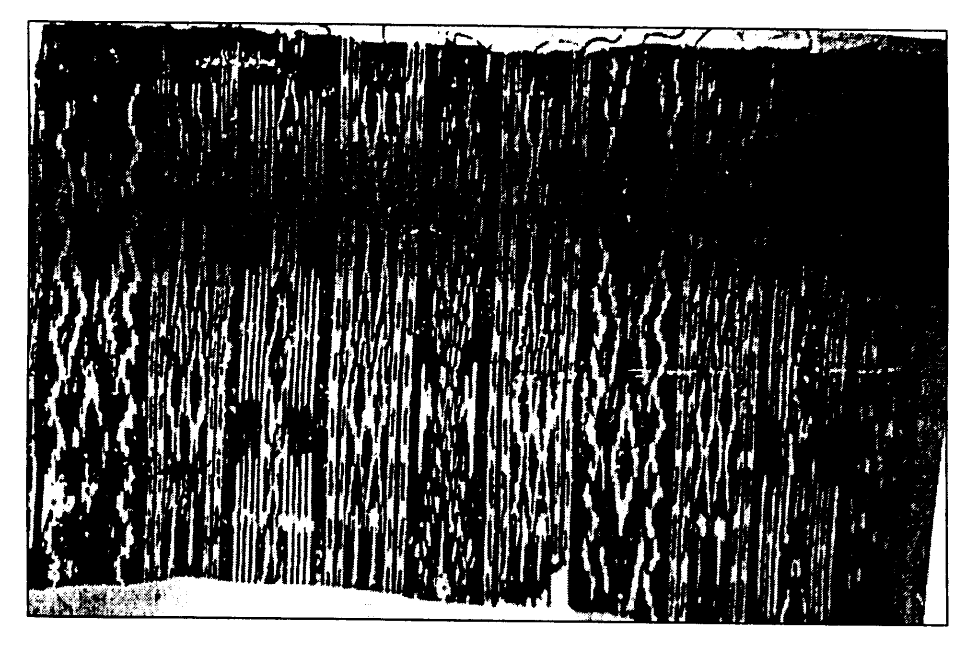
لوحة رقم (٧) عن غازي



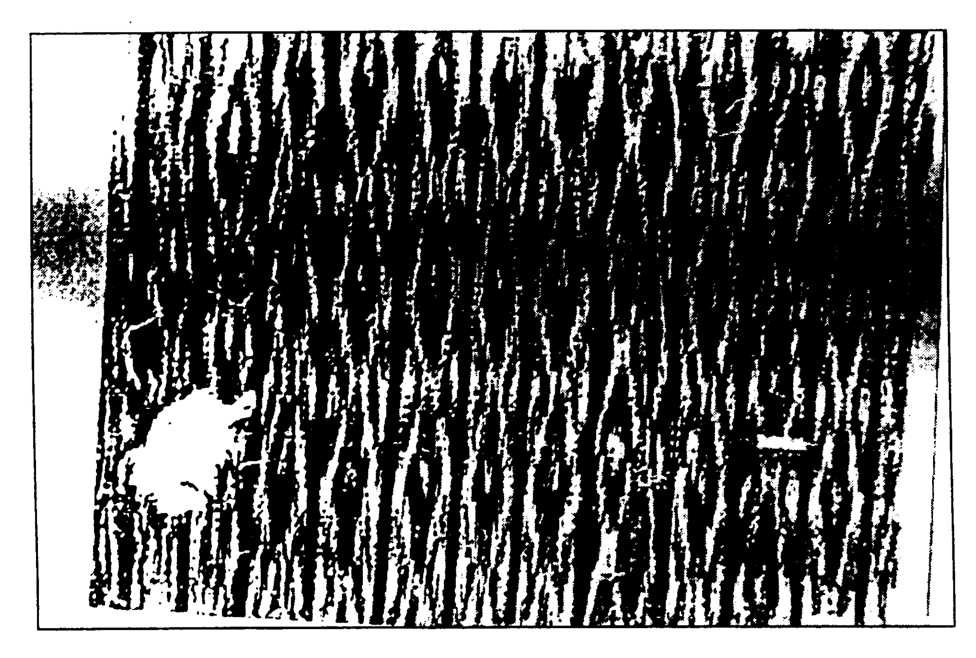
لوحة رقم (٨) عن غازي



لوحة رقم (٩) عن غازي



لوحة رقم (١٠) عن زكي



لوحة رقم (١١) عن زكي

التعليقات

(١) سورة الأعراف، آية ٢٢.

(٢) خليفة، سيد محمود، *تاريخ المنسوجات*، ١١.

(٣) شيحه، مصطفى عبدالله، *مقدمة في المنسوجات الإسلامية*، *اليمن الجديدة*، ١١.

(٤) حميد، عبدالعزيز، *الطنافس صناعة عراقية قديمة*، محاضرات، مجلة التراث والحضارة.

(٥) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ١١.

(٦) ابن منظور، *لسان العرب*، ٣٧٧.

(٧) الزبيدي، *تاج العروس*، ١٦٠.

(٨) سورة المدثر، الآيات ١- ٤.

(٩) سورة الكهف، آية ٣١.

(١٠) سورة الإنسان، آية ٢١.

(١١) سورة النساء، آية ٥، وسورة طه، ١٢١.

(١٢) سورة الحج آية ٥.

(١٣) القصص ، آية ٧٩.

(١٤) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ١٢٠.
(١٥) شيحه، مصطفى عبدالله، *المرجع السابق*، ١٢.
(١٦) حجازي، السيد عبدالرحيم السليلوز نقلاً عن سيد محمود خليفه، ١٩.
(١٧) العبيدي صلاح، *الفنون الزخرفية العربية الإسلامية*، ١٩٧.
(١٨) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ١٢.
(١٩) الجادر وليد، *صناعة الأنسجة في وادي الرافدين*، مجلة التراث والحضارة، ٢٤.
(٢٠) الجادر، *المرجع نفسه*، ٢٦.
(٢١) الجادر، *المرجع نفسه*، ٢٦.
(٢٢) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ٢٠.
(٢٣) حميد، عبدالعزيز، *المنسوجات*، بحث في موسوعة حضارة العراق، ٩:٢٥٤.
(٢٤) الجادر، وليد، *الحرف والصناعات اليدوية في العصر الأشوري المتأخر*، ١٣٠.
(٢٥) الجادر، *صناعة الأنسجة*، ٢٢.
(٢٦) المختار، فريال داود، *المنسوجات العراقية الإسلامية*، ١٠٢.
(٢٧) الجادر، *صناعة الأنسجة*، ٣٤.
(٢٨) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ٦٥.
(٢٩) العبيدي، *الفنون*، ١٩٨.
(٣٠) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ٦٦.
(٣١) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ١٤.
(٣٢) حميد، عبدالعزيز، *المرجع السابق*، ٩:٢٥٦.
(٣٣) مروزق، محمد عبدالعزيز، *الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه*، ٤.
(٣٤) حميد، عبدالعزيز، *المرجع السابق*، ٢٥٧.
(٣٥) مرزوق، محمد عبدالعزيز، *الزخرفة المنسوجة من الأقمشة الفاطمية*، ٤٢.
(٣٦) حميد، عبدالعزيز، *المرجع السابق*، ٢٥٧.
(٣٧) مرزوق، محمد عبدالعزيز، *المرجع السابق*، ٤٣، ٤٤.
(٣٨) البخاري، *صحيح البخاري*، ١٠: ٢٨٢.
(٣٩) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ١٨٣.
(٤٠) ابن سيده، *المخصص*، ٤: ٦٩.
(٤١) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ٢٢٥.
(٤٢) الحادر، وليد، *صناعة المنسوجات*، ٣١.
(٤٣) خليفة سيد محمود، *نفس المصدر*، ٢٢٥.
(٤٤) الحادر، وليد، *المرجع السابق*، ٣١.

(٤٥) ابن سيده، *نفس المصدر*، ١٨٥.

(٤٦) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ١٨٥.

(٤٧) الحادر، وليد، *الصناعات والحرف اليدوية في العصر الأموي*، ١٠١.

(٤٨) خليفة، سيد محمود، *المرجع السابق*، ٢٢٤.

(٤٩) العبيدي، صلاح حسين، *المرجع السابق*، ٢٠٤.

(٥٠) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ٢٢.

(٥١) العبيدي صلاح حسين، *المرجع السابق*، ٢٠٤.

(٥٢) الحادر، وليد، *صناعة المنسوجات*، ٣٧.

(٥٣) الحادر، وليد، *المرجع السابق*، ٣٥.

(٥٤) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ٢٣.

(٥٥) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٤.

(٥٦) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ٢٧.

(٥٧) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ٢٣.

(٥٨) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٤.

(٥٩) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ٢٤.

(٦٠) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٣.

(٦١) القصيري، اعتماد يوسف، *صناعة النسيج في العصر الإسلامي*، مجلة التراث، ٥٩.

(٦٢) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٣.

(٦٣) دائرة المعارف الإسلامية، ١٢٠- ٢١١، مادة طراز.

(٦٤) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٥.

(٦٥) دائرة المعارف ، *المرجع السابق*، ١٢١.

(٦٦) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٥.

(٦٧) ابن خلدون، *المقدمة*، ٢٦٦.

(٦٨) المختار، فريال داود، *المرجع السابق*، ٧١، يرجع إلى شعر حسان.

(٦٩) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٥.

(٧٠) القصيري، اعتماد يوسف، *المرجع السابق*، ٥٦.

(٧١) العبيدي صلاح حسين، *الفنون*، ٢٠٥.

(٧٢) البحر الأرتيري يقصد به البحر الأحمر ومؤلفه عاش في عام ٧٠م والكتاب لمؤلف مجهول.

(٧٣) موزع يذكر الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب هي مدينة قديمة لا زالت عامرة بالسكان وتقع في وسط تهامة وإلى الشرق الشمالي من ميناء المخا وبالغرب الجنوبي لمدينة تعز وتبعد عن ميناء المخا بحوالي ثلاثين كيلو متر، وكذلك في معجم البلدان، ٥:٢٢١.

(٧٤) R. B. Serjeant: Islamic Texstiles, p. 122

(٧٥) الفوطة إزار يلبس من الخصر حتى الركبة وما زال يستعمل حتى الآن ويسمى مقطب ومعوز ... الخ.

(٧٦) R. S. Serjeant: Ibid, p. 122

(٧٧) شبام الغراس مدينة أثرية تقع شرق صنعاء وتبعد بحوالي ٢٥كم عن صنعاء درست من قبل محمد سلامة لنيل درجة الماجستير.

(٧٨) R. S. Serjeant: Ibid, p. 123

(٧٩) الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، ٧٨:١٦.

(٨٠) R. B. Serjeant: Ibid, p. 124

(٨١) R. B. Serjeant: Ibid, p. 124

(٨٢) العبيدي، صلاح حسين، *الملابس العربية في العصر العباسي*، ١٣.

(٨٣) الزوزني، أبوعبدالله، *شرح المعلقات*، ٢٤.

(٨٤) العبيدي، صلاح حسين، *المرجع السابق*، ١٤.

(٨٥) العلي، صالح أحمد، *الألبسة العربية في القرن الأول الهجري*، مجلة المجتمع العلمي العراقي، ٤٣، ٤٤.

(٨٦) الجاحظ، *البيان والتبيان*، ٢٣٩:١.

(٨٧) العبيدي، صلاح حسين، *الملابس*، ١٤.

(٨٨) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة في القرنين الأول والثاني الهجري*، مجلة الأبحاث اللبنانية، ٥٥٦.

(٨٩) ابن سعد، *الطبقات الكبيرة*، ٢٥:١.

(٩٠) R. B. Serjeant: Ibid, p. 124

(٩١) الجند اسم لمدينة يمنية تقع بالقرب من تعز وسيأتي ذكرها.

(٩٢) R. B. Serjeant: Ibid, p. 126

(٩٣) ماهر سعاد، *مخلفات الرسول في مسجد الحسيني*، ٧٨.

(٩٤) R. B. Serjeant: Ibid, p. 126

(٩٥) الاصفهاني، *كتاب الأغاني*، ٢٥٩:١.

(٩٦) الجهيشاري، محمد بن عبدوس ألف كتاب الوزراء والكتاب حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا. والإبياري، ٢٨، ٨٨.

(٩٧) R. B. Serjeant: Ibid, p. 127

(٩٨) R. B. Serjeant: Ibid, p. 127

(٩٩) المقدسي، ٩٨:٣.

(١٠٠) ابن خلدون، *المصدر السابق*، ٣١٤؛ *ومقدمة التاريخ*، ٣٦٦:٢.

(١٠١) القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، ٢٧٤:٣.

(١٠٢) ابن بطوطة، *رحلاته*، ٣٢٤.

(١٠٣) الخزرجي، علي بن الحسين، *العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية*، ٢٤٥.

(١٠٤) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٥٧.

(١٠٥) ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ١٠:١.
(١٠٦) ابن سعد، *المصدر السابق*، ٣٩:٣.
(١٠٧) ابن منظور، *لسان العرب*، ٨٧:٣.
(١٠٨) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٥٨.
(١٠٩) ابن سعد، *المصدر السابق*، ٧٣:٤.
(١١٠) ابن منظور، *المصدر السابق*، ٣١٣:١.
(١١١) العلي، صالح أحمد، *المرجع السابق*، ٥٦١.
(١١٢) الحميري، نشوان سعيد، *شمس العلوم*، ٥٤.
(١١٣) ابن سيده، *المخصص*، ٧٣:٤.
(١١٤) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦.
(١١٥) ابن سعد، *المصدر السابق*، ٧٣:٤.
(١١٦) ابن منظور، *المصدر السابق*، ٤ مادة الحبر.
(١١٧) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٣.
(١١٨) الحميري، نشوان سعيد، *المصدر السابق*، ٧٣.
(١١٩) ابن سعد، *المصدر السابق*، ٧١:٢.
(١٢٠) العلي، صالح نقلاً عن ابن منظور، *الأنسجة*، ٥٦٤.
(١٢١) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٥.
(١٢٢) R. B. Serjeant: Ibid, p. 123
(١٢٣) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٦.
(١٢٤) R. B. Serjeant: Ibid, p. 124
(١٢٥) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٧.
(١٢٦) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٧.
(١٢٧) ابن رسته، *الإعلان النفسية*، ١١٢.
(١٢٨) ابن منظور، *المصدر السابق*، ٥٩.
(١٢٩) الحموي، *ياقوت معجم البلدان*، ١٥٣:٥.
(١٣٠) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٨.
(١٣١) دائرة المعارف الإسلامية، ١٣١.
(١٣٢) الحميري، نشوان، *المصدر السابق*، ٧٤.
(١٣٣) ابن سيده، *المصدر السابق*، ٧٢:٤.
(١٣٤) ابن منظور، *المصدر السابق*، مجلد ١١، ٣٢٧.
(١٣٥) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٦.

(١٣٦) المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ٩٨.

(١٣٧) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٦٦.

(١٣٨) ماهر سعاد، *المصدر السابق*، ٨٦.

(١٣٩) ابن سعد، *المصدر السابق*، ٢:٣٥، ٣٦.

(١٤٠) R. B. Serjeant: Ibid, p. 129

(١٤١) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٧٠.

(١٤٢) ابن سعد، *المصدر السابق*، ٦:١٧٧.

(١٤٣) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٧١.

(١٤٤) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٧١.

(١٤٥) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٧٢.

(١٤٦) العلي، صالح أحمد، *الألبسة*، ٦٢.

(١٤٧) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٧٢.

(١٤٨) ابن سيده، *المصدر السابق*، ٤:٧٣.

(١٤٩) ابن سيده، *المصدر السابق*، ٤:٧١.

(١٥٠) R. B. Serjeant: Ibid, p. 123

(١٥١) الزبيدي، محمد مرتضي، *تاريخ العروس*، ٨:١٦٥.

(١٥٢) الحميري، نشوان، *المصدر السابق*، ١١٤.

(١٥٣) ابن منظور، *المصدر السابق*، ١١:١٧٢.

(١٥٤) العلي، صالح أحمد، *الأنسجة*، ٥٧٣.

(١٥٥) الحموي، ياقوت، *المصدر السابق*، ٣:٣٣٥.

(١٥٦) R. B. Serjeant: Ibid, p. 123

(١٥٧) العلي، *الأنسجة*، ٥٧٢.

(١٥٨) العلي، *نفسه*، ٥٧٢.

(١٥٩) ابن سيده، *المصدر السابق*، ٤:٧٢.

(١٦٠) ابن سيده، *المصدر السابق*، ٤:٧٢.

(١٦١) ماهر، سعاد، *المرجع السابق*، ٧٨.

(١٦٢) الحموي، ياقوت، *المصدر السابق*، ٣:١٩٩.

(١٦٣) الهمداني، أبو محمد الحسن، *صفة جزيرة العرب*، ١١٩.

(١٦٤) ماهر، سعاد، *المرجع السابق*، ٧٨.

(١٦٥) ماهر، سعاد، *المرجع السابق*،

(١٦٦) R. B. Serjeant: Ibid, p. 133

(١٦٧) الحموي، ياقوت، *المصدر السابق*، ٣:١٥٣.

(١٦٨) الهمداني، أبو محمد، *المرجع السابق*، ١:٥١٣.

(١٦٩) R. B. Serjeant: Ibid, p. 132

(١٧٠) ابن منظور، *المصدر السابق*، ١:٥١٣.

(١٧١) العلي، *الأنسجة*، ٥٦٦.

(١٧٢) العلي، *الأنسجة*، ٥٦٧، R. B. Serjeant: Ibid, p. 124

(١٧٣) الحميري، *المرجع السابق*، ١٠٣.

(١٧٤) R. B. Serjeant: Ibid, p. 129

(١٧٥) محمد غازي رجب، *المنسوجات العربية في العصر الإسلامي في اليمن*، ٦٦.

(١٧٦) R. B. Serjeant: Ibid, p. 218

(١٧٧) R. B. Serjeant: Ibid, p. 129

(١٧٨) محمد، غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٦.

(١٧٩) محمد، غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٨.

(١٨٠) محمد، غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٩.

(١٨١) العزي، وفيه *نماذج من الفنون الإسلامية في اليمن*، مجلة المنهل، عدد ٧١ سنة ١٩٦٢م، ٢٩، نقلاً عن ربيع.

(١٨٢) خليفة، ربيع حامد، *الفنون الزخرفية اليمنية*، ١٦١.

(١٨٣) خليفة، ربيع حامد، *مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء الإكليل*، ٤٥، ٤٦.

(١٨٤) R. B. Serjeant: Ibid, p. 132

(١٨٥) محمد غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٤.

(١٨٦) الحضرمي، عبدالرحمن، *زبيد وآثارها الإسلامية وأوضاعها الراهنة*، ٧٢؛ الآثار الإسلامية في الوطن العربي.

(١٨٧) شجاع عبدالرحمن، *زبيد بأقلام الرحالة*، مجلة كلية الآداب، ٢٦٧.

(١٨٨) محمد غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٤.

(١٨٩) Briton Nancy Pence Some Eatly Islamic Tektdes, p.72

(١٩٠) محمد غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٦.

(١٩١) دثماند، *الفنون الإسلامية*، مترجم أحمد عبس، ٢٥٦.

(١٩٢) Briton, Ibid, p.73

(١٩٣) محمد غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٦.

(١٩٤) Briton, Ibid, p.73

(١٩٥) محمد غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٦.

(١٩٦) Briton, Ibid, p.74

(١٩٧) محمد غازي رجب، *المرجع السابق*، ٦٦.

(١٩٨) خليفة ربيع، *المناسج*، ٤٦؛ *الفنون*، ١٥٨.

(١٩٩) خليفة ربيع، *المناسج*، ٤٦؛ *الفنون*، ١٥٩.

(٢٠٠) خليفة ربيع، *المناسج*، ٤٧؛ *الفنون*، ١٦٠.

(٢٠١) خليفة ربيع، *المناسج*، ٤٧؛ *الفنون*، ١٦١.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

أثر تخطيط مدينة بغداد على تخطيط المدن الإسلامية في اليمن في العصر العباسي "مدينة زبيد نموذجًا"

عبدالله عبدالسلام صالح الحداد
قسم الآثار – كلية الآداب جامعة صنعاء

الملخص:

يتناول البحث: وصف موجز لمدينة بغداد باعتبار أنها درست كثيراً ولا يخلو مرجع من مراجع دراسة العمارة لإسلامية إلاّ وتعرض لها، ثم دراسة مفصلة إلى حد ما عن عمارة مدينة زبيد ومصادر اشتقاق عناصرها المعمارية والتخطيطية المتأثر بمدن عصر ما قبل لإسلام في اليمن والجزيرة العربية، ومدن العصر الإسلامي والمتمثلة في مدينة بغداد على وجه الخصوص.

وتتناول الدراسة في المدينتين: أهم العناصر التخطيطية المتمثلة في خطط المدينة وأسوارها ومنشآتها المهمة كالقصر والمسجد والخندق، فضلاً عن دراسة الموقع ومدى ملاءمته للحياة الإنسانية ومدى توفيق أو عدم توفيق المنشئ في اختياره للموقع ومدى اتفاقها مع شروط إنشاء المدن التي وضعها العلماء المسلمون من واقع خبراتهم المتوارثة جيلاً عن جيل.

واختتم البحث ببيان أوجه الشبه بين مدينتي زبيد وبغداد والمؤثرات الخارجية على مدينة بغداد والمؤثرات البغدادية على مدينة زبيد.

ولكي تأتي الدراسة منهجية فقد زود البحث بالعديد من الأشكال موزعة بين صور توضيحية، وتخطيطات معمارية وتفصيلية تبين ما جاء في متن الدراسة.

أولاً: مدينة بغداد:

كانت بغداد أول عمل عمراني ومعماري للخلافة العباسية حيث اختطت سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م بأمر من

الخلـيفة العباسـي أبي جعفر المنصور، وانتهى من بنائها سنة ١٤٩هـ/ ٧٧٦م لتكون عاصمة للخلافة العباسية التي نفرت من اتخاذ العاصمة الأموية دمشق مقراً لها، ولتكون قريبة من مؤيديها في العراق وفارس.

١ - المدينة:

أ - الموقع والتخطيط: (شكل١)

تقـع مدينة بغداد حين تأسيسها على الشاطئ الغربي لنهر دجلة، عند نقطة يقترب فيها نهرا دجلة والفرات من بعضـهما[١]، وهـي بذلـك تبعد عن البحر وإن ارتبطت به عن طريق شط العرب، كما تقع في إقليم السواد الغني بمـزروعاته، وفي ملـتقى طرق التجارة الرئيسية عبر البر والبحر، وعلى طول نهر دجلة، كما تمتاز بحسن الجو صيفاً وشـتاءً[٢]، وتقـع في مـنطقة الحـد بـين العـرب والفرس بالقرب من مدينة المدائن القديمة (طيسفون)، عاصمة الساسـانيين[٣]، وكان يشغل موقعها قبل تأسيسها مجموعة من القرى منها بغداد -التي سميت باسمها- والخرم وبستان القـس والعتـيقة[٤]، ولذلـك توافرت في موقعها الشروط الستة الواجب توافرها عند إنشاء المدن وهي: سعة المياه المسـتعذبة، إمكـان الميرة المستمدة، اعتدال المكان وجودة الهواء، القرب من المرعى والاحتطاب، تحصين منازلها من الأعداء والذعار، أن يحيط بها سور يعين أهلها[٥].

أمـا عـن تخطيط بغداد فقد بنيت بشكل دائري لعدة أسباب: أولاها أن موقع القصر وسط المدينة يجعل من المسـافات بيـنه وبين مختلف أجزاء المدينة متساوية على عكس التخطيط المربع الذي تزداد المسافة بينه وبين أركان المدينة، وثانيها أن في التخطيط الدائري اقتصاد في النفقات بوقع ١١,٣٨%، وثالثها أن التخطيط الدائري أكثر سهولة في الدفاع على عكس التخطيط المربع الذي تحجب زواياه مدى الرؤية عن المدافعين.

وكانت المدينة محاطة بسورين بينهما ثلاث مساحات خالية تعرف كل منها باسم الفصيل تساعد على تكثيف قـوي المدافعين عنها في حالة تعرضها للهجوم، واقتحام بواباتها[٦]: السور الخارجي مبني بالطين اللبن الكبير الحجم، ومغلـف في الجـزء السفلي منه بالأجر والصاروج لوقايته من التأثر بماء الخندق، كما يحتوي على أربع بوابات ذات مداخل منكسرة يتم الوصول إليها عبر قناطر تمتد فوق الخندق ترفع ليلاً وعند الخطر.

والسـور الـثاني يعرف بالسور الأعظم كونه أكثر ارتفاعاً من السور الخارجي حيث يبلغ ارتفاعه ٣٥ ذراعاً، ولذلـك يعتـبر السـور الرئيسي للمدينة والذي بني بقوالب الآجر بسمك ١٠ أذرع بحيث يتدرج البناء إلى ثلاثة مستويات ذات ثخانات مختلفة، كما يحتوي أعلى السور على ممرات مغيبة مغطاة بأقبية طولية تسمح للجنود بالتحرك حـول المدينة دون أن يراهم أحد، وتمكنهم من الدفاع عن المدينة في حالة الغزو[٧]، ويدعم السور ١١٣ برجاً دفاعياً ارتفـاع كـل منها يزيد عن ارتفاع جدران السور بحوالي ٥ أذرع، وبكل منها عدد من المزاغل الدفاعية، فضلاً عن أربعة مداخل تقابل المداخل الأصلية في السور الخارجي، وكل منها يؤدي إلى رحبة تؤدي إلى ممر ذي طاقات عددها

٥٣ طاقـــة تنتهي برحبة تقطع الفصيل الثالث الذي يتقدم السور الداخلي الخاص الذي يحيط برحبة القصر والمسجد، وهذا السور الأخير عبارة عن حاجز داخلي يفصل قصر الخليفة وحاشيته عن سائر المدينة، وهو أضعف الأسوار حيث يخلو من الأبراج(٨).

وقــد شــغلت المساحات الأربع بين الأبواب بالمساكن حيث قسمت إلى مناطق سكنية يفصل بين كل منها شارع يعرف باسم السكة يتراوح عددها بين ٨- ١٢ شارعاً تتجه جميعها نحو قلب المدينة، بحيث ينتهي كل شارع فيها بباب(٩) يحجز المنازل وقت الحاجة عن منطقة القصر وخاصة في الليل.

ب – المساحة:

اخـــتلف المؤرخـــون في تحديـــد مساحة بغداد، فحسب رواية اليعقوبي تقدر مساحتها بحوالي ٧,٥كم مربعاً، وحســـب روايـــة الأزدي ٤,٥كم مربعاً، وحسب رواية الخطيب البغدادي وابن الجوزي وياقوت الحموي يبلغ قطر المديـــنة ٢٦١٥م، ومحـــيطها ٨١٣٢م مما يعني أن مساحتها ٥٣١٤٢٦٢ متراً مربعاً(١٠)، بينما يرى كريزويل أن قطر مســـاحة بغداد ٢٦٣٩م، ومحيطها ١٦٠٠٠م(١١)، ويعتقد حسن الباشا أن قطرها ٥٠٩٣ ذراعاً، ومحيطها ١٦٠٠٠ ذراعاً، وليس متراً(١٢)، في حين يرى حسني نويصر أن محيطها ٨كم، وقطرها ٢٧١٠م(١٣).

ج – التأثيرات المحلية والخارجية على تخطيطها:

يـــرى كريزويل أن تخطيط مدينة بغداد متأثر بعدد من المدن العراقية والفارسية واليونانية ومنها: سنجرلي، أبرا، هاغماتانـــا، مانتينـــيا، كتيسيفون، تخت سليمان، هاترا، حران، دار الجرد، هرقلة، جور، أصفهان(١٤)، في حين يرى غـــازي رجب أنها لم تتأثر بأي مدينة أخرى رغم وجود مدن عراقية قديمة شبيهة بها، ومنها مدينة الحضر، وإنما كان تخطـــيطها عصارة فكر الخليفة المنصور والذي أملاه على المهندسين والبنائين لتنفيذه(١٥)، وإن تجاهل كل منهما تأثير مـــدن اليمن والجزيرة العربية التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام، ومنها على سبيل المثال للحصر مدينة يثل (براقش) المعينـــية، رغم أن معظم المدن الإسلامية السابقة لبغداد ومنها البصرة والكوفة والفسطاط قامت على أكتاف الفاتحين المسلمين من أبناء جزيرة العرب، وهم الذين قاموا بتخطيط معظم المدن الإسلامية الأولى.

٢– المسجد والقصر: (شكل٢)

يحتل وسط مدينة بغداد قصر الخليفة المنصور المعروف بقصر الذهب، وهو قصر مربع الشكل طول ضلعه ٤٠٠ ذراع، وله أربعة أبواب تقابل الأبواب الأربعة للمدينة، يتوسط القصر إيوان عمقه ٣٠ ذراع، وعرضه عشرون ذراعاً في صـــدره مجلس مساحته ٢٠ذراعاً مربعاً وارتفاعه ٢٠ ذراعا مغطى بقبة، وفوقه مجلس آخر مماثل مغطى بقبة عرفت باســـم القـــبة الخضراء والتي ترتفع عن الأرض بحوالي ٨٠ ذراعاً، وقد احتوت القصور العباسية على قاعات للعرش،

واستقبال السفراء ودواوين الحكم والإدارة، ومجالس الطرب، ودور الحريم، ومساكن الحرس والجند، ومنازل الموظفين والمطابخ والإسطبلات والخازن فضلاً عن الحدائق والميادين والملاعب بحيث كانت تشكل ثلث المدينة المدورة، وحول القصر والجامع توزعت قصور الأمراء ومقرات الدواوين[١٦].

وبجـــوار هذا القصر بني المسجد بتخطيط مربع طول ضلعه ٢٠٠ ذراع، وكان مبنياً باللبن والطين ورفع سقفه عـــلى أساطين من الخشب، ويرجح أنه كان مكون من صحن وأربع ظلات أكبرها ظلة القبلة، وقد ظل المسجد على حاله حتى عهد الخليفة هارون الرشيد الذي أمر بنقضه، وبنائه من جديد بالآجر والجص[١٧].

٣ – الخندق:

الخـــندق في اللغـــة "الحفير حول أسوار المدن، وخندق حوله حفر خندقاً[١٨]"، وقد استخدم الخندق كعنصراً دفاعياً منذ أقدم العصور[١٩]، وكان أول استخدام للخندق في العصر الإسلامي في عهد الرسول ﷺ سنة ٥هـــ/٦٢٦م عندما أحاط جزءاً من المدينة بخندق عمقه ٢٠ ذراعاً، وعرضه ٢٠ ذراعاً أيضاً، وذلك قبيل غزوة الأحزاب بإشارة مـــن ســـلمان الفارسي[٢٠]، ثم شاع استخدامه في العصر الإسلامي فكان للفسطاط خندق حفره ابن جحدم، عامل عـــبدالله بن الزبير جهة القرافة سنة ٦٤هـــ/ ٦٨٤م[٢١]، وكذلك مدينة واسط، وكان يحيط بمدينة بغداد منذ إنشائها ســـنة ١٤٥هـــــ/ ٧٦٢م خندق اختلف المؤرخون في تحديد عمقه وعرضه، فمنهم من يرى أن عمقه ٦م، واتساعه ١٠م[٢٢]، ومـــنهم من يرى أن اتساعه ٤٠ذراعاً بنيت حافتاه بالآجر والجص، ويأتيه الماء من نهر كرخايا –أحد أفرع نهر الفرات– ليكون أول عائق مهم يمنع العدو من الوصول إلى جدران السور وبوابات المدينة[٢٣].

ثانياً: مدينة زبيد:

١– المدينة:

أ– الموقع: (شكل٣)

تقع مدينة زبيد وسط سهل تهامة الذي يحتل القسم الغربي من اليمن، وتبعد عن العاصمة صنعاء بحوالي "٢٣٣ كـــم" باتجاه الجنوب الغربي[٢٤]، وعن مدينة تعز بحوالي "١٦١ كم" باتجاه الشمال الغربي، وعن مدينة الحديدة "٩٥ كـــم" باتجاه الجنوب الشرقي، كما أن زبيد تحتل موقعاً متوسطاً بين البحر الأحمر الواقع غرب المدينة، وسلسلة الجبال الواقعـــة إلى الشـــرق منها، حيث تبعد عن كل منهما حوالي "٢٥كم"، ومن هنا جاء وصف ابن بطوطة[٢٥] لها بأنها مدينة برية لا شطية.

وكـــان موقـــع زبيد قبل إنشائها أرضاً زراعية كثيرة الأشجار تابعة لواديي زبيد ورمع، وفيها عدد من الآبار والعـــيون الجاريـــة، تتناثر حولها قرى صغيرة من أهمها قرية الحصيب والمنامة والنقير وجيبجر وواسط[٢٦]، وساكنوها ينـــتمون إلي قبـــيلة الأشاعر تتناثر قوم الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ الذي وفد على رسول الله ﷺ وأعلن

إسـلامه، ثم خرج إلى قومه ودعاهم إلي الإسلام فأسلموا، وبنى لهم جامع الأشاعر فكان أول مسجد يبني في تهامة ، وثالث مسجد يبني في اليمن بعد جامعي صنعاء والجَنَد .

ببـناء الجـامع بـدأ الناس يتجمعون حول قرية الحصيب، وأخذت نواة القرية تكبر وتتسع حتى كانت سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م عندما ورد إلي الخليفة العباسي المأمون كتاب من عامله على اليمن "إبراهيم الأفريقي الشيباني"[٢٧] يخـبره بخـروج قبيلتي الأشاعر وعك عن الطاعة، فأرسل حملة بقيادة محمد بن عبد الله بن زياد [٢٨] لاسترداد تهامة، وأوصـاه أن يحـدث له مدينة في وادي زبيد من بلاد الأشاعر، فتوجه ابن زياد نحو اليمن، واستولى على تهامة بعد حـروب عـدة مـع أهـلها، واخـتط مديـنة زبيد يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان من سنة ٢٠٤هـ/ الموافق ٢٣/١/٨٢٠م[٢٩].

ويرجع السبب في اختيار ابن زياد لموقع زبيد إلي ما يلي :

١ - موقعها المتوسط من سهل تهامة، وكذلك موقعها المتوسط بين البحر والجبل بحيث تتحكم بقسمي تهامة الشمالي والجنوبي، وكذلك الجبال والموانئ البحرية.

٢ - وجـود قـرية سـابقة هي قرية الحصيب، ووجود أقدم جامع في تهامة، وهو جامع الأشاعر الذي بني في عهد الرسول ﷺ، حيث إن بناء الجامع شرط من شروط إنشاء المدن عند ابن أبي الربيع[٣٠]، وقد وفر وجود جامع الأشاعر مسبقاً على ابن زياد استيفاء هذا الشرط.

٣ - توفر الأرض الخصبة الصالحة للزراعة في وديان زبيد ورمع وسهام والوديان المجاورة أمَّن لها احتياجاتها من المواد الغذائـية للإنسان والحيوان على السواء، حيث إن طيب المرعى، وقرب المزارع من الشروط التي يجب توافرها لإنشاء المدن عند كثير من علماء الإسلام[٣١].

٤ - توفر التربة الطينية التي ساعدت المعمار على استخدام الطين واللبن والآجر في بناء مدينة زبيد مما لم يتكلف معه المنشئ نقل مواد البناء من مكان آخر.

٥ - وقوعها على طريق الحج الرئيسية المعروفة باسم الجادة السلطانية جعل منها محطة لاستراحة الحجاج القادمين من الهند عبر عدن، وهذا بدوره يمثل مصدراً من مصادر الانتعاش الاقتصادي من خلال ما ينفقه الحجاج من أموال وممارستهم للتجارة أثناء ذهابهم إلى مكة والعودة منها.

٦ - قـربها من البحر وفر لها مصدراً رئيسياً للغذاء ، وجعل من ميناء غلافقة الميناء الرئيسي والمنفذ البحري لتجارة زبـيد مع البلدان الأخرى[٣٢]، وهذا يعد شرطاً من شروط إنشاء المدن بهدف وصول البضائع إليها من البلاد الأخرى[٣٣].

٧ - قرب المدينة من الجبال -الواقعة إلى الشرق منها- ذات الكثافة العالية من الأمطار وفر لها مصدراً دائما من المياه التي تتجمع على هيئة سيول تسقي المزارع، وتملأ الخزانات والسدود، وتغذي مياه العيون والآبار الجوفية، حيث إن توفر الماء شرط لازم من شروط إنشاء المدن[٣٤].

ب- تخطيط زبيد:

عـــندما ولي ابن زياد اليمن سنة ٢٠٤هـــ/ ٨١٩م مصّر قرية الحصيب، وجعل تخطيطها دائرياً، ومن هنا جاء وصفها عند كل من: الخزرجي وابن الديبع[٣٥] بأنها "مدورة الشكل عجيبة الموضع" كما قام ابن المجاور برسمها بشكل دائري، (شكل٤) في حين وصفها المقدسي[٣٦] بأنها "بلد نفيس ليس باليمن مثله، وأنها بغداد اليمن"، ومن عبارته هذه يمكن الاستدلال على حقيقة تخطيطها الدائري القريب من تخطيط بغداد من حيث الشكل، أما من حيث المساحة فإن المصادر لم تحدد مساحتها عند الإنشاء، وأول معلومة وصلتنا عن مساحتها ترجع إلى أواخر العصر الأيوبي في اليمن، حيـــث يذكـــر ابن المجاور[٣٧] أن مساحتها "٩٤٥ معاداً[٣٨]"، وهذا الرقم مبالغ فيه لأنها قيست بعد ذلك في العصر الرسولي فكانت "٦٨٠ معاداً" وهي المساحة الصحيحة لأنها نتجت عن قياس واختبار كما ذكر ابن الديبع[٣٩].

أمـــا عن تقسيم المدينة فتتكون من أربعة أرباع نتجت عن تقاطع الشارعين الرئيسيين اللذين يمتدان بين أبواب المدينة الأربعة (شكل٥) وهي:

الرَّبْع الأعلى: يحتل الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، ويحده شرقاً قرية محوى قيس، وشمالاً سائلة مقبرة العرق، وغرباً شارع باب سهام، وجنوباً شارع باب الشبارق.

رَبْـــع الجامع: نسبة إلى الجامع الكبير، ويحتل الجزء الشمالي الغربي من المدينة، مقابل الربع الأعلى، يحده شرقاً شـــارع باب سهام وبيوت بني الأنباري، وشمالاً السور الشمالي للمدينة والمدرسة الفاتنية، وغرباً باب النخل والسور الشمالي الغربي، وجنوباً شارع باب النخل المعروف حالياً باسم شارع الحديقة.

رَبْع المجنبذ: يحتل الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، يحده شرقاً القلعة وميدانها والمدرسة الكمالية، وشمالاً شارع باب الشبارق، وغرباً شارع باب القرتب المعروف حالياً باسم شارع المدرسة الدعاسية والذي يتصل مع شارع باب سهام، وجنوباً جزء من سور المدينة، وبيوت بني السُحَاري.

رَبْع المعاصر: يحتل الجزء الجنوبي الغربي من المدينة يحده شرقاً شارع المدرسة الدعاسية، وشمالاً شارع الحديقة، وغـــرباً قـــرية السطور والتجمعات السكانية الحديثة، وجنوباً باب القرتب وبعض بيوت بني السحاري، وقد تغيرت تسميته وأصبح يعرف باسم ربع الجزع.

وكـــل ربع من هذه الأرباع مقسم إلى عدد من الحافات يسكن كل منها قبيلة أو فئة متجانسة من الناس حيث

إن الفصل بين القبائل شرط من شروط إنشاء المدن حتى لا تحدث المشاكل فيما بينها، حيث يذكر ابن أبي الربيع ذلك بقوله[٤٠] "إن يميز بين قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضداداً مختلفة متباينة"، وهذا ما نراه في كثير من خطط المدن الإسلامية الأولى ومنها البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها، ومن أمثلة حافات زبيد: حافة السويقة، حافة المصلى، حافة الزيالع، حافة الدموت، حافة الهنود من ربع الجزع، حافة باب النخل من ربع الجامع، حافة السراج من الربع الأعلى[٤١]، حافة الخبازين، وتقع شرق سوق المدرك[٤٢] ...الخ .

إلى جانب الحافات بما فيها من منازل وقصور ومنشآت دينية واجتماعية ضمت المدينة عدداً من الأسواق موزعة على حافاتها، حيث إن السوق لازم أساسي من لوازم المدينة، وشرط من شروط إنشائها عند كثير من علماء الإسلام، ومنهم ابن أبي الربيع الذي يقول[٤٣] "أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب" وكل سوق منها مخصص لنوعية معينة من السلع وجميعها تشكل السوق الكبير الذي يقع مركزه غرب جامع الأشاعر، والذي كان مسقوفاً بسقائف مصنوعة من الحصير، وتتفرع منه عدة أسواق منها: سوق المرباع، وسوق الخان، وسوق المسوادة، وسوق البَزِّ، وسوق البُرِّ، وسوق السَّلَب، وسوق المعاصر، وسوق المنجارة، وسوق الشباك، وسوق المِعْجَار، وسوق الخبازين، وسوق السمك، وسوق التمر والخضر، وسوق الحدادين، وسوق الجزارين.. الخ.

ومن المرجح أن ابن زياد عندما مصَّر زبيد أحاطها بسور يحميها من هجمات الأعداء، خاصة وأنها تقع وسط وديان منبسطة يسهل مهاجمتها واقتحامها إذا كانت غير محصنة بأسوار تحميها، فقد ذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم أنه كان "عليها حصن من الطين بأربعة أبواب[٤٤]" ويؤيد يحيى بن الحسين -توفي سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م- ذلك في كتابه غاية الأماني حيث قال[٤٥] "اختط ابن زياد مدينة زبيد وأدار عليها سوراً" أما بقية المصادر فتذكر أن الحسين بن سلامة هو أول من أدار سوراً حول زبيد، وإن كان المرجح ما ذكره المقدسي -الذي توفي سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م أي قبل أن يتولى الحسين بن سلامة الوزارة لبني زياد- من أن زبيد كانت مسورة قبل عصر الحسين بن سلامة؛ لأن ابن زياد ما كان ليمصرها ويتخذها عاصمة دون إحاطتها بسور يقيها هجمات الأعداء لعدة أسباب:

١ - أن إحاطتها بسور يدفع عنها المضار شرط أساسي من شروط إنشاء المدن عند كثير من العلماء[٤٦].

٢ - أن المدينة تقع وسط أراض قبيلة الأشاعر التي كانت السبب وراء قدوم ابن زياد إلى اليمن، بعد أن خرجت عن طاعة الخلافة العباسية، بل وتحتل القرية الرئيسية لقبيلة الأشاعر وهي قرية الحصيب، وكان هدفه من ذلك كسر شوكة القبيلة من خلال وجود جنده الدائم في مركز القبيلة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يهدف إلى التودد إلى القبيلة وجذبها إلى صفه، فكيف يأمن ابن زياد -بعد تلك الحروب- غوائل هذه القبيلة دون أن يكون له ما يمنعه منها، ولو إلى حين ترتيب أوضاعه؟.

٣ - ما دام ابن زياد اتخذ من زبيد عاصمة لولايته -ثم بعد ذلك لدولته- فإن هذا يدلنا على أنه كان واضعاً في نيته

أن يستقل عن الخلافة العباسية خاصة بعد المحن التي تعرض لها منهم، وكاد أن يفقد حياته ثمناً لأخطاء ارتكبها غـيره، وهم الأمويون؛ لذلك فقد كان من المفترض أن يحيطها بسور لكي يتحصن ويستعصي بها على الخليفة العباسي إذا ما حاول خلعه.

٤- إن بـناء الأسوار حول المدن يعد من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض، وهي من مقاصد الإسـلام، ولذلك يضعها الفقهاء في عداد الواجب، ولذلك كانت المدن الإسلامية الأولى مسورة وخير مثال على ذلك مدينة واسط التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م بين الكوفة والبصرة، وكان لها سوران يحيطان بها، وكذلك بغداد والقاهرة.

وقد أصبحت زبيد منذ اتخاذ ابن زياد لها عاصمة لولايته، ثم لدولته مهبطاً لكثير من الناس من مختلف الطوائف العلمية منها والمهنية، فأدى ذلك إلى زيادة عدد سكانها، مما اضطر معها الوزير الحسين بن سلامة إلى بناء سور جديد يحيط بالتجمعات السكانية الجديدة أثناء فترة وزارته التي انتهت بوفاته سنة ٤٢٦هـ، وقد جدد هذا السور في عهد الوزيـر الـنجاحي أبـو منصـور منُّ الله الفاتكي ٥١٧-٥٢٤هـ/ ١١٢٣-١١٣٠م وذلك سنة "بضع وعشرين وخمسمائة" فكان بذلك أول من درَّب زبيد بعد الحسين بن سلامة[٤٧]، وجدده عبد النبي بن علي بن مهدي فيما بين شهري ربيع الأول وشوال سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م وذلك لسببين:

الأول: اقتراب بني حاتم من زبيد بعد هزيمتهم له بتعز في ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ/ أكتوبر ١١٧٣م[٤٨].

الثاني: تحرك الجيش الأيوبي من مصر للاستيلاء على اليمن في السنة نفسها.

وعـند استيلاء الجيش الأيوبي على زبيد سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م أباح توران شاه بن أيوب المدينة لجنده ثلاثة أيام[٤٩]، تعرضت خلالها لعمليات النهب والسلب والتدمير، وخاصة أسوارها التي ظلت متهدمة حتى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م عـندما أمـر طغتكين الأيوبي بتجديد السور القديم سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م[٥٠]، وإضافة سور آخر يحيط بالسور الأول، وركب عليه أربع بوابات، وأمر الجند بالسكن فيما بين السورين إلا أنه توفي قبل أن يسكن الجند[٥١].

وكان سور طغتكين آخر سور بُني للمدينة، مما يدل على أنها لم تتوسع بعد ذلك نظراً لانتقال العاصمة إلى تعز، ولذلك ظلت زبيد تعتمد على السور الأيوبي في الحماية والدفاع، مع قيام سلاطين بني رسول، وبني طاهر، ثم المماليك والعثمانيين بتجديده كلما تعرض للخراب .

ج- مساحة زبيد:

ذكر المؤرخون وأولهم ابن المجاور أن محيط مدينة زبيد أواخر العصر الأيوبي كان "١٠٩٠٠ذراع"، مما يعني أن قطـر المديـنة كان "٣٤٧١ ذراعاً"، أي ما يعادل "٢٧٢٦,٨٦م"[٥٢] لكن الخزرجي فند ما ذكره ابن المجاور حيث

قال[٥٣] "وهذا غير صحيح فإن مساحتها تكون على ما ذكر تسعمائة معاد وخمسة وأربعين معاداً ونحواً من ثلث معاد، وقــد مسحت أيام الملك المجاهد [علي بن المؤيد داود الرسولي] سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م فجاءت ستمائة معاد وستة وثلاثين معاداً، ونصف معاد وثمن معاد، ثم مسحت في الدولة الأفضلية [أيام السلطان الأفضل عباس بن المجاهد] سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م، على يد الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن السراج، والفقيه جمال الدين محمد بن أبي بكر الغراس وكانا يومئذ أبرع أهل زبيد في هذا الفن، فجاءت مساحتها يومئذ ستمائة معاد وأربعة وعشرين معاداً ونصف معاد مـن غـير اختبار، وبالاختبار ستمائة وثمانين معاداً "، أي أن الفارق بين ما ذكره ابن المجاور والخزرجي يقل "٢٦٥ معاداً".

ويمكن التأكد من صحة قياس ابن المجاور والخزرجي من خلال تحليل القياسين على النحو التالي:

(المساحة بالمعاد = محيط المدينة بالذراع ÷ طول المتر بالذراع = طول السور بالمتر)

أ - قياس ابن المجاور: (٩٤٥ = ١٠٩٠٠ ÷ ٢،٠١ ذ= ٥٤٢٢،٨٨م)

ب - قياس الخزرجي: (٦٨٠ = ؟ ÷ ٢،٠١ = ؟م)

في القياس الأخير لا نعرف محيط المدينة لذلك يمكننا معرفته من خلال معرفة قيمة المعاد بالذراع عند ابن المجاور على النحو التالي:

(قيمة المعاد عند ابن المجاور= محيط المدينة بالذراع ÷ مساحتها بالمعاد = قيمة المعاد)

= ١٠٩٠٠ ÷ ٩٤٥ = ١١،٥٣ ذراع

وعلى هذا الأساس يكون محيط المدينة عند الخزرجي:

بالذراع= ١١،٥٣×٦٨٠ =٧٨٤٠،٤٠ ذراع. - بالمتر= ٧٨٤٠،٤٠÷٢،٠١=٣٩٠٠،٦٩م.

وهنا نلاحظ الفارق الكبير بين محيط المدينة عند كل من ابن المجاور والخزرجي:

(ذراع= ١٠٩٠٠ - ٧٨٤٠,٤٠ = ٣٠٥٩,٦٠ ذراع)- (م = ٥٤٢٢,٨٨ – ٣٩٠٠,٦٩ = ١٥٢٢,١٩م)

وللتأكد من صحة قياس كل من ابن المجاور والخزرجي تم تتبع موقع السور من خلال البقايا، ومن خلال ما ذكره المؤرخون، ومن خلال سؤال كبار السن من أهل زبيد الذين أدركوا أساسات السور قبل نهبها، ومن خلال الخريطة التي وضعتها البعثة الكندية للآثار بزبيد، وعلى ضوء ذلك تم وضع علامات تدل على مكان السور على خريطة جوية للمدينة، ثم قياس محيط السور على الخريطة فكان طوله "٧٦,٥سم"، ومن ثمّ تحويل هذا الطول إلى قياس علـى الطبيعة من خلال مقياس رسم الخريطة حيث إن كل "١سم" على الخريطة يعادل "٥٠م" على الطبيعة، وعلى

هذا الأساس يكون محيط سور زبيد: ٧٦,٥سم × ٥٠م = ٣٨٢٥م.

والملاحــظ هنا الفارق الكبير بين قياس ابن المجاور "٥٤٢٢,٨٨م" وبين قياس الباحث ٣٨٢٥م إذ يبلغ الفارق بيــنهما "١٥٩٧,٨٨م"، في حين أن هناك تقارباً بين قياس الخزرجي "٣٩٠٠,٦٩م" وبين قياس الباحث "٣٨٢٥م" حيث إن الفارق بينهما "٧٥,٦٩م" فقط، وهذا يدل على عدم صحة قياس ابن المجاور، وبالتالي صحة قياس كل من الخزرجي والباحث.

د- وصف موجز للسور وأبوابه: (شكل٦)

يمتد السور من باب الشبارق (شكل٧) وهو الباب الشرقي للمدينة، ويعرف بهذا الاسم نسبة إلى قرية الشبارق الواقعة شــرق زبــيد، وربما كان يعرف باسم باب المجرى أيضاً حيث يذكر ابن الديبع إن سعيد الأحول اصطف بجنوده من باب المجري إلى القبلة لمواجهة جيش المكرم الصليحي(٥٤)، وهذا الباب يتكون من كتلة بنائية طولها "٥٥م" تضم بوابة ذات برجين مائلين نحو بعضهما بعضا بحيث يخفيان وراءهما البوابة فتظهر بشكل مورروب مما يضطر المهاجم للبوابة إلى الانعطاف يميناً ثم شمالاً قبل أن يصل إلى فتحة الباب، ومنها إلى الدركاة المكونة من جزأين نصل من أولاهما إلى داخل الــبرجين، أمــا الثانية فنصل منها إلى داخل المدينة مع وجود حجرة مربعة تكتنفها من الجهة الجنوبية والتي يبدو أنها كانت مخصصة للموظف المسئول عن البوابة.

إن التخطيط العام للبوابة بالحجرات والممرات التي تكتنفها وجد في كثير من مداخل المدن والقلاع قبل العصر الإسلامي ومن ذلك البوابة الغربية لمدينة مأرب السبئية، وبوابات مدن نشق (البيضاء)، وقرناو(معين) المعينية، ومدينة البريرا(٥٥)، وكذلك نجده في المدن الإسلامية، ومنها بوابات مدينة بغداد ١٤٥- ١٤٩هــ/ ٧٦٢- ٧٦٧م (شكل١)، ومدينة الرقــة ١٥٥هــ/ ٧٧٢م، وبوابة قصر الأخيضر ١٦١هــ/ ٧٧٨م(٥٦)، وباب زويلــة بالقاهــرة ٤٨٥هــ/ ١٠٩٢م(٥٧)، وبــابي القــرافة والمطــار مــن قلعة القاهرة(٥٨)، وباب القرافة والباب الجديد من سور صلاح الدين بالقاهــرة(٥٩)، وكذلــك في مدخــل قلعة العقبة بالأردن(٦٠)، إلاّ أن تخطيط باب الشبارق يتميز عن سابقيه بشكله المــوروب حيث إن الأبراج هي التي مالت نحو الداخل بعكس المداخل السابقة التي جاء تخطيطها بشكل منكسر على نوعين:

الأول: يعرف بالباب ذي المرفق حيث تنعطف فيه الدركاة نحو اليمين أو اليسار لمرة واحدة أو أكثر كما في أبواب القــرافة والمطار والمدرج من قلعة القاهرة(٦١)، كما وجد في كثير من عمائر الموحدين، ومنها باب أغناو بسور مراكش ٥٤١- ٥٥٨هــ/ ١١٤٦- ١١٦٣م، وباب قصبة رباط الفاتح ٥٥٨هــ/ ١١٦٣م(٦٢).

الثاني: يعرف باسم الباشورة، حيث ينكسر الباب نفسه من الخارج كما في بوابات بغداد(٦٣) (شكل١)، وبابي القرافة والجديد من سور القاهرة(٦٤).

وبناءً على ذلك يمكن القول إن المدخل الموروب وجد لأول مرة في باب الشبارق، وباب القلعة بمدينة زبيد في العصـــر الأيوبي٥٦٩- ٦٢٦هـــ/ ١١٧٤- ١٢٢٩م أو الرسولي٦٢٦- ٨٥٨هـــ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م، ومنها انتشر لباقي المدن اليمنية، ومنها بوابات مدينة صنعاء، وخاصة بابي ستران واليمن[٦٥]، وأبواب الهادي والمحاميت، ونبهان من مديـــنة ثُـــلا[٦٦]، وأبـــواب مديـــنة صعدة التي بنيت أسوارها على يد الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين سنة ٩٢٠هـــ/ ١٥١٤م (شكل٨).

ويكتنف البوابة ثكنتان عسكريتان مستطيلتان قسمت كل منهما إلى بلاطتين بواسطة بائكة ذات ستة عقود في الثكـــنة الشـــمالية، وثمانية في الثكنة الغربية، ولكل ثكنة منهما ثلاثة مداخل، وهذا التخطيط يشبه بعض ثكنات قلعة العقبة بالأردن[٦٧]

بعد باب الشبارق يمتد السور باتجاه الشمال، ثم الشمال الغربي على هيئة ربع دائرة حتى يتصل بالباب الشمالي للمديـــنة -باب سهام- بطول "٧٩٠م"[٦٨]، وكان هذا الجزء من السور يحتوي على ثلاثة وعشرين برجاً لم يبق منها في الواقـــع سوى برج واحد يعرف باسم نوبة الكتف التي تتكون من برج نصف دائري متعدد الطوابق يلتصق به من الجهة الغربية ثكنة للجند.

أمـــا بـــاب ســـهام فيمثل الباب الشمالي للمدينة، وأهم أبوابها لذلك يعد -كما تذكره المصادر- وجه المدينة وغـــرها[٦٩]، وتذكره كثير من المصادر باسم باب سهام نسبة إلى وادي سهام الواقع شمال المدينة[٧٠]، في حين تذكره بعـــض المصادر باسم باب زبيد[٧١] رغم أنه لا يقع باتجاه وادي زبيد الذي يقع جنوب المدينة، والذي عرف به الباب الجـــنوبي، وربما أن المقصود من ذكر باب سهام باسم باب زبيد الإشارة إلى أنه الباب الرئيس لزبيد، كما عرف هذا الباب عند المقدسي باسم باب هشام[٧٢]، وإن كان من المرجح حدوث تصحيف للاسم من "سهام" إلى "هشام".

وتخطـــيطه مكـــون من مساحة طولها "٦٥م" تضم بوابة وثكنتين عسكريتين، البوابة لم يتبق منها سوى باب الدخـــول وجـــزء بســـيط من البرج الغربي على هيئة ربع دائرة في حين جدد الجزء الباقي من البرج على شكل مبنى مستطيل، أما البرج الشرقي الحالي فمن المرجح أنه لا يمثل البرج الشرقي للباب لعدة أسباب أهمها:

أولاً: بعده عن الباب بمسافة قدرها "٢٥م"، وهي مسافة كبيرة لا توجد في أي من الأبواب الأخرى.

ثانياً: مـــيل البرج نحو الشرق بحيث لا يبدو الباب على هيئة منكسرة مثل باب الشبارق، أو النخل، أو الباب الرئيس للقلعة.

ثالثاً: كبر حجم البرج وبنائه على هيئة دائرة كاملة على غير ما هو معتاد في أبراج البوابات الأخرى.

رابعاً: بـــروز هذا البرج -كما هو حالياً- عن البرج الغربي يجعل من المزاغل الواقعة في السور الممتد بينه وبين البوابة

تقـــع على يسار المهاجم للبوابة، وهذا يعني وقوعها باتجاه الجزء المحمي من المهاجم بواسطة الدرع الذي يحمل بالـــيد اليسرى، مما يجعل من مهمة إصابته أمر بالغ الصعوبة، وهذا الأسلوب مخالف لأسلوب الدفاع في ذلك العصـــر المتمثل في جعل الجزء غير المحصن من المهاجم -أي الجانب الأيمن- هو الواقع باتجاه مزاغل الجزء البارز من الباب بهدف القضاء عليه قبل وصوله إلى البوابة نفسها.

وعلى هذا الأساس أرجح أن هذا البرج من الأبراج المستحدثة في العصر العثماني، كما أرجح أن البرج الشرقي لم يكن يبرز عن مستوى البرج الغربي وإنما يرتد مستواه نحو الداخل بحيث يلتصق بالجدار الشمالي للحجرة الشرقية من الـــبوابة نفسها كما هو مشاهد في أبراج باب الشبارق، والباب الرئيس للقلعة أي أنه من النوع الموروب (شكل٩)، وأرجـــح أيضاً أن الأجزاء العليا من الباب أعيد بناؤها بعد سنة ١١٧٥هـــ/ ١٧٦٢م؛ لأن الرحالة نيبور ذكر أنه لم يبق من هذا الباب سوى جدرانه، وأن عقوده قد انهارت[٧٣].

بعـــد باب سهام يمتد السور حتى باب النخل بطول "٨٣٥م" ومن المحتمل أنه كان يحتوي على أربعة وعشرين بـــرجاً لم يبق منها غير برج واحد هو برج (نوبة) أبو حسين التي تتكون من مبنى دائري الشكل يحتوي على طابقين: أرضـــي كـــان مغطـــى بسقف من الخشب محمول على جدران البرج، ودعامة مربعة قسمت البرج من الداخل إلى مســـاحتين نصـــف دائريتين، أما الطابق الأعلى فكان مكشوفاً، وتتخلله ثلاثة مزاغل مستطيلة كبيرة الحجم مشطوفة الحـــواف من الداخل والخارج، وبين كل مزغل وآخر مزغلان صغيران مزدوجان، وتخطيط النوبة بهذا الشكل يشبه تخطيط برج الصديقية، وتخطيط برج باب النصر من القلعة.

أمـــا باب النخل وهو الباب الغربي للمدينة، فكان يعرف باسم باب غلافقة نسبة إلى ميناء زبيد المعروفة باسم غلافقة أو غليفقة[٧٤]، ثم تغير الاسم إلى باب النخل نسبة إلى مزارع النخل القريبة من زبيد من ناحية الغرب بدءاً من أوائل عصر الدولة الرسولية[٧٥].

وتخطيطه (شكل١٠) مكون من مساحة طولها "٦٣م"، تضم بوابة ذات برج واحد، وثكنتين مشابهتين لثكنات بابي الشبارق وسهام، وثكنات برجي الزاويتين الجنوبيتين من قلعة زبيد.

أما البوابة فتختلف عن بوابتي الشبارق وسهام بأربعة اختلافات:

الأول: أن اتجاه الباب غير مباشر مثل الأبواب الأخرى، وإنما يتجه نحو الشمال بدلاً من اتجاهه نحو الغرب مما أعطى البوابة شكلاً منكسراً من الخارج؛ ولذلك نرجح أنه لا يعود إلى نفس فترة بناء بابي الشبارق وسهام، وإنما يعود لفـــترة سابقة وبالتحديد إلى عهد طغتكين الأيوبي سنة ٥٩٣هـــ/ ١١٩٧م، حيث يعد المدخل الوحيد من بين مداخل المدينة الذي بني بشكل منكسراً لأن بابي الشبارق وسهام من النوع الموروب، وباب القرتب من النوع المباشر، ويشبه باب النخل في تخطيطه بابي شعوب وخزيمة من مدينة صنعاء[٧٦].

الثاني: أن للباب برجاً واحداً ذا تخطيط مثمن في الطابق الأرضي، وتخطيط أسطواني في الطوابق العليا، وهو بهذا الشكل يختلف عن تخطيط أي من أبراج السور والقلعة، والذي أرجح معه أن الطابق الأرضي من البرج من بقايا أسوار طغتكين الأيوبي سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، أما الأجزاء العليا فتعود -على الأرجح- إلى تجديد محمد باشا سري سنة ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م، أي بعد زيارة نيبور للمدينة والذي ذكر أن هذا الباب جرفته المياه قبل وقت قصير[٧٧].

الثالث: أنه يكتنف الدركاة حجرتان تفتحان عليها مباشرة في حين أن بابا الشبارق وسهام يكتنف الدركاة في كل منهما حجرة واحدة.

الرابع: أن السلم الصاعد للطوابق العليا يقع في باب النخل في الحجرة الشرقية من الدركاة في حين أنه في بابي الشبارق وسهام يقع خارج الدركاة وحجراتها.

بعد باب النخل يمتد السور حتى باب القرتب بطول "١١٥٠م" كان يتخلله "٣٣ برجاً" تقريباً لم يبق معروفاً منها سوى موقع برجين أحدهما يعرف باسم برج الغصينية، ويقع غرب المدرسة الغصينية مباشرة، والثاني إلى الجنوب منها.

ويمثل باب القرتب الباب الجنوبي للمدينة، وسمى بهذا الاسم لوقوعه باتجاه قرية القرتب من وادي زبيد[٧٨]، وتخطيطه مكون من مساحة طولها "٥٢م" تضم بوابة ذات دركاة يكتنفها من الجانبين دخلتان صغيرتان الشرقية منهما أكثرها اتساعاً، ويكتنف الباب ثكنتان عسكريتان مماثلتان من حيث الشكل لثكنات الأبواب السابقة في حين تختلفان عنها من حيث الحجم.

وهو بذلك يشبه تخطيط بابي سهام والنخل لكنه يختلف عنهما بخلوه من الأبراج، وإن كنت أرجح أن الحجرة المربعة الواقعة شرق المدخل كانت تمثل برجاً مربعاً، وهذا يعني أن الباب كان يكتنفه برج على الأقل، وهو بذلك يختلف عن أبراج كل من بابي الشبارق وسهام التي بنيت على هيئة ثلاثة أرباع الدائرة، وبرج باب النخل المثمن، كما يختلف باب القرتب ذو الشكل المباشر عن الشكل المورروب لبابي الشبارق وسهام، والشكل المنكسر لباب النخل، وهذا يقودنا إلى الترجيح أن هذا الباب أعيد بناؤه كله في العصر الرسولي أو الطاهري في حين أن الأبواب الأخرى تم تجديدها فقط.

نخلص مما سبق إلى أن باب القرتب كان يكتنفه من الجهة الشرقية برج مربع، وهو بذلك يتشابه مع باب النخل بأن لكل منهما برجاً واحداً.

بعد باب القرتب يمتد السور حتى باب الشبارق بطول "٨١٥م"، ويحتمل أنه كان يحتوي على ثلاثة وعشرين

بــرجاً، حيث يمتد السور بعد باب القرتب باتجاه الشرق بطول "١٠٠م" حتى نوبة الصديقية المكونة من برج دائري الشـكل مقسـم من الداخل إلى قسمين بواسطة دعامتين مربعتين تحملان ثلاثة عقود بالاشتراك مع كتفين ملاصقين للجدران، وهذه النوبة تعد المثل الباقي لتطور وتعدد بناء السور، حيث تضم في الداخل بقايا البناء الأيوبي للسور المنفذ بـاللبن، يليها من الخارج الجدار الرسولي المبني بالآجر، فضلاً عن الجدار الساند الذي أضيف في عصر لاحق، والذي يشبه الجدران الساندة لأبراج قلعة صلاح الدين بالقاهرة، ويعد الطابق الأرضي هو الأكثر أصالة حيث ما زال يحمل سمـات مـا يمكـن أن نسميه عصر ما قبل الأسلحة البارودية والمتمثل بالعصرين الأيوبي والرسولي من حيث شكل المـزاغل، وصـغر حجمها، وقلة اتساع فتحاتها، أما الطابق الأعلى فتبدو عليه سمات العصر العثماني المتمثلة باتساع المـزاغل وشـطف حوافها من الداخل والخارج بحيث تسمح بزاوية إبصار، وحركة أوسع للرامي بالبندقية وتشتيت وخفض قوة صوت البندقية على سمع الرامي بها.

بعـد برج الصديقية يمتد السور نحو الشمال بخط مستقيم مع تقويس بسيط حتى يتصل بالبرج الجنوبي الشرقي للقلعـة المعـروف ببرج باب النصر بطول "٣٢٥م"، وكان هذا الجزء من السور يحتوي -على الأرجح- على تسعة أبـراج، ويمـتد السور بعد برج باب النصر من القلعة باتجاه الشمال بطول "١٣٠م" حتى برج المدرسة الإسكندرية، ويضـم أربعة أبراج ما زالت باقية، وهذا الجزء يمثل السور الشرقي للقلعة، بعد برج المدرسة الإسكندرية يمتد السور باتجـاه الشـمال، وبشـكل مستقيم حتى يتصل بالركن الجنوبي الشرقي لثكنة باب الشبارق الجنوبية، بطول قدره "٢٥٧م" تقريباً، والذي كان يضم سبعة أبراج لم يبق منها شئ.

هـ- عدد أبواب السور وأبراجه: (شكل٥)

أجمـع المؤرخـون[٧٩] على أن زبيد ذات أربعة أبواب، تتجه نحو الجهات الأصلية، وهي في ذلك تشبه مدينتي واسط وبغداد[٨٠] من حيث عدد البوابات لا من حيث اتجاهاتها، كما تشبه من حيث عدد الأبواب، واتجاهاتها، ومواد بنائها سور المدينة المنورة الذي بني سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م[٨١]، وهذا العدد من البوابات واتجاهاتها ظهر في العديد من المـدن اليمنية التي ترجع في نشأتها إلى عصر ما قبل الإسلام، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مدينة قرناو[٨٢] المعينية، مما قد يعني أن بغداد تأثرت بقرناو، وتأثرت زبيد بكلتا المدينتين.

أما عن عدد أبراج[٨٣] سور زبيد فيذكر ابن المجاور أن عددها "١٠٩ أبراج"، ولا يمكن التأكد من صحة ذلك لأنـه لم يتبق من أبراج السور سوى ثلاثة عشر برجاً، بما فيها أبراج البوابات، لذلك يمكن اعتماد العدد الذي ذكره ابـن المجاور خاصة أنه صرح بأنه قام بعد الأبراج بنفسه حيث يقول[٨٤] "عددت أبراج زبيد فوجدها مئة برج وتسعة أبـراج" وكلمتي "عددت، فوجدها" تفيدان أنه قام بعملية العد بنفسه، وللتأكد من ذلك يمكننا القيام بعملية حسابية مماثلة لتلك التي تم بواسطتها معرفة طول السور، وذلك على النحو التالي:

قبل محاولة معرفة عدد الأبراج ينبغي أولاً معرفة أمرين:

الأول: متوسط طول السور بين كل برج وآخر، وقد سبق ذكره وهو "٢٨م".

الثاني: متوسط طول المساحات التي تقتطعها الأبراج من جسم السور وهو" ٧م"[(٨٥)].

أي أن مجموع المتوسطين هو" ٣٥م"، وعلى هذا الأساس يكون عدد الأبراج التي تتخلل سور زبيد هو: ٣٨٢٥ ÷٣٥= ١٠٩,٢٨ أبـــراج، أي ١٠٩ أبراج بعد تقريب الكسور العشرية، وهذا العدد مطابق لما ذكره ابن المجاور مما يعني أن ما ذكره بالنسبة لعدد الأبراج كان صحيحاً (شكل١١).

و- التأثيرات المحلية والخارجية على تخطيط زبيد:

عند دراسة تخطيط زبيد قفزت إلى الذهن عدة تساؤلات!! يمكن أن تشكل إجاباتها توضيحاً لتأثير السور على المدينة أو العكس!! ومن أهم التساؤلات: هل استحدثت المدينة أوائل القرن الثالث الهجري أم أنها كانت موجودة من قـــبل؟ وهـــل اعتمد ابن زياد على أهل البلاد في بناء المدينة أم على غيرهم؟ وهل تأثر تخطيط زبيد بغيرها من المدن القائمة في اليمن أو في خارجه؟

نبدأ بالإجابة على **التساؤل الأول** فنقول إن ابن زياد لم يبن زبيد من فراغ، وبمعنى آخر لم يكن موقعها خالياً من البناء، وإنما كانت هناك عدة قرى تحتل الموقع وأهمها قرية الحصيب بجامعها القديم الذي بناه أبو موسى الأشعري ﷺ على عهد رسول الله ﷺ والمعروف بجامع الأشاعر نسبة إلى القبيلة التي تسكن القرية.

مـــن هـــنا يمكن القول إن ابن زياد اتخذ أول الأمر قرية الحصيب مقراً لولايته، وبنى بها مقر ولايته، و تلا ذلك تمصيره لقرية الحصيب والقرى المجاورة وضمها في مدينة واحدة أطلق عليها اسماً جامعاً هو اسم زبيد نسبة إلى الوادي الذي تقع فيه جميع القرى.

أمـــا **التســـاؤل الثاني** عن دور أهل البلاد في بناء المدينة فإنه من المؤكد أن ابن زياد عندما أراد تمصير القرى وتحويلها إلى مدينة وعاصمة لولايته ثم لدولته استعان بأهل البلاد في بنائها لسببين:

الأول: لأن جنده -على الأرجح- يفتقدون الخبرة المعمارية بقدر امتلاكهم للخبرة العسكرية.

الـــثاني: على افتراض أن جنده لديهم خبرة معمارية في بناء المدن فإن الحاجة إليهم كانت ماسة لبسط سيطرة الدولة على المناطق التي استولى عليها فضلاً عن استمرار الحروب لإخضاع بقية أجزاء اليمن، لذلك كان بقاؤهم لبناء المديـــنة أمـــراً مستبعداً، وعلى ذلك أرجح أن ابن زياد اعتمد على أبناء القبائل، وخاصة قبائل تهامة في تمصير المدينة وبناء الأسوار والمنشآت الحكومية والعسكرية ..الخ.

أما بالنسبة **للتساؤل الثالث** عن تأثر زبيد بغيرها؟ فمن المحتمل أن ابن زياد عندما جاء إلى اليمن كان واضعاً في مخيلـــته -بعد أمر المأمون له باستحداث مدينة له في تهامة- تخطيط مدينة بغداد التي جاء منها والتي شارك في استعادتها مـــن أيدي المهدي العباسي -الذي ادعى الخلافة فيها- لصالح الخليفة المأمون، ويبدو أن ابن زياد أراد بناء زبيد على غرار بغداد، لكن الموقع الذي يحتوي على عدة قرى فرض عليه ضم تلك القرى إلى مدينته لاحتوائها والسيطرة عليها كونهـــا مركـــز قبيلة الأشاعر التي جاء لإخضاعها بعد خروجها عن طاعة الخلافة العباسية، فضلاً عن جامع الأشاعر الـــذي اتخـــذه مسجداً جامعاً للمدينة تبركاً بصاحبه واحتراماً لقدمه، لذلك لم يكن باستطاعته بناء المدينة على هيئة دائرية نظراً لتناثر القرى وتباعدها مما يجعل من مساحة المدينة -في حال بنائها دائرية- كبيرة جداً، على عكس مدينة بغـــداد التي بنيت في موقع خال من البناء مما أتاح للخليفة تخطيطها كيفما يشاء، بالإضافة إلى الفارق الكبير بين قدرة الخليفة على البناء، وبين قدرة الولاة.

ولذلك حاول ابن زياد جعل المدينة ذات شكل دائري بقدر المستطاع لعدة أسباب منها:

- حصانة التخطيط الدائري الدفاعية أكثر من التخطيطات الأخرى.
- الاقتصاد في تكاليف البناء بنسبة ١١,٣٨٪ لأن الدائرة أقصر الحدود في تسوير أي نقطة.
- تأثراً بتخطيط بغداد الذي شاهده أثناء مشاركته في استردادها.

وعلى ذلك يمكن القول إن تخطيط زبيد تأثر بشكل بسيط بتخطيط بغداد مع استبعاد تأثر زبيد المباشر بتخطيط المدن اليمنية القديمة كون ابن زياد لم يشاهدها؛ لأنه توجه مباشرة من بغداد إلى مكة، ومنها إلى تهامة، وإن كان ذلك لا يعني عدم تأثر زبيد بتخطيطات المدن اليمنية بل إنها تأثرت بها من ناحيتين:

الأولى: عن طريق أهل اليمن الذين استعان بهم ابن زياد في بناء المدينة.

الثانـــية: تخطـــيط مديـــنة بغـــداد نفسها والمؤثرات الخارجية عليه حيث يذكر كريزويل أن تخطيط مدينة بغداد تأثر بتخطيطات مدن العراق والشام وفارس وشرق آسيا وغيرها والتي سبق الإشارة إليها(٨٦)، وأغفل -ربما تعمداً- ذكـــر تأثـــرها بمـــدن الجزيرة العربية التي لا تكاد تخلو بقعة منها قبل الإسلام من مدينة أو حصن أو قلعة أو معـــبد(٨٧)، وكذلك المدن اليمنية التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام بل وما قبل الميلاد والتي نجد أن كثير منها ذات تخطـــيط دائـــري أو شبه دائري أو بيضاوي ومنها -على سبيل المثال لا الحصر-: المدينتان المعينيتان نشق (البيضاء) ذات التخطيط الدائري، ويثل (براقش) ذات التخطيط نصف الدائري، ومدينة حفري (الدريب/ يلا) في شـــبوة ذات التخطيط شبه الدائري، ومدينة البريرا(٨٨)، ولقد كان الدكتور أحمد فكري محقاً في قوله(٨٩) إنه يجـــب أن نـــراعي عند دراسة المصادر ثلاثة أوجه أولها أن العمارة والفنون لم تكن مجهولة في بلاد العرب قبل

الإســـلام فاليمن مليئة بالمدن والقصور والمعابد والقلاع، ويصرح أن بلاد العرب كانت المصدر الأول لعناصر العمارة والفنون الإسلامية.

ومـــن هـــنا يمكننا القول بأنه إذا كان هناك من فضل لأحد في نشأة العمارة الإسلامية في الأقاليم العربية فإن الفضـــل كل الفضل يرجع إلى العرب الذين حملوا معهم أفكاراً ناضجة عن العمارة إلى الشعوب التي فتحوا أقاليمها، كمـــا أن الأسلوب المعماري الذي نما وازدهر في العصور الإسلامية المختلفة كان استمراراً للأسلوب المعماري والفني الذي نما وترعرع في ظل الحضارات التي ازدهرت في الجزيرة العربية والعراق(٩٠) والشام ومصر قبل الإسلام.

وعـــلى هذا الأساس نرجح تأثر مدينة بغداد بالمدن اليمنية السابقة وغيرها سواء من حيث التخطيط أم العمارة لعدة أسباب منها:

١ - إن معظم الجيش الفاتح للعراق كان من أهل اليمن، فقد كان الخلفاء -سواء في العصر الراشدي، أو الأموي أو العباسي- عندما يعلنون الجهاد تأتيهم القبائل اليمنية -بقظها وقظيظها- فوجاً بعد آخر، ومثال ذلك ما حدث في عهد أبي بكر وعمر ﷺ حيث اكتظت المدينة بالقبائل اليمنية، ومن ثمّ توجهها لفتح العراق والشام ومصر.

٢ - إن الـــذي تـــولى تخطيط الأمصار الإسلامية الأولى كان معظمهم من أهل اليمن وخير مثال على ذلك مدينة الفســـطاط التي تولى تخطيطها أربعة من أبناء اليمن وهم: معاوية بن حديج التجيبي من قبيلة كندة، وشريك بن سمـــي الغطيفي من مراد، وعمرو بن قحزم الخولاني، وحبويل بن ناشرة المعافري(٩١)، ومدينة حمص كان المتولي تقسيم المدينة خططاً بين المسلمين هو السمط بن الأسود الكندي(٩٢).

٣ - إن الباحث في خطط الأمصار الإسلامية في الشام ومصر ومشرق العالم الإسلامي ومغربه والأندلس يجد العديد مـــن قبائل أهل اليمن الذين تركوا آثارهم في كل مكان تقريباً وخاصة المغرب والأندلس(٩٣)، وخير مثال على ذلـــك مديـــنة الفسطاط التي نجد أن ثلاثة أرباع خططها لقبائل يمنية بلغ عددها ستة وثمانين قبيلة من مجموع القبائل العربية البالغ عددها مئة وستة عشر قبيلة(٩٤)، كذلك مدينة الكوفة، وهي أول مدينة بناها المسلمون قام ســـعد بن أبي وقاص ﷺ بتقسيم المدينة إلى خطتين عظيمتين الأولى تقع شرق المسجد، وكانت لقبائل اليمن، والثانية تقع غرب المسجد وكانت لقبائل مضر(٩٥)، كذلك الحال في المغرب والأندلس والتي ما زالت كثير من أحياء المدن والقلاع تحمل أسماءً يمنية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: حصن مراد بين أشبيلية وقرطبة، وقلعة يحصب في إقليم غرناطة، وقلعة خولان بين الجزيرة الخضراء وأشبيلية، ومترل همدان قرب غرناطة ..الخ(٩٦).

وعـــلى هذا الأساس يمكن القول إن مدينة زبيد تأثرت بتخطيط مدينة بغداد التي تأثرت بدورها بتخطيط المدن اليمنية القديمة، ومنها نشق (البيضاء) (شكل١٢)، ويثل (براقش) المعينيتين، ومدينة حفري (الدريب/ يلا) في شبوة، والبريرا.

٢- القصر:

كان من الطبيعي أن يقوم منشئ مدينة زبيد ببناء دار خاص بالإمارة أثناء ولايته عليها، وكان القائم على بنائها مـــولاه شخار بن جعفر، حيث يذكر ابن المجاور ذلك بقوله:[٩٧] " لما أقام ابن زياد في زبيد بنى شخار بن جعفر دار الملك في زبيد ذات طول وعرض بالآجر والجص بناءً وثيقاً على مقاطع الطريق، وكل من تولى زبيد سكنها، وكان له بـــاب عـــالٍ بالمرة ينظرون منه في الطريق على -بعد- فرسخين وحفر حوله خندقاً عظيماً عريضاً، وبقي الباب على حالـــه إلى أن هدمه المسعود يوســـف بن -الملك الكامل- أبي بكر سنة ثماني عشرة وستمائة" ١٢٢١م، وقد تحولت هـــذه الـــدار بعد استقلال بني زياد ٢٠٤-٤٢٦هـــ/ ٨١٩-١٠٣٥م عن الخلافة العباسية إلى قصر عرف باسم دار الملك أو دار السلطان، وذلك طوال عصر هذه الدولة، وكذلك في عصر الدولة النجاحية٤٣١- ٥٥٤هـــ/١٠٤٠- ١١٥٩م. أما في فترات سيطرة الصليحيين على زبيد فكانت الدار تعود مرة أخرى إلى وظيفتها القديمة داراً للإمارة مع بقـــاء التســـمية "دار السلطان"؛ ولذلك يصفها ابن الديبع في معرض حديثه عن محاولة جياش بن نجاح استرداد زبيد وملكه السليب بقوله[٩٨] ".. وذكر يوماً أن علي بن القم عاد من دار السلطان إلى داره غضبان..".

وقـــد ذكرت دار السلطان بعد ذلك باسم دار الإمارة أثناء محاولة عبد الواحد بن فاتك بن جياش الاستيلاء على الملك من يد أخيه منصور سنة ٥٠٣هـــ/ ١١١٠م، حيث يذكر ابن الديبع ذلك بقوله "وحاز دار الإمارة "، في حـــين عرفت في أواخر عصر الدولة النجاحية باسم دار السلطان استمراراً للتسمية الأولى، وتمييزاً لها عن دار الإمارة التي بناها الوزير النجاحي أنيس الفاتكي أثناء فترة وزارته الممتدة بين ٥٠٣- ٥١٧هـــ/ ١١٠٩- ١١٢٣م، على أن أهـــم تجديد للقصر تم في عهد السلطان الرسولي الأشرف إسماعيل الثاني ٧٧٨- ٨٠٣هـــ/ ١٣٧٦- ١٤٠١م حيث يذكـــر الخزرجي ذلك بقوله[٩٩] "رأيت مجلساً في الدار السلطاني بزبيد، فيه محراب كهيئة محراب المسجد، وفي المجلس المذكـــور قـــبر ظاهر يقال إنه قبر الملك المعز [إسماعيل بن طغتكين]، ولما كان في أيام السلطان الأشرف أمر بخراب الـــدورات القديمـــة فخربـــت وخرب المجلس الذي فيه القبر المذكور، واندرس القبر و لم يبق له أثر"، ويبدو أن هذا التجديد حدث بعد حريق الدار، وتشعث مواضع كثيرة منه سنة ٧٨٠هـــ/ ١٣٧٨م وفي سنة ٧٩٠هـــ/ ١٣٨٨م تم بـــناء قصر آخر ملاصق للركن الجنوبي من الدار السلطاني سنة ٧٩٧هـــ/ ١٣٩٥م عرف باسم دار الذهب[١٠٠]، ثم وسع القصر مرة أخرى سنة ٨٠٠هـــ/ ١٣٩٨م، حيث أمر السلطان الأشرف بعمارة الزيادة في الدار السلطاني على هيئة قصر يقع قبالة مدرسة الميلين وما يوازيها من الغرب[١٠١].

وكان التجديد الشامل للقصر قد تم في عهد السلطان الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل الثاني ٨٠٣-٨٢٧هـــ/ ١٤٠١- ١٤٢٤م حيـــث أراد بناء قصر خاص به في مدينة زبيد فأمر بهدم القصر السلطاني وما حوله من قصور بني زيـــاد ٢٠٤- ٤٢٦هـــــ/ ٨١٩- ١٠٣٥م، وبـــني نجـــاح ٤٣١- ٥٥٤هـــ/ ١٠٤٠- ١١٥٩م وقصور الأمراء الصليحيين وغيرها من القصور سنة ٨٢٢هـــ/١٤١٩م وبنى مكانها داراً كبيرة عرفت باسم الدار الناصري الكبير نسبة إليه[١٠٢].

وفي القـــرون الـــثلاثة الأخيرة تحولت بعض القصور إلى إدارات حكومية ومنها السجن، ودار الحكومة، ودار الضـــيافة الـــذي استغل مبنى للمواصلات، ثم مستوصفاً صحياً، ودار المالية، وأصبح القصر يعرف أحياناً باسم الدار الناصري وإن غلبت عليه اسم قلعة زبيد، ولذلك سوف نتناولها تحت المسمى الحالي.

الموقع: (شكل٥)

تقع القلعة في الطرف الشرقي من النصف الجنوبي للسور الشرقي للمدينة، ويعد سورها الشرقي جزءاً من سور المديـــنة، وهـــي بذلـــك تقع في موقع متطرف من المدينة، حيث تحيط بها الشوارع والمنازل والساحات من الجهات الشـــمالية والغربـــية والجنوبية، وسور المدينة من الجهة الشرقية، ويدلنا هذا الموقع على أن مؤسس المدينة راعى عند اختياره أن تكون في منأى عن بقية السكان؛ لأن ذلك من شروط إنشاء المدن حيث يقول ابن أبي الربيع"[١٠٣] إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كفاله من سائر جهاته"؛ ولذلك نجد أن قلعة زبيد بنيت في الجهة الشرقية من المدينة، وهي بذلك تشبه كثيراً من قلاع المدن في اليمن وغيرها من حيث موقعها المتطرف عن المنشآت، ومـــن ذلـــك قلعة القاهرة بتعز -بنيت في العصر الأيوبي- والتي تقع في الجهة الجنوبية من المدينة، وقلعة صنعاء (قصر غمـــدان) تقع في الركن الجنوبي الشرقي منها، وقلعة صعدة تقع في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة صعدة، وكذلك حصـــن ثُلا يقع في الجهة الغربية من مدينة ثُلا، وقلعة جُبَن تقع في الجهة الشمالية من مدينة جُبَن، وقلعة رداع تقع في الجهـــة الشـــمالية الشرقية من مدينة رداع، وفي المدن غير اليمنية نجد أن قلعة صلاح الدين تقع في الجهة الشرقية من القاهرة، وقلعة دمشق في الركن الشمالي الغربي من المدينة، وقلعة بغداد في الركن الشمالي الغربي أيضاً، وقلعة الموصل في منتصف الضلع الشرقي للمدينة، وقلعة القدس في منتصف السور الغربي للمدينة، وقلعتي حمص وسيروس تقعان في الـــركن الجـــنوبي الغربي من المدينتين، وقلعة ديار بكر تقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، وقلعة حلب تقع في منتصـــف الســـور الشرقي من المدينة، وقلعة الجزائر تقع في الركن الشمالي الغربي من مدينة الجزائر، وقلعة تونس في منتصف الضلع الغربي من مدينة تونس[١٠٤].

ونســـتنتج من ذلك أن القلاع بوصفها مركزاً سياسياً نظراً لاحتوائها على قصور الملوك، والسلاطين، والولاة، وثكـــنات الجند - كانت في العادة تبنى في مواقع متطرفة عن العمران رغبة في تحقيق الأمن للمركز السياسي، وذلك بعـــزله عـــن مـــنازل المدينة الأخرى[١٠٥]، وتيسيراً على الملوك والولاة والجند من الخروج منها، والدخول إليها دون حدوث احتكاك بينهم وبين عامة الناس.

الوصف المعماري: (شكل١٣أ، ب)

تـــتكون القلعـــة من مساحة مستطيلة متعددة الأضلاع، أقصى اتساع لها "١٢٦م" من الشمال إلى الجنوب، وأقصـــى عرض لها "١٥٨م" من الشرق إلى الغرب، ومحيطها "٦٢٤م" محاطة بالأسوار المدعمة بالأبراج، ولها مدخل

رئيســي في الجهة الشمالية، ومدخلان فرعيان الأول يقع في امتداد السور بين دار الضيافة ودار الحكومة، والثاني في الركن الجنوبي الشرقي منها، وثلاثة مداخل ثانوية مستحدثة أحدهما خاص بمبنى الحكومة، والآخر خاص بدار الضيافة والثالث خاص بمحطة كهرباء مبنى المواصلات القديم.

وتظم القلعة بداخلها بستان كبير يعرف باسم رحبة محاط بعدة مبانٍ منها: ثلاثة قصور تقع في الركن الشمالي الغــربي هي: دار الحكومة، ودار المالية، ودار الضيافة، فضلاً عن إسطبل للخيل، وبئرين، ومخزنين للحبوب والسلاح، ومنظرة، ومدرسة، ومبنى للسجن، وحمام، وعدد من الثكنات المخصصة للجند، وهذه المباني لم تكن جميعها من إنشاء السلطان الناصر أحمد الرسولي٨٠٣- ٨٢٧هـ/١٤٠١- ١٤٢٤م، وإنما أضيفت تباعاً، وفي عصور مختلفة، حيث من المــرجح إن الدار الناصري الذي أنشأه السلطان الناصر كان يتكون من قصر واحد يقع في الركن الشمالي الغربي من القلعة، تقابله من الجهة الشرقية المدرسة الإسكندرية، وبين القصر والمدرسة كان يوجد بستان كبير حل جزء كبير منه محــل القصور التي هدمها السلطان الناصر، والتي يبدو أن الهدم فيها تركز على الأجزاء العليا من المباني، بينما دفنت الأجــزاء الســفلى تحــت الردم، وهو ما يفسر لنا وجود طابق كامل من أحد المباني تحت الأرض يقع شرق مخزن الســلاح، ويحــيط بالبستان والدار من جهة الشرق سور المدينة فضلاً عن ثلاثة أسوار في الجهات الشمالية والغربية والجنوبــية، ثم أضيف للدار في العصر الطاهري ٨٥٨- ٩٢٣هـ/ ١٤٥٤- ١٥١٧م عدة قصور ومتنزهات ودرج ومبان حكومية أخرى.

٣- الخندق:

لم يذكر المؤرخون الذين عاصروا وأرخوا لدول بني زياد ٢٠٤- ٤٢٦هـ/ ٨١٩-١٠٣٥م وبني نجاح ٤٣١- ٥٥٤هـــ/ ١٠٤٠- ١١٥٩م، وبني مهدى ٥٥٤- ٥٦٩هـ/ ١١٥٩- ١١٧٤م، وبني أيوب ٥٦٩- ٦٢٦هـ/ ١١٧٤- ١٢٢٩م، قيام أي من هذه الدول بحفر خندق يحيط بالمدينة، وأول إشارة تنص صراحة على وجود الخندق حول زبيد ترجع إلى عصر الدولة الرسولية ٦٢٦- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م حيث يذكر الخزرجي أن السلطان المجاهد الرسولي أمر سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م بتجديد سور زبيد، وعمارة أبوابها وخنادقها"[١٠٦].

ومن هذه الإشارة يمكن أن نستشف أنه مادام الأمر كان لتجديد السور، وعمارة الأبواب والخنادق فإن الخندق كان موجود قبل عصر المجاهد علي بن داوود الرسولي ٧٢١- ٧٦٤هـ/١٣٢١- ١٣٦٣م، مثله في ذلك مثل السور والأبــواب، ولكــن لا نعــرف مــتى بالتحديد تم حفر الخندق؟ هل في العصر الرسولي؟ أم يرجع إلى ما قبل العصر الرسولي؟ كما لا نعرف من الذي حفر الخندق؟ وهل كان للمدينة خندق واحد أو أكثر؟.

وللإجابــة على هذه التساؤلات حاولت البحث في ثنايا صفحات الكتب وبين سطور المصادر التاريخية لعلها تقدم بعض الإجابات -إن لم تكن كلها- على هذه التساؤلات !! .

كانــت أول إشــارة لفتت نظري إلى وجود خندق في زبيد ما ذكره ابن المجاور أنه بعد استيلاء محمد بن زياد عــلى زبيد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، قام مولاه شخار بن جعفر ببناء دار لإقامة ابن زياد حيث يقول(١٠٧) "لما أقام ابن زياد في زبيد بنى شخار بن جعفر دار الملك في زبيد ذات طول وعرض بالآجر والجص بناءً وثيقاً على مقاطع الطرق وكــل مــن تولى زبيد سكنها، وكان له باب عال بالمرة ينظرون منه في الطريق على فرسخين، وحفر حوله خندقاً عظيماً عريض".

أمــا ثاني إشارة فقد أوردها المقحفي نقلاً عن الأهدل حيث يقول(١٠٨) "قال الأهدل أول من سوّر مدينة زبيد الحســين بــن ســلامة في القرن ٤هـ/ ١٠م فالأمير سرور الفاتكي في منتصف القرن ٦هـ/ ١٢م على إثر غارات علي بن مهدي، وحفرت خنادقها".

وثالــث إشارة تدل على وجود الخندق تعود إلى أوائل الدولة الرسولية أيضاً حيث يذكر ابن حاتم في معرض حديثه عن استيلاء المظفر على زبيد بعــد مقتل والــده المنصــور عمــر سنة ٦٤٧هــ/ ١٢٤٩م، إن والي حَيْس المــبارز بن برطاس توجه إلى زبيد للاستيلاء عليها لصالح فخر الدين بن الحسن بن علي بن رسول الذي أعلن نفسه ســلطاناً في السنة نفسها وتوجه إلى زبيد لمحاصرتها، وقد أراد المبارز خديعة والي زبيد ودخولها -بقواته وحريمه- على أنــه من أنصار المظفر، ولكن الوالي لم يسمح له بالدخول، وسمح فقط بدخول حريمه، وبقي المبارز واقفاً خارج زبيد محاصراً لها مع فخر الدين لمدة ثلاثة عشر يوماً، وعندما علم بقرب وصول المظفر إلى زبيد ألقى بنفسه في الخندق أمام بــاب الشــبارق، وطلــب مــن أهل زبيد أن يسحبوه من على السور، وأعطاهم شيئاً من المال، فأدلوا لــه الحبال وأطلعوه، ثم إن والي زبيد رتبه على باب الشبارق بعد أن تأكد من تحول ولائه إلى المظفر(١٠٩)

ورابــع إشارة وردت أيضاً عند ابن حاتم حيث يذكر أن السلطان المظفر بعد دخولــه إلى زبيد -بعد استيلائه عليها- أمر قائماز بأن يصلح الخندق الذي على باب الشبارق(١١٠).

مــن هذه الإشارات نستدل على أن الخندق كان موجوداً منذ بداية تأسيس زبيد لكنه كان خندقاً خاصاً بدار الإمــارة، أمــا الخــندق المحــيط بالمدينة فكان أول ذكر له منذ عصر الدولة النجاحية ٤٣١- ٥٥٤هـ/ ١٠٤٠- ١١٥٩م، واســتمر يــؤدي دوره في عصور الدول اللاحقة، ولكن ما لم نعرفه من المصادر التاريخية هل كان الخندق يحيط بالمدينة كلها أو يحيط فقط بالأبواب كما ورد في الإشارة الرابعة؟.

وقد جددت الخنادق في عهد السلطان الأفضل ٧٦٤- ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣- ١٣٧٦م حيث يذكر الخزرجي أن الســلطان "جــدد ســور زبيد، وعمر خنادقها بعد أن انهدم سورها، وخربت خنادقها، وأنفق في عمارة ذلك جملة مســتكثرة"، وجددهــا أيضاً السلطان الأشرف إسماعيل بن الأفضل سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وخاصة الخندق الثاني الذي أمر بحفره بعد أن كان قد دفنه الطواشي أهيف(١١١)، ومن هاتين الإشارتين نستدل على أنه كان لزبيد خندقان

(شـكل ١٤) يحـيط الأول بالســور الأول، وهو السور الذي بناه الحسين بن سلامه ٣٩٣- ٤٢٦هـ/ ١٠٠٣- ١٠٣٥م، ويحيط الثاني بالسور الثاني الذي بناه طغتكين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، ويبدو أن طغتكين بعد بنائه لســور آخر يحيط بالمدينة سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م وهو المذكور هنا باسم الخندق الثاني، وهذا يعني أن الخندق الأول كــان يقع في المساحة التي تفصل بين السورين، كما ذكرت المصادر وجود خندق ثالث في زبيد لكنه خندق جزئي وهــو الذي أمر السلطان الطاهري المنصور عبد الوهاب بحفره سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م داخل مدينة زبيد حول دار السلاح التي بناها على باب الشبارق[١١٢].

الوصف المعماري: (شكل١٥)

يـتكون الخندق المتبقي حالياً من حفير دائري يحيط بالمدينة بعمق يتراوح بين ٢- ٥، واتساع يتراوح بين ٣- ١٥م، ومازالـت معظم أجزاء الخندق باقيةً إلى اليوم، إذ كان لميل أرض وادي زبيد المبنية عليها المدينة نحـو الغرب -أي نحو البحر- دور كبير في الحفاظ عليه نظراً لاستغلاله مجرى لتصريف مياه الأمطار الآتية من شرق المدينة.

مما سبق نستنتج أن الخندق في زبيد كان على نوعين:

النوع الأول: كان يحيط بالمدينة كلها ولا نعرف متى تم حفره، حيث إن أقدم الإشارات التي ذكرت الخندق تعود إلى النصف الأول من القرن ٦هـ/ ١٢م، كما تذكر المصادر التاريخية[١١٣] أنه كان لزبيد خندقان يحيطان بسوري المديـنة، وأن أحد هذين الخندقين دفنه الطواشي أهيف أثناء ثورة العوارين بها فأمر السلطان الأشرف إسماعيل سـنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م بحفره من جديـد، ومن المرجح إن بقايا الخندق الحالي تمثل بقايـا الخنـدق الثاني (الخارجي) الذي كان يحيط بالسور الثاني، أما الخندق الأول الذي يقع بين السورين فقد اندثر مع السور الأول بسبب الزحف العمراني.

والنوع الثاني: كان يحيط بأهم مبنى في المدينة، وهو دار محمد بن زياد مؤسس دولة بني زياد٢٠٤- ٢٤٥هـ/ ٨١٩ - ٨٥٩م، وهي الدار التي بناها له مولاه شخار بن جعفر بعد استيلائه على زبيد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، وهي الـدار التي يحتل موقعها الآن قلعة زبيد (الدار الناصري)، مما يعني أن هذا النوع من الخنادق وجد منذ اللحظة الأولى لبـناء زبـيد، وهي في ذلك تشبه كلاً من قلعة دمشق التي كانت محاطة بخندق خاص بها[١١٤]، وقلعة عجلون التي كانت محاطة بخندق اتساعه ١٣-٢٠م وعمق ٦-١٠م[١١٥]، وقلعة حلب التي كانت محاطة بخندق تم حفره سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م بأمر السلطان الظاهر غازي بعمق ٢٢-٢٦م، وعرض ٣٠م[١١٦]، وقد اندثر الخندق الخاص بدار الملك -الدار الناصري بعد ذلك- أو ما نعرفه حالياً باسم القلعة.

الخلاصة:

تعـد مديـنة زبـيد مدينة إسلامية النشأة والتخطيط والبناء والتمصير، ولذلك كان تخطيطها ومنشأتها الدينية والمدنـية والعسكرية نموذجاً للمدينة اليمنية في العصر الإسلامي، ومن خلالها أمكن التوصل إلى العديد من النتائج من أهمها:

١ - مـن المرجح أن زبيد كانت محاطة بسور واحد منذ نشأتها سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م وحتى عهد طغتكين الأيوبي الذي أضاف سوراً آخر للمدينة سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م فأصبح للمدينة سوران محاطان بخندقين (شكل١٤)، ونسـتدل على ذلك بما ذكره المقدسي (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) من أنه كان على زبيد حصن من الطين بأربعة أبـواب، وكذلك بما ذكره يحي بن الحسين (١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م) من أن ابن زياد أحاط زبيد بسور عندما اختطها[١١٧].

٢ - ذكـر المؤرخون أن تخطيط زبيد كان دائري الشكل (شكل٤)، ولذلك كثيراً ما شبهوها بمدينة بغداد، إلاّ أن تتـبع مسار السور أظهر أن تخطيط زبيد لم يكن دائري الشكل وإنما ذو شكل بيضاوي متعرج يتسع في الجزء الشـمالي، ويضيق في الجزء الجنوبي، هذا بالنسبة للتخطيط الحالي بناءً على مواقع أبواب المدينة وبقايا السور، لكنـنا لا نسـتطيع نفي أو إثبات تخطيطها الدائري في فترة ما قبل العصر الأيوبي٥٦٩- ٦٢٦هـ/ ١١٧٤-١٢٢٩م لعدم وجود بقايا للسور قبل هذا العصر.

٣ - تشابه مدينة زبيد[١١٨] مع مدينة بغداد[١١٩] من حيث:

- تعدد الأسوار فقد كان لكل منهما سوران رئيسيان.
- سمك السور البالغ عشرة أذرع "٤,٩٧م".
- مادة البناء المكونة من الطين اللبن.
- عدد الأبواب البالغة أربعة أبواب في كل مدينة.
- تقسـيم كل من المدينتين إلى أربعة أقسام بواسطة أربعة شوارع تمتد من الأبواب الأربعة حتى رحبة القصر ببغداد، وجامع الأشاعر بزبيد.
- بناء المسجد وسط المدينة.
- احتواء كل منهما على خندق يحيط بالمدينة وإن تميزت زبيد بإضافة خندق آخر لها في العصر الأيوبي.
- احـتواء كـل منهما على فصيل أو أكثر يفصل بين الأسوار، وإن تميز فصيل زبيد الداخلي باحتوائه على خندق آخر.

- تقارب عدد الأبراج في المدينتين ١٠٩ في زبيد، و١١٣ في بغداد.
- احتواء كلا المدينتين على أسواق متخصصة بأنواع السلع التي يعرض كل نوع منها في شارع محدد.

٤ - احتواء زبيد على مداخل من النوع المنكسر الذي يعرف في العمارة الإسلامية بعدة أسماء منها الباشورة، والمدخل المنكسر، والمدخل ذو المرفق، والمدخل ذو العطف، والمدخل المزور، والمدخل المنحني[١٢٠]، وسمي بهذا الاسم لأن تصميمه يجعل الداخل إليه ينعطف يساراً أو يميناً مرة واحدة أو أكثر ليصل إلى داخل المدينة أو القلعة أو غيرها من المنشآت، وهذا النوع من المداخل وجد في العمارة المصرية القديمة في عهد الأسرات ٦-١٢ الفرعونية في كل من الكوم الأحمر، وشونة الزبيب، وأبيدوس كما يذكر كريزويل[١٢١]، ووجد أيضاً في عمارة قصر أوغاريت في بلاد الشام في الألف الثاني ق.م[١٢٢]، وفي عمارة اليمن التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام بفترتيه قبل الميلاد وبعده، حيث لا يزال كثير من أسوار المدن السبئية والمعينية والحِمّيرية والقتبانية والحضرمية قائمة حتى الآن، ومنها بوابات مدينة ميفعة، وخورروري، ومدخل الأخيرة ينكسر أربع مرات[١٢٣]، كما وجد في العديد من المدن العراقية قبل الإسلام، ومنها مدينة الحضر، وبعض الحصون الآشورية[١٢٤]، ثم ظهر في العصر الإسلامي لأول مرة في مدينة بغداد[١٢٥].

وبما أن مدينة زبيد مدينة يمنية وإسلامية النشأة فقد وجد بها المدخل المنكسر في الباب الغربي للمدينة المعروف بباب النخل، وهو من النوع الذي ينكسر من الخارج أي قبل فتحة الباب وليس بعدها، وهذا النوع وجد في الفترة الإسلامية المبكرة في بوابات مدينة بغداد الأربع ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[١٢٦]، فهل يعد وجود الباب المنكسر في زبيد من تأثيرات مدينة بغداد؟ أم يعد من التأثيرات المحلية للعمارة اليمنية قبل الإسلام؟.

في الحقيقة يمكن عده من كلا التأثيرين في الوقت نفسه!!، حيث إن أهل اليمن الذين عاشوا في المدن التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام، وتعايشوا معها شكلوا جُلّ جيش الفتح الإسلامي لبلاد الشام والعراق وفارس ومصر ومشرق العالم الإسلامي ومغربه، فلا شك أنه كان لهم دور في تخطيط المدن الإسلامية وبنائها يوازي -إن لم يكن يزيد- دورهم في عملية الفتح ونشر الإسلام، لذلك احتوت المدن الإسلامية ومنها البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد على مؤثرات معمارية يمنية، إلى جانب المؤثرات المحلية للمنطقة التي بنيت فيها المدينة.

مما يعني أن المدخل المنكسر في بغداد يمكن عده من تأثيرات الحضارات القديمة مجتمعة المصرية منها واليمنية والعراقية والشامية، ومن بغداد انتشر إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي فشيدت على غرارها أبواب مدينة الرقة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م[١٢٧]، ثم في العديد من المدن والقلاع والمنشآت الدينية والمدنية الإسلامية في مختلف أجزاء العالم الإسلامي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر بعضُ منازل الفسطاط فيما بين القرن٣- ٥هـ/ ٩

-١١م[١٢٨]، ومدخل قلعة الحصن في الشام[١٢٩]، والمدخلان الشرقيان لمدينة دمشق[١٣٠]، وبعض قلاع الأردن، ومنها الباب الغربي لقلعة الكرك، ومدخل قلعة عجلون الشبيه بمدخل قلعة حلب[١٣١] الذي يعد أروع أمثلة هذا النوع من المداخل، وفي مصر وجد في الباب الجديد الذي أنشأه صلاح الدين أيام وزارته للفاطميين[١٣٢] وفي أبواب المحروق والقرافة والمطار والإمام من سور صلاح الدين بمدينة القاهرة، وقلعتها التي تعد أقدم المداخل المنكسرة في مصر[١٣٣]، وفي قلاع المغرب والأندلس في العهد المرابطي ٤٤٨- ٥٤١هـ/ ١٠٥٦- ١١٤٧م، كما في باب Los pesos de، وباب monaita بغرناطة، وباب قرطبة بأشبيلية، وباب مدينة لبلة[١٣٤]، وشاع استخدامه في العهد الموحدي ٥٢٤- ٦٦٧هـ/ ١١٣٠- ١٢٦٨م كما في باب قصبة وداية وقلعتها، وفي رباط مراكش ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وباب قصبة بطليموس ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م[١٣٥].

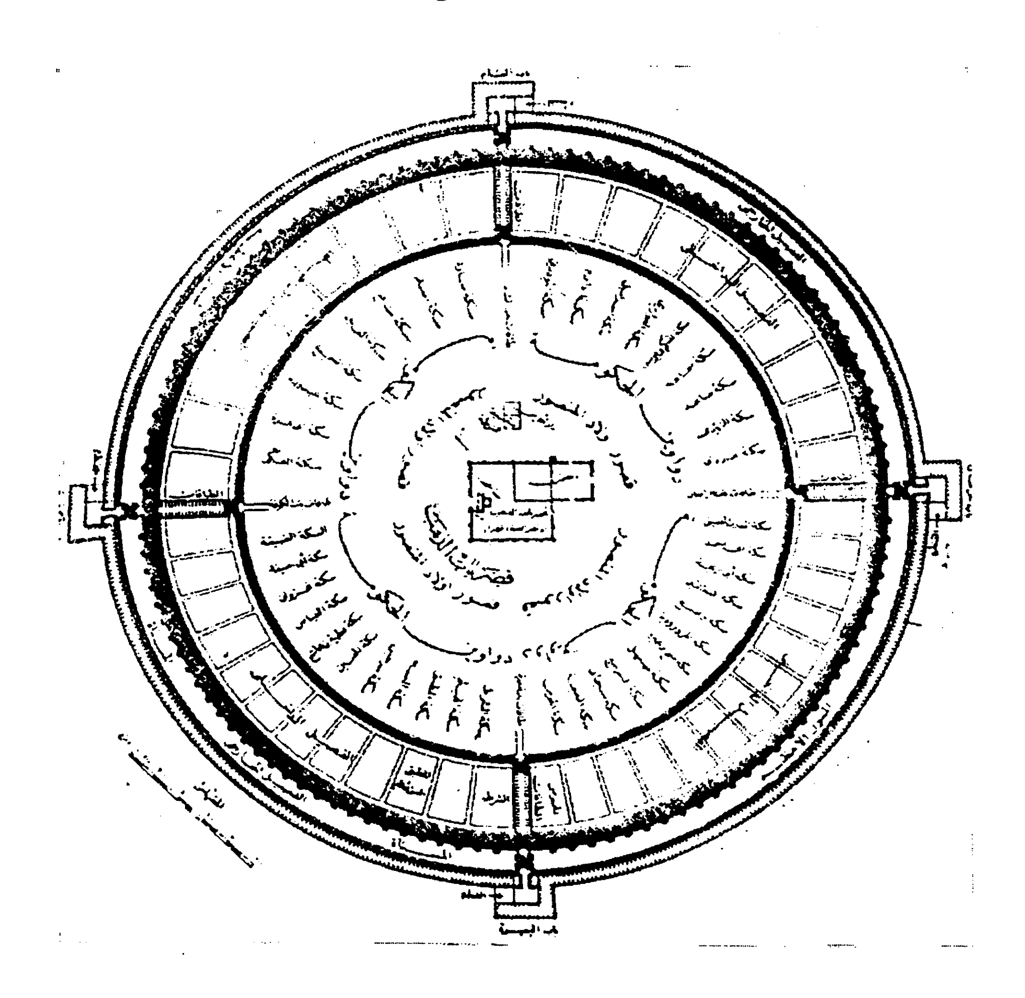
٥ - احتواء زبيد على طراز جديد من المداخل لم نجده قبلها في اليمن ولا في خارجها، ويتمثل في المدخل الموروب (شكل ١٦) الذي يميل فيه برجا الباب نحو بعضهما بحيث يحتضنا الباب ويخفيانه وراءهما كما في باب الشبارق والباب الرئيسي للقلعة، والذي تأثرت به بعض مداخل مدن صنعاء وصعدة وثُلا، وترجيح أن باب سهام كان من النوع نفسه، وترجيح أن هذا الطراز يعود إلى عصر الدولة الرسولية ٦٢٦- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م، وبالتحديد إلى تجديد السلطان الأشرف للسور سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، أو تجديد السلطان الظاهر يحيى سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م، ويعد هذا النوع من المداخل حلقة الوصل بين المدخل المباشر والمدخل المنكسر.

٦ - احتوت زبيد على نوعين من الخنادق الأول يحيط بأسوار المدينة، وكان عبارة عن خندق واحد، وعندما أضاف طغتكين الأيوبي سوراً آخراً لزبيد سنة ٥٩٣هـ/ ١١٧٤م من المحتمل أنه أحاطه بخندق آخر حيث تذكر مصادر تاريخ الدولة الرسولية ٦٢٦- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م أن زبيد في عهدها كان لها سوران وخندقان[١٣٦]، وبما أن تلك المصادر لم تنسب حفر الخندق الثاني إلى الدولة الرسولية بل تذكر أنها أعادت حفره بعد أن دفنه الطواشي أهيف سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م، فمن المحتمل أن الخندق الثاني يعود إلى عهد طغتكين الأيوبي، وأنه تم حفره بعد بناء السور الثاني سنة ٥٩٣هـ/ ١١٧٤م، والنوع الثاني من الخنادق كان خاصاً بالمنشآت المهمة بزبيد ومنها دار الملك محمد بن زياد مؤسس الدولة الزيادية ٢٠٤- ٤٢٦هـ/ ٨١٩- ١٠٣٥م.

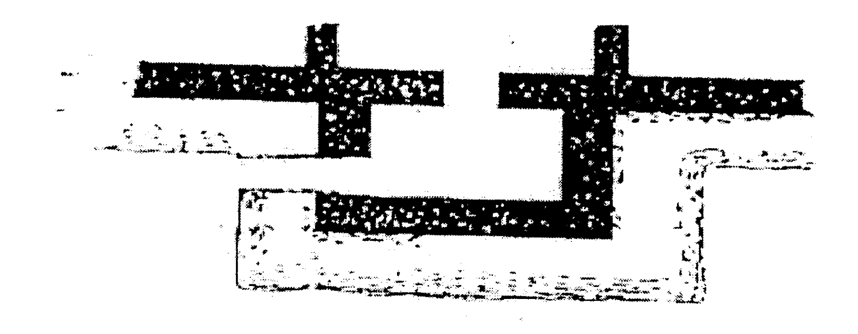
٧ - احتواء زبيد على أبراج متنوعة يمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع هي: أ- أبراج نصف دائرية، ب- أبراج ثلاثة أرباع الدائرة: ولها نموذجان: أبراج أسطوانية شبيهة بأبراج مدينة بغداد ، وأبراج مخروطية. ج- أبراج مضلعة، د- أبراج دائرية، هـ-أبراج مربعة.

٨ - احتواء زبيد على سقاطات بارزة [١٣٧]: وهي عبارة عن شرفة تبرز عن جدار السور أو البرج أو الباب محمولة على كوابيل تفتح بينها السقاطات في أرضية الشرفة[١٣٨]، تظهر من الخارج على شكل نصف مسدس، أو على هيئة نصف دائرة، أو على شكل مستطيل (شكل١٧).

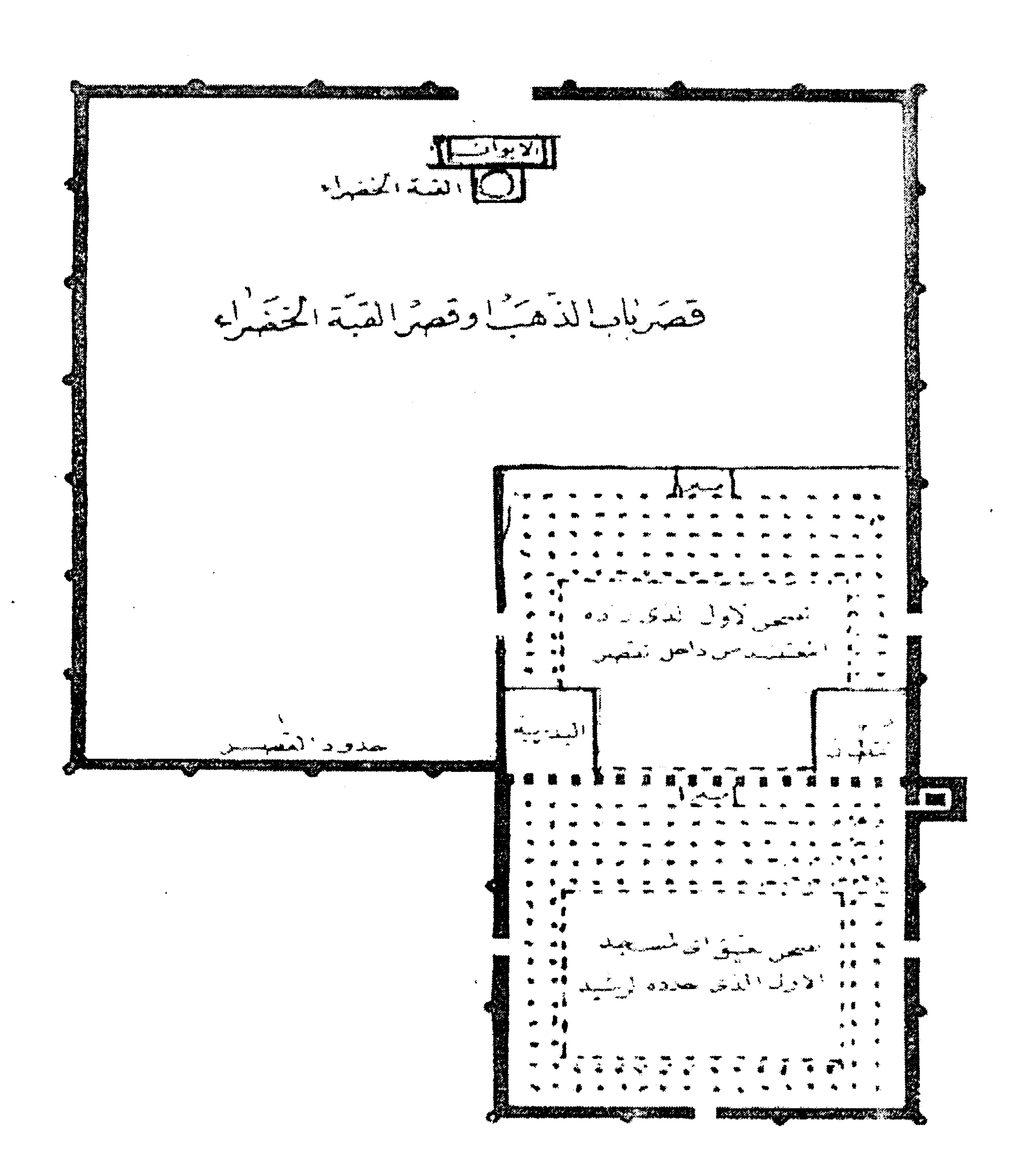
٩ - احتواء زبيد على ممشى يعلو الأسوار يحميه من الخارج جدار ساتر يتراوح ارتفاعه بين متر ومترين بحيث يحجب الحـــراس بشـــكل كامل أو نصف أجسامهم، وتتخلله سقاطات بارزة ومزاغل يدافع الحراس من خلالها عن المديـــنة، وهـــو بذلـــك يشبه ممشى سور بغداد وإن تميز الأخير بأنه مغطى بأقبية طولية، في حين أنه في زبيد مكشوف سماوي، حيث تأثر بالمماشي والجدران الساترة في مدن اليمن القديم (شكل ١٨).



شكل (١) بغداد، المسقط الأفقي (عن غازي رجب، المدينة العربية، ص٩٠، شكل ٣٥)

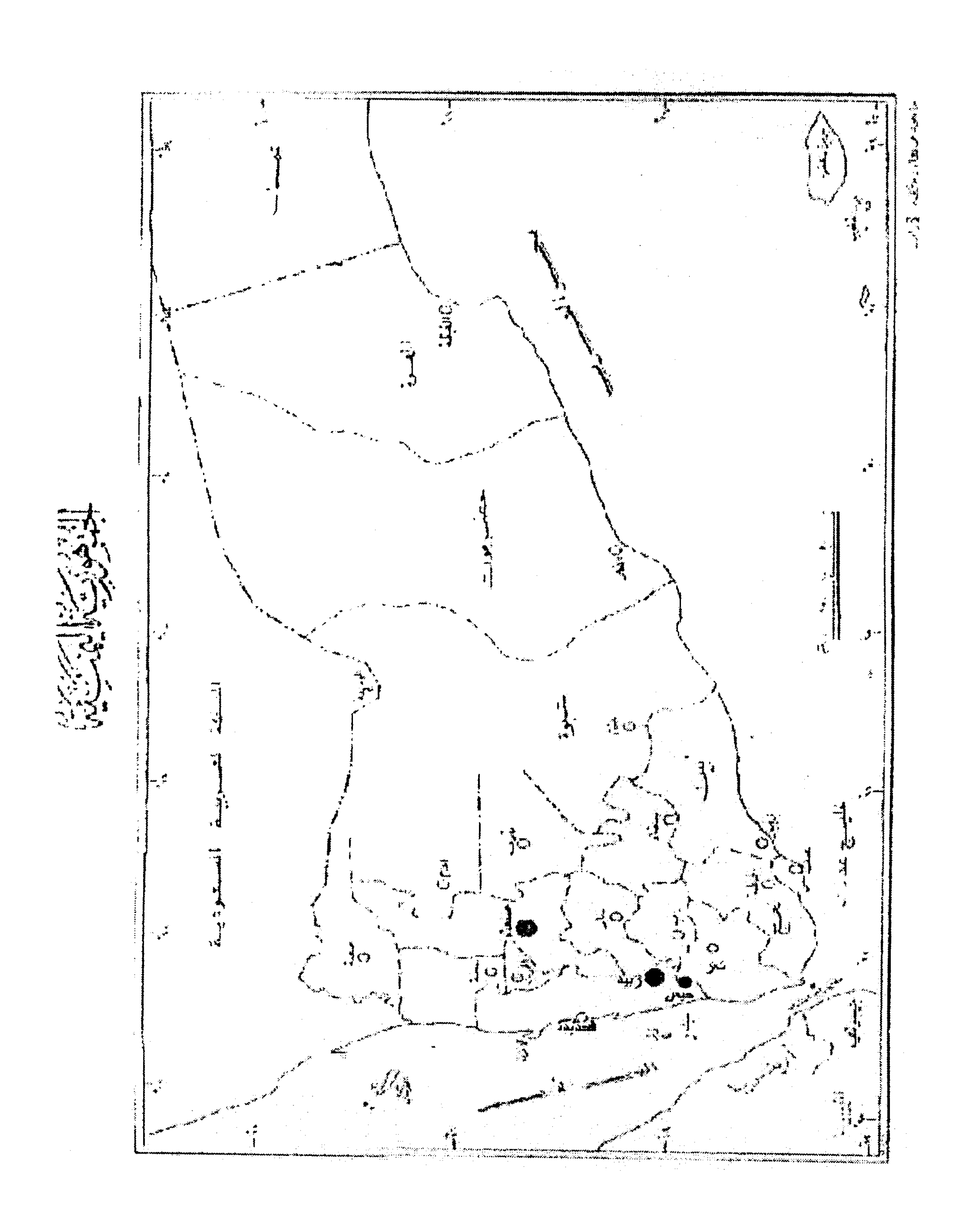


تفصيل لإحدى بوابات بغداد من الشكل السابق

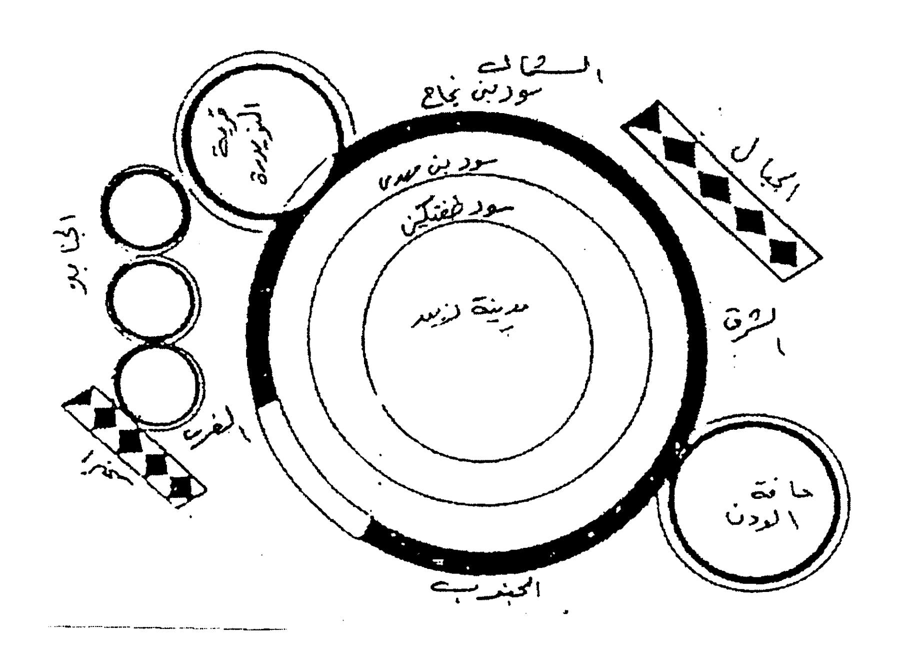


شكل (٢) بغداد، المسقط الأفقي لقصر الذهب وجامع المنصور الملحق به

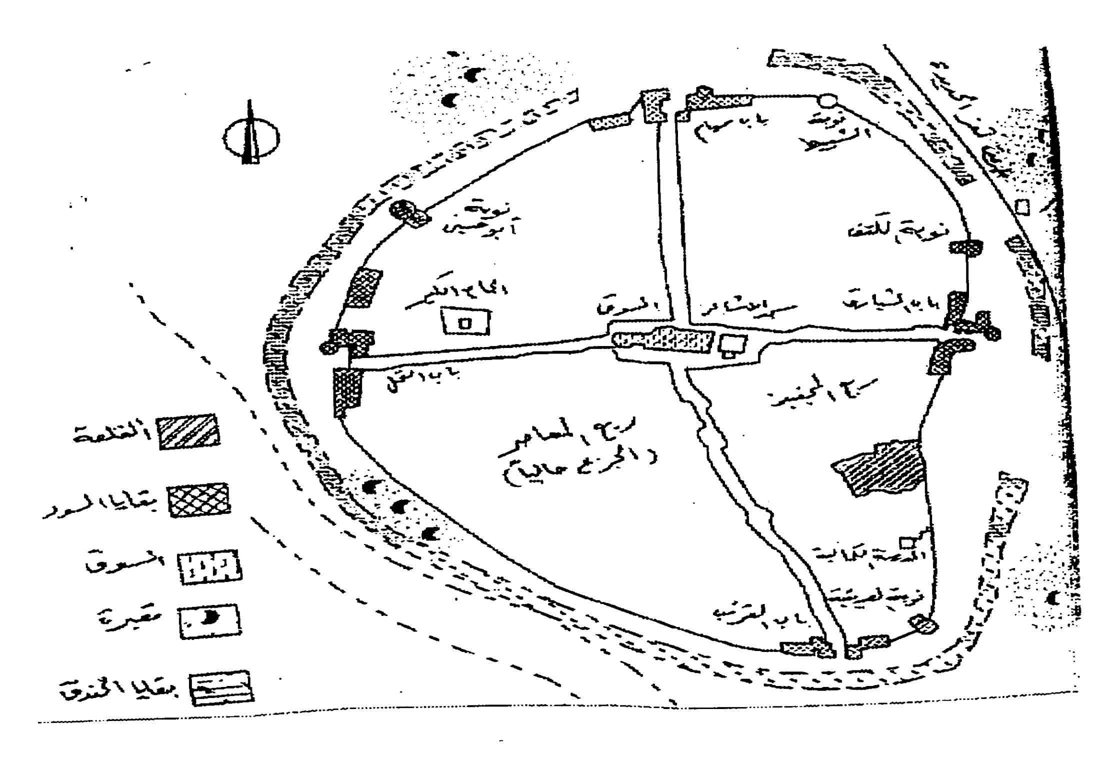
(عن غازي رجب، العمارة العربية، شكل ٤٣)



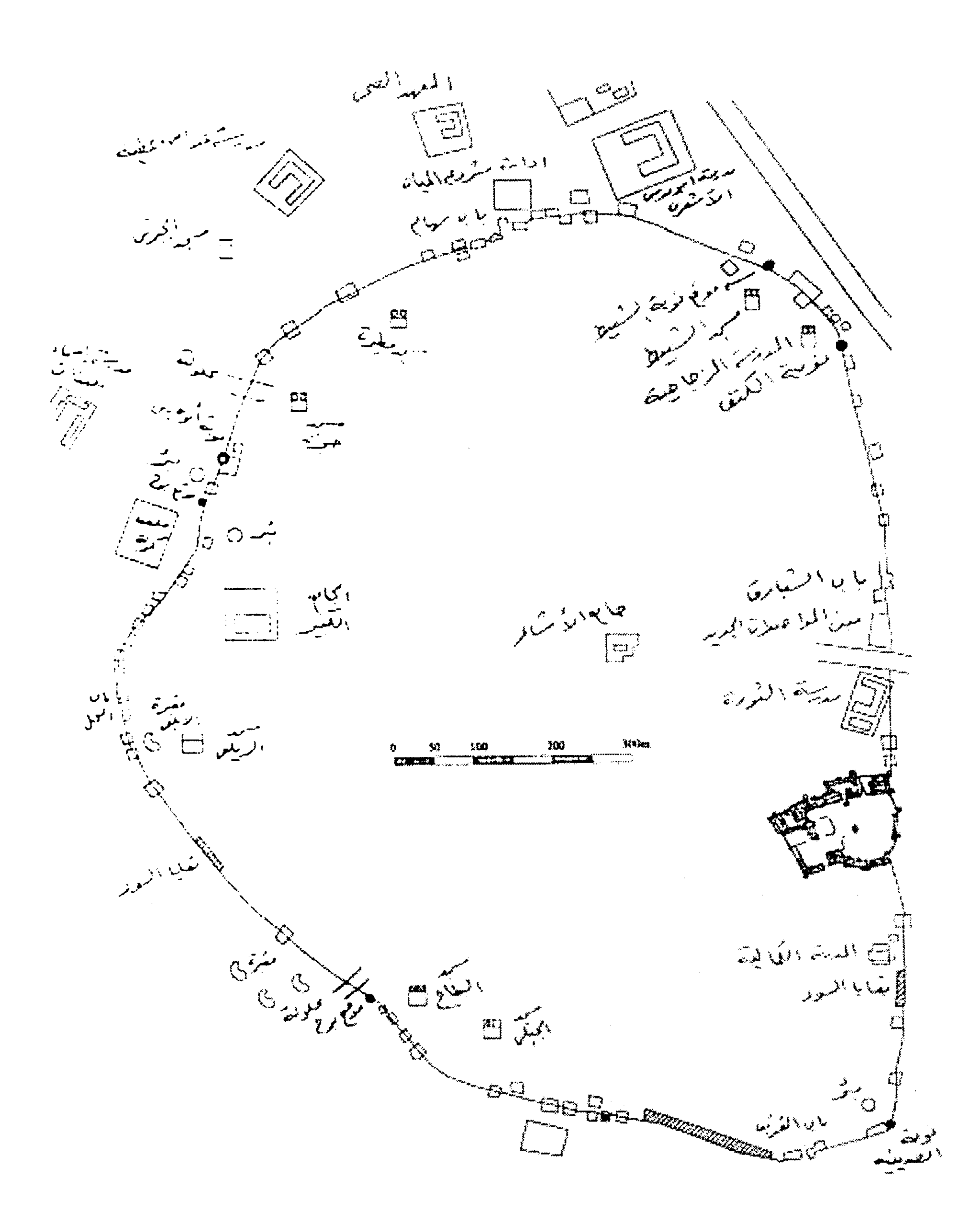
شكل (٣) خريطة اليمن موضحًا عليها موقع زبيد



شكل (٤) زبيد، تخطيط زبيد وأسوارها كما رسمها ابن المجاور (عن ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص٩٣)



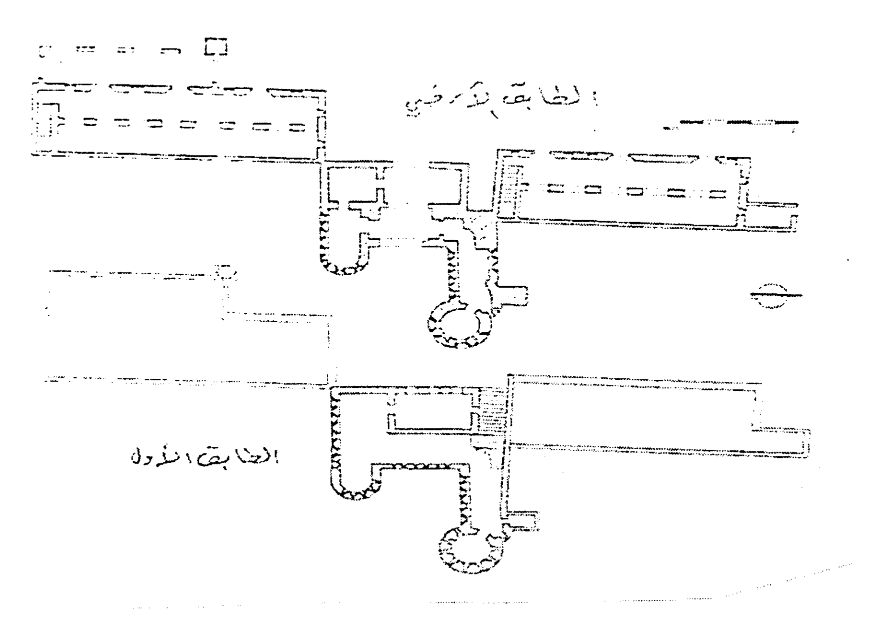
شكل (٥) زبيد، تقسيم المدينة إلى أربعة أقسام



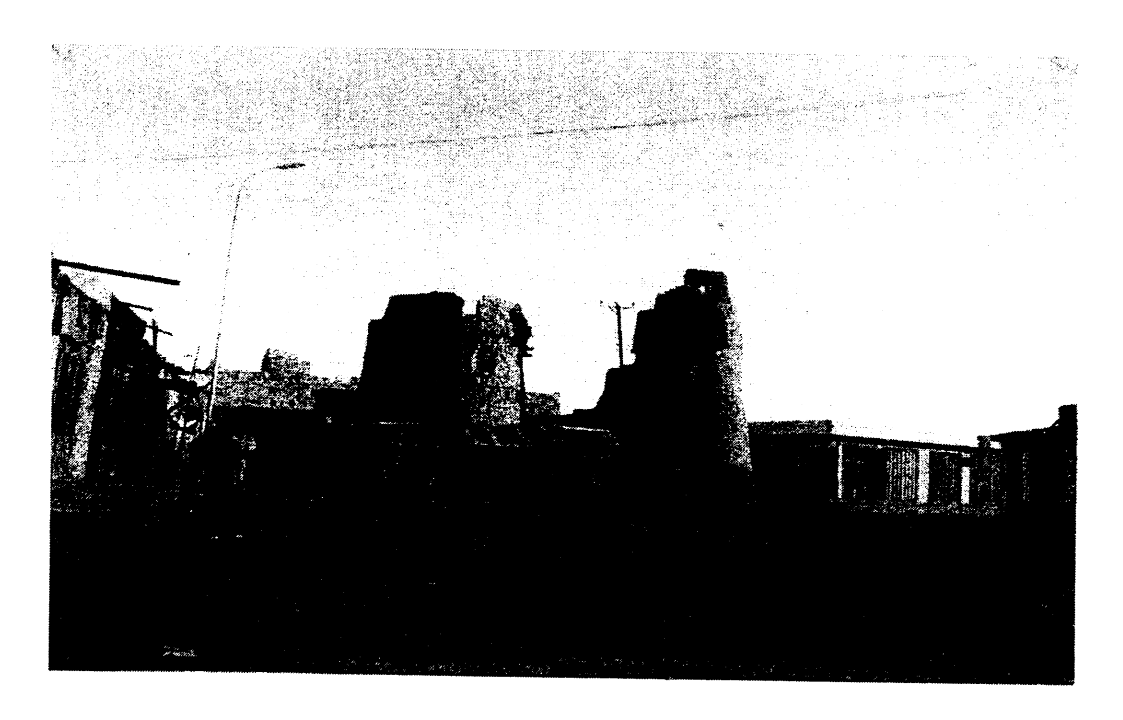
شكل (٦) زبيد، مخطط السور الباقي من المدينة



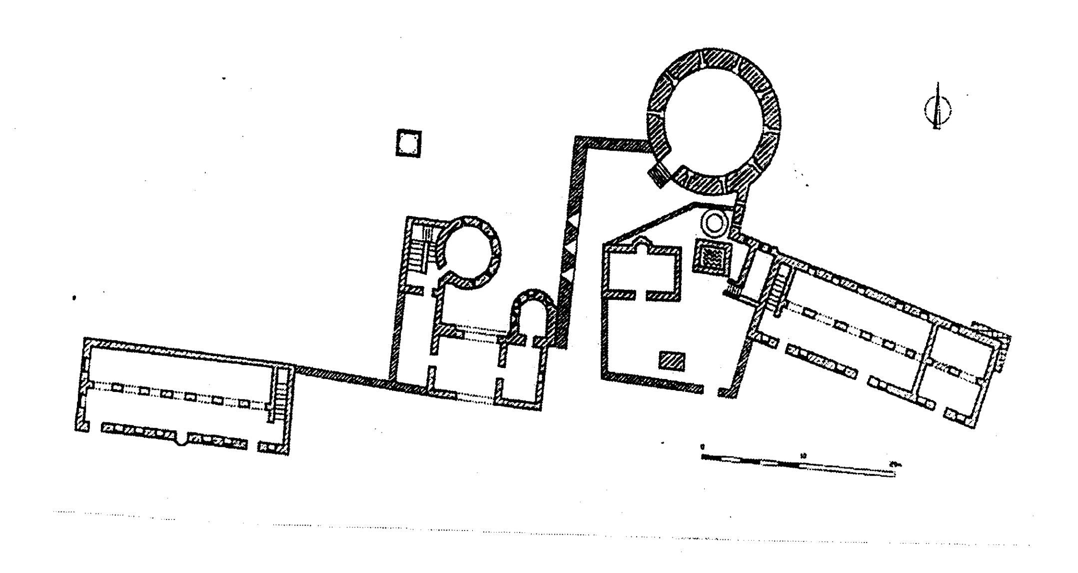
شكل (٧ أ) زبيد، منظر عام لباب الشبارق



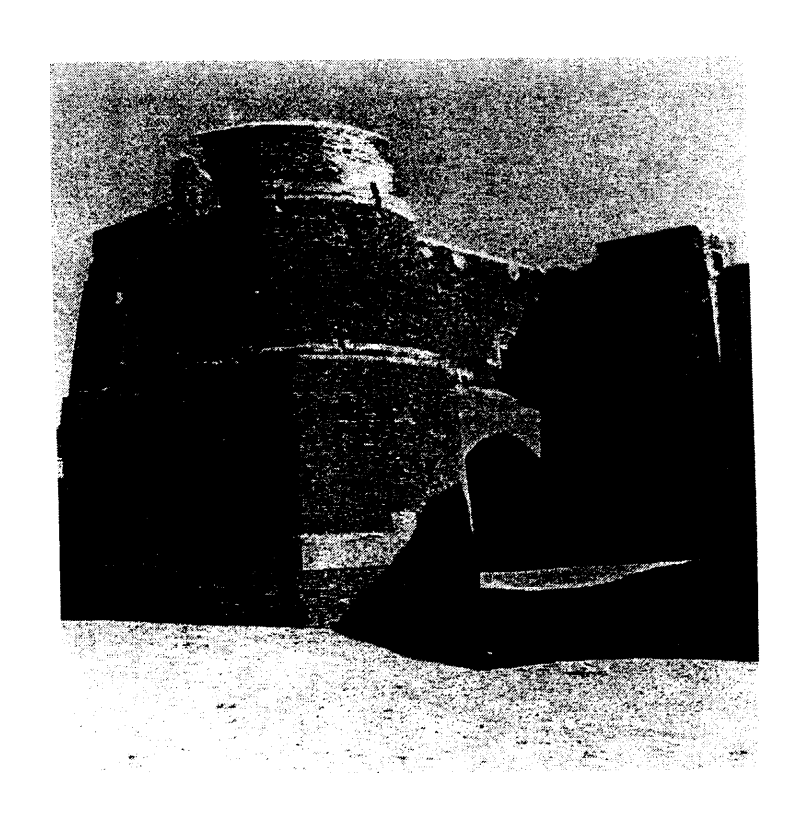
شكل (٧ ب) زبيد، المسقط الأفقي لباب الشبارق



شكل (٨) صعدة، باب اليمن

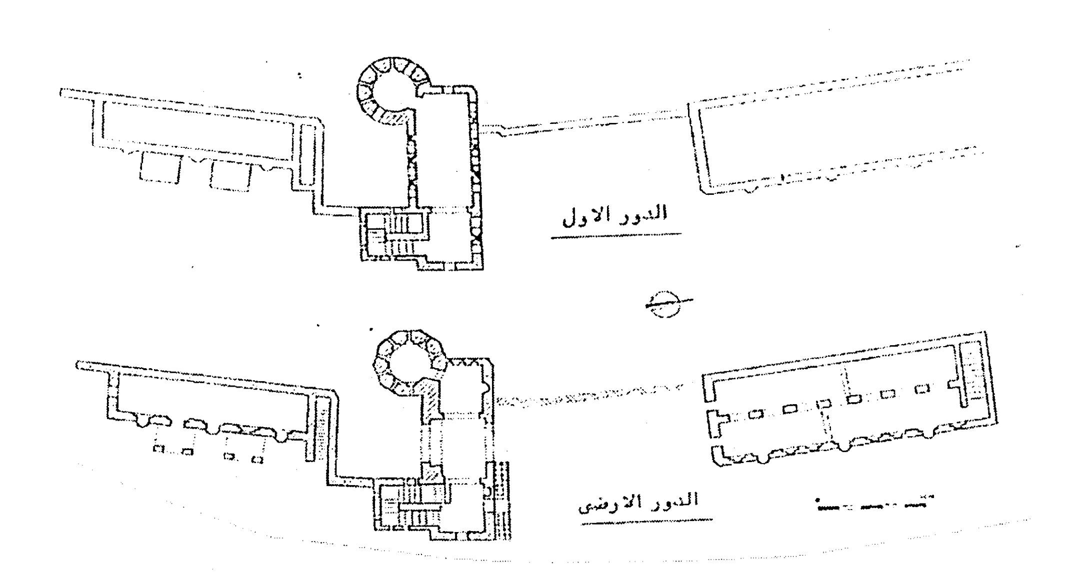


شكل (٩) زبيد، المسقط الأفقي لباب سهام

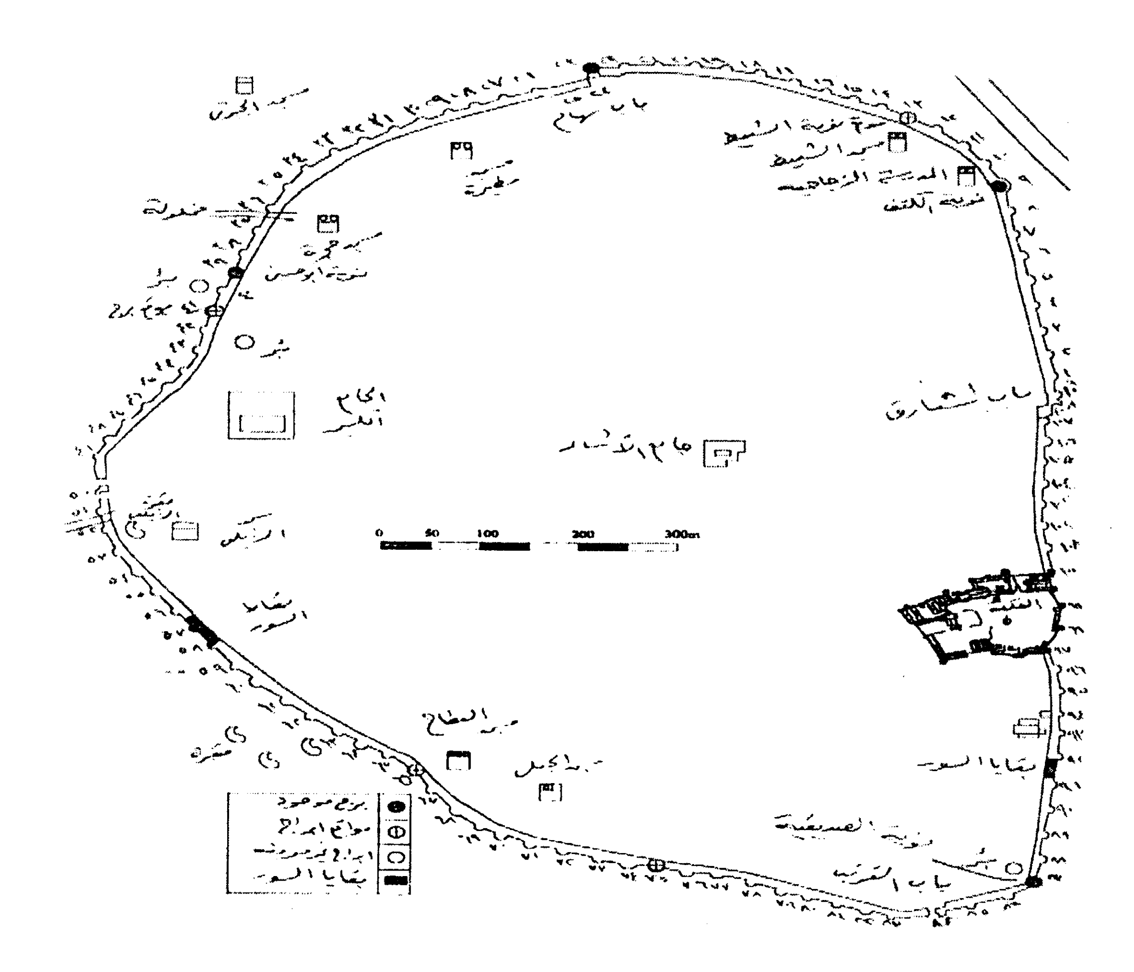


شكل (١٠ أ)

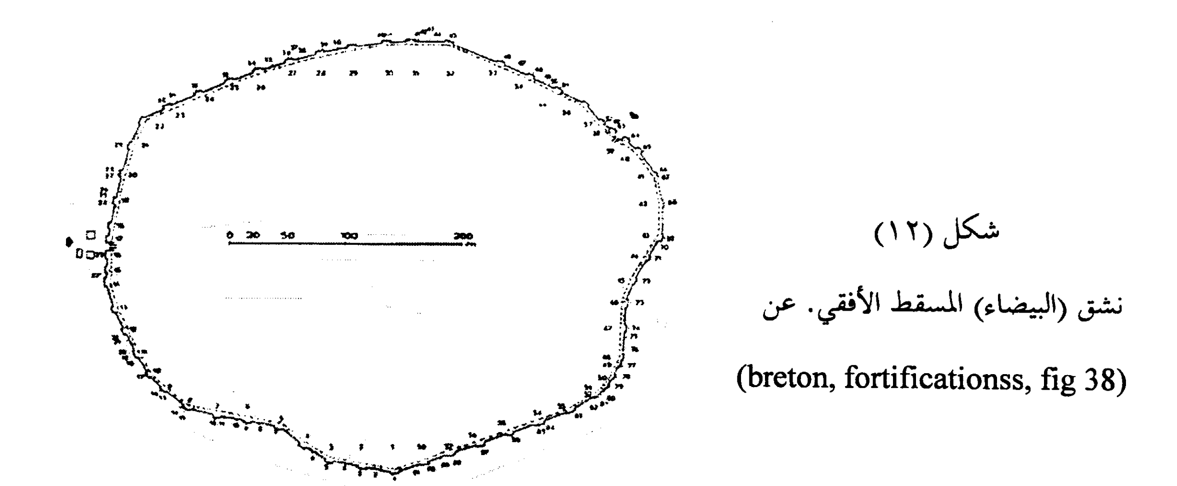
زبيد، منظر عام لباب النخل



شكل (١٠ ب) زبيد، المسقط الأفقي لباب النخل



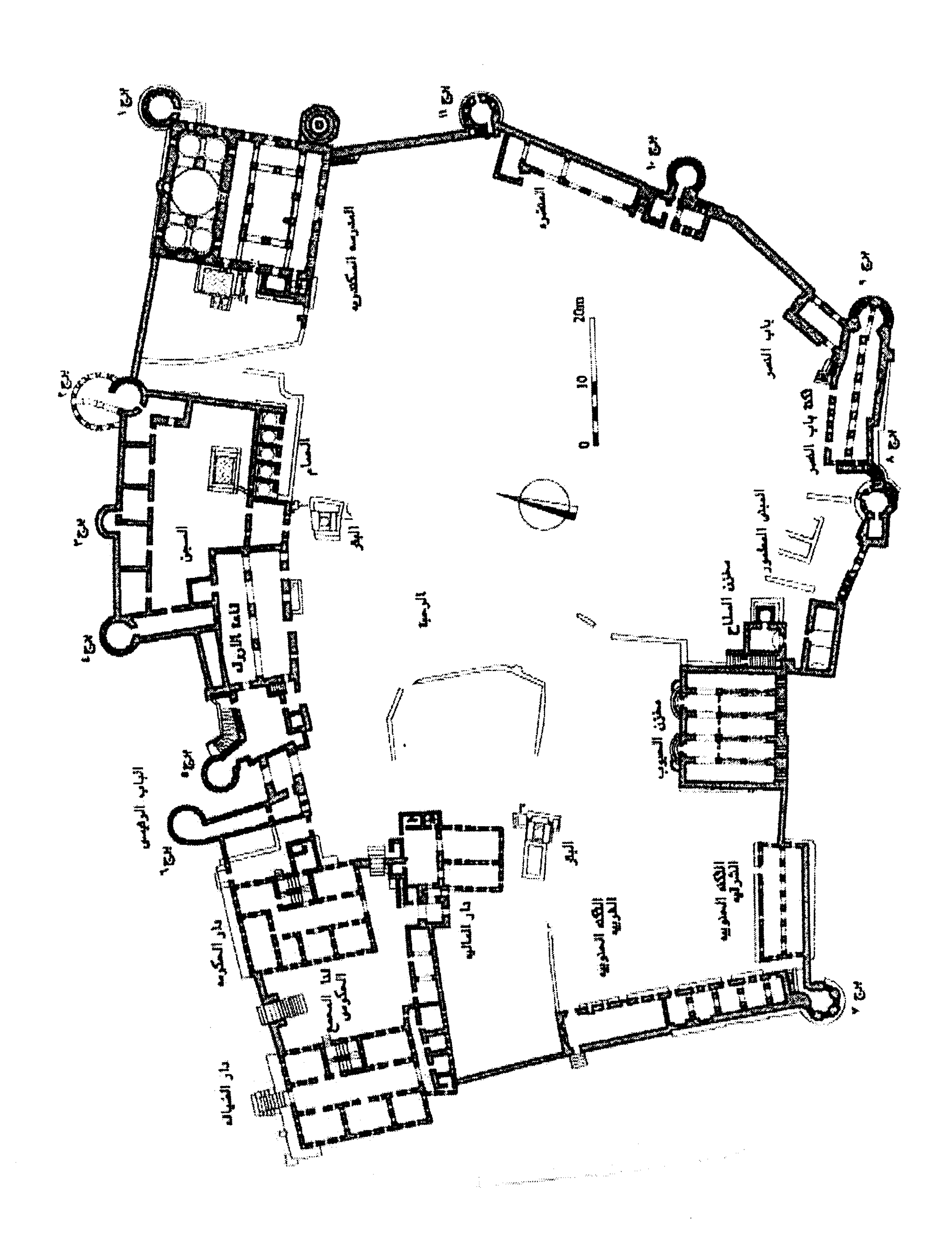
شكل (١١) زبيد، المخطط الافتراضي للسور وعدد أبراجه وبقاياه



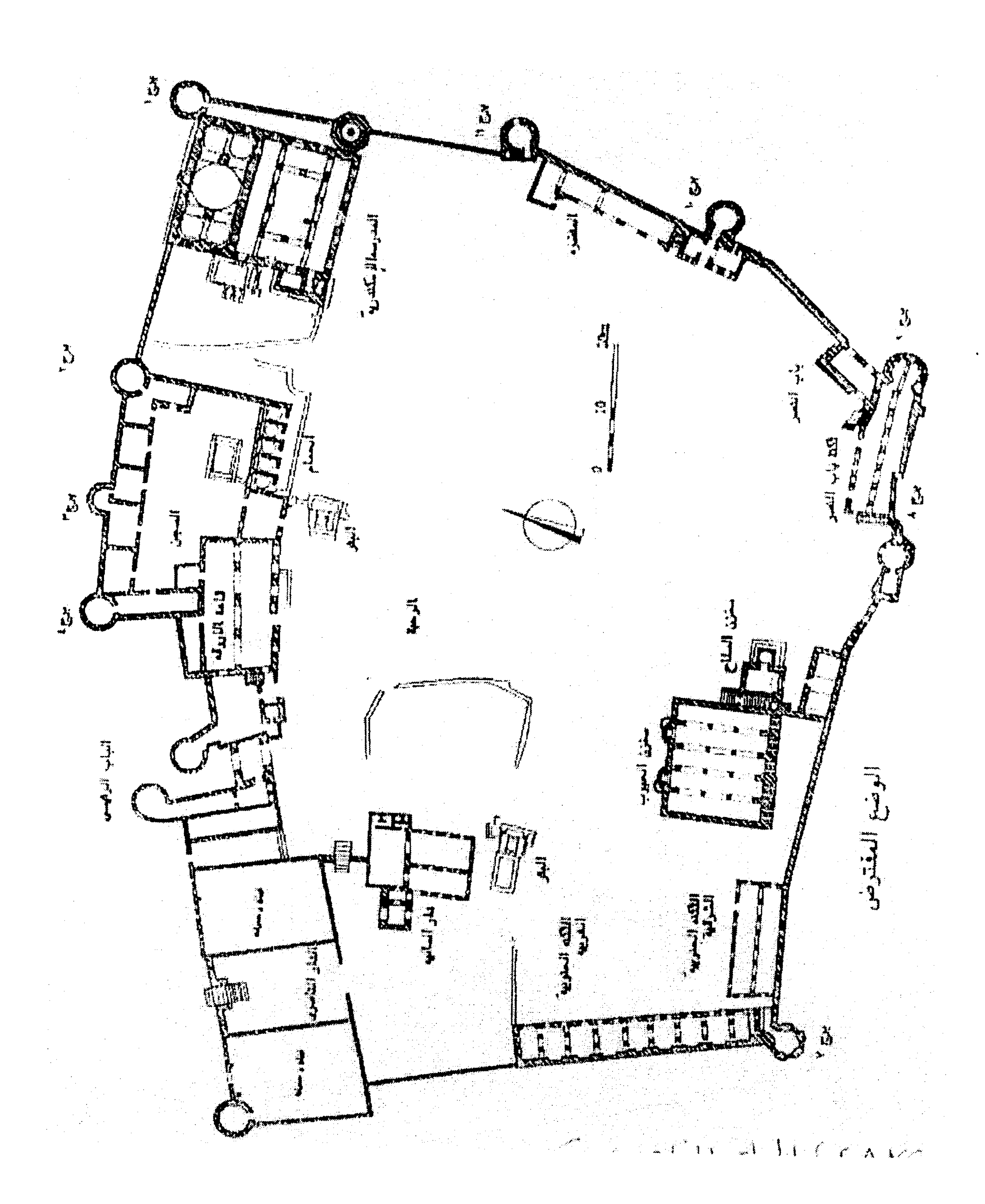
شكل (١٢)

نشق (البيضاء) المسقط الأفقي. عن

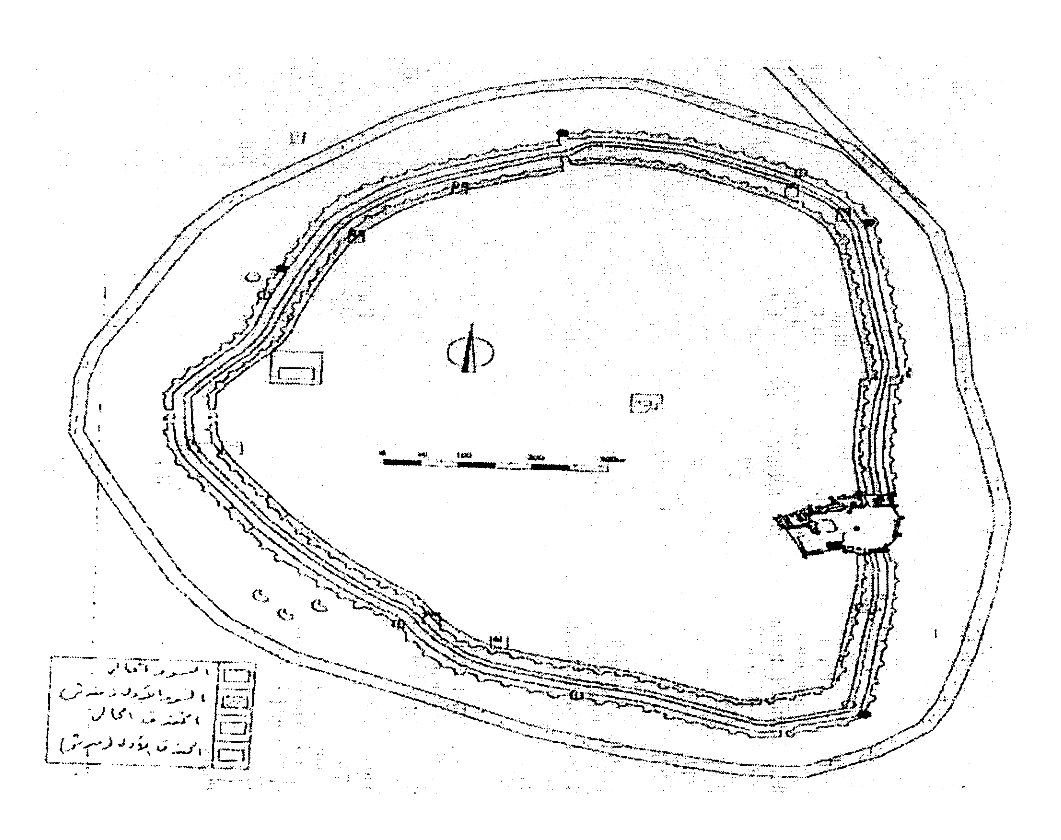
(breton, fortificationss, fig 38)



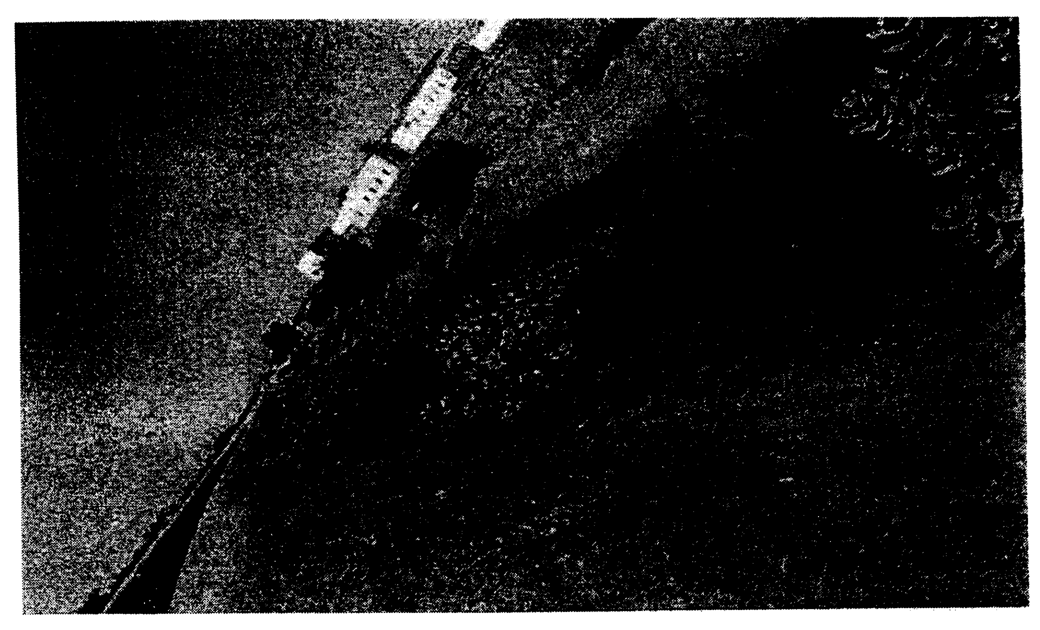
شكل (١٣ أ) زبيد، القلعة، المسقط الأفقي الحالي



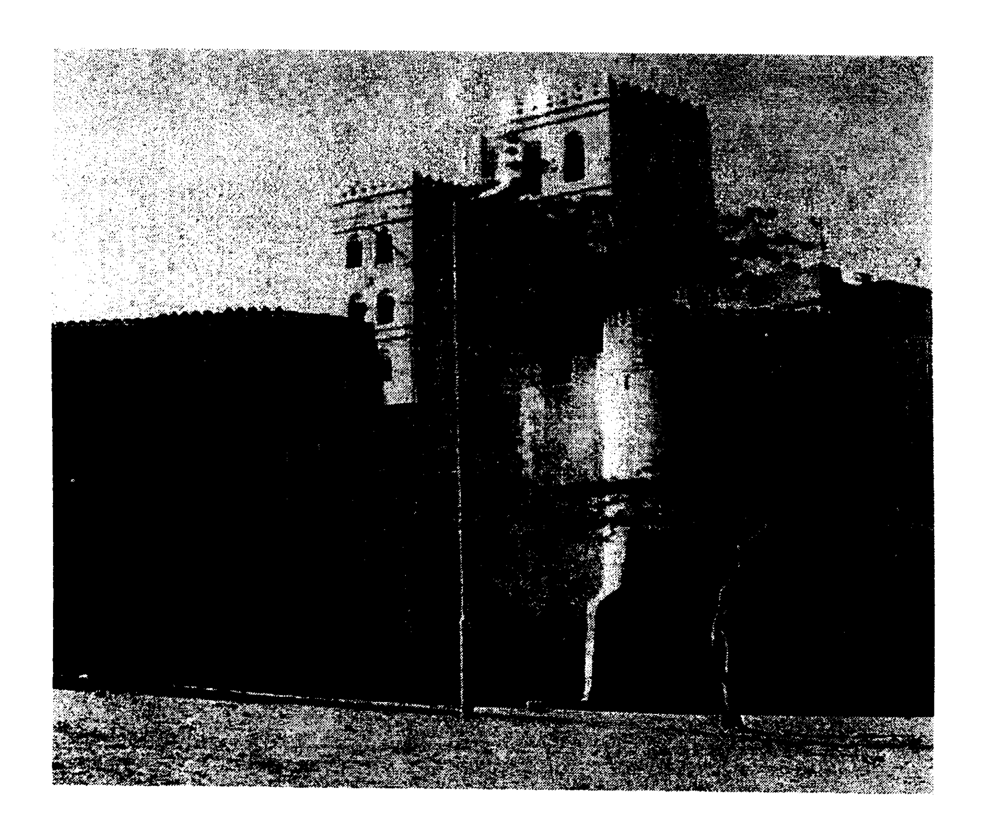
شكل (١٣ ب) زبيد، القلعة، المخطط الافتراضي



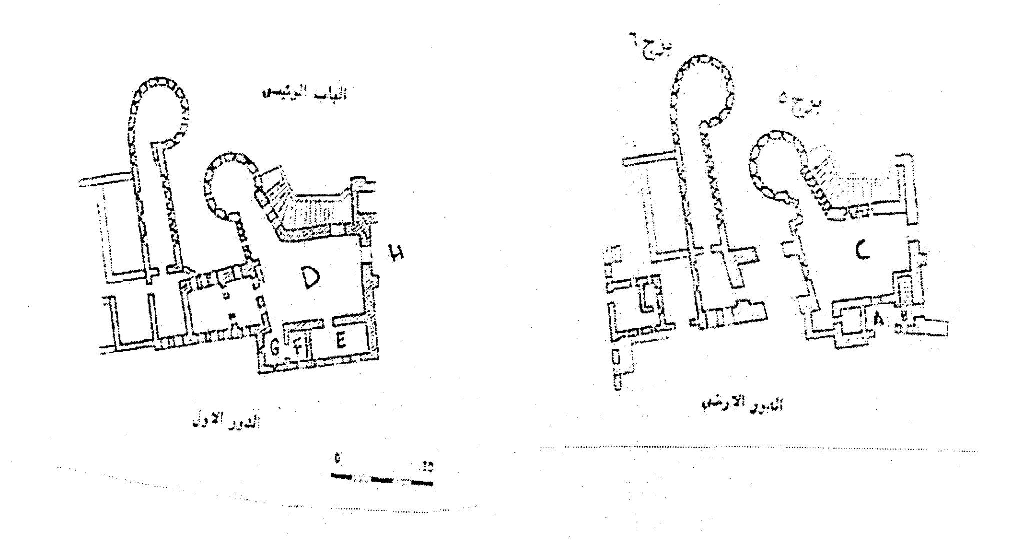
شكل (١٤) زبيد، مخطط افتراضي لأسوار زبيد وخنادقها



شكل (١٥) زبيد، منظر عام لجزء من الخندق المتبقي



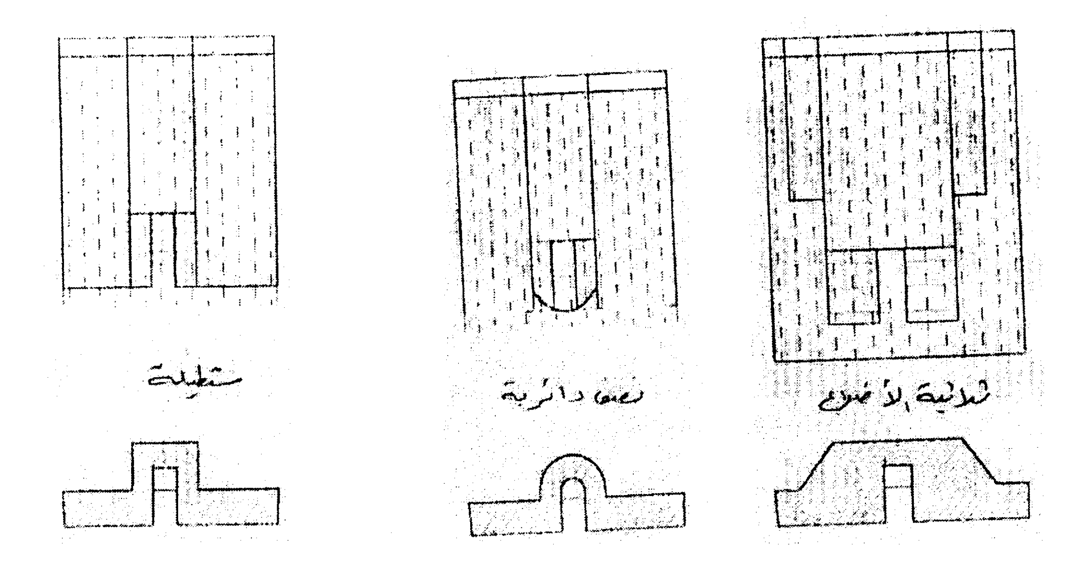
شكل (١٦ أ) زبيد، القلعة، منظر عام للمدخل الرئيسي الموروب



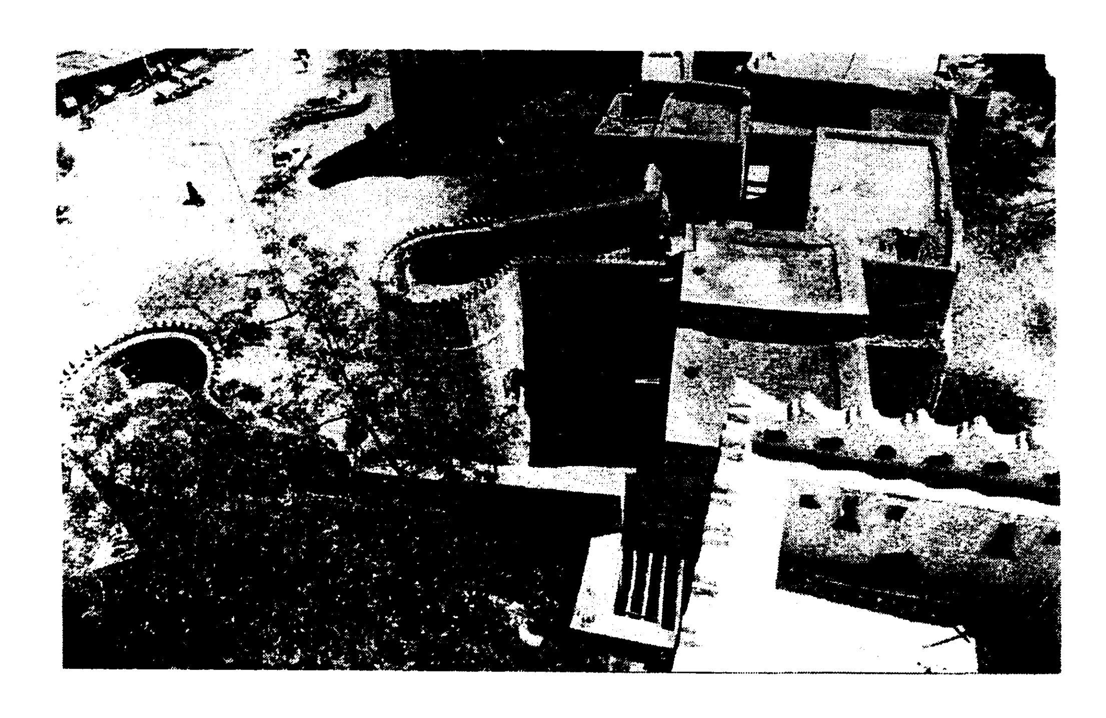
شكل (١٦ ب) زبيد، المسقط الأفقي لمدخل القلعة الرئيسي الموروب بطابقيه



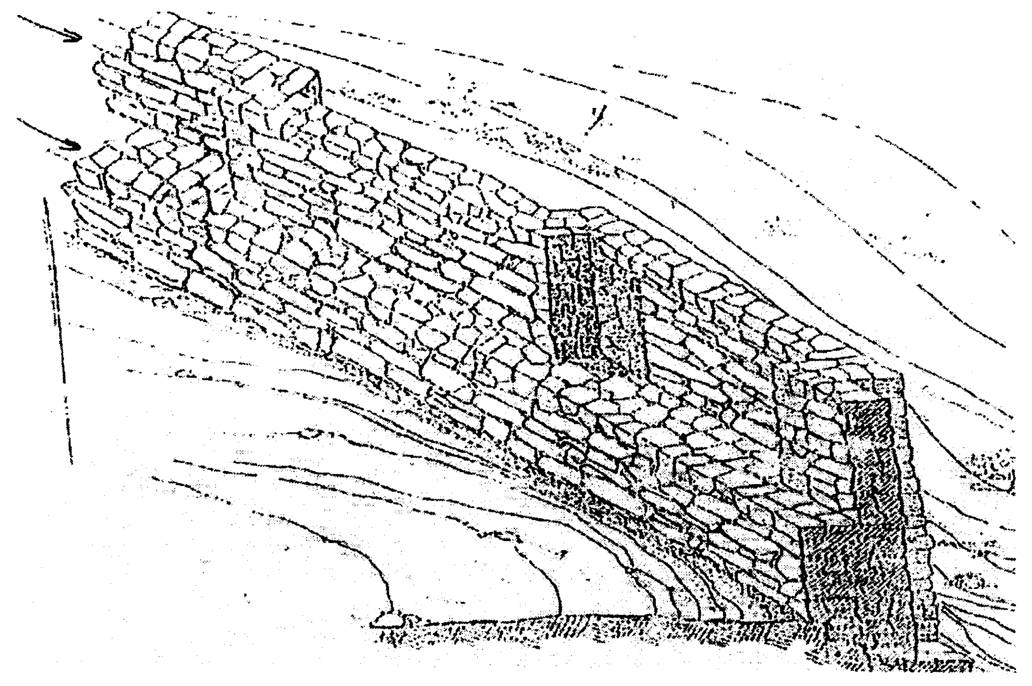
شكل (١٧ أ) زبيد، نموذج للسقاطات البارزة فوق الأبواب



شكل (١٧ ب) زبيد، رسم لأنواع السقاطات البارزة الموجودة في أسوار زبيد وقلعتها



شكل (١٨ أ) زبيد، المدخل الرئيسي للقلعة من أعلى ويشاهد في أعلى برجي المدخل الممشى والجدار الساتر



شكل (١٨ ب) مدينة الدريب، الجدار الساتر والممشى (عن فهمي الأغبري، التحصينات، شكل ٢٧)

التعليقات

(١) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي (د)، *الحواضر الإسلامية الكبرى*، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م، ١١٤.

(٢) حسن الباشا (د)، *موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية*، ٥ مجلدات (الناشر: أوراق شرقية القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م)، ١: ٢٢٣.

(٣) حسن الباشا، *الموسوعة*، : ٢٢٤؛ أحمد عبد الرازق أحمد (د)، *العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي* (دار القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م)، ٩.

(٤) الفقي، *الحواضر*، ١١٥.

(٥) محمد عبد الستار عثمان (د)، *المدينة الإسلامية* (دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٩٦.

(٦) حسني محمد نويصر (د)، *الآثار الإسلامية* (مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٦م)، ١٣٨.

(٧) حسني نويصر، *الآثار*، ١٣٥، ١٣٦.

(٨) غازي رجب محمد (د)، *العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق* (جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٩م)، ٨٧-١٠٠.

(٩) حسن الباشا، *الموسوعة*، ١: ٢٢٤.

(١٠) محمد عبد الستار، *المدينة الإسلامية*، ١٦٥.

(١١) عبدالقادر الريحاوي (د)، *قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني* (وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠م)، ١: ١٥٩.

(١٢) حسن الباشا، *الموسوعة*، ١: ٢٢٤.

(١٣) حسني نويصر، *الآثار*، ١٣٥.

(١٤) كريزويل، ك: *الآثار الإسلامية الأولى*، ترجمة: عبد الهادي عبلة، (دار قتيبة دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤م)، ٢٣٠- ٢٣٢.

(١٥) غازي رجب، *العمارة العربية*، ٨٧.

(١٦) حسن الباشا، *الموسوعة*، ١: ٢٢٤.

(١٧) غازي رجب، *العمارة العربية*، ١٠٠- ١٠٢.

(١٨) الفيروزابادي، *القاموس المحيط*، مادة خندق، ٧٩٣.

(١٩) عبدالرحمن زكي، *الحرب عند العرب*، *سلسلة كتابك* رقم ٨٨ (القاهرة: دار المعارف ١٩٧٧م)، ٣١؛ غازي رجب، *العمارة العربية*، ٨٨.

(٢٠) عبدالرحمن زكي (د)، "العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين"، *المجلة التاريخية المصرية*، مجل٧، ١٩٨٥م، ١٠٧؛ منيرة الرمادي (د)، "تاريخ المدن العربية الإسلامية"، الأولى، بحث نشر في *كتاب الفن العربي الإسلامي*، ٣ أجزاء (تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٥م)، ٢: ١٥.

(٢١) فريد محمود شافعي(دكتور)، *العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة* (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠م)، ٥١٨.

(٢٢) حسني نويصر، *الآثار*، ١٣٦.

(٢٣) غازي رجب، *العمارة العربية*، ٨٨.

(٢٤) يذكر المقدسي أن المسافة بين زبيد وصنعاء اثنان وأربعون فرسخاً في حين جعلها ابن بطوطة أربعون فرسخاً.(انظر) المقدسي، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن احمد (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م)، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، طبعة ليدن، مطبعة بريل، ط٢، ٦٩؛ ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، *رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* (دار الكتاب اللبناني، بدون تاريخ)، ١٦٥.

(٢٥) ابن بطوطة، *الرحلة*، ١٦٥.

(٢٦) ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي، *صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة تاريخ المستبصر*، تحقيق ممدوح حسن محمد (القاهرة: دار الثقافة الدينية، ١٩٩٦م)، ٧٨-٨٠ ؛ ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)، *بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد*، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م، ٣٤، ٣٥؛ عبدالرحمن عبدالله الحضرمي، "مدينة زبيد في التاريخ"، *مجلة الإكليل*، وزارة الإعلام والثقافة صنعاء، العدد الأول، السنة الأولى، ١٩٨٠م، ٩٧.

(٢٧) الكبسي، محمد بن إسماعيل، *اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية*، مطبعة السعادة، القاهرة، ٩.

(٢٨) عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن علي الحكمي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)، *تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، ٢٧، ٤٨؛ الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، *العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك*، مخطوط مصور، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ٩٦؛ بامخرمة، أبو عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد، *تاريخ ثغر عدن*، تحقيق أوسكر لوففرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٦-١٩٥٠م)، ٢١٥، ٢١٦.

(٢٩) عمارة اليمني، *تاريخ اليمن*، ٤٢، ٤٥، ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٨٢، الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ٣١، ٩٧؛ الوصابي، وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن محمد الحبيشي، *تاريخ وصاب الاعتبار في التواريخ والآثار*، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م)، ٢١، ٢٢؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٥، ٣٩؛ الحضرمي، "مدينة زبيد"، ١١٣.

(٣٠) ابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م)، *سلوك المالك في تدبير الممالك*، تحقيق حامد عبدالله ربيع (د)، دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٤٢٢؛ محمد عبدالستار، *المدينة الإسلامية*، ٣٠، ١١٣؛ خالد محمد عزب، "تخطيط وعمارة المدن الإسلامية"، *كتاب الأمة* (قطر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية العدد ٥٨، السنة ١٧، الطبعة الأولى ربيع الأول ١٤١٨هـ/ أغسطس ١٩٩٧م)، ٧٤.

(٣١) ابن أبي الربيع، *سلوك المالك*، ٤٢٠؛ ابن الأزرق، أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد (ت ٨٩٦هـ/١٤٩١م)، *بدائع السلك في طبائع الملك*، تحقيق: سامي النشار (د) (الجمهورية العراقية: منشورات وزارة الإعلام، سلسلة كتب التراث (٤٥)، ١٩٧٧م)، ٢: ٢٧٨، ٢٧٩؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، *مقدمة ابن خلدون*، دار ابن خلدون الإسكندرية، ٢٤٥، محمد عبدالستار، *المدينة الإسلامية*، ٢٩، ٩٧؛ خالد عزب، تخطيط، ٧٢، ٧٣.

(٣٢) ابن الديبع، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ٣٣٠؛ يوسف محمد عبدالله (د)، "المدينة اليمنية التاريخية، الموقع والتاريخ"، *مجلة اليمن الجديد؟* (صنعاء: وزارة الإعلام والثقافة، العدد الأول، السنة ١٦، يناير ١٩٨٧م)، ٢٤.

(٣٣) ابن أبي الربيع، *سلوك المالك*، ٤٢٠؛ ابن الأزرق، *بدائع السلك*، ٢: ٢٧٩؛ ابن خلدون، *المقدمة*، ٢٤٥؛ محمد عبدالستار، *المدينة الإسلامية*، ٣٠، ٩٧، ١١٥؛ خالد عزب، تخطيط، ٧٢، ٧٣.

(٣٤) ابن أبي الربيع، *سلوك المالك*، ٤٢٠، ابن الأزرق، *بدائع السلك*، ٢: ٢٧٨؛ ابن خلدون، *المقدمة*، ٢٤٥؛ محمد عبدالستار، *المدينة الإسلامية*، ٣٠، ٩٧، ١١٢؛ خالد عزب، *تخطيط*، ٧١- ٧٧.

(٣٥) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ٩٧؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٤.

(٣٦) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٦٩، ٨٤، ٨٥، ١١٣.

(٣٧) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٠.

(٣٨) المعاد: يعادل فدان مصري، أو عشرة آلاف ذراع مربع. (انظر) ابن الديبع، قرة العيون، ٢٣٢.

(٣٩) ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٦، ٣٧.

(٤٠) ابن أبي الربيع، *سلوك المالك*، ٤٢٣؛ محمد عبد الستار، *المدينة الإسلامية*، ٣٠، ١١٦؛ خالد عزب، *تخطيط*، ٧٩.

(٤١) ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)، *الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد*، تحقيق محمد عيسى صالحية (د)، السلسلة التراثية رقم٣ (الكويت: قسم التراث، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الطبعة الأولى ١٩٨٢م)، ١١٩، ٢١٣، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٢.

(٤٢) الخزرجي، علي بن الحسن، *العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية*، جزءان، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (بيروت: مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء، دار الآداب الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١: ١٤٨.

(٤٣) ابن أبي الربيع، *سلوك المالك*، ٤٢٢؛ محمد عبدالستار، *المدينة الإسلامية*، ٣٠، ١١٥؛ خالد عزب، *تخطيط*، ٧٤.

(٤٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٨٤.

(٤٥) يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٥هـ/١٦٩٤م)، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ١: ١٥١.

(٤٦) ابن أبي الربيع، *سلوك المالك*، ٤٠٥، ٤٢٠، ٤٢٣؛ ابن الأزرق، *بدائع السلك*، ٢: ٢٧٧؛ ابن خلدون، *المقدمة*، ٢٤٤، محمد عبدالستار، *المدينة الإسلامية*، ٣٠، ١٢١؛ خالد عزب، *تخطيط*، ٧٠- ٧٥.

(٤٧) عمارة اليمني، *تاريخ اليمن*، ٢١٠؛ الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٠١؛ ابن الديبع، *الفضل المزيد*، ٦٨، *بغية المستفيد*، ٣٥.

(٤٨) محمد عبد العال أحمد (د)، *الأيوبيون في اليمن مع مدخل في تاريخ اليمن الإسلامي إلى عصرهم* (الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م)، ٦٥.

(٤٩) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٤١؛ محمد عبد العال، *الأيوبيون*، ٨٥ .

(٥٠) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٠١؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٧٥؛ ابن عبدالمجيد، تاج الدين عبد الباقي، *تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن*، تحقيق: مصطفى حجازي (صنعاء: دار الكلمة الطبعة الثانية ١٩٨٥م)، ٧٨.

(٥١) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٠؛ الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٠٢؛ محمد عبده محمد السروري، "مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن، ٤٣٩- ٦٢٦هـ"، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، ٣٦٨.

(٥٢) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٠؛ ابن الديبع، *الفضل المزيد*، ١٣.

(٥٣) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٠٢، ١٠٣؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٦، ٣٧.

(٥٤) ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٤٨.

(٥٥)

Jean- Francois Breton, Les Fortifications D, Arabie meridionale du 7e au 1er siecle avant notre ere, deutsches archaologisches institut sanca, archaologische berichte aus dem yemen, bandviii, 1994, verlag philipp von zabern . mainz am rhein,. p.62-65,73,74.

(٥٦) كريــزويل، *الآثار الإسلامية*، ٢٥٩، ٢٦٠؛ حسني محمد نويصر (د)، *الآثار الإسلامية* (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق ١٩٩٦م)، ١٤٨، ١٥٥.

(٥٧) أحمد فكري (د)، *مساجد القاهرة ومدارسها*، ج١، العصر الفاطمي، (مصر: دار المعارف ١٩٦٥م)، ٢٧؛ حسني نويصر، *الآثار الإسلامية*، ١٧١.

(٥٨) كريــزويل .ك.أ، *وصف قلعة الجبل*، ترجمة: جمال محمد محرز (د) (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ٥٢-٥٨.

(٥٩) أسامة طلعت عبد النعيم، "أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٩٢م، ٩٦، ١٤٥.

(٦٠) ســعد محمد المومني، *القلاع الإسلامية في الأردن الفترة الأيوبية المملوكية، دراسة تاريخية أثرية إستراتيجية* (عمان: دار البشير، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م)، ٣٠٣-٣١٠.

(٦١) كريزويل، *وصف قلعة الجبل*، ٤٢، ٥٢، ٩١.

(٦٢) فريد شافعي (د)، *العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها* (جامعة الملك سعود الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ١١١؛ محمد عبد الستار، *المدينة الإسلامية*، ١٤٤.

(٦٣) كريزويل، *الآثار الإسلامية*، ٢٣١؛ فريد شافعي، *العمارة العربية الإسلامية*، ٧٨.

(٦٤) فريد شافعي، *العمارة العربية الإسلامية*، ٧٨، ١١١؛ أسامة طلعت، *أسوار صلاح الدين*، ٩٦، ٩٧، ١٤٥.

(٦٥) تغــير شكل باب اليمن بعد بنائه سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م واعتمدنا في المقارنة على خريطة رسمت لصنعاء سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م، أي قــبل تغيير بناء الباب (أنظر) السيد محمود البنا، "دراسة ترميم وصيانة صنعاء القديمة في العصر العثماني"، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م، ١٤٠.

(٦٦) عــبدالرحمن حســن جــارالله، "عمائر مدينة ثلا الدينية باليمن خلال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العثماني دراسة أثرية حضارية"، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٤م، شكل٨.

(٦٧) سعد المومني، *القلاع الإسلامية*، ٤٧٩.

(٦٨) لا يمكنــنا معــرفة المسافة على الطبيعة نظراً لتهدم معظم أجزاء السور والتي حلت محلها منازل ومنشآت تجارية وغيرها، ولكن أمكنــنا معرفة ذلك من خلال بقايا السور ومن خلال الخريطة الجوية للمدينة، وما أوردته المصادر، وما ذكره الأهالي عن موقع الســور حيــث تم وضع علامات على الخريطة تدل على موقع السور وبالتالي قياس المسافة بين البابين، وقد سبق أن نوهنا إلى ذلــك، وللتذكير بها: المسافة بين البابين ÷ متوسط طول الأبراج والمساحات بينها= عدد الأبراج : ٧٩٠ ÷ ٣٥ = ٢٢،٥٧ = ٢٣ برج.

(٦٩) ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٦.

(٧٠) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٨٩، الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٠١، ١٠٢.

(٧١) عمارة اليمني، *تاريخ اليمن*، ٧٧، ١٢١.

(٧٢) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٨٤.

(٧٣) أحمد قائد الصايدي (د)، *المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن* (دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٠م)، ٢٢٣.

(٧٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٤؛ ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٧٤، ٧٥.

(٧٥) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٠١، ١٠٢؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٤٨.

(٧٦) اندثرت جميع أبواب صنعاء و لم يبق منها سوى باب اليمن وهو أيضاً مجدد، وقد اعتمدنا على مقارنة أبواب زبيد بأبواب صنعاء على خارطة رسمت سنة ١٢٩١هـ وفيها يظهر شكل الأبواب بوضوح، (أنظر) سيد البنا، دراسة ترميم، شكل٣٣.

(٧٧) أحمد الصايدي، *المادة التاريخية*، ٢٢٣.

(٧٨) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٧٤، ٧٥؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٦.

(٧٩) منهم: المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٨٤؛ ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٠؛ الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٦٧؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٥؛ ابن عبدالمجيد، *بهجة الزمن*، ٧٨.

(٨٠) محمد عبد الستار، *المدينة الإسلامية*، ١٤٠.

(٨١) صالح لمعي مصطفى (د)، "النمو العمراني وخصائصه في المدينة المنورة"، بحث في كتاب *المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المدينة المنورة* ٢٤- ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ/ ٢-٥/٣/١٩٨١م، تحرير إسماعيل سراج الدين وسمير الصادق، منظمة المدن العربية، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع في واشنطن، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ١٤٤.

(٨٢) فهمي علي الأغبري، "التحصينات الدفاعية في اليمن القديم"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٤م، ٢٢، ٧٠.

(٨٣) البُرجُ بالضم الركن والحصن، وبرج الحصن ركنه وجمعه بروج وأبراج، وربما سمي الحصن به، والبرج كل ظاهر مرتفع ومنه بروج سور المدينة،وسميت البروج بروجاً لظهورها وبيانها وارتفاعها، وبروج سور المدينة والحصن عبارة عن بيوت تبنى على السور يتجمع فيها الجنود للدفاع عن السور، ويعرف البرج في كثير من المناطق اليمنية ومنها زبيد باسم "النوبة"، ويبدو أنها مشتقة من كلمة ناب عنه ينوب مناباً أي قام مقامه، وهي من التناوب على شئ، ونظراً لتناوب الجند في حراسة البرج فقد سمي نوبة. (أنظر) الفيروزابادي، *القاموس المحيط*، مادة برج، ١٦٥؛ مادة نوب، ١٢٩؛ الرازي، *مختار الصحاح*، مادة برج، ٤٦؛ مادة نوب ٦٨٤؛ محمد محمد أمين (د)، ليلى علي إبراهيم، *المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م* (القاهرة: دار النشر بالجامعة الأمريكية، د.ت)، ٢١؛ أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ١٩٩.

(٨٤) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٠.

(٨٥) تم قياس المساحات التي تقتطعها الأبراج المتبقية - ١١ برج + المئذنة - من السور فكانت" ٥م، ٥م، ٧م، ١١،٥م، ٨,٥م، ٥،٥م، ١٣م، ٩م، ٥م، ٥،٥م، ٣،٥م، ٥،٥م "بمجموع قدره" ٨٤م، ثم قسم الناتج على عدد الأبراج فأعطانا متوسط قدره "٧م".

(٨٦) كريزويل، *الآثار الاسلامية*، ٢٣٠- ٢٣٢- ٢٣٣.

(٨٧) طاهــر مظفــر العمــيد (د)، "علاقة العمارة العربية قبل الإسلام بالعمارة الإسلامية"، بحث ألقي في حلقة دراسية أقامها مركز الإحــياء العلمي العربي في ٢٥/٢/١٩٩٠م، ونشر في كتاب *العمارة العربية قبل الإسلام وأثرها في العمارة بعد الإسلام*، جامعة بغداد، ١٩٩٠م، ٥٨.

(٨٨) Breton, Les Fortifications, p.p84-86,95-98, 109-113, 125-126/ فهمــي الأغبري، التحصينات، ١٦، ٦٢، ٧٦، ١١٤، ١١٦.

(٨٩) أحمد فكري (د)، *مساجد القاهرة ومدارسها*، ثلاثة أجزاء، المدخل، دار المعارف مصر، ٢٦.

(٩٠) طاهر العميد، *علاقة العمارة*، ٥٦، ٦٠.

(٩١) ابــن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والــترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م، ج١، ٦٥؛ عبدالرحمن عبد الواحد الشجاع، *اليمن في صدر الإسلام* (دمشق: دار الفكر، الطــبعة الأولى ١٤٠٨هـــ/ ١٩٨٧م)، ٣٢٥؛ خالد عزب، *الفسطاط النشأة، الازدهار، الانحسار* (القاهرة: دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى ١٩٩٨م)، ٢٤.

(٩٢) عبدالرحمن الشجاع، *اليمن في صدر الإسلام*، ٣٢٥.

(٩٣) لوسيان قولفان(د)، *مساهمة شعوب وحضارات ما قبل الإسلام في الفن الإسلامي، الفن العربي الإسلامي*، ٣ مجلدات (تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٤م)، ١: ١٤١.

(٩٤) خالد عزب، *الفسطاط*، ٢٥.

(٩٥) دارة الملــك عــبدالعزيز، "العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية"، بحث في كتاب *المدينة العربية خصائصها وتــراثها الحضــاري الإسلامي*، المدينة المنورة ٢٤-٢٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـــ/ ٢٨/٢-٥/٣/١٩٨١م، تحرير: إسماعيل سراج الديــن وسمــير الصــادق، منظمة المدن العربية، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع في واشنطن، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م، ٤٠؛ منيرة الــرمادي، *تاريخ المدن*، ج٢، ١٦؛ هشام جعيط (د)، *الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية* (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م)، ١٢١.

(٩٦) السـيد عــبدالعزيز ســالم (د)، *تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة*، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨١م، ١٢٢؛ لوسيان قولفان، مساهمة، ١٤١.

(٩٧) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٤.

(٩٨) ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٥٢، ٥٣.

(٩٩) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١١٢، ١٧٥ .

(١٠٠) الخزرجي، *العقود اللؤلؤية*، ٢: ١٦٧، ٢٢٥ .

(١٠١) الخزرجي، *العقود اللؤلؤية*، ٢: ٢٤٦.

(١٠٢) ابن الديبع، *قرة العيون*، ٢: ١٢٥؛ *بغية المستفيد*، ١٠٥؛ عبدالرحمن الحضرمي، *مدينة زبيد*، ١٠٤.

(١٠٣) توفي ابن أبي الربيع سنة ٢٧٢هـــ/ ٨٤٢م وهو وإن كان توفي بعد تأسيس زبيد إلاّ أن ذلك لا يعني أن شروط بناء المدن لم تكن معــروفة قــبله بل ربما كانت موجودة ومتعارف عليها بين الناس ويعد ابن أبي الربيع أول من ذكرها وفصلها، (أنظر) ابن أبي

الربيع، *سلوك المالك*، ٤٢٣؛ خالد عزب، تخطيط، ٧٣.

(١٠٤) أندريه ريمون، *المدن العربية الكبرى في العصر العثماني*، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة، ٥١، ٥٢.

(١٠٥) أندريه ريمون، *المدن العربية*، ١٢٨.

(١٠٦) الخزرجي، *العقود اللؤلؤية*، ٢: ٦٤؛ ابن الديبع، بغية المستفيد، ٩٢.

(١٠٧) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٩٤.

(١٠٨) المقحفي، *معجم المدن*، ١٩٠ .

(١٠٩) ابـــن حـــاتم، بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد بن عمران (ت ق ٧هـــ/١٣م)، *السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن*، تحقيق ركس سميث، ١٩٧٣م ، ٢٤٧، ٢٤٩.

(١١٠) ابن حاتم، *السمط الغالي*، ٢٥٤.

(١١١) الخزرجي، *العقود اللؤلؤية*، ٢: ١٣٥، ١٧٠؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ١٠٠؛ *قرة العيون*، ٢: ١٠٤.

(١١٢) ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ١٦٢.

(١١٣) الخزرجي، *العقود اللؤلؤية*، ٢: ١٧٠؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ١٠٠.

(١١٤) عبد الرحمن زكي، *العمارة العسكرية*، ١١٧.

(١١٥) محمـــود إبراهـــيم حسين (د)، "حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة"، دراسة مقارنة، مستخرج من كتاب: *دراسات أثارية إسلامية* (هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٨م)، ١٦.

(١١٦) شـــوقي شعث (دكتور) ، *قلعة حلب وتاريخها ومعالمها الأثرية* (حلب: دار القلم العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـــ/١٩٩٦م)، ٩٩.

(١١٧) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٨٤؛ يحي بن الحسين ، *غاية الأماني*، ٢: ١٥١.

(١١٨) ابن المجاور، *صفة بلاد اليمن*، ٨٩؛ ابن الديبع، *بغية المستفيد*، ٣٦.

(١١٩) كريزويل، *الآثار الإسلامية*، ٢٢١، حسن الباشا(د)، "العمارة العباسية وانتشارها في الغرب الإسلامي" ١٣٢- ٣٣٤هــ/٧٥٠ – ٩٤٦م، بحث في كتاب: *الفن العربي الإسلامي*، ٣ أجزاء، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ٢: ٧٩.

(١٢٠) عـــبدالرحمن زكـــي (د)، "القلاع في الحروب الصليبية"، *المجلة التاريخية المصرية*، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد١٥، ١٩٦٩م، ٧٤، فـــريد شـــافعي، *العمـــارة في مصر*، ١٩١، ٢٧٢، السيد عبد العزيز سالم (د)، "وسائل الدفاع الإسلامي في الأندلـــس"، *مجلـــة الجيش*، عدد ٨٢، ١٩٥٧م، ٢٥؛ غازي رجب، *العمارة العربية*، ٨٨، أسامة طلعت، *أسوار صلاح الدين*، ٢١٩، سوســـن ســـليمان يحـــي (د)، *منشـــآت السيف والقلم في الجهاد الإسلامي، العمارة الأيوبية* (القاهرة: مكتبة الشباب ١٤١٤هــ/ ١٩٩٤م)، ٨٨.

(121)creswell, k.a.c, *the muslem architecture of egypt*, band i, ikhshids and fatimids a.d939-1711, oxford at the clarendon press mc mlii, 1951 vol1. p23-30.

(١٢٢) سعد المؤمني، *القلاع الإسلامية* ، ٣٦٥.

(١٢٣) breton, *les fortifications*, pp.55,60,62,77,138

(١٢٤) غازي رجب، *العمارة العربية*، ٩٣.

(١٢٥) creswell, *the muslem*, band i, p23-30

(١٢٦) عبدالرحمن زكي، *العمارة العسكرية*، ١١١؛ فريد شافعي، *العمارة في مصر*، ١٩١، ٢٧٢؛ *العمارة العربية الإسلامية*، ٧٨.

(١٢٧) عبدالرحمن زكي، *العمارة العسكرية*، ١١١.

(١٢٨) فريد شافعي، *العمارة في مصر*، ٤٣٥

(١٢٩) عبدالرحمن زكي، *القلاع في الحروب الصليبية*، ٦١.

(١٣٠) عبدالرحمن زكي، *العمارة العسكرية*، ١١٧.

(١٣١) سعد المؤمني، *القلاع*، ٣٦٥؛ سوسن سليمان، *منشآت السيف*، ٨٩؛ شوقي شعث، *قلعة حلب*، ١٠٧، ١٠٨.

(١٣٢) فريد شافعي، *العمارة في مصر*، ١٧١، ٢٧٢؛ *العمارة العربية الإسلامية*، ٨٥.

(١٣٣) أسامة طلعت، *أسوار صلاح الدين*، ٢١٩، ٢٢١.

(١٣٤) السيد عبدالعزيز سالم ، *المساجد والقصور في الأندلس* (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م)، ١٦٤.

(١٣٥) السيد عبدالعزيز سالم، *العمارة الحربية في الأندلس* (القاهرة: سلسلة دائرة معارف الشعب، عدد ٦٤، ١٩٥٩م)، ١٦١، ١٦٢.

(١٣٦) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ٤٥٧، *العقود اللؤلؤية*، ١: ١٧٤؛ ابن الديبع، *قرة العيون*، ١١١.

(١٣٧) يعرفها كل من الدكتور عبد الرحمن زكي، والدكتور زكي حسن: باسم مشربيات، وأنها تتكون من دعائم تتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المهاجمين، وكذلك الزيت والماء المغلي (أنظر) عبدالرحمن زكي، *العمارة العسكرية*، ١١٠؛ زكي محمد حسن (د)، *تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة* (سوريا: دار الكتاب العربي الطبعة الأولى ١٩٨٤م)، ١٣٨.

(١٣٨) أسامة طلعت، *أسوار صلاح الدين*، ٢٣٣.

Studies in the History of Arabia

Vol. V

Arabia from the rise of the Abbasid State to the end of the ٤th century A. H.

(part two)

Editorial Committee

Prof. Dr. Abdulaziz S. Al- Hilabi

Prof. Dr. Mohammed al- Jameel **Prof. Dr. Ahmad O. Al- Zaylai**

Dr. Moshalleh K. Al- Moraekhi **Dr. Khalid A. Al- Bakr**

ردمك: ٤-٩٢٦-٣٧-٩٩٦٠ (مجموعة)
٢-٩٣٠-٣٧-٩٩٦٠ (ج١)

مطابع جامعة الملك سعود ١٤٢٦هـ